بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على قائد الغر المحجلين ، نبينا محمد إمام الموحدين ، وقدوة السالكين ، وعلى آله وصحابته أجمعين ، وعلى من سار على نهجه إلى يوم الدين . أما بعد

فإني أحمد ربي (الذي جعل في كل زمانِ فترةٍ من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ، ويصبرون منهم على الأذى ، يحيون بكتاب الله تعالى الموتى ، ويبصرون بنور الله أهل العمى ، فكم من قتيل لأبليس قد أحيوه ، وكم من ضال تائه قد هدوه ، فما أحسن أثرهم على الناس ، وما أقبح أثر الناس عليهم ! ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين .)[١] ورثة الأنبياء وخلفاؤهم المهتدون ، القائمون في أممهم بما بعثوا به علماً وعملاً ودعوة للخلق إلى الله على طرقهم ومناهجهم الصدِّيْقِيَّة ، قرنهم الله في كتابه بالأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين ، فقال جل من قائل : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفقياً ﴾[٢] فجعل درجة الصديقية معطوفة على درجة النبوة ، فهؤلاء هم الربانيون الراسخون في العلم ، وهؤلاء هم ورثة الأنبياء الوسائط بين الرسول وأمته خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وحملة دينه وشرعه ، الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر ، المجاهدون في سبيل الله ، الذين لا يخشون في الله لومة لائم ، القائمون بحقوق الله وحقوق خلقه ، حتى يأتي أمر الله ، لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم .

وإن من هؤلاء العلماء الربانيين شيخ الإسلام ، وعلامة الزمان ، فريد دهره ووحيد عصره ، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني الدمشقي ، الذي قد نذر وقته

---

(١) هذه الخطبة مقتبسة من الخطبة التي افتتح بها الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ كتابه : " الرد على الزنادقة والجهمية " تحقيق الفقي ، وذكرها ابن وضاح في " البدع " مسندة إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ص ٣٢ (ح٣) وأشار شيخ الإسلام رحمه الله إلى ذلك بصيغة التمريض حيث قال : (ويروى نحو هذا عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ) درء تعارض العقل والنقل ١/١٩ ، وكذا عزاها ابن القيم لابن وضاح وقال : (هذه الخطبة تلقها الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب ، ووافقه فيها ...) الصواعق المرسلة ٣/٩٢٨ . وانظرها أيضاً في درء تعارض العقل والنقل ١/٢٢٣ ، وفي إعلام الموقعين ١/٩ واجتماع الجيوش الإسلامية ص٧٨ ، وطريق الهجرتين ٥٧٩-٥٨٠ .

(٢) سورة النساء ٦٩ .

ونفسه ، وحياته كلها لله جل وعلا يجاهد في سبيل الله بالقول والقلم ، والنفس والمال ، نذر حياته كلها لله ؛ علماً وتعلماً ، وتعليماً وجهاداً ونشراً للحق ، ودفاعاً عنه ، ودحضاً للباطل وبياناً لعواره وزيفه .

قال البزار : (اتفق كل ذي عقل سليم أنه ممن عَنَى نبينا ﷺ بقوله : ((إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها))[1] فلقد أحيا الله به ما كان قد درس من شرائع الدين ، وجعله حجة على أهل عصره أجمعين ، والحمد لله رب العالمين)[2] .

جاء ـ رحمه الله ـ في فترة من الزمان كثرت فيها البدع والخرافات والمناهج العوجاء ، حتى أصبح المؤمن الموحد فيها غريباً محارباً طريداً ، ولهذا لما قام ـ رحمه الله ـ بالحق والدفاع عنه ناصبه العداء كثير من الخلق ، وعلى الأخص بعض طلبة العلم والمحسوبين على العلماء من الفقهاء والقضاه ، حتى بلغ بهم الأمر إلى أن أوعزوا إلى الوجهاء من الأمراء ونحوهم التنكيل به ؛ بل سعى بعضهم في قتله، ولذا فقد عاش فترة من عمره مسجوناً حتى أتاه اليقين وهو في السجن ، ـ فعليه رحمة الله ورضوانه ـ .

وإن من فضل الله عليه وعلى الناس أن قيضه الله تعالى لبيان السنة وقمع البدعة ، وتوضيح التوحيد وتجليته ، وتعرية الباطل وكشف عواره ، وبيان زيغه وزيفه وبطلانه .

ولقد اعتنى ـ رحمه الله ـ بالتصنيف في أصول الدين أكثر من غيرها من العلوم معللاً ذلك بقوله : (الفروع أمرها قريب ، ومن قلد .. فيها أحد العلماء المقلَّدِين ، جاز له العمل بقوله ، ما لم يتيقن خطأه ، وأما الأصول : فإني رأيت أهل البدع والضلالات والأهواء كالمتفلسفة والباطنية ،والملاحدة والقائلين بوحدة الوجود ، والدهرية والقدرية والنصيرية والجهمية والحلولية والمعطلة والمجسمة والمشبهة والراوندية والكلابية والسليميَّة وغيرهم من أهل البدع . قد تجاذبوا بأزِّمة الضلال ، وبان لي أن كثيراً منهم إنما قصد إبطال الشريعة المقدسة المحمدية الظاهرة العلية على كل دين ، وأن جمهورهم أوقع الناس في التشكيك في أصول

---

(١) رواه أبو داود في الملاحم (٤٢٩١) والحاكم في المستدرك ٣٩٦/٤ ، قال السيوطي : " اتفق الحفاظ على تصحيحه" كما نقل ذلك عنه العظيم آبادي في عون المعبود ٣٩٦/١١ ، وقال سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز " هذا الحديث إسناده حيد ، ورجاله كلهم ثقات " انظر تعليقه على كتاب " الشيخ محمد بن عبد الوهاب " لأحمد بن حجر آل بو طامي ص١٢ ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (ح٥٩٩) .

(٢) الأعلام العلية ٢٠-٢١ .

دينهـم ، ولهـذا قَـلَّ أن سمعـت أو رأيـت معرضـاً عـن الكتـاب والسنة مقبـلاً على مقـالاتهم إلا وقـد تزنـدق أو صـار على غـير يقـين في دينـه واعتقـاده . [قـال] : فلمـا رأيـت الأمـر علـى ذلـك بـان لي : أنـه يجب علـى كـل مـن يقـدر علـى دفـع شبههم وأباطيلهم ، وقطـع حجتهـم وأضـاليلهم أن يبذل جهـده ليكشـف رذائلهـم ، ويزيـف دلائلهـم ذبـاً عـن الملـة الحنيفيـة والسـنة الصحيحـة الجليـة ...

فهـذا ونحوه هـو الـذي أوجـب أنـي صرفـت جـل همـي إلى الأصـول ، وألزمـني أن أوردت مقالاتهم ، وأجبـت عنهـا بمـا أنعـم الله تعـالى بـه مـن الأجوبـة النقليـة والعقليـة .)[١]

ومـن هـذه الأصول الـتي صـرف فيهـا ـ رحمـه الله ـ وقتـه وجـل همـه تحقيـق العبـادة لـرب العـالمين ، حيـث بـين ـ رحمـه الله ـ العبـادة لله وحـده ومفهومهـا ، وأوضـح وجـوب الإخـلاص لـرب العـالمين بتحقيـق توحيـد العبـادة لله وحـده ، ونهـى عـن الشـرك وحـذر منـه ، وبـين عظمـه وخطـره ، حتـى أن سـجنه الأخـير الـذي تـوفي فيـه كـان بسـبب بيانـه وتوضيحـه لحـق الله ﷻ وحـق رسـوله ﷺ ومـا يجـب لله ﷻ مـن العبـادة ومـا يجـب لرسـوله ﷺ منهـا [٢] .

ولمـا كـانت جهـوده ـ رحمـه الله ـ في هـذا الجـانب متنـاثرة ومتفرقـة أحببـت أن أجمعهـا في هـذا السـفر المبـارك ، ليتسـنى الرجـوع إليهـا بيسـر وسـهولة ، ولتكـون لبنـة في مسـيرة هـذه الدعـوة المباركة لتجديـد مـا انـدرس مـن ديـن الله وشـرعه ، وخاصـة مـا يتعلـق بالعبـادة وضدهـا مـن الشـرك ونحـوه ؛ لا سيما وأن شيخ الإسـلام قـد جلـى هـذا الموضـوع وجعلـه في مقدمـة اهتماماتـه ، حيـث أنـه ـ رحمـه الله ـ أبـان هـذه المسـائل وأوضحهـا ؛ فاستفاد منه كثـير ممـن جـاء بعـده ، حتـى إن أئمـة الدعـوة النجديـة المباركـة وغيرهم اتخـذوه عمـدة في الرجـوع إلى أقوالـه وتحريراتـه في المسـائل المتنـاثرة ، يعتمـدون أقوالـه ـ الـتي شـرح فيهـا نصـوص الكتـاب والسـنة وبينهـا ـ في أغلـب الأحـايين .

---

(١) الأعـلام العليـة ٣٥-٣٧ .

(٢) وهـذا مـا عـرف بقضيـة الزيـارة ـ أعـني زيـارة القبـور ـ وشـد الرحـال لقصدهـا ، وقـد ذُكِـرَ شـيئاً منهـا في ترجمتـه لـه فانظرهـا ، وانظرحمايـة النبي ﷺ للتوحيـد .في المبحـث الخـامس مـن الفصـل الأول البـاب الأول .ص ٣٥٠ .

أهميـة الموضـوع ودواعـي البحـث فيـه :

ولما كـان هـذا العَلَمُ الأشـم ، والرجـل الـذي أدهـش أهـل العلـم بسـعة علمـه واطلاعـه وحفظـه للنصوص مـن الكتـاب والسـنة وأقـوال الأئمـة وغـيرهم ، واسـتحضاره لهـا عنـد الحاجـة ، واستشـهاده بتلـك النصـوص ، اسـتظهاراً يسـتظهره ، وعزوهـا إلى قائليهـا ومصادرهـا والكتـب الموجود فيهـا كـل هـذا يستظهره استظهاراً مـن غـير رجـوع إلى مرجـع .[١]

ولهـذا شـواهد عديـدة منهـا تأليفـه للواسـطية والحمويـة والصـارم المسـلوم والـرد علـى البكـري والجـواب الصحيـح وغيرهـا كثـير .

ولما كان له النظر الثاقب ، والتحقيق الدقيق في المسائل العلمية ، والعمل الدؤوب على نشر السـنة وقمع البدعة ، وبذل الوقت المتواصل في نشر عقيدة التوحيد الخـالص بـين النـاس ، وإظهـار مـا انـدرس وخفي على كثير من الناس ؛ بل والرد على الملل والنحل والطوائـف الحـائدة عـن الشـريعة ؛ إلى البدعـة الذميمة[٢]ولما كان عصره ـ أيضاً ـ شبيهاً بعصرنا هذا من حيث كثرة الحائدين عن التوحيد الخـالص إلى غيره ؛ لما كان ذلك كله كذلك رأيت أن أجمع ما تناثر من كلامه ـ رحمه ا لله ـ في باب توحيد العبادة ؛ ليقف القارئ الكريم على هذا المجهود المدعم بالنصوص الشرعية ليسهل الرجوع إليه ، والاعتمـاد عليه في التوضيح والتبيين للنصوص الشرعية ؛ عل ا لله أن ينفع به من قرأه وسمعه وفهمه .

منهجـي فـي البحـث :

لقـد سـرت في هـذا البحـث علـى وفـق منهـج أرجـو أن أكـون قـد وفقـت في خدمتـه بعـد استفراغ الجهـد والوسـع إليـك خلاصتـه في النقـاط التاليـة:

١) جمـع كلامـه رحمـه ا لله المتفـرق وترتيبـه علـى حسـب موضوعـات البحـث ومسـائله .

---

(١) قـال البزار ((قـل أن وقعـت واقعـة وسـئل عنهـا إلا وأجـاب فيهـا بديهـة ، بمـا بهـر واشـتهر ، وصـار ذلـك الجـواب كالمصنف الذي يحتاج فيـه غـيره إلى زمـن طويـل ، ومطالعـة كتـب ، وقـد لا يقـدر مـع ذلـك علـى ابراز مثلـه ... سـأله يهـودي عـن مسـألة في القـدر ؛ نظمهـا شـعراً بثمانيـة أبيـات ، فلمـا قرأهـا شـيخ الإسـلام ــ رحمـه ا لله ــ فكـر يسـيراً ، ثـم جعـل يكتـب جوابهـا ، وجعـل يكتـب ونحـن نظـن أنـه يكتـب نـثراً ، فلمـا فـرغ تأملـه مـن حضـر مـن أصحابـه ، وإذا هـو نظم في بحر أبيات السـؤال وقافيتهـا تقـرب مـن مائـة وأربعـة وثمـانين بَيِّتـاً ، وقـد أبـرز فيهـا مـن العلـوم مـا لـو شـرح بشـرح ؛ لجـاء شـرحه بمجلدين كبـيرين ، هـذا مـن جملـة بواهـره ، وكـم مـن جـواب فتـوى لم يسـبق إلى مثلـه .)) (الأعـلام العليـة ٢٨-٢٩ .) فرحمـه ا لله رحمـة واسـعة وتغمـده برضوانـه وإنعامـه .

(٢) انظـر الأعـلام العليـة ص ٣٣-٣٤ ، ٨٨-٨٩ . وشـيخ الإسـلام عنـد المؤرخـين للمنجـد ٥٨ .

٢) الاقتصار على كلامه ـــ رحمه الله ـــ في النقل والاستشهاد لانحصار الموضوع في هذا ، ولكفاية كلامه وغناه عن غيره ، ولرصانته وجزالته ودقة عبارته ، ولكون عباراته تتميز بالقوة والدقة والبيان .

٣) ربط كلامه ـ رحمه الله ـ بعضه ببعض ، والتنسيق والترتيب فيما بينه ، وإيضاح بعضه ببعض ، وجمع ما تناثر من كلامه في كتبه فيما يخص الموضوع بمكان واحد ، والتعليق عليه عند الحاجة لذلك ، حتى يكمل الموضوع ، وتجتمع الفوائد في مكان واحد ويحصل المقصود .[1]

٤) إيراد كلامه رحمه الله بنصه ما أمكن ، فإن في ذلك عدة فوائد منها :

أن في ذلك توثيق للمادة العلمية ، وتوضيح للمسائل التي يذكرها كما قصد وأراد ، كما أنه أَمْنٌ من تحميل كلامه مالا يحتمل . وفيه أيضاً تتبين جهوده وتتضح في توحيد العبادة فيتفق عنوان الرسالة مع مضمونها .

وأما إذا ذكرت كلام شيخ الإسلام بالمعنى ـــ مع حرصي الشديد على ذكر نصه ـــ فإني أقول : انظر ، مع محاولتي قدر المستطاع الابقاء على ألفاظه ما أمكن .

٥) التمهيد في بعض الأبواب أو الفصول أو المباحث ، أو المسائل عند الحاجة لذلك بما يشعر بالدلالة على المطلوب من خلال كلامه رحمه الله تعالى .

٦) بما أن بعض المسائل قد يذكرها شيخ الإسلام في أكثر من موضع ، فإني أحاول قدر المستطاع الاقتصار على المواضع التي تلكم فيها شيخ الإسلام ـــ رحمه الله ـــ بكلام أوفى من غيره ، اختصاراً للموضوع وادخاراً لوقت القارئ ، وقد أحيل على بقية المواضع ، وقد لا أحيل ؛ لكون النص المنقول يكفي ، أو لكون غيره مكرراً في اللفظ

---

(١) قال أبو البقاء الحسين الكفوي في الكليات : التأليف هو جمع الأشياء المتناسبة من الإلفة ، وهو حقيقة في الأجسام ومجاز في الحروف . والتنظيم : من نظم الجواهر ، وفيه جودة التركب ، والتأليف بالنسبة إلى الحروف لتكون كلمات ، والتنظيم بالنسبة إلى الكلمات لتصير جملاً . والتركيب ضم الأشياء مؤتلفة كانت أو لا ، مرتبة الوضع أو لا ، فالمركب أعم من المؤلف ، والمرتب مطلقاً . الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ٢٨٨ .

وقال الحاج خليفة المتوفى سنة ١٠٦٧هـ : (.. التأليف على سبعة أقسام ، لا يؤلف عالم عاقل إلا فيها ، وهي : إما شيء مغلق يشرحه ، أو شيء طويل يختصره دون أن يخل بشيء من معانيه ، أو شيء متفرق يجمعه ، أو شيء مختلط يرتبه ، أو شيء أخطأ فيه مصنفه فيصلحه . وينبغي لكل مؤلف كتاب في فن قد سبق إليه أن لا يخلو كتابه من خمس فوائد : استنباط شيء كان معضلاً ، أو جمعه إن كان مفرقاً ، أو شرحه إن كان غامضاً ، أو حسن نظم وتأليف ، أو اسقاط حشو وتطويل ...) كشف الظنون المقدمة ص٣٥ .

أو المعنى ، أو قد يكون مختصراً . إلا إذا كان هناك إضافات ومعان أخرى فإني أذكر أكثر من نص له في الموضع الواحد محاولاً التوفيق بينها بحذف المكرر ، مشيراً إلى حذفه بوضع نقاط مكان المحذوف ، كما جرت به العادة .

٧) أعمد في خلال دراستي هذه إلى التنصيص على كلام شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ بكلمة " قال " أو " وضح " ونحوهما في بعض المواضع ، وفي بعضها أكتفي بعلامة التنصيص التي قد تكون في بعض الأحيان مدرجة في وسط الكلام ، ثم إحيل إلى ذلك في نهاية النص .

٨) إذا أحلت على الفتاوى فإنما أقصد مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ التي جمعها ابن قاسم ـ رحمه الله ـ .

٩) عزوت الآيات القرآنية بذكر اسم السورة ورقم الآية .

١٠) قمت بتخريج الأحاديث النبوية ، والآثار الوارد في ثنايا البحث من مصادرها ، بذكر اسم المصدر والكتاب وذكر رقم الحديث إن كان المصدر مرقماً ، وإلا فأذكر الجزء والصفحة ، مع ذكر الكتاب والباب . مع نقل حكم العلماء على الحديث إن لم يكن في الصحيحين أو أحدهما . وما سكت عنه من الآثار فإن اكتفيت بذكر شيخ الإسلام له لكوني لم أقف عليه .

١١) قمت بالترجمة للأعلام الوارد ذكرهم في البحث ممن لم يكن مشهوراً ، أما إذا كان مشهوراً عند العامة والخاصة كالخلفاء الأربعة ، وأئمة المذاهب الأربعة ونحوهم ، أو ممن كان مشهوراً بين طلبة العلم على مختلف تخصصاتهم كابن حجر وابن كثير ، والنووي وابن رجب ونحوهم ، فإني لم أترجم لهم ، أما إذا كان مشهوراً عند ذوي الاختصاص فقط أو ممن لا شهرة له مطلقاً فإني اجتهدت في الترجمة لهم بذكر اسمه ومولده ووفاته إن وجد .

١٢) اجتهدت في بيان معاني الألفاظ والعبارات الغريبة الواردة في ثنايا البحث بذكر تلك المعاني من مضانها .

١٣) قمت بعمل فهارس للأحاديث وأخرى للمراجع وثالثة للأعلام المترجم لهم وأخيرة للموضوعات .

خطـة البحـث :

وقـد سـرت في هـذا البحـث وفـق خطـة تضمنـت بعـد المقدمـة تمهيـداً وثلاثـة أبـواب وخاتمــة . ورسمها كمـا يلـي :

التمهيد وفيـه أربعـة مبــاحث

المبحـث الأول : تعريـف موجـز بشيـخ الاسـلام يـتركز علـى تطبيقـه العملـي لتوحيـد العبـادة.

المبحث الثاني : بيان أن توحيد العبادة هو مدار الخصومة بين الرسل وأتباعهم وبين غيرهـم .

المبحـث الثـالث : بيـان امتـداد حاجـة النـاس للتوحيـد إلى أن تقـوم السـاعة .

المحبـث الرابـع : الخطـأ عنـد المتكلمـين ووغـيرهم في مسـمى التوحيـد .

وأما الباب الأول فهو في :

توحيد العبـادة ويشـتمل علـى ثلاثـة فصـول :

الفصـل الأول : التوحيـد ، وفيـه أربعـة مبــاحث :

المبحـث الأول : بيانـه لمعنــى التوحيــد .

المبحـث الثـاني : بيانـه لأنـواع التوحيــد .

المبحـث الثـالث : بيانـه لمعنـى الألوهيــة .

المبحـث الرابـع : بيانـه لمعنـى الربوبيــة .

الفصـل الثـاني : تحقيـق التوحيـد ، وفيـه خمسـة مبـاحث :

المبحـث الأول : بيانـه لكيفـة تحقيــق التوحيــد .

المبحـث الثـاني : بيانـه لأسـباب تحقيـق التوحيــد .

المبحـث الثـالث : بيانـه لقـوادح تحقيـق التوحيــد .

المبحـث الرابـع : بيانـه لفضـل مـن حقـق التوحيـد .

المبحـث الخـامس :بيانـه تحقيـق النبي ﷺ للتوحيــد .

الفصـل الثــالث : توحيـد العبـادة ، وفيـه ستة مبـاحث :

المبحـث الأول : تعريفــه للعبــادة .

المبحـث الثـاني : بيانـه لشـرطي العبــادة .

المبحـث الثـالث : بيانـه لأنـواع العبــادة .

المبحـث الرابـع : تعريفـه لتوحيـد العبـادة .

المبحـث الخـامس : بيانـه لأهيمـة توحيـد العبـادة .

المبحـث السـادس : بيانـه لكلمـة التوحيـد .

وأما الباب الثاني فهو في بيانه ـ رحمه الله ـ للشرك المنافي لتوحيد العبادة :

وفيـه فصـلان :

الفصـل الأول : في الشـرك ، وفيـه ثلاثـة مبـاحث :

المبحـث الأول : تعريفــه للشــرك .

المبحـث الثـاني : بيانـه لأهميـة العلـم بـه .

المبحـث الثـالث : بيانـه لعظـم الشـرك وقبحــه .

الفصـل الثـاني : أقسـام الشـرك وفيـه مبحثـان :

المبحـث الأول : توضيحـه للشــرك الأكـبر .

المبحـث الثـاني : توضيحـه للشـرك الأصغــر .

وأما الباب الثالث فهو حماية التوحيد من وسائل الشرك

وفيه أربعـة فصـول :

الفصـل الأول : في بيانـه لتحذيـر النبي ﷺ مـن الأسـباب المفضيـة إلى الشـرك ، واشـتمل علـى تمهيـد وثلاثـة مبـاحث :

المبحـث الأول :في اتخـاذ القبــور مســاجد

المبحـث الثـاني : في زيـارة القبـور وشـد الرحـال إليهــا .

المبحـث الثـالث : في زيـارة قـبر النـبي ﷺ .

الفصـل الثـاني : في الغلـو .

الفصـل الثـالث : في التوسـل وطلـب الشـفاعة ، فيـه مبحثـان :

المبحـث الأول : في التوســل .

المبحـث الثـاني : في الشـفاعة .

الفصـل الرابـع : في إتبـاع الهـوى ، وطاعـة العلمـاء والأمـراء في معصيـة ا لله ، وفيـه مبحثــان:

المبحـث الأول : في اتبـاع الهــوى .

المبحث الثاني : في طاعة العلماء والأمراء في معصيـة ا لله .

وأما الخاتمة فذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث المبارك .

وبعـــد فإنه لا يسعنى في هذا المقام إلا أن أشكر ا لله ــ العلي القدير ــ وأحمده حمداً يليق بجلاله وإنعامه على ما امتن به علي ووفقني من إتمام هذا البحث ، كما أشكر القائمين على هذا الصرح الشامخ ــ الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية ــ من تمكيني من المضي في هذا الطريق .

كما أسأله سبحانه وتعالى أن يسدد ويوفق ويثيب كل من أعانني بذكر فائدة أو دلالة على مرجع أو إعارة كتاب أو غير ذلك ، وأخص بالذكر والدي الكريم ، الذي أسأل ا لله ﷻ أن يثيبه الجنة ويعتقه من النار ، فإنه لم يبخل علي بوقته ونصحه وتوجيهاته ، فقد قرأت عليه أكثر هذه الرسالة .

كما أسأل ا لله ﷻ أن يوفق شيخي ، وإستاذي الدكتور : غالب بن علي العواجي الذي لم يبخل عليَّ بوقته وجهده ونصائحه ، وتوصياته التي ساهمت في إنجاز هذا البحث ، أسأل ا لله العلي القدير أن يرفع درجته في العليين ، وأن يكتبه في عباده المقربين ويجزل له المثوبة في الدنيا والآخرة .

ولا أنسى أن أشكر كلاً من الدكتور صالح بن عبد ا لله العبود ، والدكتور : أحمد بن سعد حمدان الغامدي اللذين سبق وأن كانا مشرفين علىَّ في هذه الرسالة ، أسأل ا لله لهما الهدى والسداد والتوفيق لما يحبه ويرضاه ، وأن يعظم لهما الأجر والمثوبة .

وفي الختام فهذا جهد المقل ، الذي لا يخلو من التقصير والخطأ فإن الخطأ والنسيان ، والسهو من سمات الإنسان ، التي تدل على ضعفه ونقص ما يقوم به من عمل ، فأسأل ا لله العلي القدير أن يغفر لي تقصيري ، وأن يتقبل جهدي وينفع به ، وأن يجعل هذا البحث خالصاً لوجهه الكريم ، لبنة في طريق الدعوة إلى ا لله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وسبباً في نشر عقيدة سلف هذه الأمة ، كما أسأله أن يلهمني الصواب والرشد والسداد ، وأن يعيذني من فتنة القول والعمل . وأن يغفر لشيخ الإسلام ــ رحمه ا لله ــ ويعلي درجة ، ويجزل مثوبته ، ويرفع ذكره . وصلى ا لله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

التمهيد وفيه أربعة مباحث :

المحبث الأول : تعريف موجز بشيخ الإسلام - رحمه الله .

المبحث الثاني : في بيان أن توحيد العبادة هو مدار الخصومة بين الرسل وأتباعهم

المبحث الثالث : في إمتداد حاجة العبادة إلى توحيد العبادة .

المبحث الرابع : الخطأ عند المتكلمين وغيرهم في مسمى توحيد العبادة .

المبحث الأول

تعريف موجز بشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-

تعريف موجز بشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -

سوف أقتصر في هذه الترجمة على جوانب من تطبيقه - رحمه الله - لتوحيد العبادة - الذي هو موضوع دراستي - والذي ظهر من خلال جهاده، ونشره للتوحيد وبيانه للحق، وهذا ما سوف تلمسه إن شاء الله في هذه الترجمة الموجزة، فما كان فيها من تقصير فمني، لكن ما لا يدرك كله لا يترك جله، لا سيما وأن كثيراً من الكتاب وطلبة العلم قد كتبوا تراجم [1] عن شيخ الاسلام، مما يجعل الاسهاب في ترجمته تكراراً لجهود مبذولة، وكتابات مكرورة. ولهذا فقد رغبت أن تكون ترجمة شيخ الإسلام - رحمه الله - مقتصرة على بيان الجانب الذي أنا بصدد دراسته، وترك تلك الجوانب الأخرى من ترجمته، حرصاً على الاختصار، وعدم تكرار الجهد والعمل مبتدءاً بذكر :

اسمه ومولده

هو : شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس، أحمد بن الشيخ العلامة شهاب الدين أبي المحاسن عبد الحليم بن الشيخ العلامة مجد الدين أبي البركات عبد السلام بن أبي

---

(١) انظر في ترجمة ابن تيمية العقود الدرية لابن عبد الهادي، الأعلام العلية للبزار، التذكرة والاعتبار والانتصار لعماد الدين الواسطي، الشهادة الزكية لابن مرعي الحنبلي، وطبقات الحنابلة ٣٨٧/٢ وما بعدها، وشذرات الذهب ٨٠/٦، وفوات الوفيات ٧٤/١، وذيول العبر ص ٨٤، وتذكرة الحفاظ ١٤٩٦/٤، والدرر الكامنة ١٦٨/١، والرد الوافر لابن ناصر الدين الدمشقي، ومن المعاصرين رجال الفكر والدعوة في الإسلام للندوي، أوراق مجموعة من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية للشيباني، ابن تيمية بطل الاصلاح الديني للإستانبولي، حياة شيخ الإسلام ابن تيمية للبيطار، ابن تيمية المفترى عليه لسليم الهلالي، ابن تيمية السلفي د.محمد خليل هراس، شيخ الاسلام ابن تيمية إمام السيف والقلم لسعد صادق محمد، [illegible]، ابن تيمية والتصوف لمصطفى حلمي، شيخ الإسلام سيرته وأخباره عند المؤرخين للدكتور / صلاح الدين المنجد، وغيرها كثير.

وأما الدراسات المقدمة لنيل درجات علمية فكثيرة أيضاً، أذكر هنا بعض ما يخص العقيدة. فمنها : موقف ابن تيمية من التصوف والمتصوفة / أحمد بن محمد بناني، منهج شيخ الإسلام في تقرير عقيدة التوحيد/ ابراهيم البريكان، موقف ابن تيمية من الأشاعرة للمحمود، منهج ابن تيمية في مسألة التكفير لعبد المجيد المشعبي، ابن تيمية ونقده للنصارى / فايزة بكر. جهود الإمامين ابن تيمية وابن القيم في دحض مفتريات اليهود / سميرة عبد الله بناني، جهود شيخ الإسلام في الرد على ابن سينا في المسائل الإلهية / سعيد ابراهيم سيد أحمد وغيرها.

محمد عبد الله بن أبي القاسم الخضر ، بن محمد بن الخضر ، بن علي بن عبد الله ، بن تيمية الحراني[١] .

ولد – رحمه الله – في حران [٢] يوم الاثنين عاشر وقيل ثاني عشر ربيع الأول سنة ٦٦١هـ ، انتقل مع والده وأسرته إلى الشام فراراً من جور التتار وبطشهم . خرجوا ليلاً مشياً على الأقدام حتى نزلوا دمشق فاستوطنوها .

نشأ – رحمه الله – في بيت فضل وعلم ، وتلقى العلم من والده وشيوخ عصره ، فنبغ في العلم والفقه ، ساعده على ذلك قوة ذاكرته ، ونبوغه وذكاؤه ونجابته وفطنته ، بالإضافة إلى حرصه الشديد على وقته .

تصدى للفتيا والتعليم منذ وقت مبكر ، فقد أفتى وعمره "١٩" عاماً .[٣]

أمضى عمره – رحمه الله – في العلم والتعليم والإفتاء والجهاد ، وقول كلمة الحق لا يخشى في ذلك لومة لائم ، كانت حياته كلها جهاد ، ونشر للسنة وقمع للبدعة ، ونشر للتوحيد ، ودعوة إلى نبذ الشرك ، المتمثل في شرك أهل المشاهد وأهل السلوك ، والطرق البدعية ، والمسالك الكلامية البدعية وغيرهم . وقد لحقه – رحمه الله – بسبب ذلك من الأذى مالحقه . بل إن حياته كانت مثالاً حياً ، وتطبيقاً واقعياً لتوحيد العبودية لرب البرية .

وقبل البدء بذكر النواحي التي تتعلق بموضوعنا هذا من واقع حياته – رحمه الله – يتحتم بيان حال شيء من حال عصره ، ومدى ظهور مثل هذه المنكرات في مجتمعات المسلمين في زمانه .

---

(١) ذُكِرَ أن سبب تلقيبه بذلك : أن جده محمد بن الخضر حج على درب تيماء فرأى جارية خرجت من خباء ، فلما رجع وجد زوجته ولدت له بنتاً ، فرفعوها إليه فقال : يا تيمية ، يا تيمية ، أي أنها تشبه تلك الجارية التي رآها بتيماء .

وقيل إن جده محمداً كانت أمه تسمى تيمية ، وكانت واعظة فنسب إليها وعرف بها . العقود الدرية ٣-٤ .

(٢) حران بتشديد الراء ، مدينة قديمة بين الرها والرقة ، وحرَّان أيضاً من قرى حلب ، وحرَّان الكبرى والصغرى قريتان بالبحرين لبني عامر بن الحارث بن أنمار ، وحران أيضاً قرية بغوطة دمشق . وحران الأولى هي التي ينسب إليها شيخ الإسلام ، وقد دمرها التتار لما غزوا بلاد المسلمين . انظر معجم البلدان ٢/٢٣٥ .

(٣) انظر العقود الدرية ٤-٥ ، والبداية والنهاية ١٤/١٩ ، ١٣/٣٤١ . والأعلام العلية ١٨-٢١ . وتاريخ ابن الوردي ٢/٤٠٨ .

انتشار الشرك في عصره :

لقد كان عصره يعج بكثير من الشركيات والبدع التي انتشرت بين المسلمين بشكل ظاهر ، وواضح للعيان . حيث انتشر تعظيم المشاهد ، والغلو في القبور وأصحابها ، حتى انصرف كثير من الناس إلى تعظيم الأحياء والأموات ، وصرف العبادة لهم من دون الله ﷻ ، مما حدا بشيخ الاسلام ـ رحمه الله ـ أن يبذل جهده ووقته ، وكل غال ونفيس في بيان الحق وقمع الباطل ورد الناس إلى التوحيد ، ونهيهم عن الشرك .

ويُرجع شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ انتشار تلك الشركيات والبدعيات إلى عاملين أساسيين هما :

١) استيلاء الرافضة على بلاد المسلمين ، فقد استولى العبيديون على المغرب وكذا الفاطميون في المغرب ثم في مصر ، ثم جاءت دولة بني بويه في العراق . وقد عملوا على نشر هذه الشركيات ؛ قاصدين إبعاد المسلمين عن دينهم وربطهم بالوثنية المجوسية .

ومن المعلوم أنه لم يكن شيء من هذه المظاهر بارزاً في بلاد المسلمين إلا بعد أن جاءت هذه الدول الرافضية التي عملت على إقامتها وتشييد المساجد عليها ، وتزيينها وتعظيمها ، بقصد صرف الناس عن عبادة الله وتوحيده ، إلى عبادة هذه الأوثان والشرك بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، حيث أصبحت معظمة ينذر لها ويطاف عليها ، بل ويحج إليها ، وتعظَّم أكثر من تعظيم الله ، وتعظيم ما أمر الله بتعظيمه ، حتى أصبحت زيارتها آكد من زيارة المساجد والأماكن التي شرع الله زيارتها .[1] فلا حول ولا قوة إلا بالله.[2]

٢) النصارى : كان للنصارى دور كبير في نشر الشرك في بلاد المسلمين ؛ لأن من دينهم تعظيم القبور والصور ونحوها ، فلما ظهرت دولة العبيديين في مصر قدم النصارى إلى الشام واستوطنوا ثغوره وأمصاره ، وكانوا أهل شرك وعبادة للأوثان ، حيث كانوا يعكفون على التماثيل والقبور ويعبدونها ويستغيثون بها ، كما أخبر

---

(١) سيأتي إن شاء الله الكلام على بعض الأماكن التي منع الشارع زيارتها في الباب الثالث .

(٢) انظر الفتاوى ١٠٦/٢٧ ، ١٧٦ ، ٤٦٠ ، ٤٦٦ . ومنهاج السنة النبوية ٤٧٤/١ .

المصطفى ﷺ بذلك في قوله : ((.. إنهم كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك التصاوير ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة))[١]

وقد ذكر شيخ الاسلام ـ رحمه الله ـ أن النصارى أثروا على المسلمين حتى جعلوهم يُعَمِّدُونَ أولادهم اعتقاداً منهم أن ذلك يزيد في العمر ، بل أصبحوا ينذرون للمواضع التي يعظمها النصارى ، كما صار كثير من جهالهم يزورون كنائس النصارى ويلتمسون البركة من قسيسيهم ورهبانهم ونحو ذلك .[٢]

وقد ذكر بعض الكتاب أن أول مكان بني في الشام ليكون مكاناً لخلوات الصوفية بناه أمير النصارى حينما استولى الفرنج على القدس ، فرأى أميرهم طائفة من الصوفية فأعجبه ما بينهم من المحبة والإلفة ، ولعله لمس فيهم شبهاً من النصارى ، فعرض عليهم أن يبني لهم مكاناً يجتمعون فيه ويتآلفون ويتعبدون ، فبنى لهم بناء عرف بالخانقاء[٣] ، ثم انتشر بناؤها في مصر والشام حتى أصبحت أماكن معروفة يرتادها الصوفية من كل مكان يتلقون فيها التعليم والتعبد وممارسة الأوراد والأذكار والخلوات ؛ بل أصبحت مأوى لكثير منهم وقد أوقفت لها الأوقاف .[٤]

ولما جاء عهد المماليك شيدوا تلك الخوانق ، وعظموا القبور والمشاهد ، إلى حد أن السلطان إذا أمَّر أحداً من أمراء الشام أو أمراء مصر ، فإن عليه أن يأتي قبر المنصور قلاوون[٥] وابنه الناصر محمد[٦] ويحلف عند القبر ويحضر تحليفه صاحب الحجاب[٧] .

---

(١) متفق عليه ، وسيأتي تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٢) انظر الفتاوى ٤٦١/٢٧ .

(٣) الخانقاء : كلمة بالفارسية معناها بيت ، ثم جعلت علماً على المكان الذي تخلى فيه الصوفية لعبادة الله تعالى ، انظر الخطط ٤١٤/٢ .

(٤) المجتمع الاسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية لأحمد رمضان ص ١٥١ .

(٥) هو الملك المنصور قلاوون الألفي ، تولى الملك بعد خلع سلامش سنة ٦٧٨هـ ودام ملكه ١١عاماً وستة أشهر تقريباً ، وهو الذي بنى القبة التي دفن فيها . انظر سمط النجوم العوالي ١٩/٤-٢٠ .

(٦) هو الملك الناصر محمد بن قلاوون ، تولى الملك بعد مقتل أخيه شرف الدين سنة ٦٩٣هـ ، وقد تولى الملك وعمره تسعة أعوام ، ثم عزل بمكيدة في نفس العام ، ونفي إلى الكرك ، ثم عاد مرة أخرى إلى السلطة ، وبقي فيها إلى عام ٧٠٨ هـ حيث ترك الملك قهراً وتوجه إلى الكرك ، ثم رجع بعد عام تقريباً ، بعد عيد الفطر من عام ٧٠٩ هـ واستمر في الملك إلى عام ٧٤١ هـ ، وهو الذي أخرج شيخ الإسلام من سجن الاسكندرية بعد عودته بيومين فقط . وحياة شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ كانت جلها في عصره . إلا أن إيذاءه كان في عصر بيبرس الجاشنكيز . انظر سمط النجوم العوالي ٢١/٤ـ٢٣ .

(٧) انظر الخطط للمقريزي ٣٨٠/٢-٣٨١ .

فهذان العاملان هما من أهم العوامل التي ظهرت بسببها الشركيات في بلاد المسلمين ، ويضاف إلى ذلك عامل آخر وهو انتشار فرق الصوفية في البلدان ؛ الذين اتخذوا تعظيم الأشخاص والغلو فيهم وفي قبورهم شعاراً لهم ، ورمزاً يستدل به على طرقهم ودينهم .

وقد أفنى شيخ الاسلام كثيراً من عمره في بيان التوحيد ، والرد على أهل الأوثان ، وبيان الشركيات المنتشرة في بلدان المسلمين ، بل إنه ـ رحمه الله ـ أزال ما قدر على إزالته منها بيده[1] ، وقد أبلي ، ـ رحمه الله ـ بلاء حسناً ، وأوذي في سبيل الله أيما إيذاء ، وحورب ، وسجن بسبب ذلك .

زهده وعبادته :

كان ـ رحمه الله ـ ورعاً تقياً زاهداً في الدنيا وما فيها ، متواضعاً[2] عابداً لله، ذاكراً له ، شاكراً ، متعلقاً قلبه بالله ، متواصل الذكر والاستعانة بربه ، دائم الاستغفار في جميع أموره ، والاستنصار به ، وطلب الهداية منه في كل وقت وحين .

وكان ـ رحمه الله ـ إذا أشكلت عليه مسأله تضرع إلى الله ، والتجأ إليه ، وأكثر من الاستغفار وسؤال الله أن يهديه إلى الحق فيما اختلف فيه .[3]

وفي فوات الوفيات : كان " صالحاً براً بوالديه ، تقياً ، ورعاً عابداً ناسكاً ، صواماً قواماً ذاكراً لله تعالى في كل أمره ، وعلى كل حال ، رجاعاً إلى الله تعالى في سائر الأحوال والقضايا ، وقافاً عند حدود الله وأوامره ونواهيه ، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر " [4]

وقال الذهبي ـ رحمه الله ـ : (لم أر مثله في ابتهاله واستغاثته وكثرة توجهه..)[5]

---

(١) وسيأتي ذكر هذا بعد قليل بإذن الله .

(٢) انظر ذيل طبقات الحنابلة ٣٩٥/٢ ، وتاريخ ابن الوردي ٤١٠/٢ ، وانظر المنجد ١٣٧

(٣) انظر الفتاوى ٤٥٥/١١ . العقود الدرية ص٦،٩ ، والدرر الكامنة ٧٧/١ ولما أخرجت كتبه : تفرغ للعبادة والتلاوة والتهجد حتى أتاه اليقين . انظر تاريخ ابن الوردي ٤١٢/٢ ، وذيل طبقات الحنابلة ٤٠٢/٢

(٤) فوات الوفيات وانظر العقود الدرية ص ٦ ، والدرر الكامنة ١٨٦/١ ، وانظر ذيل طبقات الحنابلة ٣٨٩/٢ . وانظر المنجد ص ١٢٦ نقلاً عن درة الأسلاك في دولة الأتراك .(مخطوط)

(٥) الدرر الكامنة ١٧٦/١ ، وانظر طبقات الحنابلة ٣٩٤/٢-٣٩٥ . وانظر أوراق مجموعة من حياة شيخ الإسلام ص٢٧ .

أما عبادته اليومية : (فإنه قل أن سُمع بمثله ، لأنه كان قد قطع جل وقته وزمانه فيه ، حتى إنه لم يجعل لنفسه شاغلة تشغله عن الله .. لا من أهل ولا من مال.

وكان في ليله متفرداً عن الناس كلهم ، خالياً بربه ـ عَجَلّ ـ ضارعاً مواظباً على تلاوة القرآن العظيم ، مكرراً لأنواع التعبدات الليلية والنهارية ، وكان إذا ذهب الليل وحضر مع الناس بدأ بصلاة الفجر يأتي بسنتها قبل إتيانه إليهم ، وكان إذا أحرم بالصلاة تكاد تنخلع القلوب لهيبة إتيانه بتكبيرة الإحرام ، فإذا دخل في الصلاة ترتعد أعضاؤه حتى يُميله[1] يمنة ويسرة .. فإذ فرغ من الصلاة أتى بالأذكار المشروعة .. ثم يجلس في مصلاة يذكر الله عَجَلّ حتى ترتفع الشمس ، ثم يصلي .

وكان إذا رأى منكراً في طريقه أزاله [2] أو سمع بجنازة سارع إلى الصلاة عليها ، أو تأسف على فواتها ، وربما ذهب إلى قبر صاحبها بعد فراغه من سماع الحديث وصلى عليها . ثم يعود إلى مسجده فلا يزال تارة في إفتاء الناس ، وتارة في قضاء حوائجهم حتى يصلي الظهر مع الجماعة ... ثم يجلس بعد المغرب ـ بعد أن يتطوع بما يسره الله ـ لطلبة العلم يقرؤون عليه ويفيدهم. حتى يصلي العشاء ، ثم يتدارس العلوم مع تلاميذه إلى أن يذهب هَوِيٌّ من الليل طويل ، كل ذلك وهو يديم الذكر لله جل وعلا .

وكان كل أسبوع يعود المرضى .. فأي عبادة وجهاد أفضل من ذلك ؟ فسبحان الموفق من يشاء لما يشاء .)[3]

وأما زهده في الدنيا ومتاعها [4] : (فقد جعله الله له شعاراً من صغره .. ولقد اتفق كل من رآه ـ خصوصاً من أطال ملازمته ـ أنه ما رَأى مثله حتى أصبح ذلك

---

(١) أي الخشوع يميله يمنة ويسرة .

(٢) مر ذات يوم فإذا ناس يلعبون الشطرنج فكفاه بيده ثم مضى .وقد توب شيخ البطائحية ، وهدم بعض الشركيات كما سيأتي ذكره .

(٣) الأعلام العلية ٣٨-٤٣ . والكواكب الدرية ٨٣ وما بعدها . بتصرف يسير .

(٤) انظر تاريخ ابن الوردي ٤١١/٢ ، والمنجد ٢٢ . ومن الشواهد على ذلك ، أنه ـ رحمه الله ـ لما سافر إلى القاهرة سنة ٧٠٠ يستحث السلطان على الجهاد ، فرض له مرتباً عن كل يوم دينار ، وتحفة ، وجاءته بقجة قماش فلم يقبل من ذلك شيء . انظر شيخ الإسلام سيرته وأخباره عند المورخين ص ٢٠ ، وتاريخ ابن الوردي ٤١٠/٢ ، والدرر الكامنة ١٧٧/١ .

مشهوراً عنه ـ رحمه الله ـ حتى لو سئل عامي من أهل بلد بعيد من أزهد أهل هذا العصر وأكملهم في رفض فضول الدنيا ، وأحرصهم على طلب الآخرة لقال : ما سمعت بمثل ابن تيمية .

وما اشتهر له ذلك إلا لمبالغته في الزهد مع الإخلاص وتصحيح النيَّة في ذلك لرب البرية . لم يسمع أنه رغب في زوجة حسناء ، ولا سرية حوراء ، ولا شد على دينار ولا درهم ، ولا رغب في دواب ولا نَعَم ، ولا ثياب فاخرة ، ولا حَشَم ، ولا زاحم في طلب الرياسات ، ولا رُئي ساعياً في تحصيل المباحات ، هذا كله ليس زهداً فيه لعدم استطاعته على تحصيله ، بل على العكس من ذلك ، فإن الملوك والأمراء والتجار والكبراء كانوا طوع أمره ، خاضعين لقوله ، وَادِّين أن يتقربوا إلى قلبه مهما أمكنهم ، مظهرين لإجلاله .[(١)]

وفي الكواكب الدرية : (..وما خالط الناس في بيع ولا شراء ولا معاملة ، ولا تجارة ولا مشاركة ولا مزارعة ، ولا عمارة ، ولا كان ناظراً أو مباشراً لمال وقف ، ولم يقبل جراية ، ولا صلة لنفسه من سلطان ، ولا أمير ولا تاجر ولا كان مدخراً ديناراً ولا درهماً ولا متاعاً ولا طعاماً ، وإنما كانت بضاعته مدة حياته وميراثه بعد وفاته ﷺ العلم . اقتدى بسيد المرسلين ، فإنه

ومنها ما ذكره ابن رجب : أنه لما عرض عليه قضاء القضاة قبل سنة التسعين ، ومشيخة الشيوخ لم يقبل شيئاً من ذلك . قال : قرأت ذلك بخطه . ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٣٩٠ وانظر المنجد ١٣١ .

قال ابن رجب أيضاً : " ما رأيت في العالم أكرم منه ، ولا أفرغ منه عن الدينار والدرهم ، ولا يذكره ، ولا أظنه يدور في ذهنه ، وفيه مروءة وقيام مع أصحابه وسعي في مصالحهم ، وهو فقير لا مال له ، وملبوسه كآحاد الفقهاء : فَرْجيَّة ودَلَق ، وعمامة تكون قيمة ثلاثين درهماً ، ومداس ضعيف الثمن ، وشعره مقصوص .ذيل طبقات الحنابلة ٢/٣٩٥ والمنجد ١٣٧ .

ومنها ما ذكره ابن كثير وغيره : أنه ـ رحمه الله ـ أرسل رسالة إلى أهل دمشق من سجن الجب بمصر ؛ مما ذكر فيها : توجهه إلى الله وأنه لم يقبل من أحد شيئاً لا من النفقات السلطانية ولا من الكسوة ولا من الإدارات ولا غيرها ، ولا تدنس بشيء من ذلك . البداية والنهاية ١٤/٤٣ .

(١) انظر الأعلام العلية ٤٧-٥٠ ، والكواكب الدرية ٨٤ ، ٨٦ .

قال : ((العلماء ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ولكن ورثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر))[١]..) [٢]

ولما فرض له مُرَتَّباً عن كل يوم دينار وتحفة حينما سافر يستحث السلطان على جهاد التتار رفض أخذ شيء من ذلك .[٣]

ومع هذا كله فقد كان كريماً باذلاً لما في يده ، لا يرد سائلا ، فإذا لم يجد ما يعطيه ؛ نزع بعض ثيابه وأعطاها إياه ، وكان يستفضل من قوته الرَّغيف والرغيفين فيؤثر به على نفسه .[٤]

إخلاصه لله :

لقد كان ـــ رحمه الله ـــ عالماً عاملاً مخلصاً لله في جميع أحواله[٥] ، وشؤونه ، ويتمثل هذا في عدة أمور منها :

اتباعه للكتاب والسنة .

كان ـ رحمه الله ـــ متمسكاً بالكتاب والسنة [٦] ، عاضاً عليهما بالنواجذ ، لا يميله عنهما قول أحد ، كائناً من كان ، ولا يراقب في الأخذ بعلومهما أحداً من البشر ، ولا يخاف في ذلك أميراً ولا سلطاناً ، ولا سوطاً ولا سيفاً ، ولا يرجع عنهما لقول

---

(١) هذا طرف من حديث " من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً " أخرجه أبو داود في العلم (٣٦٤١) والترمذي في العلم (ح٢٦٨٢) وابن ماجه في المقدمة (ح٢٢٣) والإمام أحمد في المسند ١٦٠/٥ ، قال ابن حجر في الفتح " حسنه حمزة الكناني وضعفه عندهم سنده ، لكن له شواهد يتقوى بها " الفتح ١٦٠/١ ، وصححه الألباني في صحيح الترمذي وابن ماجه بنفس الأرقام السابقة ، وحسنه في صحيح الترغيب والترهيب (ح٦٨) .

(٢) الكواكب الدرية ٨٤ . وانظر تاريخ ابن الوردي ٤١١/٢ .

(٣) انظر حاشية ٤ص ١٧

(٤) انظر الاعلام العليه ٤٨ ، والكواكب الدرية ٨٥ ، ٨٦ .

(٥) نحسبه كذلك حسبما وردنا من سيرته ، ولا نزكي على الله أحداً، انظر الفتاوى ٢٣٣/٣ . وذكر البزار أن والده قال لشيخه الذي علمه القرآن وهو صغير : " أحب إليك أن توصيه وتعِده بأنك إن لم تنقطع عن القرآءة والتلقين ، أدفع إليك كل شهر أربعين درهماً ، قال : ودفع إلي أربعين درهماً ، وقال : أعطه إياها ، فإنَّه صغير ، وربَّما يفرح بها فيزداد حرصه في الاشتغال بحفظ القرآن ودرسه ، وقل له : لك في كل شهر مثلها ، فامتنع من قبولها وقال : يا سيدي : إني عاهدتُ الله تعالى أن لا آخذ على القرآن أجراً و لم يأخذها .! فرأيت أنَّ هذا لا يقع من صبي إلا لما لله فيه من العناية . " الأعلام العلية ٤٧ .

(٦) انظر الفتاوى ٢٤٩/٣-٢٥٠ ، ٢٢٩ .

أحد ، وهو متمسك بالعروة الوثقى ، وعامل بقوله تعالى : ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾[1] وبقوله : ﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ﴾[2] . لا يقول في مسألة برأيه ، بل يتحرى قول الحق في كل ما يقول ويفعل[3] ، ولهذا لا يرى له مسألة إلا وتحرى فيها ما يوافق الكتاب والسنة ، وتراه في جميع مؤلفاته إذا صح الحديث أخذ به وقدمه على قول كل قائل من عالم ومجتهد .[4]

وفعله هذا يدل على إذعانه لله ﷻ ومحبته له ، واتباعه وانقياده لما جاء به رسول الله ﷺ ، وخضوعه لما أمر به واجتنابه لما نهى عنه ، وهذا هو أساس التوحيد ومبدؤه ، ومبدأ العبادة ومنتهاها .

بل إنه ـ رحمه الله ـ أمر باتباع السنة وألزم من استطاع أن يلزمه باتباعها ، ومن الأمثلة على ذلك : حلقه لرأس المسمى " المجاهد " ابراهيم القطان ، ـ وهو شيخ باطني ومشعوذ صوفي ـ وكان ذا شعر كثيف ، وقلم أظافره وكانت طوالاً جداً ، وحف شاربه

---

(١) سورة النساء ٥٩ .

(٢) سورة الشورى ١٠ .

(٣) ومن ذلك ما ذكره البزار ـ رحمه الله ـ أن شيخ الإسلام كان يقطع مكوثه في مصلاه بعد صلاة الفجر إلى طلوع الشمس بقراءة الفاتحة وتكرارها ، قال البزار ـ رحمه الله ـ : " ففكرت في ذلك ، لِمَ قد لزم هذه السورة دون غيرها ؟ فبان لي ـ والله أعلم ـ أنه أراد أن يجمع بتلاوته حينئذ بين ما ورد في الأحاديث وما ذكره العلماء : هل يستحب تقديم الأذكار الواردة على تلاوة القرآن ، أو العكس ؟ فرأى ـ رضي الله عنه : أن في الفاتحة وتكرارها حينئذ جمعاً بين القولين وتحصيلاً للفضيلتين ، وهذا من قوة فطنته وثاقب بصيرته ." الأعلام العلية ٤٠ .

ومن ذلك ما سيأتي ذكره من محاجته للبطائحية وأمرهم بلزوم السنة ، وكذلك أمره لأتباع الفلاسفة في الاسكندرية ، ومن قبل ذلك كله ، قوله كلمة الحق في صفات رب البرية ، كما في الفتوى الحموية ، والواسطية ، وغيرها كثير ، انظر الفتاوى ٣/١٦٠ وما بعدها . وقد سأله رجل : أنت تزعم أن أفعالك كلها من السنة ، فهذا الذي تفعله بالناس من عرك آذانهم من أين جاء هذا في السنة ؟ فقال : حديث ابن عباس في الصحيحين قال : صليت خلف رسول الله ﷺ ليلاً فكنت إذا أغفيت أخذ بآذاني)) أو كما قال . الوافي بالوفيات للصفدي ٧/ ١٧ . و" سأله السلطان الناصر أن يقف معه في معركة القتال ، فقال له الشيخ : السنة أن يقف الرجل تحت راية قومه ، ونحن من جيش الشام لا نقف إلا معهم " البداية والنهاية ١٤/٢٧ . إلى غير ذلك وسيأتي ذكر بعض ذلك إن شاء الله في هذا المبحث .

(٤) انظر الأعلام العليه ٨٠-٨٢ ، والكواكب الدرية ١٠٠ــ١٠١

المسبل على فمه المخالف للسنة ، واستتابه من كلام الفحش ، وأكل ما يغير العقل من الحشيشة ، وما لا يجوز من المحرمات وغيرها .(١)

طلبه للحق والإنصاف :

كان ـ رحمه الله ـ حريصاً كل الحرص على طلب الحق والعمل به ، فكان يقول : "ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير ، ثم أسأل الله الفهم ، وأقول : يامعلم آدم وإبراهيم علمني . وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها وأمرغ وجهي في التراب ، وأسأل الله تعالى وأقول : يا معلم ابراهيم فهمني " (٢) وهذا يدل على تجرده من الصوارف والشهوات والتقليد الذي يعمي ـ أحياناً ـ صاحبه ويصده عن الحق . حتى قال ـ رحمه الله عن نفسه : (.. أنا أحق من سمع الحق والتزمه وقبله ، سواء كان حلواً أو مراً ، وأنا أحق أن يتوب من ذنوبه التي صدرت منه ، بل وأحق بالعقوبة إذا كنت أضل المسلمين عن دينهم .. وما ينبغي لأحد أن يحمله تحننه لشخص ، وموالاته له على أن يتعصب معه بالباطل ، أو يعطل لأجله حدود الله تعالى ، بل قد قال النبي ﷺ : ((من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله في أمره))(٣) ...)(٤)

وبالجملة فإنه رحمه الله كان شديد التمسك بما دل عليه الكتاب والسنة ، إذا اتضح له الحق بالدليل الصحيح لم يحد عنه قيد أنملة ، وأظهره ولم يحابي أحداً فيه كبيراً كان أو صغيراً ، وهذا من تمام إخلاصه لله ﷻ وتحقيقه لتوحيد العبادة .

تجرده من الهوى :

لقد كان أبعد ما يكون عن اتباع الهوى ، أو الميل إلى خلاف الحق لأجل قرابة ، أو جاه أو منصب ، أو رياسة أو شرف أو غير ذلك من أعراض الدنيا ، بل إنه ـ رحمه الله ـ مع خصومه كان متجرداً من الهوى يحق الحق ويقبله ، ولا يحيف عليهم ولا يعين عليهم عدواً ، بل كان يرجوا لهم الهداية والتوفيق ، حتى إنه عفى عن كل من ظلمه ممن

---

(١) انظر البداية والنهاية ٣٣/١٤ـ٣٤ .

(٢) العقود الدرية ٢١ .

(٣) رواه أبو داود في الأقضية عن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ دون قوله : (في أمره) (ح٣٥٩٧) وأحمد في المسند ٨٢/٢ بلفظه . وقال أحمد شاكر ـ رحمه الله ـ " إسناده صحيح " المسند (ح٥٥٤٤).

(٤) الفتاوى ٢٧١/٣ - ٢٧٢ .

لم يكن عدواً لله ولرسوله ﷺ . وهذا لا شك ولا مرية في أنه من تحقيق التوحيد والإخلاص لرب العالمين بالتجرد من جميع الصوارف عن أمر الله واتباع شرعه .

ويتضح هذا من عدة مواقف له منها :

١) امتناعه من افتاء السلطان بقتل خصومه :

لما عرض عليه السلطان الناصر[1] أن يفتيه بقتل بعض القضاة بسبب عزلهم للسلطان الناصر ، وبسبب قيامهم على الشيخ وأذيتهم له بسجنه وإلحاق ما أمكن من الأذى به ، ففهم الشيخ مراد السلطان ، وأخذ يعظم القضاة والعلماء ، وينكر أن ينال أحداً منهم بسوء ، وقال له : إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم ، فقال له : إنهم آذوك وأرادوا قتلك مراراً ، فقال الشيخ : من آذاني فهو حل ، ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه ، وأنا لا أنتصر لنفسي ، وما زال به حتى حلم عنهم السلطان وصفح .

ولهذا كان قاضي المالكية ابن مخلوف[2] ـ الذي كان من أشد خصومه عليه ـ يقول : " ما رأيت مثل ابن تيمية حرّضنا عليه فلم نقدر عليه ، وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا."[3] وقال أيضاً : (ما رأينا أتقى من ابن تيمية ، لم نبق ممكناً في السعي فيه ولما قدر علينا عفا عنا)[4]

٢) سلامة باطنة :

ويتمثل هذا في تجرده من الغل والحسد والانتقام للنفس كما في موقفه المتقدم عندما طلب منه السلطان الفتيا في قتل بعض القضاة والفقهاء .

كما يتمثل في قوله لأخيه عندما دعا على ابن مخلوف وغيره ـ بعد أن حكموا عليه بالسجن ـ : (بل قل اللهم هب لهم نوراً يهتدون به إلى الحق)[5] وهذا ينبيء عن سلامة باطنه حتى على أشد خصومه منازعة له .

---

(١) اسمه محمد بن قلاوون ، وقد سبقت ترجمته ص١٥.

(٢) هو : علي بن مخلوف بن ناهض بن مسلم النويري المالكي ولد سنة ٦٣٤هـ وتوفي سنة ٧١٨ هـ انظر الدرر الكامنة ١٥٢/٤ ، والبداية والنهاية ٩٠/١٤ ،

(٣) انظر العقود الدرية ص ١٨٧ ، والبداية والنهاية ٥٤/١٤-٥٥ . وذيل طبقات الحنابلة ٤٠٠/٢ . والمنجد ١٠٧-١٠٨ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) الذيل على طبقات الحنابلة ٣٩٧/٢ . وسيرة شيخ الإسلام للمنجد ١٣٩ .

ومن ذلك قوله في احدى رسائله : (تعلمون ــ رضي ا الله عنكم ــ أني لا أحب أن يؤذى أحد من عموم المسلمين ــ فضلاً عن أصحابنا ــ بشيء أصلاً ، لا باطناً ولا ظاهراً ، ولا عندي عتب على أحد منهم ، ولا لوم أصلاً ، بل لهم عندي من الكرامة والإجلال والمحبة والتعظيم أضعاف أضعاف ما كان ، كل بحسبه ، ولا يخلو الرجل : إما أن يكون مجتهداً مصيباً أو مخطئاً ، أو مذنباً .

فالأول : مأجور مشكور ، والثاني مع أجره على الاجتهاد فمعفو عنه مغفور له، والثالث : فا لله يغفر لنا وله ولسائر المؤمنين ، فنطوي بساط الكلام المخالف لهذا الأصل ، كقول القائل : فلان قصر ، فلان ما عمل ، فلان أوذي الشيخ بسببه ، فلان كان سبب هذه القضية ، فلان كان يتكلم في كيد فلان ، ونحو هذه الكلمات التي فيها مذمة لبعض الأصحاب والإخوان ، فإني لا اسامح من آذاهم من هذا الباب ، ولا حول ولا قوة إلا با لله ..)[1] إلى آخر كلامه ــ رحمه ا الله ــ الذي يبرهن على سلامة باطنه ، وطهارة قلبه من أدران الحقد والحسد وحب الانتقام للنفس والانتصار لها ، فقد كان مسقطاً لحظوظ نفسه ، قائماً بحقوق ربه جلا وعلا . فرحمه ا الله رحمة واسعة .

٣) إحلاله لمن ظلمه :

أحل ــ رحمه ا الله ــ كل من ظلمه أو اعتدى عليه ، ممن لم يكن عدواً لله ولرسوله ﷺ وذلك في عدة أماكن كان آخرها قبل موته بيوم حينما قال : (.. قد أحللت جميع من عاداني وهو لا يعلم أني على الحق .

وقال ما معناه : إني قد أحللت السلطان الملك الناصر من حبسه إياي لكونه فعل ذلك مقلداً غيره معذوراً ، ولم يفعله لحظ نفسه ، بل لما بلغه مما ظنه حقاً من مبلّغه وا لله يعلم أنه بخلافه . وقد أحللت كل واحدٍ مما كان بيني وبينه إلا من كان عدواً لله ورسوله ﷺ)[2]

وقال : (وأنا وا لله من أعظم الناس معاونة على إطفاء كل شر فيها [3] وفي غيرها ، وإقامة كل خير ، وابن مخلوف لو عمل مهما عمل ، وا لله ما أقدر على خير إلا

---

(١) الفتاوى ٢٨/٥٢-٥٣ .

(٢) الأعلام العلية ٨٤ .والعقود الدرية ١٧٥ .

(٣) أي في الفتنة التي أثيرت ضده بعد تأليفه للواسطية وعقد المجالس لمناظرته ، التي انتهت بسجنه ظلماً وجوراً .

وأعمله معه ، ولا أعين عليه عدوه قط . ولا حول ولا قوة إلا با لله ، هذه نيتي وعزمي ؛ مع علمي بجميع الأمور ، فإني أعلم أن الشيطان ينزغ بين المؤمنين ولن أكون عوناً للشيطان على إخواني المسلمين ، ولو كنت خارجاً [1] لكنت أعلم بما أعاونه ؛ لكن هذه المسألة قد فعلوها زوراً[2] ، وا لله يختار للمسلمين جميعهم ما فيه الخيرة في دينهم ودنياهم، ولن ينقطع الدور وتزول الحيرة إلا بالإنابة إلى ا لله ، والاستغفار والتوبة وصدق الالتجاء ، فإنه سبحانه لا ملجأ منه إلا إليه ولا حول ولا قوة إلا با لله)[3] وهذا يدل على صدقه وإخلاصه في عمله الذي هو أساس العلم والعمل ورأس التوحيد ، كما يدل على تحقيقه للمحبة الخالصة لله ولرسوله وللمسلمين ، وسلامة صدره مما ينغص التوحيد أو ينقص في ثوابه . كما تدل على تجرده من الأهواء الشخصية وحب الذات والتسلط والانتقام للنفس ، الذي يضاد تحقيق كمال التوحيد .

٤) عرض قازان له أن يؤمره على حرَّان :

عندما خرج شيخ الإسلام ـ رحمه ا لله ـ إلى قازان وتكلم معه بشأن عزمه على غزو الشام ، فأغلظ الشيخ عليه في الكلام ، وطلب منه فك أسرى المسلمين ؛ بل وفك أسرى أهل الذمة ، ولما أراد أن ينصرف عرض قازان على الشيخ ـ رحمه ا لله ـ أن يعمر له بلده " حران " وقال له : إن أحببت أن أعمر لك بلد آبائك حرَّان ، وتنتقل إليه ، ويكون برسمك[4] . فقال الشيخ : لا وا لله ، لا أرغب عن مهاجر إبراهيم ﷺ ، واستبدل به غيره ." [5] فانظر ـ رحمك ا لله ـ إلى مدى تجرده عن متاع الدنيا وزخرفها ، ولو كان

---

(١) وذلك لأن هذه الرسالة أرسلها من السجن .

(٢) يقصد مسألة الأسماء والصفات وقوله بها بما دل عليه الكتاب والسنة ، فزوروا عليه كلاماً ما تكلم به ولا قاله، وعقدوا له مجلساً لمناظرته في دمشق فظهر فيه الحق وأذعن الفقهاء وسَلَّمُوا له قوله ، ثم طلب في مصر وعقد له مجلساً لم يَدَعُوه يتكلم فيه ، ثم حكموا عليه بالسجن ، ثم بعد خروجه بعد ١٨ شهراً افتعلوا عليه مسألة أخرى وهي : مسألة الإستغاثة هل يجوز أن يستغاث بالنبي ﷺ أو لا يجوز ، وما الفرق بين الاستغاثة والتوسل ، وكانوا قد ناظروه في ذلك ، ولم يسمعوا منه ، فحكم عليه ابن مخلوف بالسجن فسجن ـ رضي ا لله عنه ـ

(٣) الفتاوى ٢٧١/٣ .

(٤) أي بإمرتك ، وذلك بأن تكون أميراً عليها .

(٥) الأعلام العلية ٧٣ .

بعمله ذلك يطلب عرضاً من الدنيا لفرح بذلك العرض وطارت به نفسه ، إلا أنه ـ رحمه الله ـ قد تجرد عن الهوى بجميع صوره .

٥) اتهامه بأنه يسعى لنيل الملك والرياسة :

ومما يؤيد ذلك أيضاً : ما اتهمه به خصومه من أنه ـ رحمه الله ـ إنما يطلب الملك بأفعاله التي يقوم بها ، ووشوا به إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون، فأحضره بين يديه وقال له من جملة ما قال :

" إني أخبرت أنك قد أطاعك الناس ، وأن في نفسك أخذ الملك ، " فلم يكترث به الشيخ ، بل قال له بنفس مطمئنة وقلب ثابت ، وصوت عالٍ سمعه كثيرٌ ممن حضر : أنا أفعل ذلك ؟ والله إن مُلكك وملك المُغْل لا يُساوي عندي فلسين .

فتبسم السلطان لذلك وأجابه في مقابلته بما أوقع الله له في قلبه من الهيبة العظيمة : إنك والله لصادق ، وإن الذي وشى بك إليَّ كاذب .[١]

قوله كلمة الحق دون خوف من مخلوق :

قال البزار[٢] : (كان ﷺ من أعظم أهل عصره قوة ومقاماً وثبوتاً على الحق ، وتقريراً لتحقيق توحيد الحق ، لا يصده عن ذلك لوم لائم ، ولا قول قائل ، ولا يرجع عنه لحجة محتج ، بل كان إذا وضح له الحق يعض عليه بالنواجذ ولا يلتفت إلى مباين معاند ...) [٣]

وقال شيخ الإسلام ــ رحمه الله ــ في مناظرة الواسطية ، وذلك بحضور حاكم الشام الذي رأى ممالات الخصوم وتعصبهم ضد الشيخ ، (ورأى قلة العارف الناصر ، وخافهم ؛ قال : " أنت صنفت في اعتقاد الإمام أحمد ، فتقول هذا اعتقاد أحمد ، يعني والرجل يصنف على مذهبه فلا يعترض عليه ، فإن هذا مذهب متبوع ، وغرضه بذلك قطع مخاصمة الخصوم .

---

(١) الأعلام العلية ٧٤-٧٥ . وانظر الكواكب الدرية ٩٨ .

(٢) هو : عمر بن علي بن موسى الأزجي البزار ، من أصحاب ابن تيمية ، ولد سنة ٦٨٨هـ وتوفي سنة ٧٤٩هـ انظر ذيل طبقات الحنابلة ٤٤٤/٢ ، والرد الوافر ص ١٩٥ والدرر الكامنة ٢١١/٣ .

(٣) الأعلام العلية ٧٧ . وانظر ذيل طبقات الحنابلة ٣٩٣/٢ المنجد ١٣٥ .

فقلت : ما جمعت إلا عقيدة السلف الصالح جميعهم ، ليس للإمام أحمد اختصاص بهذا ، والإمام أحمد إنما هو مبلغ العلم الذي جاء به النبي ﷺ ، ولو قال أحمد من تلقاء نفسه ما لم يجيء به الرسول ﷺ لم نقبله ، وهذه عقيدة محمد ﷺ !! .

وقلت مراراً : قد أمهلت كل من خالفني في شيء منها ثلاث سنين فإن جاء بحرف واحد عن أحد من القرون الثلاثة .. ما يخالف ما ذكرته فأنا أرجع عن ذلك ...)[١] قال ذلك ـ رحمه الله ـ دون مجاملة للأمير أو خوفاً من الحضور ، بل قال كلمة الحق ، وصدق بما يعتقده ويدعو إليه ، دونما مماراة أو مجاراة لأحد ، وهذا من تمام تحقيق توحيد العبادة .

قال الذهبي : (كان بصيراً بطريقة السلف ، واحتج له بأدلة وأمور لم يُسبق إليها ، وأطلق عبارات أحجم عنها غيره ، حتى قام عليه خلق من العلماء بالمصرين[٢] فبدّعوه وناظروه ، وهو ثابت لا يداني ولا يُحابي ، بل يقول الحق إذا أدّاه إليه اجتهاده وحِدَّةُ ذهنه ، وسعة دائرته ، فجرى بينهم حملات حربية ، ووقعات شآمية ومصرية ، ورموه عن قوس واحدة ، ثم نجاه الله تعالى . وكان دائم الابتهال كثير الاستغاثة ، قوي التوكل ، رابط الجأش ...)[٣]

وقام مرة في المسجد الجامع وَبَيَّنَ أن ما عليه مشايخ البطائحية من لبس الأغلال من الحديد في أعناقهم وَتَمَيُّزِهِم عن الناس بلباس معين على وجه التعبد ، قاصدين إيهام الناس بأن هذا سيما أهل الموهبة الإلهية ، بين بطلان ما ذهبوا إليه ، وأن فعلهم هذا بدعة منكرة ، ووضح أنه لا يجوز التعبد ولا التقرب بذلك إلى الله ؛ لأنه عبادة بما لم يشرعه ويرتضيه .

---

(١) الفتاوى ٣/١٦٩ .

(٢) أي الشام ومصر

(٣) الدرر الكامنة ١/١٨٥-١٨٦ . والمنجد ١٦٧ .

وكان أتباعهم كثيرين . ومع ذلك فلم يتردد في قول الحق والصدع به على مرأى من الناس ومسمع ؛ دون خوف أو وجل . وقد تسبب ذلك في محن وقعت له بعد ذلك ، أظهر الله فيها الحق وأبطل الباطل .(١)

بل كان يصدع بالحق لا يخشى لومة لائم ، يقول الحق ولو كان مراً ، ولهذا لقي ما لقي بسبب إظهاره للحق وصدعه به ، حتى توفي وهو مسجون بسبب قوله كلمة الحق . وهذا كله يدل على تطبيقه لتوحيد العبادة ، فما تعبد العبد لله بعبادة أفضل من بيانه لميراث النبوة ، ونشره ما اندرس منها خاصة إذا كان الناس على خلافه .

هدمه للشركيات :

لقد سبق الحديث عن انتشار الشركيات في زمن شيخ الإسلام — رحمه الله — وتعلق كثير من الناس فيها ، وصرف العبادة لها من دون الله جل وعلا .

ولقد كان موقف ابن تيمية — رحمه الله — موقف العالم الفذ العامل ، فقد وقف من هذه الشركيات مواقف تمثلت في عدة أمور :

أحدها : إنكاره لهذه الشركيات وبيان حقيقتها ، وأن كثيراً من هذه المشاهد التي اتخذت أنداداً من دون الله لا تصح نسبتها لأصحابها .(٢)

والثاني : بيان بطلان هذه المعبودات ، والعبادات ، وذلك من خلال كتبه ورسائله ، ومناظراته ، ومناقشاته لأقوال المخالفين .(٣)

الأمر الثالث : إزالته لهذه الشركيات ، ومنعه للمتلبسين بشيء منها ، ومن ذلك ما ذكره ابن كثير — رحمه الله — أن : (تقي الدين بن تيمية راح إلى مسجد النارنج وأمر

---

(١) انظر الفتاوى ١١/٤٥٩-٤٥٠ . وانظر العقود الدرية ١٧٦ وما بعدها ، والذيل على طبقات الحنابلة ٢/٣٩٨ ، والكواكب الدرية ١٦٢ وما بعدها .

(٢) انظر الفتاوى ١٧/٥٠٠ ، ٢٧/٦١ ، ١٧٣ .

(٣) ومن ذلك تأليفه لكتاب الزيارة ، وحكم شد الرحال إلى المشاهد والأضرحة ، وقبور الأنبياء والأولياء ، انظر المجلد ٢٧ من الفتاوى حول تقرير هذه المسألة ، ومن ذلك مناقشاته للبطائحية وغيرهم ، ومناقشاته لبعض القضاة والفقهاء في الاستغاثة بالنبي ﷺ ، وبيانه للحق في قضية التوسل وحقيقته ، وسيأتي تفصيل كلامه عليه في الباب الأخير .

أصحابه ومعهم حجَّارون بقطع صخرة كانت هناك بنهر قلوط تزار ويُنذر لها ، فقطعها وأراح المسلمين منها ومن الشرك بها ، فأزاح عن المسلمين شبهة كان شرها عظيماً)[١]

كما كسر ـ رحمه الله ـ العمود المخلق الذي يرتاده كثير من الناس معتقدين فيه النفع والضر ، فقد استخار ـ رحمه الله ـ الله في الخروج إلى كسره ، فلما عزم على ذلك تسامع الناس أن الشيخ يخرج لكسره ، فاجتمع خلق كثير . قال الشيخ شرف الدين عبد الله بن تيمية : (فلما خرجنا نحوه وشاع في البلدان : ابن تيمية طالع ليكسر العمود المخلق ، صاح الشيطان في البلاد ، وضجت الناس بأقوال مختلفة ، هذا يقول : ما بقيت عين الفيجة تطلع ، وهذا يقول : ما ينزل المطر ، ولا يثمر شجر ، وهذا يقول : ما بقي ابن تيمية يطلع بعد أن تعرض لهذا ، وكل من يقول شيئاً غير هذا .

قال الشيخ شرف الدين : فما وصلنا إلى عنده إلا وقد رجع عنا غالب الناس ، خشية أن ينالهم منه في أنفسهم آفة من الآفات ، أو ينقطع بسبب كسره بعض الخيرات .

قال : فتقدمنا إليه وقلنا للحجارين : دونكم هذا الصنم ، فما جسر أحد منهم يتقدم إليه ، قال : فأخذت أنا والشيخ المعاول منهم وضربنا فيه ، وقلنا : ﴿ جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾[٢] وقلنا : إن أصاب أحداً منه شيء نكون نحن فداه ، وتابعنا الناس فيه بالضرب حتى كسرناه ، فوجدنا خلفه صنمين حجارة مجسدة مصورة طول كل صنم نحو شبر ونصف ...

فكسرناه و لله الحمد وما أصاب الناس من ذلك إلا الخير والحمد لله وحده ، واستمر الشيخ وأعوانه في تكسير الأصنام والقبور والأضرحة حتى ما بقي قبر أو صنم أو ضريح يعبد من دون الله تعالى . ومن ذلك :

صنم قبة اللحم : في العلافين الذي يعرف باسم مسجد الكف ، بلاطة سوداء يعتقد العامة أنها كف النبي علية الصلاة والسلام .[٣]

وقد كان هذا دأبه ينكر الشرك بالقول والفعل لا يخشى إلا الله وحده ، حتى أنه لما قال السلطان الناصر في معركة شقحب ـ حينما رأى كثرة التتار ـ : يا خالد بن

---

(١) البداية والنهاية ٣٦/١٤ . وشذرات الذهب ٩/٧ .وبدائع الزهور في وقائع الدهور ٤١٧/١ .

(٢) سورة الإسراء ٨١ .

(٣) أوراق مجموعة من حياة شيخ الإسلام ٧٠ .

الوليد ! قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ قل : يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين .[(١)]

فوجهه إلى توحيد الحق تبارك وتعالى في العبادة ، دون أن يرده كون ذلك القائل كبيراً من الكبراء ، بل إنه رحمه الله يقول الحق دائماً دون أن ينظر إلى مكانة من خالفه ، فلا يداري ولا يماري . فلم يكن يخاف إلا من الله .

خوفه من الله وحده :

لقد كان ـ رحمه الله ـ قائماً في نصر الدين ، وإظهار الحق بأدلة أظهر من السيوف ، وأجمع من السجوف[(٢)]، وأجلى من فلق الإصباح ، وأجلب من فلق الرماح ، وإذا وقفت في وجهه خطب تمزقت على كتفيه الدرع ، وانتثر السَّرد ،[(٣)] وماذاك إلا لأنه قائم بالحق لله وحده ، لا يخاف سواه ولا يرجو جزاءً ولا شكوراً إلا منه ، ولهذا فهو يقول الحق لا يخاف لومة لائم ، ولا سطوة جائر ، ولا كيد كائد ، ولا حسد قرين أو كبر مكابر. وهذا من تمام تحقيقه التوحيد وإخلاص العبادة لله رب العالمين .

(وكان يقول : لن يخاف الرجل غير الله إلا لمرض في قلبه ، فإن رجلاً شكى إلى أحمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة فقال : لو صححت لم تخف أحداً ، أي : خوفك من أجل زوال الصحة من قلبك .)[(٤)]

أرسل ـ رحمه الله ـ رسالة من السجن يذكر فيها نعم الله عليه ، ويبين أنه على الحق ولا يمكن أن يتزعزع عما ذكره من الحق المبين ، ويذكر فيها أن الحق الذي سجن من أجله (ليس له ؛ بل لله ولرسوله وللمؤمنين من شرق الأرض إلى مغربها ،[قال] وأنا لا يمكنني أن أبدل الدين ، ولا أنكس راية المسلمين ، ولا أرتد عن دين الإسلام لأجل فلان وفلان .

---

(١) انظر البداية والنهاية ٢٥/١٤ ، والكواكب الدرية ٩٦ ، وتاريخ ابن الوردي ٤١١/٢ .

(٢) السجوف هي : الستران المقرونان بينهما فتحة ، فكل شق منه سجف ، والجمع أسجاف وسُجُوف ، وأسجفت الستر أي أرسلته وأسبلته . اللسان ١٤٤/٩ مادة سجف .

(٣) انظر الكواكب الدرية ٩٨ . والسرد هو : خرز ما يخشن ويغلظ ، كنسج الدرع وخرز الجلد ، واستعير لنظم الحديد ، قال تعالى : ﴿ وقدر في السرد ﴾ المفردات ٢٣٠ سرد .

(٤) الأعلام العلية ٧٤ . والكواكب الدرية ٩٤ .

نعم يمكنني أن لا أنتصر لنفسي ، ولا أجازي من أساء إلى وافترى عليَّ ، ولا أطلب حظي ، ولا أقصد إيذاء أحد بحقي ، وهذا كله مبذول مني و لله الحمد ، ونفسي طيبة بذلك ...) إلى أن قال :

و (أنا على أي شيء أخاف ؟! إن قتلت كنت من أفضل الشهداء ! وكان عليَّ الرحمة والرضوان إلى يوم القيامة ، وكان على من قتلني اللعنة الدائمة في الدنيا ، والعذاب في الآخرة ! ليعلم كل من يؤمن با لله ورسوله أني إن قتلت فلأجل دين ا لله ، وإن حبست فالحبس في حقي أعظم نعم ا لله عليَّ ، ووا لله ما أطيق أن أشكر نعمة ا لله علي في هذا الحبس ، وليس لي ما أخاف الناس عليه ، لا إقطاعي ، ولا مدرستي ، ولا مالي ، ولا رياستي وجاهي . وإنما الخوف عليكم إذا ذهب ما أنتم فيه من الرياسة والمال ، وفسد دينكم الذي تنالون به سعادة الدنيا والاخرة ، وهذا كان مقصود العدو الذي أثار هذه الفتنة .)[1]

المحن التي امتحن بها الشيخ :

لقد امتحن الشيخ ـ رحمه ا لله ـ مرات عديدة بسبب ما يعتقده من الحق الثابت لله ـ جلا وعلا ـ في أسمائه وصفاته ، وما يجب له من التوحيد والإخلاص لله رب العالمين ، ومحاربة أهل الأهواء والبدع ، فامتحن في الحموية والواسطية وتحقيق العبودية لرب البرية ، وذلك عندما أظهر عقيدة السلف في هذه المسائل ، ورد على الأشاعرة في الأسماء والصفات ، وبين الحق الثابت لله فيها . فثارت ثورتهم ونازعوه وناصبوه العداء ، وكادوا له المؤامرات والدسائس ، ووشوا به إلى السلطان ونوابه ، وألَّبوا عليه ، وعقدوا له مجالس مناظرات فيما يعتقده ويدين ا لله به ، انتهت و لله الحمد والمنة بظهور الحق وإحقاقه ، ودمغ الباطل وإخفاقه ، وما إن تنتهي مسألة إلا ويُنَبِشُ الخصوم عن أخرى . فكان هذا دأبهم ، إلى أن استطاعوا حبسه في قلعة دمشق التي توفي فيها .

كما أنه ـ رحمه ا لله ـ رد على الفلاسفة وأظهر بطلان ما هم عليه ، وتَوَّبَ بعض رؤسائهم ، ـ وذلك حينما نُفِيَ إلى الاسكندرية ـ وبَيَّنَ عوار مذهبهم ، فناصبه العداء

---

(١) الفتاوى ٣/٢١٥-٢١٦ .٢٥٩.

بعض المنتسبين إلى العلم بسبب بيانه لحقائق رؤسائهم كابن سيناء والفارابي ونحوهما ، وما ذلك إلا لكون هؤلاء العلماء يحسنون الظن بأولئك .

كما بين ـ رحمه الله ـ عوار المنتسبين إلى الطرق الصوفية والسلوك المبتدع من الأحمدية البطائحية والاتحادية وأهل الحلول ونحوهم . وبين ضلال أئمتهم كابن عربي والحلاج والتلمساني وغيرهم ممن سلك طرقاً للعبادة مبتدعة .

فما كان من أولئك - وكانوا كثيري الأتباع والانتشار - إلا أن رفعوا أمره إلى السلطان ، فأقيمت له المناظرات ، وأوذي بسبب ذلك وسجن ، بل وضرب وهو جالس في المسجد ، دفعهم إلى ذلك زعمهم أنه - رحمه الله - ينتقص الأولياء والأصفياء ، الذين ذكر شيخ الإسلام ـ رحمه الله - أن اعتقادهم لا يبعد عن اعتقاد فرعون إن لم يكن هو هو .[١]

وقد لقي ـ رحمه الله ـ ما لقي هو وأنصاره من الحنابلة ومن كان على طريقتهم. حتى إن الحنابلة في مصر قد ضيق عليهم تضييقاً شديداً بسبب اعتقادهم وسلوكم المسلك الحق الذي أظهره وبينه شيخ الاسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ

قال الحافظ ابن سيد الناس اليعمري المصري[٢] : " ثم لم يخلُ بعد ذلك من فتنة بعد فتنة ، ولم ينتقل طول عمره من محنة إلا إلى محنة ، إلى أن فُوِّض أمره لبعض القضاة ؛ فقلد ما تقلد من اعتقاله ، ولم يزل بمحبسه ذلك إلى حين ذهابه إلى رحمة الله تعالى وانتقاله . وإلى الله ترجع الأمور ، وهو المطلع على خائنة الأعين وما تخفي الصدور .)[٣]

وقد تلقى ـ رحمه الله ـ تلك المحن وهو ثابت الجأش ، مطمئن القلب ، متوكلاً على الحي القيوم ، معتمداً عليه في النصر والتأييد بإظهار الحق ، لا يلتفت إلى نصر مخلوق ، ولا يعول على إعانة بشر [٤] صابراً محتسباً ، أجره على الله ؛ بل شاكراً لله

---

(١) انظر العقود الدرية ٩-١٠ .

(٢) هو محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس اليعمري أبو الفتح من حفاظ الحديث ، وقاضي قضاة شهبة ، ولد في القاهرة سنة ٦٧١هـ وتوفي فيها سنة ٧٣٤هـ . قال ابن العماد الحنبلي : " لم يكن في مصر مجموعة مثله في حفظ الأسانيد والمتون والعلل ". شذرات الذهب ١٠٩/٦ . وانظر الدرر الكامنة ٤٨٢/٥ ، والأعلام للزركلي ٣٤/٧ .

(٣) العقود الدرية ص١ .

(٤) انظر العقود الدرية ١٣٥-١٣٧ .

ذاكراً راجياً لثوابه خائفاً من عقابه ، موقناً بنصر الله له وإظهار الحق المبين ، وقمع الباطل المضمحل ، سائلاً المولى ﷻ أن يثبته على الحق بالقول الثابت ، مبشراً أصحابه وهو في سجنه بأنواع من الخير والسرور بما لم يخطر في الصدور ، يعلم أن ما سجن من أجله وأوذي بسببه ليست قضية شخصية الحق فيها له ؛ بل لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين من شرق الأرض ومغربها .[1]

تحقيقه للتوكل :

لقد كان ـ رحمه الله ـ من المحققين للتوكل على ربهم جلا وعلا ، فقد ظهر ذلك في صدق إيمانه بالله ﷻ وقوة اعتماده وتوكله عليه ، بل وإيمانه بقضاء الله وقدرة والتسليم الكامل ؛ بل والرضى والاذعان لذلك . وقد ظهر ذلك في مواقفه وأحواله الكثيرة .

فقد كان يبلغ به الأذى من خصومه ، فيكون توكله على ربه وثقته به ظاهرة لكل من يشاهده أويسمع قوله ، ولعل مما يبين ذلك بعض الأمثلة من مواقفه وأحواله والتي منها :

١) موقفه من قازان

عندما عزم قازان [2] على قصد دمشق ودخولها وتمكين ملك الأرمن النصارى[3]من رقاب المسلمين مقابل مبلغ من المال ، خرج إليه ابن تيمية وأعيان دمشق ، فكلمه كلاماً شديداً ، خلاف رأيه ، وقرب منه في أثناء حديثه حتى كاد يلاصق ركبته ركبة السلطان ، وأومأ بيده إلى صدره ، وواجهه ودرأ في نحره ، والسلطان مقبل عليه بكليَّته مصغ لما يقول شاخص إليه لا يُعرض عنه . ثم طلب قازان منه الدعاء ، فرفع الشيخ يديه ودعا دعاء منصف أكثره على قازان ، وقازان يؤمن على دعائه ! .

---

(١) انظر العقود الدرية ١٧١وما بعدها ، والفتاوى ٣/٣١٤-٣١٥ .

(٢) قازان هو : أحد ملوك التتار العتاه وكان قد أسلم إلا أنه تسلط على المسلمين قتلاً ونهباً . واسمه محمود بن أزغون بن أبغى ، توفي سنة ٧٠٣هـ البداية والنهاية ١٤/٣٠ .

(٣) هو نارين داود ملك إحدى دول الأرمن انظر النجوم الزاهرة ٧/١٣٩

وكان مما قال له : (أنت تزعم أنك مسلم ومعك قاض وإمام وشيخ ومؤذنون ــ على ما بلغنا ــ فغزوتنا ، وأبوك وجدك هولاكو كانا كافرين وما عملا الذي عملت ، عاهدا فوفيا ، وأنت عاهدت فغدرت ، وقلت فما وفيت وجُرت)[1] . وأمره بحقن دماء المسلمين ورد أسراهم . بل وأمره بردِّ أسرى أهل الذمة ، فَبَلَّغَهُ الله ما أراد ، وحفظ على المسلمين دماءهم وأعراضهم .[2]

فكان هذا الموقف منه رحمه الله موقف المؤمن الموحد الذي لا يخاف إلا من الله، ولا يخشى سوى الله ، لا سيما وأن قلوب كثير من الناس في ذلك الوقت تضطرب عند ذكر التتار[3] ، فكان ــ رحمه الله ــ في هذا الموقف رابط الجأش قوي العزيمة ، وهذا حال من عظم الله في قلبه وعرفه حق المعرفة فإنه يستصغر ما دونه .

٢) *ثباته عندما عزم التتار دخول الشام ومصر .*

عندما وردت الأخبار بقصد التتار بلاد الشام وعزمهم على دخول الشام ومصر ؛ انزعج الناس انزعاجاً شديداً وطاشت عقولهم ، وازدادوا ضعفاً على ضعفهم ، وشرعوا في الهرب إلى بلاد مصر وغيرها من الحصون ، وارتفعت أسعار المركوبات وإجرتها ، وبيعت الأمتعة من الثياب ونحوها بأرخص الأثمان .

فما كان من شيخ الاسلام ــ والحال هذه ــ إلا أن جلس في الجامع بمجلسه ، يحرض الناس على القتال ، ويسوق لهم الأدلة الواردة في ذلك ، وينهاهم عن الاسراع في الفرار ، ويرغبهم في الانفاق في سبيل الله ، للذب عن المسلمين ، وعن بلادهم وأموالهم ، وبين أن جهاد التتر في هذه المرة واجب .

وخرج إلى الجنود وَثَبَّتَهُم وَرَبَط من جأشهم ووعدهم بالنصر والظفر على الأعداء ، وكان يحلف ــ رحمه الله ــ للأمراء والناس بأنكم منصورون في هذه الكرة ، فيقولون له قل إن شاء الله فيقول : إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً ، وكان يتأول في ذلك قوله تعالى : ﴿ ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله ﴾[4] .

---

(١) الكواكب الدرية ٩٣ .

(٢) الأعلام العلية ٧١ت٧٤ والكواكب الدرية ٣٩-٩٤ . البداية والنهاية ٨/١٤ . وتاريخ ابن الوردي ٤١٠/٢.

(٣) انظر البداية والنهاية ٧/١٤-١٤ .

(٤) سورة الحج ٦٠ .

وبين أن قتال هؤلاء التتار مع أنهم يظهرون الإسلام مثل قتال الخوراج الذي خرجوا على علي ومعاوية . ورأوا أنهم أحق بالأمر منهما .(١)

وهكذا يكون أهل الإيمان والتوحيد ، أهل علم وعمل ، أهل قول وتطبيق ، أهل حق وصدق ، وهذا إنما ينبئ عن إيمان راسخ ، وتوحيد خالص لرب العالمين ، ظهر في أحلك الظروف والمواقف ، وقد انتدب ليستحث سلطان مصر للخروج لملاقاة التتار والدفاع عن المسلمين في الشام ، وكان السلطان قد خرج بالجيش ثم رجع ، فلم يدركه شيخ الإسلام وإلا وقد تفارط الحال ، فاستحثه على ملاقاة التتار حتى لم يرجع إلى الشام إلا بصحبة الجيش .(٢)

٣) المحن التي مرت به :

امتحن ـ رحمه الله ـ محناً عديدة كان فيها رابط الجأش متوكلاً على الله حق التوكل ، ظهر فيها تطبيقه لتوحيد العبادة ظهوراً جلياً ، خاصة في جانب التوكل ، ومن ذلك ما يلي :

أ) محنته في الواسطية وطلبه إلى مصر

امتحن ـ رحمه الله ـ في الواسطية ، وعقد له مجلس في الشام ، ثم جاء طلب السلطان له بإيعاز من نصر المنبجي (٣) يأمره بالتوجه إلى مصر ، الذي كان يوقن ـ رحمه الله ـ أن سيلحقه الأذى بسبب ذلك (٤) ، فتلقى ـ رحمه الله ـ ذلك الأمر بصدرٍ رحب ونفس مطمئنة ، لكن نائب السلطان في دمشق أشار عليه بترك التوجه إلى مصر ، وأنه

---

(١) انظر البداية والنهاية ١٤/١٤ -١٦ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٢٥-٢٦ . وانظر مدارج السالكين ٤٨٩/٢ . وتاريخ ابن الوردي ٤١١/٢ .

(٢) انظر وقائع أحداث هذه القضية في المصدر السابق ١٤/١٤-١٥ .

(٣) هو نصر بن سليمان ، أبو الفتح المنبجي ، توفي سنة ٧١٩ ، كان يغالي في محبة ابن عربي الصوفي ، وكان الجاشنكير ـ السلطان يعتقد فيه ـ أنشأ له زاوية يتعبد فيها ويتردد عليه فيها الأكابر ، دفن فيها . انظر البداية والنهاية ٩٥/١٤ ، والدرر الكامنة ١٦٥/٥ ، وطبقات الأولياء لابن الملقن ص ٤٧٧ ، والخطط للمقريزي ٤٣٢/٢ .

(٤) يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ ولما طلب إلى الديار المصرية ، وأريد قتله ـ بعدما أنضجت له القدور ، وقلبت له الأمور ـ اجتمع أصحابه لوداعه ، وقالوا : قد تواترت الكتب بأن القوم عاملون على قتلك ..) المدراج ٥١٠/٢ .

سيقوم بمكاتبة السلطان لأجل ذلك ، فامتنع الشيخ ـ رحمه الله ـ وذكر أن في توجهه إلى مصر مصالح كثيرة .[(١)] فانظر ـ رحمك الله ـ إلى مدى توكله على ربه ، وقوة إيمانه ورباطة جأشه .

ثم ركب إلى مصر متوكلاً على الله ﷻ في إعزاز دينه وإظهار الحق ، وفي طريقه مرَّ بمدينة غزة وعقد فيها مجلساً علمياً عظيماً ، دون أن يكون ما طلب لأجله شاغلاً له عن تعليم الناس وإرشادهم إلى الحق .[(٢)] وهذا كله ينبئ عن قوة يقين وثقة بأن الله ﷻ لا يضيع المحسنين ، وأنه مع أولياءه بالتأييد والنصر ، كما جاء في الحديث القدسي الذي كان الشيخ ـ رحمه الله ـ كثيراً ما يكرره ، وفيه : أن الله ﷻ يقول : ((من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته .))[(٣)] فكأنه ـ رحمه الله ـ بلغ هذه المرتبة حتى أصبح لا يخاف إلا من الله ، ولا يرجو إلا الله ، ولا يتوكل إلا على الله . ثم إنه لما وصل عقدوا له مجلساً ناظروه فيه وتحاملوا عليه فيه ، وقد تقدم شيء من هذا .

ب) نفيه إلى الاسكندرية :

نفيه إلى الاسكندرية شبيه بطلبه إلى مصر فإنهم لما أجمعوا عليه ، وأرادوا التخلص منه ، إلا أنهم لم يجرؤا على إصدار فتوى بقتله ، أرادوا أن يأتي ذلك من غيرهم ، فنظروا في البلاد فلم يجدوا أنسب من الاسكندرية ، حيث كان فيها أتباع الفلاسفة الذين عششوا فيها وفرخوا ، وغلاة المتصوفة من الملاحدة أتباع ابن عربي وغيره ، رجاء أن يقتلوه ، ومنعوا أحداً من الذهاب معه . يقول خادمه : (فلما كان بعد العصر ـ وقد جاء الأمر بنقله إلى الاسكندرية ـ وقفت أبكي فقال لي الشيخ : لا تبك ، ما بقيت هذه المحنة تبطيء ! . ولما ركب على باب الحبس ، قال له إنسان : يا سيدي هذا مقام الصبر،

---

(١) انظر العقود الدرية ص ١٦٤ .

(٢) انظر الكواكب الدرية ١٢٦-١٢٨ . والعقود الدرية ص ١٦٥ ، والبداية والنهاية ١٤/٣٧-٣٨ .

(٣) رواه البخاري في الرقاق (ح٦٥٠٢) وسيأتي تخرجه مستوفياً . انظر فهرس الأحاديث حرف العين .

فقال له : بل هذا مقام الحمد والشكر ، والله إنه نازل على قلبي من الفرح والسرور شيء لو قُسِّم على أهل الشام ومصر لفضل عنهم ، ولو أن معي في هذا الموضع ذهباً وأنفقته ما أديت عشر هذه النعمة التي أنا فيها ! ...

ثم قال : يا إبراهيم انزل الشام وقل لأصحابنا وحق القرآن ــ ثلاث مرات ــ ما بقيت هذه المحنة تبطيء وتنفرج قريباً فوق ما في النفوس ، ويقلب الله مملكة بيبرس[1] أسفلها أعلاها ، وليجعلن الله أعز من فيها أذل من فيها)[2] فوقع ما ذكر[3] ــ رحمه الله ــ[4] .

ثم إنه كتب رسالة من سجنه هذا إلى أصحابه يخبرهم بما هو فيه من النعم العظيمة ، بدأها بقوله : (بسم الله الرحمن الرحيم . ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ والذي أُعَرِّف به الجماعة ــ أحسن الله إليهم في الدنيا والآخرة وأنعم عليهم نعمه الظاهرة والباطنة ــ فإني والله العظيم الذي لا إله إلا هو في نعم من الله ما رأيت مثلها في عمري كله ، وقد فتح الله سبحانه وتعالى من أبواب فضله ونعمته وخزائن جوده ورحمته ما لم يكن بالبال ، ولا يدور في الخيال ... يسرها الله تعالى حتى صارت مقاعد ، وهذا يعرف بعضها بالذوق[5] من له نصيب من معرفة الله وتوحيده ...)[6] وما ذلك إلا لكمال تحقيقه للتوحيد ، وتحقيقه للتوكل على رب العبيد ، جل جلاله وعز سلطانه .

---

(١) هو : بيبرس البرجي الجاشنكير ، تسلطن سنة ٧٠٨هـ ، وكان يعتقد في نصر المنبجي ولذلك أوذي ابن تيمية زمن سلطته ، وقتل في أواخر ذي القعدة سنة ٧٠٩ هـ بعد رجوع الناصر إلى السلطة . قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ : (.. وكان الناصر لما تحرك من الكرك ودخل الشام وقع على بيبرس الخذلان ، فصار كل ما يدبره يخرج منعكساً ، ولم يزل على ذلك حتى خذل) الدرر الكامنة ٤٨/٢ . وانظر البداية والنهاية ٥٧/١٤.

(٢) ناحية من حياة شيخ الاسلام بقلم خادمه ابراهم أحمد الغياثي ص٣١-٣٣ .

(٣) فإنه لم يبق ــ رحمه الله ــ في المعتقل سوى ثمانية أشهر ، حيث عاد السلطان الناصر إلى السلطة ، فكان جل همه إخراج الشيخ ، حتى إنه لما وصل في يوم عيد الفطر سنة ٧٠٩ هـ وجه إليه ثاني العيد يطلبه ، فقدم الشيخ فأكرمه أيما إكرام . انظر البداية والنهاية ٥٣/١٤-٥٤ ، والعقود الدرية ١٨٤ وما بعدها .

(٤) انظر الدرر الكامنة ٤١/٢-٤٨ ، والنجوم الزاهرة ٢٣٢/٨ ، والمنهل الصافي ٤٦٧/٣ .

(٥) ويدل على هذا قوله ﷺ : ((ذاق حلاوة الإيمان من رضي بالله رباً ...)) الحديث

(٦) الفتاوى ٣٠/٢٨ .

وكتب أخوه شرف الدين[١] رسالة وجهها إلى أخيه بدر الدين[٢] يذكر فيها نعم الله عليه وعلى أخيه ويعددها فيقول: (.. ومنها نزل الأخ الكريم بالثغر المحروس ، فإن أعداء الله قصدوا بذلك أموراً يكيدون بها الإسلام وأهله ، وظنوا أن ذلك يحصل عن قريب ، فانقلبت عليهم مقاصدهم الخبيثة المعلومة ، وانعكست من كل الوجوه ، وأصبحوا وما زالوا عند الله وعند العارفين من المؤمنين سود الوجوه ، يتقطعون حسرات وندماً على ما فعلوه ، وأقبل أهل الثغر أجمعون إلى الأخ ، متقبلين لما يذكره وينشره من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والحط والوقيعة في أعدائهما من أهل البدع والضلالات والكفر والجهالات ، خصوصاً أخبث الملاحدة والاتحادية ثم الجهمية ، واتفق أنه وجد بها إبليس إلحادهم قد باض وفرخ ، ونصب بها عرشه ودَوَّخ ، وأضل بها فريقي السبعينية والعربية [٣] فمزَّق الله بها بقدومه الثغر جموعهم شذر مذر ، وهتك أستارهم ، وكشف رمز إلحادهم وأسرارهم وفضحهم ، واستتاب جماعات منهم ، وتوَّب رئيساً من رؤسائهم ، وصنف هذا التائب كتاب في كشف كفرهم وإلحادهم)[٤] وهكذا يكون صاحب المعتقد الصحيح ، الذي انطبع حبه لله وإخلاص التوحيد والعبادة له في جميع أموره التعبديه ، كالغيث ينفع الله به أنَّا وقع .

ج) عزمه على دخول النار إظهاراً للحق وإبطالاً للباطل :

حدث هذا حينما عقدت له مناظرة مع زعماء البطائحية ، بسبب شكاية زعماء البطائحية الشيخ إلى السلطان [٥] ، طالبين التدخل لكف شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ عن

---

(١) هو أخ شقيق لشيخ الإسلام واسمه : عبد الله بن عبد الحليم ، ولد سنة ٦٦٦هـ وكان عالماً متبحراً ، ذهب مع أخيه إلى مصر ، وناظر خصومه وحده فانتصر عليهم . توفي ـ رحمه الله ـ سنة ٧٤٧ هـ انظر العقود الدرية ١٨٠ ، وذيل طبقات الحنابلة ٣٨٢/٢ وشذرات الذهب ٧٦/٦ ، وجلاء العينين ص ٤٢ .

(٢) هو : بدر الدين أبو القاسم محمد بن خالد الحراني ، أخو لشيخ الإسلام من الأم ، كان عالماً فقيهاً إماماً ، تولى التدريس عن أخيه تقي الدين أحمد بن عبد الحليم . توفي سنة ٧١٧ هـ . انظر ذيل طبقات الحنابلة ٣٧٠/٢ ، وشذرات الذهب ٤٥/٦ .

(٣) السبعينية نسبة إلى ابن سبعين ، والعربية : نسبة إلى ابن عربي .

(٤) العقود الدرية ص ١٨٠-١٨٣ .

(٥) وكانت شكايتهم على شكل عجيب ، حيث اتفقوا مع بعض الأكابر في الدولة على تحقيق مطلوبهم ، فخرجوا من المسجد الجامع بعد صلاة الجمعة ، وعمدوا إلى قصر الإمارة محدثين الضجيج والعجيج والإزباد =

فضح طريقتهم ، وبيان بدعهم وخزعبلاتهم وعباداتهم البدعية ، طالبين راغبين أن يسلم لهم أحوالهم . فعقد السلطان لهم مجلساً للمناظرة دعي فيه كبراؤهم وحضره من شاء من الناس ، انتهى بأن ألزمهم فيه شيخ الإسلام باتباع الكتاب والسنة ، وأخذ عليهم أن من خالفهما ضربت عنقه .

وكان مما قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ بشأن تلك الحادثة : (.. فاستخرت الله تعالى تلك الليلة ، واستعنته واستنصرته واستهديته ، وسلكت سبيل عباد الله في مثل هذه المسالك ، حتى ألقي في قلبي أن أدخل النار عند الحاجة إلى ذلك ، وأنها تكون برداً وسلاماً على من اتبع ملة إبراهيم إمام الحنفاء ..)[١] وذكر ـ رحمه الله ـ أنه قال للأمير : (.. قد استخرت الله سبحانه أنهم إن دخلوا النار أدخل أنا وهم ومن احترق منا ومنهم فعليه لعنة الله ، وكان مغلوباً ، وذلك بعد أن تغسل جسومنا بالخل والماء الحار)[٢] فلم يستطع شيخ البطائحية أن يفعل ذلك ، بل إن شيخ الإسلام خفف ذلك إلى أن يؤتى بقنديل يضع كل منهما أصبعه بعد الغسل ، فمن احترقت اصبعه فعليه لعنة الله . فلم يستطع أن يفعل ذلك الشيخ الصوفي شيئاً فضج الناس وقالوا : ﴿ فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴾[٣] .

د) موقفه عندما أخرجت كتبه :

قال في العقود الدرية : (فلما كان قبل وفاته بأشهر ورد مرسوم السلطان بإخراج ما عنده كله ، ولم يبق عنده كتاب ولا ورقة ، ولا دواة ولا قلم ، وكان بعد

= والإرعاد ، واضطراب الرؤوس والأعضاء ، والتقلب في نهر بردى ، فلما رأى الأمير حالهم سأل عنهم ، وأمر بإدخال بعضهم فشكوا عليه ، فأرسل الأمير إلى الشيخ يطلب منه الحضور لعقد مناظرة بينه وبينهم . قال الشيخ ـ رحمه الله ـ : (فلما علمت ذلك ألقي في قلبي أن ذلك لأمر يريده الله من إظهار الدين ، وكشف حال أهل النفاق المبتدعين ، لانتشارهم في أقطار الأرضين ، وما أحببت البغي عليهم والعدوان ، ولا أن أسلك معهم إلا أبلغ ما يمكن من الإحسان) الفتاوى ٤٥٤/١١ . قال : "وأرسلت إليهم من عرفهم بصورة الحال وأنه إن حضر ظهر الحق وبطل الباطل ؛ وكان عليه وبالاً يكثر فيه القيل والقال عليهم ؛ لأن من قعد قدام رماح أهل الإيمان ، فقد أوقع نفسه في الهوان ". انظر تفاصيل الحدث في الفتاوى ٤٤٥/١١-٤٧٥ .

(١) الفتاوى ٤٥٥/١١ .

(٢) المصدر السابق ٤٥٩ ، وانظر ص ٤٦٥ . وبين ـ رحمه الله ـ سبب اشتراط ذلك بأن لهم حيلاً يصنعونها لأجل الاتصال بالنار ؛ من دهن الضفادع ، وقشر النارنج ، وحجر الطلق ونحوه . نفس المصدر

(٣) سورة الأعراف ١١٨-١١٩ .

ذلك إذا كتب ورقة إلى بعض أصحابه يكتبها بفحم ، وقد رأيت أوراقاً عدة بعثها إلى أصحابه ، وبعضها مكتوب بفحم ، منها ورقة يقول فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، ونحن لله الحمد والشكر في نعم متزايدة متوافرة ، وجميع ما يفعله الله فيه نصر الإسلام وهو من نعم الله العظام !..) وذكر فيها ـ رحمه الله ـ أن في إخراج كتبه من عنده فيه خير كثير ، حيث وزعت على خصومة فعم النفع بها ، وقامت الحجة على الخصم المعاند [1] وكان مما قال : (وخروج الكتب كان من أعظم النعم ، فإني كنت حريصاً على خروج شيء منها ، لتقفوا عليه ، وهم كرهوا خروج الأخنائية فاستعملهم الله تعالى في إخراج الجميع ، وإلزام المنازعين بالوقوف عليه ، وبهذا يظهر ما أرسل الله به ورسوله من الهدى ودين الحق ...

إلى أن قال : (كل ما يقضيه الله تعالى فيه الخير والرحمة والحكمة : ﴿ إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ﴾[2] القوي العزيز ولا يدخل على أحد ضر إلا من ذنوبه . فالعبد عليه أن يشكر الله ويحمده دائماً على كل حال ، ويستغفر من ذنوبه ، فالشكر يوجب المزيد من النعم ، والاستغفار يدفع النقم ، ولا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له ((إن أصابته سراء شكر ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له))[3]...)[4]

ومثل هذا الموقف موقفه عندما اعتقل في هذا الاعتقال الأخير بسبب مفتعل مفترى عليه ، وهو زعمهم أنه يحرم زيارة قبر النبي ﷺ وقبور الأنبياء .

فلما حضر إليه من جهة نائب السلطنة مرسولان أخبراه بمرسوم السلطان ـ الملك الناصر ـ القاضي باعتقاله بقلعة دمشق . فما كان منه إلا أن أظهر السرور والفرح بذلك وقال : أنا كنت منتظراً لذلك ، وهذا فيه خير كثير ومصلحة كبيرة .[5]

---

(١) العقود الدرية ٢٤٢-٢٤٥ .

(٢) سورة يوسف ١٠٠

(٣) قطعة من حديث ، وسيأتي تخريجه انظر فهرس الأحاديث حرف العين " عجباً لأمر المؤمن "

(٤) العقود الدرية ص ٢٤٥ . وانظر الفتاوى ٢٨/٤٧ـ٤٨ ، وتاريخ ابن الوردي ٢/٤١٢ .

(٥) انظر البداية والنهاية ١٤/١٢٣ .

وهذا ينبئ عن قوة يقينة وإيمانه ، ويبين ثباته على التوحيد والإخلاص لرب العالمين. حيث تلقاه بالقبول والرضى والتسليم والانقياد لقضاء الله وقدره ، وإيماناً وتسليماً بما قضاه الله وقدره .

وفعلاً فقد كان في سجنه خير كثير له وللأمة ، حيث ظهرت كتبه وانتشرت وذاع صيته ، وانتشر الحق في مسألة الزيارة . كما أن من الخير الكثير الذي عاد عليه ، خلوته عن الناس ، وتفرغه للتفسير والنظر في كتاب الله ، والإقبال على الله بالعبادة والذكر والدعاء وتلاوة القرآن حتى كان يختمه كل عشرة أيام إلى أن توفاه الله ﷻ ، فرحمه الله رحمة واسعة ، وأسكنه فسيح جناته .[1]

وفاته :

توفي ـ رحمه الله ـ وهو على حاله مجاهداً صابراً محتسباً ، لم يجبن ، ولم يهلع ، ولم يضعف ، بل كان ـ رحمه الله ـ إلى وفاته مشتغلاً بالله ، قائماً بحقوقه ، مؤدياً حقوق خلقه التي أوجبها الله عليه من النصح وبيان الحق لهم وغير ذلك .

وقد توفي ـ رحمه الله ـ يوم الأثنين العشرين من ذي القعدة سنة ٧٢٨ هـ على أثر مرض ألم به أياماً يسيرة .

وكانت وفاته مفاجئة للناس جميعاً ، ومصيبة عظيمة .

وذكر المؤرخون أن جنازته من الجنائز النادرة ، فقد كانت شبيهة بجنازة الإمام أحمد كثرة وعدداً ، حتى أنه لم يبق من الناس إلا ثلاثة أنفس : كانوا قد اشتهروا بمعاداته ، فاختفوا من الناس خوفاً على أنفسهم بحيث غلب على ظنهم أنهم متى خرجوا رجمهم الناس فأهلكوهم[2] وصُلِيَ عليه ثلاث مرات لشدة ازدحام الناس عليه ، ولعدم تمكن الكثير من الصلاة عليه في الجامع . وما وصل خبر موته إلى بلد إلا شرعوا في الصلاة عليه ، ورثي بمراثي عديدة [3]

---

(١) انظر الكواكب الدرية ص ١٧٤ .

(٢) انظر الأعلام العلية ٨٥

(٣) انظر في مراثيه : العقود الدرية ٢٣٩ إلى آخر الكتاب ، والكواكب الدرية ١٨١-٢٣٢ ، وتاريخ ابن الوردي ٤٠٦/٢-٤٠٧ . والدرر الكامنة ١٥٩/١ .

ثانياً : بيان أن توحيد العبادة :هو مدار الخصومة بين الرسل وبين أقوامهم

لقد بقي الناس بعد آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ عشرة قرون كلهم على التوحيد ، كما قال ذلك ابن عباس ﷺ ، ثم دب الشرك في الناس ، فاحتاج الناس بعد ذلك إلى من يردهم إلى التوحيد ، ويبين لهم حقيقة الشرك .

فأرسل ا لله ﷻ نوحاً ﷺ أول رسول إلى الناس ليدعوهم إلى التوحيد ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، إلا أن قومه عارضوه معارضة شديدة بسبب دعوته إياهم إلى إخلاص العبادة لله وحده لاشريك له .

قال تعالى : ﴿ لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا ا لله مالكم من إله غيره ﴾[1] وقال ﷻ : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين۞ ألا تعبدوا إلا ا لله ﴾ [2] والسبب في استكبارهم وعِدائهم لنوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو دعوته لهم إلى عبادة ا لله وحده ، وترك الآلهة التي كانوا يعبدونا .

و لم يؤمن له من قومه إلا قليل . ومع هذا فقد استمرت دعوته لهم إلى هذا التوحيد ، وإنذاره لهم بعذاب ا لله الأليم إن هم استمروا على شركهم ، إلا أنهم أصروا واستكبروا استكباراً ، وقالوا : ﴿ لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً ﴾ [3] واستمر يدعوهم ﷺ إلى التوحيد فلا يزيدهم ذلك إلا طغياناً واستكباراً ، حتى طالت الخصومة بينهم وبينه في توحيد ا لله ﷻ في العبادة .

وبلغ بهم الأمر إلى أنهم سئموا منه ومن دعوته إلى التوحيد حتى قالوا له : إما أن تكف عن دعوتك لنا أو أن تأتينا بالعذاب الذي وعدتنا إن لم نؤمن لك، قال تعالى على ألسنتهم : ﴿ قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فاتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ۞ قال إنما يأتيكم به ا لله إن شاء وما أنتم بمعجزين ۞ ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان ا لله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون ﴾[4]

---

(١) سورة الأعراف ٥٩ .

(٢) سورة سورة هود ٢٥ .

(٣) سورة نوح ٢٣ .

(٤) سورة هود ٣٢-٣٣ .

فكان هذا دأبه معهم في جدال مستمر ، ونقاش طويل ، إلى أن ضاقت أنفسهم به وبدعوته ذرعاً ، فاستعجلوا العذاب متحدين له أن يستطيع ذلك .

فما كان منه ﷺ إلا أن قابلهم بالمثل بعدما أيس منهم ، وبعدما بلغ السيل الزبى ، وبلغ الأمر ذروته ، حيث وقف منهم موقفاً حازماً ، أعجزهم عليه السلام أن يفعلوا به شيئاً يضره ، وأعلمهم بأنه يستند في دعوته إلى الحي القيوم الذي لا يموت قال تعالى على لسانه : ﴿ .. ياقوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون ۞ فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ (١) قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ (.. ﴿ إن كان كبر عليكم ﴾ أي عظم عليكم ﴿ مقامي ﴾ أي : فيكم بين أظهركم ﴿ وتذكيري ﴾ إياكم ﴿ بآيات الله ﴾ أي : بحججه وبراهينه ﴿ فعلى الله توكلت ﴾ أي : فإني لا أبالي ولا أكف عنكم ، سواء عظم عليكم أو لا !! ﴿ فأجمعوا أمركم وشركاءكم ﴾ أي : فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله ، من صنم ووثن ﴿ ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ﴾ أي : ولا تجعلوا أمركم عليكم ملتبساً بل افصلوا حالكم معي ، فإن كنتم تزعمون أنكم محقون ﴿ فاقضوا إلي ولا تنظرون ﴾، أي : ولا تؤخروني ساعة واحدة ، أي : مهما قدرتم فافعلوا ، فإني لا أباليكم ، ولا أخاف منكم ؛ لأنكم لستم على شيء ، كما قال هود ﷺ لقومه : ﴿ إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون ، من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون ۞ إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم ﴾ (٢) .

﴿ فإن توليتم ﴾ أي : كذبتم وأدبرتم عن الطاعة ، ﴿ فما سألتكم ﴾ أي : لم أطلب منكم على نصحي إياكم شيئاً ، ﴿ إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ أي وأنا ممتثل ما أمرت به من الإسلام لله ﷻ ، والإسلام هو دين الأنبياء من أولهم إلى آخرهم ...) (٣)

---

(١) سورة يونس ٧١-٧٢ .

(٢) سورة هود ٥٤-٥٦ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٢١٨/٤ .

وبعد هذا الوقت الطويل الذي قضاه عليه السلام في دعوتهم إلى التوحيد أذن الله بهلاكهم ، وأخبر نوحاً عليه السلام أنه لن يؤمن له إلا من قد آمن ، وأمره أن يصنع الفلك ، فصنعها وكان كلما مر عليه ملأ سخروا منه ، إلا أن الله سخر منهم وسخر منهم نبيه عليه السلام حينما أدركهم الغرق .

قال تعالى :﴿ وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يصنعون ۞ واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾ إلى قوله : ﴿ حتى إذا جاء أمرنا قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ومن آمن وما آمن معه إلا قليل ﴾[١]

وهكذا انتهى الصراع بين الوثنية والإسلام ، بين الشرك والتوحيد إلى انتصار الإسلام على الوثنية ، وعلو شأن التوحيد ، وأورث الله أهل التوحيد الأرض.

إلا أن الناس ما لبثوا أن عادوا إلى الوثنية من جديد ، فأرسل الله رسله إليهم ، هوداً وصالحاً وإبراهيم ولوطاً وشعيباً وموسى وعيسى وغيرهم ممن قصهم الله وممن لم يقصصهم في كتابه ، قال تعالى : ﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون ﴾[٢]

فكانت الخصومة بين هؤلاء وبين أقوامهم في إفراد الله بالألوهية مثل ما وقع بين نوح وقومه تماماً ، فالدعوة واحدة والمعارضة والخصومة هي نفسها .

وكان جميع الرسل يدعون أقوامهم إلى هذا التوحيد ، قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا انا فاعبدون ﴾ [٣] وقال : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ [٤] فكل رسول كان يدعو قومه إلى توحيد العبادة . قال تعالى عن هود ﴿ وإلى عاد آخاهم هوداً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ [٥] وقال صالح وهود وشعيب ونوح

---

(١) سورة هود ٤٠-٤٢ .

(٢) المؤمنون ٤٤ .

(٣) سورة الأنبياء ٢٥ .

(٤) سورة النحل ٣٦ .

(٥) سورة الأعراف ٦٥ .

لأقوامهم : ﴿ يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ..﴾ (١) وكذلك ابرهيم عليه السلام قال : ﴿ ..اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ (٢)

وكل هؤلاء الرسل قد دارت بينهم وبين أقوامهم الخصومات في وجوب توحيد الله بالعبادة ونبذ الشرك وأهله ، إلا أن أغلبهم لم يؤمن له من قومه إلا قليل، وقد يكونون المستضعفين من بين قومهم . وحينما يشتد النزاع بين الرسل وأقوامهم ، ويعذر الله رسله في البلاغ حتى لا يكون على الله حجة بعد إرسال الرسل ، يحل العذاب الأليم بمن لم يتبع الرسول وينقاد لتوحيد الله عز وجل والإخلاص له بالعبودية الكاملة ، والقرآن مليئ بقصص الأنبياء والأحداث التي وقعت بينهم وبين من أرسلوا إليهم ، تكون نهاية المطاف الغلبة لله ولرسله ولعباده المؤمنين . قال الله تعالى : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ﴾(٣)

وآخر هؤلاء الرسل محمد ﷺ الذي بُعث إلى الثقلين ، فقام بالدعوة إلى هذا التوحيد حق القيام ، وطال الجدال والخصام بينهم وبينه ، حتى بلغ بهم الحال إلى أن قالوا له : ﴿ .. لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ۝ أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ۝ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ۝ أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾(٤) ، حتى أخرجه قومه بسبب ذلك ، عندما أبى أن ينصاع لطلباتهم بأن يعبدوا إلهه يوماً ويعبد هو ﷺ ومن معهم آلهتهم يوماً ، بعد أن أيسوا من أن يرجع عن دعوتهم إلى إخلاص العبادة لله وحده ، فلما رفض ذلك ونزل قوله الله عز وجل : ﴿قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ... ﴾ الآيات ما كان منهم إلى أن استعملوا القوة فأرادوا البطش به إلا أن الله سلم فنجَّى الله رسوله ومن معه من المؤمنين وأهلك الكافرين في وقعة بدر وما بعدها .

---

(١) سورة الأعراف ٧٣ ، ٨٥ . النمل ٤٥ ، المؤمنون ٣٢ العنكبوت ٣٦

(٢) العنكبوت ١٦ .

(٣) سورة المجادلة ٢١ .

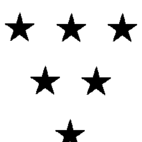
(٤) سورة الإسراء ٩٠-٩٣ .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره لسورة الكافرون : (هذا السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون ، وهي آمرة بالإخلاص فيه ، فقوله : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ شمل كل كافر على وجه الأرض ؛ ولكن المواجهين بهذا الخطاب هم كفار قريش .

قيل إنهم من جهلهم دعو رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة ، ويعبدون معبوده سنة ، فأنزل الله هذه السورة ، وأمر فيها رسوله ﷺ أن يتبرأ من دينهم بالكلية فقال : ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ يعني من الأصنام والأنداد ، ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ وهو الله وحده لا شريك له ... تبرأ منهم في جميع ما هم فيه ، فإن العابد لا بد له من معبود يعبده ، وعبادة يسلكها إليه ، فالرسول وأتباعه يعبدون الله بما شرعه ، [وارتضاه ، وهؤلاء يعبدون ما اخترعوه من قبل أنفسهم من تلك الأصنام والآلهة المتعددة ، وقد أمر الله نبيه في هذه السورة أن يتبرأ من العابد والمعبود ومن العبادة التي ليست على شريعة صحيحة] ولهذا كان كلمة الإسلام " لا إله إلا الله محمد رسول الله " أي لا معبود [بحق] إلا الله ، ولا طريق إليه إلا بما جاء به الرسول ﷺ ...) (١)

فتبين من هذا أن جميع الرسل قد دعو إلى هذا التوحيد ، وأنه بسبب دعوتهم إليه وأمر الناس وإلزامهم به ، وقعت الخصومة بينهم وبين أقوامهم .

وهذا مما يبين أهمية هذا النوع من التوحيد ، إذ أن مدار دعوة الرسل عليه ، إلى درجة انتهت بالمفاصلة بين الرسل وبين من لم يستجب من أقوامهم ، المفاصلة التامة ، والمقاطعة النهائية ، التي انتهت بإهلاك أولئك الأقوام ونصر الرسل عليهم الصلاة والسلام ، قال تعالى : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾(٢)



---

(١) تفسير القرآن العظيم ٥٢٧/٨-٥٢٨ .

(٢) سورة غافر ٥١-٥٢ .

بيان امتداد حاجة العباد إلى توحيد العبادة

تتبين حاجة العباد إلى هذا التوحيد بعدة أمور منها :

١) أن الإنسان إنما سمي عبداً لكونه معبداً مذللاً لله ﷻ لا يخرج عن طور عبوديته وقهره وملكه وسلطان ، ولهذا فهو عبد لله ﷻ رضي أم سخط ، تواضع أم استكبر ؛ فالواجب على كل عبد أن يرعوى لربه ، ويعبده متذللاً خاضعاً خائفاً راجياً محباً له . وبهذه العبودية يكمل ويسمو ويسعد في الدنيا والآخرة ، وبترك هذه العبودية فإنه لا بد له من الوقوع في شراك عبودية الشيطان وأعوانه وأنصاره ؛ لأن العبد إن لم يعبد الله عبد غيره[1] ، ومن هنا تكمن حاجة العبد إلى هذا التوحيد وإلى إخلاص العبودية لله ﷻ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ : (واعلم أن حاجة العبد إلى أن يعبد الله لا يشرك به شيئاً ليس لها نظير فتقاس به ،لكن يشبه من بعض الوجوه حاجة الجسد إلى الطعام والشراب ، وبينهما فروق كبيرة ، فإن حقيقة العبد قلبه وروحه ، وهي لا صلاح لها إلا بإلهها الله الذي لا إله إلا هو ، فلا تطمئن القلوب في الدنيا إلا بذكره ، وهي كادحة إليه كدحاً فملاقيته ، ولا بد لها من لقائه ، ولا صلاح لها إلا بلقائه ، ولو حصل للعبد لذات وسرور بغير الله فلا دوام لذلك ، بل ينتقل من نوع إلى نوع ، من شخص إلى شخص ، ويتنعم بهذا في وقت وفي بعض الأحوال ، وتارة أخرى يكون ذلك الذي تنعم به والتذ غير منعم له ولا مُلِذ ، بل قد يؤذيه اتصاله به ووجوده عنده ، ويضره ذلك .

أما إلهه فلا بد له منه في كل حال وكل وقت ، وأينما كان ، فهو معه ، ولهذا قال إمامنا إبراهيم الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ : ﴿ لا أحب الآفلين ﴾[2] وكان أعظم آية في القرآن : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾[3] .

واعلم أن هذا الوجه مبني على أصلين :

---

(١) وسيأتي بيان هذا بحول الله في أثناء الرسالة .

(٢) سورة الأنعام ٧٦ .

(٣) سورة البقرة ٣٥٥ .

أحدهما : على أن نفس الإيمان بالله وعبادته ومحبته وإجلاله هو غذاء الإنسان وقوته ، وصلاحه وقوامه .. كما دل عليه القرآن .

الأصل الثاني : أن النعيم في الآخرة أيضاً به ...)[١]

٢) أن الله سبحانه وتعالى إنما (خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته والإنابة إليه ، ومحبته والإخلاص له ، فبذكره تطمئن قلوبهم ، وبرؤيته في الآخرة تقر عيونهم ، ولا شيء يعطيهم في الآخرة أحب إليهم من النظر إليه ، ولا شيء يعطيهم في الدنيا أعظم من الإيمان به .

وحاجتهم إليه في عبادتهم إياه وتألههم كحاجتهم وأعظم في خلقه لهم وربوبيته إياهم ؛ فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم ؛ وبذلك يصيرون عاملين متحركين ، ولا صلاح لهم ولا فلاح ، ولا نعيم ولا لذة بدون ذلك بحال ؛ بل من أعرض عن ذكر ربه فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى . ولهذا كان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ولهذا كانت لا إله إلا الله أحسن الحسنات ، وكان التوحيد بقول : لا إله إلا الله رأس هذا الأمر .) [٢]

٣) أن هذا التوحيد الذي ينبني على غاية العبودية لله رب العالمين هو الأصل في العباد والأساس الذي فطر الله الناس عليه ، قال تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ۞ منيبين إليه واتقوه ولا تكونوا من المشركين ﴾[٣]

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : (يقول تعالى : فسدد وجهك واستمر على الدين الذي شرعه الله لك ، من الحنيفية ملة إبراهيم ، الذي هداك الله لها ، وكملها لك غاية الكمال ، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة ، التي فطر الله الخلق عليها ، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده ، وأنه لا إله غيره ...) [٤]

---

(١) كتاب التوحيد ١٥١-١٥٣ .

(٢) الفتاوى ٢٣/١ . وانظر منهاج السنة النبوية ٣٩٣/٥ .

(٣) سورة الروم ٣٠-٣١ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ٣٢٠/٦ .

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ (.. أخبر سبحانه أنه إنما فطر عباده على الحنيفية المتضمنة لكمال حبه والخضوع له والذل له ، وكمال طاعته وحده دون غيره ، وهذا من الحق الذي خلقت له ، وبه قامت السموات والأرض وما بينهما ، وعليه قام العالم ، ولأجله خلقت الجنة والنار ، ولأجله أرسل رسله ، وأنزل كتبه ، ولأجله أهلك القرون التي خرجت عنه وآثرت غيره ، فكونه سبحانه أهلاً أن يعبد ويحب ويحمد ويثنى عليه أمر ثابت له لذاته ، فلا يكون إلا كذلك ، كما أنه الغني القادر الحي القيوم السميع البصير ، فهو سبحانه الإله الحق المبين ، والإله هو الذي يستحق أن يؤله محبة وتعظيماً وخشية وخضوعاً وتذللاً وعبادة ، هو الإله الحق ، ولو لم يخلق خلقه ، وهو الإله الحق ولو لم يعبدوه ،فهو المعبود حقاً ، الإله حقاً المحمود حقاً ، ولو قدر أن خلقه لم يعبدوه ولم يحمدوه ولم يألهوه فهو الله الذي لا إله إلا هو قبل أن يخلقهم ، وبعد أن خلقهم ، وبعد أن يفنيهم ، لم يستحدث بخلقه لهم ولا بأمره إياهم استحقاق إلهية وحمد ؛ بل إلهيته وحمده ومجده وغناه أوصاف ذاتية له يستحيل مفارقتها له لحياته ووجوده .. وسائر صفات كماله ، فأولياؤه وخاصته وحزبه لما شهدت عقولهم وفطرهم أنه أهل أن يعبد وإن لم يرسل إليهم رسولاً ولم ينزل عليهم كتاباً ، ولو لم يخلق جنة أو ناراً ، علموا أنه لا شيء في العقول والفطر أحسن من عبادته ، ولا أقبح من الإعراض عنه ، وجاءت الرسل وأنزلت الكتب لتقرير ما استودع سبحانه في الفطر والعقول من ذلك ، وتكميله وتفضيله وزيادته حسناً إلى حسنه ...) (١)

ومن هنا فإن الله لما أرسل رسله وأنزل كتبه إنما أرسلهم ليأمروهم وينهوهم ، يأمروهم بعبادة الله وحده ، وينهونهم عن معصية ومخالفة أمره وعبادة غيره ، قال تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾ (٢) والله جلا وعلا لا يأمر العباد إلا بما فيه مصلحتهم ، ولا ينهى إلى عما فيه مضرة تلحق بهم ، ومن هنا كانت حاجة العباد إلى عبادة الله وحده . (٣)

---

(١) التفسير القيم ٣٩٢/٣ . نقلاً عن مفتاح دار السعادة ٤٢١-٤٢٣ .

(٢) سورة البينة ٥

(٣) وسيأتي تفصيل هذا في أثناء الرسالة .

٤) ومما يبين حاجة العباد إلى هذا التوحيد أن حصول السعادة والنفع ودفع الضر متوقف على حصوله وتحصيله ، فإن الموحد المخلص لله في جميع أفعاله هو الذي ينجو من عذاب الله الأليم ، يوم يكردس الناس في الجحيم ، فينجوا الموحد من غضب رب العالمين ، ويفوز بجنة الخلد التي لا تبلى ولا تحول ولا تزول ، وفي هذا تمام السعادة وكمالها ، بالإضافة إلى سعادته بطاعة ربه في الدنيا ، والتذاذه بالتقرب إليه بأنواع العبادات .[1]

والعبد إنما تحصل له اللذة والنعيم إذا أطاع الله ﷻ ، (فالنفوس أحوج إلى معرفة ما جاء به [رسول الله ﷺ] واتباعه منها إلى الطعام والشراب ، فإن هذا إذا فات حصل الموت في الدنيا ، وذاك إذا فات حصل العذاب .

فحق على كل أحد بَذْل جُهده واستطاعته في معرفة ما جاء به وطاعته إذ هذا طريق النجاة من العذاب الأليم ، والسعادة في دار النعيم)[2] وأول ما يجب على العبد معرفته وتعلمه ؛ ما ابتدأ الرسل ـ عليهم السلام ـ بتعليمه والدعوة إليه من وجوب الإخلاص لله في العبادة والنهي عن الشرك به ، إذ هذا هو أول واجب على المكلف[3] أن يعرف حق ربه فيأتي به خالصاً له دون غيره ، ولا يخلط بين الرب والعبد في التوجه والقصد والإرادة ، إذ أن من فعل ذلك فقد هلك وضل .

قال سبحانه : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ومالهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ۞ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾[4]

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في التعليق على هذه الآية : (المشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع ، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذا الأربع : إما مالك لما يريده عابده منه ، فإن لم يكن مالكاً كان شريكاً للمالك ، فإن لم يكن

---

(١) وسيأتي بيان هذا في أهمية توحيد العبادة .

(٢) الفتاوى ١/٥-٦ .

(٣) انظر درء تعارض العقل والنقل ٤٠٦/٧ وما بعدها .

(٤) سورة سبأ ٢٢-٢٣ .

شريكاً له كان معيناً له وظهيراً ، فإن لم يكن معيناً و لا ظهيراً كان شفيعاً عنده . فنفى سبحانه المراتب الأربع نفياً مترتباً متنقلاً من الأعلى إلى ما دونه ...) (١)

٥) ومما يؤكد حاجة العباد إلى هذا التوحيد ما ينقدح في قرارة نفوس العباد من إحساسهم بأنهم فقراء إلى الله ﷻ والله هو الغني الحميد ، قال سبحانه : ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد ﴾ (٢) الغني عن عباده وعبادتهم ، الغني بنفسه عمن سواه ، لا تنفعه طاعة المطيع ولا تضره معصية العاصي ، وإنما دعاهم سبحانه لمصلحة أنفسهم ، ولما فيه الخير والفلاح لهم في الدين والدنيا والآخرة قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾(٣) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ : (وهو سبحانه .. لا يحتاج إلى خلقه بوجه من الوجوه ، بل هو الغني عن العالمين : ﴿ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم ﴾ (٤) ﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ۞ وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴾(٥)

وفي الحديث الصحيح الإلهي : ((يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، ولو كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، ولو قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي شيئاً)) إلى آخر الحديث (٦) .

فالرب سبحانه غني بنفسه .. لايفتقر .. إلى غيره ، ولا يفعل شيئاً لحاجة إلى غيره بوجه من الوجوه ...

---

(١) مدارج السالكين ٣٧٢/١ .

(٢) سورة فاطر ١٥ .

(٣) سورة الأنفال ٣٤ .

(٤) النمل ٤٠ .

(٥) سورة ابراهيم ٧ - ٨ .

(٦) رواه مسلم في البر والصلة والآداب (ح٢٥٧٧) وسيأتي مزيد تخريج له في ص ٢١٦ .

والعبد كلما كان أذل لله وأعظم افتقاراً إليه وخضوعاً له : كان أقرب إليه ، وأعز له ، وأعظم لقدره ، فأسعد الخلق أعظمهم عبودية لله ، وأما المخلوق فكما قيل : احتج إلى من شئت تكن أسيره ، واستغن عمن شئت تكن نظيره ، وأحسن إلى من شئت تكن أميره . ولقد صدق القائل :

بين التذلل والتذلل نقطة في فهمها تتحير الأفهام
ذلك التذلل شرك فافهم يا فتي ...

فالرب سبحانه : أكرم ما تكون عليه أحوج ما تكون إليه ، وأفقر ما تكون إليه)[١] وسيأتي بياه هذا وتوضيحه من خلال كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ في ثنايا هذا البحث بحول الله وقوته وعونه وتوفيقه .

٦) كما أن مما يبين حاجة العباد لهذا التوحيد أن الله ﷻ لا يرضى أن يشرك به ، بل توعد من فعل ذلك بالويل والثبور ، والخزي يوم النشور ، والخلود في دار الشرور .

وهذا مما يبين حاجتهم لهذا التوحيد إذ أنهم إذ لم يعبدوه ويوحده ويحققوا هذا التوحيد له وقعوا في سخطه وغضبه واستحقوا عذابه . فهو سبحانه (لا يرضى من القول والعمل إلا التوحيد ، واتباع الرسول ، وعن هاتين الكلمتين يَسْأَلِ الأولين والآخرين ، كما قال أبو العالية[٢] : " كلمتان يُسْأل عنهما الأولون والآخرون : ما ذا كنتم تعبدون ؟ وما ذا أجبتم المرسلين ؟ "

والشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النملة السوداء على الصفاة الصماء في الليلة الظلماء [٣]

ولعلم الصحابة والسلف الصالح بأهمية هذا التوحيد نرى أن كثيراً منهم كان دأبه إخلاص العمل لله ﷻ والخوف من الشرك والرياء قليله وكثيره ، صغيره وكبيره .

---

(١) الفتاوى ١/٣٧-٤٠ .

(٢) هو : الإمام المقري الحافظ المفسر أبو العالية رفيع بن فهران البصري ، قال البخاري مات سنة ٩٣هـ انظر السير ٤/٢١٣ .

(٣) مقتبس من قوله ﷺ : ((أيها الناس اتقوا الشرك فإنه أخفى من دبيب ..)) رواه الإمام أحمد ٤/٤٠٣ وسيأتي تخرجه في بيان أنواع الشرك ، انظر فهرس الأحاديث حرف الهمزة .

قال ابن القيم : (تا لله لقد قَطَّعَ خوف النفاق قلوب السابقين الأولين ، لعلمهم بدقة وجله وتفاصيله وجُمَلِهِ ، ساءت ظنونهم بنفوسهم حتى خشوا أن يكونوا من جملة المنافقين . قال عمر بن الخطاب لحذيفة رضي الله عنهما : " يا حذيفة نشدتك بالله ، هل سماني رسول الله ﷺ منهم ؟ قال : لا ، ولا أزكي بعدك أحداً " (١) وقال ابن أبي مليكة (٢) : " أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه ، ما منهم أحد يقول : إن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل "(٤) .. وذكر عن أبي الحسن البصري (٣) : " ما خافه إلا مؤمن ولاأمنه إلا منافق ." (٤) ...

[و] زرع النفاق ينبت على ساقيتين : ساقية الكذب ، وساقية الرياء ، ومخرجهما من عينين : عين ضعف البصيرة ، وعين ضعف العزيمة ، فإذا تمت هذه الأركان الأربع : استحكم نبات النفاق وبنيانه ، ولكنه بمدارج السيول على شفا جرف هار ، فإذا شاهدوا سيل الحقائق يوم تبلى السرائر ، وكُشِفَ المستور ، وبُعْثِرَ ما في القبور ، وحصل ما في الصدور، تبين حينئذ لمن كانت بضاعته النفاق : أن حواصله التي حصلها كانت كالسراب : ﴿ يحسبه الضمئان ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عند فوفاه حسابه والله سريع الحساب ﴾ (٥) ...) (٦)

٧) ومما يؤكد حاجة العباد لمعرفة هذا النوع من التوحيد ما وقع لكثير من المنتسبين إلى هذه الأمة من الخلط بين نوعي التوحيد ، حيث فسروا توحيد الألوهية

---

(١) كنز العمال ١٣/ (ح٣٦٩٦١ ، ٣٦٩٦٢) وعزاه إلى رسته في الإيمان ، ولفظه عن زيد بن وهب قال : مات رجل من المنافقين فلم يصل عليه حذيفة فقال عمر : أمن القوم هذا ؟ قال : نعم ، قال : بالله أنا منهم : قال لا . ولن أخبر به بعدك أحداً) .

(٢) هو عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة ، زهير بن عبد الله بن جدعان بن كعب بن لوئ ولد في خلافة علي رضي الله عنه أو قبلها ، كان عالماً مفتياً صاحب حديث وإتقان حديث عن عائشة – رضي الله عنها – وولي القضاء لابن الزبير والأذان ، مات سنة سبع عشرة ومائة . انظر سير أعلام النبلاء ٥/٨٨ .

(٣) اسمه الحسن بن أبي الحسن يسار أبو سعيد مولى زيد بن ثابت الأنصاري ، ولد في المدينة لسنتين بقيتا من خلافة عمر رضي الله عنه ، كان سيد أهل زمانه علماً وعملاً ، وورعاً وتقى وزهداً . توفي سنة ١١٠هـ ودفن بالبصرة . سير أعلام النبلاء ٤/٥٦٣ .

(٤) أخرجهما البخاري – رحمه الله – تعليقاً ، انظر كتاب الإيمان ، باب خوف المؤمن أن يحبط عمله .

(٥) سورة النور ٣٩ .

(٦) مدارج السالكين ١/٣٨٨-٣٨٩ .

بالربوبية ، ولم يفرقوا بينهما ، فأدى بهم ذلك إلى الوقوع في الشرك في العبادة ظانين أن الشرك إنما هو في اعتقاد أن مع الله مدبر أو مالك متصرف في الملك ، وأن تلك المعبودات إنما يكون الشرك فيها باعتقاد ذلك لا بالطواف بها والاستغاثة والإلتجاء إليها ونحو ذلك .

قال شيخ الإسلام ـ ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى : (.. ولهذا كان من أتباع هؤلاء من يسجد للشمس والقمر والكواكب ، ويدعوها كما يدعو الله تعالى ، ويصوم لها ، وينسك لها ، ويتقرب إليها ، ثم يقول : إن هذا ليس بشرك ، وإنما الشرك إذا اعتقدت أنها هي المدبرة لي ، فإذا جعلتها سبباً وواسطة لم أكن مشركاً .

ومن المعلوم بالاضطرار من دين الاسلام أن هذا شرك ، فهذا ونحوه من التوحيد الذي بعث الله به رسله ، وهم لا يدخلونه في مسمى التوحيد الذي اصطلحوا عليه.)(١)

ولكون حاجة العباد إلى هذا النوع من التوحيد ستتضح من خلال دراسة هذا الموضوع ككل ، وجمع أقوال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ فيه فإني أكتفي بهذا . والله تعالى أعلم .

ويتضح مما سبق أن العباد أحوج ما يكونون إلى معرفة هذا التوحيد ، لكون النجاة في الدنيا والآخرة متوقفة على الإتيان به وتحقيقه ، ولكن كثيراً من الناس يقع فيما يضاده من حيث لا يشعر كأن يقع في الشرك الأصغر أو أن يكون فيه خصلة من خصل النفاق المنقصة لثوابه .

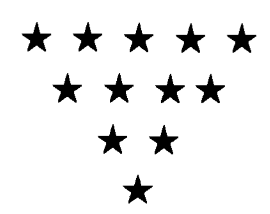
و مرق كثير من المنتسبين إلى الإسلام من الدين بسبب عدم تحقيقهم لهذا النوع من التوحيد ، حيث يغرق الواحد منهم إلى أذنيه في الشرك في عبادة الله فيشرك معه غيره شركاً أكبراً لا يغفر إلا بالتوبة منه . قال تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ (٢) ولهذا فإن شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ قد ركز على التعريف بهذا التوحيد ، وأطال في بيانه وتوضيحه مما سيتضح لك من خلال ما جمعته من أقواله في هذه الورقات المتواضعه .

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ٢٢٧/١-٢٢٨ .

(٢) سورة النساء ٤٨ .

فـا لله أسأل أن يغفـر لـه ويرحمـه ويسـكنه فسـيح جناتـه ، كمـا أسـأله سـبحان أن يوفقـني في عـرض مـا قـرره ووضحـه بـالصورة المرتضـاة . والحمـد لله رب العـالمين .



الخطأ عند المتكلمين وغيرهم في فهم التوحيد

ومما يدل على أهمية هذا التوحيد ، وضرورة معرفته لكل أحد ، ما هو معلوم ضرورة من قِصَرِ عقول العباد وقصر أفهامهم عن معرفة ما يريده الله ﷻ وما لا يريده من أنواع العبادة ؛ لأن معرفة هذا بالعقل وحده غير ممكنة على وجه التفصيل ، فإن العقل مهما أوتي من الذكاء والفطنة لا يصل إلى معرفة ما يحبه الله ويرضاه على التفصيل .

ولهذا نجد أن كثيراً من المنتسبين إلى الإسلام ضلوا في مفهوم التوحيد ، حينما حكّموا عقولهم ، وأعرضوا عن الكتاب والسنة ، ومن هؤلاء المتكلمون ومن نحا نحوهم من الأشاعرة والمعتزلة وغيرهم ، كما ضل في مفهومه أيضاً كثير من المتصوفة الذين بالغوا في إثبات توحيد الربوبية .

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ : بعد أن ذكر أن منشأ البدع هو الألفاظ المجملة المحتملة لوجهين ، حيث تتناول الحق والباطل ، فيقبل من لم يحط بمغزى ألفاظهم ما فيها من الباطل الذي يعارضون به نصوص الكتاب والسنة .

ومن تلك الألفاظ : (التوحيد الذي حقيقته إثبات صفات الكمال لله ، وتنزيهه عن أضدادها ، وعبادته وحده لا شريك له ، فاصطلح أهل الباطل على وضعه للتعطيل المحض ، ثم دعوا الناس إلى التوحيد ، فخدعوا به من لم يعرف معناه في اصطلاحهم ، وظن أن ذلك التوحيد هو الذي دعت إليه الرسل ، والتوحيد اسم لستة معان :

توحيد الفلاسفة ، وتوحيد الجهمية ، وتوحيد القدرية الجبرية ، وتوحيد الاتحادية . فهذه الأربعة أنواع من التوحيد جاءت الرسل بإبطالها ، ودل على بطلانها العقل والنقل .

فأما توحيد الفلاسفة : فهو إنكار ماهية الرب الزائدة على وجوده ، وانكار صفات كماله وأنه لا سمع له ولا بصر ، ولا قدرة ولا حياة ولا إرادة ولا كلام ولا وجه ولا يدين وليس فيه معنيان متميز أحدهما عن الآخر البتة ، قالوا لأنه لو كان كذلك لكان مركباً ، وكان جسماً مؤلفاً ، ولم يكن واحداً من كل وجه ، فجعلوه من جنس الجوهر الفرد الذي لا يحس ولا يرى ، ولا يتميز منه جانب عن جانب ...

فلما اصطلحوا على هذا المعنى في التوحيد وسمعوا قوله : ﴿ وإلهكم إله واحد ﴾[١] وقوله : ﴿ وما من إله إلا إله واحد ﴾[٢] نزلوا لفظ القرآن على هذا المعنى الاصطلاحي ، وقالوا : لو كان له صفة أو كلام أو مشيئة أو علم أو حياة أو قدرة أو سمع أو بصر لم يكن واحداً ، وكان مركباً مؤلفاً ، فسموا أعظم التعطيل باحسن الأسماء وهو التوحيد ، وكسوه ثوبه وسمتوا أصح الأشياء وأحقها بالثبوت وهو صفات الرب ونعوت كماله بأقبح الأسماء وهو التركيب والتأليف ...

ونشأ من نشأ على اصطلاحهم من إعراضه عن استفادة الهدى والحق من الوحي ، فلم يعرف سوى الباطل الذي اصطلحوا عليه ، فجعله أصلاً لدينه ، فلما رأى ما جاءت به الرسل يعارضه قال : إذا تعارض العقل والنقل قُدِمَ العقل .

التوحيد الثاني : توحيد الجهمية وهو مشتق من توحيد الفلاسفة وهو نفي صفات الرب كعلمه وكلامه وسمعه وبصره وحياته وعلوه على عرشه ونفي وجهه ويديه ، وقطب رحى هذا التوحيد جحد حقائق أسمائه وصفاته[٣] .

التوحيد الثالث : توحيد القدرية الجبرية ، وهو إخراج أفعال العباد أن تكون فعلاً لهم ، وأن تكون واقعة بكسبهم أو إرادتهم ، بل هي نفس فعل الله ، فهو الفاعل لها دونهم فنسبتها إليهم وأنهم فعلوها مناف للتوحيد عندهم .

التوحيد الرابع : توحيد القائلين بوحدة الوجود ، وأن الوجود عندهم واحد ليس عندهم وجودان ، قديم وحادث وخالق ومخلوق ، وواجب وممكن ، بل الوجود عندهم واحد بالعين ، والذي يقال له الخلق المشبه هو الحق المنزة ، والكل من عين واحدة بل هو العين الواحدة[٤] .

---

(١) سورة البقرة ١٦٣ .

(٢) سورة المائدة ٧٣ .

(٣) انظر درء تعارض العقل والنقل ٢٢٥/١ ، ١٩/٥-٢١ ، ١٠٤ وما بعدها ، وبيان تلبيس الجهمية ١٣٢/١-١٣٥ ، ١٦٤ .

(٤) انظر الصفدية ٢٦٢/١ وما بعدها ، ٢٢٣/٢-٢٢٤ . ومنهاج السنة النبوية ٣٧٠/٥ وما بعدها .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (وحقيقة قول هؤلاء الاتحاد والحلول الخاص من جنس قول النصارى في المسيح ...)[١]

فهذه الأنواع الأربعة سماها أهل الباطل توحيداً ، فاعتصموا بالاسم من إنكار المسلمين عليهم ، وقالوا نحن الموحدون ، ودعوا الناس إلى الباطل باسم التوحيد ، فجعلوه جنة وترساً ووقاية ، وسموا التوحيد الذي بعث الله به رسله وأنبياءه تركيباً وتجسيماً وتشبيهاً ، وجعلوا هذه الألقاب له سهاماً وسلاحاً يقاتلون بها أهله ، فتترسوا بما عند أهل الحق من الأسماء الصحيحة ، وقاتلوهم بالأسماء الباطلة التي سموا بها ما بعث الله به رسوله ... قال جابر في الحديث الصحيح في حجة الوداع : فأهل رسول الله ﷺ بالتوحيد : ((لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك ...)) [٢]

فهذا توحيد الرسول المتضمن لإثبات صفات الكمال التي يستحق عليها الحمد ، ولإثبات الأفعال التي استحق بها أن يكون منعماً ...

وأما النوع الخامس فهو توحيد الرسل : وهو إثبات صفات الكمال له سبحانه ، وإثبات كونه فاعلاً بمشيئته وقدرته واختياره ، وأن له فعلاً حقيقة ، وأنه وحده الذي يستحق أن يعبد ويخاف ويرجى ، ويتوكل عليه ، فهو المستحق لغاية الحب بغاية الذل ، وليس لخلقه من دونه وكيل ولا ولي ولا شفيع ، ولا واسطة بينه وبينهم في رفع حوائجهم إليه ، وفي تفريج كرباتهم ، وإغاثة لهفاتهم ، وإجابة دعواتهم ...)[٣]

ومن هنا كانت دراسة مثل هذا الموضوع مهمة جداً لبيان ما دعا إليه الرسل جميعهم صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين .



(١) منهاج السنة النبوية ٥/٣٧٠ .

(٢) رواه الإمام مسلم في الحج (ح١٢١٨) .

(٣) الصواعق المرسلة ٣/٩٣٣-٩٣٤ ، وانظر درء التعارض ١/٢٢٣-٢٢٦ ، وبيان تلبيس الجهمية ١/١٣٣-١٣٤ ، ٤٧٨-٤٨٠ ، والصفدية ٢/٣٣٦-٣٤٠ ، واقتضاء الصراط المستقيم ٢٠/٨٤٤-٨٤٦ . ومنهاد السنة النبوية ٥/٣٤٦ - ٣٧٠ .

الباب الأول

في توحيد العبادة ، وتحته ثلاثة فصول

الفصل الأول : في التوحيد ، وفيه أربعة مباحث

الفصل الثاني : في تحقيق التوحيد وفيه خمسة مباحث

الفصل الثالث : في توحيد العبادة وفيه ستة مباحث

الفصل الأول :

في التوحيد وتحته أربعة مباحث

المبحث الأول : في بيـانه لمعـنى التوحيـد:

المبحث الثانـي : في بيانه لأنواع التوحيـد:

المبحث الثالث : في بيانه لمعنى الألوهـية :

المبحث الرابع : في بيانه لمعنى الربوبـية :

بيانه لمعنى التوحيد

المراد بالتوحيد

بين شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - المراد بالتوحيد في أكثر من موضع من تصانيفه فذكر أن التوحيد يدخل فيه إفراد الله بالوحدانية في ألوهيته وأسمائه وصفاته وكذلك ربوبيته . فالتوحيد هو ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ من صفات الكمال والجلال كما قال تعالى :﴿ قل هو الله أحد ، الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ كما أمر جل وعلا بإفراده بالعبادة والبراءة من الشرك وأهله مع إخلاص العمل لله قال تعالى : ﴿ قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولي دين﴾ وقال تعالى : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾[١] وقال تعالى : ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[٢].أهـ[٣]

كما بين رحمه الله أن أعلى أصول الإيمان وأفضلها هو التوحيد وهو شهادة أن لا إله إلا الله حيث أمر الله به جميع خلقه وأرسل به رسله ، وشرعه وارتضاه للخلق، ونهى عن ضده وحذر منه ، قال الله تعالى : ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[٤] ، وقال تعالى : ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾[٥] ، وقال تعالى : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ [٦] وقال تعالى : ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى

---

(١) سورة محمد أية ١٩.

(٢) سورة الأنبياء أية ٢٥ .

(٣) - انظر الفتاوى ٤٨٨/١١ ، وانظر منهاج السنة النبوية ٣٤٦/٥ وما بعدها ، وانظر بيان تلبيس الجهمية ٤٨٥/١-٤٨٦ .

(٤) سورة الأنبياء آية ٢٥ .

(٥) النحل أية ٣٦ .

(٦) سورة الزخرف آية ٤٥ .

وعيسى﴾[١] وقال تعالى : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم ، وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾ [٢] [٣] أهـ

وقال رحمه الله : في معرض رده على الطوائف المخالفة في معنى التوحيد :

(التوحيد الذي بعث الله به الرسل وأنزل به الكتب فليس متضمناً شيئاً من هذه الاصطلاحات[٤] ، بل أمر الله عباده أن يعبدوه وحده لا يشركوا به شيئاً ، فلا يكون لغيره نصيب فيما يختص به من العبادة وتوابعها ، هذا في العمل ، وفي القول : هو الإيمان بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ .)[٥]

وبين - رحمه الله - أن هذا هو التوحيد الواجب على كل عبد فقال : (إن التوحيد الواجب أن تعبد الله وحده لا تشرك به شيئاً ولا تجعل له نداً في إلهيته ولا شريكاً ولا شفيعاً) [٦]

ثم إن الله سبحانه لما ذكر نصوص صفاته في كتابة كان ذلك ليس مقصوراً على وجوب إفراده بصفات الكمال فحسب بل دلت أيضاً على وجوب إفراده بالعبادة ، وفي ذلك يقول -رحمه الله تعالى -

(لم يذكر الله سبحانه نصوص الصفات لمجرد تقرير صفات الكمال له ؛ بل ذكرها لبيان أنه المستحق للعبادة دون من سواه ، فأفاد (الأصلين) اللذين بهما يتم التوحيد : وهما إثبات صفات الكمال رداً على أهل التعطيل ، وبيان أنه المستحق للعبادة لا إله إلا هو رداً على المشركين.والشرك في العالم أكثر من التعطيل ، ولا يلزم

---

(١) سورة الشورى آية ١٣ .

(٢) سورة المؤمنون ٥١-٥٢ .

(٣) انظر الفتاوى ٣/٣٦٤-٣٦٥ ، وانظر منهاج السنة ٥/٣٤٦ ، والصفدية ٢/٢٢٨ ــ ٢٢٩ .

(٤) يقصد ــ رحمه الله ــ اصطلاحات المتكلمين من الجهمية والمعتزلة وغيرهم ممن اصطلحوا على اصطلاحات معينة أطلقوا عليها مسمى التوحيد ، ودعوا الناس إليها معتقدين أن هذا في المعنى الذي جاءت به الشريعة وقد تقدم ذكر هذا في المبحث الرابع من التمهيد انظر ص ٥٥.

(٥) الفتاوى ٤/١٥٠ - ١٥١ .

(٦) الفتاوى ١١/٥٠.

من إثبات (التوحيد) المنافي للإشراك إبطال قول أهل التعطيل ، ولا يلزم من مجرد الإثبات المبطل لقول المعطلة الرد على المشركين إلا ببيان آخر) .[(١)]

وهذا المعنى المراد من لفظة التوحيد هو ما يجب على كل أحد أن يؤمن به ويعتقده ويعمل به فهو الذي أمر الله به وخلق الخلق لأجله ، وأمرهم باعتقاده والعمل به قال - رحمه الله - في بيان ذلك :

(يجب الإيمان بأن الله أمر بعبادته وحده لاشريك له كما خلق الجن والإنس لعبادته ، وبذلك أرسل رسله ، وأنزل كتبه ، وعبادته تتضمن كمال الذل والحب له ، وذلك يتضمن كمال طاعته : ﴿ ومن يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ [(٢)] وقد قال تعالى : ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ﴾ [(٣)] وقال تعالى : ﴿ إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ، ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ [(٤)] وقال تعالى : ﴿ شرع لكم ما وصى به نوحاً ، والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ﴾ [(٥)] وقال تعالى : ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم ۞ وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾ [(٦)] فأمر الرسل بإقامة الدين وأن لا يتفرقوا فيه .

ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : ((إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد ، والأنبياء اخوة لعلات[(٧)] ، وإني أولى الناس بابن مريم لأنه ليس بيني وبينه نبي)) [(٨)] .

---

(١) الفتاوى ٨٣/٦ .

(٢) سورة النساء ٨٠ .

(٣) سورة النساء ٦٤ .

(٤) سورة ال عمران ٣١ .

(٥) سورة الشورى ١٣

(٦) سورة المومنون ٥١ .

(٧) أولاد العلات : الذين أمَّهاتهم مختلفة وأبوهم واحد ، أراد أن إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة . النهاية /٢٩١/٣. وفي رواية الإمام مسلم : ((.. الأنبياء أخوة لعلات وأمهاتهم شتى ودينهم واحد ..)) الفضائل (ح٢٣٦٥) .

(٨) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (ح ٣٤٢٤) ومسلم في الفضائل (ح٢٤٦٥) وأبو داود في السنة (ح٤٦٧٥) وأحمد . ولفظ البخاري ومسلم أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : ((أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ وَالأَنْبِيَاءُ أَوْلادُ عَلاتٍ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ))

وهذا الدين هو دين الإسلام الذي لا يقبل الله ديناً غيره ، لا من الأولين ولا من الآخرين ، فإن جميع الأنبياء على دين الإسلام ، قال الله تعالى عن نوح : ﴿ واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلي الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ﴾ إلى قوله : ﴿ وأمرت أن أكون من المسلمين﴾[1].

وقال عن إبراهيم : ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ﴾ إلى قوله : ﴿إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين﴾ إلى قوله : ﴿فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ [2] وقال عن موسى : ﴿ وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ [3] وقال في خبر المسيح : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾ [4]

وقال فيمن تقدم من الأنبياء : ﴿ يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ﴾[5] وقال عن بلقيس أنها قالت : ﴿ رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾ [6] .

وبهذا يتضح أن معنى التوحيد الذي جاء به الرسل هو الإسلام الذي يتضمن الاستسلام لله وحده ، فمن استسلم له ولغيره كان مشركاً ، ومن لم يستسلم له كان مستكبراً عن عبادته ، والمشرك به والمستكبر عن عبادته كافر ، والاستسلام له وحده يتضمن عبادته وحده وطاعته وحده .)[7] كما يشمل الاعتقاد بأنه سبحانه وتعالى له الأسماء الحسنى والصفات العلا ، وأنه سبحانه لا يقبل من أحد ديناً ما لم يكن موحداً

---

(١) الآيتان من سورة يونس ٧١-٧٢ .

(٢) الآيات من سورة البقرة ١٣٠-١٣٢ .

(٣) سورة يونس ٨٤ .

(٤) سورة المائدة ١١١ .

(٥) سورة المائدة ٤٤ .

(٦) سورة النمل ٤٤ .

(٧) الفتاوى ٨٩/٣- ٩١ ، وانظر ١٨٠/١٩-١٨٢، ١٨٥ ، وانظر ذلك مفصلاً ومستوفى في ١٠٦/١٩-١١٢ . وانظر الصفدية ٣٠١/٢-٣١٦ ، والجواب الصحيح ٣٣/٣ والفتاوى الكبرى ٩٣/١-٩٤ .

لله في صفاته وأفعاله ، ومفرداً له بالعبادة ، وأن هذا هو دين الأنبياء والرسل قاطبة ، الذي يجب على كل أحد العمل به والانقياد والإذعان والتسليم له جلا وعلا .

شمولية التوحيد

يدخل في التوحيد جميع أعمال العباد المطلوبه شرعاً ، سواء كانت أعمال قلوب أو جوارح أو غيرها . بخلاف ما يظنه البعض من أن التوحيد منحصر في نطاق ضيق ، من إفراد ا لله جل وعلا بالصلاة والزكاة والصيام ، وعبادة ا لله بأسمائه وصفاته ونحو ذلك ، وأن الشرك في عبادة الأصنا م وحد ها ونحوها . وفي هذا يقول شيخ الإسلام : (.. محبة ا لله وحده والتوكل عليه وحده وخشيته وحده ونحو هذا كل هذا يدخل في توحيد ا لله تعالى ، قال تعالى في المحبة: ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون ا لله أنداداً يحبونهم كحب ا لله والذين آمنوا أشد حباً لله﴾[1] وقال تعالى : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من ا لله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي ا لله بأمره ﴾ [2] وقال تعالى : ﴿ومن يطع ا لله ورسوله ويخش ا لله ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴾ [3] فجعل الطاعة لله والرسول وجعل الخشية والتقوى لله وحده ، وقال تعالى : ﴿ ولو أنهم رضوا ما آتاهم ا لله ورسوله ، وقالوا حسبنا ا لله سيؤتينا ا لله من فضله ورسوله إنا إلى ا لله راغبون ﴾ [4] وقال تعالى : ﴿ فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب ﴾ فجعل التحسب والرغبة إلى ا لله وحده .)[5]

---

(١) سورة البقرة ١٦٥ .

(٢) سورة التوبة ٢٤ .

(٣) سورة النور ٥٢.

(٤) سورة التوبة ٥٩ .

(٥) الفتاوى ١٠/٢٧٥-٢٧٦ ، وانظر ١/١٩٠، ٣٠٥-٣٠٦ ، ٢٤/٣٣٨ .

فكل أمرٍ أمر الله به أو نهيٍ نهى الله عنه فهو داخل في مسمى التوحيد لا ينفك عنه بحال . فبتخلفه ينقص الإيمان وقد يزول ، وبزيادته يرتقي العبد إلى تحقيق كمال التوحيد كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .(١)

قال شيخ الإسلام – رحمه الله – : (فعل جميع المأمورات وترك جميع المحظورات يدخل في التوحيد في قول لا إله إلا الله ، فإنه من لم يفعل الطاعات لله ويترك المعاصي لله : لم يقبل الله عمله ...)(٢)

وأما ما لم يأمر الله به وما لم ينه عنه من المباحات فلا يدخل في التوحيد إلا بالإخلاص لله ﷻ فيه ، وعلى هذا فإن العبد يمكنه أن يجعل جميع أعماله عبادة لله وحده ، وذلك بتحقيق الإخلاص لله جل وعلا فيها وتجريد المتابعة لرسوله ﷺ ، فجميع الأعمال المباحة من (.. أفعال الغفلة التي يمكن الاستعانة بها على الطاعة كالنوم الذي يقصد به الاستعانة على العبادة ، والأكل والشرب واللباس والنكاح الذي يمكن الاستعانة به على العبادة إذ لم يقصد به ذلك كان نقصاً من العبد وفوات حسنة وخير يحبه الله ، ففي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال لسعد : ((إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ، حتى اللقمة تضعها في فيِّ امرأتك)) (٣) وقال في الصحيح أيضاً ((نفقة المسلم على أهله يحتسبها صدقة)) (٤)

---

(١) انظر إلى أسباب تحقيق التوحيد المبحث الثاني من الفصل الثاني من هذا الباب .

(٢) الفتاوى ٢٨/٣٤

(٣) رواه البخاري في الجنائز (ح١٢١٣) ومسلم في الوصية (ح ٣٠٧٦) وأبو داود في الوصايا (ح٢٤٨٠) ولفظه عند البخاري: عن عَامِرُ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ مَرِضْتُ بِمَكَّةَ مَرَضًا فَأَشْفَيْتُ مِنْهُ عَلَى الْمَوْتِ فَأَتَانِي النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُنِي فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ : إِنَّ لِي مَالا كَثِيرًا وَلَيْسَ يَرِثُنِي إِلا ابْنَتِي ، أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثَيْ مَالِي ؟ . قَال : لا . قَالَ : قُلْتُ فَالشَّطْرُ ؟ . قَالَ : لا. قُلْتُ الثُّلُثُ ؟ . قَالَ : الثُّلُثُ كَبِيرٌ إِنَّكَ إِنْ تَرَكْتَ وَلَدَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَتْرُكَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً إِلا أُجِرْتَ عَلَيْهَا حَتَّى اللُّقْمَةَ تَرْفَعُهَا إِلَى فِي امْرَأَتِكَ . فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَأُخَلَّفُ عَنْ هِجْرَتِي فَقَالَ لَنْ تُخَلَّفَ بَعْدِي فَتَعْمَلَ عَمَلاً تُرِيدُ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ إِلا ازْدَدْتَ بِهِ رِفْعَةً وَدَرَجَةً ..))

(٤) رواه البخاري في الإيمان (ح ٥٥) ومسلم في الزكاة (ح ١٠٠٢) ولفظه عند البخاري : عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((إِذَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ يَحْتَسِبُهَا فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ))

بل حتى إن العبد يأتي شهوته من النكاح يقصد بذلك العفاف من الحرام يكتب له بها أجر، كما جاء ذلك عنه ﷺ قوله : ((في بضع أحدكم صدقة ، قالوا يا رسول الله! أيأتي أحدنا شهوته ويكون له أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعها في الحرام أما كان عليه وزر ؟ قالوا : بلى ، قال : فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له بها أجر ، فلم تعتدون بالحرام ولا تعتدون بالحلال)) [١] .

وذلك أن المؤمن يفعل المباح معتقداً أن الله أباحه ((والله يحب أن يأخذ برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته)) [٢] وفعل المباح على هذا الوجه طاعة لله ولرسوله ، فـ ((إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى)) .[٣]

وأيضاً فالعبد مأمور بفعل ما يحتاج إليه من المباحات كالأكل والشرب واللباس ونحوه ولهذا يجب على المضطر إلى الميتة أن يأكلها ، ولو لم يأكل فمات كان مستوجباً للوعيد كما هو قول جماهير العلماء من الأئمة الأربعة وغيرهم ، وكذلك هو مأمور بالوطء عند حاجته إليه ، بل وهو مأمور بنفس عقد النكاح إذا احتاج إليه وقدر عليه .)[٤].

فتبين بهذا أن التوحيد يشمل كل أمر أمر به الشارع وكل نهي نهى عنه الشارع ، سواء كان من الواجبات أو المستحبات ؛ لأن العبد مأمور فيها بالإخلاص لله ﷻ في القصد والطلب ، الذي هو حقيقة التوحيد ومدار رحاه .

ولهذا فقد أرسل الله الرسل لتحقيقه وأمر الناس بتجريد أفعالهم لله ـ عز وجل ـ في كل فعل وترك ، كما في وصية النبي ﷺ لابن عباس بقوله : ((يَا غُلامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا

---

(١) رواه الإمام مسلم في الزكاة (١٠٠٦) من حديث أبي ذر ، والإمام أحمد (١٦٧/٥، ١٦٨) دون قوله : ((فلم تعتدون بالحرام ولا تعتدون بالحلال)) .

(٢) رواه الإمام أحمد في (١٠٨/٢) وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ١٦٢ وقال (رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ...) وقال أحمد شاكر في تحقيقه للمسند (ح ٥٨٦٦ ،ح ٥٨٧٣) :" اسناده صحيح "

(٣) رواه البخاري في كتاب بدء الوحي (ح ١) و مسلم في كتاب الإمارة (ح١٩٠٧) .

(٤) الفتاوى ٤٦١/١٠-٤٦٣ باختصار . وانظر الفتاوى ٤٨/٧ ، ٢٤٣/٢٢-٢٤٥ .

بشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ))(١)

فالدعاء والتوجه والطلب والقصد وجميع أفعال بني آدم التعبدية المطلوبة يجب أن تكون خالصة لله وحده لا شريك له . وهذا التوحيد بهذا المفهوم هوالتوحيد الذي يجب تحقيقه ؛ لأنه أصل الدين الذي لا يقبل الله من أحد سواه وهو دين الرسل الذي أمروا به وأمروا الناس بتحقيقه والتخلص مما يضاده من براثن الشرك وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ــ رحمه الله تعالى ــ : (الدين الذي كان عليه إبراهيم - عليه السلام- : أن لا نعبد إلا الله وحده لا شريك له ولا ند له ولا صاحبة له ولا ولد له ، ولا تشرك معه ملكاً ولا شمساً ولا قمراً ، ولا كوكباً ، ولا تشرك معه نبياً من الأنبياء ، ولا صالحاً ﴿ إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً﴾ (٢) . وأن الأمور التي لا يقدر عليها غير الله لا تطلب من غيره مثل إنزال المطر وإنبات النبات ، وتفريج الكربات ، والهدى والضلالات ، وغفران الذنوب،فإنه لا يقدر أحد من جميع الخلق على ذلك ولا يقدر عليه إلا الله) . (٣)

(فهو سبحانه المستحق للتوحيد الذي هو دعاؤه وإخلاص الدين له ، دعاء العبادة والمحبة والإنابة والطاعة والإجلال ، والإكرام والخشية والرجاء ونحو ذلك من معاني تألهه وعبادته ، ودعاء المسألة والإستعانة بالتوكل عليه والإلتجاء إليه والسؤال له ، ونحو ذلك مما يفعل سبحانه بمقتضى ربوبيته ، وهو سبحانه الأول والآخر والباطن والظاهر وهو على كل شيء قدير) (٤)

هذا هو التوحيد بمفهومه الشامل لجميع أعمال العباد المأمور بها شرعاً سواء كانت أو قولا عملا . وأما ما كان مباحاً فلا يدخل في مسمى التوحيد إلا إذا كان بنية خالصة .

---

(١) رواه الترمذي في صفة القيامة (ح ٢٥١٦) وقال حديث حسن صحيح .

(٢) سورة مريم ٩٣ .

(٣) الفتاوى ١/٣٧٠ .

(٤) الفتاوى ٢/٤٥٦ .

إرسال الرسل بالتوحيد

ودين الإسلام - الذي هو بمعنى الخضوع والاستسلام لله تعالى وحده لا شريك له - هو دين التوحيد الخالص لله وحده الذي أجمعت الرسل على الدعوة إليه ، بل هو الذي من أجله بعثوا ومن أجله أنزلت الكتب : قال - رحمه الله - : (وقد أرسل الله جميع الرسل ، وأنزل جميع الكتب بالتوحيد الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له ،كما قال الله تعالى : ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[1] ... وقال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة ﴾[2] وقال تعالى : ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم ، وأن هذا أمتكم أمة واحدة وأنا ربك فاتقون ﴾ [3] .

وقد قالت الرسل كلهم مثل نوح وهود وصالح وغيرهم : ﴿ أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ﴾[4] فكل الرسل دعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وإلى طاعتهم.)[5] .

(وفي المسند عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال : ((بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري ، ومن تشبه بقوم فهو منهم))[6] ...)[7]

---

(١) سورة الأنبياء ٢٥ .

(٢) سورة النحل ٣٦ .

(٣) سورة المؤمنون ٥١ .

(٤) سورة نوح ٣ .

(٥) الفتاوى ١١/٥١-٥٢ . وانظر ٣٢٧/١٤ . ٩٢/٣ . ومنهاج السنة النبوية ٤٩٠/٣ .

(٦) رواه الإمام أحمد في المسند ٥٠/٢ ، ٩٢ وصحح اسناده أحمد شاكر في تحقيقه للمسند (ح٥١١٤ ، ٥١١٥ ، ٥٦٦٧) .

(٧) الفتاوى ١٥٤/١ ، وانظر الفتاوى أيضاً ١٠٧/٢٠ والصفدية ٢٢٨/٢-٢٢٩ ، وإقتضاء الصراط المستقيم ٨٣١/٢ وما بعده ، والجواب الصحيح ٣٢/٢ وما بعدها

وعلى هذا فإن التوحيد هو دين الرسل جميعهم ، لا يقبل الله من أحد سواه فبه أرسلت الرسل جميعهم ، وبه أنزلت جميع الكتب وبه أمر الله سبحانه عباده ، وعلى هذا اتفق أئمة الإيمان من سلف وخلف ، لم يخالف أحد في هذا المفهوم للتوحيد إلا من لا يعتد بمخالفته ، وبين أنه لا يقبل من أحد سواه وفي ذلك يقول شيخ الإسلام : (إخلاص الدين لله هو الدين الذي لا يقبل الله سواه ، وهو الذي بعث به الأولين والآخرين من الرسل ، وأنزل به جميع الكتب ، واتفق عليه أئمة أهل الإيمان وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية ، وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه .)[1]

الرسل أمروا بهذا التوحيد

وقد بين ـ رحمه الله ـ أن الرسل قد أمروا بإخلاص هذا التوحيد لرب العالمين ، وبه أمروا أن يدعو أقوامهم إلى الحق والهدى المبين ، باتباع توحيد المرسلين ، (قال تعالى : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ، إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ، ألا له الدين الخالص ﴾ [2] والسورة كلها عامتها في هذا المعنى. كقوله : ﴿ قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ، وأمرت لأن أكون أول المسلمين ﴾ إلى قوله : ﴿ قل الله أعبد مخلصاً له ديني ﴾ إلى قوله :﴿ أليس الله بكاف عبده ، ويخوفونك بالذين من دونه ﴾ إلى قوله : ﴿ أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره ﴾ الآية ، إلى قوله : ﴿ أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ؟ قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون ، وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾ إلى قوله : ﴿ أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ﴾ إلى قوله :﴿ بل الله فاعبد وكن من الشاكرين﴾[3]...

وقد أخبر سبحانه أنهم إنما أمروا بذلك في غير موضع كالسورة التي قرأها النبي ﷺ على أبي لما أمره الله تعالى أن يقرأ عليه قراءة إبلاغ وإسماع بخصوصه فقال : ﴿وما

---

(١) الفتاوى ٤٩/١٠ ، وانظر ١٥٤/١ .

(٢) الزمر ١ـ٣ .

(٣) سورة الزمر الآيات على الترتيب ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٣-٤٥ ، ٦٤ ، ٦٦ .

تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ، وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ﴾ الآية [(١)] .

وهذه حقيقة قول لا إله إلا الله ، وبذلك بعث جميع الرسل ، قال الله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ [(٢)] وقال : ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾[(٣)] وقال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ [(٤)] .

وجميع الرسل افتتحوا دعوتهم بهذا الأصل كما قال نوح عليه السلام : ﴿اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾ [(٥)] وكذلك هود وصالح وشعيب عليهم السلام وغيرهم كل يقول : ﴿ اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾ [(٦)] لاسيما أفضل الرسل الذين اتخذ الله كلاهما خليلاً إبراهيم ومحمداً - عليهما السلام - فإن هذا الأصل بينه الله بهما وأيدهما فيه ونشره بهما ، فإبراهيم هو الإمام الذي قال الله فيه : ﴿ إني جاعلك للناس إماماً﴾[(٧)] وفي ذريته جعل النبوة والكتاب والرسل ، فأهل هذه النبوة والرسالة هم من آله الذين بارك الله عليهم ، قال سبحانه : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني فإنه سيهدين ، وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون﴾[(٨)] .

فهذه الكلمة هي كلمة الإخلاص لله وهي البراءة من كل معبود إلا من الخالق الذي فطرنا كما قال صاحب يس : ﴿ ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون أأتخذ

---

(١) سورة البينة ٤-٥ .

(٢) الأنبياء ٢٥ .

(٣) الزخرف ٤٥ .

(٤) النحل ٣٦ .

(٥) المؤمنون ٢٣ .

(٦) سورة الأعراف ٥٩ .

(٧) البقرة ١٢٤ .

(٨) الزخرف ٢٧ .

من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ، إني إذاً لفي ضلال مبين ﴾[(١)]

وقال تعالى في قصته بعد أن ذكر ما يبين ضلال من اتخذ بعض الكواكب رباً يعبده من دون الله ، قال : ﴿ فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾ إلى قوله : ﴿ ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً...﴾[(٢)] وقال إبراهيم الخليل عليه السلام : ﴿ .. أفرأيتم ما كنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فإنهم عدو لي إلا رب العالمين ، الذي خلقني فهو يهدين ، والذي هو يطعمني ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذي يميتني ثم يحيين ﴾[(٣)] وقال تعالى : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ...﴾[(٤)]الآية

ونبينا ﷺ هو الذي أقام الله به الدين الخالص لله دين التوحيد ، وقمع به المشركين من كان مشركاً في الأصل ، ومن الذين كفروا من أهل الكتب ، وقال ﷺ فيما رواه الإمام أحمد وغيره : ((بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم))[(٥)] وقد تقدم بعض ما أنزل الله عليه من الآيات المتضمنة للتوحيد .

---

(١) سورة يس ٢٣-٢٤ .

(٢) سورة الأنعام ٧٨-٨١ .

(٣) سورة الشعراء ٧٥-٨١ .

(٤) سورة المجادلة ٤ .

(٥) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

وقال تعالى أيضا : ﴿ والصافات صفاً ﴾ إلى قوله :﴿ إن إلهكم لواحد﴾ إلى قوله : ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ، بل جاء بالحق وصدق المرسلين ﴾ إلى قوله : ﴿أولئك لهم رزق معلوم، فواكه وهم مكرمون ﴾ إلى ما ذكره من قصص الأنبياء في التوحيد وإخلاص الدين لله، إلى قوله : ﴿سبحان الله عما يصفون ، إلا عباد الله المخلصين﴾(١).

وقال تعالى : ﴿ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً ، إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيماً ﴾(٢)

وفي الجملة هذا هو الأصل [الذي بعث به محمد ﷺ ومن قبله الرسل كافة والمذكور] في سورة الأنعام والأعراف والنور وآل طسم وآل حم وسور المفصل وغير ذلك من السور المكية ومواضع من المدنية كثيرة ظاهرة ، فهو أصل الأصول وقاعدة الدين الذي بعثت به الرسل وأنزلت به الكتب .) (٣)

بيان الرسل لمعنى التوحيد .

وهذا المعنى الذى يراد بكلمة التوحيد عند الإطلاق هو ما بينه الله جل شأنه في كتابه الكريم وعلى لسان رسوله الأمين حيث ، ذكر أن الرسل قاطبة من أولهم إلى آخرهم قد بينوا أصول الدين وكل ما يحتاج الناس إلى معرفته بياناً شافياً كافياً كاملاً ، وبلغوه إلى

---

(١) الآيات من سورة الصافات ١، ٤ ، ٣٥، ٤٢ ، ١٥٩ .

(٢) سورة النساء ١٤٥-١٤٦ .

(٣) الفتاوى ١٠/ ٤٩ - ٥٤ بتصرف . وانظر الفتاوى ٩٢/٣ ، ٢٧٩/١١ ، ٣٢٦/١٤ ، ١٦٠/١٨-١٦١ ، ٢٣٠-٢٣١ ، ٣١٧ ، ١٠٦/١٩ ، ١١٢ ، ١٨٠-١٨٢ ، ٢٣٠-٢٣١ ، وانظر الصفدية ٢٤٢/٢ والجواب الصحيح ٤/١-٦ .

أقوامهم بلاغاً مبيناً ، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام -رحمه الله-
(أصول الدين إما أن تكون مسائل يجب اعتقادها قولاً أو قولاً وعملاً كمسائل التوحيد والصفات والقدر والنبوة والمعاد أو دلائل هذه المسائل . . .

فكل ما يحتاج الناس إلى معرفته واعتقاده والتصديق به من هذه المسائل فقد بينه الله ورسوله بياناً شافياً قاطعاً للعذر . إذ هذا من أعظم ما بلغه الرسول البلاغ المبين ، وبينه للناس ، وهو من أعظم ما أقام الله به الحجة على عباده فيه بالرسل الذين بينوه وبلغوه .

وكتاب الله الذي نقل الصحابة ثم التابعون عن الرسول لفظه ومعانيه ، والحكمة التي هي سنة رسول الله ﷺ التي نقلوها أيضاً عن الرسول مشتملة من ذلك على غاية المراد وتمام الواجب والمستحب ...)[1]

كما أن الله سبحانه وتعالى قد أنزل على رسوله الأمين ما شفى فيه غليل المؤمنين، وقطع به دابر المشركين ، من تقرير التوحيد وهدم عقائد المشركين الذين نابذهم النبي ﷺ وبين أنهم على ضلال ، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام - رحمه الله - :

(إن الله - سبحانه وتعالى - بين في كتابه كلما يحتاج إليه في أصول الدين وقرر فيه التوحيد والنبوة والمعاد بالبراهين التي لاينتهي إلى تحقيقها نظر خلاف المتكلمين من المسلمين والفلاسفة وأتباعهم ، واحتج فيه بالأمثال الصمدية التي هي المقاييس العقلية المفيدة لليقين.)[2]

---

(١) الفتاوى ٢٩٥/٣ .

(٢) الفتاوى ٣٣١/٣ .

ومن ذلك ما بينه سبحانه من اختصاصه بالوحدانية المطلقة والألوهية على خلقه أجمعين وقرر ذلك في كتابه في غير ما آية ، ومن ذلك أعظم آية في كتاب الله آية الكرسي ، قال شيخ الإسلام مبيناً ذلك :

(افتتحها الله بقوله (الله) وهو أعظم من قوله (ربك) ولهذا افتتح به أعظم سورة في القرآن فقال : ﴿ الحمد لله رب العالمين﴾ وقال : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ إذا كان المشركون قد اتخذوا إلهاً غيره وإن قالوا بأنه الخالق ، ففي قوله (خلق) لم يذكر نفي خالق آخر إذ كان ذلك معلوماً فلم يثبت أحد من الناس خالقاً آخر مطلقاً خلق كل شيء وخلق الإنسان وغيره بخلاف الإلهية .

قال تعالى : ﴿ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنت فاعلين ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وانطلق الملأ منهم إن امشوا واصبروا على آلهتكم، إن هذا لشيء يراد ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ أإنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد ﴾[3] وقال تعالى : ﴿قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً﴾[4] .

فابتغوا معه آلهة أخرى ، ولم يثبتوا معه خالقاً آخر. فقال في أعظم الآيات : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ ذكره في ثلاثة

(١) سورة الأنبياء ٦٨ .

(٢) سورة ص ٦ .

(٣) سورة الأنعام ١٩ .

(٤) سورة الإسراء ٤٢ .

مواضع من القرآن، كل موضع في أحد أصول الدين الثلاثة وهي : التوحيد والرسل والآخرة .

هذه التي بعث بها جميع المرسلين ، وأخبر عن المشركين أنهم يكفرون بها في مثل قوله : ﴿ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا ، والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون ﴾[1] فقال هنا : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ قرنها بأنه لا إله إلا هو).[2]

فهذا بيان من الله ورسوله لمعنى التوحيد الذي هو الغاية من خلق الخلق ، حيث أرسل به جميع الرسل .

لا حجة لأحد بترك واجب أو فعل محرم

ومما تقدم يتضح أنه لا يصح لأحد بحال من الحوال أن يحتج على ترك التوحيد بأي حجة ، لكونه قد بُين بياناً كافياً شافياً ، وأن من احتج بالقدر على تركه للتوحيد أو احتج بغيره فهو أعظم ضلالاً ، قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى :

(وسلف الأمة وأئمتها متفقون على أن العباد مأمورون بما أمرهم الله به ، منهيون عما نهاهم الله عنه ، ومتفقون على الإيمان بوعده ووعيده الذي نطق به الكتاب والسنة ، ومتفقون أنه لا حجة لأحد على الله في واجب تركه ولا محرم فعله ، بل لله الحجة البالغة على عباده ، ومن احتج بالقدر على ترك مأمور أو فعل محظور أو دفع ما جاءت به النصوص في الوعد والوعيد فهو أعظم ضلالاً وافتراء على

---

(١) سورة المائدة ٤٨ .

(٢) الفتاوى ١٦/٣٧٠ -٣٧٢ .

الله ومخالفة لدين الله من أولئك القدرية ، فإن أولئك مشبهون بالمجوس .[١]

لاسيما وأن الله ﷻ قد بين هذا التوحيد على لسان رسله بياناً شافياً كافياً ، أرشدوا فيه العباد إلى ما يجب أن يتبعوه ويؤمنوا به ويأتمروا به ، وبين ما يجب أن يجتنبوه ويحذروا منه ، بل ويبغضوا أهله ويعادوهم .



(١) الفتاوى ٨/٤٥٢ .

بيانه لأقسام التوحيد

ذكر العلماء أن التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات ، وهذه الأقسام هي مدار الدين لا يتم الإيمان إلا بها جميعاً .

وقد دل على هذا التقسيم نصوص الكتاب والسنة .

فمن أدلة توحيد الربوبية قوله تعالى : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ وقوله ﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾[1] ﴿ الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل ﴾[2]

ومن أدلة توحيد الألوهية قوله تعالى : ﴿ الحمد لله ﴾ لأن معنى الله أي المألوه. وقوله : ﴿ إياك نعبد﴾ وقوله ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ، ألا له الدين الخالص ﴾[3]

من أدلة توحيد الأسماء والصفات قوله تعالى : ﴿الرحمن الرحيم ﴾ وقوله ﴿ مالك يوم الدين ﴾ ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾[4] وقوله ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[5]

بل كلمة التوحيد دلت على هذه الأقسام الثلاثة ، فقد دلت على إثبات العبادة لله وحده ، ونفيها عمن سواه ، كما دلت على توحيد الربوبية ، فإن العاجز لا يصلح أن يكون إلهاً معبوداً ، ودلت على الأسماء والصفات ، فإن مسلوب الأسماء والصفات ليس بشيء ، بل هو عدم محض ، كما قال بعض العلماء : المشبه يعبد صنماً ، والمعطل يعبد عدماً والموحد يعبد إله الأرض والسماء .

---

(١) سورة الأعراف ٥٤ .

(٢) سورة الزمر ٦٢ .

(٣) سورة الزمر ٣٩ .

(٤) سورة الإسراء ١٧ .

(٥) سورة الشورى ٤٢ .

وهناك تقسيم آخر مجمل حيث قسمه رحمه ا لله إلى توحيد القصد والإرادة والطلب وتوحيد الإثبات والمعرفة .

وقد جمع سبحانه وتعالى هذين النوعين في سورتي الإخلاص . فالكافرون متضمنة للتوحيد العملي الإرادي توحيد الطلب والقصد ، والإخلاص متضمنة لتوحيد العلمي الخبري ، (الإثبات والمعرفة)(١) أي إثبات أسماء ا لله وصفاته التي لا يشاركه فيها أحد وإثبات توحيد الربوبية وهو معرفة وحدانية ا لله في الخلق والرزق والإحياء والإماتة ، والأمر والتدبير.. إثبات ذلك كله لله وحده لاشريك له .

فالقسم الأول : دل على إثبات حقيقة ذات الرب سبحانه وأسمائه وصفاته وأفعاله ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾(٢)

والقسم للثاني : دل على وجوب عبادة ا لله وحده لاشريك له وتجريد المتابعة لرسوله ﷺ ومحبته والخوف منه والإخلاص له وهو توحيد الألوهية .

وما تقدم كله يقرره شيخ الإسلام ـ رحمه ا لله تعالى ـ : بقوله : (الكلام في باب التوحيد والصفات هو من باب الخبر الدائر بين النفي والإثبات .

والكلام في الشرع والقدر هو من باب الطلب والإرادة الدائر بين الإرادة والمحبة، وبين الكراهة والبغض نفياً وإثباتاً .

والإنسان يجد في نفسه الفرق بين النفي والإثبات ، والتصديق والتكذيب وبين الحب والبغض والحض والمنع ، حتى إن الفرق بين هذا النوع وبين النوع الآخر معروف عند العامة والخاصة ومعروف عند أصناف المتكلمين في العلم ، كما ذكر ذلك الفقهاء في كتاب الإيمان ، وكما ذكره المقسمون للكلام من أهل النظر والنحو والبيان فذكروا أن الكلام نوعان خبر وإنشاء والخبر دائر بين النفي والإثبات والإنشاء أمر أو نهي أو إباحة .

---

(١) احتماع الجيوش الإسلامية ٢٧ .

(٢) سورة الشورى ١١ .

وإذا كان كذلك فلا بد للعبد أن يثبت لله ما يجب إثباته له من صفات الكمال وينفي عنه ما يجب نفيه عنه مما يضاد هذه الحال[١] ، ولابد له في أحكامه أن يثبت خلقه وأمره ، فيؤمن بخلقه المتضمن كمال قدرته ، وعموم مشيئته [٢]، ويثبت أمره المتضمن بيان ما يحبه ويرضاه من القول والعمل ويؤمن بشرع الله وقدره إيماناً خالياً من الزلل .[٣]

وهذا يتضمن التوحيد في عبادته وحده لا شريك له وهو التوحيد في القصد والإرادة والعمل ، والأول يتضمن التوحيد في العلم والقول كما دل على ذلك سورة قل هو الله أحد ودل على الآخرة سورة : قل يا أيها الكافرون وهما سورتا الإخلاص وبهما كان النبي ﷺ يقرأ بعد الفاتحة في ركعتي الفجر ، وركعتي الطواف وغير ذلك . فالأول وهو التوحيد في الصفات فالأصل في هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه ، وبما وصفته به رسله : نفياً وإثباتاً فيثبت لله ما أثبته لنفسه ، وينفي عنه ما نفاه عن نفسه ...

وأما الأصل الثاني وهو التوحيد في العبادات المتضمن للإيمان بالشرع والقدر جميعاً .

فنقول : لابد من الإيمان بخلق الله وأمره فيجب الإيمان بأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه ، وأنه على كل شيء قدير ، وأنه ما شاء كان ولم يشأ لم يكن ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ...

ويجب الإيمان بأن الله أمر بعبادته وحده لا شريك له ، كما خلق الجن والإنس لعباده، وبذلك أرسل رسله ، وأنزل كتبه ، وعبادته تتضمن كمال الذل والحب ،

---

(١) وهذا هو : توحيد الأسماء والصفات .

(٢) وهذا هو : توحيد الربوبية .

(٣) وهذا هو : توحيد الألوهية .

وذلك يتضمن كمال طاعته ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾[١] وقال : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله﴾ [٢]

... وهذا هو دين الإسلام الذي لا يقبل الله ديناً غيره لا من الأولين ولا من الآخرين فإن جميع الأنبياء على دين الإسلام ...) [٣]

فاتضح من كلامه — رحمه الله — أن التوحيد ينقسم إلى قسمين : الأول توحيد المعرفة والإثبات ، وهو ما يقابل في التقسيم الثلاثي توحيدي الربوبية والأسماء والصفات، والنوع الثاني : توحيد القصد والطلب ، وهو ما يقابل توحيد العبادة ، وعلى هذا فلا فرق بين تقسيمه إلى قسمين أو إلى ثلاثة . فالتقسيم الأول مُفَصَّل ، والثاني مجمل ، وهذا التقسيم قد دل عليه ما ذكر من نصوص الكتاب والسنة ، كما دل عليه أيضاً قوله تعالى : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ فهذه الآية تدل على وجوب إفراد الله بالعبادة الذي هو توحيد الإلهية وإفراده بالإستعانة التى هى من مقتضيات الربوبية ، كما دل على توحيد الربوبية قوله جل وعلا : ﴿الحمد لله رب العالمين ﴾ حيث جمع الله بين الإسمين (الإله) الذي هو المعبود الذي يستحق أن يعبد وحده دون من سواه و(الرب) الذي يربي عبده فيدبره ، ولهذا كانت العبادة متعلقة باسم (الله) والسؤال متعلقاً باسمه الرب[٤]

وهذه الأقسام الثلاثة لأنواع التوحيد هو ما عليه علماء السلف، إلا أن عباراتهم قد تختلف من شخص لآخر ؛ لكن لا يختلفون في هذا المفهوم .

---

(١) سورة النساء ٨٠ .

(٢) سورة النساء ٦٤ .

(٣) الفتاوى ٣/٢-٣ ، ٨٩- ٩٠ . وانظر درء التعارض ٢٨٤/١ وبيان تلبيس الجهمية ٤٧٨/١-٤٨١ .

(٤) انظر الفتاوى ٢٨٤/١٠ ، ٣٣١ ، وقد أشار شيخ الإسلام إلى هذه الأقسام في مواضع كثيرة من كتبه انظر مثلاً : الفتاوى ٣٦٤/٣ ، ٦٦٨/١٠ ، ١٥٦ - ١٥٧ ، ٣٣٥. ٤٥٩/٢ ، ٢٢/١ ، ٢٣ ، ٣٦٧ ، ٣٧٩/١٤ ، ١٨٣/٢٠ ، والاستقامة ٢٩/٢ ، ٣١ - ٣٢ ، ودرء تعارض العقل والنقل ٢٢٦/١ ، ومنهاج السنة ٢٧٧/٣ ، ٢٧٨ ، وبيان تلبيس الجهمية ١٣٤/١ ، ٤٤٩ ، والصفدية ٣٣٩/٢-٣٤٠ ، والاقتضاء ٨٥١/٢- ٨٥٦ . وغيرها كثير

قال شيخ الإسلام ــ رحمه الله ــ : (والمسلمون يقولون كما قال الله تعالى : ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾[(١)] والتوحيد الذي جاءت به الرسل ونزلت به الكتب هو توحيد الإلهية ، وهو أن يعبد الله وحده لا شريك له ، وهو متضمن لشيئين ، أحدهما : القول العلمي ، وهو إثبات صفات الكمال له ، وتنزيهه عن النقائص ، وتنزيهه عن أن يماثله أحد في شيء من صفاته ، فلا يوصف بنقص بحال ، ولا يماثله أحد في شيء من الكمال ، كما قال تعالى : ﴿ قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ﴾ فالصمدية تثبت له الكمال والأحدية تنفي مماثلة شيء له في ذلك ...

والتوحيد العملي الإرادي أن لا يعبد إلا إياه ، فلا يدعو إلا إياه ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يخاف إلا إياه ، ولا يرجوا إلا إياه ، ويكون الدين كله لله ، قال الله تعالى : ﴿ قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولي دين ﴾ وهذا التوحيد يتضمن أن الله خالق كل شيء وربه ومليكه ، لا شريك له في الملك ...)[(٢)]

وتقسيم التوحيد إلى هذه الأقسام أو غيرها ليس بدعاً من القول كما ادعى بعضهم من أنه من ابتداع شيخ الإسلام ابن تيميه[(٣)] ؛ بل إنما استقاه العلماء من استقراء النصوص الشرعية ، وأشار إليه علماء السلف ، فقد أشار إليه [(٤)] أبو يوسف صاحب أبي حنيفة [(٥)] كما صرح بهذا التقسيم الإمام أبو جعفر الطحاوي [(٦)] في مقدمة متن العقيدة الطحاوية حيث يقول : (نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله : إن الله

---

(١) سورة البقرة ١٦٣ .

(٢) الصفدية ٢/٢٢٨-٢٢٩ .

(٣) انظر في هذا القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد لعبد الرزاق البدر .

(٤) انظر كتاب التوحيد لابن منده ٣/٣٠٤-٣٠٦ . وانظر الحجة في بيان المحجة للتيمي ١/١١١-١١٣ .

(٥) توفي - رحمه الله - سنة ١٨٢هـ .

(٦) توفي ــ رحمه الله تعالى- ٣٢١ هـ .

واحد لا شريك له ، ولا شيء مثله ، ولا شيء يعجزه ، ولا إله غيره ...)[١] وابن منده [٢] فقد ذكر ـ رحمه الله ـ أبواباً في أنواع التوحيد الثلاثة [٣] وابن بطة [٤] في كتابة الإبانة حيث قسمه إلى ثلاثة أقسام ، قال ـ رحمه الله ـ (.. أصل الإيمان بالله الذي يجب على الخلق اعتقاده في إثبات الإيمان به ثلاثة أشياء :

أحدهما أن يعتقد العبد إنيته[٥] ليكون بذلك مبايناً لمذهب أهل التعطيل الذين لا يثبتون صانعاً .

والثاني : أن يعتقد وحدانيته ليكون مبايناً بذلك مذاهب أهل الشرك الذين أقروا بالصانع وأشركوا معه في العبادة غيره .

والثالث : أن يعتقد أنه موصوف بالصفات التي لا يجوز أن يكون موصوفاً بها من العلم والقدرة والحكمة وسائر ما وصف به نفسه في كتابه ، إذا قد علمنا أن كثيراً ممن يقر به ويوحده بالقول المطلق قد يلحد في صفاته ، فيكون إلحاده في صفاته قادحاً في توحيده .

ولأنا نجد الله تعالى قد خاطب عباده بدعائهم إلى اعتقاد كل واحدة في هذه الثلاث ، والإيمان بها ، فأما دعاؤه إياهم إلى الاقرار بإنِّيَتِهِ ووحدانيته ؛ فلسنا نذكره هذا هاهنا لطوله وسعة الكلام فيه ، ولأن الجهمي يدعي لنفسه الإقرار بهما وإن كان جحده للصفات قد أبطل دعواه لهما ...)[٦] كما أشار إليه ابن جرير الطبري [٧] وغيرهما ، وقرره شيخ الإسلام ابن القيم [٨] كما

---

(١) وانظر شرح ابن أبي العز للمتن في الطحاوية ص ٧٤ ـ ١١٢ .

(٢) توفي سنة ٣٩٥ .

(٣) انظر كتاب التوحيد الجزء الأول ٦١ وما بعدها .

(٤) توفي ـ رحمه الله ـ سنة ٣٨٧ هـ.

(٥) أي إثبات ربوبية الرب تبارك وتعالى ، والإيمان بوجود .

(٦) الإبانة الكبرى لابن بطه الرد على الجهمية ٢/١٧٢-١٧٣ .

(٧) توفي - رحمه الله تعالى - ٣١٠ هـ .

(٨) كما سبق ذكره قبل قليل .

ذكره الزبيدي[١] في تاج العروس.[٢] ومن قبله ابن منظور[٣] في اللسان [٤] ومن قبلهما الأزهري[٥] في تهذيب اللغة ، حيث قال : (قال الليث .. والتوحيد الإيمان با لله وحده لا شريك له ، وا لله الواحد الأحد ذو الوحدانية ، والتوحيد)[٦]. (وأما اسم ا لله جل ثناؤه " أحد " فإنه لا يوصف شيء بالأحدية غيره ، لا يقال رجل أحد ولا درهم أحد ، كما يقال رجل وحد ، أي : فرد ؛ لأن أحد صفة من صفات ا لله التي استأثر بها فلا يشركه فيها شيء ... ويقول : أحدت ا لله ووحدته ، وهو الأحد الواحد ، وأما قول الناس توحد ا لله بالأمر وتفرد فإنه وإن كان صحيحاً في العربية فإني لا أحب أن ألفظ بلفظ في صفة ا لله لم يصف ا لله به نفسه في التنزيل أو في السنة ، ولم أجد المتوحد ولا المتفرد في صفاته ، وإنما ننتهي في صفات ا لله إلى ما وصف به نفسه[٧] ، ولا نجاوزه إلى غيره لجوازه في العربية تعالى ا لله عن التمثيل والتشبيه علواً كبيراً .)[٨]

---

(١) هو محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسني الزبيدي الملقب بمرتضى المولود في سنة ١١٤٥هـ المتوفى سنة ١٢٠٥هـ . انظر الأعلام ٧٠/٧ .

(٢) انظر ٢٣٦/٢ مادة وحد .ط دار الفكر .

(٣) هو محمد بن مكرم الأنصاري الإفريقي ولد سنة ٦٣٠هـ وتفي سنة ٧١١هـ انظر الدرر الكامنة ١٥/٦ . والأعلام ١٠٨/٧ .

(٤) انظر اللسان ٤٥٠/٣ وما بعده مادة وحد .

(٥) هو محمد بن أحمد بن الأزهري من أئمة اللغة توفي سنة ٣٧٠ هـ انظر الأعلام ٣١١/٥ .

(٦) تهذيب اللغة ١٩٣/٥ .

(٧) قول الناس توحد ا لله بالأمر وتفرد به ، أو قولهم هو المتوحد أو المتفرد فيه تفصيل ، فإن كان يُقصد من ذلك الإخبار فلا محضور في ذلك ؛ لأن باب الخبر أوسع من باب الصفات ، وأما إذ كان المقصود به تسميته بذلك فإن هذا لم يرد به النص ، وعلى هذا يخرج كلام الأزهري ـ رحمه ا لله ـ .

(٨) المصدر السابق ١٩٧ - ١٩٨ .

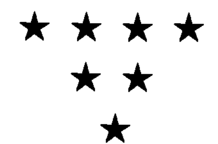
وقال ـ رحمه الله ـ : (.. الرب هو الله تبارك وتعالى ، هو رب كل شيء أي مالكه وله الربوبية على جميع الخلق لا شريك له .. ولا يقال " الرب " بالألف واللام لغير الله ، وهو رب الأرباب ، ومالك الملوك والأملاك) .(١)

فكلامه ـ رحمه الله ـ يدل على أن تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام ليس بدعاً من القول ، وليس من اختراع شيخ الإسلام ابن تيميه ـ رحمه الله ـ فإن قول الأزهري ـ رحمه الله ـ " والتوحيد الإيمان بالله وحده لا شريك له " يدل على توحيد الألوهية ، وقوله : " والله ذوا الوحدانية والتوحيد " يدل على نوعي التوحيد الآخرين توحيد الربوبية ، والأسماء والصفات ، كما أن كلامه الآخر يدل عليهما ، فإن صفاته تدل على وحدانيته في صفاته وأسمائه ، ووحدانيته في ربوبيته .

ومما يزيد هذا التقسيم وضوحاً وبياناً بأنه تقسيم لا غبار عليه بالإضافة إلى ما سبق : أن هذا التقسيم الاستقرائي مطرد لدى أهل كل فن ، كما في استقراء النحاة كلام العرب إلى اسم وفعل وحرف ، والعرب لم تفه بهذا و لم يعتب على النحاة في ذلك عاتب ، وهكذا أنواع الاستقراء .(٢)

وقد ذكر ابن القيم ـ رحمه الله ـ أن القرآن كله مقرر لهذين النوعين .

فهو إما خبر عن الله وأسماءه وصفاته وأفعاله ، وهو توحيد الإثبات والمعرفة ، وإما دعوة إلى عبادته وحده لاشريك له ، وخلع كل ما يعبد من دونه ، وهو توحيد الإرادة والقصد ، وإما أمر ونهي وهذا من حقوق التوحيد ومكملاته ، وإما خبر عن إكرام أهل التوحيد ، أو خبر عن النكال بأهل الشرك ، وهذا جزاء من تمسك بالتوحيد ، والآخر جزاء من حاد عنه(٣) .



---

(١) تهذيب اللغة ١٧٦/١٥ مادة ربب .

(٢) التحذير من مختصرات الصابوني في التفسير لبكر أبو زيد صـ ٣٠ .

(٣) مدارج السالكين ٤٦٨/٣ ، وانظر شرح العقيدة الطحاوية ٨٨ ، ومعارج القبول ٥٤/١

العلاقة بين أنواع التوحيد

بين شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ أن العلاقة بين هذه الأنواع الثلاثة علاقة تلازم، وتضمن، فكل منها ملازم للآخر لا ينفك عنه بحال، ولذلك نجد أن الله سبحانه كثيراً ما يلزم المشركين المقرين بالربوبية أن يقروا ويؤمنوا بتوحيد الإلهية، فتارة يستدل على وجوب إفراده بتوحيد الإلهية بما يقع لهم من الضر والبلاء الذي يوقنون بأنه لا يصرفه عنهم إلا هو سبحانه، قال الله تعالى: ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً﴾ (1).

فإذا كان الأمر كذلك فيجب أن يوحد الله ويعبد وينبذ ما سواه. فمن تمام نعمته سبحانه على عباده أن ينزل بهم الشدة والضر ما يلجئهم إلى توحيده فيدعونه مخلصين له الدين ويرجونه لا يرجون أحداً سواه، وتتعلق قلوبهم به لا بغيره، فيحصل لهم من أنواع العبادة ولذتها ما هو أعظم نعمة من زوال المرض أو الخوف أو الجدب أو غيره.

وتارة يلزم بالإقرار بالألوهية لأنهم مقرين بربوبية الله سبحانه وتعالى، فإذا كان الأمر كذلك فيجب أن يخلصوا العبادة لله وحده، وهذا كثير في القرآن من ذلك قوله سبحانه: ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله قل أفلا تذكرون، قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم، سيقولون لله قل أفلا تتقون، قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون ﴾ (2) وقال: ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾(3)(4).

فاتضح بهذا أن توحيد الألوهية هو الأساس الذي يجب أن تقوم عليه المعاملة والاعتقاد، وأن الله تعالى يقدر من الأسباب على الناس ما يلجئهم إلى تحقيق هذا

---

(١) سورة الإسراء ٦٧ .

(٢) المؤمنون ٨٤-٨٩ .

(٣) سورة العنكبوت ٦١ .

(٤) انظر الفتاوى ١٠/ ٣٣٢-٣٣٣ ، ١/١٥٥

التوحيد في سائر أعمالهم ، بما يشاهدونه من الأمور التي تدل على توحيد الربوبية الذي لا يجحدونه.

قال - رحمه الله تعالى - : (أما توحيد الربوبية فقد أقر به المشركون ، وكانوا يعبدون مع الله غيره ، ويحبونهم كما يحبونه ، فكان ذلك التوحيد - الذي هو توحيد الربوبية - حجة عليهم ، فإذا كان الله هو رب كل شيء ومليكه ولا خالق ولا رازق إلا هو فلماذا يعبدون غيره معه وليس له عليهم خلق ولا رزق ، ولا بيده لهم منع ولا عطاء بل هو عبد مثلهم لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً)[1].

وأما توحيد الألوهية فهو : التوحيد الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه [وهو أن يعبد الله وحده لا شريك له .. وهو مستلزم لتوحيد الربوبية ، وهو أن يعبد الحق رب كل شيء .

العلاقة بين توحيد الربوبية والألوهية

أما العلاقة بين الألوهية والربوبية فهي علاقة تضمن فالإقرار بتوحيد الألوهية متضمن للإقرار بتوحيد الربوبية فإن من أقر بالألوهية فهو مقر ومؤمن ضمناً بتوحيد الربوبية . كما أنه إذا اقترنا في الذكر لم يمنع من أن يختص كل بمعناه .

وفي ذلك يقول شيخ الإسلام - رحمه الله - : (.. الإلهية تتضمن الربوبية والربوبية تستلزم الإلهية ، فإن أحدهما إذا تضمن الآخر عند الانفراد لم يمنع أن يختص بمعناه عند الاقتران ، كما في قوله ﴿ قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس ﴾ وفي قوله : ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ فجمع بين الاسمين...)[2]

وما ذكره شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ في العلاقة بين توحيد الربوبية والألوهية هو على نحو ما يذكر في الأسماء المترادفة كالفقير والمسكين ، والبر والتقوى ، حيث بين رحمه الله أن الإقرار بتوحيد الألوهية يتضمن الإقرار بتوحيد الربوبية بخلاف الإقرار

---

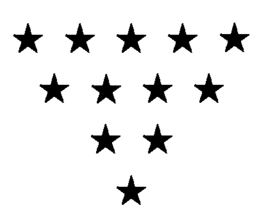
(١) الفتاوى ١٤/٣٨٠ .

(٢) الفتاوى ١٠/٢٨٤ . وانظر الفتاوى ١٤/٣٧٧ - ٢٧٩ ، ١٣ . ٢/٣٧ . ٣/٨٩ . ١٠/١٥٧ .

بالربوبية وحده ، فإن صاحبه لا يكون مقراً بالإلوهية بل يلزمه أن يقر ويعترف وينصاغ لتوحيد الألوهية فيوحد الله لا يشرك به شيئاً ، وهذا الذي تكرر كثيراً في القرآن .

فهذين النوعين من التوحيد إذا ما (أفرد أحدهما مثل قوله تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾[١] فهو توحيد الإلهية ، وكذلك إذا أفرد توحيد الإلهية مثل قوله : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾[٢] وأمثال ذلك فإن قرن بينهما فسر كل لفظ بأشهر معانيه)[٣] .

ويدل على ذلك قوله ــ رحمه الله ــ : (فإثبات الإلهية يوجب إثبات الربوبية ، ونفي الربوبية يوجب نفي الإلهية ، إذ الإلهية هي الغاية ــ وهي مستلزمة للبداية كاستلزام العلة الغائية للفاعلية)[٤]



(١) سورة فصلت ٣٠ .

(٢) سورة محمد ١٩ .

(٣) الدرر السنية ٢/٦٥ وانظر ص ٧٣ .

(٤) الفتاوى ٢/٣٧ .

المبحث الثالث : بيانه لمعنى الألوهية

معنى الألوهية

التأله في اللغة :

التأله في اللغة : هو التعبد [(١)] واسم الجلالة مشتق من الإله وهو اسم مخصوص بالله جل شأنه قال سبحانه : ﴿هل تعلم له سمياً﴾ [(٢)] وأصل إله ولاه ، ثم قلبت الواو همزة فأصبحت إله .

ومعنى ولاه أن الخلق إليه يولهون في حوائجهم ويفزعون إليه فيما يصيبهم ، ويفزعون إليه في كل ما ينوبهم كما يفزع كل طفل إلى أمه . [(٣)] بل يفزعون إليه فيما حاجتهم إليه أشد من ذلك ، كحاجتهم إلى إخلاص العبادة والتأله له جل وعلا .

والإله هو المعبود ، إذ لايكون الإله إلهاً حتى يكون معبوداً ، وحتى يكون لعابده خالقاً ورازقاً ومدبراً وعليه مقتدراً ، فمن لم يكن كذلك فليس بإله ، وإن عبد ظلماً ، بل هو مخلوق ومتعبد . [(٤)]

وإله حقه أن لايجمع إذ لامعبود سواه ، لكن العرب لاعتقادهم أن ههنا معبودات جمعوه فقالوا : الآلهة ، قال تعالى : ﴿أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا﴾[(٥)] وقرأ ابن عباس – رضي الله عنه – ﴿ويذرك وإلاهتك﴾[(٦)] أي عبادتك [(٧)] .

التأله في الشرع :

وقد بين شيخ الاسلام هذه المعاني المتعلقة بألوهية الله جل شأنه ، لكنه أضاف إليها معان أخرى دل عليها الشرع ، تتعلق بالعبودية ، من استحقاقه جل شأنه للعبادة

---

(١) تهذيب اللغة ٤٢٣/٦ مادة أله .

(٢) سورة مريم ٦٥ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق وانظر المفردات ٢١ .

(٥) سورة الأنبياء آية ٤٣ .

(٦) سورة الأعراف آية ١٢٧ . وانظر تفسير ابن جرير (جامع البيان) ٢٥/٦ .

(٧) المفردات ٢١ .

وحده دون من سواه، وكونه يستحق أن يعبد هو بما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب ، المخضوع له غاية الخضوع ، إذ التأله الذي دل عليه معنى الإله يتضمن غاية العبودية لله رب العالمين المتضمنة غاية الحب بغاية الذل .[(١)] فالإله هو ما تألهه القلوب بالمحبة والتعظيم والرجاء والخوف والإجلال والرضى ، ونحو ذلك من معاني العبودية ، التي تقتضي فقر العباد إلى إلههم وحاجتهم إلى عبادته ، لما أوجد الله في النفس من التأله والانجذاب إلى المألوه المعبود ، فالإنسان إن لم يعبد الله وتنجذب إليه نفسه وتدفعه إلى ذلك فطرته السليمة وإلا فإنه ولا بد سيعبد غيره ، وذلك حينما تفسد فطرته ، إذ الإنسان قد جبل على أن يكون عبداً ، فإن لم يصرف هذه العبودية لله وحد وإلا فإنه سيصرفها إلى غيره لا محالة .[(٢)]وهذا هو أصل الدين وقاعدته كما بينه شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – والله جل شأنه قد أرسل الرسل بأنه لاإله إلا هو ، وشهد على نفسه بأنه لايستحق التأله والعبادة أحد سواه قال جل وعلا : ﴿ شهد الله أنه لاإله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لاإله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ [(٣)] فقد حكم سبحانه وقضى بأنه لامعبود ولا مألوه بحق سواه ، وذلك أنه إذا شهد أنه لاإله إلا هو فقد أخبر وبين وأعلم أن ما سواه ليس بإله فلا يعبد وأنه وحده الإله الذي يستحق العبادة ، وهذا يتضمن الأمر بعبادته والنهي عن عبادة ما سواه.[(٤)] كما لاتصح الإلهية لغيره ، وذلك يستلزم الأمر باتخاذه وحده إلهاً ، وقد بين شيخ الاسلام أن معنى شهد أي قضى وحكم[(٥)] ، وذلك يقتضي الأمر والإلزام بعبادة الإله الواحد الأحد ، كما قال سبحانه : ﴿وقضى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه و بالوالدين

---

(١) انظر الفتاوى ٢٤٩/١٠ .

٢ – وقد تقدم بيان ذلك انظر المبحث الثالث من التمهيد ص ٤٧ ، وكذا في الفصل الثالث من هذا الباب المبحث الخامس الأمر الثالث من أهمية توحيد العبادة .

٣ – سورة ال عمران آية ١٨ .

٤ – انظر الفتاوى ١٧٠/١٤ – ١٧١. وانظر الاقتضاء ٨٤٦/٢ .

(٥) انظر المصدر السابق ١٧٣/١٤ .

إحساناً ﴾[١] وقال تعالى : ﴿لاتتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد ﴾[٢] وقال سبحانه : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ [٣] وقال سبحانه : ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً و احداً ﴾[٤] وقال : ﴿ ولا تجعل مع الله إلهاً آخر﴾[٥] والقرآن كله شاهد بذلك آمراً به ناهياً عن ضده ، وهذا يقتضي أن يفرد وحده بالإلهية وبالعبودية فلا تعبد معه غيره .[٦]

(والإله الحق هو الذي تألهه القلوب فتخلوا عن محبة ما سواه بمحبته ، وتكتفي برجاءه عن رجاء ما سواه قال جل شأنه :﴿ مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ﴾[٧]، كما تستغني بسؤاله عن سؤال ما سواه ، وعن العمل لما سواه بالعمل له ، وعن الاستعانة بما سواه بالاستعانة به ، وبخوفه وخشيته عن خوف أو خشية من سواه ، قال تعالى : ﴿فلا تخشو الناس واخشون﴾[٨] وبدعائه عن دعاء من سواه) [٩]

هذا كله من مدلولات ومعاني الألوهية ، كما وضحها شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – ، ومن المعلوم أن لله الإلهية المطلقة في السماء والأرض كما قال جل شأنه : ﴿ وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ﴾[١٠] فألوهية الله جل شأنه عامة شاملة لجميع المخلوقات كما دل عليه قوله سبحانه : ﴿ تسبح له السموات السبع

---

١ – سورة الإسراء ٢٣ .

٢ – سورة النحل ٥١ .

٣ – سورة البينة ٥ .

٤ – سورة التوبة ٣١ .

٥ – سورة الإسراء ٢٢٠ ، ٣٩ .

٦ – انظر الطحاوية ٩١ .

٧ – سورة فاطر آية ٢

٨ – سورة البقرة من آية ١٥٠ .

٩– الفتاوى ٣٢٩/١٨ . وانظر ٤٨٨/٢-٤٨٩ . ودرء التعارض ١ /٢٢٦.

١٠ – سورة الزخرف آية ٨٤ .

والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم ﴾[١]
وقال : ﴿ أفغير دين ا لله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ﴾[٢] .

وقوله : ﴿و لله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال ﴾[٣] وغير ذلك من الآيات كثير ، كلها تدل على معاني ألوهيته وخضوع الكائنات وإسلامها له وتألهها له وتعلقها به ، وافتقارها إليه وسؤالها إياه، ودعاء الخلق إياه ، إما دعاء عبادة أو دعاء مسألة وإما دعاؤهما جميعاً .

كل هذه المعاني توجب أن يعلم أن الإله الحق هو ا لله الواحد الأحد الفرد الصمد وأنه هو رب الناس ملك الناس إله الناس ، وأنه هو رب العالمين لاإله إلا هو ، والكائنات ليس لها من نفسها شيء بل هي عدم محض ونفي صرف ، وما بها من وجود فمنه وبه ، إليه مصيرها ومرجعها وهو معبودها وإلاهها ، لا يصلح أن يعبد إلا هو ؛ لما هو مستحقه بنفسه ومتفرد به من نعوت الإلهية التي لا شريك له فيها ولا سمي، وليس كمثله شيء وهو السميع العليم ، والعباد في هذا المقام يتفاوتون تفاوتاً بينا فكيف بعد هذا يكون ثم إله غيره.[٤]

(وليس المراد هنا بالإله من عبده عابد بلا استحقاق ، فإن هذه الآلهة كثيرة ، ولكن تسميتهم آلهة والخبر عنهم بذلك واتخاذهم معبودين أمر باطل ، كما قال تعالى : ﴿ إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل ا لله بها

---

١ - سورة الإسراء آية ٤٤

٢ - سورة ال عمران آية ٨٣ .

٣ - سورة الرعد آية ١٥

٤ - انظر الفتاوى ٢/٤٠٤ - ٤٠٥ . ٢٠٠/١٠ .

من سلطان ﴾[١] وقال سبحانه : ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ﴾[٢]

فالآلهة التي جعلها عابدوها آلهة يعبدونها كثيرة ؛ لكن هي لاتستحق العبادة فليست بآلهة ، كمن جعل غيره شاهداً أو حاكماً أو مفتياً أو أميراً وهو لايحسن شيئاً من ذلك)[٣]

الإله هو المعبود لا القادر على الاختراع

كما أن الإله : (هو بمعنى المألوه المعبود الذي يستحق العبادة ، ليس هو الإله بمعنى القادر على الخلق ، فإذا فسر المفسر الإله بمعنى القادر على الاختراع ، واعتقد أن هذا أخص وصف الإله ، وجعل إثبات هذا التوحيد هو الغاية في التوحيد كما يفعل ذلك من يفعله من متكلمة الصفاتية ، وهو الذي ينقلونه عن أبي الحسن وأتباعه لم يعرفوا حقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسوله ، فإن مشركي العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء ، وكانوا مع هذا مشركين ، قال الله تعالى : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾[٤] قال طائفة من السلف تسألهم من خلق السموات والأرض فيقولون الله وهم مع هذا يعبدون غيره ...)[٥].

ومن هنا يدرك العبد وجوب توحيد الله وإفراده بالإلهية ، فيعتقد أن لا إله سواه، وأنه لامعبود بحق غيره ، ومن ثم يتوجه إليه بالعبادة ، وهذا هو مدار دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام [٦]

---

١ - سورة النجم آية ٢٣ .

٢ - سورة الحج آية ٦٢ .

٣ - الفتاوى ١٤/١٧٢-١٧٣.

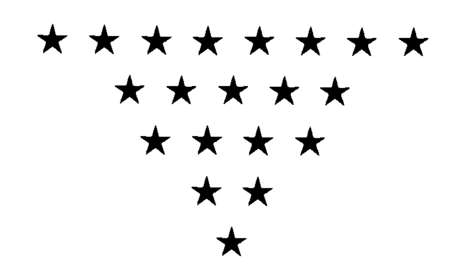
(٤) سورة يوسف ١٠٦ .

(٥) درء التعارض ١/٢٢٦ .

٦ - وسيأتي مزيد بيان لهذا في الباب الأول من الفصل الثالث المبحث الخامس .

كمـا أن هـذا هـو الـذي وقـع فيـه الخـلاف بـين الرسـل وأقوامهـم [١] وهـو الـذي وقـع فيـه الشـرك ، وانقسـم النـاس بسـببه إلى مؤمـن وكـافر وسـعيد وشقي [٢] كما أن هـذا التوحيـد هـو حـق الله علـى عبـاده الـذي أمرهـم بـه [٣].

فتبين من هـذا أن الإلـه مشتق مـن التألـه وهـو كمـال الحـب والانقيـاد والإذعـان والتسليم ، وعـدم الالتفـات إلى غـير الإلـه الواحـد الأحـد ، لأن العبـد إذا عـرف أن الله هـو الضار النافع القادر المتصف بجميع صفات الكمال والجلال ، وعرف أن ما سـواه مفتقـر إليه لايمكن أن يقوم بدونه ، وعرف أنه وحده المستحق للعبادة دون من سواه ، فإذا عرف العبد ذلك كله ؛ فإنه حينئذ سيدرك أنه يجب عليه وجوباً لامحيد عنه ولا منـاص أن يتوجه إليه بأنواع العبادة من التوكل عليه والإنابة إليه ، والإذعان والانقياد والرضى بقضاء الله وقدره ، ونحو ذلك من أنواع العبودية . فإن حاد عن ذلك فإنه يكون قد دخل في الظلم من أوسع أبوابه ، قال الله تعالى على لسان لقمان – عليه السلام – : ﴿يابني لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾ [٤] .



(١) تقدم بيان هذا في المبحث الثاني من التمهيد . ص ٤١ .

٢ – تقدم بيان شيء من هذا في المبحث الثاني من التمهيد انظر ص ٤١ ، وسيأتي مزيد بيان المبحث الرابع من الفصل الثالث من هذا الباب الثاني .

٣ – انظر تفصيل ذلك في المبحث الرابع من الفصل الثاني من هذا الباب .

٤ – سورة لقمان آية ١٣ .

المبحث الرابع : بيانه لمعنى الربوبية

بيانه لمعنى الربوبية

معنى كلمة الرب :

لما كانت أنواع التوحيد مترابطة ومتلازمة اقتضى ذلك أن أقدم بين يدي القارئ نبذة موجزة عن توحيد الربوبية ، لكون هذا التوحيد هو السابق في إ دراك بني آدم له من توحيد العبادة [١]، كما أن بذكره إتمام للبحث وترابط لمعلوماته .

قال الراغب الأصفهاني : (الرب في الأصل التربية وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام ، يقال ربه ورباه وربيه). [٢]

وتطلق كلمة الرب على ثلاثة معان :

١) على السيد المطاع. ٢) على المالك . ٣) وتطلق على المربي القائم بالإصلاح .

قال الأزهري : (ويقال : فلان رب هذا الشيء أي ملكه له ، ولا يقال : " الرب " بالألف واللام لغير ا لله ، وهو رب الأرباب ومالك الملوك والأملاك . وكل من ملك شيئاً فهو ربه .

قال ابن الأنباري : (الرب ينقسم على ثلاثة أقسام ، المالك ، ويكون الرب السيد المطاع قال ا لله تعالى : ﴿ فيسقي ربه خمراً ﴾ [٣] أي سيده ، ويكون الرب المصلح.

ربّ الشيء أي أصلحه .. قال الأصمعي : ربّ فلان الصنيفة يربها رباً إذا أتمها وأصلحها .)[٤]

وهذه المعاني كلها صحيحة في حق ا لله جل وعلا . فهو السيد في مكله المطاع فيه ، كما قال ﷺ : ((السيد ا لله تبارك وتعالى)) [٥]

---

(١) انظر الفتاوى ٤/١٤-١٥ . ٢/٧ .

(٢) المفردات ص ١٨٤ .

(٣) سورة يوسف أية ٣٦ .

(٤) تهذيب اللغة ١٥/١٧٦-١٧٧ مادة ربب

(٥) رواه أبو داود في الأدب (ح٤٨٠٦) ولفظه : عن أبي نضرة عن مطرف قال : قال أبي : انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول ا لله ﷺ فقلنا : أنت سيدنا فقال ((السيد ا لله تبارك وتعالى)) قلنا : وأفضلنا فضلا وأعظمنا طولا فقال : ((قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان)) .

والله سبحانه وتعالى (هو الذي يربي عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه إلى جميع أحواله من العبادة وغيرها)[١] (وهو الذي يربيه ويدبر أمره)[٢] (وهذا الاسم يتظمن خلق العبد ومبدأه ، وهو أنه يربيه ويتولاه)[٣] .

فكلمة " الرب " إذا عُرِّفت بالألف واللام انصرفت إلى (الله رب العالمين ، رب السموات والأرضين وما بينهما ورب العرش العظيم ، رب المشرق والمغرب لاإله إلا هو ربكم ورب آبائكم الأولين ، رب الناس ملك الناس إله الناس ، وهو خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل . خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى. فهو رب كل شيء ومليكه مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى . ﴿ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم﴾[٤]...)[٥]

كما تدل كلمة الرب على معاني التدبير (فقلوب العباد ونواصيهم بيده سبحانه ، وما من قلب إلا هو بين اصبعين من أصابع الرحمن ، إن شاء أن يقيمه أقامه ، وإن شاء أن يزيغه أزاغه[٦] ، وهو الذي أضحك وأبكى ، وهو الذي أغنى وأقنى ، وهو الذي يرسل الرياح بشرى بين يدي رحمته ، وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها ، ويبث فيها من كل دابه .

---

(١) الفتاوى ٢٢/١ .

(٢) الفتاوى ٢٨٤/١٠ .

(٣) انظر الفتاوى ١٤٠/١٣ .

(٤) سورة هود آية ٥٦ .

(٥) الفتاوى ٣٩٨/٢ .

(٦) رواه الإمام مسلم في كتاب القدر (ح٢٦٥٤) ولفظه عن عبد الله بن عمرو بن العاص .. أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : ((إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء ثم قال رسول الله ﷺ : اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك)) وروى نحوه ابن ماجه في المقدمة عن النواس بن سمعان (ح ١٩٩) .

وهو الذي خلق الخلق ودبر شئونهم ، يعلم سرهم ونجواهم ، من يرد ا لله أن يهديه منهم يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء ، كذلك يجعل ا لله الرجس على الذي لايؤمنون ، وهو القائم بالقسط على كل نفس بما كسبت . لايقع في ملكه إلا ما دبره وقضاه ، فما شاء ا لله كان وما لم يشأ لم يكن ، ولا قوة إلا با لله العلي العظيم ، لاملجأ ولا منجى منه إلا إليه .)[1]

فتبين من هذا أن من أهم معاني الربوبية الخلق والملك والتدبير ، فهو الخالق للكون وما فيه ، المالك له ، المدبر لشئونه فسبحان ا لله عما يشركون .

وهذه المعاني وما أشبهها من معاني ربوبيته وملكه ، وخلقه ورزقه وهدايته ونصره ، وإحسانه وبره ، وتدبيره وصنعه ، وما يتصل بذلك من أنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وأنه سميع بصير ، لايشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه المسائل ، ولا يتبرم بإلحاح الملحين ، يبصر دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء .

فهذا كله حق له وحده لاشريك له ، وهو محض توحيد الربوبية ، وهو مع هذا قد أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، وأحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . وهو أرحم الراحمين ، أرحم بعباده من الوالدة بولدها كما أقسم على ذلك النبي ﷺ فقال : ((وا لله لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها))[2].

فهذا المعاني كلها وما أشبهها من معاني ربوبيته ، تقتضي شمول حكمته وإتقانه ، وعموم ربوبيته ؛ وإحسانه خَلْقَ كل شيء ، وسعة رحمته وعظمتها ، وأنها سبقت غضبه ، كل هذا حق .

فهذان الأصلان عموم خلقه وربوبيته ، وعموم إحسانه وحكمته : أصلان عظيمان ، وإن كان من الناس من يكفر ببعض الأول ، كالقدرية والدهرية ونحوهم . ومن الناس من يجحد بعض الثاني أو يعرض عنه متوهماً خلو شيء من مخلوقاته عن

---

(١) الفتاوى ٣٩٨/٢-٣٩٩ بتصرف يسير

(٢) رواه البخاري في الأدب (ح٥٩٩٩) ومسلم في التوبة (ح٢٧٥٤) ولفظه : ((لله أرحم بعباده من هذه بولدها .))

إحسان خلقه وإتقانه ، وعن حكمته ، ويظن قصور رحمته وعجزها ، من القدرة الإبليسبة ، أو المجوسية وغيرهم .

وإذا كان كذلك : فجميع الكائنات آيات له ، شاهدة دالة مظهرة لما هو مستحق له من الأسماء الحسنى والصفات العلى ، وعن مقتضى أسمائه وصفاته خلق الكائنات ...

فهو رب العالمين ـ والعالمون ممتلؤون بما فيهم من آثار أسمائه وصفاته ، ـ وكل شيء يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ...)(١)

تعريف توحيد الربوبية

مما سبق ذكره من كلام شيخ الاسلام ـ رحمه الله ـ يمكن أن نستخلص تعريفاً لتوحيد الربوبية فنقول :

توحيد الربوبية هو : الإقرار والاعتقاد بأن الله سبحانه وتعالى واحد لاشريك له في أفعال الربوبية من الخلق والرزق والملك والتدبير وغيرها من معاني الربوبية ، وعبادته سبحانه بتلك المعاني .

ولقد عرفه بعضهم بقوله : هو إفراد الله بأفعاله من الخلق والرزق والتدبير ونحوها.(٢)

وعرفه آخرون بأنه : الإقرار بأن الله تعالى رب كل شيء ومليكه وخالقه ورازقه ، وأنه المحيي المميت النافع الضار ، المتفرد بإجابة الدعاء عند الاضطرار ، الذي له الأمر كله ، وبيده الخير كله ، القادر على ما يشاء ، ليس له في ذلك شريك .(٣)

وهذا هو مفهوم توحيد الربوبية عند السلف ، حيث كانوا يفهمون هذا التوحيد وفق ما جاء في أسمائه وصفاته جل وعلا ، خلافاً لما يذكره بعض أهل الكلام من جعلهم توحيد الربوبية معنى للألوهية ، وهو سوء فهم منهم وقصور عن معرفة الحق الواجب إعتقاده .

---

(١) انظر الفتاوى ٢/٣٩٨-٤٠٠ ، ١٠/٣٣١ .

(٢) انظر مجموعة التوحيد ص ٣ ، والدرر السنية ٢/٦٧ .

(٣) تيسير العزيز الحميد ٣٣ . وانظر ابطال التنديد ٢٤ .

ومن لوازم الربوبية الإيمان بالقدر :

إن الله ــ سبحانه وتعالى ــ على كل شيء قدير ، بيده ملكوت السموات والأرض ، لايخرج مخلوق عن قدرته وملكه وإرادته ، ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن ، ولا يقع في ملكه إلا ما يريد ، أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، يرفع القسط ويخفظه ، يعز من يشاء ويذل من يشاء ، يعلم السر وأخفى، كتب كل شيء عنده في اللوح المحفوظ ، وقدره تقديراً . قال تعالى : ﴿ ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير ﴾[1] ، وفي الصحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال : وعرشه على الماء)) [2] فلا يقع في ملكه إلا مايشاء ويريد ولا حول لأحد ولا قوة إلا به أوبمعونته . [3]

فهذه بعض لوازم الربوبية المتعلقة بالقدر التي يجب الإيمان بها والتسليم والإنقياد والإذعاء لما قضاه سبحانه وتعالى وقدره وحكم به ، تسليماً لايخالطه اعتراض ، وإيماناً لايخالطه شك . فلا يتم الإيمان بالربوبية إلا بالإيمان بالقدر ؛ إذ أن الإيمان بالقدر جزء من مفهوم الربوبية الشاملة له ولغيره .

دلائل الربوبية

إن مما يجب معرفته قبل الخوض في أدلة الربوبية أن معرفة الله سبحانه وتعالى ــ كما بين شيخ الإسلام ــ رحمه الله ــ لاتحتاج إلى دليل ، فالله جل ذكره ، هو دليل على وجوده، وليس في الرسل من قال أول ما دعا إليه قومه : إنكم مأمورون بطلب معرفة الخالق ، فانظروا واستدلوا حتى تعرفوه[4] ، فلم يكلفوا أولا بنفس المعرفة ، ولا بالأدلة

---

(١) سورة الحج آية ٧٠ .

(٢) رواه مسلم في القدر (ح٢٦٥٣) والترمذي في القدر (ح٢١٥٦).

(٣) انظر الفتاوى ٨٩/٣ .

(٤) وهذا ما قال به كثير من أهل البدع ، إذا أوجبوا على المكلف قبل كل شيء النظر والاستدلال ، وبعضهم أوجب الشك ثم البحث والاستدلال . انظر الفتاوى ٣٢٨/١٦ ، ٣٢٩ .

الموصلة إلى المعرفة ، إذا الأمم جميعاً قد أقرت به واعترفت بربوبيته ، وقد قال رسل الله لأقوامهم : ﴿أفي الله شك﴾[1] فنفت أن في الله شك وهو استفهام تقرير يتضمن تقرير الأمم على ماهم مقرون به من أنه ليس في الله شك .

فمعرفة الله لاتحتاج إلى النظر والاستدلال ، بل إنها حاصلة عند الأمم جميعهم ، وهذا مما يبين أنه لاحاجه في سرد الأدلة على وجود الله ، فالصغير والكبير ، والجن والأنس ، بل وجميع المخلوقات قد عرفت ربها ، فما من شيء إلا وهو يسبح بحمد ربه ، وما من شيء إلا وقد أنقاد لربه وأذعن .[2]

(ولما كانت حاجة النفوس إلى معرفة ربها أعظم الحاجات ، كانت طرق معرفتهم له أعظم من طرق معرفة ما سواه ، وكان ذكرهم لأسمائه أعظم من ذكرهم لأسماء من سواه ، وله سبحانه في كل لغة أسماء ، وله في اللغة العربية أسماء كثيرة)[3] وما ذاك إلا لبداهة معرفة سبحانه عند كل أحد.

ولهذا فسوف أشير إلى بعض الأدلة الدالة على ذلك مما ذكره شيخ الاسلام رحمه الله . ومن هذه الأدلة مايلي :

أولاً : دليل الخلق

لقد دعا الله جل شأنه في كتابه الناس إلى التفكر في مخلوقات الله الكثيرة البينة الواضحة ، والتفكر في عظمها وإحكامها ودقة صنعها ، والاستدلال بذلك على وجوب عبادته وحده دون من سواه .

وقد ألزم موسى عليه السلام فرعون وحجه بذكر هذه المخلوقات ووضوحها لدى كل أحد ، ودلالتها البينة على وجود الله تعالى ، ومن ثم وجوب عبادته ، قال

---

(١) سورة ابراهيم ١٠ .

(٢) انظر منهاج السنة النبوية ٢/٢٧٠-٢٧١ ، ودرء التعارض ٢/٣٣٠-٣٣١ .

(٣) درء تعارض العقل والنقل ٣/٣٣١ .

تعالى مخاطباً موسى : ﴿فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين ، أن أرسل معنا بنى إسرائيل ، قال ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين ، قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين ، ففرت منكم لما خفتكم فوهب لي رب حكماً وجعلني من المرسلين ، وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بنى إسرائيل ، قال فرعون وما رب العاليمن ﴾[١] قالها جحوداً وإنكاراً ، قال موسى عليه السلام : ﴿رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ، قال لمن حوله ألا تسمعون ، قال ربكم ورب آبائكم الأولين ، قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ، قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾ الآيات [٢]

فلما أنكر فرعون رب العالمين كان رد موسى عليه أنه معروف عندك يافرعون وعند الحاضرين ، وبين أن آياته ظاهرة بينة لايمكن معها جحده . وأنه وقومه إنما جحدوا بألسنتهم ما تعرفه قلوبهم ، كما قال موسى لفرعون في موضع آخر : ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر ﴾[٣] وقوله : ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ [٤] ولذا لما سأل جحوداً أجابه موسى بأنه أعرف من أن ينكر ، وأظهر من أن يشك فيه ويرتاب ، فقال : ﴿رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ﴾ [٥]، ولم يقل موقنين بكذا وكذا بل أطلق ، فأي يقين كان لكم بشيء من الأشياء فأول اليقين ؛ اليقين برب العالمين ، كما قالت الرسل لأقوامهم : ﴿ أفي الله شك ﴾[٦]

وإن قلتم : لايقين لنا بشيء من الأشياء بل سلبنا العلم ، فهذه دعوى ظاهرةُ الكذبِ ، فإن العلوم من لوازم كل إنسان ، فكل إنسان عاقل لابد له من علم ، وإلا

---

(١) سورة الشعراء ١٦ .

(٢) سورة الشعراء ١٧-٢٩ .

(٣) سورة الإسراء آية ١٠٢ .

(٤) سورة النمل آية ١٤ .

(٥) سورة الشعراء ٢٤ .

(٦) سورة إبراهيم آية ١٠ .

لأصبح مجنوناً . ولهذا لما قال فرعون : ﴿ إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ﴾ بين له موسى عليه الصلاة والسلام أنكم أنتم الذين سلبتم العقل النافع ، وأنتم أحق بهذا الوصف فقال : ﴿رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾[1]

فإن العقل مستلزم للعلوم الضرورية اليقينية ، وأعظمها في نفوس العباد الإقرار بالخالق جلت قدرته وعظم شأنه . فلما ذكر أولاً أن اليقين بالأشياء من لوازم العقل ، بين ثانياً أن الإقرار بالرب من لوازم العقل . [2]

قال سبحانه وتعالى : ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ﴾[3] قال جبير بن مطعم : (لما سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها كاد قلبي يطير)[4]

وقال سبحانه : ﴿ أفرأيتم ما تمنون ، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ، نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشأكم فيما لا تعلمون ﴾ الآيات [5] فدلت هاتين الآيتين على انتفاء كونهم خلقوا من غير خالق ، وكونهم خلقوا أنفسهم ، فالإنسان يعلم بالضرورة أنه لم يوجد من غير موجد ، وأنه لم يوجد نفسه ، وإذا كان كذلك أيقن ضرورة أن له موجداً غيره ، وخالقاً عليماً حكيماً قادراً ...[6]

ويلحق بهذا النوع من الدلالة دليل العناية المذكور في (مثل قوله تعالى : ﴿ فلينظر الإنسان مما خلق ، خلق من ماء دافق ﴾[7] ومثل قوله تعالى : ﴿ أفلا ينظرون

---

(١) سورة الشعراء ٢٧ ــ ٢٨ .

(٢) انظر الفتاوى ١٦/٣٣٢-٣٣٦ . وانظر في دليل الخلق كتاب النبوات ص ٢٦٠ وما بعدها . وفي الفتاوى ٢٠/١٨٣ ، ودرء التعارض ٨/٧٠ وما بعدها ، وبيان تلبيس الجهمية ١/١٧٢-١٧٣ .

(٣) سورة الطور ٣٥ .

(٤) رواه البخاري بهذا اللفظ في كتاب التفسير (ح٤٨٥٤) وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (ح٨٣٢) .

(٥) سورة الواقعة ٥٨-٦١ .

(٦) انظر درء تعارض العقل والنقل ٣/١١٣-١١٤ .

(٧) سورة الطارق ٥ ,

إلى الإبل كيف خلقت ﴾[١] ومثل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ﴾[٢] ومن هذا قوله حكاية عن ابراهيم ﷺ : ﴿ إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾[٣] إلى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى .

وأما الآيات التي تجمع الدلالتين فكثيرة أيضاً ؛ بل هي الأكثر مثل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾[٤] فإن قوله : ﴿ الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ تنبيه على دلالة [الخلق] ... وقوله : ﴿ الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء ﴾ تنبيه على دلالة العناية ، ومثل قوله تعالى : ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون ﴾[٥] .. وأكثر الآيات الواردة في هذا المعنى يوجد فيه النوعان من الدلالة .)[٦]

ثانياً : دليل الفطرة

ذكر شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ أن الإقرار بوجود الرب جل وعلا أمر فطري مغروز في فطر الخلق ، فقد جبلوا على معرفته والتوجه إليه ، فكل مولود يولد فإنه يولد على الفطرة السليمة التي هي بمعنى الإسلام ، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : ﴿ كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج

---

(١) سورة الغاشية ١٧ .

(٢) سورة الحج ٧٣ .

(٣) سورة الأنعام ٧٩ .

(٤) سورة البقرة ٢١ .

(٥) سورة يس ٣٣ .

(٦) بيان تلبيس الجهمية ١/١٧٤-١٧٥ .

البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيه من جدعاء ؟ ثم يقول أبو هريرة : " إقرأوا إن شئتم : ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾[١]

وقال تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾[٢]

وفي صحيح مسلم عن حمار بن عياض رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : ((إن ربي عز وجل أمرني أن أعلمكم ما جهلتم ، وإن مما علمني في يومي هذا كل مال نحلته عبادي حلال ، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي مالم أنزل به سلطاناً)).[٣]

فالنفس بفطرتها مقرة بالله جل وعلا ، ولو تركت لأقرت بالإلهية أيضاً[٤] ؛ ولكن يفسدها ما يزين لها شياطين الإنس والجن بما يوحي بعضهم إلى بعض من الباطل ، قال تعالى : ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾[٥] فالفطرة مستلزمة لمعرفة الله ومحبته أيضاً .[٦]

---

(١) رواه البخاري في الجنائز (ح١٣٨٥) ومسلم في القدر (ح٢٦٥٨) وأبو داود في السنة (ح٤٧١٤) والترمذي في القدر (ح٢١٣٨) ومالك في الجنائز (ح٥٦٩)

(٢) سورة الروم آية ٣٠ .

(٣) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (ح٢٨٦٥) .

(٤) أقصد الإقرار بوجوب عبادة الله وحده لا شريك له ، والتوجه إليه بذلك .

(٥) سورة الأعراف آية ١٧٢ .

(٦) انظر الفتاوى ٢٩٥/١٤-٢٩٧ ، ٣٤٤/١٦ ، ٦/٢ ، ١٥ ، ٧٢/٦-٧٣ .وانظر أيضاً درء التعارض ٧٠/٣-٧٢ ، ١٣٦-١٣٧ . ٣٥٩/٨-٤٦٨ ، ٤٩٤ وما بعدها حيث أطال الكلام على الفطرة ، وانظر الصفدية ٢٦٢/٢-٢٦٢ .

ثالثاً : معرفة الله بالله :[١]

تقدم أن العباد قد فطروا على معرفة الله جل ذكره ، وأن معرفته تدعوهم إلى التوجه إليه ومن ثم الإذعان والتوكل عليه ، وتبين أن هذا الأمر راسخ في نفوس البشر منذ الولادة ، ولذا فإن العبد إذا استمرت فطرته سليمة فإنه يعرف ربه من جراء ما جبل وفطر عليه .

وقد بين شيخ الإسلام ـ رحمه الله أن ما سوى الله من الموجودات والأعيان والصفات يستدل بها عليه ، سواء كانت حية أو لم تكن ، بل ويستدل بالمعدوم ؛ فلإن يستدل بالحي القيوم أولى وأحرى ، وقد ورد في الدعاء المأثور عن الإمام أحمد الذي علمه لبعض أصحابه : "يادليل الحيارى دلني على طريق الصادقين ، واجعلني من عبادك الصالحين " .[٢]

وهذا يقتضي أن تسميته دليلاً باعتبار أنه دال لعباده ، لا بمجرد أنه يستدل به ، كما قد يستدل بما لايقصد الدلالة والهداية من الأعيان والأقوال والأفعال .

ولهذا يذكر عن بعضهم قوله : "عرفت الأشياء بربي ، ولم أعرف ربي بالأشياء . وقال بعضهم : "هو الدليل لي على كل شيء ، وإن كان كل شيء - لئلا يعذبني - عليه دليلاً .

وقيل لابن عباس - ﷺ - بماذا عرفت ربك ؟ قال : من طلب دينه بالقياس لم يزل دهره في التباس ، خارجاً عن المنهاج ، ظاعناً في الاعوجاج ، عرفته بما عَرَّف به نفسه ، ووصفته بما وصف به نفسه [٣] ، فأخبر أن معرفة الله حصلت بمعرفة الله وهو نور الإيمان .[٤]

---

(١) انظر كتاب الفوائد لابن القيم ٣١٨ وما بعدها .

(٢) مجموع الفتاوى ١٧/٢، ١٨ . قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ : " وقد أنكر طائفة من أهل الكلام : كالقاضي أبي بكر وأبي الوفاء بن عقيل أن يكون من أسمائه الدليل ؛ لأنهم ظنوا أن الدليل " "الدلالة التي يستدل بها ، والصواب ما عليه الجمهور ؛ لأن الدليل في الأصل هو المعرف للمدلول ، ولو كان الدليل ما يستدل به ، فالعبد يستدل به أيضاً فهو دليل من الوجهين جميعاً " الفتاوى ٤٨٣/٢٢-٤٨٤.

(٣) الفتاوى ٣/٢ .

(٤) الفتاوى ١٨/٢

(وسئل عبد الله بن المبارك ــ رحمه الله ــ بم نعرف ربنا ؟ قال : بأنه على عرشه بائن من خلقه ...)[١]

وقد ذكر شيخ الإسلام ــ رحمه الله ــ أن الاستدلال بالله تعالى على فعله وخلقه وإيجاده معلوم سمعاً وعقلاً ، وبذلك يستدل على وجود الله ، وأنه حيٌّ قيوم ، موصوفاً بأنه يتكلم بما شاء ، وأنه فعال لما يريد ، وهذا قد قاله الأكابر من أئمة السنة والحديث ، ونقلوه عن السلف والأئمة ، وهو قول طوائف كثيرة من أهل الكلام)[٢].

قال ابن القيم ــ رحمه الله ــ : (.. دلالة الخالق على المخلوق ، والفعال على الفعل ، والصانع على أحوال المصنوع عند العقول الزكية المشرقة العلوية ، والفطر الصحيحة : أظهر من العكس .

فالعارفون أرباب البصائر يستدلون بالله على أفعاله وصنعه ، إذا استدل الناس بصنعه وأفعاله عليه ، ولا ريب أنهما طريقان صحيحان كل منهما حق ، والقرآن مشتمل عليها .

فأما الاستدلال بالصنعة فكثير ، وأما الاستدلال بالصانع فله شأنه ، وهو الذي أشارت إليه الرسل بقولهم : ﴿ أفي الله شك ﴾ أي أيشك في الله حتى يطلب إقامة الدليل على وجوده ؟ وأي دليل أصح وأظهر من هذا المدلول ؟ فكيف يستدل على الأظهر بالأخفى ؟ ثم نبهوا على الدليل بقولهم : ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾.

وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية ــ قدس الله روحه ــ يقول : كيف يطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء ؟ . وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت :

وليس يصح في الأذهان شيء ‏ ‏ ‏ إذا احتاج النهار إلى دليل

ومعلوم أن وجود الرب تعالى أظهر للعقول والفطر من وجود الليل والنهار ، ومن لم ير ذلك في عقله وفطرته فليتهمهما .)[٣]

---

(١) درء التعارض ٥٧/٢ .

(٢) درء تعارض العقل والنقل ٢/٣-٥ .

(٣) مدارج السالكين ٧١/١ .

(فإذا كان الحق الحي القيوم الذي هو رب كل شيء ومليكه ومؤصل كل أصل ومسبب كل سبب وعلة : هو الدليل والبرهان والأول والأصل الذي يستدل به العبد ، ويفزع إليه ، ويرد جميع الأواخر إليه في العلم : كان ذلك سبيل الهدى وطريقه ، وكان المتوكل عليه في علمه وعمله القائل أنه لاحول ولا قوة إلا با لله مؤيداً منصوراً ، فجماع الأمر : أن ا لله هو الهادي وهو النصير ﴿وكفى بربك هادياً ونصيراً﴾ .

وكل علم فلا بد له من هداية ، وكل عمل فلا بد له من قوة ، والواجب أن يكون الرب أصل كل هداية وعلم ، وأصل كل نصرة وقوة ، فلا يتهدي العبد إلا به ولا يستنصر إلا إياه .

والعبد لما كان مخلوقاً مربوباً مفطوراً مصنوعاً عاد في علمه وعمله إلى خالقه وفاطره ، وربه وصانعه فصار ذلك ترتيباً مطابقاً للحق ، وتأليفاً موافقاً للحقيقة ، إذ بناء الفرع على الأصل ، وتقديم الأصل على الفرع : هو الحق ، فهذه الطريقة الصحيحة في معرفة العبد لربه ، الموافقة لفطرة ا لله وخلقه ولكتابه وسنة رسوله ﷺ) [1] خلافاً للطريقة الفلسفية الكلامية ، فإنهم ابتدأوا بنفوسهم فجعلوها هي الأصل الذي يفرعون عليه ، والأساس الذي يبنون عليه ، وجعلوا العلوم الحسية والبديهية ونحوها هي الأصل الذي لايحصل العلم إلا به ، ثم زعموا أنهم إنما يدركون بذلك الأمور الحسابية والأخلاق وغيرها من الأمور القريبه منهم ، ثم بنوا على هذه الأصول التي وضعوها سائر العلوم .[2]

ومما يستدل به أيضاً قوله تعالى : ﴿ بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً ﴾[3] حيث يستدل بها على أن ا لله يفعل برسوله كل أمر محمود يؤيده وينصره به . وا لله تعالى أعلم .

---

(١) الفتاوى ٢/١٩-٢٠ بتصرف .

(٢) انظر الفتاوى ٢/٢٠-٢١ .

(٣) سورة الفتح ١٢ .

رابعاً : دليل الضرورة والإضطرار

بين - رحمه الله - أن الله قد جبل بنى آدم على معرفته والإقرار بربوبيته ، ومن ثم عبادته بصفات الربوبية من طلب اللجوء إليه والاستعانة والتوكل عليه ، والتوجه بالدعاء إليه ، وهذه أمور ضرورية يجدها العبد في نفسه وقلبه ولا يجد السبيل إلى دفها ، بل كل الخلق يعلمون وجوده وقدرته وتصرفه بهذا الكون وتدبيره له ، إلا من شذ ولا عبرة بالشاذ ، بل إن العبد يجد في قرارة نفسه الرغبه الملحة إلى التعرف على ربه وملء قلبه بالأنس به والشوق إليه والتلذذ بذكره وعبادته والتعرف على صفاته ، فإذا لم يحصل له ذلك بقي قلبه فارغاً معذباً بفراق غذائه الروحي الذي هو أحوج إليه من الطعام والشراب . (١)

كما ذكر - رحمه الله تعالى - أن هذا هو العلم الضروري الذي يلزم المخلوق لزوماً لايمكنه الانفكاك عنه وهذا هو حال أهل الإيمان والمعرفة بالله عز وجل ، من أئمة المسلمين وسلف الأمة وحملة الحجة ، فإنهم يخبرون بما عندهم من اليقين والطمأنينة والعلم الضروري بالله جل وعز، كما في الحكاية المحفوظة عن نجم الدين الكُبْرَى(٢) لما دخل عليه متكلمان ، أحدهما أبو عبدالله الرازي والآخر من متكلمي المعتزلة وسألاه عن علم اليقين الذي يجده العبد في قلبه من معرفة الله جل ذكره وضرورة التوجه إليه ، فقالا له : بلغنا أنك تعلم علم اليقين فقال نعم ، أنا أعلم علم اليقين، فقال : كيف يمكن ذلك ونحن من أول النهار إلى الساعة نتناظر ، فلم يقدر أحدنا أن يقيم على الآخر دليلاً ؟ فقال ما أدري ما تقولان ، ولكن أنا أعلم علم اليقين ، فقال : صف لنا علم اليقين ، فقال : علم اليقين عندنا واردات ترد على النفوس تعجز النفوس عن ردها ، فجعلا يقولان : واردات ترد على النفوس تعجز النفوس عن ردها ؟ ! ويستحسنان هذا الجواب .(٣)

---

(١) انظر الفتاوى ٥٥/١ . وانظر إلى المبحث الخامس من الفصل الثالث من هذا الباب .

(٢) هو أبو الجناب نجم الدين أحمد بن عمر بن محمد الخوارزمي المحدث الصوفي ، استشهد في قتال التتار سنة ٦١٨هـ ، وقيل إن تسميته بالكبرى : أن أنه فاق أقرانه بفهم المشكلات وحل المعضلات ، فلقبوه بالطامة الكبرى ثم حذفت الطامة ، وبقيت الكبرى . انظر السير ١١١/٢٢ ، وشذرات الذهب ٧٩/٥-٨٠ .

(٣) وانظر هذه الحكاية في سير أعلام النبلاء ١١٢/٢٢ .

ومثلها تلك الحكاية المذكورة عن الهمداني[(١)] لأبي المعالي الجويني [(٢)] لما أخذ يقول على المنبر : كان الله ولا عرش ، فقال يا أستاذ : دعنا من ذكر العرش وأخبرنا عن الضرورة التي نجدها في قلوبنا ، فإنه ما قال عارف قط "يا الله " إلا وجد من قلبه ضرورة تطلب العلو ، لاتلتفت يمنة ولا يسرة فكيف ندفع هذه الضرورة عن قلوبنا ؟ قال : فلطم أبو المعالي على رأسه ، وقال : حيرني الهمداني حيرني الهمداني ونزل . [(٣)]

أما الاضطرار إلى الله جل وعلا

فقد بين شيخ الإسلام ابن تيميه أن الناس في اللجوء إلى الله حال الاضطرار على ثلاثة أقسام

قسم لايلتجئون إليه ولا يدعونه ، وهؤلاء هم شر الأقسام

وقسم يلتجئون إليه ويدعونه ؛ لكنهم عند كشف البلاء يشركون به ، ومن هؤلاء المشركين .

وقسم يلتجئون إليه ويدعونه ويخلصون له الدعاء والتوحيد ، وهؤلاء هم أهل الإيمان وهم خير الأقسام . [(٤)]

فالإنسان يدرك تماماً عند نزول البلاء به وحلول المصائب حاجته لربه وفقره واضطراره إليه ، وخاصة تلك المواقف التي يرى أن فيها هلاكه ، فإنه حيئذ يدرك حقيقة أن الذي يكشف عنه الضر هو الله وحده ؛ لأنه يعرف أنه هو ربه القادر على إعانته وخلاصه .

وقد كان المشركون عندما ينزل بهم البلاء يلجئون إلى الله جل شأنه ويخلصون له الدعاء ؛ ليقينهم بأن الذي ينجيهم مما هم فيه هو ربهم الذي خلقهم وحده ، وقد كانوا يقولون هذا لبعضهم عندما تهيج بهم الأمواج في وسط البحار ، وعندما تلم بهم

---

(١) هو أبو الحس بن علي بن الحسن بن سعد الهمداني توفي سنة ٣١٧هـ انظر السير ١٥/٣٦-٣٧ .

(٢) هو إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن الإمام أبي عبدالله بن يوسف بن محمد الجويني النيسابوري ولد سنة ٤١٩ هـ ، وتوفي ٤٧٨ هـ انظر السير ١٨/٤٦٨-٤٧٧ .

(٣) انظر الفتاوى ٤/٤٣-٤٤ .

(٤) انظر الفتاوى ١٤/٣٧٠-٣٧٢ .

الشدائد في البلدان والقفار ، قال تعالى : ﴿ وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً﴾[(١)]

وقال سبحانه : ﴿ هو الذي يسيركم في البحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ، فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق..﴾ [(٢)]

بل إن هذا حالهم دائماً إلا ما رحم ربك قال سبحانه : ﴿وإذا مس الإنسان الضر دعانا قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ [(٣)]

لكن حال المؤمنين يختلف عن أولئك ، فقد يكون من تمام النعمة والمنة عليهم ما ينزل بهم من مصائب ومحن تجعلهم يلتجؤون إلى الله سبحانه ، فيدعونه مخلصين له الدين ويرجونه لايرجون أحداً سواه ، وتتعلق قلوبهم به لابغيره ، فيحصل لهم من التوكل عليه والإنابة إليه ، وحلاوة الإيمان وذوق طعمه ، والبراءة من الشرك وأهله ما هو أعظم من زوال العسر وحصول اليسر ، مما لايستحضر تفصيله بال ، أو يعبر عن كنهه مقال ، ولكل مؤمن من ذلك نصيب.[(٤)]

وهذا من أوضح الأدلة التي يعرف بها رب العباد ، ويستدل بها عليه ، وقد قررها الله في كتابه كما مر ذكره .

خامساً : دليل التمانع

هذا الدليل من أدلة المتكلمين التي يستدلون بها على وجود الرب جل وعلا ، وهو دليل صحيح عقلاً .

---

(١) سورة الإسراء آية ٦٧ .

(٢) سورة يونس ٢٢-٢٣ .

(٣) سورة يونس ١٢ .

(٤) انظر الفتاوى ١٠/٣٣٢-٣٣٣ ، ١٤/٣٧٠-٣٧٣ ، ٢٢/٣٨٦-٣٨٧. وانظر أيضاً درء التعارض ٣/١٣٥-١٣٦ .

وقد ذكره شيخ الاسلام - رحمه الله - وبينه ووضحه فذكر أنه يمتنع شرعاً وعقلاً وجود فاعلين تامي القدرة والإرادة في مفعول واحد هما عليه تاما القدرة والإرادة ؛ لإن من كان تام القدرة والإرادة والإستقلال بالفعل وجب وجود المفعول له وحده ، وإذا كان الآخر كذلك وجب وجود المفعول له وحده، وإذ قدر اثنان مريدان لأمر من الأمور فلابد من أمرين :

أحدهما : إما أن ينفرد كل واحد منهما بخلقه وإيجاده ، هذا ممتنع عقلاً ؛ لما يعلم يقيناً من ترابط هذا الكون وانتظام أمره مما يدل على أن له رباً واحداً وموجداً واحداً لاشريك له ولا مثيل ولا نظير .

وإما أن يعلو بعضهم على بعض فلا يرضى كل منهما بوجود الشريك في الخلق ، وهذا أيضاً ممتنع في حق الله ؛ لأنه لو كان الأمر كذلك لفسدت السماوات والأرض لما سيقع من الشريكين من التنافس والإقتتال على الملك . قال الله تعالى : ﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾[1]

فتبين بهذا أنه لايمكن أن يجتمع فاعلان تامي القدرة والإرادة في مفعول واحد ؛ لأنه يستلزم وجود النقيضين ، فعند اختلافهما مثلا في أن يريد أحدهما تحريك جسم وآخر تسكينه ، أو يريد أحدهما إحياءه والآخر إماتته ، فإما أن يحصل مرادهما ؛ أو لايحصل مراد واحد منهما ، والأول ممتنع لأنه يستلزم الجمع بين المتناقضين ، والثاني أيضاً ممتنع لأنه يلزم خلو الجسم عن الحركة والسكون ، كما أنه أيضاً يستلزم عجز كل منهما والعاجز لايكون إلها ، وإذا حصل مراد أحدهما دون الآخر كان هذا هو الإله القادر ، والآخر عاجز لايصلح للإلهية ، ويستأنس لهذا بقوله تعالى : ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ﴾[2][3].

---

(١) سورة الزمر ٢٩ .

(٢) سورة المؤمنون ٩٢ .

(٣) انظر الفتاوى ٢٠/١٧٤-١٨٠ .

فإذا كان الاستقلال بالفعل والغنى عن الغير من خصائص رب العالمين ، كان التنزه عن شريك في الفعل والمفعول من خصائص رب العالمين ، فليس في المخلوقات ما هو مستقل بشيء من المفعولات ، وليس فيها ما هو وحده علة تامة ، وليس فيها ماهو مستغنياً عن الشريك في شيء من المفعولات ، بل لايكون في العالم شيء موجود عن بعض الأسباب إلا ويشاركه سبب آخر له . (١)

وهناك أدلة استدل بها الفلاسفة والمتكلمون على إثبات وجود الله ﷻ إلا أنها لا تخلوا من مأخذ ، قد ذكرها شيخ الإسلام ــ رحمه الله ــ وبين ما فيها من حق وباطل (٢) إلا أن ما في القرآن من الدلائل على وجود الله ووجوب عبادته مما تقدم آنفاً غُنْيَة عن غيره .

إقرار الخلق جميعاً بهذا التوحيد

لقد أقر الخلق جميعاً بهذا التوحيد و لم ينكره أحد إلا شذاذ من الخلق لا عبرة بشذذهم . قال شيخ الإسلام – رحمه الله : "معلوم أن أحداً من الخلق لم يزعم أن الأنبياء ، والأحبار والرهبان والمسيح ابن مريم(٣) شاركوا الله في خلق السموات والأرض . بل ولا زعم أحد من الناس أن العالم له صانعان متكافئان في الصفات والأفعال ؛ بل ولا أثبت أحد من بنى آدم إلهاً مساوياً لله في جميع صفاته . بل عامة المشركين بالله مقرون بأنه ليس له شريك مثله ، بل عامتهم يقرون أن الشريك مملوك له ، سواء كان ملكاً أو نبياً أو كوكباً ، أو صنماً كما كان مشركوا العرب يقولون في تلبيتهم لبيك اللهم لبيك لاشريك لك ، إلا شريكاً هو لك

---

(١) الفتاوى ١٨١/٢٠ ، وانظر منهاج السنة النبوية ١٨٢/٢ ، ٣٠٤/٣ - ٣٣٤ .

(٢) انظر درء التعارض ٧٢/٣ وما بعدها . ومما ينبغي التنبيه عليه أن شيخ الإسلام ــ رحمه الله ــ إنما يذكر مثل هذه الأدلة لينقدها ، لا ليقررها ويستدل بها .

(٣) رغم اعتقاد النصارى هذا فإنهم يزعمون أنه بعد وجود المسيح أصبح مشاركاً لله في تدبير الخلق ، وفي الأمر والنهي ، وأنه سيحاسب البشر ، ولم يذكروا أنه شارك الله في شيء من ذلك قبل وجوده ، مع تسميتهم له رب وإطلاق صفات الله عليه .

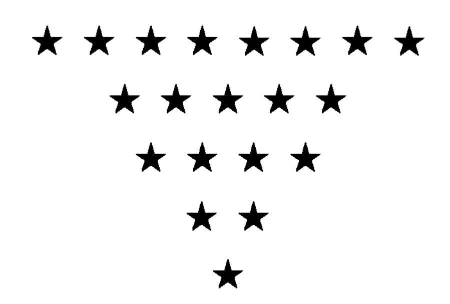
تملكه وما ملك ...﴾ [١]

بل مع ذلك كانوا يقرون بأن الله خالق كل شيء حتى أنهم كانوا يقرون بالقدر أيضاً .

وقد ذكر أرباب المقالات ما جمعوا من مقالات الأولين والآخرين في الملل والنحل ، والآراء والديانات ، فلم ينقلوا عن أحد اثبات شريك مشارك له في خلق جميع المخلوقات ، ولا مماثل له في جميع الصفات ، بل من أعظم ما نقلوا في ذلك قول الثنوية الذين يقولون بالأصلين النور والظلمة ، وأن النور خلق الخير والظلمة خلقت الشر . [٢]

فتبين من هذا أن ليس في العالم من ينازع في ربوبية الله جل وعز ؛ وكونه خلق الخلق وأوجدهم ؛ لكن غاية ما يقال : إن من الناس من جعل بعض الموجودات خلقاً لغير الله كالقدرية وغيرهم ؛ لكنهم يقرون بأن الله خالق العباد وأفعالهم وإن قالوا إنهم خلقوا أفعالهم .

وكذلك أهل الفلسفة والمنجمون الذين يجعلون بعض المخلوقات مبدعة لبعض الأمور ، هم مع الإقرار بالخالق يجعلون هذه الفاعلات من الكواكب وغيرها مخلوقة ، ولا يقولون إنها غنية عن الخالق مشاركة له في الخلق . [٣]



(١) الفتاوى ٣/٩٦ . وانظر الفتاوى أيضاً ١٤/٣٨٠، ١/٩١-٩٢ ، ٣/١٠٥ .

(٢) وبرغم أن الثنوية يقولون بوجود خالقين إلا أنهم يعتقدون أن إله الخير أقوى وأعظم من إله الشر التي هي الظلمة ، انظر الملل والنحل للشهرستاني ٢٤٤-٢٤٦ .

(٣) انظر الفتاوى ٣/٩٧-٩٨ .

المحبث الأول : في بيانه لكيفية تحقيق التوحيد

تحقيق التوحيد

تمهيد

قبل الحديث عن تحقيق التوحيد كيفيتة وأسبابه ودواعيه والقوادح التي تقدح في تحقيقه ، وفضل ذلك ؛ يحسن أن أقدم لذلك بمقدمة أذكر فيها معنى تحقيق التوحيد وبعض صفات محققي التوحيد فأقول وبا لله التوفيق :

أولاً : معنى تحقيق التوحيد بين شيخ الإسلام ـ رحمه ا لله ـ ذلك بقوله : (القرآن كله مملوء من تحقيق هذا التوحيد والدعوة إليه ، وتعليق النجاة والفلاح واقتضاء السعادة في الآخرة به ، ومعلوم أن الناس متفاضلون في تحقيقه ، وحقيقته إخلاص الدين كله لله ، والفناء في هذا التوحيد مقرون بالبقاء ، وهو أن تثبت إلاهية الحق في قلبك ، وتنفي إلاهية ما سواه ، فتجمع بين النفي والإثبات ، فتقول : لا إله إلا ا لله ، فالنفي هو الفناء ، والإثبات هو البقاء ، وحيقته أن تفنى بعبادته عما سواه ، وبمحبته عن محبة ما سواه ، وبخشيته عن خشية ما سواه ، وبطاعته عن طاعة ما سواه ، وبموالاته عن موالاة ما سواه ، وبسؤاله عن سؤال ما سواه ، والاستغاذة به عن الاستعاذة بما سواه ، وبالتوكل عليه عن التوكل على ما سواه ، وبالتفويض إليه عن التفويض إلى ما سواه ، وبالإنابة إليه عن الإنابة إلى ما سواه ، وبالتحاكم إليه عن التحاكم إلى ما سواه ، وبالتخاصم إليه عن التخاصم إلى ما سواه .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه كان يقول إذا قام تيصلي من الليل ...((ا لله لك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ... ا لله لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لي ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت .))[1] ...

وذروة سنام هذا التوحيد لأولي العزم من الرسل ، ثم للخليلين ، محمد وإبراهيم

---

(١) رواه البخاري في الجمعة (ح ١١٢٠) وفي غيره ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (ح ٧٦٩) وأبو داود في الصلاة (ح٧٧١) والترمذي في الدعوات (٣٤١٨) والنسائي في قيام الليل وتطوع النهار (ح١٦١٩). وابن ماجة في قيام الليل والسنة فيها (ح١٣٥٥) .

صلى الله عليهما وسلم تسليماً ...)[١]

فاتضح من هذا أن معنى تحقيق التوحيد أي : تصفيته وتنقيته من جميع الشوائب صغيرها وكبيرها ، دقها وجلها ، عظيمها وحقيرها ، مع التسليم والإنقياد التام لله رب العالمين ، وذوبان إرادة العبد في ما يريده الله ويرضاه ، حتى يصبح لا يحب إلا ما يحب ربه وإلهه ، ولا يريد إلا ما أراده الله وأحبه ورضيه ...[٢]

ثانياً : بعض صفات محققي التوحيد ومزاياهم :

إن مما هو معلوم بالضرورة أن أهل التوحيد هم أهل الله وخاصته ، الذين آمنوا بالله واليوم الآخر وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ولم يخشوا إلا الله وحده ، فأخلصوا له العبادة والتألهه .

قال شيخ الاسلام في معرض كلامه على بناء المساجد : بين الله - سبحانه وتعالى - أنه إنما يعمر مساجد الله (من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتي الزكاة ولم يخش إلا الله ، وهذه صفة أهل التوحيد وإخلاص الدين لله الذين لا يخشون إلا الله ولا يرجون سواه، ولا يستغيثون إلا به ، ولا يدعون إلا إياه ...)[٣]

فهذه صفات الموحدين الذين هم لربهم يرهبون ، يخشون الله وحده ولا يخشون أحداً سواه ، وهم المؤمنون ، وهم المتقون المذكورون في قوله تعالى : ﴿ ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾[٤] كما قال في آية البر : ﴿ أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾[٥]

وهؤلاء هم المتبعون للكتاب كما في قوله تعالى : ﴿ فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ﴾[٦] وإذا لم يضل فهو متبع مهتد ، وإذا لم يشق فهو مرحوم .

وهؤلاء هم أهل الصراط المستقيم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، فإن أهل الرحمة والتوحيد ليسوا

---

(١) منهاج السنة النبوية ٣٤٨/٥-٣٤٩ .

(٢) وهذا ما سيتضح إن شاء الله من خلال هذا المبحث .

(٣) الفتاوى ٤٩٩/١٧ .

(٤) سورة البقرة ١ .

(٥) سورة البقرة ٧٧ .

(٦) سورة طه ١٢٣ .

مغضوباً عليهم ، وأهل الهدى ليسوا ضالين فتبين أن أهل رهبة الله يكونون متقين لله مستحقين لجنته بلا عذاب وهؤلاء هم الذين أتوا بالإيمان الواجب .[١]

كما أن من صفاتهم أنهم آمنوا بجميع ما جاء عن الله من وجوب الإيمان بالرسل دون تفريق ، مع إيمانهم بربوبية الله سبحانه ، وصفات كماله ونعوت جلاله ، وأسمائه الحسنى ، وعموم قدرته ومشيئته ، وكمال علمه وحكمته ، فباينوا بذلك جميع طوائف أهل البدع والمنكرين لذلك أو لشيء منه فإن كمال الإيمان يتضمن إثبات ما أثبته الله لنفسه ، وتنزيهه عما نزه نفسه عنه ، فباينوا بهذين الأمرين طوائف الكفر وفرق أهل الضلال الملحدين في أسمائه وصفاته .[٢]

فأهل التوحيد الخالص هم أهل الله وخاصته ، هم أولياؤه المتقون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، هم الذين لربهم يرهبون قال سبحانه : ﴿ ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾[٣] وقال سبحانه :﴿ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾[٤] والمتقون هم أهل التوحيد والإخلاص ، لشدة خوفهم من حبوط أعمالهم ، وتحرجهم الشديد من الوقوع في الرياء أو النفاق ، لكون تمام الإخلاص لا يبلغه إلا المتقون .

والمتقون أهل التوحيد هم الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً قال سبحانه:

﴿ تلك الدار نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾[٥]

وسيتضح من خلال هذا الباب بحول الله وقوته الكيفية التي يصل بها عباد الله المخلصون إلى هذه المرحلة من تحقيق التوحيد ، كما سيتبين للقارئ أهم تلك الأسباب التي أوصلتهم إلى ذلك ، كما سيتضح لك أخي القارئ الكريم من خلال هذا الباب الفضل الذي حازه أهل التوحيد ، أهل الله وخاصته .

---

(١) انظر الفتاوى ١٦/٢٠ - ٢١ .

(٢) انظر الفتاوى ١٤/١٣٥- ١٣٦.

(٣) سورة الأعراف ١٥٤ .

(٤) سورة ال عمران ١٣٨ .

(٥) سورة القصص ٣٨ .

كيفية تحقيق التوحيد

تمهيد

يتفاوت الناس في تحقيق التوحيد ـ قوة وضعفاً ، علماً ومعرفة وحالاً ـ تفاوتاً عظيماً لا يحصيه إلا الله ﷻ ، فأكمل الناس توحيد الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، والمرسلون منهم أكمل في ذلك ، وأولو العزم من الرسل أكمل توحيداً ، وأكملهم الخليلان محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام ، فإنهما بلغا من تحقيق التوحيد ـ علماً وعملاً ، ودعوة للخلق وجهاداً ـ مالم يقم به غيرهما ، فلا توحيد أكمل وأعلى من الذي قامت به الرسل ودعوا إليه ، وجاهدوا الأمم عليه ، ولهذا أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يقتدي بهم فيه .

قال ﷻ بعد ذكر إبراهيم ومناظرته أباه وقومه في بطلان الشرك وصحة التوحيد ، وذكر الأنبياء من ذريته قال : ﴿ أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ، أولئك الذي هدى الله فبهداهم اقتده ﴾[١] فلا أكمل من توحيد من أُمر رسول الله ﷺ أن يقدي بهم .[٢]

وتحقيق التوحيد هو من أعظم المطالب التي يجب على كل مسلم أن يهتم بها قولاً وعملاً واعتقاداً وسلوكاً ؛ مخلصاً فيه لربه عز وجل ، محققاً ما أمره الله به من افراده سبحانه بالألوهية والعبادة وفق ما جاءت به أنبياء الله ورسله ، فإن التوحيد هو أول ما يؤمر به العبد في حياته الدنيا ، كما أنه أول شيء يسأل عنه العبد في قبره . أما في المعاد فإن العبد بتحقيقه يصل إلى أعلى درجات الجنة ، وبتركه يصل إلى أسفل دركات النار والعياذ بالله، وبنقصانه يكون المرء على خطر عظيم .

وتحقيق التوحيد هو الذي من أجله أوجد الله الثقلين الإنس والجن . وهو الذي وقع فيه الخصام بين الأنبياء وأممهم ، ومن أجله قامت الحرب بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

---

(١) سورة الأنعام ٨٩-٩٠ .

(٢) مدارج السالكين ٣/٥٠١-٥٠٢ . وانظر منهاج السنة النبوية ٥/٣٤٧ .

على مر العصور والدهور قديماً وحديثاً ، وسوف يبقى الأمر كذلك إلى أن يرث ا لله الأرض ومن عليها كما تقدم بيانه .[١]

وا لله جل وعز لايقبل من العبد أي عمل في العبادة إذا خلا من التوحيد . كما نجد في القرآن الكريم والسنة النبوية أعظم الاهتمام ببيان هذا الجانب العظيم ، وقد كانت دعوة الرسول ﷺ كلها في بيان هذا الجانب ، وسأعرض لجهود شيخ الإسلام ـ رحمه ا لله ـ في بيانه لتحقيق التوحيد ، كما سأتناول ما ذكره ـ رحمه ا لله ـ عن تحقيق النبي ﷺ للتوحيد، ليكون مناراً يهتدي كل من أراد أن يكون المصطفى ﷺ أسوة حسنة له يقتدي به في أعظم ما بعث به .

ومما هو معلوم أن الناس يتفاوتون في عبوديتهم لله جل وعلا ، كما أخبر ا لله ﷻ عن ذلك بقوله : ﴿إن سعيكم لشتى﴾[٢] وقوله : ﴿ إنما يخشى ا للهَ من عباده العلماء﴾[٣] وهذه حقيقة لا يماري فيها أحد يعتد بقوله ، وأمر مشاهد في سلوك الناس ، ومن هنا فإن العباد يتفاوتون في تحقيقهم لهذا التوحيد[٤] .

وقد قسمهم ا لله ﷻ إلى ثلاثة أقسام : ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات ، وهذا يعود في الأساس إلى تحقيقهم للتوحيد والتزامهم بما أمرهم ا لله جل شأنه به ونهاهم عنه .

وفي هذا يقول شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه ا لله تعالى - مبيناً تفاوت الناس في تحقيقهم للعبادة وبالتالي تفاوتهم في الأعمال ممثلاً بما كان عليه رسول ا لله ﷺ وصحابته الكرام : (فألوهية ا لله عز وجل متفاوتة في قلوبهم على درجات عظيمة تزيد وتنقص ، ويتفاوتون فيها تفاوتاً لاينضبط طرفاه ، حتى قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ في حق شخصين : ((هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا)) [٥] فصار واحد من الآدميين خير من ملء الأرض من بني جنسه ؛ وهذا تباين عظيم لايحصل مثله في سائر الحيوان.

---

(١) انظر المبحث الثالث من التمهيد ص ٤١ ، وكذا منهاج السنة النبوية ٣٤٧/٥ وما بعدها .

(٢) سورة الليل آية ٤ .

(٣) سورة فاطر ٢٨ .

(٤) انظر الصفدية ٣٤٠/٢ .

(٥) رواه البخاري في كتاب النكاح (ح ٥٠٩٣) في كتاب الرقاق (ح ٦٤٤٧) ، وابن ماجه في الزهد (ح ٤١٢٠) .
ولفظ البخاري : ((عنْ سَهْلٍ قَالَ مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا قَالُوا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْتَمَعَ قَالَ ثُمَّ سَكَتَ فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا قَالُوا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لا يُنْكَحَ وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لا يُشَفَّعَ وَإِنْ قَالَ أَنْ لا يُسْتَمَعَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا)) .

وإلى هذا أشار من قال (١) : ((ما سبقكم أبو بكر بفضل صلاة ولا صيام ولكن بشيء وقر في قلبه))(٢) وهو اليقين والإيمان .

ومنه قوله ﷺ ((وُزِنْتُ بالأمةِ فَرَجَحْتُ ، ثم وُزِنَ أبو بكر بالأمة فرجح ، ثم وزن عمر بالأمة فرجح ، ثم رفع الميزان)) (٣) وقال ﷺ فيما رواه عنه الصديق : ((أيها الناس : سلوا الله اليقين والعافية ، فلم يعط أحد بعد اليقين خيراً من العافية))(٤).

---

(١) هو بكر بن عبدالله المزني انظر تيسير العزيز الحميد ص ٩٠ .

(٢) أخرجه الحكيم الترمذي في النوادر من قول بكر بن عبد الله المزني (ح٤١٥) بلفظ " ما فضلكم " وذكره الغزالي في الإحياء ٢٤/١ وقال العراقي في تخريجه لأحاديث الإحياء : " أخرجه الحكيم في النوادر .. ولم أجده مرفوعاً . (٢٣/١ ح٧٣ ، ٢٣٧) وأورده السخاوي في المقاصد الحسنة (ح٩٧٠) . والأسرار المرفوعة للقارئ (ح٤١٥) .

(٣) رواه الإمام أحمد (٧٦/٢) ولفظه : عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ غَدَاةٍ بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ فَقَالَ : ((رَأَيْتُ قُبَيْلَ الْفَجْرِ كَأَنِّي أُعْطِيتُ الْمَقَالِيدَ وَالْمَوَازِينَ فَأَمَّا الْمَقَالِيدُ فَهَذِهِ الْمَفَاتِيحُ وَأَمَّا الْمَوَازِينُ فَهِيَ الَّتِي تَزِنُونَ بِهَا فَوُضِعْتُ فِي كِفَّةٍ وَوُضِعَتْ أُمَّتِي فِي كِفَّةٍ فَوُزِنْتُ بِهِمْ فَرَجَحْتُ ثُمَّ جِيءَ بِأَبِي بَكْرٍ فَوُزِنَ بِهِمْ فَوَزَنَ ثُمَّ جِيءَ بِعُمَرَ فَوُزِنَ فَوَزَنَ ثُمَّ جِيءَ بِعُثْمَانَ فَوُزِنَ بِهِمْ ثُمَّ رُفِعَتْ)) وصححه أحمد شاكر في تخرجه للمسند (ح ٥٤٦٩) ورواه الترمذي في كتاب السنة (ح ٢٢٨٧) وقال : " هذا حديث حسن صحيح " ورواه أبو داود في السنة (ح ٤٦٣٤) وصححه الألباني في صحيح أبي دواود ، وفيه : ((أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ مَنْ رَأَى مِنْكُمْ رُؤْيَا فَقَالَ رَجُلٌ أَنَا رَأَيْتُ كَأَنَّ مِيزَانًا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ فَوُزِنْتَ أَنْتَ وَأَبُو بَكْرٍ فَرَجَحْتَ أَنْتَ بِأَبِي بَكْرٍ وَوُزِنَ عُمَرُ وَأَبُو بَكْرٍ فَرَجَحَ أَبُو بَكْرٍ وَوُزِنَ عُمَرُ وَعُثْمَانُ فَرَجَحَ عُمَرُ ثُمَّ رُفِعَ الْمِيزَانُ فَرَأَيْنَا الْكَرَاهِيَةَ فِي وَجْهِ رَسُولِ اللهِ ﷺ . وعن أبي بكرة أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ : ((أَيُّكُمْ رَأَى رُؤْيَا فَذَكَرَ مَعْنَاهُ وَلَمْ يَذْكُرِ الْكَرَاهِيَةَ قَالَ فَاسْتَاءَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْنِي فَسَاءَهُ ذَلِكَ فَقَالَ خِلَافَةُ نُبُوَّةٍ ثُمَّ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ)) أبو داود في السنة (ح٤٦٣٥) .

(٤) رواه الترمذي كتاب الدعوات ح (٣٥٥٨) ولفظه : .. قَامَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ عَلَى الْمِنْبَرِ ثُمَّ بَكَى ، فَقَالَ : قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَامَ الأول عَلَى الْمِنْبَرِ ثُمَّ بَكَى فَقَالَ : ((اسْأَلُوا اللهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فَإِنَّ أَحَدًا لَمْ يُعْطَ بَعْدَ الْيَقِينِ خَيْرًا مِنَ الْعَافِيَةِ)) وَقَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ عَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . ورواه ابن ماجة كتاب الدعاء .ح (٣٨٤٩) . وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه . قال البخاري ـ رحمه الله ـ باب قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ : ((بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ)) وَهُوَ قَوْلٌ وَفِعْلٌ وَيَزِيدُ وَيَنْقُصُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ ... وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ ﴿ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ وَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ اجْلِسْ بِنَا نُؤْمِنْ سَاعَةً وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ الْيَقِينُ الإِيمَانُ كُلُّهُ وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ : لا يَبْلُغُ الْعَبْدُ حَقِيقَةَ التَّقْوَى حَتَّى يَدَعَ مَا حَاكَ فِي الصَّدْرِ . كتاب الإيمان انظر الفتح ٤٥/١ . وهذا يدل على تفاوت الناس في تحقيقهم للعبودية .

وقال رقبة بن مصقلة[(١)] للشعبي[(٢)] : (رزقك الله اليقين الذي لاتسكن النفوس إلا إليه ، ولا يعتمد في الدين إلا عليه) ... وهذا القدر يقوى قوة عظيمة حتى يعبر عنه بالتجلي والكشف ونحو ذلك باتفاق العقلاء ، ويحصل معه القرب منه ، كما قال النبي ﷺ : ((أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد)) [(٣)] وقال الله تعالى في الحديث القدسي ((من تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً))[(٤)]أهـ[(٥)]

ولكي تتبين الكيفية التي يمكن أن يتحقق بها التوحيد ويعرف الإنسان منزلته منها، كما يعرف درجات الناس فيها وتفاوتهم في تحقيق مراتبها ؛ يمكن تقسيم ذلك إلى قسمين :[(٦)]

القسم الأول : تحقيق واجب على كل أحد .

والقسم الثاني : تحقيق مندوب .

فأما الواجب فيكون بتخليصه من ثلاثة أشياء :

الأول : تخليصه من الشرك المنافي للتوحيد .

---

(١) هو أبو عبد الله رَقَبَة بن مصْقَلَة العبدي الكوفي ، قال الإمام أحمد ثقة مأمون . توفي سنة ١٢٩ هـ انظر السير ١٥٦/٦ ، والتقريب ص ٢١٠ .

(٢) هو : عامر بن شراحيل بن عبد بن ذي كبار ، أبو عمر الهمداني ثم الشعبي ، اختلف في ولادته فقيل ولد سنة ٢١ وقيل ٢٨ ، من كبار التابعين ، فقيه محدث توفي سنة ٢٠٤ ، انظر السير ٢٩٤/٤-٣١٩ .

(٣) رواه مسلم كتاب الصلاة (ح ٤٨٢) وأبو داود في الصلاة (ح ٨٧٥) والنسائي في التطبيق (ح١١٣٧).

(٤) تقدم تخريجه انظر الفهارس .

(٥) انظر الفتاوى ٣٨٤/٢-٣٨٥

(٦) هذا التقسيم ذكره ابن قاسم في حاشيته على كتاب التوحيد انظر ص٣٧ وأشار إلى نحوه الشيخ سليمان بن عبدالله بن عبدالوهاب في شرحه للكتاب انظر ص ٩٩-١٠٠ . ويشبه هذا تقسيم الله ﷻ المؤمنين إلى ثلاث مراتب : ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات ، قال تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير ﴾ [فاطر٣٥] . وكذلك منه تقسيم النبي ﷺ مراتب الدين إلى ثلاث مراتب : الإسلام والإيمان والإحسان ، كما في حديث جبريل المتفق على صحته ، فالظالم لنفسه لا يخرج عن دائرة الإيمان الذي جاء بأصل التوحيد الذي ينجو به من الخلود في النار ، والمقتصد هو الذي أتى بالواجبات وانتهى عن المحرمات ، فيقابل مرتبة الإيمان ، التي هي تحقيق كمال التوحيد الواجب ، والسابق بالخيرات هو الذي فاق أولئك بالسبق إلى كل خير والميل عن كل شر ، وهو يقابل مرحلة الإحسان ، التي عرفها النبي ﷺ بقوله : ((أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)) وهذه مرتبه محققي كمال التوحيد المندوب ، وهم المصطفين من عباده الله الأخيار ، الأبرار الذين يشربون من الجنة صرفاً ، ويمزج لغيرهم مزجاً ، كما قال ذلك ابن عباس ﷺ .

الثاني : تخليصه من البدع التي تنافي كماله الواجب .

الثالث : تخليصه من المعاصي التي تنقص من ثوابه وتؤثر فيه .

وأما القسم الثاني فهو : المندوب

ولكي يتبين هذا التقسم فلابد من التفصيل في كل ذلك .

فأما القسم الأول فيتضمن ثلاثة أمور :

أولها : تخليصه من الشرك

يتمثل ذلك بتخليصه من الشرك المنافي له بالكلية وتجريده من نوعية الأكبر والأصغر، وحيث أن الشرك سيأتي الكلام عليه في باب مستقل فسأقتصر هنا على الاقتباس من كلام شيخ الاسلام فيما يتعلق بتحقيق التوحيد وتخليصه من الشرك ، فأقول وبالله التوفيق :

قد بين شيخ الإسلام أن تحقيق التوحيد وتخليصه من الشرك يكمن في (أن يستسلم العبد لله لالغيره ، كما ينبئ عنه قوله لاإله إلا الله ، فمن استسلم له ولغيره فهو مشرك ، ومن لم يستسلم له فهو مستكبر ، وكلاهما ضد الاسلام ... وذلك يتعلق بتحقيق توحيد الألوهية لله وتوحيده وامتناع الشرك ، وفساد السموات والأرض بتقدير إله غيره .. وأن القلوب لاتصلح إلا بأن تعبد الله وحده ، ولا كمال لها ولا صلاح ولا لذة ولا سرور ولا فرح ولا سعادة بدون ذلك ، وتحقيق الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وغير ذلك مما يتعلق بهذا الموضع الذي في تحقيقه تحقيق مقصود الدعوة النبوية ، والرسالة الإلهية، وهو لب القرآن وزبدته ، وبيان التوحيد العلمي القولي المذكور في قوله تعالى : ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد ﴾ والتوحيد القصدي العملي المذكور في قوله تعالى : ﴿قل ياأيها الكافرون ﴾ وما يتصل بذلك فإن هذا بيان لأصل الدعوة وحقيقتها ومقصودها .)[1]

---

(١) انظر الفتاوى ١٥/١٦٣- ١٦٤ .

وقد ذكر - رحمه الله - أنه ينبغي على العبد أن يحقق التوحيد بالإخلاص لله جل وعلا في جميع أمورة التعبدية ، وبالحذر أشد الحذر من الشرك الظاهر والباطن (فإن الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل؛ ولهذا كان العبد مأموراً في كل صلاة أن يقول : ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ والشيطان يأمر بالشرك والنفس تطيعه في ذلك فلا تزال النفس تلتفت إلى غير الله إما خوفاً منه ، وإما رجاء له ، فلا يزال العبد مفتقراً إلى تخليص توحيده من شوائب الشرك ، وفي الحديث .. عن النبي ﷺ أنه قال : ((يقول الشيطان : أهلكت الناس بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار..))[١]...)[٢]

وبناء على هذا فإن تجريد التوحيد من الشرك يكون بعدة أمور نذكر منها :

الأمر الأول : الإخلاص

ذكر شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ أن أهمية الإخلاص تتبين من عدة أوجه منها :

الوجه الأول

توقف قبول العمل على الإخلاص:

إن مما هو معلوم أن ضد الشرك الإخلاص الذي يجب على كل عبد أن يأتي به في جميع أعماله التعبدية وإلا فإنها لن تقبل منه كما قال تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾[٣] فجعل الإخلاص أحد ركني قبول العمل ؛ و (الله تعالى لايقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : ((يقول الله تعالى

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في السنة (ص٩ ح ٧) ولفظه : ((عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار ، فأكثروا منهما فإن إبليس قال : أهلكتهم بالذنوب وأهلكوني بالاستغفار ، فلما رأيت ذلك منهم أهلكتهم بالإهواء ، فهم يحسبون أنهم مهتدون فلا يستغفرون)) وضعفه الألباني . وأخرجه أبو يعلى في مسنده ٤٣/١ (ح ١٢٦) وهو في مجمع الزوائد ٢٠٧/١٠ قال : وفيه عثمان بن مطر وهو ضعيف إلا أن معناه صحيح . وروى الدارمي في المقدمة (ح٣٠٨) عن الأوزاعي قوله : (قال : قال إبليس لأوليائه : من أي شيء تأتون بني آدم ؟ . فقالوا : من كل شيء . قال : فهل تأتونهم من قبل الاستغفار ؟ . قالوا هيهات ، ذاك شيء قرن بالتوحيد . قال : لأبثن فيهم شيئا لا يستغفرون الله منه . قال : فبث فيهم الأهواء)

(٢) الفتاوى ٢٦١/١٠-٢٦٣ .

(٣) سورة الكهف ١١٠ .

: أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملاً فأشرك فيه غيري فأنا منه بريء وهو كله للذي أشرك)) [(١)] وثبت في الصحيح أيضاً حديث الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار : ((القارئ المرائي ، والمجاهد المرائي والمتصدق المرائي)) [(٢)] وقد بين الله جل ذكره أن الشيطان ليس له سلطان على الذين أخلصوا دينهم لله واتبعوا رضوانه ، إنما سلطانه وإغواءه لغير المخلصين فقال جل وعلا : ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾ [(٣)] ولهذا قال سبحانه في قصة يوسف : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ [(٤)] وقال جل ذكره : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ [(٥)(٦)]

الوجه الثاني :

أن الإخلاص هو الأصل الذي بعث به الرسل وأمر به الخلق :

وقد وضح شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - أن الأولين والآخرين إنما أمروا بالإخلاص وهو حقيقة كلمة التوحيد وبه بعث الرسل كما قال جل شأنه : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لاإله إلا أنا فاعبدون ﴾ [(٧)] وجميع الرسل أمروا به وافتتحوا دعوتهم بهذا الأصل ، قال الله تعالى على ألسنتهم : ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ [(٨)]

---

(١) رواه الإمام مسلم في كتاب الزهد والرقائق (ح ٢٩٨٥) .

(٢) رواه الإمام مسلم في كتاب الإمارة (ح ١٩٠٥) والترمذي في كتاب الزهد (ح ٢٣٨٢) .

(٣) سورة النحل آية ٩٩ ، ١٠٠ .

(٤) سورة يوسف آية ٢٤ .

(٥) سورة الحجر آية ٤٢ .

(٦) انظر الفتاوى ١٠/٥٠ ، ٢٦٠ - ٢٦٢ .

(٧) سورة الأنبياء آية ٢٥ .

(٨) سورة الأعراف آية ٥٩ .

فالدين كله يقوم على هذا الأصل العظيم الذي من أجله افترق الناس إلى موحد ومشرك ، ومؤمن وكافر ، والقرآن مليء بالآيات البينات التي تدعوا إليه وتحذر من ضده ، ففي سورة الأنعام والأعراف والنور وآل طسم وآل حم وآل المر ، وسور المفصل وغير ذلك من السور المكية ، ومواضع من السور المدنية كثير ظاهر ، فهو أصل الأصول وقاعدة الدين حتى في سورتي الإخلاص [١] وقد تقدم الإشارة إلى ذلك فيا سبق [٢] .

فـ (إخلاص الدين لله هو الدين الذي لايقبل الله ديناً سواه ، وهو الذي بعث به الأولين والآخرين من الرسل ، وأنزل به جميع الكتب ، واتفق عليه أئمة أهل الإيمان، وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية ، وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه ، قال تعالى : ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ۞ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ، ألا لله الدين الخالص ﴾ [٣] والسورة كلها عامتها في هذا المعنى ، كقوله : ﴿ قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين وأمرت لأن أكون أول المسلمين ﴾ إلى قوله : ﴿قل الله أعبد مخلصاً له ديني﴾ إلى قوله : ﴿أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ﴾ إلى قوله : ﴿قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره ﴾ الآية إلى قوله : ﴿ أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لايملكون شيئاً ولا يعقلون ، قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون ، وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾ إلى قوله : ﴿ قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ﴾ إلى قوله : ﴿ بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾[٤] ...)[٥]

---

(١) انظر الفتاوى ٥١/١٠ – ٥٦.

(٢) راجع المبحث الأول من الفصل الأول : معنى التوحيد .

(٣) سورة الزمر ١ ، ٢ .

(٤) سورة الزمر الآيات ١٠-١٣ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٣-٤٥ ، ٦٤ ، ٦٦ .

(٥) انظر الفتاوى ٥٠/١٠ ، ٢٦٠-٢٦٢ .

الوجـه الثـالث

الحـذر مـن الوقـوع في الشـرك

الشـرك هـو أعظـم الذنـوب علـى وجـه الإطـلاق ، وقـد سماه ا لله تعـالى علـى لسـان نبيـه لقمـان عليـه السـلام بـالظلم العظيـم في قولـه تعـالى : ﴿ يـابني لاتشـرك بـا لله إن الشـرك لظلـم عظيـم ﴾[١] ولما نـزل قولـه تعـالى : ﴿ .. وإن تبـدوا مـافي أنفسـكم أو تخفـوه يحاسـبكم بـه ا لله ﴾[٢] شق ذلـك علـى صحابـة رسـول ا لله ﷺ فبـين لهـم النـبي ﷺ أن المـراد بـه الشـرك ، فسري عنهـم[٣] ، كمـا أن الشـرك هـو الذنـب الوحيـد الـذي لايغفـره ا لله إلا بالتوبـة كمـا قـال جـل شـأنه : ﴿ إن ا لله لايغفـر أن يشـرك بـه ويغفـر مـا دون ذلـك لمـن يشـاء ﴾ [٤].

ويبـين شـيخ الاسـلام أن الإتيـان بـالإخلاص والبعـد عـن الشـرك والحـذر منـه هـو : حـق ا لله علـى عبـاده بقولـه : (واعلـم أن هـذا حـق ا لله علـى عبـاده أن يعبـدوه ولا يشـركوا بـه شـيئاً ، كمـا في الحديـث الصحيـح الـذي رواه معـاذ عـن النـبي ﷺ أنـه قـال : ((أتـدري مـا حـق ا لله علـى عبـاده ؟ قـال قلـت ا لله ورسـوله أعلـم ، قـال : حـق ا لله علـى عبـاده أن يعبـدوه ولا يشـركوا بـه شـيئاً أتـدري مـا حـق العبـاد علـى ا لله إذا فعلـوا ذلـك ؟ قـال قلـت ا لله ورسـوله أعلـم . قـال حقهـم أن لايعذبهـم.))[٥] ...)[٦]

---

(١) سورة لقمان آيـة ١٣ .

(٢) سورة البقـرة آيـة ٢٤٨ .

(٣) رواه البخـاري في كتـاب الإيمـان (ح ٣٢) ومسـلم في الإيمـان (ح ١٢٤) والـترمذي تفسـير القـرآن (ح٣٠٦٩).

(٤) سورة النسـاء آيـة ٤٨ .

(٥) رواه البخاري في الجهـاد والسـير (ح ٢٨٥٦) ومسـلم في كتـاب الإيمـان (ح ٣٠) ولفـظ البخـاري : ((عَـنْ مُعَاذٍ رَضِي اللهُ عَنْهُ قَـالَ كُنْـتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَـارٍ يُقَـالُ لَـهُ عُفَيْرٌ فَقَـالَ : ((يَـا مُعَـاذُ هَـلْ تَـدْرِي حَـقَّ اللَّـهِ عَلَى عِبَـادِهِ وَمَـا حَـقُّ الْعِبَـادِ عَلَى اللَّـهِ ؟.)) قُلْـتُ : اللهُ وَرَسُـولُهُ أَعْلَـمُ , قَـالَ : ((فَـإِنَّ حَـقَّ اللهِ عَلَـى الْعِبَـادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ ولا يُشْـرِكُوا بِـهِ شَـيْئًا ، وَحَـقَّ الْعِبَـادِ عَلَى اللهِ أَنْ لا يُعَـذِّبَ مَـنْ لا يُشْـرِكُ بِـهِ شَـيْئًا .)) فَقُلْـتُ : يَـا رَسُـولَ اللهِ أَفـلا أُبَشِّـرُ بِـهِ النَّـاسَ ؟ . قَـالَ : ((لا تُبَشِّـرْهُمْ فَيَتَّكِلُـوا))

(٦) الفتـاوى ٢٣/١ ، وانظـر ١٨ ، ٣٠٤ ، ٥٣/٨ ، ٤٧٦/١٤ .

ومن المعلوم أن كل عابد إنما يعبد معبوده لأجل أن ينفعه بجلب الخير أو دفع الضر ، فإذا ما أيقن بأن النفع والضر لايملكه إلا الله سواء في الدنيا أو الآخرة ولا يمكن أن ينفع إنسان إنساناً إلا بإذن الله تعالى ولايمكن أن يشفع شافع إلا بعد إذنه ورضاه ، فمن حقق التوحيد علم (أنه لاينفع أحد أحداً ولا يضر إلا بإذن الله ، وأنه لايجوز أن يعبد أحد غير الله ، ولا يستعان به من دون الله، وأنه يوم القيامة يظهر لجميع الخلق أن الأمر كله لله ، ويتبرأ كل مدع من دعواه الباطلة ، فلا يبقى يدعي لنفسه معه شركاً في ربوبيته ، أو إلهيته ، ولا من يدعي ذلك لغيره، بخلاف الدنيا ، فإنه وإن لم يكن رب ولا إله إلا هو فقد اتخذ غيره رباً وإلهاً ، وادعى ذلك مدعون .) [1] وبتيقنه هذا وعلمه يندفع إلى تحقيق التحيد لله ، والعمل بمقتضى هذا العلم واليقين .

فمن حقق التوحيد وأتى بالاستغفار وأكثر منه سلم ونجا ، ولهذا قال ذو النون : ﴿لاإله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ [2] وقد كان النبي ﷺ كثيراً ما يختم دعاءه بالتوحيد كقوله في آخر صلاته : ((اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني ، أنت المقدم وأنت المؤخرب لاإله إلا أنت)) [3] [4].

وخلاصة القول فيما تقدم في بيان كيفية تحقيق التوحيد أنه يشمل في المقام الأول تخليصه من الشرك الذي هو أعظم الذنوب ، وهذا يكون بعدة أمور في مقدمتها الإخلاص الذي به يتم قبول العمل أو رده ؛ كما جاء ت بذلك النصوص في كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ ، وهذا هو الأمر الذي بعثت به الرسل وأنزلت به الكتب . حيث حذروا العباد من الوقوع في الشرك الذي يهدم حقيقة الإخلاق ويجعل العمل هباء منثوراً .

الأمر الثاني : تحقيق العبادة :

تحقيق العبادة مبناه على عمل القلب واعتقاده ، إذ كل منهما مرتبط بالآخر فإذا ما وجد اعتقاد القلب فإن العمل يكون مرادفاً له ، وإذا ضعف الاعتقاد ضعف عمل القلب ،

---

(١) الفتاوى ١/١١٩ - ١٢٠

(٢) سورة الأنبياء آية ٨٧ .

(٣) رواه البخاري في كتاب الدعوات (ح ٦٣١٧ ، ٦٣٩٨) ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (ح٧٦٩) والترمذي في الدعوات (٣٤٢١) وأبو داود في الصلاة (ح ١٥٠٩) . وابن ماجة في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها (ح ١٣٥٥) .

(٤) انظر المصدر السابق . ١٠/٢٦٢ .

فإذا ما تحقق عمل القلب واعتقاده وتمكنا من قلب العبد فإن عمل الجوارح - الذي هو جز من تحقيق الإيمان والتوحيد - يأتي تبعاً لوجودهما في القلب ، ويكون بحسبهما قوة وضعفاً ، وقد بين شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - كيفية تحقيق هذه الإمور من عدة أوجه منها :

الوجه الأول :

(أن الله تعالى هو الذي يجب أن يكون هو المقصود المدعو المطلوب ، وهو المعين على المطلوب وما سواه هو المكروه ، وهو المعين على دفع المكروه ، فهو سبحانه الجامع للإعانة على جلب المحبوب ودفع المكروه ، الذي يملك كل وسيلة تعين على جلب المحبوب ودفع المكروه ، فهو الجامع لهذه الأشياء دون غيره ، وهذا معنى قوله : ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب ؛ لكن على أكمل الوجوه ، والمستعان هو الذي يستعان به على المطلوب ، فالأول من معنى الألوهية والثاني من معنى الربوبية ، فالإله هو الذي يؤله فيعبد محبة وإنابة وإجلالاً وإكراماً ، والرب هو الذي يربي عبده فيعطية خلقه ثم يهديه إلى جميع أحواله من العبادة وغيرها .) (١)

فإذا ما عتقد العبد هذا وفهم هذه المعاني لم يلتفت إلى سوى الله في جلب المحبوب ودفع المكروه ، وهذا جانب مهم في تحقيق التوحيد ، يبدأ بالاعتقاد وينتهي بالعمل والخضوع لله جل شأنه .

الوجه الثاني :

(أن الله خلق الخلق لعبادة الجامعة لمعرفته والإنابة إليه ومحبته والإخلاص له ، فبذكره تطمئن قلوبهم ، وبرؤيته في الآخرة تقر عيونهم ، ولا شيء يعطيهم في الدنيا أعظم من الإيمان به .

وحاجتهم إليه في عبادتهم إياه وتألههم كحاجتهم وأعظم في خلقه لهم وربوبيته إياهم ، فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم ؛ وبذلك يصيرون عاملين متحركين ولا صلاح

---

(١) الفتاوى ٢٢/١

لهم ولا فلاح ، ولا نعيم ولا لذة بدون ذلك بحال بل من أعرض عن ذكره فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى .

ولهذا كان الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ولهذا كانت لاإله إلا الله أحسن الحسنات ، وكان التوحيد بقول لاإله إلا الله رأس الأمر) [١] ...

وذكر - رحمه الله - أن ***هذا الوجه مبني على أصلين :***

أحدهما : أن نفس الإيمان بالله وعبادته ومحبته وإجلاله هو غذاء الروح وقوت الإنسان ، وصلاحه وقوامه به وحده ، وليس تكليف لأجل المشقة ، أو لأجل التعويض، وإن كان يقع من الانسان مشقة وكلفة يؤجر عليها كما قال تعالى : ((ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطأ يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾[٢] والأجر على قدر المشقة كما قال النبي ﷺ لعائشة : ((أجرك على قدر نصبك)) [٣] فليس هذا هو المقصود الأول بالأمر الشرعي ، وإنما وقع ضمناً وتبعاً لأسباب أخرى . فإذا ما أدرك العبد هذه الحاجة اشتد تعلقه بالله واشتدت محبته لربه ، فأصبح لايرى إلا إياه ، ولا يدعوه أحداً غيره ولا يتوجه إلى ما سواه ، وبهذا يكون تحقيق التوحيد .

الثاني : أن العباد ينعمون بمحبة ربهم ، وتمام ذلك برؤيته في الآخرة ، وهذا كمال النعيم الذي أعطوه كما ورد في الأثر[٤] ، بل يكون هذا أحب إليهم من كل نعيم ، وتلذذهم به أعظم من التنعم والتلذذ بغيره ، على خلاف ما يزعمه طوائف ضلت الحق في هذه المسألة فقالوا إن التنعم والتلذذ لايحصل إلا بالمخلوق من مأكول ومشروب ومنكوح ونحوه.

وهذان الأصلان ثابتان في الكتاب والسنة وعليهما أهل العلم والإيمان ، وهذه اللذة من أعظم ثمرات تحقيق التوحيد التي ينالها أهل التوحيد ، وقد يفتح للعبد شيئاً من ذلك في الدنيا يجد لذة

---

(١) نفس المصدر السابق ٢٢/١

(٢) سورة التوبة ١٢٠ .

(٣) رواه البخاري في كتاب الحج (ح ١٧٨٧) ومسلم في كتاب الحج (ح ١٢١١) ولفظ البخاري : قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِي اللهُ عَنْهَا : يَا رَسُولَ الله ؛ يَصْدُرُ النَّاسُ بِنُسُكَيْنِ وَأَصْدُرُ بِنُسُكٍ ؟ . فَقِيلَ لَهَا : ((انْتَظِرِي فَإِذَا طَهُرْتِ فَاخْرُجِي إِلَى التَّنْعِيمِ فَأَهِلِّي ثُمَّ ائْتِينَا بِمَكَانِ كَذَا وَلَكِنَّهَا عَلَى قَدْرِ نَفَقَتِكِ أَوْ نَصَبِكِ))

(٤) كما في الدعاء المأثور عن النبي ﷺ ((اللهم إني أسألك لذة النظر إلى وجهك ..)) وكما في حديث صهيب في ذكر تنعم المؤمنين برؤية ربهم في الجنة وفيه : ((فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ، وهو الزيادة)) مسلم

بمناجاة ربه والخضوع له ، وهذه منزلة قل من يدركها . [١] وقد أشار إلى ذلك النبي ﷺ في قوله : ((ذاق حلاوة الإيمان من رضي با لله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً)) [٢] .

الوجه الثالث :

إن مما يعين على تحقيق التوحيد : اعتقاد العبد (أن المخلوق ليس عنده له نفع ولا ضر ، ولا عطاء ولا منع ، ولا هدى ولا ضلال ، ولا نصر ولا خذلان ، ولا خفض ولا رفع ، ولا عز ولا ذل ، بل ربه هو الذي خلقه ورزقه وبصره وهداه وأسبغ عليه نعمه ، فإذا مسه ا لله بضر فلا يكشفه عنه غيره ، وإذا أصابه بنعمة لم يرفعها عنه سواه ، وأما العبد فلا ينفعه ولا يضره إلا بإذن ا لله ...

وهذا الوجه يقتضى التوكل على ا لله والاستعانة والاستغاثة به ، كما يقتضى دعاءه ومسألته دون ما سواه ، ويقتضي أيضاً محبة ا لله وعبادته لإحسانه إلى عبده وإسباغ نعمه عليه وحاجته إليه في هذه النعم ...

والقرآن مملوء من ذكر حاجة العباد إلى ا لله دون من سواه .) [٣]

الوجه الرابع :

ومما يعين على تحقيق العبودية لله جل وعلا اعتقاد العبد أن التعلق بما سوى ا لله مضرة عليه إذا أخذ منه القدر الزائد على حاجته في عبادة ا لله ، فإنه إذا نال من الطعام والشراب أو النكاح أو اللباس فوق حاجته ضره وأهلكه ، ولهذا فإن المشركين الذين تعلقوا بمعبوداتهم يعذبون يوم القيامة بها ، كما جاء في الحديث : ((يقول ا لله يوم القيامة: يابن آدم أليس عدلاً مني أن أولي كل رجل منكم ما كان يتولاه في الدنيا))[٤] وأصل هذا التولي الحب ، فكل من أحب شيءاً دون ا لله ولاه ا لله يوم القيامة ما كان تولاه وأصلاه جهنم وساءت مصيراً ، فكل من أحب شيئاً لغير ا لله فلا بد أن يضره محبوبه ، ويكون ذلك سبباً لعذابه ، ولهذا فالذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في

---

(١) انظر الفتاوى ١/٢٥-٢٧

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان (ح ٣٤) والترمذي في كتاب الإيمان (ح٢٦٢٣) ولفظه ((ذاق طعم الإيمان ...))

(٣) الفتاوى ١/٢٧-٢٨.

(٤) رواه

سبيل الله يمثل لأحدهم كنزه يوم القيامة شجاع أقرع يأخذ بلهزمته يوق : أنا كنزك ، أنا مالك.)(١)

الوجه الخامس :

أن اعتماده على المخلوق وتوكله عليه يوجب الضرر من جهته ، فإنه يخذله من تلك الجهة ، وهذا معلوم بالاعتبار والاستقراء .. قال سبحانه :﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً ، كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾(٢).(٣)

الوجه السادس:

أن الله سبحانه وتعالى غني كريم رحيم يريد بعباده الخير ويكشف الضر لا لجلب منفعة إليه من العبد ، و لا لدفع مضرة بل رحمة وإحساناً . أما العبادة فلا يتصور أن يعملوا إلا لحظوظهم ومنافعهم ، فإن أحسنوا فلغرض يريدونه أو لمنفعة يرجونها ، فهم دائماً يطلبون العوض وإدارك حاجاتهم بك إلا أن يكون العمل لله ، ولذلك خلقهم الله وقسم بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفع بعضهم فوق بعض ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ، فإذا تبين هذا ظهر أن المخلوق لايقصد منفعتك بالقصد الأول ؛ بل يقصد منفعته بك وإن كان ذلك يكون فيه ضرر عليك إن لم يراع العدل فصاحب الحاجة أعمى ، فإذا ما دعوته ورجوته فقد دعوت ورجوت من ضره أقرب من نفعه . والرب سبحانه يريدك لك ولمنفعتك بك ، لا لينتفع بك .

ومن عرف هذا المعنى منعه ذلك أن يرجو المخلوق أو يطلب منه منفعة له ، ولم يحمله ذلك على جفوة الناس وترك الإحسان إليهم واحتمال الأذى منهم بل يحسن إليهم لله لا لرجائهم ولا لخوف منهم ، بل يخاف الله في الناس ولا يخاف الناس في الله ويرجو الله في الناس ولا يرجو الناس في الله فيكون كمن قال الله فيه : ﴿وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى وما لأحدٍ عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴾(٤) وقال فيهم : ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاءاً ولا شكوراً ﴾(٥)(٦)

وبهذا الاعتقاد والعمل يكون محققاً للتوحيد .

---

(١) الفتاوى ٢٨/١—٢٩ .

(٢) سورة مريم آية ٨١ ، ٨٢ .

(٣) انظر الفتاوى ٢٩/١ .

(٤) سورة الليل ١٧-٢٠ .

(٥) سورة الإنسان آية ٩ .

(٦) انظر الفتاوى ٢٩/١-٣١ .

الوجـه السـابع :

أن الخلـق لـو اجتهـدوا على أن ينفعـوا العبـد لم ينفعـوه إلا بشـيء قـد كتبـه الله لـه، ولـو اجتهـدوا على أن يضـروه لم يضـروه إلا بشـيء قـد كتبـه الله عليه ، فـإذا مـا اعتقـد العبـد ذلـك لم يعلـق رجـاءه بمخلـوق . قـال سـبحانه : ﴿ أمـن هـذا الـذي هـو جنـد لكـم ينصركـم مـن دون الرحمـن إن الكـافرون إلا في غـرور، أمـن هـذا الـذي يرزقكـم إن أمسـك رزقـه بـل لجـوا في عتـو ونفـور ﴾ [١] والنصـر يتضمـن دفـع الضـر والـرزق يتضمـن حصـول المنفعـة ، قـال سـبحانه : ﴿ فليعبـدوا رب هـذا البيـت الـذي أطعمهـم مـن جـوع وآمنهـم مـن خـوف﴾ وقـال تعـالى : ﴿أولم نمكن لهم حرمـاً آمنـا يجبى إليـه ثمـرات كـل شـيء رزقـاً مـن لدنـا ﴾[٢] [٣] .

الخلاصـة

ونخلص مما سبق أن الأمر الثاني بتبين به كيفية تحقيق التوحيد ، هو تحقيـق العبـادة الـذي عليـه مدار قبولها وردها وبالتالي سعادة العباد أو شقوتهم . وأن تحقيقها يتبين بعدة أمور إذا توفرت جميعها صحيحة وفق ما جاء به الشرع كانت عبادة صحيحة كاملة وإلا فلا .

كما أن تحقيقها يتوقف على أن يكون العبد متوجهاً في كل أموره إلى ربه عز وجل قـاصداً لـه دون غيره من المخلوقات مؤمناً أنه لانفع ولا ضر إلا من الله وحـده ، وأن الله خلقـه لأجـل عبادتـه التي تتحقق هي الأخرى بالأنابة إلى الله ومحبته والإخلاص له وإظهار الحاجة إليه وحده دون غـيره ، موقناً أن الله وحده هو الذي بيده مقـاليد الأمـور ، وأنـه هـو الـذي يصرفهـا كيـف يشـاء ؛ ليـس للمخلوقين فيه من ذلك شيء ، فلا يخرجون عن إرادته وقدرتـه ، موقنـاً كذلـك أن تعلقـه بربـه هـو الطريق الواضح لسعادته، وأن تعلقه بغير ربه هو المضرة الآجلة والعاجلة سواء كان هـذا التعلق بحي أو ميت أو جماد ؛ لأن التعلق بهذه الأشياء والركون إليها فيه مضرته وشقاؤه من حيث تصور النفع؛ لأنه ترك الغني الحميد الرحيم بعباده والتجأ إلى من لاينفـع إلا لجلـب نفعـه لنفسـه ، أو دفـع المضـرة عنها. بل إنه من ضعف اليقين الاعتماد على غيرهمن لو اجتمـع أهـل الأرض والسـماء على مضـرة أحد لا يضرونه إلا بإذن الله ، ولو اجتمعوا على نفعه لاينفعونه إلا بإذن الله .

فإذا حقق العبد هذا وطبقه قولاً وسلوكاً حقق العبادة والتوحيد ، الذي هو مدار الأمر كله .

---

(١) سـورة الملـك آيـة ٢٠ ، ٢١ .

(٢) سـورة القصـص آيـة ٥٧ .

(٣) انظـر الفتـاوى ١/٣١-٣٢ .

النوع الثاني تخليصه من البدع

إن تحصين القلب والأعمال والاعتقادات من البدع صغيرها وكبيرها من أهم ما يسموا بالعبد إلى تحقيق التوحيد ويوصله إليه ، والوقوع في شيء من ذلك من أهم ما يعمل على الإخلال به ، ولذا فإنه يجب على العبد أن يعبد الله بما شرع ، فلا يتقرب إليه إلا بما يحب ، وليتحر ما يريده الله من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة ، ولا يغتر بما يحصل لبعض من خرج عن السنة - بفعل عبادات غير مشروعة - من أحوال حاصلة ومكاشفات وكرامات ونحوها ، فإن هذا يكون في الغالب من تزيين العمل الباطل عقاباً للفاعل على فعله والعياذ بالله ، فيظن أنه على هدى بينما هو في الحقيقة في ظلال مبين .

وإذا أصر العبد على ترك ما أمر الله به من اتباع السنة وانغمس في البدع والمحدثات ووقع في فعل ما نهى الله عنه ، فإنه قد يعاقب بسلب فعل الواجبات حتى يصير فاسقاً أو داعياً إلى بدعة ، وإن أصر على الكبائر فقد يخاف عليه أن يسلب الإيمان بالكلية ، فإن البدع لاتزال تخرج الانسان من صغير إلى كبير حتى تخرجه إلى الإلحاد والزندقة ، كما وقع لكثير من العباد وأصحاب المقالات ونحوهم [(١)]

ومن المعلوم أن الأعمال التي يكون فيها مخالفة للسنة أعمال غير محمودة مثلها مثل الأموال المكتسبة من غير طريق شرعي ، إن لم يتداركه الله ويمن عليه بتوبة نصوح وإلا كانت تلك الأموال ونحوها سبب لضرر يحصل له في دينه ودنياه. [(٢)]

تعريف البدعة

البدعة في اللغة : (البَدْعُ : إحداث شيء لم يكن له من قبل خلق ولا ذكر ولا معرفة ، والله بديع السموات والأرض ، ابتدعهما و لم يكونا قبل ذلك شيئاً يتوهمهما متوهم ، وبدع الخلق.

والبدع الشيء الذي يكون أولاً في كل أمر كما قال تعالى : ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل ﴾[(٣)] أي لست بأول مرسل ...

---

(١) انظر الفتاوى ٣٠٥/٢٢ - ٣٠٦ ، ١٩٥/٢٠ .

(٢) انظر المصدر السابق .

(٣) سورة الأحقاف ٩ .

والبدعة : اسم ما ابتدع من الدين وغيره .. و(ما استحدث بعد رسول الله ﷺ من أهواء وأعمال ويجمع على البَدَعُ)[١]

وفي جمهرة اللغة : (كل من أحدث شيئاً فقد ابتدعه ، والاسم البدعة ، والجمع البدع)[٢] .

و (أبْدَعْتُ الشيء قولاً وفعلاً ، إذا ابتدأته لا عن سابق مثال ...)[٣] .

وأما تعريف البدعة في الاصطلاح : فمما سبق من تعريفها في اللغة نستطيع القول بأن معناها اللغوي المذكور ينطبق على معناها الشرعي ، لأنها كما سبق : إحداث في دين الله وابتداء أشياء في الشرع لم تكن ولا دليل يدل عليها ، بل هو اختراع يضاهي المشروع بما ليس له ذكر ، وبما ليس عند فاعله معرفة ولا برهان ، (فإن جميع البدع إنما هي رأي على غير أصل)[٤] .

فقد عرفها شيخ الاسلام – رحمه الله تعالى- بأنها (جميع ما خالف الكتاب والسنة أو إجماع سلف الأمة من الاعتقادات والعبادات ؛كأقوال الخوارج والروافض والجهمية ، وكالذين يتعبدون بالرقص والغناء في المساجد ، والذين يتعبدون بحلق اللحى وأكل الحشيشة ، وأنواع ذلك من البدع التي يتعبد بها طوائف من المخالفين للكتاب والسنة .[٥]

وبعد ذكرالبدعة في الشرع يجدر بنا أن نبين ماهي السنة فإن الشيء بالشيء يذكر ، وبضدها تتبين الأشياء وقبل بيان معناها في الاصطلاح أذكر معنى السنة في اللغة فأقول :

---

(١) العين ٢/٥٤-٥٥ .

(٢) جمهرة اللغة ١/٢٤٥ .

(٣) معجم مقاييس اللغة ١/٢٠٩-٢١٠ .

(٤) الاعتصام ١/٩٩ .

(٥) الفتاوى ١٨/٣٤٦ . وعرفها الشاطبي ـ رحمه الله تعالى ـ بأنها : "طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية ، يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه وتعالى " قال : " هذا على رأي من لا يدخل العادات في معنى البدعة ، وإنما يخصها بالعبادات ، وأما على رأي من أدخل الأعمال العادية في معنى البدعة فيقول : " البدعة طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية ، يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية " الاعتصام ١/٣٧ ، ثم ذكر محترزات التعريفين والفرق بينهما .

السنة في اللغة تطلق ويراد بها الطريقة ، كما يراد بها السير على نهج الطريق ومحجته ووجهته الصحيحة ، وقد تطلق ويراد بها السيرة حسنة كانت أو قبيحة[١]

وأما السنة في الاصطلاح الشرعي فالذي يعنينا هنا هو مايقابل البدعة عند الاطلاق فإنه يقصد بها عموم الشريعة والدين وما ورد عن ا لله ورسوله أو عن صحابته الكرام بأخبار صحيحة . [٢] قال شيخ الاسلام - رحمه ا لله - (السنة هي ما قام الدليل الشرعي عليه بأنه طاعة لله ورسوله ، سواء فعله رسول ا لله ﷺ أو فعل على زمانه أو لم يفعله ، ولم يفعل على زمانه لعدم المقتضي حينئذ لفعله ، أو وجود المانع منه ، فإنه إذا ثبت أنه أمر به أو استحبه فهو سنة ، كما أمر بإجلاء اليهود والنصارى من جزيرة العرب.)[٣] ونحو ذلك ، فكل ما دل الدليل الشرعي عليه من أنه أمر به أمر إيجاب أو استحباب فهو من الدين الذي شرعه ا لله ، وإن تنازع أولوا الأمر في بعض ذلك . فسنة الخلفاء الراشدين هي من الدين الذي أمر ا لله به ورسوله وعليه أدلة شرعية ليس هذا موضع تفصيلها[٤]

وهذه هي السنة التي يحمد أهلها ويذم من خالفها سواء كانت في أمور الإعتقادات أو أمور العبادات أو سائر أمور الدين . [٥]

وقد تطلق السنة ويراد بها معان أخرى غير ماذكرت لكن ليس لها تعلق بهذا الموضوع .

أنواع البدع

ذكر شيخ الإسلام أن (البدع نوعان : نوع في الأقوال والاعتقادات ، ونوع في الأفعال والعبادات ، وهذا الثاني يتضمن الأول كما أن الأول يدعوا إلى الثاني .

فالمنتسبون إلى العلم والنظر وما يتبع ذلك يخاف عليهم إذا لم يعتصموا بالكتاب والسنة من القسم الأول . والمنتسبون إلى العبادة والنظر والإرادة وما يتبع ذلك يخاف

---

(١) انظر لسان العرب ٢٢٥/١٣-٢٢٦ مادة سنن وانظر معجم مقاييس اللغة ٦٠/٣-٦١ .

(٢) انظر الفتاوى ٥٤٠/٢٢ .

(٣) الفتاوى ٣١٧/٢١-٣١٨ . وانظر الفتاوى ١٠٨/٤ .

(٤) انظر الفتاوى ١٠٨/٤ .

(٥) انظر الفتاوى ٣٧٨/٣ .

عليهم إذا لم يعتصموا بالكتاب والسنة من القسم الثاني . وقد أمرنا الله أن نقول في كل صلاة : ﴿اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾آمين

وصح عن رسول الله ﷺ أنه قال : ((اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون))[١] قال سفيان بن عيينة : كانوا يقولون من فسد من العلماء ففيه شبه من اليهود ، ومن فسد من العباد ففيه شبه من النصارى ، وكان السلف يقولون : احذروا فتنة العالم الفاجر ، والعابد الجاهل ، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون ، فطالب العلم إن لم يقترن بطلبه فعل مايجب عليه وترك ما يحرم عليه من الاعتصام بالكتاب والسنة ، وإلا وقع في الضلال .

وأهل الإرادة إن لم يقترن بإرادتهم طلب العلم الواجب عليهم من الكتاب والسنة والاعتصام بهما وإلا وقعوا في الضلال والبغي ، ولو اعتصم رجل بالعلم الشرعي من غير عمل بالواجب كان غاوياً ، وإذا اعتصم بالعبادة الشرعية من غير علم بالواجب كان ضالاً ، والضلال سمة النصارى والبغي سمة اليهود .. ولهذا تجد من انحرف عن الشريعة في الأمر والنهي من أهل الإرادة والعبادة والسلوك والطريق ينتهون إلى الفناء الذي لايميزون فيه بين المأمور والمحظور ، فيكونون فيه متبعين أهوائهم ، وهذا مآل أهل البدع ، كما تجد من انحرف عن الشريعة من الجبر والنفي والإثبات من أهل العلم والنظر والكلام والبحث ينتهي أمرهم إلى الشك والحيرة ، كما ينتهي الأولون إلى الشطح والطامات ، فهؤلاء لايصدقون بالحق وأولئك يصدقون بالباطل ، وإنما يتحقق الدين والتوحيد بتصديق الرسول ﷺ في كل ما أخبر ، وبطاعته في كل ما أمر ظاهراً وباطناً من المعارف والأحوال القلبية وفي الأقوال والأعمال الظاهرة).[٢] ومن المعلوم أن من وقع في هذا فهو أبعد ما يكون عن التوحيد ، فكيف بتحقيقه .

---

(١) رواه الترمذي في التفسير (ح٢٩٥٣، ٢٩٥٤) عن عدي بن حاتم ، وقال : هذا حديث حسن غريب . ورواه أحمد ٣٧٨/٤-٣٧٩ ، ٣١٠/٦-٣١١ ، وقال أحمد شاكر :في تخريجه لتفسير الطبري : "رجاله رجال الصحيح" ، (ح١٩٨) وقال ابن حجر في الفتح ".. ورواه ابن مردويه بإسناد حسن " وصححه ابن حبان في موراد الظمآن (ح١٧١٥ ، ٢٢٧٩) . وكذا الألباني في تخريج أحاديث الطحاوية انظر ص٥٩٤ .

(٢) الفتاوى ٣٠٧/٢٢ - ٣٠٨ . وانظر الفتاوى أيضاً ١٩٥/٢٠ .

فيلزم من هذا تخليص التوحيد من كلا نوعي البدع ، سواء كانت في الأقوال والاعتقادات ، أو كانت في الأفعال والعبادات ، وبدون ذلك لن يتم تحقيق التوحيد.

أما تنوع البدع من حيث الحكم ، فتتنوع إلى نوعين بدع مكفرة ، وبدع غير مكفرة ، وكل نوع يندرج تحته أنواع تختلف في عظمها وقبح فعلها ، وبين صغرها بالنسبة إلى ماهو أكبر منها ، وإلا فكلها بدع محرمة عظيمة لأن فيها تشريع مالم يشرعه الله ورسوله ، واتهام لله ولرسوله بعدم إكمال الشريعة .(١)

وقد توسع شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - والعلماء غيره في دراسة هذه الأنواع (٢) وذكروا فيها التفاصيل الكثيرة (٣) التي لايتطلب المقام بسطها ههنا ، سواء كانت في الاعتقاد أوكانت في الأفعال ، إذ الغرض هنا هو الاشارة إلى ما يتحقق به التوحيد من امتثال الطاعات واجتناب المعاصي .

أسبا البدع وكيفية التحصن منها

قد بين شيخ الاسلام - رحمه الله تعالى - أن الجهل واتباع الهوى هما سبب نشأة البدع والضلال ، وأن كل مبتدع وكل بدعة إنما نشأت لما تخلف العلم الشرعي الصحيح وحل محله الجهل القبيح ، وزاد ذلك اتساعاً وانغماساً في البدع وحبها اتباع كثير من المبتدعة لأهوائهم ، ونبذهم للدليل الصحيح .

فبين - رحمه الله - أن العبد مطالب بالعلم با لله جل شأنه ، ومطالب بمعرفة ما أمر به وشرعه ، ليتمكن من عبادته على الوجه الصحيح ، كما أنه لابد من الاتباع والتقيد بما ورد به النص ، فإن الانسان إما أن يعبد الله على بصيرة وعلم فيكون على هدى وصواب ، وإما أن يعبده على جهل فيكون على ضلال ، وإما أن يعبده على ما تهواه

---

(١) انظر الفتاوى ٤/٤٢٥ ، ٣/٣٤٨ ، ١٢/٤٨٥-٤٨٧ ، ٢٨/٤٧٣-٤٧٥ ، والاعتصام ٢/٣٧.

(٢) انظر اقتضاء الصراط المستقيم المجلد الأول والفتاوى ٢٠/١٠٣-١٠٥ ، بل انظر ٣٦/٦٠ من الفتاوى.

(٣) انظر الاعتصام للشاطبي (ص٣٧ وما بعدها) وانظر كتب السنة ، البدعو والنهي عن لابن وضاح القرطبي وأحكام البدع للطرطوشي ، وانظر البدعة وأحكامها للغامدي وغيرها كثير .

نفسه وتملي به رغباته ، ولهذا ينبغي للعبد أن يبذل جهده في تحرى الحق والصواب في عبادته لربه حتى تكون على الوجه الصحيح المقبول.(١)

ويكون ذلك بمعرفة الله المعرفة الصحيحة الموجبة للخوف منه والإلتجاء إليه ومحبته ، فإن من عرف الله خافه واتقاه واتبع رضاه ، وعمل بما أمر به وانتهى عما نهى عنه رجاء ما عنده ، "ولذلك قال عمر بن الخطاب ﷺ نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه ".(٢)

وذلك يرجع إلى تحقيق قوله تعالى : ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ وقوله : ﴿ وتواصو بالحق وتواصو بالصبر ﴾ (٣) وقوله : ﴿إن المجرمين في ضلال وسعر ﴾ (٤)وقوله : ﴿ فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكى ، ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾(٥) الآية"(٦)

وهذا ما قرره شيخ الاسلام – رحمه الله – بقوله : "إن الخير بمعرفة الحق واتباعه في العلم والعمل جميعا ، فالعلم بالحق يوجب اتباعة والعمل به إلا لمعارض راجح كاتباع الهوى والاستكبار ونحو ذلك كما قال تعالى : ﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لايؤمنوا به وإن يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلاً ، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ﴾(٧)

---

(١) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ٥٨٤/٢-٥٨٥ .

(٢) مسند الفاروق ٦٨١/٢ . وأورده صاحب كنز العمال وقال : " أورده أبو عبيد في الغريب ولم يسق إسناده ، وقد ذكر المتأخرون من الحفاظ أنهم لم يقفوا على إسناده ، وإنما ذكرته هنا ، وإن كان ليس من شرط الكتاب لشهرته ولأنبه على أن أبا عبيد أورده ، وأبو عبيد من الصدر الأول قريب العهد ، أدرك أتباع التابعين ، والظاهر أنه وصل إليه إسناده ، ولم أذكر في هذا الكتاب شيئاً لم أقف على إسناده سوى هذا فقط " كنز العمال ١٣/(ح ٣٧١٤٦) .

(٣) سورة العصر .

(٤) سورة القمر ٤٧ .

(٥) سورة طه ١٢٣-١٢٥ .

(٦) انظر الفتاوى ٢٤٢/١٥ .

(٧) سورة الأعراف ١٤٦ .

فإذا سلم القلب من المرض أحب ما ينفعه من العلم النافع والعمل الصالح، كما أن الجسد إذا اندفع عنه المرض أحب ما ينفعه من الطعام والشراب ، فكل واحد من وجود المقتضي وعدم الدافع سبب للآخر ، وذلك سبب لصلاح حال الانسان ، وضدهما سبب لضد ذلك ، فإذا ضعف العلم غلبه الهوى ، وإن وجد العلم والهوى وهما المقتضي والدافع فالحكم للغالب" (١)

فمنشأ البدع إما من اتباع الهوى وهو من أعظمها (٢) ، أو من الجهل بالحق، أو منهما جميعاً ، كمايكون من عدم تعظيم كتاب ا لله وسنة رسوله ﷺ . وتحت هذه الأنواع تندرج أنواع عديدة لاحصر لها كالاستكبار عن الحق والتعصب لطائفة أو مذهب أو غيره ، والتقليد الأعمى ، وميل النفوس إلى حب البدع والتعلق بها أكثر من ميلها إلى اتباع الحق ، وبالبعد منها والتخلص من شوائبها بتحقيق التوحيد وبوجودها أو وجود بعضها يتخلف تحقيق التوحيد بحسب ذلك .

الأمر بلزوم السنة (٣)

يتحقق التوحيد بالبعد عن البدع وبالعمل المضاد للجهل كما سبق بيانه ، كما

---

(١) الفتاوى ٢٤٢/١٥ بتصرف .

(٢) انظر جامع العلوم والحكم ٣٩٧/٢ .

(٣) ليس المقصود بلزوم السنة ما يتبادر للذهن من الأحاديث المروية عن النبي ﷺ إنما المقصود بذلك التمسك بالدين كاملاً والوقوف عند ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة . وقد عقد شيخ الاسلام – رحمه الله – لذلك عدة فصول انظر مثلا : الفتاوى ٧٦/١٩-١٢٢ تحدث فيها عن وجوب لزوم السنة والاعتصام بها ، وأورد النصوص الدالة على ذلك مستشهداً بها ومبيناً أن منشأ البدع من العدول عنهما إلى غيرهما ، كما بين وجوب الاجتماع على السنة والنهي عن الافتراق ، ووجوب اتباع الرسل وأنهم قد جاؤا بالتوحيد كلهم ، كما بين أن الاجتهاد في المسائل لايوجب التفرق ؛ لأن لكل مجتهد نصيب من اجتهاده وإن كان اجتهاده أدى به إلى فعل مالم يصح به الشرع أو قد دل الدليل على خلافة كما فعل عثمان ﷺ في منى ونحو ذلك . وانظر في ذلك أيضاً الاستقامة ٤/١ ، ٦-١٠ ، ١٤-١٦ ، ٢٠-٢٤ . ٩٥-٩٨ . ودرء التعارض ٤٨/١-٥٠ ، ٥٤-٥٩ . ٥/٥ ، ٦ ، ٢٨٤ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ .

وحيث أن موضوعنا هنا في بيان كيفية تخليص التوحيد مما يناقضه أو يؤثر فيه من البدع ، اقتصرت على ذكر مايبين ذلك دون الخوض في تفاصيل البدع وأحكامها ، فإن هذا له مضانه ، حيث كتب فيها كتباً واسعة ، وقد تحدث شيخ الاسلام عنها في مواضع من كتبه كالفتاوى المجلد الثالث ، واقتضاء الصراط المستقيم المجلد الثاني ، والاستقامة وغيرها .

يتحقق أيضاً بلزوم السنة بالأقوال والأفعال والاعتقادات .

وقد وضح ذلك شيخ الاسلام - رحمه الله تعالى - فبين أنه لما كان منشأ الضلال من اتباع الهوى أو من الجهل بالحق أو غير ذلك ، أمر الله عباده باتباع الكتاب والسنة والاعتصام بهما ، وبين أنهما حبله المتين ؛ لأن "النجاة والسعادة في اتباعهما والشقاء في مخالفتهما ، قال الله تعالى : ﴿قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾ [(١)] قال ابن عباس ﷺ تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لايضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ، ثم قرأ هذه الآية .[(٢)]

وقال جل شأنه : ﴿ فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[(٣)] وقال جل وعلا : ﴿ إن الذين يجادلون في آياتنا بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه ، فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير ﴾[(٤)] ففي هذه الآية بيان أنه لايجوز أن يعارض كتاب الله بغير كتاب الله ، لابفعل أحد ولا أمره ، ولا دولة ولا سياسة ، فإنه حال الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم..[(٥)]

كما بين - رحمه الله - في مواضع عديدة وجوب الاعتصام بالكتاب والسنة الذين هما الحصن المنيع للتوحيد حيث أنهما يمنعان صاحبها من الوقوع في البدع المنافية للتوحيد أو لكماله المستحب ، مستشهداً - رحمه الله - بنصوص من الكتاب والسنة ، ومن ذلك قوله (سبحانه : ﴿ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾[(٦)] وقوله : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾ [(٧)] فأمر بالاعتصام بحبل الله وهو كتابه كما قال النبي ﷺ : ((إن

---

(١) سورة طه ١٢٣-١٢٦.
(٢) انظر تفسير الطبري ١٤٧/١٦ ، والدر المنثور ٣١١/٤ .
(٣) سورة البقرة ٣٨ .
(٤) سورة غافر ٥٦ .
(٥) انظر الفتاوى ٧٦/١٩-٧٨ .
(٦) سورة ال عمران ١٠١ .
(٧) سورة ال عمران ١٠٣ .

هذا القرآن حبل ممدود طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسكوا به فإنكم لن تضلوا ما تمسكتم به.)) [١] وقال أيضاً في الحديث الآخر : ((وهو حبل الله المتين))[٢] [٣] .

وقد أمر الله بطاعة رسوله ﷺ في نحو من أربعين موضعاً كقوله : ﴿وأطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لايحب الكافرين﴾ [٤] وغيرها كثير من النصوص التي توجب طاعة الرسول ﷺ واتباعه وإن لم نجد ماقاله منصوصاً بعينه في الكتاب، كما أن تلك الآيات المتقدمة توجب اتباع الكتاب وإن لم نجد مافي الكتاب منصوصاً بعينه في السنة ؛ لأن اتباع أحدهما اتباعاً للآخر ولا يمكن أن يختلفا البتة.

وأما الأحاديث الواردة في وجوب اتباع الكتاب والسنة فكثيرة جداً منها قوله ﷺ : ((لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول : بيننا وبينكم هذا القرآن فما وجدنا فيه من حلال حللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا وإنه مثل القرآن أو أعظم))[٥] [٦]

كما جاءت النصوص البينة في أن الله جل شأنه "قد أكمل لنا الدين وعرَّفَ النبي ﷺ الأمة جميع ما يحتاجون إليه من دينهم .

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (الإحسان ح ١٢٢) والطبراني في الكبير ١٨٨/٢٢ وعبد بن حميد كما في المنتخب (ح٤٨٢) ، وأورده الهيثمي في المجمع ١٦٩/١ وقال : " رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح " ، وأورده المنذري في الترغيب والترهيب وقال الألباني : " اسناده جيد " صحيح الترغيب والترهيب (ح٣٥) .

(٢) رواه مسلم في فضائل الصحابة (ح٢٤٠٨) ولفظه : ((إني تارك فيكم ثقلين أحدهما كتاب الله وهو حبل الله المتين)) ورواه ابن حبان (الإحسان ح١٢٣) ولفظه : ((إني تارك فيكم كتاب الله هو حبل الله من اتبعه كان على الهدى ومن تركه كان على الضلالة)) .

(٣) الفتاوى ٧٩/١٩-٨٠ .

(٤) سورة ال عمران ٣٢ .

(٥) رواه أبو داود في السنة (ح٤٦٠٥) والترمذي في العلم (ح٢٦٦٣) وابن ماجه في المقدمة (ح١٣) .

(٦) انظر الفتاوى ٨٢/١٩-٨٧ .

قال ﷺ : ((تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لايزيغ عنها إلا هالك))[١]

وقال ﷺ : ((إنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ))[٢].

فسنة النبي ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين تسع كل مختلف عند اختلافه ، في أي مسألة من مسائل الدين ، ولو لم يكن الأمر كذلك لم يجز الأمر بذلك . قال تعالى : ﴿وإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾[٣]

وكان ﷺ يقول في خطبته : ((شر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة)) [٤]

وكان ابن مسعود ﷺ يخطب بنحو ذلك كل خميس ويقول : (إنكم سَتُحْدِثُون ويُحْدَث لكم) [٥] ...) [٦]

كما بين - رحمه الله - أن الله جل شأنه قد أكمل لنا الدين وأتم علينا نعمه بخاتم رسله صلوات ربي وسلامه عليه ، فقد أتم به الدين ورضيه لنا ، وأمرنا باتباع صراطه المستقيم ، ونهانا عن اتباع السبل ، وأمرنا أن لا نكون كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات . وأخبر سبحانه عن الذين فرقوا دينهم وابتدعوا فيه إما بزيادة أو نقصان

---

(١) رواه أبو داود في السنة (ح٤٦٠٧) والترمذي في العلم (ح٢٦٧٦) وقال : هذا حديث حسن صحيح . وابن ماجة في المقدمة (ح ٤٣ ، ٤٤) والحاكم ١/٩٥-٩٦ وقال حديث صحيح على شرطهما وليس له علة. صححه ، والإمام أحمد في المسند ١٢٦/٤ ، ١٢٧ ، والبيهقي في السنن ٥٤١/٦ . وابن أبي عاصم في السنة (٣٣ ، ٤٨) وصححه .

(٢) رواه أبو داود ٣٨٠/٤-٣٨١ كتاب السنة باب لزوم السنة والترمذي كتاب العلم باب الأخذ بالسنة ١٤٩/٤ ، وابن ماجه في المقدمة باب في اتباع سنة الخلفاء المهديين ، والدارمي ٤٤/١ المقدمة باب اتباع السنة .

(٣) سورة النساء ٥٩ .

(٤) رواه مسلم في الجمعة (ح٨٦٧) والنسائي في صلاة العيدين (ح١٥٧٨) ، وابن ماجة المقدمة (ح٤٥) وأحمد ٣١٠/٣ .

(٥) رواه البخاري في الاعتصام بالسنة (ح٧٢٧٧)

(٦) انظر الاستقامة ٤/١-٥ .ودرء التعارض ٥٤-٥٦ ، ٧٣-٧٥ ، ٢٣٤-٢٣٥ .

ليسو منه ﷺ في شيء . وأمره وإيانا في غير موضع أن نتبع ما أنزل إلينا ، دون ماخالفه ، فقال : ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون ﴾[١]

فقال : ﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا ﴾ إلى قوله :﴿والذين يُمَسِّكُونَ بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لانضيع أجر المصلحين ﴾[٢] وقال مخاطباً النبي ﷺ : ﴿ واتبع ما يوحى إليك من ربك ﴾[٣] إلى غير ذلك من النصوص التي أجمع المسلمون على اتباعها ، وهذا مما لم يختلف المسلمون فيه جملة ؛ لكن قد يقع التنازع في تفصيله .

إلا أنه قد يكون من المتنازعين الجاهل في الدين فيقول بما لم يعلم فيقع في البدع من حيث لايشعر ، وقد يكون منهم من لايريد الحق بل يريد تشتيت المسلمين وتفريق كلمتهم كالمنافقين ومن دخل في الاسلام بغرض الكيدوالايقاع بأهله ،كما قال تعالى عنهم : ﴿لوخرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم ﴾[٤]

وقد يكون فيهم النفعي الذي لايريد طاعة ا لله ورسوله ، إنما يريد ما يلقاه من حطام الدنيا ، كما قال جل شأنه : ﴿ ياأيها الرسول لايحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواهم و لم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب أكالون للسحت سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ، يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ، ومن يرد ا لله فتنته فلن تملك له من ا لله شيئاً أولئك الذين لم يرد ا لله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾[٥] وكثيراً ما يضيع الحق بين هؤلاء وتنتشر البدع من طريقهم.[٦] وتكثر الاختلافات والتفرق ، فيصبحون شيعاً وأحزاباً ، عمدتهم في الباطن ليست على الكتاب والسنة

---

(١) سورة الاعراف ٣ .

(٢) سورة الاعراف ١٦٩-١٧٠ .

(٣) سورة الأحزاب ٢ .

(٤) سورة التوبة آية ٤٧ .

(٥) سورة المائدة ٤١ .

(٦) انظر الفتاوى ١٢٦/٢٥ وما بعدها . و ٣٨٢/٣٥ .

والإيمان ؛ ولكن على أصول ابتدعها شيوخهم، يعتمدون عليها في العقائد والصفات والقدر ونحوه ، فما ظنوا من القرآن يوافقه احتجوا به ، وما خالفها تأولوه ، ولهذا تجدهم احتجوا بالقرآن والحديث ولم يعتنوا بتحرير دلالتهما ، ولم يستقصوا ما في القرآن من ذلك المعنى ، والآيات التي تخالفهم يشرعون في تأويلها .[١]

وهؤلاء على خطر عظيم وضلال جسيم ، فيهم شبه من أهل الكتاب الذين يقولون : ﴿ إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ﴾[٢] فببدعتهم هذه انحرفوا تمام الانحراف عن تحقيق التوحيد الواجب ، فضلاً عن المندوب ، وبسبب فعلهم هذا عاقبهم الله بجزاءٍ من جنس عملهم ، فأعقبهم ظلمة في قلوبهم إلى يوم يلقونه حين ينالون العذاب العظيم والعياذ بالله مالم تتداركهم رحمه الله بالتوبة النصوح ، أو عفو الله جل شأنه .

(ولهذا كان السلف يقولون : الاعتصام بالسنة نجاة ، كما قال الإمام مالك رحمه الله تعالى : (السنة مثل سفينة نوح ، من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها هلك) وهذا حقٌ فإن سفينة نوح إنما ركبها من صدق المرسلين واتبعهم ، وأن من لم يركبها فقد كذب المرسلين ، واتباع السنة هو اتباع الرسالة التي جاءت من عند الله فتابعها بمنزلة من ركب مع نوح في السفينة باطناً وظاهراً ، والمتخلف عن اتباع الرسالة بمنزلة المتخلف عن اتباع نوح عليه السلام وركوب السفينة معه)[٣]

والمقصود هنا بيان وجوب التزام السنة والاعتصام بها وترك كل ما خالفها من أي شخص كان ؛ لأن مبدأ البدع من الطعن فيها كما طعن ابليس في أمر ربه، ومن اتباع الهوى كفعله أيضاً .[٤]

وبهذا يتبن أن اتباع الهوى والابتداع في الدين والابتعاد عن الكتاب والسنة من أهم ما يبعد الإنسان عن القيام بالتوحيد فضلاً عن تحقيقه .

كما أن من التزم بالكتاب والسنة واجتهد في إخلاص العمل الموافق للشرع يكون قد خلص التوحيد من عوالق البدع صغيرة كانت أو كبيرة ، ويتمثل هذا التخلص بأن يتبع

---

(١) انظر الفتاوى ٥٨/١٣ .

(٢) سورة المائدة آية ٤١ .

(٣) الفتاوى ١٣٧/٤ .

(٤) انظر الفتاوى ٣٥٠/٣ . وانظر أيضاً درء التعارض ١٤٦/١ .

من الحق (ماعلمه ، فمن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم كما قال تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً ، وإذاً لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً ولهديناهم صراطاً مستقيماً ﴾ (٢) ... وشواهد هذا كثيرة في الكتاب والسنة

وكذلك من أعرض عن اتباع الحق الذي يعلمه تبعاً لهواه فإن ذلك يورثه الجهل والضلال حتى يعمى قلبه عن الحق الواضح كما قال تعالى : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لايهدي القوم الفاسقين ﴾ (٣) وقال : ﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ﴾ (٤) ... ولهذا قال من قال من السلف : إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، وإن من عقوبة السيئة السيئة بعدها (٥) .

ذم البدع والتحذير منها

لقد خلق الله الخلق لعبادته ، وأسكنهم الأرض ليعمروها بطاعته ، وأرسل رسله ليرشدوا الناس إلى ما يحبه ويرضاه من الأقوال والأفعال ، ولكي يهتدوا بهديهم ويستنوا بسنتهم ، وأمر الله بطاعتهم أمر إيجاب وإلزام ، ونهى عن مخالفتهم وحذر من ذلك ، بل توعد من حاد عن نهج رسله وصراطه المستقيم ونهج عباده المتقين بالخلود في دركات الجحيم والعياذ بالله العظيم .

وقد ورد في القرآن الكريم ما يبين ذلك في آيات عديدة أذكر منها على سبيل المثال قوله تعالى : ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيراً ﴾ (٦)

---

(١) سورة محمد آية ١٧ .
(٢) سورة النساء آية ٦٦ .
(٣) سورة الصف آية ٥ .
(٤) سورة البقرة آية ١٠ .
(٥) الفتاوى ١٠/١٠-١١ .
(٦) سورة النساء آية ١١٥ .

قـال شيخ الاسـلام - رحمـه الله تعـالى - في تعقيبـه في بيـان معنـى قولـه تعـالى في كتابـه الكريـم : " .. : ﴿فلا وربـك لايؤمنـون حتـى يحكمـوك فيمـا شـجر بينهـم ثـم لايجـدوا في أنفسـهم حرجـاً ممـا قضيـت ويسـلموا تسـليماً﴾ [١] فكـل مـن خـرج عـن سـنة رسـول الله ﷺ وشريعته فقـد أقسـم الله بنفسـه المقدسـة أنـه لايؤمـن حتـى يرضـى بحكـم رسـول الله ﷺ في جميـع مـا يشـجر بينهـم مـن أمـور الديـن والدنيـا وحتـى لايبقـى في قلوبهـم حـرج مـن حكمـة ودلائل القـرآن علـى هـذا الأصـل كثيـرة " [٢]

والبدع على شتى أصنافها وألوانها من المنكرات المكروهة العظيمة المذمومة ، سواء بلغـت في الكراهة حد التحريم أو لم تبلغه ، وأهلها (شر من أهل المعاصي الشهوانية بالسنة والإجمـاع ، فـإن النبي ﷺ أمر بقتال الخوارج ونهى عن قتال أئمة الظلم ، وقال في الذي يشـرب الخمـر : ((لا تلعنـه فإنه يحب الله ورسوله))[٣] وقال في ذي الخويصرة ((يخرج من ضئضئ هذا أقوام يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين)) - وفي رواية : ((من الإسلام))[٤] - ((كمـا يمـرق السـهم مـن الرمية ، يحقر أحكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مـع قراءتهـم ، أينمـا لقيتموهـم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً عند الله لم قتلهـم يـوم القيامـة))[٥] ...)[٦]. فهـذه البـدع وأمثالهـا ممـا أحدث في دين الله ﷻ مخلة بالتوحيد ؛ بل قد تأتي على أصوله فتهدمه بالكلية ، ولهذا فهـي داخلـة في ذم النبي ﷺ كما في حديث (جابر ﷺ قال : ((كان رسول الله ﷺ إذا خـطب احمرت عينـاه ، وعـــلا صوتـــه ، واشـــتد غضبـــه ، حتـــى كأنـــه منـــذر جـــيش يقـــول :

(١) سـورة النسـاء آيـة ٦٥ .

(٢) الفتـــاوى ٤٧١/٢٨ .

(٣) أخرجـه البخـاري عـن عمـر بـن الخطـاب ﷺ في كتـاب الحـدود (ح ٦٧٨٠) ولفظـه عـن عمـر بـن الخطـاب أن رجلا على عهـد النبي ﷺ كـان اسمه عبدالله وكـان يلقـب حمارا وكـان يضحـك رسـول الله ﷺوكـان النـبي ﷺ قد جلـده في الشـراب فـأتي بـه يومـا فـأمر بـه فجلـد فقـال رجـل مـن القـوم اللهـم العنـه مـا أكثـر مـا يؤتـى بـه فقـال النبي ﷺ : ((لا تلعنـوه فـوالله مـا علمـت إنـه يحب الله ورسـوله)).

(٤) رواه البخـــاري في التوحيـــد (ح ٧٤٣٢) ومســـلم في الزكـــاة (ح ١٠٦٤) وأبـــو داود في الســـنة (ح ٤٧٦٤) والنسـائي في الزكـاة (ح٢٥٧٨).

(٥) رواه البخـاري في أحـاديث الأنبيـاء (ح ٣٣٤٤) وفي المغـــازي (ح ٤٣٥١) وفي غيرهـــا ومســـلم في الزكـــاة (ح ١٠٦٤)

(٦) الفتـــاوى ١٠٤/٢٠ .

صبحكم ومساكم ، ويقول : ((بعثت أنا والساعة كهاتين ــ ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى ــ ويقول : أما بعد ، فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة)) [١] وفي رواية النسائي : ((وكل ضلالة في النار))[٢]

وفيما رواه أيضاً في الصحيح عن عائشة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : ((من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد))[٣] وفي لفظ : في الصحيحين : ((من أحدث في أمرنا هذا ماليس منه فهو رد)) [٤]

وفي الحديث الصحيح الذي رواه أهل السنن عن العرباض بن سارية عن النبي ﷺ أنه قال : ((إنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي ، تمسكوا بها وعضوا عليه بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الامور فإن كل بدعة ضلالة .))[٥]

وهذه قاعدة دلت عليها السنة والإجماع مع مافي كتاب الله من الدلالة عليها أيضاً، قال الله تعالى : ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله ﴾ [٦] فمن ندب إلى شيء يتقرب به إلى الله ، أو أوجبه بقوله أو بفعله فقد اتخذ شريكاً لله شرع من الدين مالم يأذن به الله .) [٧]

وقد أنكر المسلمون في وقتهم على بعض أمراء بنى أمية الذين استحسنوا الأذان في العيدين وتقديم خطبتيهما على الصلاة أنكروا ذلك ؛ لأنه بدعة [٨] فكل فعل لم يرد بخصوصه الشرع ففعله منبعث من الاعتقاد بمزيته أو تخصيصة بفضلية دون غيره كيوم

---

(١) رواه الإمام مسلم ح (٨٦٧).

(٢) رواه النسائي في صلاة العيدين (ح١٥٧٨) من حديث جابر ، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (ح١٤٨٧).

(٣) رواه الإمام مسلم ح (١٧١٨).

(٤) رواه الإمام البخاري ح (٢٦٩٧) .ومسلم ح (١٧١٨) .

(٥) تقدم تخريجه قبل قليل ، وانظر الفهرس حرف التاء .

(٦) سورة الشورى ٢١ .

(٧) اقتضاء الصراط المستقيم ٥٧٨/٢-٥٧٩ .

(٨) اقتضاء الصرا ط المستقيم ٥٩٦/٢ . وانظر الفتاوى ٤٧٠/١١ .

الجمعة وصوم النصف من شعبان أو الاحتياط لرمضان بتقديم يوم عليه ونحو ذلك كله ملازم للاعتقاد ومنبعث منه و(هذه البدع وأمثالها مستلزمة قطعاً أو ظاهراً لفعل ما لا يجوز، فأقل أحوال المستلزم إن لم يكن محرماً أن يكون مكروهاً، وهذا المعنى سارٍ في سائر البدع المحدثة ، ثم هذا الاعتقاد يتبعه أحوال في القلب : من التعظيم والإجلال ، وتلك الأحوال أيضاً باطلة ، ليست من دين الله.)[1]

وعلى هذا فإن : (أصوله المستلزمة له لا يجوز أن تكون منقولة عن النبي ، إذ هو باطل ، وملزوم الباطل باطل ، كما أن لازم الحق حق ...)[2] وكل هذه الاعتقادات الفاسدة المتقدمة أو الملازمة للبدع مخلة بالتوحيد وقادحة فيه.

فتبين من هذا أن البدع تؤثر في التوحيد تأثيراً بليغاً بل إن تأثيرها فيه أشد من تأثير المعاصي ، فالعاصي يرجى له توبة ويُؤَمَّل منه أن يحقق التوحيد ويخلص فيه يوماً ما . أما المبتدع فإنه يَبْعُدُ في الغالب أن يتوب ؛ لأنه قد أشرب قلبه بحب البدعة فلا يستطيع أن يفارقها ، بل يرى أن فعلها هو عين الصواب وعين الحق المقرب من الله جل وعلا .

قال شيخ الاسلام - رحمه الله تعالى - بعد أن ذكر قصة الرجل الذي كان يشرب الخمر فيؤتى به إلى النبي ﷺ فيجلده حتى قال أحد الصحابة يوماً : لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به إلى النبي ﷺ فقال ﷺ : ((لاتلعنوه فوالله ما علمت إنه يحب الله ورسوله))[3] قال : (فهذا يبين أن المذنب بالشرب وغيره قد يكون محباً لله ورسوله وحب الله ورسوله أوثق عرى الإيمان[4]، كما أن الزاهد العابد قد يكون في قلبه من بدعة ونفاق مسخوطاً عليه عند الله ورسوله من ذلك الوجه ، مما استفاض في الصحاح وغيرها من حديث أمير

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ٦٠٧ . وانظر ص ٦٠٠ .

(٢) درء تعارض العقل والنقل ١/٤١-٤٢ والفتاوى ٣/٣٠٢-٣٠٣ .

(٣) رواه البخاري في الحدود (ح٦٧٨٠) كما سبق. وقد ورد في بعض روايات الحديث ((... فوالله ما علمت إلا إنه يحب الله ورسوله)) ، وقوله : " ما علمت " أي ما علمت عليه سوءاً .. انظر الفتح ١٢/٧٨ .

(٤) يشير ــ رحمه الله ــ إلى حديث : ((أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله ، والحب في الله ، والبغض في الله ﷻ .)) رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس (ح١١٥٣٧) وأورده السيوطي في الجامع الصغير (ح٢٧٧٨) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (ح٢٥٣٦) وفي السلسلة الصحيحة (ح ١٧٢٨) .

المؤمنين علي بن أبي طالب وأبي سعيد الخدري وغيرهما عن النبي ﷺ [في ذكر الخوارج[(١)]]...

ولهذا قال أئمة الاسلام كسفيان الثوري وغيره : إن البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ؛ لأن البدعة لايتاب منها ، والمعصية يتاب منها [(٢)] ، ومعنى قولهم إن البدعة لايتاب منها : أن المبتدع الذي يتخذ ديناً لم يشرعه الله ولا رسوله قد زين له سوء عمله فرآه حسناً فهو لايتوب ما دام يراه حسناً ؛ لأن أول التوبة العلم بأن فعله سيء ليتوب منه ، أو بأنه ترك حسناً مأموراً به أمر إيجاب أو استحباب ليتوب ويفعله ، فما دام يرى فعله حسناً وهو سيء في نفس الأمر فإنه لايتوب ؛ لكن التوبة ممكنه وواقعه ... [(٣)]

فانغراس البدعة في نفوس أصحابها حتى يبلغ الأمر عندهم أن يعتقدوا أنه لايمكن أن يخلصوا إلى الطاعات والقربات إلا بها ، كما لايمكن أن يتخلصوا من هذه البدع البتة ، فتكون كالأغلال في نفوسهم ، فيشبهون الرهبان الذين إذا وقع أحدهم في المعصية لم يمكنه أن يتخلص منها إلا ببلاء شديد ، وذلك بسبب خروجه عن السنة [(٤)] ؛ (لكن المسلم المتبع لشريعة الاسلام هو المحرم ما حرمه الله ورسوله ، فلا يحرم الحلال ولا يسرف في تناوله ، بل يتناول ما يحتاج إليه من طعام أو لباس أو نكاح ، ويقتصد في ذلك ، ويقتصد في العبادة ، فلا يُحَمِّل نفسه مالا تطيق ، فهذا تجده يحصل له من مجاهدات النفس وقهر الهوى ما هو أنفع له من تلك الطريق المبتدعة الوعرة القليلة المنفعه التي غالب من سلكها ارتد على حافره ، ونقض عهده ، ولم يرعها حق رعايتها .

---

(١) أخرج ذلك البخاري في مواضع من صحيحه انظر مثلاً كتاب المناقب (ح٣٦١٠ ، ٣٦١١) عن أبي سعيد وعلي بن أبي طالب ، وفي استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم (ح٦٩٣٣ ، ٣٩٣٤) عن أبي سعيد وسهل بن حنيف ، وعلى ابن أبي طالب . كما أخرج الحديث مسلم في الزكاة (ح١٠٥٩-١٠٦٦ عن أبي سعيد ، وعلي ، وجابر ، وعمارة ، وسهل بن حنيف وغيرهم .

(٢) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ١٣٢/١ برقم (٢٣٨) وأبو نعيم في الحلية ٢٦/٧ ، وانظر شرح السنة للبغوي ٢١٦/١ .

(٣) الفتاوى ٨/١٠-٩ ، ٤٧٠/١١ - ٤٧٢ .

(٤) انظر الفتاوى ٤٦٧/١٤-٤٦٩ ، ٤٧٢/١١ . وانظر منهاج السنة ٢٥٠/٥-٢٥١ .

وهذا يثاب على ذلك ما لا يثاب على سلوك تلك الطريق ، وتزكوا به نفسه وتسير به إلى ربه ، ويدد بذلك من المزيد في إيمانه [وتحقيقه للتوحيد] مالا يجده أصحاب تلك الطريق .) [١].

وهذا من أهم الأمور التي ينبغى على محقق التوحيد أن يسلكها لكي يسلم قلبه ويسمو بالإيمان الخالص من شوائب البدع على كافة أنواعها وصفاتها، كما ينبغي له أن يحذر أشد الحذر من الوقوع في البدع صغيرها وكبيرها بماله أشد الأثر في الإخلال بالتوحيد.



(١) الفتاوى ٤٦١/١٤ .

النوع الثالث : تخليصه من المعاصي

تمهيد

لاشك أن للمعاصي أثر بالغ في ضعف إيمان كثير من الناس ، لاسيما وأن الدوافع إلى المعاصي كثيرة ، ودواعي النفس إليها قوية ، فالنار قد حفت بالشهوات ، وهذا مما يدعو المؤمن العاقل أن لاينجرف وراء شهواته وملذاته مستعجلاً بذلك ما تدعوه إليه نفسه، مجتنباً ما تكرهه نفسه مما لايصلح له ، فإن ذلك عقباه الألم والعقوبة إما في الدنيا وإما في الآخرة ، فضلاً عن كونه يؤثر على توحيده وإيمانه مما يترتب عليه ألماً وحسرة في النفس وضيقاً في الصدر ونحو ذلك .

وقد بين شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - أن اتباع الشهوات وما تلذ به الأنفس والانغماس فيها يورد العبد الموارد [1] ، والله سبحانه يريد من عبادة الاستقامة على طريق الهدى ، ويدعوا العصاة لكي يتوبوا إليه ، إلا أن شياطين الإنس والجن يقفون على جوانب الصراط المستقيم يدعون الناس إلى الغواية والصد عن ذكر الله ، قال تعالى : ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً ﴾[2] فالله يحب لنا التوبة ويرضاها ويكره المعصية ويبغضها ؛ لكن قد يقع الخطأ والذنب من المؤمن الذي يراقب الله تعالى في السر والعلن مع حرصه واجتهاده ، إلا أنه عندما يُذكَّر يتذكر ، فيبادر إلى التوبة والاستغفار . قال تعالى : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾[3] فلم يقل لا يذنبون ولا يظلمون ؛ بل ذلك يقع منهم إلا أنهم لا يصرون على المعصية . وقال سبحانه : ﴿إن الذين اتقوا إذا

---

(١) انظر مثلاً رسالتيه : التحفة العراقية في الأعمال القلبية ١٠/٥ - ٩٠ ، وأمراض القلوب وشفاؤها ١٠/١٩-١٣٧ . هذا فضلاً عن كتاباته المتفرقة في كتبه عن هذه القضية .

(٢) سورة النساء آية ٢٧.

(٣) سورة ال عمران ١٣٥ .

مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾[١] وقال : ﴿ولقد همت به وهم بها [٢] لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾[٣] والبرهان الذي رآه هو برهان الإيمان والتقوى الذي حصل في قلبه - عليه السلام - فصرف الله عنه ماكان هم به فهذا حال المؤمنين الموحدين الصادقين ، فإنهم عندما يذَكَّرون يتذكرون ، وعندما يوعظون يتعظون وينتهون ، وقد يتذكرون ابتداءً فيعترفون بالتقصير فينيبون إلى ربهم جل وعلا بالتوبة والاستغفار .[٤]

ولا يعنى هذا أن العبد يتخذ هذا ذريعة ومطية إلى اقتراف المعاصي بل يكون ذلك دافعاً إلى المداومة على التوبة والاستغفار ، وهذه هي صفات المؤمنين الموحدين قال سبحانه : ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾[٥] فيكون ذلك الاستغفار والتوبة سبباً في رفعة الدرجة والتعلق بالله سبحانه ، ودافعاً من دوافع تحقيق التوحيد ، لأن المداومة على التوبة والاستغفار من صفات المؤمنين الكمل . كما في الحديث عن النبي ﷺ : ((ميل المؤمن كميل الفرس في آخيَّته [٦] يحول ثم يرجع إلى آخيته))[٧] فكذلك المؤمن

---

(١) سورة الأعراف آية ٢٠١ .

(٢) قال الإمام أحمد : الهم همان: هم خطرات ، وهم إصرار ، فهم الخطرات يكون من القادر على الفعل ولم يفعل ، إذ لو كان همة هم إصرار جازم وهو قادر لوقع الفعل . [ومن هذا البابي هم يوسف] إذ أنه هم هماً تركه لله فأثيب عليه ، وتلك المرأة همت هم إصرار ففعلت ما قدرت عليه من تحصيل مرادها وإن لم يحصل لها المطلوب انظر الفتاوى ٥٧٥/٦ ، ٧٤٠/١٠. وانظر تفسير ابن جرير ٣٥/١٦—٣٩ ، وابن كثير ٣٠٨/٤ . وهذا القول هو الذي رجحه ابن القيم أيضاً انظر بدائع التفسير ٤٤٦/٢ .

(٣) سورة يوسف آية ٢٤ .

(٤) انظر الفتاوى ١٠١/١٠ وما بعدها .

(٥) سورة ال عمران ١٣٥ .

(٦) الآخيَّة بالمد والتشديد ، حبيل أو عُوَيد يعرض في الحائط ، ويدفن طرفاه فيه ، ويصير وسطه كالعروة ، وتشد فيها الدابة ، وجمعها الأواخي مشدداً ، والأخايا على غير قياس ، ومعنى الحديث أنه يبعد عن ربه بالذنوب وأصل إيمانه باق . النهاية في غريب الحديث ٢٩/١-٣٠ مادة أخا .

(٧) رواه الإمام أحمد ٣٨/٣ ، ٥٥ ولفظه : عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال : مثل المؤمن كمثل الفرس على آخيته يجول ثم يرجع إلى آخيته وإن المؤمن يسهو ثم يرجع إلى الإيمان)) . ورواه البيهقي في =

يحول ثم يرجع إلى ربه . أما الإصرار على المعاصي والمداومة على اقترافها فهذا قدح في التوحيد ، ونقص في إيمان العبد [(١)]

٥ كما بين ـ رحمه الله ـ أنه يجب على العبد أن يدفع نفسه عما حرم الله حتى لايقع أسيراً لشهواته وملذاته ، فإن هذا من أعظم ما يمنع تحقيق التوحيد ؛ لإن العبد إذا أرخى لنفسه العنان وقع في شراك الشهوات حتى يصير أسيراً لها مقهوراً تحت سلطانها وسلطان هوى نفسه ، تصرفه نفسه كيف تصرف ، فيكون ذلك المطلوب من مأكول أو منكوح أو مشروب ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ بل قلوبهم في غمرة من هذا ، ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون﴾[(٢)].

فهي فيما يغمرها عما أنذرت به ، فيغمرها ذلك عن ذكر الله والدار الآخرة وما فيها من النعيم والعذاب الأليم ، قال تعالى : ﴿فذرهم في غمرتهم حتى حين﴾[(٣)] أي فيما يغمر قلوبهم من حب المال والبنين المانع لهم من المسارعة في الخيرات والأعمال الصالحة، فالغفلة عن الدار الآخرة تسد باب الخير الذي هو سبب لتحقيق التوحيد ، والشهوة تفتح باب الشر والسهو والخوف من غير الله ، فيبقى القلب مغموراً فيما يهواه ويخشاه ، غافلاً عن الله ، رائداً غير الله ساهياً عن ذكره ، قد اشتغل بغير الله ، فانفرط أمره وران حب الدنيا على قلبه كما روي في صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : أنه قال : ((تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط

= شعب الإيمان ٧/٤٥٢ (ح ١٠٩٦٤) وأبو نعيم في الحلية ٨/ ١٧٩ ، والبغوي في شرح السنة ١٣/ ٦٩-٧٠ (ح ٣٤٨٥) وأورده المقريزي في مشكاة المصابيح [في الحسان] (ح ٤٢٥٠) ولم يتعقبه الألباني بشيء [في تخريجه لها] وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/٢٠١ ، وقال :" رواه أحمد وأبو يعلى ورجالها رجال الصحيح ، غير أبي سليمان الليثي ، وعبدالله بن الوليد التميمي وكلاهما ثقة " [ولم أقف عليه في مسند أبي يعلى] . وقال البنا في الفتح الرباني ١/١١٣ ، ٩/١٩٥ :"سنده جيد ، وأخرجه أيضاً الضياء المقدسي في المختارة وحسنه الحافظ السيوطي " [ولم أقف عليه في المطبوع من المختارة ولا على تحسين السيوطي له .] وفي كل هذه المصادر ((مثل المؤمن)) بالثاء المثلثة ، ولعل ما وقع في الفتاوى تصحيف من بعض النساخ والله أعلم .

(١) انظر الفتاوى ١٠/٥٧١-٥٧٢ ، ١٦٠ .

(٢) سورة المؤمنون آية ٦٣ .

(٣) سورة المؤمنون آية ٥٤ .

تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه مغبرة قدماه إن كان في الحراسة كان في الحراسة وإن كان في الساقة كان في الساقة إن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يشفع))[١][٢].

فدل هذا على أن المعاصي من أعظم ما يقدح في التوحيد ويمنع من تحقيقه بعد الشرك والبدع؛ لأن المعاصي لاتصدر في الغالب إلا من قلب مريض منهمك بحب المنكرات واقتراف السيئات ، وهذا يجعل إيمان العبد ينحط إلى أضعف درجات الإيمان حتى قد لايبقى في قلب العبد من ذلك مثقال حبة من خردل من إيمان ،كما ورد في الأثر المروي في الصحيحين عن النبي ﷺ : ((يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من خير ، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير..)) [٣] .

وقد بين شيخ الاسلام - رحمه الله تعالى - كيفية علاج العبد لقلبه وروحه الذي به تزكوا النفس وتترفع عن المعاصي والسيئات ، حتى تبلغ إلى أعلى عليين مما يجعل العبد يسموا إلى أعلى درجات تحقيق التوحيد، وسأجمل ذلك فيما يلي:

أولاً : لزوم التقوى

التقوى وصية الله للأولين والآخرين ، قال تعالى : ﴿ ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ﴾[٤]

وأصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه ، فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك ، وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه ...

ويدخل في التقوى الكاملة فعل الواجبات وترك المحرمات والشبهات ، وربما دخل فيها بعد ذلك فعل المندوبات ، وترك المكروهات وهو أعلى درجات التقوى ..

---

(١) رواه البخاري كتاب الجهاد والسير (ح ٢٨٨٧) وابن ماجه في الزهد (ح٤١٣٦) وروى بعضه الترمذي في الزهد (ح٢٣٧٥)

(٢) انظر الفتاوى ٥٨٧/١٠ ، ٥٩٤ ، ٥٩٦-٥٩٧ .

(٣) رواه البخاري في كتاب الإيمان (ح ٤٤) ومسلم في كتاب الإيمان (ح ١٩١) والترمذي في صفة جهنم (ح٢٥٩٣) وابن ماجه في الزهد (ح٤٣١٢) وغيرهم .

(٤) النساء ١٣١ .

وعرف بعضهم[١] التقوى بقوله : أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجوا ثواب الله ، وأن تترك معصية الله على نورٍ من الله تخاف عقاب الله .[٢]

وعرفها شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ بقوله : (التقوى ـ كما فسرها الأولون والآخرون ـ فعل ما أمرت به ، وترك ما نهيت عنه .. [ثم استدل ـ رحمه الله ـ لذلك بأدلة كثيرة منها :] قوله تعالى : ﴿ ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾[٣] فوصف المتقين بفعل المأمور به من الإيمان والعمل الصالح من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ...)[٤]

وبين - رحمه الله - أن التقوى هي احتماء العبد عما يضره بفعل ما ينفعه فإن الاحتماء عن الضار يستلزم استعمال النافع ، أما إن كان استعمال النافع معه استعمال الضار ، فلا يكون صاحبه من المتقين المحققين لكمال التقوى .

وأما ترك استعمال الضار والنافع فهذا لايكون ، فإما هذا وإما ذاك ، فإن الشيء إما أن يكون ضاراً أو نافعاً ، ولهذا فالعاقبة للتقوى وللمتقين ؛ لأنهم المحتمون عما يضرهم ، فعاقبتهم زيادة الإيمان والكرامة . وإن وجدوا مع ذلك ألماً في الابتداء لتناول الدواء والاحتماء بفعل الأعمال الصالحة المكروهة على النفس ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ﴾ [٥] .

ومع كثرة الأعمال الباطلة المشتهاه أيضاً ، والتي تدعو إليها النفس الأمارة بالسوء قال الله تعالى : ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى﴾ [٦] .

---

(١) هو طلق بن حبيب انظر الفتاوى ١٣٢/٢٠ ، ٣٤/٢٨ . وانظر جامع العلوم والحكم ٤٠٠/١ .

(٢) انظر جامع العلوم والحكم ٣٩٨/١-٤٠٠ .

(٣) سورة البقرة ١-٥ .

(٤) الفتاوى ١٣٢/٢٠-١٣٧ .

(٥) سورة البقرة آية ٢١٦ .

(٦) سورة النازعات آية ٤٠ ، ٤١ .

فأما من لم يحتم عن فعل المعاصي وارتكاب الآثام بفعل الطاعات كان ذلك سبباً لضرره في العاقبة [(١)] .

فالعبد الموحد بحاجة إلى التقوى في السر والعلن ، كما قال النبي ﷺ في وصيته لأبي ذر : ((.. إتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ..))[(٢)]

ومن هنا فإن الناس ينقسمون في لزوم التقوى والعمل الصالح انقساماً بيناً ، فمنهم من يسلك ما ينفعه من العمل الصالح ، وهؤلاء هم أهل التقوى ، ومنهم من يجتنب ما ينفعه فلا يعمل الحسنات بل يعمل السيئآت ، فهذا هو الذي يرد عليه الوعيد بالعقاب ، وهناك من يخلط بين ما يضره وما ينفعه فيأتي بحسنات وسيئآت وهذا أقرب إلى الخير مع قصورة وكونه أيضاً على خطر عظيم .

ثانيا : الاحتراز من المعاصي

يجب على المسلم الاحتراز من المعاصي ، بل يجب عليه أن يجتنب الأمور المشتبهات حتى لايقع في ما حرم الله ، فيبتعد كل الابتعاد عنها ، فإن من فعل ذلك يكون قد استبرأ لدينه وعرضه كما جاء بذلك الأثر المرفوع عن النبي ﷺ ، وبذلك يزكو القلب ويتحقق التوحيد ويطهر القلب ويعلو الإيمان ؛ لأن عموم المعاصي كما قال شيخ الاسلام - رحمه الله - : (بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن ، ومثل الدغل في الزرع ، فإذا استفرغ البدن من الأخلاط الرديئة كاستخراج الدم الزائد تخلصت القوة الطبيعية واستراحت فينموا البدن ، وكذلك القلب إذا تاب من الذنوب كان استفراغاً من تخليطاته حيث خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، فإذا تاب من الذنوب تخلصت قوة القلب وإراداته للأعمال الصالحة، واستراح القلب من تلك الحوادث الفاسدة التي كانت فيه ...

قال سبحانه : ﴿وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم﴾ وقال: ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما

---

(١) انظر الفتاوى ١٠/١٤٤ .

(٢) رواه الترمذي في كتاب البر والصلة ح(١٩٨٧) وأحمد ٥/١٥٣، ١٥٨ ، ١٧٧ ، ٢٣٦ ، والحاكم ١/٥٤ وقال صحيح على شرط الشيخين ، والدارمي في الرقاق (ح ٢٧٩١)

يصنعون﴾[١] وقال سبحانه : ﴿قد أفلح من تزكى،وذكر اسم ربه فصلى ﴾ [٢] وقال سبحانه : ﴿ فقل هل لك إلى أن تزكى،وأهديك إلى ربك فتخشى ﴾ [٣] فالتزكية إنما تحصل بإزالة الشر ، فلهذا صار التزكي يجمع هذا وهذا .

وقال سبحانه : ﴿وويل للمشركين الذين لايؤتون الزكاه﴾ وهي التوحيد والإيمان الذي به يزكو القلب .) [٤]

وبذلك يتخلص من جميع ما علق به من الذنوب والمعاصي التي من أعظمها الشرك ، فيتحقق التوحيد في قلب العبد ، ويخلو من التعلق بما سوى الله ، فلا يحب إلا الله ، ولا يعمل إلا بما يرضاه الله ويريده من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة ، بل قد يصل به الأمر أن يطهر خواطره وأحاديث نفسه عن الخوض فيما لايحبه الله ويرضاه.

وبهذا يضفي على قلبه طابع الطاعة فلا يلتفت إلا إليها ، بل لاتحدثه نفسه بغيرها. وبهذا يحفظ قلبه وعمله من اقتراف الذنوب والمعاصي ، وبهذا يصلح نفسه فلا تأمره إلا بخير ، ويصلح عمله فلا يعمل إلا الخير ؛ لأنه إذا صلح القلب صلح العمل ، وإذا صلح العمل صلح القلب فلكل واحد منها تأثير على الآخر .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - : (.. والعمل له أثر في القلب من نفع وضر وصلاح قبل أثره في الخارج ، فصلاحها[٥] عدل لها، وفسادها ظلم لها ، قال تعالى : ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ﴾ وقال تعالى :﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها﴾[٦] قال بعض السلف : إن للحسنة لنوراً في القلب ، وقوة في البدن ، وضياء في الوجه ، وسعة في الرزق ، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة لظلمة في القلب وسواداً في الوجه ووهناً في البدن ، ونقصاً في الرزق ، وبغضاً في قلوب الخلق .

---

(١) سورة النور آية ٣٠ .

(٢) سورة الأعلى آية ١٤ ، ١٥ .

(٣) سورة النازعات آية ١٨ ، ١٩ .

(٤) انظر الفتاوى١٠/ ٩٦-٩٧ ,

(٥) أي النفس .

(٦) سورة الإسراء آية ٧ .

قال سبحانه : ﴿ كل امرئ بما كسب رهين ﴾ [١] وقال سبحانه : ﴿وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع ، وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا ﴾ [٢] وتبسل أي ترتهن وتحبس وتؤسر [٣] وقال تعالى عن الكافرين الذين انغمسوا في وحل الشرك والرذيلة : ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ [٤] .

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – المراد بالران حينما فسره بقول النبي ﷺ : ((إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، فإن زاد زادت ، فذلك الران الذي ذكره الله في كتابه :﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾.)) [٥]

واستشهد رحمه الله بقول حذيفة ﷺ : (إن الإيمان يبدوا في القلب لمظة بيضاء فكلما ازداد العبد إيماناً ازداد قلبه بياضاً ، فلو كشفتم عن قلب المؤمن لرأيتموه أبيض مشرقاً ، وإن النفاق يبدوا منه لمظة سوداء ، فكلما ازداد العبد نفاقاً ازداد قلبه سواداً، فلو كشفتم عن قلب المنافق لوجدتموه أسود مربداً)[٦] .

واسوداد القلب ليس مقصوراً على المنافق فقط بل على المؤمن المعرض عن التوبة والاستغفار ، ولو لم يكن ممن يقع منه ذنب ظاهر له ، فقد ورد عن المصطفى ﷺ أنه قال : ((إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة)) [٧] .

---

(١) سورة الطور آية ٢١ .

(٢) سورة الأنعام آية ٧٠ .

(٣) انظر الفتاوى ٩٩/١٠ وما بعدها .

(٤) سورة المطففين آية ١٤ .

(٥) رواه ابن ماجة في الزهد من حديث أبي هريرة (ح٤٢٤٤) وأحمد٢٩٧/٢ وقال أحمد شاكر في تحقيقه للمسند إسناده صحيح (ح٧٩٣٩) . ورواه بنحوه الترمذي في التفسير (ح٣٣٣٤) وقال : " هذا حديث حسن صحيح " ورواه الحاكم ٥١٧/٢ ، وقال : " هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه " ووافقه الذهبي .

(٦) انظر الفتاوى ٢٨٣/١٥ ، ٥٥٣/١٧ .

(٧) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (ح ٢٧٠٢) وأبو داود في الصلاة (ح ١٥١٥) .

(والغين حجاب رقيق أرق من الغيم ، فأخبر أنه ليستغفر الله استغفاراً حتى يزيل الغين عن قلبه) [(١)] فما بالك بمن هو دون رسول الله ﷺ في المنزلة . فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم كما ورد في الأثر فيوسوس في نفسه (وسواساً يغشى القلب كطيف الخيال فينسيه ما كان معه من الإيمان ، حتى يعمى عن الحق فيقع في الباطل ، فإذا كان من المتقين كان كما قال الله تعالى : ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ [(٢)] فإن الشيطان مسهم بطيف منه يغشى القلب ، وقد يكون لطيفاً ، وقد يكون كثيفاً)[(٣)]

(فأما المتقون فيتذكرون ما عملوا قبل ذلك ، فيزول الطيف ، ويبصرون الحق الذي كان معلوقاً ، ولكن منهم الطيف عن رؤيته) [(٤)] . وسيأتي قريباً بإذن الله تعالى بيان لهذا في أسباب تخلف التوحيد .

وبما أن الحديث عن المعاصي وأنواعها ومراتبها وآثارها ليس مراداً ، بل المراد الاشارة إلى أن لتخليص القلب والنفس من أدران المعاصي والذنوب أثر بالغ في تحقيق التوحيد ، بل إن التوحيد لايمكن أن يتحقق في قلب العبد مالم يترك بل ويجتنب المعاصي والاقبال عليها ، فضلاً عن الانغماس فيها لأنها من أعظم القوادح في التوحيد ، ولعل في هذه الاشارة كفاية ، والله تعالى أعلم .

ثالثاً : علاج القلب من الأمراض :

علاج القلب يكون بعدة أمور منها على سبيل المثال لا الحصر :

١) تعاهد القلب بالحفظ والرعاية :

إن القلب يمرض ويهزل كما تمرض الأبدان وتهزل ، بل إن مرضه أشد فتكاً بالإنسان من المرض الحسي ، فالعبد قد يكون مريضاً بالقلب وهو لا يشعر بمرضه ، ومن ثم لايسعى في علاجه ، فتكون عاقبته وخيمة في الدنيا قبل الآخرة .

---

(١) الفتاوى ٢٨٣/١٥، ١٧/ ٥٥٣ .

(٢) سورة الأعراف ٢٠١ .

(٣) الفتاوى ٥٢٢/١٧ .

(٤) الفتاوى ٣٤٧/١٦ .

وقد وضح شيخ الاسلام - رحمه الله - أنواع أمراض القلوب وكيفية علاجها ، وحيث أن الغرض من إيراده هنا بيان ما يتعلق منه بكيفية تحقيق التوحيد ، وأنه لايمكن ذلك إلا بالفرار بالقلب من أمراض القلوب وتحصينه منها سواء كانت أمراض شهوات أو اعتقادات أو شبهات أو نحوها . ولذا فسوف أجمل ما يتعلق بذلك فيما يلي :

لقد بين شيخ الاسلام - رحمه الله - أن القلب يحتاج إلى حفظ الصحة ابتداءً ، وإلى اعادتها إلى حالتها السليمة إذا عرض لها المرض دواماً ، فالصحة تحفظ بالمثل ، والمرض يزول بالضد ، وصحة القلب تحفظ باستعمال أمثال ما فيها ، وهو مايقوى العلم والإيمان من الذكر والتفكر والعبادات المشروعة وتزول بالضد من الانحراف وراء الشهوات واقتراف المعاصي والسيئآت . فينبغي على المؤمن أن يتعاهد قلبه فإنه إذا صلح صلحت سائر أعضائه . [(١)] كما قال ﷺ : ((.. ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب))[(٢)]

(والله سبحانه إنما خلق الإنسان لعبادته ، وبدنه تبع لقلبه .. وصلاحه في أن يحصل له وبه المقصود الذي خلق له من معرفته ومحبته وتعظيمه ، وفساده ضد ذلك ، فلا صلاح للقلوب بدون ذلك قط .)[(٣)]

كما ذكر - رحمه الله - أن " مرض القلب هو نوع فساد يعتريه فيفسد به تصوره بالشبهات التي تعرض له ، فلا يرى الحق أو يراه على خلاف ماهو عليه كما قال تعالى عن الذين مرضت قلوبهم بحب الكفر : ﴿ .. وإن يرو سبيل الرشد لايتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ﴾ [(٤)] .

وقد تفسد إرادات العبد بفساد قلبه ، بحيث يبغض الحق النافع ويحب الباطل الضار ، ولهذا فُسِرَ المرض تارة بالشك وتارة بالريب كما فسره مجاهد وقتادة [(٥)] في قوله تعالى :

---

(١) انظر الفتاوى ١٠/١٤٤ــ١٤٥ .

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان ح (٥٢) . ومسلم كتاب المساقاة (ح ١٥٩٩)، وأحمد ٢٧٢/٤، ٢٧٤ .

(٣) الفتاوى الكبرى ٩٥/١ .

(٤) سورة الأعراف ١٤٦ .

(٥) انظر تفسير الطبري جامع البيان ١٢١/١ ، ١٢٢ ذكره عن ابن عباس ، وعن ابن مسعود وعن قتادة وعبد الرحمن بن زيد وغيرهم .

﴿في قلوبهم مرض﴾[1] وتارة يفسر بشهوة الزنا كما فسر في قوله تعالى : ﴿فيطمع الذي في قلبه مرض﴾[2] . فإن القلب الصحيح لو تعرضت له المرأة لم يلتفت إليها ، بخلاف القلب المريض بالشهوة فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه ، فإذا خضعن بالقول طمع الذي في قلبه مرض [3]

وكذلك قد يكون المرض شكاً أو جهلاً ، ويكون علاجه بطلب العلم وبيان الحق كما قال ﷺ : ((..ألم يكن شفاء العي السؤال))[4] ونحوه قوله تعالى : ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾[5] فبالسؤال يذهب الجهل ، وبالعلم يحصل اليقين ، ويزول الشك ، ويسموا القلب ، ويتخلص من الأمراض [6] وبالمداومة على الطاعة واشتغال القلب بالتفكر في خلق السموات والأرض وعظم قدرته الله جل شأنه يعلوا الإيمان ويتحقق التوحيد ؛ لإن القلب إذا حصلت له كلمة أو موعظة كانت من أسباب صلاحه وشفائه .[7] قال الله تعالى : ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقاً﴾[8]

وقال في وصف الذين إمتلأت قلوبهم بالإيمان والتقوى : ﴿ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً﴾[9]

---

(١) سورة البقرة ١٠ .

(٢) سورة الأحزاب ٣٢ .

(٣) انظر الفتاوى ١٠/٩٣ـ٩٤ . والفتاوى الكبرى ١/٩٥-٩٦ .

(٤) رواه أبو داود في الطهارة (ح ٣٣٧) وابن ماجة في الطهارة وسننها (ح ٥٧٢) والدارمي في الطهارة (ح٧٥٢) وأحمد ١/ ٣٣٠ ، وقال أحمد شاكر في تحقيقه (ح ٣٠٥٧) : "إسناده صحيح" وأطال في تصحيحه . وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي دواد .

(٥) سورة النحل ٤٣ والأنبياء ٧ .

(٦) انظر الفتاوى ١٠/٩٣ـ٩٤ .

(٧) انظر الفتاوى ١٠/٩٥ .

(٨) سورة الأنفال ٢-٤ .

(٩) سورة الفرقان ٧٣ .

فهؤلاء هم أهل التوحيد الذين بلغوا مبلغاً عظيماً في تحقيقه ، لم تضرهم كثرة دوافع الشهوات و لم تؤثر فيهم فتن الشبهات ، بل قلوبهم كالجبال الشُمّ الراسيات .

ومن هنا فإن ينبغي على العبد أن يتعاهد قلبه بالدواء الشافي من العلل والعاهات ، وليبادر إلى الطاعات ، ويترك المعاصي والشبهات ، حتى ينتفع قلبه ويكون له بتلك الطاعات شفاء وصلاح لقلبه ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد﴾ [1] [2] فإذا بلغ هذه المنزلة لم تضره الشبهات و لم يلتفت إلى الشهوات .

٢) : الاجتهاد في عبادة الله وحده

عبادة الله جل شأنه هي الغذاء الروحي للعبد الذي يريد تحقيق التوحيد وزيادة الإيمان فعليها مدار سعادته وشقاوته ؛ لأن الله جل شأنه خلقه من أجلها وفطره وجبله عليها ، قال سبحانه :﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ﴾[3] [4] وقال تعالى : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [5]

وقد بين شيخ الاسلام - رحمه الله - أن عباة الله وحده هي القسط الذي بعث به الرسل ليقوم الناس به ، كما أنها أصل صلاح العبد واستنارته في الدنيا والآخرة، فحياة القلوب تكون بالطاعة وترك المعصية ، فبالطاعة يستنير القلب وينشرح الصدر، وتزكوا النفس ويعلو الإيمان ويتحقق التوحيد ، قال سبحانه : ﴿ أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾[6] وقال سبحانه : ﴿لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ﴾ [7] فينذر من قلبه حي بالإيمان مايلئ

---

(١) سورة الحج ٥٣ .

(٢) انظر الفتاوى ٩٥/١٠ .

(٣) سورة الروم ٣٠ .

(٤) انظر الفتاوى ١/ ١٣٦ وما بعدها

(٥) سورة الذاريات ٥٦ .

(٦) سورة الأنعام ١٢٢ .

(٧) سورة يس ٧٠ .

بالتوحيد والإخلاص . وقال سبحانه : ﴿ياأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون﴾[١][٢]

ثم بين - رحمه الله - أن على العبد أن يتعاهد قلبه فيفعل "ما يورث القلب إيماناً من العلم النافع والعمل الصالح ، فتلك أغذية له ، كما في حديث ابن مسعود مرفوعاً وموقوفاً : ((إن كل آدب يحب أن تؤتى مأدبته ، وإن مأدبة الله هي القرآن)) [٣] وليكثر من الدعاء وسائر العبادات ، وليتحر أوقات الإجابة مثل آخر الليل وأوقات الأذان والإقامة وفي سجوده وفي أدبار الصلوات ، ويضم إلى ذلك الاستغفار ، فإنه من استغفر الله ثم تاب إليه متعه متاعاً حسناً إلى أجل مسمى .

وليتخذ ورداً من الأذكار في الليل والنهار ، ووقت النوم ، وليصبر على ما يعرض له من الموانع والصوارف ، فإنه لايلبث أن يؤيده الله بروح منه ويكتب الإيمان في قلبه .

وليحرص على إكمال الفرائض من الصلوات الخمس باطنة وظاهرة ، فإنها عمود الدين ، وليكن هجيراه لاحول ولا قوة إلا بالله ، فإنها بها تحمل الأثقال وتكابد الأهوال وينال رفيع الأحوال . ولايسأم من الدعاء والطلب فإن العبد يستجاب له مالم يعجل ، فيقول قد دعوت ودعوت فلم يستجب لي ،وليعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسراً، ولم ينل أحد شيئاً من ختم الخير نبي فمن دونه إلا بالصبر"[٤]

وبالجملة فعلى العبد أن يبذل قصارى جهده في تحقيق معنى العبودية لله في جميع شئونه ، فلا يحب إلا ما يحبه الله من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة ، وليحفظ قلبه ولسانه وجميع جوارحه عما لايرضي الله ، بل عليه أن يسعى جاهداً في تسخير جميع أعضائه في توحيد الله وطاعته بإخلاص العمل لوجهه الكريم .

---

(١) سورة الأنفال ٢٤ .

(٢) انظر الفتاوى ١٠/١٠٠ . وانظر الفتاوى الكبرى ١/٩١-٩٢ .

(٣) أخرجه الدارمي بنحوه موقوفاً (ح٣٣١٠) ، (ح٣٣٢٤) ، (٣٣٢٥) ، والحاكم نحوه مرفوعاً ١/٥٥٥ ، وقال : "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه لصالح بن عمر "، وقال الذهبي :" قلت : صالح : ثقة خرج له مسلم ، لكن إبراهيم بن مسلم ضعيف " ، وأورده الألباني بنحوه عن ابن نصر في قيام الليل (٧٠) في الصحيحة ٢/٢٦٩ وقال : "وهذا إسناده لابأس به في المتابعات ". ...إلخ . والله أعلم .

(٤) الفتاوى ١٠/ ١٣٦-١٣٧ .

٣) : قراءة القرآن وتدبره

ومما يعين على المحافظة على الإيمان في القلب محافظة سليمة من كل إثم ملؤه بذكر الله ، ومن أكمله قراءة القرآن ، فإن القلب وعاء إن لم تملأه بالخير امتلأ بالشر . والقرآن من أعظم الأمور التي تنير القلب ، فمن حافظ عليه تلاوة وعملاً وتدبراً فقد حافظ على سلامة قلبه من قوادح التوحيد وصوارفه ، فالقرآن شفاء لكل داء وخاصة الأدواء الباطنة ، قال تعالى : ﴿ونـنزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾(١) .

وقد بين شيخ الاسلام - رحمه الله - ذلك ، فذكر أن القرآن شفاء لما في الصدور ودواء لما في القلوب ؛ لأن فيه من الحكم والمواعظ الحسنة ، والترغيب والترهيب والقصص مايوجب صلاح القلب لمن عقله واستجمع قلبه فألقى السمع وهو شهيد ، يدرك ما ينفعه فيأخذ به ويرغب عما ينفعه ويبتعد عنه ، فيبقى بذلك القلب محباً للرشاد مبغضاً للغي والفساد ، بعد أن كان مريداً للغي مبغضاً للرشاد(٢).

(فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة حتى يصلح القلب فتصلح إرادته ، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها كما يعود البدن إلى الحال الطبيعي ، ويغتذي القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويؤيده كما يغتذي البدن بما ينميه ويقومه ، فإن زكاة القلب مثل نماء البدن .) (٣) كما قال جل شأنه : ﴿ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون﴾(٤)

وقد أثنى الله جل شأنه على الذين يؤمنون بكتاب الله وما جاء به إيماناً لايخالطه شك ولا ريب ولا تكاسل عن العمل به ، إيماناً حققوا به التوحيد ، قال سبحانه وتعالى : ﴿إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور﴾ (٥) .

---

(١) سورة الإسراء ٨٢ .

(٢) انظر الفتاوى ٩٥/١٠ .

(٣) انظر الفتاوى ٩٥/١٠ .

(٤) سورة الأنفال ٢ .

(٥) فاطر ٢٩ .

(وفي الدعاء المأثور ((أن تجعل القرآن ربيع قلوبي، ونور صدوري وجلاء حزني) [١] والربيع هو المطر الذي ينزل من السماء فينبت به النبات .) [٢]

وهذا يؤكد ما قال ﷺ في الحديث المتفق عليه : ((خيركم من تعلم القرآن وعلمه))[٣] فإن من مقتضى الخيرية ومن أولوياتها أن يكون العبد محققاً للتوحيد ، مجتنباً منغصاته .

٤) الصدقة

القلب يحتاج إلى أن يتربى على الإيمان والصلاح وحب الخير وحب البذل والعطاء في سبيل الله جل وعلا ، حتى يكمل ويصلح حاله ، ولايمكن أن يزكو إلا بحصول ما ينفعه من فعل الصالحات ودفع مايضره من فعل السيئات والمنكرات .

ومما يعين على ذلك أمور كثيرة من أهمها ما نص عليه الرسول ﷺ في أمر الصدقة بخصوصها ، فقد ورد في الحديث : ((إن الصدقة لتطفئ غضب الرب))[٤] وفي رواية ((والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار)) [٥] وزكاته معنى زائد على طهارته من الذنب قال سبحانه : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾[٦]. وقد

(١)رواه الإمام أحمد ٣٩١/١ ، ٤٥٢ ، والحاكم ٥٠٩/١-٥١٠ ، وقال صحيح على شرط الشيخين إن سلم من إرسال عبد الرحمن عن أبيه ، قال الذهبي : " لا يدرى من هو ولا رواية له في الكتب الستة ، وأورده الهيثمي وقال : ".. ورجال أحمد رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني ، وقد وثقه ابن حبان (١٣٦/١٠) . وصححه أحمد شاكر في المسند (٣٧١٢ ، ٤٣١٨) وكذا الألباني في صحيح الكلم الطيب (ح١٠٢).

(٢) انظر الفتاوى ١٠٣/١٠ .

(٣) رواه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٢٧ ، ٥٠٢٨) والترمذي في فضائل القرآن (ح٢٩٠٧ ، ٢٩٠٨، ٢٩٠٩) وأبو داود في الصلاة (ح١٤٥٢) وابن ماجة في المقدمة (ح ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣) وأحمد ٥٨/١ والدارمي في فضائل القرآن (ح ٣٣٣٧) والحديث جاء من رواية عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وسعد بن أبي وقاص . ولم أجده في مسلم ولا من عزاه لمسلم .

(٤) رواه الترمذي في الزكاة (ح ٦٦٤) وانفرد به . وقال حديث حسن غريب وضعفه الألباني في إرواء الغليل (ح٨٨٥) وفي المشكاة (ح١٩٠٩) وقد ورد بلفظ : " صدقة السر تطفئ غضب الرب" رواه الطبراني في الأوسط (ح٧٧٥٧) وفي الصغير (٩٦/٢) ، والحاكم ٥٦٨/٣ وصححه الألباني في الصحيحة (ح١٩٠٨) .

(٥) رواه الترمذي في الإيمان (ح٢٦١٦) وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وفي كتاب الجمعة (ح٦١٤) وقال : هذا حديث حسن غريب ، ورواه ابن ماجة في الزهد (ح٤٢١٢) والطبراني في الأوسط (٤٤٧٧) وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي .

(٦) سورة التوبة ١٠٣ .

أشار إلى ذلك شيخ الاسلام - رحمه الله- بل بين أنها من الأمور التي تزكي القلب وتسموا به .[١]

ومن المعلوم أن الصدقة إذا اطلقت انصرفت إلى الصدقة المالية . لكن في الحقيقة أن مسمى الصدقة ليس مقصوراً على هذا النوع منها بل إن هناك نوعاً آخر وهو : الصدقة بغير المال *وهي نوعان :*

أحدهما ما فيه تعدية الإحسان إلى الغير ، فيكون صدقة عليهم وربما كان أفضل من الصدقة بالمال ، وهذا كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... وتعليم كتاب الله والعلم النافع وإزالة الأذى عن الطريق ، والسعي في جلب النفع للناس ودفع الأذى عنهم والدعاء للمسلمين والاستغفار لهم وغير ذلك .[٢]

فقد روى الشيخان عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ((كل سلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين الاثنين صدقة ، وتعين الرجل في دابتة فتحمله عليها ، أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة)) [٣] فجميع أنواع فعل المعروف والإحسان صدقة ، ويدل على هذا أيضاً حديث حذيفة ﷺ : ((كل معروف صدقة)) [٤].

كما الصدقة تطلق على فضل الله الواصل منه إلى عباده كما دل على ذلك قوله ﷺ في قصر الصلاة في السفر: ((صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته))[٥].

والنوع الثاني من الصدقة التي ليست بمالية : مانفعه قاصر على فاعله ، كأنواع الذكر : من التكبير والتسبيح والتحميد والتهليل والاستغفار ، والمشي إلى المساجد ونحو

---

(١) انظر الفتاوى ٩٧/١-٩٨.

(٢) انظر جامع العلوم والحكم ٥٩/١ .

(٣) رواه البخاري ح (٢٧٠٧) ، (٢٨٩١) ، (٢٩٨٩) ومسلم ح (١٠٠٩) وابن حبان ح (٣٣٨١) .

(٤) رواه مسلم ح (١٠٠٥) وأبو داود ح (٤٩٤٧) وأحمد ٣٨٣/٥ ، وابن حبان ح (٣٣٧٨) ، رواه البخاري في الأدب المفرد ح (٢٣٣) .

(٥) رواه الإمام مسلم : ح (٦٨٦) وأبو داود ح (١١٩٩) والنسائي ١١٦/٣-١١٧ ، وابن ماجة ح(١٠٦٥) وابن حبان ح (٢٧٣٩) و (٢٧٤١) .

ذلك . [1] ويدل على هذا حديث أبي هريرة المتقدم : ((كل سلامى من الناس صدقة ..) الحديث .

٥) : ضبط الإرادات

لقد أكد شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ على أن الله خلق العبد وجعل له إرادة ومشيئة وقدرة يعلم بها ويختار من خلالها ما يريد ، وبين الله للعبد طريق الخير ورغبه فيه ، كما بين له طريق الشر وحذره منه، قال تعالى : ﴿وهديناه النجدين﴾ [2] وقال : ﴿ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها﴾[3].

فإذا ما سلك العبد أحد الطريقين فإنه يسلك بإرادته ومشيئته ، ولهذا كان للإرادة توجيه بالغ الأثر في سلوك العبد .فمن أرخى لنفسه العنان وجعل إراداته طوع نفسه هلك، ومن ضبطها وأطرها على الحق أطراً فاز ونجا ، ولهذا فإن المؤمن الذي حقق التوحيد وأخلص فيه لابد وأن يكون قد ضبط إرادته وتحكم فيها ، حتى يصبح لا يريد إلا ما يريد الله جل ذكره ولا يحب إلا ما يحب الله ويرضاه ، فيكبح جماح نفسه عن الخوض فيما لايرضي الله ؛ لأن الإرادة الجازمة التي تقف بصاحبها عند نهاية قدرته على الفعل يجازى عليها إن خيراً فخيراً ، وإن شراً فشراً ، كما قال ﷺ : من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل أثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً)) [4]

وثبت عنه في الصحيحين أنه قال : ((من سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً)) [5]

---

(١) انظر جامع العلوم والحكم ٦٦ .

(٢) البلد ١٠ .

(٣) الشمس ٧-١٠ .

(٤) رواه مسلم في كتاب العلم (ح٢٦٧٤) والترمذي في كتاب العلم (ح ٢٦٧٤) وأبو داود في السنة (ح٤٦٠٩) وابن ماجة في المقدمة (ح ٢٠٦) والدارمي في المقدمة (ح ٥١٣).

(٥) رواه مسلم في الزكاة (ح ١٠١٦) والنسائي في الزكاة (ح٢٥٥٤)وابن ماجة في المقدمة (ح٢٠٣ ، ٢٠٧) والدارمي في المقدمة (ح ٢١٢)

فالداعي إلى الهدى والضلالة كلما كانت إرادته جازمة كاملة في هدي الأتباع أو إضلالهم ، وأتى من الاعانة على ذلك بما يقدر عليه كان بمنزلة العامل الكامل ، فله من الجزاء مثل جزاء كل من يتبعه للهادي مثل أجور المهتدين ، وللمضل مثل أوزار المضلين من غير نقصان من هذا أو ذاك .

والنصوص الدالة على هذا كثيرة منها (قوله سبحانه : ﴿ من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ﴾ (١)

ومنه قوله تعالى : ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ، وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون﴾(٢)

ومنها قوله ﷺ : ((لاتقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ؛ لأنه أول من سن القتل))(٣) فالكفل النصيب مثل نصيب القاتل .

[ومنه قوله ﷺ : ((إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار ، قالوا ذاك القاتل فما بال المقتول يارسول الله ؟ قال إنه كان حريصاً على قتل أخيه))(٤) فهذا هم بل وعزم بعد الإرادة الجازمة على قتل أخيه إلا أنه لم يتمكن من ذلك ، فكان عليه من الأثم مثل قاتله (٥)] .

والإرادة متى ما كانت لاتخرج عما أمر الله به فإن صاحبها يكون على خير كثير ؛ لأنها لن توره إلا إلى الخير وستزده وتصده عن كل شر . فهي تدور مع شرع الله وطاعته .(٦)

---

(١) سورة المائدة ٣٢

(٢) سورة العنكبوت ١٣ .

(٣) رواه البخاري في الجنائز معلقاً ، وفي أحاديث الأنبياء موصولاً (ح ٣٣٣٦) ومسلم في القسامة والمحاربين .. (ح١٦٧٧) والنسائي في تحريم الدم (ح ٣٩٨٥) وابن ماجة في الديات (٢٦١٦)

(٤) رواه البخاري في الإيمان (ح٣١) ومسلم في الفتن وأشراط الساعة (ح٢٨٨٨) وأبو داود في الفتن والملاحم (ح٤٢٦٨) ، وابن ماجة في الفتن (ح٣٩٦٤) والنسائي في تحريم الدم (ح٤١٢٠) عن أبي موسى .

(٥) انظر الفتاوى ١٢٣/١٤ . ٧٤٠/١٠

(٦) انظر الفتاوى ٧٢٣/١٠-٧٢٤ ، ٧٣١، ٧٤٢ وما بعدها .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - : (.. يحتاج العبد أن ينفي عنه شيئين :

الإرادة الفاسدة والأهواء الفاسدة ، فيعلم أن الحكمة والعدل فيما اقتضاه علمه وحكمته ، لافيما اقتضاه علم العبد وحكمته ، ويكون هواه تبعاً لما أمر الله به ، فلا يكون له مع أمر الله وحكمه هوى يخالف ذلك .

قال الله تعالى : ﴿فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لايجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾ (١) . وقد روي عنه ﷺ أنه قال : ((والذي نفسي بيده لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به .))(٢).

وفي الصحيح أن عمر بن الخطاب قال : ((له : يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك فقال له عمر فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي فقال النبي ﷺ الآن يا عمر))(٣) . وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال : ((لايؤمن أحدم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين)) (٤)

وقال تعالى : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره﴾(٥).

فإذا كان الإيمان لايصل حتى يحكم العبد رسوله ﷺ ويسلم له ويكون هواه تبعاً لما جاء به ، ويكون الرسول ﷺ والجهاد في سبيله مقدماً على حب الانسان نفسه وماله

---

(١) سورة النساء ٦٥ .

(٢) رواه الخطيب البغدادي في تاريخه ٣٦٩/٤ ، والبغوي في شرح السنة (ح ١٠٤) من طريق نعيم بن حماد ، وقد ضعفه ابن رجب في جامع العلوم والحكم ٣٩٤/٢ ، وإلى هذا أشار الشيخ بقوله : " روي " وضعفه الألباني في السنة لابن أبي عاصم ص ١٢ (ح ١٥) وفي المشكاة (ح ١٦٧)

(٣) رواه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٣٢) .

(٤) رواه البخاري في الإيمان (١٥) ومسلم في الإيمان (ح٤٤) والنسائي في الإيمان وشرائعه (ح٥٠١٣ ، ٥٠١٤) وابن ماجة في المقدمة (ح ٦٧) والدارمي في الرقاق (ح٢٧٢١)

(٥) سورة التوبه ٢٤ .

وأهله ، فكيف في تحكيمه الله تعالى والتسليم لـه ؟ ! . فمن رأى قوماً يستحقون العذاب في ظنه ، وقد غفر الله لهم ورحمهم ، وكره هو ذلك ، فهذا إما أن يكون عن إرادة تخالف حكم الله ، وإما عن ظن يخالف علم الله ، والله عليم حكيم ، وإذا علمت أنه عليم ، وأنه حكيم لم يبق لكراهية ما فعله وجه ، وهذا يكون فيما أمر به وفيما خلقه و لم يأمرنا أن نكرهه ونغضب عليه .

فأما ما أمرنا بكراهته من الموجودات : كالكفر والفسوق والعصيان فعلينا أن نطيعه في أمره بخلاف توبته على عباده وإنجائه إياهم من العذاب ، فإن هذا من مفعولاته التي لم يأمرنا أن نكرهها ، بل هي مما يحبها فإنه يحب التوابين ويحب المتطهرين ، فكراهة هذا من نوع اتباع الإرادة المزاحمة للإلهية ، فعلى صاحبها أن يحقق توحيد الإلهية فيقول : لاإله إلا الله ، ويستغفر لذنبه .

فعلينا أن نحب ما يحب ، ونرضى ما يرضى ، نأمر بما يأمر ، وننهى عما ينهى ، فإذا كان ﴿ يحب التوابين ﴾ و ﴿ يحب المتطهرين ﴾ فعلينا أن نحبهم ، ولا نأله مراداتنا المخالفة لمحابه ...)[١]

وبناء على ما تقدم ذكره فإن من حقق التوحيد بتخليص نفسه من المعاصي والآثام ، وبضبط إراداته عن أن تريد ماحرمه الله ؛ فإن قلبه سيكون حياً حياة تدفع عنه السيئات وفعل المنكرات ، بخلاف من لم يضبط إراداته ، فإنه لن يحقق التوحيد ؛ لأن قلبه سيكون ميتاً ، والقلب الميت الذي لاحياة فيه يمسى فيكون مثله مثل ما جاء في الحديث : ((كالكوز مجخياً لايعرف معروفاً ولا ينكر منكراً))[٢] فإذا كان كذلك لم يكن في قلبه حياة توجب حياءه وامتناعه من القبيح فيكون كما قال النبي ﷺ : ((إن مما أدرك الناس من كلام النبوة : إذا لم تستح فاصنع ما شئت))[٣]

من يهن يسهل الهوان عليه مالم جرح ميت إيلام

---

(١) الفتاوى ١٠/٢٨٨-٢٨٩ .

(٢) رواه مسلم في الإيمان (ح ١٤٤) .

(٣) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (ح٣٤٨٣) وأبو داود في الأدب (ح ٤٧٩٧) وابن ماجه في الزهد (ح ٤١٨٣) .

ولهذا فالمؤمن الحي يظهر عليه التأثر بالقبيح ، وله إرادة تمنعه عن فعل ذلك ، أما الميت الذي لاحياء لديه فإنه لاإيمان يزجره عن كل قبيح [١] .

قال الله جل شأنه في يوسف عليه السلام : ﴿ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾ [٢]

(فيوسف عليه الصلاة والسلام كان شاباً عزباً أسيراً في بلاد العدو ، حيث لم يكن هناك أقارب أو أصدقاء فيستحي منهم إذا فعل فاحشة ، فإن كثيراً من الناس يمنعه من مواقعة القبائح حياؤه ممن يعرفه ، فإذا تغرب فعل مايشتهيه ، وكان أيضاً خالياً لايخاف مخلوقاً ، [ومع ذلك كله فقد ضبط إرادته فلم يريد إلا ما يرضي الله جل وعلا بل لم يهم أصلاً بما حرم الله جل وعلا ، مع سوء موقف العزيز الذي لم يزجر امرأته ويعاقبها] بل أمر يوسف بالإعراض كما ينعر الديوث ، ثم إنها استعانت بالنساء وحبسته وهو يقول : ﴿رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ، وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهت وأكن من الجاهلين﴾[٣] فليتدبر اللبيب هذه الدواعي التي دعت يوسف عليه السلام إلى ما دعته إليه ، وأنه مع توفرها ، وقوتها ليس له عن ذلك صارف إذا فعل ذلك ، ولا من ينجيه من المخلوقين ، ليتبين له أن الذي ابتلي به يوسف عليه السلام كان أعظم الأمور ، وأن تقواه وصبره عن المعصية حتى لايفعلها [وضبط إرادته] مع ظلم الظالمين له حتى لايجيبهم كان من أعظم الحسنات وأكبر الطاعات وكانت نفسه عليه السلام من أزكى الأنفس ...)[٤] .

واختيار النبي ﷺ له ولأهله الاحتباس في شعب بنى هاشم بضع سنين ، لايبايعون ولا يشارون ، وصبيانهم يتضاغون من الجوع ، قد هجرهم وقلاهم قومهم ، وغير قومهم ، هذا أكمل حالاً من حال يوسف عليه السلام . فإن هؤلاء كانوا يدعون النبي ﷺ ومن معه إلى الشرك ، وأن يقول غير الحق ...

---

(١) انظر الفتاوى ١٠/١٠٩-١١٠ .

(٢) يوسف ٢٤ .

(٣) سورة يوسف ٣٣ .

(٤) الفتاوى ١٥/١٣٨-١٣٩ .

وكذلك غير الأنبياء من أمة محمد ﷺ يختار أحدهم الأذى في طاعة الله على الإكرام مع معصيته كأحمد بن حنبل ، اختار القيد والحبس والضرب على موافقة السلطان وجنده ...)[١]

فتبين بهذا أن ضبط الإرادات عن أن تريد غير ما يريده الله ويحبه ويرضاه من أهم الأمور التي يحصل بها تحقيق التوحيد .

٦) : تخليص القلب من الحسد ونحوه :

الحسد من أهم الأمور التي يكون تركها سبباً دافعاً إلى تحقيق التوحيد

وقد عرفه شيخ الاسلام - رحمه الله - بعد أن ذكر بعض التفريعات له فقال :

"والتحقيق أن الحسد هو البغض والكراهة لما يراه من حسن حال المحسود"[٢]

ثم عقب بعد ذلك بذكر أنواعه فذكر أنه نوعان :

أحدهما كراهته للنعمة على الغير مطلقاً ، وهذا هو المذموم ، فيكون ذلك مرضاً في قلبه يؤلمه ويؤذيه ، ويتلذذ بزوال النعمة عن المحسود وإن لم يحصل له نفع بذلك ؛ لكن نفعه بزوال الألم الذي كان في نفسه .

وهذا النوع من الحسد هو الذي وردت النصوص بذمه ، وذم من يتصف به، وأول من فعله إبليس حين حسد آدم على ما فضله الله به عليه من الأمر للملائكة بالسجود له ، ولا يتصف به إلا من غلظ طبعه وساء خلقه ، وقد استعاذ الرسول ﷺ منه ، وحذر من الاتصاف به ، وهو يدل على قلة يقين المتصف به ، وعدم رضاه بما أراده الله وقضاه وقدره .

والنوع الثاني : أن يكره فضل ذلك الشخص عليه فيحب أن يكون له مثله أو أفضل منه ، فهذا حسد وهو الذي سموه بالغبطه . وقد سماه النبي ﷺ حسداً في قوله :

((لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها))[٣] وفي لفظ ابن عمر : ((رجل آتاه الله القرآن

---

(١) الفتاوى ١٤/١٣٥ ، ١٣٦ .

(٢) الفتاوى ١٠/١١١ .

(٣) رواه البخاري في كتاب العلم (ح ٣٢) ومسلم في صلاة المسافرين (ح ٨١٦) وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٨).

فهو يقوم به آناء الليل والنهار ، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفق منه في الحق آناء الليل والنهار.)) (١) . فهذا الحسد الذي نهى عنه النبي ﷺ إلا في موضعين هو الذي سماه أولئك الغبطة ، وهو أن يحب مثل حال الغير ، ويكره أن يفضل عليه بشيء. [مع عدم تمني زوال ذلك الشيء عن الغير]

وسمي حسداً مع كونه حباً للخير ؛ لأن مبدأه النظر إلى الإنعام إلى الغير وكراهته أن يتفضل عليه ، ولولا وجود ذلك [الشيء عند] الغير لم يحب ذلك ، ولهذا سماه حسداً . أما من أحب أن ينعم عليه مع عدم التفاته إلى أحوال الناس فهذا ليس من الحسد في شيء (٢) وهذا هو مقام محققي التوحيد ، لما اتصف به من التسليم والانقياد والرضا التامين لأمر الله وقضاءه وقدره .

وأكثر الحسد الذي يقع هو في هذين النوعين العلم والمال (ولهذا يوجد بين أهل العلم الذين لهم أتباع من الحسد مالا يوجد فيمن ليس كذلك ، وكذلك من له أتباع بسبب إنفاق ماله ، فهذا ينفع الناس بقوت القلوب وهذا ينفعهم بقوت الأبدان ، والناس كلهم محتاجون إلى ما يصلحهم من هذا وهذا . . . ولهذا كان الناس يعظمون دار العباس ، كان عبدالله يعلم الناس وأخوه يطعم الناس .. ورأى معاوية الناس يسألون ابن عمر عن المناسك وهو يفتيهم فقال : هذا والله الشرف أو نحو ذلك .) (٣) أهـ

والحسد داء عضال لايكاد يخلو منه أحد إلا اللهم الخلص من الناس الذين تحقق التوحيد في قلوبهم ، وعلا الإيمان في نفوسهم ، وصغرت هذه الدنيا وحطامها في نفوسهم فأصبحوا لايأبهون بحطامها وزخرفها ، فليس لذلك في قلوبهم شأناً ، بل تعدى الأمر إلى أعلى من ذلك حتى لم يلتفتوا إلى تمني العمل الصالح الذي قد يرون شخصاً ما يعمله ؛ لأن نفوسهم قد أقبلت على الله جل شأنه حتى أصبحوا لاينظرون في أعمالهم إلى غيرهم ، وإنما ينظرون إلى رضى ربهم فيقبلون إليه إقبالاً دافعه من ذوات أنفسهم لا لكونهم يرون أن غيرهم قد سبقهم في العمل .

---

(١) رواه البخاري في فضائل القرآن (ح ٥٠٢٥) وفي كتاب التوحيد (ح٧٥٢٩) ومسلم في صلاة المسافرين (ح٨١٥) واللفظ له ، والترمذي في البر والصلة (ح ١٩٣٦) وابن ماجه في الزهد (ح ٤٢٠٩)

(٢) انظر الفتاوى ١٠/١١١-١١٣ .

(٣) الفتاوى ١٠/١١٤-١١٥ .

وقد وضح هذا الامر شيخ الاسلام - رحمه الله - واستشهد بقصة عمر في مسابقته لأبي بكر في الانفاق . فقال - رحمه الله - : (فهذا عمر بن الخطاب ﷺ نافس أبا بكر ﷺ في الانفاق كما ثبت في الصحيحين عن عمر بن الخطاب ﷺ قال : ((أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق فوافق ذلك مالاً عندي فقلت اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً ، قال فجئت بنصف مالي ، قال فقال لي رسول الله ﷺ ما أبقيت لأهلك قلت مثله ، وأتي أبو بكر ﷺ بكل ما عنده ، فقال له رسول الله ﷺ ما أبقيت لأهلك قال أبقيت لهم الله ورسوله ، فقلت لا أسابقك إلى شيء أبداً .))[١]

فكان ما فعله عمر ﷺ من المنافسة والغبطة المباحة ؛ لكن حال الصديق ﷺ أفضل منه ، وهو أنه خال من المنافسة مطلقاً لاينظر إلى حال غيره .

وكذلك موسى ﷺ حصل له منافسة وغبطة للنبي ﷺ حتى بكى لما تجاوزه النبي ﷺ فقيل ما يبكيك ؟ فقال : أبك ؛ لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي [٢]

وعمر ﷺ كان مشبهاً بموسى ، ونبينا حاله أفضل من حال موسى ، فإنه لم يكن عنده شيء من ذلك .[٣]

وكذلك كان في الصحابة أبو عبيدة بن الجراح ونحوه كانوا سالمين من جميع هذه الأمور ، فكانوا أرفع درجة ممن عنده منافسة وغبطة ، وإن كان ذلك مباحاً ، ولهذا استحق أبو عبيدة أن يكون أمين هذه الأمة ، فإن المؤتمن إذا لم يكن في نفسه مزاحمة على شيء مما أؤتمن عليه كان أحق بالأمانة ممن يخاف مزاحمته ، ولهذا يؤتمن على النساء والصبيان الخصيان ، ويؤتمن على الولاية الصغرى من يعرف أنه لايزاحم على الكبرى ...)[٤]

---

(١) رواه الترمذي في المناقب (ح٣٦٧٥) وقال حديث حسن صحيح وأبو داود في الزكاة (ح١٦٧٨) والدارمي في الزكاة (ح١٦٦٠)

(٢) رواه البخاري في المناقب (ح ٣٨٨٧) ومسلم في الإيمان (ح١٦٢ ، ١٦٤) والنسائي في الصلاة (٤٤٨)

(٣) وهذا لايعنى أن أبا بكر ﷺ أفضل من موسى ﷺ . كما لايعني أن عمر ﷺ لم يحقق التوحيد ؛ لكن أبا بكر أكمل منه وأفضل ، وإن كان عمر ﷺ فاضلاً .

(٤) الفتاوى ١٠/١١٧-١١٨ .

وفي الحديث عن أنس ﷺ قال : كنا جلوساً يوماً عند رسوا الله ﷺ فقال : ((يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة)) قال فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوء قد علق نعليه في يده الشمال فسلم ، فلما كان الغد قال النبي ﷺ مثل ذلك فطلع ذلك الرجل على مثل حاله ، فلما كان اليوم الثالث ، قال النبي ﷺ مقالته فطلع ذلك الرجل على مثل حاله ، فلما قام النبي ﷺ اتبعه عبدا لله بن عمرو بن العاص ﷺ فقال : إني لاحيت أبي فأقسمت أن لاأدخل عليه ثلاثاً فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي الثلاث فعلت ، قال نعم! قال أنس ﷺ فكان عبدا لله يحدث أنه بات عنده ثلاث ليال فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا تعار انقلب على فراشه ذكر ا لله عز وجل وكبر حتى يقوم إلى صلاة الفجر ، فقال عبدا لله غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً ، فلما فرغنا من الثلاث وكدت أن أحقر عمله قلت : يا عبدا لله لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا هجرة ، ولكن سمعت رسول ا لله ﷺ ثلاث مرات يطلع عليكم رجل من أهل الجنة فطلعت أنت الثلاث مرات فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك ، فأقتدي بذلك ، فلم أرك تعمل كثير عمل ، فما الذي بلغ بك ما قال رسول ا لله ﷺ ؟ قال : ما هو إلا ما رأيت غير أنني لا أجد على أحد من المسلمين في نفسي غشاً ولا حسداً على خير أعطاه ا لله إياه ، قال عبدا لله هذه التي بلغت بك وهي التي لانطيق)[1] يشير إلى خلوه وسلامته من جميع أنواع الحسد .

وبهذا أثنى ا لله تعالى على الأنصار فقال : ﴿ ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ أي مما أوتي إخوانهم من المهاجرين قال المفسرون : ﴿لايجدون في صدورهم حاجة ﴾ أي حسداً وغيظاً مما أوتي المهاجرون ، ثم قال بعضهم : من مال الفيء ، وقيل من الفضل والتقدم [2].

---

(١) رواه الترمذي في المناقب (ح٣٦٩٤) وقال : " هذا حديث غريب من حديث بن مسعود " وأخرجه أحمد ١٦٦/٣ والطبراني في الكبير (٢٠٦/١٠ ح١٠٣٢٤ - ١٠٣٤٤) وعبد الرزاق في مصنفه ٢٨٧/١١(ح٢٠٥٥٩) وابن المبارك في الزهد (ح٦٩٤) عن أنس بن مالك ، وأبو نعيم في الحلية ٣٩٣/١٠.. وأورده المندري في الترغيب والترهيب وقال اسناده على شرط البخاري ومسلم ٤٠٥/٣-٤٠٦ كتاب البر والصلة ، في الترهيب من الحسد وفضل سلامة الصدر .

(٢) نفس المصدر السابق ١١٨ - ١١٩ .

والحسد داء عضال يحلق الدين حلقاً كما سماه النبي ﷺ بذلك في قوله : ((دب إليكم داء الأمم قبلكم : الحسد والبغضاء وهي الحالقة لا أقول تحلق الشعر ؛ ولكن تحلق الدين))(١) .

كما نهى النبي ﷺ عن الحسد بقوله : ((..لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام.)) (٢)

فمن تخلص من الحسد بشقه الأول فقد حقق درجات من التوحيد ، ومن تخلص من شقيه جميعاً فقد بلغ الكمال في التوحيد .



(١) رواه الترمذي في صفة القيامة ..(ح٢٥١٠) وأحمد ١/١٦٥ ، ١٦٧ ، وقال أحمد شاكر في تحقيقه (ح١٤١٢ ، ١٤٣٠) : " إسناده ضعيف " وكذا الألباني في تخريج مشكلة الفقر (ح٢٠) ، وحسنه رواية الترمذي كما في صحيح سنن الترمذي وفي إرواء الغليل أيضاً (ح٧٧٧) .

(٢) رواه البخاري في الأدب (ح٦٠٦٥) ومسلم في البر والصلة والآداب (ح ٢٥٥٩) والترمذي في البر والصلة (ح ١٩٣٥) وأبو داود في الأدب (ح٤٩١٠) ومالك في الموطأ في الجامع (١٦٨٣) .

القسم الثاني : التحقيق المندوب

وهو ترك مالا بأس به حذراً مما به بأس [١]

وهذا القسم تحقيقه عزيز في هذه الأمة (ولذا فإنه لايوجد إلا في أهل الإيمان الخلص الذين أخلصهم الله واصطفاهم من خلقه ، كما قال تعالى في يوسف عليه السلام ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخْلَصين﴾ [٢] وفي قرآءة المخلِصين[٣] ، وهم في صدر هذه الأمة كثيرون ، وفي آخرها هم الغرباء ، وهم الأعظمون قدراً عند الله ، قال تعالى : عن خليله إبراهيم عليه السلام : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ، شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم .﴾ [٤]

ولايصل العبد إلى هذه المرتبة إلا إذا حقق عدة أمور منها :

١) استعمال الأعضاء وفق الشرع

بين شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ كيفية استعمال الأعضاء وفق الشرع ، ومن ثم الثمرة التي تثمرها من تحقيق التوحيد لرب العالمين ، فيقول : (إن الله سبحانه وتعالى خلق القلب للإنسان ليعلم به الأشياء ،كما خلق له العين ليرى بها الأشياء ، والأذن ليسمع بها الأشياء ، كما خلق له سبحانه كل عضو من أعضائه لأمر من الأمور ، وعمل من

---

(١) انظر حاشية ابن قاسم على كتاب التوحيد ٣٧ . ويدل عليه قوله ﷺ : ((دع ما يريبك إلى ما لا يريبك)) وقوله ﷺ : ((من اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه)) . والحديث الأول رواه البخاري في البيوع في كتاب البيوع ، باب تفسير المشبّهات موقوفاً على حسان بن أبي سنان . ورواه الترمذي مرفوعاً من حديث الحسن بن علي في صفة القيامة (ح٢٥١٨) وقال : حديث حسن صحيح .والنسائي في الأشربة (ح٥٧١١) وأحمد ٢٠٠/١ ، ٢٠٠/٣ ، ١١٢ ، ١٥٣ . والحاكم ١٣/٢ ، وصححه ووافقه الذهبي ، وصححه أحمد شاكر أيضاً كما في تحقيقه للمسند (ح١٧٢٣) وكذا الألباني في الإرواء (ح١٢ ، ٢٠٧٤) .
واما الحديث الثاني فقد رواه البخاري في الإيمان (ح٥٢) ومسلم في المساقاة (ح١٥٩٩) .ورواه غيرهما .

(٢) سورة يوسف آية ٢٤ .

(٣) هذه قرآءة ابن كثير وأبو عمر وابن عامر ، قرأوا بكسر اللام في جميع القرآن ، وقرأ الباقون بفتحها ، انظر : الكشف عن وجوه القرآءا ت السبع لمكي بن أبي طالب ٩/٢-١٠ ، حجة القرآءات لابن زنجلة ص ٣٥٨-٣٥٩ .

(٤) انظر قرة عيون الموحدين ٣٥.

الأعمال . فاليد للبطش والرجل للسعي واللسان للنطق ، والفم للذوق ، والأنف للشم ، والجلد للمس ، وكذلك سائر الأعضاء الباطنة والظاهرة .

فإذا استعمل الإنسان العضو فيما خلق له وأعد لأجله فذلك هو الحق القائم والعدل الذي قامت عليه السموات والأرض ، وكان ذلك خيراً له وصلاحاً لذلك العضو وللشئ الذي استعمل فيه ، وذلك العبد الصالح هو الذي استقام حاله وأولئك هم المفلحون .

وإذا لم يستعمل العضو في حقه بل ترك بطالاً فذلك الخسران المبين ، وصاحبه مغبون ، وإن استعمل في خلاف ما خلق له فهو الضلال والهلاك ، وصاحبه من الذين بدلوا نعمة الله كفراً ...

قال سبحانه ممتناً ومذكراً لعبادة بهذه الجوارح : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾ [١] وقال سبحانه :﴿ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾[٢] وقال جل شأنه :﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾[٣] وقال : ﴿ وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة﴾[٤]...)[٥]

(ثم إن سيد الأعضاء ورأسها هو القلب كما سمي قلباً . قال النبي ﷺ : ((ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب))[٦] وقال ﷺ : ((الإسلام علانية والإيمان في القلب ثم أشار بيده إلى أن التقوى هاهنا ألا إن التقوى هاهنا))[٧]...)[٨]

---

(١) سورة النحل ٧٨ .

(٢) سورة السجدة ٩ .

(٣) سورة الإسراء ٣٦ .

(٤) سورة الأحقاف ٢٦ .

(٥) انظر الفتاوى ٣٠٧/٩-٣١٠ .

(٦) رواه البخاري في كتاب الإيمان (ح ٥٢) ومسلم في كتاب المساقات (ح ١٥٩٩) وابن ماجة في الفتن (ح٣٩٨٤) والدارمي في البيوع (ح٢٥٣١)

(٧) رواه الإمام أحمد (١٣٤/٣) وانفرد به . وقال الألباني : " اسناده ضعيف ، فيه علي بن مسعدة ، قال العقيلي في الضعفاء قال البخاري فيه نظر ، وقال عبد الحق الأزدي في الأحكام الكبرى ق ٢/٣ حديثه غير محفوظ " الطحاوية ٣٩٠ .

(٨) الفتاوى ٣٠٨/٩ .

وقد بين شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ أن العبد متى ما حفظ قلبه عما حرم الله فقد حفظ باقي جوارحه . وتوجيه القلب وفق الشرع يكون بتسييره فيما (خلق من أجله ، وهو أن يعقل الأشياء بعد أن يعلمها علماً يقينياً ؛ لأنه قد يعلم الشئ من لا يكون عاقلاً له ؛ بل غافلاً عنه ملغياً له .

والذي يعقل الشيء هو الذي يقيده ويضبطه ويعيه ويقبله في قلبه ، فيكون وقت الحاجة إليه غنياً فيطابق عمله قوله ، وباطنه ظاهره ، وذلك هو الذي أوتي الحكمة ، ﴿ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ [1]

وقال ﷺ : ((.. فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه))[2] وقال أبو الدرداء : "إن من الناس من يؤتى علماً ولا يؤتى حكمة ، وإن شداد بن أوس[3] ممن أوتي علماً وحكماً."[4] ...)[5]

(فإذا كان القلب مشغولاً بالله ، عاقلاً للحق متفكراً في العلم فقد وضع في موضعه ، كما أن العين إذا صرفت إلى النظر في الأشياء فقد وضعت في موضعها ، أما إذا لم يصرف إلى العلم النافع والعمل الصالح ولم يودع فيه الحق فقد نسي ربه ، فلم يوضع في موضعه ، بل هو ضائع ؛ ولا يحتاج أن نقول قد وضع في غير موضعه ، بل لم يوضع أصلاً ؛ لأن موضعه الحق وما سوى الحق باطل ...)[6]

ثم بين ـ رحمه الله ـ أن القلب إذا ما استعمل في الحق فله وجهان :

---

(١) سورة البقرة ٢٩٦ .

(٢) رواه الترمذي في كتاب العلم (ح ٢٦٥٦ ، ٢٦٥٨) وقال : هذا حديث حسن ، ورواه أبو داود في العلم (ح٣٦٦٠) وابن ماجة في المقدة (٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٦) والدارمي في المقدمة (ح ٢٢٧) . وانظر كتاب "دراسة حديث نضر الله امرأ سمع مقالتي ..." رواية ودراية للشيخ عبد المحسن العباد البدر .

(٣) هو شداد بن أوس بن ثابت بن المنذر بن حرام الأنصاري الخزرجي ، وهو ابن أخي حسان بن ثابت ، من فضلاء الصحابة وعلمائهم ، توفي سنة ٥٨هـ وقيل ٦٤٠هـ ، انظر طبقات ابن سعد ٤٠١/٧ والسير ٤٦٠/٢-٤٦٧ ، والشذرات ٦٤/١ .

(٤) انظر سير أعلام النبلاء ٤٦٤/٢ بنحوه .

(٥) الفتاوى ٣٠٩/٩ .

(٦) المصدر السابق ٣١٢-٣١٣ .

وجه مقبل على الحق ووجه معرض عن الباطل ، وبهذا يزكوا القلب ويسلم من كل داء[1].

فإذا توجه القلب هذا التوجه فإن العبد لن يسمع ولن يبصر ولن يمشي ولن يبطش ولن يتكلم إلا بما يرضي ربه ، وسيبتعد بجميع جوارحه عما حرم الله تعالى . وهذا هو أول درجات التحقيق المندوب بل والواجب .[2]

وقد يصل إلى تحقيق مرتبة الولاية التي جاء وصفها في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : ((إن الله قال : من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن ؛ يكره الموت وأنا أكره مساءته))[3] فهؤلاء هم الذين يرضى الله لرضاهم ويسخط لسخطهم ، وهم الذين يثأر لهم ، وهم الذين أحبوه وآمنوا به ووالوه ، فأحبوا ما يحب وأبغضوا ما يبغض ورضوا بما يرضى ، وسخطوا بما يسخط ، وأمروا بما يأمر ونهو عما نهى ، وأعطوا لمن يحب أن يعطى ، ومنعوا من يحب أن يمنع كما ورد عن النبي ﷺ أن : ((أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله.))[4] وفي حديث آخر ((من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان))[5][6].

---

(١) انظر الفتاوى ٣١٢/٩-٣١٣ .

(٢) انظر المصدر السابق ٣١٦/٩-٣١٩ .

(٣) رواه البخاري في الرقاق (ح ٦٥٠٢) .

(٤) رواه الإمام أحمد ٢٨٦/٤ بلفظ :((أوسط عرى الإيمان أن تحب في الله وتبغض في الله)) وقد سبق تخريجه انظر الفهرس حرف الألف .

(٥) رواه أبو داود في كتاب السنة (ح٤٦٨١) من حديث أبي أمامة ، وأحمد ٤٣٨/٣ ، ٤٤٠ وصححه الألباني في السلسة الصحيحة (ح٣٨٠) .

(٦) انظر الفتاوى ١٦٠/١١ ، ٦٢ . و ٤٦٢/٢ ، ٣٧٠ .

وعلى العبد أن يروض جوارحه على فعل المأمور وترك المحضور ، ويخلي فيما سواهما عن إرادته ، لئلا يكون له مراد غير فعل ما أمر الله به . فيعين على البر والتقوى الذي يفعله غيره ويحب ذلك ويرضى به ، ويقوم على نصرة المظلوم ، وإغاثة الملهوف ، وغير ذلك من أنواع البر والتقوى سواء كان هو الفاعل لها أم فعلها غيره ، ففي هذه الحال يجب عليه إعانته ومحبة الفعل ، كما أنه مأمور ببغض المنهي عنه ومأمور بدفعه ، وذلك مثل أن يظهر الكفر أو الفسوق والعصيان ، فهو مأمور ببغض ذلك ودفعه ، وإنكاره بحسب الإمكان .

وأما مالا يؤمر به من جنس المباحات التي لايستعان بها على طاعة ولا معصية ، فهو ليس مأموراً بحبها ولا ببغضها ، مع أن الذي ينبغي له أن لا يفعل من المباحات إلا ما يستعين به على الطاعة ، ويقصد به القربه لله جل شأنه[١]. وقد تقدم شيء من هذا .[٢]

٢) تحقيق مرتبة اليقين

عرف شيخ الإسلام ــ رحمه الله ــ اليقين بقوله : (اليقين هو طمأنينة القلب ، واستقرار العلم فيه ، وهو معنى قولهم : ماء يقن إذا استقر عن الحركة ، وضد اليقين الريب ، وهو نوع من الحركة والاضطراب ، يقال : رابني يريبني ، ومنه في الحديث : أن النبي ﷺ مر بظبي حاقف ، فقال : لايريبه أحد) [٣] .

واليقين يتعلق بعلم القلب وعمله ، فإن العبد قد يعلم علماً جازماً بأمر من الأمور ، ومع هذا يكون في قلبه حركة واختلاج من العمل الذي يقتضيه ذلك العلم ، كعلم العبد أن الله رب كل شيء ومليكه ، ولا خالق غيره ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فهذا تصحبه الطمأنينة إلى الله والتوكل عليه ، وقد لا يصحبه العمل بذلك إما لغفلة القلب عن هذا العلم ، والغفلة ضد العلم التام وإن لم يكن ضداً لأصل العلم ، وإما

---

(١) انظر الفتاوى ٤٦٠/١٠ .

(٢) انظر الفصل الأول من هذا الباب .

(٣) رواه الإمام مالك في الموطأ في الحج (ح٧٩) والنسائي في المناسك (ح٢٨١٨) وأحمد ٤٥٢/٣ ، وقد ذكر بعضه الحافظ في الفتح ٣٣/٤ وقال أخرجه مالك وأصحاب السنن وصححه ابن خزيمه وغيره .

للخواطر التي ينتح في القلب من الإلتفات إلى الأسباب ، وإما لغير ذلك . [١] لكن هذا وإن كان عنده شيء من اليقين ، إلا أن يقينه هذا لم ينفعه و لم ينتفع به ، إذا أن علم اليقين هو ما يحصل به الانتفاع كما قال سبحانه : ﴿وفي الأرض آيات للموقنين﴾ [٢] ، وأهل اليقين هم أهل الهدى والفلاح من بين العالمين ، قال سبحانه :﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾[٣]

ومتى وصل اليقين إلى القلب امتلأ نوراً وإشراقاً ، وانتفى عنه كل ريب وشك وسخط وهم وغم ، وامتلأ محبة لله وخوفاً منه ورضى به ، وشكراً له ، وتوكلاً عليه ، وإنابة إليه .

وفي الحديث : ((.. وسلوا الله المعافاة فإن أحدكم لم يعط بعد اليقين خيراً من العافية))[٤]. وتظهر ثمرات اليقين في العبد حين الابتلاء ، فأهل اليقين أهل الثبات على الحق ، بخلاف غيرهم فإن الابتلاء قد يذهب إيمانه وينقصه ، قال تعالى : ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ [٥] ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ [٦] فهذا حال أهل اليقن الذين بلغوا مرتبه عليا من الإيمان حينما حققوا التوحيد في قلوبهم .[٧]

وقد ذكر ــ رحمه الله ــ أن القلب المعمور بالتقوى والذي بلغ مرتبة اليقين يؤيده الله ﷻ بنور يقذفه في قلبه (كما في الحديث الصحيح : لا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل

---

(١) انظر الفتاوى ٣٢٨/٣ .

(٢) سورة الذاريات آية ٢١ .

(٣) البقرة الآيات ٤-٥ .

(٤) رواه الترمذي (ح ٣٥٥٨) وابن ماجه في كتاب الدعاء (ح ٣٨٤٩) ، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ، وفي صحيح الجامع الصغير (ح٤٠٧٢) .

(٥) سورة السجدة ٢٤ .

(٦) سورة ال عمران ١٧٣ .

(٧) انظر الفتاوى ٣٣٠/٣ .

حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشى بها ..))[١] ومن كان توفيق ا لله له كذلك فكيف لا يكون ذا بصيرة نافذة ، ونفس فعالة ؟ وإذا كان الاثم والكبر في صدور الخلق له تردد وجولان ، فكيف حال من ا لله سمعه وبصره وهو في قلبه ؟ ...

وفي الحديث الصحيح : ((إن الدجال مكتوب بين عينيه كافر ، يقرؤه كل مؤمن قارئ وغير قارئ))[٢] فدل على أن المؤمن يتبين له ما لا يتبين لغيره ، ولا سيما في الفتن ، وينكشف له حال الكذاب الوضاع على ا لله ورسوله ، فإن الدجال أكذب خلق ا لله ، مع أن ا لله يجري على يديه أموراً هائلة ومخاريق مزلزلة ، حتى إن من رآه افتتن به ، فيكشفها ا لله للمؤمن حتى يعتقد كذبها وبطلانها ...[٣]

وأما كيف يحصل اليقين ؟ فقد ذكر شيخ الإسلام ـ رحمه ا لله ـ أنه يتحقق بثلاثة أمور:

أحدها : تدبر القرآن .

الثاني : تدبر الآيات الكونية في الآفاق والأنفس التي تبين أنه حق .

والثالث : العمل بموجب العلم ، قال تعالى : ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾[٤] والضمير عائد إلى القرآن كما في سياق الآية التي قبلها .[٥]

والناس يتفاوتون في اليقين تفاوتاً عظيماً ، وإلى هذا المعنى أشار من قال : (ماسبقكم أبو بكر بفضل صلاة ولا صيام ولكن بشيء وقر في قلبه)[٦] وهو اليقين والإيمان ، ومنه

---

(١) تقدم تخريجه انظر الفهارس .

(٢) رواه البخاري في الجنائز (ح١٣٥٥) ومسلم في الفتن وأشراط الساعة (ح٢٩٣١) واللفظ له ، وأبو داود في الملاحم (ح٤٣٢٩) والترمذي في الفتن (ح٢٢٤٩) .وغيرهم .

(٣) الفتاوى ٢٠/٤٣-٤٥ بتصرف .

(٤) سورة فصلت ٥٣ .

(٥) انظر المصدر السابق ٣/٣٣٠-٣٣١ .

(٦) القائل هو : بكر بن عبد ا لله المزني ، انظر تيسير العزيز الحميد ص ٩٠ .

قوله ﷺ : ((وزنت بالأمة فرجحت ، ثم وزن أبو بكر بالأمة فرجح ، ثم وزن عمر بالأمة فرجح ، ثم رفع الميزان)) [١]

وروى عن بعض السلف أنه قال : إذا أحب أحدكم أن يعلم كيف منزلته عند ا لله فلينظر كيف منزله ا لله من قلبه . فإن ا لله ينزل العبد من نفسه حيث أنزله العبد من قلبه .[٢]

ومع اليقين يحصل القرب من ا لله تعالى ، كما قال النبي ﷺ : ((أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد))[٣] وقال ا لله تعالى في الحديث القدسي : ((من تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً.)) الحديث [٤]

فإذا ما سعى العبد في تحقيق هذا المرتبة فلا شك أنه سيزداد إيمانه وتحقيقه للتوحيد.[٥].

٣) تحقيق مرتبة الإحسان :

بين شيخ الإسلام — رحمه ا لله — أن الاحسان يتضمن الاحسان في عبادة ا لله جل وعلا ، كما يتضمن الاحسان إلى الناس.

وأعظم الإحسان : الإيمان والتوحيد والإنابة إلى ا لله تعالى : والإقبال إليه والتوكل عليه ، وأن يعبد العبد ربه كأنه يراه إجلالاً وإعظاماً ومهابة وحياء ومحبة وخشية وخوفاً .

فهذا هو مقام الإحسان الذي قال فيه النبي ﷺ عندما سأله جبريل عنه فقال : ((أن تعبد ا لله كأنك تراه فإلم تكن تراه فإنه يراك)) [٦] [٧] .

كما ذكر — رحمه ا لله — أيضاً : (أن من الإحسان إدراك العبد الغاية من عبادته ، فيقبل على ا لله بذل وفقر وإخلاص ومحبة وخوف ورجاء مستحضراً قلبه ما يقول ، فالمتعبد لله جل وعلا بسجوده له حال كونه مستحضراً لما يقول ، مخبتاً لله ، خاشعاً قلبه ، فإن

---

(١) سبق تخريجه في أول هذا المبحث انظر الفهارس .

(٢) أخرجه أبو يعلى الموصلي وابن أبي الدنيا في كتاب الذكر .

(٣) رواه مسلم في الصلاة (ح ٤٨٢) والنسائي في التطبيق (ح ١١٣٧) وأبو داود في الصلاة (ح ٨٧٥).

(٤) رواه مسلم في التوبة (ح ٢٦٧٥) .

(٥) انظر الفتاوى ٢/٣٨٤-٣٨٦ .

(٦) رواه البخاري في الإيمان (٥٠) ومسلم في الإيمان أيضاً (ح ٩) والترمذي في الإيمان (٢٦١٠) والنسائي في الإيمان وشرائعه (ح ٤٩٩١) وابن ماجة في المقدمة (٦٤) .

(٧) انظر الفتاوى ٢٨/١٥ .

سجوده هذا سيكون سبباً لزيادة قربه من الله مع قربه ، كما قال تعالى في أمره لنبيه ﷺ ﴿واسجد واقترب﴾ وذلك أن السجود غاية الخضوع والذل لله جل وعلا ، وغاية تسفله وتواضعه بأشرف شيء فيه لله وهو وجهه بأن يضعه على التراب ، فناسب في غاية سفوله أن يصف ربه بأنه الأعلى – والأعلى أبلغ من العلي – ...

فلما كان السجود غاية سفول العبد وخضوعه ناسب أن يجتهد في الدعاء كما جاء الأمر بذلك في الحديث ، كما ناسب أن يصف الله جل وعلا بالعلو ويسبح باسمه (الأعلى) ، فهو سبحانه الأعلى ، والعبد الأسفل ، كما أنه الرب والعبد العبد ، وهو الغني ، والعبد الفقير ، وليس بين العبد والرب سوى محض العبودية ، فكلما كمَّلَها قرب العبد إليه ؛ لأنه سبحانه بر جواد محسن يعطي العبد ما يناسبه، فكلما عظم فقره إليه كان أغنى ، وكلما عظم ذله له كان أعز ؛ فإن النفس – لما فيها من أهوائها المتنوعة وتسويل الشيطان لها – تبعد عن الله حتى تصير ملعونه بعيدة من الرحمة [واللعنة] هي : البعد ، ومن أعظم ذنوبها إرادة العلو في الأرض، والسجود فيه غاية سفولها ، قال تعالى : ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾[1] ...

وفي الصحيح : ((من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله))[2] وكلمة الله هي خبره وأمره : فيكون أمره مطاعاً مقدماً على أمر غيره ، وخبره مصدق مقدم على خبر غيره ، وقال : ﴿ ويكون الدين كله لله ﴾[3] والدين هو العبادة والذل والطاعة ، ونحو ذلك ، فإذا كانت العبادة والطاعة والذل له تحقق أنه أعلى في نفوس العباد عندهم كما هو الأعلى في نفسها .

وباستحضار العبد لهذه المعاني في العبادات وإتيانه بها على وجهها يبلغ مبلغ الإحسان في عبادة الله جل وعلا ويتحقق التوحيد في قلبه .

ومما يعين على الإحسان : التفكر في المعاني التي يتعبد الله جل ذكره بها ، كالسجود الذي سبق ذكره ، وما يتخلله من معاني العبودية . وكذلك التكبير الذي يراد به أن يكون

---

(١) سورة غافر ٦٠ .

(٢) رواه البخاري في العلم (ح١٢٣) وفي الجهاد :(ح ٢٨١٠) ومسلم في الأمارة (ح ١٩٠٤) والترمذي في فضائل الجهاد (ح ١٦٤٦) والنسائي في الجهاد (ح ٣١٣٦) وابن ماجه في الجهاد (ح ٢٧٨٣)

(٣) سورة الأنفال ٣٩ .

عند العبد أكبر من كل شيء ، كما قال ﷺ لعدي بن حاتم : ((ياعدي ما يُفِرُّك[١] ؟ أيفرك أن يقال : لاإله إلا الله؟ فهل تعلم من إله إلا الله ؟ ياعدي ما يفرك ؟ أيفرك أن يقال الله أكبر ؟ فهل من شيء أكبر من الله ؟))[٢] وهذا يبطل قول من جعل أكبر بمعنى كبير.

وقد قال النبي ﷺ : ((إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد))[٣] وهو الإسلام ، وهو الإستسلام لله لالغيره ، بأن تكون العبادة والطاعة له والذل ، وهو حقيقة لاإله إلا الله)[٤].

فمن عرف هذا المعاني وعمل بها مستيقناً بها قلبه ، محسناً بفعله وبقوله لها ، وفق ما جاء به الشرع حصل له من تحقيق التوحيد الشيء العظيم .

ومن تمام تحقيق التوحيد (أن كل مايفعله المسلم من القرب الواجبة والمستحبه ، كالإيمان بالله ورسوله ، والعبادات البدنية والمالية ، ومحبة الله ورسوله وماهو مأمور بأن يفعله خالصاً لله رب العالمين ، لايطلب من مخلوق عليه جزاء ، لادعاء ولا غير دعاء ، فهذا مما لايسوغ أن يطلب عليه جزاء ولا دعاءً ولا غيره.)[٥] ؛ لأن هذا من باب الإحسان في العبادات والإحسان في المعاملات ، التي يتوجب فيها الإخلاص وقطع النظر إلى المكافأة فيها إلا من الله جل ذكره .

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمة – رحمه الله – أن (.. هذا هو مفهوم الإحسان كما قال النبي ﷺ وقد سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان فقال : ((أن

---

(١) أفررته أُفِرُّه فعلت به ما يفر منه ويهرب ، أي : ما يحملك على الفرار إلا التوحيد ، وكثير من المحدثين يقولونه بفتح الياء وضم الفاء والصحيح الأول .أي بضم الفاء وكسر الياء . النهاية في غريب الحديث ٤٢٧/٣ .

(٢) رواه الترمذي في تفسير القرآن (ح ٢٩٥٤)

(٣) روى البخاري نحوه في أحاديث الأنبياء (٣٤٤٢) ولفظه : عن رسول الله ﷺ ..((أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة قالوا كيف يا رسول الله قال الأنبياء إخوة من علات وأمهاتهم شتى ودينهم واحد فليس بيننا نبي)) ومسلم في الفضائل (ح٢٣٦٥) وأما ماذكره المولف فلم أقف عليه ، ولعله ذكره بالمعنى .

(٤) الفتاوى ٢٣٦/٥ – ٢٣٩ . مختصراً .

(٥) انظر الفتاوى ١٨٨/١، ١٩٠

تعبد الله كأنك تراه))[1] فمن أدركه فإن رحمة الله تناله ؛ لأن رحمة الله قريب من المحسنين ، والله جل شأنه يجازي على الإحسان بالإحسان كما قال عز وجل : ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾[2] وليس للمحسن جزاء إلا الجنة . قال ابن عباس رضي الله عنه : هل جزاء من قال لاإله إلا الله وعمل بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم إلا الجنة [3].

ورى ابن أبي شيبة وغيره من حديث الزبير بن عدي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ ثم قال : ((هل تدرون ما قال ربكم ؟ . قالوا الله ورسوله أعلم ، قال : هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة.))[4]...)[5] .

الأمر الثاني الإحسان إلى الخلق

لقد وضح شيخ الإسلام ــ رحمه الله ــ أن الله جل شأنه أمر ه عباده المؤمنين بعبادته والإحسان إلى خلقه كما قال تعالى : ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ﴾[6] وهذا أمر بمعالي الأمور وهو سبحانه يحب معالي الأخلاق ويكره سفاسفها .

---

(١) رواه البخاري في الإيمان (ح٥٠) ومسلم في الإيمان (ح٨-٧) ورواه غيرهما .

(٢) سورة الرحمن ٦٠ .

(٣) أورده البغوي في تفسيره ٢٧٦/٤ ، وابن الجوزي في زاد المسير ١٢٣/٨ والسيوطي في الدر المنثور ٧١٤/٧ وعزاه إلى عبد بن حميد ، وابن المنذر وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس مرفوعاً : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((هل جزاء من أنعمت عليه ممن قال لا إله إلا الله في الدنيا إلا الجنة في الآخرة)) وقد أورده القرطبي عن ابن عباس موقوفاً ، ١٨٢/٧١ بدون عزو ولا إسناد . وأورد ابن كثير في تفسيره٤٨٠/٧. بنحوه .

(٤) رواه البغوي في تفسيره ٢٧٦/٤ وأورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ١٠/٢ والسيوطي في الدر المنثور، وعزاه إلى الحكيم الترمذي والديلمي في مسند الفردوس ..، وابن الجوزي في زاد المسير ١٢٣/٨ .

(٥) الفتاوى ٢٧/١٥ . بتصرف .

(٦) سورة النساء ٣٦ .

وقد روي عنه ﷺ أنه قال : ((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)) [١] .
وقال : ((إن أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً)) [٢] .

ومن الإحسان إلى الناس من فعل العبادات التي أمر الله بها كالصلاة على الجنائز وكزيارة قبور المؤمنين ، وكالدعاء لهم والسلام عليهم ، وهذا من باب الإحسان إلى الموتى، وأما الإحسان إلى الأحياء فمأمور به واجباً كان أو مستحباً ، كالقيام بحقوقهم من كف الأذى ، وحسن الخلق في القول والعمل ، ومن التعاون على البر والتقوى ، ومن أداء الزكاة الواجبة أو المستحبة وغير ذلك، قال سبحانه وتعالى : ﴿ ولا تصعر خدك للناس ولاتمش في الأرض مرحاً ﴾ [٣] وقال سبحانه :﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾ [٤] وقال سبحانه :﴿وآت ذي القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً ﴾ [٥] وقال :﴿ وأفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾[٦]

ومن تمام تحقيق التوحيد أن يبذل العبد الخير للناس وهو لايرجو شيئاً منهم وإنما يطلب الثواب من الله جل شأنه ، كما فعل رسل الله عليهم الصلاة والسلام حيث قال الله على ألسنتهم : ﴿و ما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين﴾[٧] ولقد كانوا يبذلون للناس الخير لايريدون منهم جزاء ولا شكوراً ، وإنما يريدون فقط كف أذاهم والإيمان بما جاؤوا به .

---

(١) رواه الإمام أحمد (٣٨١/٣) ولفظه :عن أبي هريرة قال : قال : رسول الله ﷺ : ((إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)). وأخرجه الحاكم ٢/ ٦١٣ وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي ، وابن سعد في الطبقات ١٩٣/١ بلفظ إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)) عن مالك بن أنس ، وأخرجه أيضاً البخاري في الأدب المفرد (ح٢٧) وصححه الألباني في الصحيحة (ح٤٥) .

(٢) رواه الترمذي في الإيمان عن عائشة ﵂ ح (٢٦١٢) وعن أبي هريرة في الرضاع (ح١١٦٢) وقال حسن صحيح ، وأبو داود في السنة (ح ٤٦٨٢) والدارمي في الرقاق (ح ٢٧٩٢) وأحمد ٩٩/٦ .

(٣) سورة لقمان ١٨ .

(٤) سورة الشعراء ٢٠٥ .

(٥) سورة الإسرا آية ٢٦ .

(٦)سورة الإسراء ٣٥ .

(٧) سورة الشعراء ١٠٩ ، ١٢٧ ، ١٤٥ ، ١٦٤ ، ١٨٠ .

وكذلك من سار على نهجهم من أتباعهم ، فقد قال سبحانه عن المؤمنين : ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولا شكوراً ، إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً ﴾[1]

وكان الصديق ﷺ يعمل العمل ينفع به الناس لله وحده لايريد من الناس جزاء ولا مقابل ، بل كان يعمل ذلك كله ابتغاء وجه ربه الأعلى ، قال سبحانه فيه وفي أمثاله : ﴿ وسيجنبها الأتقى،الذي يؤتي ماله يتزكى،وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى ﴾ [2] .

وقد ثبت في الصحاح عنه أنه قال ﷺ : ((إن أمن الناس علي في صحبته وماله أبو بكر ، ولوكنت متخذاً خليلاً من أمتي لاتخذت أبا بكر)) [3]

فقد كان أمن الناس في صحبته وذات يده لأفضل الخلق ﷺ ، لكونه كان ينفق ماله في سبيل الله كاشترائه المعذبين ، ولم يكن النبي ﷺ محتاجاً في خاصة نفسه لا لأبي بكر ولا لغيره ، بل لما قال له في سفر الهجرة : إن عندي راحلتين فخذ احداهما ، فقال النبي ﷺ (بالثمن)[4] فهو أفضل صديق لأفضل نبي . [5]

قال شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - : (فأعظم ما يكون العبد قدراً وحرمة عند الخلق إذا لم يحتج إليهم بوجه من الوجوه ، فإن أحسنت إليهم مع الاستغناء عنهم كنت أعظم ما يكون عندهم ، ومتى احتجت إليهم - ولو في شربه ماء - نقص قدرك عندهم بقدر حاجتك إليهم ، وهذا من حكمة الله ورحمته ، ليكون الدين كله لله ، ولا يشرك به شيئاً . ولهذا قال حاتم الأصم : لما سئل فيم السلامة من الناس ؟ قال : أن يكون شيئك[6] لهم مبذولاً وتكون من شيئهم آيساً ؛ لكن إن كنت معوضاً لهم عن

---

(١) سورة الإنسان ٩-١٠ .

(٢) سورة الليل ١٧-٢١ .

(٣) رواه البخاري في الصلاة (ح ٤٦٦) ومسلم في فضائل الصحابة (ح ٢٣٨٢) والترمذي في المناقب (ح٣٦٦٠) والدارمي في المقدمة (ح ٧٧) .

(٤) رواه البخاري في البيوع (ح ٢١٣٨)

(٥) انظر الفتاوى ١/١٨٧-١٨٨ . ٣٠/٣٦٤-٣٦٧ .

(٦) أي ما عندك من شيء فاجعله مبذولاً لهم .

ذلـك وكـانوا محتـاجين ، فـإن تعـادلت الحاجتـان تسـاويتم كالمتبـايعين ، ليـس لأحدهمـا فضـل على الآخـر ، وإن كـانوا إليـك أحـوج خضعـوا لـك .

فـالرب سبحانه أكـرم مـا تكون عليـه أحـوج مـا تكـون إليـه ، وأفقـر مـا تكـون إليـه . والخلـق أهـون مـا يكـون عليهـم أحـوج مـا يكـون إليهـم ؛ لأنهـم محتـاجون في أنفسـهم ، فهـم لايعلمـون حوائجـك ولايهتـدون إلى مصلحتـك ، بـل هـم جهلـة بمصـالح أنفسـهم فكيـف بغـيرهم .) [(١)]

فظهـر مـن هـذا أن مرتبـة الإحسـان الـتي يتحقـق بهـا كمـال التوحيـد أن يكـون الإحسـان مقصـوداً بـه القربـى والزلفـى إلى الله عـز وجـل ، مـن فعـل الصالحـات والاقبـال علـى الطاعـات والإكثـار مـن القربـات ، وأن يكـون فعـل العبـد فعـلاً صحيحـاً موافقـاً لمـا أمـر الله بـه ، لايريـد فاعلـه مـن ورائـه إلا ذلـك ، سـواء كـان ذلـك الإحسـان فيمـا يتعلـق بحـق الله عـز وجـل عليـه ، أو في معاملتـه لسـائر النـاس ، بفعـل الإحسـان ، وليـس لـه أي مطمـع مـن ثنـائهم عليـه ، أو جلـب مصلحـة لنفسـه ، أو لغـيره ، فـإذا تحققـت هـذه المعـاني في نفـس العبـد كـان توجهـه إلى الله في غايـة الإخـلاص الـذي يثمـر بـدوره تحقيـق التوحيـد .

٤- كتمـان الشـكوى عـن غـير اللـه

إن العبـد إذا أحـب الله جـل وعـلا استغنى بـه عـن غـيره ، وتعلـق بـه قلبـه فلـم يلتفـت إلا إليـه و لم يبـث حزنـه وشـكواه وألمـه إلا إليـه ، وهـذا مـن تمـام تحقيـق التوحيـد ، ومنـه قـول يعقوب عليه السـلام مخاطبـاً بنيـه بعـد عتـابهم لـه في حزنـه علـى فـراق ولـده : ﴿إنمـا أشـكوا بثـي وحزنـي إلى الله وأعلـم مـن الله مـالا تعلمـون﴾ [(٢)]

(وكـان عمـر بـن الخطـاب ﷺ يقـرأ في الفجـر بسـورة يونـس ويوسـف والنحـل فمـر بهذه الآيـة في قرآءتـه فبكـى حتـى سمـع نشـيجه مـن آخـر الصفـوف . ومـن دعـاء موسـى – عليـه السـلام – : ((اللهـم لـك الحمـد وإليـك المشـتكى ، وأنـت المسـتعان ، وبـك المسـتغاث ،

---

(١) الفتـاوى ١/٣٩-٤٠ .

(٢) سـورة يوسـف ٨٦ .

وعليك التكلان ولا حول ولا قوة إلا بك)) [1] . وفي الدعاء الذي دعا به النبي ﷺ لما فعل به أهل الطائف ما فعلوا : ((اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي وهواني على الناس ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي...إلخ)) [2] [3] .

وهذا لاينافي الصبر ، فإن (الصبر الجميل صبر بغير شكوى إلى المخلوق ، ولهذا قرئ على أحمد بن حنبل في مرضه إن طاوساً كان يكره أنين المريض ويقول : إنه شكوى فما أن أحمد حتى مات ، وأما الشكوى إلى الخالق فلا تنافي الصبر الجميل...) [4] .

فالعبد إذا أقبل على ربه وتعلق قلبه به وقطع طمع قلبه في عباده ، وبتر جميع رجاءٍ في نفع من مخلوق ، فإن هذا يوجب عبودية العبد وتوحيده وتوجهه إلى ربه وحده دون من سواه ، ولهذا قيل : استغن عمن شئت تكن نظيره ، وأحسن إلى من شئت تكن أميره ، واحتج إلى من شئت تكن أسيره . فلا تجعل قلبك يحتاج إلى غير الله كي تجد فيه حلاوة التوحيد والإيمان . [5]

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (ح٣٤١٨) عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : ((ألا أعلمكم الكلمات التي تكلم بها موسى ﷺ حين جاوز البحر بني إسرائيل ؟)) فقلنا : بلى يارسول الله ، قال : ((قولوا : اللهم لك الحمد ... الحديث . وقال الطبراني : "لم يرو هذا الحديث عن الأعمش إلا وكيع ولا عن وكيع إلا زكريا ، تفرد به جعفر ، ولا يروى عن رسول الله ﷺ إلا بهذا الإسناد " .

ورواه أيضاً في الصغير ١٢٢/١ـ١٢٣ ثم قال ما قاله في الأوسط . وأورده الهيثمي في المجمع ١٨٣/١٠ وقال : " رواه الطبراني في الأوسط والصغير وفيه من لم أعرفهم " .

(٢) رواه الطبراني في الدعاء (ح١٠٣٦) قال محققه [محمد سعيد البخاري] : " اسناده حسن لكن فيه عنعنة ابن اسحاق وهو مشهور بالتدليس . وأورده ابن كثير في تفسير سورة الأحقاف عن ابن اسحاق وقال " وهذا صحيح " وأورده السيوطي في الجامع الصغير (ح١٤٨٣) وزمز له بالحسن ، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (ح١٢٨٠) وفي تخريج فقه السيرة للغزالي ص ١٣٥-١٣٦ .

(٣) الفتاوى ١٨٤/١٠ ، ٦٦٦-٦٦٧ .

(٤) الفتاوى ١٨٤/١٠ .

(٥) انظر الفتاوى ١٨٥/١٠ .

فإذا ما تحرر قلب العبد من التعلق أو التوجه إلى غير الله لم يخطر في نفسه أن يشتكي أو يبث ألمه وحاجته إلى غير الله ؛ لأنه قد استغنى بالله عمن سواه ، ولهذ جاء في الحديث : ((اللهم أغنني بفضلك عمن سواك)) [١] .

و(متى ما شكى العبد إلى غير الله نقص صبره ، وقلّ تحقيقه للتوحيد ، إلا أن هذا لايصبر عليه إلا أن الخلص من المؤمنين ؛ بل كثير من الناس يشكو ما به إلى غير خالقه . وهذا على وجهين :

فإن شكا ذلك إلى طبيب يعرف طب النفوس ليعالج نفسه بعلاج الإيمان فهو بمنزلة المستفتي ، وهذا حسن .

وإن شكا إلى من يعينه على المحرم فهذا حرام ، وإن شكا إلى غيره لما في الشكوى من الراحة كما أن المصاب يشكي مصيبته إلى الناس من غير أن يقصد تعلم ما ينفعه ولا الاستعانة على معصية فهذا ينقص صبره ، لكن لايأثم مطلقاً إلا إذا اقترن به ما يحرم كالمصاب الذي يتسخط .) [٢]

٥- تحقيق المسألة لله وحده

من تحقيق التوحيد تحقيق المسألة لله وحده ، فلا يسأل العبد أحداً سوى الله ، ولا ينزل حاجته بأحد سوى الله ، حتى وإن كان ذلك المسؤول يقدر على قضاء حاجته ، فمن تمام تحقيق التوحيد وقوة التوكل والصلة بالله أن لايسأل الناس شيئاً .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - : (وقد أوصى النبي ﷺ ابن عباس بقوله : ((ياغلام ألا أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن

---

(١) رواه الترمذي في الدعوات (ح٣٥٦٣) وقال حديث حسن غريب ، وأحمد ١٥٣/١ . والحاكم ٥٣٨/١ وقال صحيح الاسناد ، وصححه الألباني في الصحيحة (ح٢٦٦) .

(٢) الفتاوى ٢٠٨/١٤ . بتصرف .

بـا لله ،واعلـم أن الأمـة لـو اجتمعـوا علـى أن ينفعـوك بشـيء لم ينفعـوك إلا بشـيء قـد كتبـه ا لله لـك ... الحديـث [١]

وفي المسـند أن أبـا بكـر الصديـق كـان يسـقط السـوط مـن يـده فـلا يقـول نـاولني إيـاه، ويقـول : إن خليلـي أمرنـي أن لا أسـأل النـاس شيئاً [٢] ، وفي صحيـح مسـلم عـن عـوف بـن مـالك أن النبي ﷺ بـايع طائفـة مـن أصحابـه ((وأسـر إليهـم كلمـة خفيـة : أن لا يسـألوا النـاس شيئاً ، قـال عـوف : فقـد رأيـت بعـض أولئـك النفـر يسـقط السـوط مـن يـده فـلا يقـول لأحـد نـاولني إيـاه)).[٣]

قـال شيـخ الاسـلام ابـن تيميـة – رحمـه ا لله تعـالى – : (قـد تواتـرت الأحـاديث عـن النـبي ﷺ بتحريـم مسـألة النـاس إلا عنـد الضـرورة ، وقـال : ((لاتحـل المسـألة إلا لـذي غـرم مفظـع ، أو دم موجـع أو فقـر مدقـع)) [٤] وقـال تعـالى : ﴿فـإذا فرغـت فـانصب وإلى ربـك فـارغب﴾[٥] فـأمره أن تكـون رغبتـه إلى ا لله وحـده .

[ومما هـو معلـوم] أن سـؤال العبـد لربـه حاجتـه مـن أفضـل العبـادات ، وهـو طريـق أنبيـاء ا لله ، وقـد أمـر العبـاد بسـؤاله فقـال : ﴿واسـألوا ا لله مـن فضلـه ﴾ [٦] ومـدح الذيـن يدعونـه

---

(١) رواه الـترمذي في صفـة القيامـة (ح٢٥١٦) وقـال : هـذا حديـث حسـن صحيـح ، ورواه أحمـد ٢٩٣/١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٧ وصححـه أحمـد شـاكر في تحقيقـه للمسـند (ح٢٦٦٩ ، ٢٧٦٣ ، ٢٨٠٤) وهـذا هـو الحديث التاسـع عشر مـن الأربعين النووية .

(٢) رواه الإمـام أحمـد ١١/١ .وأعلـه احمـد شـاكر بانقطاعـه (ح ٦٥) . ووصـى بهـا أيضـاً أبـا ذر وفيـه ((وأمرنـي أن لا أسـأل أحداً شيئاً) وعنـد النسـائي بنحـوه : أن رسـول ا لله ﷺ قـال : ((مـن يضمـن لي واحـدة ولـه الجنـة قـال يحيـى هاهنـا كلمـة معناهـا أن لا يسـأل النـاس شـيئا)) الزكـاة (ح ٢٥٩٠) ورواه أبـو داود في الزكـاة (ح١٦٤٣) وصححـه الألبـاني .

(٣) رواه مسـلم في الزكـاة (ح ١٠٤٣) والنسـائي في الصـلاة (ح٤٦٠)وأبـو داود في الزكـاة (ح ١٦٤٢) والنسـائي في الجهـاد (ح ٢٨٦٣) وابـن ماجـه في الجهـاد (ح٢٨٦٧) وأحمـد ٢٨١/٥ .

(٤) رواه أبـو داود في الزكـاة (ح١٦٤١) ولفظـه ((..إن المسألة لا تصلـح إلا لثلاثـة لـذي فقـر مدقـع أو لـذي غـرم مفظـع أو لـذي دم موجـع))ورواه ابـن ماجـة في التجـارات (٢١٩٨) وأحمـد ١١٤/٣ ، ١٢٦ ، ١٢٧ . وضعفـه الألبـاني في الإرواء (ح٨٦٧) .

(٥) سـورة الشـرح

(٦) سـورة النسـاء ٣٢ .

رغبة ورهبة ، ومن الدعاء ماهو فرض على كل مسلم كالدعاء المذكور في فاتحة الكتاب .) [١].

(وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : ((يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفاً بغير حساب .)) وقال : ((هم الذي لايسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون .)) [٢] فمدح هؤلاء بأنهم لايسترقون ، أي لايطلبون من أحد أن يرقيهم ، والرقية من جنس الدعاء فلا يطلبون من أحد ذلك .) [٣] وهذا من تمام تحقيق التوحيد لله جل شأنه ، والتوكل عليه والاستغناء بسؤاله عن سؤال غيره . وبه عمن سواه ؛ لأن من طمع قلبه في ربه وقوي رجاؤه به أوجب له ذلك العبودية التامة له سبحانه وتعالى ، ومن ثم التعلق به والتوجه إليه وحده بالسؤال ، كما أن من أعرض قلبه عن الله وتعلق بغيره أوجب له انصراف قلبه عن العبودية لله إلى العبودية لغير الله ، والتعلق بغيره عن التعلق به حتى يصبح رجاء المخلوق أقوى وأقرب إلى قلبه من رجاء الخالق ، فيسأل المخلوق ولا يسأل الله ، يشكوا إلى المخلوق ولا يشكوا إلى الى الخالق ، وإن شكا أو سأله الله فإنما يسأله أو يشكوا إليه وقلبه معرض عن ذلك، لأنه تعلق بغيره لابه . [٤].

ثم بين رحمه الله تعالى : أنه لا يدخل في هذا سؤال المخلوق حقه الذي له عنده من عين أو دين كالأمانات والوديعة ، ومال الفيء والأموال المشتركة التي يتولى قسمتها ولي الأمر، فللرجل أن يطلب حقه منها ونحو ذلك من النفقة والميراث وغيرها .

وهذا لاينافي عدم إنزال حاجته بالخلق ، أما سؤال المخلوق غير هذا فلا يجب بل ولا يستحب ؛ لأن سؤال المخلوقين فيه ثلاث مفاسد :

الأولى : مفسدة الافتقار إلى غير الله ، وهي من نوع الشرك .

الثانية : مفسدة إيذاء المسئول وهي من نوع ظلم الخلق .

---

(١) الفتاوى ٥٣٨/٨-٥٣٩ .

(٢) رواه البخاري في الطب (ح ٥٧٠٥) ومسلم في الإيمان (ح ٢١٨ ، ٢٢٠) والترمذي في صفة القيامة (٢٤٤٦) وغيرهم .

(٣) انظر الفتاوى ١٨١/١-١٨٢ . وانظر ٣٢٨-٣٢٩ .

(٤) انظر الفتاوى ١٨٥/١٠ .

الثالثة : فيه ذل للمخلوق ، وهو ظلم للنفس ، فهو مشتمل على أنواع الظلم الثلاثة ، وقد نزه الله رسوله عن ذلك كله .[(١)]

كما وضح - رحمه الله تعالى - أن من تمام تحقيق المسألة : إجابة السائل ، وعدم نهره وزجره وإن لم يعلم صدقه (قال جل شأنه : ﴿ وأما السائل فلا تنهر﴾[(٢)] وقال : ﴿ والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ﴾[(٣)] ومنه الحديث : ((إن أحدكم ليسألني المسألة فيخرج بها يتأبطها ناراً))[(٤)] وقوله : ((اقطعوا عني لسان هذا))[(٥)].

وقد يكون السؤال منهياً عنه نهي تحريم أو تنزيه ، وإن كان السؤال مأموراً بإجابة سؤاله ، فالنبي ﷺ كان من كماله أن يعطي السائل وهذا في حقه من فضائله ومناقبه ، وهو واجب أو مستحب ، وإن كان نفس سؤال السائل منهياً عنه ، ولهذا لم يعرف قط أن الصِدِّيق و هو من أكابر الصحابة سألوه شيئاً من ذلك ، ولا سألوه أن يدعو لهم ، وإن كانوا يطلبون منه أن يدعو للمسلمين [كما وقع ذلك من عمر ﷺ في إحدى غزواته ﷺ] ... وإنما سأله بعض المسلمين ، كما سأله الأعمى أن يدعو الله ليرد عليه بصره ، وكما سألته أم سليم أن يدعو الله لخادمه أنس ، وكما سأله أبو هريرة ﷺ أن يدعو الله أن يحببه وأمه إلى عباده المؤمنين ونحو ذلك .)[(٦)]

وأما ما قد يشكل من كون النبي ﷺ طلب من أمته الدعاء له بنيل الوسيلة فقد أزال الإشكال رحمه الله بأن هذا الفعل منه ﷺ إنما هو طلب أمر وترغيب ، وليس بطلب سؤال ، ومن ذلك أيضاً أمره لنا بالصلاة والسلام عليه ، فهذا أمر الله به في القرآن بقوله : ﴿ يأيها الذين أمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً ﴾[(٧)] .

---

(١) انظر الفتاوى ١/١٩٠ ، ١٠/١٨٢-١٨٣ .
(٢) سورة الضحى ١٠ .
(٣) سورة المعارج آية ٢٤-٢٥ ,
(٤) رواه الإمام أحمد ٣/٣ ، ١٦ عن عمر وتفرد به .
(٥) ذكره ابن أبي الدنيا في منازل الأشراف برقم (٢٦٥) .
(٦) الفتاوى ١/١٨٦ .
(٧) سورة الأحزاب ٥٦ .

وكل هذا المقصود منه نفع المطلوب منه والإحسان إليه ؛ لأنه له بمثل ما دعا به ، ومثل هذا مثل طلبه ﷺ من أمته سائر الأعمال الصالحة . ومن هذا الباب قول القائل : إني أكثر الصلاة عليك ، فكم أجعل لك من صلاتي ؟ قال ((ماشئت)) قال : الربع ؟ قال ((ماشئت وإن زدت فهو خير لك)) قال النصف ؟ قال : ((ماشئت وإن زدت فهو خير لك)) قال : الثلثين ؟ قال : ((ماشئت وإن زدت فهو خير لك)) قال : أجعل لك صلاتي كلها ؟ قال : ((إذا تكفى همك ويغفر لك ذنبك)) [١] [٢].

(ومن قال لغيره من الناس : أدع لي - أو لنا - وقصده أن ينتفع ذلك المأمور بالدعاء وينتفع هو أيضاً بأمره ، ويفعل ذلك المأمور به كما يأمره بسائر فعل الخير فهو مقتد بالنبي ﷺ مؤتم به ليس هذا من السؤال المرجوح .)[٣]

فتبين بهذا أن تحقيق المسألة وتجريدها لله وحده ، وعدم الالتفات إلى غيره من أهم ما يعين على تحقيق التوحيد ، فمتى ما جرد العبد سؤاله لله وحده واستغنى به عن غيره فقد حقق جانباً من جوانب تحقيق التوحيد .

٦- تحقيق مرتبة الصبر

الصبر المحمود هو صبر المتقين الأخيار ، وهو الصبر على الأذى والمصائب صبراً اختيارياً بتقديم الأذى الجسدي على التنازل من شيء من دينه وإيمانه ، وقد بين شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - أنه إذا (ما أوذي المؤمن على إيمانه وطلب منه الكفر أو الفسوق أو العصيان وتوعد بأنه إن لم يفعل عوقب وأوذي فاختار الأذى والعقوبه على فراق دينه [فقد صبر صبر الأخيار الذي قال الله فيهم : ﴿والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾[٤] وقد يكون الأذى حبساً أو أذى في جسده أو خروجاً من بلده كما جرى للمهاجرين حيث اختاروا فراق الأوطان على فراق الدين ، وكانوا يعذبون ويؤذون .

---

(١) رواه الترمذي في صفة القيامة ..(٢٤٥٧) وقال حديث حسن صحيح .

(٢) انظر الفتاوى ١/١٩١-١٩٣ .

(٣) الفتاوى ١/١٩٣ .

(٤) سورة البقرة ١٧٧ .

وقد أوذي النبي ﷺ بأنواع من الأذى فكان يصبر عليها صبراً اختيارياً ، فإنه إنما أوذي لئلا يفعل باختياره ...) [(١)] وصبر أصحابه معه على ما أوذوا فبلغوا بذلك صبر الموحدين الذين تمكن الإيمان والتوحيد من قلوبهم . وصبر من قبلهم الأنبياء وأتباعهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم ، صبروا على أذى الكفار وعدوانهم لهم بسبب إيمانهم بالله وحده[(٢)].

وكل (ما حصل لهم من الأذى والإخراج من الديار إنما كان محض طاعة لله ولرسوله ﷺ ، ولم يكن من المصائب السماوية التي تجري بدون اختيار العبد ... كالمرض وموت العزيز عليه وأخذ اللصوص ماله ، فإن تلك إنما يثاب على الصبر عليها لاعلى نفس ما يحدث من المصيبة) [(٣)] والتي إن لم يصبر العبد عليها صبر الكرام سلا سلو البهائم .

فالصبر الاختياري هو أشرف النوعين وأهلها أعظم درجة ، (وإن كان صاحب المصائب يثاب على صبره ورضاه وتكفر عنه الذنوب بمصائبه ، فإن هذا أصيب وأوذي باختياره طاعة لله يثاب على نفس المصائب ويكتب له بها عمل صالح قال الله تعالى : ﴿ ذلك بأنه لايصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطؤون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدوٍ نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لايضيع أجر المحسنين ﴾[(٤)]

والذين يؤذون على الإيمان ، وطاعة الله ورسوله ، ويحدث لهم بسبب ذلك حرج أو مرض أو حبس أو فراق وطن وذهاب مال وأهل ، أو ضرب أو شتم أو نقص رياسة ومال ؛ هم في ذلك على طريقة الأنبياء وأتباعهم كالمهاجرين الأولين ، فهؤلاء يثابون على ما يؤذون به ، ويكتب لهم به عمل صالح ، كما يثاب المجاهد على ما يصيبه من الجوع والعطش والتعب وعلى غَيْظِهِ الكفار ، وإن كانت هذه الآثار ليست عملاً فعله يقوم به لكنها متسببة عن فعله الاختياري وهي التي يقال لها متولدة .)[(٥)]

---

(١) الفتاوى ١٢٢/١٠ .

(٢) انظر منهاج السنة ٣١٨/٥-٣١٩ .

(٣) الفتاوى ١٢٣/١٠-١٢٤ .

(٤) سورة التوبة ١٢٠ .

(٥) الفتاوى ١٢٢/١٠-١٢٤ .وانظر ٣٠٨/٢٥ .

وهـذه المرتبـة العليـا لايبلغهـا إلا مـن وقـر الإيمـان في قلبـه ورسـخ رسـوخ الجبـال فـأصبح لايـرى إلا ا لله ، ولا يتوجـه إلى لله حتـى صغـر الخلـق في عينـه وعظـم ربـه عظمـاً لايخـاف أحـداً سـواه ، وهـذه مـن أعظـم مراتـب تحقيـق التوحيـد الـتي بهـا حقـق المؤمنـون الإيمـان ، ونشـروا التوحيـد والاسـلام في أقطـار المعمـورة .

٧- تحقيـق مرتبـة المحبـة

لقـد تحدث شيخ الاسلام ابن تيميـة - رحمـه ا لله تعـالى - عـن المحبـة في مواضـع كثـيرة مـن كتبه بـل أفـرد لهـا رسـائل مستقلة ، فتحـدث عـن أنواعهـا ومتـى تكـون شـركاً ومتـى لاتكـون ، وتعلقهـا بـالقلب ، وكيـف يجب أن يوجـه العبـد محبتـه وغـير ذلـك ، إلا أن الـذي يعنينـا هنـا هـو تحقيـق المحبـة ، وقـد وضـح ذلـك شيخ الاسلام ابـن تيميـة - رحمـه ا لله تعـالى - فبـين أن المحبـة والإرادة أصـل كـل فعـل ، فوجـود الفعـل لايكـون إلا عـن محبـة وإرادة ، حتـى في دفعـه للأمـور الـتي يكرههـا ويبغضهـا هـو ، لمـا في ذلـك مـن المحبـوب أو مـن اللـذة الـتي يجدهـا بـالدفع ، فيقـال شفى صـدره وقلبـه .

والمحبـة والإرادة تكـون بواسطة وتكـون بغـير واسـطة ، مثـل فعلـه للأشـياء الـتي يكرههـا كشـربه للـدواء الـذي يكرهـه محبـة في الشـفاء ، وكفعـل الأشـياء المخالفـة لهـواه وصـبره ، لمحبتـه رحمـة ا لله ورضـاه وطمعـه في نجاتـه مـن عذابـه المسـتلزم لإرادة تـرك مـايهواه ، قـال تعـالى : ﴿وأما من خـاف مقـام ربـه ونهـى النفـس عـن الهـوى فـإن الجنـة هـي المـأوى﴾ فـلا يـترك العبـد مايحبـه ويهـواه إلا لمـا يحبـه ويهـواه ، لكـن يـترك أضعفهمـا محبـة لأقواهمـا محبـة ، كمـا يفعـل مـا يكرهه لما محبتـه أقـوى مـن كراهـة ذلـك .

ووجـود البغـض إنمـا هـو لمنافـاة المحبـوب ، ولا وجـود لمحبـوب إن لم يكـن البغـض ، بخـلاف الحـب للشـيء فإنـه قـد يكـون لنفسـه ، لا لأجـل منافاتـه للبغـض ، ولهـذا كـان رأس الإيمـان الحـب في ا لله والبغـض في ا لله ، وكـان مـن أحـب لله وأبغـض لله ، وأعطـى لله ومنـع لله فقد اسـتكمل الإيمـان [١] وبلـغ مبلغـاً عظيمـاً في تحقيقـه للتوحيـد الخـالص لـرب العـالمين.

---

(١) انظر قـاعدة في المحبة ٨-٩ . وهـذا مقتبـس مـن حديـث أبـي أمامـة المتقـدم .

وأصل المحبة التي أمر الله بها وخلق خلقه من أجلها عبادة الله وحده لاشريك له ، إذ العبادة متضمنة لغاية الحب بغاية الذل ، ولذا فإن أهل التوحيد الذين أحبوا الله وعبدوه وحده لاشريك له ، لايبقى منهم في العذاب أحد.[١]

ولا ريب أن محبة المؤمنين لربهم أعظم المحبات ، وكذلك محبة الله لهم هي محبة عظيمة جداً تليق بجلاله ، كما في صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : ((يقول الله تعالى : من عادي لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ولايزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعها الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به .. الحديث)) [٢] .

وهذا المحبة من المؤمنين لربهم ليس لها حد تنتهي إليه ، لكن الله لا يُحب محبة زيادة على العدل ؛ حتى لا تكون الزيادة إفراطاً وإسرافاً ومجاوزة للقصد ، بل الواجب أن يكون الله ورسوله ﷺ أحب إليه مما سواهما .

كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : ((ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لايحبه إلا لله ، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذا أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار))[٣]. وفي الصحيح أن عمر قال له : يارسول الله والله لأنت أحب إلى من كل شيء إلا من نفسي ، فقال : ((لا ياعمر حتى أكون أحب إليك من نفسك)) قال : فلأنت أحب إلى من نفسي ، قال : ((الآن ياعمر))[٤] [٥] .

وقد بين ـ رحمه الله ـ أنه قد ضل في باب المحبة فريقان من الناس : فريق من أهل النظر والكلام والمنتسبين إلى العلم ، جحدوها وكذبوا بحقيقتها.

---

(١) انظر قاعدة في المحبة ١١ .

(٢) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٣) رواه البخاري في الإيمان (٢١) وفي (١٦) باختلاف يسير . ومسلم في الإيمان (٤٣) ، والترمذي في الإيمان (ح٢٦٢٤) والنسائي في الإيمان وشرائعه (ح٤٩٨٧) وابن ماجة في الفتن (ح٤٠٣٣) .

(٤) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث

(٥) انظر قاعدة في المحبة ٥٧ .

وفريق من أهل التعبد والتصوف والزهد ، أدخلوا فيها من الاعتقادات والإرادات الفاسدة ما ضاهوا بها المشركين .

فالأولون يشبهون المستكبرين ، وهؤلاء يشبهون المشركين .

ولهذا يكون الأول في أشباه اليهود ويكون الثاني في أشباه النصاري . وقد أمرنا الله تعالى أن نقول : ﴿اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . ﴾ (١) .

كما بين - رحمه الله - أن محبة الله ورسوله على درجتين ، واجبة ومستحبة فقال : (ومحبة الله ورسوله على درجتين : واجبة ومستحبة :

الأولى : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وذلك يقتضي محبة جميع ما أوجبه الله تعالى ، بغض جميع ماحرمه الله جل وعلا ، وذلك واجب ، فإن إرادة الواجبات إرادة تامة تقتضي وجود ما أوجبه كما تقتضي عدم الأشياء التي نهى الله عنه ، وذلك مستلزم لبغضها التام .

فيجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه الله ويبغض ما أبغضه الله . قال تعالى : ﴿ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ﴾(٢)

وقال تعالى : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ، وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾(٣) وقال تعالى : ﴿والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه ﴾(٤) .

فهذه صفة المحب يفرح بأمر محبه ويتلقاه بالرضى والقبول ، وهكذا يجب أن يكون المؤمن .

---

(١) قاعدة في المحبة ٥٩ .

(٢) سورة محمد آية (٢٨) .

(٣) سورة التوبة آية (١٢٤-١٢٥) .

(٤) سورة الرعد آية (٣٦) .

وأما محبة السابقين فهي : بأن يحب ما أحبه ا لله من النوافل والفضائل محبة تامة .)[١] وهذا حال المقربين من أهل تحقيق التوحيد الذين قربهم ا لله إليه .

وهذه المحبة تدعوالعبد إلى الإنكباب عليها ، والمبادرة إليها بطيب نفس وشغف ومحبة تامة كاملة ، فيكون كما قال تعالى : ﴿ .. إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين ﴾[٢] ، فمن صفاتهم أنهم يتسابقون في الخيرات ، يكونون مثل ما وصفت عائشة ــ رضي ا لله عنها ــ النبي ﷺ بأنه : ((كان أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان..))[٣].

فهؤلاء هم السابقون بالخيرات ، المقربون الذين لهم الحسنى في الدنيا والآخرة .

وهم سادة المحبين المحبوبين ، الذين تكونت لهم إرادة صالحة ومحبة تامة لله ولرسوله ، وقدرة كاملة ، وهم سادة العاملين المجاهدين الذين لايخافون لومة لائم كالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم القيامة (والمحبة التامة لله ورسوله تستلزم وجود محبوباته ، ولهذا جاء في الحديث : ((من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان))[٤] فإنه إذا كان حبه لله وبغضه لله ، وهما عمل قلبه ، وعطاؤه لله ، ومنع لله وهما عمل بدنه، دل على كمال محبته لله ، ودل ذلك على كمال الإيمان ، وذلك أن كمال الإيمان أن يكون الدين كله لله ، وذلك عبادة ا لله وحده لاشريك له ، والعبادة تتضمن كمال الحب وكما الذل)[٥] لله وحده .

فإذا حقق العبد هذه المحبة تحقيقاً كاملاً فقد حقق كمال التوحيد ، وإذا نقص تحقيقه للمحبة نقص تحقيقه للتوحيد بحسبه وا لله تعالى أعلم .

---

(١) قاعدة في المحبة ٩١ وما بعدها بتصرف . وانظر الفتاوى ١٠/٤٦٤ ، ٦١٤ .

(٢) سورة الأنبياء ٩٠ .

(٣) متفق عليه ، رواه البخاري في بدء الوحي (ح٦) وفي الصوم (ح١٩٠٢) وفي غيرهما ، ورواه مسلم في الفضائل (ح٢٣٠٧ ، ٢٣٠٨) .

(٤) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث حرف الميم .

(٥) الفتاوى ١٠/٧٥٤ .

٨- شـهود القـدر

ذكـر شيخ الاسـلام ابـن تيميـة – رحمـه ا لله تعـالى – أن للعبـد في المقـدور حـالان فقـال : (للعبـد في المقـدور حـالان : حـال قبـل القـدر وحـال بعـده . وكـل حـال يجـب أن يكـون المؤمـن فيه علـى صفـات معينـه) [١] :

فأولا : حـال العبـد قبـل القـدر :

ثـم بـين رحمـه ا لله تعـالى حـال العبـد قبـل المقـدور فذكـر : أن عليـه أن يسـتعين بـا لله عـز وجـل ، ويتوكـل عليـه ، ويدعـوه، يـأتمر بـأمره وينتهـي عـن نهيـه ، بـل ويعـزم علـى إمتثـال أمـره حالمـا يبلغـه أو يتبـين لـه ، وعليـه أن يقـدم بـين يـدي عملـه الاسـتغفار مـن التقصـير وشـكر ا لله علـى مـا أنعـم بـه عليـه مـن الخـير ، قـال ا لله تعـالى : ﴿ ومـا كـان ا لله ليعذبهـم وأنـت فيهـم ومـا كـان ا لله معذبهـم وهـم يستغفرون ﴾[٢] وقـال : ﴿ الـر ، كتـاب أحكمـت آياتـه ثـم فصلـت مـن لـدن حكيـم خبـير ، أن لاتعبـدوا إلا ا لله إنـني لكـم منـه نذيـر وبشـير ، وأن اسـتغفروا ربكـم ثـم توبـوا إليـه يمتعكـم متاعـاً حسـناً ويـؤت كـل ذي فضـل فضلـه وإن تولـوا فـإني أخـاف عليكـم عـذاب يـوم كبـير ﴾ [٣]

فيستغفرون ا لله لمـا مضـى ويستعيذون بـه ممـا يـأتي ، ويدعـون بذلـك في الصبـاح والمسـاء ، وعنـد المنـام كمـا أمـر ا لله ورسـوله ﷺ بذلـك أبـابكر الصديـق أفضـل الأمـة ، حيـث علمـه أن يقـول : ((اللهـم فـاطر السـموات والأرض ، عـالم الغيـب والشـهادة ، أعـوذ بـك مـن شـر نفسـي وشـر الشـيطان وشـركه ، وأن أقـترف علـى نفسـي سـوء أو أجـره إلى مسـلم.))[٤] فيكـون بهـذا مـن حـزب ا لله السـعداء [٥] .

---

(١) الفتـاوى ٧٦/٨/١ .

(٢) سـورة الأنفـال ٣٣ .

(٣) سـورة فصلـت الآيات ١ـ٣ .

(٤) رواه الـترمذي في الدعـوات (ح٣٥٢٩) وقـال " هـذا حديـث حسـن غريـب مـن هـذا الوجـه " ورواه أبـو داود بنحـوه في كتـاب الأدب (ح٥٠٦٧) . وصححـه الألبـاني في سـنن الـترمذي (ح٢٧٩٨) وفي الصحيحـة (ح٢٧٦٣) .

(٥) انظـر الفتـاوى ٢٦٣/١٤-٢٦٤ .

كما بين رحمه الله تعالى أنه ينبغي على العبد أن يشهد حاجته وفقره إلى إعانة الله له، ويدعواله ، فقال : (كما أن الإنسان مأمور بشهود القدر عندما ينعم الله عليه من فعل الطاعات ، فيشهد قبل وقوعه فعلها وحاجته وفقره إلى إعانة الله له ، وتحقيق قوله تعالى : ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ ويدعو بالأدعية التي فيها طلب إعانة الله له على فعل الطاعات كقوله :

((اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك))[١] وقوله : ((يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ، ويامصرف القلوب صرف قلبي إلى طاعتك وطاعة رسولك))[٢] وقوله : ﴿ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾[٣] وقوله : ﴿ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً﴾ ومثل قوله : ((اللهم ألهمني رشدي واكفني شر نفسي))[٤] .

ورأس هذه الأدعية وأفضلها قوله : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ فهذا الدعاء أفضل الأدعية وأوجبها على الخلق ، فإنه يجمع صلاح العبد في الدين والدنيا والآخرة ، وكذا الدعاء بالتوبة فإنه يتضمن الدعاء بأن يلهم العبد التوبة ، وكذلك دعاء الاستخارة فإنه طلب تعليم العبد ما لم يعلمه وتيسيره له ، وكذلك الدعاء الذي كان النبي ﷺ يدعو به إذا قام من الليل ، وهو في

---

(١) رواه النسائي في كتاب السهو (ح ١٣٠٣) وأبو داود في الصلاة (ح ١٥٢٢) كلاهما عن معاذ . وأحمد ٥/٢٤٤-٢٤٥ ، ٢٤٧ وقال الألباني اسناده صحيح .كما في المشكاة (ح٩٤٩) وانظر صحيح سنن النسائي (ح١٢٣٦) .

(٢) رواى الترمذي في الدعوات (ح٣٥٢٢) عن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ : طان أكثر دعائه : ((يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)) وقال : " هذا حديث حسن" ورواه ابن أبي عاصم في السنة (ح٢٢٣ ، ٢٣٢) وصححه الألباني في تخريجه لها . وقد روي هذا الحديث عن عائشة وأنس والنواس بن سمعان وجابر وابن عمر وغيرهم .

وروى مسلم في القدر (ح٢٦٥٤) عن ابن عمر مرفوعاً : ((اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك)). ولعل ما ذكره شيخ الإسلام رحمه الله مجموعاً من هذين الحديثين ، والله تعالى أعلم .

(٣) سورة ال عمران ٨ .

(٤) رواه الترمذي في الدعوات (ح٣٤٨٣) وقال هذا حديث غريب ، وقد روي هذا الحديث عن عمران بن حصين من غير هذا الوجه . ورواه اللالكائي في شرع أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (ح١١٨٤) وقال محققه سنده ضعيف .

الصحيح : ((اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم)) (١) .

وكذلك الدعاء الذي فيه : ((اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا)) (٢) وكذلك الدعاء باليقين والعافية كما في حديث أبي بكر (٣) ...

وهذه أدعية كثيرة تتضمن افتقار العبد إلى الله في أن يعطيه الإيمان والعمل الصالح، فهذا افتقار واستعانة بالله قبل حصول المطلوب ، فإذا حصل بدعاء أو بغير دعاء ، شهد إنعام الله فيه ، وكان في مقام الشكر والعبودية لله رب العالمين، وإن حصل بفضله وإحسانه لا بحول العبد وقوته .

فشهود القدر في الطاعات من أنفع الأمور للعبد ، وغيبته عن ذلك من أضر الأمور به ، فإنه يكون قدرياً منكراً لنعمة الله عليه بالإيمان والعمل الصالح ، وإن لم يكن قدري الاعتقاد كان قدري الحال ، وذلك يورث العجب والكبر ، ودعوى القوة والمنة بعمله ، واعتقاد استحقاق الجزاء على الله به ، فيكون من يشهد العبودية مع الذنوب والاعتراف بها - لامع الاحتجاج بالقدر - عليها خيراً من هذا الذي يشهد الطاعة منه لامن إحسان الله إليه ، ويكون أولئك المذنبون بما معهم من الإيمان أفضل من طاعة بدون هذا الإيمان.(٤)

---

(١) رواه الإمام مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها (ح٧٧٠) والترمذي في الدعوات (ح٣٤٢٠) والنسائي في قيام الليل وتطوع النهار (ح١٦٢٥) وأبو داود في الصلاة (ح ٧٦٦) . وابن ماجه في إقامة الصلاة وسننها (ح ١٣٥٧)

(٢) رواه الترمذي عن ابن عمر في كتاب الدعوات (ح٣٥٠٢) وقال هذا حديث حسن غريب وانفرد به قال وقد روى بعضهم هذا الحديث عن خالد بن أبي عمران عن نافع عن ابن عمر .

(٣) وقد تقدم انظر ص ١٢٣ .

(٤) الفتاوى ٣٣٠/٨-٣٣١ ، وانظر ٧٦/٨-٧٧ . ٢٦٤/١٤ .

وأما الحال الثانية فحال العبد بعد القدر:

فإذا ما حقق العبد الحال الأولى بفعل المأمور وترك المحظور ، ومداومة الاستغفار والتوبة من التقصير ، والدعاء في سؤال القبول ، فإنه يكون قد حقق التوحيد في ذلك، فإذا ما وقع القدر فإن له حال ثانية وهي : الصبر على ما يصيبه من القضاء المقدور .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – : (فإذا قدر المقدور بغير فعله ، فعليه أن يصبر عليه ، ويرضى به ، وإن كان بفعله وهو نعمة حمد الله على ذلك ، وإن كان ذنباً استغفر الله من ذلك ... قال تعالى : ﴿فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك﴾[١]

أمره أن يصبر على المصائب المقدرة ويستغفرمن الذنب ، وإن كان استغفار كل عبد بحسبه ، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وقال تعالى : ﴿ وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾ [٢] وقال يوسف : ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين ﴾ [٣] فذكر الصبر على المصائب والتقوى بترك المعائب ، وقال للنبي ﷺ : ((احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن ، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا وكذا ، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان))[٤]

فأمره إذا أصابته المصائب أن ينظر إلى القدر ، ولا يتحسر على الماضي ، بل يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، فبالنظر إلى القدر عند المصائب والاستغفار عند المعائب ، قال تعالى : ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ، ليكلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ [٥] وقال تعالى : ﴿ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن

---

(١) سورة غافر ٥٥ .

(٢) سورة ال عمران ١٨٦ .

(٣) سورة يوسف ٩٠ .

(٤) رواه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة في باب القدر (ح٢٦٦٤) وابن ماجه في المقدمة (ح ٧٩) وفي الزهد (ح ٤١٦٨)

(٥) سورة الحديد ٢٣ .

يؤمن با لله يهد قلبه وا لله بكل شيء عليم ﴾ [١] قال علقمة وغيره : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنه من عند ا لله فيرضى ويسلم . وا لله تعالى أعلم)[٢]

كما بين رحمه ا لله أنه ينبغي على المؤمن أن يصبر على المصائب ويؤمن بقضاء ا لله وقدره ، ويرضى به ويسلم لله تسليماً كاملاً ، وذلك في المصائب والمحن التي ليست ذنوباً ، مثل أن يبتلى بفقر أو مرض أو ذل أو أذى الخلق له ونحو ذلك ، فإن الصبر على المصائب واجب والرضا مشروع وهو من كمال تحقيق التوحيد [٣] . كما ينبغي مع شهوده للقدر أن يتخلى عن حظوظ نفسه ، وشهواتها ابتغاء وجه ا لله ﷻ مسلماً لقضاءه وقدره .[٤]

وإن من تحقيق التوحيد أن يؤمن العبد بالقدر خيره وشره دون (أن يحتج به على ا لله، فالإيمان به هدى والاحتجاج به ضلال وغي ، بل الإيمان بالقدر يوجب أن يكون العبد صباراً شكوراً ، صبوراً على البلاء شكوراً على الرخاء إذا أصابته نعمة علم أنها من عند ا لله فشكره ، سواء كانت النعمة حسنة فعلها أو كانت خيراً حصل بسبب سعيه فيها ، فإن ا لله هو الذي يسر له عمل الحسنات ، وهو الذي تفضل بالثواب عليها ، فله الحمد في ذلك كله . وإذا أصابته مصيبة صبر عليها ، وإن كانت تلك المصيبة قد جرت على يد غيره ، فا لله هو الذي سلط ذلك الشخص، وهو الذي خلق أفعاله) [٥] فيكون حال الموحد كما قال رسول ا لله ﷺ : ((عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له .))[٦]

وهذا الحال هو حال من حقق كما التوحيد ، فتجد المؤمن صابراً شاكراً بل راضياً تمام الرضى بالقضاء ، مطمئنة نفسه بذلك تمام الاطمئنان ، وهؤلاء هم السعداء .

---

(١) سورة التغابن ١١ .

(٢) الفتاوى ٧٧/٨ . وانظر ٢٩٢/١، ٦٦٧/١٠ ، ١٥٩-١٦٠ .

(٣) انظر الفتاوى ١٩٠/٨-١٩١ .

(٤) انظر الفتاوى ٣٦١/٣٠ .

(٥) انظر الفتاوى ٢٣٧/٨ .

(٦) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٩) والدارمي في الرقاق (٢٧٧٧) .

المبحث الثاني : بيانه لدواعي وأسباب تحقيق التوحيد

دواعي وأسباب تحقيق التوحيد

تمهيد

ويتضمن ما يلي :

١) شروط اتخاذ الأسباب .

٢) بيان الأسباب ومسبباتها .

٣) أقسام الناس في النظر إلى الأسباب .

أولاً : شروط اتخاذ الأسباب

لابد في تحقيق التوحيد من الإتيان بالأسباب والدواعي المؤدية إلى ذلك ، واجتناب القوادح التي تمنع من ذلك ، فكل أمر يقع في هذا الكون فلا بد له من سبب كما أنه لابد أن يكون له مسبب وهو الله سبحانه وتعالى [١] .

فإذا كان الأمر كذلك فإن لتحقيق التوحيد دواعٍ وأسباب لابد من فعلها والقيام بها على الوجه الأكمل ، وبدون ذلك لن يتحقق التوحيد . ولن يتم الاخلاص . مع العلم بأن هذه الدوافع والأسباب يجب على كل مسلم الأخذ بها .

وفعل الأسباب يتطلب توفر شروطٍ وانتفاءُ موانع .[٢] وقد وضح ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - بعد أن ذكر أن وجود الأسباب وكون الله جل وعلا خلقها وجعل فعلها سبباً لحصول المقصود ودفع المكروه فقال : (ينبغي أن يعرف في الأسباب ثلاثة أمور :

أحدها : أن السبب المعين لايستقل بالمطلوب بل لابد معه من أسباب أخر، ومع هذا فلها موانع . فإن لم يُكَمِّل الله الأسباب ، ويدفع الموانع : لم يحصل المقصود[٣] ،

---

(١) انظر الفتاوى ٨/٧٠ .

(٢) انظر الفتاوى ٨/٧٠.

(٣) وهذا لا يعني أن الإنسان يترك البحث عن الحق واتباعه ، فإن العبد مأمور بالإيمان واتباع الرسل ، ومنهي عن الاحتجاج بالأقدار .

وهو - سبحانه - ما شاء كان وإن لم يشأ الناس وما شاء الناس لايكون إلا أن يشاء الله .

الثاني : أنه لايجوز أن يعتقد أن الشيء سبب إلا بعلم ، فمن أثبت شيئاً سبباً بلا علم أو بخلاف الشرع : كان مبطلاً ، مثل من يظن أن النذر سبب في دفع البلاء وحصول النعماء .

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ : أنه نهى عن النذر وقال : ((إنه لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل)) (١) .

الثالث : أن الأعمال الدينية لايجوز أن يتخذ منها شيء سبباً إلا أن تكون مشروعة ؛ فإن العبادات مبناها على التوقيف ؛ فلا يجوز للإنسان أن يشرك بالله ، فيدعو غيره - وإن ظن أن ذلك سبب في حصول بعض أغراضه- وكذلك لايعبد الله بالبدع المخالفة للشريعة وإن ظن ذلك ، فإن الشياطين قد تعين الإنسان على بعض مقاصده إذا أشرك ، وقد يحصل بالكفر والفسوق والعصيان بعض أغراض الإنسان ، فلا يحل له ذلك ، إذ المفسدة الحاصلة بذلك أعظم من المصلحة الحاصلة به إذ الرسول ﷺ بعث بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، فما أمر الله به فمصلحته راجحة ، وما نهى عنه فمفسدته راجحة.)(٢).

وبهذا يتبين أن تحقيق التوحيد لابد فيه من فعل الأسباب والدوافع الموجبة لذلك ، كما أنه لابد أن يكون العبد غير معتمد في تحقيقه للتوحيد على نفسه وحده في تحصيل تلك الدوافع ، بل يعتقد أنه لايمكن أن يأتي بها على وجهها الذي يصل به إلى تحقيق التوحيد دون إعانة الله ورحمة الله التي يتم بها المقصود .

كما يتطلب أن تكون الأسباب والدوافع شرعية فلا يتخذ سبباً غير شرعي ليصل به إلى تحقيق التوحيد ، كالحرص على النذر مثلاً ليقوم بالعبادة التي قد لايفعلها بدونه .

---

(١) رواه البخاري في الأيمان والنذور (ح ٦٦٩٣) ومسلم في كتاب النذر (ح ١٦٣٩) واللفظ له .والنسائي في الأيمان والنذور (ح٣٨٠١) وأبو داود في الأيمان والنذور (ح ٣٦٧٨) وابن ماجه في الكفارات (ح٢١٢٢).

(٢) الفتاوى ١/١٣٧-١٣٨ .

كما يجب أن تكون الأسباب موافقة للشرع ؛ لأنه لايكون الشيء قربة مالم يكن شرعياً ، فما يفعله كثير من العباد والزهاد المتصوفة من بعض العبادات ؛ زاعمين أنهم يصلون بذلك إلى تحقيق التوحيد وإلى الفناء في شهود السِّوَي ، كل ذلك غير شرعي ، وإن كان له أصل في الشرع ؛ لكن فعله على تلك الصفات المعينة تجعله مخالفاً للشريعة ، كالذكر الجماعي مثلاً والتبتل وتشريع أوراد ما أنزل ا لله بها من سلطان ونحو ذلك .

ثانياً : بيان الأسباب ومسبباتها

قد أفاض شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه ا لله تعالى - في بيان الأسباب ومسبباتها ووجوب العمل بها حتى يحصل المراد ، مع عدم الاعتماد عليها سواء ما يتعلق بأمر الدنيا أو الآخرة ، وذكر أصناف الناس باتخاذهم للأسباب فقال رحمه ا لله :

(قد جعل ا لله سبحانه وتعالى للأشياء أسباباً تكون بها ، فيعلم أنها تكون بتلك الأسباب ، كما يعلم أن هذا يولد له بأن يطأ امرأة فيحبلها ، فلو قال هذا : إذا علم ا لله أنه يولد لي فلا حاجة إلى الوطء كان أحمقاً ؛ لأن ا لله علم أنه سيكون بما يقدره من الوطء ، وكذلك إذا علم أن هذا ينبت له الزرع بما يسقيه من الماء ويبذره من الحب ، فلو قال : إذا علم أنه سيكون فلا حاجة إلى البذر ، كان جاهلاً ضالاً ؛ لأن ا لله علم أن سيكون بذلك ، وكذلك إذا علم ا لله أن هذا يشبع بالأكل ، وهذا يروي بالشرب وهذا يموت بالقتل فلا بد من الأسباب التي علم ا لله أن هذه الأمور تكون بها .) [1] .

ولهذا أمر ا لله بالعمل ويسر كل شخص لما خلق له من العمل سواء كان طاعة أو معصية وخلق أسبابها على وفق علمه السابق منهم وكيف يعملون .

وقد (أمر ا لله الناس بالدعاء والاستعانة با لله وغير ذلك من الأسباب .. وجعل الدعاء والسؤال من الأسباب التي ينال بها مغفرته ورحمته وهداه ونصره ورزقه ، وإذ قدر للعبد خيراً يناله بالدعاء لم يحصل بدون الدعاء ، وما قدره ا لله وعلمه من أحوال العباد وعواقبهم فإنما قدره ا لله بأسباب يسوق المقادير إلى المواقيت فليس في الدنيا

---

(١) الفتاوى ٨/٦٨ .

والاخرة شيء إلا بسبب ، وا لله خالق الأسباب والمسببات.. وكذلك أمر الآخرة ليس بمجرد العمل ينال الإنسان السعادة ، بل هي سبب ، ولهذا قال النبي ﷺ : ((إنه لن يدخل الجنة أحدكم بعمله ، قالوا : ولا أنت يارسول ا لله قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني ا لله برحمه منه وفضل))[١] وقد قال ﴿ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾[٢] فهذه باء السبب ، أي بسبب أعمالكم ، والذي نفاه النبي ﷺ باء المقابلة كما يقال : اشتريت هذا بهذ أي ليس العمل عوضاً وثمناً كافياً في دخول الجنة ، بل لابد من عفو ا لله ورحمته..)[٣].

ثالثاً : أقسام الناس في النظر إلى الأسباب

بين رحمه ا لله تعالى أن الناس انقسموا في هذا المقام إلى ثلاثة أقسام ، قسمان خالفا الصواب وضلا فيه ، وقسم وفق إلى الهدى والفقه في الدين .

الطائفة الأولى : الذين آمنوا بالقدر ظنوا أن ذلك كاف في حصول المقصود ، فأعرضوا عن الأسباب الشرعية والأعمال الصالحة ، وهؤلاء يؤول بهم الأمر إلى أن يكفروا بكتب ا لله ورسله ودينه .

ومن هؤلاء أقوام زعموا أن التوكل يغنى عن الأسباب المأمور بها ، فتركوا الدعاء وطلب الرزق ، حتى ظن بعض الناس أن الدعاء لاتأثير له في حصول المطلوب ولا في دفع المرهوب ؛ ولكنه عبادة محضة وما حصل به حصل بدونه ، وظن آخرون أن ذلك مجرد علامة ،والصواب الذي عليه السلف أن ذلك من أعظم الأسباب التي تنال بها سعادة الدنيا والآخرة .

ومنهم من ترك حمل الزاد في الأسفار ، وهم وهم غلاة الصوفية ، حتى لقد (حكي للإمام أحمد رحمه ا لله أن بعض الغلاة الجهال بحقيقة التوكل كان إذا وضع له الطعام

---

(١) رواه البخاري في الرقاق (ح٦٣٦٤) ومسلم في ومسلم في صفة القيامة والجنة (ح ٢٨١٦) واللفظ له ، والنسائي في الإيمان وشرائعه (ح ٥٠٣٤) .وابن ماجه في الزهد (٤٢٠١٩) .

(٢) سورة النحل ٣٢ .

(٣) الفتاوى ٦٩/٨-٧٠ .

لم يمد يده حتى يوضع في فمه ، وإذا وضع يطبق فمه حتى يفتحوه ويدخلوا في الطعام ، فأنكر ذلك أشد الإنكار ، ومن هؤلاء من حرم المكاسب .

وهذا وأمثاله من قلة العلم بسنة الله في خلقه وأمره ، فإن الله خلق المخلوقات بأسباب ، وشرع للعباد أسباباً ينالون بها مغفرته ورحمته وثوابه في الدنيا والآخرة ، فمن ظن أنه بمجرد توكله مع تركه ما أمر الله به من الأسباب يحصل مطلوبه ، وأن المطالب لاتتوقف على الأسباب التي جعلها الله أسباباً لها فهو غالط ، فالله - سبحانه - وإن كان قد ضمن للعبد رزقه وهو لابد أن يرزقه ماعمر ، فهذا لايمنع أن يكون ذلك الرزق المضمون ، له أسباب تحصل من فعل العبد وغير فعله.)[1] وهذا الحال هو حال من أعرض عن أسباب تحقيق التوحيد ثم يزعم أنه يبلغ بفعله الخاطيء لفهم التوكل أو الدعاء أو غيره من أنواع العبادة كمال تحقيق التوحيد ، بل ظنوا أن هذا الفعل هو تحقيق التوحيد وبالغوا في ذلك حتى زعموا أن من فعل ذلك فقد بلغ مرتبة الولاية ، ولهذا يقرر شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - فساد اعتقادهم هذا ويبين أن الحق خلافه بقوله : (وليس الأمر كذلك بل عامة الأنبياء كانوا يفعلون الأسباب لينالوا بها الرزق وغيره ، فإبراهيم الخليل عليه السلام كان لديه ماشية كثيرة حتى إنه كان يقدم للضيف الذين لايعرفهم عجلاً سميناً ، وهذا إنما يكون مع اليسار ، وداود عليه السلام كان يصنع الدروع ويبيعها ويأكل من كسبه ، وكان زكريا عليه السلام نجاراً [2]، ونبينا محمد ﷺ كان يقول : ((.. وجعل رزقي تحت ظل رمحي ..)) [3] .

وخيار الأولياء المتوكلين بعد الأنبياء أبو بكر الصديق رضي الله عنه كان تاجراً وكان يأخذ ما يحصل له من المغنم ، ولما ولي الخلافة جعل له من بيت المال كل يوم درهمان ، وقد أخرج ماله كله ، وقال له النبي ﷺ : ((ماتركت لأهلك ؟ قال تركت لهم الله

---

(١) الفتاوى٨/٥٣٠-٥٣١ .

(٢) رواه مسلم في الفضائل (ح٤٣٨٤) وابن ماجه في التجارات (ح٢١٠٠).

(٣) رواه والبخاري عن ابن عمر معلقاً في كتاب الجهاد والسير باب ما قيل في الرماح ، قبل (ح٢٩١٤) وأحمد ٢/٥٠ ، ٩٢ ، مسنداً عن ابن عمر ، وصححه أحمد شاكر في تحقيقه للمسند (ح٥١١٤ ، ٥١١٥ ، ٥٦٦٧) . وطرفه : " بعثت بين يدي الساعة "

ورسوله))[١] ومع هذا فما كان يأخذ من أحد شيئاً لاصدقة ولا فتوحاً ولا نذراً ، بل إنما كان يعيش من كسبه .)[٢] وهذا من تمام تحقيقه للتوحيد.

وقد أرشد الرسول ﷺ رجلاً جاء يسأله لفقره فقال له ﷺ : ((أما في بيتك شيء ؟ . قال بلى حلس[٣] نلبس بعضه ونبسط بعضه ، وقُعْبٌ [٤] نشرب فيه من الماء . قال : ((ائتني بهما)) ، قال : فأتاه بهما ؛ فأخذهما رسول الله ﷺ بيده وقال : ((من يشتري هذين.)) ؟ قال رجل : أنا آخذهما بدرهم ، قال : ((من يزيد على درهم ؟)) مرتين أو ثلاثا . قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين ، فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين وأعطاهما الأنصاري وقال : ((اشتر بأحدهما طعاما فانبذه إلى أهلك واشتر بالآخر قدوما فأتني به)) . فأتاه به ، فشد فيه رسول الله ﷺ عودا بيده ثم قال له : ((اذهب فاحتطب وبع ولا أرينك خمسة عشر يوماً.)) فذهب الرجل يحتطب ويبيع ، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم ، فاشترى ببعضها ثوبا ، وببعضها طعاما فقال رسول الله ﷺ : ((هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة ...))[٥]

وهذه إشارة إلى وجوب فعل الأسباب مهما كانت صغيرة أو كبيرة ، ومدار ذلك كله على التوكل على الله ، الذي يتم به تحقيق التوحيد وبلوغ الغايات .

والمقصود هنا أن الذي دل عليه الدليل الشرعي هو عمل الأسباب حتى يحصل المراد ، سواء كان في أمور الدين أو الدنيا. وبدون فعل السبب لن يحصل المقصود . وعلى هذا فمن أراد تحقيق التوحيد فعليه بفعل أسبابه ، والامتناع عن موانعه التي سيأتي

---

(١) رواه الترمذي في المناقب (ح٣٦٧٥) وقال هذا حديث حسن صحيح ، وأبو داود في الزكاة (ح ١٦٧٨) في الزكاة (ح١٦٦٠) .

(٢) الفتاوى ٨/ ٥٣٧-٥٣٨ .

(٣) الحِلْس هو : الكساء الذي بلي من كثرة ما يستعمل

(٤) القعب هو : القدح الغليظ الجافي المقعر . انظر اللسان ٦٨٣/١ مادة قعب .

(٥) رواه أبو داود في الزكاة (ح١٦٤١) وابن ماجه في التجارات (ح٢١٩٨) وروى بعضه الترمذي في البيوع (ح١٢١٨) والنسائي في البيوع (ح٤٨٠٥) وغيرهم . وضعفه الألباني في إرواء الغليل (ح١٢٨٩) وفي ضعيف سنن ابن ماجه (ح٤٧٨) .

ذكرها إن شاء الله تعالى ، مع العلم أن اتخاذها ليس أمراً اختيارياً ، بل يجب على كل عبد أن يسعى إلى تحقيقها والعمل بها .

والطائفة الثانية : هم الذين أخذوا يطلبون الجزاء من الله كما يطلبه الأجير من المستأجر ، متكلين على حولهم وقوتهم وعملهم ، وكما يطلبه المماليك، وهؤلاء جهال ضلال .

وعلل – رحمه الله – سبب ضلالهم بقوله : (. . إن الله لم يأمر العباد بما أمرهم به حاجة إليه ، ولا نهاهم عنه بخلاً له ؛ ولكن أمرهم بما فيه صلاحهم ، ونهاهم عما فيه فسادهم ، وهو سبحانه كما قال : ((ياعبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني)) [١] فالمَلِكُ إذا أمر مملوكيه بأمر أمرهم لحاجته إليهم وهم فعلوه بقوتهم التي لم يخلقها لهم ، فيطالبون بجزاء ذلك ، والله تعالى غني عن العالمين ، فإن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم ، وإن أساؤوا فلها، لهم ما كسبوا وعليهم ماكتسبوا ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد﴾ [٢] .

الطائفة الثالثة : هم أهل الحق والهدى ، الذين علموا أن الله جل شأنه خلق الأشياء وعلق حصولها على فعل الأسباب ، (والسبب الذي أمر الله به . . هو عبادة الله وطاعته له ولرسوله ، والله فرض على العباد أن يعبدوه ويتوكلوا عليه ، كما قال تعالى : ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾ [٣] وقال : ﴿ واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً ، رب المشرق والمغرب لاإله إلا هو فاتخذه وكيلا﴾ [٤] ...) [٥] فأمر بالعبادة واتخاذ الأسباب المؤدية إلى رضى الله جل وعلا ، والتي يتم بهما تحقيق التوحيد .

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة والآداب (ح٢٥٧٧) .

(٢) سورة فصلت ٤٦ .

(٣) سورة هود ١٢٣ .

(٤) سورة المزمل ٨-٩ .

(٥) الفتاوى ٥٢٦/٨ .

وقد بين هذا النبي ﷺ حينما سئل : ((أفلا نتكل على الكتاب ؟ قال لا ، أعملوا فكل ميسر لما خلق له)) [(١)].

.. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : ((المؤمن القوي خير وأحب إلى ا لله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن با لله ولا تعجزن ..)) [(٢)].

ولهذا قالوا : (إن الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد[(٣)] ، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل ، والإعراض عن الأسباب المأمور بها قدح في الشرع ، فعلى العبد أن يكون قلبه معتمداً على ا لله ، لاعلى سبب من الأسباب ، وا لله ييسر له من الأسباب ما يصلحه في الدنيا والآخرة ، فإن كانت الأسباب مقدورة له وهو مأمور بها فعلها مع التوكل على ا لله ، كما يؤدي الفرائض وكما يجاهد العدو ، ويحمل السلاح ، ويلبس جنة الحرب ولايكتفي في دفع العدو على مجرد توكله بدون أن يفعل ما أمر به من الجهاد ، ومن ترك الأسباب المأمور بها فهو عاجز مفرط مذموم .)[(٤)]

(ومن ظن الاستغناء بالسبب عن التوكل والعمل فقد ترك ما أوجب ا لله عليه، وأخل بواجب التوحيد ، ولهذا يخذل أمثال هؤلاء إذا اعتمدوا على الأسباب، فمن رجا نصراً أو رزقاً من غير ا لله خذله ا لله ، كما قال علي ﷺ : لايرجونَّ عبد إلا ربه ولايخافنَّ إلا ذنبه) [(٥)].

والمقصود أن تحقيق التوحيد لابد فيه من الحرص على الدوافع و الأسباب التي تدفع إلى ذلك ، والحذر من الموانع ، والعلم بأن (الحاجة والفقر إلى ا لله ثابتة مع فعل

---

(١) رواه البخاري في تفسير القرآن (ح٤٩٤٥) ومسلم في القدر (ح٢٦٤٧) والترمذي في القدر (ح٢١٣٦) وأبو داود في السنة (ح٤٦٩٤) وابن ماجه في المقدمة (ح٧٨) .

(٢) رواه مسلم في القدر (ح٢٦٦٤) وابن ماجه في المقدمة (ح٧٩) .

(٣) لأن العبد إذا فعل السبب واعتمد عليه في حصول المسبب دون أن ينظر إلى أن الله ﷻ هو المسبب الأول ، وأنه إن لم يشأ حصول المطلوب لم يحصل ، وإن شاء حصل ، فهذا نوع من الشرك .

(٤) الفتاوى ٥٢٨/٨-٥٢٩ . وانظر ٧٠/٨ ، ١٧٥ ، ٢٨٧ ، .

(٥) الفتاوى ١٧٩/١٨-١٨٠ بتصرف .

السبب إذ ليس في المخلوقات ما هو وحده سبب تام لحصول المطلوب) [(١)] بل كل ما يكون في العالم من أمور فلا بد له من سبب ، وسبب الإيمان [والتوحيد وتحقيقه] تارة يكون من العبد وتارة من غيره ، مثل من يقيض له من يدعوه إلى الإيمان ، ومن يأمره بالخير ، وينهاه عن الشر ، ويبين له علامات الدين وحججه وبراهينه ، وما يعتبره وينزل به ويتعظ به، وغير ذلك من الأسباب .

أسباب ودواعي تحقيق التوحيد

الأسباب التي يتحقق بها التوحيد كثيرة وقد تقدم بعضها في المبحث السابق كتحقيق التوحيد الواجب بالخلوص من الشرك والبراءه منه ومن أهله ، والحذر من البدع بلزوم السنة والعلم الصحيح ، والحذر من المعاصي ونحوها مما له أثر بين في تحقيق التوحيد ، والعمل على تحقيق كماله المستحب بعمل ما يوصل إلى ذلك ، وغير ذلك مما تقدم ذكره .

وكل أمر يتحقق به التوحيد ففعله والاستمرار عليه يعتبر من أسباب تحقيق التوحيد ، إلا أني سأذكر هنا بعض الأسباب التي أرى أن لها أهمية بالغة في ما يعين على تحقيق التوحيد فأقول :

وإنَّ من أهم ما ما يدفع ويعين على تحقيق التوحيد الاجتهاد في تحقيق الإيمان ، وتصديقه بالأعمال الظاهرة والباطنة ..

وقد ذكر شيخ الإسلام ـ رحمه الله أن اسم الإيمان له استعمالان : مطلق ومقيد (يستعمل مطلقاً ، ويستعمل مقيداً ، فإذا استعمل مطلقاً فجميع ما يحبه الله ورسوله من أقوال العبد وأعماله الباطنة والظاهرة يدخل في مسمى الإيمان عند عامة السلف والأئمة من الصحابة والتابعين وتابعيهم الذين يجعلون الإيمان قولاً وعملاً يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ...

ويدخل في ذلك ما قد يسمى مقاماً وحالاً ، مثل الصبر والشكر والخوف والرجاء والتوكل والرضا والخشية والإنابة والإخلاص والتوحيد وغير ذلك .

---

(١) الفتاوى ١٨ /١٧٩ .

ومن هذا ما خُرِّجَ في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : ((الإيمان بضع وستون - أو بضع وسبعون - شعبة ، أعلاها قول لاإله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان .))[1] فذكر أعلا شعب الإيمان ، وهو قول لاإله إلا الله ، فإنه لاشيء أفضل منها ...

وقد تظاهرت الدلائل على أن أحسن الحسنات هو **التوحيد** ، كما أن أسوأ السيئات هو الشرك ، وهو الذنب الذي لايغفره الله ...

وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال لوفد عبد القيس : ((آمركم بالإيمان بالله، أتدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لاإله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة ، وتؤدوا خمس المغنم)) [2] فجعل هذه الأعمال من الإيمان ، وقد جعلها من الإسلام في حديث جبرائيل الصحيح - لما أتاه في صورة أعرابي - وسأله عن الإيمان فقال : ((الإيمان أن تومن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والبعث بعد الموت ، وتؤمن بالقدر خيره وشره)) وسأله عن الإسلام فقال : ((أن تشهد أن لاإله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان ، وتحج البيت))[3]...

.. والله سبحانه وتعالى في غير موضع يبين أن تحقيق الإيمان وتصديقه بما هو من الأعمال الظاهرة والباطنة كقوله : ﴿إنما المؤمنون الذين إذ ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليه آياته زادتهم إيماناً ، وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقاً ﴾ [4] وقال : ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا

---

(١) رواه البخاري في الإيمان (ح٩) ومسلم في الإيمان (ح٣٥) واللفظ له إلا أنه قال " فأفضلها " والترمذي في الإيمان (ح٢٦١٤) والنسائي في الإيمان وشرائعه (ح٥٠٠٤) وأبو داود في السنة (ح٤٦٧٦) وابن ماجه في المقدمه (ح٧٥)

(٢) رواه البخاري في كتاب العلم (ح٨٧) ومسلم في الإيمان (ح ١٧) والترمذي في السير (ح١٥٩٩) والنسائي في الإيمان وشرائعه (ح٥٠٣١) وأبو داود في الأشربة (ح٣٦٩٢) .

(٣) رواه البخاري في الإيمان (ح٥٠) ومسلم في الإيمان (ح٩) والنسائي في الإيمان وشرائعه (ح٤٩٩١) وابن ماجه في المقدمة (٦٤) .

(٤) سورة الأنفال ٣ .

بـا لله ورسـوله ثـم لم يرتـابوا وجـاهدوا بـأموالهم وأنفســهم في سـبيل ا لله أولئـك هـم الصـادقون﴾[١] وقـال تعـالى : ﴿إنما المؤمنـون الذيـن آمنـوا بـا لله ورسـوله وإذا كـانوا معـه على أمـر جـامع لم يذهبـوا حتى يستأذنوه ﴾[٢] وقـال تعـالى : ﴿فـلا وربـك لايؤمنـون حتـى يحكمـوك فيمـا شـجر بينهـم ثـم لايجـدوا في أنفسـهم حرجـاً ممـا قضيـت ويسـلموا تسـليماً﴾[٣]...)[٤].

ومـن هنـا يمكـن أن نقـول إن أسباب تحقيـق التوحيـد وداوفعـه كثـيرة ، إلا أنـه يمكـن تقسيمها إلى قسـمين ـــ وإن كانـا غـير شـاملين لجميعهـا ؛ لأن حصرهـا يصعـب ـــ همـا الإيمـان والعمـل الصـالح .

وإن مـن المعلـوم أنـه لا يدخـل أحـد الجنـة ولا يحـوز علـى الدرجـات العـلا فيهـا إلا بالإيمـان والعمـل الصـالح . وقـد كـرر ا لله ذكرهمـا في مواضـع عديـدة مـن كتابـه ، ومـن ذلـك قولـه : ﴿الذيـن آمنـوا وعملـو الصالحـات ﴾[٥] كمـا أنـه ربـط الفـلاح والفـوز بالجنـة بالإيمـان والعمـل الصـالح ، فقـال ا لله تعـالى : ﴿ومـن يأتـه مؤمنـاً قـد عمـل الصالحـات فـأولئك لهـم الدرجـات العلـى ﴾[٦] وقـال : ﴿وبشـر الذيـن منـوا وعمـل الصالحـات أن لهـم جنـات تجـري مـن تحتهـا الأنهـار خـالدين فيهـا..﴾[٧] وقـال تعـالى : ﴿إن الذيـن آمنـوا وعملـوا الصالحـات أولئـك هـم خـير البريـة ، جزاءهـم عنـد ربهـم جنـات عـدن .. ﴾الآيـة[٨] فهـذه الخيرة ناتجـة عـن إيمـانهم بـا لله وعملهـم الصـالح . وغـيرهذه الآيـات كثـير .

وعلـى ضـوء هـذه الآيـات فإنـه يمكـن أن نقـول إن أسـباب تحقيـق التوحيـد تنحصر على وجه العموم في الإيمان بالله والعمل الصالح .

---

(١) سـورة الحجـرات ١٥ .

(٢) سـورة النـور ٦٢ .

(٣) سـورة النسـاء ٦٥ .

(٤) الفتـاوى ٧/٦٤٢-٦٤٥ .

(٥) سـورة البقـرة ٢٥ ، ٨٢ وغيرهـا في القـرآن كثـير .

(٦) سـورة طـه ٧٥ .

(٧) سـورة البقـرة آيـة ٢٥.

(٨) سـورة البينـة ٧

وسأذكر أمثلة على هذين الأمرين من واقع ما ذكره شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ مبتدءاً بالقسم الأول منهما :

القسم الأول : تحقيق الإيمان بالله:

يتمثل هذا القسم في أمور كثيرة من أهمها ما يلي :

أ) العلم بالله والتفقه في أسمائه وصفاته :

ويندرج تحته : العلم بأسمائه وصفاته ومعرفة شرعه ووجوب توحيده والإخلاص له ، وطلب علم ذلك والعمل به :

فمعرفة ذلك والعمل به من أوجب الواجبات وأهم المهمات الملقاة على كواهل المكلفين ، فلا تتم عبادة الله إلا بذلك [١] . وقد جاء في الأثر عن النبي ﷺ أنه قال : ((من يرد الله به خيراً يفقه في الدين﴾ [٢] (فكل من أراد الله به خيراً لابد أن يفقه في الدين ، فمن لم يفقه في الدين لم يرد الله به خيراً .)[٣]

وقد ذكر شيخ الاسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – أن العلم في الأصل على نوعين :

احدهما : العلم به سبحانه وبما هو متصف به من نعوت الجلال والإكرام، وما دلت عليه أسماؤه الحسنى ، وقد نعت الله نفسه بأكمل الصفات وأتمها وأجملها ، ولما سأل المشركون النبي ﷺ أن يصف لهم ربه أنزل الله سورة الإخلاص التي اشتملت على وصفه جل وعلا . قال شيخ الاسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – : (وليس في القرآن سورة هي وصف الرحمن محضاً إلا هذه السورة ، وفي الصحيحين عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ أمَّرَ رجلا على سرية فكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بقل هو الله أحد ، فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال : ((سلوه لأي شيء يصنع ذلك)) فسألوه ، فقال : لأنها صفة الرحمن ، فأنا أحب أن

---

(١) انظر الفتاوى ٥٤/٢٣ .

(٢) رواه مسلم في العلم (ح٧١) ومسلم في الزكاة (ح١٠٣٧) .

(٣) الفتاوى ٨٠/٢٨ .

أقرأ بها ، فقال رسول الله ﷺ : ((أخبروه أن الله يحبه)) [١] وقال البخاري في باب الجمع بين السورتين في ركعة : وقال عبيد الله[٢] عن ثابت[٣] عن أنس : كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء ، فكان كلما افتتح سورة يقرأ لهم بها في الصلاة مما يُقرأ به افتتح بـ ﴿قل هو الله أحد﴾ حتى يفرغ منها ، ثم يقرأ بسورة أخرى معها ، فكان يصنع ذلك في كل ركعة ، فكلمه أصحابه وقالوا : إنك تفتتح بهذه السورة ثم لاترى أنها تجزيك حتى تقرأ بأخرى، فإما أن تقرأ بها ، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى ، فقال : ما أنا بتاركها ، إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت ، وإن كرهتم ذلك تركتكم ، وكانوا يرون أنه من أفضلهم ، وكرهوا أن يؤمهم غيره ، فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر ، فقال : ((يافلان ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك ، وما يحملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة ؟)) قال : إني أحبها ، قال : ((حبك إياها أدخلك الجنة))[٤] ...) [٥]

فمحبة أسماء الله وصفاته مع معرفتها والعمل بها من أهم أسباب تحقيق التوحيد ، فقد أخبر ﷺ في هذا الحديث أن ذلك أدخله الجنة .

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد (ح٧٣٧٥) ومسلم في صلاة المسافرين (ح٨١٣) والنسائي في كتاب الافتتاح (٩٩٣).

(٢) أي عبيد الله بن حفص بن عاصم القرشي العدوي العُمَرِي المدني المتوفى سنة ١٤٧هـ انظر فتح الباري ٢/٢٥٧ .

(٣) أي ثابت البناني روى عنه عبيد الله بن حفص انظر السير ٦/٣٠٥ .

(٤) رواه البخاري في الأذان (ح٧٧٤) قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ (وصله الترمذي والبزار عن البخاري عن إسماعيل بن أبي أويس ، والبيهقي من رواية محرز بن سلمة كلهما عن عبد العزيز بن فضالة عن ثابت ...) الفتح ٢/٢٥٧ . ورواه الترمذي في فضائل القرآن (ح٢٩٠١) وروى الأمام أحمد (٣/١٤١ ، ١٥٠) عن أنس بن مالك قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال إني أحب هذه السورة قل هو الله أحد فقال رسول الله ((حبك إياها أدخلك الجنة))

(٥) الفتاوى ١٧/١٣٤-١٣٥ .

(وهذا العلم إذا رسخ في القلب أوجب خشية الله لامحالة ، فإنه لابد أن يعلم أن الله يثيب على طاعته ، ويعاقب على معصيته ، كما شهد به القرآن والعيان ، وهذا معنى قول أبي حيان التميمي[١] - أحد أتباع التابعين - العلماء ثلاثة:

عالم بالله ليس عالماً بأمر الله ، وعالم بأمر الله ليس عالماً بالله ، وعالم بالله وبأمر الله ، فالعالم بالله الذي يخشى الله ، والعالم بأمر الله الذي يعرف الحلال والحرام.

وقال رجل للشعبي : أيها العالم فقال : إنما العالم من يخشى الله ، وقال عبدالله بن مسعود : كفى بخشية الله علماً ، وكفى بالاغترار بالله جهلاً .

فإذا استقر العلم بالله في القلب ، وتمكن فيه العلم بكفايته لعبده ، ورحمته له ، وحلمه عنه ، وبره به ، وإحسانه إليه على الدوام ، أوجب له الفرح والسرور أعظم من فرح كل محب بكل محبوب سواه ، فلا يزال مترقياً في درجات العلو والارتفاع بحسب رقيه في هذه المعارف التي يصل بها إلى كمال تحقيق التوحيد .

والنوع الثاني : العلم بشرع الله كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه ترخص في شيء فبلغه أن أقواماً تنزهوا عنه ، فقال : ((ما بال أقوام يتنزهون عن أشياء أترخص فيها ، والله إني لأعلمكم بالله وأخشاكم له .)) [٢] وفي

---

(١) لم أقف على من ترجم له .

(٢) رواه البخاري في الأدب (ح٦١٠١) وفي الاعتصام بالكتاب والسنة (ح٧٣٠١) ومسلم في الفضائل (ح٢٣٥٦) . ولفظ البخاري : قالت عائشة صنع النبي ﷺ شيئا فرخص فيه فتنزه عنه قوم فبلغ ذلك النبي ﷺ فخطب فحمد الله ثم قال : ((ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية))(ح٧٣٠١)

رواية : ((والله إني لأخشاكم وأعلمكم بحدوده)) [(١)] فجعل العلم به هو العلم بحدوده...) [(٢)].

ومن هنا كان العلم بالله جل وعلا والعلم بشرعه من أهم دواعي وأسباب تحقيق التوحيد قال شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - : (قال الله تعالى : ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾[(٣)] فخص الله سبحانه رَفْعَهُ بالأقدار والدرجات الذين أوتوا العلم والإيمان ، وهم الذين اشتشهد بهم في قوله تعالى : ﴿شهد الله أنه لاإله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط﴾[(٤)] وأخبر أنهم هم الذين يرون أن ما أنزل إلى الرسول هو الحق بقوله تعالى : ﴿ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق﴾ [(٥)] فدل على أن تعلم الحجة والقيام بها يرفع درجات من يرفعها، كما قال تعالى : ﴿نرفع درجات من نشاء﴾ [(٦)]

قال زيد بن أسلم : بالعلم ، ترفع الدرجات والأقدار على قدر معاملة القلوب بالعلم والإيمان ، فكم ممن يختم القرآن في اليوم مرة أو مرتين ، وآخر لاينام الليل ، وآخر لايفطر ، وغيرهم أقل عبادة منهم ، وأرفع قدراً في قلوب الأمة ، فهذا كرز بن

---

(١) رواه الإمام مالك في كتاب الصيام مرسلاً (ح٦٤٥) وأحمد ٤٣٤/٥ ، ولفظه [أن رجلاً من الأنصار] قبل امرأته على عهد رسول الله ﷺ وهو صائم فأمر امرأته فسألت النبي ﷺ عن ذلك فقال النبي ﷺ : إن رسول الله يفعل ذلك فأخبرته امرأته فقال إن النبي ﷺ يرخص له في أشياء ، فارجعي إليه فقولي له . فرجعت إلى النبي ﷺ فقالت قال : إن النبي ﷺ يرخص له في أشياء فقال : ((أنا أتقاكم لله وأعلمكم بحدود الله)) (ح٢٢٥٧٠). ورواه الشافعي في الرسالة (ح١١٠٩) مرسلاً، وأروده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٦/٣-١٦٧) وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

(٢) الفتاوى ٣٣٣/٣-٣٣٤ .وانظر الفتاوى ٢٣٣/١٣-٢٣٤ ، ٢٧٨ .

(٣) سورة المجادلة ١١ .

(٤) سورة ال عمران ١٨ .

(٥) سورة سبأ ٦ .

(٦) سورة الأنعام ٨٣ ويوسف ٧٦ .

وبرة [١] وكهمس[٢] ، وابن طارق[٣] ، يختمون القرآن في الشهر تسعين مرة، وحال ابن المسيب وابن سيرين والحسن وغيرهم في القلوب أرفع .

وكذلك ترى كثيراً ممن لبس الصوف ، وهجر الشهوات ، وتقشف ، وغيره ممن لايدانيه في ذلك من أهل العلم والإيمان أعظم في القلوب ، وأحلى عند النفوس ، وما ذاك إلا لقوة المعاملة الباطنة وصفائها ، وخلوصها من شهوات النفوس وأكدار البشرية ، وطهارتها من أمراض القلوب التي تكدر معاملة أولئك ، وإنما نالوا ذلك بقوة يقينهم بما جاء به الرسول ﷺ وكمال تصديقه في قلوبهم ، ووده ومحبته ، وأن يكون الدين كله لله ، فإن أرفع درجات القلوب فرحها التام بما جاء به الرسول ﷺ وابتهاجها وسرورها، كما قال تعالى : ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ﴾ [٤] وقال تعالى :﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ..﴾ [٥] الآية ، ففضل الله ورحمته القرآن والإيمان ، من فرح به فقد فرح بأعظم مفروح به ، ومن فرح بغيره فقد ظلم نفسه ووضع الفرح في غير موضعه...

[فمن] فهم القرآن فهو دائم التفكر في معانيه ، والتدبر لألفاظه واستغنائه بمعاني القرآن وحكمه عن غيره من كلام الناس ، وإذا سمع شيئاً من كلام الناس وعلومهم عرضه على القرآن ، فإن شهد له بالتزكية قبله وإلا ردَّه ،وإن لم يشهد له بقبول ولا ردٍّ وقفه وهمته عاكفة على مراد ربه من كلامه ...)[٦] .

وصار العلم بالله وبشرعه سبباً لتحقيق التوحيد لعدة أمور ذكرها شيخ الإسلام منها:

---

(١) هو : هو أبو عبد الله كُرْز بن وبرة الحارثي الكوفي نزيل جرجان أشتهر بالزهد والورع ، التعبد توفي سنة ١١٠هـ انظر الأعلام ٢٢١/٥ . والسير ٨٤/٦.

(٢) هو : أبو الحسن كهمس بن الحسن التميمي الحنفي البصري العابد الزاهد من كبار الثقات ، توفي ١٤٩هـ ، السير ٣١٦/٦ .

(٣) لم أقف على اسمه ولا من ترجم له .

(٤) سورة الرعد ٣٦ .

(٥) سورة يونس ٥٨ .

(٦) الفتاوى ٤٨/١٦-٥٠ .

١) توقف كثير من الواجبات على العلم ، وذلك أنه (وإن وجب على جميع الخلق الإيمان با لله ورسوله ، ووجب على كل أمة التزام ما يأمر ا لله به رسوله مجملاً ، فمعلوم أنه لا يجب في أول الأمر ما وجب بعد نزول القرآن كله ، ولا يجب على كل عبد من الإيمان المفصل مما أخبر به الرسول ، ما يجب على من بلغه غيره ، فمن عرف القرآن والسنن ومعانيها ، لزمه من الإيمان المفصل بذلك مالا يلزم غيره ، ولو آمن الرجل با لله وبالرسول باطناً وظاهراً ، ثم مات قبل أن يعرف شرائع الدين ، مات مؤمناً بما وجب عليه من الإيمان ، وليس ما وجب عليه، ولا ما وقع عنه ، مثل إيمان من عرف الشرائع فآمن بها وعمل بها ، بل إيمان هذا أكمل واجباً ووقوعاً ، فإن ما وجب عليه من الإيمان أكمل ، وما وقع منه أكمل . وبهذا يصل إلى كمال تحقيق التوحيد، فإن كانت معرفته با لله أعظم وتعظيمه لحدوده وشرائعه أكمل كان تحقيقه للتوحيد أكمل من غيره.

٢) أن من آمن بالرسول ﷺ وبجميع ما جاء به إجمالاً و لم يطلب علم ذلك بل اتبع شهواته وملذاته فترك الواجب جهلاً به واتبعاعاً لهواه . وآخر علم ما أمر به فعمل به ، وآخر طلب علمه فعلمه وآمن به و لم يعمل به ، وان اشتركوا في الوجوب ؛ لكن من طلب علم التفصيل وعمل به فإيمانه أكمل . وتحقيقه للتوحيد أقوى وأتم .

٣) أن العلم الذي لايوجب الخشية من ا لله والرغبه فيما عنده من النعيم العظيم والثواب المقيم ، و لم يوجب له الهرب من النار والخوف من الوقوع فيها ، فإنه ليس بعلم نافع ، بل النافع ما يدفع إلى العمل والرغبه فيما عند ا لله والخشية من عقاب ا لله . وهذا هو الذي يزيد في تحقيق التوحيد .

٤) أن العلم يجعل صاحبه مداوماً على ذكر ا لله بقلبه ولسانه مستحضراً لعظمة ا لله جل شأنه ، فلا تجد الغفلة إلى قلبه طريقاً . وهذا من أهم أسباب تحقيق التوحيد . قال تعالى : ﴿سيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى ﴾[1] فكلما تذكر الإنسان ما عرفه قبل ذلك وعمل به ،

---

(١) سورة الأعلى ١١ .

حصل له معرفة شيء آخر لم يكن عرفه قبل ذلك ، وعرف من معاني أسماء الله وآياته ما لم يكن عرفه قبل ذلك ، كما في الأثر ((من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم))[1] [2] .

وبهذا يتبين أن طلب العلم سواء ما يتعلق بأسماء الله وصفاته أو بمعرفة شرعه من أهم دواعي وأسباب تحقيق التوحيد ، كما تبين أنه بدون العلم الشرعي لاتكتمل للعبد دواعي تحقيق التوحيد كما تكتمل لغير ممن عرف وعمل به .

كما تبين أن العلم لابد فيه من العمل وإلا لكان مانعاً من موانع تحقيق التوحيد، لاسبباً من أسباب حصوله ، فأول من تسعر بهم النار ثلاثة منهم : عالم لم يعمل بعلمه .[3]

ثم إنه مما يزيد في تحيق التوحيد والإيمان لزوم الكتاب والسنة في العمل ، فلا يعمل العبد عملاً يتقرب به إلى الله إلا إذا تيقن أنه عمل شرعي دل عليه الدليل ، وقد سبق الكلام على ذلك في الكلام على لزوم السنة وأهميتها في تحقيق التوحيد.[4]

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/١٤-١٥) عن أنس مرفوعاً ، وقال : " ذكر أحمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين عن عيسى بن مريم عليه السلام فهم بعض الرواة أنه ذكره عن النبي ﷺ ، فوضع هذا الإسناد عليه لسهولته ، وهذا الحديث لا يحتمل بهذا الاسناد عن أحمد بن حنبل " . وقال الألباني : في الضعيفة (ح٤٢٢) " موضوع " وعزاه لأبي نعيم ثم قال : " وفي الطريق إليه جماعة لم أعرفهم فلا أدري من وضعه " . وانظر الإيمان لابن تيمية تخريج الألباني ص ٣٢٢ .

(٢) انظر الفتاوى ٧/٢٣٢-٢٣٦ .

(٣) رواه الإمام مسلم ولفظه : عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : ((سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ . قال : قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال كذبت ؛ ولكنك قاتلت لأن يقال جريء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار . ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها ، قال: فما عملت فيها ؟ . قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ...))الحديث

(٤) انظر ص وسيأتي تفصيل ذلك بحول الله في شرطي العبادة .

ب) التفكر في مخلوقات الله

التفكر في آيات الله الكونية في الآفاق والأنفس من الأسباب التي حث الله جل شأنه على تدبرها ، وأرشد خلقه إلى النظر فيها والاعتبار ، وقد مدح الله جل ذكر أولئك المؤمنين الذين أرشدهم تفكرهم في مخلوقات الله إلى اللهج بذكره ، والإلتجاء إليه ،فقال الله سبحانه : ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ [(١)] ، فقد اهتدوا من جراء تفكرهم بهذه المخلوقات على وحدانية الله جل شأنه ، وأنه ما خلق تلك المخلوقات عبثاً سبحانه وتعالى ، فزادهم ذلك معرفة تحقق بها توحيد الله ﷻ .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - في معرض حديثه عن أسباب زيادة الإيمان : (.. وكذلك ما يشاهده العباد من الآيات في الآفاق وفي أنفسهم ، قال تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾[(٢)] أي : أن القرآن حق ، ثم قال تعالى : ﴿ أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ فإن الله شهيد في القرآن بما أخبر به ، فآمن به المؤمن ، ثم أراهم في الآفاق وفي أنفسهم من الآيات ما يدل على مثل ما أخبر به في القرآن ، فبينت لهم هذه الآيات أن القرآن حق ، مع ما كان قد حصل لهم قبل ذلك .

وقال تعالى : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لك عبد منيب﴾[(٣)] فالآيات المخلوقة والمتلوة ، فيها تبصرة ، وفيها تذكرة ، تبصرة من العمى ، وتذكرة من الغفلة ، فيبصر من لم يكن عرف حتى يعرف ، ويذّكر من عرف ونسى .) [(٤)] .

---

(١) سورة ال عمران ١٩١ .

(٢) سورة فصلت ٥٣ .

(٣) سورة ق ٦-٨

(٤) الفتاوى ٢٣٦/٧ .

وقد كرر الله جل شأنه في كتابة ذكر عظيم مخلوقاته ، وحث على التدبر والتفكر فيها ، لما فيها من الأمور المشاهدة الحسية التي تظهر لكل صاحب لب سليم ، فإنه يستدل بذلك على عظمة الله وتوحيده ، والمؤمن بتفكره يزداد إيمانه ويتحقق توحيد وإذعانه لربه ، ومن هنا كان التفكر في مخلوقات الله من أسباب تحقيق التوحيد .

قال تعالى : ﴿ أولم يرى الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين، وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه ، قال من يحيي العظام وهي رميم ﴾[1] الآيات

ج) معرفة آلائه ونعمه وشكره عليها .

نعم الله وآلائه على عباده عديدة لا تحصى ، قال تعالى : ﴿وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار .﴾ [2] .

ومعرفة النعم توجب شكرها ، ومن أعظم الشكر توحيد الله وإفراده بالعبادة والعمل على تحقيق ذلك.

وقد امتن الله على عباده في سورة الرحمن بنعمه وآلائه فقال : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾[3] .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - مبيناً أن (.. ما ذكر الله في سورة الرحمن .. هو من آلائه من وجوه :

منها أنه يستدل به عليه ، وعلى توحيده وقدرته وغير ذلك ، وأنه يحصل به الإيمان والعلم وذكر الرب ، وهذه النعمة أفضل ما أنعم الله به على عباده في الدينا ، وكل مخلوق يعين عليها ويدل عليها ، وهذا مع ما في المخلوقات من المنافع لعباده غير الاستدلال بها ، فإنه سبحانه يقول : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ لما يذكر ما يذكره من آلائه.

وقال : ﴿ فبأي آلاء ربك تتمارى ﴾ والآلاء هي النعم :والنعم كلها من آياته الدالة على نفسه المقدسة ووحدانيته ونعوته ومعاني أسمائه ، فهي آلاء

---

(١) سورة يس ٧٨ .

(٢) سورة ابراهيم ٣٤ .

(٣) سورة الرحمن

آيات ، وكل ما كان من آلاءه فهو من آياته ، وهذا ظاهر ، وكذلك كل ما كان من آياته فهو من آلاءه ، فإنه يتضمن التعريف والهداية والدلالة على الرب تعالى ، وقدرته وحكمته ورحمته ودينه والهدى أفضل النعم .

وأيضاً ففيها نعم ومنافع لعباده ، غير الاستدلال : كما في خلق الشمس والقمر والسحاب والمطر والحيوان والنبات ، فإن هذه كلها من آياته ، وفيها نعم عظيمة على عباده غير الاستدلال ، فهي تُتَوج بالشكر لما فيها من النعم ، وتوجب التذكر لما فيها من الدلالة ، قال تعالى : ﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً﴾[1] وقال : ﴿تبصرة وذكرى لك عبد منيب﴾[2] فإن العبد يدعوه إلى عبادة الله داعي الشكر وداعي العلم ، فإنه يشهد نعم الله عليه ، وذاك داع إلى شكرها ، وقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها ، والله تعالى هو المنعم المحسن الذي ما بالعباد من نعمة فمنه وحده كما في الحديث : ((من قال إذا أصبح : اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لاشريك لك ، فقد أدى شكر ذلك اليوم ، ومن قال : ذلك إذا أمسى فقد أدي شكر تلك الليلة))[3] ...)[4].

فمعرفة آلاء الله ونعمه من الأسباب المعينة على تحقيق التوحيد ، إذ أن معرفة ذلك تؤدي إلى محبة الخالق ، واللهج بذكره وحمده والثناء عليه ، فمن تدبر ذلك تحقق عنده وجوب عبادة وتوحيده ، ومن ثم لم يفكر في معصيته فضلاً عن أن يعبد غيره . وبهذا يبلغ درجة عظيمة في تحقيقه للتوحيد .

---

(١) سورة الفرقان ٦٢ .

(٢) سورة ق ٨

(٣) رواه أبو داود في الأدب (ح٥٠٧٣) ولفظه : أن رسول الله ﷺ قال : ((من قال حين يصبح اللهم ما أصبح بي من نعمة فمنك وحدك لا شريك لك ، فلك الحمد ولك الشكر ، فقد أدى شكر يومه . ومن قال مثل ذلك حين يمسي فقد أدى شكر ليلته)) ، ورواه أيضاً النسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (ح٩٨٣٥) . قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ رواه أبو حاتم ابن حبان في صحيحة من حديث ابن عباس انظر الاحسان (ح٨٥٨) وموارد الظمآن (ح٢٣٦١) . ورواه الطبراني في كتاب الدعاء (ح٣٠٦، ٣٠٧) وقال محققه : اسنادهما حسن . وابن السني في عمل اليوم والليلة (ح٤١) والبغوي في شرح السنة (ح١٣٢٨).

(٤) الفتاوى ٨/٣١-٣٢ .

القسـم الثـاني : القيام بالأعمـال الصالحـة

سبق الكـلام عـن شـروط اتخاذ الأسباب أنـه لابـد مـن أن يكـون السـبب مشـروعاً ؛ لأن العبـادات والأعمـال لاتكـون صالحـة إلا إذا دل الدليـل الصحيـح علـى مشـروعيتها ، وكانت خالصـة لله جـل شـأنه ، خالية مـن جميـع شـوائب الشـرك كمـا تقـدم ذكـره [١] وقـد بـين هذيـن الأصلـين شيخ الاسـلام ابـن تيميـة – رحمـه الله تعـالى – بقولـه : (.. أحدهمـا أن لانعبـد إلا الله ، والثـاني أن لانعبـده إلا بمـا شـرع ، لانعبـده بعبـادة مبتدعـة . وهـذان الأصـلان همـا تحقيـق شـهادة أن لاإلـه إلا الله ، وأن محمـداً رسـول الله كمـا قـال تعـالى : ﴿ليبلوكـم أيكـم أحسـن عمـلاً﴾ [٢] ...) [٣] .

وتتحقق هـذه الأعمـال الصالحـة بعـدة أمـور منهـا :

أولاً : الاجتهاد في تحقيق أعمال القلوب .

أعمـال القلـوب هـي الـتي عليهـا مـدار صـلاح الانسـان وضلالـه ؛ لأن القلـب إذا صلـح مافيـه صلـح سـائر حـال الانسـان وواقعـه ، وإذا اختـل مـافي قلبـه مـن الإيمـان والتوحيد ، تخلـف إيمانـه وتوحيـده علـى حسـب تخلـف عملـه .

قـال شـيخ الاسـلام ابـن تيميـة – رحمـه الله تعـالى – : (الإيمـان أصلـه الإيمـان الـذي في القلـب ، ولا بـد فيـه مـن شـيئين : تصديـق القلـب وإقـراره ومعرفتـه ، ويقـال لهـذا قـول القلـب . قـال الجنيـد بـن محمـد[٤] : التوحيـد : قـول القلـب ، والتوكـل عمـل القلـب ، فـلا

---

(١) وقـد تقـدم في المبحـث السـابق أنـه لابـد مـن لـزوم السـنة في جميـع الأمـور التعبديـة ، كمـا سـبقت الإشـارة إلى أن الإخـلاص شـرط مـن شـروط قبـول العمـل . وسـيأتي أيضـاً مزيـد بيـان لهـذا في المبحـث الثـاني مـن الفصـل الثـالث في البـاب الثـاني بـإذن الله تعـالى . ولمزيـد بيـان لهـذا انظـر الفتـاوى ٢٠/١، ١٣٧، ٢١٨ . ٢/ ٤٢٧-٤٣١ ، ٤٣٨ . ٥٣٩/٨ . ٥٦/١٠، ٤٠١ وغيرهـا كثـير .

(٢) سـورة هـود ٧ والملـك ٢ .

(٣) الفتـاوى ٣٣٣/١ .

(٤) هـو : الجنيـد بـن محمـد النهـاوندي البغـدادي والـده الخـزاز ، ولـد سـنة نيـف وعشـرين ومـأتين ، وتـوفي سـنة ٢٩٨هـ ، قال الذهبي ـ رحمـه الله ـ أتقـن العلـم ثـم أقبـل علـى شـأنه ، وتألـه وتعبـد ونطـق بالحكمـة وقـل مـا روى ، وكـان يقـول : (علمنـا مضبـوط بالكتـاب والسـنة ، مـن لم يحفـظ الكتـاب ويكتـب الحديـث لم يتفقـه ، لا يقتـدى بـه .) انظـر السـير ٦٦/١٦ ومـا بعدهـا ، وشـذرات الذهـب ٢٢٨/٢-٢٣٠ .

بد فيه من قول القلب وعمله ، ثم قول البدن وعمله ، ولابد فيه من عمل القلب ، مثل حب الله ورسوله ، وخشية الله وحب ما يحبه الله ورسوله وبغض ما يبغضه الله ورسوله ، وإخلاص العمل لله وحده ، وتوكل القلب على الله وحده ، وغير ذلك من أعمال القلوب التي أوجبها الله ورسوله وجعلها من الإيمان .

ثم القلب هو الأصل ، فإذا كان فيه معرفة وإرادة سري ذلك إلى البدن بالضرورة ، فلايمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب ، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : ((ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب .)) [١] ...

فإذ كان القلب صالحاً بما فيه من الإيمان علماً وعملاً قلبياً ، لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر والعمل بالإيمان المطلق ، كما قال أئمة الحديث : قول وعمل ، قول باطن وظاهر ، وعمل باطن وظاهر ، والظاهر تابع للباطن لازم له متى صلح الباطن صلح الظاهر ، وإذا فسد فسد ...) [٢]

(وهذه الأعمال الباطنة كمحبة الله والإخلاص له والتوكل عليه والرضا عنه ونحو ذلك ، كلها مأمور بها ، وهي حسنة محبوبة في حق كل أحد من النبين والصديقين والشهداء والصالحين ...) [٣] .

فإذا ما اجتهد العبد في تحقيق هذه الأعمال فإن ذلك سيكون من أهم أسباب تحقيق التوحيد . لأن مبنى تحقيق التوحيد على تحقيق هذه الأعمال .

وأعمال القلوب أنواع عديدة وكثيرة ، ومدارها على الخوف والرجاء والمحبة ، فمن حقق هذه الأنواع فقد حقق باقي الأنواع ، ومن خاف الله اتقاه واتبع رضاه ، ومن رجاه لم ييأس من رحمه فأقبل على فعل الأوامر واجتناب النواهي ، ومن أحبه لم يلتفت إلى ما سواه ، لاكتفائه بمحبوبه عن غيره . (ولذا قال بعض السلف : من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبد الله بالرجاء وحده فهو مرجئ ، ومن عبد الله

---

(١) رواه البخاري في الإيمان (ح٥٢) ومسلم في المساقاة (ح١٥٩٩) وابن ماجه في الفتن (ح٣٩٨٤) ولفظه : ((.. ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب))

(٢) الفتاوى ٧/١٨٦-١٨٧ .

(٣) الفتاوى ١٠/١٦ .

بالخوف وحده فهو حروري ، ومن عبد الله بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد . [وذلك لأن الحب المجرد تنبسط النفوس فيه حتى تتوسع في أهوائها إذا لم يزعها وازع الخشية لله تعالى حتى قال اليهود : ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ [١] ...] [٢]

لهذا وجد في المستأخرين من انبسط في دعوى المحبة حتى أخرجه ذلك إلى نوع من الرعونه والدعوى التي تنافي العبودية ، وتدخل العبد في نوع من الربوبية التي لاتصلح إلا لله تعالى ، ويدعي أحدهم دعاوى تتجاوز حدود الأنبياء والمرسلين ، أو يطلبون من الله مالا يصلح بكل وجه إلا لله، لايصلح للأنبيا والمرسلين ... وسبب هذا ضعف تحقيق العبودية التي بينها الرسل ...) [٣]

وهذا الأنواع وغيرها سيأتي ذكرها إن شاء الله تعالى[٤] ، لكن المقصود هنا الإشارة إلى أن تحقيها من أهم أسباب تحقيق التوحيد ، كما أن إهمالها من أهم موانع تحقيق التوحيد ، وهذا مما لايخفى على عاقل .

ثانياً : الاجتهاد في الأعمال الظاهرة :

ينبغي للعبد أن يبذل جهده في القيام بالأعمال الظاهرة فيكملها ، ويتمها على ما ورد في شرع الله جل شأنه ، ويسعي في الإكثار من تلك الأعمال الظاهرة التي رتب الله عليها الثواب والعقاب .

وكما تقدم أن من أسباب تحقيق التوحيد القيام بأعمال القلوب ، فكذلك أعمال الجوارح مكملة لذلك شاهدة عليها ، فأعمال القلوب وإن كان عليها مدار الدين في الحقيقة ، فإن قبول الأعمال الظاهرة متوقف على صحة ما في القلب من تلك الإعمال ، (كما قال النبي ﷺ .. ((الإسلام علانية والإيمان في القلب))[٥]...)[٦] ولهذا

---

(١) سورة المائدة ١٨ .

(٢) الفتاوى ٨١/١٠ .

(٣) الفتاوى ٢٠٧/١٠ .

(٤) وذلك في مبحث أنواع العبادة .

(٥) رواه الإمام أحمد وقد تقدم تخريجه في المبحث السابق . انظر فهرس الأحاديث حرف الهمزة .

(٦) الفتاوى ١٥/١٠ .

فإن بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح ترابطاً وطيداً ، إذ لاتقبل أعمال الجوارح بدون أعمال القلوب ،كما قال النبي ﷺ : ((الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لايعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب))[١][٢] . وكلما حقق العبد الإعمال الظاهرة مع الأعمال الباطنة كالإخلاص والخشوع والخضوع كلما قوي إيمانه وتحقق توحيده.

ويكون تحقيق كل عمل من الأعمال الظاهرة بالقيام بأركانه وإتمام واجباته وجميع ما يتطلب القيام به من كل وجه ، كل عمل بحسبه ، فالصلاة مثلاً التي هي عمود الدين ومدار الإسلام ، يكون تحقيقها بالقيام بما أوجب الله فيها على هيئتها وصفتها المشروعة الموافقة لفعل النبي ﷺ ، مع حضور القلب والخشوع ونحوه من الأعمال الباطنة ، قال سبحانه : ﴿قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون ﴾[٣] فعلق الفلاح بالقيام بالصلاة بكل خشوع وحضور قلب ، وهكذا تحقيق سائر الأعمال الظاهرة .

ثالثاً : تزكية النفس بالأعمال الصالحة

يدخل تحت الاجتهاد في الأعمال الصالحة الاجتهاد في تزكية النفس وتطهيرها مما يؤثر على تحقيق التوحيد ، وذلك بالقيام بالأعمال الظاهرة والباطنة على وجهها الأكمل . ويكون ذلك بعدة أمور من أهمها :

حسن الخلق ، وحسن المعاملة مع الاحسان إلى الخلق ، وتهذيب النفس بالتخلص من أمراض القلوب المذمومة ، كالعجب ، والبخل ، والغل والحقد والحسد، وتهذيبها من التعلق بالشهوات والملذات ، وربطها بالآخرة ونعيمها ، وتغذيتها بالإقبال

(١) تقدم تخريجه قريباً .انظر فهرس الأحاديث حرف " الحاء " .

(٢) انظر الفتاوى ١٠/١٥ .

(٣) سورة المؤمنون ١-٣ .

على طاعة الله ورسوله ، والعمل على تحقيق أعمال القلوب ، قال الله تعالى : ﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ (١).

ولما كانت تزكية النفس تشتمل على تلك الأمور وغيرها فإنني سأقتصر على بعض الأمثلة التي توضح ذلك ، من خلال ما ذكره شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ والتي من أهمها ما يلي :

١ - التقوى

سبق من خلال كلام شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ بيان أن التقوى من أنجع الأمور في تحقيقه التوحيد، وتخليصه من شوائب المعاصي ، وبناء على ذلك فإن لوزم التقوى من أهم أسباب تحقيق التوحيد ، لاسيما وأن الله سبحانه وتعالى كثيراً ما يوصي بها في كتابه ، وكان النبي ﷺ كثيراً ما يفتتح خطبه بالأمر والحث على التقوى ؛ لأن التقوى هي سبب صلاح الإنسان ، ووقايته من الوقوع فيما ينقص التوحيد أو يخل بتحقيقه الواجب ، كما أنها من أهم أعمال القلوب .

وقد فسرها بعضهم(٢) بأنها الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل والاستعداد ليوم الرحيل.

وفسرها بعضهم بأنها : العمل بطاعة الله على نور من الله رجاء ثواب الله ، وترك معصية الله على نور من الله خوفاً من الله.(٣)

وفسرها آخرون بقولهم : أن لا يراك الله حيث نهاك ، ولا يفتقدك حيث أمرك .

وقد أشار إليها ﷺ حينما أشار إلى صدره قائلاً : ((التقوى ههنا التقوى ههنا))(٤) .

ولقد كان السلف الصالح - رضوان الله عليهم - يتواصون بها ، ويهتمون بتحقيقها ؛ لأنهم عرفوا المقصود بها ، فذلت نفوسهم لربهم ، وصلحت أعمالهم ، وحققوا التوحيد بسبب صلاح نياتهم .

---

(١) سورة الشمس ٩-١٠

(٢) طلق بن حبيب العابد . انظر جامع العلوم والحكم ١/٤٠٠ .

(٣) انظر جامع العلوم والحكم ١/٤٠٠ .

(٤) رواه الإمام مسلم في البر والصلة (ح٢٤٦٤) عن أبي هريرة .

وأصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه .. وفي الشرع فعل الطاعات واجتناب المعاصي [(١)].

وقد سَأَلَ شخصٌ شيخَ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - أن يوصيه فقال : (ما أعلم وصية أنفع من وصية الله ورسوله لمن عقلها واتبعها ، قال تعالى : ﴿ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله﴾ [(٢)].

ووصى النبي ﷺ معاذا لما بعثه إلى اليمن فقال : ((يامعاذ اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن)) [(٣)]، وكان معاذ ﷺ من النبي ﷺ بمنزلة عليَّه ؛ فإنه قال له : ((يامعاذ والله إني لأحبك))[(٤)] وكان يردفه وراءه ، وروي فيه : ((أنه أعلم الأمة بالحلال والحرام .))[(٥)] وأنه : ((يحشر أمام العلماء برتوة ..))[(٦)] ومن فضله أنه ﷺ بعثه إلى اليمن مبلغاً عنه وداعياً ومفتياً وحاكما .

---

(١) انظر جامع العلوم والحكم ٤٠٠/١ .

(٢) سورة النساء ١٣١ .

(٣) رواه الترمذي في البر والصلة (ح١٩٨٧) عن أبي ذر وأبي هريرة ، ومعاذ ، وقال : " هذا حديث حسن صحيح " .

(٤) رواه أبو داود في الصلاة (ح١٥٢٢) النسائي في السهو (ح١٣٠٣) ولفظه عند أبي دواد ((عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال يا معاذ والله إني لأحبك والله إني لأحبك فقال أوصيك يا معاذ لا تَدَعَنَّ في دبر كل صلاة تقول اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)) وقد صححه الألباني ، انظر صحيح سنن أبي دواد .

(٥) رواه الترمذي في المناقب (ح٣٧٩٠) وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وابن ماجه في المقدمة (ح١٥٤) والإمام أحمد في المسند ١٨٤/٣ ، ٢٨١ ، وأبو نعيم في الحلة (٢٢٨/١) من حديث أنس مرفوعاً : " أرحم أمتي بأمتي أبو بكر .. وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ ...)) الحديث كما رواه أبو نعيم في الحلة (٢٢٨/١) وصححه الألباني في سنن الترمذي (ح٢٩٨١).

(٦) رواه الإمام احمد ١٨/١ وفيه : " نبذة " بدل : " رتوة " من حديث عمر وغير مرفوعاً ، وقال أحمد شاكر في تحقيقه للمسند (ح١٠٨) : " اسناده ضعيف لانقطاعه " ورواه أبو نعيم في الحليـة ٢٢٨/١ ، ٢٢٩ ، وابن سعد في الطبقات ٥٩٠/٣ ، والطبراني في الكبير ٢٩/٢٠-٣٠ (ح٤١) . وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٣١١/٩) وقال : " رواه الطبراني مرسلاً وفيه محمد بن عبدالله بن أبي أزهر الأنصاري لم أعرفه ، وبقية رجاله رجال الصحيح " ، وأورده السيوطي في الجامع الصغير (٨١٨٦) ورمز له بالضعف ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (ح٥٧٥٦) وفي الصحيحة : (ح١٠٩١) بشواهده المرسلة وذكرها .

وكان يشبه إبراهيم الخليل عليه السلام وإبراهيم إمام الناس ، وكان ابن مسعود يقول عنه : (إن معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين .)(١) تشبيهاً له بإبراهيم. ثم إنه ﷺ وصاه هذه الوصية فعلم أنها جامعة [نافعة] وهي كذلك لمن عقلها...) (٢) وعلى هذا فهي من أهم الأسباب المعينة على تحقيق التوحيد . والوصول إلى مرضات ا لله عز وجل لتوقف قبول كل الأعمال على الإتيان بها صحيحة .

٢- الاستغفار والتوبة

الاستغفار والتوبة من أعمال القلوب التي لايطلع عليها إلا ا لله جل شأنه ، وليس الناس فيه على درجة واحدة ، فمنهم من يقع في الذنب فتجب عليه التوبة حتماً ، ومنهم من لايعرف ذنباً وقع منه ، ومع ذلك فينبغي عليه الاستغفار والتوبة . إذ ليس أحد معصوم غير الأنبياء ، ولذا فإنه يجب على كل مسلم أن يستغفر ا لله دائماً ويتوب إليه ، وإن لم يعلم ذنباً بعينه فلا أحد يخلو من تقصير في حق ا لله من واجب ونحوه .

وقد أمر ا لله سبحانه وتعالى بالإستغفار والتوبة وحث عليها ، بل وعلق حصول الخير على وجودهما . قال تعالى على لسان نبيه نوح عليه السلام : ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ۞ يرسل السماء عليكم مدراراً ۞ ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾ (٣) بل إن ا لله سبحانه وتعالى أمر نبيه ﷺ بالاستغفار في قوله : ﴿.. واستغفره إنه كان تواباً﴾ (٤) وهي طريقة أولياء ا لله .

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية ٣٣٠/١ ، والحاكم في المستدرك ٢٧١/٣-٢٧٢ وصححه ووافقه الذهبي وعلق بعضه البخاري في تفسير سورة النحل . انظر الفتح ٣٨٤/٨ ، وانظر : شرح الحافظ ابن حجر وتعليقه على الأثر ٣٨٧/٨ . وأورده الذهبي في سير أعلام النبلاء ٤٥١/١ من عدة طرق .

(٢) الفتاوى ٦٥٣/١٠ - ٦٥٤ .

(٣) سورة نوح ١٠-١٢

(٤) سورة النصر

وقال سبحانه : ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ [(١)].

قال شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - : (.. أخبر أنه لايعذب مستغفراً ؛ لأن الاستغفار يمحو الذنب الذي هو سبب العذاب ، فيندفع العذاب ، كما في سنن أبي داود وابن ماجة عن النبي ﷺ أنه قال : ((من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لايحتسب))[(٢)] وقد قال تعالى : ﴿.. أن لاتعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير ، وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله ..﴾ [(٣)].

فتبين أن من وحده واستغفره متعه متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ، ومن عمل بعد ذلك خيراً زاده من فضله ، وفي الحديث : ((يقول الشيطان : أهلكت الناس بالذنوب، وأهلكوني بلا إله إلا الله ، والاستغفار ، فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء ، فهم يذنبون ولا يتوبون ؛ لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً))[(٤)(٥)].

---

(١) سورة الأنفال ٣٣ .

(٢) رواه الإمام أحمد ٢٤٨/١ ، عن ابن عباس واللفظ له ، وقال أحمد شاكر في تحقيقه للمسند (ح٢٢٣٤) : " إسناده صحيح " ، ورواه أيضاً أبو داود في الصلاة (ح١٥١٨) وابن ماجه في الأدب (ح٣٨١٩). وأورده السيوطي في الجامع الصغير (٨٥٠٨) ورمز له بالصحة .

(٣) سورة هود ٢-٣ .

(٤) رواه أبو يعلى في مسنده (ح١٣١) وابن أبي عاصم في السنة (ح٧) ، وأوله : " عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار فأكثر منها فإن إبليس قال : أهلكتهم ..." الحديث وأورده الهيثمي في المجمع ٢٠٧/١ وقال : رواه أبو يعلى وفيه عثمان بن مطر وهو ضعيف ، وقال الألباني في تخريج السنة (١٠/١) إسناده موضوع . إلا أن معناه صحيح ويشهد لذلك ما جاء في الصحيح عن جابر قال : سمعت النبي ﷺ يقول : ((إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ؛ ولكن بالتحريش بينهم)) أخرجه مسلم في صحيحه في صفات المنافقين (ح٢٨١٢) والترمذي في البر والصلة (١٩٣٧) ومعنى بالتحريش بينهم : أي أنه يسعى بينهم بالخصومات والشحناء والفتن وبث الأهواء المتبعة وغير ذلك . وفي رواية ابن عباس : ((... ولكن رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم فاحذروا فإني تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً كتاب الله وسنتي)) أخرجه الإمام أحمد (٣٦٨/٢). وأورده المنذري في الترغيب والترهيب ٤١/١ كتاب الترغيب في اتباع السنة (ح٦) وقال رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد .. وله أصل في الصحيح " ولم أجده عند الحاكم " . وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (ح٣٦) وفي الصحيحة (ح٤٧١) .

(٥) الفتاوى ١٦٣/٨ .وانظر الفتاوى الكبرى ١١٢/١ .

وقد ذكر - رحمه الله تعالى - أن الاستغفار يكون من أمرين :

أحدهما : ترك الواجبات . **والثاني** : فعل المحرمات . (والأول يخفى على كثير من الناس ، قال الله تعالى : ﴿ فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار . ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ فاعلم أنه لاإله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر.﴾[٣] .. ومثل هذا في القرآن كثير .

فنقول : التوبة والاستغفار يكون من ترك مأمور ، ومن فعل محظور ، فإن كلاهما من السيئات والخطايا والذنوب ، وترك الإيمان والتوحيد والفرائض التي فرضها الله تعالى على القلب والبدن من الذنوب بلا ريب عند كل أحد . بل هي أعظم الصنفين .)[٤] .

(وإذا كانت التوبة والاستغفار تكون من ترك الواجبات ، وتكون مما لم يكن علم أنه ذنب ، تبين كثرة ما يدخل في التوبة والاستغفار ، فإن كثيراً من الناس إذا ذكرت التوبة والاستغفار يستشعر قبائح قد فعلها ، فعلم بالعلم العام أنها قبيحة كالفاحشة ، والظلم الظاهر ، فأما ما قد يتخذ ديناً فلا يعلم أنه ذنب إلا من علم أنه باطل . كدين المشركين ، وأهل الكتاب المبدل ، فإنه مما تجب التوبة والاستغفار منه ، وأهله يحسبون أنهم على هدى ، وكذلك البدع كلها ...

فهذا القسم الذي لايعلم فاعلوه قبحه قسم كثير من أهل القبلة ، وهو في غيرهم عام ، وكذلك ما يترك الإنسان من واجبات لايعلم وجوبها كثيرة جداً.)[٥] .

وقد بين شيخ - رحمه الله تعالى - أن الإنسان في حاجة إلى الإكثار من التوبة والاستغفار في أي حال حتى مع اتيانه بالحسنات ، وحينئذ يكون استغفاره من عدة أمور :

---

(١) سورة غافر ٥٥ .

(٢) سورة محمد ١٩ .

(٣) سورة الفتح ٢

(٤) الفتاوى ١١/٦٧٠-٦٧١ . وانظر ١٧/٢٢-١٨ .

(٥) الفتاوى ١١/٦٨٤-٦٨٥ .

(**أحدها** : أن يتوب ويستغفر من تقصيره فيها .

والثاني : أن يتوب مما كان يظنه حسنات ، وإن لم يكن كحال أهل البدع .

والثالث : يتوب من اعجابه ورؤيته أنه فعلها ، وأنها حصلت بقوته ، وينسى فضل الله وإحسانه ، وأنه هو المنعم بها ، وهذه توبة من فعل مذموم وترك مأمور.) [١]

ولهذا قيل : تخليص الأعمال مما يفسدها أشد على العاملين من طول الاجتهاد. وهذا مما يبين احتياج الناس إلى التوبة والاستغفار دائماً ولهذا قيل : هي مقام يستصحبه العبد من أول ما يدخل فيه إلى آخر عمره ، ولابد منه لجميع الخلق ، فجميع الخلق عليهم أن يتوبوا وأن يستديموا التوبة والاستغفار قال الله تعالى : ﴿ وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ، ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾[٢] فغاية كل مؤمن التوبة ...

[روى مسلم] عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : ((كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول قبل أن يموت : سبحانك اللهم وبحمدك ، أستغفرك وأتوب إليك ، قالت : فقلت : يارسول الله أراك تكثر من قولك : سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك ، فقال : أخبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي فإذا رأيتها أكثرت من قول : سبحانك الله وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك فقد رأيتها : ﴿إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ فتح مكة ﴿ ورأيت الناس يدخلون في دين الله ، أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾[٣] ...)[٤] . فأمر سبحانه أن يختم عمله بالتوبة والاستغفار ، وغيره أحوج منه والعبد محتاج إلى التوبة والاستغفار في كل وقت وعند كل عمل .

بل (إن التوبة فرض على العباد دائماً ، اقتداء بالنبي ﷺ حيث يقول في الحديث الصحيح : ((أيها الناس توبوا إلى ربكم فوالذين نفسي بيده إني لأستغفر الله وأتوب

---

(١) الفتاوى ١١/٦٨٧-٦٨٨ .

(٢) سورة الأحزاب ٧٢-٧٣ .

(٣) رواه البخاري في كتاب الأذان (ح٨١٧) وفي التفسير (ح٤٩٦٧ ، ٤٩٦٨) ومسلم واللفظ له في الصلاة (ح٤٨٤) وفي (٢٢٠ ، وبنحوه (٢١٧ ، ١١٨ ، ١١٩)

(٤) الفتاوى ١١/٦٨٨-٦٨٩ . وانظر ١١/٦٩٠ . ١٠/١٦٠،١٦٣ . ١٧/٥١٤ .

إليه في اليوم أكثر من مائة مرة))[١] وفي رواية : ((أكثر من سبعين مرة))[٢] وآخر سورة نزلت ﴿إذا جاء نصر الله والفتح ۞ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ۞ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾[٣] ..)[٤]

وبناء على ما تقدم فإن من كان الاستغفار ديدنه وشغله الشاغل ، مستشعراً تفريطه في الواجبات ، أو تقصيره في جنب الله تعالى ، تبين له أن ذلك من أهم أسباب تحقيق التوحيد ؛ لأن من صفات محققي التوحيد أنهم دائمي الاتهام لأنفسهم بالتقصير في حق الله ، طائعين راجين لعفو الله ، يعبدون الله بين منزلة الرجاء والخوف والمحبة ، لايأمنون من مكر الله ، ولاييأسون من رحمته ، دائمي اللهج بذكره والثناء عليه ، وتقديم القربات بين يديه ، مُتْبِعِين ذلك بالاستغفار ، معترفين بالتقصير . وهذا هو حال السلف من أهل تحقيق التوحيد ، وحال السابقين بالخيرات .

٣- اتباع السيئة الحسنة

من أسباب تحقيق التوحيد الإكثار من الأعمال الصالحة وفعل الحسنات وخاصة بعد عمل السيئات. فعمل الحسنات[٥] من أهم أسباب تحقيق التوحيد ؛ لأنه لايخلو عبد من فعل معصية إلا من عصمه الله ، وإن لم يكن ثم ذنب عمله فإن هناك حقوقاً واجبة عليه لله جل شأنه قد يكون قصر في شيء منها .

وقد بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - بعد أن ذكر أن على العبد حقان : (حق الله عز وجل ، وحق العباد ثم الحق الذي عليه لابد أن يخل ببعضه أحياناً ، إما بترك مأموربه ، أو فعل منهي عنه ، قال النبي ﷺ : ((..وأتبع السيئة الحسنة تمحها))[٦] فإن الطبيب متى تناول المريض شيئاً مضراً أمره بما يصلحه ، والذنب للعبد

---

(١) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة ، والتوبة والاستغفار (ح٢٧٠٢) ورواه غيره .

(٢) رواه البخاري في كتاب الدعوات (ح٦٣٠٧) ورواه غيره .

(٣) انظر أسباب النزول للواحدي النيسابوري ص ٣٤٤ .

(٤) الفتاوى ٣٠٤/٢ . وانظر منهاج السنة ٣٩٧/٢-٤٠١ .

(٥) وقد أفرد - رحمه الله تعالى - رسالة في الحسنة والسيئة وآثارهما على التوحيد والإيمان سلباً وإيجاباً انظر الفتاوى ٢٢٩/١٤-٤٢٥ .

(٦) رواه الترمذي في البر والصلة (ح ١٩٨٧) والدارمي في الرقاق (ح٢٧٩١) وقد سبق تخرجه قريباً انظر فهرس الأحاديث .

كأنه أمر حتم ، فالكيس هو الذي لايزال يأتي من الحسنات بما يمحو السيئات ... وينبغي أن تكون الحسنات من جنس السيئات ، فإنه أبلغ في المحو .

والذنوب يزول موجبها بأشياء :

ذكر - رحمه الله - أن الذنوب يزول موجبها بعشرة أشياء :

أحدها التوبة ، والاستغفار ، والأعمال الصالحة المكفرة ، والدعاء للمؤمنين ، ودعاء النبي ﷺ في حياته وفي يوم القيامة ، وما يُفعل بعد الموت من عمل صالح يهدى له ، والمصائب الدنيوية التي يكفر الله بها الخطايا ، وبلاء القبر ، وأهوال يوم القيامة واقتصاص المؤمنين بعضهم من بعض .[١]

واعلم أن العناية بهذا من أشد ما بالإنسان الحاجة إليه ، فإن الانسان من حين يبلغ خصوصاً في هذه الأزمنة ونحوها من أزمنة الفترات التي تشبه الجاهلية من بعض الوجوه ، فإن الانسان الذي ينشأ بين أهل علم ودين قد يتلطخ بأمور الجاهلية ، بعدة أشياء ، فكيف بغير هذا ؟! ...

وأنفع ما للخاصة والعامة العلم بما يخلص النفوس من هذه الورطات ، وهو اتباع السيئآت الحسنات ، والحسنات ما ندب الله إليه على لسان خاتم النبيين من الأعمال والأخلاق والصفات .) [٢] .

٤- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متعلق بأعمال القلوب والجوارح معاً ، ولذا فهو من الأسباب المهمة التي يتحقق بها التوحيد فبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تتوثق صلة العبد بربه ، حتى يصبح همه الأول هو تحقيق طاعة الله في الأرض ، يسر برؤية الطاعات ، ويحزن بل ويغضب عند رؤية المنكرات .

وقد بين شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عليه مدار الدين فبه (أنزل الله كتبه وأرسل به رسله .. فإن رسالة الله إما إخبار وإما إنشاء .

---

(١) انظر منهاج السنة النبوية ٦/٢٠٥-٢٣٩ .

(٢) الفتاوى ١٠/٦٥٥-٦٥٧ .

فالإخبار عن نفسه وخلقه مثل التوحيد والقصص الذي يندرج فيه الوعد والوعيد والإنشاء الأمر والنهي والإباحة ... إلى أن قال :

وقوله سبحانه في صفة نبينا محمد ﷺ : ﴿يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث .. ﴾ [1] هو بيان لكمال رسالته ، فإنه ﷺ هو الذي أمر الله على لسانه بكل معروف ونهى عن كل منكر ، وأحل كل طيب ، وحرم كل خبيث ، ولهذا روي في الحديث أنه قال : ((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)) [2] وقال في الحديث المتفق عليه : ((مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة ، فكان الناس يطيفون بها ويعجبون من حسنها ويقولون : لولا موضع اللبنة ، فأنا تلك اللبنة))[3] فبه كمل دين الله المتضمن للأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر ، وإحلال كل طيب وتحريم كل خبيث .) [4] .

وتحريم الخبائث يندرج تحت النهي عن المنكر ، وإحلال الطيبات يندرج تحت الأمر بالمعروف ، وكل هذا من الأعمال أمر بها المؤمنون ، بل إن الله جل شأنه قد وصف من قام بذلك بالخيرية المطلقة ، وذلك في قوله : ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾[5]

ولهذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم الأسباب والدواعي إلى تحقيق التوحيد في الأنفس وفي الأرض .

(ولهذا قال أبو أبو هريرة : كنتم خير الناس للناس ، تأتون بهم في الأقياد والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة ، فبيّن سبحانه أن هذه الأمة خير الأمم للناس : فهم أنفعهم لهم ، وأعظمهم إحساناً إليهم ، لأنهم كملوا أمر الناس بالمعروف ونهيهم عن المنكر من جهة الصفة والقدر ، حيث أمروا بكل معروف ونهو عن كل منكر لكل

---

(١) سورة الأعراف ١٥٧ .

(٢) تقدم تخريجه في المبحث السابق انظر فهرس الأحاديث .

(٣) رواه البخاري في المناقب (ح ٥٣٤ ، ٣٥٣٥) ومسلم في في الفضائل (ح٢٢٨٦) واللفظ له .والترمذي في الأمثال (ح٢٨٦٢)

(٤) الفتاوى ٢٨/١٢١-١٢٢ .

(٥) سورة ال عمران ١١٠

أحد، وأقاموا ذلك بالجهاد في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم ، وهذا كمال النفع للخلق.)[١] .

ولهذا فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أوجب الأعمال وأفضلها وأحسنها ، وقد قال تعالى : ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ [٢] [٣] فالقيام به من أهم أسباب تحقيق كمال التوحيد . كما أن تركه من المعاصي التي هي من أهم معوقات تحقيق التوحيد .

والعبد قد يلاقي في القيام به الأذى من الخلق ويواجه فيه الشدائد والمحن ، وهنا يجب عليه الصبر ، ومقابلة الإساءة بالإحسان كما يقابل الطبيب المرض بضده ، فيعمل على إصلاح نفسه وإصلاح غيره[٤] عملاً بقوله تعالى : ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾

قال شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - في بيانه لمنزلة هذه السورة : (فأخبر سبحانه أن كل الناس خاسرون إلا من كان في نفسه مؤمناً صالحاً ، ومع غيره موصياً بالحق موصياً بالصبر ، وإذا عظمت المحنة كان ذلك للمؤمن الصالح سبباً لعلو الدرجة وعظيم الأجر ، كما في سؤال النبي ﷺ : أي الناس أشد بلاء ؟ قال الأنبياء ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه ، وإن كان في دينه رقة خفف عنه ، ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على وجه الأرض وليس عليه خطيئة))[٥] وحينئذ يحتاج من الصبر مالا يحتاج إليه غيره ، وذلك هو سبب الإمامة في الدين ، كما قال تعالى : ﴿وجعلناهم أئمة يهدون

---

(١) الفتاوى ١٢٣/٢٨ .

(٢) سورة هود ٧ والملك ٢ .

(٣) انظر الفتاوى ١٣٤/٢٨ .

(٤) انظر منهاج السنة ٢٥٤/٥ .

(٥) رواه الترمذي في الزهد (ح٢٣٩٨) وقال : " هذا حديث حسن صحيح ، ورواه ابن ماجة أيضاً في الفتن (ح٤٠٢٣) (ح١٥٦٢) والحاكم ٣٤٦/١ وصححه ووافقه الذهبي وأحمد بنحوه ٢٨٧/٢ ، ٤٥٠ . وحسن الحديث الألباني في المشكاة (ح١٥٦٢) .

بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾[١] ... ولا يمكن العبد أن يصبر إن لم يكن له ما يطمئن به ويتنعم به ويغتذي به وهو اليقين .) [٢]

ولهذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاتصاف به من (أفضل الأعمال الصالحة ، فيجب أن يبتغي به وجه الله ، وأن يكون مطاباق للأمر .. عالماً رفيقاً قصده طاعة الله فيما يأمر به وهو يحب صلاح المأمور ، أو إقامة الحجة عليه ، فإن فعل ذلك لطلب الرياسة لنفسه ولطائفته ، وتنقيص غيره كان ذلك حمية لا يقبله الله ، وكذلك إذا فعل ذلك لطلب السمعة والرياء كان عمله حابطاً ، ثم إذا رُدَّ عليه ذلك وأوذي أو نسب إلى أنه مخطئ وغرضه فاسد ، طلبت نفسه الانتصار لنفسه ، وأتاه الشيطان ، فكان مبدأ عمله لله ، ثم صار له هوى يطلب به أن ينتصر على من آذاه ، وربما اعتدى على ذلك المؤذي ...)[٣]

وبهذا يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أسباب تحقيق التوحيد ، إذ لايقوم به على هذا الوجه إلا من وصل مرحلة من الإيمان قوية ، تدفعه إلى الصبر على أذى الناس ، والإحسان إلى مسيئهم ، مع العزيمة الصادقة في إسداء الهداية التي فاز بها إلى غيره .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يكون (تارة بالقلب وتارة باللسان وتارة باليد . فأما القلب فيجب بكل حال إذ لاضرر في فعله ، ومن لم يفعله فليس هو بمؤمن ، كما قال النبي ﷺ : ((وذلك أدنى - أو - أضعف الإيمان))[٤] وقال : ((ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل))[٥] [٦] فوصف ترك الأمر بالمعروف والنهي

---

(١) سورة السجدة ٢٤ .

(٢) الفتاوى ٢٨/١٥٢-١٥٣ .

(٣) منهاج السنة النبوية ٥/٢٥٣-٢٥٥ .

(٤) رواه مسلم في الإيمان (ح٤٩) بلفظ ((من رأى منكراً فلينكره بيده ومن لم يستطع فبلسانه ومن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)) والترمذي في الفتن (ح٢١٧٢) والنسائي في الإيمان وشرائعه (ح٥٠٠٨) وأبو داود في الملاحم (ح٤٣٤٠) وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (١٢٧٥)

(٥) رواه الإمام مسلم في الإيمان (ح٥٠) .

(٦) الفتاوى ٢٨/١٢٧ .

عن المنكر بالقلب بأنه أقل درجات الإيمان ، وأهل التوحيد هم أهل الله وخاصته الذين خلت قلوبهم من سوى محبة الله ومحبتة ما أمر به ، فأصبحت تلك القلوب لاتطيق رؤية المنكر ؛ لأنها تبغضه أشد البغض ، ولهذا فإنها تبادر إلى تغييره ، والأمر بما أحبه الله ورضيه ، فكان هذا الفعل منهم سبباً إلى حصول كمال تحقيق التوحيد كلما أمروا بمعروف أو نهو عن منكر.[1] .

ولا يتصور من مسلم لا يقوم بقلبه أدنى إنكار للمنكر ، أو رغبة في بيان معروف ، ولذلك كان القائمون بهذا الأمر هم ممن كمل تحقيق التوحيد عندهم ، وقوي الإيمان في قلوبهم ، حتى رأوا أن أمر الله لا يساويه أمر بل ولا يجاريه ، ولهذا عملوا على تحقيق أمر الله في نفوسهم وفي نفوس الناس ، دون مبالات بمن خالف أمر الله.

أما من استوى عنده الطرفان فهذا ليس في قلبه ذرة من إيمان فكيف يكون ممن يوصف بأن معهم التوحيد ، بل فكيف بتحقيقه . فإن القيام بالأمر بالمعروف يتطلب صدق اليقين ، وتقديم رضى الله ومحابه على رضى النفس ومحابها ، ومن ثم احتساب كل ما يلاقيه الموحد من أذى عند الله .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - في وصف القسم الثاني من أقسام الناس في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : (وقوم يقومون به ديانة يكونون في ذلك مخلصين لله ، مصلحين فيما عملوه ، ويستقيم لهم ذلك حتى يصبروا على ما أوذوا ، وهؤلاء هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وهم من خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويؤمنون بالله .)[2] .



(١) انظر الفتاوى ١٣١/٢٨ . ١٤٧-١٤٨ .

(٢) الفتاوى ١٤٧/٢٨-١٤٨ .

المحبث الثالث : بيانه لقوادح تحقيق التوحيد

بيانه لقوادح تحقيق التوحيد

تمهيد

بعد الحديث عن كيفية تحقيق التوحيد ، وأسباب ذلك ، يحسن أن نتبع ذلك بذكر قوادح تحقيق التوحيد ، ليتضح المراد من هذا الفصل .

وبما أن قوادح تحقيق التوحيد كثيرة لا يمكن استقصائها ، فسأذكر ما يجمع ذلك كله - بإذن الله تعالى - على سبيل الإجمال والاختصار ، مقتصراً على كلام شيخ الإسلام - رحمه الله - .

إلا أنه مما ينبغي التنبيه عليه قبل البدء بذلك : أن القوادح تختلف بحسب حال العبد الواقع في تلك القوادح أو بعضها ، فقد تكون تلك القوادح مخرجة للعبد من التوحيد والإيمان بالكلية ، وقد تكون نقصاً في كمال تحقيق التوحيد ، وهذا يعود إلى حال المتصف بها ، مع ملاحظة أن الكل قد يشتركون في المسمى العام ، وقد يختلفون في الحكم التفصيلي ، فمثلاً من القوادح الشرك بالله ، والبدع ، والاحتجاج بالقدر ، واتباع الهوى ، والتعلق بغير الله ، وبغض الله ورسوله ، واليأس والقنوط من رحمة الله، وحب التسلط ، وتعطيل صفات الله والإعراض عن التوحيد ونحو ذلك ...

وهذه الأمثلة كلها سنذكرها بالتفصيل — إن شاء الله — وهي — كما يرى القارىء — صفات قد يتصف بها أو ببعضها شخص فيخرج من الملة ، وآخر قد يتصف ببعضها ولا يكون له هذا الحكم ، وبهذا يمكننا أن نقسم تلك القوادح إلى قسمين رئيسين :

أحدهما : قوادح تمنع من تحقيق التوحيد الواجب ، وهذه تختلف باختلاف حال الفاعلين ، فقد تكون قوادح تمنع من تحقيق أصله بالكلية ، وقد تكون موانع تمنع من تحقيق كماله .

والقسم الثاني : قوادح تقدح في تحقيق كمال التوحيد المندوب .

فأما القسم الأول : قوادح تحقيق التوحيد الواجب

فيندرج تحته عدة أمور منها :

١) الشرك بالله :

الشرك بجميع أنواعه الأكبر والأصغر والخفي من موانع تحقيق التوحيد، إلا أنها تتفاوت ، فالشرك الأكبر بجميع أنواعه وأشكاله وألوانه ، من أعظم موانع حصول التوحيد فضلاً عن تحقيقه وتخليصه من الشوائب .

وبما أن المقام هنا ليس مقام بسط للشرك وأنواعه ، فأكتفي بذكر الأمور التي يتبين من خلالها كيف كان الشرك مانعاً من موانع التوحيد ، ليتضح بذلك المقصود ، ويفهم المراد . لاسيما وأن هذا سيأتي بحثه مستقلاً في الباب الثاني بإذن الله تعالى .

ومن هذه الأمور ما يلي :

الأمر الأول : الغاية من خلق الخلق

لقد خلق الله الخلق لعبادته وحده لاشريك له ، وأمرهم بأن يقيموا الدين لله وحده ، كما أمرهم بصرف جميع أنواع العبادة له بإخلاص وصدق تامين كاملين مع المتابعة لرسله .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – : (.. المقصود بخلق الخلق، وإنزال الكتب وإرسال الرسل : أن يكون الدين كله لله ، ودعوة الخلائق إلى خالقهم كما قال تعالى : ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾[١] . وقال سبحانه : ﴿قل هذه سبيل أدعو إلى الله أنا ومن اتبعني ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ .. وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور﴾[٣]...) [٤] .

---

(١) سورة الأحزاب ٦٣-٦٤ .

(٢) سورة يوسف ١٠٨ .

(٣) سورة الشورى ٥٢-٥٣ .

(٤) الفتاوى ٢/٤٦٤ .

وعلى هذا فمن أشرك بالله جل شأنه فقد حاد عما خلق من أجله، ونكل عما أمر به من التوحيد ، مستبدلاً الذي هو أدنى بالذي هو خير . وتنكر لخالقه وموجده ، فصرف خالص حقه سبحانه إلى غيره .

ولذا كان الشرك من أعظم موانع حصول التوحيد فضلاً عن تحقيه كمالاته ، لا سيما وأن الله جل شأنه قد نهى عن الفساد في الأرض ، قال الله تعالى : ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾[١] ومن أعظم الفساد الشرك بالله ، بل الفساد في الحقيقة إنما هو بالشرك بالله ومخالفة أمره [٢].

الأمر الثاني : عظم الشرك :

(الشرك من أعظم الظلم فلذلك قال ابن مسعود ﷺ : قلت يارسول الله أي الذنب أعظم ؟ قال : ((أن تجعل لله نداً وهو خلقك)) [٣]...)[٤] .

(فالشرك من أقبح الظلم وأشنعه ، ومن أكبر الكبائر وأغلظها ، حيث أن فيه اعتداء على حق الله جل وعلا ، وانتهاكاً لما حرمه . وقد أرسل الله جل وعلا الرسل جميعاً بالتوحيد وبيان بطلان الشرك وقبحه .

قال تعالى على لسان إمام الحنفاء وأبو الأنبياء ابراهيم الخليل عليه السلام منكراً على قومه شركهم وعبادتهم للأوثان ﴿ ماذا تعبدون ؟ أإفكاً آلهة دون الله تريدون ، فما ظنكم برب العالمين ﴾ إلى قوله ﴿ أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون﴾[٥] . فهذا كله يبين قبح ما كانوا عليه [من الشرك وعبادة غير الله ، وإعراضهم عن التوحيد ،] ولهذا قال منكراً عليهم ﴿ أتعبدون ما

---

(١) سورة الأعراف ٥٦ ، ٨٥ .

(٢) انظر الفتاوى ١٥/٢٤-٢٥ ، ٢٢٦ .

(٣) رواه البخاري تفسير القرآن (ح٤٤٧٧) ومسلم في الإيمان (ح٨٦) والترمذي في تفسير القرآن (ح٣١٨٢).والنسائي في تحريم الدم (ح٤٠١٤) وأبو داود في الطلاق (ح٣١١٠)

(٤) الفتاوى ٥٧٧/١٦ .

(٥) سورة الصافات ٨٦- ٩٥ .

تنحتون ، وا لله خلقكم وما تعملون﴾ أي وخلق ما تنحتون، فكيف يجوز أن تعبدوا ما تصنعونه بأيديكم وتَدَعُونَ رب العالمين) [١] .

و(قد ذكر ا لله عن إمامنا إبراهيم خليل ا لله أنه قال لمناظرية من المشركين الظالمين : ﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ولاتخافون أنكم أشركتم با لله مالم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون الذين آمنوا و لم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ [٢] وفي الصحيح من حديث عبدا لله بن مسعود أن النبي ﷺ فسر الظلم بالشرك وقال : ((ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم﴾[٣] ...) [٤] .

ولقد بين ا لله جل وعلا قبح الشرك وما عليه أهله بالأدلة العقلية وضرب الأمثلة على ذلك مما سيأتي ذكره بإذن ا لله . [٥]

وهذا كله يبين أن الشرك من أهم الأمور التي تعيق حصول التوحيد فضلاً عن تحقيقه .

الأمر الثالث عدم مغفرته إلا بالتوبة :

وبالإضافة إلى ما سبق فإن مما يبين أيضاً أن الشرك مضاد للتوحيد ومخالف له، ومانعاً من موانع وجوده ؛ تَوَعُدِ ا لله جل شأنه مقترفه بالتخليد في النار وعدم مغفرة ذنبه إذا مات على ذلك . قال ا لله جل وعلا : ﴿إن ا لله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ [٦] فأخبر أنه لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ، حيث خص الشرك بعدم المغفرة وما سواه فقد علقه على المشيئة [٧] .

---

(١) انظر الفتاوى ١١/٦٨٠-٦٨١ .

(٢) سورة سورة الأنعام ٨١ - ٨٣ .

(٣) سورة لقمان ١٣ . والحديث رواه البخاري في الإيمان (ح ٣٢) ومسلم في الإيمان (١٢٤) والترمذي في تفسير القرآن (ح ٣٠٦٧) ولفظه : ((ألم تسمعوا إلى ما قال لقمان ...)) واللفظ الذي أورده شيخ الإسلام لأحمد .

(٤) الفتاوى ١/٩٧ وما بعدها .

(٥) وذلك في الباب الثالث بحول الله وقوته .

(٦) سورة النساء ٤٨ ، ١١٦ .

(٧) انظر الفتاوى ١٨/٣٤٠ -٣٤١ . ١١/١٨٤-١٨٥ ، ١٦٣ .

وقد استغفر الخليل عليه السلام ودعا لأبيه ، فلم يجب إلى ذلك كما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : ((يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لاتعصني ؟ فيقول أبوه : فاليوم لاأعصيك . فيقول له إبراهم : يارب أنت وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون ، وأي خزي أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقول الله عز وجل : إني حرمت الجنة على الكافرين ، ثم يقال : انظر ما تحت رجليك فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار.)) [1]. فهذا لما مات مشركاً لم ينفعه استغفار إبراهيم عليه السلام مع عظم جاهه وقدره، حيث أمر الله المؤمنين بأن يتأسوا بإبراهيم ومن اتبعه .

قال تعالى للمؤمنين : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه.. ﴾ واستثنى من ذلك استغفاره لأبيه حيث قال : ﴿.. إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ﴾[2] فإن الله لايغفر أن يشرك به .

وكذلك سيد الشفعاء محمد ﷺ استأذن ربه بأن يستغفر لأمه فلم يؤذن له، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : ((استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي ، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي)). وفي رواية : ((أن النبي ﷺ زار قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ثم قال : ((استأذنت ربي أن أستغفر لأبي فلم يأذن لي ، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي ، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت)) [3] .

ولهذا نهى الله جل وعلا النبي ﷺ والمؤمنين من أن يستغفروا للمشركين قال تعالى : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفرا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾[4]...[5].

والإنسان يقوى يقينه وتوحيده وإخلاصه لله جل وعلا ببراءته من الشرك وأهله، وبغضه لما يعبد المشركون ، وما يتوجه إليه الكافرون . وهذه هو المعنى المذكور في

---

(١) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (ح ٣٣٥٠) .

(٢) سورة الحشر آية ٤ .

(٣) رواهما مسلم في الجنائز (ح٩٧٦) والنسائي في الجنائز (ح٢٠٣٤) وأبو داود في الجنائز (ح ٣٢٣٤) وابن ماجة في كتاب ما جاء في الجنائز (ح ١٥٧٢) .

(٤) سورة التوبة ١١٣ .

(٥) انظر الفتاوى ١/١٤٥-١٤٨ .

سورة الكافرون ، فقد اشتملت على البراءة من الشرك وأهله ، كما ذكر ذلك في غيرها [١] . وكل هذا يدل على أن الشرك من أعظم قوادح التي تقدح في التوحيد .

الأمر الرابع : تعطيل الخالق عن صفاته :

ومما يبين قبح الشرك أن فيه هضم لحقوق الله جل شأنه ، ومساواة غيره به ، بل وصرف خالص حقه إلى غيره من العبادة والطاعة والذل ونحوه .

فإن الله عز وجل هو المتصف بالكمال وحده دون غيره ، بل غيره لا يساويه في شيء من ذلك .

قال الله تعالى منكراً على المشركين عبادتهم للأصنام وتسويتهم له برب العالمين ومبيناً عجزها وضعفها :

(... ﴿ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لايقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً ، هل يستوون ، الحمد لله بل أكثرهم لايعلمون﴾[٣] فبين أن كونه مملوكاً عاجزاً صفة نقص ، وأن القدرة والملك والإحسان صفة كمال ، وأنه ليس هذا مثل هذا ، وهذا لله وذاك لما يعبده من دونه ... والرب تعالى أحق بتنزيهه عن كل عيب ونقص .. فإن له المثل الأعلى .. وهو أكمل من كل موجود فهو أحق الموجودات بصفات الكمال ، [فلا] يستوى المتصف بصفات الكمال والذي لايتصف بها ، وهو يذكر أن الجمادات في العادة لاتقبل الاتصاف بهذه الصفات ، فمن جعله لايقبل الاتصاف فقد جعله من جنس الأصنام الجامدة التي عابها الله تعالى وعاب عابديها . ولهذا كانت القرامطة الباطنية من أعظم الناس شركاً وعبادة لغير الله، إذا كانوا لايعتقدون في إلههم أنه يسمع أو يبصر أو يغني عنهم شيئاً .)[٤] فكل من عطله عن صفاته فقد أتى بأعظم قادح من قوادح تحقيق التوحيد.

والمشرك حينما يعطل الإله عن إلهيته فيصرف أي نوع من أنواع العبادة لغير خالقه وموجده يكون بذلك قد فوت عليه أسباب حصول التوحيد واقترف قادحاً من

---

(١) انظر الفتاوى ٥٥٨/١٦ وما بعدها .

(٢) سورة النحل ١٧ .

(٣) سورة النحل ٥٧ .

(٤) الفتاوى ٧٩/٦-٨٣ .

قوادح حصوله ، ولذا فالمشرك حينما (يخاف من المخلوقين ويرجوهم ، يحصل له رعب كما قال تعالى : ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا با لله مالم ينزل به سلطاناً﴾[١]...)[٢] وكذلك من تعلق قلبه بغير ا لله ورجاه ، خاب ظنه فيه وأصبح مثله مثل من قال ا لله فيه : ﴿ ومن يشرك با لله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق﴾ [٣] فالرجاء ينبغي أن يتعلق با لله لابغيره ، لا بقوة العبد ولا بعمله..[٤]. وعلى هذا فكل من توجه إلى غير ا لله بأي نوع من أنواع العبادة فقد اقترف جرماً عظيماً وأتى بأعظم القبائح والظلم ، وهذا العمل من أهم موانع حصول التوحيد فضلاً عن تحقيقه . (٥)

٢) البدع [٦]

لقد سبق الحديث عن البدع[٧] ، وذِكْرِ وبيان أن تخليص العبد نفسه منها من أهم الأمور التي يتحقق بها التوحيد ؛ لأن الإنسان إذا تحرر من هواه ، وما تملي به نفسه وتدعوه إليه شهواته ، مما يخالف شرع ا لله جل وعلا ، تحقق توحيده ورضخ لأوامر ا لله سبحانه وتعالى ، واجتنب نواهيه وعبده بما شرعه رسوله ﷺ مخلصاً لله فيه.

كما أن من اتبع هواه وغرق في البدع المحدثات المخالفة لشرع ا لله مبتغياً بذلك رضاً ا لله - ظناً منه - لم يزده ذلك إلا بعداً وضلالاً .

وبهذا الفعل يكون قد حال بينه وبين تحقيق التوحيد اقترافه لهذه البدع بل وتقربه بها إلى ا لله كما يزعم .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه ا لله تعالى - في وصف حالهم وواقعهم : (..إنهم عبدوا غير ا لله وابتدعوا عبادات زعموا أنهم يعبدون ا لله بها ، فهم إنما اتبعوا

---

(١) سورة ال عمران ١٥١ .

(٢) الفتاوى ٢٥٧/١٠ .

(٣) سورة الحج ٣١ .

(٤) انظر الفتاوى ٢٥٦/١٠-٢٥٧ .

(٥) وبما أن الشرك سيأتي الكلام عليه مفصلاً بإذن ا لله اكتفيت بهذا القدر، إذ المقصود من ذكره هنا بيان أنه من أهم القوادح التي تقدح في تحقيق أو حصول التوحيد .

(٦) المقصود بها البدعة المكفرة المانعة من تحقيق أصل التوحيد الواجب والمخرجة لصاحبها عن مسمى التوحيد ، أما مادون ذلك فإنه يؤثر في كمال التوحيد .

(٧) انظر ص ١٣٥ .

أهواءهم ، فإن أحدهم يتبع محبة نفسه وذوقها ووجدها ، وهواها من غير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

فلو اتبع العلم والكتاب المنير لم يعبد إلا الله بما شاء ، لا بالحوادث والبدع.)[١]

والمقصود الإشارة إلى أن البدع من أهم قوادح تحقيق التوحيد[٢] ، فضلاً عن تحقيق كماله ، فكل مبتدع فهو أبعد ما يكون عن اتيانه بالتوحيد ، فضلاً عن تحقيقه له ؛ لأن من مقتضى تحقيق التوحيد أن يكون الله جلا وعلا أعظم في قلبه من كل شيء ، ومن ثم فلا يقدم قول غيره على قوله ، ولا أمر غيره على أمره ، ولا يقترف نهيه رغبة في إرضاء غيره من شهوة أو نفس أو شخص أو غير ذلك ؛ لأن من فعل ذلك علم يقيناً أن محبته لله وخوفه منه ، ورجاءه فيه ضعيف تَغْلب عليه محبة وخوف ورجاء من هو دونه .

٣) الاحتجاج بالقدر

تقدم أن شهود القدر من الأمور التي يتحقق بفعلها التوحيد[٣] .

وأما هنا فالمقصود الإشارة إلى أن الإحتجاج بالقدر من أهم موانع تحقيق التوحيد.

بل إن الله ﷻ قد أمر بالرضا بالقضاء والقدر وجعله من أصول الدين ، ونهى عن الاحتجاج به ، وذم من فعل ذلك . قال ﷻ : ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون ۞ قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ [٤] .

فمن رضي بالقضاء والقدر وأيقن وسلم بذلك تسليماً ، فقد حقق التوحيد من هذا الجانب ، ومن سخط فله السخط ، كما جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال : ((إن

---

(١) الفتاوى ٥٩٢/١٠ .

(٢) وذلك لأن الكلام على البدعة قد سبق بيانه في المبحث الأول من هذا الفصل .

(٣) انظر ص ٢٠٤

(٤) سورة الأنعام آية ١٤٨-١٤٩ .

عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضى ، ومن سخط فله السخط))[١].

وقد انقسم الناس في الايمان بالقدر إلى أربعة أقسام[٢] ، ذكرها شيخ الاسلام - رحمه الله تعالى - وأطال في بيان الحق منها بدليله ، ورد الباطل منها وفنده .

وخلاصة القول فيها مايلي :

القسم الأول : الذين آمنوا بالأمر والنهي ، والوعد والوعيد ؛ وكذبوا بالقدر ، وزعموا أن من الحوادث مالا يخلقه الله كالمعتزلة ونحوهم . وهؤلاء كفرهم الأئمة كمالك والشافعي وأحمد وغيرهم . [٣]

القسم الثاني : الذين آمنوا بالقضاء والقدر ؛ لكنهم عارضوا ذلك بالأمر والنهي. وسموا هذه حقيقة ، وجعلوا ذلك معارضاً للشريعة . وهؤلاء يسقطون الأمر والنهي ويحتجون بالقدر .وهؤلاء أشد كفراً من سابقيهم [٤]

وفيهم من يقول : إن مشاهدة القدر تنفي الملام والعقاب ، وإن العارف يستوي عنده هذا وهذا .

القسم الثالث : من خاصم الله في جمعه بين القضاء والقدر والأمر والنهي ، كإبليس حينما قال محتجاً على ربه : ﴿رب بما أغويتني ..﴾ [٥] .

القسم الرابع : أهل الإيمان والهدى الذين آمنوا بالقضاء والقدر وبالأمر والنهي ، فعملوا الطاعات ، واجتنبوا المعاصي والمنكرات ، وصبروا على المحن والمصائب والإبتلاءآت .

فأما القسم الأول : فقد عُرِفوا بالقدرية ، وَوُصِفوا بأنهم مجوس هذه الأمة ؛ لأنهم يشبهون المجوس في إثبات خالقين كما أن المجوس تثبت ذلك .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - (وقد جاءت الآثار فيهم أنهم مجوس هذه الأمة ، كما روي ذلك عن ابن عمر وغيره من السلف ، وقد رويت في

---

(١) رواه الترمذي في الزهد (ح ٢٣٩٦) وحسنة .

(٢) انظر منهاج السنة النبوية ٨٢/٣ .

(٣) انظر الفتاوى ٢٨٨/٨ ، ٤٤٥ ، ١٥٢/٢ ، ١٤٣/٣ .

(٤) انظر الفتاوى ٢٦٢/٨-٢٦٣ ، ٢٣٩/١٦ .

(٥) سورة الحجر ٣٩ .

ذلك أحاديث مرفوعة إلى النبي ﷺ منها ما رواه أبو داود[١] والترمذي[٢] ؛ ولكن طائفة من أئمة الحديث طعنوا في صحة الأحاديث المرفوعة في ذلك ...)[٣]. ولا شك أن التكذيب بالقدر من قوادح الإيمان ، ومن موانع حصول التوحيد الخالص فكيف بتحقيقه .

وأما القسم الثاني : المحتجون بالقدر الذين يسقطون الأمر والنهي محتجين بالقدر . وهؤلاء على درجات :

فمنهم من يؤمن بالأمر والنهي لكن إذا وقع في معصية احتج بالقدر على وقوعها ، زعماً أنه لاقدرة له في دفع تلك المعصية ، وهؤلاء هم المشركون ومن كان على شاكلتهم [٤] .

ومنهم المباحية الذين أسقطوا الأمر والنهي وأباحوا المحرمات وأسقطوا الواجبات ، وبالغوا برفع العقوبات . واحتجوا بالقدر ، وهؤلاء أسوء من اليهود والنصارى ومشركي العرب [٥] .

ومن المعلوم أنه لاحجة لأحد على الله في واجب تركه أو محرم فعله، ومن احتج بذلك فهو أعظم ضلالاً وافتراءاً على الله ومخالفة لدين الله من أولئك القدرية مجوس هذه الأمة المكذبون بأقدار الله .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - (وأما المحتجون على القدر بإسقاط الأمر والنهي والوعد والوعيد ، فهؤلاء يشبهون المشركين الذين قال الله فيهم : ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون﴾ [٦]. وقال تعالى : ﴿وقال الذين أشركوا

---

(١) انظر سنن أبي داود كتاب السنة (ح٤٦٩٢).

(٢) انظر سنن الترمذي القدر (ح٢١٤٩) . وانظر أيضاً ابن ماجه في المقدمة (ح٩٢) وأحمد في المسند ٥/٤٠٦-٤٠٧ . وانظر السنة لابن أبي عاصم فقد ذكر جملة من هذه الأحاديث ١/٤٤-١٥١ .

(٣) الفتاوى ٨/٤٥٢ .

(٤) انظر الفتاوى ٨/٤٥٤ . وانظر تفصيل ذلك في منهاج السنة ٣/٥٥-٥٧ .

(٥) انظر الفتاوى ٨/٤٥٧ ، ٢٥٦-٢٥٧ ، ١٦/٢٣٩ . واقتضاء الصراط المستقيم ٢/٨٤٨-٨٤٩ .

(٦) سورة الأنعام آية ١٤٨ .

لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾ [١] وقال تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين ﴾ [٢] وقال تعالى : ﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون﴾ [٣] .

فهؤلاء المحتجون بالقدر على سقوط الأمر والنهي من جنس المشركين المكذبين للرسل ، وهم أسوأ حالاً من المجوس ، وهؤلاء ﴿حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد﴾[٤] ...) [٥].

قال بعض العلماء في وصفهم : أنت عند الطاعة قدري ، وعند المعصية جبري أي مذهب يوافق هواك تمذهبت به .[٦].

وفي الحقيقة أنه كما قال ، فإنه لايحتج بالقدر أحد إلا ويكون متبعاً لهواه وما تملي به عليه نفسه .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - (وهؤلاء لايحتجون بالقدر إلا إذا كانوا متبعين لأهوائهم بغير علم ...

ولهذا لاينكرون ما وقع في الوجود من الكفر والفسوق والعصيان إلا إذا خالف أغراضهم ، فينكرونه إنكاراً طبيعياً شيطانياً ، لاإنكاراً شرعياً رحمانياً ، ولهذا تقترن بهم الشياطين ـ إخوانهم ـ فيمدونهم في الغي ثم لايقصرون، وقد تتمثل لهم الشياطين ، وتخاطبهم وتعينهم على بعض أهوائهم كما كانت الشياطين تفعل بالمشركين عُبَّاد الأصنام .

وهؤلاء يكثرون في الطوائف الخارجين عما بعث الله به رسوله من الكتاب والسنة الذين يسلكون طرقاً ـ في العبادات والاعتقادات ـ مبتدعة في الدين ولا يتحرون

---

(١) سورة النحل ٣٥ .

(٢) سورة يس ٤٧ .

(٣) سورة الزخرف ٢٠ .

(٤) سورة الزخرف ٢٠ .

(٥) الفتاوى ٤٥٣/٨ ، ٢٥٦ ، ٢٦٨ . وانظر ٣٢٣/٢ ، ٤١٠ .

(٦) الفتاوى ٣٠١/٢ .

في عباداتهم واعتقاداتهم موافقة الرسول والاعتصام بالكتاب والسنة ، فتكثر فيهم الأهواء والشبهات وتغويهم الشياطين ، ويصير فيهم شبهة من المشركين بحسب بعدهم عن الرسول .

وكما يجب إنكار قول القدرية المضاهين للمجوس ، فإنكار قول هؤلاء أولى ، والرد عليهم أحرى ، وهؤلاء لم يكونوا موجودين في عصر الصحابة والتابعين لهم بإحسان ...

فهؤلاء المباحية المسقطون للأمر والنهي محتجين على ذلك بالقدر فهم شر من جميع .. الطوائف.) [1] .

لاحجة في الاحتجاج بالقدر

ولاحجة في الاحتجاج بالقدر (فإن القدر لو كان عذراً للخلق للزم أن لايلام أحد ولا يذم ولا يعاقب لافي الدنيا ولا في الآخرة ، ولا يقتص من الظالم أصلا ، بل يمكن الناس أن يفعلوا ما يشتهون مطلقاً ، ومعلوم أن هذا لايتصور أن يقوم عليه مصلحة أحد لافي الدنيا ولا في الآخرة ، بل هو موجب الفساد العام ، وصاحب هذا لايكون إلا ظالماً متناقضاً ، فإذا آذاه غيره أو ظلمه طلب معاقبته وجزاه ، ولم يعذره بالقدر ، وإذا كان هو الظالم احتج بالقدر . فلا يحتج بالقدر إلا لاتباع هواه بغير علم ، ولا يكون إلا مبطلاً لاحق معه ، كما احتج به المشركون فقال تعالى : ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون﴾ [2] وقال : ﴿كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾ [3] .

ولهذا كان هؤلاء المشركون المحتجون بالقدر إذا عاداهم أحد قابلوه وقاتلوه وعاقبوه ، ولم يقبلوا حجته إذا قال لو شاء الله ما عاديتكم ، بل هم دائما يعيبون من ظلم واعتدى ولا يقبلون احتجاجه بالقدر . فلما جاءهم الحق من ربهم أخذوا يدافعون ذلك بالقدر ، فصاروا يحتجون على دفع أمر الله ونهيه بما لايجوزون أن يحتج به عليهم في دفع أمرهم ونهيهم ، بل ولا يجوز أحد من العقلاء أن يحتج به عليه في

---

(١) الفتاوى ٤٥٤/٨ ، ٤٥٨ ، وانظر ٣٢٤/٢ . ومنهاج السنة ٥٨/٣-٦٤ .

(٢) سورة الأنعام ١٤٨ .

(٣) سورة النحل ٣٥

دفع حقه ، فعارضوا ربهم ورسل ربهم بما لايجوزون أن يعارض به أحد من الناس ، ولا رسل أحد من الناس ، فكان أمر المخلوق ونهيه وحقه أعظم على قولهم من أمر الله ونهيه وحقه علىعباد الله ، وكان أمر الله ونهيه وحقه على عباده أخف حرمة عندهم من أمر المخلوق ونهيه وحقه على غيره ...)(١) .

ومن هنا كان هؤلاء المشركون من اعظم الناس جهلاً وعداوة لله ورسوله . فكان هذا من أعظم موانع حصول التوحيد ، فكيف بتحقيقه . إذ أن من الواجب الإيمان بالقدر وعدم الاحتجاج به لكي يحصل موجب التوحيد ، ومن ثم تحقيقه .

وقد يحتج مثل هؤلاء ومن علقت بقلبه شبهتهم بحديث احتجاج آدم على موسى بقوله ﷺ : ((احتج آدم وموسى فقال موسى يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة فقال له آدم أنت موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة فقال النبي صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى فحج آدم موسى)) (٢) ولا حجة في هذا البتة .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - (لم يكن آدم عليه السلام محتجاً على فعل مانهى عنه بالقدر ، ولا كان موسى ممن يحتج عليه بذلك فيقبله ، بل آحاد المؤمنين لايفعلون مثل هذا ، فكيف آدم وموسى ؟.

وآدم قد تاب مما فعل واجتباه ربه وهدى ، وموسى أعلم بالله من أن يلوم من هو دون نبي على فعل تاب منه ، فكيف بنبي من الأنبياء ؟ وآدم يعلم أنه لو كان القدر حجة لم يحتج إلى التوبة ...

وإنما كان لوم موسى لآدم من أجل المصيبة التي لحقتهم بآدم من أكل الشجرة ، ولهذا قال : لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ واللوم لأجل المصيبة التي لحقت الإنسان نوع ، واللوم لأجل الذنب الذي هو حق الله نوع آخر ، فإن الأب لو

---

(١) الفتاوى ٨/٤٥٤-٤٥٥ . وانظ منهاج السنة النبوية ٣/٥٨-٥٩ .

(٢) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (ح ٣٤٠٩) ومسلم في القدر (ح٢٦٥٢) والترمذي في القدر (ح٢١٣٤) وأبو داود في السنة (ح٤٧٠١) وابن ماجه في المقدمة (ح٨٠) .

فعل فعلاً افتقر به حتى تضرر بنوه ، فأخذوا يلومونه لأجل ما لحقهم من الفقر لم يكن هذا كلومه لأجل كونه أذنب.)[١] .

وحاصل القول أنه لاحجة لأحد بالقدر على فعل فعله من أمر تركه ، أو نهي اقترفه بالقدر ، وأن من فعل ذلك فهو أبعد ما يكون عن تحقيق التوحيد ، إذ أن هذا من أهم موانع حصول التوحيد فضلاً عن تحقيقه .

وأما القسم الثالث : فهم القدرية الإبليسية الذين يقرون بوجود الأمر والنهي من الله ، ويقرون مع ذلك بوجود القضاء والقدر منه ؛ لكن يقولون هذا فيه ظلم للعباد حيث يعاقبهم بما خلق فيهم ، وهذا يكون ظلماً .

قال شيخ الإسلام : (وهذا حال إبليس ، فإنه قال : ﴿ رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين ﴾[٢] فأقر بأن الله أغواه ثم جعل ذلك عنده داعياً يقتضي أن يغوي هو ذرية آدم ... فجعل فعل الله ـ الذي هو إغواؤه له ـ حجة له ، وداعياً إلى أن يغوي ابن آدم ، وهذا طعن منه في فعل الله وأمره ، وزعم منه أنه قبيح ، فأنا أفعل القبيح أيضاً ، فقاس نفسه على ربه ، ومثل نفسه بربه .)[٣]

فمن احتج بالقدر على كفره كإبليس ، أو على شركه كسائر المشركين ، ثم جادل الله على وقوع ذلك الفعل منه، وزعم أن الله رضيه لكونه لايقع في ملكه إلا مايريد فقد أبعد النجعة ، وتقول على الله بغير علم ، وشابه إبليس في رد أمر الله وشرعه ، وقد قال سبحانه وتعالى : ﴿.. إن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون، متاع قليل ولهم عذاب أليم ﴾[٤] وقال : ﴿.. ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لايعقلون ﴾[٥]. ومن قال بها وجب قتله كفراً[٦] وهذا النوع من الكفر يكثر في أقوال الشعراء الزنادقة .

---

(١) الفتاوى ٣٢٦/٢-٣٢٦ ، وانظر ٣١٩/٨ - ٣٢٢ ، ٤٥٤ .

(٢) سورة الحجر ٣٩ .

(٣) الفتاوى ٢٣٩/١٦-٢٤٠ .

(٤) سورة النحل آية ١١٦-١١٧ .

(٥) المائدة آية ١٠٣ .

(٦) انظر الفتاوى ٢٦٠/٨ .

وأما القسم الرابع : فهم أهل الإيمان والتقوى ، أهل لاإله إلا الله ، الذين آمنوا بالقدر و لم يحتجوا به ، الذين علموا أن للعبد قدرة واختياراً يختار بها ما يريد ، مع كونهما لايخرجان عن قدرة الله ومشيئته الكونية القدرية ، فآمنوا بأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . هم الذين علموا أنه يجب (على العبد أن يؤمن بالقدر وليس له أن يحتج به على الله ؛ فالإيمان به هدى ، والاحتجاج به على الله ضلال وغي ، بل الإيمان بالقدر يوجب أن يكون العبد صباراً شكوراً صبوراً على البلاء شكوراً على الرخاء، إذا أصابته نعمة علم أنها من عند الله فشكره .. وإذا أصابته مصيبة صبر عليها .. [وعلم يقيناً أنها من عند الله مكتوبة عليه] كما قال تعالى : ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ، لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾(١) وقال سبحانه : ﴿ ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾(٢) قالوا : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم .

وعليه إذا أذنب أن يستغفر ويتوب ولا يحتج على الله بالقدر ، ولا يقول أي ذنب لي وقد قدر على هذا الذنب ؛ بل يعلم أنه هو المذنب العاصي الفاعل للذنب ، وإن كان ذلك كله بقضاء الله وقدره ومشيئته...)(٣) .

وسعادة العبد تكمن في فعل المأمور وترك المحظور والتسليم للمقدور. فالسعيد من يستغفر من المعائب ويصبر على المصائب ، كما قال سبحانه : ﴿ فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك ﴾ (٤) كما أن الشقي من يجزع عند المصائب ويحتج بالقدر .(٥) .

وقد تقدم ذكر أن شهود القدر من أهم دوافع تحقيق التوحيد . وتبين هنا أن التكذيب بالقدر ، أو الاحتجاج به من أهم عوائق تحقيق التوحيد .

---

(١) سورة الحديد ٢٣ .

(٢) سورة التغابن ١١ .

(٣) الفتاوى ٢٣٧/٨ . وانظر ٢٢٤/٨ ، ٥٥٩ .

(٤) سورة غافر ٥٥ .

(٥) انظر الفتاوى ٤٥٣/٨-٤٥٤ ، ١٥٨/١٠ .

٤) اتباع الهوى

إن من كمال تحقيق التوحيد الاستسلام المطلق لله رب العالمين لاشريك له ، مع الانقياد التام الذي يصاحبه رضى واطمئنان كاملين تامين، ولا يتم ذلك إلا بالتخلص التام من العوالق التي تعلق بالقلب من حب الدنيا وزينتها والتي تدعو النفس إليها .

ومن أهم بل إن أصل كل ضلال وحيد عن هذا الانقياد التام لله رب العالمين هو : اتباع الهوى والاستسلام لشهوات وشبهات وتبريرات النفس الأمارة بالسوء .

وقد وضح شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - المراد بالهوى وفسره بقوله : (الهوى مصدر هوى يهوي هوى ، ونفس المهوي يسمى هوى ما يهوي ، فاتباعه كاتباع السبيل ، كما قال تعالى : ﴿ ولاتتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل ﴾[1] كما في لفظ الشهوة ، فاتباع الهوى يراد به نفس مسمى المصدر ، أي اتباع إرادته ومحبته التي هي هواه ، واتباع الإرادة هو فعل ما تهواه النفس كقوله تعالى : ﴿ واتبع سبيل من أناب إلي ﴾[2] وقوله : ﴿ وأن هذا صرطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾[3] وقال : ﴿ ولا تتبعوا من دونه أولياء ﴾[4] فلفظ الاتباع يكون للآمر الناهي ، وللأمر والنهي وللمأمور به والمنهي عنه ، وهو الصرط المستقيم .

وكذلك يكون للهوى أمر ونهي ، وهو أمر النفس ونهيها كما قال تعالى : ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم ﴾[5] ولكن ما يأمر به من الأفعال المذمومة فأحدها مسلتزم للآخر ، فاتباع الأمر هو فعل المأمور ، واتباع أمر النفس هو فعل ما تهواه ، فعلى هذا يعلم أن اتباع الشهوات واتباع الأهواء هو اتباع شهوة النفس وهواها ، وذلك بفعل ما تشتهيه وتهواه ...)[6]

---

(١) سورة المائدة ٧٧ .

(٢) سورة لقمان ١٥ .

(٣) سورة لقمان ١٥ .

(٤) سورة الأعراف ٣ .

(٥) سورة يوسف ٥٣ .

(٦) الفتاوى ١٠/٥٨٤-٥٨٥ .

اتباع الهوى على درجات

مما يلاحظ هنا أن اتباع الهوى ليس على درجة واحدة بالنسبة للمكلفين ، وإنما هو درجات منها :

الإشراك با لله والخروج عن طاعته ، وتقديمه محبة الأنداد على محبة ا لله .

ومنها ما هو أقل من ذلك كتقليد الآباء والمشايخ وتقديم ما يرونه ويقررونه على اتباع الحق مخالفة وتعصباً للآباء والمشايخ .

ومنها ما هو دون ذلك أيضاً من اتباع الهوى في سائر ما تهواه النفس وتقديم طاعتها على طاعة ا لله ورسوله ، فيؤثر ما تهواه نفسه وتطلبه شهوته على ذلك .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه ا لله تعالى - : (اتباع الهوى على درجات : فمنهم المشركون والذين يعبدون من دون ا لله ما يستحسنون بلا علم ، ولا برهان ، كما قال : ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ [(١)] أي يتخذ إلهه الذي يعبده وهو ما يهواه من آلهة ،ولم يقل إن هواه نفس إلهه ، فليس كل من يهوى شيئاً يعبده ، فإن الهوى أقسام ، بل المراد أنه جعل المعبود الذي يعبده هو ما يهواه ، فكانت عبادته تابعة لهوى نفسه في العبادة ، فإنه لم يعبد ما يجب أن يعبد ، ولا عبد العبادة التي أمر بها . وهذا حال أهل البدع فإنهم عبدوا غير ا لله ، وابتدعوا عبادات زعموا أنهم يعبدون ا لله بها ، فهم إنما اتبعوا أهواءهم ، فإن أحدهم يتبع محبة نفسه وذوقها ووجدها وهواها من غير علم ولا هدى ولاكتاب منير . فلو اتبع العلم والكتاب المنير لم يعبد إلا ا لله بما شاء لا بالحوادث والبدع.)[(٢)] .

فمن لم يؤمن با لله ورسوله ويتبع شريعة ا لله محبة وإنابة وإخلاصاً وإلا فإنه سيعبد هواه لامحالة ، فتجده تارة تغلب عليه الرأفة هوى ، وتارة تغلب الشدة هوى .[(٣)]

(ومنهم الذين يتبعون آباءهم وأجدادهم تقليداً وسيراً على منهجهم ، وإن كان بعضهم يعلمون بطلان ماهم عليه ، بل إنما هو تقليد بالباطل المذموم ، بلا حجة ولا

---

(١) سورة الجاثية ٢٣ .

(٢) الفتاوى ٥٩٢/١٠ .

(٣) انظر الفتاوى ٢٩٢/١٥-٢٩٣ .

برهان ، قال الله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾(١)

وفي لقمان : ﴿ أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾(٢) .. وفي الصافات : ﴿ إنهم ألفوا آباءهم ضالين ، فهم على آثارهم يهرعون ﴾(٣) ...

وقال : ﴿ يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ۞ وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ﴾ (٤) ...

وقال : ﴿ وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم، سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص ﴾ (٥)

فهذا كله من الاتباع والتقليد الذي ذمه الله هو اتباع الهوى ، إما للعادة ، وإما للنسب كاتباع الآباء ، وإما للرئاسة كاتباع الأكابر والسادة والمتكبرين ، فهذا مثل تقليد الرجل لأبيه أو سيده أو ذي سلطانه ...

وقد بين سبحانه أن الواجب الاعراض عن هذا التقليد إلى اتباع ما أنزل الله على رسله ، فإنهم حجة الله التي أعذر بها إلى خلقه .)(٦)

ومنهم المقلد لشيخه المتعصب له من كل وجه المتابع له في الخطأ وإن اتضح له .

ومنهم المتمسك بمذهبه أو طريقته وسلوك بلده أو جماعته ، وإن خالف الدليل الصريح اتباعاً للهوى ورغبة النفس وشهوتها .

ومنهم المتبع لشهواته المشبع لرغباته المتتبع للرخص تبعاً لما يمليه عليه هواه ، وترغب به نفسه ، وتدعوه إليه . (٧)

---

(١) سورة البقرة ١٧٠

(٢) سورة لقمان ٢١ .

(٣) سورة الصافات ٦٩-٧٠ .

(٤) سورة الأحزاب ٦٦ .

(٥) سورة ابراهيم عليه السلام ٢١ .

(٦) الفتاوى ٢٠/١٥-١٦ .

(٧) انظر الفتاوى ٤٢١/١٥ وما بعدها .

فمن غرق في اتباع الهوى أياً كان قليلاً أو كثيراً فقد جاء بمانع من موانع تحقيق التوحيد .

وهذا يبين أن اتباع الهوى أصل كل ضلال ، كما قرر ذلك شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ بقوله : (وأصل الضلال اتباع الظن كما قال الله تعالى في حق من ذمهم : ﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ (١)

وقال في حق نبيه ﷺ : ﴿ والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ﴾(٢)

فنزهه عن الضلال والغواية اللذين هما الجهل والظلم ، فالضال هو الذي لايعلم الحق ، والغاوى الذي يتبع هواه ، وأخبر أنه ما ينطق عن هوى النفس بل هو وحي أوحاه الله إليه فوصفه بالعلم ونزهه عن الهوى.)(٣).

فتبين من هذا أن اتباع الهوى مهما كانت درجته يعتبر قادحاً من قواد تحقيق التوحيد إن لم يكن مانعاً يمنع من وجوده والعياذ بالله .

التخلص من الهوى

تبين أن إتباع الهوى أصل كل ضلال ، ولذا وجب على كل أحد أن يتخلص من الهوى ؛ لأن التخلص من الهوى وتخلية النفس منه وتحليتها بالإيمان دافع من دوافع تحقيق التوحيد ، كما أن الانغماس في ذلك قادح من قوادح تحقيق ؛ بل حصول التوحيد أو تحقيقه كلٌ بحسبه .

(فمن أحب إنساناً لكونه يعطيه فما أحب إلا العطاء ، ومن قال إنه يحب من يطيعه لله فهذا كذب ومحال وزور من القول ، وكذلك إذا أحب إنساناً لكونه ينصره إنما أحب النصر لا الناصر ، وهذا كله من اتباع ما

---

(١) النجم ٢٣ .

(٢) سورة النجم ١ - ٤ .

(٣) الفتاوى ٣٨٤/٣ .

تهوى الأنفس ، فإنه لم يحب في الحقيقة إلا ما يصل إليه من جلب منفعة أو دفع مضرة .. وليس هذا حباً لله ولا لذات المحبوب .)[١].

ولذا فقد بين شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ إن من أهم ما يعين على تحقيق التوحيد والتخلص من الهوى أمور منها :

١) الإخلاص ، فكلما حقق العبد الإخلاص في قوله : لا إله إلا الله ــ الذي يتمثل في إعتقاده ظاهراً وباطناً ـ خرج من قلبه تأله كل ما يهواه ويحبه ، وصرف الله عنه المعاصي والذنوب التي منشأها من اتباع الهوى ، قال تعالى : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾[٢] فعلل صرف السوء والفحشاء عنه بأنه من عباد الله المخلصين وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطاناً ﴾.[٣][٤]

(والشيطان يأمر بالشرك والنفس تطيعه في ذلك ، فلا تزال النفس تلتفت إلى غير الله ، إما خوفاً منه ، وإما رجاءً له ، فلا يزال العبد مفتقراً إلى تخليص توحيده من شوائب الشرك . وفي الحديث .. أن النبي ﷺ قال : ((يقول الشيطان أهلكت الناس بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار، فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء فهم يذنبون ولا يستغفرون لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.))[٥] فصاحب الهوى الذي اتبع هواه بغير هدى من الله له نصيب ممن اتخذ إلهه هواه ، فصار فيه شرك منعه من الاستغفار ، وأما من حقق التوحيد والاستغفار فلا بد أن يرتفع عنه الشرك ، فلهذا قال ذو النون : ﴿لاإله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾[٦]...)[٧] .

---

(١) الفتاوى ١٠/٦٠٩-٦١٠

(٢) يوسف ٢٤ .

(٣) الحجر ٤٢ .

(٤) انظر الفتاوى ١٠/٢٦٠-٢٦١ .

(٥) رواه ابن أبي عاصم وغيره وقد تقدم تخريجه قريباً انظر فهرس الأحاديث حرف الياء .

(٦) سورة الأنبياء ٨٧ .

(٧) الفتاوى ١٠/٢٦١-٢٦٢ .

فمن استعان بالله وأخلص التوحيد ، وتخلص من الهوى فقد حقق التوحيد ، ومن انغمس في الهوى واتبع شهوته وما تملي عليه نفسه فقد جاء بقادح من أهم قوادح تحقيق التوحيد .

٢) الاستغفار : بين ـ رحمه الله ـ أن مما يعين على تحقيق التوحيد والتخلص من الهوى كثرة الاستغفار ، فقد أمر النبي ﷺ بالتوحيد وأمر أن يقرنه بالاستغفار ، قال تعالى : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك ﴾[1] وقوله : ﴿ ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير ، وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ﴾[2] وقوله : ﴿ فاستقيموا إليه واستغفروه﴾[3]

وقال النبي ﷺ :((والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة))[4] وأمر بمن جلس مجلساً أن يقول في ختامه : ((سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك))[5] وكان يقولها في كل مجلس جَلَسَهُ .

وهذا الذكر يتضمن التوحيد والاستغفار اللذين اذا اجتمعا في قلب امرء صقلاه من شوائب الشرك والتي منها اتباع الهوى .[6]

٣) الخشية من الله : كما بين ـ رحمه الله ـ أن مما يعين على التخلص من الهوى والابتعاد عنه تنمية الخشية من الله في القلب ، والخوف منه عند إرداة الفعل واتباع الأمر . فبالخشية من الله يتحقق التوحيد ، ويتخلص القلب من الهوى ، فالعالم الذي يخشى الله ، هو العالم بأمر الله ونهيه تدفعه تلك الخشية إلى التجرد من جميع حضوض النفس وأطماعها ، كما تتخلص من محابات الغير على حساب أمر شرعي ؛ لأنه حينئذ ينظر إلى مرضاة ربه لا إلى مرضاة غيره ، وبهذا يتخلص من اتباع الهوى الذي وقع بسببه كثير من الناس في الفتن التي من أعظمها الشرك .

---

(١) سورة محمد ﷺ ١٩ .

(٢) سورة هود ٢-٣ .

(٣) سورة فصلت ٦ .

(٤) رواه البخاري في الدعوات (ح٦٣٠٧) والترمذي في تفسير القرآن (ح ٣٢٥٩) وابن ماجه في الأدب (ح٣٨١٦)

(٥) رواه الترمذي في الدعوات (ح٣٤٣٣) وقال حديث حسن صحيح .

(٦) انظر الفتاوى ١٠/٢٦٢-٢٦٣ .

٤) طلب العلم : كما ـ ذكر ـ رحمه الله ـ أنه ينبغي على العبد أن يطلب العلم الذي يميز به بين الحسنات والسيئات، وأن يخلص في القصد الحسن الذي يعمل به الحسنات ، فإن كثيراً من المتأخرين العالمين والعابدين يفوت أحدهم العلم في كثير من الحسنات والسيئات حتى يظن السيئة حسنة وبالعكس ، أو يفوته القصد في كثير من الأعمال حتى يتبع هواه فيما وضح له من الأمر والنهي ... [1]

و (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ، وحسن القصد من أعون الأشياء على نيل العلم ودركه ، والعلم الشرعي من أعون الأشياء على حسن القصد ، والعمل الصالح ، فإن العلم قائد والعمل سائق ، والنفس حرون ، فإن وني قائدها لم تستقم لسائقها ، وإن وني سائقها لم تستقم لقائدها ، فإذا ضعف العلم حار السالك ولم يدر أين يسلك .. وإذا ترك العمل حار السالك عن الطريق فسلك غيره مع عمله أنه تركه ، فهذا حائر لايدري أين يسلك مع كثرة سيره ، وهذا حائر عن الطريق زائغ عنه مع علمه به . قال تعالى : ﴿ فلما زاغوا أزغ الله قلوبهم ﴾ [2]

والكمال في عدم الهوى وفي العلم هو لخاتم الرسل ﷺ الذي قال فيه : ﴿ والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾ [3] فنفى عنه الهوى ، وأثبت العلم الكامل وهو الوحي ، فهذا كمال العلم وذاك كمال القصد ﷺ .

ووصف أعداءه بضد هذين فقال تعالى : ﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ [4] ...) [5]

٥) التعلق بغير الله

التعلق بالله أمر واجب على كل أحد ؛ لأن الله سبحانه هو المعبود وحده الذي يملك الضر والنفع لكل أحد ، فكل الخلق محتاج له مفتقر إليه ، لايمكن أن يستغني عنه

---

(١) انظر الفتاوى ١٠/٥٤٣ -٥٤٥

(٢) سورة الصف ٥ .

(٣) سورة النجم ٢٣ .

(٤) سورة النجم

(٥) الفتاوى ١٠/٥٤٤-٥٤٥ .

طرفة عين .

ولهذا من تعلق قلبه بغيره فقد أعرض عن القادر على نفعه إلى من لا قدرة له على ذلك ، وتوجه إلى من ضره أقرب من نفعه . فكان تعلقه به وبالاً عليه وحسرة وندامة ، قال سبحانه : ﴿ وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار ، قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾[٢]

وقد بين شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ أن :

التعلق بغير الله يكون بعدة أمورة منها :

١) تعلق بغير الله بصرف المحبة لما سواه :

من صرف المحبة لغيره فقد تعلق قبله بذلك الغير ، وصرف خالص حقه إلى غيره ؛ لأن الله هو المستحق وحده للمحبة المطلقة ، فلا يحب شيء إلا من أجله ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله ، ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب ..﴾[٣] ... [٤]

وقال سبحانه : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناءكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره إن الله لايهدي القوم الفاسقين ﴾ [٥] .

فمن تعلق قلبه بمحبوبه أياً كان ابناً أو زوجة أو جماداً أو مالاً أو غيره وقدمه على محبة الله ورضاه فقد صرف خالص حق الله إلى غيره ، وبهذا يكون قد أتى بمانع من موانع حصول التوحيد فكيف بتحقيقه . [٦].

---

(١) سورة غافر آية ٤٧ -٤٨.

(٢) سورة الزمر ٢٩ .

(٣) سورة البقرة آية ١٦٥ .

(٤) انظر الفتاوى ١٨/٣٢٤ وما بعدها .

(٥) سورة التوبة آية ٢٤ .

(٦) انظر الفتاوى ١٥/١٦٢-١٦٣ .١٨/٣٢٥ .

٢) التعلق بما سوى الله لطلب الشفاعة :

من الناس من يصرف همه إلى التعلق بغير الله من حي أو ميت عاقل أو غير عاقل طلباً لرضاه ولشفاعته ، فيتعلق بفلان الحي أو فلان الميت ، ويتوسل به ويصرف له شيء من العبادة مما لايجوز صرفه إلا لله رغبة في شفاعته له عند الله لما يظن أن له القربى والزلفى عند الله .

ولقد تعلقت قلوب المشركين بأصنامهم زعماً منهم أن تلك الأصنام شتشفع لهم عند الله ، قال الله تعالى في وصف حالهم : ﴿.. والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ (١)

وهذا الذي ضل فيه كثير من هذا الأمة من الذين وقعوا في عبادة الأشخاص ونحوه يطلبون منهم ما طلب المشركون من آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله .

ومن المعلوم أن الشفاعة لاتكون إلا لأولياء الله المخلصين أهل التوحيد الخالص ، الذين يأذن الله لهم ويرضى لقولهم ، قال تعالى : ﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن ورضي له قولا﴾(٢) ومن أفضل من يكرمه الله بالإذن له بالشفاعة ويرفعه بها مكاناً علياً هو نبينا محمد ﷺ ، ولا تُنال هذه الشفاعة إلا للمخلصين .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - : (وكلما كان الإنسان أعظم اخلاصاً كلما كانت شفاعة الرسول ﷺ أقرب إليه ، فقد جاء في الأثر أن أباهريرة ﷺ قال :((من أسعد الناس بشفاعتك يارسول الله ؟. قال : أسعد الناس بشفاعتي من قال لاإله إلا الله يبتغي بها وجه الله))(٣).

وأما الذين يتوكلون على فلان ليشفع لهم من دون الله تعالى ، ويتعلقون بفلان ، فهؤلاء من جنس المشركين الذين اتخذوا شفعاء من دون الله تعالى ، قال الله

---

(١) سورة الزمر آية ٣ .

(٢) سورة طه ١٠٩ .

(٣) رواه البخاري في كتاب العلم (ح ٩٩) وأحمد (٣٧٣/٢) ولفظ البخاري : عن أبي هريرة أنه قال : قيل : يا رسول الله ، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ . قال رسول الله ﷺ : ((لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه أو نفسه)) وفي المسند أنه قال ((.. خالصاً من قبل نفسه)).

تعالى : ﴿ أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لايملكون شيئاً ولا يعقلون ، قل لله الشفاعة جميعاً﴾ [١] ..) [٢] والآيات في هذا الباب كثيرة معلومة ، وسيأتي مزيد بيان لهذا في الباب الثالث إن شاء الله تعالى .

وإنما المقصود هنا أن من تعلق قلبه بغير الله يرجوا منه ما عند الله فقد جعل بينه وبين حصول التوحيد سداً منيعاً .

٣) التعلق بالدنيا وزخرفها

ومما يقدح في تحقيق التوحيد التعلق بالدنيا سواء كان تعلقاً بمال أو جاه أو منصب أو رئاسة أو ولد أو زوجة أو غير ذلك . ففي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : ((تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش..)) [٣]

قال شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - في التعليق على هذا الحديث : (وهذه حال من عبد المال والدنيا ، فقد وصفه ﷺ بأنه ((إذا أعطي رضي وإذا منع سخط)) كما قال تعالى : ﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن اعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون﴾[٤] فرضاهم لغير الله ، وسخطهم لغير الله ، وهكذا حال من كان متعلقاً برئاسة أو بصورة ونحو ذلك من أهواء نفسه إن حصل له رضي ، وإن لم يحصل له سخط ، فهذا عبد ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له ، إذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده ...)[٥]

(وكل من علق قلبه بالمخلوقات أن ينصروه أو يرزقوه أو أن يهدوه خضع قلبه لهم ، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك ، وإن كان في الظاهر أميراً مدبراً لهم متصرفاً بهم ، فالعاقل ينظر إلى الحقائق لا إلى الظواهر ، فالرجل إذا تعلق قلبه بامرأة

---

(١) سورة الزمر ٤٣-٤٤ .

(٢) الفتاوى ١٨/٣٢٤-٣٢٤ .

(٣) رواه البخاري في الجهاد والسير (ح٢٨٨٧) وابن ماجه في الزهد (ح ٤١٣٦) .

(٤) سورة التوبة ٥٨ .

(٥) الفتاوى ١٠/١٨٠-١٨١ .

ولو كانت مباحة له يبقى قلبه أسيراً لها، تحكم فيه وتتصرف بما تريد ، وهو في الظاهر سيدها لأنه زوجها ، وفي الحقيقة هو أسيرها ومملوكها لاسيما إذا درت بفقره إليها ، وعشقه لها ، وأنه لايعتاض عنها بغيرها ، فإنها حينئذ تحكم فيه بحكم السيد القاهر الظالم في عبده المقهور ، الذي لايستطيع الخلاص منه بل أعظم ، فإن أسر القلب أعظم من أسر البدن ، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن ، فإن من استعبد بدنه واسترق لايبالي إذا كان قلبه مستريحاً من ذلك مطمئناً ، بل يمكنه الاحتيال في الخلاص ، وأما إذا كان القلب الذي هو الملك رقيقاً مستعبدا متيماً لغير الله فهذا هو الذل والأسر المحض .. ولو كان في الظاهر ملك الناس ، فالحرية حرية القلب والعبودية عبودية القلب .

... هذا لعمري إذا كان استعبد قلبه صورة محرمة : امرأة أو صبي ، فهذا العذاب الذي لايدان فيه ، وهؤلاء من أعظم الناس عذاباً وأقلهم ثواباً، فإن العاشق لصورة إذا بقي قلبه متعلقاً بها ، مستعبداً لها اجتمع له من أنواع الشر والفساد مالا يحصيه إلا رب العباد ، ولو سلم من فعل الفاحشة الكبرى ، فدوام تعلق القلب بها بلا فعل الفاحشة أشد ضرراً عليه ، ممن يفعل ذنباً ثم يتوب منه ويزول أثره من قلبه...)[1]

الأمور التي يتعلق بها القلب

وقد بين رحمه الله تعالى أن (الأمور التي يتعلق بها القلب نوعان :

الأول : ما يحتاج العبد إليه كما يحتاج إلى طعامه وشرابه ومسكنه ومنكحه ونحو ذلك . فهذا يطلبه من الله ويرغب إليه فيه ، فيكون المال عنده يستعمله في حاجته بمنزلة حمارة الذي يركبه ، وبساطه الذي يجلس عليه ، بل بمنزلة الكنيف الذي يقضي فيه حاجته من غير أن يستعبده ، فيكون هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً .

والثاني : ما لايحتاج العبد إليه ، فهذه لاينبغي له أن يعلق قلبه بها ، فإذا تعلق قلبه بها صار مستعبداً لها ، وربما صار معتمداً على غير الله فلا يبقى معه حقيقة العبادة لله ، ولا حقيقة التوكل عليه ، بل فهي شعبة من العبادة لغير الله ، وشعبة من التوكل على غير الله ، وهذا أحق الناس بقوله ﷺ ((تعس عبد الدرهم ، تعس عبد

---

(١) الفتاوى ١٨٥-١٨٧ .

الدينار ، تعس عبد القطيفة تعس عبد الخميصة)) [1] وهذا هو عبد هذه الأمور ، فلو طلبها من الله فإن الله إذا أعطاه إياها رضي ، وإذا منعه إياها سخط ، وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضي الله ويسخطه ما يسخط الله ، ويحب ما أحبه الله ورسوله، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله ، ويوالي أولياء الله ويعادي أعداء الله ، وهذا هو الذي استكمل الايمان ...)[2].

وكلما كان تعلق العبد بربه أكمل كلما كان افتقاره إليه وخضوعه له أفضل وأكمل ، وكلما زاد تعلق قلبه بربه كلما كان أعظم لقدره وأعز له، وأقرب إلى تحقيق التوحيد لله ، وأسعد الخلق به ، وأعظمهم عبودية له ، وهذا من كمال تحقيق التوحيد الذي لايبلغه إلا المجاهدون لأهوائهم وأنفسهم في الليل والنهار ، على مر الأزمنة والأعصار ، لاتهزهم الأعاصير ، ولا تتغير لديهم الثوابت مهما تلاطمت أمواج البدع والضلالة ، ومهما عصفت بهم ريح الأهواء والشهوات .

وكلما كان تعلق العبد بغير الله أعظم وأقوى من تعلقه بربه ، كلما كان بعده عنه أقوى وأبعد ، وكان تحقيقه للتوحيد بعيد المنال . فكان هذا التعلق الذي قد لايفطن له إلا من رحم ربك من أوسع الأبواب التي تجني على العبد وتؤثر في تحقيقه للتوحيد ، إن لم تمنعه منعاً باتاً من حصوله ــ والعياذ بالله ــ. [3]

والإنسان بل كل مخلوق فهو مفتقر إلى ربه محتاج إليه في كل وقت وحين ، بل في كل لحظة من لحظاته ، ففي الحديث قوله : ((اللهم لاتكلني إلى نفسي طرفة عين))[4] ، كما أن فقره لازم لذاته ، محتاج إلى ربه وإلهه الذي لاإله غيره . فمن صرف هذا الاحتياج ، وتعلق بغير خالقه وموجده وإلهه فقد تبوء إثماً عظيماً ، وجاء بأعظم مانع من موانع حصول التوحيد . [5]

---

(١) تقدم تخريجه قبل قليل ، انظر فهرس الأحاديث حرف التاء

(٢) الفتاوى ١٠/١٨٩-١٩٠ .

(٣) انظر الفتاوى ٣٩/١

(٤) رواه أبو داود في الأدب (ح٥٠٩٠) وأحمد ٤٢/٥ عن أبي بكرة . وحسنه الألباني في صحيح أبي داود .

(٥) انظر الفتاوى ٤٢/١

٦) بغض الله ورسوله ﷺ

إن من موانع حصول التوحيد الواجب بغض الله ورسوله ﷺ أو الاستهزاء بالله أو برسوله .

وهذا الفعل لاشك أنه كفر يخرج صاحبه من الملة .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - : (.. دل الكتاب والسنة على أن من في قلبه الكفر وبغض الله والرسول وبغض ما جاء به أنه كافر بالله ورسوله ...

..[فإن] أبدى الإنسان ما في نفسه من الشر بقول أو فعل صار من الأعمال التي يستحق عليها الذم والعقاب ، وإن أخفى ذلك وكان ما أخفاه متضمناً لترك الإيمان بالله والرسول مثل الشك فيما جاء به الرسول أو بغضه كان معاقباً على ما أخفاه في نفسه من ذلك ؛ لأنه ترك الإيمان الذي لانجاة ولا وسعادة إلا به ...) [١]

وقد اهتم شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - بهذه المسألة ، وذلك لما فيها من الذب عن الله ورسوله ، وحماية لدينه من أن ينتهكه المفرطون الغافلون من الناس ، فألف في ذلك مؤلفاً كبيراً سماه الصارم المسلوم على شاتم الرسول ﷺ على إثر واقعة وقعت في زمنه [٢] بين فيه أن سب الرسول ﷺ كفر محض يجب قتل صاحبه ، وأفاض في بيان ذلك بالأدلة الصريحة الصحيحة .

والذي يعنينا من ذكر هذه المسألة هو بيان أن من فعل هذا فقد ناقض التوحيد ، بل إنه لا يفعلها طوعاً إلا من خلا قلبه من الإيمان .

فإن من أبغض النبي ﷺ وسبه ليس مثل من أبغض غيره وسبه : (لأنه عليه الصلاة والسلام يباين سائر المؤمنين من أمته عامة الحقوق فرضاً وخطراً وغيرهما ، مثل وجوب طاعته ووجوب محبته ، وتقديمه في المحبة على جميع الناس ، ووجوب تعزيره وتوقيره على وجه لايساويه فيه أحد ، ووجوب الصلاة عليه والتسليم ، إلى غير ذلك من الخصائص التي لاتحصى ، وفي سبه إيذاء لله ولرسوله ولسائر المؤمنين من عباده ، وأقل ما في ذلك أن سبه كفر ومحاربه ، وسب غيره ذنب ومعصية ، ومعلوم أن

---

(١) الفتاوى ١٤/١٠٧-١٠٨ .

(٢) انظر البداية والنهاية ١٣/٣٥٥ .

العقوبات على قدر الجرائم ، فلو سُوِي بين سبه وسب غيره لكان تسوية بين السببين المتباينين ، وذلك لايجوز..) [١] فمن قام بقلبه شيء من ذلك فقد أتى بأكبر موانع حصول التوحيد ، كما أن من أظهر شيئاً من ذلك وجب قتله.

ومن المعلوم أن السب والشتم والانتقاص للمشتوم نابعة عن بغض له وكره وعداوة ، وقد بين شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - أن كل من سب الرسول صراحة فإنه ينبئ عن انتقاص أو استخفاف أو احتقار، وهذا ما يفهم منه السب في عقول الناس على اختلاف اعتقاداتهم كاللعن والتقبيح ونحوه [٢] .

وقد حكم الله جل شأنه بكفر من سبه وتوعدهم بالعذاب ، قال الله تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم ...﴾ [٣] الآية وقال : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾ الآية [٤][٥] .وقال : ﴿ قل أبا الله وآياته و رسوله كنتم تستهزؤون لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾[٦]

وهذا يبين أن من أبغض الله والرسول أو سب الله ورسوله ، فقد بلغ درجة عظيمة من الكفر ؛ لأنه حينذاك لايقوم بقلبه أي تعظيم للرب جل وعلا ، كما أن شاتم الرسول ﷺ ، بل إن الكافر المجاهر بكفره أفضل منه فإنه قد يعظم الرب أو الرسول مع كفره .

ولا يظهر الشتم إلا من امتلأ قلبه غيظاً وحنقاً على الله وعلى رسوله وعلى شرعه المنزل [٧] . ولهذا كان من اقترف أو اعتدى على الله ورسوله ودينه بشيء من ذلك فقد جاء بأعظم موانع حصول التوحيد ، فما بالك بتحقيقه نسأل الله العفو والعافية .

---

(١) الصارم المسلوم ٢٩٧ .

(٢) انظر الصارم المسلول ٥٤٦ .

(٣) سورة المائدة ٧٢ .

(٤) سورة المائدة ٧٣ .

(٥) انظر الفتاوى ٥٥٨/٧ .

(٦) سورة التوبة ٦٥-٦٦ .

(٧) انظر الصارم المسلوم ٥٤٦ .

وليس المقصود التفصيل في هذه المسألة ، وإنما المقصود الإشارة إلى أن هذه المسألة من أهم مسائل الدين التي يجب الاعتناء بها ، ومعرفتها والعمل بها بالذب عن الله وعن رسوله ودينه ، والانتصار لذلك ؛ لأن هذا هو عين التوحيد ، ومن لم يقم بقلبه ذلك فإنه لم يحقق التوحيد ، وليس دون ذلك حبة خردل من إيمان ، كما جاء في السنة عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ((ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار)) (١) .

ومفهومه أن من لم تكن فيه هذه الخصال الثلاث ؛ فإنه لن يجد للإيمان طعماً .

ولهذا كان من اعتدى على الله أو على رسوله أوعلى دينه بشيءمن ذلك فقد أتى بأعظم القوادح التي تقدح في حصول التوحيد .

٧) اليأس والقنوط من رحمة الله تعالى

القنوط واليأس من رحمة الله تعالى من القوادح المانعه من تحقيق التوحيد ، إذ أن الله جل شأنه قد نهى عنه ، بل وحذر منه ، وبين أن اليأس والقنوط من سمات الكافرين ، قال سبحانه وتعالى على لسان يعقوب عليه السلام : ﴿يابنى اذهبوا وتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾(٢) .

وقال سبحانه : ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور﴾ (٣) .

فاليأس من رحمة الله محرم في شرع الله تعالى ، بل هو كبيرة من الكبائر كما بين ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - حيث قال : (ويأس الإنسان أن يصل إلى ما يحبه ويرضاه من معرفته وتوحيده كبيرة من الكبائر؛ بل عليه أن يرجو

---

(١) رواه البخاري في الإيمان (ح ١٦) ومسلم في الإيمان (ح ٤٣) والترمذي في الإيمان (ح ٢٦٢٤) والنسائي في شرائع الإيمان (ح٤٩٨٧) وابن ماجه في الفتن (ح ٤٠٣٣) .

(٢) سورة يوسف ٨٧ .

(٣) سورة هود ٩ .

ذلك ويطمع فيه ؛ لكن من رجا شيئاً طلبه ، ومن خاف من شيء هرب منه ، وإذا اجتهد واستعان بالله تعالى ولازم الاستغفار والاجتهاد فلا بد أن يؤتيه الله من فضله مالم يخطر ببال ...)[١].

كما أن الله سبحانه وتعالى حذر من القنوط في مواضع كثيرة من كتابه ، قال جل وعلا على لسان الملائكة الذين نزلوا على إبراهيم : ﴿قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين ~ قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا القوم الضالون ﴾[٢] قال ابن كثير رحمه الله تعالى : أجاب ابراهيم عليه السلام الملائكة بأنه ليس يقنط بما أجابهم به عندما بشروه بالولد ؛ لكن يرجو من الله الولد ، وإن كان قد كبر وأسنّت امرأته فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك .[٣]

وقال سبحانه : ﴿ قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾[٤] .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – : (فيه نهي عن القنوط من رحمة الله تعالى ، وإن عظمت الذنوب وكثرت ، فلا يحل لأحد أن يقنط من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه ، ولا أن يقنط الناس من رحمة الله، قال بعض السلف إن الفقيه كل الفقيه الذي لايُئيِس الناس من رحمة الله ويجرأهم على معاص الله .

والقنوط بأن يعتقد أن الله لايغفر له ، إما لكونه إذا تاب لايقبل الله توبته ويغفر ذنوبه ، وإما بأن يقول نفسه لاتطاوعه على التوبة ؛ بل هو مغلوب معها ، والشيطان قد استحوذ عليه ، فهو ييأس من توبة نفسه ، وإن كان يعلم أنه إذا تاب غفر الله له ، وهذا يعتري كثيراً من الناس .

والقنوط يحصل بهذا تارة وبهذا تارة ، فالأول كالراهب الذي أفتى قاتل تسعة وتسعين إن الله لايغفر له ، فقتله وكمل به مائة ، ثم دل على عالم فأتاه فسأله فأفتاه

---

(١) الفتاوى ١١/٣٩٠ .

(٢) سورة الحجر آية ٥٥-٥٦ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٦/٤٥٩ بتصرف .

(٤) سورة الزمر ٥٣ .

بأن الله يقبل توبته . والحديث في الصحيحين[١] ، والثاني كالذي يرى للتوبة شروطاً كثيرة ، ويقال له لها شروط كثيرة يتعذر عليه فعلها فييأس من أن يتوب ...

والمقصود أنه لايجوز أن يقنط أحد ، ولايُقنِّطَ أحداً من رحمة الله ، فإن الله نهى عن ذلك ، وأخبر أنه يغفر الذنوب جميعاً.) [٢]

ومن هنا يتضح أن القنوط واليأس من رحمة الله من أوسع الأبواب التي تمنع صاحبها من تحقيق التوحيد ، إذ أنه : (ليس لأحد أن ييأس ؛ بل عليه أن يرجو رحمة الله .. [و] أن يخاف عذابه ، قال تعالى :﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ، ويخافون عذابه ؛ إن عذاب ربك كان محذوراً ﴾ [٣] قال بعضهم من عبدالله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري ، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ ، ومن عبده بالحب والرجاء والخوف فهو مؤمن موحد.) [٤]

ومعنى هذا أن يعبد العبد ربه حباً في طاعته وامتثالاً لأمره ، ورغبة فيما عند الله من نعيم مقيم ، مع خوفه من ذنبه وخطيئته خوفاً لا يؤدي به إلى اليأس والقنوط فيكون دائما بين الخوف والرجاء ، ولا ينافي استعظام العبد لذنبه وخوفه منه لا ينافي الخوف المذموم ، فإن هذا الاستشعار بعظم الذنب وقبحه أمر مرغب فيه ، وهي صفة المؤمن ؛ لكن المذموم منه ما وصل إلى حد اليأس ، والقنوط بحيث ينظر فقط إلى نصوص الوعيد ويغفل عن نصوص الوعد .

والمؤمن مأمور بأن يوازن بين هذا وهذا فلا يغلب جاناً على آخر .

٨) حب التسلط ومنازعة الرب حقوقه

لقد جبلت بعض النفوس على حب العلو والرياسة والمكانة بين الناس ، ولهذا فهي تسعى إليها ، بل وتوالي عليها وتعادي ، وإن كان ذلك مخالف لشرع الله وسنة

---

(١) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (ح٣٤٧٠) ومسلم في التوبة (ح٢٧٦٦) وابن ماجه في الديات (ح٢٦٢٦)

(٢) الفتاوى ١٦/١٩-٢٠ ، ٢٢ .

(٣) سورة الإسراء ٥٧ .

(٤) الفتاوى ١١/٣٩٠-٣٩١ .

رسوله ﷺ . (فالنفس مشحونه بحب العلو والرياسة بحسب إمكانها ، فتجد أحدهم يوالي من يوافقه على هواه ، ويعادي من يخالفه في هواه ، وإنما معبوده ما يهواه ويريده : قال تعالى : ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً﴾ (١) والناس عنده في هذا الباب كما عند ملوك الكفار من المشركين من الترك وغيرهم ، يقولون (يارباعي) أي ياصديق وعدو ، فمن وافقه هواهم كان ولياً ، وإن كان كافراً مشركاً ، ومن لم يوافقه هواهم كان عدواً ، وإن كان من أولياء الله المتقين ، وهذه حال فرعون)(٢) الذي بلغ به حب التسلط والرياسة إلى أن نازع الله في إلهيته، بل وفي ربوبية حيث قال : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾(٣) وقال : ﴿ ماعلمت لكم من إله غيري ﴾(٤) وألزم الناس بذلك حتى هدد موسى عليه السلام بالسجن إن هو اتخذ إلهاً غيره ، قال تعالى على لسانه :﴿.. لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين ﴾(٥) .(٦)

(وفي نفوس سائر الإنس والجن شعبة من هذا ، وهذا إن لم يعن الله العبد ويهديه وإلا وقع في بعض ما وقع فيه إبليس وفرعون بحسب الإمكان .

قال بعض العارفين : ما من نفس إلا وفيها ما في نفس فرعون ، غير أن فرعون قدر فأظهر ،وغيره عجز فأضمر ...

والواحد من هؤلاء يريد أن يطاع أمره بحسب إمكانه ؛ لكنه لايتمكن مما تمكن منه فرعون : من دعوى الإلهية وجحود الصانع ...

وكثير من الناس ممن عنده بعض عقل وإيمان ، لايطلب هذا الحد ، بل يطلب لنفسه ماهو عنده . فإن كان مطاعاً مُسَلَّماً ؛ طلب أن يطاع في أغراضه ، وإن كان فيها ماهو ذنب ومعصية لله ، ويكون من أطاعه في هواه أحب إليه وأعز عنده ممن أطاع الله وخالف هواه ، وهذه شعبة من حال فرعون وسائر المكذبين للرسل .

---

(١) سورة الفرقان ٤٣ .

(٢) الفتاوى ٢٢٤/٦ .

(٣) سورة النازعات ٢٤ .

(٤) سورة القصص ٣٨ .

(٥) سورة الشعراء ٢٩ .

(٦) انظر الفتاوى ٣٢٣/١٤ .

وإن كان عالماً - أو شيخاً - أحب من يعظمه دون من يعظم نظيره ، حتى لو كانا يقرآن كتاباً واحداً كالقرآن ، أو يعبدان عبادة واحدة متماثلان فيها كالصلوات الخمس ، فإنه يحب من يعظمه بقبول قوله واقتداء به أكثر من غيره . وربما أبغض نظيره وأتباعه حسداً وبغياً . كما فعلت اليهود لما بعث ا لله محمداً يدعو إلى مثل ما دعا إليه موسى . قال تعالى : ﴿وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل ا لله قالو نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿وما تفرق الذي أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينه ﴾ (٢) ...

ولهذا أخبر ا لله تعالى عنهم بنظير ما أخبر به عن فرعون وسلط عليهم من انتقم به منهم ، فقال تعالى : ﴿إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحيي نسائهم إنه كان من المفسدين ﴾(٣) وقال تعالى عنهم : ﴿ وقضينا إلى بني إسرئيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً ﴾(٤) ولهذا قال تعالى : ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علواً في الأرض ولا فساداً﴾(٥)...)(٦) .

وهؤلاء هم أهل التوحيد المحققين له المبغضين للفساد والطغيان والعلو والاستكبار في الأرض المبغضين لأهله . (ممن اتبع الرسل وأمر بما أمروا به ، ودعا إلى ما دعوا إليه ، وأحب من دعا إلى مثل ما دعوا إليه ، فإن ا لله يحب ذلك . فيحب ما يحبه ا لله تعالى ، وهذا قصده في نفس الأمر أن تكون العبادة لله تعالى وحده ، وأن يكون الدين كله لله .

وأما من كان يكره أن يكون له نظير يدعو إلى ذلك ، فهذا يطلب أن يكون هو المطاع المعبود ، فله نصيب من حال فرعون وأشباهه .) (٧)

---

(١) سورة البقرة ٩١ .

(٢) سورة البينة ٤

(٣) سورة القصص ٤ .

(٤) سورةالإسراء ٤ .

(٥) سورة القصص ٨٣ .

(٦) الفتاوى ١٤/٣٢٣-٣٢٦ .

(٧) الفتاوى ١٤/٣٢٨ بتصرف .

فتبين بهذا أن حب التسلط على الغير والظهور والعلو في الأرض بغير الحق ، ــ وإن كان من غرائز بني آدم ــ إلا أن التمادي فيه بغير حق من أهم القوادح التي تقدح في تحقيق التوحيد . بل إن الاشتغال به والعمل على تحقيقه يؤدي إلى منازعة رب العالمين بعض صفاته والعياذ با لله ، مما يبين خطره على تحقيق التوحيد. لاسيما وأن النبي ﷺ كان من صفاته التواضع للخلق والذل لرب العالمين ، وكان من هديه النهي عن التكبر والتسلط والظلم ، بل كان يقضى على حب الظهور لدى الناس .

كما كان من هديه الأمر بالتواضع للخلق ، والدعوة إلى عدم الظهور بين الناس .

ولهذا ورد في الحديث : عن عبد ا لله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: ((لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر.قال رجل:إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة.قال:إن ا لله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس))[1] وأخبر أن المتكبرين يحشرون في أحط الصور وأرذلها [2] ؛ لأن الجزاء من جنس العمل ، وا لله عز وجل له القهر المطلق ، وهو المتكبر العزيز الجبار الذي بيده ملكوت كل شيء هو يجير ولا يجار عليه ، فمن طلب الاتصاف بهذه الصفات أو ببعضها ، فإنه طالب لمنازعة الرب في بعض صفاته وحقوقه .

ومن هنا يتضح أن حب التسلط وما يؤدي إليه من منازعة الرب حقوقه من أهم ما يمنع من تحقيق التوحيد الواجب فضلاً عن المندوب ؛ لأنه إما أن يؤدي بالعبد إلى الميل عن التوحيد الواجب مطلقاً ، وإما أن يؤدي به إلى عدم تحقيق كمال التوحيد ، وهذا يعود إلى حال الشخص وما في نفسه من الرغبة في الاتصاف ببعض تلك الصفات .

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (ح ٩١) والترمذي في البر والصلة (ح ١٩٩٨، ١٩٩٩) وأبو داود في اللباس (ح٤٠٤١) وابن ماجة في المقدمة (ح ٥٩) .

(٢) روى الإمام الترمذي في صفة القيامة ..(ح ٢٤٩٢) وغيره عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال : ((يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان فيساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس تعلوهم نار الأنيار يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال)) قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح . ورواه الإمام أحمد ١٧٩/٢ ، وقال أحمد شاكر : " اسناده صحيح (ح٦٦٧٧) .

٩) تعطيل صفات الله

إن من صفات المعبود الذي يجب أن يوحد ويفرد بالعبادة فلا تصرف لغيره ويوحد بالدعاء فلا يدعى غيره ، ويفرد بالتوجه فلا يتوجه إلى غيره ، هو من اتصف بالكمالات المطلقة ، وتسمى بالأسماء الحسنى التي إليها المنتهى في الحسن والجمال والكمال من كل وجه .

وهذه الصفات والكمالات لايمكن أن تكون إلا لله جل وعلا ، الذي تعرف بها إلى خلقه ليعرفوه ويعبدوه بها .

وقد وصف سبحانه نفسه بصفات وقف الإنسان ذو الفطرة السليمة أمامها بعقله متعجباً من حسنها وجمالها وكمالها ، فأصبح لايملك عند ذكرها إلا أن يسبح بحمده ويلهج بذكره ، ويأنس به .

فهو سبحانه كما وصف نفسه الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم ، إليه المنتهى في كل شيء ، وإليه المصير ...

وهذا كله يدل على وجوب إثبات تلك الأسماء والصفات له ؛ لأن سلبها عنه يقتضي سلبه سبحانه وتعالى عن صفات الربوبية والألوهية .

وقد أنكر الله على أولئك الذين سلبوه هذه الصفات ، وعطلوه عن صفاته بنفيها عنه أو تأويلها أو تحريفها ، أو وصف بعض المخلوقات بها ، قال الله تعالى : ﴿و لله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه ..﴾ (١) وقال سبحانه : ﴿أفمن يخلق كمن لايخلق أفلا تذكرون ﴾ (٢)

فـ (بين سبحانه أنه أحق بالكمال من غيره ، وأن غيره لايساويه في الكمال ، فصفة الخلق التي هي من صفات الكمال التي اتصف بها وحده دالة على وحدانيته وعظيم شأنه ، فالذي يخلق أكمل من الذي لايخلق ، ومن عدل هذا بهذا فقد ظلم .

وقال تعالى :﴿ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لايقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً ، هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم

---

(١) سورة الأعراف ١٨٠ .

(٢) سورة النحل ١٧ ,

لايعلمون ﴾[١] فبين أن كونه مملوكاً عاجزاً صفة نقص ، وأن القدرة والملك والإحسان صفة كمال ، وأنه ليس هذا مثل هذا ، وهذا لله وذاك لما يعبد من دونه .

وقال تعالى : ﴿وضرب ا لله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لايقدر على شيء وهو كلٌّ على مولاه أينما يوجه لايأت بخير ، هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم﴾ [٢] . وهذا مثل آخر فالأول مثل العاجز عن الكلام ، وعن الفعل الذي لايقدر على شيء ، والآخر المتكلم الآمر بالعدل الذي هو على صراط مستقيم ، فهو عادل في أمره مستقيم في فعله .

فبين أن التفضيل بالكلام المتضمن للعدل والعمل المستقيم ، فإن مجرد الكلام والعمل قد يكون محموداً ، وقد يكون مذموماً ، فالمحمود هو الذي يستحق صاحبه الحمد ، فلا يستوي هذا والعاجز عن الكلام والفعل ...

والرب تعالى أحق بكل صفة كمال ، كما أنه أحق بتنزيهه عن كل عيب ونقص، فإن له المثل الأعلى فكل كمال ثبت للمخلوق فالخالق أحق بثبوته منه إذا كان مجرداً عن النفص ، وكل ما ينزه عنه المخلوق من نقص وعيب فالخالق أولى بتنزيهه عنه...

وقال سبحانه : ﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار ألم يروا أنه لايكلمهم ولا يهديهم سبيلاً ، اتخذوه وكانوا ظالمين﴾[٣]

فدل ذلك على أن عدم التكلم والهداية نقص ، وأن الذي يتكلم ويهدي أكمل ممن لايتكلم ولا يهدي والرب أحق بالكمال ...

وقال ابراهيم لأبيه : ﴿ياأبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾[٤] فدل أن السميع البصير الغني أكمل ، وأن المعبود يجب أن يكون كذلك .

ومثل هذا في القرآن متعدد من وصف الأصنام بسلب صفات الكمال، كعدم التكلم والفعل وعدم الحياة ، ونحو ذلك ، مما يبين أن المتصف بذلك منتقص معيب كسائر الجمادات ، وأن هذه الصفات لاتسلب إلا عن ناقص معيب .

---

(١) سورة النحل ٧٥ .

(٢) سورة النحل ٧٦ .

(٣) سورة الأعراف ١٤٨ .

(٤) سورة مريم ٤٢ .

وأما رب الخلق الذي هو أكمل من كل موجود فهو أحق الموجودات بصفات الكمال ، وأنه لايستوي المتصف بصفات الكمال والذي لايتصف بها ، وهو يذكر أن الجمادات في العادة لاتقبل الاتصاف بهذه الصفات .

فمن جعل واجب الوجود لايقبل الاتصاف فقد جعله من جنس الأصنام الجامدة التي عابها لله تعالى ، وعاب عابديها .

ولهذا كانت القرامطة والباطنية من أعظم الناس شركاً وعبادة لغير الله ، إذ كانوا لايعتقدون في إلههم أنه يسمع أو يبصر أو يغني عنهم شيئاً .

والله سبحانه لم يذكر هذه النصوص لمجرد تقرير صفات الكمال له ، بل ذكرها لبيان أنه المستحق للعبادة دون ما سواه ، فأفاد الأصلين الذين بهما يتم التوحيد وهما : إثبات صفات الكمال رداً على أهل التعطيل ، وبيان أنه المستحق للعبادة لاإله إلا هو رداً على المشركين .) [1] .

فتبين بهذا أن من عطل الله جل شأنه عن صفاته فقد جاء بأعظم قادح من القوادح التي تقدح في تحقيق التوحيد ، حيث وصف الله بما لايصح أن يوصف به المخلوق ، من أنواع السلوب التي ذكروها ، من نفي السمع والبصر والكلام والرضى والغضب ونحوها من الصفات التي غاية ما فيها أن يوصف الله بالعدم المحض .

وقد ذكر شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - : أن منتهى قولهم هو هذا ، وذلك بعد أن قرر فساد ما عليه الجهمية والأشاعرة في باب الصفات ، فقال : (وهؤلاء [أي الأشاعرة] حقيقة قولهم إثبات صفات بلا ذات ، وإن لم يعتقدوا ذلك ويقصدوه ، ولهذا هم متناقضون ، لكن هم خير من المعتزلة ولهذا إذا حقق قولهم لأهل الفطر السليمة يقول أحدهم : فيكون الله شبحاً ، وشبحه خيال الجسم ، مثل ما يكون من ظله على الأرض ، وذلك هو عرض ، فيعلمون أن من وصف الرب بهذه السلوب، مثل قولهم : لاداخل العالم ولا خارجه ونحوه ، فلا يكون الله على قوله شيئاً قائماً بنفسه ، موجوداً ، بل يكون كالخيال الذي يشبحه الذهن من غيرأن يكون ذلك الخيال قائماً بنفسه ، ولا ريب أن هذا حقيقة قول هؤلاء الذين يزعمون أنهم ينزهون الرب بنفي الجسم وما يتبع ذلك ، ثم إنهم مع هذا النفي إذا نفوا الجسم وملازمه

---

(١) الفتاوى ٦/٧٩-٨٣ .

وقالوا : لا داخل العالم ولا خارجه ، فيعلم أهل العقول أنهم لم يثبتوا شيئاً قائماً بنفسه موجوداً .)[١] .

هذا ما ذهب إليه أهل التأويل والتحريف ، فما بالك بما اعتقده أهل الوهم والتخييل الذين زعموا (أن الأنبياء أخبوا عن الله واليوم الآخر وعن الجنة والنار ؛ بل وعن الملائكة بأمور غير مطابقة للأمر في نفسه ؛ لكنهم خاضوا هم بما يتخيلون به ويتوهمون به أن الله جسم غظيم ، وأن الأبدان تعاد ، وأن لهم نعيماً محسوساً وعقاباً محسوساً ، وإن كان الأمر ليس كذلك في نفس الأمر ؛ لأن من مصلحة الجمهور أن يخاطبوا بما يتوهمون به ويتخيلون أن الأمر هكذا ، وإن كان هذا كذباً فهو كذب لمصلحة الجمهور ، إذ كانت دعوتهم ومصلحتهم لا تمكن إلا بهذا الطريق ..

[ووضعوا لذلك قانوناً قالوا فيه] : الأنبياء قصدوا بهذه الألفاظ ظواهرها ، وقصدوا أن يفهم الجمهور منها هذه الظواهر ، وإن كانت الظاهر في نفس الأمر كذباً وباطلاً ومخالفة للحق . فقصدوا إفهام الجمهور بالكذب والباطل للمصلحة.

ثم من هؤلاء من يقول : النبي كان يعلم الحق ولكن أظهر خلافه للمصلحة . ومنهم من يقول : ما كان يعلم الحق كما يعلمه نظار الفلاسفة وأمثالهم ، وهؤلاء يفضلون الفيلسوف الكامل على النبي ، ويفضلون الولي الكامل الذي له هذا المشهد على النبي ...)[٢]

فأين هؤلاء ومن نحا نحوهم من تحقيق التوحيد ، لا شك أن من كان هذا حاله فإنه من أبعد الناس عن تحقيق التوحيد لحصول هذا المانع العظيم وإن زعم بأنه هو الذي فهم التوحيد وعرف الحق تبارك وتعالى [٣].

وبالجملة فقد تبين مما سبق أن معرفة الله جل وعلا توجب التقرب إليه بما يحبه ، وتعظيمه في النفوس ، واللهج بذكره والاطمئنان إليه ، وهذا لايمكن أن يحصل إلا بأن يوصف بما وصف به نفسه من غير تعطيل أو تمثيل أو تكييف أو تأويل .

---

(١) التسعينية ٢٥٥-٢٥٦ .

(٢) درء تعارض العقل والنقل ٨/١-٩ وانظر ١٩/١-٢٠ .

(٣) انظر درء تعارض العقل والنقل ٢٩/١ .

وأقوال المعطلة في الحقيقة تؤدي إلى عدة أمور كلها تعتبر من القوادح التي تمنع من تحقيق التوحيد ، ومن تلك الأمور التي أوردها شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ:

١- تعطيل الله جل وعلا عن صفات الكمال ، ووصفه بصفات السلوب التي لامعنى لها .

٢- تنحية النصوص الشرعية من الكتاب والسنة والتمسك بالمقدمات العقلية ، والخوض فيها وتقديمها على النقل [١] مما يقسي القلوب ويجلب لها الوحشة والظلمة . وقد ألف شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - في ذلك مؤلفاً عرف بدرء تعارض العقل والنقل رد فيه على هؤلاء . [٢] .

٣- يلزم من قول المعطلة في تقديمهم العقل على النقل أن يكون الرسول لم يبين هذه الصفات ؛ بل سكت عن بيان المراد منها [٣] وهذا من أهم ما يمنع تحقيق التوحيد .

٤- من نتائج التعطيل والتأويل : أن النصوص التي بلغتنا عن الرسول ليس فيها الهدى والبيان وهذا لاشك أنه محادة لله ولرسوله [٤] .

٥- أن هذا المنهج جرّأ الناس على رد النصوص الشرعية إما بتأويل أو تعطيل ، وذلك إذا ما خالفت دلائل العقل اليقينية - زعموا - وهذا مما جعل أهل الباطل من القرامطة والمتفلسفة يتجرأون على المسلمين حين سوغوا لهم التأويل [٥] ، وهذا من أعظم القدح في النصوص الشرعية علماً بأن الإيمان بها وتعظيمها من أهم أسباب تحقيق التوحيد ، وفوات ذلك من أهم موانع تحقيق التوحيد ، بل حصوله.

٦- ان هذا المسلك وهذا المبدأ في القول بتعطيل النصوص أو تأويلها، أدى بأصحابه إما إلى سلوك طريق النظار ، وهو طريق القياس المبني على العقل دون النقل ، مما جعل أصحابه ينتهون إلى الحيرة والشك - والعياذ بالله - كما حدث لكثير

---

(١) انظر درء تعارض العقل والنقل ١٣٥/١، ١٣٧ ، ٣٤٠-٣٤١ .

(٢) انظر درء تعارض العقل والنقل ٢٢/١ ، نقض التأسيس ٢٤٧/١-٢٤٨ .

(٣) انظر درء تعارض العقل والنقل ٢٢/١-٢٥ ، ٢٩٢/٣-٣٢٦ ، ٣٣٥/٥ ، ١٥٥/١٩-٢٠٢ .

(٤) انظر درء تعارض العقل والنقل ٢١١/٥-٢١٤ ، ٢١٨ ، ٣٥٧ - ٣٥٨ .

(٥) انظر المصدر السابق ٢٠١/١-٢٠٨ ، ٣/٥ وما بعدها .

أهل الكلام ، وإما أن ينتهي بهم إلى سلوك طريق الكشف والتصوف ، الذي ينتهي عادة إلى الشطح الذي يؤول إلى الإلحاد والزندقة [١] .

ومما لاشك فيه أن هذا من أعظم القوادح والصوارف التي تصرف صاحبها عن الاجتهاد في معرفة التوحيد والعمل به وتحقيقه ، وقد وقع فيه خلق كثير ، ولهذا أطلقوا مسمى التوحيد على نفي الصفات ، أو على الفناء والشطح الصوفي، كما سبق ذكر ذلك في التمهيد .

والمقصود أن تعطيل صفات رب العالمين بالتأويل أو التحريف أو التشبيه ، وصرفها من مدلولها الشرعي إلى مدلول بدعي يعد من أهم القوادح التي تمنع من تحقيق التوحيد . فكيف بمن زعم أنه لا حقيقة لها ؛ بل هي من قبيل التخييل ؟! .

١٠) الإعراض عن التوحيد

إن الاعراض عن العلم الشرعي المبني على توحيد الله بالعبادة وإفراده بها ، والتوجه إلى المخلوقات واتخاذها آلهة تعبد من دون الله ، وتوليها والدفاع عنها وعن عابديها لهو من أهم موانع تحقيق التوحيد .

والمعرضون عن الشريعة المنزلة ، وعن العبادة لله جل شأنه أصناف عديدة وطوائف شتى ؛ لكن نستطيع القول بأنهم يرجعون إلى طائفتين اثنتين ، كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ــ رحمه الله ــ :

الطائفة الأولى : الذين اتبعوا أهواءهم وشهواتهم وعارضوا به شرع الله ، فاستحلوا ماحرم الله ، اتباعاً لرغباتهم وما تملي به عليهم أنفسهم وعاداتهم وتقاليدهم ، قال تعالى عنهم : ﴿ .. إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾ [٢] . وهؤلاء أكثر أهل الأرض الذين قال الله عنهم محذراً نبيه ﷺ من أن

---

(١) انظر المصدر السابق ٥/٢٤٥-٢٤٦ .

(٢) سورة الزخرف ٤٣ .

يلين لهم : ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾ [١] [٢] . وسيأتي الكلام على هذا مفصلاً بحول الله قريباً [٣]

الطائفة الثانية : طائفة المعرضين عن شرع الله جل وعلا ، الذين اعتاضوا بغيره عنه ، من الذين لما جاءت الرسل ، فرحوا بما عندهم من العلم ظناً أن ماعندهم أفضل وأكمل مما جاءت به الرسل ، وهم الذين قال الله سبحانه وتعالى فيهم : ﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن ﴾[٤] .

ومن هؤلاء طوائف المتكلمين ، الذين اشتغلوا بالكلام وأعرضوا عن الاشتغال بنصوص الشريعة وإعمالها ، فكان ذلك من أعظم الأسباب التي منعت وصولهم إلى مرتبة تحقيق التوحيد ، بل في كثير من الأحيان أدت بهم إلى مناقضة التوحيد .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - في رده على هؤلاء عندما ذموا أهل الحديث واستنقصوهم بعدم معرفتهم لعلم الكلام قال : (وهم كما قال الله تعالى: ﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، وإذا مروا بهم يتغامزون... ﴾[٥] الآيات فإذا تقلدوا عن طواغيتهم أن كل مالم يحصل بهذه الطرق القياسية ليس بعلم ، وقد لايحصل لكثير منهم منها ما يستفيد به الإيمان الواجب ؛ فيكون كافراً زنديقاً منافقاً جاهلاً ضالاً مضلاً ظلوماً كفوراً ، ويكون من أكابر أعداء الرسل ومنافقي الملة ، ومن الذين قال الله فهم : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين ﴾[٦].

وقد يحصل لبعضهم إيمان ونفاق ، ويكون مرتداً ، إما عن أصل الدين أو بعض شرائعة ، إما ردة نفاق وإما ردة كفر ، وهذا كثير غالب لاسيما في الأعصار

---

(١) سورة الأنعام ١١٦ .

(٢) انظر الفتاوى ١٣/٧١-٧٢ .

(٣) في الباب الثالث .

(٤) سورة غافر ٨٣ .

(٥) سورة المطففين ٢٩ وما بعدها .

(٦) سورة الفرقان ٣١ .

والأمصار التي تغلب فيها الجاهلية والكفر والنفاق ، ولهؤلاء من عجائب الجهل والظلم والكذب والكفر والنفاق والضلال ما لايتسع لذكره المقال .)[١].

ومقصود شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - بهذا أولئك الذين خالفوا شرع الله واستحلوا ما حرم الله في أمور ظاهرة جلية يعرف حرمتها كل مسلم ، بل اليهود والنصارى والمشركون يعلمون أن محمداً بعث بها ، ويعلمون كفر من خالفها ، مثل أمره بعبادة الله وحده ، ونهيه عن عبادة أحد سواه ، سواء كان من الملائكة والنبيبن أو من غيرهم ، فإن هذا أظهر شعائر الإسلام ، ومثل معاداة اليهود والنصارى والمشركين ، ومثل تحريم الفواحش والربا والخمر والميسر ونحو ذلك .

ثم تجد كثيراً من رؤسهم يقع في هذه الأنواع ، فكانوا مرتدين وإن كانوا قد يتوبون من ذلك ثم يعودون ، وهذا إنما يرجع إلى مرض في القلب ونفاق ، فتارة يغلب النفاق وأخرى يغلب الإيمان ؛ لكن قل أن يسلموا من نوع من النفاق .

ومنهم من صنّف في دين المشركين والردة عن الإسلام ، كما صنّف الرازي كتابه عبادة الكواكب ، وأقام الأدلة على حسن ذلك ورغّب فيه ، وهذه ردة عن الإسلام باتفاق المسلمين . وإن كان قد يكون عاد إلى الإسلام.

وهذا مما يبن أن من أعرض عن دين التوحيد والإخلاص صار مآله إلى البعد عن دين الله وشرعه ووقع في الضلال والكفر ، فإن جميع ما يأمر به هؤلاء المتكلمون ، جميعه لايكفي من النجاة من عذاب الله ، فضلاً عن أن يكون مُوْصِلاً لنعيم الآخرة ، قال الله تعالى : ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾[٢]وقال تعالى :﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم ﴾[٣]

فأخبر أن المعرضين عما جاءت به الرسل من التوحيد والعلم لما رأو بأس الله وحدوا الله وتركوا الشرك فلم ينفعهم ذلك ، وكذلك أخبر عن فرعون ، وهو كافر

(١) الفتاوى ٥٣/١٨ .

(٢) سورة الأعراف ٣٧ .

(٣) سورة غافر ٣٨ .

بالتوحيد والرسالة : أنه لما أدركه الغرق قال : ﴿ آمنت أنه لاإله إلا الذي آمنت به بنوا إسرائيل﴾ [١] ... [٢]

وقد بين الله جل شأنه في مواضع كثيرة من كتابه أنه إنما بعث الرسل ليعبد ويوحد ، فمن اتبع رسله فاز بالسعادة والنجاة في الدنيا والآخرة، ومن عصاه ضل وهلك ، قال تعالى : ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى قال ربي لما حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ، وكذلك نجزي من أسرف و لم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى﴾[٣].

قال شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - في بيانه لمعنى هذه الآيات : (أخبر أن الذين تركوا اتباع آياته يصيبهم ما ذكر ، فقد تبين أن أصل السعادة والنجاة من العذاب هو توحيد الله بعبادته وحده لاشريك له، والإيمان برسله واليوم الآخرة ، والعمل الصالح ، وهذه الأمور ليست في حكمتهم ، ليس فيها الأمر بعبادة الله وحده لاشريك له ، والنهي عن عبادة المخلوقات ، بل كل شرك في العالم إنما حدث برأي جنسهم ، فهم الآمرون بالشرك والفاعلون له ، ومن لم يأمر بالشرك منهم فلم ينه عنه ، بل يقر هؤلاء وهؤلاء وإن رجح الموحدين ترجيحاً ما ، فقد يرجح غيره المشركين، وقد يعرض عن الأمرين جميعاً .

فتدبر هذا فإنه نافع جداً ، وقد رأيت من مصنفاتهم في عبادة الكواكب والملائكة وعبادة الأنفس المفارقة أنفس الأنبياء وغيرهم ما هو أصل الشرك ، وهم إذا ادعو التوحيد فإنما توحيدهم بالقول لا بالعبادة والعمل ...) [٤]

جزاء من أعرض عن التوحيد :

وهؤلاء الذين استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير ، سواء كان من الذين اعتاضوا عن شرع الله وتوحيده بعلم الكلام والفلسفة ، ومن نحا نحوهم . من القرامطة وغلاة المتصوفة ونحوهم .

---

(١) سورة يونس ٩٠ .

(٢) انظر الفتاوى ١٨/٥٤-٥٥ .

(٣) سورة الأنبياء ١٢٤-١٢٧ .

(٤) الفتاوى ١٨/٥٧ .

أو كان من الذين نسوا الله فنسيهم ، الذي أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فضلوا عن سواء السبيل ، فهؤلاء جميعاً يعاقبهم الله من جنس فعلهم ، فيسلط عليهم الشياطين تؤزهم أزاً . قال تعالى : ﴿ ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرن تؤزهم أزاً ﴾[١].

و(قال تعالى : ﴿.. وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لايقصرون ..﴾[٢] فإخوان الشياطين تمدهم الشياطين في غيهم ، ﴿ ثم لايقصرون ﴾ لاتقصر الشياطين عن المدد والإمداد ، ولا الإنس عن الغي . فلا يبصرون مع ذلك الغي ماهو معلوم لهم ، مستقر في فطرهم ، لكنهم ينسونه ..)[٣]

(وهذا النسيان – نسيان الإنسان لنفسه ولما في نفسه – حصل بنسيانه لربه ولما أنزله ، قال تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون﴾ [٤] وقال تعالى في حق المنافقين : ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾[٥] وقال : ﴿كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾[٦] ... وهذا يدل على أن نسيان الرب موجب لنسيان النفس...

وأهل البدع من الجهمية ونحوهم – لما أعرضوا عن ذكر الله – الذكر المشروع الذي كان في الفطرة وجاءت به الشريعة ، الذي يتضمن معرفته ومحبته وتوحيده – نسوا الله من هذا الوجه ، فأنساهم أنفسهم من هذا الوجه ، فنسوا ما كان في أنفسهم من العلم الفطري والمحبة الفطرية والتوحيد الفطري ..)[٧]

ولهذا فكل من توجه إلى غير الله جل وعلا وعبد غيره ورغب عن شرعه ، فإنه ينزل عليه شيطاناً يخاطبه ويحدثه ببعض الأمور ، كما يحصل لعباد الكواكب الذين يسمون ذلك روحانية الكواكب ، وهو شيطان ، وكذلك عُبَّاد الأصنام والذين يستغيثون بالأموات ويدعونهم ، فيسمعون أصواتاً تجيبهم وتخاطبهم يظنونها كرامات وهي شياطين ، وقد يتمثل له بصورة ولي أو يتمثل له بصورة يظن أنه رأى النبي

---

(١) سورة مريم ٨٣ .

(٢) سورة الأعراف ٢٠٢ .

(٣) الفتاوى ٣٤٨/١٦ .

(٤) سورة الحشر ١٩ .

(٥) سورة التوبة ٦٧ .

(٦) سورة طه ١٢٦ .

(٧) الفتاوى ٣٤٧/١٦-٣٥٠ مختصراً .

فيفرح بذلك ويظن أنها كرامات ، وهذا أمر معروف ومشاهد ، سببه الإعراض عن التوحيد والاعراض عن تعلمه وتطبيقه .[١]

وقد تستمتع الشياطين من الإنس بالعبادة ، كما قد يستمتع العُبَّاد من الشياطين بأن يخدمونهم في أغراض يريدونها ، كإخبارهم بالمغيبات وتدليسهم على الجهال من الناس ونحو ذلك . قال الله تعالى : ﴿ويوم نحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس ، وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا ، قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم﴾[٢].

قال ابن تيمة - رحمه الله - : (قال غير واحد من السلف أي كثير من أغويتموهم من الإنس وأضللتموهم ، قال البغوي : قال بعضهم استمتاع الإنس بالجن ما كانوا يلقون لهم من الأراجيف والسحر والكهانة وتزيينهم لهم الأمور التي يهيؤونها ويسهلون سبيلها عليهم ، واستمتاع الجن بالإنس طاعة الإنس لهم فيما يزينون لهم من الضلالة والمعاصي ....) [٣] .

وهذا جزاء كل من أعرض عن الامتثال لأمر الله بإفراده بالتوحيد والخلوص له من الشرك . وهذا من أعظم ما يسبب الشقاء والتعاسة في الدنيا قبل الآخرة ، وكيف يرجى لمثل هؤلاء أن يحققوا التوحيد .

(وإذا كانت سعادة الأولين والاخرين هي اتباع المرسلين فمن المعلوم أن أحق الناس بذلك أعلمهم بآثار المرسلين وأتبعهم لذلك ، فالعالمون بأقوالهم وأفعالهم المتبعون لها هم أهل السعادة في كل زمان ومكان ، وهم الطائفة الناجية من أهل كل ملة ، وهم أهل السنة والحديث من هذه الأمة...) [٤] .



(١) انظر الفتاوى ١١/٢٩٢-٢٩٣ . ١٣/٧٥-٨٤ .

(٢) سورة الأنعام ١٢٨ .

(٣) الفتاوى ١٣/٨٠ .

(٤) الفتاوى ١٨/٦١ .

القسم الثاني قوادح في تحقيق كمال التوحيد المندوب :

يتفاوت الناس في تحقيقهم لكمال التوحيد المندوب في النوع وفي العين ، ففي نوع العمل قد يحقق شخص كمال التوحيد المندوب في عمل دون عمل ، فيكون قصَّر في تحقيق التوحيد من هذا الوجه الذي يعتبر في حقه مانعاً له من الوصول إلى تحقيق كماله المندوب من ذلك الوجه ، دون الآخر .

كما يتفاوتون في عين العمل ، فقد يكون أحدهم أكمل تحقيقاً للعمل من الآخر ، وهذا ظاهر ومشاهد في جميع الأعمال ، فإنه تختلف باختلاف العامل ؛ بحسب ما قام بقلبه من اليقين والخشية والتقى ونحو ذلك . فمثلاً قد يصلي شخصان صلاة واحدة يكون بينهما بوناً شاسعاً في الإتيان بها على وجهها ؛ مع كونهما أتيا بأفعال متماثلة في الظاهر ، وقد جاءت بهذا النصوص ، كما قد يقرأ شخصان القرآن أو يذكران الله فيقع في قلب أحدهما ما لا يقع في قلب الآخر من المحبة والخشية والتقى ونحو ذلك . وعلى هذا فقس .

وهذا الأمر يندرج في جميع ما سيُذكر من قوادح في هذا القسم ؛ لكن مما ينبغي التنبيه عليه أن موانع هذا القسم عديدة يصعب حصرها ، ولذا فسأذكر بعض الأمثلة ليتضح بها المراد .

إن من أهم ما يقدح في تحقيق التوحيد المندوب أمور منها :

أولاً : الذنوب والمعاصي :

لقد سبقت الإشارة في كيفية تحقيق التوحيد إلى أن البعد عن المعاصي، والمبادرة إلى التوبة ، مما يعين على تحقيق التوحيد .

وفي هذا المبحث يحسن بيان كيف كانت المعاصي مانعة من تحقيق كمال التوحيد المندوب ، سواء كانت صغائر أو كبائر كل ذنب بحسبه ، فإن كان كبيرة دون الشرك فإنه سيؤثر على التوحيد سلباً ، وإن كانت المعصية أقل من ذلك ، فأيضاً لابد أن تؤثر في كمال تحقيق التوحيد بحسبها قبحاً وذماً ، وفعلاً .

وحيث أن الكلام على أنواع المعاصي وأحوالها ونحو ذلك ليس مقصوداً هنا ، إذ أن المقصود بيان تأثير المعاصي فيما دون الشرك على تحقيق كمال التوحيد المندوب .

فقد بين شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - أن للمعاصي تأثيراً واضحاً بَيِّناً على العبد سواء كان على بدنه ، أو على قلبه ، أو على أهله وذويه ، أو على أمته قاطبة ، وهذا مما يعلم بالضرورة ، فإن مامن مصيبة وقعت في الأرض إلا بمعصية ، ولا رفعت إلا بتوبة كما تضافرت النصوص بذلك ، قال تعالى : ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير.﴾[1] ، وقال سبحانه : ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾[2] .

فالحسنة تجر إلى الحسنة وتجلب الخير للعباد ، قال الله تعالى : ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾[3]

كما أن السيئة تجر إلى سيئة أخرى (فإن الجزاء أبداً من جنس العمل، كما قال ﷺ : ((الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء .))[4]

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :((من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له

---

(١) سورة الشورى ٣٠ .

(٢) سورة الروم آية ٤١ .

(٣) سورة الأعراف ٩٦ .

(٤) رواه الترمذي في البر والصلة (١٩٢٤) وقال حديث حسن ، وأبو داود في كتاب الأدب (ح٤٩٤١)، وابن ماجه في المقدمة (ح٢٢٥) .

به طريقا إلى الجنة..))[1] وقال: ﷺ ((من سئل عن علم علمه ثم كتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار .)) [2] .

وقال تعالى: ﴿ وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم ﴾[3]، وقال: ﴿ إن تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفواً قديراً﴾ [4] وأمثال هذا كثير في الكتاب والسنة .

ولهذا أيضاً يُجْزى الرجل في الدنيا على مافعله من الهدى بما يُفْتَحُ عليه من هدى آخر ، ولهذا قيل: من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم، وقد قال تعالى: ﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً﴾ [5] ... وقال: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ، ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم ﴾[6] ...

ومن هذا الباب قوله: ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾[7] وقوله: ﴿ إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ﴾[8] ...[9]

وبإزاء ذلك فإن الضلال والمعاصي تكون بسبب الذنوب المتقدمة كما قال الله: ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾[10] وقال: ﴿ وقالوا قلوبنا

---

(١) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء (ح ٢٦٩٩) والترمذي في الحدود (ح١٤٢٤ ، ١٩٣٠) وأبو داود في الأدب (ح٤٩٤٦) وابن ماجه في المقدمة (ح٢٢٥) والدارمي في المقدمة (ح٣٤٤) .

(٢) رواه الترمذي في العلم (ح٢٦٤٩) وقال حديث حسن . وابن ماجه في المقدمة (ح٢٦١) .

(٣) سورة النور ٢٢ .

(٤) سورة النساء ١٤٩ .

(٥) سورة النساء ٦٦ .

(٦) سورة الحديد ٢٨ .

(٧) سورة محمد ﷺ ١٧ .

(٨) سورة الكهف١٣ .

(٩) فكانت الحسنات سبباً في زيادة الهدى والإيمان ، كما أنها سبب في حصول حسنات أخرى ، وهذا هو طريق تحقيق كمال التوحيد المندوب .

(١٠) سورة الصف ٥ .

غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون ﴾ [١] وقال : ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية﴾[٢] ... وهذا باب واسع .[٣]

ولهذا قال من قال من السلف : إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، وإن من عقوبة السيئة السيئة بعدها ...) [٤]

فتبين بهذا أن من فعل شيئاً يجزى بمثله ، فإن كانت حسنة فحسنة ، وهذا مما يكمل التوحيد ويقوي تحقيق كماله ، وإن كانت سيئة فسيئة ، وهذا مما يقدح في تحقيق التوحيد ويؤثر فيه ؛ بل قد يمنع من تحقيق كمال التوحيد بالكلية ، فإن من يعمل المعاصي ويصر عليها لا يمكن أن يحقق كمال التوحيد المندوب ؛ بل ولا الواجب ؛ بل إن العبد قد يستمرأ المعصية حتى تصبح عنده ، كما ورد : ﴿كذباب مرَّ على أنفه فقال به هكذا)) [٥] وهذا علامة الهلاك [٦] والعياذ بالله .

فالذنوب إذا تكاثرت كان صاحبها على خطر عظيم ، فقد يطبع الله على قلبه فيكون من الغافلين ، كما قال تعالى : ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، كلا إنهم عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون ﴾ [٧] فتجد القلب مظلماً كظلمة

---

(١) سورة البقرة ٨٨ .

(٢) سورة المائدة ١٣ .

(٣) وبهذا يعلم أن الوقوع في المعصية التي هي دون الشرك يعكر صفو تحقيق كمال التوحيد المندوب ، بل إن الوقوع في المعصية والتساهل بها ، وعدم المبادرة إلى التوبة منها ؛ يجر إلى الوقوع في معصية أخرى ، وهكذا ؛ بل قد يتعدى الأمر ذلك ، فيحرم العبد الطاعة بسبب المعصية ، مما يعكر صفو تحقيقه لكمال التوحيد المندوب ، فإذا ما وقع في معصية تلو معصية فإنه سيمنعه ذلك من كمال تحقيق التوحيد المندوب ، وقد يتعدى ذلك إلى الواجب .

(٤) الفتاوى ١٨/١٧٥-١٧٧ .

(٥) رواه البخاري موقوفاً على ابن مسعود (ح٦٣٠٨) والترمذي كذلك في صفة القيامة والورع (ح٢٤٩٧) ، قال ابن حجر رحمه الله : (وقع في هذه الرواية غير مصرح برفع أحد الحديثين إلى النبي ﷺ [لكون البخاري ـ رحمه الله ـ ساق الحديث بسنده وقال فيه .. حدثنا عبد الله بن مسعود حديثين : أحدهما عن النبي ﷺ والآخر عن نفسه ـ ثم شرع في ذكر هذا الحديث وحديث آخر لم يفصل بينهما ،] قال النووي : قالوا المرفوع ((لله أفرح بتوبة عبده ..إلخ والأول قول ابن مسعود [الذي هو حديثنا] وكذا جزم ابن بطال بأن الأول هو الموقوف والثاني المرفوع وهو كذلك ...) فتح الباري ١١/١٠٥ .

(٦) انظر الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ص ٥١-٥٣ .

(٧) سورة المطففين ١٤ -١٥.

الليل البهيم ، حتى يضعف ضعفاً تقوى معه إرادة المعصية ، وتضعف إرادة التوبة شيئاً فشيئاً إلى أن تنسلخ من قلبه التوبة بالكلية ، والعياذ با لله .

وفي الأثر (عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : ((إذا أذنب العبد نكتت في قلبه نكتة سوداء ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن زاد زيد فيها ، حتى تعلو قلبه ، فذلك الرَّان الذي قال ا لله : ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾[١].

ومنه قوله تعالى : ﴿وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم ا لله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون ﴾[٢]...) [٣]

وإذا وصل العبد إلى هذه المرحلة نسي ربه فأنساه نفسه وخلي بينه وبين الشيطان والعياذ با لله ، وهنالك الهلاك الذي لايرجى معه نجاة ، وقد حذر ا لله أهل الإيمان والتوحيد من ذلك فقال : ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا ا لله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا ا لله إن ا لله خبير بما تعملون ، ولا تكونوا كالذين نسوا ا لله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون﴾ [٤]

وإذا بلغ العبد إلى هذه المرحلة أصبح قلبه بذلك ميتاً لاتؤثر فيه موعظة، ولا يلين لتلاوة آية ، يتخبط في ظلمات الجهل والمعاصي والضلال والعياذ با لله ، ولذلك حذر ا لله سبحانه وتعالى المؤمنين من عدم الاستجابة لأمره ونهيه بقوله : ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن ا لله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون﴾ [٥] .

فعدم الاستجابة لله ولرسوله ﷺ ولو في بعض المندوبات يؤثر على قلب العبد سلباً ، فليس المستجيب بفعل الواجبات والمندوبات مثل من اقتصر على الواجبات

---

(١) رواه الترمذي في تفسير القرآن (ح ٣٣٣٤) وأحمد ٢٩٧/٢ واللفظ له ، وقال أحمد شاكر في تحقيقه للمسند (ح٧٩٣٩) : " إسناده صحيح " ورواه الحاكم ٥١٧/٢ وقال : " هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه " ووافقه الذهبي .

(٢) سورة البقرة ٨٨.

(٣) الفتاوى ٣٤٧/١٦ .

(٤) سورة الحشر آية ١٨ .

(٥) سورة الأنفال آية ٢٤ .

فقـط ، وإن كـان مـن أهـل تحقيـق التوحيـد إلا أنـه لا يصـل إلى كمالـه المنـدوب ، ولهـذا كـان اقتفـاء سـنة رسـول الله ﷺ سـبب لنـور الإيمـان والطاعـة الـذي يقذفـه الله في قلـب العبـد ، كمـا قـال سـبحانه : ﴿يـا أيهـا الذيـن آمنـوا اتقـوا الله وآمنـوا برسـوله يؤتكـم كفيلين مـن رحمتـه ويجعـل لكـم نـوراً تمشـون بـه ..﴾ (١) .

وقـد وعظنـا الله وحذرنـا مـن حـال أهـل الضـلال الذيـن انغمسـوا في المعـاصي والآثـام ، وبـين خطـر المعـاصي علـى القلـوب ، ممـا يدعـو العبـد إلى عـدم التهـاون بصغرهـا ؛ لأنها تجر إلى ما هـو أكـبر منهـا ، فذكـر الله ـ جـل وعـلا ـ أن الأعمـال السـيئة تجعـل العبـد مثـل البهيمـة يسـمع ويبصـر لكنـه لايعقـل ، لكـون تلـك الآثـام والخطايـا قـد حـالت بينـه وبـين سمـاع القـرآن وسمـاع الهـدى سمـاع تذكـر واتعـاظ ، (قـال الله تعـالى : ﴿ ومثـل الذيـن كفـروا كمثـل الـذي ينعـق بمـا لايسـمع إلا دعـاءً ونـداء صـم بكـم عمـي فهـم لايعقلـون﴾(٢). وقـال تعـالى : ﴿ومنهـم مـن يسـتمعون إليـك أفـأنت تسـمع الصـم ولـو كـانوا لايعقلـون ، ومنهـم مـن ينظـر إليـك أفـأنت تهـدي العمـي ولـو كـانوا لايبصـرون﴾(٣) وقـال تعـالى : ﴿ومنهـم مـن يسـتمع إليـك وجعلنـا علـى قلوبهـم أكنـة أن يفقهـوه وفي آذانهـم وقـراً ، وإن يـروا كـل آيـة لايؤمنـوا بهـا حتـى إذا جـاؤوك يجـادلونك يقـول الذيـن كفـروا إن هـذا إلا أسـاطير الأولـين﴾(٤) الآيـات .

فأخـبر أنهـم لايفقهـون بقلوبهـم ، ولا يسـمعون بـآذانهـم ، ولا يؤمنـون بمـا رأوه مـن [الآيات] ، كمـا أخـبر عنهـم حيـث قـالوا :﴿قلوبنـا في أكنـة ممـا تدعونـا إليـه وفي آذاننـا وقـر ومـن بيننـا وبينـك حجـاب﴾(٥) فذكـروا الموانـع علـى القلـوب والسـمع والأبصـار وأبدانهـم حيـة تسـمع الأصـوات وتـرى الأشـخاص ، لكـن حيـاة البـدن بـدون حيـاة القلـب مـن جنـس حياة البهـائم لهـا سمـع وبصـر وهـي تـأكل وتشـرب وتنكـح ...

(١) سـورة الحديـد آيـة ٢٨ .

(٢) سـورة البقـرة آيـة ١٧١ .

(٣) سـورة يونـس آيـة ٤٢ .

(٤) سـورة الأنعـام آيـة ٢٥ .

(٥) سـورة فصلـت آيـة ٥ .

وقال تعالى : ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ، ولهم آذان لايسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل﴾[١] ...) [٢]

وقد ذكر شيخ الإسلام ـ رحمه ا لله ـ أن طائفة من المفسرين قالوا بأن هذه الآيات وما أشبهها في حق الكافرين ، فيبقى من يسمع يظن أنه ليس لمن يظهر الإسلام في هذا الذم والوعيد نصيب ، بل يذهب وهمه إلى من كان مظهراً للشرك أو الكفر ، ومن ثم لاينتفع بهذه الآيات التي أنزلها ا لله ليهتدى بها .

وفي الحقيقة أنها تشمل المظهرين للإسلام أيضاً ، فإن منهم المؤمن والمنافق ، والمنافقون في الدرك الأسفل من النار .

هذا بالإضافة إلى أن العبد قد يكون عنده بعض شعب الكفر أو النفاق ، وإن كان معه إيمان ،كما قال النبي ﷺ في الحديث : ((أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا ائتمن خان ، وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر))[٣] فأخبر أنه من كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق . وإن كان معه إيمان ، وهذا يُبَيِّنُ أن العبد قد يحقق التوحيد بل قد يحقق كماله المندوب من جهة ، ويخل به من جهة أخرى حيث يجتمع في قلبه الأمران .

وقال ﷺ لأبي ذر : ((إنك امرؤ فيه جاهلية)) [٤] وأبو ذر من أصدق الناس إيماناً .. وقال أيضاً : ((لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه قلنا يا رسول ا لله اليهود والنصارى قال فمن))[٥].[٦]

---

(١) سورة الأعراف ١٧٩ .

(٢) الفتاوى ١٠/ ١٠٣-١٠٤ وانظر أمراض القلوب وشفائها ص ٢٣-٢٤ .

(٣) رواه البخاري في الإيمان (ح٣٤) ومسلم في الإيمان (ح٥٨) والترمذي في الإيمان (ح ٢٦٣٢) والنسائي في الإيمان وشرائعه (ح ٥٠٢٠) .

(٤) رواه البخاري في الإيمان (ح٣٠) ومسلم في الإيمان (١٦٦١) والترمذي في البر والصلة (ح١٩٤٥) وأبو داود في الآداب (ح٥١٥٧) .

(٥) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (ح٣٤٥٦) ومسلم في العلم (ح ٢٦٦٩) .

(٦) انظر الفتاوى ١٠/١٠٥-١٠٦ .

فتبين مما سبق أن الذنوب والمعاصي من أهم موانع تحقيق التوحيد ، لأن اقترافها يؤثر على القلب الذي هو ملك الأعضاء ، فإذا ما طمس على قلب العبد بسبب الإكثار من المعاصي هلك وضل ، فأصبحت تلك المعاصي حائلاً بينه وبين أن يحقق كمال التوحيد المندوب في قلبه ، بل قد يضعف الإيمان من قلبه حتى يصبح مثقال ذرة أو نحوه ، فيؤثر على تحقيق كمال التوحيد الواجب ، وإن كان معه أصل التوحيد . وهذا على خطر عظيم . قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ، وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون﴾[1] ...[2] فكان عمل السيئآت من أعظم موانع حصول كمال التوحيد المندوب .بل قد يتعدى ذلك إلى الواجب .

كما تبين أن الإنسان إذا عمل معصية فقد يجازى بسلب كمال التوحيد المندوب ، وذلك لأن المعصية تجر إلى أخرى إلى أن يكون كمال التوحيد الواجب في خطر عظيم بل قد يتعدى الأمر إلى أن يؤثر في أصل التوحيد ، وهذا لا يحصل لمن انغمس في المعاصي والآثام . ولهذا فإنه يختم لكثير منهم بها ، وقد يختم لهم بالشرك والعياذ بالله ، أو قد يمنع من التلفظ بالشهادتين عند الموت نسأل الله السلامة والعافية.

ثانياً : اتباع الشهوات : (٣)

يختلف اتباع الشهوات بحسب حال العبد ، فقد تكون تلك الشهوة مخلة بتحقيق كمال التوحيد الواجب ، وقد تكون مخلة بتحقيق كمال التوحيد المندوب .

والمقصود هنا بيان هذا القسم الأخير الذي يخل بتحقيق كمال التوحيد المندوب ، في حق من ارتفعت درجتهم ؛ ولكن قصرت درجة تحقيقهم الكامل للتوحيد في بعض الجوانب بسبب ميلهم الخفي إلى بعض الشهوات .

---

(١) سورة الزخرف ٣٦ -٣٧ .

(٢) انظر الفتاوى ١٤/٢٩٠ .وانظر ١٤/٢٨٢-٢٨٤

(٣) قد يدخل في المعاصي ؛ لكن لما كان له أهمية بالغة أحببت أن أفرده بالذكر .

ولذا فإنه ينبغي على العبد ترك المحرمات والشهوات ، والقصد في العبادات ، كما ينبغي له أن يلزم السنة التي يحفظ بها نفسه من شر النفس وشهواتها ، والشيطان ونزغاته .

قال الله تعالى : ﴿والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيما ، يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾(١) قال شيخ الاسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – : (قال مجاهد وغيره : يتبعون الشهوات الزنا ، وقال ابن زيد(٢) : هم أهل الباطل ، وقال السدي : هم اليهود والنصارى ، والجميع حق ، فإنهم قد يتبعون الشهوات مع الكفر ، وقد يكون مع الاعتراف بأنها معصية .

ثم ذكر أنه : ﴿خلق الإنسان ضعيفاً﴾ وسياق الكلام يدل على أنه ضعيف عن ترك الشهوات ، فلا بد له من شهوة مباحة يستغني بها عن المحرمة ....) (٣)

وبين ـ رحمه الله ـ أن الإنسان ضعيف عن ترك الشهوة إلا أنه مأمور بالصبر عن جميع المحرمات وإن كانت نفسه وشهوته تدفعه إليها ، قال الله تعالى : ﴿وليستعفف الذين لايجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله ﴾ (٤) ...

والعبد إنما يؤجر على تركه لشهوته التي تدفعه إليها نفسه ، كما في قوله ﷺ : ((كل عمل ابن آدم يضاعف .. قال الله عز وجل إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به يدع شهوته وطعامه من أجلي ...))(٥) أي يترك شهوته ، وهو إنما يترك ما يشتهيه كما يترك الطعام ، لا أنه يدع طعامه بترك الشهوة الموجودة في نفسه(٦).

والصبر عن المحرمات التي تشتهيها النفس وتدعوا إليها من الأمور التي تعين على تحقيق كمال التوحيد ، كما أن الانغماس في الشهوات وعدم الصبر عنها من موانع

---

(١) سورة النساء ٢٧-٢٨ .

(٢) هو : عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العُمري المدني ، توفي سنة ١٨٢ ، انظر السير ٣٤٩/٨ .

(٣) الفتاوى ٥٧٢/١٠ .

(٤) سورة النساء ٣٥ .

(٥) رواه البخاري في الصوم (ح ١٨٩٤) ومسلم في الصيام (ح ١١٥١) والترمذي في الصوم (ح٧٦٤) والنسائي في الصيام (ح ٢٢١٣) وأبو داود في الصوم (ح ٢٣٦٣) .

(٦) انظر الفتاوى ٥٧٤/١٠ ، ٥٨٦ .

تحقيق التوحيد المندوب بل والواجب ، فإذا ما دعت العبد (نفسه إلى محرمات من رئاسة، وأخذ مال ، أوعلى فاحشة كان صبره عنه أفضل من صبره على ماهو دون ذلك .

فإن في العلم والأمارة والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصلاة والحج والصوم والزكاة من الفتن النفسية وغيرها ماليس في غيرها . ويعرف في ذلك بميل النفس إلى الرئاسة والمال والصور ، فإذا كانت النفس غير قادرة على ذلك لم تطمع فيه ، كما تطمع مع القدرة ، فإنه مع القدرة تطلب تلك الأمور المحرمة ، بخلاف حالها بدون القدرة ، فإن الصبر مع القدرة جهاد ؛ بل هو من أفضل الجهاد ...) [1]

فكف النفس عن مثل هذه الأمور يكون من أهم أسباب تحقيق التوحيد المندوب كما أن فعلها أو فعل شيء منها يؤثر على كمال التوحيد المندوب ، بل على تحقيق كمال التوحيد الواجب .

العلاقة بين اتباع الشهوات واتباع الهوى :

واتباع الشهوات من جنس اتباع الهوى الذي سبق ذكره ،كما قال تعالى : ﴿ إنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾[2]

وقد وضح شيخ الإسلام أن إتباع الهوى هو فعل ما تهواه النفس وتطلبه ، بل وتأمر به ، فإن أمر النفس ونهيها هو الهوى النابع عن الشهوة ، (قال تعالى :﴿إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم ﴾[3] ... فاتباع الشهوات واتباع الأهواء هو اتباع شهوة النفس وهواها ، وذلك بفعل ما تشتهيه وتهواه .

بل قد يقال : هذا هو الذي يتعين في لفظ اتباع الشهوات والأهواء ؛ لأن الذي يشتهي ويهوى إنما يصير موجوداً بعد أن يشتهي ويهوى ، وإنما يذم الإنسان إذا فعل ما يشتهي ويهوى عند وجوده ...

وحقيقة الأمر أنهما متلازمان فمن اتبع نفس شهوته القائمة بنفسه اتبع ما يشتهيه ، وكذلك من اتبع الهوى القائم بنفسه اتبع ما يهواه ، فإن ذلك من آثار الإرادة ، واتباع الإرادة هو امتثال أمرها ، وفعل ما تطلبه ، كالمأمور الذي يتبع أمر أميره ، ولا بد أن يتصور

---

(١) الفتاوى ٥٧٦/١٠ .

(٢) سورة القصص ٥٠ .

(٣) سورة يوسف ٥٣ .

مراده الذي يهواه ويشتهيه في نفسه ويتخيله قبل فعله ، فيبقى ذلك المثال كالإمام مع المأموم ، يتبعه حيث كان ، وفعله في الظاهر تبع لاتباع الباطن ، فتبقى في صورة المراد المطلوب المشتهى التي في النفس هي المحركة للإنسان الآمرة له ...

ولهذا يبقى الإنسان عند شهوته وهواه أسيراً لذلك مقهوراً تحت سلطان الهوى [والشهوة] أعظم من قهر كل قاهر ...) [(١)]

إلا أن تأثير الشهوة على العبد تتفاوت كل شهوة بحسبها ، فإذا كان يعالج شهوته ، ويدافع هواه ؛ إلا أنه مع ذلك كله وقع في شيء منها فإن ذلك يؤثر على تحقيق كمال التوحيد المندوب ، أما إذا فتح لشهوته الباب فإنه لا شك يؤثر على كمال تحقيق التوحيد المندوب ، وقد يتعدى ذلك إلى الواجب بل قد يصل التأثير إلى أصل التوحيد ، وذلك إذا انغمس في شهوته وملذاته انغماساً لا يرجى معه خير .

وقد قسم شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ أهل الشهوات إلى قسمين :

أحدهما : أهل البدع المتبعين لشهواتهم وملذاتهم . وهؤلاء أعظم الأصناف من غيرهم

الثاني : أهل الفجور وهم المترفون المنعمون أوقعهم في الفجور ما هم فيه .

فأما القسم الأول : فهم المترهبنون الذي أوقعتهم رهبنتهم بالبدع ﴿فاستمتعوا بخلاقهم﴾ [(٢)] وخاضوا كما خاض الذين من قبلهم ، فإنهم التزموا ما لم يأمر الله به زعماً منهم أنه مجاهدة للنفس وقهر لهواها .

ولا ريب أن مجاهدة النفس مأمور بها ، وكذلك قهر الهوى والشهوة ، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : ((المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله ، والكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني))[(٣)]...[(٤)].

---

(١) الفتاوى ١٠/٥٨٥-٥٨٧ . وانظر ١٠/٥٩٨ .

(٢) سورة التوبة ٦٩ .

(٣) أما قوله " المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله " فقد رواه الترمذي في فضائل الجهاد (ح ١٦٢١) عن فضالة ، دون قوله " في ذات الله " وقال : في الباب عن عقبة بن عامر وجابر ، وحديث فضالة حديث = = حسن صحيح ، ورواه أحمد في المسند (٦/٢٠) ولفظه : " المجاهد من جاهد نفسه لله أو قال في الله عز وجل ". وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/٢٦٨ وقال رواه البزار والطبراني في الكبير باختصار ورجال البزار ثقات . وفي تاريخ جرجان ص ٢٠١ من اسمه حماد مختصراً .

وأما قوله : "والكيس من دان ..." فقد رواه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (ح٢٤٥٩) وقال : هذا حديث حسن . ورواه ابن ماجة في الزهد (ح٤٢٦٠) وأحمد (٤/١٢٤) دون قوله : " الأماني " عند الجميع .

وهؤلاء (قد يزهدون في النكاح ، وفضول الطعام ، والمال ونحو ذلك ، وهذا محمود ، لكن عامة هؤلاء لابد أن يقعوا في ذنوب من هذا الجنس كما نجد كثيراً منهم يبتلى بصحبة الأحداث ، وإرفاق النساء ، فيبتلون بالميل إلى الصورة المحرمة من النساء والصبيان مالا يبتلى به أهل السنة المتبعون للشريعة المحمدية .

وحكاياتهم أكثر من أن يحكى بسطها في كتاب ، وعندهم من الفواحش الباطنة والظاهرة مالا يوجد عند غيرهم ، وخيار من فيهم يميل إلى الأحداث والغناء والسماع ، لما يجدون في ذلك من راحة النفس ، ولو اتبعوا السنة لاستراحوا من ذلك ...

[وقل منهم من ينجوا من ذلك ؛ حتى إنه لقوة محبتهم له صار ممتزجاً بعبادتهم لربهم] فإن أحدهم يجد في نفسه عند مشاهدة الشاهد والصورة المحرمة من الرغبة فيما اعتاده من العبادة والزهادة ما لايجدها بدون ذلك ، وعنده في نفسه ــ عند سماع القصائد ــ من الشوق والرغبة والنشاط مالا يجده عند سماع القرآن ، فصاروا في شبهة وشهوة لم يكتف الشيطان منهم بوقوعهم في الأمور المحرمة التي تفتنهم حتى جعلهم يعتبرون ذلك عبادة ، كالذي قال الله فيهم : ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها﴾ (١) . وهؤلاء هم الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات .

وإذا وقعوا في السماع وقعوا فيه بشوق ورغبة قوية ، ومحبة تامة ، وبذلوا فيه أنفسهم ، وأموالهم . فقد يبذلون فيه نسائهم وأبناءهم ، ويدخلون في الدياثة لأغراضهم ، فيأتي أحدهم بولده فيهبه للشيخ يفعل به ما أراد هو ومن يلوذ به ، ويسمونه حواراً ، وإن كان حسن الصورة استأثر به الشيخ دونهم ، ويعد أهل ذلك بركة حصلت له من الشيخ ، ويرتفع الحياء بين أم الصبي وأبيه وبين الفقراء .

---

(٤) انظر الفتاوى ١٤/٤٦٠-٤٦١ .

(١) سورة الأعراف ٢٨ .

وإذا صلوا صلوا صلاة المنافقين ، يقومون إليها وهم كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً . فقد أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، ومع هذا فهم قد يزهدون في بعض الطيبات التي أحلها الله لهم ، ويجتهدون في عبادات وأذكار ؛ لكن مع بدعة وأفعال لاتجوز .. فتلك البدع هي التي أوقعتهم في اتباع الشهوات .وإضاعة الصلوات ...) [١]

فهؤلاء قادتهم شهواتهم إلى ارتكاب الفواحش وتشريع ما لم يشرعه الله ، والزهادة فيما شرعه ، ولا شك أن هذا من أعظم القوادح والموانع التي تمنع من تحقيق أصل التوحيد ، فما بالك بالواجب . أما تحقيق التوحيد المندوب فإن بينهم وبينه أسوار عالية ، إلا أن يتداركهم الله برحمته ولطفه .

ولهذا فقد يظن أحدهم أنه لايمكنه السلوك إلى الله تعالى إلا ببدعته . بل منهم من يقول : إنه لايمكن أداء الصلوت واجتناب الكلام المحرم من الغيبة وغيرها إلا بأكل الحشيشة .

ويقول الآخر : إن أكلها يعينه على استنباط العلوم ، وتصفية الذهن حتي يسميها بعضهم معدن الفكر والذكر ، ومحركة العزم الساكن . وكل هذا من خداع النفس ومكر الشيطان بهؤلاء وغيرهم ... [٢]

وإن هذا العمى لعمى القلوب والأبصار والعياذ بالله تعالى من الضلال . فإن الشهوة تفعل بالعبد إذا انساق لها الأفاعيل ، فتزين له المحرمات ، وتحرم عليه المباحات ، وهذا الفعل من أهم القوادح التي تمنع من تحقيق التوحيد .

القسم الثاني : أهل الفجور المترفين الذين يظن أحدهم أنه لايمكنه فعل الواجبات إلا بما يفعله من الذنوب ، ولايمكنه ترك المحرمات إلا بذلك، وهذا يقع لبشر كثير من الناس .

قال الله تعالى : ﴿ وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾[٣] فالمترفون هم ـ غالباً ـ المتبعين لشهواتهم وملذاتهم ، مقدمينها على مرضاة الله تعالى .

---

(١) الفتاوى ١٤/٤٦٦-٤٦٧ .

(٢) انظر الفتاوى ١٤/٤٦٨-٤٦٩ .

(٣) سورة سبأ ٣٤ .

قال تعالى : ﴿وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾(١) وهؤلاء ممن اتبع الشهوات من المترفين .

وقال الله جل وعلا : ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً ﴾(٢)

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ : (وقد ذم الله جل وعلا الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، وذم الذين يتبعون الشهوات ، والذين يريدون أن يميل أهل الحق والتوحيد عن الهدى ميلاً عظيماً . كما ذم الذين اتّبعوا ما أترفوا فيه ، والذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام .

وأكثر الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات شَرَبَةُ الخمر ، كما قال تعالى : ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾(٣) فجمعوا بين الشهوة المحرمة وترك ذكر الله وإضاعة الصلاة ، وكذلك غيرهم من أهل الشهوات).(٤)

وهؤلاء باتباعهم للشهوات بعدوا كل البعد عن تحقيق التوحيد .

ومن هنا نستطيع القول بأن أهل تحقيق كمال التوحيد المندوب قد نزهوا أنفسهم عن اتباع الشهوات والانجراف وراء الملذات ، فقهروا أنفسهم ، وأطروها على محبة الله ومحبة طاعة ، حتى تروضت على ذلك ، فسهروا الليالي الطوال ، وأتعبوا بذلك الأجساد ، وتركوا لذيذ الطعام والشراب ، فصبروا على الجوع والعطش إحتساباً لله ، وطلباً لرضاه ، وكبحاً لشهواتهم ، وترويضاً لأنفسهم ، طمعاً بما عند الله ، فنالوا بذلك أرفع الدراجات،وأسمى المقامات ، وأعلى مراتب تحقيق التوحيد ، حتى لم يبق لأحد سوى الله محبة في قلوبهم ، لا لشهوة ، ولا لهوى ، حتى أصبحوا يرون بنور الله، ويمشون بعون الله ، ويبطشون بمدد من الله وتوفيق .

---

(١) سورة النمل ٤٨ .

(٢) سورة مريم ٥٩ .

(٣) سورة المائدة ٩١ .

(٤) انظر الفتاوى ١٤/٤٥٧ .

ثالثاً : التحسر على الواقع والاعتراض على المقدر[١]

إن التحسر على الماضي أو الواقع باستعال (لو) أو غيرها على وجه الحزن والتحسر على الفائت، ولوم القدر ، الذي لا يؤدى بصاحبه إلى السخط - والعياذ بالله - لهو من موانع تحقيق كمال التوحيد المندوب [٢] إذا كان على وجه لايعترض فيه العبد على الأقدار ، وإنما لعارض عنَّ له ، أما إذا كان على وجه الاعتراض على القدر فإنه يقدح في أصل التوحيد الواجب كما تقدم ذكره قريباً .

ولقد سئل شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - عن هذه المسألة فأجاب بقوله : (.. (لو) تستعمل على وجهين :

أحدهما : على وجه الحزن على الماضي والجزع من المقدور ، فهذا هو الذي نهى عنه ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم ﴾ [٣] وهذا هو الذي نهى عنه النبي ﷺ حيث قال : ((وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كان كذا وكذا ؛ ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان)) [٤] أي تفتح عليك الحزن والجزع ، وذلك يضر ولا ينفع ، بل اعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، كما قال تعالى :﴿ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾[٥] قالوا : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم .

وينبغي هنا ملاحظة أن لو لا تكون دائماً في محل الذم ، فإنها تستعمل في بعض الجوانب استعمالاً طيباً ، وهو ما أشار إليه شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ بقوله :

---

(١) وقد عقد شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله تعالى - في كتاب التوحيد باباً قال فيه باب ما جاء في اللو، ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى شروحه التي من أهمها تيسير العزيز الحميد وفتح المجيد وغيرهما .

(٢) انظر حاشة كتاب التوحيد لابن قاسم ٣٥٤ .

(٣) سورة ال عمران ١٥٦ .

(٤) رواه مسلم في القدر (ح٢٦٦٤) وابن ماجه في المقدمة (ح ٧٩ ، وفي الزهد ٤١٦٨) .

(٥) سورة التغابن ١١ .

والوجه الثاني : أن يقال (لو) لبيان علم نافع ، كقوله تعالى : ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ (١) . ولبيان محبة الخير وإرادته ، كقوله : لو أن لي مثل ما لفلان لعملت مثل ما يعمل . ونحوه جائز ... (٢)

رابعاً : البطر وغمط الناس

إن البطر والفخر والتكبر والتسلط والتجبر في الأرض ناتج عن الاعتقادات الفاسدة ، والإرادات الباطلة ، وهذا كله مما يمنع من تحقيق كمال التوحيد .

وكل واحد من الاعتقادات والإرادات مستلزم للآخر ، فإن من تخيل أنه عظيم أراد مايليق بذلك الاختيال ، ومن أراد العلو في الأرض فلا بد أن يتخيل عظمة نفسه وتصغير غيره ، حتى يطلب ذلك ، ففي الإرادة يتخيله مقصوداً ، وفي الاعتقاد يتخيله موجوداً ، ويطلب توابعه من الإرادات . (٣)

(فإذا كان الاختيال وغمط الناس حقوقهم من باب الاعتقادات فإنه يؤدي به ذلك إلى قلب الحقائق ، فيجعل الحق باطلاً والباطل حقاً فيما يتعلق بتعظيم النفس وعلو قدرها ، فيجحد الحق الذي يخالف هواها وعلوها، ويتخيل الباطل الذي يوافق هواها وعلوها ، وقد يجعل الفخر وغمط الناس من باب الإرادات ، فإن الفاخر يريد أن يرفع نفسه ويضع غيره وكذلك غامط الناس .

وقد يكونا جميعاً متعلقين بالاعتقاد والإرادة ؛ لكن الخيلاء وغمط الحق يكون إلى الحق في نفسه ، الذي هو حق الله ، وإن لم يتعلق بحق الآدميين ، والفخر وغمط الناس يعود إلى حق الآدميين .) (٤)

قال شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - : (قول الناس الآدمي جبار ضعيف ، أو فلا ن جبار ضعيف ، فإن ضعفه يعود إلى ضعف قوة من قوة العلم والقدرة . وأما تجبره فإنه يعود إلى اعتقاداته وإراداته ، أما اعتقاداته ، فإنه يتوهم في نفسه أنه أمر عظيم فوق ماهو ولا يكون ذلك، وهذا هو الاختيال والخيلاء

---

(١) سورة الأنبياء ٢٢ .

(٢) الفتاوى ١٨/٣٤٧-٣٤٨ .

(٣) الفتاوى ١٤/٢٢٠ .

(٤) الفتاوى ١٤/٢٢٠-٢٢١ بتصرف .

والمخيلة ، وهو أن يتخيل عن نفسه مالا حقيقة له ، ومما يوجب ذلك مدحه بالباطل نظماً ونثراً وطلبه للمدح الباطل، فإنه يورث هذا الاختيال .

وأما إرادته : فإرادته أن يتعظم ويعظم ، وهو إرادة العلو في الأرض والفخر على الناس ، وهو أن يريد من العلو ما لايصلح له أن يريده ، وهو الرئاسة والسلطان حتى يبلغ به المراد إلى مزاحمة الربوبية كفرعون ومزاحة النبوة ، وهذا موجود في جنس العلماء والعباد والإمراء وغيرهم ...

.. قال الله تعالى : ﴿إن الله لايحب كل مختال فخور ﴾ (١) وقال النبي : ((الكبر بطر الحق وغمط الناس)) (٢) فالفخر يشبه غمط الناس، فإن كلاهما تكبر على الناس ، وأما بطر الحق – وهو جحده ودفعه – فيشبه الاختيال الباطل ، فإنه تخيل أن الحق باطل بجحده ودفعه .

وهذه الصفات تجعل صاحبها في مقام الذم والبعد عن تحقيق التوحيد ؛ ولكن قد تحصل هذه الصفات أو بعضها في حق بعض الناس المكملين للتوحيد في حال غفلات النفس ووسوسة الشيطان ، دون أن تكون ناتجة عن اعتقاد وإرادة جازمة مع مغالبة للنفس وطلب التخلص من تلك الصفات ، مع كونها لم ترسح في نفسة و لم تكن صفة ثابتة لها .

خامساً : ترك السنن الرواتب والنوافل

لقد فرض الله فرائض أوجبها على كل أحد ، فلا تسقط عنه بحال من الأحوال ، وحيث أن العباد يتفاوتون في أداء هذه الفرائض من الإتيان بها على وجهها بأركانها وواجباتها وسننها وغير ذلك ، فقد يؤديها العبد بتمامها وكمالها، ويؤديها الآخر على نقص فيها وخلل، ولذا شرع الله النوافل ، ليزداد العبد من الطاعات التي تقربه من ربه وخالقه ، وليكمل بها ما نقص مما فرضه الله عليه من الفرائض . فقد روى أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : ((إن أول ما يحاسب الناس به يوم القيامة من أعمالهم الصلاة ، يقول ربنا – عز وجل- لملائكته ، وهو أعلم : انظروا في صلاة عبدي ، أتمها أم نقصها ؟ فإن كانت تامة كتبت له تامة ، وإن كان انتقص منها شيئاً

(١) سورة لقمان ١٨ .

(٢)تقدم تخريجه انظر لفهرس الأحاديث حرف الكاف .

قال : انظروا هل لعبدي من تطوع ؟ فإن كان له تطوع قال : أتموه من تطوعه ، ثم تؤخذ الأعمال على ذلك)) [١] وفي لفظ عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله : ((إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله : صلاته ، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح ، وإن فسدت فقد خاب وخسر ، فإن انتقص من فريضته شيئاً قال الرب : انظروا هل لعبدي من تطوع ؟ فكمل به ما انتقص من الفريضة ، ثم يكون سائر أعماله على هذا))[٢]...[٣]

ويتبين من هذه النصوص أن تشريع النوافل من العبادات رحمة من الله تعالى بعباده ، فمن حافظ عليها فإنه يرجى له خير كثير ، ومن تركها فإنه على خطر ؛ لأن تركه يدل على ضعف في إيمانه . ومن ثم يكون أتي بمانع من موانع تحقيق كمال التوحيد المندوب .

ومن المعلوم أن الإتيان بالنوافل لابد وأن يسبقه الإتيان بالفرائض فإن النوافل لاتنفعه بدونها ، فـ (لو قدر أن الرجل تصدق بصدقات عظيمة وجاهد جهاداً عظيماً [وعمل من القربات غير ذلك] ... وهو لم يصلِ ذلك اليوم لم يقم ثواب هذه الأعمال مقام هذه ...) [٤]

فالأعمال تتفاضل حسب الوجوب والاستحباب ، فيقدم الواجب على المندوب ، كما أنها تتفاضل حسب الأهمية وحسب أوقات الوجوب[٥]. فهكذا يعلم الأمر في فضل العبادات (ولهذا وجب التقرب بالفرائض قبل النوافل ، والتقرب بالنوافل إنما يكون تقرباً إذا فعلت الفرائض، لا كما ظنه بعض الاتحادية كصاحب الفتوحات المكية ونحوه من أن قرب الفرائض تكون بعد قرب النوافل ، والنوافل تجعل الحق غطاءه وتلك تجعل الحق عينه، فهذا بناء على أصله الفاسد من الاتحاد ..

---

(١) رواه أبو داود في الصلاة (ح٨٦٤) والنسائي في الصلاة (ح٤٦٦) وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٢) رواه الترمذي في الصلاة (ح ٤١٣) عن أبي هريرة وقال حديث حسن غريب ، ورواه ابن ماجة في اقامة الصلاة والسنة فيها (ح١٤٢٥ ، ١٤٢٦) .

(٣) انظر الفتاوى ٥٣٣/٢٢.

(٤) الفتاوى ١٣٢/١٧.

(٥) انظر الفتاوى ١٣٣/١٧ .

وقد روى أبو هريره ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : ((يقول الله عز وجل من عادي لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وما تقرب إليَّ عبد بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فبي يسمع ، وبي يبصر ، وبي يبطش ، وبي يمشي ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه)) (١) وهؤلاء هم في أعلى درجات تحقيق التوحيد .

فبين في هذا الحديث .. أنه ما تقرب إليه عبده بمثل أداء المفروض ، وأنه لايزال بعد ذلك يتقرب بالنوافل حتى يصير محبوباً لله ، فيسمع به ويبصر به ، ويبطش به ، ويمشي به ...) (٢) فلا يستعمل تلك الأعضاء كلها إلا في ما يريده الله ووفق ما شرعه له .

وآكد هذه النوافل السنن ، وآكد السنن السنن الرواتب التي بعد الصلوت ، وكذلك صلات الوتر .

(أما السنن الرواتب فقد صح عن النبي ﷺ فيها من حديث ابن عمر قوله : ((حفظت عن رسول الله ﷺ عشر ركعات ، ركعتين قبل الظهر ، وركعتين بعدها ، وركعتين بعد المغرب ، وركعتين بعد العشاء ، وركعتين قبل الفجر)) (٣)

وفي الصيحيح أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال : ((من صلى في يوم وليلة اثنتي عشرة ركعة تطوعاً بنى الله له بيتاً في الجنة)) (٤) . وجاء في السنن تفسيره : ((أربعاً قبل

---

(١)تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث

(٢) الفتاوى ١٣٣/١٧-١٣٤ .

(٣) رواه البخاري في الجمعة (ح ١١٨١) والترمذي في الصلاة (ح ٤٣٣) .

(٤) رواه مسلم في صلاة المسافرين (ح٧٢٨) والترمذي في الصلاة (٤١٥) والنسائي في قيام الليل وتطوع النهار (ح١٧٩٥ ، ١٨٠٢)) ، وفي رواية اخرى له " من ثابر على اثنتي عشرة ركعة في اليوم والليلة ... دخل الجنة " في قيام الليل (ح ١٧٩٤) والدارمي في الصلاة (ح ١٤٢٨).

الظهر ، وركعتين بعدها ، وركعتين بعد المغرب ، وركعتين بعد العشاء ، وركعتين قبل الفجر)) [١]

وكان ﷺ يقوم من الليل إحدى عشرة ركعة ، أو ثلاث عشرة ركعة، فكان مجموع صلاة الفريضة والنافلة في اليوم والليلة نحو أربعين ركعة ، كان يوتر صلاة النهار بالمغرب ، ويوتر صلاة الليل بوتر الليل...[٢]

فتبين من هذا أن السنن الرواتب من أفضل الأعمال بعد الفرائض ، فقد كان النبي ﷺ يحافظ عليها أشد المحافظة ، ولم يذكر أنه تركها إلا في السفر ، سوى ركعتي الفجر، فلم يتركها سفراً ولا حضراً ، فدل هذا على أنه لايحافظ عليها إلا المؤمن الذي حقق التوحيد المندوب . ولا يتركها إلا من في قلبه قصور عن كمال تحقيق التوحيد ، ولما سئل شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - عمن لايواظب عليها أجاب بقوله : (من أصر على تركها دل ذلك على قلة دينه ، وردت شهادته في مذهب أحمد والشافعي وغيرهما ..ويلام على تركها ، فلا يُمَكَّن من حكم ولا شهادة ولا فتيا مع اصراره على ترك السنن الراتبة ...) [٣]

(وترك الوتر مثل ترك السنن الراتبة ؛ بل هو أوكد من سنة الظهر والمغرب والعشاء ، بل أفضل من جميع تطوعات النهار كصلاة الضحى ، بل أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل ، وأوكد ذلك الوتر ، وركعتا الفجر، فمن أصر على تركه فإنه ترد شهادته . والله أعلم .) [٤]

فمن أصر على ترك السنن المؤكدة الراتبة والنوافل ، فإن هذا لاشك يؤثر في تحقيقه للتوحيد ، بل قد يصل الأمر إلى الإخلال به حتى يكون على خطر عظيم ، لاسيما إذا جر ذلك الترك إلى ما هو أعظم منه من الإخلال بالفرائض والواجبات ولابد من وقوع ذلك ، وبهذا يعلم كيف كان ترك تلك النوافل من العبادات قادحاً من قوادح تحقيق كمال التوحيد المندوب ، وذلك لأن من قام بقلبه

---

(١) رواه الترمذي في الصلاة (ح٤١٥) والنسائي في قيام الليل وتطوع النهار (ح ١٨٠١) وصححه الألباني في صحيح النسائي .

(٢) الفتاوى ١٢٣/٢٢ وانظر الفتاوى ٢٨١/٢٢ .

(٣) الفتاوى ١٢٧/٢٣، ٢٥٣ .

(٤) الفتاوى ٨٨/٢٣ .بتصرف

تحقيق التوحيد لم يدع باباً من أبواب الخير يقربه إلى الله ﷻ إلا طرقه ؛ لاسيما الصلاة ، وقد قال النبي ﷺ : ((وجعلت قرت عيني في الصلاة))[1] ، وقال : ((أرحنا بالصلاة يابلال))[2] .

والعبد لايمكن أبداً أن يصل إلى كمال تحقيق التوحيد المندوب ؛ ما لم يواظب على الواجبات والمستحبات ويترك المكروهات أيضاً كما فسر بذلك قوله تعالى : ﴿والسابقون السابقون ، أولئك المقربون ﴾ [3] .

ولما كان القيام بهذه الأعمال تامة من أقوى الدلائل على عمق إيمان صاحبها ، وبالتالي على كمال تحقيقه للتوحيد كان نقصها أو عدم الإتيان بها ضد ذلك ، ومانعاً من موانع تحقيق التوحيد بصورته الكاملة . والله تعالى أعلم .



(١) رواه النسائي في عشرة النساء (ح٣٩٣٩ ، ٣٩٤٠) وأحمد ١٢٨/٣ ، ١٩٩ ، ٢٨٥ وحسنه الألباني في المشكاة (٥٢٦١) .

(٢) رواه الإمام أحمد ٣٦٤/٥ ، ٣٧١ . والطبراني في الكبير (٣٤٠/٦) وأورده القارئ في الأسرار المرفوعة (ح١٦) والهيثمي في المجمع (١٤٥/١) .

(٣) سورة الواقعة ١٠-١١ .

المبحث الرابع

بيانه لفضل تحقيق التوحيد والآثار المترتبة على ذلك

بيانه لفضل تحقيق التوحيد والآثار المترتبة عليه

إن فضل تحقيق التوحيد عظيم ، وأثره على أهلة ظاهر ، وقد بين ذلك شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ حيث وضح أن ثمرات وفضائل تحقيق التوحيد على العبد من أعظم ما تنافس فيه المتنافسون ، وتسابق فيه المتسابقون ؛ لكن هذه الثمرات والفضائل لا يدركها إلا أهل الله المخلصون ، الذين صارت حركاتهم وسكناتهم لله ، يراقبون ما يرضي الله في كل صغيرة وكبيرة ، حتى أصبحت جوارحهم لا تتحرك إلا وفق مراد الله ومبحوباته ، فلا ينظر العبد المحقق للتوحيد إلا إلى ما يرضى الله ، ولا يسمع إلا ما يرضي الله ، ولا يقول ولا يتكلم إلا بما يحبه الله ويرضاه ، ولا يمشي ولا يبطش إلا في ذات الله ، سقط من عينه وقلبه تعظيم ما سوى الله ، حتى أصبحت محبوبات الله تفوق محبوبات النفس وهواها وشهوتها فلا يخطر بقلبه سوى ما يرضى الله ، بل لا يلتفت إلا إلى رضى الله .

ومن كانت هذه حاله ، فإنه يكون في نعيم لا يساويه نعمياً من نعيم الدنيا ، حتى قال بعضهم : " لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من نعمة لجالدون عليها بالسيوف " وما ذاك إلا لأن مراداتهم ومحبوباتهم انصهرت في محبوبات الرب ومراداته ، فلا يريد العبد إلا ما يريد الله ، ولا يحب إلا ما يحبه الله ويرضاه ، حتى بلغ العبد بهذا إلى مرتبة الولاية ، فصار من أولياء الله المتقين ، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين أحبهم الله ؛ حتى قال في الحديث القدسي في حقهم: ((من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته))[1] .

---

(١) رواه البخاري في المناقب (ح ٦٥٠٢) . وقد تقدم تخريجه انظر الفهرس حرف الميم .

وهذه الفضائل والثمرات والآثار تتبين وتتضح من أمور أذكر منها ـ مما ذكره شيخ الإسلام أو أشار إليها ـ ما يلي :

الأول : توقف قبول العمل على تحقيقه :

التوحيد هو أصل الدين القويم الذي بوجوده تقبل الأعمال وبعدمه ترد ، إذ أن (من أتى بالتوحيد والإيمان لم يخلد في النار ، ولو فعل ما فعل ، ومن لم يأت بالإيمان والتوحيد كان مخلداً ، ولو كانت ذنوبه من جهة الأفعال قليلة : كالزهاد والعباد من المشركين وأهل الكتاب كعباد مشركي الهند ، وعباد النصارى وغيرهم، فإنهم لايقتلون ولا يزنون ولا يظلمون الناس ، لكن نفس الإيمان والتوحيد الواجب تركوه)[١]

ولذا فأعمالهم لاتقبل ، كما قال تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾[٢]

ولذلك فإن الكافر إذا تاب من كفره فإن إسلامه وإخلاصه لله جل وعلا في العبادة يَجُبُّ ما قبله من الكفر الذي كان عليه (بلا نزاع ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قيل له أنؤآخذ بما عملنا في الجاهلية ؟ فقال : ((من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ، ومن أساء في الاسلام أخذ بالأول والآخر)) .[٣]

وحسن الإسلام أن يلتزم فِعْل ما أمر الله به وتَرْك ما نهى عنه وهذا معنى التوبة العامة، فمن أسلم هذا الإسلام غفرت ذنوبه كلها وقبل عمله ، ولهذا قال

---

(١) الفتاوى ١١/٦٧١ .

(٢) سورة الفرقان ٢٣ .

(٣) رواه البخاري في استتابة المرتدين (ح٦٩٢١) ومسلم في الإيمان (ح ١٢٠) وابن ماجه في الزهد (ح٤٢٤٢) والدارمي في المقدمة (ح ١) .

النبي ﷺ في الحديث الصحيح : ((أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله)) [1] فإن اللام لتعريف العهد ، والاسلام المعهود بينهم كان الاسلام الحسن . وا لله أعلم .)[2]

وبداهة فإن قبول العمل لا بد أن يكون الاتيان به على وفق ما أراده ا لله وبينه في كتابه الكريم أو على لسان نبيه ﷺ ، وهو التوحيد الخالص لوجهه الكريم ، قال تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾[3]

الثاني : حصول الموحد على الأمن المطلق في الدنيا والآخرة

بين شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه ا لله تعالى - أن من كان معه التوحيد والإخلاص لله في العبادة جعل ا لله له الأمن المطلق يوم القيامة والإهتداء المطلق في الدنيا واستدل ـــ رحمه ا لله ـــ بقوله تعالى : ﴿ الذين آمنوا و لم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾[4] وفي الصحيحين لما نزلت هذه الآية شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ وقالوا : أينا لم يظلم نفسه؟ فقال النبي ﷺ : ((إنما هو الشرك ، ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾[5][6]

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٢١) وأحمد في المسند (٢٠٥/٤) ولفظه : أن عمرو بن العاص قال قلت يا رسول ا لله أبايعك على أن تغفر لي ما تقدم من ذنبي فقال رسول ا لله ﷺ : ((إن الإسلام يجب ما كان قبله وإن الهجرة تجب ما كان قبلها)) .

(٢) الفتاوى ٧٠١/١١-٧٠٢ .

(٣) سورة الكهف ١١٠

(٤) سورة الأنعام ٨٢ .

(٥) سورة لقمان ١٣ .

(٦) رواه البخاري في استتابة المرتدين (ح ٦٩٣٧) ومسلم في الإيمان (ح١٢٤) والترمذي في تفسير القرآن (ح٣٠٦٧) وأحمد ٤٠٩/١ ، ٤٣١ وغيرهم .

والذين شق ذلك عليهم ظنوا : أن الظلم المشروط هو ظلم العبد نفسه ، وأنه لايكون الأمن والاهتداء إلا لمن لم يظلم نفسه ، فشق ذلك عليهم فبين النبي ﷺ لهم ما دلهم على أن الشرك ظلم في كتاب الله تعالى ، وحينئذ فلا يحصل الأمن والاهتداء إلا لمن لم يلبس إيمانه بهذا الظلم ، ومن لم يلبس إيمانه به كان من أهل الأمن والاهتداء ، وكان من أهل الاصطفاء في قوله : ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا .. ﴾إلى قوله : ﴿جنات عدن يدخلونها ﴾ ، وهذا لاينفي أن يؤاخذ أحدهم بظلم نفسه إذا لم يتب ، كما قال تعالى : ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ وقال تعالى : ﴿ من يعمل سوءاً يجز به .﴾[١]. أهـ[٢]

ومن سلم من أجناس الظلم الثلاثة - ظلم النفس ، وظلم الغير ، والشرك - (كان له الأمن التام ، والاهتداء التام ، ومن لم يسلم من ظلمه نفسه ، كان له الأمن والاهتداء مطلقاً ، بمعنى أنه لابد أن يدخل الجنة كما وعد بذلك في الآية الأخرى ، وقد هداه إلى الصراط المستقيم الذي تكون عاقبته فيه إلى الجنة ، ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه نفسه ، وليس مراد النبي ﷺ بقوله : ((إنما هو الشرك)) أن من لم يشرك الشرك الأكبر يكون له الأمن التام ، والاهتداء التام ، فإن أحاديثه الكثيرة مع نصوص القرآن تبين أن أهل الكبائر معرضون للخوف ، لم يحصل لهم الأمن التام ولا الاهتداء التام الذي يكونون به مهتدين إلى الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من غير عذاب يحصل لهم ، بل معهم أصل الاهتداء إلى هذا الصراط ، ومعهم أصل نعمة الله عليهم ، ولا بد لهم من دخول الجنة .

وقول النبي ﷺ : ((إنما هو الشرك)) إن أراد به الشرك الأكبر فمقصوده أن من لم يكن من أهله فهو آمن مما وعد به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة وهو مهتد إلى ذلك ، وإن كان مراده جنس الشرك فيقال : ظلم العبد نفسه كبخله لحب المال ببعض الواجب ؛ هو شرك أصغر ، ونحو ذلك فهذا صاحبه قد فاته من الأمن

---

(١) سورة النساء ١٢٣ .

(٢) الفتاوى ٧/٧٩-٨٠ .

والاهتداء بحسبه ، ولهذا كان السلف يدخلون الذنوب في هذا الظلم بهذا الاعتبار.)[1]

فتبين بهذا أن من جاء بكمال التوحيد فإن له الأمن التام يوم القيامة والاهتداء التام في الدنيا ، ومن جاء بالتوحيد الواجب فإن له مطلق الأمن يوم القيامة من عذاب الله ، وله مطلق الاهتداء في الدنيا ، وهذا من أعظم فوائد التوحيد . وبالمقابل فإن من أخل بالتوحيد فإنه لايحصل له الأمن في الآخرة ولا الاهتداء في الدنيا .

ونجد مصداق حصول الأمن في الدنيا ما نراه من الراحة والطمأنينة للموحدين ، والقناعة التامة بما قدره الله له ، ورضاه بما آتاه الله إياه ، وهذا إنما يحصل بتحقيق التوحيد ، ويتخلف بتخلف ذلك .

كما أن من مظاهر الأمن حفظ الله له من نزغات الشياطين ووساوسهم ، وكذلك حصول اليقين والاطمئنان بقضاء الله وقدره ، وأن كلما يجري عليه لا يخرج عن ذلك ، فيرضى بذلك ويطمئن به ، بخلاف غير الموحد ، فإنك تجده عند نزول البلاء قليل الصبر سريع التسخط كثير الشكاية ضيّق الصدر ، كثير الجزع ، وعند النعماء كفوراً بالنعمة منتكراً للمعروف ، وما ذلك إلا لأنه فقد البديل ، وهو توحيد الله والرغبة إليه ، فإن الجزاء من جنس العمل .

أما في الآخرة فيكفينا دلالة على حصول تلك الطمأنينة ما أخبر الله به - عز وجل - في كتابه الكريم ، وما أخبر به المصطفى في النصوص المتقدمة في سنته المطهرة ، وبذا يعيش المؤمن الموحد في سعادة روحية دائمة في الدنيا والآخرة .

الثالث : تطهير أهل التوحيد من الذنوب والخطايا

إن من رحمة الله وفضله على أهل تحقيق التوحيد أنه يطهرهم من ذنوبهم التي يقترفونها بسبب تحقيقهم للتوحيد ، ورضاهم بما يصيبهم من المحن والمصائب في الدنيا صغرت أو كبرت ، كل على حسب ما وقر في قلبه من الإيمان والتوحيد ، (كما قال النبي ﷺ ((ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولاهم ولا حزن ولا غم ولا أذى حتى الشوكة يشاكها

(١) الفتاوى ٧/٨١- ٨٢ .

غم ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه))(١) وفي حديث سعد بن أبي وقاص ، قلت يارسول الله أي الناس أشد بلاءً ؟ قال : ((الأنبياء ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه ، وإن كان في دينه رقة ، خفف عنه ، ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة))(٢)

وقد سأل أبو بكر ﷺ عن قوله تعالى : ﴿ من يعمل سوءاً يجز به ﴾(٣) فقال : يارسول الله وأينا لم يعمل سوءاً ؟ فقال : ((يا أبا بكر ألست تنصب ، ألست تحزن ، ألست تصيبك اللأواء ؟ فذلك ما تجزون به))(٤)

فبين أن المؤمن الذي إذا تاب دخل الجنة ، قد يجزى بسيئاته في الدنيا بالمصائب التي تصيبه كما في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : ((مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الرياح تقومها تارة وتميلها أخرى ، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لاتزال ثابتة على أصلها حتى يكون انجعافها مرة واحدة))(٥) والأحاديث في هذا الباب كثيرة .)(٦)

---

(١) رواه البخاري في كتاب المرضى (ح٥٦٤٢) ومسلم في البر والصلة والآداب (ح ٢٥٧٣) والترمذي في الجنائز (ح٩٦٦) واللفظ للبخاري .

(٢) رواه الترمذي في الزهد (ح ٢٣٩٨) وقال : هذا حديث حسن صحيح ، ورواه ابن ماجه في الفتن (ح٤٠٢٣) والدارمي في الرقائق (ح٢٧٨٣) .

(٣) سورة النساء ١٢٣ .

(٤) رواه الإمام أحمد ١١/١ (ح٦٧) وضعف إسناده أحمد شاكر (ح٦٨-٧١) ، ورواه الحاكم ٧٤/٣-٧٥ وصححه ووافقه الذهبي . ومعنى الحديث صحيح وقد دل عليه ما رواه الترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ((ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة)) وقال : هذا حديث حسن صحيح . ١٧٢/١ .

(٥) رواه البخاري في كتاب المرضى (ح٥٦٤٣) ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار (ح٢٨١٠) والدارمي في الرقاق (ح٢٧٤٩) .

(٦) الفتاوى ٨٠/٨-٨١ بتصرف . وانظر ١٤٧/١٠ ، ٣٦٢/٣٠-٣٦٥ . وانظر أيضاً الأصفهانية ٩٧/٢-٩٩.

وقد بين شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - أن المؤمنين ممتحنون في الدنيا بالمصائب والفتن والبلاء والمحن وتسلط الأعداء ليخلص بذلك إيمانهم فيعلم الله الصادق من الكاذب ، قال سبحانه : ﴿فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ (١) ولتكفر بذلك سيئاتهم ، قال سبحانه : ﴿ذلك بأنهم لايصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطأ يغيض الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح ﴾ (٢) وذلك أن المؤمن يعمل لله فإذا أوذي في الله احتسب أذاه على الله ، وإن بذل مالاً أو سعياً بذله لله فاحتسب أجره على الله فكان سبباً لتكفير سيئآته وغفران ذنوبه ورفعة درجاته في الدنيا قبل الآخرة ، ويذوق بذلك طعم الإيمان ، وقد قال ﷺ : ((ذاق طعم الإيمان من رضي با لله رباً، وبالإسلام دينا وبمحمد نبياً))(٣)ولا يكون ذلك إلا لمن حقق التوحيد لله ، وصدق مع الله في أقواله وأفعاله وجميع شأنه ، وكانت حياته كلها لله.(٤)

كما أن من فضل الله عليهم أنه يوفقهم لفعل الحسنات الماحية للسيئات حتى إذا لقوا الله جل شأنه لم يكن عليهم شيئاً من الذنوب والمعاصي .

بل إن تحقيق التوحيد سبب لمغفرة الذنوب والخطايا فمن لقي الله لايشرك به شيئاً لقيه الله بالمغفرة والرضوان وحط عنه ذنوبه بمشئته وقدرته ورحمته ، فقد جاء في الحديث القدسي قوله ﷺ : ((قال الله تعالى يابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان

(١) سورة العنكبوت ٣ .

(٢) التوبة ١٢٠ .

(٣) رواه الإمام مسلم في الإيمان (ح٣٤) والترمذي في الإيمان (ح٢٦٢٣)

(٤) انظر الفتاوى ٢٩٤/١٨ .

السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي يابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لاتشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة ...))[(١)]

ومن هنا يعلم أن (من جاء مع التوحيد بقراب الأرض ــ وهو ملؤها أو ما يقارب ملؤها ــ خطايا لقيه الله بقرابها مغفرة ؛ لكن مع مشيئة الله ﷻ إن شاء غفر له ، وإن شاء أخذه بذنوبه، ثم كان عاقبته أن لايُخلَّد في النار بل يخرج منها ثم يدخل الجنة .. فإن كَمُلَ توحيد العبد وإخلاصه لله فيه ، وقام بشروطه كلها بقلبه ولسانه وجوارحه ، أو بقلبه ولسانه عند الموت أوجب ذلك مغفرة ما سلف من الذنوب كلها ، ومنعه من دخول النار بالكلية ، فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبه ، أخرجت منه كل ماسوى الله محبة وتعظيماً وإجلالاً ومهابة وخشية ورجاء وتوكلاً ، وحينئذ تُحْرق ذنوبه وخطاياه كلها ولو كانت مثل زبد البحر ، وربما قلبتها حسنات ، فإن التوحيد هو الإكسير الأعظم ، فلو وضع منه ذرة منها على جبال الذنوب والخطايا لقلبها حسنات)[(٢)] وهذا الفضل كله يرجع إلى تحقيق التوحيد .

كما أن من فضائل التوحيد : أنه يدعو إلى حفظ الجوارح من الوقوع في الذنوب ، وذلك حيمنا يوجد فيه رادعاً قوياً من خوفه من الله وعقابه ، ورغبته في جنته وثوابه ، ومحبته لطاعته وبغضه لمعصيته ، ومن كان هذا حاله ، أورثه الله في الدنيا نوراً في قلبه ، وفراسة لا تكاد تخطئ (قال تعالى عن قوم لوط : ﴿ لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾[(٣)] ...

وذكر سبحانه أية النور عقيب آيات غض البصر فقال : ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾[(٤)] ... والله تعالى يجزي العبد على عمله بما هو من جنس عمله ، فمن

---

(١) رواه والترمذي في الدعوات (ح٣٥٤٠) وقال هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . والدارمي في الرقاق (ح٢٧٨٨) وروى مسلم نحوه في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (ح٢٦٨٧) .

(٢) جامع العلوم والحكم ٤١٧/٢ (ح٤٢) وانظر تيسير العزيز الحميد ص ٩٧

(٣) سورة الحجر ٧٢ .

(٤) سورة النور ٣٥ .

غض بصره عما حرم الله عوضه الله عليه من جنسه بما هو خير منه ، فيطلق نور بصيرته ويفتح عليه باب العلم والمعرفة والكشوف ونحو ذلك مما ينال ببصيرة القلب .

ومن كان هذا الحاله وهذه صفته أورثه الله قوة القلب وشجاعته ، فيجعل له سلطان النصرة مع سلطان الحجة ... فإن الله جعل العزة لمن أطاعه ، والذلة لمن عصاه ، قال تعالى : ﴿يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، و لله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنت الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾[٢].

ولهذا كان في كلام الشيوخ : الناس يطلبون العز من أبواب الملوك ولا يجدونه إلا في طاعة الله ...)[٣]

الرابع : أنه يدفع إلى الصبر وشهود القدر

ومن فضل تحقيق التوحيد : ما بينه شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ من أن العبد إذا عرف عظيم فضل الله وثوابه له بسبب ما يصيبه من المصائب والمحن أوجد ذلك في نفسه الصبر على المصائب والبلاء وشهود القدر، بالتسليم والانقياد التام لله وحده كما أنه يوجد فيه كثرة الاستغفار ، ومداومة الذكر لله ﷻ والتوبة ؛ لأن المؤمن مأمور عند المصائب أن يصبر ويسلم ، وعند الذنوب أن يستغفر ويتوب قال تعالى : ﴿ فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك﴾[٤] فأمره بالصبر على المصائب والاستغفار من المعائب ، وقال تعالى : ﴿ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾[٥] قال ابن مسعود : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها

---

(١) سورة المنافقون ٨ .

(٢) سورة ال عمران ١٣٩ .

(٣) الفتاوى ٢١/٢٥٦-٢٥٨ باختصار .

(٤) سورة غافر ٥٥ .

(٥) التغابن ١١ .

من عند الله فيرضى ويسلم[1] . فالمؤمنون إذا أصابتهم مصيبة مثل المرض والفقر والذل صبروا لحكم الله ، وإن كان ذلك بسبب ذنب غيرهم كمن أنفق أبوه ماله في المعاصي فافتقر أولاده فعليهم أن يصبروا لما أصابهم

وقد يرتفع من منزلة الصبر إلى منزلة الرضا بالقضاء فيسلم تسليماً تاماً ، وقد يرتفع من التسليم إلى الشكر على المصاب ؛ لكونه تكفر به الذنوب وترفع به الدرجات عند رب الأرض والسماوات ، وهذه من أعلى منازل المتقين الموحدين الذين تمكن الإيمان والتوحيد والإذعان والإنقياد التام لله رب العالمين من قلوبهم ، فعرفوا الله حق معرفته ، معرفة تمثلت في حياتهم ، وسلوكهم وجميع شئونهم . [2]

كما أن أهل الهدى والرشاد إذا فعلوا حسنة شهدوا إنعام الله عليهم بها وأنه هو الذي أنعم عليهم ووفقهم للعمل بها ، وجعلهم مسلمين وجعلهم يقيمون الصلاة ، وألهمهم التقوى ، وأنه لاحول ولا قوة إلا به فزال عنهم بشهود القدر العجب والمن والأذى ، وإذا فعلوا سيئة استغفروا الله وتابوا إليه منها . ففي صحيح البخاري عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : ((سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربي لاإله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ماستطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علي ، وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لايغفر الذنوب إلا أنت ، من قالها إذا أصبح موقناً بها فمات من ليلته دخل الجنة ...))[3][4] فرتب دخول الجنة على الانقياد التام لله رب العالمين التسليم والاذعان وشهود القدر .

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره عن علقمة ١٢٣/١٤ .

(٢) انظر الفتاوى ٢٥٩/١١-٢٦٠ . والاستقامة ٧٢/٢-٧٥ .

(٣) رواه البخاري في الدعوات (ح٦٣٠٦) والترمذي في الدعوات (ح٣٣٩٣) .

(٤) انظر الفتاوى ٢٦٠/١١ .

قال شيخ الإسلام ــ رحمه الله تعالى ــ : (والمؤمنون يمتحنون ليخلص إيمانهم وتكفر سيئآتهم ، وذلك أن المؤمن يعمل لله ، فإن أوذي احتسب أذاه على الله وصبر ، وإن بذل سعياً أو مالاً بذله لله فاحتسب أجره على الله.) أهـ [١]

كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ أنه قد يبلغ بالعبد المؤمن الذي وصل إلى مرحلة عالية من الايمان وتحقيق التوحيد إلى أن يتلذذ بالألم الذي يجده عند حلول المصائب ولحوق الأذى به ، فيجد في قلبه حلاوة وطعم الإيمان والتوحيد ؛ الذي يحمله بين جنبيه ، فإن للإيمان حلاوة ولذة لايعدلها شيء البتة . وقد قال النبي ﷺ : ((ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار))[٢]

وفي رواية لمسلم : ((ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ رسولاً))[٣] فيترتب على هذا أن يبلغ العبد أعلى مراتب الصبر من جرَّاءِ تمكن الإيمان والتوحيد من قلبه ، فيؤتى الثبات على دين الله ، ويوقن بأن العاقبة للمتقين وأن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، ويعلم أن ما يصيبه إنما هو بذنوبه ، فيصبر ويستغفر ويكثر من ذكر الله والتقرب إليه ، وهذا من أعظم فوائد تحقيق التوحيد ، حيث أنه يرفع العبد حتى يبلغ منازل الصديقين والشهداء والصالحين الذين لاخوف عليهم ولا هم يحزنون [٤]

والصبر له منزلة عظيمة عند الله ــ عز وجل ــ ولهذا جعل جزاءه بغير حساب ، كما قال تعالى : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾[٥] . والمراد بالصبر

---

(١) انظر الفتاوى ١٨/ ٢٩٤ ، ٣٠/٣٦٢-٣٦٥ .

(٢) رواه البخاري في الإيمان (ح١٦) ومسلم في الإيمان (٤٣) والترمذي في الإيمان (ح٢٦٢٤) والنسائي في الإيمان وشرائعه (ح٤٩٨٧) وابن ماجه في الفتن (ح٤٠٣٣) .

(٣) رواه الإمام مسلم في الإيمان (ح٣٤) والترمذي في الإيمان (ح٢٦٢٣)

(٤) انظر الفتاوى ١٨/ ٢٩٥ .

(٥) سورة الزمر ١٠ .

تقبل المصيبة بصبر وثبات ويقين بوعد الله للصابرين من الأجر ، وهذا يحتاج إلى رسوخ التوحيد في النفس واليقين القوي بشهود القدر ، من غير جزع ولا تسخط ، وهذا هو الصبر الجميل ، ومن هنا فإنه قد تحصل المصيبة على شخصين ، على حدٍ سواء ، ويكون بينهما من الفوراق مالا يعلمه إلا الله ، أحدهما يصبر ويحتسب فينال رضا الله والأجر والثواب وراحة النفس ، والآخر يتسخط ويندم فيجلب على نفسه مضرتين ، وقع المصيبة وعدم حصول الثواب ، لفقده العنصر الأساسي للثبات وهو التوحيد .

الخامس : نيل الفلاح وحصول السعادة في الدنيا والآخرة :

إن تحقيق التوحيد سبب لنيل الفلاح والسعادة والراحة في الدنيا قبل الآخرة كما قال النبي ﷺ : ((بدأ الاسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء))[1]، (وطوبى من الطيب ، قال تعالى : ﴿طوبى لهم وحسن مآب ﴾[2] فإنه يكون من جنس السابقين الأولين الذين اتبعوه لما كان غريباً .

قال شيخ الاسلام ــ رحمه الله ــ : (كمال الإنسان وصلاحه وسعادته في أن يعبد الله وحده لا شريك له ، وهذه ملة إبراهيم التي قال الله فيها : ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ﴾[3] وقال : ﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[4] ...

وقال تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابيئن من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[5] فبين اتصاف السعداء من هذه الأصناف الأربعة بالإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح .

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (ح١٤٥) والترمذي في الإيمان (ح٢٦٢٩) وابن ماجه في الفتن (ح٣٩٨٦) .

(٢) سورة الرعد ٢٩ .

(٣) سورة البقرة ١٣١ .

(٤) سورة البقرة ١١٢ .

(٥) سورة البقرة ٦٢ .

يحزنون ﴾[١] فبين اتصاف السعداء من هذه الأصناف الأربعة بالإيمان با الله واليوم الآخر والعمل الصالح .

وقد ذكر في سورة الحج ست ملل فقال : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن ا الله يفصل بينهم يوم القيامة إن ا الله على كل شيء شهيد ﴾[٢] فهنا لما ذكر فصله بينهم يوم القيامة ذكر الملل الست ، وهناك لما ذكر السعداء لم يذكر إلا الملل الأربع ، فإن المجوس والمشركين ليس منهم من آمن با الله واليوم الآخر وعمل صالحاً ، بل كلهم كفار .

والقرآن بين أن السعداء هم الذين اتبعوا الرسل ، ولا يكون الكامل إلا سعيداً ، وأن الأشقياء هم المخالفون للرسل ، فإنما يعذب ا الله في الآخرة من يخالف الرسل ...)[٣] وقد بين سبحانه في كتابه أن الجنة أعدة للسعداء أهل تحقيق التوحيد ، كما بين أن من اتبع الرسل وحقق التوحيد فإنه لايضل ولا يشقى ...[٤]

وهؤلاء هم الذي بلغوا الكمال في تحقيق التوحيد ، وهم أسعد الناس ، أما في الآخرة فهم أعلى الناس درجة بعد الأنبياء عليهم السلام .

وأما في الدنيا فقد قال تعالى : ﴿ يا أيها النبي حسبك ا الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾[٥] أي ا الله حسبك وحسب متبعك . وقال تعالى : ﴿ إن وليي ا الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ﴾[٦] وقال تعالى : ﴿ أليس ا الله بكاف عبده ﴾[٧]. وقال : ﴿ومن يتق ا الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لايحتسب

(١) سورة البقرة ٦٢ .
(٢) سورة الحج ١٧ .
(٣) الصفدية ٢/٢٤٢-٢٤٤ .
(٤) انظر نفس المصدر السابق ٢/٢٤٦ .
(٥) سورة الأنفال آية ٦٤ .
(٦) سورة الأعراف آية ١٩٦ .
(٧) سورة الزمر آية ٣٦ .

ومن يتوكل على ا لله فهو حسبه﴾ [١] فالمسلم المتبع للرسول: ا لله تعالى حسبه وكافيه ، وهو وليه حيث كان ومتى كان .)[٢]

ومن كان ا لله كافيه وحسبه فهو من أسعد الناس على الإطلاق ، وأكملهم فلاحاً ونجاحاً .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه ا لله تعالى - : (ولهذا يوجد المسلمون المتمسكون بالإسلام في بلاد الكفر لهم السعادة كلما كانوا أتم تمسكاً بالإسلام ، فإن دخل عليهم شر كان بذنوبهم حتى إن المشركين وأهل الكتاب إذا رأوا المسلم القائم بالإسلام عظموه وأكرموه وأعفوه من الأعمال التي يستعملون بها المنتسبين إلى ظاهر الإسلام من غير عمل بحقيقته لم يكرم .) [٣]

(واللذة والسرور وطيب الوقت والنعيم الذي لا يمكن التعبير عنه إنما هو في معرفته ا لله سبحانه وتعالى وتوحيده والإيمان به ، وانفتاح الحقائق الإيمانية والمعارف القرآنية ..)[٤]

والمسلم الذي حقق التوحيد يكون همه رضا ا لله فيسعد بطاعته ويرضى بما قدره له ، ويشكره عليه ويصبر على الأذي والبلاء فيه بنفس مطمئنة راضية ؛ لأنها تعلم أن ا لله قَدَّرَهُ وقضاهُ فتستسلم لله ، وتشكره على آلائه ونعمه ، فيحصل لها من اللذة والسعادة مالا يحصى[٥] . والموحد الذي حقق كمال التوحيد يجد اللذة والراحة والسرور في عبادته وحده ؛ لأن العبادة متضمنة لكمال الحب مع كمال الذل ، وهذا حقيقة دين ابراهيم الخليل ــ عليه السلام ــ إمام الحنفاء ، الذي قال ا لله تعالى فيه : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً و لم يك من المشركين ﴾[٦]

---

(١) سورة الطلاق آية ٣ .

(٢) الفتاوى ١٨/٢٩٢-٢٩٣ .

(٣) الفتاوى ١٨/٢٩٣.

(٤) الفتاوى ٢٨/٣١ .

(٥) انظر منهاج السنة النبوية ٣/٢٠٤-٢٠٨ .

(٦) سورة النحل ١٢٠ .

والأمة هو الذي يُؤْتَمّ به ، كما أن القدوة هو الذي يقتدى به ... فنفس عبادة الله وحده ومحبته وتعظيمه هو من أعظم كمال النفس وسعادتها ...)[١]

كما أنه يجد اللذة والراحة في الاستغفار ، والتوبة والإنابة إلى ربه؛ لأنه يعلم أن له رباً رحيماً، وأن كل أحد محتاج إلى ذلك دائماً ، قال الله تعالى : ﴿فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين ، ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ [٢] وقال ﷻ : ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم ، وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لاملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴾ [٣] [٤].

السادس : رؤية الله عزوجل في الآخرة .

كما أن من تمام سعادة أهل تحقيق التوحيد ، فوزهم برؤية المولى - عز وجل - في الآخرة ، فإن من أعظم اللذات التي يتنعمون بها في الآخرة رؤيتهم لربهم جل وعلا . [٥]

قال شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - : (.. اللذة والنعيم التام في حظهم من الخالق سبحانه وتعالى ، كما في الدعاء المأثورة : ﴿اللهم إني أسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة .)) [٦] وفي

---

(١) الصفدية ٢/٢٣٤ .

(٢) سورة البقرة آية ١٩٨ .

(٣) سورة التوبة آية ١١٧-١١٨ .

(٤) انظر الفتاوى ١٠/٢٥٣ فما بعدها .

(٥) انظر الفتاوى ٦/٤٨٥ .

(٦) رواه النسائي في السهو (ح١٣٥٠) .

صحيح مسلم وغيره عن صهيب عن النبي ﷺ قال : ((إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى منادياً أهل الجنة ، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : ماهو ؟ ألم يبيض وجوهنا ، ويدخلنا الجنة ، ويجرنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب فينظرون إليه – سبحانه – فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ـ عز وجل ـ))[1] وهو الزيادة .

فبين النبي ﷺ أنهم مع كمال تنعمهم بما أعطاهم الله في الجنة لم يعطهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ، وإنما يكون أحب إليهم ؛ لأن تنعمهم وتلذذهم به أعظم من التنعم والتلذذ بغيره . فإن اللذة تتبع الشعور بالمحبوب ، فكلما كان الشي أحب إلى الإنسان كان حصوله ألذ له ، وتنعمه به أعظم ...

فلذة النظر إلى وجهه أعلى اللذات ولا تقوم حظوظهم من سائر المخلوقات مقام حظهم منه تعالى .)[2] كما أنهم يرون ربهم في عرصات القيامة فقد جاء في الصحيح : أن ناسا قالوا لرسول الله ﷺ : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : ((هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ؟ قالوا لا يا رسول الله ، قال : هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب قالوا : لا يا رسول الله . قال : فإنكم ترونه كذلك ، يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول من كان يعبد شيئاً فليتبعه فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ويتبع من كان يعبد القمر القمر ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم الله تبارك وتعالى في صورة غير صورته التي يعرفون ، فيقول أنا ربكم فيقولون نعوذ با لله منك ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (ح١٨١) والترمذي في صفة الجنة (ح٢٥٥٢) وابن ماجه في المقدمة (ح١٨٧) ولفظ مسلم : عن صهيب عن النبي ﷺ قال : ((إذا دخل أهل الجنة الجنة قال يقول الله تبارك وتعالى تريدون شيئا أزيدكم ؟ . فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ . ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ . قال : فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل)) حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا يزيد بن هارون عن حماد بن سلمة بهذا الإسناد وزاد ثم تلا هذه الآية ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾

(٢) الفتاوى ٢٦/١-٢٧ .وانظر الاستقامة ٩٧/٢-١٠٠ ، ١٠٧-١٠٩ ، ومنهاج السنة النبوية ٣٨٨/٥ ، ٧٤/٦-٧٧ ، ودرء التعارض ٦٣/٦-٦٥ ، وبيان تلبيس الجهمية ٤١١/٢ وما بعدها ، والصفدية ٢٧١/٢.

عرفناه ، فيأتيهم الله تعالى في صورته التي يعرفون ، فيقول : أنا ربكم فيقولون أنت ربنا فيتبعونه...))[١] الحديث[٢] .

وأهل تحقيق التوحيد يتفاوتون في رؤيتهم لربهم وتلذذهم بذلك ، فإن أهل تحقيق كمال التوحيد المندوب الذين بلغوا منازل عالية في الجنة أكمل هؤلاء نعيماً وأعظمهم ثواباً ، فإن أكملهم نعيماً من يراه في اليوم مرتين ، ثم من هو دونه ممن يراه مرة كل يوم ، ثم من دونه من يراه أقل من ذلك .

فهذا الثواب العظيم ، والنعيم الذي ليس فوقه نعيم ، هوم من ثمرات وفضائل تحقيق التوحيد ، فلا يحصل لغيرهم ، ولذلك لما ذكر الله جل وعلا عقوبة الكافرين خص حجبهم عن ربهم ، مما يدل على أنه من أعظم أنواع العذاب . قال الله تعالى : ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾ [٣] . [٤]

ولذا فإن فضل تحقيق التوحيد يظهر ، جلياً في باب رؤية الله ؛ لأن أن الموحدين المثبتين للرؤية يرون الله تعالى اتماماً لثوابهم ، ولحسن ظنهم به ـ عز وجل ـ ولتحقيقهم التوحيد ، كما أن عدم تحقيق التوحيد هو الذي أدى بكثير من أهل البدع إلى إنكار رؤية الله ـ عز وجل ـ كما هو الحال بالنسة للجهمية المنكرين لرؤية الله في الجنة واعتقادهم أن الجنة ليست إلا التنعم بالمخلوق من أكل وشرب ولباس ونحو ذلك ، ولم يُدْخِلُوا في الجنة نعيماً سوى ذلك ، ولهذا أنكروا الرؤية بناء على ذلك وبناء على إنكارهم لصفات الله جل وعلا .

وكذلك الحال بالنسة لمن وافقهم من أرباب السلوك في كون النعيم في الجنة ليس إلا التنعم بالمخلوق دون ما سوه ، فعدوا النظر إلى وجه الله الكريم نعيماً آخر غير هذا ، فصاروا يطلبون هذا النعيم وسمت هممهم إليه ، حتى ظهرت منهم عبارات فيها

---

(١) راوه البخاري في الأذان (ح٨٠٦) ومسلم في الإيمان (ح١٨٢) والترمذي في صفة الجنة (ح٢٥٥٧).

(٢) انظر الفتاوى ١/١٤٥ ، ٦/٤٠١-٤٥٨ ، ٤٦٧ ، ٨/٣٣٥-٣٣٦ .

(٣) سورة المطففين آية ١٥ .

(٤) انظر الفتاوى ٦/٤٦٦ -٤٦٧ ، ودرء التعارض ٦/٧٣-٧٦ ، وبيان تلبيس الجهمية ٢/٤٠٩ وما بعدها.

فيها سوء أدب وغلط واضح ؛ مع صحة مقصودهم بطلب ما هو أعلى من الأكل والشرب ونحوهما .[١]

السابع : أن النصر مع المؤمنين الموحدين، والاستخلاف حليفهم دائماً :

إن من تمام سعادة أهل تحقيق التوحيد في الدنيا أن يمكنهم الله ـ جل وعلا ـ في الأرض ويؤيدهم بالنصر والتأييد، قال الله تعالى : ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾[٢]

وقال سبحانه : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض ..﴾[٣] الآية

ومع هذا الوعد والقطع الحق من الله جل شأنه بالتمكين في الأرض والاستخلاف فيها، إلا أنه لايتم فيها للمؤمنين خير قط من كل وجه ، فلا بد أن يسبقه البلاء والتمحيص ، إذا لايوجد في الدنيا خير محض ولا شر محض ، فلا بد من الخلط بين الاثنين ، إلا أن الموحدين يترجح لديهم دائماً الخير ، مع مايصبهم من شر وبلاء في ذات الله جل وعلا ، إلا أن الشر الذي يصيبهم يعتبر قليلاً بالنسبة لما يلحقهم من الخير ، كما أنه نسبي لما يلحق غيرهم ممن كفر وأعرض عن ذكر ربه ، و لم يرد إلا الحياة الدنيا .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – : (.. لابد أن يحصل للناس في الدنيا شر و لله على عباده نعم ؛ لكن الشر الذي يصيب المسلم أقل والنعم التي تصل إليه أكثر . فكان المسلمون في أول الإسلام وإن ابتلوا بأذى الكفار والخروج من الديار فالذي حصل للكفار من الهلاك كان أعظم بكثير ، والذي كان يحصل للكفار من عز أو مال كان يحصل للمسلمين أكثر منه من الأجانب .

---

(١) انظر الاستقامة ٢/٩٦-١٠٧ ، وبيان تلبيس الجهمية ١/٣٤٩ وما بعدها .

(٢) سورة الأنبياء آية ١٠٥ .

(٣) سورة النور ٥٥ .

فرسول الله ﷺ - مع ما كان المشركون يسعون في أذاه بكل طريق - كان الله يدفع عنه ويعزه ويمنعه وينصره ، من حيث كان أعز قريشاً ، ما منهم إلا من كان يحصل له من يؤذيه ويهينه من لايمكنه دفعه ، إذ لكل كبير كبير يناظره ويناويه ويعاديه . وهذه حال من لم يتبع الإسلام يخاف بعضهم بعضاً ويرجو بعضهم بعضاً.

وأتباعه الذين هاجروا إلى الحبشة أكرمهم ملك الحبشة وأعزهم غاية الاكرام والعز، والذين هاجروا إلى المدينة فكانوا أكرم وأعز .

والذي كان يحصل لهم من أذى الدنيا كانوا يعوضون عنه عاجلاً من الإيمان وحلاوته ولذته ما يحتملون به ذلك الأذى ، وكان أعداؤهم يحصل لهم من الأذى والشر أضعاف ذلك من غير عوض لا آجلاً ولا عاجلاً ، إذ كانوا معاقبين بذنوبهم.)(١)

قال الله ﷻ : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض ﴾ (٢)

قال شيخ الاسلام : (فهذا الوعد مناسب لكل من اتصف بهذا الوصف، فلما اتصف به الأولون استخلفهم الله كما وعد ، وقد اتصف بعدهم به قوم بحسب إيمانهم وعملهم الصالح ، فمن كان أكمل إيماناً وعملاً صالحاً كان استخلافه المذكور أتم ، فإن كان فيه نقص وخلل كان في تمكينه خلل ونقص ، وذلك أن هذا جزاء هذا العمل ، فمن قام بذلك العمل استحق ذلك الجزاء .

لكن ما بقي قرن مثل القرن الأول ، فلا جرم ما بقي قرن يتمكن تمكن القرن الأول. قال ﷺ : ((خير القرون القرن الذي بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم.))(٣)

---

(١)الفتاوى ١٨/٢٩٣-٢٩٤. وانظر الجواب الصحيح ٤/١٢٩-١٣٧ .

(٢) سورة النور آية ٥٥ .

(٣) رواه البخاري في الشهادات (ح ٢٦٥١٩) ولفظه من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما قال قال النبي ﷺ : ((خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)) قال عمران لا أدري أذكر النبي ﷺ =

ولكن قد يكون هذا لبعض أهل القرن ، كما يحصل هذا لبعض المسلمين في بعض الجهات ، كما هو معروف في كل زمان .)[١]

فتبين بهذا أن أهل تحقيق التوحيد والإيمان في معية الله ﷻ ينصرهم ويؤيدهم ، ويعلي شأنهم، ويرفع ذكرهم في العالمين ، وتكون العاقبة لهم كما قال تعالى : ﴿ إن الأرض لله يورثها من يشاء من عبادة والعاقبة للمتقين ﴾[٢] وقال : ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علواً في الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين ﴾[٣].

فواقع المسلمين بعد مبعث النبوة يشهد باستخلاف الله للمؤمنين وتمكينهم في الأرض ، فقد جاء الإسلام والناس في ضلالة عمياء ، قد أطبق أهل الأرض على الكفر ، فقام ﷺ بالدعوة إلى الله وحده ، ثم قيض الله من ينصره ، حتى علا الإسلام وانتشر وقوي في الأرض ، في حياته ﷺ وبعد مماته ، حيث مكن الله خلفاءه من مواصلة الفتوحات التي بلغت مشارق الأرض ومغاربها . [٤] .

ولا يزال المسلمون ممكنين في الأرض على حسب قربهم وبعدهم ونصرتهم لدين الله - عز وجل - .

الثامن: الثبات على الحق في المحيا والممات

إن من فضل تحقيق التوحيد وأهميته ما يجده المسلم المؤمن الموحد في قلبه من قوة في إيمان ، ويقين بوعد الله ، وما يشعر به من حب لدينه وعقيدته فيستميت من أجلها ويثبت عليها وإن خالفه من خالفه حتى يأتيه اليقين وهو على ذلك ثابت

= بعده قرنين أو ثلاثة قال النبي ﷺ : ((إن بعدكم قوما يخونون ولا يؤتمنون ، ويشهدون ولا يستشهدون، وينذرون ولا يفون ، ويظهر فيهم السمن)) ورواه بغير هذا اللفظ ، ومسلم في فضائل الصحابة (ح٢٥٣٣) والترمذي في المناقب (ح٣٨٥٩) وابن ماجه في الأحكام (ح٢٣٦٢) وغيرهم .

(١) الفتاوى ١٨/ ٣٠٢-٣٠٣ .

(٢) سورة الأعراف ١٢٨ .

(٣) سورة القصص آية ٨٣ .

(٤) انظر الصفدية ٢٣٨/٢ .

لايتضعضع ، وهذا من أعظم ثمرات وفضائل تحقيق التوحيد والإخلاص ؛ حين يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، فلا يغتم بقلة من يعرف حقيقة الاسلام ، لا يضيق صدره بذلك ، ولا يكون في شك من دين الله ؛ مهما كثر المخالفون ، ومهما كثرت شبهاتهم ، واشتدت شوكتهم ، وعظم تكالبهم على المؤمنين ؛ بل يذب عن دين الله تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، الذين عقدوا ألوية البدعة وأطلقوا عنان الفتنة ، فأهل التوحيد في يقين تام بوعد الله للمؤمنين بالنصر والتمكين في الأرض ، والفوز بجنان الخلد في الآخرة ، قال سبحانه وتعالى : ﴿..والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين ۞ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لامبدل لكلماته وهو السميع العليم ۞ وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾[1] [2].

فالمؤمن الذي حقق التوحيد هو الذي آمن بالكتاب ،كله إيماناً لايخالطه شك أو ريب يدفعه هذا الإيمان على الثبات على دينه مهما كلفه ذلك من عناء وتعب ، ومهما اعترته الفتن، فهو ثابت على دين الله القويم ثبوت الجبال الرواسي ، يستعذب العذاب لما يجده من حلاوة الإيمان ، كما كان المسلمون الأوائل من سلف هذه الأمة يعذبون في الله فلا يزيدهم ذلك إلا ثباتاً وقوة في التمسك بدينهم ، وهذا لايكون إلا لمن أخلص الدين لله وحده ، وبلغ مرتبة كمال تحقيق التوحيد واليقين .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - : (.. وأهل التوحيد هم أهل اليقين الذين إذا ابتلوا ثبتوا ، بخلاف غيرهم فإن الابتلاء قد يذهب إيمانه أو ينقصه ، قال تعالى : ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانو بآياتنا يوقنون﴾[3] ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا

---

(١) سورة الأنعام ١١٦ .

(٢) الفتاوى ١٨/ ٢٩٧-٢٩٨ . وانظر الفتاوى ١٧/ ٣٠٠ وما بعدها .

(٣) سورة السجدة ٢٤ .

لكـم فاخشـوهم فزادهـم إيمانـاً وقـالوا حسـبنا الله ونعـم الوكيـل ﴾ (١) وقولـه : ﴿ هنـالك ابتلـي المؤمنـون وزلزلـوا زلـزالاً شـديداً﴾ (٢)...)(٣)

وهـذا الثبـات يتـأكد ويقـوى بـالمؤمن الموحـد عنـد غربـة الديـن وقلـة أهلـه كمـا قال ﷺ : ((بـدأ الإسـلام غريبـاً وسيعود غريبـاً كمـا بـدأ فطوبـى للغربـاء))(٤)

ومـن فضـائل تحقيـق التوحيـد ، أن الموحـد يثبـت علـى الحـق حتـى وإن خالفـه النـاس أجمعيـن ، فـإن سـالكي طريـق الصـراط المسـتقيم قلـة ، فقـد لايكـون عليـه إلا فئـة قليلـة ، ومـع هـذه الغربـة ، والوحشـة مـن قلـة السـالكين نجـد أن الموحـد الـذي حقـق كمـال التوحيـد لايغتـم بقلـة سـالكي طريـق الهـدى، ولا يضيـق صـدره بكـثرة المخـالفين لـه ، الخـائضين طريـق الغوايـة والضلالـة ، فـلا يضـره المخـالف المتخـاذل ولا الموافـق المخـذل .

وقـد بـين شـيخ الاسـلام ابـن تيميـة – رحمـه الله تعـالى – هـذا بـأن الصـادق المصـدوق أخـبر : أنـه لاتـزال طائفـة ممتنعـة مـن أمتـه علـى الحـق أعـزاء لايضرهـم المخـالف ولا خـلاف الخـاذل ، ولا إرجـاف المرجفـين ، فـإن الإسـلام يعـود غريبـاً كمـا بـدأ . وأعظـم مـا تكـون غربتـه إذا ارتـد الداخلـون فيـه عنـه ، أو تنكـص السـائرون علـى دربـه، وقـد قـال تعـالى : ﴿ يـا أيهـا الذيـن آمنـوا مـن يرتـد منكـم عـن دينـه فسـوف يـأتي الله بقـوم يحبهـم ويحبونـه أذلـة علـى المؤمنـين أعـزة علـى الكـافرين ، يجـاهدون في سـبيل الله ولا يخـافون لـو لائـم ﴾(٥) فهـؤلاء يقيمونـه إذا ارتـد عنـه أولئـك ، وينصرونـه إذا خذلـه من خذلـة ممن ينتسـب إليـه ممـن آثـر الحيـاة الدينـا وزخرفهـا علـى الآخـرة .

فكمـا أنـه بـدأ غريبـاً و لم يـزل يقـوى حتـى انتشـر ، فكـذا يتغـرب في كثـير مـن الأمكنـة ويشـتد في بعـض الأزمنـة والأمكنـة دون بعـض ؛ حتـى يقيمـه الله ﷻ كمـا

---

(١) سـورة ال عمـران ١٧٣ .

(٢) سـورة الأحـزاب ١٧٣ .

(٣) الفتـاوى ٣٣٠/٣ .

(٤) تقدم تخريجـه قريبـاً انظر فهرس الأحـاديث حـرف البـاء .

(٥) سـورة المـائدة ٥٤ .

كـان عمـر بـن عبـد العزيـز لما ولي وقـد تغـرب كثـير مـن الإسـلام علـى كثـير مِـن النـاس حتى كـان منهـم مـن لايعـرف تحريـم الخمـر ، فـأظهرا الله بـه في الإسـلام مـا كـان غريبـاً ، وفي السـنن : ((إن الله يبعـث لهـذه الأمـة في رأس كـل مائـة سـنة مـن يجـدد لهـا دينهـا)) والتجديد إنمـا يكـون بعـد الـدروس ، وذاك هـو غربـة الاسـلام وغربـة أهلـه .[1]

ومـن هـذا يتبـين أنـه لاينبغـي للمسـلم الـذي حقـق التوحيـد أن يغتـم بقلـة الموحديـن المخلصـين، ولا يضيـق صـدره مـن كـثرة المعـاندين الجـاحدين ، ولا بانتفـاش البـاطل وأهلـه ، بـل إن هـذا ينبغـي أن يزيـده يقينـا وثباتـاً علـى الحـق . قـال الله تعـالى : ﴿ إن الذيـن قـالوا ربنـا الله ثـم اسـتقاموا تتـنزل عليهـم الملائكـة أن لا تخـافوا ولا تحزنـوا وأبشـروا بالجنـة الـتي كنتـم توعـدون ﴾[2]

وقـال عـز وجـل عـن ابراهيـم الخليـل عليـه السـلام : ﴿ إن إبراهيـم كـان أمـة قانتـاً لله حنيفاً ولم يـك مـن المشـركين ﴾[3] فوصفـه بأنـه أمـة أي إمامـاً وقـدوة في الخـير يعـدل جمعـاً مـن النـاس ، وإن كـان لوحـده علـى الحـق والمخـالفون لـه كثـير. كمـا وصفـه بأنـه حنيفـاً ، وللسـلف في معنـى الحنـف ثـلاث عبـارات : أحدهـا : مسـتقيماً ، والثانيـة : مخلصـاً ، والثالثـة : متبعـاً ، ـ قـال شـيخ الإسـلام ـ فهـو مسـتقيم القلـب إلى الله دون مـا سـواه ، لا يحـب إلا إيـاه ، لا لطـب منفعـة ولا لدفـع مضـرة ، ولا يخـاف غـيره كائنـاً مـن كـان ...[4] خاصـة وأنـه كـان في زمـن كـان عامـة النـاس كَفَـرة ، فكـان مؤمنـاً وحـده والنـاس كفـار جمعيـاً ، ففـي صحيـح البخـاري أنـه قـال لسـاره : ((ليـس علـى الأرض اليـوم مؤمـن غـيري وغـيرك))[5]...[6]

---

(١) انظـر الفتـاوى ١٨ / ٢٩٦-٢٩٧ .

(٢) سـورة فصلـت ٣٠ .

(٣) سـورة النحـل ١٢٠ .

(٤) انظـر الفتـاوى ٣٢/٢٨ .

(٥) رواه البخـاري في البيـوع (ح ٢٢١٧) وفي أحـاديث الأنبيـاء (ح٣٣٥٨) ومسـلم في الفضـائل (ح٢٣٧٢) وأبـو داود في (ح٢٢١٢)

(٦) انظـر الفتـاوى ٤٣٦/١١ .

التاسع: الصدع بالحق:

ومن فضل تحقيق التوحيد أن الموحد يكون صادعاً بالحق لايخشى لومة لائم ولا سطوة جائر، وإنما يخشى العزيز القاهر، يكون مظهراً للسنة قامعاً للبدعة، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، لايضره من خذلة أو خذّله، ممتثلاً قول النبي ﷺ ((من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل))[١] فيسعى إلى نصرة دينة وتغيير المنكر بحسب القوة والأعوان. ولايضره كثرة المنكرين لدين الله وشرعه، فإنهم كما قال سبحانه: ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾[٢]

ويعلم بذلك أن هؤلاء لن يضروه شيئاً ولن يضروا الإسلام شيئاً، بل سيأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه، فيتولون المؤمنين دون الكافرين، يجاهدون في سبيل الله لايخافون لومة لائم، كما قال في أول الأمر: ﴿فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾[٣] فهؤلاء الذين لم يدخلوا في الإسلام، وأولئك الذين خرجوا منه بعد الدخول فيه - لايضرون الإسلام شيئاً بل يقيم الله من يؤمن بما جاء به رسوله وينصر دينه إلى قيام الساعة .. فيوقن بهذا ويعلم أنه إن تخلى عن نصرة دين الله فإنه لايضر إلا نفسه وأن دين الله منصور، فإن أهل اليمن الذين دخلوا في الإسلام (لما ارتد من ارتد إذ ذاك جاء بهم الله لنصرة دينه وإعلاء كلمته.)[٤]

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (ح٤٩) وأبو داود في الصلاة (ح١١٤٠) والترمذي في الفتن (ح ٢١٧٢) والنسائي في الإيمان (ح٥٠٠٨) وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (ح١٢٧٥) .

(٢) سورة الفرقان ٤٤ .

(٣) سورة الأنعام ٨٩ .

(٤) الفتاوى ٣٩٩/١٨ ، ٣٠١.

وقـد أخـبر الله أن مـن نكـل عـن الجهـاد في سـبيله المـأمور بـه عذبـه واسـتبدله بغـيره ممـن يقـوم بالجهـاد ، وهـذا هـو الواقـع .قـال تعـالى : ﴿ إلا تنفـروا يعذبكـم عذابـاً أليمـاً ويسـتبدل قومـاً غـيركم ولا تضـروه شيئاً ، والله علـى كـل شـيء قديـر ﴾ (١) ... (٢) .

فعندمـا يعيـش الموحـد هـذا الشـعور وهـذا الاهتمـام بديـن الله ، فـإن حياتـه تكـون كلهـا لله ، فلديـن الله يحيـا ، ولديـن الله يعيـش ، وعلـى ملـة رسـول الله ﷺ يمـوت ، بهـذا بلـغ الصحابـة مـابلغوا مـن تلـك المنـازل العليـا ، حتـى نشـروا ديـن الله في الأرض . وهـذا لايدركـه إلا مـن تعلـق قلبـه بـالله فرضـي بـالله ربـاً وبالإسـلام دينـاً وبمحمـد ﷺ نبيـاً ورسـولا .

وبهـذا الجهـاد وبهـذه النصـرة لديـن الله وهـذا الصـدع بـالحق يكـون الموحـد مـن الطائفـة المنصـورة الـتي أخـبر عنهـا النبي ﷺ بقولـه : ((لاتـزال طائفـة مـن أمتـى علـى الحـق منصـورة لايضرهـا مـن مـن خذلهـا إلى قيـام السـاعة)) (٣)

العاشر : أن تحقيق التوحيد سبب لنيل الشفاعة

ومـن فضـل تحقيـق التوحيـد مـا ذكـره شـيخ الإسـلام ـ رحمـه الله ـ مـن أنـه سـبب لنيـل شـفاعة النبي ﷺ فقـد جـاء في الحديـث أن أبـا هريـرة سـأل النـبي ﷺ فقـال : مـن أسـعد النـاس بشـفاعتك يـوم القيامـة ؟ قـال : ((مـن قـال لاإلـه إلا الله خالصـاً مـن قلبـه))(٤) وهـذه هـي الشـفاعة العظمـى الـتي جـاء في الخـبر (أن النـبي ﷺ ((يـأتي فيسـجد لربـه ويحمـده لايبـدأ بالشـفاعة أولاً ، فـإذا سـجد وحمـد ربـه بمحـامد يفتحهـا عليـه ، يقـال لـه : أي محمـد ! ارفـع رأسـك ، وقـل تسـمع ، وسـل تعـط ، واشـفع

(١) سورة التوبـة آيـة ٣٩ .

(٢) انظـر الفتـاوى ١٨ /٣٠٠-٣٠١

(٣) رواه البخـاري في الاعتصـام بالسـنة (ح ٧٣١١) ومسـلم في الإيمـان (ح١٥٦) وأبـو داود في (ح٢٤٨٢) والـترمذي في الفتن (٢١٩٠) وابـن ماجـه في المقدمـة (ح٦) واللفـظ للشـيخين .مـع اختـلاف يسـير في قولـه " لا يضرهـم مـن خذلهـم " "بـدلاً مـن لا يضرهـا .." ودن قولـه " علـى الحـق "

(٤) رواه البخـاري في الإيمـان (٩٩)

فيقول : أي رب أمتي ! فيحد له حداً فيدخلهم الجنة وكذلك في الثانية وكذلك في الثالثة[١]) .

وهذه الشفاعة هي لأهل الإخلاص وأهل تحقيق التوحيد خاصة بعد إذن الله، وليست لمن أشرك بالله ، ولا تكون إلا لمن أذن الله له ، وحقيقته أن الله هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص والتوحيد ، فيغفر لهم بواسطة دعاء الشافع الذي أذن له أن يشفع ليكرمه بذلك ، وينال به المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون ﷺ [٢] ومن لم يكن من أهل تحقيق التوحيد والإخلاص فلن ينال الشفاعة.

قال الله تعالى : ﴿ وكم من ملك في السموات لاتغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ [٣]

قال شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - : (.. والأحاديث الصحيحة الواردة في الشفاعة كلها تبين أن الشفاعة إنما تكون في أهل لاإله إلا الله.

وقد ثبت في صحيح البخاري أن أباهريرة قال لرسول الله ﷺ : من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال : ((يا أباهريرة ، لقد ظننت أن لايسألني عن هذا الحديث أحد أوْلَ منك ، لما رأيت من حرصك على الحديث ، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال : ((لاإله إلا الله خالصاً من قبل نفسه)) [٤] فبين أن المخلص لها من قبل نفسه : هو أسعد بشفاعته ﷺ من غيره ممن يقولها بلسانه ، وتكذبها أقواله وأعماله .) [٥] .

فـ (الشفاعة سببها توحيد الله وإخلاص الدين والعبادة بجميع أنواعها ، فكل من كان أعظم إخلاصاً كان أحق بالشفاعة .. وإنما الشفاعة سبب من

---

(١) رواه البخاري في الرقاق (ح٦٥٦٥) ومسلم في الإيمان (ح١٩٣) وابن ماجه في الزهد (ح٤٣١٢) .

(٢) انظر الفتاوى ٧/٧٨ . ٨/١٦٨ .

(٣) سورة النجم آية ٢٦ .

(٤) رواه البخاري في الإيمان (ح٩٩).

(٥) الفتاوى ١٤/٤١٠ .

الأسباب التي يرحم الله من يرحم من عباده ، وأحق الناس برحمته هم أهل التوحيد والإخلاص له ، فكل من كان أكمل في تحقيق إخلاص لا إله إلا الله علماً وعقيدة وعملاً وبراءة وموالاة ومعاداة كان أحق بالرحمة ...)[١] .

ومن ذلك شفاعة المؤمنين من أهل تحقيق التوحيد لأهليهم وذويهم .

فإن أهل تحقيق التوحيد (هم الذين شهدوا بالحق ، شهدوا أن لاإله إلا الله ، كما شهد الله لنفسه بذلك وملائكته وأولوا العلم ﴿شهد الله أنه لاإله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾[٢]

فإذا شهدوا – وهم يعلمون – كانوا من أهل الشفاعة شافعين ومشفوعاً لهم.

فإن المؤمنين أهل التوحيد يشفع بعضهم في بعض ، كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة ، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال : في الحديث الطويل ، حديث التجلي والشفاعة : ((حتى إذا خلص المؤمنون من النار ، فو الذي نفسي بيده ، مامنكم من أحد بأشد مناشدة لله استيفاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لأخوانهم الذين في النار ، يقولون : ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون ، فيقال لهم أخرجوا من عرفتم ، فتحرم صورهم على النار ..))[٣] وذكر تمام الحديث [٤].

فهؤلاء نالو الشفاعة من إخوانهم لأجل وجود التوحيد في قلوبهم ، إلا أنهم قدموا بأعمال كانت سبباً في دخولهم النار ، ومنه قوله ﷺ في الحديث القدسي : أن الله ﷻ يقول : ((.. يقول الله تعالى أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فيخرجون منها قد اسودوا فيلقون في نهر الحيا أو الحياة شك مالك فينبتون كما تنبت الحبة في جانب السيل ، ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية.))[٥]

---

(١) الفتاوى ٤١٤/١٤.

(٢) سورة ال عمران آية ١٨ .

(٣) رواه مسلم في الإيمان (ح١٨٣ –١٨٥)

(٤) الفتاوى ٤١١/١٤ .

(٥) رواه البخاري في الإيمان (ح ٢٢) ومسلم في الإيمان (١٨٥) .

الحادي عشر : أن التوحيد سبب لدخول الجنة والنجاة من النار

من فضائل التوحيد أن ؛ من حققه دخل الجنة فإن من المعلوم أن كلمته هي أول الدين وآخره وظاهره وباطنة [1] وقد بين شيخ الاسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – أنها أساس الإسلام مطلقاً ، بها بعث جميع الرسل كما قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾[2] وقال تعالى : ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لاإله إلا أنا فاعبدون ﴾ [3] فمن قالها موقناً بها ثم مات على ذلك دخل الجنة ، ومن أتي بما يناقضها استحق النار[4] ، ففي الحديث الصحيح عن عثمان ﷺ أن النبي ﷺ قال : ((من مات وهو يعلم أنه لاإله إلا الله دخل الجنة))[5] وفي الصحيح أيضاً : ((لقنوا موتاكم لاإله إلا الله))[6].

وفي السنن من حديث معاذ : ((من كان آخر كلامة لاإله إلا الله دخل الجنة))[7] وفي المسند : ((إني لأعلم كلمة لايقولها عبد حين الموت إلا وجد رُوحَه لها رَوْحاً حين تخرج من جسده))[8] وهي الكلمة التي عرضها على عمه عند الموت .

---

(١) انظر الفتاوى ٣٣٨/١٠ .

(٢) سورة النحل آية ٣٦ .

(٣) سورة الأنبياء ٢٥ .

(٤) انظر الفتاوى ٩٤/٣ .

(٥) رواه الإمام مسلم في الإيمان (ح٢٦).

(٦) رواه الإمام مسلم في الجنائز (ح٩١٦) وأبو داود في الجنائز (٣١١٧) والترمذي في الجنائز (ح٩٧٦) والنسائي في الجنائز (ح١٨٢٦) وان ماجه في الجنائز (١٤٤٥) وغيرهم .

(٧) رواه أبو داود في الجنائز (٣١١٦) وأحمد ٢٣٣/٥ ، والحاكم ٣٥١/١ ، ٥٠٠ وقال في الموضعين " هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه " ووافقه الذهبي .

(٨) وراه ابن ماجه في الأدب (ح ٣٧٩٥) وأحمد ٢٨/١ وقال أحمد شاكر في تحقيقه للمسند : " إسناده صحيح " انظر (ح٢٧٨) .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - : (وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : ((من قال لاإله إلا الله مخلصاً من قلبه حرمه الله على النار))(١) وذلك أن الإخلاص ينفي أسباب دخول النار، فمن دخل النار من القائلين لاإله إلا الله فإنه لم يحقق إخلاصها المحرم له على النار ، بل كان في قلبه نوع من الشرك الذي أوقعه فيما أدخله النار ، والشرك في هذه الأمة أخفي من دبيب النمل ، ولهذا كان العبد مأموراً في كل صلاة أن يقول : ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾..(٢)

والنصوص في كتاب الله ـ عز وجل ـ وفي سنة نبيه ﷺ كثيرة معلومة . وقد نص الله ـ جل وعلا ـ في القرآن الكريم على أنه يغفر الذنوب جميعاً إلا الشرك ، وأن من مات على الشرك فقد حرم الله عليه الجنة ، كما أن من جاء بالتوحيد فهو من أهل الجنة حتى وإن كانت له كبائر يدخل بسببها النار ، فإن مصيره إلى الجنة بعد عفو الله عز وجل .

ولا يبقى في النار مخلد إلا المشرك المحض ، فقد ورد في الحديث أن الله ﷻ يقبل الشفاعة فيمن دخل النار بسبب ذنوبه من المؤمنين الموحدين . وقد جاء في الحديث المتفق على صحته أنه : ((يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير ، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من خير ، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير)) وفي لفظ : ((من إيمان)) بدل ((من خير))(٣).

الثاني عشر : أن أهل تحقيق التوحيد هم أولياء الله

(الولاية ضد العداوة ، وأصل الولاية المحبة والقرب ، وأصل العداوة البغض والبعد، وقد قيل : إن الولي سمي ولياً من موالاته للطاعات أي متابعته لها ، والأول أصح ، والولي القريب ، فيقال : هذا يلي هذا أي يقرب منه ...

---

(١) تقدم تخريجه قريباً انظر فهرس الأحاديث .

(٢) الفتاوى ٢٦١/١٠ . وانظر الصفدية ٣٣٩/٢-٣٤٠ .

(٣) روا البخاري في الإيمان (ح٤٤) ومسلم في الإيمان أيضاً (ح٣٢٥) .

[فـ] ولي ا لله هو : الموافق المتابع له فيما يحبه ويرضاه ويبغضه ويسخطه ويأمر به، وينهى عنه .. فإنه لايكون ولياً لله إلا من آمن به وبما جاء به واتبعه باطناً وظاهراً [١] ، ومن ادعى محبة ا لله وولايته وهو لم يتبعه فليس من أولياء ا لله ، بل من خالفه كان من أعداء ا لله وأولياء الشيطان ، قال تعالى :﴿ قل إن كنتم تحبون ا لله فاتبعوني يحببكم ا لله ﴾ [٢] ... ومن ادعى محبة ا لله ولم يتبع الرسول ﷺ فليس من أولياء ا لله ، وإن كان كثير من الناس يظنون في أنفسهم أو في غيرهم أنهم من أولياء ا لله ، ولا يكونون من أولياء ا لله ، فاليهود والنصارى يدعون أنهم أولياء ا لله وأحباؤه ، قال تعالى : ﴿قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق ﴾[٣]...)[٤]

و (أولياء ا لله [هم] الذين وصفهم ا لله تعالى بولايته بقوله : ﴿ ألا إن أولياء ا لله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾[٥]...[٦]

فأولياء ا لله هم أهل تحقيق التوحيد الذين آمنوا بجميع ما جاء رسول ا لله ﷺ إيماناً وتسليماً وانقياداً تاماً كاملاً ، لايخالطه شك ولا ريب ، واتقوا كل ما يسخط ا لله ويبغضه من الأعمال والأقوال فجعلوا بينهم وبين محارم ا لله وقاية . وهذا الصفات لاتكون إلا لأهل تحقيق التوحيد [٧]

قال شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه ا لله تعالى - : (فإذا كان أولياء ا لله هم المؤمنين المتقين فبحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته لله تعالى ، فمن كان أكمل إيماناً وتقى ، كان أكمل ولاية لله ، فالناس متفاضلون في ولاية ا لله عز وجل بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى ، وكذلك يتفاضلون في عداوة ا لله بحسب

---

(١) وهؤلاء هم أهل تحقيق التوحيد .

(٢) سورة ال عمران آية ٣١ .

(٣) سورة المائدة ١٨ .

(٤) الفتاوى ١١/١٦٠ - ١٦٥ .

(٥) سورة يونس ٦٢-٦١ .

(٦) الفتاوى ١١/١٦٩ ، ١٩٠.

(٧) انظر الفتاوى ١١/١٦٩ - ١٧٥ ، ٢/٣٤٠، ٣٧١، ٢٢٣ .

تفاضلهم في الكفر والنفاق، قال الله تعالى: ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ، وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴾[١] .. فبين سبحانه وتعالى أن الشخص الواحد قد يكون فيه قسط من ولاية الله بحسب إيمانه ، وقد يكون فيه قسط من عداوة الله بحسب كفره ونفاقه ...) [٢] وأما من كمل إيمانه وبلغ كمال تحقيق التوحيد فإنه يكون ولياً خالصاً صرفاً لله جل وعلا .

وأولياء الله أهل تحقيق التوحيد على طبقتين :

سابقون مقربون ، وأصحاب يمين مقتصدون ، ذكرهم الله في عدة مواضع من كتابه العزيز ، في أول سورة الواقعة ، وآخرها ، وفي سورة الإنسان ، والمطففين وفي سورة فاطر ، فإنه سبحانه وتعالى ذكر في الواقعة .. قوله:...﴿..فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة ، والسابقون السابقون أولئك المقربون ﴾[٣]...

وقد ذكر الرسول ﷺ عمل القسمين في حديث الأولياء ، فقال : ((يقول الله تعالى : من عادي لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ..)) [٤] فالأبرار أصحاب اليمين هم المتقربون إليه بالفرائض ، يفعلون ما أوجب الله عليهم ويتركون ما حرم الله عليهم ، ولا يكلفون أنفسهم بالمندوبات والكف عن فضول المباحات .

وأما السابقون المقربون فتقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض ، ففعلوا الواجبات وتركوا المحرمات والمكروهات ، فلما تقربوا إليه بجميع ما يقدرون عليه من

---

(١) سورة التوبة ١٣٤-١٣٥ .

(٢) الفتاوى ١١/١٧٥ ، ٦٦٦ ، ٢٩

(٣) سورة الواقعة ١٠ .

(٤) تقدم تخريجه .انظر فهرس الأحاديث .

محبوباتهم أحبهم الرب حباً تاماً ، كما قال تعالى : ((ولا يزال عبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه)) يعني الحب المطلق ...

فهؤلاء المقربون صارت المباحات في حقهم طاعات ، يتقربون بها إلى الله عز وجل، فكانت أعمالهم كلها عبادات لله ، فشربوا صرفاً كما عملوا له صرفاً ، والمقتصدون كان في أعمالهم ما فعلوه لنفوسهم ، فلا يعاقبون عليه ولا يثابون عليه، فلم يشربوا صرفاً ، بل مزج لهم من شراب المقربين بحسب ما مزجوه في الدنيا.)[1]

وهؤلاء صار ثوابهم وولايتهم وقربهم من الله بحسب إتيانهم بتحقيق التوحيد.

فالقسم الأول السابقون : هم من حقق كمال التوحيد المندوب فضلاً عن الواجب .

وأما القسم الثاني : فهم الذين حققوا كمال التوحيد الواجب وشيء من المندوب .

وكما أنهم يتفاضلون في الولاية في الدنيا ، فكذلك يتفاضلون في الجزاء في الآخرة، فمنازلهم في الجنة بحسب إيمانهم وتقواهم [2] .

والقسم الأول : هم المذكورون في حديث ابن عباس في السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بلا حساب .

فعن ابن عباس – رضي الله عنه قال : قال : رسول الله ﷺ : ((عرضت علي الأمم ، فجعل النبي والنبيان يمرون معهم الرهط ، والنبي ليس معه أحد ؛ حتى رفع لي سواد عظيم ، قلت ما هذا ؟ أمتي هذه ؟ . قيل : بل هذا موسى وقومه ، قيل انظر إلى الأفق ؛ فإذا سواد يملأ الأفق . ثم قيل لي : انظر ها هنا وها هنا في آفاق السماء ، فإذا سواد قد ملأ الأفق . قيل هذه أمتك ، ويدخل الجنة من هؤلاء سبعون ألفاً بغير حساب ، ثم دخل ولم يبين لهم ، فأفاض القوم وقالوا : نحن الذين آمنا بالله واتبعنا رسوله فنحن هم . أو أولادنا الذين ولدوا في الإسلام . فإنا ولدنا في الجاهلية ، فبلغ

---

(١) الفتاوى ١١/١٧٩-١٨٠

(٢) انظر الفتاوى ١١/١٨٨ .

النبي ﷺ فخرج فقال هم : ((الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون . فقال عكاشة بن محصن : أمنهم أنا يا رسول الله ؟ . قال نعم . فقام آخر فقال : أمنهم أنا ؟ قال : سبقك بها عكاشة))[1]. والله تعالى أعلم.

فتبين من هذا أن أهل تحقيق التوحيد هم أولياء الله المتقون ، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، هم المصطفين الأخيار الذين لهم الهدى في الدنيا والآخرة .



(١) رواه البخاري في الطب (٥٧٠٥) ومسلم في الإيمان (ح ٢٢٠) والترمذي في صفة القيامة (ح٢٤٤٦) .

المحبث الخامس : بيانه لتحقيق النبي ﷺ للتوحيد

بيانه لتحقيق النبي ﷺ للتوحيد

من المعلوم أن النبي ﷺ من أكمل الناس تحقيقاً للتوحيد ، فقد شهد الله له بذلك في قوله تعالى : ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه ﴾(١)

قال شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - : (فهذ شهادة الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام بإيمانه بما أنزل إليه من ربه ، وذلك يتضمن إعطاءه ثواب أكمل أهل الإيمان ، زيادة على ثواب الرسالة والنبوة؛ شارك المؤمنين في الإيمان ، ونال منه أعلى مراتبه ، وامتاز عنهم بالرسالة والنبوه .)(٢)

وقد حقق النبي ﷺ التوحيد في جميع جوانبه كما نلاحظ في بعض الأمثلة التي نَعْرِضُ لبيانها مما ذكره شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - ومن ذلك ما يلي :

١) تحقيقه لكمال الإرادة :

بين شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ أن كل حي لابد له من إرادة ، فلا يمكن لحي أن يخلو من إرادة .

والعبد لابد وأن يكون له تصرف بإرادته، فإن لم يرد ما يحبه الله ورسوله أراد مالايحبه الله ورسوله ، فإن الإرادة التي يحبها الله ورسوله ويأمر بها أمر إيجاب أو أمر استحباب لايدعها إلا كافر أو فاسق أو عاصٍ إن كانت واجبة ، وإن كانت مستحبة كان تاركها تاركاً لما هو خير له .

وعبادة الله لاتتم إلا بهذه الإرادة ، قال الله تعالى :﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾(٣).

---

(١) سورة البقرة آية ٢٨٥ .

(٢) الفتاوى ١٤/١٣٣-١٣٤ .

(٣) سورة البينة آية ٥ .

وإخلاص الدين لله هو إرادته وحده بالعبادة . وقد مدح الله نبينا محمد ﷺ بهذه الإرادة بقوله: ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾ (١) وقوله : ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى ۞ إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ۞ ولسوف يرضى ﴾ (٢) (٣) .

وهذه الإرادة يتفاوت فيها الناس تفاوتاً عظيماً ، فأكملهم تحقيقاً لها هو سيدنا محمد ﷺ ، وقد وضح ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى- بقوله : (وهذا الموضع تفرق فيه بنوا آدم ، وتباينوا تبايناً عظيماً ، لايحيط به إلا الله ، ففيهم من لم يخلق الله خلقاً أكرم عليه منه ، وهو خير البرية ، ومنهم من هو شر البرية، وأفضل الأحوال فيه حال الخليلين ابرهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم، ومحمد سيد ولد آدم ، وأفضل الأولين والآخرين ، وخاتم النبيين وإمامهم إذا اجتمعوا ، وخطيبهم إذا وفدوا ، وهو المعروج به إلى ما فوق الأنبياء كلهم ، ابراهيم وموسى وغيرهم .

وأفضل الأنبياء بعده إبراهيم عليه الصلاة والسلام كما ثبت في الصحيح ...

ورسول الله ﷺ هو أفضل الخلائق وسيد ولد آدم ، وله الوسيلة في المقامات كلها ، ولم يكن حاله أنه لايريد شيئاً (٤) ولا أنه يريد كل واقع (٥) ،

---

(١) سورة الأنعام ٥٢ .

(٢) سورة الليل آية ١٩-٢٠ .

(٣) انظر الفتاوى ١٠/٤٩٤-٤٩٦ .

(٤) كما هو حال المتصوفة الذين يزعمون أنهم تخلوا عن إراداتهم ، حتى لم يبق لهم مراد غير مراد الرب المتعلق بقدرته ومشيئته الكونية ، زعماً منهم أن هذا هو أكمل المقامات ، وأن من قام بهذا فقد بلغ أعلى المقامات

(٥) كما يزعم بعض القدرية حيث يتفقون مع الإرادة في السلوك والبداية ، وأما في النهاية فلا يبقى إلا إرادة القدر ، وهو في الحقيقة قول يؤدي إلى اعتقاد سقوط العبادة والطاعة ، وقد وقع في هذا كثير من السالكين ، حتى أصبحوا أعواناً للشياطين والعياذ بالله .

كما أنه لم يكن حاله أنه يتبع الهوى [١] ؛ بل هو منزه عن هذا وهذا ، قال الله تعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى ۞ إنه هو إلا وحي يوحى﴾[٢] وقال تعالى : ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ﴾[٣] ، وقال :﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾[٤] والمراد بعبده عابده المطيع لأمره ؛ وإلا فجميع المخلوقين عباد بمعنى أنهم مُعَبَّدون مخلوقون مدبرون ...

وقال تعالى له : ﴿وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ [٥] قال ابن عباس .. دين عظيم، والدين فعل ما أُمِرَ به . وقالت عائشة رضي الله عنها : ((كان خلقه القرآن))[٦].

وقد أخبرت أنه لم يكن يعاقب لنفسه ولا ينتقم لنفسه ؛ لكن يعاقب لله ، وينتقم لله[٧] ، وكذلك أخبر أنس أنه كان يعفو عن حظوظه[٨] ، وأما حدود الله فقد قال : ((والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها))[٩] ...

---

(١) كما هو حال العصاة وأهل الشهوات والشبهات ، وهؤلاء عبيد لأنفسهم وأهوائهم وأعراضهم .

(٢) سورة النجم ٣ .

(٣) سورة البقرة ٢٣ .

(٤) سورة الإسراء آية ١ .

(٥) سورة القلم آية ٥ .

(٦) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين (ح٧٤٦) .

(٧) ويشهد لهذا ما في الصحيحين عن عائشة قالت : (ما ضرب رسول الله ﷺ شيئا قط بيده ولا امرأة ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل الله ، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله فينتقم لله عز وجل)). رواه البخاري في المناقب (ح٣٥٦٠) ومسلم في الفضائل (ح٢٣٢٨) واللفظ له ، وأبو داود في الأدب (ح٤٧٨٥) ومالك في الموطأ كتاب الجامع (ح١٦٧١) .

(٨) يشير إلى حديث أنس في الصحيحين أنه قال : (خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين والله ما قال لي : أفٍ قط ولا قال لي لشيء لم فعلت كذا وهلا فعلت) رواه البخاري في الوصايا (ح٢٧٦٨) وفي غير هذا الموضع ، ومسلم في الفضائل (ح٢٣٠٩) واللفظ له .وأبو داود في الأدب (ح٤٧٧٣) والترمذي في البر والصلة (ح٢٠١٥) .

(٩) رواه البخاري في فضائل الصحابة (ح٣٧٣٣) ، ومسلم في كتاب الحدود (١٦٨٨) .

فلم يكن يعاقب ولا ينتقم لنفسه ؛ بل يستوفي حق ربه ويعفو عن حظ نفسه ...[(١)]

وهذا هو كمال تحقيق الإرادة التي تمثلت جلية في تحقيق النبي ﷺ له ؛ فإنه ما أراد إلا ما أحبه الله ورضيه من الإيمان والعمل الصالح ، مع أمره به ، وكره ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان ، ونهى عن ذلك .

وقد نعته الله جل وعلا بقوله : ﴿ .. الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾[(٢)]...)[(٣)]

ويتضح من هذا أن تحقيق الإرادة وخلوصها لله ـ عز وجل ـ هي من أسمى الصفات التي تدل على تحقيق التوحيد ، بحيث لا يكون للعبد أي هوى

---

(١) وقد ذكر شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ أن الناس في هذا الباب أربعة أقسام :

منهم من ينتصر لنفسه ولربه ، وهو الذي يكون فيه دين وغضب ، ومنهم من لا ينتصر لا لنفسه ولا لربه وهو الذي فيه جهل وضعف ، ومنهم من ينتقم لنفسه لا لربه ، هم شر الأقسام . وأما الكامل فهو الذي ينتصر لحق ربه ويعفوا عن حقه .

ومن توهم أنه بالعفو عن حقه واسقاطه يحصل له ذل ويصل للظالم استطالة عليه فهو جاهل ضال ؛ بل يكون أجره أعظم ، كما ثبت في الصحيح وغيره عن النبي ﷺ أنه قال : ((ثلاث إن كنت لحافاً عليهن : ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، وما نقصت صدقة من مال ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه)) رواه مسلم في البر والصلة (ح٢٥٨٨) والترمذي في البر والصلة (ح٢٠٢٩).ومالك في الموطأ كتاب الجامع (ح١٨٨٥) والدارمي في الزكاة (ح١٦٧٦) .

فبين الصادق المصدوق : أن الله لايزيد العبد بالعفو إلا عزاً ، وأنه لا تنقص صدقة من مال ، وأنه ما تواضع أحد لله إلا رفعه ، وهذا رد لما يظنه من يتبع الظن وما تهوى الأنفس من أن العفو يذله ، والصدقة تنقص ماله ، والتواضع يخفضه . الفتاوى ٣٠/٣٦٨-٣٧١ .

(٢) سورة الأعراف ١٥٧ .

(٣) الفتاوى ١٠/ ٥٠٢ -٥٠٤ بتصرف يسير. وانظر الفتاوى أيضاً ٣٠/٣٦٨-٣٧١ .

أو إرادة غير ما يريده الله ويحبه — عز وجل — إرادة ومحبة شرعيتين مرضيتين(١).

فمن لم تتحقق فيه هذا الصفة فقد فاته تحقيق التوحيد بحسب قربه أو بعده في ذلك .

وللرسول ﷺ المقام الأعلى في صفاء هذه الإرادة وكمالها كما سبق بيانه.

٢) تحقيقه ﷺ للقدر :

ذكر شيخ الإسلام ابن تيمة ـ رحمه الله ـ أن النبي ﷺ من أكمل الناس تحقيقاً للتوحيد ، وعبادة لله جل شأنه . فقد حقق النبي ﷺ التوحيد في جميع أقواله وأفعاله واعتقاداته ، فحقق كمال التسليم والرضى بالقدر الذي هو أعلى مراتب شهود القدر، وأعلى درجات تحقيق التوحيد فلقد كان يقول : ((لو قضى شيء لكان)) (٢)

وكان يعلم أمته ذلك ويربي أصحابه على الإيمان بالقدر والرضا والتسليم مع الانقياد والاذعان فقد كان ابن عباس رديفه يوماً ، فقال له : ((يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن با لله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك . ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك . رفعت الأقلام وجفت الصحف .))(٣) وهذا هو عين تحقيق

---

(١) وأقصد بهذا الاحتراز من دعوى المتصوفة بأن إراداتهم اتحدت مع إرادات الله دون التفريق بين الإرادة الشرعية الدينية الملازمة للمحبة والرضى والشرع والدين ، وبين الإرادة الكونية التي تقع دون محبة الله لها وإرادتها شرعاً وديناً ؛ بل كوناً وقدراً فقط ، كالمعاصي ، وبهذا يسلم من الخلط بين محبوبات الله ، وما يبغضه الله ويكرهه من الفسوق والعصيان ، ويسلم مما وقع فيه أولئك من اعتقادهم أن كل موجود فهو محبوب مراد إرادة محبة ورضى وشرع ودين .

(٢) رواه الإمام أحمد ٢٣١/٣ وابن أبي عاصم في السنة (ح٣٥٥) ١٥٧/١ وقال الألباني اسناده صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجه ، وأخرجه أيضاً ابن أبي حبان انظر موارد الظمآن (ح١٨١٦) .

(٣) رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة (ح٢٥١٦) وأحمد ٢٩٣/١ . وأبو يعلى (ح٢٥٥٦) .وقال الترمذي : حديث حسن صحيح . قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ : (وقد روي هذا الحديث عن ابن عباس من طرق كثيرة من رواية ابنه علي ومولاه عكرمة وعطاء بن أبي رباح وعمروا بن دينار ، وعبيد الله بن عبد الله ، وعمر مولى غفرة وابن أبي مليكة وغيرهم . وأصح الطرق كلها طريق حنش الصنعاني التي خرجها الترمذي ، كذا قاله ابن منده وغيره) . جامع العلوم والحكم ٤٦٠/١-٤٦١ .

التوحيد الذي كان يوجه به أصحابه ويُنَشِّأهم عليه . فيربيهم على التوجه الخالص لله رب العالمين ، وتجريد السؤال والاستعانة به وحده لاشريك له ، كما يربيهم على شهود القدر ، وأن ما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن ، يعلمهم إياه تعليماً يدفعهم إلى كمال تحقيق التوحيد وتجريده لرب العالمين .

فكان ﷺ يفعل ما أمر به من الجهاد والدعوة إلى الله وحده لا شريك له ، بالإضافة إلى قيامة بحق ربه في نفسه ، مستيقناً أنه لن يصيبه إلا ما قدر له وكتب ، وأن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروه بشيء لم يكتبه الله عليه لم يضروه ، ولو اجتمعوا على أن ينفعوه بشيء لم يكتبه الله عليه لم يضروه ، وتمثل هذا في دعوته لقريش ، ثم قتاله لهم ، كما تمثل في دعوته للناس أجمع .

قال تعالى : ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾[1]

وقد ذكر شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ أنه كان ﷺ : (ينظر إلى القدر ، فيقول : ((لو قضي شيء لكان)) وفي حق الله يقوم بالأمر فيفعل ما أمر الله به ، ويجاهد في سبيل الله أكمل الجهاد الممكن ، فجاهدهم أولا بلسانه بالقرآن الذي أنزل عليه ، كما قال تعالى : ﴿ ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً ۞ فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً))[2] ثم لما هاجر إلى المدينة وأذن له في القتال جاهدهم بيده ...

وهذا مطابق لما أخرجاه في الصحيحين عن أبي هريرة ، وهو معروف أيضاً من حديث عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ في احتجاج أدم وموسى لّما لام موسى آدم لكونه أخرج نفسه وذريته من الجنة بالذنب الذي فعله ، فأجابه آدم بأن هذا كان مكتوباً عليَّ قبل أن أُخْلَق بمدة طويلة ، قال النبي ﷺ : ((فحج آدم موسى))[3]

---

(١) سورة التوبة ٥١ .

(٢) الفرقان ٥١-٥٢ .

(٣) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (ح٣٤٠٩) ومسلم في القدر (ح٢٦٥٢) وأبو داود في السنة (ح٤٧٠١) والترمذي (ح ٢١٣٤) وابن ماجه (ح ٨٠) .

وذلك لأن ملام موسى لآدم لم يكن لحق الله ، وإنما كان لما لحقه وغيره من الآدميين من المصيبة بسبب ذلك الفعل ، فذكر له آدم أن هذا كان أمراً مُقَدَّرًا لا بد من كونه ، والمصائب التي تصيب العباد يؤمرون فيها بالصبر ، فإن هذا هو الذي ينفعهم ، وأما لومهم لمن كان سبباً فيها فلا فائدة لهم في ذلك ، وكذلك ما فاتهم من الأمور التي تنفعهم يؤمرون في ذلك بالنظر إلى القدر ، وأما التأسف والحزن فلا فائدة فيه ، فما جرى به القدر من فوت منفعة لهم أو حصول مضرة لهم فلينظروا في ذلك إلى القدر ، وأما ما كان بسبب أعمالهم فليجتهدوا في التوبة من المعاصي ، والإصلاح في المستقبل ، فإن هذا الأمر ينفعهم ، وهو مقدور لهم بمعونة الله لهم .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : ((المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن ، وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت لكان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان))[1]

أمر النبي ﷺ بحرص العبد على ما ينفعه ، والاستعانة بالله ، ونهاه عن العجز ، وانفع ما للعبد طاعة الله ورسوله ، وهي عبادة الله تعالى ، وهذا الأصلان هما حقيقة قوله تعالى : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ ونهاه عن العجز وهو الإضاعة والتفريط والتواني ، كما قال في الحديث الآخرة : عن أبي يعلى شداد بن أوس قال قال رسول الله ﷺ : ((الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله))[2] ..

---

(١) رواه مسلم في القدر (ح٢٦٦٤) وابن ماجه في المقدمة (ح ٧٩) .

(٢) رواه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (ح ٢٤٥٩) وقال : هذا حديث حسن وابن ماجه في الزهد (ح٤٢٦٠) .

وليس المراد بالعجز في كلام النبي ﷺ ما يضاد القدرة ؛ فإن من لا قدرة له بحال لا يلام ، ولا يؤمر بما لا يقدر عليه بحال .

ثم لما أمره بالاجتهاد والاستعانة بالله ونهاه عن العجز ، أمره إذا غلبه أمر أن ينظر إلى القدر ، ويقول : قدر الله وما شاء فعل ، ولا يتحسر ويتلهف ويحزن ، ويقول : لو أني فعلت كذا وكذا لكان كذا وكذا فإن لو تفتح عمل الشيطان ..)(١)

ومن هنا يتضح لنا أن من لم يؤمن بالقضاء والقدر إيماناً تاماً لا يكون له نصيب من تحقيق التوحيد في هذا الجانب ، إذ أن تحقيق التوحيد يتوقف على اليقين الجازم بأن كل ما يجري في هذا الكون إنما هو بتصريف الله — عز وجل — وحده ، فلا يشركه أحد ، فيُسَلِّم العبد بالقضاء والقدر تسليماً تاماً يرضى بموجبه بما يجري عليه — بعد فعله للأسباب ، وتركه للتواني والعجز والكسل — محتسباً ذلك عند الله ، فتطمئن نفسه بذلك ، ويقوى يقينه واتجاهه لربه وحده لا شريك له ، بخلاف من لم يتصف بتلك الصفات ، فإنه يكون قاصراً عن تحقيق التوحيد .

وقد رأينا فيما سبق كيف كانت منزلة النبي ﷺ في تحقيق هذا الأمر في نفسه وفي صحابته ولنا فيه أسوة حسنة .

٣) تحقيقه للعبادة

لقد وضح شيخ الإسلام — رحمه الله — أنه ﷺ من أكمل الناس تحقيقاً لتوحيد العبادة في أفعاله وأقواله واعتقاده ، فقد كان أخشى الناس لربه وأتقاهم له ، وأعبدهم له ، فكان يقوم بالأمر فيفعل ما أمر الله به ، ويجاهد في سبيل الله أكمل الجهاد الممكن ، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، قال تعالى مؤيداً ومؤزراً لدعوته وآمراً له بالجهاد والدعوة : ﴿ ولو شئنا لبعثنا في

---

(١) الفتاوى ١٠/٥٠٤-٥٠٦ .

كل قرية نذيراً فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً﴾ (١) فجاهد في سبيل الله حق الجهاد ، قبل الهجرة وبعدها ، جاهد بلسانه وبيده حتى توفاه الله (٢).

وقام ﷺ حتى تفطرت قدماه ، ولما عاتبته عائشة بقولها : لقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فكان جوابه : ((أفلا أكون عبداً شكوراً))(٣)

(وقد اتخذه الله خليلاً كما جاء في الصحيح أنه قال : ((إن الله قد اتخذني خليلاً ، كما اتخذ ابراهيم خليلاً))(٤) .. وفي ذلك تحقيق تمام مُخالته التي أصلها محبة الله تعالى للعبد ومحبة العبد لله ، خلافاً للجهمية ، وفي ذلك تحقيق كمال التوحيد في أن لايعبدوا إلا إياه...

فالخلة هي كمال المحبة المستلزمة من العبد كمال العبودية لله، ومن الرب سبحانه وتعالى كمال الربوبية لعباده الذين يحبهم ويحبونه .

ولفظ العبودية يتضمن كمال الذل ، وكمال الحب ، فإنهم يقولون : قلب متيم إذا كان متعبداً للمحبوب ، والمتيم المتعبد ، وتيم الله عبده ، وهذا على الكمال حصل لإبراهيم ، ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، ولهذا لم يكن له من أهل الأرض خليل ، إذ الخلة لاتحتمل الشركة ...) (٥)

ولقد كان ﷺ إمام الكُمَّل من العباد الذين حققوا كمال التوحيد ، وكمال العبودية لله رب العالمين في جميع أنواع العبادة ممن أصبحت (قلوبهم ليس فيها سوى محبة الله وإرادته وعبادته ، وعندهم من سعة العلم والتمييز ما يشهدون به الأمور على ما هي عليه ، بل يشهدون المخلوقات قائمة بأمر الله مدبرة بمشيئته ، بل مستجيبة له قانتة له ، فيكون لهم فيها تبصرة وذكرى ،

---

(١) الفرقان ٥١ .

(٢) انظر الفتاوى ١٠/٥٠٤ -٥٠٥ .

(٣) رواه البخاري في التهجد (١١٣٠، ٤٨٣٦، ٦٤٧١) ومسلم في صفات المنافقين (ح ٢٨١٩) .

(٤) رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة (ح ٥٣٢) .

(٥) الفتاوى ١٠/٢٠٣ .

ويكون ما يشهدونه من ذلك مؤيداً وممداً لما في قلوبهم من إخلاص الدين ، وتجريد التوحيد له ، والعبادة له وحده لاشريك له .

وهذه هي الحقية التي دعا إليها القرآن ، وقام بها أهل تحقيق الإيمان ، والكمل من أهل العرفان ، ونبينا ﷺ إمام هؤلاء وأملهم ، ولهذا لما عرج به إلى السموات ، وعاين ماهنالك من الآيات ، وأوحى إليه ما أوحى من أنواع المناجاة ، أصبح فيهم وهو لم يتغير حاله ، ولا ظهر عليه ذلك ، بخلاف ما كان يظهر على موسى من التغشي صلى الله عليهم وسلم أجمعين.)(١)

٤) تحقيقه للحمد والاستغفار والشكر ونحوه

وأما في باب الحمد والشكر والاستغفار ، فإنه ﷺ كان دائم الاستغفار والتوبة والإنابة . ممتثلاً أمر الله له بقوله : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك ﴾(٢)

فقد كان ﷺ لا يمر عليه يوم إلا ويستغفر الله أكثر من سبعين مرة كما في في حديث أبي هُرَيْرَةَ قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً))(٣) وكان إذا فرغ من صلاته قال : ((اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا وَقَالَ اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ قَالَ الْوَلِيدُ فَقُلْتُ لِلْأَوْزَاعِيِّ كَيْفَ الِاسْتِغْفَارُ قَالَ تَقُولُ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ أَسْتَغْفِرُ اللَّه))(٤)

وهكذا كان دأبه ﷺ في جميع حياته .

---

(١) الفتاوى ١٠/٢٢١ .

(٢) سورة محمد ١٩ .

(٣) رواه البخاري في الدعوات (ح ٦٣٠٧) والترمذي في تفسير القرآن (ح٣٢٥٩) وابن ماجه في الأدب (ح٣٨١٦).

(٤) رواه مسلم في المساجد (ح٥٩١) والترمذي في الصلاة (ح ٣٠٠) وأبو داود في الصلاة (ح١٥١٢) وابن ماجه في إقامة الصلاة (ح٩٢٨) والدارمي في الصلاة (ح١٣٤٨) .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - : (لما كانت الحسنات من إحسان الله تعالى ، والمصائب من نفس الإنسان وإن كانت بقضاء الله وقدره ، وجب على العبد أن يشكر ربه سبحانه ، وأن يستغفره من ذنوبه ، وأن لايتوكل إلا عليه وحده، فلا يأتي بالحسنات إلا هو ، فأوجب ذلك للعبد توحيده ، والتوكل عليه وحده،والشكر له وحده ، والاستغفار من الذنوب .

وهذه الأمور كان النبي ﷺ يجمعها في الصلاة ، كما ثبت عنه في الصحيح : أنه ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : ((ربنا ولك الحمد ، ملء السماء وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد ، وكلنا لك عبد))[(١)]

فهذا حمد ، وهو شكر لله تعالى ، وبيان أن حمده أحق ما قاله العبد ، ثم يقول بعد ذلك : ((اللهم لامانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد))[(١)]

وهذا تحقيق لوحدانيته ولتوحيد الربوبية خلقاً وقدراً وبداية وهداية . هو المعطي المانع، لامانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، ولتوحيد الإلهية شرعاً وأمراً ونهياً ، وهو أن العباد وإن كانوا يُعْطَون ملكاً وعظمة ، وبختاً ورياسة في الظاهر أو الباطن ،كأصحاب المكاشفات والتصرفات الخارقة ((فلا ينفع ذا الجد منك الجد)) أي لاينجيه ولا يخلصه من سؤالك وحسابك حظه وعظمته ...

فتضمن هذا الكلام تحقيق التوحيد ، وتحقيق قوله : ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾وقوله : ﴿فاعبده وتوكل عليه ﴾ [(٢)] وقوله : ﴿عليه توكلت وإليه

---

(١) رواه مسلم في الصلاة (ح ٤٧٧) وأبو داود في الصلاة (ح٨٤٧) والنسائي في التطبيق (ح ١٠٦٨) وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (ح٨٧٧) والدارمي في الصلاة (ح١٣١٣) .

(٢) سورة هود ١٢٣ .

أنيب﴾(١) وقوله : ﴿واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً ، رب المشرق والمغرب لاإله إلا هو فاتخذه وكيلاً﴾(٢) ...) (٣) .

(والمقصود : أن النبي ﷺ كان يجمع بين الحمد الذي هو رأس الشكر ، وبين التوحيد والاستغفار إذا رفع رأسه من الركوع .. فقد كان ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال : ((سمع الله لمن حمده ، اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السموات والأرض وملء ما شئت من شيء بعد ، اللهم طهرني بالثلج والبرد ، والماء البارد ، اللهم طهرني من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس)) (٤) .

ففي هذا الحمد رأس الشكر والاستغفار ، فإن ربنا غفور شكور ، فالحمد بإزاء النعمة ، والاستغفار بإزاء الذنوب .

وذلك تصديق قوله تعالى : ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ (٥)

وفي سيد الاستغفار :((أبوء لك بنعمتك علي وأبوء لك بذنبي)) (٦)

وقد جاء الجمع بين التوحيد والتحميد والاستغفار في مواضع ، مثل كفارة المجلس...

وفي حديث أبي سعيد : ((الحمد رأس الشكر والتوحيد)) (٧) كما جمع بينهما في أم القرآن ، فأولها تحمد وأوسطها توحيد ، وآخرها دعاء ، وكما في

---

(١) سورة الشورى ١٠ .

(٢) سورة المزمل ٨-٩ .

(٣) الفتاوى ١٤/٣٧٥-٣٧٧ ، وانظر ١٠/١٦٣ .

(٤) رواه مسلم في الصلاة (ح ٤٧٦) وأبو داود في الصلاة (ح ٨٤٦) والنسائي في الغسل والتيمم (ح٤٠٣) وابن ماجه في إقامة الصلاة (ح ٨٧٨) .

(٥) سورة النساء ٧٩ .

(٦) رواه البخاري في الدعوات (ح ٦٣٢٣) والنسائي في الاستعاذة (ح٥٥٢٢) والترمذي في الدعوات (ح٣٣٩٣) والنسائي في الاستعاذة (ح٥٥٢٢) .

(٧) لم أقف على من خرجه .

قوله تعالى : ﴿ هو الحي لاإله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين ، الحمد لله رب العالمين ﴾(١) وفي الموطأ : ((أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير)) (٢) .
فقوله : ((لاإله إلا الله وحده لاشريك له)) توحيد ، وقوله : ((له الملك وله الحمد)) تمجيد .

فالتسبيح والتحميد والتوحيد لله ، فإنه لايأتي بالحسنات إلا هو ، والاستغفار من ذنوب النفس التي منها تأتي السيئات .

وقد قرن الله في كتابه بين التوحيد والاستغفار في غير موضع كقوله : ﴿ فاعلم أنه لاإله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾(٣) ...)(٤)

وفي قوله : ﴿.. وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ﴾ (٥) وفي قوله : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه ﴾(٦)

فتبين من هذا أن النبي ﷺ أكمل الناس تحقيقاً للتوحيد ، وتحقيقاً للعبادة بالتوبة والاستغفار والدعاء والتسبيح والتهليل وغير ذلك .

وقد بين ـ رحمه الله ـ أنه (لا يفهم من توبة الأنبياء واستغفارهم أن ذلك نقصاً في حقهم وفي أعمالهم ؛ بل هي من أفضل الكمالات ، وبها يرفع الله درجاتهم ، ويعظم حسناتهم ، ويعلي مقامهم.

---

(١) سورة غافر ٦٥ .

(٢)رواه الإمام مالك في النداء للصلاة (ح ٤٩٨) وفي الحج (ح ٩٦٣) والترمذي نحوه في الدعوات (ح٣٥٨٥) وقال حديث غريب . وصححه الألباني في الصحيحة (ح١٥٠٣) .

(٣) سورة محمد ١٩ .

(٤) الفتاوى ١٤/٤١٥-٤٢٠ بتصرف ، وانظر ٣/١٢٢ ، ١٠/٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٨٧-٩٠ ، ٣١٠ ، ١١/٦٩٦، ٦٩٧. وراجع المبحث الثاني من هذا الفصل .

(٥) سورة هود ٣ .

(٦) سورة فصلت ٦ .

كما أن التوبة والاستغفار واجبة على جميع الخلق ، كما قال تعالى : ﴿وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ، ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات ﴾ (١) فغاية كل مؤمن هي التوبة والاستغفار.

وقد أخبر الله جل شأنه عن عامة الانبياء بالتوبة والاستغفار : عن آدم ونوح وإبراهيم وموسى وغيرهم ، فقال آدم : ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾(٢) وقال نوح : ﴿رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم، وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين﴾(٣) وقال الخليل : ﴿ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾(٤) وقال هو وإسماعيل : ﴿..وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾(٥) وقال موسى : ﴿ أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين، واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك ﴾(٦) .. وفي أواخر ما أَنْزَلَ على نبيه ﷺ :﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ۞ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ۞ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾(٧)....(٨)

(ومحمد ﷺ أكمل الخلق وأكرمهم على الله ، وهو المقدم على جميع الخلق في أنواع الطاعات ، فهو أفضل المحبين لله ، وأفضل المتوكلين على الله ،

---

(١) سورة الأحزاب ٧٢ .

(٢) سورة الأعراف ٢٣ .

(٣) سورة هـد ٤٧ .

(٤) سورة ابراهيم ٤١ .

(٥) سورة البقرة ١٢٨ .

(٦) سورة الأعراف ١٥٥ـــ ١٥٦ .

(٧) سورة النصر .

(٨) انظر الفتاوى ١٥/٥١-٥٥ .

وأفضل العابدين له ، وأفضل العارفين به ، وأفضل التائبين إليه ، وتوبته أكمل من توبة غيره ، ولهذا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر...) [١]

وبالجملة فإنه ﷺ كان أكمل الخلق تحقيقاً للحمد والشكر والاستغفار والتوبة والإنابة ونحو ذلك .

حسمه للشرك

ومن كمال تحقيقه للتوحيد حسمه للشرك بجميع أنواعه ، وسده الأبواب الموصلة إلى ذلك ، فإنه ﷺ لم يأل جهداً في فعل ذلك وتحذير أمته منه ، حتى لم ينس ذلك وهو يعاني من سكرات الموت حيمنا قال : ((..لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) يحذر ما صنعوا [٢] .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - : (وقد كان النبي ﷺ يحقق هذا التوحيد لأمته ، ويحسم عنهم مواد الشرك ؛ إذ هذا تحقيق قولنا لاإله إلا الله ، فإن الإله هو الذي تألهه القلوب لكمال المحبة والتعظيم ، والإجلال والإكرام ، والرجاء والخوف ، حتى قال لهم : ((لاتقولوا ما شاء الله وشاء محمد ؛ ولكن قولوا ما شاء الله ثم ما شاء محمد)) [٣] وقال له رجل : ((ماشاء الله وشئت ، فقال : اجعلتني لله نداً ، بل ما شاء الله وحده)) [٤] وقال : ((من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت))[٥] وقال : ((من حلف

---

(١) الفتاوى ٥٦/١٥ .

(٢) رواه البخاري في الصلاة (ح ٤٣٦) ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (ح ٥٣١) والنسائي في المساجد (ح ٥٠٣) والدارمي في الصلاة (ح ١٤٠٣) .

(٣) رواه أبو داود في الأدب (ح ٤٩٨٠) .والدارمي في الإستئذان (ح٢٦٩٩) .وصححه النووي في الأذكار ص ٥١٣ ، وقال الشيخ سليمان بن عبد الوهاب : " رواه أبو دواد بسند صحيح " التيسير ص٥٩٥ .

(٤) رواه ابن ماجه في المقدمة (ح١١٧) وأحمد ٢١٤/١ ، ٢٢٤ ، ٢٨٣ ، ٣٤٧ ، والبخاري في الأدب المفرد (ح٧٨٣) وصححه أحمد شاكر في تحقيقه للمسند (ح١٨٣٩) ، (١٩٦٤) .

(٥) رواه البخاري في الشهادات (ح ٢٦٧٩) ومسلم في الأيمان (ح ١٦٤٦) وأبو داود في الأيمان والنذور (٣٢٤٩؛) والترمذي في الأيمان والنذور (ح ١٥٣٣) .

بغير الله فقد أشرك))[١] وقال لابن عباس : ((إذا سألت فسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ..))[٢] وقال : ((لاتطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، وإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله ..)) [٣] ...وهذا باب واسع.)[٤] وسيأتي تفصيله في الباب الرابع إن شاء الله تعالى.

---

(١) رواه أبو داود في الأيمان والنذور (ح ٣٢٥١) والترمذي في الأيمان والنذور (ح ١٥٣٥) ، وقال : " هذا حديث حسن " .

(٢) تقدم تخريجه قريباً انظر الفهارس .

(٣) سيأتي تخريجه انظر الفهارس .

(٤) الفتاوى ١٣٦/١ . وانظر الفتاوى ٣٩٧/٣ - ٤٠٠ . ومنهاج السنة النبوية ٤٠٤/٢-٤٠٦ .

الفصل الثالث :في توحيد العبادة

وفيه ستة مباحث

المحبث الأول : في تعريفه للعبادة

المحبث الثاني : بيانه لشرطي العبادة

المبحث الثالث : بيانه لأنواع العبادة

المحبث الرابع : تعريفه لتوحيد العبادة

المحبث الخامس : بيانه لأهمية توحيد العبادة

المبحث السادس : بيانه لكملة التوحيد وتضمنها للعبادة .

تعريفه للعبادة :

تمهيد :

لقد اهتم شيخ الاسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – بالعبادة أيما اهتمام ، فاهتم بيان المراد منها ، وبيان أنواعها ، وبيان أن المستحق لها هو الله وحده إلى غير ذلك .

ويرجع اهتمامه بذلك إلى عدة أمور منها على سبيل المثال :

١) أنها مدار الدين الذي خلق العباد من أجل القيام به .

٢) أن الرسل بعثوا بها قاطبة .

٣) أن كثيراً من العباد ضلوا في مفهومها ، ومن ثم وقعوا فيما حرم الله. مع حاجتهم لها . إلى غير ذلك :

١) فأما كونها مدار الدين : فإنه من المعلوم أن عبادة الله جل وعلا هي الأصل الذي من أجله خلق الخلق ، ومن أجلها بعث الرسل وأنزلت الكتب ، وعليها مدار الدين القويم ، قال الله تعالى : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ (١)

وقد خاض الناس في بيان معنى هذا الآية واختلفوا فيها اختلافاً يدل على اختلافهم في مفهوم العبادة ، مما حدا بشيخ الاسلام – رحمه الله تعالى – بأن يبين المعنى الصحيح المراد من هذه الآية . فذكر اختلافات الناس فيها ثم بين أن المعنى الصحيح فيها : العموم أي وما خلقت جميع الجن والإنس إلا من أجل عبادتي مؤمنهم وكافرهم تقيهم وفاجرهم ، فكلهم خلق من أجل هذه الغاية وحدها ، ولا عبرة بمن قال بخلاف ذلك ؛ ناظراً إلى الواقع من امتثال العباد لهذه العبادة من عدمها .

واستدل رحمه الله فيما ذهب إليه بعدة أدلة منها :

١) أن هذا هو قول الجمهور ، وهو القول الذي دل عليه سياق الآية بل وسياق السورة بأكملها .

٢) أن (قصد العموم ظاهر في هذه الآية ، وَبَيِّنٌ بياناً لايحتمل النقيض، إذا لوكان المراد المؤمنين فقط لم يكن فرق بينهم وبين الملائكة ؛ فإن الجميع قد فعلوا ما

---

(١) سورة الذاريات آية ٥٦ .

خلقوا لـه ، ولم يذكـر الإنـس والجن عموماً ، ولم تذكـر الملائكـة ، مـع أن الطاعـة والعبـادة وقعـت مـن الملائكـة دون كثير مـن الإنـس والجـن) [١] .

٣) أن سياق الآيـة يقتضـى أن المراد بهـا جميـع الجـن والإنـس علـى وجـه العمـوم ، حيـث ذم جميـع مـن لم يعبـد الله منهـم ؛ لأن الله خلقهـم لشـيء ولم يفعلوا مـا خلقـوا لـه ، (ولهـذا عقبهـا بقولـه : ﴿ماأريد منهـم مـن رزق ومـا أريـد أن يطعمـون﴾ فإثبـات العبـادة ونفي هـذا يبين أنه خلقهـم للعبادة ...) [٢] .

٤) كمـا أنـه أعقبهـا بذكـر عقـاب مـن عـدل عـن عبادتـه إلى عبـادة غـيره فقـال : ﴿ فـإن للذيـن ظلمـوا ذنوبـاً مثـل ذنـوب أصحـابهم فـلا يستعجلون﴾ أي نصيبـاً مثـل نصيـب أصحـابهم الكفـار المتقدمـين ، فـإن لهـم نصيبـاً مـن العـذاب والوعيـد الـذي ذكـره في أول هـذه السـورة وآخرهـا .

فقـد ذكـر عقابـه لهـم في الدنيـا في أولهـا ، وذلـك في قولـه : ﴿قتـل الخراصـون ، الذيـن هـم في غمـرة ساهـون ...﴾ الآيـات . ثـم أعقـب ذلـك بذكـر وعـده للمؤمنـين ، الموحديـن الذيـن صرفـوا العبـادة لـه وحـده فقـال : ﴿إن المتقـين في جنـات النعيـم ﴾ الآيـات . ثـم أعقـب ذلـك بذكـر قصـص مـن آمـن فنفعـه إيمانـه ، ومـن كفـر فعذبـه بكفـره ، ثـم بـين بعـد ذلك الآيات الدالـة على مـا يجب مـن الإيمـان والعبادة ، وأردفـه بـأمره بعبادتـه وحـده حيـث قـال : ﴿ففـروا إلى الله إني لكـم منـه نذيـر مبين ، ولا تجعلوا مـع الله إلهـاً آخـر إنـي لكـم منـه نذيـر مبـين ﴾[٣].[٤]

ثـم أردف – رحمـه الله – ذلـك بتقريـر أن (هـذا كلـه يتضمـن أمـر الإنـس والجـن بعبادتـة وطاعـة وطاعـة رسـله ، واسـتحقاق مـن يفعـل غـير ذلـك العقوبـة في الدنيـا والآخرة ، فـإذا قـال بعـد ذلـك : ﴿ ومـا خلقـت الجـن والإنـس إلا ليعبـدون ، مـا أريـد منهـم من رزق ومـا أريـد أن يطعمـون﴾ كـان هـذا مناسبـاً لمـا تقـدم مؤتلفـاً معـه : أي هـؤلاء الذيـن أمرتهـم إنمـا خلقتهـم لعبـادتي ، مـا أريـد منهـم غير ذلـك لارزقـا ولا طعامـاً .

(١) الفتـاوى ٨/٤٠-٤١ ، وانظر درء تعـارض العقـل والنقـل ٨/٤٦٨ ومـا بعدهـا .

(٢) نفـس المصدر السـابق ٤١ .

(٣) سـورة الذاريـات ١٠ ومـا بعدهـا .

(٤) انظـر الفتـاوى ٨/٣٧-٤٤ .

فإذا قيل المراد بذلك المؤمنين ، كان هذا مناقضاً لما تقدم ، - يعني في السورة - وصار هذا كالعذر لمن لايعبده ممن ذمه الله ووبخه ، وغايته أن يقول : أنت لم تخلقني لعبادتك وطاعتك ، ولو خلقتني لها لكنت عابداً ، وإنما خلقت هؤلاء فقط لعبادتك ، وأنا خلقتني لأكفر بك وأشرك بك ، وأكذب رسلك ، وأعبد الشيطان وأطيعه ، وقد فعلت ما خلقتني له كما فعل أولئك المؤمنون ، وما خلقتهم له ، فلا ذنب لي ولا أستحق العقوبة .. وكلام الله منزه عن هذا ...)[1]

فتبين من هذا أن العبادة هي الغاية من خلق الخلق وإيجادهم ، كما أنها مدار الدين الذي بعث به المرسلون ، وإذا كان الأمر كذلك فإنه حري بكل عبد أن يعرف ماهي العبادة المشروعة التي خلق من أجلها ، وأمر بها ، وتكفل الله لمن قام بها بدخول الجنة والفلاح في الدنيا والآخرة ، ومن حاد عنها بدخول النار ، والخذلان في الدنيا والآخرة والعياذ بالله .

وعلى هذا فـ (عبادة الله وحده هي أصل الدين) الذي لايقبل الله من أحد ديناً سواه . قال تعالى : ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾[2] .[3]

٢) وأما كون الرسل بعثوا لأجلها :

هذا أمر معلوم من الدين بالضرورة . ويرجع اهتمام شيخ الإسلام ــ رحمه الله تعالى ــ بتعريفها وبيان كون الرسل جميعاً قد بعثوا لأجل تحقيقها لله وحده لا شريك له ، ونبذ كل ما عبد من دونه ،يرجع ذلك إلى أن هذا الأمر مدار (.. التوحيد الذي بعث الله به الرسل وأنزل به الكتب ، فقال تعالى : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾[4] وقال : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة

---

(١) المصدر السابق ٤٢/٨-٤٣ ، وانظر درء تعارض العقل والنقل ٤٨٠/٨ وما بعدها .

(٢) سورة ال عمران آية ٨٥ .

(٣) الفتاوى ٣٩٧/٣ .

(٤) سورة الزخرف آية ٤٥ .

رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾[1] وقال : ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لاإله إلا أنا فاعبدون﴾ [2]... [3]

ولما بعث رسول الله ﷺ معاذاً إلى اليمن قال له : ((إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فليكن أول ماتدعوهم إليه شهادة أن لاإله إلا الله ...))[4] وسيأتي الكلام على هذه المسألة قريباً إن شاء الله تعالى [5] .

(٣) وأما الأمر الثالث وهو : ضلال كثير من العباد في مفهومهم للعبادة:

فمما لا ريب فيه أن الناس كانوا على مفهوم صحيح للعبادة والشريعة إلى أن استطاع إبلس وجنوده أن يُحَرِّفوا مفهومها الحق ، إلى مفهوم باطل ، حينما دعاهم لعبادة غير الله .

فأرسل الله رسله لتصحيح مفهوم العبادة لدى كثير ممن ضل فيها وعبد مع الله غيره ، وما أن تمضي فترة على إرسال الرسل إلا وينحرف الناس شيئاً فشيئاً عن المفهوم الصحيح للعبادة ، فيعبدوا مع الله غيره ؛ حتى بعد مبعث نبينا محمد ﷺ فإنه قد ضل كثير من أمة محمد ﷺ في مفهوم العبادة التي تقتضي إفراد الله بها ، وحده فغرق بعضهم في عبادة المشايخ والقبور والأوثان ، والأشجار والأحجار وغيرها ، واعتقدوا فيها النفع والضر من دون الله ، حتى غاب مفعوم العبادة عن بعض من ينتسب إلى العلم ، حتى إنه لم يفرق بين الإلهية والربوبية ، ومن هنا وقع الناس في الشرك قديماً وحديثاً .

ويُرْجِعُ شيخ الإسلام – رحمه الله تعالى – هذا كله إلى عدم التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومعرفة مفهوم العبادة التي خلق الله الخلق من أجلها ، وتعبدهم بها ، والتي هي حق الله على عباده كما جاء في حديث معاذ ﷺ : ((وحق الله على عباده

---

(١) سورة النحل آية ٣٦ .

(٢) سورة الأنبياء آية ٢٥ .

(٣) الفتاوى ٣/٣٩٧ .

(٤) رواه البخاري في الزكاة (ح١٣٩٥) ومسلم في الإيمان (ح ١٩) .

(٥) انظر المبحث الخامس من هذا الفصل .

أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً)) [(١)] و(لاعبادة إلا ما هو واجب أو مستحب في دين الله ، وما سوى ذلك فضلال عن سبيله ، ولهذا قال : ﷺ : ((من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)) [(٢)] وقال ﷺ : .. ((إنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فَعَلَيكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى ...)) [(٣)] الحديث...) [(٤)] .

تعريف العبادة :

ولهذه الأمور ولغيرها اهتم شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - بتعريف العبادة حيث عرفها حيمنا سئل عنها بقوله : (العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة) [(٥)]

وهذا التعريف تعريف شامل جامع ، حيث ذكر فيه أن العبادة تتطلب ثلاثة أركان عابد ومعبود وعبادة .

فالعبادة اسم للفعل والقول الذي قام به العابد، سواء كان فعل جوارح أو فعل قلب ، أو قول قلب أو قول لسان ، وسواء كانت عبادة صحيحة أو غير صحيحة ، فكلها تشملها العبادة ، وهذا يدل عليه قوله (من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة) .كما أنه شمل شرطي العبادة وهذا يفهم من قوله : (لكل ما يحبه الله ويرضاه) فكل فعل أو قول أحبه الله ورضيه لابد أن يكون فاعله متوجهاً بفعله أو قوله إلى الله وحده لاشريك له مخلصاً له فيه، مذعناً له قلبه ، وإلا فإنه سبحانه لا يكون محباً له ولا مرتضياً لفعله ، وإن كان ظاهره الطاعة لأنه سبحانه يعلم السر وأخفى ، كما أنه لابد في العمل الذي يحبه الله ويرضاه ؛ لابد وأن يكون وفق ما

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد (ح٧٣٧٣) ومسلم في كتاب الإيمان (ح٣٠) والترمذي في كتاب الإيمان أيضاً (ح٢٦٤٣) .

(٢) رواه البخاري في كتاب الصلح (ح ٢٦٩٧) ومسلم في الأقضية (ح٣٢٤٢) .

(٣) رواه الترمذي في كتاب العلم (ح ٢٦٧٦) وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وأبو داود في كتاب السنة (ح٣٩٩١) .

(٤) الفتاوى ٤/١ .

(٥) الفتاوى ١٤٩/١٠ .

شرعه وقضاه ، وإلا لايكون أيضاً راضياً به ومحباً له ، قال تعالى : ﴿..فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ (١)

وقال سبحانه : ﴿قل إن كنتم تحبون ا لله فاتبعوني يحببكم ا لله ويغفر لكم ذنوبكم وا لله غفور رحيم﴾ (٢) فكل عمل أحبه ا لله ورضيه فقد شرعه وأمر به ، قال ا لله تعالى : ﴿يومئذ لاتنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً﴾(٣)

فهذا مقتضى العبادة التي أمر ا لله بها ، إذ لابد فيها من العمل بشريعة ا لله وفق ما جاء عن ا لله ، امتثالاً وطاعة لأمر ا لله وما سوى ذلك فليس عبادة وشرعة (٤) .

كما أن هذا التعريف شمل أنواع العبادة ؛ حيث قسمها ــ رحمه ا لله ــ إلى قسمين : أعمال باطنةٌ ، وهذه تتعلق بأعمال القلب كالمحبة والخوف والرجاء والرغبة والرهبة ونحوها وأقواله التي هي التصديق والعزم على الانقياد والفعل .

والقسم الثاني أعمال تتعلق بالظاهر من أعمال البدن ، كالتلفظ بالشهادتين ، والصلاة والصيام والصدقة والحج والجهاد وإغاثة الملهوف ، ونصرة المظلوم ونحو ذلك . وسيأتي تفصيلٌ لهذه الأنواع قريباً بإذن ا لله.(٥)

معنى العبادة :

وقد بين شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه ا لله تعالى - : أن العبادة أصلها الذل لله جل وعلا والخضوع مع المحبة التامة ، ولا يكفي أحدهما في عبادة ا لله تعالى دون الآخر؛ بل لابد من اجتماعهما ، وإلا لم يكن الفعل عبادة .

قال رحمه ا لله : (والعبادة أصل معناها الذل ، يقال طريق معبد إذا كان مذللاً قد وطئته الأقدام ؛ لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له ، فإن آخر مراتب الحب التتيم ، وأوله العلاقة لتعلق القلب

---

(١) سورة الكهف آية ١١٠ .

(٢) سورة ال عمران ٣١ .

(٣) سورة طه ١٠٩ .

(٤) انظر الفتاوى ١١/٣٢٤، ٦١٦ ، ١/٤ .

(٥) انظر المبحث الثالث من هذا الفصل .

بالمحبوب ، ثم الصبابة لانصباب القلب إليه ، ثم الغرام وهو الحب اللازم للقلب ، ثم العشق وآخرها التتيم ، يقال : تيم الله أي : عبدالله ، فالمتيم المعبد لمحبوبه .

ومن خضع لإنسان مع بغضه له لايكون عابداً له ، ولو أحب شيئاً و لم يخضع له لم يكن عابداً له ، كما قد يحب ولده وصديقه ، ولهذا لايكفي أحدهما في عبادة الله تعالى ، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء ، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء ، بل لايستحق المحبة والذل التام إلا الله .

وكل ما أُحِبَّ لغير الله فمحبته فاسدة ، وما عُظِمَ بغير أمر الله كان تعظيمه باطلاً ، قال الله تعالى : ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانك وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره﴾ (1) فجنس المحبة تكون لله ورسوله ، كالطاعة ، فإن الطاعة لله ورسوله والإرضاء لله ورسوله : ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ (2) والإيتاء لله ورسوله : ﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ...﴾ (3) ...) (4) .

وليس للخلق محبة أعظم ولا أكمل ولا أتم من محبة المؤمنين لربهم ، وليس في الوجود ما يستحق أن يحب لذاته من كل وجه إلا الله تعالى ، وكل ما يحب سواه فمحبته تبع لمحبته ، فإن الرسول ﷺ إنما يحب لأجل الله ويطاع لأجل الله.

ومن أحب شيئاً المحبة التامة وجد لذلك حلاوة ولذة ، وفرح واستبشر بطاعة الله واتباع رسوله ﷺ قال الله تعالى : ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون﴾ (5) يستبشرون بما أنزل الله عليه من آياته العظيمة (6) .

---

(١) سورة التوبة آية ٢٤ .

(٢) سورة التوبة آية ٦٢ .

(٣) سورة التوبة آية ٥٩

(٤) الفتاوى ١٠/١٥٣-١٥٤ .

(٥) سورة التوبة ١٢٤ .

(٦) انظر الفتاوى ٢٠/٤٥ ، ١٤/٢٤٠-٢٤٢ .

وإذا ما خالط الحب غير الله وامتزج به صار على صاحبه من أعظم الوبال والعذاب في الدنيا والآخرة [١] .

وهنا قد يرد اشكال في فهم بعض النصوص أورده رحمه الله ثم أجاب عنه فقال : (فإن قيل : فإذا كان جميع ما يحبه الله داخلاً في اسم العبادة فلماذا عطف عليها غيرها ؛ كقوله : ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ وقوله : ﴿فاعبده وتوكله عليه﴾ [٢] وقول نوح ﷺ : ﴿اعبدوا الله واتقوه وأطيعون﴾ [٣] ، وكذلك قول غيره من الرسل ؟ .)

فأجاب رحمه الله بقوله :

(قيل هذا له نظائر كما في قوله : ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾[٤] وكذلك قوله : ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي﴾ [٥] وإيتاء ذي القربى هو من العدل والإحسان ، كما أن الفحشاء والبغي من المنكر ، وكذلك قوله : ﴿والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة﴾ [٦] وإقامة الصلاة من أعظم التمسك بالكتاب. وكذلك قوله : ﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً ﴾ [٧] ودعاؤهم رغباً ورهباً من الخيرات ، وأمثال ذلك في القرآن كثير .

وهذا الباب يكون تارة مع كون أحدهما بعض الآخر فيعطف عليه تخصيصاً له بالذكر لكونه مطلوباً بالمعنى العام ، والمعنى الخاص ، وتارة تكون دلالة الاسم تتنوع بحال الانفراد والاقتران ، فإذا أفرد عم ، وإذا قرن بغيره خص ، كاسم الفقير والمسكين

---

(١) انظر الفتاوى ١٤/١٦٢ ، ٢٠٥ .

(٢) سورة هود ١٢٣ .

(٣) سورة نوح ٣ .

(٤) سورة العنكبوت ٤٥ .

(٥) سورة النحل ٩٠ .

(٦) سورة الأعراف ١٧٠ .

(٧) سورة الأنبياء ٩٠ .

لما أفرد أحدهما في مثل قوله : ﴿للفقراء الذي احصروا في سبيل الله﴾[١] وقوله : ﴿ فكفارته إطعام عشرة مساكين﴾[٢] دخل فيه الآخرة ، ولما قرن بينهما في قوله : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾[٣] صارا نوعين ...)[٤] .

فاتضح من هنا أن معنى العبادة يقترن بالحب والذل التام للمعبود ، وأن العبادة التي تخلوا من هذا المعنى لا تكون عبادة تامة كاملة ، وإن سميت في الظاهر بالعبادة ، فإن العبد قد يخضع لغيره ويعبده دون أن يكون محباً له محبة مستلزمة الذل والخضوع الذي هو مقتضى العبودية .

معنى المعبود :

لقد اشتمل تعريفه - رحمه الله تعالى - للعبادة على قصد المعبود بالعبادة وتخصيصه بها .

وقد فسر - رحمه الله - المعبود بأنه (المألوه الذي تألهه القلوب محبة وإنابة وترغب إليه عند الشدائد ، وما سواه فهو مفتقر مقهور بالعبودية .. فهو سبحانه المستحق أن يعبد لذاته ، قال الله تعالى : ﴿الحمد لله رب العالمين ﴾ فذكر الحمد بالألف واللام التي تقتضي الاستغراق لجميع المحامد، فدل على أن الحمد كله لله ، ثم حصره في قوله : ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ فهذا تفصيل لقوله : ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ فهذا يدل على أنه لا معبود إلا الله ، وأنه لايستحق أن يعبد أحد سواه ، فقوله : ﴿إياك نعبد ﴾ إشارة إلى عبادته بما اقتضته إلهيته : من المحبة والخوف والرجاء والأمر والنهي ، ﴿وإياك نستعين﴾ إشارة إلى ما قتضته الربوبية والإصلاح ، والمالك الذي يتصرف في ملكه كما يشاء .)[٥]

---

(١) سورة البقرة آية ٢٧٣ .

(٢) سورة المائدة ٨٩ .

(٣) سورة التوبة ٦٠ .

(٤) الفتاوى ١٠/١٧٤-١٧٥ .

(٥) الفتاوى ١/٨٨-٨٩ ، وانظر منهاج السنة ٣/٣٣٥ .

فالمعبود هو الإله كما قال سبحانه : ﴿قل يا أيها الكافرون ، لاأعبد ما تعبدون﴾ أي لاأعبد إلهكم ، ولا تعبدون إلهي [١] .

كما أن المعبود هو المقصود النافع ، وما سواه فإنه باطل وإن قُصِدَ بالعبادة والتوجه ونحوه ، كما قَصَدَ المشركون الأصنام لطلب النفع ودفع الضر ، مع كونها لاتملك ذلك ، فصارت بذلك باطلة وعبادتها وقصدها باطل . فالعمل والقصد والمعبود إنما هو حق باعتبار حقيقته المقصودة ، فإن حصلت وكانت نافعة كان حقاً ، وإن لم تحصل ، أو حصل ما لا منفعة فيه كان باطلاً .

قال الله تعالى : ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ الذين كفرو وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ، ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم ، كذلك يضرب الله للناس أمثالهم ﴾ [٣]

فأخبر سبحانه أن سبب إضلال أعمال هؤلاء الذين كفروا حتى لم تنفعهم ، وأن أعمال هؤلاء الذين آمنوا نفعتهم ، فكفرت سيآتهم وأصلح الله بالهم : أن هؤلاء اتبعوا الباطل قولاً وعملاً ، اعتقاداً واقتصاداً ، خبراً وأمراً . وهؤلاء اتبعوا الحق من ربهم ، و لم يتبعوا ماهو من غير ربهم ... [٤]

وقد ذكر - رحمه الله - أن المقصود يكون على نوعين :

(إما أن يقصد لنفسه ، وإما أن يقصد لغيره .

فالمقصود لغيره مثل ما يقصد الخبز للأكل ، والثوب للبس ، والسلاح للدفع، ونحو ذلك ، وهو ما خلقه الله لنفع بنى آدم من الأعيان ، فإن هذه تقصد لغيرها لا

---

(١) انظر الفتاوى ١٦/٥٦٨ -٥٦٩ .

(٢) سورة النور آية ٣٩.

(٣) سورة محمد ﷺ آية ١-٣ .

(٤) انظر الفتاوى ٢/٤١٦ ، ٤١٩ .

لذاتها ، وكذلك المال الذي يقصد به جلب منفعة أو دفع مضرة إنما يقصد لغيره لالنفسه ، وكل ما قصد لغيره فإنما المقصود في الحقيقة ذلك الغير ...

فثبت أنه إن لم يحصل في كل قصد مقصود لنفسه وإلا كان باطلاً ، والمقصود لنفسه إن لم يكن هو الله كان باطلاً ، فإن المقصود لنفسه هو المعبود ، ومن عبد غير الله كان باطلاً [أي ذلك المعبود] ، وعبادته باطلة ؛ لأنه لامنفعة فيه ولا في عبادته ، بل ذلك ضرر محض . قال الله تعالى : ﴿ويدعو لمن ضره أقرب من نفعه﴾[1] وهذا عام في كل معبود وهذا حقيقة الدين . فإن الله إنما خلق الخلق لعبادته وحده لاشريك له ، وسخر لهم ما في السموات وما في الأرض ليستعينوا به على عبادته ، فمن لم يستعين بهذه الأشياء على عبادته فعمله كله وقصده باطل ، ولا منفعة فيه ، بل فيه الضرر.

فثبت أن كل قصد ومقصود سوى الله باطل ، سواء كان مقصوداً لنفسه أو مقصوداً لغيره سوى الله ، وإنما الحق أن يقصد الله ، أو يقصد ما يستعان به على قصد الله...) [2] . إذاً العبادة تتضمن القصد والطلب والإرادة والمحبة [3] فالله سبحانه وتعالى هو المعبود الحق الذي يجب أن يكون هو المقصود المدعو المطلوب ، وهو المعين على المطلوب ، وما سواه هو المكروه ، وهو المعين على دفع المكروه . وهذا معنى قوله تعالى : ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب ؛ لكن على أكمل الوجوه ، والمستعان هو الذي يستعان به على المطلوب [4] .

(ولن يستغنى القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مولاه الذي لايعبد إلا إياه ، ولا يستعين إلا به ، ولا يتوكل إلا عليه ولا يفرح إلا بما يحبه ويرضاه ، ولا يكره إلا ما يبغضه الرب ويكرهه ، ولا يوالى إلا من والاه الله ، ولا يعادي إلا من عاداه الله ، ولا يحب إلا الله ، ولا يبغض شيئاً إلا لله ، ولا يعطى إلا

---

(١) سورة الحج ١٣ .

(٢) الفتاوى ٢/٤٢٤-٤٢٥ .

(٣) الفتاوى ٢/٢٩٨ .

(٤) انظر الفتاوى ١/٢٢ ، ٨٨-٩٠ .

لله ولا يمنع إلا الله ، فكلما قوى إخلاص دينه كملت عبوديته واستغناؤه عن المخلوقات ، وبكمال عبوديته)[١] وقصده للواحد الأحد يستغنى عن كل مقصود .

وهذا هو حق الله على عباده ، إذ أن حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، كما في الحديث الصحيح الذي رواه معاذ عن النبي ﷺ أنه قال : ((أتدري ما حق الله على عباده ؟ قال : قلت الله ورسوله أعلم . قال : حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ . قال : قلت الله ورسوله أعلم . قال : حقهم أن لا يعذبهم))[٢].

فالله جل وعلا يحب من عباده أن يقصدوه بالعبادة وحده ، ويفرح بتوبة من تاب منهم إليه . وليس في الكائنات ما يسكن إليه العبد ويطمئن به، ويتنعم بالتوجه إليه ، إلا الله سبحانه وتعالى ، ومن قصد غيره بالعبادة والتوجه وإن أحبه وحصل له به مودة في الحياة الدنيا ونوع من اللذة فهو مفسدة لصاحبه أعظم من مفسدة التذاذ أكل الطعام المسموم ، قال سبحانه وتعالى : ﴿..لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون﴾ [٣] فإن قوامهما بأن تأله الإله الحق وتقصده بالعبادة ، فلو كان فيهما آلهة غير الله لم يكن إلهاً حقاً ، إذ لاسمي له ولا مثل له ، فكانت تفسد لانتفاء ما به صلاحها.[٤]

معنى العبد

وأما العبد فهو الشخص الذي يقع منه الفعل ، ولقد قرر شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - أنه يطلق ويراد به معنيين :

العبد بمعنى المعبد الذي عبَّدَهُ الله فذلله ودبره ، وصرفه ، وبهذا الاعتبار المخلوقون كلهم عباد الله سواء كانوا من الأبرار أوالفجار ، من المؤمنين أوالكفار ، من أهل الجنة أو من أهل النار ، إذا هو ربهم كلهم ومليكهم ، لايخرجون عن مشيئته

---

(١) الفتاوى ١٠/١٩٨ .

(٢) تقدم تخريجه في كيفية تحقيق التوحيد انظر الفهارس

(٣) سورة الأنبياء ٨٨ .

(٤) انظر الفتاوى ١/٢٣-٢٤

وقدرتـه ، وكلماتـه التامـات الـتي لايجـاوزهن بـر ولا فـاجر ، فمـا شـاء كـان وإن لم يشـاؤا ، وما شـاؤا إن لم يشـأ لم يكـن ، كمـا قـال تعـالى : ﴿ أفغـير ديـن الله يبغـون ولـه أسـلم مـن في السـموات والأرض طوعـاً وكرهـا وإليـه يرجعـون﴾[١] .

فهـو سـبحانه رب العـالمين وخـالقهم ورازقهـم ومحييهـم ومميتهـم ومقلـب قلوبهـم ومصـرف أمورهـم ، لارب لهـم غـيره ، ولا مـالك لهـم سـواه ولا خـالق إلا هـو سـواء اعـترفوا بذلـك أو أنكـروه ، وسـواء علمـوا ذلـك أو جهلـوه ، لكـن أهـل الإيمـان منهـم عرفـوا ذلـك واعـترفوا بـه ، بخلاف مـن كـان جـاهلاً بذلـك أو جـاحداً مسـتكبراً علـى ربـه، لايقـر لـه ولا يخضـع ، مـع علمـه بـأن الله ربـه وخالقـه ؛ وهـذه المعرفـة لاتنفـع صاحبهـا بـل تكـون عذابـاً ووبـالاً عليـه قـال تعـالى :﴿ وجحـدوا بهـا واسـتيقنتها أنفسـهم ظلمـاً وعلـواً فـانظر كيـف كـان عاقبـة المفسـدين﴾ [٢] وقـال سـبحانه : ﴿ الذيـن آتينـاهم الكتـاب يعرفونـه كمـا يعرفـون أبنـاءهم ، وإن فريقـاً منهـم ليكتمـون الحـق وهـم يعلمـون﴾ [٣] .

وهـذه العبوديـة لاتفـرق بـين أهـل الجنـة وأهـل النـار ، ولا يصـير الرجـل بهـا مؤمنـاً كمـا قـال تعـالى : ﴿وما يؤمـن أكـثرهم بـالله إلا وهـم مشـركون﴾ [٤] ، فـإن العبـد إذا اعـترف بـأن الله ربـه وخالقـه ، وأنـه مفتقـر إليـه محتـاج إليـه يكـون قـد عـرف العبـودة المتعلقـة بربوبيـة الله ، وهـذا العبـد يسـأل ربـه فيتضـرع إليـه ويتوكـل عليـه ، لكـن قـد يطيـع أمره ، وقد يعصيـه ، وقـد يعبـده مـع ذلـك ، وقـد يعبـد الشيطان والأصنـام .

فـإن المشـركين كـانوا يقـرون أن الله خـالقهم ورازقهـم وهـم يعبـدون غـيره ، قـال تعـالى : ﴿ولئـن سـألتهم مـن خلـق السـموات والأرض ليقولـن الله قـل الحمـد لله بـل أكـثرهم لايعلمـون﴾ [٥] . بـل إن إبليـس معـترف بأنـه الله ربـه ، قـال تعـالى علـى لسـانه :

---

(١) سـورة ال عمـران ٨٣ .

(٢) سـورة النحـل ١٤ .

(٣) سـورة البقـرة آيـة ١٤٦ .

(٤) سـورة يوسـف ١٠٦ .

(٥) سـورة لقمـان ٢٥ .

﴿قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون﴾[1] وكذلك أهل النار مقرون بذلك ومعترفون قال تعالى حكاية عنهم : ﴿ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ظالين﴾ [2]

وقال تعالى : ﴿ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا ﴾ [3] فمن وقف عند هذه الحقيقة الكونية ولم يقم بما أمر الله به من الحقيقة الشرعية التي هي عبادة الله وحده المتعلقة بإلهية وطاعة أمره وأمر رسوله كان من جنس إبليس وأهل النار ، وإن ظن أنه من خواص أولياء الله أهل المعرفة والتحقيق ، فهؤلاء الذين يظنون ذلك ويزعمون سقوط الأمر والنهي الشرعيان عنهم هم كان من أشر أهل الكفر والإلحاد . [4]

وأما المعنى الثاني من معنى العبد فهو : العبد بمعنى العابد .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - : (النوع الثاني من معنى العبد وهو العبد بمعنى العابد فيكون عابداً لله لايعبد إلا إياه ، فيطيع أمره وأمر رسله ، ويوالي أولياءه المؤمنين المتقين ، ويعادي أعداءه ، وهذه العبادة متعلقة بإلهيته ، ولهذا كان عنوان التوحيد "لاإله إلا الله " بخلاف من يقر بربوبيته ولا يعبده أو يعبد معه إلهاً آخر ، فالإله الذي يألهه القلب بكمال الحب والتعظيم والإجلال والإكرام والخوف والرجاء ونحو ذلك ، وهذه العبادة هي التي يحبها الله ويرضاها ، وبها وصف المصطفين من عباده وبها بعث رسله .

وأما العبد بمعنى المعبد سواء أقر بذلك أو أنكره ؛ فتلك يشترك فيها المؤمن والكافر ، وبالفرق بين هذين النوعي يعرف الفرق بين الحقائق الدينية الداخلة في عبادة الله وأمره الشرعي التي يحبها ويرضاها ، ويوالى أهلها ويكرمهم بجنته ، وبين الحقائق الكونية التي يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر ، التي من أكتفى بها ولم يتبع الحقائق الدينية كان من أتباع ابليس اللعين والكافرين برب العالمين ، ومن اكتفى بها في بعض الأمور دون بعض، أو في مقام أو حال نقص من إيمانه وولايته لله بحسب ما

---

(١) سورة الحجر ٣٦ .

(٢) سورة المؤمنون آية ١٠٦ .

(٣) سورة الأنعام ٣٠ .

(٤) انظر الفتاوى ١٠/١٥٤-١٥٥ ، ٢٠٠ .

نقص من الحقائق الدينية ، وهذا مقام عظيم غلط فيه الغالطون وكثر فيه الاشتباه على السالكين...)(١) .

والمراد بالعبودية الثانية عبودية القهر والاستسلام كما قال تعالى : ﴿ إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً ، لقد أحصاهم وعدهم عداً ﴾(٢) وقال سبحانه : ﴿ وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرها ﴾(٣) وقال : ﴿و لله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً ﴾(٤) .

قال رحمه الله : (وهذا العبودية وصف لازم للعبد لاينفك عنه ، إذا أريد بها جريان القدر عليه وتصريف الخالق له ، قال تعالى :﴿ أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون﴾ (٥) وعامة السلف على أن المراد بالاستسلام استسلامهم له بالخضوع والذل ، لامجرد تصريف الرب لهم كما في قوله : ﴿ و لله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً﴾ (٦) وهذا الخضوع والذل هو أيضاً لازم لكل عبد لابد له من ذلك ، وإن كان يعرض له أحياناً الإعراض عن ربه والاستكبار ، فلا بد له عند التحقيق من الخضوع والذل به ؛ لكن المسلم يسلم له طوعاً فيحبه ويطيع أمره ، والكافر إنما يخضع له عند رغبتة ورهبتة ، فإذا زال عنه ذلك أعرض عن ربه ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ﴾ (٧) ...) (٨).



(١) الفتاوى ١٠/١٥٧-١٥٨ .وانظر في هذا ١٤/٢٩-٣١ .

(٢) سورة مريم ٩٤ .

(٣) سورة ال عمران ٨٣ .

(٤) سورة الرعد ١٥ .

(٥) سورة ال عمران ٨٣ .

(٦) سورة الرعد ١٥ .

(٧) سورة يونس ١٠ .

(٨) الفتاوى ١٤/٣٠-٣١ .

بيانه لشرطي العبادة

تمهيد :

اهتم شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ ببيان شرطي العبادة اهتماماً بالغاً وكرر ذكرهما ، ووضح أن مدار قبول الأعمال متوقف على تحقيقهما ، وأن جميع العباد لا تصح عباداتهم إلا بالإتيان بهذين الشرطين.

وأول هذين الشرطين الإخلاص ، وثانيهما المتابعة لرسول الله ﷺ ، واقتفاء سنته وسنة خلفائه الراشدين .

قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (ودين الإسلام مبني على أصلين : على أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيء ، وعلى أن يعبد بما شرعه على لسان نبيه ﷺ ، وهذان هما حقيقة قولنا : " أشهدن أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فالإله الذي تألهه القلوب عبادة واستعانة ومحبة وتعظيماً وخوفاً ورجاء وأجلالاً وإكراماً ، والله عز وجل له حق لا يشركه فيه غيره ، فلا يعبد إلا الله ولا يدعى إلا الله ، ولا يخاف إلا الله ولا يطاع إلا الله .

والرسول ﷺ هو المبلغ عن الله تعالى أمره ونهيه وتحليله وتحريمه ، فالحلال ما أحلله والحرامه ما حرمه ، والدين ما شرعه ، والرسول ﷺ واسطة بين الله وبين خلقه في تبليغ أمره ونهيه ووعده ووعيده وتحليله وتحريمه وسائر ما بلغه عنه)[1]

وقد دل الكتاب والسنة على هذين الأصلين دلالة واضحة بينة لا تخفى ، فمن ذلك ما يلي :

---

(١) الفتاوى ٣٦٥/١ وانظر ٣١٠ـ٣١١ ، ١٨٩، ٣٣٣ ، ٢٣٤/١٠ . ٢٣/٢٦-٣٢ ، ١٥١-١٥٣ ، والفتاوى الكبرى ٢٠٦/١ .

(قوله تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً)[١]

وقال تعالى :﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه إلى الله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفاً واتخذ الله ابراهيم خليلاً﴾[٣]

[قال المفسرون وأهل اللغة : معنى الآية : أخلص دينه وعمله لله وهو محسن في عمله .

وقال الفراء : .. في قوله : ﴿ فقل أسلمت وجهي لله ﴾[٤]وأخلصت عملي ، وقال الزجاج : قصدت بعبادتي إلى الله ، وهو كما قالوا ...

وهذا المعنى يدور عليه القرآن ، فإن الله تعالى أمر أن لا يعبد إلا إياه ، وعبادته فعل ما أمر ، وترك ما حظر ، والأول هو إخلاص الدين والعمل لله ، والثاني هو : الإحسان ، وهو العمل الصالح ، ولهذا كان عمر يقول في دعائه : ((اللهم اجعل عملي كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ،ولا تجعل لأحد فيه شيئاً))[٥] وهذا هو الخالص الصواب ، كما قال الفضيل بن عياض في قوله : ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾[٦]

قال أخلصه وأصوبه ، قالوا : يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم

---

(١) سورة الكهف ١١٠ .

(٢) سورة البقرة ١١٢ .

(٣) سورة النساء ١٢٥ .

(٤) سورة ال عمران ٢٠ .

(٥) أخرجه الإمام أحمد في الزهد ص ١٤٧ وذكره شيخ الإسلام في الصفدية ٢٦٢/٢ واقتضاء الصراط المستقيم ٨٣٣/٢ وغيرها .

(٦) سورة هود ٧ .

يقبل ، حتى يكون خالصاً صواباً ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة][١] .

وقوله : ﴿ ومن يسلم وجهه لله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾[٢] فإن اسلام الوجه لله يتضمن إخلاص العمل لله ، والإحسان هو إحسان العمل لله وهو فعل ما أمر به ، كما قال تعالى : ﴿ إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا ﴾[٣] فإن الإساءة في العمل الصالح تتضمن الاستهانة بالأمر ، والاستهانة بنفس العمل والاستهانة بما وعده الله من الثواب .

فإذا أخلص العبد دينه لله وأحسن العمل كان ممن أسلم وجهه لله ، فكان من الذين لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)[٤]

وما لم يكن العمل مشروعاً فإن الله لا يحبه ولا رسوله ، فلا يكون من الحسنات ولا من العمل الصالح ، كما أن من يعمل مالا يجوز من الفواحش والظلم ليس من الحسنات ، ولا من العمل الصالح ، [٥] (ولهذا ذم الله المشركين في القرآن على اتباع ما شرع لهم شركاؤهم من الدين مالم يأذن به الله من عبادة غيره ، وفعل مالم يشرعه من الدين ، كما قال تعالى : ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله ﴾[٦] كما ذمهم على أنهم حرموا مالم يحرمه الله.

والدين الحق أنه لا حرام إلا ما حرمه الله ولا دين إلا ما شرعه الله)[٧]

(١) منهاج السنة ٢٥٣/٥ . وانظر الصفدية ٢٦٢/٢-٢٦٣ .

(٢) سورة لقمان ٢٢ .

(٣) سرة الكهف ٣٠ .

(٤) الفتاوى ٢٥٠،٢٥١/١٨ .

(٥) انظر الفتاوى ١٧٣/١٠ .

(٦) سورة الشورى ٢١ .

(٧) الفتاوى ١٢٤/٣ .

وأما قوله في الآيتين : ﴿ ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ وقوله : ﴿ أسلم وجهه لله ﴾ فهو إخلاص الدين لله وحده .

ويمكن أن يضاف شرط آخر وهو الإيمان بالله الذي هو أساس الدين والعمل ؛ لأن العمل إذا كان خالصاً صواباً و لم يكن العامل مؤمناً لم ينفعه ذلك البتة ، قال الله تعالى : ﴿ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ﴾[2] ، وقال سبحانه : ﴿ الذين آمنوا و لم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾[3] وكثيراً ما يردد الله سبحانه قوله : ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ . والآيات في هذا كثيرة معلومة .

ففي هذه النصوص بيان أن العمل الصحيح المقبول لا بد أن يكون صادراً عن مؤمن بالله موحد مخلص لله في القول والعمل ، وأن يكون العمل صواباً موافقاً لما جاء به المصطفى ﷺ [4] . وبما أن هذا الشرط معلوم بالضرورة فأكتفي بالإشارة إليه .

وإليك أخي القاري الكريم تفصيل كل شرط على حدة ، مستخلصاً فيه كلام شيخ الإسلام – رحمه الله –

الشرط الأول :

الشرط الأول هو : الإخلاص لله رب العالمين في العبادة ، وهو يتعلق بالنية والإرادة والقصد ، فمن كان يريد بعمله وجه الله والدار الآخرة فقد أخلص في العمل ، وإلا فلا .

---

(١) سورة النساء ١٢٤ .

(٢) سورة النحل ٩٧ .

(٣) سورة الأنعام ٨٢ .

(٤) انظر الفتاوى ٦٧١/١١ . واقتضاء الصراط المستقيم ٨٢٢/٢ .

و الإخلاص لله ﷻ يكون في القول والعمل ، فإن من شرط العبادة أن تكون خالصة لوجه الله الكريم ، وإلا فإنها لا تقبل بأي حال من الأحوال ، وقد دل على هذا الشرط أدلة عديدة منها ما يلي:

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ (وقد ذكر الله تعالى الإخلاص في كتابه في غير موضع ، كقوله تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ وقوله : ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص ﴾ ...)[١]

ومن ذلك قوله سبحانه : ﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ﴾[٢] وقوله : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ﴾[٣] وقوله : ﴿ قل إني أمرت أن اعبد الله مخلصاً له ديني ﴾[٤] وقوله : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾[٥]

ولما أمر الله ﷻ بالإخلاص نهى عن ضده من الرياء والشرك ونحوهما . قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ : (... وإخلاص الدين هو أصل الإسلام ولذلك ذم الرياء في مثل قوله : ﴿ فويل للمصلين الذي هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون ﴾[٦] وقوله : ﴿ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون

---

(١) الفتاوى ٢٥٧/١٨ .
(٢) سورة غافر ١٤ .
(٣) سورة البينة ٥ .
(٤) سورة الزمر ١٤ .
(٥) سورة النساء ٢٤ .
(٦) سورة الماعون .

ا لله إلا قليلاً ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ كالذين ينفق ماله رئاء الناس..﴾[٢]...)[٣] وقال سبحانه : ﴿ واعبدوا ا لله ولا تشركوا به شيئاً ﴾[٤] .

وفي الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب ـ رضي ا لله عنه ـ قال : قال رسول ا لله ﷺ : ((إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ مانوى ، فمن كانت هجرته إلى ا لله ورسوله فهجرته إلى ا لله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه))[٥]

قال شيخ الإسلام ـ رحمه ا لله ـ في الكلام على قوله ﷺ : " فمن كانت هجرته إلى ا لله ورسوله فهجرته إلى ا لله ورسوله " ليس هو تحصيل للحاصل ؛ لكنة اخبار بأن من نوى بعمله شيئاً فقد حصل له ما نواه ، أي من قصد بهجرته ا لله ورسوله حصل له ما قصده ، ومن كان قصده الهجرة إلى دينا أو امرأة فليس له إلا ذلك ، فهذا تفصيل لقوله : " إنما الأعمال بالنيات " ولما أخبر أن لكل امرئ ما نوى ذكر أن هذا ما نواه وهذا ما نواه .)[٦]

وبين ـ رحمه ا لله ـ أن لفظ النية يجري في كلام العلماء على معنيين :

أحدهما : ما يردون به تمييز عمل من عمل ، وعبادة من عبادة ، كاشتراطهم النية في الطهارة من الحدث ، وكتبييت النية في الصيام ؛ هل ذلك شرط أم لا ؟ .

والثاني : ما يقصدون به تمييز معبود ومعمول له عن معمول له (كالتمييز بين إخلاص العمل لله وبين أهل الرياء والسمعة ، كما سألوا النبي ﷺ عن الرجل

---

(١) سورة النساء ١٤٢ .

(٢) سورة البقرة ٢٦٤ .

(٣) الفتاوى ١٨/٢٥٦-٢٥٧ .

(٤) سورة النساء ٣٦ .

(٥) رواه البخاري في بدء الوحي (ح١) ومسلم في الإمارة (ح١٩٠٧) وأبو داود في الطلاق (ح٢٢٠١) والترمذي في فضائل الجهاد (ح١٦٤٧) والنسائي في الطهارة (ح٧٥) .وابن ماجه في الزهد (ح٤٢٢٧).

(٦) الفتاوى ١٨/٢٧٩-٢٨٠ . وانظر ٢٦/٢٣-٣٢ .

يقاتل شجاعة وحميَّة ورياء فأي ذلك في سبيل الله ؟ فقال : ((من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله))[١] وهذا الحديث يدخل فيه سائر الأعمال ، وهذه النية تميز بين من يريد الله بعمله والدار الآخرة ، وبين من يريد الدنيا ، مالاً وجاهاً ومدحاً وثناءً وتعظيماً وغير ذلك ...) [٢]

والمقصود أن في هذا الحديث بيان أن التقرب إلى الله إنما يكون بالإخلاص في الدين لله.[٣]

ومن الأدلة أيضاً على هذا الشرط ما رواه مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ))[٤]

(وقال ﷺ في الحديث المشهور : ((ثَلاثٌ لا يغل عليهن قلب مسلم : إخلاص العمل لله ، ومناصحة ولاة الأمر ولزوم جماعة المسلمين))[٥] وفي حديث أبي هريرة قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاثًا وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلاثًا فَيَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا ، وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلاهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ))[٦] ...)[٧]

(١) رواه البخاري في العلم (ح١٢٣) ومسلم في الأمارة (ح١٩٠٤) والترمذي في فضائل الجهاد (ح١٦٤٦)والنسائي في الجهاد (ح٣١٣٦) وابن ماجه كتاب الجهاد (ح٢٧٨٣) .

(٢) الفتاوى ٢٥٦/١٨-٢٥٧ . وانظر ٢٣/٢٦-٣٢ .

(٣) انظر الفتاوى ٢٥٠/١٨ .

(٤) رواه مسلم في الزهد (ح ٢٩٨٥) وابن ماجه في الزهد (ح ٤٢٠٢) .

(٥) رواه الترمذي في العلم (ح٢٦٥٨) وابن ماجه في المقدمة (ح ٢٣٢) . وصححه الألباني في الصحيحة (ح٤٠٤) وفي صحيح سنن ابن ماجه (١٨٧) .

(٦) رواه أحمد ٣٦٧/٢ واللفظ له ، ومسلم في الأقضية (ح١٧١٥) ومالك في الموطأ في الجامع (ح١٨٦٣) .

(٧) الفتاوى ١٨/١ .

الأخلاص هو مدار الدين

والأدلة في هذا الباب غير ما ذكر آنفاً كثيرة ، كلها تدلى على أن الإخلاص لله ﷻ هو مدار الدين ، (بل إن إخلاص الدين لله ـ جل وعلا ـ هو الدين كله ؛ الذي لا يقبل ا لله سواه ، وهو الذي بَعَثَ به الأولين والآخرين من الرسل ، وأنزل به جميع الكتب ، واتفق عليه أئمة أهل الإيمان ، وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية ، وهو قطب القرآن الذ تدور عليه رحاه .

قال تعالى : ﴿ تنزيل الكتاب من ا لله العزيز الحكيم ، إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد ا لله مخلصاً له الدين ، ألا لله الدين الخالص ﴾[1] والسورة عامتها في هذا المعنى كقوله تعالى : ﴿ قل إني أمرت أن أعبد ا لله مخلصاً له الدين ، وأمرت لأن أكون أول المسلمين ﴾ إلى قوله : ﴿ قل ا لله أعبد مخلصاً له ديني ﴾ إلى قوله : ﴿ أليس ا لله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ﴾ إلى قوله : ﴿ قل أفرأيتم ما تدعون من دون ا لله إن أرادني ا لله بضر هل هن كاشفات ضره ﴾ الآية إلى قوله : ﴿ أم اتخذوا من دون ا لله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ، قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون ..﴾ وقوله : ﴿ قل أفغير ا لله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ﴾ إلى قوله : ﴿بل ا لله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾[2] ...)[3] وهذا هو أصل شهادة أن لا إله إلا ا لله وأن محمداً رسوله ا لله كما سبقت الاشارة إليه.

والرسل جميعاً قد دعو الخلق إلى الإخلاص لله وحده ، (وأن لا يعبدوا إلا ا لله ، وأن يخلصوا له الدين فلا يخافون غيره ، ولا يرجون سواه ، ولا يدعون إلا

---

(١) سورة الزمر ١-٣ .

(٢) الايات من سورة الزمر

(٣) الفتاوى ٤٩/١٠-٥٠ ، وانظر ٦١٦/١١-٦١٩ .

إياه ، قال تعالى : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴾[٢] فجعل الطاعة لله والرسول ، وجعل الخشية والتقوى لله وحده ...)[٣]

الإخلاص في العبادة :

والإخلاص المأمور به هو حق الله الخالص ، الذي يجب أن يصرف له وحده لا شريك له .

قال شيخ الإسلام ــ رحمه الله ــ مبيناً أن العبادة بجميع أنواعها يجب أن تكون خالصة لله وحده : (فالعبادة والاستعانة وما يدخل في ذلك من الدعاء والاستغاثة والخشية والرجاء والإنابة ، والتوكل والتوبة ، والاستغفار ، كل هذه لله وحده لا شريك له ، فالعبادة متعلقة بألوهيته ، والاستعانة متعلقة بربوبيته الله رب العالمين ، لا إله إلا هو ، ولا رب لنا غيره ، لا ملك ولا نبي ولا غيره ، بل أكبر الكبائر الإشراك بالله ، وأن تجعل لله نداً وهو خلقك ، والشرك أن تجعل لغيره شركاً أي نصيباً في عبادتك وتوكلك واستجابتك ، كما قال تعالى : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾[٤] ...

وأصناف العبادات ؛ الصلاة بأجزائها مجتمعة ، وكذلك أجزاؤها التي هي عبادة بنفسها من السجود والركوع والتسبيح والدعاء والقرآءة والقيام لايصلح إلا لله وحده .

ولا يجوز أن يتنفل على طريق العبادة إلا لله وحده ، لا لشمس ولا لقمر ولا لملك ولا لنبي ، ولا صالح ، ولا لقبر نبي ولا صالح ؛ هذا في جميع ملل الأنبياء ، وقد ذُكِرَ ذلك في شريعتنا حتى نُهِيَ أن يتنفل على وجه التحية

---

(١) سورة الجن ١٨ .

(٢) سورة النورة ٥٢ .

(٣) الفتاوى ١١/٤٩٧-٤٩٨ .

(٤) سورة الزمر ٣ .

والإكرام للمخلوقات ؛ ولهذا نهى النبي ﷺ معاذاً أن يسجد له وقال : ((لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها .))[١]

ونهى عن الانحناء في التحية[٢] ، ونهاهم أن يقوموا خلفه في الصلاة وهو قاعد .

وكذلك الزكاة العامة ، من الصدقات كلها والخاصة ؛ لا تتصدق إلا لله ، كما قال تعالى : ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴾[٣] وقال : ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله))[٤] وقال : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم ﴾[٥] فلا يجوز فعل ذلك على طريق الدين إلا لله ...

وكذلك الحج لا يحج إلا إلى بيت الله ، فلا يطاف إلا به ولا يحلق الرأس إلا به ، ولا يوقف إلا بفنائه ، لا يفعل ذلك بنبي ولا صالح ، ولا بقبر نبي ولا صالح ولا بوثن .

وكذلك الصيام لا يصام إلا لله ، فلا يصام لأجل الكوكب والشمس والقمر ولا لقبور الأنبياء والصالحين ونحو ذلك .

---

(١) رواه أبو داود في كتاب النكاح (ح٢١٤٠) إلا أنه قال في آخره ((...لما جعل الله عليهن من الحق)) ورواه الدارمي في الصلاة (ح١٤٦٣) وأخرج نحوه الترمذي في كتاب الرضاع (ح١١٥٩) وابن ماجه في النكاح (١٨٥٣). وصححه الألباني في إرواء الغليل (ح١٩٩٨) .

(٢) وهذه من عموم البلوى التي عمت في كثير من بلاد المسلمين ، حيث أصبحت تحية مألوفة ، غير منكرة ولا مستغربة ، بل قد تصل إلى حد انحناء كانحناء الركوع في الصلاة . وسيأتي بحول الله مزيد تفصيل لها في الباب الثالث .

(٣) سورة الضحى .

(٤) سورة الإنسان ٩ .

(٥) سورة البقرة ٢٦٥ .

وهذا كله تفضيل الشهادتين اللتين هما أصل الدين ؛ شهادة أن لا إله إلا الله ، وشهادة أن محمداً عبد الله ورسوله ، والإله من يستحق أن يألهه العبادة ، ويدخل فيه حبه وخوفه ، فما كان من توابع الألوهية فهو حق محض لله ، وما كان من أمور الرسالة فهو حق الرسول ﷺ ...)[١]

وبالجملة فإنه يجب أن تكون جميع العبادات خالصة لله وحده ، قال الله تعالى على لسان الخليل ـ عليه السلام ـ : ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ﴾[٢]

فجميع أعمال العباد التعبدية يجب أن تكون خالصة لله من صلاة وصيام وذبح ودعاء ونذر وغيرها ، بل محيا العبد ومماته يجب أن يكون لله رب العالمين لا شريك له ، وبهذا أمر الله نبيه وخليله ابراهيم إمام الحنفاء عليه الصلاة والسلام ، وجعله شرعة وإماماً لجميع الموحدين ، وبهذا بعث نبينا محمد ﷺ .[٣]

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ : (.. لا بد في جميع الواجبات والمستحبات أن تكون خالصة لله رب العالمين ، كما قال تعالى : ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ، وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ، إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص ﴾[٥]

فكل ما يفعله المسلم من القرب الواجبة والمستحبة ، كالإيمان بالله ورسوله العبادات البدنية والمالية ، ومحبة الله ورسوله ، والإحسان إلى عباده بالنفع

---

(١) الفتاوى ١/٧٤-٧٦ . وانظر إقتضاء الصراط المستقيم ٢/٨٣٣-٨٣٤ .

(٢) سور الأنعام ١٦٣ .

(٣) انظر الفتاوى ١٧/٤٨٤-٤٨٥ .

(٤) سورة البينة

(٥) سورة الزمر ١-٢ .

والمال ؛ هو مأمور بأن يفعله خالصاً لله رب العالمين ، لا يطلب من مخلوق عليه جزاءً ولا دعاء ولا غير دعاء ، فهذا مما لا يسوغ أن يطلب عليه جزاء لا دعاء ولا غيره ...)[١]

(فالمؤمن يجب أن يكون جميع عمله خالصاً لله فإذا عمل عملاً عمله لله ، وإذا أحب أحداً أحبه لله ، وإذا أحسن إلى أحد من الناس أحس إليه يبتغي بذلك وجه الله ، وعالماً بأن الله قد مَنَّ عليه بأن جعله محسناً و لم يجعله مسيئاً ، فيرى أن عمله لله وأنه بالله ، وهذا مذكور في فاتحة الكتاب التي لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها ، فإن فيها : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ ولذا فرضت عليه قراءتها في كل صلاة .)[٢]

و (المؤمن يرى أن عمله لله ؛ لأنه إياه يعبد ، وأنه بالله ؛ لأنه إياه يستعين ، فلا يطلب ممن أحسن إليه جزاء ولا شكوراً ؛ لأنه إنما عمل له ما عمل لله ، كما قال الأبرار : ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ﴾[٣] فلا يمن عليه بذلك ولا يؤذيه ، فإنه قد علم أن الله هو المانّ عليه ، إذا استعمله في الإحسان ، وأن المنة لله عليه وعلى ذلك الشخص ، فعليه أن يشكر الله إذ يسره لليسرى ، وعلى ذلك : أن يشكر الله إذا يسر له من يقدم له ما ينفعه من رزق أو علم أن نصر أو غير ذلك)[٤] .

من لوازم إخلاص العبادة لله :

إن من لوازم الإخلاص لله جل وعلا في جميع أمور العبد التعبدية أن يتبرأ من كل مشرك عبد مع الله غيره ، بل يتبرأ من العابد والمعبود على حد سواء ،

---

(١) الفتاوى ١/١٩٠ .

(٢) الفتاوى ١٤/٣٢٩-٣٣٠ .

(٣) سورة الإنسان ٩ .

(٤) الفتاوى ١٤/٣٢٩-٣٣٠ .

ممتثلا بذلك لقوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم لكم دينكم ولي دين .﴾

ومعنى ذلك أن عبادة المسلم لما يعبد الكافر ممتنع بالكلية ، بل أردف ذلك بوجوب التبرئ من هذا كله وتنزيه النفس عنه ، لأن الشرك أعظم ما تنجست به النفس ، وأعظم تزكيتها وتطهيرها ، تزكيتها منه وتطهيرها من أدرانه بالإخلاص لرب العالمين وحده لا شريك له ، فلا أنا عابد ما عبدتم قط في أي وقت من الأوقات . وأنتم مع ذلك ما أنتم عابدون ما أعبد ، بل أنتم بريئون مما أعبد ، وأنا بريء مما تعبدون ، مأمور بالبراءة منه ...

وقال تعالى : ﴿ لقد كان لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذا قالوا لقومهم إنا برءآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾(١) فجعل الله ـ عز وجل ـ ابراهيم ـ عليه السلام ـ قدوة يقتدي به المؤمنون بالتبرء من العابد والمعبود وقطع أواصر الروابط التي تجمع الناس ؛ حتى يتحقق توحيد الله في نفوسهم ويؤمنوا بالله وحده ، وما لم يحصل ذلك فلا علاقة بين المؤمن والمشرك .(٢)

وقال تعالى على لسان ابراهيم حينما حاجه قومه في شركهم ، وعبادته غير الله ، قال : ﴿ أفرأيتم ما كنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فإنهم عدو لي إلا رب العالمين ﴾(٣) فهذا هو الإخلاص لله ـ عز وجل ـ في التوحيد الذي بعثت به الرسل وأنزلت به الكتب ، والذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه .

إلا أن مما ينبغي التنبيه عليه في هذا المقام : أن تخليص الأعمال من شوائب الشرك صغيره وكبيره ، يحتاج إلى جهد كبير ، وتعهد للنفس والعمل تعهداً دائماً ، لا سيما الشرك الأصغر ، الذي قد يقع فيه العبد من حيث يدري أو لا

---

(١) سورة الممتحنة ٤ .

(٢) انظر الفتاوى ١٦/٥٥٤-٥٦٠ .

(٣) سورة الفرقان ٧٥-٧٧ .

يدري ، فيكون بذلك قد نقصت درجة الإخلاص لربه من حيث لا يشعر . ولذا كان ﷺ يخشى على أمته من ذلك ويحذرها من الوقوع فيه بقوله : ((إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ...)) الحديث [١]

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ : (ولهذا قيل : تخليص الأعمال مما يفسدها أشد على العاملين من طول الاجتهاد)[٢] ولهذا فالعبد يحتاج دائماً إلى التوبة والاستغفار ومداومة التسبيح والتحميد والتهليل ؛ والحذر من الشرك صغيره وكبيره .

من فوائد الإخلاص:

للإخلاص فوائد منها :

ما ذكره شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ أن الله سبحانه وتعالى يصرف عن المخلصين السوء والفحشاء ، كما قال تعالى في حق يوسف : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، إنه من عبادنا المخلصين ﴾[٣] فامرأة العزيز كانت مشركة فوقعت مع ترزوجها فيما وقعت فيه من السوء ، ويوسف ـ عليه السلام ـ مع عزوبته ومرواودتها له ، واستعانتها عليه بالنسوة ، وعقوبتها له بالحبس على العفة ؛ عصمه الله بإخلاصه لله تحقيقاً لقوله تعالى على لسان إبليس: ﴿ لأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين ﴾[٤] والغي هو اتباع الهوى.[٥]

ومنها : أن الله ـ عز وجل ـ يحمي المخلص الموحد من نزغات الشياطين وتسلطهم ، فلا يكون لهم عليه سلطاناً ولا سبيلاً ، قال تعالى : ﴿ إن عبادي

---

(١) رواه أحمد في مسنده عن محمودبن لبيد ٤٢٨/٥ ، ٤٢٩ ، وصححه الألباني في الصحيحة (٩٥١) .

(٢) الفتاوى ٦٨٨/١١ .

(٣) سورة يوسف ٢٤ .

(٤) سورة ص ٨٢-٨٣ .

(٥) انظر الفتاوى ٤٢١/١٥ .

ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾[١] وقال سبحانه مخبراً عن ابليس أنه يقول يوم القيامة : ﴿ وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم... ﴾الآية [٢]

قال شيخ الإسلام ــ رحمه الله ــ : (فإذا أخلص العبد لربه الدين ؛ كان هذا مانعاً له من فعل ضد ذلك ، ومن إيقاع الشيطان له في ضد ذلك ، وإذا لم يخلص لربه الدين ، ولم يفعل ما خلق له وفطر عليه عوقب على ذلك ، وكان من عقابه تسلط الشيطان عليه حتى يزين له فعل السيئات)[٣] وترك الحسنات فتكون معاصيه وفجوره وفسقه حينئذ نتيجه لتلاعب الشيطان به ، ولهوانه على الله بتركه الإخلاص له في العمل والعبادة ، الذي هو أساس العمل الذي ينبني عليه .

أما الشرط الثاني فهو الاتباع :

والمقصود بالاتباع : متابعة النبي ﷺ وذلك بأن يفعل العبد مثل مافعل النبي ﷺ فيعمل العمل الذي شرعه لنا من غير زيادة أو نقصان ، فإذا ما قصد مكاناً وخصه بعبادة كالسعي والطواف ، أو زماناً كالحج والصيام ونحوه فهو عبادة مشروعة ، وأما مافعله بحكم الاتفاق من غير تخصيص لذلك الزمان أو المكان بعبادة كنزوله بمكان أدى الصلاة فيه لاقصداً لتخصيصه بالصلاة ، لم يكن اتباع ذلك من السنة المأمور بها .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – : (.. المتابعة أن يفعل مثل ما فعل النبي ﷺ على الوجه الذي فعل ، فإذا فعل فعلاً على وجه العبادة شرع لنا أن نفعله على وجه العبادة ، وإذا قصد تخصيص مكان أو زمان بالعبادة

(١) سورة الحجر ٤٢ .

(٢) سورة ابراهيم ٢٢ .

(٣) الفتاوى ١٤/٣٣٢-٣٣٣ .

خصصناه بذلك ، كما كان يقصد أن يطوف حول الكعبة ، وأن يستلم الحجر الأسود ، وأن يصلي خلف المقام ، وكان يتحرى الصلاة عند اسطوانة مسجد المدينة ، وقصد الصعود على الصفا والمروة ، والدعاء والذكر هناك ، وكذلك عرفة ومزدلفة وغيرهما .

وأما مافعله بحكم الاتفاق ولم يقصده مثل أن ينزل بمكان ويصلي فيه لكونه نزله لاقصداً لتخصيصه به بالصلاة والنزول فيه ، فإذا قصدنا تخصيص ذلك المكان بالصلاة فيه ، أو النزول لم نكن متبعين ، بل هذا من البدع التي كان ينهى عنها عمر بن الخطاب ﷺ كما ثبت ذلك بالاسناد الصحيح ...)(١)

وهذا هو الأصل ، فإن المتابعة في السنة أبلغ من المتابعة في صورة العمل ... ولا يقول عالم بالسنة : إن هذه سنة مشروعة للمسلمين ، فإن ذلك إنما يقال فيما شرعه رسول الله ﷺ إذ ليس لغيره أن يسن ولا أن يشرع ، وما سنه خلفاؤه الراشدون فإنما سنوه بأمره ، فهو من سنته ، ولا يكون في الدين واجباً إلا ما أوجبه ، ولا حراماً إلا ما حرمه، ولا مستحباً إلا ما استحبه ، ولا مكروهاً إلا ما كرهه ، ولا مباحاً إلا ما أباحه .(٢)

ومحمد ﷺ خاتم النبين لانبي بعده ، وقد نسخ بشرعه ما نسخه من شرع غيره ، فلم يبق طريق إلى الله إلا باتباع محمد ﷺ فما أمر به من العادات أمر إيجاب أو استحباب فهو مشروع ، وكذلك ما رغب فيه وذكر ثوابه وفضله .(٣)

وقد دل الكتاب والسنة على وجوب الاتباع ، بما لايدع المجال لأحد في أن يتبع أو يعمل بغيرهما .

وقد ذكر شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - أدلة الاتباع في مواضع كثيرة من كتبه يمكن تقسيمها إلى قسمين :

---

(١) وسيأتي تخريج هذا الأثر وبيان هذه المسألة في الباب الرابع في حكم تتبع الآثار انظر ص

(٢) الفتاوى ٢٨٢/٢٨٠/١ ، وانظر ٤٩٦/١٧-٤٩٧ . ٤٠٨/١٠ . ٢٢٤/٢٢

(٣) الفتاوى ٤٠٨/١٠ .

أحدهما أدلة دلت على وجوب الرد إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وهذا كثيرة مستفيظة .

والثاني : أدلة دلت على أن إجماع الأمة حجة يجب المصير إليه عند عدم الدليل ، وهذا أيضاً كثيرة مستفيضة ، وذكر رحمه الله أن هذه هي الأصول التي أمر بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه شريحاً ، حينما قال له : (إقض بكتاب الله ، فإن لم يكن فبما في سنة رسول الله ، فإن لم يكن فبما اجتمع عليه الناس .)[1] وفي رواية (فبما قضى به الصالحون .)[2] .

وكذلك قال ابن مسعود : (من سئل عن شيء فليفت بما في كتاب الله فإن لم يكن فبما سنة رسول الله ﷺ ، فإن لم يكن فبما اجتمع عليه الناس.)[3]

وكذلك روي نحوه عن ابن عباس وغيره ، ولذلك قال العلماء الكتاب والسنة والإجماع ، وذلك أنه أوجب طاعتهم إذا لم يكن نزاع ولم يأمر بالرد إلى الله والرسول إلا إذا كان نزاع .

وأما الأمر باتباع الكتاب والسنة فكثير جداً منها ما تقدم ومنها قوله تعالى : ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم﴾[4] وقوله :﴿ وهذا كتاب أنزلناه مباركة فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون ﴾[5] وقوله : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والأنجيل .. فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتَّبَعُوا النور الذي

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى ١٠/١٥٠ ، كما أخرجه وكيع بسنده في أخبار القضاة ١٨٩/٢-١٩٠ . وأخرج النسائي بنحوه في آداب القضاة (٥٣٩٩) وانظر أيضاً مسند الفاروق ص ٥٤٨ وسير أعلام النبلاء (١٠١/٤) .

(٢) رواه النسائي في آداب القضاة (ح٥٣٩٩) .بلفظه وصححه الألباني في صيحيح سنن النسائي (ح٤٩٨٩).

(٣) رواه النسائي في أداب القضاة (ح٥٣٩٧ ، ٥٣٩٨) وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (ح٤٩٨٧ ، ٤٩٨٨) .

(٤) سورة الإعراف ٣ .

(٥) سورة الأنعام ١٥٥ .

انزل معه أولئك هم المفلحون ﴾[١] وقوله : ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾[٢] وقوله : ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ﴾[٣] وقوله : ﴿ فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك في شجر بينهم ﴾[٤] وقوله : ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ﴾[٥] وقوله : ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ﴾[٦] وقوله : ﴿ما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ [٧] وغيرها كثير .

وأما النصوص الدالة على الاجماع فمنها ما تقدم مثل قوله تعالى : ﴿..أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ وقوله : ﴿و لله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾[٨] ولو خرج المؤمنون حن الحق والهدى لما كانت لهم العزة إذ ذاك من تلك الجهة ، والعزة مشروطة بالإيمان ، لقوله : ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ [٩] .

ومنها قوله تعالى : ﴿اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ حيث أمر سبحانه بسؤال الهداية إلى صراطهم وقال : ﴿ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم ﴾ الآية وفيها الدلالة .

ومنها قوله : ﴿ واتبع سبيل من أناب إلي﴾ والسلف المؤمنون منيبون أي فيجب اتباع سبيلهم .

---

(١) سورة الأعراف ١٥٧ .
(٢) سورة النساء ٥٩ .
(٣) سورة النساء ٦٤ .
(٤) سورة النساء ٦٥ .
(٥) سورة النساء ٥٩
(٦) سورة الأنعام ١٥٣ .
(٧) سورة الحشر ٧ .
(٨) سورة المنافقون ٨ .
(٩) سورة ال عمران ١٣٩ .

ومنها قوله : ﴿اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون﴾والسلف كذلك .

ومنها قوله : ﴿ ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾ [١] ومن خرج عن اجماعهم فقد اتبع غير سبيلهم .

ومنها قوله : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ [٢] وقوله : ﴿ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾ [٣] .. والشهداء على الناس لابد أن يكونوا عالمين عادلين كالرسول ، ولهذا قال في الجنازة : ((وجبت وجبت)) [٤] وقال : ((أنتم شهداء الله في الأرض))[٤] . وقال : ((توشكون أن تعلموا أهل الجنة من أهل النار بالثناء الحسن والثناء السيء)) [٥] فعلم أن شهادتهم مقبولة فيما يشهدون عليه من الأشخاص والأفعال ، ولو كانوا قد يشهدون بما ليس بحق لم يكونوا شهداء مطلقاً .

ومنه قوله سبحانه : ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ [٦] . وغير هذه النصوص كثير في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . [٧]

وقد أمر الله جل وعلا بطاعته وطاعة رسوله ﷺ وجعل العبادة متعلقة بطاعتهما ، (فلا عبادة إلا ماهو واجب أو مستحب في دين الله ، وما سوى

---

(١) سورة النساء ١١٥ . .

(٢) سورة البقرة ١٣٤ .

(٣) سورة الحج ٧٨ .

(٤) رواه مسلم في الجنائز (ح٩٤٩) والبخاري بنحوه في الجنائز (ح١٣٦٧) والترمذي في الجنائز (ح١٠٨٥) والنسائي في الجنائز (ح١٩٣٢) وابن ماجه في ما جاء في الجنائز (ح١٤٩١) .

(٥) رواه ابن ماجه في الزهد (ح٤٢٢١) وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه .

(٦) سورة ال عمران ١١٠ .

(٧) انظر الفتاوى ٢٠/٤٩٨-٥٠٣ .

ذلك فضلال عن سبيله [١]، ولهذا قال ﷺ : ((من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)) [٢] .. وقال ﷺ في حديث العرباض بن سارية الذي رواه أهل السنن وصححه الترمذي : ((إنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعظوا عليها بالنواجذ ، وإيَّاكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة)) [٣] وفي الحديث الصحيح .. : ((خير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة)) [٤] .

وقد ذكر الله طاعة الرسول واتباعه في نحو من أربعين موضعاً من القرآن كقوله تعالى : ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ وقوله تعالى : ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ، ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ، فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾[٥] وقوله تعالى : ﴿ وأطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لايحب الكافرين ﴾[٦] وقال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم﴾ [٧] فجعل محبة العبد لربة موجبة لاتباع الرسول ، وجعل متابعة الرسول سبباً لمحبة الله عبده ، وقد قال تعالى : ﴿وكذلك أوحينا إليك

---

(١) انظر الفتاوى ٤/١٠٧-١٠٨ ، ١٠/١٧ .

(٢) تقدم تخريجه انظر الفهرس حرف الميم .

(٣) رواه أبو داود في السنة (ح٤٦٠٧) وابن ماجه في المقدمة (ح٤٢) والدارمي في المقدمة (ح٩٥) . وقد تقدم تخريجه انظر الفهرس .

(٤) رواه مسلم في الجمعة (ح٨٦٧) ولفظه : ((فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي ...)) ورواه النسائي في صلاة العيدين (ح١٥٧٨) والدارمي نحوه في المقدمة (ح٢٠٦) .

(٥) سورة النساء ٦٥ .

(٦) سورة ال عمران ٣٢ .

(٧) سورة ال عمران ٣١ .

روحاً من أمرنـا مـا كنـت تـدري ماالكتـاب ولا الإيمـان ولكـن جعلنـاه نـوراً نهـدي بـه مـن نشـاء مـن عبادنـا ﴾[1] فمـا أوحـاه الله إليـه يهـدي الله بـه مـن يشـاء مـن عبـاده ، كمـا أنـه ﷺ بذلـك هـداه الله تعـالى كمـا قـال تعـالى : ﴿ قـل إن ضللـت فإنمـا أضـل على نفسـي وإن اهتديـت فبمـا يوحـي إلي ربـي﴾[2] وقـال تعـالى : ﴿قـد جـاءكم مـن الله نـور وكتـاب مبين يهـدي بـه الله مـن اتبـع رضوانـه سـبل السـلام ويخرجهـم مـن الظلمـات إلى النـور بإذنـه ويهديهـم إلى صـراط مسـتقيم ﴾[3]... والنفـوس أحـوج إلى معرفـة مـا جـاء بـه واتباعـه منهـا إلى الطعـام والشـراب ، فـإن هـذا إذ فـات حصـل المـوت في الدنيـا وذاك إذا فـات حصـل العـذاب ...) [4] .

وقـد أمـر الله بالاعتصـام بالسـنة في جميـع الأعمـال التعبديـة ، وقـد بـين شـيخ الاسـلام ابـن تيميـة - رحمـه الله تعـالى - أن ذلـك يكـون بطلـب العلـم الشـرعي الـذي أنـزل علـى محمـد ﷺ مـع الاجتهـاد في العلـم بـه علمـاً يقينيـاً ، فـلا يـدع المحكـم للمتشـابه ، فـإن في ذلـك لايـدري أيوافـق السـنة أم لا . فينبغـي معرفـة ذلـك معرفـة تامة للمـراد بـالنصوص الشـرعية ، ومـن ثـم العمـل بهـا بـالفهم الصحيـح . [5] .

فـإذا عـرف العبـد مـا بينـه رسـول الله ﷺ نظـر في أقـوال النـاس ومـا أرادوه بهـا ، فعرضها على الكتاب والسنة ، فمـا وافقهـا فهـو حـق ومـا سـوى ذلـك فهـو بـاطل .

وهـذا هـو سـبيل المؤمنـين أهـل الهـدى والسـنة والعلـم الذيـن علـى بصـيرة . وإنمـا أتي الناس من عـدم معرفهتـم للكتـاب والسـنة إمـا بـإعراض وإمـا بعـدم فهـم .

---

(١) سـورة الشـورى ٥٢ .

(٢) سـورة سـبأ ٥٠ .

(٣) سـورة المـائدة ١٦ .

(٤) الفتـاوى ١/٤-٥ . وانظـر ١٩/٦٦-٧٢ ، ٢٦٠-٢٧٩ . ٢٠/٤٩٨-٥٠٣ .

(٥) انظـر الفتـاوى ١٣/٢٥٨-٢٥٩ . وانـظ درء تعـارض العقـل والنقـل ١/٧٣ ، والفتـاوى الكـبرى ١/١٧٨ ومـا بعدهـا .

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ (وإن من أصول الإسلام أن تُمَيَّزَ ما بعث الله به محمداً ﷺ من الكتاب والحكمة ، ولا تخلطه بغيره ، ولا تلبس الحق بالباطل ، كفعل أهل الكتاب ، فإن الله سبحانه أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة ، ورضي لنا الإسلام ديناً .

وقد قال النبي ﷺ : ((تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لايزيغ عنها بعدي إلا هالك)) [1] وقال عبدالله بن مسعود ﷺ : (خط لنا رسول الله ﷺ خطاً ، وخط خطوطاً عن يمنينه وشماله ، ثم قال : هذا سبيل الله ، وهذه السبل على كل سبيل شيطان يدعوا إليه ، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿وأن هذا صرطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ .)[2][3].

وجماع ذلك بحفظ أصلين :

أحدهما : تحقيق ما جاء به الرسول ﷺ فلا يخلط بما ليس منه من المنقولات الضعيفة ، والتفسيرات الباطلة ، بل يعطي حقه من معرفة نقلة ودلالته .

والثاني : أن لايعارض ذلك بالشبهات لا رأياً ولا رواية ، قال الله تعالى فيما يأمر به بني إسرائيل وهو عبرة لنا : ﴿آمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ، ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون ، ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾[4] فلا يكتم الحق الذي جاء به الرسول ﷺ ولا يلبس بغيره من الباطل ، ولا يعارض بغيره .

---

(١) رواه ابن ماجه في المقدمة (ح٤٣) وأحمد ٤/١٢٦ وصححه الألباني في الصحيحة (ح٩٣٧) وفي صحيح سنن ابن ماجه أيضاً (٤١ ، ٤٢) .

(٢) رواه البخاري بنحوه في الرقاق (ح٦٤١٧) والدارمي في المقدمة (ح٢٠٢) وأحمد ١/٤٣٥ ، ٤٦٥) واللفظ له.

(٣) انظر درء تعارض العقل والنقل ١/٢٣٤-٢٣٥ .

(٤) سورة البقرة ٤٢ .

قال الله تعالى : ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ومن أظلم ممن افترىٰ علىٰ الله كذباً أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ﴾(٢)

وهؤلاء الأقسام الثلاثة هم أعداء الرسل ، فإن أحدهم إذا أتي بما يخالفه ، إما أن يقول : إن الله أنزله علي فيكون قد افترى على الله ، أو يقول : أوحي إلي ولم يسم من أوحاه ، أو يقول أنا أنشأته ، وأنا أنزل مثل ما أنزل الله ، فإما أن يضيفه إلى الله أو إلى نفسه أو لايضيفه إلى أحد .

وهذه الأقسام الثلاثة هم من شياطين الإنس والجن الذين يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ، قال الله تعالى : ﴿وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ، وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴾ (٣) والله أعلم.) (٤) ومن أعظم أنواع الهجر للقرآن هجر تعلمه والعمل به واتباعه والانقياد لأوامره والانتهاء عن نواهيه . (٥)

ومن لم يتبع الرسول ﷺ وما أنزل عليه اتبع غيره قطعاً ، من هوى أو شخص ونحوه ، (ولهذا أخبر سبحانه في غير موضع من كتابه بالضلال والعذاب لمن ترك اتباع ما أنزله وإن كان له نظر ، وجدل واجتهاد في عقليات وأمور غير ذلك ، وجعل ذلك من نعوت الكفار والمنافقين ، قال تعالى : ﴿وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا

---

(١) سورة الأعراف ٣ .

(٢) سورة الأنعام ٩٣ .

(٣) سورة الفرقان ٣٠ .

(٤) الفتاوى ١٥/١٥٥-١٥٦ . وانظر الفتاوى ١٧/٤٣٢-٤٣٣ . ودرء تعارض العقل والنقل ١/٧٥-٧٨ .

(٥) انظر الفوائد لابن القيم ١٥٦ .

أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون﴾[١]...) [٢].

والناس مأمورون بطاعة الله ورسوله واتباع دينه وسبيله واقتفاء هداه وشرعه.

(وقد اتفق أهل المعرفة والتحقيق أن الرجل لو طار في الهواء أو مشى على الماء لم يتبع إلا أن يكون موافقاً لأمر الله ورسوله ، ومن رأى من رجل مكاشفة أو تأثيراً فاتبعه في خلاف الكتاب والسنة كان من جنس أتباع الدجال ، فإن الدجال يقول للسماء أمطري فتمطر ، ويقول للأرض أنبتي فتنبت ، ويقول للخربة أخرجي كنوزك فتخرج معه كنوز الذهب والفضة .. وهو مع هذا كله كافر ملعون عدو لله ولرسوله ﷺ ...)[٣]

(ومن خالف ما ثبت بالكتاب والسنة فإنه يكون إما كافراً وإما فاسقاً ، وإما عاصياً ، إلا أن يكون مؤمناً مجتهداً مخطئاً فيثاب على اجتهاده ، ويغفر له خطؤه ، وكذلك إن لم يبلغه العلم الذي تقوم عليه به الحجة الثابتة بالكتاب والسنة فخالفها ، فإنه يعاقب بحسب ذلك إما بالقتل وإما بدونه والله أعلم .)[٤]

ووضح رحمه الله بأنه : (ليس لأحد أن ينصب للأمة شخصاً يدعو إلى طريقته ، ويوالي ويعادي عليه ، غير النبي ﷺ ولا ينصب لهم كلاماً يوالي عليه ويعادي ، غير كلام الله ورسوله وما اجتمعت عليه الأمة ، بل هذا من فعل أهل البدع الذين ينصبون لهم شخصاً أو كلاماً يفرقون به بين الأمة ، ويوالون به على ذلك الكلام أو تلك النسبة ويعادون ... فمن ابتدع أقوالاً ليس لها أصل في

---

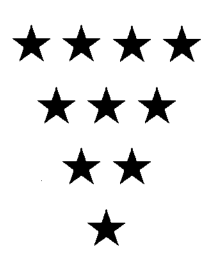
(١) سورة الأحقاف ٢٦ .

(٢) الفتاوى ٣/٣١٥ - ٣١٦ ، وانظر الفتاوى ٢/٣٠١ .

(٣) انظر الفتاوى ٢٥/٣١٤ .

(٤) الفتاوى ١/١١٣ .

القرآن وجعل من خالفها كافراً كان قوله شراً من قول الخوارج .) (١) . (وأهل السنة لايبتدعون قولاً ولا يكفرون من اجتهد فأخطأ ، وإن كان مخالفاً لهم مستحلاً لدمائهم ، كما لم تكفر الصحابة الخوارج مع تكفيرهم لعثمان وعلى ومن والاهما واستحلالهم لدماء المسلمين المخالفين لهم .) (٢) .



(١) الفتاوى ١٦٤/٢٠ . وانظر ٦٩/١٩ -٧٢ .

(٢) الفتاوى ٢١٢/١٩ .

المبحث الثالث : بيانه لأنواع العبادة

بيانه لأنواع العبادة

تمهيد

لقد سبق في تعريف العبادة أنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة ، وهذا يدل على أن للعبادة أنواعاً عديدة ، فكل أمر يقع من العبد على وجه التعبد فهو عبادة يجب أن تكون خالصة لله جل وعلا .

وعلى هذا فإن حصر أنواع العبادات وعدها والجزم بذلك ؛ أمر فيه صعوبة ؛ لكثرة ما يقع عليه اسم العبادة من الأعمال إذا اقترنت بالله ؛ إلا أنها في الجملة لاتخرج عن كونها أعمالاً ظاهرة أو باطنة ، وبتنويع آخر فإنها لاتخرج عن كونها عمل قلب أو عمل جوارح أو قول لسان ، أو مشتركة فيما بين ذلك .

ولا يعني هذا التقسيم أن كل نوع مستقل عن الآخر ، بل هذه الأقسام مترابطة لاينفك بعضها عن بعض ، إلا أن هذا التقسيم لتقريب المفهوم وتسهيل إدراك تلك الأنواع أو جلها [١] .

ومن الأمثلة على ترابطها وتداخلها : الصلاة ، إذ أنها أذكار وأفعال وكلها عبادات ، وكذلك الصدق ، والإخلاص ونحوه [٢] وهكذا سائر الأعمال التعبدية .

ومن أوضح الأمثلة على ذلك : الركن الأول من أركان الإسلام ، حيث أن متعلقه باللسان ، وهو من أعمال الجوارح ، و لا يقبل قول اللسان ما لم يصحبه الاعتقاد والإيمان القلبي . ومما يبين هذا أن أبا طالب ناصر الرسول ﷺ وحماه وبذل ما بذل في سبيل الدفاع عنه ، مع علمه بصحة ما جاء به رسول الله ﷺ إلا أنه لم ينطق بالشهادتين ومع ذلك كله فهو من أهل النار والعياذ بالله [٣].

---

(١) انظر الفتاوى ١١/١٠ . ٣٨١/١١-٣٨٢ . ١٢١/١٤-١٢٢ . ١٦٢/١٥ .

(٢) انظر الفتاوى ٢١٤/١٤-٢١٥ .

(٣) انظر الفتاوى ٢٧٢/١٠ - ٢٧٣ .

وهذا يدل على أن عبادة القلب هي الأصل لقول النبي ﷺ : ((إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كلهِ ، ألا وهي القلب))[1]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : (.. القلب هو الأصل ، كما قال أبو هريرة ﷺ القلب ملك الأعضاء ، والأعضاء جنوده ، فإذا طاب الملك طابت جنوده ، وإذا خبث خبثت جنوده ، وهذا كما في حديث النعمان بن بشير المتفق عليه أن النبي ﷺ قال : ((وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائرلا الجسد ، الأ وهي القلب))[1] فصلاحه وفساده يستلزم صلاح الجسد ، وفساده ...

وكلما أوجبه الله على العباد لابد أن يجب على القلب فإنه الأصل وإن وجب علىغيره تبعاً ، فالعبد المأمور المنهي إنما يعلم بالأمر والنهي بقلبه ، وإنما يَقْصِدُ الطاعة والامتثال القلبُ ، والعلم بالمأمور والامتثال يكون قبل وجود الفعل المأمور به ، كالصلاة والزكاة والصيام ...

والمأمور نوعان : نوع هو عمل ظاهر على الجوارح ، وهذا لايكون إلا بعلم القلب ، فالقلب هو الأصل فيه كالوضوء والاغتسال وكأفعال الصلاة من القيام والركوع والسجود وأفعال الحج من الوقوف والطواف .

وإن كانت أقوالاً فالقلب أخص بها ، فلا بد أن يعلم القلب وجود ما يقوله ، أو بما يقول ويقصد .

ولهذا كانت الأقول في الشرع لا تعتبر إلا من عاقل يعلم ما يقول ويقصد ...

والنوع الثاني : ما يكون باطناً في القلب كالإخلاص وحب الله ورسوله ، والتوكل عليه والخوف منه ، وكنفس إيمان القلب وتصديقه بما أخبر به الرسول ﷺ ، فهذا النوع تعلقه بالقلب ظاهر ، فإنه محله ، وهذا النوع هو أصل النوع الأول ، وهو أبلغ في الخير والشر من الأول فنفس إيمان القلب وحبه وتعظيمه لله وخوفه ورجائه والتوكل عليه وإخلاص الدين له لا يتم شيء من المأمور به ظاهراً إلا بها ، وإلا فلو عمل أعمالاً ظاهرة بدون هذه كان منافقاً ، وهي في أنفسها توجب

---

(١) رواه البخاري في الإيمان (ح ٥٢) ومسلم في المساقات (ح١٥٩٩) والدارمي في البيوع (ح٢٥٣١) .

لصاحبه أعمالاً ظاهرة توافقها ، وهي أشرف من فروعها كما قال تعالى : ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دمائها ولكن يناله التقوى منكم ﴾[١] .

وكذلك تكذيب الرسول بالقلب وبغضه وحسده والاستكبار عن متابعته أعظم إثماً من أعمال ظاهرة خالية عن هذا كالقتل والزنا والشرب والسرقة ، وما كان كفراً من الأعمال الظاهرة كالسجود للأوثان وسب الرسول ونحوه ذلك ؛ فإنما ذلك لكونه مستلزماً لكفر الباطن ، وإلا فلو قدر أنه سجد قدام وثن و لم يقصد بقلبه السجود له بل قصد السجود لله بقلبه لم يكن ذلك كفراً ، وقد يباح ذلك إذا كان بين مشركين يخافهم على نفسه فيوافقهم في الفعل الظاهر ويقصد بقلبه السجود لله ...)[٢]

لكن هل يقوم بالقلب تصديق وتكذيب دون أن يظهر مدلوله على الجوارح ؟ . هذه المسألة قد وقع فيها الافتراق بين أهل السنة ومن خالفهم من المرجئة الجهمية وغيرهم ممن فرق بين هذه الأعمال .

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : قول أهل السنة والجماعة بياناً شافياً ووضح أنه هو الموافق لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولما كان عليه سلف الأمة قاطبة من الصحابة ومن سار على نهجهم ؛ من أنه لابد من ظهور موجب ما في القلب على الجوارح ؛ إلا أن هذا ليس موضعه إذا المقصود ذكر أنواع العبادات دون تفريق بينها مع اعتقاد أن جميعها من الإيمان لا تنفك عنه بحال . [٣]

والمقصود بيان أن هذه الأقسام متلازمة ومترابطة ، وإن كانت مختلفة الأنواع . والتقسيم إنما يراد به تقريبه للأفهام ، لا أن هذه الأقسام من باب تقسيم التضاد . والله تعالى أعلم

---

(١) سورة الحج ٣٧ .

(٢) الفتاوى ١٤/١١٣-١١٩ . وانظر الفتاوى ١٧/٤٨٥ . ١١/٣٨١ ، ١٤/١١٤ -١٢٠ .

(٣) للإستزاده فليراجع كتب الإيمان لشيخ الاسلام - رحمه الله - في هذه المسألة والتي طبعت في مجموع الفتاوى المجلد السابع ، وكذلك طبع الإيمان الكبير مستقلاً . والله تعالى أعلم . وانظر الفتاوى ٢/٣٨١ وما بعدها .

وتتميز العبادة الشرعية من غير الشرعية بكونها موافقة لشرع الله ؛ لقوله ﷺ : ((من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)) [١] وبكون العمل بنية خالصة لله جل وعلا كما سبق بيانه ، فمتعلق العبادات الشرعية طاعة الله ورسوله ، وما سوى ذلك فباطل كما قال سبحانه : ﴿ ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾[٢].

وبناء على هذا فإن الأعمال التعبدية يمكن تقسيمها من حيث الحكم إلى حق وباطل ، وقد بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : بقوله بعد أن ذكر أن الباطل نوعان ، قال : (ومن هذا قول العلماء : العبادات والعقود تنقسم إلى صحيح وباطل ، فالصحيح : ماترتب عليه أثره وحصل به مقصوده . والباطل ما لم يترتب عليه أثره و لم يحصل به مقصوده ، ولهذا كانت أعمال الكفار باطلا .. فإن الكافر .. يعبد مالا تنفعه عبادته ويعمل له ويأمر به فيكون ذلك باطلاً .)[٣]

والذي يترتب عليه أثره ويحصل به مقصوده هو الموافق لهدي الله وشرعه ، وعلى هذا فإنه يلحق بالأعمال الباطلة الأعمال المبتدعة ، لكونها مخالفة لأمر الله وهدي رسوله ﷺ وما كان كذلك فهو باطل ؛ لأن الأصل في العبادات أنها توقيفية.[٤]

قال شيخ الإسلام – رحمه الله – : (وأما العبادات فإن أصل الدين أنه لا حرام إلا ما ؛رمه الله ، ولا دين إلا ما شرعه الله ، فإن الله سبحانه في سورة الأنعام والأعراف عاب على المشركين أنهم حرموا ما لم يحرمه الله ، وأنهم شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله ...)[٥]

وكما تقدم فإن العبادة تنقسم إلى قسمين : أعمال ظاهرة ، وأعمال باطنة وإليك بيانها فيما يلي ، وذلك من خلال كلام شيخ الإسلام – رحمه الله –

---

(١) رواه البخاري في الصلح (ح٢٦٩٧) ومسلم في الأقضية (ح١٧١٨) واللفظ له ، وأبو داود في السنة (ح٤٦٠٦) وابن ماجه في المقدمة (ح١٤) .

(٢) سورة الأحزاب آية ٧١ .

(٣) الفتاوى ٤١٦/٢ . وانظر ٣٤٩/١١ .

(٤) انظر الفتاوى ٣٤١/٣ ، ٣٤٣ ، ٤/١ ، ٣٣٤ ، وانظر المبحث السابق في شرطي العبادة .

(٥) الفتاوى ٣٥٧/٢٠ ، وانظر ص ٤٢٥-٤٣٦ .

أولاً: الأعمال الظاهرة :

الأعمال الظاهرة يدخل فيها أعمال الجوارح وأقوال اللسان ، وهذه الأعمال كثيرة قد تكلم على شيء منها شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - ومن ذلك مايلي :

الصلاة

قال شيخ الاسلام - رحمه الله تعالى - : (معلوم أن الصلاة أفضل العبادات كما في الصحيحين عن ابن مسعود أنه قال : ((قلت للنبي ﷺ أي العمل أحب إلى الله ؟ قال : الصلاة على وقتها ، قلت : ثم أي ؟ قال : بر الوالدين . قلت : ثم أي ؟ قال الجهاد . قال حدثني بهن رسول الله ﷺ ولو استزدته لزادني)) [١]

وثبت أيضاً عنه أنه جعل أفضل الأعمال إيمان بالله ، وجهاد في سبيله ، ثم الحج المبرور[٢] ، ولا منافاة بينهما ، فإن الصلاة داخلة في مسمى الإيمان بالله ، كما دخلت في قوله تعالى : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾[٣] قال البراء ابن عازب وغيره من السلف أي صلاتكم إلى بيت المقدس .

ولهذا كانت الصلاة كالإيمان لاتدخلها النيابة بحال ، فلا يصلي أحد عن أحد الفرض[٤] لا لعذر ولا لغير عذر ، كما لايؤمن أحد عنه ، ولا تسقط بحال كما لا يسقط الإيمان ، بل عليه الصلاة ما دام عقله حاضراً وهو متمكن من فعل بعض

---

(١) رواه البخاري في مواقيت الصلاة (ح٥٢٧) ومسلم في الإيمان (ح٨٥) والترمذي في الصلاة (١٧٣) والنسائي في المواقيت (ح٦١٠) والدارمي في الصلاة (ح١٢٢٥) .

(٢) رواه البخاري في الإيمان (ح٢٦) ومسلم في الإيمان (ح٨٣) والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٥٨) والنسائي في مناسك الحج (ح٢٦٢٤) والدارمي في الجهاد (ح٢٣٩٣) ولفظ البخاري ومسلم :عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ سئل أي العمل أفضل ؟ فقال : ((إيمان بالله ورسوله قيل ثم ماذا قال الجهاد في سبيل الله قيل ثم ماذا قال حج مبرور))

(٣) سورة البقرة ١٤٣ .

(٤) وكذلك النافلة .

أفعالها ...) [١] . كما أن الأفضلية بين الأعمال تتفاوت بحسب نوع العمل وقوته وحال العامل ونحو ذلك [٢]

والصلاة (من أحب الأعمال إلى الله، وأعظم الفرائض عنده الصلوات الخمس في مواقيتها ، وهي أول ما يحاسب عليه العبد من عمله يوم القيامة[٣] ، وهي التي فرضها الله تعالى بنفسه ليلة المعراج لم يجعل فيها بينه وبين محمد ﷺ واسطة ، وهي عمود الاسلام الذي لايقوم إلا به ، وهي أهم أمر الدين كما كان أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى عماله : إن أهم أمركم عندي الصلاة ، فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ، ومن ضيعها كان لما سواها من عمله أشد إضاعة .)[٤] .

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : ((بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة)) [٥] وقال : ((العهد الذي بيننا وبينهم ترك الصلاة فمن تركها فقد كفر))[٦].

فمن لم يعتقد وجوبها على كل عاقل بالغ غير حائض ونفساء فهو كافر مرتد باتفاق أئمة المسلمين ...) [٧] . (وذلك أن الصلاة هي أعرف المعروف من

---

(١) الفتاوى ١٠/٤٣٩-٤٤٠ .

(٢) انظر الفتاوى ١١/٣٩٩ . و ٢٨/٧٠-٧١ .

(٣) رواه أبو داود في الصلاة (ح٨٤٦) والترمذي في الصلاة (ح٤١٣) والنسائي الصلاة (ح٤٦٥) وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (ح١٤٢٥) ولفظه عند الترمذي وغيره عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته فإن صلحت فقد أفلح وأنجح وإن فسدت فقد خاب وخسر فإن انتقص من فريضته شيء قال الرب عز وجل انظروا هل لعبدي من تطوع فيكمل بها ما انتقص من الفريضة ثم يكون سائر عمله على ذلك)) قال أبو عيسى حديث أبي هريرة حديث حسن غريب من هذا الوجه . وقد روي هذا الحديث من غير هذا الوجه عن أبي هريرة ...

(٤) أخرجه الإمام مالك في الموطأ في كتاب وقوت الصلاة (ح ٦) .

(٥) رواه الإمام مسلم في الإيمان (ح٨٢) ولفظه عن أبي سفيان قال سمعت جابرا يقول : سمعت النبي ﷺ يقول : ((إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة)) ورواه أبو داود في السنة (ح٤٦٧٨) والترمذي في الإيمان (ح٢٦٢٠) وابن ماجة في الصلاة والسنة فيها (ح١٠٧٨)والدارمي في الصلاة (ح١٢٣٣) .

(٦) رواه الترمذي في الإيمان (ح٢٦٢١) وقال حديث حسن غريب ورواه النسائي في الصلاة (ح٤٦٣) وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها (ح١٠٧٩) .

(٧) الفتاوى ١٠/٤٣٣-٤٣٤ . والفتاوى الكبرى ١/١٨٠-١٨١ ، ١٨٤-١٨٥ ، وانظر ٢٨/٣٠٨ ، ومنهاج السنة النبوية ٥/١٩٥-١٩٦ .

الأعمال ، وهي عمود الإسلام وأعظم شرائعه ، وهي قرينة الشهادتين ، وإنما فرضها الله ليلة المعراج وخاطب بها الرسول ﷺ بلا واسطه ، لم يبعث بها رسولاً من الملائكة ، وهي آخر ما وصى به النبي ﷺ أمته ، وهي المخصوصة بالذكر في كتاب الله تخصيصاً بعد تعميم كقوله تعالى : ﴿ والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة ﴾[١] وقوله : ﴿ اتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة ﴾[٢].

وهي المقرونة بالصبر وبالزكاة ، وبالنسك وبالجهاد في مواضع من كتاب الله كقوله : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ [٣] وقوله : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ [٤] وقوله : ﴿ إن صلاتي ونسكي ﴾ [٥] ...) [٦]

فتبين من هذا أن الصلاة من أصول العبادات ؛ التي هي من أهم الأعمال التعبدية ؛ بل هي أهمها على الإطلاق ، فمن لم يأت بها فإن سائر عمله لن يقبل منه كما جاء في الأثر عن النبي ﷺ أنه قال : ((أول ما يحاسب عليه العبد من عمله الصلاة فإن قبلت قبل سائر عمله وإن ردت رد سائر عمله))[٧][٨].

ويدخل في مسمى الصلاة جميع الصلوات فرضها ونفلها ، بما (في ذلك قيام الليل المشروع وقراءة القرآن على الوجه المشروع والدعوات المشروعة فيها ، وما كان من ذلك موقتاً بوقت كطرفي النهار ، وما كان متعلقاً بسبب كتحية المسجد ، وسجود التلاوة ، وصلاة الكسوف ، وصلاة الاستخارة ، وما ورد من الأذكار والأدعية الشرعية في ذلك ، وهذا يدخل فيه أمور كثيرة ...)[٩].

---

(١) سورة الأعراف ١٧٠ .

(٢) سورة العنكبوت ٤٥ .

(٣) سورة البقرة ١٥٣ .

(٤) سورة البقرة ٤٣ ، ٨٣ ، ١١٠ ، النساء ٧٧ ، النور ٥٦ ، الروم ٣١ المزمل ٢٠ .

(٥) سورة الأنعام ١٦٢ .

(٦) الفتاوى ٢٨/٧٠ - ٧١ .

(٧) تقدم تخريجه قريباً انظر فهرس الأحاديث .

(٨) انظر منهاج السنة ٥/١٩٨ وما بعدها .

(٩) الفتاوى ١٠/٣٩١ .

(كما يدخل في العبادات أجزاء الصلاة التي هي عبادة بنفسها من السجود والركوع والتسبيح والدعاء والقرآءة والقيام مما لايصلح صرفه إلا لله وحده. (فلا يجوز أن يتنفل على طريق العبادة إلا لله وحده لا لشمس ولا لقمر ولا لملك ولا لنبي ولا صالح ولا لقبر نبي ولا صالح ...)[1]

الصيام

الصيام هو الامساك عن الأكل والشرب والجماع ، وسائر المفطرات بنية الصوم ، قال تعالى : ﴿ فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ﴾[2] فأذن في المباشرة ، فعقل من ذلك أن المراد من الصيام ما ذكر .

ولفظ الصيام كان معروفاً في الجاهلية يستعملونه ،كما في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها : ((أن يوم عاشوراء كان يوماً تصومه قريش في الجاهلية))[3] ، وثبت عن غير واحد أنه قبل أن يفرض شهر رمضان أمر بصوم يوم عاشوراء وأرسل منادياً ينادي بصومه ، فعلم أن مسمى هذا الإسم كان معروفاً عندهم .[4]

فالصيام من أنواع العبادات الظاهرة ، التي أوجب الله جل شأنه منه صيام شهر رمضان من كل عام ، وعده من فرائض الإسلام التعبدية التي لايجوز لأحد تركه إلا لصاحب عذر ؛كما قال سبحانه : ﴿ كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ، أياماً معدودات فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام آخر ﴾[5]

---

(١) الفتاوى ١/٧٤-٧٥ .

(٢) سورة البقرة ١٨٧ .

(٣) رواه البخاري في المناقب (ح ٣٨٣١) ، ورواه الترمذي في الصوم (ح ٧٥٣) ، وأبو داود في الصوم (ح ٢٤٤٢) ، ومالك في الصيام (ح ٦٦٥) ، والدارمي في الصوم (ح ١٧٦٣) .

(٤) الفتاوى ٢٥/٢١٩-٢٢٠ بتصرف .

(٥) سورة البقرة ١٨٥ .

(والصوم إنما شرع لتحصيل التقوى ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليك الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ، أياما معدودات ﴾(١) وقال النبي ﷺ : ((الصيام جنة ، فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل ...))(٢) ...

وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : ((من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه))(٣) بين ﷺ أن الله تعالى لم يحرم على الصائم الأكل لحاجته إلى ترك الطعام والشراب كما يحرم على السيد على عبيده بعض ماله ؛ بل المقصود محبة الله تعالى ، وهو حصول التقوى ، فإذا لم يأت به فقد أتى بما ليس فيه محبة ورضا ، فلا يتاب عليه ؛ ولكن لا يعاقب عقوبة التارك ...)(٤)

وقد جعل النبي ﷺ لشهر رمضان علامات يثبت بحصولها حيث قيد صيامه برؤية الهلال ، فقال ﷺ : ((لاتصوموا حتى تروه ، ولا تفطروا حتى تروه))(٥) وتعبدنا سبحانه بذلك ، (٦) كما شرع الله جل وعلا على لسان رسوله ﷺ وفعله ؛ صيام بعض أيام العام ندباً . ، كما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن أعرابيا أتى النبي ﷺ فقال دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة ؟ قال : ((تعبد الله لا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان ...))(٧)

---

(١) سورة البقرة ١٨٣-١٨٤ .

(٢) رواه البخاري في الصيام (ح١٩٠٤) ومسلم في الصيام (ح١١٥١) وأبو داود في الصوم (ح٢٣٦٣) والنسائي في الصيام (ح٢٢١٦)

(٣) رواه البخاري في الصيام (ح١٩٠٣) وأبو داود في الصيام (ح٢٣٦٢) وابن ماجه في الصيام (ح١٦٨٩) و لم أجده في مسلم .

(٤) منهاج السنة ٥/١٩٧-١٩٨ .

(٥) رواه البخاري في الصوم (ح ١٩٠٦) ، ومسلم في الصيام (ح ١٠٨٠) ، والنسائي في الصيام (ح ٢١٢١ و ٢١٢٢) ، وأبو داود في الصوم (ح ٢٣٢٠) ، وأحمد في مسند المكثرين من الصحابة (ح ٤٢٥٨ و ٥٠٤٢) ، ومالك في الصيام (ح ٦٣٣ و ٦٣٤ و ٦٣٥) ، والدارمي في الصوم (ح ١٦٨٤ و ١٦٩٠) ،

(٦) انظر الفتاوى ٢٥/ ١٧٦-١٧٧ ، ٢٢٠ .

(٧) رواه البخاري في كتاب الزكاة (ح١٣٩٧) ومسلم في الإيمان (ح١٤) .

وعنه أيضاً ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : ((أتاكم رمضان شهر مبارك فرض الله عز وجل عليكم صيامه تفتح فيه أبواب السماء وتغلق فيه أبواب الجحيم وتغل فيه مردة الشياطين لله فيه ليلة خير من ألف شهر من حرم خيرها فقد حرم))[(١)] وفي الباب أحاديث كثيرة تدل على فرضيته ووجوبه على كل مسلم عاقل بالغ قادر ، وهذا ليس موضع ذكرها .

وجعل الله للصائمين أجراً عظيماً ما لم يجعله لغيره من العبادات ، دل عليه إضافته الله جزاء الصائمن إلى نفسه في قوله في الحديث القدسي : ((إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به))[(٢)] وهذا يدل على أهمية هذا النوع من العبادات ، بل وجوب مافرض الله صيامه ، وتحريم تركه ، حيث عده ﷺ من أركاة الإسلام الخمسة التي يجب على كل مسلم أي يؤديها وإلا لم يصح إيمانه كما في حديث جبريل ، وحديث ابن عمر وغيرها في ذكر أركان الإسلام . [(٣)]

الصدقات

إنفاق الأموال في مرضاة الله من أجل أنواع العبادات الظاهرة ؛ بل من أجل أنواع هذه العبادات . ولقد أمر الله بإنفاقها في حقها ، ووضعها في موضعها ، وجعل زكاتها الركن الثالث من أركان الإسلام . و لم يقصر الإنفاق على الزكاة المفروضة فقد ؛ بل إن الله ــ عز وجل ــ حث المؤمنين على أن يكون في أموالهم حق للسائل والمحروم ، وندب إلى فعل ذلك ، ورغب بالثواب لفاعله ، وحذر من شح النفس ، قال سبحانه : ﴿ وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾[(٤)] وقال : ﴿ وما تنفقوا من خير يوف إليكم ﴾[(٥)] والنصوص في هذا أكثر من أن تذكر .

---

(١) رواه النسائي في الصيام (ح٢١٠٦) وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (ح١٩٩٢) وفي صحيح الجامع (ح٥٥) .

(٢) رواه البخاري في اللباس (ح٥٩٢٧) ومسلم في الصيام (ح١١٥١) .والنسائي في الصيام (ح٢٢١٥) وابن ماجه في الصيام (ح١٦٣٨) .

(٣) وهذه الأحاديث أشهر من أن تذكر .

(٤) سورة التغابن ١٦ .

(٥) سورة البقرة ٢٧٢ .

كما حث الشارع ؛ بل أوجب النفقة من الأموال على كل شخص لمن يعوله حيث قال ﷺ : ((.. وابدأ بمن تعول))[١] وقد كان النبي ﷺ ينفق على نفسه وعياله قدر الحاجة ، ويصرف سائر المال في طاعة الله لايستفضله ، وأمر هند بنت عتبة أن تأخذ من مال زوجها ما يكفيها وولدها بالمعروف[٢] ، وقال في خطبته المشهورة في عرفة : ((للنساء كسوتهن ونفقتهن بالمعروف))[٣] وكان ﷺ يعطي ويمنع بأمر الله تعالى في الغنائم وقسمتها .[٤]

ولقد حث الله على الإنفاق من الأموال فقال : ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم ﴾ [٥] وقال ﴿ أنفقوا من طيبات ما كسبتم ﴾ [٦] وغيرها كثير . وأمر بالصدقة من فضول الأموال ، وجعل منها ماهو واجب ومنها (ماهو مستحب وهو العفو ، كما قال تعالى : ﴿ ويسألونك ما ذا ينفقون قل العفو ﴾ [٧].

وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : ((يا ابن آدم إنك إن تنفق الفضل خير لك ، وإن تمسكه شر لك ، ولا تلام على كفاف ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول)) .[٨]...)[٩]

---

(١) رواه البخاري في الزكاة (١٤٢٦، ١٤٢٨ ، ٥٣٥٥) ومسلم في الزكاة (ح١٠٣٤، ١٠٤٢) وأبو داود في الزكاة (١٦٧٦) ، والترمذي الزكاة (ح٦٨٠) والنسائي في الزكاة (ح٢٥٣٢) .

(٢) أخرجه البخاري في البيوع (ح٢٢١١) ومسلم في الأقضية (ح١٧١٤) وأبو داود في البيوع (ح٣٥٣٢) والنسائي في آداب القضاة (ح٥٤٢٠) وابن ماجه في التجارات (ح٢٢٩٣) والدارمي في النكاح (ح٢٢٥٩) .

(٣) رواه في الحج (ح١٢١٨) وأبو داود في المناسك (ح١٩٠٥) والترمذي في الحج (وابن ماجه في النكاح (ح١٨٥١) ، وفي المناسك (ح٣٠٤٧) والدارمي في المناسك (ح١٨٥٠) . ولفظه عند مسلم وأبو داود وابن ماجه في المناسك والدارمي وغيرهم ((ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف)) .

(٤) انظر الفتاوى ٢٧٩/١٠-٢٨١ .

(٥) سورة البقرة ٢٥٤ .

(٦) سورة البقرة ٢٦٧ .

(٧) سورة البقرة ٢١٩ .

(٨) تقدم تخريجه قريباً . انظر فهرس الأحاديث .

(٩) الفتاوى ٣٩٠/١٠

فاتضح من هذا أن في صدقات الأموال في مرضاة الله هي من أجل العبادات الظاهرة ، إذا أن فيها مرضاة الرب ، وسداد حق الله وحق الناس بسد فقرهم وقضاء حوائجهم.

ومن أهم وأجل هذه النفقات فريضة الزكاة التي تعتبر من أهم الأعمال التعبدية الظاهرة وإليك بيان ذلك من كلام شيخ الإسلام ـ رحمه الله .

الزكاة :

الزكاة تعتبر من أهم الأعمال الظاهرة بل إنها من آكد أركان الإسلام بعد الصلاة ، قال شيخ الاسلام - رحمه الله تعالى - : (جعل الله الإسلام مبنياً على أركان خمسة : ومن آكدها الصلاة ، وهي خمسة فروض ، وقرن معها الزكاة ، فمن آكد العبادات الصلاة وتليها الزكاة ، ففي الصلاة عبادته ، وفي الزكاة الإحسان إلى خلقه ، فكرر فرض الصلاة في القرآن في غير آية ، ولم يذكرها إلا قرن معها الزكاة .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾[1]وقال : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتو الزكاة فإخوانكم في الدين ﴾ [2]وقال : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾[3]

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة .. : ((أن جبريل سأل النبي ﷺ عن الإسلام فقال : شهادة أن لاإله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت))[4] وعنه قال ﷺ : ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لاإله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا

---

(١) سورة البقرة ٤٣ ، ٨٣ ، ١١٠ ، والنساء ٧٧ ، والنور ٥٦ ، والمزمل ٢٠ .

(٢) سورة البينة ٥.

(٣) سورة التوبة ٥

(٤) رواه البخاري في الإيمان (ح ٥٠) ومسلم في الإيمان (ح ٩) والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٩١) وابن ماجه في المقدمة (ح ٦٤) .

الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم ، وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله))[١]

ولما بعث معاذاً إلى اليمن قال له : ((إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم فإذا صلوا فأخبرهم أن الله افترض عليهم زكاة في أموالهم تؤخذ من غنيهم فترد على فقيرهم فإذا أقروا بذلك فخذ منهم وتوق كرائم أموال الناس...))[٢] ...

وقد سمى الله الزكاة صدقة وزكاة .. ففي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : ((ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة ، ولا فيما دون خمس ذود صدقة ، ولا فيما دون خمسة أواق صدقة وأشار بخمس أصابعه))[٣] .. وأفهم الشارع أنها شرعت للمواساة ، ولا تكون المواساة إلا فيمن له مال من الأموال ، فحد له أنصبةً ، ووضعها في الأموال النامية ...) [٤] سواء تلك التي تمنوا بنفسها كالمواشي والزروع أو التي تنموا بتغير عينها والتصرف فيه كالعين ، وجعل نصاب كل شيء بحسبه ونصاب صاحبه . [٥] كما أنه سبحانه حدد أماكن صرفها [٦] ، فصرف الزكاة سواء كانت زكاة فرض أو نفل وسواء كانت عيناً أو نقداً من أهم أنواع العبادات الظاهرة .

---

(١) رواه البخاري في الإيمان (ح٢٥) ومسلم في الإيمان (ح٢٣) .

(٢) رواه البخاري في التوحيد (ح٧٢٧٣) وفي الزكاة (ح١٤٥٨) ومسلم في الإيمان (ح١٩) وأبوا داود في الزكاة (ح١٥٨٤) والترمذي في الزكاة (ح٦٢٥) والنسائي في الزكاة (ح٢٤٣٥) ، وابن ماجه الزكاة (ح١٧٨٣) . واللفظ للبخاري في كتاب التوحيد .

(٣) رواه البخاري في الزكاة (ح١٤٠٥) ومسلم في الزكاة (ح٩٧٩) واللفظ له ، ورواه أبو داود في الزكاة (ح١٥٥٨) والترمذي في الزكاة (ح٦٢٦) والنسائي في الزكاة (ح٢٤٤٥) وابن ماجه في الزكاة (ح١٧٩٣) ومالك في الزكاة (ح٥٧٥) والدارمي في الزكاة (ح١٦٣٣) .

(٤) انظر الفتاوى ٢٥/٦-٨ . و٢٤/١٢-١٣ .

(٥) انظر الفتاوى ٢٥/٨ ، ١٢ .

(٦) انظر الفتاوى ٢٥/٣٩ .

الحج والعمرة

ومن أنواع العبادات الظاهرة الحج ، وقد أكد شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ على أن الله قد فرضه على كل مسلم عاقل بالغ مستطيع في العمر مرة واحدة ، مستدلاً بقوله تعالى : ﴿ ولله على الناس حج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً ﴾[1] ، كما شرع سبحانه فيه أعمالاً عديدة تعبَّد الناس بها ، كالوقوف بعرفة والمبيت بمزدلفة ومنى ، ورمي الجمار ، والطواف والسعي ، والنحر ، والحلق والتقصير وغيرها من أنواع العبادات الظاهرة التي أمر بها سبحانه في الحج ، كما ذكر – رحمه الله – أن الله ﷻ أمر بالعمرة أمر ندب ورغب فيها ، وشرعها رسول الله ﷺ بقوله وفعله .[2]

كما بين أنه (يجب على المسلم أن يعلم أن الحج من جنس الصلاة ونحوها من العبادات التي يعبد الله بها وحده لاشريك له)[3] وأن عليه أن يتأدب بآدابها ويلتزم بواجباتها وسننها قال الله تعالى : ﴿ فمن حج البيت فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج ﴾[4] ، وقد (ثبت في الصحيحن عن النبي ﷺ أن قال : من حج هذا البيت فلم يرفث و لم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه))[5] والجدال هو المراء والفسوق اسم للمعاصي ...)[6]

ومن الأعمال المندوبة في أيام الحج الذبح ، سواء كان هدياً أو أضحية أو فدية ، فقد جعل الشارع الأضحية من أجل أنواع العبادات وأمر بها ، قال الله تعالى : ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لاشريك له ﴾[7] وقال

---

(١) سورة ال عمران ٩٧ .

(٢) انظر الفتاوى ٢٦/٥-١٠ ، ١٢٩، ١٣٥ ، ١٤٠ ، ٢٥٦ .

(٣) الفتاوى ٢٦/١٥٢ .

(٤) سورة البقرة ١٩٧ .

(٥) رواه البخاري في الحج (١٥٢١) ومسلم في الحج أيضاً (ح١٣٥٠) والترمذي في الحج (ح٨١١) والنسائي (ح٢٦٢٧) ، وابن ماجه في المناسك (ح٢٨٨٩) .

(٦) الفتاوى ٢٦/١٠٧ .

(٧) سورة الأنعام ١٦٢ .

تعالى : ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ [١] . والمقصود بالنسك هنا الذبح سواء كان في الحج أو غيره كما ذكر ذلك ابن جرير وغيره [٢]

وقد بين شيخ الاسلام - رحمه الله تعالى - : أن الذبح لله جل وعلا من أنواع القرب والأعمال الصالحة التي يجب أن تكون خالصة لوجه الله جلا وعلا ، ومن ذلك الأضحية والهدي ، التي تعد من أفضل القرب ، بل ذكر أنها أفضل من الصدقة ، كما أنها من من النفقة بالمعروف [٣] ، فينبغي للعبد أن يضحي عن نفسه وعن أهل بيته كما فعل ذلك النبي ﷺ [٤] وحث عليه .

الجهاد في سبيل الله

الجهاد من أفضل أنواع العبادات الظاهرة التي فرضها الله جل وعلا على عباده ، ليكون الدين كله لله ، (ففي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه سئل أي الأعمال أفضل ؟ قال : ((إيمان بالله ورسوله ، قيل ثم ماذا ؟ قال : جهاد في سبيله ، قيل : ثم ماذا ؟ قال : ثم حج مبرور)) [٥] وقد روي : ((غزوة في سبيل الله أفضل من سبعين حجة)) [٦] وقد روي مسلم في صحيحه عن سلمان الفارسي : أن النبي ﷺ

---

(١) سورة الكوثر

(٢) انظر جامع البيان ١١٢/٨ ، وذكر ذلك عن جمع من السلف كمجاهد الذي فسرها بقوله : " ذبيحتي في الحج والعمرة " وسعيد بن جبير والسدي والضحاك الذين قالوا : المقصود بالنسك الذبيحة ، دون أن يحددوا لها مكاناً أو زماناً معيناً ، ولا تنافي بينها فإن الأول فسرها ببعض مدلولاتها ، والقول الثاني فسرها بالمعنى العام . وبه قال القرطبي في تفسيره انظر ١٥٢/٧ وذكر قولاً آخراً لمن فسرها بالعبادة والطاعات . وأيد المفهوم العام ابن كثير حيث فسرها به ، لكون سياق الآية يدل على مخالفة المشركين بإخلاص جميع الأعمال لله وحده لا شريك ذلك ، والتي خص منها الصلاة والذبح . والله تعالى أعلم .انظر تفسير القرآن العظيم ٣٧٦/٣ .

(٣) انظر الفتاوى ٣٠٤/٢٦-٣٠٦ .

(٤) رواه البخاري كتاب الحيض (ح٢٩٤) ومسلم في الحج (ح١٢١١) .

(٥) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث حرف الهمزة .

(٦) لم أقف عليه بهذا اللفظ ؛ لكن جاء : ((غزوة لمن قد حج خير – وفي لفظ : أفضل – من أربعين حجة)) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٣٣٤/٤ والمنذري في الترغيب والترهيب ٢٠٢/٢ وذكر السيوطي في الدر المنثور ٢٨٤/١ ، وقد أشار الشيخ – رحمه الله – إلى ضعفه بقوله :(وروي)

قال : ((رباط يوم وليلة في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه ، ومن مات مرابطاً مات مجاهداً ، وأجري عليه رزقه من الجنة ، وأمن الفتان[١]))[٢] وفي السنن عن عثمان ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : ((رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل)) [٣] وهذا قاله عثمان ﷺ على منبر رسول الله ﷺ وذكر أنه قال لهم ذلك تبليغاً للسنة .

وقال أبو هريرة ﷺ : (لأن أرابط ليلة في سبيل الله أحب إلى من أن أقوم ليلة القدر عند الحجر الأسود)[٤] وفضائل الرباط في سبيل كثيرة ...)[٥]

والجهاد ذروة سنام الإسلام ، وذروة سنام العمل ، (ففيه سنام جميع الأحوال الشريفة ، فيه سنام المحبة ، كما في قوله تعالى : ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله لايخافون لومة لائم ﴾[٦] وفيه سنام التوكل وسنام الصبر ، فإن المجاهد أحوج الناس إلى الصبر والتوكل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا

---

(١) الفتان ، بضم الفاء وفتحها ، وفتح التاء المشدد ، المقصود به فتنة القبر ، يريد ﷺ أنه أمن من عذاب القبر وفتنته . والله تعالى أعلم انظر النهاية ٣/٤١٠ . مادة فتن .

(٢) رواه رواه مسلم في الإمارة (ح١٩١٣) ولفظه : ((عن سلمان قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله وأجري عليه رزقه وأمن الفتان)) ورواه الترمذي في فضائل الجهاد (ح١٦٦٥) والنسائي في الجهاد (ح١٣٦٧) .

(٣) رواه الترمذي في فضائل الجهاد (ح١٦٦٧) وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب ، ورواه النسائي في الجهاد (ح٣١٦٩) والدارمي في الجهاد (ح٢٤٢٤) .

(٤)أخرجه ابن حبان في صحيحه ، انظر الاحسان (ح٤٥٨٤) والبخاري في الكبير ٤/٢/٤٠٨ ، في ترجمة يونس بن غياث . وأورده المنذري في الترغيب والترهيب ٢/١٦٧ في الترغيب في الرباط في سبيل الله (ح١٢) ولفظه : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((موقف ساعة في سبيل الله خير من قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود)) . وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (ح٣٩٨١) وقال محققه إسناده صحيح ورجاله موثوقون ، وصححه الألباني في الصحيحة (ح١٠٦٨) .

(٥) الفتاوى ٢٨/ ٥-٦ .

(٦) سورة المائدة ٥٤ .

يعلمون ، الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾[١] وقال موسى لقومه : ﴿ استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾ [٢] ...

ولهذا كان الجهاد موجباً للهداية التي هي محيطة بأبواب العلم ، كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾[٣] فجعل لمن جاهد فيه هداية جميع سبله تعالى ...

وفي الجهاد حقيقة الزهد في الحياة الدنيا والرغبة في الدار الآخرة . وفيه أيضاً حقيقة الإخلاص فإن الكلام فيمن جاهد في سبيل الله لا في سبيل الرياسة ، ولا في سبيل المال ، ولا في سبيل الحمية ، وهذا لا يكون إلا لمن قاتل ليكون الدين كله لله ، ولتكون كلمة الله هي العليا .

وأعظم مراتب الإخلاص تسليم النفس والمال للمعبود كما قال تعالى : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ﴾[٤] ...) [٥]

ومن أنواع العبادات البدنية الموالاة والمعادات[٦] ، والزيارة الشرعية[٧]، والصبر[٨]، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٩] والنذر[١٠] ، ونحوها مما له تعلق بفعل البدن .

---

(١) سورة النحل ٤١ .

(٢) سورة الأعراف ١٢٨ .

(٣) سورة العنكبوت ٦٩ .

(٤) سورة التوبة ١١١ .

(٥) الفتاوى ٢٨/٤٤١-٤٤٣ .

(٦) انظر الفتاوى ١٠/١٦١ ، ٧/١٦ ، ١٨، ٣٢٠ ، ١٤/٤٧٩ ، ١٥/ ٢٨٦-٢٨٧ هجر المبتدع .

(٧) انظر في ذلك الفتاوى ١/٣٥٦ .

(٨) انظر في ذلك الفتاوى ١٠/، ٣٨ ، ٤٧ ، ١٢٢ ، ١٦٠ ، ١٨٣ ، ٥٧٣-٥٧٨ ، ٦٧٣ . ١١/٣١-٣٦ ، ١٥/١٣٠، ١٣٥-١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٧٨ ، ١٦/٧٠ ، ١٧/٢٩٥ .

(٩) وقد ألف في ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - رسالة بهذا الاسم .

(١٠) انظر الفتاوى ١/٨١ .

وهذه أهم أنواع العبادات الظاهرة المتعلقة بأعمال البدن ، ونظراً لطول هذه الأنواع فإنني أقتصر على ذكر مما تقدم ، وأتبعها فيما يلي بذكر ما يتعلق بالعبادات القولية كالدعاء وأنواعه من الذكر والاستعانة والاستغاثة والاستعاذة ونحوها مما يلحق بالأعمال الظاهرة .

الدعاء

إن من أجمع تلك الأعمال الظاهرة الدعاء الذي هو العبادة [1] كما صح في الأثر .

وقد أطال شيخ الاسلام ابن تيمة - رحمه ا لله تعالى - الحديث حول الدعاء فبين أن ا لله جل شأنه أمر بالدعاء وحث عليه ورغب فيه ، وشرعه لحاجة الناس إليه ، فإنهم لايزالون محتاجين إليه في كل وقت وفي كل حين ، لكونهم مذنبين يحتاجون إلى مغفرة ا لله ورضوانه ؛ فإنه لن يدخل الجنة أحد بعمله ، بل برحمة ا لله ولطفه ، ولذا فإنهم محتاجون إلى طلب المغفرة والرحمة من ا لله وحده ، كما أنهم محتاجون قبل هذا إلى طلب الهداية والتوفيق إلى حسن عبادته ، ولهذا شرع لهم في كل صلاة أن يدعوا بقوله تعالى : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ فهو سبحانه الهادي إلى الصراط المستقيم .

(.. والذين هداهم ا لله من هذه الأمة حتى صاروا من أولياء ا لله المتقين كان من أعظم أسباب ذلك دعاؤهم ا لله بهذا الدعاء في كل صلاة ، مع علمهم بحاجتهم وفاقتهم إلى ا لله دائماً في أن يهديهم الصراط المستقيم .

فبدوام هذا الدعاء والافتقار صاروا من أولياء ا لله المتقين ، قال سهب بن عبدا لله التستري : ليس بين العبد وبين ربه طريق أقرب إليه من الافتقار ، وما حصل فيه الهدى في الماضي ، فهو محتاج إلى حصول الهدى فيه في المستقبل ، وهذا حقيقة قول من يقول : ثبتنا واهدنا لزوم الصراط ...) [2]

---

(١) رواه أبو داود في الصلاة (ح١٤٧٩) ورواه الترمذي في تفسير القرآن (ح٢٩٦٩) وقال : هذا حديث حسن صحيح ، ورواه ابن ماجه في الدعاء (ح٣٨٢٨) .

(٢) الفتاوى ١٠٨/١٠ .

فالعباد فقراء إلى الله لايمكن لأحد منهم أن يستغني عن الله طرفة عين ، قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد ﴾[1] وجاء في الأثر دعاءه ﷺ بقوله : ((اللهم لاتكلني إلى نفسي طرفة عين))[2] ؛ لأن الإنسان إذا وكل إلى نفسه هلك .

فالعبد فقير إلى الله ، فقير إلى رزق الله ، فقير إلى عون الله ، فقير إلى توفيق الله ، فقير إلى نيل فضل الله ، فقير في جميع أحواله وأموره إلى الله سبحانه ، ضعيف يحتاج إلى إعانة الله .[3]

ولهذا شرع الله سؤاله لحاجتهم إليه ، لا لحاجته إليهم ؛ لأن الله غني عن العالمين لاتضره معصية العاصي كما لا تنفه طاعة المطيع ، قال تعالى على لسان موسى عليه السلام : ﴿ إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴾[4]

وفي الحديث الصحيح الإلهي قوله سبحانه : ((يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، ولو كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، ولو قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي شيئاً ...)) الحديث[5] .

فالرب غني بنفسه لايفعل شيئاً لحاجة إلى غيره بوجه من الوجوه ؛ فإنه فعال لما يريد ، يريد أن يتوب على عباده ويعفو عنهم - جل وعلا - .[6]

---

(١) سورة فاطر ١٥ .

(٢) رواه أبو داود في الأدب (ح ٥٠٩٠) ولفظه : قال النبي ﷺ : ((دعوات المكروب اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى..)) وأحمد ٤٢/٥ ، وحسنه الألباني في صحيح أبي دواود وفي صحيح الكلم الطيب ص ٤٩ .

(٣) انظر الفتاوى ٣٦/١ .

(٤) سورة ابراهيم ٨ .

(٥) رواه مسلم في البر والصلة والآداب (ح٢٥٧٧) والترمذي في صفة القيامة .. (ح٢٤٩٥) وابن ماجه في الزهد (ح٤٢٥٧) والدارمي في الرقاق (ح٢٧٨٨) .

(٦) انظر الفتاوى ٣٦/١-٣٨ .

وقد أمر الله - عز وجل - بدعائه وحث عليه ورغب فيه ، فقال : ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ [(١)] وقال : ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾[(٢)] وقال ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون ﴾ [(٣)] .

كما أنه - سبحانه - يفرح بتوبة التائب إذا تاب وأناب ، فيقبل من المنكسرة قلوبهم بين يديه إنابتهم ورجوعهم إليه . كما أنه سبحانه بفرح بدعاء الداعي إذا دعاه ، ويغضب عند عدم دعائه وسؤاله . [(٤)]

أقسام الدعاء

قد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - أن الدعاء ينقسم إلى قسمين دعاء عبادة ودعاء مسألة ، والأول يتعلق بالقول والفعل ، أما الثاني فيتعلق بالقول فقط .[(٥)]

قال - رحمه الله تعالى - : (الدعاء والدعوة في القرآن يتضمن معينين : دعاء العبادة ، ودعاء المسألة .

قال الله تعالى : ﴿ فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين ﴾[(٦)] وقال تعالى : ﴿ ومن يدع مع الله إلهاً آخر لابرهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لايفلح الكافرون﴾ [(٧)] .. وقال : ﴿ إن يدعون من دونه إلا إناثاً ، وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً ﴾ [(٨)] .. وقال : ﴿ قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم ﴾ ، قيل لولا دعاؤكم

(١) سورة غافر ٦٠ .

(٢) سورة الأعراف ٥٥ .

(٣) سورة البقرة ١٨٦ .

(٤) انظر الفتاوى ١/٢١٦-٢١٨ .

(٥) انظر الفتاوى ١٥/١٠-١٥

(٦) سورة الشعراء ٢١٣ .

(٧) سورة المؤمنون ١١٧ .

(٨) سورة النساء ١١٧ .

إياه ، وقيل لولا دعاؤه إياكم فإن المصدر يضاف إلى الفاعل تارة ، وإلى المفعول تارة ، ولكن اضافته إلى الفاعل أقوى ؛ لأنه لابد له من فاعل ، فلهذا كان أقوى القولين ، أي ما يعبأ بكم لولا أنكم تدعونه فتعبدونه وتسألونه : ﴿ فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً ﴾(١) أي عذاب لازم للمكذبين .

ولفظ الصلاة في اللغة أصله الدعاء ، وسميت الصلاة دعاء لتضمنها معنى الدعاء وهو العبادة والمسألة .

وقد فسر قوله تعالى : ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾(٢) بالوجهين ، قيل : اعبدوني وامتثلوا أمري أستجب لكم ، كما قال تعالى : ﴿ ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ (٣) أي : يستجيب لهم ، وهو معروف في اللغة ، يقال استجاب له ...

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : ((ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له))(٤) فذكر أولاً لفظ الدعاء ، ثم ذكر السؤال والاستغفار ، والمستغفر سائل كما أن السائل داع ...

وقال تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإن قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان ﴾(٥) وكل سائل راغب راهب فهو عابد ، وكل عابد له فهو أيضاً راغب وراهب يرجو رحمته ويخاف عذابه ، فكل عابد سائل وكل سائل عابد ، فأحد الإسمين يتناول الآخر عند تجرده عنه ، ولكن إذا جمع بينهما فإنه يراد بالسائل الذي يطلب جلب المنفعة ودفع المضرة بصيغ السؤال ، ويراد بالعابد من يطلب ذلك بامتثال الأمر وإن لم يكن في ذلك صيغ سؤال .

---

(١) سورة الفرقان الفرقان ٧٧ .

(٢) سورة غافر ٦٠ .

(٣) سورة الشورى ٢٦ .

(٤) رواه البخاري في الجمعة (١١٤٥) ومسلم في صلاة المسافرين (ح٧٥٨) وأبو داود في الدعوات (ح١٣١٥) والترمذي في الدعوات (ح٣٤٩٨) وابن ماجة (ح١٧٩٦) والدارمي في الصلاة (ح١٤٧٨) .

(٥) سورة البقرة ١٨٦ .

والعابد الذي يريد وجه الله والنظر إليه هو أيضاً راج خائف راغب راهب ، يرغب في حصول مراده ، ويرهب من فواته ، قال تعالى : ﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً﴾[1] وقال سبحانه : ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً﴾[2] ولا يتصور أن يخلو داع لله - دعاء عبادة أو دعاء مسألة - من الرغب والرهب من الخوف والطمع .)[3]

فتبين من قوله هذا أن الدعاء ينقسم إلى قسمين : دعاء مسألة ، ودعاء عبادة ،

فدعاء المسألة يتعلق بسؤال الله عز وجل من فضلة وعظيم ثوابه و جزيل عطائه ، وبره وإحسانه ، وهذا نوع من أنواع أعمال العبادة الظاهرة بالقول باللسان ، وقد تكون خفية بالقلب ؛ والمقصود أن هذا النوع من أنواع العبادة لايستحقها غيره الله جل وعلا .

والنوع الثاني : دعاء العبادة : وهو ما يتعلق بالأفعال غالباً ، وتحت هذا يدخل كثير من أنواع العبادة كالصلاة والزكاة والبر والإحسان إلى الناس ، وإعانة الضعيف ، وإغاثة الملهوف ، وإطعام الطعام ، والصلاة والناس نيام ونحوها مما يصدق عليه مسى العبادة .

وقد وضح شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ أدلة كل قسم ، فمن أدلة القسم الأول قوله ـ عز وجل ـ : ﴿ أدعوني أستجب لكم ﴾ ، ومن أدلة القسم الثاني : قوله ـ عز وجل ـ : ﴿ فلا تدع مع الله إلـه آخر فتكون من المعذبين ﴾ . والأدلة على هذه النوعين كثيرة معلومة . سبق ذكر شيخ الإسلام لشيء منها .

التفضيل بين نوعي الدعاء

وأما من جهة التفضيل بينهما فقد ذكر - رحمه الله - أن (جنس الدعاء الذي هو ثناء وعبادة أفضل من جنس الدعاء الذي هو سؤال وطلب ، وإن كان المفضول قد يفضل على الفاضل في موضعه الخاص ، بسبب وبأشياء أخر ، كما أن الصلاة أفضل

---

(١) سورة الأنبياء ٩٠ .

(٢) سورة السجدة ١٦ .

(٣) الفتاوى ١٠/٢٣٧-٢٤٠ .

من القراءة والقراءة أفضل من الذكر الذي هو ثناء ، والذكر أفضل من الدعاء الذي هو سؤال ، ومع هذا فالمفضول له أمكنة وأزمنة وأحوال يكون فيها أفضل من الفاضل ؛ لكن أول الدين وآخره وظاهره وباطنه هو التوحيد وإخلاص الدين كله لله هو تحقيق قول لا إله إلا الله .) [١]

والنوعان متلازمان : (فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة ، وهذا تارة ، ويراد به مجموعهما ، وهما متلازمان ، فإن دعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي ، وطلب كشف ما يضره ودفعه ، وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود ، لابد أن يكون مالكاً للنفع والضر .

ولهذا أنكر تعالى على من عبد من دونه مالا يملك ضراً ولا نفعاً وذلك كثير في القرآن ...

فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة ، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة .

وعلى هذا فقوله : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان ﴾ يتناول نوعي الدعاء ، وبكل منهما فسرت الآية ، وليس هذا من استعمال اللفظ في معنيية كليهما ، أو استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه ؛ بل هذا استعماله في حقيقته المتضمنة للأمرين جميعاً ، فتأمله فإنه موضوع عظيم النفع ، وقل ما يُفْطَنُ له ، وأكثر آيات القرآن دالة على معنيين فصاعداً ، فهي من هذا القبيل .)[٢]

والدعاء من أهم أنواع العبادة التي يجب الإخلاص لله - جل وعلا - في قليله وكثيره ، قال الله تعالى : ﴿ فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب ﴾ [٣] وقال النبي ﷺ لابن عباس : ((إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله))[٤] وقال : ((ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله إذا انقطع ، فإنه إن لم

---

(١) الفتاوى ١٠/٢٦٣-٢٦٤ ، ١٥/١٠-١٣ .

(٢) الفتاوى ١٥/١١ .

(٣) سورة الشرح

(٤) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث.

يسره لم يتيسر)) [١] وفي الصحيح أنه قال لعدي بن مالك والرهط الذين بايعهم معه : ((لاتسألوا الناس شيئاً))[٢] فكان سوط أحدهم يسقط من يده فلا يقول لأحد ناولني إياه ، إمعاناً في تحقيق التوحيد وإفراد الله جل وعلا في المسألة دون من سواه . وفي حديث الذين يدخلون الجنة بلا حساب : ((هم الذين لايسترقون ، ولا يكتوون ، ولا يتطيرون))[٣] والاسترقاء طلب الرقية وهو نوع من السؤال . ولهذا يجب تحقيق المسألة لله جل شأنه ، فلا يتجه بالسؤال إلا إليه ، لاسيما إذا كان لايقدر عليه إلا الله فإنه حينئذ يحرم سؤال غير الله . [٤]

كما يحرم دعاء غير الله سواء كان ملكاً أو نبياً أو ولياً أو نحو ذلك ، ومن فعل ذلك فقد أشرك ، ودعاءه مردود عليه ؛ لأنه من قبيل دعاء الكافرين ، قال الله تعالى : ﴿ وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ [٥] .

(فمن دعا المخلوقين من الموتى والغائبين واستغاث بهم مع أن هذا أمر لم يأمر به الله ولا رسوله أمر إيجاب ولا استحباب كان مبتدعاً في الدين ، مشركاً برب العالمين ، متبعاً غير سبيل المؤمنين ، ومن سئل الله تعالى بالمخلوقين ، أو أقسم عليه بالمخلوقين كان مبتدعاً بدعة ما أنزل الله بها من سلطان ، فإن ذم من خالفه وسعى في عقوبته كان ظالماً جاهلاً معتدياً .

وإن حكم بذلك فقد حكم بغير ما أنزل الله ، وكان حكمه منقوضاً بإجماع المسلمين ، وكان إلى أن يستتاب من هذا الحكم ويعاقب عليه أحوج منه إلى أن ينفذ له هذا الحكم ويعان عليه ، وهذا كله مجمع عليه بين المسلمين ، ليس فيه خلاف لابين الأئمة الأربعة ولا غيرهم .)[٦]

---

(١) رواه الترمذي في الدعوات (ح٣٩٧٣) وقال هذا : حديث غريب .

(٢) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث.

(٣) رواه البخاري في الطب (ح٥٧٠٥) ومسلم في الإيمان (ح٢١٨) والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (ح٢٤٤٦) .

(٤) انظر الفتاوى ١ /٧٨ ، ١٨١ .

(٥) سورة الرعد ١٤ .

(٦) الفتاوى ٣١٢/١ وانظر ٣٥٠-٣٥٦ .

قـال شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة – رحمــه الله – : (.. انتفـاع العبـاد بالدعـاء موقـوف علـى شـروط ولـه موانـع ، فالشـفاعة للكفـار بالنجـاة مـن النـار والاسـتغفار لهـم مـع موتهـم علـى الكفـر لاتنفعهـم – ولـو كـان الشـفيع أعظـم الشـفعاء جاهاً – فـلا شـفيع أعظـم مـن محمـد ﷺ ثـم الخليـل ابراهيـم ، وقـد دعـا الخليـل ابراهيـم عليه السلام لأبيـه واسـتغفر لـه كمـا قـال تعـالى عنـه : ﴿ربنـا اغفـر لي ولوالـدي وللمؤمنـين يـوم يقـوم الحسـاب﴾ [1] وقـد كـان ﷺ أراد أن يستغفر لبعض أقاربـه فـأنزل الله تعـالى : ﴿ مـا كـان للنـبي والذيـن آمنـوا أن يسـتغفروا للمشـركين ولـو كـانوا أولي قربـى مـن بعـد مـا تبـين لهـم أنهـم أصحـاب الجحيـم ﴾ [2] ...

وفي صحيـح مسـلم عـن أبـي هريـرة رضي الله عنه أن النـبي ﷺ قـال : ((اسـتأذنت ربـي أن استغفر لأمـي فلـم يـأذن لي ، واسـتأذنته أن أوزر قبرهـا فـأذن لي))[3]...)[4]

أنواع مـن الدعـاء

ويدخـل تحـت الدعـاء أنـواع عديـدة منهـا :

الاسـتغاثة ، والاسـتعانة ، وطلـب الرقيـة ، وطلـب الشـفاعة والتوسـل ونحـوه ممـا يدخـل في جملـة العبـادات الظـاهرة . وهـذه الأنـوع كمـا تـرى داخلـة في القسـم الثـاني مـن أقسـام الدعـاء ، وهـو دعـاء المسـألة ، وسـنخص بعـض هـذه الأقسـام بـالكلام فيمـا يلـي ، ونؤجل بعضهـا لحينـه كمـا يقتضيـه الحـال .

الاسـتغاثة

قـال شيخ الإسـلام ابـن تيميـة – رحمـه الله – : (الاسـتغاثة طلـب الغـوث ، وهـو إزالـة الشـدة كالإسـتنصار طلـب النصـر والاستعانة طلـب العـون .)[5]

---

(١) سـورة ابراهيـم ٤١.

(٢) سـورة التوبـة ١١٣ .

(٣) رواه مسـلم في الجنـائز (ح٩٧٦) وأبـو داود في الجنـائز (ح٣٢٣٤) والنسـائي في الجنـائز (ح٢٠٣٤) وابـن ماجه في كتـاب مـا جـاء في الجنـائز (ح ١٥٧٢) .

(٤) الفتـاوى ١/١٤٥-١٤٦ بتصرف يسـير في أولـه

(٥) الفتـاوى ١/١٠٣ . وانظر اللسـان مـادة غـوث ٢/١٧٤ .

والاستغاثة من أنواع العبادة الظاهرة ، وتندرج تحت الدعاء ؛ لأنها في الحقيقة طلب المستغيث ما يغيثه مما يرجو منفعته ، أو دفع المضرة عنه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : (قال العلماء المصنفون في أسماء الله تعالى : يجب على كل مكلف أن يعلم أن لا غياث ولا مغيث على الإطلاق إلا الله ، وإن كل غوث فمن عنده ، وإن كان جعل ذلك على يدي غيره فالحقيقة له سبحانه وتعالى ولغيره مجاز .

قالوا : من أسمائه تعالى المغيث والغياث ، وجاء ذكر المغيث في حديث أبي هريرة قالوا واجتمعت الأمة على ذلك .

وقال أبو عبد الله الحليمي[1] الغياث هو المغيث ، وأكثر ما يقال غياث المستغيثين ، ومعناه المدرك عباده في الشدائد إذا دعوه ، ومجيبهم ومخلصهم ، وفي خبر الاستسقاء في الصحيحين : ((اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا))[2] يقال أغاثه إغاثة وغياثاً وغوثاً ، وهذا الاسم في معنى المجيب والمستجيب قال تعالى : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم ﴾[3] إلا أن الإغاثة أحق بالأفعال والاستجابة أحق بالأقوال ، وقد يقع كل منهما موقع الآخر .)[4]

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : أن طلبها من المخلوق نوعان : استغاثة جائزة ، واستغاثة محرمة .

فالنوع الأول : وهو طلب الغوث والإعانة في حالة قدرة المستغاث به على النصرة والتأييد وجلب المنفعة للمستغيث وهذا لابأس بطلبه من المخلوق .

---

(١) قال الذهبي : " الحليمي : القاضي العلامة ، ريس المحدثين والمتكلمين بما وراء النهر أبو عبد الله الحسين بن محمد بن حليم البخاري الشافعي ، أحد الأذكياء الموصوفين ، ومن أصحاب الوجه في المذهب .. ولد سنة ٣٣٨هـ وله مصنفات نفيسة .. منها النهاج .. توفي في شهر ربيع الأول سنة ٤٠٣هـ . السير ٢٣١/١٧ـ٢٣٤ .

(٢) رواه البخاري في الجمعة (ح١٠١٤) ومسلم في صلاة الاستسقاء (ح٨٩٧) والنسائي في الاستسقاء (ح١٥١٨) .

(٣) سورة الأنفال ٩ .

(٤) الفتاوى ١/١١٠-١١٣ .

والنوع الثاني : طلبها من المخلوق في حالة عدم قدرته على ذلك ، بأن يكون غائباً ، أو ميتاً ، أو مسلوب القدرة ونحو ذلك فهذا النوع محرم ، وقد عده أهل العلم من الشرك في العبادة ؛ لأن ما لا يقدر عليه إلا الله لا يجوز طلبه إلا منه سبحانه ، لا من الملائكة ولا من الأنبياء ولا من المقربين ، ولا من الأولياء والصالحين ولا من غيرهم . ولهذا روى الطبراني في معجمه أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين ، قال الصديق : قوموا بنا نستغيث برسول الله من هذا المنافق ، فجاءوا إليه فقال : ﷺ : ((إنه لايستغاث بي ، وإنما يستغاث بالله))[1]

فأما ما يقدر عليه البشر ، فليس من هذا الباب ، وقد قال سبحانه : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم ﴾[2] وفي دعاء موسى عليه السلام : ((اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى وإليك المستعان ، وبك المستغاث ، وعليك التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بك))[3] وقال أبو يزيد البسطامي[4] : استغاثة المخلوق بالمخلوق

---

(١) رواه الإمام أحمد ٣١٧/٥ غير أنه قال ﷺ : " إنه لا يقام لي وإنما يقام لله تعالى " وهو في مجمع الزوائد ١٥٩/١٠ عن عبادة بن الصامت ، قال الهيثمي : " ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث، وأخرجه ابن سعد في الطبقات ٣٨٧/١ . والحديث فيه ابن لهيعة ، ورجل مبهم لم يسم . والحديث وإن كان فيه مقال إلا أنه ذكر هنا للإعتضاد لا للإعتماد ، قال شيخ الإسلام ــ رحمه الله ــ في رده على البكري عندما انتقد ذكره لهذا الحديث قال : " هذا الخبر لم يذكر للأعتماد عليه ؛ بل ذكر في ضمن غيره ليتبين أن معناه موافق للمعاني المعلومة بالكتاب والسنة كما أنه إذا ذكر حكم بدليل معلوم ذكر ما يوافقه من الآثار والمراسيل وأقوال العلماء وغير ذلك ، لما في ذلك من الاعتضاد والمعاونة ، لا لن الواحد من ذلك يعتمد عليه في حكم شرعي ، لهذا كان العلماء متفقين على جواز الاعتضاد والترجيح بما لا يصلح أن يكون هو العمدة من الأخبار التي تُكلم في بعض رواتها لسوء حفظ أو نحو ذلك ، وبآثار الصحابة والتابعين ؛ بل بأقوال المشايخ والإسرائيليات والمنامات مما يصلح للإعتضاد ، فما يصلح للإعتضاد نوع ما يصلح للإعتماد نوع ، وهذا الخبر من النوع الأول ..." تلخيص الاستغاثة ص١٥٣ .

(٢) سورة الأنفال ٩ .

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (ح٣٤١٨) وأورده الهيثمي في المجمع وقال : "... وفيه من لم أعرفهم" ١٨٦/١٠ ، باب ما جاء في دعاء موسى

(٤) قال الذهبي : " سلطان العارفين أبو يزيد طيفور بن عيسى بن شروسان البسطامي أحد الزهاد ، أخو الزاهدين : آدم وعلي ... وقل ما رَوَى ، وله كلام نافع ... وله .. نكت مليحة ، وجاء عنه أشياء مشكلة لا مساغ لها ، الشأن في ثبوتها عنه ، أو أنه قالها في حال الدهشة والسكر ــ [الشوق والوله بالله تعالى] ــ والغيبة والمحو ، فيطوى ولا يحتج بها ، إذ ظاهرها إلحاد ...

قال السلمي .. ويحكى عنه في الشطح أشياء منها ما لا يصح ، أو يكون مقولا عليه ، وكان يرجع إلى أحوال سنية ... توفي أبو يزيد ببسطام سنة إحدى وستين ومائتين . " السير ٨٦-٨٩ .

كاستغاثة الغريق بالغريق . وقال أبو عبد الله القرشي[١] : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون .

وقال تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا ، أولئك الذي يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً ﴾[٢]...[٣]

فتبين بهذا أن الاستغاثة دعاء من أنواع الأدعية ، كما أنها من العبادات التي يجب أن تكون خالصة لله جل شأنه . والاستغاثة لا تكون إلا بأسماء الله وصفاته وكلماته ، وما سوى ذلك فلا يجوز أن يستغاث به[٤] .

فتبين مما سبق أن الاستغاثة لا تكون على الحقيقة إلا بالله ــ عز وجل ــ وحده لا شريك له ، وأنه هو المغيث الحقيقي ، وما عداه فهو من باب الأسباب ، وتقدم أن الاستغاثة تكون على قسمين :

استغاثة جائزة ؛ وهي فيما يقدر عليه الإنسان كطلب المعاونه على قتل سبع أو دفع عدو ونحو ذلك .

والقسم الثاني : استغاثة شركية ، وهي الاستغاثة بالمخلوق فيما لا يدخل تحت قدرته ، كالاستغاثة به لجلب الخير أودفع الشر ونحو ذلك مما لايقدر عليه في حياته ولا بعد مماته .

وأما الاستعانة

ذكر شيخ الإسلام ــ رحمه الله ــ أن الاستعانة من أنواع الدعاء الذي أمرنا الله بأن نفرده به وحده لاشريك له كما قال : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ فقرنها سبحانه مع العبادة وأمر بهما جميعاً في قوله : ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾[٥] وقوله :

---

(١) هو محمد بن أحمد بن إبراهيم أبو عبد الله القرشي الهاشمي ، زاهد أندلسي الأصل من الجزيرة الخضراء ، أقام بمصر وسكن القدر وتوفي بها سنة ٥٩٩هـ . انظر الأعلام ٣١٩/٥ . وانظر شذرات الذهب ٣٤٢/٤ .

(٢) سورة الإسراء ٥٦ .

(٣) انظر الفتاوى ٣٢٩/١-٣٣١ ، ٢٨٧/١١ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) سورة هود ١٢٣ .

﴿ وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده ﴾ [(١)] وقوله : ﴿ عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ [(٢)] والتوكل من مقتضيات الاستعانة .

ولقد فرض الله علينا أن نعبده ونستعينه في كل صلاة ، وذلك في قوله سبحانه : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ وهذا يقتضي أن نستعين به وحده وأن نتوكل عليه وحده . وقد أمر الرحمن نبيه بأن يعبده ويتوكل عليه فقال سبحانه : ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ وأمره أن يقول : ﴿ كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لاإله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب ﴾ [(٣)] فأمر نبيه أن يقول على الرحمن توكلت وإليه متاب . والأمر له أمر لأمته .

وقد كان ﷺ يقول في الأضحية : ((اللهم هذا منك ولك))[(٤)] فإن قوله : "منك" هو معنى التوكل والاستعانة ، وقوله " لك " هو معنى العبادة .[(٥)]

وقد قسم شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - الناس في العبادة والاستعانة إلى أربعة أقسام : إما أن يأتي بالعبادة والاستعانة ، وإما أن يأتي بالعبادة فقط ، وإما أن يأتي بالاستعانة فقط ، وإما أن يتركهما جميعاً .[(٦)]

ومن الاستعانة أن يطلب العبد من المخلوق أن يعينه في أمر من الأمور مما يقدر عيله ، من دعاء الله ومسألته ، ومن الإعانة على ما يقدر عليه من الأفعال ونحو ذلك . وهذا جائز ، أما فيما لايقدر عليه إلا الله تعالى فلا يجوز أن يطلبه إلا من الله سبحانه ، لايطلب ذلك من الملائكة ، ولا من الأنبياء ، ولا من غيرهم ، ولا يجوز أن

---

(١) سورة الفرقان ٥٨ .

(٢) سورة هود ٨٨ ، والشورى ١٠ .

(٣) سورة الرعد ٣٠ .

(٤) رواه أبو داود في الضحايا (ح٢٧٩٥) وابن ماجه (ح٣١٢١) والإمام أحمد ٣٧٥/٣ ، والحاكم ٢٢٩/٤ ، وقال صحيح الإسناد وأقره الذهبي ، وصححه الألباني في الأرواء (ح١١٣٨) .

(٥) انظر الفتاوى ١٢٣/٣-١٢٤ .

(٦) انظر الفتاوى ٨/١٤-١٢ ، ٣٢-٣٤ ، ٦٩/١ ، ١٢٤/٣-١٢٥ ، ٣٨/١٦ ، ٧٣/٨ .

يقال لغير الله اغفر لي أو اسقنا الغيث ، أو انصرنا على القوم الكافرين ، أو اهد قلوبنا ونحو ذلك . [١]

(وقد ثبت عنه ﷺ في الصحيح أنه قال : ((يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفاً بغير حساب ولا عذاب .. هم الذين لايسترقون ، ولا يكتوون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون))[٢]

فهؤلاء من أمته ﷺ وقد مدحهم بأنهم لايسترقون ، والاسترقاء أن يطلب من غيره أن يرقيه ، والرقية نوع من الدعاء ، وكان هو ﷺ يرقي نفسه وغيره ، ولا يطلب من أحد أن يرقيه ، ... فهذا مما يبين حقيقة أمره لأمته بالدعاء أنه ليس من باب سؤال المخلوق للمخلوق الذي غيره أفضل منه ، فإن من لايسأل الناس ؛ بل لايسأل إلا الله أفضل ممن يسأل الناس ، ومحمد ﷺ سيد ولد آدم ...)[٣] وطلب الرقية وكذا الكي نوع من الاستعانة بالغير ، وهذا استعانة جائزة ، لكن تركها أفضل من باب تحقيق التوحيد .

وبين – رحمه الله – أن الاستعانة بالغير بطلب الدعاء منه نوعان:

راجح ومرجوح . أما الراجح فهو أن يطلب من الغير الدعاء بقصد انتفاعه بالدعاء ، لكون الملائكة تدعو له بما دعا لمن أوصاه بالدعاء ، فيكون أرجى للقبول مما لو دعى هو لنفسه . وهذا حال نبينا محمد ﷺ حينما أمر أمته أن يدعو له بالوسيلة والمقام المحمود كما تقدم ذكره [٤]

وأما الدعاء المرجوح ، فهو : أن يطلب من غيره أن يدعو له على قصد أن ينتفع هو وحده به ، دون أن ينظر إلى انتفاع الداعي وهذا مما لم يؤمر به [٥] ولن يستغنى العبد عن المخلوقين إلا بأن يكون الله وحده هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه

(١) انظر الفتاوى ٣٢٩/١ .

(٢) رواه البخاري في الإنبياء (ح٣٤١٠ ، ٥٧٥٢) ومسلم في الإيمان (ح٢٢٠) . والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (ح٢٤٤٦) .

(٣) الفتاوى ٣٢٨/١ .

(٤) انظر ص

(٥) انظر الفتاوى ١٨٥/١ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ٢١٦، ٣٢٩ .

ولا يستعين إلا بـه ، ولا يتوكـل إلا عليـه ، ولا يرجـو إلا إيـاه . وكلمـا قـوي إخـلاص دين العبـد لربـه كلمـا كملت عبوديتـه واستغناؤه عـن المخلوقـات ، فـلا يحتـاج لمـن يسـتعين بـه سـواه .[1]

ونخلص مـن هـذا : أن الاسـتعانة تكـون علـى نوعـين جـائزة ومحرمـة ، والجـائزة يجمعها ـ بالإضافة إلى مـا ذكـر مـن الأمثلـة ـ أن المستعين لابـد أن تكـون ثقتـه واعتمـاده على الله ـ عـز وجـل ـ في قضـاء حاجتـه وتيسـيرها مـع طلبـه مـن غـير الله الإعانـة والمسـاعدة في حصـول مطلوبـه أو دفـع مكروبـه .

وأمـا الاستعانة غـير الجـائزة فكـأن يعتمـد العبـد علـى مـن يسـتعين علـى قضـاء حاجتة ، دون الاعتماد علـى الله ـ عـز وجـل ـ فهـذه استعانة شـركية محرمـة .

وعلـى هـذا فـإن حكـم الاستعانة يـتردد جـوازاً وحرمـة تبعـاً لحـال الشـحص وإيمانـه وثقته ورجـاءه بربـه .

وأما الاستعاذة

فقـد بـين شيخ الإسـلام ابـن تيميـة – رحمـه الله – أن الاسـتعاذة يجـب أن تكـون بـالله ، وخاصـة فيمـا لا يقـدر عليـه إلا الله جـل شـأنه ، فإنـه خـير مـن أعـاذ . أمـا إن كـان المخلوق يقدر على إعـاذة المستعيذ ممـا استعاذ منـه إعـاذة شـرعية فـلا بـأس .

وقسـم – رحمـه الله – المسـتعاذ منـه إلى نوعـين : نـوع موجـود يسـتعاذ مـن ضـرره الذي يوجـد بعـد .

ونوع مفقود يسـتعاذ مـن وجـوده ، فـإن نفـس وجـوده ضـرر .

ومثل لـلأول : بقولـك أعـوذ بـالله مـن الشيطان الرجيـم .

ومثل للثاني : بقوله سبحانه : ﴿ رب أعوذ بك مـن همـزات الشياطين وأعـوذ بـك أن يحضرون ﴾[2] وقوله ﷺ : ((اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أضل أو أزل أو أزل))[3] .

---

(١) انظـر الفتـاوى ١٠/١٩٨ ، ١٩٤ ، ١١/٣٢٤.

(٢) سـورة المؤمنـون ٩٧-٩٨ .

(٣) رواه أبـو داود في الأدب (ح٥٠٩٤) . والـترمذي في الدعـوات (ح٣٤٢٧) وقـال : هـذا حديـث حسـن صحيـح . والنسائي في الاستعاذة (ح٥٤٨٦) وابن ماجه في الدعـاء (ح٣٨٨٤) . كلهـم عـن أم سـلمة .

وقد يشترك النوعان في مستعاذ منه واحد كقوله تعالى في سورة الفلق : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ، من شر ما خلق ، ومن شر غاسق إذا وقب ، ومن شر النفاثات في العقد ، ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ فإنه يستعاذ من الشر الموجود أن لا يضر ، ويستعاذ من الشر المفقود الضار أن لا يوجد . ومثله قوله ﷺ في الحديث : ((.. ونعوذ با لله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا)) [(١)] فيحتمل أن يكون المراد نعوذ با لله أن يكون منها شر ، ونعوذ با لله أن يصيبنا شرها ، وهذا أشبه وا لله أعلم . [(٢)]

وقد أمر سبحانه عبادة المؤمنين بالاستعاذة به من كل شر ذي شر فقال سبحانه : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ، من شر ما خلق ، ومن شر غاسق إذا وقب ، ومن شر النفاثات في العقد ، ومن شر حاسد إذا حسد ﴾

(فذكر سبحانه الاستعاذة به من شر الخلق عموماً ثم خص الأمر بالاستعاذة من شر الغاسق إذا وقب ، وهو الزمان الذي يعم شره ، ثم خص بالذكر السحر والحسد ...

وقيل فيها برب الفلق [لأن] فالق الإصباح بالنور يزيل بما في نوره من الخير مافي الظلمة من الشر ، وفالق الحب والنوى بعد انعقادهما يزيل ما في عقد النفاثات ، فإن فلق الحب والنوى أعظم من حل عقد النفاثات ، وكذلك الحسد هو من ضيق الإنسان وشحه ، لاينشرح صدره لأنعام ا لله عليه ، فرب الفلق يزيل ما يحصل بضيق الحاسد وشحه ، وهو سبحانه لايفلق شيئاً إلا بخير ، فهو فالق الاصباح بالنور الهادي ، والسراج الوهاج الذي به صلاح العباد ، وفالق الحب والنوى بأنواع الفواكه والأقوات التي هي رزق الناس ودوابهم ، والإنسان محتاج إلى جلب المنفعة من الهدى والزوق ، وهذا حاصل بالفلق ، والرب الذي فلق للناس ما تحصل به منافعهم

---

(١) رواه أبو داود في النكاح (ح ٢١١٨، ١٠٩٧) والترمذي في النكاح (ح١١٠٥) وقال : حديث حسن . ورواه النسائي في الجمعة (١٤٠٤) . وابن ماجه في النكاح (ح١٨٩٢) عن عبد ا لله بن مسعود ، وعن ابن عباس (ح١٨٩٣) والدارمي في النكاح (ح٢٢٠٢) وهذا الحديث في خطبة الحاجة .

(٢) انظر الفتاوى ١٧/٢٨٨-٢٨٩ .

يستعاذ به مما يضر الناس ، فيطلب منه تمام نعمته بصرف المؤذيات عن عبده الذي ابتدأ بإنعامه عليه ... [١]

وقال سبحانه : ﴿ قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، من شر الوسواس الخناس ، الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس ﴾ ففي هذه السورة ذكر سبحانه الاستعاذة من الوسواس الخناس فإنه مبدأ الأفعال المذمومة من الكفر والفسوق والعصيان ، ففيها الاستعاذة من شر ما يدخل الإنسان من الأفعال التي تضره من الكفر والفسوق والعصيان ، وقد تضمن ذلك الاستعاذة من شر نفسه . [٢]

وقد أخبر سبحانه أنه جعل لكل نبي عدواً يوسوس إليهم ، قال سبحانه : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾ [٣] " وإيحاؤهم هو وسوستهم ")[٤] .

وفي حديث أبي ذر : ((تعوذ با لله من شياطين الإنس والجن ، قلت : أو للإنس شياطين ؟ قال نعم شر من شياطين الجن))[٥] وكذلك للنفس وسوسة كما قال سبحانه : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ﴾[٦]

وقد أمر ا لله سبحانه في سورة الناس بأن يستعيذوا (بربهم وملكهم وإلههم من شر ما يوسوس في صدورهم ، فإنه هو الذي يطلب منه الخير الذي ينفعهم ، ويطلب منه دفع الشر الذي يضرهم ، والوسواس أصل كل شر يضرهم لأنه مبدأ للكفر والفسوق والعصيان.. وبهذا يتبين من هذه الاستعاذة والتي قبلها كما جاءت بذلك الأحاديث عن النبي ﷺ أنه : لم يستعذ المستعيذون بمثلهما .

---

(١) الفتاوى ١٧/٥٠٧-٥٠٨ .

(٢) انظر المصدر السابق

(٣) سورة الأنعام ١١٢ .

(٤) الفتاوى ١٧/٥٠٩ . وانظر منهاج السنة ٥/١٨٦-١٨٨ .

(٥) رواه النسائي في الاستعاذة (ح٥٥٠٤) وفيه أبي عمر الدمشقي قال الدارقطني متروك ، وقال الذهبي واهٍ ، وفيه أيضاً عبيد الخشخاش قال عنه الدارقطني ضعيف ، ووثقه ابن حبان . ورواه أحمد ٥/١٧٨ عن أبي ذر وأورده الهيثمي في المجمع ١/١٥٩-١٦٠ ، ٨/٢١٠ وقال رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط بنحوه وعند النسائي طرف منه ، وفيه المسعودي وهو : ثقة ولكنه اختلط

(٦) سورة ق ١٦ ..

فالوسواس أصل الشر كله فمتى وقي الانسان شره وقي عذاب جهنم ، وعذاب القبر ، وفتنة المحيا والممات ، وفتنة المسيح الدجال ، فإن جميع هذه إنما تحصل بطريق الوسواس ...) [١]

وبهذا يتضح أن الاستعاذة من أجل أنواع العبادات التي يجب أن تكون خالصة لله جل وعلا .

التوسل

التوسل نوع من أنواع الدعاء الذي يعتبر نوعاً من أنواع العبادة الظاهرة ، إذ أن كل متوسل يبتغي حصول مطلوبه بتوسله بالشخص الذي يجعله بينه وبين من يسأله مبتغاه ومراده ؛ ممن يظن أنه سبب لتعجيل حصول منفعته بالدعاء . وسيأتي بيان هذا مستوفاً في الباب الثالث بإذن الله تعالى . [٢]

ومما يدخل في التوسل الاقسام على الله :

الإقسام على الله

الاقسام على الله بمخلوق من شخص أو جاه ونحوه ، مما يكون فيه مقصود العبد به سؤال الله ـ عز وجل ـ به ، فقد بين شيخ الإسلام – رحمه الله – أنه نوعان :

فإن الباء قد تكون للقسم وقد تكون للسبب ، فقد تكون قسماً به على الله ، وقد تكون سؤالاً بسببه .

فأما الأول : فإن القسم بالمخلوقات لايجوز على المخلوق ، فكيف يجوز على الخالق ؟ .

وأما الثاني : وهو السؤال بالمعظم كالسؤال بحق الأنبياء فالراجح فيه عدم الجواز[٣] وسيأتي بيانه في الباب الثالث بإذن الله تعالى . [٤]

---

(١) الفتاوى ٥١٦/١٧ -٥١٨. وانظر في الاستعاذة درء التعارض ٣١١/٣-٣١٨ .

(٢) انظر الفصل الثالث من الباب الثالث .

(٣) انظر الفتاوى ٢١١/١-٢١٢ ، ٢٨٧.

(٤) انظر ذلك في الكلام على التوسل في التاب الثالث الفصل الثالث .ص

وأما سؤال الله بآياته المتلوة ، أو بإيمانه ، أو باتباعه للنبي ﷺ أو بأسماء الله وصفاته ونحو ذلك من قوله : أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت ، أو بإيماني بك ، أو باتباعي لنبيك ، أو أسألك بأن لك الحمد أنت الله المنان بديع السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام ، وأسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك ، أو ساتأثرت به في علم الغيب عندك ، فهذا سؤال الله تعالى بأسماءه وصفاته ، وليس ذلك إقساماً عليه ؛ فإن أفعاله هي مقتضى أسمائه وصفاته ، فمغفرته ورحمته من مقتضى اسمه الغفور الرحيم ، وعفوه من مقتضى اسمه العفو ، ولهذا لما قالت عائشة رضي الله عنها للنبي ﷺ إن وافقت ليلة القدر ما ذا أقول ؟ قال : ((قولي : اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني))[١] وجميع ما يفعل الله بعبده من الخير من مقتضى اسمه الرب ، ولهذا يقال في الدعاء : يارب ، يارب . والدعاء والتوسل بهذه العبارات من أعظم الأسباب التي تقتضي إجابة الدعاء ؛ بل هو أعظم الأسباب والوسائل التي يسأل الله بها ...[٢]

وعلى هذا فهي من أعظم أنواع العبادات .

وأما طلب الشفاعة فهو نوع من العبادة التي تلحق بالدعاء ، ولا يجوز طلبها إلا من الله جل شأنه لقوله تعالى : ﴿ قل لله الشفاعة جميعاً ﴾[٣] ولكونها لاتنال إلا أهل الإخلاص لله لحديث أبي هريرة : ((أي الناس أسعد بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال : ((من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه))[٤] وسيأتي مزيد بيان لهذا إن شاء الله تعالى [٥]

---

(١) رواه الترمذي في الدعوات (ح٣٥١٣) وقال : هذا حديث حسن صحيح ، ورواه ابن ماجه في الدعاء (٣٨٥٠) .

(٢) انظر الفتاوى ٢١٢/١ ، ٢١٨ ، ٢٠٦ -٢٠٩ .

(٣) سورة الزمر ٤٤ .

(٤) رواه البخاري في العلم (ح٩٩)

(٥) انظر الباب الثالث الفصل الثالث المبحث الثاني .

آداب الدعاء

لهذه العبادة آداب عديدة بينها شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : سوف أقتصر على ذكر بعض منها . فمن ذلك[1] :

١) دعاء الله خفية

قال الله سبحانه وتعالى مخاطباً عباده المؤمنين : ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾[2] (قال الحسن : بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفاً ، ولقد كان المسلمون يجهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت ، أي ما كانت إلا همساً بينهم وبين ربهم عز وجل ، وذلك أن الله ﷻ يقول : ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾ وأنه ذكر عبداً صالحاً ورضي بفعله فقال : ﴿ إذ نادى ربه نداء خفياً ﴾[3]

وقد ذكر - رحمه الله - **أن في إخفاء الدعاء فوائد عديدة :**

أحدها : أنه أعظم إيماناً ؛ لأن صاحبه يعلم أن الله يسمع الدعاء الخفي .

وثانيها : أنه أعظم في الأدب والتعظيم ؛ لأن الملوك لاترفع الأصوات عندهم ، ومن رفع صوته لديهم مقتوه ، ولله المثل الأعلى ، فإذا كان يسمع الدعاء الخفي فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به .

وثالثها : أنه أبلغ في التضرع والخشوع الذي هو روح الدعاء ولبه ...

ورابعها : أنه أبلغ في الإخلاص .

وخامسها : أنه أبلغ في جمعه القلب على الذلة في الدعاء ، فإن رفع الصوت يفرقه ، فكلما خفض صوته كان أبلغ في تجريد همته ، وقصده للمدعو سبحانه .

وسادسها : - وهو من النكت البديعة جداً - أنه دال على قرب صاحبه للقريب ، لا لمسألة نداء البعيد للبعيد ، ولهذا أثنى الله على عبده زكريا بقوله عز وجل : ﴿ إذ نادى ربه نداء خفياً ﴾ ...

---

(١) ولذكرها هنا أهمية تتعلق بهذا النوع من العبادة ، إذ أن هذه العبادة ـ أي الدعاء ـ إذا التزم العابد بآدابها كان أكمل وأتم في حصولالكمال في عبادة الله ﷻ به .

(٢) سورة الإعراف ٥٥ .

(٣) سورة مريم ٣ .

وقد أشار النبي ﷺ إلى المعنى بعينه بقوله في الحديث الصحيح : لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير وهم معه في السفر فقال : ((اربعوا على أنفسكم فإنكم لاتدعون أصمًّا ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً قريباً ، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته)) (١) وقد قال تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان ﴾(٢) ...

وسابعها : أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال ، فإن اللسان لايمل ، والجوارح لاتتعب ، بخلاف ما إذا رفع صوته ، فإنه قد يمل اللسان وتضعف قواه ، وهذا نظير من يقرأ ويكرر ، فإذا رفع صوته فإنه لايطول له ، بخلاف من خفض صوته .

وثامنها : أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات ، فإن الداعي إذا أخفى دعاءه لم يدر به أحد ، فلا يحصل على هذا تشويس ولا غيره ، وإذا جهر به فرطت عليه الأرواح البشرية ولا بد ، وما نعته وعارضته ولو لم يكن إلا أن تعلقها به يفزع عليه همته ، فيضعف أثر الدعاء ، ومن له تجربة يعرف هذا ، فإذا أسر الدعاء أمن هذه المفسدة .)(٣)

وتاسعها : أن في إخفاء الدعاء الأمن من حسد الحاسدين ، فإنه لانعمة أجل من هذه النعمة ، وقد قال يعقوب عليه السلام ليوسف عليه السلام : ﴿ لاتقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ﴾ (٤)

وعاشرها : أن الدعاء ذكر للمدعو سبحانه وتعالى متضمن للطلب والثناء عليه بأوصافه وأسمائه ، فهو ذكر وزياده كما أن الذكر سمي دعاء لتضمنه للطلب ، كما قال النبي ﷺ : ((أفضل الدعاء الحمد لله))(٥) .. والدعاء قد خص بالخفية لما تقدم من

---

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير (ح٢٩٩٢) ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (ح٢٧٠٤) وأبو داود في الصلاة (١٥٢٦) والترمذي في الدعوات (ح٣٣٧٤) وابن ماجه في الأدب (ح٣٨٢٤) .

(٢) سورة البقرة ١٨٦ .

(٣) الفتاوى ١٥/١٥-١٨ . وانظر في قرب الرب من عبده ٦/٧-٨ .

(٤) سورة يوسف ٥ .

(٥) رواه الترمذي في الدعوات (ح٣٣٨٣) وقال : هذا حديث حسن غريب ، ورواه ابن ماجه في الدعاء (ح٣٨٠٠).

الحكم وغيرها ، وخص الذكر بالخفية لحاجة الذكر إلى الخوف ، فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها .(١)

٢) عدم الاعتداء في الدعاء

ومن آداب الدعاء عدم الاعتداء فيه ومجاوزة الحد الذي بينه وأمر به الشارع ، والاعتداء أنواع عديدة منها على سبيل المثال :

أ) الاعتداء في دعاء المسألة :

الاعتداء في المسألة أنواع منها :

سؤال الله مالا يجوز للمرء أن يسأله من المعونة على المحرمات ، أو بسؤاله ما لا يفعله إلا الله وحده ، أو سؤاله ما اقتضت السنن الإلهية عدم وقوعه ؛ كسؤال التخليد في الدنيا إلى يوم القيامة ، أو رفع لوازم البشرية عنه من الحاجة إلى الطعام والشراب ونحوه ، أو أن يطلب ما لايحق له طلبه كسؤاله الاطلاع على الغيب ، أو أن يجعله من المعصومين ، أو أن يسأله منازل الأنبياء ، أو أن يهب له ولداً من غير زوجة ، ونحو ذلك مما سؤال اعتداء لا يحبه الله ولا يحب سؤاله .

كما فسر الاعتداء بقوله تعالى : ﴿ إنه لايحب المعتدين ﴾ فسر برفع الصوت في الدعاء .(٢)

ب) الاعتداء في دعاء العبادة

كما أن من الاعتداء في الدعاء الاعتداء في دعاء العبادة بعبادته بما لم يشرعه سبحانه ، أو أن يثنى عليه بما لم يثن به على نفسه ، ولا أذن فيه ، فإن هذا اعتداء في دعائه ، وهو نظير الاعتداء في دعاء المسألة والطلب .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿إنه لايحب المعتدين﴾ عقيب قوله : ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾ دليل على أن من لم يدعه تضرعاً وخفية ، فهو من المعتدين الذين

---

(١) انظر الفتاوى ١٥/١٨-٢٠ .

(٢) وقد فسره بذلك جمع من السلف انظر ابن جرير ٢٠٦/٨-٢٠٧ ، والقرطبي ٢٢٦/٧ ، وابن كثير ٤٢٤/٣ .

لايحبهـم الله ، فقسـمت هـذه الآيـة النـاس إلى قسـمين : داع لله تضرعـاً وخفيـة ومعتـد بـترك ذلـك .[١]

وهـذه الأمـور المذكـورة في آداب الدعـاء إنما ذكـرت لبيـان أن الأخـلال بهـا إخـلال بالعبـادة ؛ إمـا إخـلال بواجباتهـا ، أو إخـلال بكمالهـا ، ولهـذا ذكـرت في أنـواع العبـادة ، ليفهـم أن العبـادة ينبغـي أن تكـون علـى الوجـة المطلـوب مـن العبـد بـدون إفـراط ولا تفريـط ، سـواء كـان في الواجـب أو الكمـال . والله تعـالى أعلـم

مسألة العبد لربـه ثلاثـة أنـواع

بـين شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة – رحمـه الله – : أن دعـاء العبـد ربـه علـى ثلاثـة أنواع : دعاء أمروا بـه ، ودعـاء نهـو عنـه ، ودعـاء لم يؤمـروا بـه ولم ينهـو عنـه.

قـال – رحمـه الله – : (.. دعـاء العبـد لربـه ومسـألته إيـاه ثلاثـة أنـواع :

نـوع أمـر العبـد بـه إمـا أمـر إيجـاب ، وإمـا أمـر اسـتحباب ، مثـل قولـه : ﴿ اهدنـا الصـراط المسـتقيم ﴾ ومثـل دعائـه في آخـر الصـلاة كالدعـاء الـذي كـان النـبي ﷺ يـأمر بـه أصحابـه فقـال : ((إذا قعـد أحدكـم في الصـلاة فليسـتعذ بـالله مـن أربـع : مـن عـذاب جهنـم ، وعـذاب القـبر ، وفتنـة المحيـا والممـات ، وفتنـة المسيح الدجـال .))[٢] فهـذا دعـاء أمـر النبي ﷺ أن يدعـوا بـه في آخـر صلاتهـم ...

ونـوع مـن الدعـاء ينهـى عنـه ، كـالاعتداء مثـل أن يسـأل الرجـل مـالا يصلـح مـن خصـائص الأنبيـاء وليـس هـو بنـبي ، وربمـا هـو مـن خصـائص الـرب ـــ سـبحانه وتعـالى ـ ، مثـل أن يسـأل لنفسـه الوسـيلة الـتي لاتصلـح إلا لعبـد مـن عبـاده ، أو يسـأل الله أن يجعلـه بكـل شـيء عليمـاً ، أو علـى كـل شـيء قديـراً ، وأن يرفـع عنـه كـل حجـاب يمنعـه مـن مطالعـة الغيـوب ، وأمثـال ذلـك ...

---

(١) انظـر الفتـاوى ١٥/٢٢-٢٤ ، ١٤/٣٦٥-٣٦٨ ، ١٠/٥٥٥-٥٥٦ .وإقتضـاء الصـراط المسـتقيم ٢/٧٨١-٧٨٢ .

(٢) رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضح الصلاة (ح ٥٨٨) ولفضه : عن أبي هريـرة قـال قـال رسـول الله ﷺ ((إذا تشهد أحدكـم فليستعذ بـالله مـن أربـع يقـول اللهـم إنـي أعـوذ بـك مـن عـذاب جهنـم ومـن عـذاب القـبر ومـن فتنـة المحيـا والممـات ومـن شـر فتنـة المسـيح الدجـال)) ورواه البخـاري في الجنـائز (١٣٧٧) وأبـو داود في الصـلاة (ح٩٨٣) والـترمذي في الدعـوات (ح٣٦٠٤) والنسـائي في السـهو (ح١٣١٠) والدارمـي في الصـلاة (ح١٣٤٤) .

ومن الدعاء ماهو مباح كطلب الفضول التي لامعصية فيها .)[١]

والأول حال المؤمنين السعداء الذين حالهم : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ ، والثاني حال الكفار والفساق والعصاة الذين فيهم إيمان به وإن كانوا كفاراً كما قال تعالى : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾[٢] فهم مؤمنون بربوبيته ، مشركون في عبادته ، كما قال النبي ﷺ لعمران بن حصين الخزاعي : ((ياحصين كم تعبد ؟ قال سبعة آلهة : ستة في الأرض وواحد في السماء ، قال : فمن الذي تعبد لرغبتك ورهبتك ؟ قال : الذي في السماء ، قال : أسلم حتى أعلمك كلمة ينفعك الله تعالى بها، فأسلم ، فقال : قل اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي)) [٣] ...)[٤]

الذكر

مما ينبغي أن يعلم العبد أنه يكون (في بعض الأوقات مأمور بما هو أفضل من الدعاء كما روى في الحديث : ((من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين)) [٥] وفي الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال : ((من شغله قراءة القرآن عن ذكري ومسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين)) [٦]...) [٧] .

---

(١) الفتاوى ١٠/٧١٢-٧١٤ .

(٢) سورة يوسف ١٠٦ .

(٣) رواه الترمذي في الدعوات (ح٣٤٨٣) وقال : هذا حديث حسن غريب .

(٤) الفتاوى ١٤/٣٢-٣٤ .

(٥) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ٦/٤٥-٤٦ ، والبخاري في تاريخه الكبير ٢/١١٥ . وأورده ابن حجر في الفتح ١١/١٤٧ ، والسيوطي في اللآلي المصنوعة ٢/٣٤٢ ، وقد أشار شيخ الإسلام إلى ضعفه .

(٦) رواه الترمذي في فضائل القرآن (ح٢٩٢٦) وقال : هذا حديث حسن غريب . ورواه الدارمي في فضائل القرآن (ح٣٣٥٦) .

(٧) الفتاوى ١/١٨٣ . وانظر في قراءة القرآن الفتاوى ١١/٣٢٧ ، ٥٨٧ ، ٦٢٥ .

منزلة الذكر

والذكر من أجل أنواع العبادات القولية وأفضلها ، كما بينَّ ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : حينما سئل عن أفضل الأعمال بعد الفرائض ، فذكر أن ذلك يختلف باختلاف الناس والأوقات والأزمان فقال : (.. لكن مما هو كالإجماع بين العلماء با لله وأمره : أن ملازمة ذكر الله دائماً هو أفضل ما شغل العبد به نفسه في الجملة ، وعلى ذلك دل حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم : ((سبق المفردون ، قالوا يارسول الله ومن المفردون ؟ قال : الذاكرون الله كثيراً والذاكرات))[1] وفيما رواه أبو داود عن أبي الدرداء ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : ((ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها في درجاتكم ، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق ، ومن أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قالوا : بلي يارسول الله قال : ذكر الله))[2] والدلائل القرآنية والإيمانية بصراً وخبراً ونظراً على ذلك كثيرة . وأقل ذلك أن يلازم العبد الأذكار المأثورة عن معلم الخير وإمام المتقين ﷺ ...)[3]

والذكر يكون باللسان تارة مع القلب ويدخل فيه ما أمر به النبي ﷺ وفعله من الأذكار والأدعية المأثورة من عمل اليوم والليلة المشروعة طرفي النهار بالغدو والآصال .

ويكون الذكر تارة أخرى بالقلب فقط ؛ لكن يكون الذكر في النفس كاملاً وغير كامل ؛ فالكامل باللسان مع القلب وغير الكامل بالقلب فقط...[4].

وقد (.. بين النبي ﷺ مراتب الأذكار كقوله في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وغيره عن سمرة بن جندب : ((أفضل الكلام بعد القرآن أربع - وهن من

---

(١) رواه مسلم في الذكر (ح٢٦٧٦) والترمذي (ح٣٥٩٩) وأحمد ٣٢٣/٢ .

(٢) رواه الترمذي في الدعوات (ح٣٣٧٧) وابن ماجه في الأدب (ح٣٧٩٠) ومالك في الموطأ في النداء للصلاة (ح٤٩٠) . وقد صححه الألباني كما في صحيح ابن ماجه وتخريج الكلم الطيب (ح١) والمشكاة (ح٢٢٦٩) .

(٣) الفتاوى ٦٦٠/١٠ . وانظر ١٩٣/٢٠ ، ٣٧٦/٢٢ وما بعدها .

(٤) انظر الفتاوى ٣٤/١٥-٣٥ .

القرآن - سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله أكبر لايضرك بأيهن بدأت))[١] وفي صحيحه عن أبي ذر قال : ((سئل رسول الله ﷺ أي الكلام أفضل ؟ قال : ((ما اصطفى الله لملائكته سبحان الله وبحمده))[٢] ...

والشرع لم يستحب من الذكر إلا ما كان كلاماً تاماً مفيداً مثل : ((لاإله إلا الله)ومثل : (الله أكبر)ومثل سبحان الله والحمد لله ، ومثل لا حول ولا قوة إلا بالله ، ومثل : تبارك اسم ربك ، ﴿ تبارك الذي بيده الملك ﴾[٣] ، ﴿ سبح لله ما في السموات والأرض ﴾[٤] ، ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان ﴾ [٥] .

فأما الإسم المفرد مظهراً مثل : الله ، الله أو مضمراً مثل : هو ، هو فهذا ليس بمشروع في كتاب ولا سنة ، ولا هو مأثور أيضاً عن أحد من سلف الأمة ، ولا عن أعاين الأمة المقتدى بهم ، وإنما لهج به قوم من ضلال المتأخرين ...) [٦]

وأفضل الذكر كلمة التوحيد التي تتضمن نوعي الدعاء دعاء العبادة ودعاء المسألة . ففي الحديث : ((أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله))[٧] وقال النبي ﷺ : ((دعوة أخي ذي النون : لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربته))[٨] سماها دعوة ؛ لأنها تتضمن نوعي الدعاء .

---

(١) رواه مسلم في الآداب (ح٣١٢٧) و الإمام أحمد ٥/٢٠ وروى نحوه البخاري تعليقاً في كتاب الأيمان والنذورة باب إذا قال : والله لا أتكلم اليوم فصلى أو قرأ أو سبح حمد أو هلل فهو على نيته . ورواه ابن ماجه في الأدب (ح٣٨١١) .

(٢) رواه مسلم في الذكر والدعاء .. (ح٢٧٣١) والترمذي في الدعوات (ح٣٥٩٣) .

(٣) سورة الملك آية ١ .

(٤) سورة الحديد آية ١ .

(٥) سورة الفرقان آية ١ .

(٦) الفتاوى ١٠/٥٥٣- ٥٥٦ .

(٧) رواه الترمذي في الدعوات (ح٣٣٨٣) وقال : هذا حديث حسن . وابن ماجه في الأدب (ح٣٨٠٠) .

(٨) رواه الترمذي في الدعوات (ح٣٥٠٥) وصححه الألباني في صحيح السنن (ح٢٧٨٥) وفي صحيح الكلم الطيب (ح١٠٤) وراه الإمام أحمد ١/١٧٠ ، وقال أحمد شاكر في تحقيقه له : " اسناده صحيح " (ح١٤٦٢) .

فقوله : لا إله إلا الله إعتراف بالألوهية والربوبية المتضمنين نوعي الدعاء.

وقوله : ﴿إني كنت من الظالمين﴾ اعتراف بالذنب وهو يتضمن طلب المغفرة ، فالسائل تارة يسأل بصيغة الطلب ، وأخرى بصيغة الخبر ، بوصف حالة أو حال المسؤول أو الحالين معاً ... [١]

كما أن من أنواع الذكر الاستغفار والتوبة ، والعبد مأمور بذلك دائماً كما قال تعالى : ﴿ وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ [٢] (وفي صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه قال : ((أيها الناس توبوا إلى ربكم ، فو الذي نفسي بيده إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة))[٣] وفي صحيح مسلم عنه ﷺ : أنه قال : ((إنه ليغان [٤] على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة)) [٥] وفي السنن عن ابن عمر قال : كنا نعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد يقول : ((ربي اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم مائة مرة)) [٦] .

وقد أمر الله سبحانه عباده أن يختموا الأعمال الصالحات بالاستغفار ، فكان النبي ﷺ إذا سلم من الصلاة يستغفر ثلاثاً ويقول : ((اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام))[٧] كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عنه ، وقد قال تعالى : ﴿ والمستغفرين بالأسحار﴾ [٨] فأمرهم أن يقوموا بالليل ويستغفروا

---

(١) انظر الفتاوى ١٠/٢٤٣-٢٤٤ . وانظر منهاج السنة النبوية ٥/٤٠٦-٤٠٨ .

(٢) سورة النور ٣١ .

(٣) سبق تخريجه انظر الفهارس

(٤) الغين : الغيم ، وغينت السماء تغان : إذا أطبق عليها الغيم ، والمراد أنه ﷺ يتغشاه السهو الذي لا يخلو منه بشر فيبادر إلى الاستغفار ليكشف ذلك الغين والظلة به . والله تعالى أعلم . انظر النهاية في غريب الحديث ٣/٤٠٢ .

(٥) رواه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (ح٢٧٠٢) وأبو داود في الصلاة (ح١٥١٥) .

(٦) رواه أبو داود في الصلاة (ح١٥١٦) والترمذي في الدعوات (ح٣٤٣٤) وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب ، ورواه ابن ماجه في الأدب (ح٣٨١٤) .

(٧) رواه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٩١) وأبو داود في الصلاة (ح١٥١٢) والترمذي الصلاة (ح٣٠٠) وابن ماجة في إقامة الصلاة والسنة فيها (ح٩٢٨) والدارمي في الصلاة (ح١٣٤٨) .

(٨) سورة ال عمران ١٧ .

بالأسحار ، وكذلك ختم سورة المزمل وهي سورة قيام الليل بقوله تعالى : ﴿واستغفروا ا لله إن ا لله غفور رحيم ﴾ [(١)] .. وقيل آخر سورة نزلت قوله تعالى : ((إذا جاء نصر ا لله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين ا لله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ﴾ فأمر تعالى أن يختم عمله بالتسبيح والاستغفار ...

وليس لأحد أن يظن استغناؤه عن التوبة إلى ا لله والاستغفار من الذنوب ، بل كل أحد محتاج إلى ذلك دائماً .

قال تعالى : ﴿ وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ، ليعذب ا لله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، ويتوب ا لله على المؤمنين والمؤمنات وكان ا لله غفوراً رحيماً ﴾ [(٢)] فالإنسان ظالم جاهل وغاية المؤمنين والمؤمنات التوبة ، وقد أخبر ا لله تعالى في كتابه بتوبة عباده الصالحين ومغفرته لهم ...) [(٣)]

الأعمال الباطنة

وأما الأعمال الباطنة فهي أيضاً كثيرة ، إلا أنه يمكن القول بأنها كل عمل له تعلق بالقلب أتى به العبد على وجه التعبد لله جل وعلا فهو عبادة ، ومن الأمثلة على ذلك التوكل والإنابة والخشية والتقوى ، والرغبة والرهبة ، والخضوع ، والخشوع ، والذل ، والإذعان والتسليم والإنقياد والرضا ، والتوبة وغير ذلك .

(وهذه الأعمال جميعها واجبة على جميع الخلق - المأمورين في الأصل - باتفاق أئمة الدين ...) [(٤)] و (كلها مأمور بها في حق الخاصة والعامة لايكون تركها محموداً في حال أحد ، وان ارتقى مقامه .. وكلها خير محض ، وهي حسنة محبوبة في حق كل أحد من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، ومن قال : إن هذه

---

(١) سورة المزمل ٢٠ .

(٢) سورة الأحزاب ٧٢ .

(٣) الفتاوى ١١/ ٢٥٣ - ٢٥٧ .

(٤) انظر الفتاوى ١٠/٦ .

المقامات تكون للعامة دون الخاصة فقد غلط في ذلك إن أراد خروج الخاصة عنها ، فإن هذه لا يخرج عنها مؤمن قط ، وإنما يخرج عنها كافر أو منافق..) [١]

ومدار تلك الأعمال الباطنة على اختلاف أنواعها يكون على ثلاثة أعمال هي محور باقي الأعمال وأساسها ، وهي المحبة والخوف والرجا التي لابد وأن تتوفر في قلب كل مؤمن عابد لله – جل وعلا – مذعن له ، فبها تكمل العبادة القلبية ، بل عموم العبادة ، ولا بد من الإتيان بها وعبادة الله بها مجتمعة والتقرب له بذلك ؛ وذلك لأنها مترابطة متلازمة .

وقد ركز شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – على بيان ذلك الترابط والتلازم ، وبيّن أن السلف قد أنكروا على من عبد الله بواحد من هذه الثلاثة.

قال – رحمه الله تعالى – (.. إعلم أن محركات القلوب إلى الله عز وجل ثلاثة : المحبة والخوف والرجاء ، وأقواها المحبة ، وهي مقصودة تراد لذاتها ؛ لأنها تراد في الدنيا والآخرة ، بخلاف الخوف فإنه يزول في الآخرة ، قال الله تعالى : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ [٢] والخوف المقصود منه : الزجر والمنع من الخروج عن الطريق ، فالمحبة تلقى العبد في السير إلى محبوبه ، وعلى قدر ضعفها وقوتها يكن سيره إليه ، والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب ، والرجاء يقوده ، فهذا أصل عظيم ، يجب على كل عبد أن يتنبه له فإنه لا تحصل له العبودية بدونه ، وكل أحد يجب أن يكون عبداً لله لا لغيره .)[٣]

(.. فالخوف والرجاء وغيرهما يستلزم المحبة ويرجع إليها ، فإن الراجي الطامع إنما يطمع فيما يحبه لا فيما يبغضه ، والخائف يفر من الخوف لينال المحبوب ، قال تعالى : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾ [٤] الآية .

---

(١) انظر الفتاوى ١٧/١٠ ، ٢٤٢ .

(٢) سورة يونس ٦٢ .

(٣) الفتاوى ٩٥/١ .

(٤) سورة الإسراء ٥٧ .

وقال : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ﴾[(١)] [ومن أعظم نعيم أهل الجنة تنعمهم برؤية ربهم عز وجل] .. فالراجي الخائف إذا تعلق خوفه ورجاؤه بالتعذب باحتجاب الرب عنه والتنعم بتجليه له فمعلوم أن هذا من توابع محبته له ، فالمحبة هي التي أوجبت محبة التجلي والخوف من الاحتجاب .. فإذا وجد حلاوة محبة الله وجدها أجل من كل محبة ، ولهذا يكون اشتغال أهل الجنة بذلك أهم من كل شيء كما في الحديث : ((إن أهل الجنة يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس)) [(٢)] وهو يبين غاية تنعمهم بذكر الله ومحبته .) [(٣)]

ومما يدل على ترابط هذه العبادات : أن الله سبحانه خص الدعاء بالخفية حينما قال : ﴿ أدعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾[(٤)] وخص الذكر بالخيفة حينما قال : ﴿ واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول.. ﴾[(٥)] فتأمل كيف قال في آية الذكر : ﴿ واذكر ربك ﴾ الآية ، وفي آية الدعاء : ﴿ أدعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾ فذكر التضرع فيهما معاً وهو التذلل والتمسكن والإنكسار وهو روح الذكر والدعاء .

وخص الدعاء بالخيفة لما في ذلك من الفوائد العدية السابق ذكرها [(٦)] (وخص الذكر بالخيفة لحاجة الذاكر إلى الخوف ، فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها ، ولا بد لمن أكثر من ذكر الله أن يثمر له ذلك محبته ، والمحبة ما لم تقترن بالخوف فإنها لا تنفع صاحبها ؛ بل تضره ؛ لأنها توجب التواني والانبساط ، وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أن استغنوا بها عن الواجبات ، وقالوا : المقصود من العبادات إنما هو عبادة القلب وإقباله على الله ومحبته له ، فإذا حصل المقصود

---

(١) سورة البقرة ٢١٨ .

(٢) رواه مسلم في صفة الجنة ...(ح٢٨٣٥) وأبو داود في السنة (ح٤٧٤١) والدارمي في الرقاق (ح٢٨٢٧) . وشيخ الإسلام ذكره هنا مختصراً .

(٣) الفتاوى ٦١/١٠-٦٤ .

(٤) سورة الأعراف ٥٥ .

(٥) سورة الأعراف ٢٠٥ .

(٦) انظر ما تقدم ذكره من آداب الدعاء قبل قليل .

فالاشتغال بالوسيلة باطل ... [وقد يبلغ الغرور بمثل هؤلاء إلى حد الانسلاخ عن الاسلام جملة وهو يظن أنه من خاصة الخاصة ، كما وقع لكثير من أهل التصوف والتبتل] .

وسبب هذا عدم اقتران الخوف من الله بحبه وإرادته ، ولهذا قال بعض السلف : من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبد الله بالخوف وحده فهو حروري ، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ ، ومن عبده بالحب والخوف والرجا فهو مؤمن .

.. فتجريد الحب والذكر عن الخوف يوقع في هذه المعاطب ، فإذا اقترن بالخوف جمعه على الطريق ورده إليها كلما كلها شيء ،كالخائف الذي معه سوط يضرب به مطيته ؛ لأئلا تخرج عن الطريق ، والرجا حاد يحدوها يطلب لها السير ، والحب قائدها وزمامها الذي يشوقها ، فإذا لم يكن للمطية سوط ولا عصى يردها إذا حادت عن الطريق خرجت عن الطريق وظلت عنها .

فما حفظت حدود الله ومحارمه ، ووصل الواصلون إليه بمثل خوفه ورجاءه ومحبته ، فمتى خلا القلب من هذه الثلاث فسد فساداً لا يرجى صلاحه أبداً ، ومتى ضعف فيه شيء من هذه ضعف إيمانه بحسبه ، فتأمل أسرار القرآن وحكمته في اقتران الخيفة بالذكر ؛ والخفية في الدعاء مع دلالته على اقتران الخفية بالدعاء والخيفة بالذكر أيضاً ، وَذَكَرَ الطمع الذي هو الرجاء في آية الدعاء ؛ لأن الدعاء مبنى عليه ، فإن الداعي مالم يطمع في سؤاله ومطلوبه لم تتحرك نفسه لطلبه ، إذ طلب مالا طمع له فيه ممتنع ، وذكر الخوف في آية الذكر لشدة حاجة الخائف إليه ، فذكر في كل آية ما هو اللائق بها من الخوف والطمع ، فتبارك من أنزل كلامه شفاء لما في الصدور .)[1]

ومن عَبَدَ الله بهذه الأنواع الثلاثة فهو من العلماء المذكورين في قوله تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ [2]

وقد بين – رحمه الله تعالى – : (أنه لا يخشاه إلا عالم ؛ فقد أخبر الله أن كل من خشي الله فهو عالم ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ أمن هو قانت آناء الليل

---

(١) الفتاوى ١٥/١٩-٢٢ . وانظر الفتاوى ١٠/٢٤٠-٢٤٢ .

(٢) سورة فاطر ٢٨ .

ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ [١] والخشية أبداً متضمنة للرجاء ، ولولا ذلك لكانت قنوطاً ، كما أن الرجاء يستلزم الخوف ، ولولا ذلك لكان أمناً ، فأهل الخوف لله والرجاء له هم أهل العلم الذين مدحهم الله .

وقد روي عن أبي حيان التيمي أنه قال : (العلماء ثلاثة) فعالم بالله ليس عالماً بأمر الله ، وعالم بأمر الله ليس عالماً بالله ، وعالم بالله عالم بأمر الله ، فالعالم بالله هو الذي يخافه ، والعالم بأمر الله هو الذي يعلم أمره ونهيه ، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : ((والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بحدوده))[٢]...) [٣]

وسأتناول كل واحدة من هذه العبادات الثلاث بشيء من التفصيل من واقع كلام شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -

فأولاً : المحبة

أصل المحبة

المحبة ثابتة بالكتاب والسنة ، وقد أوجب الله محبته[٤] ومحبة رسوله ﷺ وعلق صحة الإيمان بوجود هذه المحبة .

---

(١) سورة الزمر ٩ .

(٢) رواه مسلم في الصيام (ح١١١٠) عن عائشة إلا أنه ﷺ قال في آخره : " وأعلمكم بما أتقي " ورواه أبو داود في الصوم (ح٢٣٨٩) ومالك في الموطأ كتاب الصيام (ح٦٤١) ، وقد وروى البخاري نحوه في الإيمان (ح ٢٠) .

(٣) الفتاوى ٢١/٧ .

(٤) وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة وسلف الأمة وخلفها . خلافاً (لطوائف من المتكلمين والفقهاء الذين ذهبوا إلى أن الله لا تُحَبُّ نفسُه ، وإنما المحبة محبة طاعته وعبادته ، وزعموا أن الله لا يحب عباده المؤمنين ، وإنما محبته إرادته للإحسان إليهم ، ولإثابتهم...

وهذا في الحقيقة شعبة من التجهم والاعتزال ، فإن أول من أنكر المحبة الجعد بن درهم أستاذ الجهم بن صفوان ... والذي دل عليه الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها وجميع مشايخ الطريق أن الله يُحِبُّ ويُحَبُّ ...) الاستقامة ٢/١٠٠-١٠٢ ، وانظر الصفدية ٢/٢٦٣-٢٦٥ .

كما أوجب - سبحانه - محبة صحابة نبيه ﷺ على كل أحد ، وكذلك محبة المؤمنين لبعضهم البعض ، وجعل ذلك من الإيمان ، فبكماله يكمل الإيمان ؛ وبالإخلال به ينقص الإيمان .

وأصل المحبة أن يحب العبد ربه ـ عز وجل ـ بحيث تدور محبوباته في نطاق محبوبات الله جل شأنه ، فيحبه ويحب ما يحبه ـ جلا وعلا ـ ويبغض ما يبغضه ، وهذا هو أصل المحبة التي تبني عليه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : (.. قد نطق الكتاب والسنة بذكر محبة العباد المؤمنين [له سبحانه] ، كما في قوله : ﴿ والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ [(١)] وقوله تعالى : ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾[(٢)] وقوله تعالى : ﴿ أحب إليكم من الله وجهاد في سبيله ﴾[(٣)] وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : ((ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لايحبه إلا لله ، وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار))[(٤)].

بل محبة رسوله وجبت لمحبة الله كما في قوله تعالى : ﴿ أحب إليكم من الله ورسوله ﴾ وكما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : ((والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين)) [(٥)] . وفي صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب أنه قال : ((والله يارسول الله لأنت أحب إلي من كل

---

(١) سورة البقرة ١٦٥ .

(٢) سورة المائدة ٥٤ .

(٣) سورة التوبة ٢٤ .

(٤) رواه البخاري في الإيمان (١٦) ومسلم في الإيمان (ح٤٣) والترمذي في الإيمان (ح٢٦٢٤) والنسائي في الإيمان وشرائعه (ح٤٩٨٨) .

(٥) رواه البخاري في الإيمان (ح١٤) والنسائي في الإيمان وشرائعه (ح٥٠١٥) عن أبي هريرة ، دون قوله " والناس أجميعين " ورواه مسلم عن أنس في الإيمان (ح ٤٤) وكذا البخاري في الإيمان (ح١٥) وابن ماجه في المقدمة (ح٦٧) والدارمي في الرقاق (ح ٢٧٤١) ، دون قوله : " والذي نفسي بيده "

شيء إلا من نفسي ، فقال : لا ياعمر حتى أكون أحب إليك من نفسك ، فقال : والله لأنت أحب إلي من نفسي . قال : الآن ياعمر)) [١].

[وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن الله يستحق أن يُحَب ، وليس شيء أحق بأن يحب من الله سبحانه وتعالى ؛ بل لا يصلح أن يحب غيره إلا لأجله ، وكل ما يحبه المؤمن من طعام وشراب ولباس وغير ذلك لا ينبغي أن يفعله إلا ليستعين به على عبادته سبحانه المتضمنة لمحبته ، فإن الله إنما خلق الخلق لعبادته ..] [٢]

وكذلك محبة صحابته وقرابته كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : ((آية الإيمان حب الأنصار ، وآية النفاق بغض الأنصار)) [٣] وقال : ((لايبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر)) [٤] وقال علي ﷺ : (إنه لعهد النبي الأمي إلي أنه لايحبنى إلا مؤمن ، ولا يبغضني إلا منافق)[٥] .

وفي السنن أنه قال للعباس : (والذي نفسي بيده لايدخلون الجنة حتى يحبوكم لله ولقرابتي)) [٦] يعني بني هاشم .

وقد روي حديثٌ عن ابن عباس مرفوعاً أنه قال : (أحبوا الله لما يغذوكم به

---

(١) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٢) منهاج السنة النبوية ٢٩٢/٥-٢٩٣ بتصرف .

(٣) رواه البخاري في الإيمان (ح١٧) ومسلم في الإيمان (ح٧٤) والنسائي في الإيمان وشرائعه (ح٥٠١٩) .

(٤) رواه البخاري في المناقب (ح ٣٧٨٣) ومسلم في الإيمان (ح٧٦) واللفظ له .والترمذي في المناقب (ح٣٩٠٠) وابن ماجه في المقدمة (ح١٦٣) . أحمد في باق مسند المكثرين .

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان (ح٧٨) والترمذي في المناقب (ح٣٧٣٦) وابن ماجه في المقدمة (ح١١٤) ، والنسائي في الإيمان وشرائعه (ح ٥٠٢٢) .

(٦) أخرجه الترمذي في المناقب (ح ٣٧٥٨) ولفظه : أن العباس بن عبد المطلب دخل على رسول الله ﷺ مغضبا وأنا عنده فقال : ما أغضبك ؟ قال : يا رسول الله ما لنا ولقريش إذا تلاقوا بينهم تلاقوا بوجوه مبشرة ، وإذا لقونا لقونا بغير ذلك ، قال : فغضب رسول الله ﷺ حتى احمر وجهه ثم قال : ((والذي نفسي بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله ثم قال يا أيها الناس من آذى عمي فقد آذاني فإنما عم الرجل صنو أبيه)) وقال : هذا حديث حسن صحيح .

من نعمه ، وأحبوني بحب الله وأحبوا أهل بيتي لأجلي) [١] ...)[٢]

وقلوب المحبين لله ولرسوله ولعباده الصالحين تنجذب إلى محبته سبحانه لما اتصف به من الصفات التي يستحق لأجلها أن يحب ويعبد . فلا تطمئن إلا بعبادته وبالإنابة إليه وانجذاب القلوب إليه ، والتلذذ بالتقرب إليه ، ولو حصل للعبد ما يتلذذ به من غيره لم تسكن نفسه إلا إليه ، فإن فيه فقر ذاتي إلى ربه ومحبته والإنابة إليه [٣]

ولذا فإن الرب جل وعلا إنما يحب لذاته ، إذ لاشيء من الموجودات يحب لذاته سوى الله جل وعلا ، قال - رحمه الله - (.. لايجوز أن يحب شيء من الموجودات لذاته إلا هو سبحانه وبحمده ، فكل محبوب في العالم إنما يجوز أن يحب لغيره لا لذاته ، والرب تعالى هو الذي يجب أن يحب لنفسه، وهذا من معاني إلهيته و﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتاً ﴾[٤] فإن محبة الشيء لذاته شرك ، فلا يحب لذاته إلا الله ، فإن ذلك من خصائص إلهيته ، فلا يستحق ذلك إلا الله وحده ، وكل محبوب سواه إن لم يحب لأجله أو لما يحب لأجله فمحبته فاسدة)[٥]

والمحبة يجب أن يكون معها ذل للمحبوب وإلا لم تكن عبادة ، (فالحب الخلي عن ذل والذل الخلي عن حب لا يكون عبادة ، وإنما العبادة ما يجمع كمال الأمرين ، ولهذا كانت العبادة لا تصلح إلا لله .)[٦]

(وإذا تبين هذا ، فكلما ازداد القلب حباً لله ازداد له عبودية ، وكلما ازداد له عبودية ازداد له حباً وحرية عما سواه ...)[٧] (إذ أن عبادته تجمع كمال محبته

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب (ح٣٧٨٩) وقال : هذا حديث حسن غريب .

(٢) الفتاوى ٦٤/١٠-٦٥ . وانظر ٧٥/١٠ ، ٦٤٩-٦٥٠ . والاستقامة ١٠٢/٢ ، ومنهاج السنة ٤٠١/٥ .

(٣) انظر الفتاوى ١٩٤/١٠ .ومنهاج السنة ٣٨٨/٥ ، ودرء التعارض ٥٩/٦-٦٣ .

(٤) سورة الأنبياء ٢٢ .

(٥) الفتاوى ٦٠٧/١٠ ، ٦٤٩ . وانظر قاعدة في المحبة ١٥ . ودرء التعارض ٦٢/٦-٦٦ .

(٦) الفتاوى ١٧/١٠ .

(٧) الفتاوى ١٩٠/١٠-١٩٣ .

وكمال الذل له ، كما قال تعالى : ﴿ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له ﴾[١] فينيب قلبه إلى الله ويسلم له ، ويتبع ملة إبراهيم حنيفاً ﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفاً واتخذ الله ابراهيم خليلا﴾[٢] ويعلم أن ما أمر الله ورسوله به فإن الله يحبه ويرضاه ، وما نهى عنه فإنه يبغضه وينهى عنه ويمقت عليه ويسخط على فاعله ، فتار يشهد الفرق من جهة الحق تعالى ، ويعلم أن الله تعالى يحب أن يعبد لاشريك له ، ويبغض من يجعل له أنداداً يحبونهم كحب الله ، وإن كانوا مقرين بتوحيد الربوبية كمشركي العرب وغيرهم ...) [٣]

(وحب الله ورسوله موجود في قلب كل مؤمن ، لايمكنه دفع ذلك من قلبه إذا كان مؤمناً ، وتظهر علامات حبه لله ولرسوله إذا أخذ أحد يسب الرسول ﷺ ويطعن عليه ، أو يسب الله ويذكره بما لايليق به ، فالمؤمن يغضب لذلك أعظم مما يغضب لو سُب أبوه وأمه)[٤]

محبة المؤمنين بعضهم لبعض :

وكذلك محبة المؤمنين لبعضهم البعض إنما وجبت لمحبة الله تعالى لما هم عليه من العمل والهدى ، فإن أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله ، فالحب لله من كمال التوحيد ، فإن من أحب الله أحبه الله ، ومن ود الله وده الله ، وعلى هذا تنبني محبة المؤمنين لبعضهم البعض . وما فرح المسلمون بشيء بعد الإسلام من فرحهم بقوله ﷺ : ((المرء مع من أحب)) [٥] كما قال ذلك أنس بن مالك ﷺ قال : فأنا أحب رسول الله وأبا بكر وعمر ، وأرجو أن أحشر معهم وإن لم أعمل مثل أعمالهم

وعلق ﷺ كمال الإيمان بمحبة المسلم لأخيه المسلم حيث قال : ((لايؤمن أحدكم

---

(١) سورة الزمر ٥٤ .

(٢) سورة النساء ١٢٥ .

(٣) الفتاوى ٣٥٢/٨-٣٥٣ . وانظر ٥٢٣/١١ -٥٢٤ ، ٣٢٧/١٨ . وانظر قاعدة في المحبة ص٧٥

(٤) الفتاوى ٣٤٣/١٦ .

(٥) رواه البخاري في الأدب (ح٦١٦٨) ومسلم في البر والصلة والآداب (ح٢٦٤١) .

حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)) [(١)] بل جعل محبة المؤمن للمؤمن من أوثق عرى الإسلام حيث قال : ((أوثق عرى الإسلام الحب في الله والبغض في الله))[(٢)] وهذه المحبة تكون بدافع من محبة الله فلا يحب المرء إلا لله ، فيحب أنبياء ورسله وعباد الصالحين ، ويحب كل من علم أنه مات على الإيمان والتقوى ...[(٣)].

محبة الرب لعبده

وأما محبة الرب لعبده فقد بين - رحمه الله - أنها ثابتة وحق كما نطق بذلك الكتاب والسنة ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ [(٤)] وقال : ﴿ وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾ [(٥)] وقال : ﴿ وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾ [(٦)] وقال : ﴿ فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ﴾[(٧)] وثبت في الصحيح عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال : ((لو كنت متخذاً خليلاً من أهل الأرض لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله))[(٨)] وفي رواية : ((إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ ابراهيم خليلاً))[(٩)][(١٠)]

(والخلة هي كمال المحبة المستلزمة من العبد كمال العبودية لله ، ومن الرب سبحانه كمال الربوبية لعباده الذين يحبهم ويحبونه ، ولفظ العبودية يتضمن كمال الذل

---

(١) رواه البخاري في الإيمان (ح١٣) ومسلم في الإيمان أيضاً (ح٤٥) والترمذي في صفة القيامة .. (ح٢٥١٥) وابن ماجه في المقدمة (ح٦٦) والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠١٦ ، ٥٠١٧) .والدارمي في الرقاق (ح٢٧٤٠) .

(٢) تقدم تخريجه انظر الفهرس حرف الهمزة .

(٣) انظر الفتاوى ٣٠٦/١٠ .١٤١/٨ . ٥١٧/١١-٥١٨ . ٣١٣/١٨ .

(٤) سورة المائدة ٥٤ .

(٥) سورة البقرة ١٩٥ .

(٦) سورة الحجرات ٩ .

(٧) سورة التوبة ٤ .

(٨) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٩) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث . .

(١٠) انظر الفتاوى ٦٥/١٠-٦٧ ، ٣٠٤-٣٠٥ . ٤٧٦/٦-٤٧٧ . وانظر منهاج السنة ٣٢٢/٥-٣٢٥ .

وكمال الحب ، فإنهم يقولون قلب متيم إذا كان متعبداً للمحبوب ، والمتيم المتعبد ، وتيم الله عبده وهذا على الكمال حصل لإبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، ولهذا لم يكن له من أهل الأرض خليل)[1]

وقد ذكر شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ أن محبة الرب لعبده بحسب ما يتقرب إليه العبد به من الطاعات وترك المنهيات ، واستدل بما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : ((من عادي لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما إفترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمع الذي يسمع به ...)) الحديث [2].

فقد بين أن العبد إذا تقرب إلى الله بما يحبه من النوافل بعد الفرائض أحبه الله ، فحب الله لعبده بحسب فعل العبد لما يحبه الله ، وما يحبه الله من عبادته وطاعته فهو تبع لحب نفسه ، وحب ذلك هو سبب حب عباده المؤمنين[3] ، فكان حبه للمؤمنين تبعاً لحب نفسه .[4]

وهذا هو الذي عليه سلف الأمة وأئمتها ، وأهل السنة والحديث وجميع مشائخ الدين المتبعون ، وأئمة التصوف ، وأنكرت الجهمية حقيقة ذلك زعماً منهم أن المحبة لاتكون إلا بمناسبة بين المحب والمحبوب ، ولا مناسبة بين القديم والمحدث توجب المحبة [5]

---

(١) الفتاوى ٢٠٣/١٠ .وانظر ١٤١/٨-١٤٢ . وانظر الصفدية ٢٦٣/٢ وما بعدها .

(٢) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٣) وقد بين ـ رحمه الله ـ كيف كان حب ذلك هو سبب حب عباده المؤمنين بكونه سبحانه أثنى على نفسه بما هو أهله ، وأمر المؤمنين بالثناء عليه مع كونهم لا يحصون ثناء عليه كما دل على ذلك الحديث الصحيح ((.. لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)) وهو سبحانه يحب حمد العباد له وحمد لنفسه أعظم من حمد العباد له ، ويحب ثناءهم عليه وثناؤه على نفسه أعظم من ثنائهم عليه ، وكذلك حبه لنفسه وتعظيمه لنفسه فهو سبحانه أعلم بنفسه من كل أحد . انظر الفتاوى ١٤٤/٨ .

(٤) الفتاوى ١٤٤/٨ .

(٥) انظر الفتاوى ٦٥/١٠-٦٧ ، ٣٠٤-٣٠٥ .١٤٢/٨ ، ٢٣٥ . ٣٥٤/٢ . ٣٤٣/١١ . وانظر قاعدة في المحبة ص ٥٠ .

محبة الله ورسوله أصل الإيمان والعمل

إن من محبة الله ورسوله محبة ما يحبه الله ورسوله من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة ، فإن كل عمل من الأعمال إنما يصدر عن المحبة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : (محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الإيمان ، وأكبر أصوله ، وأجل قواعده ؛ بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين كما أن التصديق به أصل كل قول من أقوال الإيمان والدين ، فإن كل حركة في الوجود إنما تصدر عن محبة ؛ إما عن محبة محمودة ، أو عن محبة مذمومة ...

فجميع الأعمال الإيمانية الدينية لاتصدر إلا عن المحبة المحمودة ، وأصل المحبة المحمودة هي محبة الله سبحانه وتعالى ، إذ العمل الصادر عن محبة مذمومة عند الله لايكون عملاً صالحاً ؛ بل جميع الأعمال الإيمانية الدينية لاتصدر إلا عن محبة الله ...)[1]

(فإن ما أحبه الله ورسوله علينا أن نحب ما أحبه الله ورسوله ، وما أبغضه الله ورسوله فعلينا أن نبغض ما أبغضه الله ورسوله ، وأما مالا يحبه الله ورسوله ولا يبغضه الله ورسوله كالأفعال التي لا تكليف فيها ، مثل أفعال النائم والمجنون فهذا إذا كان الله لايحبها ويرضاها ولا يكرهها ويذمها فالمؤمن أيضاً لاينبغي أن يحبها ويرضاها ولا يكرهها)[2]

والمقصود بهذا أن يكون المؤمن على تمام المتابعة فيما يحبه الله ورسوله ، أو يبغضه الله ورسوله ، أو ضد ذلك من الأمور التي يحبها الله ولا يكرهها .

ومن مقتضى محبته محبة الأعمال الشرعية التي أمر بها سبحانه ، والإمتثال لما أنزله على رسوله ، (فيحب ما أحب الله ورسوله ، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله مما دل عليه في كتابة ، فلا يجوز لأحد أن يجعل الأصل في الدين لشخص إلا لرسول الله ﷺ ، ولا لقول إلا لكتاب الله عزو وجل[3] ، ولهذا جاء في الحديث قوله ﷺ : ((ذاق طعم الإيمان من رضي با لله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ ﷺ نبياً)) وقال : ((ثلاث من

---

(١) الفتاوى ١٠/٤٨-٤٩ . وانظر قاعدة في المحبة ١٠-١٣ ن ٣١-٣٢

(٢) الفتاوى ١٠/٤٨٢ .وانظر ١٥/١٦٤ .

(٣) انظر الفتاوى ٢٠/٨ .

كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون ا لله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه ا لله منه كما يكره أن يقذف في النار))[١] فعلق ﷺ حصول المحبة بمحبة ا لله ورسوله ، ومحبة ما يحبه ا لله ورسوله . ولهذا طالب ا لله تعالى مدعي محبته بقوله : ﴿ قل إن كنتم تحبون ا لله فاتبعوني يحببكم ا لله ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ قال الحسن البصري - رحمه ا لله - ادعى قوم على عهد رسول ا لله ﷺ أنهم يحبون ا لله فطالبهم بهذه الآية ، فجعل محبة العبد لله موجبة لمتابعة رسوله ، وجعل متابعة رسوله موجبة لمحبة الرب عبده ، وبهذا يتبن أن المحبة لا تتحقق بدون متابعة رسول ﷺ فيما أمر به من الأعمال والأقوال .[٢]

كما أنه يتضح من ذلك أن المحبة من أهم العبادات التي يجب أن تكون لله خالصة ، والتي لا يكون العبد مؤمناً بدونها ، إلى درجة أن إلقاؤه في النار أحب إليه من أن يرجع عن دينه كما تكون محبته لربه ولأوليائه المؤمنين . وهذه هي المحبة النافعة التي (تستلزم وجود محبوباته ، ولهذا جاء في الترمذي قوله ﷺ : ((من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان))[٣] فإنه إذا كان حبه لله وبغضه لله وهما عمل قلبه وعطاؤه لله ، ومنعه لله وهما عمل بدنه دل على كمال محبته لله ، ودل ذلك على كمال الإيمان ، وذلك أن كمال الإيمان أن يكون الدين كله لله ، وذلك عبادة ا لله وحده لاشريك له ، والعبادة تتضمن كمال الحب ، وكمال الذل ، والحب مبدأ جميع الحركات الإرادية ، ولا بد لكل حي من حب وبغض ، فإذ

---

(١) تقدم تخريجه قريباً انظر فهرس الحديث .

(٢) انظر الفتاوى ٢/٤٥٣-٤٥٤ . ٨/١٤٣-١٤٤ ، ١٠/٧٧ ، ٨١ ، ٢٨٩ ، ٦١٤. ١٥/١٦٤ . وانظر قاعدة في المحبة ص ٧٠ .

(٣) رواه أبو داود كتاب السنة (ح٤٦٨١) عن أبي أمامة ، ورواه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (ح٢٥٢١) ولفظه : معاذ بن أنس الجهني أن رسول الله ﷺ قال : من أعطى لله ومنع لله وأحب لله وأبغض لله وأنكح لله فقد استكمل إيمانه)) قال أبو عيسى هذا حديث حسن . ورواه الإمام أحمد ٣/٤٤٠، ورواه أبو داود عن أبي أمامة كتاب السنة (ح٤٦٨١). وصححه السيوطي في الجامع الصغير (ح٨٣٠٨) وكذا الألباني في صحيح الجامع (ح٥٨٤١) وفي الصحيحة (ح٣٨٠) .

كانت محبته لمن يحبه الله ، وبغضه لمن يبغضه الله ، دل ذلك على صحة الإيمان في قلبه...) [(١)]

مقامات الناس في محبة الأمر القدري والشرعي

ويدخل في محبة الله طاعته ـ جل وعلا ـ في الأمر والنهي الشرعي والقدري بالانقياد والتسليم ، والناس في هذا المقام نوعان :

أحدهما : أن يكون العبد مأموراً بما قدره الرب إما بحب له وإعانة عليه ، وإما ببغض له ودفع له .

والثاني : أن لايكون العبد مأموراً بواحد منها .

فالأول : مثل البر والتقوى الذي يفعله غيره ، فهو مأمور بحبه وإعانته عليه كإعانة المجاهدين في سبيل الله على الجهاد ، وإعانة سائر الفاعلين للحسنات على حسناتهم بحسب الإمكان ، وبمحبة ذلك والرضا به ، وكذلك هو مأمور عند مصيبة الغير : إما بنصر مظلوم وإما بتعزية مصاب وإما بإغناء فقير ونحو ذلك.

وأما ما هو مأمور ببغضه ودفعه فمثل : ما إذا ظهر الكفر والفسوق والعصيان ، فهو مأمور ببغض ذلك ودفعه ، وإنكاره بحسب الإمكان كما قال النبي ﷺ : ((من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)) [(٢)] .

وأما ما لا يؤمر العبد بواحد منهما فمثل : ما يظهر له من فعل الإنسان للمباحات التي لم يتبين له أنه يستعان بها على طاعة ولا معصية . فهذه لا يؤمر بحبها ، ولا ببغضها ، وكذلك مباحات نفسه المحضة التي لايقصد بها الاستعانة بها على طاعة ولا معصية . [(٣)]

ومن هذا يتبين أن جميع الأعمال داخلة في باب المحبة ، فكل عمل يصدر عن المحبة فإنما يصدر عن محبة لحصول المراد منه .

---

(١) انظر الفتاوى ١٠/٧٥٠-٧٥٤ .

(٢) رواه مسلم في الإيمان (ح٤٩) وأبو داود في الصلاة (ح١١٤٠) ، والترمذي في الفتن (ح٢١٧٢) والنسائي في الإيمان وشرائعه (ح٥٠٠٨) وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (ح١٢٧٥) .

(٣) الفتاوى ١٠/٤٥٩-٤٦٠ بتصرف يسير .

كمال الدين بكمال المحبة ونقصه بنقصها :

كما أن كمال الدين بكمال هذه المحبة وحصول لوازمها ، وبنقصانها أو زوال بعض لوازمها تنقص . فقد (بين سبحانه أن محبته أصل الدين فقد بين أن كمال الدين بكمالها ، ونقصه بنقصها ، فإن النبي ﷺ قال : ((رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله)) [1] فأخبر أن الجهاد ذروة سنام العمل وهو أعلاه وأشرفه ، وقد قال تعالى : ﴿ أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لايستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين ۞ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون ۞ يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ۞ خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم ﴾[2] والنصوص في فضائل الجهاد وأهله كثيرة .

وقد ثبت أنه أفضل ما تطوع به العبد . والجهاد دليل المحبة الكاملة ، قال تعالى : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال أقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ [3] وقال تعالى في صفة المحبين المحبوبين : ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله لا يخافون لومة لائم ﴾ [4] فوصف المحبوبين المحبين بأنهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، وأنهم يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ؛ فإن المحبة مستلزمة للجهاد ؛ لأن المحب يحب ما يحب محبوبه ، ويبغض ما يبغض محبوبه ، ويوالي من يواليه ويعادي من يعاديه ، ويرضى لرضاه ويغضب لغضبه ، ويأمر بما يأمر به

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الإيمان (ح٢٦١٦) وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) سورة التوبة ١٩-٢٢ .

(٣) سورة التوبة ٢٤ .

(٤) سورة المائدة ٥٤ .

وينهى عما ينهى عنه ، فهو موافق له في ذلك ...) [١] وهذه مما يبين أنه بكمال المحبة يكمل العمل .

(ومحبة الله تكون بمتابعة رسوله ﷺ باتباع أمره واجتناب نهيه ، كما تقدم في حديث : ((ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان))[٢] حيث علق الإيمان بمن وافق ربه فيما يحبه وما يكره ، فكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأحب المخلوق لله لا لغرض آخر ، فكان هذا من تمام حبه لله ، فإن محبة محبوب المحبوب من تمام محبة المحبوب ، فإذا أحب أنبياء الله وأولياء الله لأجل قيامهم بمحبوبات الحق لا لشيء آخر فقد أحبهم لله لا لغيره ، وقد قال تعالى : ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾[٣] ولهذا قال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾[٤] فإن الرسول يأمر بما يحب الله وينهى عما يبغضه الله ويفعل ما يحبه الله ويخبر بما يحب الله التصديق به ، فمن كان محباً لله لزم أن يتبع الرسول فيصدقه فيما أخبر ويطيعه فيما أمر ، ويتأسى به فيما فعل ، ومن فعل هذا فقد فعل ما يحبه الله ، فيحبه الله ، فجعل الله لأهل محبته علامتين : اتباع الرسول ﷺ والجهاد في سبيله .

وذلك لأن الجهاد حقيقته الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح ، ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان ... فإذا ترك العبد ما يقدر عليه من الجهاد كان دليلاً على ضعف محبة الله ورسوله في قلبه ، ومعلوم أن المحبوبات لاتنال غالباً إلا باحتمال المكروهات .. فالمحب لله ورسوله إذا لم يحتمل ما يرى ذو الرأي من المحبين لغير الله مما يحتملون في حصول محبوبهم دل ذلك على ضعف محبتهم لله ...

---

(١) الفتاوى ١٠/٥٧-٥٨ . وانظر ١٠/٤٦٤ ، ٤٨٢ ، ٦٦. ٨/٤٧٥ .

(٢) تقدم تخريجه قريباً انظر فهرس الأحاديث حرف الثاء .

(٣) سورة المائدة ٥٤ .

(٤) سورة ال عمران ٣١ .

فحقيقة المحبة لاتتم إلا بموالاة المحبوب ، وهو موافقته في حب ما يحب وبغض ما يبغض ، وا لله يحب الإيمان والتقوى ويبغض الكفر والفسوق والعصيان .)[1]

(وهؤلاء هم الذين يرضى الرب لرضاهم ويغضب لغضبهم ، إذ هم إنما يرضون لرضاه ويغضبون لما يغضب له ، كما قال النبي ﷺ لأبي بكر في طائفة فيهم صهيب وبلال : ((لعلك أغضبتهم لأن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك ، فقال لهم : يا إخوتي ! هل أغضبتكم ؟ قالوا لا يغفر ا لله لك يا أبا بكر)) [2] وكان قد مر بهم أبو سفيان بن حرب فقالوا : ما أخذت السيوف من عدو ا لله مأخذها ، فقال لهم أبو بكر : أتقولون هذا لسيد قريش ؟ وذكر أبو بكر ذلك للنبي ﷺ فقال له ما تقدم ؛ لأن أولئك إنما قالوا ذلك غضباً لله لكمال ما عندهم من الموالاة لله ولرسوله ، والمعاداة لأعداء ا لله ورسوله ...) [3]

(وهذا هو الأصل الذي يجب على كل أحد أن يعتصم به ، فلا بد أن يكون مريداً محباً لما أمره ا لله بإرادته ومحبته ، كارهاً مبغضاً لما أمره ا لله بكراهته وبغضه .)[4]

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه ا لله - : أن الناس في هذا الباب أربعة أنواع :

النوع الأول : أكملهم الذين يحبون ما أحبه ا لله ورسوله ، ويبغضون ما أبغضه ا لله ورسوله ، فيريدون ما أمرهم ا لله ورسوله بإرادته ، ويكرهون ما أمرهم ا لله ورسوله بكراهته ، وليس عندهم حب ولا بغض لغير ذلك ، فيأمرون بما أمر ا لله به ورسوله ، ولا يأمرون بغير ذلك ، وينهون عما نهى ا لله عنه ورسوله ، ولا ينهون عن غير ذلك ، وهذه حال الخليلين أفضل البرية محمد وابراهيم ﷺ ...

النوع الثاني : عكس هذا ، وهو أنهم يتبعون هواهم لا أمر ا لله فهؤلاء لايفعلون ولا يأمرون إلا بما يحبونه بهواهم ، ولا يتركون وينهون إلا عن ما يكرهونه

---

(١) الفتاوى ١٠/١٩٠-١٩٣ . وانظر قاعدة في المحبة ص ٦٩-٧٥

(٢) رواه مسلم في فضائل الصحابة (ح٢٥٠٤) .

(٣) الفتاوى ١٠/٤٨-٤٩ .

(٤) الفتاوى ١٠/٤٦٧ .

بهواهم ، وهؤلاء شر الخلق ، قال تعالى : ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا﴾[١] قال الحسن هو المنافق لايهوى شيئاً إلا ركبه ...

النوع الثالث : الذي يريد تارة إرادة يحبها الله وتارة يبغضها الله ، وهؤلاء أكثر المسلمين فإنهم يطيعون الله تارة ويريدون ما أحبه ، ويعصونه تارة ويردون ما يهوونه ، وإن كان يكرهه .

والنوع الرابع : أن يخلو من الإرادتين ، فلا يريد لله ولا لهواه ، وهذا يقع لكثير من الناس في بعض الأشياء ، ويقع من الزهاد والنساك في كثير من الأمور .)[٢]

وجوب الأخلاص في المحبة :

وقد بين - رحمه الله - أن المحبة يجب أن تكون بجميع أنواعها خالصة لله تعالى لا يشوبها شائبة من شوائب الشرك وحظوظ النفس فهذا أبو بكر ﷺ أحب رسول الله ﷺ ونصره مخلصاً لله في ذلك ، وأبو طالب عمه كان يحبه وينصره لهواه ، فتقبل الله عمل أبي بكر وأنزل فيه قوله : ﴿ وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى وما لأحد عنه من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى ﴾[٣].

وأما أبو طالب فلم يتقبل منه . [٤]

فيجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء ، وأن يكون أعظم عند من كل شيء ، بل يجب أن تكون محبته لله وحده محبة مصاحبة للذل التام له وحده .

وكل ما أحب لغير الله فمحبته باطلة ، وما عظم بغير أمر الله كان تعظيمه باطلاً قال الله تعالى : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم

---

(١) سورة الفرقان ٤٣ .

(٢) الفتاوى ١٠/٤٦٧-٤٨٠ .

(٣) سورة الأعلى

(٤) انظر الفتاوى ١٨/٣٢١ .

من ا لله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي ا لله بأمره ﴾[١] فجنس المحبة تكون لله ورسوله كالطاعة ، فإن الطاعة لله ورسوله ، والإرضاء لله ورسوله[٢]

الخوف

يجب على المسلم أن يخاف ا لله خوفاً ينهى النفس عن الهوى ، خوفاً يردعها عن ارتكاب المعاصي ، واقتراف ما حرم ا لله جل شأنه ، فالخوف من أهم ما يعين على دفع شهوات النفس وأهوائها من حبها لأشباع تلك الرغبات .

والعبد مأمور بذلك كما قال تعالى : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ﴾[٣] والصبر على هذا خوفاً من ا لله ورغبة فيما عنده من أفضل الأعمال ، فإن الجهاد حقيقة هو ذلك الجهاد . وإذا فعل العبد هذا حصل له من الإيمان ما يعينة على مرضاة ربه . [٤] وقد يؤذى العبد ويلحقه الضرر بسبب امتناعه عما حرم ا لله ، فيصبر ويقدم الخوف من ا لله على الخوف من المخلوق ، كما فعل يوسف عليه الصلاة والسلام [٥]

قال تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر ا لله وجلت قلوبهم ..﴾[٦] وهذا يدل على أن الخوف من ا لله مستلزم لفعل المأمور وترك المحظور ، ولهذا كان الخوف أصل كل خير للإنسان .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه ا لله – : (ذكر ﷻ وجل قلوبهم إذا ذكر ا لله ، وزيادة إيمانهم إذا تليت عليهم آياته مع التوكل عليه ، وإقام الصلاة على الوجه المأمور به باطناً وظاهراً ، وكذلك الإنفاق من المال والمنافع ؛ فكان هذا مستلزماً للباقي ، فإن وجل القلب عند ذكر ا لله يقتضي خشيته والخوف منه ، وقد فسروا

---

(١) سورة التوبة ٥٤ .

(٢) انظر الفتاوى ١٠/١٥٣ -١٥٤ . وانظر قاعدة في المحبة ٢٢-٢٣ .

(٣) سورة النازعات ٤٠ .

(٤) انظر الفتاوى ١٠/٦٣٥-٦٣٦ .

(٥) انظر الفتاوى ١٥/١٣٣ .

(٦) سورة الأنفال ٢ .

﴿ وجلت ﴾ بفرقت[١] وفي قراءة ابن مسعود : ﴿ إذا ذكر الله فرقت قلوبهم ﴾[٢] وهذا صحيح فإن الوجل في اللغة هو الخوف ، يقال حمرة الخجل وصفرة الوَجل .

ومنه قوله تعالى : ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ﴾ قالت عائشة : ((يارسول الله هو الرجل يزني ويسرق ويخاف أن يعاقب ؟ قال لا يابنة الصديق هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه))[٣].

وقال السدي في قوله تعالى : ﴿ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾[٤] هو الرجل يريد أن يظلم أو يهم بمعصية فينزع عنها . وهذا كقوله تعالى : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هي المأوى ﴾[٥] وقوله : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ قال مجاهد وغيره من المفسرين : هو الرجل يهم بالمعصية فيذكر مقامه بين يدي الله فيتركها خوفاً من الله .[٦]

فإذا كان : وجل القلب من ذكره يتضمن خشيته ومخافته فذلك يدعو صاحبه إلى فعل المأمور وترك المحظور ، قال سهل بن عبد الله التستري[٧] : ليس بين العبد وبين الله حجاب أغلظ من الدعوى ، ولا طريق إليه أقرب من الإفتقار ، وأصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله ، ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ ولما سكت

---

(١) انظر تفسير الطبري ١٧٩/٩ .

(٢) انظر تفسير البحر المحيط ، قال مؤلفه أبو حيان : ((قرأ ابن مسعود فرقت ، وقرأ " فزعت " وينبغي أن تحمل هاتان القرآتان على التفسير (٤٥٤/٤) .

(٣) رواه الترمذي في تفسير القرآن (ح٣١٧٥) وابن ماجه في الزهد (ح٤١٩٨) وأحمد ١٥٩/٦ ، ٢٠٥ ، والحاكم ٣٩٣/٢-٣٩٤ ، وصححه ووافقه الذهبي . كما حسنه الألباني في الصحيحة (ح١٦٢) وفي صحيح سنن ابن ماجه أيضاً .

(٤) الأنفال ١ .

(٥) سورة النازعات ٤٠-٤١ .

(٦) انظر تفسير الطبري ١٤٥/٢٧ .

(٧) هو : ابن يونس أبو محمد التستري الصوفي الزاهد توفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين . انظر السير ٣٣٠/١٣ .

عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾ فأخبر أن الهدى والرحمة للذين يرهبون ...) [١]

والخوف من الله يستلزم معرفته ، ومعرفته تستلزم خشيته وخشيته تستلزم طاعته ، فمن عرف الله خافه ، ومن خافه خشي عقابه وامتثل طاعته وانتهى عن معصيته .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : (.. فكما أن الخوف من الله يستلزم العلم به ، فالعلم به يستلزم خشيته ، وخشيته تستلزم طاعته ، فالخائف من الله ممتثل لأوامره مجتنب لنواهيه .. ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ فذكر إن نفعت الذكرى ، سيذكر من يخشى ، ويتجنبها الأشقى ، الذي يصلى النار الكبرى﴾ [٢]

فأخبر أن من يخشاه يتذكر والتذكر هنا مستلزم لعبادته ، قال الله تعالى : ﴿ هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً وما يتذكر إلا من ينيب ﴾[٣] وقال : ﴿ تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴾ [٤] ولهذا قالو في قوله : ﴿ سيذكر من يخشى ﴾ سيتعظ بالقرآن من يخشى الله ، وفي قوله : ﴿ وما يتذكر إلا من ينيب ﴾ إنما يتعض من يرجع إلى الطاعة ، وهذا لأن التذكر التام يستلزم التأثر بما تذكره ، فإن تذكر محبوباً طلبه ، وإن تذكر مرهوباً هرب منه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون ﴾[٥] وقال سبحانه : ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب ﴾ فنفى الإنذار عن غير هولاء مع قوله : ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون ﴾ فأثبت لهم الإنذار من وجه ، ونفاه عنهم من وجه ، فإن الإنذار هو الإعلام بالمخوف ، فالإنذار مثل التعليم والتخويف ، فمن علمته فتعلم فقد تم تعليمه ، وآخر يقول : علمته فلم يتعلم ، وكذلك من خوفته فخاف ، فهذا هو الذي تم تخويفه ، وأما من خوف فما خاف ، فلم يتم

---

(١) الفتاوى ١٩/٧–٢٠ .
(٢) سورة الأعلى
(٣) سورة غافر ١٣ .
(٤) سورة ق ٨ .
(٥) سورة يس ١٠ – ١١

تخويفه ، وكذلك من هديته فاهتدى ، تم هداه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ هدى للمتقين ﴾[١] ومن هديته فلم يهتد لم يتم هداه كما قال : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ [٢] فلم يتم هداهم كما تقول : قطعته فانقطع وقطعته فما انقطع .

فالمؤثر التام يستلزم أثره ، فمتى لم يحصل أثره لم يكن تاماً ، والفعل إذا صادف محلاً قابلا تم ، وإلا لم يتم ...) [٣]

ولهذا فأكثر الناس خشية لله هم أهل العلم المنتفعين بعلمهم ، الذين وصفهم الله في قوله : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ [٤] والمعنى أنه لا يخشاه إلا عالم ؛ فقد أخبر الله أن كل من خشي الله فهو عالم ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، قل هل يستوي الذي يعلمون والذي لا يعلمون ﴾[٥] ... [٦]

(وكل من خشية وأطاعه وترك معصيته فهو عالم ، .. قال رجل للشعبي[٧] : أيها العالم . فقال إنما العالم الذي يخشى الله ...

وقال ابن مسعود ﷺ كفى بخشية الله علماً وكفى بالاغترار جهلاً ..) [٨]

ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب ﴾ وقوله : ﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾ [٩] وقوله : ﴿إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون ، تتجافى

---

(١) سورة البقرة ٢ .

(٢) سورة فصلت ١٧ .

(٣) الفتاوى ٧/٢٤-٢٥ .

(٤) سورة فاطر ٢٨ .

(٥) سورة الزمر ٩ .

(٦) انظر الفتاوى ٧/٢١ .

(٧) هو عامر بن شراحيل بن عبد بن دي كبار ، المشهور بالشعبي ، من كبار التابعين ، إمام في الحديث والفقه ، توفي سنة ١٠٣هـ عن عمر يناهز الثمانين ، انظر السير ٤/٢٩٤ وما بعدها .

(٨) الفتاوى ١٤/٢٩٢-٢٩٣ .

(٩) سورة النازعات ٤٥ .

جنوبهم عن المضاجع ﴾[1] فقد أثبت سبحانه في هذه الآيات الخشية للعلماء ونفاها عن غيرهم .

والعلم بما أنذرت به الرسل يوجب الخوف والخشية الحاملة على فعل الحسنات ، وترك السيئات . ومن لم يكن عالماً با لله وبشرعه لم يكن له داع يدعوه إلى الحسنات وترك السيئات .

فالخشية والخوف من أهم العبادات التي تدفع إلى فعل المأمور وترك المحظور[2] وتمنع من تخويف الشيطان وحزبه كما قال سبحانه : ﴿ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ [3] وقد قال جمع من السلف (يخوفكم بأوليائه)؛ لكن المؤمنون متوكلون على ا لله لايخافون سواه ، ولا يؤثر فيهم تخويف الشيطان وحزبه وأعوانه من الجن والإنس كما قال تعالى عن المؤمنين : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا ا لله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من ا لله وفضل لم يمسسهم سوء ﴾ [4] ، ولهذا فإنه لا يجوز للمؤمن أن يخاف أولياء الشيطان ، ولا يخاف الناس كما قال تعالى : ﴿ فلا تخشو الناس واخشون ﴾ [5] بل يجب عليه أن يخاف ا لله وحده ، فإن خوف ا لله مأمور به ، وخوف الشيطان وحزبه منهي عنه .

وقال سبحانه : ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة ، إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ﴾[6] فنهى عن خشية الظالم وأمر بخشية ا لله ، وقال ﴿ الذين

---

(١) سورة السجدة ١٦ .

(٢) انظر الفتاوى ١٤/٢٩٣-٢٩٤ ، ٧/٢١ وما بعدها .

(٣) سورة ال عمران ١٧٥ .

(٤) سورة التوبة ١٧٣-١٧٤ .

(٥) سورة المائدة ٤٤ .

(٦) سورة البقرة ١٥٠ .

يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله ﴾[(١)] وقال : ﴿ وإياي فارهبون ﴾ [(٢)] ... [(٣)]

(وبعض الناس يقول : يارب إني أخافك وأخاف من لا يخافك ، فهذا كلام ساقط لايجوز ؛ بل على العبد أن يخاف الله وحده ولا يخاف أحداً ، مهما كان ، سواء كان يخاف الله أولا يخاف الله ، فإن من لا يخاف الله أخس وأذل من أن يُخاف ، فإنه ظالم وهو من أولياء الشيطان ، فالخوف منه قد نهى الله عنه . وإذا قيل قد يؤذيني ، قل : إنما يؤذيك بتسليط الله له ، وإذا أراد الله دفع شره عنك دفعه ، فالأمر لله ، وإنما يسلط على العبد بذنوبه ، وأنت إذا خفت الله فاتقيته وتوكلت عليه كفاك شر كل شر ، ولم يسلطه عليك ، فإنه قال : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾[(٤)]، وتسليطه يكون بسبب ذنوبك وخوفك منه ، فإذا خفت الله وتبت من ذنوبك واستغفرته لم يسلط عليك ، كما قال : ﴿ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾[(٥)] ...

وقال سبحانه : ﴿ وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا ...﴾ [(٦)] والرِبيّون الكثير عند جماهير السلف والخلف ، وهم الجماعات الكثيرة ... والمعنى على قرآءة أبي عمرو[(٧)] : أي أن الربيون يقتلون فما وهنوا ، أي ما وهن من بقي منهم لقتل كثير منهم أي ما ضعفوا

---

(١) سورة الأحزاب ٣٩ .

(٢) سورة البقرة ٤٠ ، والنحل ٥١ .

(٣) انظر الفتاوى ١٤/٢٠٣-٢٠٦ .

(٤) سورة الطلاق ٣ .

(٥) سورة الأنفال ٣٣ .

(٦) سورة ال عمران ١٤٦ .

(٧) هذه قراءة نافع وابن كثير وأبو عمرو " قُتِلَ " بضم القاف وكسر التاء ، أي وكم من نبي قتل ومعه ربيون كثير " حجة القرآت لابن زنجلة ص ١٧٥ . وانظر كتاب السعبة في القراءات لابن مجاهد .

لذلك ، ولا دخلهم خور ولا ذلو لعدوهم بل قاموا بأمر الله في القتال حتى أداهم الله عليهم وصارت كلمة الله هي العليا ...[1])[2] والله تعالى أعلم

الرجاء

الرجاء من أنوع العبادة الباطنة التي لا يخلو منها قلب كل أحد ، لإنه لايخلو عبد من إرادة خير يرجو حصوله ، أو دفع مكروه يرجو دفعه عنه ، فإذا ما توجه برجائه إلى من يستطيع نفعه أو دفع الضر عنه فقد اهتدى ، وإذا توجه به إلى من لا يستطيع ذلك فقد ضل وغوى . ومن هنا كان الرجاء عبادة قلبية لا يجوز صرفها إلى إلى مستحقها وهو الله سبحانه وتعالى .

وقد وصف الله ـ عز وجل ـ المؤمنين بأنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه ، قال الله تعالى عنهم : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾[3] . وأهل الإيمان يتفاوتون في درجات رجائهم . إذ أنه ينقسم إلى ثلاثة أقسام : قسمان محمودان وقسم مذموم :

أما المحمودان فأحدهما : رجاء مَنْ عَمِل بطاعة الله على نور من الله راج لثواب الله ورحمة والفوز بدار كرامته .

والثاني : رجاء من أذنب ذنوباً ثم تاب منها ، فهو راج لمغفرة الله تعالى له وعفوه عنه وإحسانه له ، وجوده وكرمه عليه .

وأما الثالث : فهو من تمادى في التفريط والخطايا ، ويزعم أنه يرجو رحمة ربه بلا عمل ، وهذا هو الغرور والتمني على الله الأماني .[4]

وقد أمر الله سبحانه وتعالى برجاءه ومدح الراجين له ، قال سبحانه : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم ٢/١١٠-١١ .

(٢) الفتاوى ١/٥٦-٥٩ . انظر الفتاوى ١٤/٢٠٣-٢٠٦ .

(٣) سورة الإسراء ٥٧ .

(٤) انظر مدارج السالكين لابن القيم ٢/٣٧ .

عذابه ﴾ [١] ، وقال سبحانه : ﴿ من كان يرجو لقاء ربه فإن أجل الله لآت ﴾[٢] وقال : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾[٣] وقال : ﴿ أولئك الذين يرجون رحمة الله والله غفور رحيم ﴾ [٤]

وعن جابر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((لايموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه ﴾ [٥]

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : يقول الله ـ جل وعلا ـ : ((أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء)) [٦] .

وعنه ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل : ((يابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي)) [٧]

وقد أخبر سبحانه عن خواص عباده الذين كان المشركون يزعمون أنهم يتقربون بهم إلى الله تعالى : أنهم كانوا راجين له خائفين منه فقال تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا ، أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً ﴾ [٨] يقول تعالى : هؤلاء الذين تدعونهم من دوني هم عبادي

---

(١) سورة الإسراء ٥٧ .

(٢) سورة العنكبوت آية ٥ .

(٣) سورة الكهف أية ١١١ .

(٤) سورة البقرة آية ٢٨١ .

(٥) رواه مسلم في صفة الجنة ونعيمها (ح٢٨٧٧) وأبو داود في الجنائز (ح٣١١٣) وابن ماجه في الزهد (ح٤١٦٧) .

(٦) رواه الإمام أحمد عن واثلة بن الأسقع ١٠٦/٤ ، وعن أبي هريرة في ٣٩١/٢ ، ٥٣٤ . ورواه الدارمي كتاب الرقاق (ح٢٧٣١) ورواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب التوحيد (ح٧٤٠٥) دون قوله : " فليظن بي ما شاء " وكذا رواه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (ح ٢٦٧٥) والترمذي في الدعوات (ح٣٦٠٣) وابن ماجه في الأدب (ح٣٨٢٢) .

(٧) رواه الترمذي في الدعوات (ح٣٥٤٠) عن أنس ، وقال : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، ورواه أحمد ١٦٧/٥ عن أبي ذر ، والدارمي في الرقاق (ح٢٧٨٨) عن أبي هريرة .

(٨) سورة الإسراء آية ٥٦-٥٧ .

يتقربـون إلي بطـاعتي ويرجـون رحمـتي ويخـافون عذابـي ، فلمـاذا تدعونهـم مـن دونـي ؟[١] فأثني عليهـم بـأفضل أحوالهـم مـن الحـب والخـوف والرجـاء [٢]

وقـد وضـح شيخ الإسـلام ابـن تيميـة - رحمـه ا لله - : أن الواجـب علـى العبـد أن لايقطع نفسه مـن رحمـة ربـه بـل يرجـوه ويخشـى ذنوبـه ، فـإذا مـا كـثرت ذنوبـه تعلـق برجـاء ا لله المغفـرة لـه مـع بذلـه للأسباب ، (فـإن الخـير لا موجـب لـه إلا مشـيئة ا لله ، فمـا شـاء كان ومالم يشـأ لم يكـن ، والمعوق لـه مـن العبـد ذنوبـه ، ومـا كـان خارجـاً عـن قـدرة العبـد فهـو مـن ا لله ، وإن كـانت أفعـال العبـاد بقـدر ا لله تعـالى ؛ لكـن ا لله جعـل فعـل المـأمور وتـرك المحضـور سـبباً للنجـاة والسـعادة ، فشـهادة التوحيـد تفتـح بـاب الخـير والاسـتغفار مـن الذنوب يغلـق بـاب الشـر .

ولهـذا ينبغـي للعبـد أن لا يعلـق رجـاءه إلا بـا لله ، ولا يخـاف مـن ا لله أن يظلمـه : فـإن ا لله لايظلـم النـاس شـيئاً ولكـن النـاس أنفسـهم يظلمـون ؛ بـل يخـاف أن يجزيـه بذنوبـه ، وهـذا معنـى مـاروي عـن علـي ﷺ أنـه قـال : لا يرجـون عبـد إلا ربـه ولا يخـافن إلا ذنبـه .

وفي الحديـث المرفـوع إلى النبي ﷺ أنـه دخـل علـى مريـض فقـال : ((كيـف تجـدك؟ فقـال : أرجـو ا لله وأخـاف ذنوبي ، فقـال مـا اجتمعـت في قلـب عبـد في مثـل هـذا الموطـن إلا أعطـاه ا لله مـا يرجـو وآمنـه ممـا يخـاف)) [٣]

فالرجـاء ينبغـي أن يتعلـق بـا لله ، ولا يتعلـق بمخلـوق ولا بقـوة العبـد ولا بعمـل ، فـإن تعليـق الرجـاء بغـير ا لله اشـراك ، وإن كـان ا لله قـد جعـل لهـا اسـباباً فالسـبب لا يستقل بنفسـه ، بـل لا بـد لـه مـن معـاون ، ولا بـد أن يمنـع المعـارض المعـوق لـه ، وهـو لايحصـل ويبقـى إلا بمشـئة ا لله تعـالى .

ولهـذا قيـل : الإلتفـات إلى الأسـباب شـرك في التوحيـد ، ومحـو الأسـباب أن تكـون أسـباباً نفـص في العقـل ، والإعـراض عـن الأسـباب بالكليـة قـدح في الشـرع ، ولهـذا قـال

---

(١) انظر تفسير القرطبي " الجامع لأحكام القرآن " ٢٧٩/١٠ ، وتفسـير القـرآن العظيـم ٨٦/٥-٨٧ .

(٢) انظر مـدارج السـالكين ٤٣/٢ . وانظـر الفتـاوى ٢٥٨/١٠ .

(٣) رواه الـترمذي عـن أنـس في الجنـائز (ح٩٨٣) وقـال : هـذا حديـث حسـن غريـب وقـد روى بعضهـم هـذا الحديـث عـن ثـابت عـن النبي ﷺ مرسلاً . ورواه ابـن ماجـه في الزهـد (ح٤٢٦١) .

الله تعالى : ﴿ فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب ﴾ [١] فأمر بأن تكون الرغبة إليه وحده ، وقال : ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ [٢] فالقلب لا يتوكل إلا على من يرجوه ، فمن رجا قوته أو عمله أو علمه أو حاله أو صديقه أو قرابته أو شيخه ، أو ملكه أو ماله غير ناظر إلى الله كان فيه نوع توكل على ذلك السبب ، وما رجا أحد مخلوقاً أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه ، فإنه مشرك : ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴾[٣].

وكذلك المشرك يخاف المخلوقين ويرجوهم فيحصل له رعب كما قال تعالى : ﴿ سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً ﴾ والخالص من الشرك يحصل له الأمن ...) [٤] التام

فالواجب على العبد أن يحقق هذا النوع من العبادة ، فلا يصرفه إلا لله وحده ، فلا يرجو إلا الله ، ولا يسأل إلا الله ؛ لإن السائل راج طالب لحاجته .

وقد علل ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : بأن (النبي ﷺ قال في الحديث الصحيح : ((ما أتاك من هذا المال وأنت غير سائل ولا مشرف فخذه ، وما لا فلا تتبعه نفسك)) [٥] فالمشرف الذي يستشرف بقلبه ، والسائل الذي يسال بلسانه ، وفي الحديث الذي في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال : إن ناسا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم حتى نفد ما عنده فقال ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم ومن يستعفف يعفه الله

---

(١) سورة الشرح .

(٢) سورة المائدة ٢٣ .

(٣) سورة الحج ٣١ .

(٤) الفتاوى ١٠/٢٥٥-٢٥٧ .

(٥) رواه البخاري في الزكاة (ح١٤٧٣) ومسلم في الزكاة (ح١٠٤٥) والنسائي في الزكاة (ح ٢٦٠٥ - ٢٦٠٨) والدارمي في الزكاة (ح١٦٤٧) .

ومن يستغن يغنه الله ومن يتصبر يصبره الله وما أعطي أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر))[١]

والاستغناء : أن لا يرجو بقلبه احداً فيستشرف إليه ، والاستعفاف أن لا يسأل بلسانه أحداً ، ولهذا لما سئل أحمد بن حنبل ﷺ عن التوكل فقال : قطع الإستشراف إلى الخلق ، أي لا يكون في قلبك أن أحداً يأتيك بشيء ، فقيل له : فما الحجة في ذلك ؟ فقال : قول الخليل لما قال له جبرائيل هل لك من حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا))[٢]

فهذا وما يشبهه مما يبين أن العبد في طلب ما ينفعه ودفع ما يضره لا يوجه قلبه إلا إلى الله ، فلهذا قال المكروب : ﴿ لاإله إلا أنت ﴾[٣] ومثل هذا ما في الصحيحين عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يقول : عند الكرب : ((لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إلا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم))[٤] فإن هذه الكلمات فيها تحقيق التوحيد ، وتأله العبد ربه ، وتعلق رجاءه به وحده لاشريك له ، وهي لفظ خبر يتضمن الطلب .[٥]

(وكلما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته ورجائه لقضاء حاجته ودفع ضرورته قويت عبوديته له وحريته مما سواه ، فكما أن طمعه في المخلوق يوجب عبودية له فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه ، كما قيل : استغن عمن شئت تكن نظيره ، وأفضل إلى من شئت تكن أميره ، واحتج إلى

---

(١) رواه البخاري في الزكاة (ح١٤٦٩) ومسلم في الزكاة (ح١٠٥٣) وأبو داود في الزكاة (ح١٦٤٤) والترمذي في البر والصلة (ح٢٠٢٤) والنسائي في الزكاة (٢٥٨٨) والدارمي في الزكاة (ح١٦٤٦) ومالك في الجامع (١٨٨٠) .

(٢) قول الخليل ذكره ابن كثير في البداية والنهاية عن بعض السلف و لم يعزه ، كما ذكره الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كشف الشبهات في الشبهة السابعة . أو ما قبل الأخيرة . والله تعالى أعلم .

(٣) سورة الأنبياء من الآية ٧٨ .

(٤) رواه البخاري في الدعوات (ح٦٣٤٥) ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (ح٢٧٣٠) والترمذي في الدعوات (ح٣٤٣٥) وابن ماجه في الدعاء (ح٣٨٨٣) .

(٥) الفتاوى ١٠/٢٥٩-٢٦٠ .

من شئت تكن أسيره ، فكذلك طمع العبد في ربه ورجاؤه له يوجب عبوديته له ، وإعراض قلبه عن الطلب من غير الله والرجاء له يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله ، لا سيما من كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق ، بحيث يكون قلبه معتمداً إما على رئاسته وجنوده وأتباعه ومماليكه ، وإما على أهله وأصدقائه ، وإما على أمواله وذخائره ، وإما على ساداته وكبرائه ، كمالكه وملكه ، وشيخه ومخدومه وغيرهم ؛ ممن هو قد مات أو يموت قال تعالى : ﴿ وتوكل على الحي الذي لايموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً ﴾[1] فكل من تعلق قلبه بالمخلوقات أن ينصروه أو يرزقوه أو أن يهدوه خضع قلبه لهم ...)[2] ولهذا ينبغي على العبد أن يحقق رجاءه لله ، فلا يرجو أحداً سواه ، ولا تتعلق نفسه بأحد سواه ، ولا يعلق قلبه إلا بالله ، وبهذا يحقق الرجاء الذي هو من أهم أنواع العبادات . والله تعالى أعلم .

وأكتفي بهذه الأمثلة من أنواع العبادة القلبية لتكون دالة على باقيها مما ذكر سلفاً من الإنابة والخشية [3] والتوبة [4] والرضا [5] ، والتوكل [6] والصبر [7] لكون ما ذكر بمثابة الدافع لباقي تلك الأعمال .

ومما تقدم من أنوع العبادات الباطنة ، يظهر جلياً أن المحبة والخوف والرجاء من أهم الأعمال القلبية ، والتي اهتم بذكرها شيخ الإسلام ـــ رحمه الله ـــ حيث بين ما

---

(١) سورة الفرقان ٥٨ .

(٢) الفتاوى ١٠/١٨٤-١٨٥ .

(٣) انظر الفتاوى ٧/٢١-٢٢

(٤) تحدث شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن التوبة في مواضع كثيرة انظر مثلاً الفتاوى ٨/ ٣٦ ، ٢٤١. ١٠/٢٩٣ ، ٣٠٩-٣١٦ . ١١/٥٥١-٢٥٥ ، ٦٦٣ . ١٥/١٧٩ . ١٦/٨-٣٢ . ١٧/١٨٩ . ١٨/١٨٦ .

(٥) تحدث شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : عن الرضا في مواضع من مؤلفاته منها : ١/٢٩٢ . ١٠/٢٣ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ١٩٣-١٩٤ ، ٤٨٣ ، ٦٨٢ ، ٧٠٧-٧٠٩ . ١١/٣٧٥-٣٦٢ . ١٨/١٩٠ .

(٦) انظر في التوكل : ١٠/١٨ ، ٣٦ . ١٩٤ . ١٣/٣٢٣-٣٢٨ ، ١٦/٧ ، ١٨/١٨٥-١٨٩ .

(٧) قد سبق الكلام عليه انظر ص وللأستزاده انظر الفتاوى ١٠/٣٨ ، ٤٧ ، ١٢٢ ، ١٦٠ ، ١٨٣ ، ٥٧٣-٥٧٨ . ١١/٣١-٣٦ . ١٥/١٣٠ ، ١٣٥-١٣٨ ، ١٦٧-١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٨ . ١٦/٧٠ . ١٧/٢٩٥ .

ينبغي على المسلم أن يكون عليه في عبادته لله ـ عز وجل ـ في محبته له ولأنبياءه ولرسله ولأوامره ونواهيه ، فالمحبة هي الأساس الذي يثمر الأعمال الظاهرة ، وعليها مدار قرب الشخص أو بعده عن الله ، إذ كلما كانت كاملة في نفسه ، كان كماله وقربه من الله بحسبها ، وكلما نقص منها شيء كان بعده ونقصه عن الله بحسبها أيضاً .

مع ملاحظة الحال التي تكون معاملته قائمة على الخوف والرجاء ليحصل له الموازنة الصحيحة في سلوكه ، فلا يُغَلِّب جانباً على آخر ، إذ أن تغليب جانب على آخر يؤدي إلى الخلل التام في السلوك ، فمن غلَّب جانب الخوف أدى به ذلك إلى اليأس والقنوط ـ كما تقدم ـ وهذا ما وقع فيه الخوراج حيث كانوا ينظرون فقط إلى جانب العقاب والإنتقام . وكذلك من غلب جاب الرجاء اختل أيضاً سلوكه فأدى به ذلك إلى التمادي في الباطل ، والتسويف بالتوبة .

والمؤمن هو الذي يجمع بين الأمرين ، فيكون بين الخوف والرجاء مستشعراً قول الله ـ عز وجل ـ : ﴿ غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير ﴾[1] وقوله : ﴿ اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم ﴾[2] وهذا هو المنهج القويم ، الواضح البين الذي سار عليه المؤمنون الخلص .

★★★★★
★★★★
★★★
★★
★

---

(١) سورة غافر ٣ .

(٢) سورة المائدة ٩٨ .

المبحث الرابع : تعريفه لتوحيد العبادة

تعريف توحيد العبادة

يطلق توحيد العبادة ويراد بها ما إفراد ا لله بالعبادة ، كما يطلق عليه مسمى توحيد الألوهية لإنه مبنى على إخلاص التأله لله تعالى ، وتوحيد القصد ؛ لأنه مبنى على إخلاص القصد المستلزم لإخلاص العبادة لله وحده ، وتوحيد الإرادة ؛ لنه مبنى على إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ، وتوحيد العمل ؛ لأنه مبنى على إهلاص العلم لله وحده ، وتوحيد الطلب ؛ لذلك .(١)

ويتوقف تعريف توحيد العبادة على حسب ما قرره السلف على معرفة الأمور الآتية والتي قد جلاها شيخ الإسلام ـ رحمه ا لله تعالى ـ وهي :

١) معرفة معنى التوحيد

٢) معرفة معنى العبادة .

٣) المعنى المستخلص من معنى التوحيد والعبادة .

فأما الأول : وهو معنى التوحيد فقد سبق توضيح المعنى المراد منه وأنه مأخوذ من وحد يوحد توحيداً ؛ أي : إفراد ا لله جل جلاله بصفات الجمال والكمال وإفراده بالربوبية والألوهية على عباده أجمعين .(٢)

وأما الثاني : فقد سبق في تعريف العبادة بأنها اسم جامع لكل ما يحبه ا لله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة .

وهذا يشمل جميع أنواع العبادة من الخوف والرجاء والمحبة والتوكل والاستعانة والاستغاثة ، والإذعان والخضوع والخشوع والصلاة والصيام والجهاد ونحو ذلك مما سبق بيانه في المبحث الرابع .(٣)

وبناء على هذا فيمكن أن يعرف توحيد العبادة من خلال ما تقدم بأنه : إفراد ا لله جل وعلا وتوحيده بجميع أنواع العبادة من المحبة والخوف والرجاء والرغبة والرهبة وغير ذلك

---

(١) انظر تيسير العزيز الحميد ص ٣٨ .

(٢) انظر الفصل الول من الباب الثاني .

(٣) انظر المبحث الرابع من هذا الباب .

و لم أقف على تعريف لشيخ الاسلام ينص على ذلك إلا أن عباراته الكثيرة تدل على ما ذكر فمن ذلك قوله رحمه الله :

(.. حقيقة التوحيد أن نعبد الله وحده ، فلا يدعى إلا هو ، ولا يخشى إلا هو ، ولا يتقى إلا هو ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يكون الدين إلا له ، لا لأحد من الخلق ، وأن لا نتخذ الملائكة والنبينن أرباباً ، فكيف بالأئمة والشيوخ والعلماء والملوك وغيرهم ؟ .

والرسول ﷺ هو المبلغ عن الله أمره ونهيه ، فلا يطاع مخلوق طاعة مطلقة إلا هو ...) [١]

ونلاحظ من خلال كلامه – رحمه الله – أن توحيد العبادة هو إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ، وذلك بصرف جميع أنواع العبادة له كما تقدم ، ومن أنواع العبادة الطاعة المطلقه التي تعد من أنواع العبادة فلا يجوز صرفها إلا لله جلا وعلا وفق شرع نبيه ﷺ فعلاً للأمر واجتناباً للنهي .

(وهذا هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وهو أصل الإسلام فمن طلب بعباداته الرياء والسمعة لم يحقق شهادة أن لا إله إلا الله ، ومن خرج ، ومن خرج عما أمر به الرسول من الشريعة وتعبد بالبدعة فلم يحقق شهادة أن محمداً رسول الله .) [٢]

كما أنه ـ رحمه الله تعالى ـ وضح أن هذا هو التوحيد الذي أمر الله به عباده وقضى به وحكم . قال رحمه الله : (ولا ريب أن الله ألزم الخلق التوحيد وأمرهم به وقضى به وحكم فقال : ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه ﴾[٣]وقال : ﴿ أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[٤] وقال : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾[٥] الآية : وقال تعالى : ﴿ وقال الله لا تتخذوا إلهين

(١) منهاج السنة النبوية ٣/٤٩٠ . وانظر الفتاوى ١/١٩٥ .

(٢) الفتاوى ١١/٦١٧-٦١٨ .

(٣) سورة الإسراء ٢٣ .

(٤) سورة النحل ٢ .

(٥) سورة النحل ٣٦ .

اثنين إنما هو إله واحد فإياي فارهبون ﴾ وقال : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾[1] ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ﴾ .[2]

وهذا كثير في القرآن يوجب على العباد عبادته وتوحيده ، ويحرم عليهم عبادة ما سواه ، فقد حكم وقضى أنه لا إله إلا هو .)[3]

ومن هنا يتضح أن مدار التوحيد على إخلاص العبودية لله جل شأنه وعدم صرفها لأحد سواه ؛ لأنه لايستحق العبادة أحد غيره كما شهد سبحانه بذلك وقدر وقضى وحكم .

قال تعالى : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولي العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ [4]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في معنى ذلك : (.. إذا شهد أنه لا إله إلا هو فقد أخبر وبين وأعلم أن ما سواه ليس بإله فلا يعبد ، وأنه وحده الإله الذي يستحق العبادة ، وهذا يتضمن الأمر بعبادته والنهي عن عبادة ما سواه ، فإن النفي والإثبات في مثل هذا يتضمن الأمر والنهي ، كما إذا استفتى شخص شخصاً فقال له قائل : هذا ليس بمفت ، هذا هو المفتي ، ففيه نهي عن استفتاء الأول ، وأمر وإرشاد إلى استفتاء الثاني .. والعابدون إنما مقصودهم أن يعبدوا من هو إله يستحق العبادة ، فإذا قيل لهم كل ما سوى الله ليس بإله إنما الإله هو الله وحده كان هذا نهياً لهم عن عبادة ما سواه ، وأمراً بعبادته ...

وإذا شهد الله أنه لا إله إلا هو فقد حكم وقضى بأن لايعبد إلا إياه ...

وشهادة الرب وبيانه وإعلامه يكون بقوله تارة وبفعله تارة ...)[5] .

---

(١) سورة النحل ٥١ .

(٢) البينة ٥ .

(٣) الفتاوى ١٧١/١٤ . وانظر ٦١٦/١١

(٤) سورة ال عمران ١٨ .

(٥) المصدر السابق /١٧١-١٧٤ .

ومن هنا يمكن القول بأن توحيد العبادة هو : إفراد العبادة لله وحده لاشريك له وفق ما شرعه وارتضاه [١] . فيكون مبنياً على ركنين الإخلاص والطاعة المطلقة لله ولرسول والتي يعبر عنها أهل العلم بالمتابعة ، (.. فكلما كان العبد أعظم اتباعاً لكتاب الله الذي أنزله ولنبيه الذي أرسله كان أعظم فرقاناً ، ومن كان أبعد في اتباع الرسول ﷺ في أنواع العبادات فهو أبعد عن التوحيد ، وابعد عن الفرقان .) [٢]

وإلى هذا أشار ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله : (وهذا التوحيد هو : عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن لا نعبده إلا بما أحبه وما رضيه ، وهو ما أمر به وشرعه على ألسن رسله ـ صلوات الله عليهم ـ فهو متضمن لطاعته وطاعة رسوله ، وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه ، وأن يكون الله ورسوله أحب إلى العبد من كل ما سواهما .

وهو يتضمن : أن يحب الله حباً لا يماثله ولا يساويه فيه غيره ، بلي يقتضي أن يكون رسوله ﷺ أحب إليه من نفسه ...

فهذا التوحيد ـ توحيد الإلهية ـ يتضمن فعل المأمور وترك المحظور .) [٣]

(فمتى لم يؤمن الخلق بأنه لا إله إلا الله) بمعنى أنه المعبود المستحق للعبادة دون ما سواه ، وأنه يحب أن يعبد وأنه أمر أن يعبد ، وأنه لا يعبد إلا بما أحبه مما شرع ، من واجب ومستحب فلا بد أن يعقو في الشرك وغيره .) [٤]

وهذه أهم المفاهيم التي اتضحت من خلال فهم كلام شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ لتوحيد العبادة ، ولا شك أنه مفهوم متكامل موافق لما جاء به القرآن الكريم والسنة النبوية .

---

(١) انظر الفتاوى ١/٤-٥ . وقد تقدم تفصيل ذلك في شرطي العبادة .

(٢) الفتاوى ٦/١٣ .

(٣) الفتاوى ٣٧٨/١٤-٣٧٩ . وقد تقدم بيان ذلك بالتفصيل في مبحث شرطي العبادة .

(٤) الفتاوى ٣٦٣/١٤ .

المحبث الخامس : بيانه لأهميـة توحيد العبـادة

بيانه لأهمية توحيد العبادة

لقد اهتم شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - ببيان هذا النوع من التوحيد اهتماماً بالغاً - كما هو حال السلف قبله - وذلك ؛ لأنه في الجملة يعود إلى أن هذا هو منهج الرسل عليهم الصلاة والتسليم ، فما من نبي وإلا وقد دعى قومه إلى عبادة الله وحده ، وإن من أهم ما ذكر - رحمه الله من الأمور التي تبين أهمية هذا النوع من التوحيد - عدة أمور أهمها ما يلي :

أولا : هو الغاية من خلق الإنس والجن

إن الله سبحانه وتعالى إنما خلق الخلق وأوجدهم لعبادته وحده لا شريك له ، وأمرهم بأن يقيموا الدين لله مخلصين له ، فلا دين إلا دين الله ولا شرع إلا ما شرعه الله ، وبذلك أمرهم ومن أجل ذلك خلقهم قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾[١] فأمرهم بالتوحيد وأرشدهم إليه وحرم عليهم الشرك وحذرهم منه .[٢]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : (والذي عليه جمهور المسلمين أن الله خلقهم لعبادته وهو فعل ما أمروا به ، ولهذا يوجد المسلمون قديماً وحديثاً يحتجون بهذه الآية على هذاالمعنى حتى في وعظهم وتذكيرهم .. وهذا هو المأثورة عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ؛ وغيره من السلف ، فذكروا عن علي أنه قال : إلا لآمرهم أن يعبدون ، وأدعوهم إلى عبادتي .

قالوا : ويؤيده قوله تعالى: ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين ﴾ [٣] وقوله : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ﴾ [٤] ...

---

(١) سورة الذاريات ٥٦ .

(٢) انظر الفتاوى ٨/٥٥ .

(٣) سورة البينة آية ٥ .

(٤) سورة التوبة آية ٣١ .

ويدل على مثل هذا قوله تعالى : ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ [١] يعني لا يؤمر ولا ينهى ، وقوله : ﴿ قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم ﴾ [٢] أي لولا عبادتكم ، وقوله : ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ﴾ [٣] وقوله : ﴿ يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي ، وينذرونكم لقياء يومكم هذا ﴾ [٤] وقوله : ﴿ ألم أعهد إليكم يابني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ، وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ﴾[٥]...

وقد قال في القرآن في غير موضع : ﴿ اعبدوا ربكم ﴾ [٦] ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم ﴾ [٧] فقد أمرهم بما خلقهم له وأرسل الرسل إلى الإنس والجن ، ومحمد أرسل إلى الثقلين ، وقرأ القرآن على الجن ، وقد روي أنه لما قرأ عليهم سورة الرحمن ، وجعل يقرأ : ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ [٨] يقولون : ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد ، فهذا هو المعنى الذي قصد بالآية قطعاً ، وهو الذي تفهمه جماهير المسلمين ، ويحتجون بالآية عليه ، ويعترفون بأن الله خلقهم ليعبدوه ، لا ليضيعوا حقه ، وفي الصحيحين عن معاذ بن جبل ﷺ أن النبي ﷺ قال له : ((يا معاذ أتدري ما حق الله على عباده ؟ قال : الله ورسوله أعلم . قال : فإن حق الله على عبده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن حقهم عليه أن لا يعذبهم))[٩] وفي المسند عن ابن عمر ﷺ عن النبي ﷺ قال : ((بعثت بالسيف بين يدي الساعة

(١) سورة القيامة آية ٣٦ .
(٢) سورة الفرقان آية ٧٧ .
(٣) سورة النساء آية ١٤٧ .
(٤) سورة الأنعام آية ١٣٠ .
(٥) سورة يس آية ٦٠ .
(٦) سورة البقرة آية ٢١ .
(٧) سورة النساء آية ١ .
(٨) سورة الرحمن آية ١٣ .
(٩) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري ، ومن تشبه بقوم فهم منهم))[١]...)[٢]

(وهذا هو أصل ما أمرهم الله به على ألسن الرسل كما قال نوح ، وهود ، وصالح ، وإبراهيم ، وشعيب : ﴿اعبدوا الله مالكم من إله غيره﴾[٣] . وقال : ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن المقربين ﴾[٤] إلى قوله : ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ماتعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾[٥] وقال لموسى : ﴿ إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني ﴾ [٦]وقال المسيح : ﴿ ما قلت لهم إلا ما أمرتني به : أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾[٧]

فتبين بهذا أن (المقصود بخلق الخلق الذي تبعه إنزال الكتب وإرسال الرسل هو أن يكون الدين لله وحده ، وهو دعوة الخلائق إلى خالقهم ، قال تعالى : ﴿ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ [٨] وقال سبحانه : ﴿ قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ﴾ [٩] وقال تعالى : ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ، ألا إلى الله تصير

---

(١) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث

(٢) الفتاوى ٨/٥١-٥٣ . وانظر الفتاوى ٢/٤٦٤ ، ٨/٢١٩-٢٢١ ، ١٤/٣٢٦،١٧٦ . وانظر درء التعارض ٨/٤٧٧وما بعدها .

(٣) سورة الأعراف آية ٥٩ .

(٤) سورة البقرة آية ١٣٥ .

(٥) سورة البقرة آية ١٣٣ .

(٦) سورة طه آية ١٤ .

(٧) الفتاوى ٢٠/١١٦ . وانظر ٢٣٠-٢٣١، ٣١٨ /١٨ ، ١٤/٣٢٦ ، ١٥/١٦٣، ٨/٢١٩-٢٢١ .

(٨) سورة الفتح آية ٨ ، سورة الأحزاب آية ٤٥ .

(٩) سورة يوسف آية ١٠٨ .

الأمور﴾ [١] ...) [٢] فهذا هو توحيد العبادة الذي أنزل الله به الكتب وبعث به الرسل ، وهوالغاية من خلق الخلق وإيجادهم ، وهو الأمر الذي أمروا به ونهو عن مخالفته .

ثانياً : أن الله هو المستحق للعبادة لذاته .

بين شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ أن الله ـ سبحانه ـ هو المستحق لهذه العبادة لذاته ، المستحق للمحبة التامة لذاته ، وليس شيء يستحق أن يعبد أو أن يحب إلا هو ، وكل محبه لغيره فهي فاسدة ، وهذا من معاني الإله الذي هو المألوه الذي يستحق أن يؤله فيعبد .

قال ـ رحمه الله ـ : (وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها ، وعلماؤها على أن الله يحب لذاته ، لم ينازع في ذلك إلا طائفة من أهل الكلام والرأي الذين سلكوا مسلك الجهمية في بعض أمورهم فقالوا : إنه لا يُحبُّ ولا يُحَبُّ .)[٣]

وما يحصل للعبد من اللذة والسرور بمناجاته وإخلاص العبادة والتأله له والوجل عند ذكره والفرح بلقاءه والتنعم بالنظر إليه هو مطلوب المحب المريد بعبادته ذاته سبحانه .)[٤]

والعبادة تجمع غاية الذل ، وغاية الحب ، وهذا لا يستحقه إلا هو سبحانه .. وهو جل وعلا رب كل شيء فلا يكون شيء إلا به ، وهو الإله الذي لا إله إلا هو ، لا يجوز أن نعبد إلا إياه، فما لا يكون به لا يكون ، ومالا يكون له لا ينفع ولا يدوم وكل عمل لم يرد به وجهه فهو باطل ، ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ [٥][٦]

---

(١) سورة الشورى آية ٥٢ و ٥٣ .

(٢) الفتاوى ٤٦٤/٢ .

(٣) درء التعارض ٦٢/٦ .

(٤) درء التعارض ٦٣/٦ .

(٥) سورة فاطر آية ١٠ .

(٦) انظر الفتاوى ٣١/١٤ .

ومن هنا يمكن القول بأن (عبادة الحق تعالى لذاته أصل عظيم وهو أصل الملة الحنيفية ، وأساس دعوة الأنبياء ..)[١]

ثالثاً : افتقار المخلوقات إلى الله وغناه عن كل أحد :

مما يبين حاجة الناس إلى هذا النوع من التوحيد وأهميته ما أكدَّه شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : من فقر العباد وحاجتهم إليه وغناه المطلق عن كل أحد من كل وجه ، وافتقارهم إليه في دينهم ودنياهم ؛ حيث أن الله (هو الذي جعل المسلم مسلماً والمصلي مصلياً والتائب تائباً والحامد حامداً فإذا يسر عبده لليسري فتاب إليه فرح الله بتوبته ، وشكره فرضي بشكره وعمل صالحاً فأحبه ، لم يكن المخلوق هو الذي جعل الخالق راضياً محباً فرحاً بتوبته ، بل الرب هو الذي جعل المخلوق فاعلاً لما يفرحه ويرضيه ويحبه ، وكل ذلك حاصل بمشيئته وقدرته لا شريك له في إحداث شيء من المحدثات ، ولا هو مفتقر إلى غيره بوجه من الوجوه ، بل هو الغني عن كل ما سواه من كل وجه ، وكل ما سواه فقير إليه من كل وجه)[٢] قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد ﴾[٣] وذكر سبحانه في غير ما آية أنه غني عن عباد عن كل أحد وما سوه فقير محتاج إليه ، وأنه إنما أرسل الرسل رحمة بعباده ولطفاً بهم ، قال سبحانه : ﴿ إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر ...﴾[٤] وقال : ﴿..إن الله غني عن العالمين ﴾[٥] .

وهذا كله يوجب أن يوحد وأن يعبد فلا يرجى إلا إياه ، ولا يتوكل إلا عليه ولا يسأل إلا إياه ؛ لأنه هو القيوم الذي يقيم العبد في كل الأوقات والأحوال كما

---

(١) منهاج السنة النبوية ٧٧/٦ .

(٢) الفتاوى ٣٧٩/٨ . وانظر الفتاوى ١٦٤/١٥، ٢٩/١٤، ٣١ ، ٣٧ - ٤٠ ، ٢٩٠ . ٥٥/١ ، ٤٢ . ١٩٢/١٧ . ومنهاج السنة النبوية ٤١٤/٥ وما بعدها .

(٣) سورة فاطر ١٥ .

(٤) سورة الزمر ٧ .

(٥) سور ال عمران ٩٧ .

قال : ﴿ وتوكل على الحي الذي لا يموت ﴾[١] وقال : ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ فهذا وغيره يوجب أن العبد لا يرجوا إلا الله ولا يتوكل إلا عليه [٢].

ومما يوضح ذلك ويبينه أن كل إنسان (يطلب حصول الخير ودفع الشر ، ولا يأتي بالحسنات إلا الله ، ولا يذهب السيئات إلا الله ﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله ﴾[٣] ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعد ﴾[٤] ورجاء حصول المنفعة مقرون بالتوكل فإن المتوكل يطلب ما رجاه من حصول المنفعة ودفع المضرة ، والتوكل لا يجوز إلا على الله كما قال تعالى : ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾[٥] وقال : ﴿وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾[٦] وقال تعالى : ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾[٧] وقال تعالى : ﴿ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون ﴾[٨] وقال ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾[٩]

فهؤلاء قالوا : حسبنا الله أي : كافينا الله في دفع البلاء ، وأولئك أمروا أن يقولوا : حسبنا في جلب النعماء فهو سبحانه كاف عبده في إزالة الشر وفي إنالة الخير ، أليس الله بكاف عبده . ومن توكل على غير الله ورجاه خذل من جهته

(١) سورة الفرقان آية ٥٨ .
(٢) انظر الفتاوى ١٧٣/٨ - ١٧٤ . ٥١/١ .
(٣) سورة الأنعام ١٧ .
(٤) سورة فاطر ٢ .
(٥) سورة المائدة ٢٣ .
(٦) سورة الأنعام ١٢٢ وغيرها كثير .
(٧) سورة ال عمران ١٦٠ .
(٨) سورة التوبة ٥٩ .
(٩) سورة ال عمران ١٧٣ .

وحرم .. قال تعالى : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ﴾(١) ...

فمن عمل لغير الله رجاء أن ينتفع بما عمل له كانت صفقته خاسرة .) (٢)

ومما يوضح هذا أن كل خير ونعمة تنال العبد فإنما هي من الله ، وكل شر ومصيبة تندفع عنه أو تكشف عنه فإنما يمنعها الله ، وإنما يكشفها الله ، وإذا جرى ما جرى من أسبابها على يد خلقه فإن الله هو المسبب وخالق الأسباب ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن لا حول ولا قوة إلا به ، فالرجاء يجب أن يكون كله له والتوكل عليه والدعاء له وجميع أنواع العبادة يجب أن تكون خالصة لوجهه الكريم ، فلا يرجى إلا الله ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يسأل إلا هو ، ولا يستعان إلا به ، ولا يستغاث إلا هو ، فله الحمد وإليه المشتكى ، وهو المستعان ، وهو المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا به ، ومن عرف هذه المعاني حق المعرفة انفتح له باب توحيد الله وعلم شدة فقر العباد إلى الله سبحانه وتعالى وحاجتهم إلى تحقيق توحيده والاخلاص له .(٣)

رابعاً : أن هذا التوحيد هو أول الدين وآخره وظاهره وباطنه :

ومما يبين أهمية هذا النوع من التوحيد أنه (هو أول الدين وآخره وظاهره وباطنه ، وأول ما دعا إليه الرسول (حيث قال : ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله)) وقال لمعاذ : ((إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله)) (٤) وختم الأمر بالتوحيد فقال في الصحيح من رواية مسلم عن عثمان : ((من مات وهو يعلم

---

(١) سورة مريم ٨١ .

(٢) الفتاوى ٨/١٦٤-١٦٨ .

(٣) انظر المصدر السابق ، وقد تكلم عن الأسباب والمسببات وبين أن الأسباب والمسببات لايمكن أن تنفع أو تضر إلا بمشيئته وإرادته لا فرق بين الأسباب العلوية من الملائكة والمقربين ، أو الأسباب السفلية من الأنبياء والصالحين وغيرهم ، وينتج من هذا وجوب توحيد الله جل وعلا بالعبادة وإخلاصها له وحده . وانظر ١٨/٣٢٣.

(٤) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث

أن لا إله إلا الله دخل الجنة))[١] وفي السنن من حديث معاذ : ((من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة)) [٢] وفي المسند : (إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد حين الموت إلا وجد رُوْحَه لها رَوْحَاً))[٣] وهي الكلمة التي عرضها على عمه عند الموت .) [٤]

فتبين بهذا أن هذا التوحيد هو أول شيء يطلب من العبد حتى يعد من الموحدين ، وأول شيء ينظر إليه يوم القيامه ، فإن كان العبد معه هذا التوحيد نجا من العذاب ولو بعد حين ، أما من لم يأت بهذا النوع من التوحيد ، فإن دمه هدر في الدنيا وماله فيء للموحدين ، وأما في الآخرة فإنه من الأخسرين المخلدين في العذاب المقيم ، ولو كان معه من العمل مامعه .

خامساً : أن الله أمر به جميع خلقه

دل على أهمية توحيد العبادة أن الله أمر به جميع خلقه . قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : (و قوله تعالى : ﴿ قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين ﴾[٥] فأمر مع القسط بالتوحيد الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له ، وهذا أصل الدين ، وضده هو الذنب الذي لا يغفر قال تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾[٦] .

وهو الدين الذي أمر الله به جميع الرسل ، وأرسلهم به إلى جميع الأمم ، قال الله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا

---

(١)تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث

(٢) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث

(٣) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث

(٤) الفتاوى ٣٤/٨ .

(٥) سورة الأعراف ٢٩ .

(٦) سورة النساء ١٨ ، ١١٦ .

فاعبدون﴾(١) وقال تعالى : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ (٤) وقال تعالى : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم ، وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾ (٥)

ولهذا ترجم البخاري في صحيحه " باب ما جاء في أن دين الأنبياء واحد" وذكر الحديث الصحيح في ذلك ، وهو الإسلام العام الذي اتفق عليه جميع النبيين . قال نوح عليه السلام : ﴿ وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ (٦) وقال تعالى في قصة إبراهيم : ﴿إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ، ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ (٧) وقال موسى : ﴿يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ (٨) وقال تعالى ﴿ قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ﴾ وقال في قصة بلقيس : ﴿ رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ (٩) وقال: ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين

---

(١) سورة الأنبياء آية ٢٥ .

(٢) سورة الزخرف آية ٤٥ .

(٣) سورة النحل آية ٣٦ .

(٤) سورة الشورى آية ١٣ .

(٥) سورة المؤمنون آية ٥١ ، ٥٢ .

(٦) سورة يونس آية ٧٢ ، سورة النمل آية ٩١ .

(٧) سورة البقرة آية ١٣١ ، ١٣٢ .

(٨) سورة يونس آية ٨٤ .

(٩) سورة النمل آية ٤٤ .

هادوا ﴾ وهذا التوحيد الذي هو أصل الدين هو أعظم العدل وضده الشرك أعظم الظلم) أهـ(١)

وهذا هو دين الإسلام دين الأنبياء هو الملة التي أمر الله باتبعاعها ونهى عن مخالفتها في قوله : ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ﴾(٢) مع كون إبراهيم الخليل - عليه السلام - إماماً للناس كافة قال تعالى : ﴿إني جاعلك للناس إماماً ﴾ (٣) وقد وصى إبراهيم - عليه السلام - بنيه ويعقوب وصى به أيضاً بنيه حينما قال لهم ﴿ ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾(٤) .

وقد أمر سبحانه باتباع ملة إبراهيم - عليه السلام - ونهى عن التهود والتنصر ، بقوله : ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ (٥) فأمر بالإيمان الجامع ؛ كما أنزل على النبيين وما أوتوه والإسلام له ، وأن نصبغ بصبغة الله ، وأن نكون له عابدين ، ورد على من زعم أن إبراهيم وبنيه وإسرائيل وبنيه كانوا هوداً أو نصارى.

وقال سبحانه بعد أن قص أمر المسيح ويحيى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ (٦) وهي التي كتبها النبي (إلى هرقل عظيم الروم لما دعاهم إلى الإسلام .. وقال تعالى : ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً ، وما كان من المشركين ، إن أولى الناس بإبراهيم

---

(١) الفتاوى ١٥٩/١٨ - ١٦٠ .وانظر الفتاوى ١٠٦/١٩ وما بعدها . ١٧٠/١ ، ٢٥١/١١ .
(٢) سورة البقرة آية ١٣٠ .
(٣) سورة البقرة آية ١٢٤ .
(٤) سورة البقرة آية ١٣٣ .
(٥) سورة البقرة آية ١٣٥ .
(٦) سورة ال عمران آية ٦٤ .

للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا وا لله ولي المؤمنين ﴾ (١) إلى قوله : ﴿ وإذ أخذ ا لله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة﴾ (١) إلى قوله : ﴿ وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً ﴾ (١) فأنكر على من يبتغي غير دين ا لله ...

وذكر في سورة الأعراف وغيرها دعوة المرسلين جميعهم واتفاقهم على عبادة ا لله وحده لا شريك له قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا ا لله واجتنبوا الطاغوت ﴾ (٢)وقال في الأنبياء ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لاإله إلا أنا فاعبدون ﴾ (٣) وقال بعد أن قص قصصهم : ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾ (٤) وقال في آخرها : ﴿ قل إنما يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون ﴾ (٥) وقال في سورة المؤمنين : ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم ، وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ، فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ (٦)

وقال في سورة الحج التي ذكر فيها الملل الست ، وذكر ما جعل لهم من المناسك والمعابد ، وذكر ملة إبراهيم خصوصاً فقال : ﴿ وجاهدوا في ا لله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل ﴾ (٧)وقال : ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك ﴾ (٨) وقال : ﴿ لم يكن الذين كفروا

---

(١) سورة ال عمران الآيات من ٦٧ -٨٣ .

(٢) سورة النحل آية ٣٦ .

(٣) سورة الأنبياء آية ٢٥ .

(٤) سورة الأنبياء آية ٩٢ .

(٥) سورة الأنبياء آية ١٠٨ .

(٦) سورة المؤمنون الآيات ١٥١-٥٣ .

(٧) سورة الحج آية ٧٨ .

(٨) سورة الشورى آية ١٣ .

من أهل الكتاب ﴾ [١] إلى قوله : ﴿وذلك دين القيمة ﴾ [١] وهذا مذكور في القرآن في مواضع كثيرة .) [٢]

فتبينت أهمية هذا التوحيد من خلال كلامه - رحمه الله - والذي بين فيه أن الله جل وعلا قد أمر به جميع عبادة ، وحذر من ضده ، وتوعد من لم يخلص له فيه بالوعيد الشديد والخلود المديد في العذاب الأليم . كما أمر سبحانه به جميع رسله صلواة الله وسلامه عليهم أجميعن ، وأمرهم بأن يدعوا الناس إليه ، وجعل هذا هو الاسلام الذي لايقبل الله من أحد صرفاً ولا عدلاً مالم يخلص فيه له ، كما رغب فيه ، وجعله ملة لأبراهيم الخليل الذي جعله إماماً للناس وقدوة للمؤمنين ، وقد وصى به بنيه وأخذ عليهم الميثاق الا يشركوا به شيئاً .

سادساً : أن هذا التوحيد هو أصل الصلاح

هذا التوحيد هو أصل صلاح القلب ، وأصل صلاح الإنسان ، وأصل سعادته في الدارين ، ومن عدمه فقد فَقَدَ الصلاح والسعادة وفي هذا يقول شيخ الإسلام :

(أصل الصلاح التوحيد والإيمان ، وأصل الفساد الشرك والكفر ، كما قال عن المنافقين ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾ [٣] وذلك أن صلاح كل شيء أن يكون بحيث يحصل له وبه المقصود الذي يراد منه ، ولهذا يقول الفقهاء العقد الصحيح ما ترتب عليه أثره وحصل به مقصوده والفاسد مالم يترتب عليه أثره ولم يحصل به مقصود ، والصحيح المقابل للفاسد في اصطلاحهم هو الصالح ... والله تعالى إنما خلق الإنسان لعبادته ، وبدنه تبع لقلبه كما قال النبي (في الحديث الصحيح : ((ألا إن في

---

(١) سورة البينة الآيات من ١- نهاية السورة .

(٢) انظر الفتاوى ١٩/١٠٦-١١١ بتصرف . وانظر ٨/٥٥ وما بعدها . ١٤/١٧١ .

(٣) سورة البقرة آية ١١ .

الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ، ألا وهي القلب)) (١)

وصلاح القلب في أن يحصل له وبه المقصود الذي خلق له من معرفة ا لله ومحبته وتعظيمه ، وفساده في ضد ذلك ، فلا صلاح للقلوب بدون ذلك قط .

والقلب له قوتان : العلم والقصد ، كما أن للبدن الحس والحركة الإرادية، فكما أنه متى خرجت قوى الحس والحركة عن الحال الفطري الطبيعي فسدت ، فإذا خرج القلب عن الحال الفطرية التي يولد عليها كل مولود وهي أن يكون مقراً لربه مريداً له فيكون هو منتهى قصده وإرادته ، وتلك هي العبادة ، إذ العبادة كمال الحب بكمال الذل ، فمتى لم تكن حركة القلب ووجهه وإرادته لله تعالى كان فاسداً ، إما بأن يكون معرضاً عن ا لله وعن ذكره ، غافلاً عن ذلك مع تكذيب أو بدون تكذيب ، أو بأن يكون له ذكر وشعور ولكن قصده وإرادته غَيْرَهُ ، لكون الذكر ضعيفاً لم يجتذب القلب إلى إرادة ا لله ومحبته وعبادته ، وإلا فمتى قوي علم القلب وذكره أوجب قصده وعلمه ، قال تعالى : ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا و لم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ﴾ (٢) فأمر نبيه ﷺ بأن يعرض عمن كان معرضاً عن ذكر ا لله ، و لم يكن له مراد إلا ما يكون في الدنيا .

وهذه حال من فسد قلبه و لم يذكر ربه و لم ينب إليه فيريد وجهه ويخلص له الدين ، ثم قال : ﴿ ذلك مبلغهم من العلم ﴾ فأخبر أنهم لم يحصل لهم علم فوق ما يكون في الدنيا ، فهي أكبر همهم ومبلغ علمهم ، وأما المؤمن فأكبر همه هو ا لله ، وإليه انتهى علمه وذكره ...) (٣)

وعلى هذا فإن توحيد العبادة هو أصل صلاح الناس والإشراك هو أصل فسادهم ، فالتوحيد أصل العدل وأعظمه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب

---

(١) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٢) سورة النجم آية ٣٠ .

(٣) الفتاوى ١٨/١٦٣-١٦٥ ، والفتاوى الكبرى ١/٩٥-٩٦ . وانظر الفتاوى ١/٥٠ ، ٢/١٦ ، ١٠/٦٢٣-٦٣٤ ، ٦٢٩-٦٣٠ ، ١٧/٦٢ .

تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأننا مسلمون ﴾ [١] .

.. ولهذا كان العدل أمراً واجباً في كل شيء وعلى كل أحد والظلم محرماً في كل شيء ولكل أحد ...[٢] ومن تمام العدل أن لا يعبد غير الله ، وأن لا يدعى غيره ، وأن لا يُسأل غيره ، وأن لا يتوجه إلا إليه ، وألا ينيب العبد إلا إليه ، وألا يقصد غيره بعمل ، وهذا هو التوحيد الذي يتم به صلاح البشر وحصول الأمن .

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ : (كمال الإنسان وسعادته في أن يعبد الله وحده لا شريك له ، وهذه ملة إبراهيم الخليل التي قال الله فيها : ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ﴾[٣] وقال : ﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[٤]...)[٥]

والنفس إنما تطمئن بذكر الله وبمحبته وبالخوف منه وبرجائه وقوة التوكل عليه ، ولهذا إذ لم يكن القلب ممتلئاً بذلك تبقى نفسه طالبة لما تستريح وتطمئن به وتدفع به الغم والحزن عنها ، وليس عندها من ذكر الله وعبادته ما تستريح إليه وبه ، فيستريح إلى المحرمات من فعل الفواحش ، وشرب المحرمات ، وقول الزور ، وذكر مجريات النفس ، والهزل واللعب ، ومخالطة قرناء السوء وغير ذلك ، ولا يستغني القلب إلا بعبادة الله تعالى وتوحيده ؛ لأن (الإنسان خلق محتاجاً إلى جلب ما ينفعه ، ودفع ما يضره ، ونفسه مريدة دائماً ، ولا بد لها من مراد يكون غاية مطلوبها لتسكن إليه وتطمئن به ، وليس ذلك إلا لله وحده ، فلا تطمئن القلوب إلا به ، ولا تسكن النفوس إلا إليه ، و﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ [٦]

---

(١) سورة آل عمران آية ٦٤ .

(٢) انظر الفتاوى ١٨/١٦٥-١٦٦ .

(٣) سورة البقرة ١٣٠ .

(٤) سورة البقرة ١١٣ .

(٥) الصفدية ٢/٢٤٢ .

(٦) سورة الأنبياء آية ٢٢ .

فكل مألوه سواه يحصل به الفساد ولا يحصل صلاح القلوب إلا بعبادة الله وحده لاشريك له.

فإذا لم تكن القلوب مخلصة لله الذين عبدت غيره من الآلهة التي يعبدها أكثر الناس مما رضوه لأنفسهم ، فأشركت بالله بعبادة غيره ، واستعانته ، فتعبد غيره وتستعين به لجهلها بسعادتها التي تنالها بعبادة خالقها والاستعانة به ، فبالعبادة له تستغني عن معبود آخر ، وبالاستعانة به تستغني عن الاستعانة بالخلق ، وإذا لم يكن العبد كذلك : كان مذنباً محتاجاً ، وإنما غناه في طاعة ربه ، وهذا حال الإنسان ، فإنه فقير محتاج ، وهو مع ذلك مذنب خطاء فلا بد له من ربه فإنه الذي يسد مغافره، ولا بد له من الاستغفار من ذنوبه ، قال تعالى : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك ﴾ [1] فبالتوحيد يقوى العبد ويستغني ، ومن سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ، وبالاستغفار يغفر له ، ويدفع عنه عذابه ، ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ [2] فلا يزول فقر العبد وفاقته إلا بالتوحيد ، فإنه لابد له منه ، وإذا لم يحصل له لم يزل فقيرا محتاجاً معذباً في طلب ما لم يحصل له ، والله تعالى : ﴿ لا يغفر أن يشرك به ﴾ [3] وإذا حصل مع التوحيد الاستغفار حصل له غناه وسعادته ، وزال عنه ما يعذبه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .) [4] فبالتوحيد والاستغفار تكمل سعادة العبد ويتم صلاحه ، ويتحقق فلاحه .

---

(١) سورة محمد آية ١٩ .

(٢) سورة الأنفال آية ٣٣ .

(٣) سورة النساء آية ١١٦ .

(٤) الفتاوى ١/٥٥-٥٦ . وانظر ١٠/٣٣٣ ، ١٧/٦١ .

سابعاً : حاجة العباد إلى هذا التوحيد(١)

ومما يبين أهمية هذا النوع من التوحيد حاجة العباد إلى إفراده سبحانه وتعالى بالعبادة ، وحاجتهم إلى الذل له والتوكل عليه ، والإنابة إليه ، وطلب الحاجات ودفع المكروهات منه ، إذ هو الغني بنفسه عن غيره لا تنفعه طاعة المطيع ولا تضره معصية المعاصي ؛ وإنما دعاهم وأرشدهم إلى توحيده في العبادة لما يعود عليهم من رضاه ومحبته والفوز بجنته ؛ لأن ﴿ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم﴾(٢) ﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾(٣) وقال موسى : ﴿إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴾ (٤)

وفي الحديث الصحيح الإلهي : ((يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، ولو كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، ولو قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي شيئاً))(٥) الحديث ...(٦)

ولقد أكد شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ على أن حاجة العباد إلى عبادة ربهم وتوحيده والإخلاص له في القول والعمل من أشد الحاجات ، ومن أهم المهمات ، بل

---

(١) الفرق بين هذا وبين الثالث واضح بيِّن ؛ إذ أن المقصود هناك بيان فقر العباد وحاجتهم إلى الله في عموم حياتهم ، من جلب النعماء ودفع الضراء ، أما هنا فأقصد بيان أن العباد مفتقرين إلى توحيد العبادة افتقاراً بيناً ، أشد من افتقارهم إلى الله في جلب النعماء ودفع الضراء ، كما هو الحال في الأمر الثالث ، فيكون المقصود من هذا الوجه أخص من المقصود في الوجه الثالث .

(٢) سورة النمل آية ٤٠ .

(٣) سورة ابراهيم آية ٧ .

(٤) سورة ابراهيم آية ٨ .

(٥) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث ٢٧٧

(٦) الفتاوى ١/٣٧-٣٨ . بتصرف

إن حاجتهم إلى عبادته جل وعلا تفوق حاجتهم إلى الطعام والشراب . وذلك لأن العبد قد فطر على التذلل لله والرغبة إليه ، فإذا ما انصرف العبد إلى غيره ، أو شارك معه غيره فإنه لايستقيم له حال ولا يطمئن له بال ، ولا يقر له قرار ، كالذي يتخبطه الشيطان من المس ، ﴿كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا ﴾ (١) تتخطفه الشياطين والمعبودات التي يعبدها من دون ا لله ،كما ل قال جل شأنه ﴿ ومن يشرك با لله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴾ (٢) بل إن من أعرض عن ذكر ا لله فإن له معشية ضنكاً في الدنيا والآخرة(٣) ، ضائق الصدر دوماً كما قال جل شأنه ﴿ فمن يرد ا لله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل ا لله الرجس على الذين لايؤمنون ﴾(٤)

والعبد كلما كان أذل لله وأعظم افتقاراً إليه وخضوعاً له : كان أقرب إليه وأعز له ، وأعظم لقدره ، فأسعد الخلق أعظمهم عبودية لله .. فالرب أكرم ما تكون عليه أحوج ما تكون إليه ، وأفقر ما تكون إليه (٥).وقد تقدم بيان هذا في مبحث سابق (٦)

ثامناً : اليقين بأن الضر والنفع بيد الله

تتبين حاجة العباد إلى هذا التوحيد المبني على إخلاص العبادة لله ـ جل وعلا ـ في أن كل خير يجلب وكل شر يدفع فمن ا لله وحده ، لأن ا لله هو الذي بيده النفع والضر ، كما قال تعالى: ﴿إن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند ا لله وإن تصبهم سيئة

---

(١) سورة الأنعام آية ٧١ .

(٢) سورة الحج آية ٣١ .

(٣) كما سبق ذكره .

(٤) سورة الأنعام آية ١٢٥ .

(٥) الفتاوى ٣٨/١ - إلى نهاية الفصل

(٦) انظر المقدمة امتداد حاجة العباد إلى التوحيد ص ٤١

يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ (١) ولهذا يجب أن تخلص العبادة له وحده دون من سواه .

ثم إن الله قد حذر المؤمنين من الخوف من غيره بقوله : ﴿ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافوني إن كنتم مؤمنين ﴾ (٢) وخوف الله يوجب فعل ما أمر به وترك ما نهي عنه والاستغفار من ينغص التوحيد ويعكر صفاءه (الذنوب) وحينئذ يرتفع البلاء ويحصل النصر على الأعداء ، وهذا لا يحصل إلا لمن وقر الإيمان في قلبه فأصبح لا يخاف إلا الله ولا يرجوا إلا الله ، وقد عرف مدلول قوله تعالى :﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله ﴾ (٣) وعرف معنى قوله تعالى : ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده ﴾ (٤) فعرفوا أن الخير والنفع من الله ، وأن المخلوقين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً فضلاً عن غيرهم ، فزاد يقينهم وإيمانهم بالله فتحقق فيهم كمال التوكل عليه سبحانه .

وهذا الأمر مما يعتني بذكره وتقريره شيح الاسلام دائماً ، ومن ذلك قوله:

(إن الواجب على العبد أن يوحد الله في كل مطلوب ودفع مكروب فلا يرجى إلا الله ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يسأل إلا هو ، ولا يستعان إلا به ، ولا يستغاث إلا هو ، فله الحمد وإليه المشتكى ، وهو المستعان ، وهو المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا به ...

هذا مع أن ليس شيء من الأسباب مستقلاً بالنفع والضر بل لابد من انضمام أسباب أخر إليه ، ولا بد أيضاً من صرف الموانع والمعارضات عنه حتى يحصل المقصود ... والمخلوق الذي يعطيك أو ينصرك فهو - مع أن الله يخلق فيه الإرادة

---

(١) سورة النساء الآيات ٧٨-٧٩ .

(٢) سورة ال عمران آية ١٧٥ .

(٣) سورة يونس آية ١٠٧ .

(٤) سورة فاطر آية ٢ .

والقوة والفعل - فلا يتم مايفعله إلا بأسباب كثيرة خارجة عن قدرته تعاونه عى مطلوبه ، ولو كان مَلِكَاً مطاعاً ، ولا بد أن يصرف عن الأسباب المعاونة ما يعارضها ويمانعها . . . ومن عرف هذا حق المعرفة انفتح له باب توحيد الله ، علم أنه لا يستحق أن يدعى غيره فضلاً عن أن يعبد غيره ، ولا يتوكل على غيره ، ولا يرجى غيره ، وهذا مبرهن بالشرع والعقل ، ولا فرق في ذلك بين الأسباب العلوية والسفلية ، وأفعال الملائكة والأنبياء والمؤمنين وشفاعاتهم وغير ذلك من الأسباب ...)[1]

تاسعاً : ترتب قبول العمل على حصوله

ومما يبين أهمية هذا النوع من التوحيد أيضاً : أن الله لا يقبل عمل عامل إلا بعد أن يأت بالتوحيد الخالص لله على وجهه ، أما من لقي الله وقد أخل به بإتيانه بناقض من نواقضه فهذا ليس له عند الله خلاق ، قال تعالى : ﴿ إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ [2]

وقال أيضاً : ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق﴾[3] وقال في الحديث القدسي : (يابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم لقيتنى لاتشرك بي شيئاً لقيتك بمثلها مغفرة)) الحديث [4]

وقد بين ذلك شيخ الاسلام في أكثر من موضع فقال : (.. من أتي بالإيمان والتوحيد لم يخلد في النار ، ولو فعل ما فعل . ومن لم يأت بالإيمان والتوحيد كان مخلداً ، ولو كانت ذنوبه من جهة الأفعال قليلة كالزهاد والعباد من المشركين وغيرهم ؛ فإنهم لا يقتلون ، ولا يزنون ، ولا يظلمون الناس ؛ لكن نفس الإيمان والتوحيد الواجب تركوه .) [5]

---

(١) الفتاوى ٨/١٦٦- ١٦٧ ، وانظر الفتاوى ١٨/٣٢٣ .

(٢) سورة النساء آية ١١٦ .

(٣) سورة الحج آية ٣١ .

(٤) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث.

(٥) الفتاوى ١١/٦٧١ .

ومن أخل بالتوحيد فإنه لانجاة له من عذاب الله سبحانه (قال سبحانه : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ (١) ذكر ذلك في موضعين من كتابه .

وقد بين في كتابه الشرك بالملائكة والشرك بالأنبياء والشرك بالكواكب ، والشرك بالأصنام وغيره مما يمنع من دخول الجنة ، ويوجب دخول النار والخلود فيها . (٢)

فهذا التوحيد (.. هو أصل الدين ورأسه الذي لايقبل الله عملاً إلا به ، ويغفر لصاحبه ولا يغفر لمن تركه ...

ولهذا كانت كلمة التوحيد أفضل الكلام وأعظمه ، فأعظم آية في القرآن آية الكرسي : ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ...﴾ (٣)

وقال ﷺ : ((من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة)) (٤) ...) (٥)

فرتب دخول الجنة على إخلاص التوحيد لله — عز وجل — ومفهوم هذا الحديث أن من لم يخلص فإن الجنة محرمة عليه .

فاتضح من هذا أهمية توحيد العبادة ، من حيث قبول العمل وعدمه ، فإن من لم يأت به لا يدخل الجنة ولو عمل ما عمل من القربات ، وأن من أتى به فإنه داخل الجنة لا محالة ولو بعد عذاب يطهره الله به من الذنوب . فمدار قبول العمل ورده على تحقيق هذا التوحيد .

ومما تقدم يتضح مدى أهمية تحقيق توحيد العبادة بالنسبة للمسلم في دينه ودنياه وآخرته ، وجميع تعامله مع ربه ، فإن عليه مدار كل أمر يحبه الله ويرضاه .



---

(١) سورة النساء آية ٤٨ .

(٢) انظر الفتاوى ٣/٩٥ .

(٣) سورة البقرة آية ٢٥٥ .

(٤) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث

(٥) الفتاوى ٣/٤٠٠ .

المبحث السادس : بيانه لكملة التوحيد تضمنها

كلمة التوحيد

الشهادتان هما أصل الدين وجماعه ، فإن جميع الدين داخل في الشهادتين ، إذ مضمونهما أن لا نعبد إلا الله ، وأن نتبع ونطيع رسول الله ، فالدين كله داخل في عبادة الله بطاعته الله وطاعة رسوله، وكل مايجب أو يستحب داخل في طاعة الله ورسوله .(١)

فمن قالها معتقداً (أن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه ، وأنه هو الله لا إله إلا هو ، نافياً عن قلبه ألوهية ماسوى الحق ، مثبتاً في قلبه ألوهية الحق ، فيكون نافياً لألوهية كل شيء من المخلوقات مثبتاً لألوهية رب العالمين ، رب الأرض والسماوات ، وذلك يتضمن اجتماع القلب على الله ، وعلى مفارقة ما سواه ، فيكون مفرقاً في علمه وقصده ، في شهادته وإرادته ، في معرفته ومحبته بين الخالق والمخلوق ، بحيث يكون عالماً با لله تعالى ذاكراً له عارفاً به ، وهو مع ذلك عالم بمباينته لخلقه وانفراده عنهم وتوحده دونهم ، فيكون محباً لله معظماً له عابداً له راجياً له ، خائفاً منه موالياً فيه معادياً فيه مستعيناً به متوكلاً عليه ، ممتنعاً عن عبادة غيره ، والتوكل عليه والاستعانه به والخوف منه والرجاء له والموالاة فيه والمعاداة فيه والطاعة لأمره وامتثال ذلك مما هو من خصائص إلهية الله سبحانه وتعالى .)(٢)

فمن قال هذه الكلمة عارفاً لمعناها ، عاملاً بمقتضاها فهو من أهلها ومن لا فلا . ومعناها أنه لامعبود بحق إلا الله وحده دون من سواه ، فمن قالها فكأنه يقول أقر وأعترف بأنه لامعبود يستحق العبادة إلا الله الواحد الأحد (٣)

(وهذا الكلمة هي الفارق بين أهل الجنة وأهل النار ، والسعداء والأشقياء كما قال النبي ﷺ : ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لاإله إلا الله ، وأني رسول الله ، فإذا قالوها عصموا مني دمائهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله))(٤) وفضائل هذه الكلمة وحقائقها ، وموقعها من الدين فوق مايصفه الواصفون ، ويعرفه

---

(١) انظر الفتاوى ١٠/٢٦٣ .

(٢) الفتاوى ١٠/٢٥٥ .

(٣) انظر الفتاوى ١٤/١٧٠، ١٧٣

(٤) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

العارفون ، وهي حقيقة الأمر كله كما قال تعالى : ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لاإله إلا أنا فاعبدون﴾ [١] فاخبر سبحانه أنه يوحي إلى كل رسول بنفي الألوهية عما سواه وإثباتها له وحده .)[٢]

(كما أنها أفضل الذكر لما روى الترمذي وابن أبي الدنيا مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قال : ((أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله))[٣] وفي الموطأ وغيره عن طلحة بن عبد الله بن كثير أن النبي ﷺ قال : ((أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير))[٤]...)[٥]

فهي أفضل الذكر وأفضل ما قاله النبيون وكافة المؤمنون ، فمن زعم أن هذا ذكر العامة وأن ذكر الخاصة هو الاسم المفرد ، وذكر خاصة الخاصة هو الاسم المضمر ، فهم ضالون غالطون ...[٦]

فالاسم المفرد مظهراً أو مضمراً ليس بكلام تام ، ولا جملة مفيدة ، ولا يتعلق به إيمان ولا كفر ولا أمر ولا نهي ، ولم يذكر ذلك أحد من سلف الأمة ، ولا شرع ذلك رسول الله ﷺ ولا يعطي القلب بنفسه معرفة مفيدة ولا حالاً نافعاً ، وإنما يعطيه تصوراً مطلقاً لايحكم عليه بنفي ولا إثبات ، فإن لم يقترن به من معرفة القلب وحاله مايفيد بنفسه وإلا لم يكن فيه فائدة ، والشريعة إنما تشرع من الأذكار ما يفيد بنفسه لا ما تكون الفائدة حاصلة بغيره .

وقد وقع بعض من واظب على هذا الذكر في فنون من الإلحاد وأنواع من الاتحاد [٧]...)[٨]

---

(١) سورة الأنبياء ٢٥ .

(٢) الفتاوى ٢/٢٥٦، وانظر ٣/٤٠٠ .

(٣) تقدم تخريجه انظر ص ٣٠٠ .

(٤) تقدم تخريجه انظر ص ٢٣٤ .

(٥) الفتاوى ١٠/٢٢٦ .

(٦) كغلاة الصوفية ونحوهم .

(٧) كابن عربي والفارض وغيرهما من كبار المتصوفة .

(٨) الفتاوى ١٠/٢٢٦-٢٢٧ .

شروطها :

ولهذه الكلمة شروط وضوابط لاتتحقق إلا بتحققها عدها العلماء سبعة هي : العلم واليقين والقبول والانقياد ، والصدق والإخلاص والمحبة ، وقد نظمها بعضهم بقوله :

وبشروط سبعة قد قيدت ... وفي نصوص الوحي حقاً وردت

فإنه لم ينتفع قائلها ... بالنطق إلا حين يستكملها

العلم واليقين والقبول ... والانقياد فادر ما أقول

والصدق والاخلاص والمحبة ... وفقك الله لما أحبه[١]

فمن لم يستكملها اعتقاداً وعملاً وإلا فإنه لن ينتفع بها ولو قالها سبعين مرة ، فكم من قائل لها ناطق بها وهو عنها معرض باعتقاده وعمله ، (والناس وإن كانوا يقولون بألسنتهم لاإله إلا الله ، فقول العبد لها مخلصاً من قلبه له حقيقة أخرى وبحسب تحقيق التوحيد تكمل طاعة الله . قال الله تعالى : ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً ، أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾ [٢] فمن جعل ما يألهه هو مايهواه فقد اتخذ إلهه هواه ، أي جعل معبوده هو ما يهواه وهذا حال المشركين)[٣]

وقد أشار شيخ الاسلام ـ رحمه الله ـ إلى هذه الشروط في مواضع عديدة من كتبه ، ومن ذلك قوله - رحمه الله تعالى - : (والفطرة تستلزم معرفة الله ومحبته وتخصصه بأنه أحب الأشياء إلى العبد ، وهذا معنى قول "لاإله إلا الله" كما جاء مفسراً : ((كل مولود يولد على هذه الملة)) [٤] وروي : ((على ملة الإسلام))[٥] وفي صحيح مسلم : ((إني خلقت عبادي حنفاء ، فاجتالتهم الشياطين ، وحرمت عليهم ما

---

(١) معارج القبول ٣٧٧/١.

(٢) سورة الفرقان ٤٣-٤٤ .

(٣) الفتاوى ٢٦٤/١٠.

(٤) رواه الترمذي في القدر (ح٢١٣٨) وأحمد ، وقد رواه البخاري في الجنائز (ح١٣٥٨) ومسلم في القدر (ح٢٦٥٨) وأبو داود في السنة (ح٤٧١٤) والنسائي في الجنائز (ح١٩٤٩) ومالك في الموطأ كتاب الجنائز (ح٥٦٩) بلفظ : ((كل مولود يولد على الفطرة ...)) .

(٥) لم أقف على من خرجها .

أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً))[1] فأخبر أنه خلقهم حنفاء، وذلك يتضمن معرفة الرب ومحبته وتوحيده، فهذه الثلاثة تضمنتها الحنيفية، وهي معنى قول : "لا إله إلا الله" (فإن هذه الكلمة الطيبة التي هي : ﴿كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء﴾[2] فيها إثبات معرفته والإقرار به، وفيها إثبات محبته، فإن الإله هو المألوه الذي يستحق أن يكون مألوهاً وهذا أعظم ما يكون من المحبة، وفيها أنه لاإله إلا هو . ففيها المعرفة والمحبة[3]، والتوحيد .)[4]

كما أن من شروطها اليقين المنافي للشك والريب، واليقين هو طُمَأنِيْنَة القلب بها واستقرار العلم فيه .

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ : (واليقين ينتظم منه أمران : علم القلب وعمل القلب، فإن العبد قد يعلم علماً جازماً بأمر، ومع هذا فيكون في قلبه حركة واختلاج من العمل الذي يقتضيه ذلك العلم، كعلم العبد أن الله رب كل شيء ومليكه، ولا خالق غيره، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن ؛ فهذا قد تصحبه الطمأنينة إلى الله والتوكل عليه، وقد لايصحبه العمل بذلك، إما لغفلة القلب عن هذا العلم، والغفلة هي ضد العلم التام وإن لم تكن ضداً لأصل العلم، وإما للخواطر التي تسنح في القلب من الالتفات إلى الأسباب، وإما لغير ذلك .)[5]

وكذلك علم العبد بأن الله لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، قد لا يصحب هذا العلم الطمأنينة والعمل للصوارف المذكورة أو لغيرها .

كما أنه لابد من القبول المنافي للرد، وقد (دل الكتاب والسنة على أن من في قلبه الكفر وبغض الرسول ﷺ وبغض ما جاء به أنه كافر بالله ورسوله، وقد عفى الله

---

(١) روا الإمام مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (ح٢٨٦٥) .

(٢) سورة ابراهيم ٢٤ .

(٣) قد سبق الكلام عليها في المبحث الثالث.

(٤) الفتاوى ٣٤٥/١٦.وانظر ٢٦٢/١٠. والصفدية ٢٦١/٢-٢٦٣ ، وإقتضاء الصراط المستقيم ٨٣٣/٢،٨٣٤.

(٥) انظر الفتاوى ٣٢٩/٣ .

لهذه الأمة - وهم المؤمنون حقاً الذين لم يرتابوا - عما حدثت به أنفسها ما لاتتكلم به أو تعمل، كما هو في الصحيحين من حديث أبي هريرة وابن عباس: ((أن الذي يهم بالحسنة تكتب له، والذي يهم بالسيئة لاتكتب عليه حتى يعملها))[1] إذا كان مؤمناً من عادته عمل الحسنات وترك السيئات، فإن ترك السيئة لله كتبت له حسنة، فإذا أبدى العبد ما في نفسه من الشر بقول أو فعل صار من الأعمال التي يستحق عليها الذم والعقاب، وإن أخفى ذلك وكان ما أخفاه متضمناً لترك الإيمان با لله ورسوله مثل الشك فيما جاء به الرسول أو بغضه كان معاقباً على ما أخفاه في نفسه من ذلك؛ لأنه ترك الإيمان الذي لانجاة ولا سعادة إلا به[2]، وأما إذا كان وسوسة فهذا صريح الإيمان كما هو مصرح به في الصحيح.[3]

ومن شروط كلمة التوحيد الصدق المنافي للكذب فيجب أن يقولها وهو صادق في قوله وعمله وامتثاله (فإن المظهرين للإسلام ينقسمون إلى مؤمن ومنافق، والفارق بين المؤمن والمنافق هو الصدق، فإن أساس النفاق الذي ينبني عليه هو الكذب، ولهذا إذا ذكر الله حقيقة الإيمان نعته بالصدق كما في قوله تعالى: ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾ إلى قوله: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا با لله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾[4]

فأخبر أن الصادقين في دعوى الإيمان هم المؤمنون الذين لم يتعقب إيمانهم ريبة، وجاهدوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم... وكذلك وصف الصادقين في دعوى البر الذي هو جماع الدين في قوله تعالى: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن با لله ... أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾[5]

---

(١) رواه البخاري في الرقاق (ح٦٤٩١) وفي غيرها أيضاً ومسلم في الإيمان (ح١٢٨، ١٣٠) ولفظه: عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: ((من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ومن هم بحسنة فعملها كتبت له عشرا إلى سبع مائة ضعف ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب وإن عملها كتبت)).

(٢) وهذا ينطبق على المنافقين.

(٣) الفتاوى ١٤/١٠٧-١٠٨. وانظر الفتاوى ١٤/١٠٩

(٤) سورة الحجرات ١٤-١٥

(٥) سورة البقرة ١٧٧

وأما المنافقون فوصفهم سبحانه بالكذب في آيات متعددة كقوله تعالى : ﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾[١] وقوله : ﴿إذا جاءك المنافقون ، قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾[٢][٣].

... والصدق يكون بالقول والعمل ، فيجب أن يكون العبد صادقاً بنطق هذه الكلمة في إرادته وقصده وطلبه ، وفي عمله .. والمنافق ضد المؤمن الصادق ، وهو الذي يكون كاذباً في خبره أو كاذباً في عمله كالمرائي في عمله ، قال الله تعالى : ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولايذكرون الله إلا قليلاً﴾[٤] [٥].

وأما الإخلاص فهو حقيقة الاسلام إذ الاسلام هو الاستسلام لله لا لغيره كما قال تعالى : ﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً ﴾[٦] فمن لم يستسلم لله فقد استكبر ، ومن استسلم لله ولغيره فقد أشرك وكل من الكبر والشرك ضد الاسلام ، والإسلام ضد الشرك والكبر)[٧]فكلما حقق العبد في قول لاإله إلا الله خرج من قلبه تأله ما يهواه ، وانصرفت عنه المعاصي والذنوب كما قال تعالى : ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾[٨]وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم : ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾[٩]وقال الشيطان : ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم

---

(١) سورة البقرة ١٠

(٢) سورة المنافقون ١

(٣) الفتاوى ١٠/١٣-١٤ .

(٤) سورة النساء ١٤٢ .

(٥) انظر الفتاوى ١٠/١٤. و٣٥/٢٠٣ .

(٦) سورة الزمر ٢٩ .

(٧) الفتاوى ١٠/١٤ . وانظر الصفدية ٢/٣١٤ .

(٨) سورة يوسف ٢٤ .

(٩) سورة الحجر ٤٢

المخلصين﴾[١]وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : ((من قال لاإله إلا الله مخلصاً من قلبه حرمه الله على النار .))[٢] [٣]فمقتضى هذه الكلمة الإخلاص لله وحده في جميع أنواع العبادات الظاهرة والباطنة ، وقد سبق الحديث عن الاخلاص مما لاداعي إلى الاطالة فيه.[٤]

وكذلك من شروطها الانقياد المنافي للترك ، بمعنى أن العبد يجب أن ينقاد إلى أمر الله وأمر رسوله انقياداً تاماً لا تردد معه ، ولا أخذاً ببعض ما أمر به العبد دون البعض ، فإن من مقتضى هذه الكلمة الانقياد التام في كل صغيرة وكبيرة ، قال تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾[٥]وقد سبق الحديث عن هذا في شرطي العبادة [٦].

كما أن من لوازمها البراءة ممن لم يؤمن بها ، وإظهار معاداته والحذر من موالاته ، وقد أمر الله نبيه بعد أن مكنه بمنابذة المشركين ، وفسخ جميع العهود التي كانت بينه وبينهم ، وإعلان ذلك على الملأ ، فأرسل أبا بكر إلى الحج وأتبعه بعلي ـ رضي الله عنهما ـ وأمرهما أن ينهيا المشركين عن أن يقربوا المسجد الحرام ، وينبذوا جميع العهود التي بين النبي ﷺ وبين المشركين من العرب . وهذا من موجبات ولوازم العمل بهذه الكلمة . [٧]

ومما سبق يتضح أن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله هما أساس الدين ، ويتحقيقهما أو عدمه يحكم على الشخص بالإيمان أو عدمه ، ويكون عابداً لله أو غير عابد .

---

(١) سورة : ص ٨٣

(٢) تقدم تخريجه انظر الفهارس .

(٣) الفتاوى ١٠/٢٦٠-٢٦١. وانظر ٣٥/٢٠٣ .

(٤) انظر مبحث شرطي العبادة .

(٥) سورة النساء ٦٥ .

(٦) انظر ص ٣٩٦ وما بعدها

(٧) انظر الصفدية ٢/٣١٧-٣٢١ .

فإذا توفرت تلك الشروط السابقة بصدق وإخلاص كان الشخص قد جاء بها على الوجه المطلوب ، وإن أخل بها أو ببعضها كان حكمه على حسب ذلك .

ولهذا كان رأس الاسلام شهادة أن لاإله إلا الله وهي متضمنة عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه وهو الاسلام العام الذي لايقبل الله من الأولين والآخرين ديناً سواه كما قال تعالى : ﴿ومن يبتغي غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾[1][2]

على أن تحقيق كلمة الإخلاص في النفس لا يكمل تماماً إلا إذا اقترن به العمل في الظاهر في العبادة وفي سائر المعاملات .

ومن هنا كان من لوازم تحقيق كلمة الإخلاص موالاة أهلها وعدم تكفيرهم ، وإن وقع الخلاف معهم في أمورأخرى حتى ولو أدى الخلاف إلى القتال فلا يجوز تكفيرهم ولا سبي نساءهم ، فقد قاتل أمير المؤمنين على بن أبي طالب الخوارج مع وجود النص على قتالهم واتفاق أئمة الدين من الصحابة والتابعين على ذلك و لم يكفرهم ، بل جعلهم مسلمين ، و لم يقاتلهم حتى سفكوا الدم الحرام ، وأغاروا على أموال المسلمين فقاتلهم لدفع ظلمهم وبغيهم ، لا لأنهم كفار ، ولهذا لم يسب نساءهم و لم يغنم أموالهم . فإذا كان هؤلاء مع ضلالهم وثبوت الإجماع على ذلك وأمر الرسول ﷺ بقتالهم فكيف بالطوائف المختلفين الذين اشتبه عليهم الحق في مسائل غلط فيها من هو أعلم منهم ؟ ! فلا يحل لأحد من الطوائف أن تكفر الأخرى ولا يستحل دمها ومالها ، وإن كانت فيه بدعة محققة ، فكيف إذا كانت المكفرة لها مبتدعة ؟ .

وقد وقع الخلاف بين السلف والقتال كذلك من أهل لجمل وصفين ونحوهم و لم يكفر بعضهم بعضاً بل كانوا يوالون بعضاً موالاة الدين ولا يعادون معادات الكفار ، فيقبل بعضهم شهادة بعض ويأخذ بعضهم العلم عن بعض ويتعاملون معاملة المسلمين [3]

---

(١) سورة ال عمران ٨٥

(٢) الفتاوى ١٠/١٥

(٣) انظر الفتاوى ٣/٢٨٢-٢٨٥ .

الباب الثاني

بيانه للشرك المنافي لتوحيد العبادة ، وفيه فصلان :

الفصل الأول : تعريفه له وبيانه لأهميته وعظمه وقبحه

وفيه ثلاث مباحث :

المبحث الأول : تعريفه للشرك

المبحث الثاني: بيانه لأهمية العلم به

المبحث الثالث : بيانه لعظمه وقبحه

الفصل الثاني : بيانه لأقسام الشرك

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : توضيحه للشرك الأكبر

المبحث الثالث : توضيحه للشرك الأصغر

تمهيد

امتداداً لبيان التوحيد ومفهومه ، ومفهوم اخلاص العبادة لله وحده ،.وتجريد المتابعة لرسوله ﷺ كان عقد هذا الباب لبيان الأمور التي تضاد ذلك أو تخل بكماله وتمامه .

ومن أهم ما يناقض توحيد العبادة ويؤثر فيه وجوداً وعدماً ، أوقد يؤثر في كماله الشرك بالله على شتى أنواعه ، لاسيما وأن منه خفياً قد يقع فيه العبد من حيث لايشعر فيكون سبباً لحبوط عمله ، إما لغفلته عنه أو لجهله به ، فكيف بالشرك الأكبر .

عن أبي سعيد الخدري قال خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتذاكر المسيح الدجال فقال : ((ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال قال قلنا بلى فقال الشرك الخفي أن يقوم الرجل يصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل))[1] فيكون ذلك سبباً في حبوط عمله أو نقصانه ، فالشرك محبط للعبادة مفسداً لها ، قال سبحانه ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴾ [2]

وقال : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحورا ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾ [3] فهكذا من عمل عملاً يريد به الدنيا وزينتها لم يكن له في الآخرة من نصيب ، ومثله من عمل عملاً جعل فيه نصيباً لغير الله ، كما في قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه جل وعلا : ((أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركه وشركه)) [4]

---

(١) رواه ابن ماجه في الزهد (ح٤٢٠٤) وأحمد في ٣٠/٣ والحاكم ٣٢٩/٤ وصححه ، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة : اسناده حسن . وروى الإمام أحمد نحوه بسند رجاله ثقات عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال : ((إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله قال الرياء)) ٤٢٨/٥،٤٢٩، والبغوي في شرح السنة ٣٢٣/١٤،٣٢٤ .

(٢) سورة الكهف ١٠٣ — ١٠٤ .

(٣) سورة الإسراء ١٧ .

(٤) رواه مسلم في الزهد والرقاق (ح٢٩٨٥) وابن ماجه في الزهد (ح٤٢٠٢) .

ولما كان الشرك من من أهم القوادح التي تقدح في توحيد العبادة وتؤثر فيه كان لزاماً ذكر ما يبين خطره وعظم شأنه ليخافه العبد ويتقيه . ولهذا رأيت أن أذكر من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - ما يبين مفهوم الشرك وأهمية معرفته ، وبيان عظمه ، وذكر أنواعه ، ليكون هذا إكمالاً لمفهوم توحيد العبادة ، وكما قيل : بضدها تتبين الأشياء ، ولهذا كان حذيفة — رضي الله عنه — يقول : (كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه)[1] وفعله هذا كما قيل :

عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقيه ... من لا يعرف الشر يكاد أن يقع فيه

ومن هنا فإن دراستنا لهذا الباب ستكون مقصورة على ما يتحقق به مفهوم العبادة ، والتحذير من الشرك ، والتخويف من الوقوع فيه ، أو الحوم حول حماه .

وقبل إيراد ذلك كله يحسن أن أبدأ بالتعريف بالشرك وحقيقته فيما يلي :

---

(١) رواه البخاري في المناقب (ح٣٦٠٦) ومسلم في الأمارة (ح١٨٤٧) وأبو دواد في الفتن والملاحم (ح٤٢٤٤) .

المبحث الأول : تعريفه للشرك

تعريفه للشرك

الشرك في اللغة :

اطلقت لفظة الشرك في معاجم اللغة على اطلاقات كثيرة ، أذكر منها فيما يلي بعض الأمثلة التي سينبني عليها فيما بعد التعريف الشرعي للشرك

قال ابن دريد : (الشِّرْك : مصدر شَرِكْت الرجل في ماله أشرَكه شِرْكاً .

وشارك فلان فلاناً شِرْك مفاوضة ، فالعِنان في صنف من المال بعينه ، والمفاوضة في جميعه ، وشريك الرجل ومُشاركه سواء .

والإشراك بالله جل وعز : مصدر أشرك إشراكاً ، وهو أن يدعو لله شريكاً تبارك ربنا وتعالى .)[1] (وقد أشرك فلاناً بالله ، فهو مُشْرِكٌ ومُشْرِكِيٌّ ، مثل دَوّ ودَوِّيّ ، وسَك وسَكِّي ، وقعْسَر ، وقَعْسَريّ بمعنى واحد ، قال الراجز :

"ومُشْرِكِيّ كافر بالفُرْقِ" ، أي بالفرقان .

وقوله تعالى : ﴿ وأشركه في أمري ﴾ [2] أي اجعله شريكي فيه .) [3]

وقال الخليل : (الشركة مخالطة الشريكين ، واشتركنا بمعنى تشاركنا ، وجمع شريك شركاء وأشراك . قال لبيد :

تطير عدائدُ الأشْراك شَفْعاً ووِتراً والزَّعامةُ للغُلام.)[4]

قال الزمخشري : (شرِكْته فيه أَشْرَكُه ، وشاركته ، واشتركوا ، وتشاركوا ، وهو شريكي ، وهم شركائي ، ولي فيه شَركة وشِرْك ، وأشركه في الأمر .

وأشرك بالله تعالى ، وهو من أهل الشِّرْك . وطريق مشتَرك ، ورأي وأمر مشترك . ورأيت فلاناً مُشْتَرَكاً إذا كان يحدِّث نفسه كالموسوس .) [5]

---

(١) جمهرة اللغة ٢/٧٣٢-٧٣٣ ، مادة شرك .

(٢) سورة طه ٣٢ .

(٣) الصحاح ٤/١٥٩٤ ، مادة شرك .

(٤) كتاب العين ٥/٢٩٣ مادة شرك .

(٥) أساس البلاغة ١/٤٨٩ مادة شرك . وانظر تاج العروس ٧/١٤٨-١٤٩ مادة شرك ، والصحاح ٤/١٥٩٣ مادة شرك

والشرك النصيب (كما يقال قِسمٌ وأقسام ...) [١] (وفي الحديث : ((من أعتق شِرْكاً له في عبد)) [٢] أي حصة ونصيباً) [٣] (وفي حديث معاذ : أنه أجاز بين أهل اليمن الشِّرك أي الاشتراك في الأرض ، وهو أن يدفعها صاحبها إلى آخر بالنصف أو الثلث أو نحو ذلك)[٤].

ومن تلك التعاريف اللغوية يتضح معنى كلمة الشرك ، حيث دلت تلك المعاني السابقة على أن مادة شرك تفيد المشاركة في الشيء ، سواء كانت هذه المشاركة في العين أو في الصفة أو غير ذلك ، وتطلق ويراد بها نصيب الشخص وحصته من الشيء . وهذا ما ينبني عليه التعريف الشرعي كما سيتضح فيما يلي :

ثانياً : تعريف الشرك في الشرع :

أما الشرك في الشرع فقد عرفه المصطفى ﷺ بقوله : ((أن تجعل لله نداً وهو خلقك)) [٥]

وقد أشار إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - بقوله : (فأما الشرك في الإلهية فهو : أن يجعل لله نداً أي مثلا في عبادته أو محبته ، أو خوفه ، أو رجائه ، أو إنابته ، فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة منه ، قال تعالى : ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهو يغفر لهم ما قد سلف ﴾ [٦]...)[٧] وقال سبحانه : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾[٨]

---

(١) تهذيب اللغة ١٠/١٧ مادة شرك .

(٢) رواه البخاري في العتق (ح٢٥٢٢) ومسلم في العتق (ح١٥٠١) وأبو داود في البيوع (ح ٣٩٤٠ ، ٣٩٤٣) والترمذي في الأحكام (ح١٣٤٦) والنسائي في البيوع (ح٤٦٩٨) وابن ماجه في الأحكام (ح٢٥٢٨) ، ومالك في الموطأ (ح١٥٠٤) .

(٣) لسان العرب مادة شرك ١٠/٤٤٨.

(٤) تاج العروس ٧/١٤٨ مادة شرك .

(٥) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٦) سورة الأنفال ٣٨ .

(٧) الفتاوى ١/٩١ .

(٨) سورة النساء ٣٦ .

وهذا التعريف يندرج على الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة منه ، أما النوع الثاني من الشرك وهو الأصغر ففيه مشاركة في القول أو العمل ؛ لكنها لا تصل إلى درجته ، وسيأتي بحول الله توضيحه .

وبهذا التوضيح المختصر الواضح من المصطفى ﷺ يتبين أن الشرك هو أن يجعل العبد مع ربه نداً أو شبيهاً أو مماثلاً أو نظيراً في عبادته أو نحوه كما أشار إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في تعريفه .

معنى اتخاذ الأنداد :

الند في الأصل : النظير والشبيه والمماثل ، وهو يقع في أنواع التوحيد الثلاثة .

فأما توحيد الأولهية ، فإن من المعلوم أن العبادة حق محض لله ﷻ فصرفها أو صرف نوع منها هو من باب اتخاذ الأنداد من دون الله .

كما أن جعل الند مع الله في هذا النوع من التوحيد له صور مختلفة ، فكل من دعا مع الله غيره من المخلوقات فقد اتخذ مع الله نداً كالمشركين الذين (يقولون : ﴿ إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ﴾[1] ويقولون : ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ [2] وكالذين يعبدونه بغير ما أمر وشرع مما شرعه لهم شركاؤهم ، أي الذين جعلوهم شركاء لله كما قال تعالى : ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم...﴾[3]

فكل من يدعو مخلوقاً سواء كان ذلك المخلوق صالحاً أو شريفاً أو صنماً ، أو وثناً فقد جعل لله نداً وظهيراً وشريكاً . [4]

وبالجملة فإن من صرف أي نوع من أنواع العبادة من المحبة أو الخشية أو الخوف أو الرجاء أو غير ذلك لغير الله فقد اتخذ نداً وشريكاً من دون الله ، وهذا هو الشرك في الإلهية الذي يتم به صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله ؛ سواء كانت عبادة قلبية أو

---

(١) سورة الزمر ٣ .

(٢) سورة يونس ١٨ .

(٣) سورة التوبة ٣١ .

(٤) انظر قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الشرك والنفاق ص ٢٤-٢٥ .

بدنية ، فإن الشرك يكون بالقلب كما أنه يكون بالجوارح . قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : (التوحيد والإشراك يكون في أقوال القلب ، ويكون في أعمال القلب.)(١)

المشركون الذين وقعوا في هذا النوع من الشرك قسمان :

والمشركون الذين وقعوا في الشرك ذكر الله عز وجل أنهم صنفان : ـ كما بين ذلك شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله : (والمشركون الذين وصفهم الله ورسوله بالشرك أصلهم صنفان : قوم نوح ، وقوم ابراهيم ، فقوم نوح كان أصل شركهم العكوف على قبور الصالحين ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم عبدوهم .

وقوم إبراهيم كان أصل شركهم عبادة الكواكب والشمس والقمر .

وكل من هؤلاء يعبدون الجن ، فإن الشياطين قد تخاطبهم وتعينهم على أشياء ، وقد يعتقدون أنهم يعبدون الملائكة وإن كانوا في الحقيقة إنما يعبدون الجن ، فإن الجن هم الذين يعينونهم ويرضون بشركهم ، قال تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ، قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ (٢) فالملائكة لاتعينهم على الشرك لا في المحيا ولا في الممات ولا يرضون بذلك ...)(٣)

وأما اتخاذ الأنداد في توحيد الأسماء والصفات : فهو أن يعتقد أن لله مثيلاً أو نظيراً أو شبيهاً لله جل وعلا يماثله ويشابهه في صفاته . أو أن يسمى بعض الآلهة المزعومه بأسماء الله ﷻ ، أو نحو ذلك .

وأما اتخاذ الأنداد في الربوبية فهو أن يعتقد أن لله شريكاً في ملكه يتصرف بهذا الكون ، أو أن له صفات الربوبية من الخلق والرزق والتدبير والملك ونحوه كما زعمت غلاة المتصوفة والرافضة .

---

(١) الفتاوى ٢٦٨/١٠ ، وانظر ٣٦٨/٣٥ .

(٢) سورة الأنعام ١٢٨ .

(٣) الفتاوى ١٥٧/١ .

كما يكون ذلك أيضاً ، بأن يعتقد العبد أن لأحد من الناس تصرفاً في الكون أو بعضاً منه وقد وقع المشركون قديماً وحديثاً في هذا النوع من الشرك ، وإن كان وقوعهم من ناحية الأثر فينسبون الرزق إلى غير الرازق والشكر إلى غير المنعم ، (كما جاء في الأثر : إن الله يقول : ((إني والجن والإنس لفي نبأ عظيم أخلق ويعبدون غيري ، وأرزق ويشكرون سواي))[1] .

وهذا المعنى قد ورد في قوله : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ [2] أي تجعلون شكركم وشكر ربكم التكذيب بإنعام الله ، وإضافة الرزق إلى غيره كالأنواء ، كما ثبت في الصحيح عن ابن عباس قال : مطر الناس على عهد النبي ﷺ فقال النبي ﷺ : ((أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر قالوا : هذه رحمة الله وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا وكذا)) قال : فنزلت هذه الآية : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم – حتى بلغ – وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : ((ما أنزل الله من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين ينزل الغيث فيقولون : الكوكب كذا وكذا)) وفي رواية ((بكوكب كذا وكذا)) [3]

وروى ابن المنذر في تفسيره .. عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿ وتجعلون شكركم أنكم تكذبون ﴾ [4] يعني الأنواء ، وما مطر قوم إلا أصبح بعضهم كافراً ، وكانوا يقولون مطرنا بنوء كذا وكذا ، فأنزل الله : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾[5] .

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (ح٤٥٦٥) والديلمي في مسند الفردوس (ح٤٤٣٩) ، والسيوطي في الجامع الصغير ((ح٦٠٠٨) ورمز له بالضعف ، وذكره السيوطي في الدر المنثور ٦٢٥/٧ . وأعله الألباني بالانقطاع كما في ضعيف الجامع (ح٤٠٥٢) وفي الضعيفة أيضاً (ح٢٣٧١) .

(٢) سورة الواقعة ٨٢ .

(٣) رواه البخاري في الأذان (ح٨٤٦) ومسلم في الإيمان (ح٧١) وأبو داود في الطب (ح٣٩٠٦) والنسائي في الاستسقاء (ح١٥٢٥) ومالك في النداء إلى الصلاة (ح٤٥١) .

(٤) انظر جامع البيان ٢٠٨/١٣ . وتفسير القرآن العظيم ٢٢/٨ .

(٥) وهو مروي عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أيضاً انظر جامع البيان ١٣/ ٢٠٨ . وتفسير القرآن العظيم ٢٢/٨ . وقال ابن كثير اسناده صحيح إلى ابن عباس .

وروى ابن أبي حاتم .. عن عكرمة في قول الله : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ قال تجعلون رزقكم من عند غير الله تكذيباً وشكراً لغيره .[(١)(٢)]

فهؤلاء قد جعلوا الأنواء مؤثرة في نزول المطر ومشاركة للرب جل وعلا في تصرفه ، وهذا نوع من الشرك في الربوبية واتخاذ الأنداد [(٣)] و (نسبة السقيا ومجي المطر إلى النجوم والأنواء نوعان :

أحدهما : يعتقد أن المنزل للمطر هو النجم ، وهذا كفر ظاهر.

الثاني : أن ينسب إنزال المطر إلى النجم مع اعتقاد أن الله هو الفاعل لذلك ولكن أجرى العادة عند نزول المطر عند ظهور ذلك النجم ، والصحيح أنه محرم ؛ لأنه من الشرك الخفي)[(٤)]

تنبيه :

مما ينبغي التنبيه إليه أن شرك المشركين كان في الألوهية لا الربوبية ، وقد قرر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - بقوله : (والذين كانوا يدعون مع الله آلهة أخرى ـ مثل : الشمس والقمر والكواكب والعزير والمسيح والملائكة واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، ويغوث ويعوق ونسر ، أو غير ذلك ـ لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق أو أنها تنزل المطر أو أنها تنبت النبات ، وإنما كانوا يعبدون الأنبياء والملائكة والكواكب والجن والتماثيل المصورة لهؤلاء، أو يعبدون قبورهم ويقولون إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ، ويقولون هم شفعاؤنا عند الله .

فأرسل الله رسله تنهى أن يدعى أحدٌ من دونه ، لا دعاء عبادة ، ولا دعاء استغاثة ، قال تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته

---

(١) وعلى هذا ففي الآية قولان ، الاول : تجعلون شكر الله على رزقه إياكم التكذيب ، والثاني : تجعلون حظكم منه التكذيب انظر جامع البيان ١٣/٢٠٧-٢٠٨ ، وتفسير القرآن العظيم ٨/٢٢ . وهذا ما عناه شيخ الإسلام

(٢) الفتاوى ١٦/١٥٠ -١٥١ .

(٣) انظر فتح المجيد ٢٨٣ ، وابطال التنديد ١٨٧ .

(٤) ابطال التنديد مختصر شرح كتاب التوحيد ١٨٧ . وفتح المجيد ٢٨١ .

ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً ﴾[1] ...)[2] (ولم يزعم أحد أن الأنبياء والأحبار والرهبان والمسيح بن مريم شاركوا الله في خلق السموات والأرض ...)[3]

ومن هنا يتضح بطلان من زعم أن الشرك وقع في الربوبية فقط ، وأن الأنبياء بعثوا لأجل أن أقوامهم أشركوا في جعلهم واعتقادهم أن أحداً مع الله يتصرف في الكون ، ومن يفسرون معنى كلمة التوحيد بأن معناها لا موجود أو لاخالق إلا الله ، ولهذا نجد بعظهم عندما يفسر الشرك ويعرفه يقول : هو : اعتقاد أن لله شريكاً في ربوبيته وهذا خطأ ظاهر .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : (وليس المراد بالإله هو القادر على الاختراع كما ظنه من ظنه من أئمة المتكلمين ، حيث ظن أن الإلهية هي القدرة على الاختراع دون غيره ، وأن من أقر بأن الله هو القادر على الاختراع دون غيره فقد شهد أن لا إله إلا هو . فإن المشركين كانوا يقرون بهذا وهم مشركون .. بل الإله الحق هو الذي يستحق بأن يعبد ، فهو إله بمعنى مألوه ؛ لا إله بمعنى آله ...)[4]

وقال - رحمه الله - : بعد أن ذكر أن من عرف التوحيد وما جاءت به الرسل وعرف مَذَمَّة الشرك على اختلاف انواعه (تبين له كثرة الشرك في بني آدم الذين لا يعرفون ، بل يظنون أن العرب كانوا يعتقدون في آلهتهم أنها شاركت الله في الخلق ، وهذا من غاية الجهل والكذب بمن يظنه بهم ، وذلك لأن الشرك الذي كانوا فيه قد وقع هو وأمثاله في نوع منه ، وهو لايعرف أنه الشرك ، يعتقد أن التوحيد هو الاقرار بأن الله خالق كل شيء ، لم يشاركه في الخلق أحد ، فهذا عنده غاية التوحيد ، كما تجد ذلك في كلام كثير من الناس من متكلميهم ، وعبادهم فإذا رأى هذا التوحيد كان الشرك عنده ما يناقض ذلك ، وقد علم بالتواتر ،وإجماع المسلمين ونص القرآن أن العرب كانوا مشركين ، وأن النبي ﷺ دعاهم إلى التوحيد ونهاهم عن الشرك ، وكان هذا من أعظم أسباب معاداتهم له ، ولمن آمن به ، فيظن هذا الذي لم يعرف حقيقة الأمر أن ذلك

---

(١) سورة الإسراء ٥٦-٥٧ .

(٢) الفتاوى ١/٣٩٦ وانظر ٩٦ .

(٣) المصدر نفسه

(٤) الفتاوى ٣/١٠١ .

الشرك أنهم جعلوا آلهتهم شركاء لله في خلق السموات والأرض ، وإنزال المطر وخلق النبات ، ونحو ذلك ، ولو كان هذا يفهم القرآن ، ويعرف ما كانت عليه العرب ، ويعرف التوحيد والشرك لتبين له أن ما يقر به من التوحيد ما كان المشركون يقرون به أيضاً ، وهم مع هذا مشركون حيث أحبوا غير الله ، وحيث دعوا غير الله ، وجعلوه شفيعاً لهم ، وحيث عبدوا غير الله يتقربون بعبادته إلى الله ، فهذا وأمثاله كان شركهم مع إقرارهم بأن الله خالق كل شيء ، وأنه لا خالق غيره ...) [1]

ومن هنا يتبين لنا أمور منها :

أن الشرك يتنوع حسب أنواع التوحيد ، وأنه مهما اختلفت التعبيرات في بيان الشرك وصورة الكثيرة فإن النتيجة واحدة وهي : اتخاذ الأنداد مع الله عز وجل ، وأن شرك المشركين كان في توحيد الإلهية أكثر منه في الربوبية ، وإن كان لا يخلوا شرك المشركين من الشرك في الربوبية إلا أنه نادر وغير صريح ، وأن جميع من اتخذ نداً لله سواء في العبادة أو في الخلق والإيجاد فقد أشرك وأتى بأعظم نواقض التوحيد ، وأن هذا الشرك وجد قديماً وحديثاً ولذلك أرسل الله رسله لبيان التوحيد ودحر الشرك وأهله ، ولهذا فقد بين الله في كتابه بطلان كل من أشرك معه غيره وسفه أحلامه ، وتمم ذلك النبي ﷺ بسد جميع منافذ الشرك . وهذا كله قد جلاه شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - وبينه في كلامه السابق وفيما سيأتي إن شاء الله في الباب الأخير .



(١) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الاسلام والإيمان وأهل الأوثان ١٤٨-١٤٩ . وانظر مجموع الفتاوى ٢٠٣/١٥ ، ٩٦/٣ - ١٠١ .

المبحث الثاني

بيانه لأهمية معرفة الشرك

فلولا أن في نفوس الناس من جنس ما كان في نفوس المكذبين للرسل - فرعون ومن قبله - لم يكن بنا حاجة إلى الاعتبار بمن لا نشبهه قط ، ولكن الأمر كما قال تعالى : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ [1] وكما قال تعالى : ﴿ كذلك ما أتي الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ﴾ [2] وقال تعالى : ﴿كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم ﴾ [3] وقال تعالى : ﴿ يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ﴾ [4] .

ولهذا قال النبي ﷺ : ﴿ لتسلكن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه ، قالوا : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟))[5]

وقال : ((لتأخذن أمتي مأخذ الأمم قبلها : شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، قيل : يارسول الله ، فارس والروم ؟ قال : فمن ؟)) [6] ...

ولما كان في غزوة حنين كان للمشركين شجرة يقال لها ذات أنواط يعلقون عليها أسلحتهم ، وينوطونها [7] بها ، ويستضلون بها متبركين . فقال بعض الناس : ((يارسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال الله أكبر ، قلتم

---

(١) سورة فصلت ٤٣ .

(٢) سورة الذاريات ٥٢ .

(٣) سورة البقرة ١١٨ .

(٤) سورة التوبة ٣٠ .

(٥) هذا الحديث سبق تخريجه ، وذكرت أنهما أخرجاه الصحيحين والمسانيد بألفاظ مختلفة وطرق متعددة ، لكن قوله : " حذو القذة بالقذة " ليست في الصحيحين ولا السنن الأربعة وإنما أخرجها أحمد في المسند ١٢٥/٤.

(٦) رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (ح٧٣١٩) وأحمد ١٢٥/٤ ولفظهما : عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ((لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع فقيل يا رسول الله كفارس والروم فقال ومن الناس إلا أولئك)) . وقد تقدم تخريجه بلفظ : ((لتتبعن سنن الذين من قبلكم...)) . انظر فهرس الأحاديث .

(٧) أي يعلقون سلاحهم ويعكفون حولها . النهاية ١٢٨/٥ نوط .

كما قال قوم موسى لموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، إنها السنن ، لتركبن سنن من كان قبلكم ..))[1] الحديث ...)[2]

فهؤلاء وهم مع نبي هذه الأمة ـ إلا أنهم كانوا حديثي عهد بالشرك ـ فكيف بمن جاء بعدهم .

ولهذا نجد أن كثيراً ممن ينتسب إلى الإسلام لايفرق بين التوحيد وبين الشرك ، فلايفرق بين ما يجب لله وحده ، وما لا يجب ، فوقعوا في الشرك وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً نعوذ بالله من الحور بعد الكور.

ومما يبين هذا ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : عند كلامه على أولئك الذين اتخذوا من الأحوال الشيطانية ـ التي تعتري مشايخهم ، أو تعتري بعضهم ـ دليلاً على قربهم من الله تعالى وعَدُّوها من تمام التوحيد ، وذلك عندما لايفرقون بين الأمر والنهي ، والوعد والوعيد حتى يَنْحَلَّ بعضهم عن الأمر الشرعي كله أو عن بعضه ، حتى قال قائلهم : إن امتثال الأمر والنهي من مقام التلبيس أو ما يشبه هذا ، كما يوجد في كلام أبي اسماعيل الهروى صاحب منازل السائرين .

قال : (ولهذا يوجد في كلامهم وكلام غيرهم أقوال وأدعية وأحزاب تستلزم تعطيل الأمر والنهي مثل أن يدعو أن يعطيه الله إذا عصاه أعظم مما يعطيه إذا أطاعه ، ونحو هذا مما يوجب أنه يجوز عنده : أن يجعل الذين اجترحوا السيئات كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، بل أفضل منهم ، ويدعون بأدعية فيها اعتداء كما يوجد في جواب الشاذلي[3] ...

وآخرون من عوام هؤلاء يجوزون ان يكرم الله بكرامات أكابر الأولياء من يكون فاجراً بل كافراً ، ويقولون : هذه موهبة وَعَطِيَّةٌ يعطيها الله من يشاء ، ماهي متعلقة لا بصلاة ولا بصيام ، ويظنون أن تلك من كرامات الأولياء ، وتكون كراماتهم من

---

(١) رواه الترمذي في الفتن (ح٢١٨٠) وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وأخرجه أحمد ٢١٨/٥ ، وابن أبي عاصم في السنة (ح٧٦) وصححه ابن حجر في الإصابة ٢١٢/٤ . وقال الألباني : إسناده حسن . انظر ظلال الجنة في تخريج أحاديث السنة (ح٧٦)

(٢) الفتاوى ٣٢١/١٤-٣٢٣ .

(٣) يقصد أبا الحسن الشاذلي.

الأحوال الشيطانية التي يكون مثلها للسحرة والكهان ، قال الله تعالى : ﴿ ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لايعلمون ، واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ، يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ﴾[1] وقد قال النبي ﷺ : ((لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)) [2]

والمسلمون الذين جاءهم كتاب الله القرآن عدل كثير منهم ممن أضله الشيطان من المنتسبين إلى الإسلام إلى نبذ كتاب الله وراء ظهره ، واتبع ما تتلوه الشياطين ، فلا يعظم أمر القرآن ولا نهيه ، ولا يوالي من أمر القرآن بموالاته ، ولا يعادي من أمر القرآن بمعاداته ، بل يعظم من رآه يأتي ببعض خوارقهم ، التي يأتي بمثلها السحرة والكهان ، بإعانة الشياطين وهي تحصل بما تتلوه الشياطين .

ثم إن منهم من يعرف أن هذا من الشيطان ؛ ولكن يعظم ذلك لهواه ، ويفضله على طريق القرآن ليصل به إلى تقديس العامة وهؤلاء كفار ...

ومنهم من لا يعرف أن هذا من الشياطين .

وقد يقع في مثل هذا طوائف من أهل الكلام والعلم وأهل العبادة والتصوف حتى جوزوا عبادة الكواكب والأصنام لما رأوه فيها من الأحوال العجيبة التي تعينهم عليها الشياطين لما يحصل لهم بها من بعض أغراضهم من الظلم والفواحش ، فلا يبالون بشركهم بالله ولا كفرهم به وبكتابه إذا نالوا ذلك ...

وهذا مما ضاهوا به فارس والروم وغيرهم ، فإن فارس كانت تعظم الأنوار وتسجد للشمس وللنار ، والروم كانوا قبل النصرانية مشركين يعبدون الكواكب والأصنام ، فهؤلاء الذين أشبهوا فارس والروم شر من الذين أشبهوا اليهود والنصارى ...

---

(١) سورة البقرة ١٠٢ .

(٢) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث

فمتى لم يؤمن الخلق بأنه لا إله إلا الله بمعنى أنه المعبود المستحق للعبادة دون ما سواه ، وأنه يجب أن يعبد ، وأنه أمر أن يعبد ، وأنه لا يعبد إلا بما أحبه مما شرع من واجب ومستحب ، فلا بد أن يقعوا في الشرك وغيره ...) [١]

وهكذا كلما بعد العبد عن التوحيد ومنبع النبوة كلما كان أقرب لقبول الشرك والانغماس فيه ، حتى يرى حسناً ماليس بحسن ، بل قد يعتقد أن ما يفعله من أمور شركية مخالفة للشرع هو عين التوحيد والصواب ، والعياذ بالله ، فضلاً عن أن ينكره أو يحاربه فإن هذا عنه بعيد . قال تعالى : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ﴾[٢] وقال سبحانه : ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً ﴾[٣] .

وإن مما لاشك فيه أن التوحيد كلما ضعف في نفوس المسلمين ، وبعدوا عن منبع النبوة كلما كان الشرك فيهم أكثر انتشاراً وأكثر رواجاً [٤] ، فيروج عليهم السحر والشعوذة ، والخرافات ، ويعدون ذلك من الكرامات وخوارق العادات ، وهذا بين ظاهر لكل صاحب لب وبصيرة . [٥]

بل قد يتخذون أوثاناً يتقربون إليهم بأنواع القربات ، ويطلبون منهم أنواع الحاجات ، وكشف الكربات ، فيقعون فيما وقع فيه من كان قبل هذه الأمة من الأمم الغابرة ، ولا ينطلي هذا إلا على أهل الشرك البعيدين عن التوحيد وأهله ، (فإن أحدهم يدعو ويستغيث بشيخه الذي يعظمه وهو ميت ، أو يستغيث به عند قبره ويسأله ، وقد ينذر له نذراً ونحو ذلك ، ويرى ذلك الشخص قد أتاه في الهواء ودفع عنه بعض ما يكره ، أو كلمه ببعض ما سأله عنه ، ونحو ذلك فيظنه الشيخ نفسه أتى

---

(١) الفتاوى ١٤/٣٥٨-٣٦١ .

(٢) سورة الجاثية ٢٣ .

(٣) سورة الفرقان ٢٥ .

(٤) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ١/٣١٠ .

(٥) انظر الفتاوى ١٤/٣٦٤ وما بعدها .

إن كان حياً ، حتى أني أعرف من هؤلاء جماعت يأتون إلى الشيخ نفسه الذي استغاثوا به وقد رأوه أتاهم في الهواء فيذكرون ذلك له ، هؤلاء يأتون إلى هذا الشيخ ، وهؤلاء يأتون إلى هذا الشيخ ، فتارة يكون الشيخ نفسه لم يكن يعلم بتلك القضية ، فإن كان يحب الرياسة سكت وأوهم أنه نفسه أتاهم وأغاثهم ، وإن كان فيه صدق مع جهل وضلال قال : هذا ملك صوره الله على صورتي ، وجعل هذا من كرامات الصالحين ، وجعله عمدة لمن يستغيث بالصالحين ، ويتخذهم أرباباً [من دون الله] وأنهم إذا استغاثوا بهم بعث الله ملائكة على صورهم تغيث المستغيث .

ولهذا أعرف غير واحد من الشيوخ الأكابر الذين فيهم صدق وزهد وعبادة لما ظنوا هذا من كرامات الصالحين صار أحدهم يوصي مريديه يقول : إذا كانت لأحدكم حاجة فليستغيث بي ، وليستنجدني وليستوصني ، ويقول : أنا أفعل بعد موتي ما كنت أفعل في حياتي ، وهو لايعرف أن تلك شياطين تصورت على صورته لتضله ، وتضل أتباعه ، فتحسن لهم الإشراك بالله ، ودعاء غير الله ، والاستغاثة بغير الله ، وأنها قد تلقي في قلبه أنا نفعل بعد موتك بأصحابك ما كنا نفعل بهم في حياتك ، فيظن هذا من خطاب إلهي ألقي في قلبه ، فيأمر اصحابه بذلك ...

وقد ذكر لي غير واحد ممن أعرفهم أنهم استغاثوا بي فرأوني في الهواء وقد أتيتهم وخلصتهم من تلك الشدائد ، مثل من أحاط به النصارى الأرمن ليأخذوه ، وآخر قد أحاط به العدو ومعه كتب ملطفات من مناصحين لو اطلعوا على ما معه لقتلوه ، ونحو ذلك ، فذكرت لهم أني ما دريت بما جرى أصلاً ، وحلفت لهم على ذلك حتى لايظنوا أني كتمت ذلك كما تكتم الكرامات ، وأني قد علمت أن الذي فعلوه ليس بمشروع ، بل هو شرك وبدعة ، ثم تبين لي فيما بعد وبينت لهم أن هذه شياطين تتصور على صورة المستغاث به ...

والشياطين تغوي الإنسان بحسب الإمكان ، فإن كان ممن لا يعرف دين الإسلام أوقعته في الشرك الظاهر والكفر المحض ، فأمرته أن لايذكر الله ، وأن يسجد للشيطان ، ويذبح له ، وأمرته أن يأكل الميتة والدم ويفعل الفواحش ، وهذا يجري كثيراً في بلاد الكفر المحض وبلاد فيها كفر وإسلام ضعيف ، ويجري في بعض مدائن الإسلام في المواضع التي يضعف إيمان أصحابها ، حتى قد جرى ذلك في مصر والشام

على أنواع يطول وصفها ، وهو في أرض الشرق قبل ظهور الإسلام في التتار كثير جداً ، وكلما ظهر فيه الإسلام وعرفوا حقيقته قلت آثار الشياطين فيهم ، وإن كان مسلماً يختار الفواحش والظلم أعانته على الظلم والفواحش ، وهذا كثير جداً ، أكثر من الذي قبله في البلاد التي في أهلها إسلام وجاهلية ، وبر وفجور ، وإن كان الشيخ فيه إسلام وديانة ؛ ولكن عنده قلة معرفة بحقيقة ما بعث الله به رسوله ﷺ .. ولا يعرف من حقائق الإيمان الباطنه وشرائع الإسلام الظاهرة ما يفرق به بين الأحوال الرحمانية ، وبين النفسانية والشيطانية .) [1]

فإذا كان كذلك أمرته الشياطين بأمر لاينكره مما يخالف دين الله وشرعه فانساق وراءها واتبع ما تأمره به ظاناً أن ذلك من الكرامات ، كما حدث لبعضهم أن الشياطين حملته إلى عرفة بلا إحرام وأعادته بلا طواف ولا رمي للجمرات وغير ذلك ، وهو يظن أن فعل ذلك عبادة ظاهرة . [2]

وبهذا التفصيل المفيد لشيخ الاسلام في بيان أهمية معرفة الشرك والحذر منه يتضح لنا مدى اهتمامه وعنايته ببيان هذا الجانب الخطير في حياة المسلمين ، فإن معرفة الشر تكون باباً للصول إلى الخير ، وقد ذكر أن الشرك قد يطرأ على الشخص بصور مختلفة ومقامات خفية ، فيقع الشخص في الشرك بمساعدة الشياطين وتصوراتهم له بالصورة التي يستدرجونه بها من الوقوع في المحذور ، فإن كثيراً من العباد والزهاد ومن يدعون الولاية كان أكثر ضلالهم ناتجاً عن هذه الحيل الشيطانية التي لم يتفطنوا لها ؛ ظانين أنها كرامات من الله تعالى ولطف منه ورحمه .

ثانياً : بعض الجوانب المتضمنة لأهمية معرف الشرك :

وإذا كان ما قدمناه من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : يوضح أهمية الشرك وبيان خطره في حياة المسلم ؛ فإن هناك جوانب تحتاج إلى إيضاح لما لها من الأهمية المتعلقة بهذا الباب لخفائها على البعض ، والتي من أهمها ما يلي :

---

(١) الفتاوى ١٧/٤٥٦-٤٥٨ . وانظر قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادة أهل الإيمان وعبادة أهل الأوثان ص١٤٧.

(٢) المصدر السابق .

١) عدم مغفرة الشرك إلا بالتوبة منه :

إن مما يبين أهمية العلم بالشرك والحذر من الوقوع فيه أن الله عز وجل توعد من أشرك معه غيره أياً كان شركه [١] بالخلود في النار ، وعدم دخول الجنة ، كما أخبر سبحانه بعدم مغفرة الشرك أياً كانت منزلة المشرك ، قال عز وجل : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ [٢] . وقال مخاطباً النبي ﷺ : ﴿ ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾ [٣] . وجاء في الحديث القدسي قوله تعالى : ((أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه))[٤]

فالشرك الأكبر تتوقف مغفرته والتجاوز عن صاحبه على التوبة النصوح منه في الدنيا ؛ لأن التوبة تجب ما قبلها ، فإذا تاب العبد من الذنب غفر له ذنبه شركاً كان أو غير شرك ، قال تعالى : ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ [٥] أما إذا مات بغير توبة فحق على الله أن يدخله النار ؛ كما جاء في الأثر قوله ﷺ : ((من مات وهو لا يشرك بالله دخل الجنة)) قال ابن مسعود رضي الله عنه راوي الحديث : " وأنا أقول من مات وهو يشرك بالله شيئاً دخل النار " [٦] [٧].

---

(١) المقصود بالشرك هنا الشرك الأكبر .

(٢) سورة النساء ٤٨ .

(٣) سورة الزمر ٦٥.

(٤) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٥) سورة الزمر ٥٣ .

(٦) رواه البخاري في الجنائز (ح١٢٣٨) وفي الأيمان والنذور (ح٦٦٨٣) وفي تفسير القرآن (ح٤٤٩٧) ومسلم في الأيمان والنذور (ح٩٢)

(٧) انظر الفتاوى ١٨/٣٣٠ ، ٣٤٠ . ١١/١٨٤-١٨٥ ، ٦٧١ .

ويدل على ذلك (ما ورد في الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال : لما نزل قوله عز وجل : ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾[1] شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ وقالوا : أينا لم يظلم نفسه ؟ فقال النبي ﷺ : ((ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح : ﴿ لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾[2] .)) ؟[3] فمن خلط إيمانه بشرك فإن إيمانه باطل ولا شك لايقبل الله منه عدلاً ولا صرفاً [4]

أما ما دون الشرك فهو تحت المشيئة إن شاء الله غفر لصاحبه وإن شاء عذبه به ، كما قال ـ عز وجل ـ في تمام الآية السابقة : ﴿ .. ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ فما دون الشرك إن تاب منه العبد قبل الموت توبة صحيحة قبل منه ولا شك ، أما إذا مات ولم يتب فهو داخل تحت المشيئة ، إن شاء الله عذبه وإن شاء تجاوز عنه وغفر له . كما جاءت بذلك النصوص الشرعية .

٢) خفاء الشرك :

ومما يوجب الحذر من الشرك والعمل على معرفته خفاءه ، ولقد خشي النبي ﷺ على أمته من الوقوع في الشرك فحذرهم منه أشد التحذير حتى قال ﷺ : ((أخوف ما أخاف عليكم الشرك ...) [5]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : (من دخل النار من القائلين لا إله إلا الله لم يحقق إخلاصها المحرم له على النار ؛ بل كان في قلبه نوع من الشرك الذي أوقعه فيما أدخله النار ، والشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل ؛ ولهذا كان العبد مأموراً في كل صلاة أن يقول : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ والشيطان يأمر بالشرك والنفس تطيعه في ذلك ، فلا تزال النفس تلتفت إلى غير الله إما خوفاً منه ، وإما رجاء له ، فلا يزال العبد مفتقراً إلى تخليص توحيده من شوائب الشرك ، وفي

---

(١) سورة الأنعام ٨٢ .

(٢) سورة لقمان ١٣

(٣) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث

(٤) انظر الفتاوى ٢٦٢/٢ .

(٥) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

الحديث الذي رواه بن أبي عاصم وغيره عن النبي ﷺ أنه قال : ((يقول الشيطان : أهلكت الناس بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء فهم يذنبون ولا يستغفرون ؛ لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً)) [١]

فصاحب الهوى الذي اتبع هواه بغير هدى من الله له نصيب ممن اتخذ إلهه هواه ، فصار فيه شرك منعه من الاستغفار ، وأما من حقق التوحيد والاستغفار فلا بد أن يرفع عنه الشر فلهذا قال ذي النون : ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾[٢]... [٣]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : (ذكر الله عن إمامنا إبراهيم خليل الله أنه قال لمناظريه من المشركين الظالمين : ﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ، الذين آمنوا و لم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾[٤]

وفي الصحيح من حديث عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ فسر الظلم بالشرك وقال : ((ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾[٥] فأنكر أن يخاف ما أشركوهم بالله من جميع المخلوقات العلويات والسفليات ، وعدم خوفهم من إشراكهم بالله شريكاً لم ينزل الله به سلطاناً ، وبين أن القسم الذي لم يشرك هو الآمن المهتدي .

وهذه آية عظيمة تنفع المؤمن الحنيف في مواضع ، فإن الإشراك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل دع جليله ، وهو شرك في العبادة والتأله ، وشرك في الطاعة والإنقياد ، وشرك في الإيمان والقبول .

---

(١) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث

(٢) سورة الأنبياء ٨٧ .

(٣) الفتاوى ١٠/٢٦١-٢٦٢ .

(٤) سورة الأنعام ٨٢ .

(٥) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

فالغالية من النصارى والرافض وضلال الصوفية والفقراء [١] والعامة يشتركون بدعاء غير الله تارة ، وبنوع من عبادته أخرى ، وبهما جميعاً تارة ، ومن أشرك هذا الشرك أشرك في الطاعة .

وكثير من المتفقهة وأجناد الملوك ، وأتباع القضاة ، والعامة المتبعة لهؤلاء يشركون شرك الطاعة ، وقد قال النبي ﷺ لعدي بن حاتم لما قرأ : ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم﴾ [٢] فقال : يارسول الله ما عبدوهم ، فقال : ((ما عبدوهم ولكن أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم ، وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم)) [٣]

فتجد أحد المنحرفين يجعل الواجب ما أوجبه متبوعه ، والحرام ما حرمه ، والحلال ما حلله ، والدين ما شرعه إما ديناً ، وإما دنياً ، وإما ديناً ودنياً . ثم يخوف من امتنع من هذا الشرك ، وهو لا يخاف أنه أشرك به شيئاً في طاعته بغير سلطان من الله ، وبهذا يخرج من أوجب الله طاعته من رسول وأمير وعالم ووالد وشيخ وغير ذلك .

وأما الشرك الثالث فكثير في أتباع المتكلمة والمتفلسفة ، بل وبعض المتفقه والمتصوفة ؛ بل وبعض أتباع الملوك والقضاة ، يقبل قول متبوعه فيما يخبر به من الاعتقادات الخبرية ، ومن تصحيح بعض المقالات وإفساد بعضها ، ومدح بعضها ، وبعض القائلين ، وذم بعض بلا سلطان من الله . ويخاف ما أشركه في الإيمان والقبول، ولا يخاف إشراكه بالله شخصاً في الإيمان به وقبول قوله بغير سلطان من الله ...

فباب الطاعة والتصديق ينقسم إلى مشروع في حق البشر وغير مشروع .

وأما العبادة والاستعانة والتأله : فلا حق فيها للبشر بحال ، فإنه كما قال القائل : ما وضعت يدي في قصعة أحد إلا ذللت له ! ...) [٤]

---

(١) أي الصوفية .

(٢) سورة التوبة ٣١ .

(٣) رواه الترمذي في تفسير القرآن (ح٣٠٩٥) وقال : هذا حديث غريب وأخرجه البيهقي في سننه ١٠/١١٦ ، وابن جرير في تفسيره بسنده ١٠/٨١-٨٢ وحسنه شيخ الإسلام في الإيمان ص ٦٤ .

(٤) الفتاوى ١/٩٧-٩٨ .

(والإنسان إما أن يخضع لله أو يخضع لغيره مع خضوعه له ، أو لايخضع لا لله ولا لغيره ولا بد ، فالأول هو المؤمن ، والثاني هو المشرك ، والثالث هو المتكبر الكافر ، وقد لا يكون كافراً في بعض المواضع ، والنصارى آفتهم الشرك ، واليهود آفتهم الكبر ، كما قال تعالى عن النصارى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ وقال عن اليهود : ﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ﴾ [1] ولهذا عوقبت اليهود بضرب الذلة والمسكنة عليهم والنصارى بالضلال والبدع والجهالة .) [2]

والحاصل أن الشرك منه ظاهر جلي قد تقدمت الاشارة إليه ، ومنه خفي قد يقع فيه الكثير من الناس دون التنبه له ، وهذا هو الذي خافه الرسول ﷺ على أمته ، بقوله : ((ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال قال قلنا بلى فقال الشرك الخفي أن يقوم الرجل يصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل)) [3] فالشياطين قد تستدرج العابد وغيره إلى الوقوع في الشرك بحيل شتى ، وطرق مختلفة . ومن هنا فقد كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من أشد ما يكونون في دعوتهم حرصاً على بيان هذا الجانب الخفي ، وإن أكثر من يقع في هذا المحظور أصحاب الكبر والغرور ، والمتبعين لأهوائهم على شتى مذاهبهم ودرجاتهم .

وفيما يلي أبين جوانب قد توقع العبد في الشرك من حيث لا يشعر والتي من أهمها :

أ ـ الإقسام والتوسل بغير الله ونحو ذلك

ب ـ الاحتجاج بالقدر .

د ـ تعظيم غير الله .

هـ ـ القنوط واليأس .

---

(١) سورة الأعراف ١٤٦ .

(٢) الفتاوى ٣٣١/١٨ . بتصرف يسير

(٣) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث

أما الأول : الإقسام والتوسل بغير الله ونحو ذلك :

فإن كثيراً من المسلمين قد وقع فيه ، حيث يقسم بما لايجوز أن يقسم به من مخلوقات الله جل وعلا .

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : أن العبد لايجوز له أن يقسم إلا بالله وحده دون من سواه ، كما هو مقرر في الشريعة الاسلامية ، ويدخل في ذلك الإقسام بذاته أو بأسمائه وصفاته ، وما سوى ذلك فلا يجوز للعبد أن يقسم به ؛ لأن المقسم يعظم المقسم به ، والتعظيم على وجه التعبد لا يكون إلا لله ، فمن صرفه لغيره فقد أشرك .

ومثل ذلك التوسل بالأنبياء أو الأولياء أو الصالحين أو غيرهم من مخلوقات الله ، مما وقع فيه كثير من الناس بتوسلاتهم البدعية ، وما وقع فيه كثير من هذه الأمة من التوسل بنبينا محمد ﷺ لظنهم أن ذلك لا يصل إلى الشرك بالله المحرم في الشرع .

وقد قسم شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : التوسل بالنبي ﷺ إلى ثلاثة أنواع :

أحدها : أن يتوسل بطاعته وبإيمانه به ونحو ذلك فهذا طاعة لايتم الإيمان إلا به .

الثاني : التوسل بدعائه وشفاعته ، وهذا إن كان في حياته فهو جائز ، أما بعد موته فلا ، كما أنه يقع يوم القيامة كما في حديث الشفاعة .

(الثالث : التوسل بمعنى الاقسام على الله بذاته ، والسؤال بذاته ، فهذا هو الذي لم تكن الصحابه يفعلونه في الاستسقاء ونحوه ، لا في حياته ولا بعد مماته ، لا عند قبره ولا غيره قبره ، ولا يعرف هذا في شيء من الأدعية المشهورة بينهم ، وإنما ينقل شيء من ذلك في أحاديث ضعيفة مرفوعة وموقوفة ، أو عن من ليس قوله حجة .

وهذا هو الذي قاله أبو حنيفة وأصحابه : أنه لا يجوز ، ونهوا عنه حيث قالوا :

لايسأل بمخلوق ، ولا يقول أحد : أسألك بحق أنبيائك ، قال أبو الحسين القدروي[١] في كتابه الكبير المسمى بشرح الكرخي في باب الكراهة ، وقد ذكر هذا غير واحد من أصحاب أبي حنيفة .

قال بشر بن الوليد [٢] حدثنا أبو يوسف قال أبو حنيفة : لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به ، وأكره أن يقول " بمعاقد العز من عرشك " أو " بحق خلقك " وهو قول أبي يوسف قال أبو يوسف : بمعقد العز من عرشه هو الله فلا أكره هذا ، وأكره أن يقول بحق فلان أو بحق أنبيائك ورسلك وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام .

قال القدوري : المسأله بخلقة لا تجوز لأنه لا حق للخلق على الخالق فلا تجوز وفاقاً . وهذا الذي قاله أبو حنيفة وأصحابه من أن الله لا يسأل بمخلوق له معنيان :

أحدهما : هو موافق لسائر الأئمة الذين يمنعون أن يقسم أحد بالمخلوق ، فإنه إذا منع أن يقسم على مخلوق بمخلوق فلأن يمنع أن يقسم على الخالق بمخلوق أولى وأحرى .

وهذا بخلاف إقسامه سبحانه بمخلوقاته كالليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى والشمس وضحاها ، والنازعات غرقاً ، والصافات صفاً ، فإن إقسامه بمخلوقاته يتضمن من ذكر آياته الدالة على قدرته وحكمته وحدانيته ما يحسن معه إقسامه بخلاف المخلوق ، فإن إقسامه بالمخلوقات شرك بخالقها كما في السنن عن النبي ﷺ أنه قال : ((من حلف بغير الله فقد أشرك))[٣] وقد

---

(١) هو شيخ الحنفية أبو الحسين أحمد بن محمد بن أحمد بن حمدان البغدادي القدروي ، توفي في رجب سنة ٤٢٨هـ انظر السير ١٧/٥٧٤-٥٧٥ .

(٢) هو قاضي العراق العلامة أبو الوليد بشر بن الوليد بن خالد الكندي الحنفي سمع من الإمام مالك والقاضي أبو يوسف . توفي رحمه الله في ذي القعدة سنة ٢٣٨هـ . انظر السير ١٠/٦٧٣ وما بعدها .

(٣) أخرجه أبو داود عن ابن عمر (ح٣٢٥١) . والإمام أحمد في المسند ٢/٨٧ ، ١٢٥ . عن عمر وقال أحمد شاكر : اسناده صحيح (ح٥٥٩٣) ورواه البيهقي في السنن الكبرى ١٠/٢٩. وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود عن ابن عمر .

صححه الترمذي وغيره ، وفي لفظ ((فقد كفر))[1] وقد صححه الحاكم . وقد ثبت عنه في الصحيحين أنه قال : ((من كان حالفاً فليحلف با لله أو ليصمت))[2] وقال : ((لاتحلفوا بآبائكم فإن ا لله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم))[3] وفي الصحيحين عنه أنه قال : ((من حلف باللات والعزى فليقل لا إله إلا ا لله))[4] ...

والحلف بالمخلوقات حرام عند الجمهور وهو مذهب أبي حنيفة وأحد القولين في مذهب الشافعي وأحمد ، وقد حكي إجماع الصحابه على ذلك ، وقيل هي مكروهة كراهة تنزيه ، والأول اصح ، حتى قال عبد ا لله بن مسعود ، وعبد ا لله بن عباس ، وعبد ا لله بن عمر : (لأن أحلف با لله كاذباً أحب إلى من أن أحلف بغير ا لله صادقاً)[5]. وذلك لأن الحلف بغير ا لله شرك ، والشرك أعظم من الكذب ...)[6] وسيأتي تفصيل هذا قريباً بحول ا لله .

(١) رواه الترمذي في الأيمان والنذور (ح١٥٣٥) بلفظ ((فقد كفر أذ أشرك)) وقال : هذا حديث حسن . ورواه أبو داود في الأيمان والنذور عن ابن عمر بلفظ : (.. فقد أشرك) (ح٣٢٥١) وأحمد (٣٤/٢ ، ٦٧) والبيهقي (٢٩/١٠) وأعله بالإنقطاع . وابن حبان (ح١١٧٧) والحاكم (٢٩٧/٤) عن ابن عمر ، وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه ووافقه الذهبي . ويشهد له الحديث الذي قبله . انظر إرواء الغليل (ح٢٥٦١) .

(٢) رواه البخاري في الشهادات (ح٢٦٧٩) ومسلم في الأيمان (ح١٦٤٦) وأبو داود في الأيمان (ح٣٢٤٩) ومالك في الأيمان والنذور (ح١٠٣٧) والدارمي في الأيمان والنذور (ح٢٣٤١) .

(٣) رواه البخاري في الأدب (ح٦١٠٨) ولفظه : عن ابن عمر رضي ا لله عنهما أنه أدرك عمر بن الخطاب في ركب وهو يحلف بأبيه فناداهم رسول ا لله ﷺ ((ألا إن ا لله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفا فليحلف با لله وإلا فليصمت)) ومسلم في الأيمان (ح١٦٤٦) وأبو دواد في الأيمان والنذور (ح٣٢٤٩) والترمذي في النذور والأيمان (ح١٥٣٤) والنسائي في النذور والأيمان (ح٣٧٦٦) . وابن ماجه في الكفارات (ح٢٠٩٤) .

(٤) رواه البخاري في الأدب (ح٦١٠٧) ومسلم في الأيمان (ح١٦٤٧) وأبو داود في الأيمان والنذور (ح٣٢٤٧) والترمذي في الأيمان والنذور (ح١٥٤٥) والنسائي (ح٣٧٧٥) وابن ماجه في الكفارات (ح٢٠٩٦) .

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (ح.......) وابن أبي شيبة في المصنف (١٧٩/٤) ، وذكره الهيثمي في المجمع (١٧٧/٤) وقال : " رجاله رجال الصحيح " وصححه الألباني في الإرواء (ح٢٥٦٢) .

(٦) الفتاوى ٢٠٢/١-٢٠٤ .

وأما الثاني فهو : الاحتجاج بالقدر :

الاحتجاج بالقدر من الأمور التي اشتهر بها المشركون ، وبعض العصاة من أمة محمد ﷺ وغيرها من الأمم .

ولا شك أن الاحتجاج بالقدر مخل بالتوحيد كما تقدم ، بل إنها حجة إبليس التي لم تزده إلا طرداً ، كما زادت المشركين ضلالاً حين قالوا : ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ﴾[١]

وما يقع من العبد من الذنوب والمعاصي ، وما يصيبه من البلاء ما هو إلا بسبب ذنوبه ، فإذا أيقن العبد بذلك ، فإنه يجب عليه المبادرة بالتوبة والاستغفار من الذنوب والمعاصي ، وحمد الله على قضاءه وقدره فيما صرف عن العبد من البلاء ، وما وقع عليه من المحن ، فيتوب إلى الله ويستغفره ،كما كان النبي ﷺ يقول في خطبته : - ((الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له))[٢] ففي هذا شهادة بأنه المتصرف في خلقه ، وإثبات القضاء الذي هو نظام التوحيد ، وهذا كله مقدمة بين يدي الشهادتين ، ويتحققان بحمد الله وإعانته ، واستغفاره واللجأ إليه والإيمان بأقداره ، فهذه الخطبة عقد نظام الاسلام والإيمان ... [٣]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : (وعلى العبد أن يؤمن بالقدر وليس له أن يحتج به على الله ، فالإيمان به هدى والاحتجاج به على الله ضلال وغي ؛ بل الإيمان بالقدر يوجب أن يكون العبد صباراً شكوراً ، صبوراً على البلاء شكوراً على الرخاء ، إذا أصابته نعمة على أنها من عند الله فشكره .. وإذا أصابته مصيبة صبر عليها .. قال تعالى : ﴿ ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله

---

(١) سورة الأنعام ١٤٨ .

(٢) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث

(٣) انظر الفتاوى ١٤/٢٢٢ .

يهدي قلبه ﴾[1] قالوا : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم .)[2]

(وليس في القدر حجة لابن آدم ولا عذر ، بل القدر يؤمن به ولا يحتج به ، والمحتج بالقدر فاسد العقل والدين ، متناقض ، فإن القدر إن كان حجة وعذراً لزم أن لا يلام أحد ، ولا يعاقب ولا يقتص منه ، وحينئذ فهذا المحتج بالقدر يلزمه إذا ظلم في نفسه وماله وعرضه وحرمته أن لا ينتصر من الظالم ، ولا يغضب عليه ، ولا يذمه ، وهذا أمر ممتنع في الطبيعة لايمكن أن يفعله ، فهو ممتنع طبعاً محرم شرعاً .

ولو كان القدر حجة وعذراً لأحد لم يكن إبليس ملوماً ولا معاقباً ولا فرعون وقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الكفار ، ولا كان جهاد الكفار جائزاً ، ولا إقامة الحدود جائزاً ، ولا قطع السارق ، ولا جلد الزاني ولا رجمه ، ولا قتل القاتل ولا عقوبة معتمد بوجه من الوجوه .

ولما كان الاحتجاج بالقدر باطلاً في فطر الخلق وعقولهم : لم تذهب إليه أمة من الأمم ، ولا هو مذهب أحد من العقلاء ، الذين يطردون[3] قولهم ، فإنه لايستقيم عليه مصلحة أحد ، لا في دنياه ولا آخرته ، ولا يمكن اثنان أن يتعاشرا ساعة واحدة ، إن لم يكن أحدهما ملتزماً مع الآخر نوعاً من الشرع ، فالشرع نور الله في أرضة ، وعدله بين عبادة .

ولا يحتج بالقدر أحد إلا عند اتّباع هواه ، فإذا فعل فعلاً محرماً بمجرد هواه وذوقه ووجده ، من غير أن يكون له علم بحسن الفعل ومصلحته استند إلى القدر ، كما قال المشركون : ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ﴾ قال تعالى : ﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون ۞ قل فلله الحجة البالغة فلو

---

(١) سورة التغابن ١١ .

(٢) الفتاوى ٢٣٧/٨ .

(٣) هكذا في الأصل المطبوع ولعلها " يَطَّرِدُ "

شاء لهداكم أجمعين ﴾ (١) فبين أنهم ليس عندهم علم بما كانوا عليه من الدين وإنما يتبعون الظن ...)(٢)

فالذي يجهل التوحيد والإيمان بالقدر قد يحتج بالقدر على وقوعه في المعصية ، أو عند جزعه بعد وقوع المصيبة ، بل قد يرضى بالمعاصي وينغمس فيها معتقداً أن ذلك من قدر الله وشرعه الذي يرضاه ، وهذا من الجهل بالتوحيد وعدم معرفة الأمور التي تناقضه من الشرك وأفعال المشركين من الاحتجاج بالقدر ونحو ذلك . وإن كان بعضهم يتمسك بحديث احتجاج آدم على موسى ــ عليهما السلام ــ فيما وقع من خروج آدم عليه السلام من الجنة بكون ذلك أمر قدره الله عليه وقضاه (٣)

والعبد مأمور بالامتثال للأمر والنهي ، وليس بمأمور أن يتكلف علم ما لم يصل إلى العلم به من الأمور المغيبه ، ولهذا صح توجه الذم والمدح على الفعل أو عدمه بحسب الامتثال ، فإن من طبيعة المسلم الموحد الإيمان بالقدر وعدم الاحتجاج به على فعله ، وهذا بخلاف المشرك ، فإنه يحتج بالقدر ليبرر كل ما يصدر عنه من عمله ، كما أخبر الله عنهم بقوله : ﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالا تعلمون ﴾ (٤) وكذا احتجاجهم على شركهم بالقدر كما أخبر الله عنهم بقوله : ﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ...﴾ (٥)

وهذا باب واسع للخروج عن الحق ومشابهة المشركين .

وأما الثالث فهو : تعظيم غير الله :

التعظيم للشيء أو عدم تعظيمه من الأمور التعبدية التي لا تخضع لهوى النفوس وأمزجتها ، فلا يجوز تعظيم إلا ما أمر الله بتعظيمه . والتعظيم كله لا يكون إلا لله ــ

---

(١) سورة الأنعام ١٤٩ .

(٢) الفتاوى ٢/٣٢٣-٣٢٤ . وانظر ٨/٣٢٢ وما بعدها ، ٢٣٧ . ١٤/٢٢٢ .

(٣) انظر في بطلان ذلك الفتاوى ٢/٣٢٥ .

(٤) سورة الأعراف ٢٨ .

(٥) سورة الأنعام ١٨٤ .

عز وجل ــ وتعظيم أنبياءه ــ إلى الحد الواجب لهم ــ أمر مشروع ، وأي شيء يعظم غير الله إلى حد الغلو فإنه يفضي إلى الشرك ولا بد ، فإن مبدأ الشرك إنما وقع بسبب تعظيم غير الله والغلو فيه ، الذي أدى في النهاية إلى الوقوع في الشرك ؛كما كان شرك قوم نوح حيث عظموا أولئك الصالحين من قومهم فصوروا صوراً لهم أدى ذلك بهم إلى عبادتها [١]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : (وأصل الشرك في بنى آدم كان من الشرك بالبشر والصالحين المعظمين ، فإنهم لما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم ثم عبدوهم .

فهذا أول شرك كان في بنى آدم ، وكان في قوم نوح عليه السلام فإنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض يدعوهم إلى التوحيد وينهاهم عن الشرك ، كما قال تعالى : ﴿ وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً ، وقد أضلوا كثيراً ﴾[٢] وهذه أسماء قوم صالحين كانوا في قوم نوح ، فلما ماتوا جعلوا الأصنام على صورهم ثم ذهبت هذه الأصنام لما أغرق الله أهل الأرض ، ثم صارت إلى العرب ، كما ذكر ذلك ابن عباس وغيره .) [٣]

ومما وقع فيه كثير من أتباع أمة محمد ﷺ ما ظنوه من باب الكرامات ، وذلك أنهم (جوزوا الكرامات لكل من زعم الصلاح ، ولم يقيدوا الصلاح بالعلم والإيمان الصادق والتقوى ، بل جعلوا علامات الصلاح هذه الخوارق ، وجوزوا الخوارق مطلقاً ، وحكوا في ذلك مكاشفات وقالوا أقوالاً منكرة .

فقال بعضهم : إن الولي يعطى قول " كن " وقال بعضهم : إنه لا يمتنع على الولي فعل ممكن ، كما لايمتنع على الله تعالى فعل محال .

وهذا قاله ابن عربي والذين اتبعوه ، قالوا : إن الممتنع لذاته مقدور عليه ، ليس عندهم ما يقال : إنه غير مقدور عليه للولي ، حتى ولا الجمع بين الضدين ، ولا غير

---

(١) انظر الفتاوى ٦٠٦/٢٨ .

(٢) سورة نوح ٢٣ .

(٣) الفتاوى ٣٦٣/١٤ .

ذلك ، زاد ابن عربي : إن الولي لا يعزب عن قدرته شيء من الممكنات ، والذي لايعزب عن قدرته شيء من الممكنات : هو الله وحده .

فهذا تصريح منهم : بأن الولي مثل الله ، إن لم يكن هو الله .وصرح بعضهم : بأنه يعلم كل ما يعلمه الله ، ويقدر على كل ما يقدر الله عليه .

وادعوا أن هذا كان للنبي ﷺ ثم انتقل إلى الحسن بن علي ، ثم من الحسن إلى ذريته واحداً بعد واحد ، حتى انتهى ذلك إلى أبي الحسن الشاذلي[(١)] ، ثم إلى ابنه .

خاطبني بذلك : من هو من أكابر أصحابهم . وحدثني الثقة من أعيانهم ، أنهم يقولون : إن محمداً هو الله .

وحدثني بعض الشيوخ الذين لهم سلوك وخبرة : أنه كان هو وابن هود في مكة ، فدخلا الكعبة ، فقال له ابن هود ـ وأشار إلى وسط الكعبة ـ هذا مهبط النور الأول ، وقال له : لو قال لك صاحب هذا البيت : أريد أن أجعلك إلهاً ماذا تقول له ؟ قال : فقف شعري من هذا الكلام وانخنست أو كما قال .)[(٢)] .

فكان مبدأ الشرك وأساسه من تعظيم غير الله الذي قد لايفطن له كثير من المسلمين ، وإن كان مبدأه قليلاً أو صغيراً ، إلا أنه مع مر الزمان يتحول إلى أمر مسلم لايقبل النقاش والجدال ، فتكون النهاية تعظيمه تعظيم عبادة ؛ لاسيما وأن هذا الأمر تدخل فيه الأهواء والشهوات والرغبات حتى يعظم مالا يجوز تعظيمه .

وهكذا حال من لايعرف ربه حقه المعرفة ، و لم يحقق التوحيد ويتعرف على نواقضه من الشرك ونحوه .

وأما الأمر الرابع : فهو القنوط واليأس

تقدم أن القنوط واليأس من رحمة الله من الأمور التي تخل بالتوحيد وتمنع من تحقيقه [(٣)] ولا يصل العبد إلى هذه الدرجة إلا إذا كان معرضاً عن فهم التوحيد ومعرفة الشرك ؛ لأن من لا يعرف الشرك وأسبابه ووسائله فقد يقع فيه من حيث لايشعر أن

---

(١) سبقت ترجمته انظر ص

(٢) الفتاوى ١٤/٣٦٤ـ٣٦٥ .

(٣) انظر ص ٢٧٧ .

هذا من أسباب الشرك المؤدية إلى الانغماس فيه والعياذ با لله ، فإن العبد إذا قنط ويأس من رحمة ا لله اتجه إلى المخلوقين يطلب منهم المدد والعون ، وقد يؤدي به ذلك إلى الانغماس في الشهوات والملذات لا يعبأ بأمر ا لله ولا بنهيه ؛ بل قد يخوض في الشرك والكفر ؛ لأنه يعتقد أن باب رحمة ا لله قد أغلق دونه ، فهو يفعل ما يريد ، بلا وازع ولا رقيب ، كما في قصة ذلك الرجل من بني اسرائل الذي قتل تسعاً وتسعين نفساً ، فاستفتى ذلك الراهب الذي أفتى له بأن باب التوبة مغلق دونه ، فما كان منه إلا أن قتله وكمل به المائة [١] بخلاف من عرف التوحيد وعرف أن ا لله غفور رحيم ودود أرحم بالعباد من المرأة بولدها ، يقبل توبة التائب ويعفو عن ذنب المذنب ، يدعو عباده إلى التقرب إليه بالعمل الصالح . [٢]

كما أنه في المقابل يعلم أن القنوط من رحمة ا لله أمر محرم مناقض للتوحيد والإخلاص لرب العالمين ، مناقض لصفاته سبحانه ، وهو مسلك الكفار .

والمقصود هنا الاشارة إلى أن القنوط واليأس قد ينقلان صاحبهما من زمرة الموحدين ويقذفانه في زمرة الكافرين المشركين ، لما فيهما من الاعراض عما أثبته ا لله لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ من سعة رحمة ا لله وعموم فضله إلى عباده التائبين ، كما تواترت بذلك النصوص من الكتاب والسنة .

٣) المفاصلة بين المؤمنين والمشركين :

لقد قطع ا لله ـ عز وجل ـ كل صلة تصل المسلم بالمشرك ، وأمر المسلمين أن ينبذوا المشركين حتى لو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم كل أولئك تنقطع أواصر المودة والمحبة لهم ، حتى يدخلوا في الإسلام ، وهذا واضح لكل من عرف الإسلام وشريعته .

أما من غفل عن التوحيد فإنه قد يقع في خلاف ذلك من مداهنة الكفار ومولاتهم ومحبتهم ونحو ذلك مما يناقض التوحيد ، وهذا لا شك يوجب معرفة الشرك وأهله حتى تتم البراءة منه ومن أهله .

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (ح٣٤٧٠) ومسلم في التوبة (ح٢٧٦٦) .

(٢) انظر الفتاوى ١٦/١٩ــ٢٢ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : (قد أمر الله [نبيه محمد ﷺ] بالبراءة من كل معبود سواه ، وهذه ملة إبراهيم الخليل عليه السلام وهو مبعوث بملته ، قال الله تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون ، إلا الذي فطرني فإنه سيهدين ، وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون ﴾ (١)

وقال الخليل أيضاً : ﴿ ياقوم إني بريء مما تشركون ، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾ (٢)

وقال : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ (٣)

وقال لنبية : ﴿ وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴾ فقد أمره الله أن يتبرأ من عمل كل من كذبه ، وتبريه هذا يتناول المشركين وأهل الكتاب ...) (٤)

وقال سبحانه بياناً لوجوب التبرء من المشركين والمفاصلة التامة بين المسلمين والمشركين ، ـ وذلك عندما عرض المشركون على النبي ﷺ أن يدخلوا في دينه عاماً ويدخل في دينهم عاماً فأنزل الله سورة الكافرون ـ : ﴿ قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولي دين ﴾ حيث أمر الله ـ جل وعلا ـ نبيه بأن يقول لهم أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدونه في الحاضر والمستقبل من تلك المعبودات ، ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ أي أبداً ما حييت ، فلن أعبد ما عبدتم في الزمن الماضي ؛ لأن المشركين يعبدون آلهة شتى وليس معبودهم في كل وقت المعبود في الوقت الآخر ، كما أن كل طائفة لها معبود سوى معبود الطائفة الأخرى . ففي هذا براءة من كل ما عبدوه في

---

(١) سورة الزخرف ٢٦-٢٨ .

(٢) سورة الأنعام ٧٨-٧٩ .

(٣) سورة الممتحنة ٤ .

(٤) الفتاوى ٥٤٦/١٦ .وانظر ص ٥٩٩ .

الأزمنة الماضية ، كما تبرأ أولاً مما عبدوه في الحال والاستقبال ، فتضمنت الجملتان البراءة من كل ما يعبده المشركون والكافرون في كل زمان ماض وحاضر ومستقبل ، وقوله : ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ تضمنت نفي إمكان عبادة معبوداتهم في الماضي والمستقبل وقبوله ولو في بعض الزمان الماضي فقط ، والتقدير : ما عبدتموه ولو في بعض الأزمان الماضية فأنا لا يمكنني ولا يسوغ لي أن أعبده أبداً . فهو ينفي جوازه شرعاً ووقوعاً . وقوله : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ إذ لايمكن أن تعبده نفوسكم الخبيثة الكافرة ما دامت كذلك ، إذ لا تكون عابدة له إلا بأن تعبده وحده بما أمر به على لسان محمد ﷺ ومن كان كافراً بمحمد لايكون عمله عبادة لله قط .[(١)]

وهذه السورة عامة في كل كافر ، قال عكرمة : برأه الله بهذه السورة من عبدة جميع الأوثان ، وجميع الكفار ، وقال قتادة : أمر الله نبيه أن يتبرأ من المشركين فتبرأ منهم ...

ومثلها قوله ﷻ : ﴿ قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ، ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ، بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾[(٢)] فهذا خطاب لكل من عبد غير الله وإن كان قدر له أن يتوب فيما بعد ، وكذلك كل مؤمن يخاطب بهذا من عبد غير الله .[(٣)] انتهى ملخصاً .

فتبين من هذا أن المسلم يجب أن يتبرأ من كل كافر ولو كان أقرب قريب ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على عظم الشرك ، وأنه جرم لا يغفر ولا يمكن أن يتهاون فيه أبداً ، ومن عرف هذا حق المعرفة اتضح له عظم الشرك ووجوب معرفته ومن ثم الحذر والخوف من الوقوع فيه ، لاسيما وأن أهله هم المنبوذون في الدنيا قبل الآخرة حتى من أقرب قريب .

---

(١) وانظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢٢٧/٨-٢٢٨ ، فقد نقل فيها أربعة أقوال تقدم منها ضمناً في كلام شيخ الإسلام ثلاثة ، وأما الرابع فقالوا : إن التكرار هنا من باب التأكيد المحض . لكن شيخ الإسلام أعرض عنه هنا لكون حمله على المعنى أولى من قولنا إنه تأكيد محض . والله تعالى أعلم .

(٢) سورة الزمر ٦٤-٦٦ .

(٣) انظر الفتاوى ٥٣٩/١٦-٥٦١ .

٤) النهي عن الاستغفار للمشركين :[١]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : (الشفاعة للكفار بالنجاة من النار والاستغفار لهم مع موتهم على الكفر لا تنفعهم ولو كان الشفيع أعظم الشفعاء جاهاً فلا شفيع أعظم من محمد ﷺ ثم الخليل ابراهيم ، وقد دعا الخليل ابراهيم عليه السلام لأبيه واستغفر له كما قال تعالى عنه : ﴿ ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾[٢] وقد كان ﷺ أراد أن يستغفر لأبي طالب اقتداء بإبراهيم عليه السلام وأراد بعض المسلمين أن يستغفر لبعض أقاربه فأنزل الله تعالى : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولوكانوا أولي قربي من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾ [٣] ثم ذكر الله عذر ابراهيم عليه السلام فقال : ﴿ وما كان استغفار ابراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن ابراهيم لأواه حليم ، وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتي يبين لهم ما يتقون ﴾[٤] وثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : ((يلقى ابراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة ، فيقول له ابراهيم : ألم أقل لك لا تعصني ؟ فيقول له أبوه : فاليوم لا أعصيك . فيقول ابراهيم : يارب أنت وعدتني أن لا تخزن يوم يبعثون ، وأي خزي أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقول الله ـ عز وجل ـ : إني حرمت الجنة على الكافرين ، ثم يقال : انظر ما تحت رجليك فينظر فإذا هو بذيخ[٥] متلطخ فيؤخذ

---

(١) الفرق بين هذا وبين الذي قبله العموم والخصوص ، فالأول عام في مقاطعة المشركين في كل شيء ، وهذا خاص وجزء من الأول ، حيث تغلب الأنسان أحجياناً الرحمة لقريبه ومحبة الخير له ، فيدفعه ذلك إلى حب الاستغفار له ، وأن يكون من أهل الجنة ، ولهذا أفرد هنا بالذكر .

(٢) سورة ابراهيم ٤١ .

(٣) سورة التوبة ١١٣ .

(٤) سورة التوبة ١١٤-١١٥ .

(٥) قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ والذيخ : ذكر الضباع فيمسخ آزر بتلك الصورة ؛ ويؤخذ بقوائمه فيلقى في النار فلا يُعرَف أنه أبو إبراهيم . انظر الفتاوى ٢٦٢/٢٧ . وانظر غريب الحديث لابن قتيبة ٢٣٦/١ .واللسان مادة ذيخ ١٦/٣ .

بقوائمه فيلقى في النار))[1] فهذا لما مات مشركاً لم ينفعه استغفار ابراهيم مع عظم جاهه وقدره ، وقد قال تعالى للمؤمنين : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العدواة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ، إلا قول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ، ربنا لاتجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم ﴾[2]

فقد أمر الله المؤمنين بأن يتأسوا بإبراهيم ومن اتبعه إلا في قول ابراهيم لأبيه ﴿ لأستغفرن لك ﴾ فإن الله لايغفر أن يشرك به .

وكذلك سيد الشفعاء محمد ﷺ ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : ((استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي ، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي))[3] ...)[4]

فإذا كان هذا حال المشرك قد قطعت جميع أواصر الصلة به حتى في الدعاء والاستغفار حيث جاء النهي عن ذلك . فما ظنك بمن جهله و لم يعرف منه إلا الاسم ، فإن هذا يخشى عليه من الوقوع فيه والعياذ بالله .



(١) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث

(٢) سورة الممتحنة ٤

(٣) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث

(٤) الفتاوى ١/١٤٥-١٤٦ .

المحبـــث: بيانـــه لعظـــم الشـــرك وقبحـــه

تمهيد

وبعد بيان أهمية العلم بالأمور الشركية من أجل أخذ الحذر والحيطة من الوقوع فيه ، يجدر بيان عِظَمَهُ وقُبْحَه ، لاسيما وأن النصوص الشرعية جاءت بالتحذير من الشرك وأهله ، والأمر بإخلاص العبادة لله وحده دون من سواه .

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : أن الواجب على العباد إخلاص جميع أمورهم التعبدية لله وحده ، والحذر من الشرك ، والخوف من الوقوع فيه .

قال ــ رحمه الله ــ : (.. العبادة كلها لله وحده لاشريك له : ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾[1] وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : ((إن الله يرضى لكم ثلاثاً : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم)) [2] وإخلاص الدين لله هو أصل العبادة .

ونبينا ﷺ نهى عن الشرك دقه وجله ، حقيره وكبيره ، حتى أنه قد تواتر عنه أنه نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت غروبها بألفاظ متنوعة : تارة يقول : ((لاتَحَرَّوا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها))[3] وتارة ينهى عن الصلاة بعد طلوع الفجر حتى تطلع الشمس ، وبعد العصر حتى تغرب الشمس[4] ، وتارة يذكر أن الشمس إذا طلعت طلعت بين قرني شيطان[5] ، وحينئذ يسجد لها الكفار ، ونهى عن الصلاة في هذا الوقت لما فيه من مشابهة المشركين في كونهم

---

(١) سورة البينة ٥ .

(٢) تقدم تخريجه انظر الفهارس.

(٣) رواه البخاري في مواقيت الصلاة (ح٥٨٥) ومسلم في صلاة المسافرين (ح٨٢٨)

(٤) رواه البخاري في مواقيت الصلاة (ح٥٨٤ ، ٥٨٨) ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (ح٨٢٥) والنسائي في الموقيت (ح٥٦١) وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (ح١٢٤٨)ومالك في النداء للصلاة (ح٥١٤) .

(٥) أخرجه البخاري في بدء الخلق (ح٣٢٧٣) ومسلم في المساجد ومواضح الصلاة (ح٦١٢، ٦٢٨) والنسائي في المواقيت (ح٥٧٠)

يسجدون للشمس في هذا الوقت ، وأن الشيطان يقارن الشمس حينئذ ليكون السجود له ؛ فكيف بما هو أظهر شركاً ومشابهة للمشركين من هذا . وقد قال الله تعالى فيما أمر رسوله أن يخاطب به أهل الكتاب : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾[1] وذلك لما فيه من مشابهة أهل الكتاب من اتخاذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله ، ونحن منهيون عن مثل هذا ، ومن عدل عن هدي نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وهدي أصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى ماهو من جنس هدي النصارى فقد ترك ما أمر الله به ورسوله .)[2]

ولقد اتفق المسلمون على تحريم الشرك وتحريم صرف أي نوع من أنواع العبادة لغير الله .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : (.. فإن المسلمون متفقون على ما علموه بالاضطرار من دين الاسلام أن العبد لا يجوز له أن يعبد ، ولا يدعو ولا يستغيث ، ولا يتوكل إلا على الله ، وأن من عبد ملكاً مقرباً ، أو نبياً مرسلاً أو دعاه أو استغاث به فهو مشرك ، فلا يجوز عند أحد من المسلمين أن يقول القائل يا جبرائيل ، أو يا ميكائيل ، أو يا ابراهيم أو ياموسى ، أو يارسول الله اغفرلي أو ارحمني أو ارزقني ، أو انصرني ، أو أغثني ، أو أجرني من عدوي ، أو نحو ذلك ؛ بل ذلك كله من خصائص الإلهية .

وهذه مسائل شريفة معروفة قد بينها العلماء ، وذكروا الفرق بين حقوق الله التي يختص بها الرسل ، والحقوق التي له ولرسله ، كما يميز سبحانه بين ذلك في مثل قوله : ﴿ وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً ﴾ [3] فالتعزير والتوقير للرسول ، والتسبيح بكرة وأصيلاً لله .)[4]

---

(١) سورة ال عمران ٦٤ .

(٢) الفتاوى ٢٧/٩٣ـــ٩٥ .

(٣) سورة الفتح ٩ .

(٤) الفتاوى ٣/٢٧٢ .

ويتبين عظـم الشرك وقبحـه بعدة أمـور منهـا مـا يلـي :

١) أن الشـرك أعظـم الفسـاد :

فمـن المعلـوم أن العبـد لا صـلاح لـه ولا فـلاح لا في الدنيـا ولا في الآخـرة إلا بعبـادة الله جـل وعـلا وتوحيـده ، والتوجـه إليـه وحـده في القصـد والطلـب ، فحقيقـة العبـد القلـب والـروح ، ولا صـلاح ولا فـلاح لهـا إلا بعبـادة إلههـا الواحـد الأحـد الفـرد الصمـد ، فـلا تطمئـن إلا إليـه ولا لـذة في الدنيـا ولا في الآخـرة إلا بتوحيـده ، ولـو حصـل في الدنيـا لـذات وسـرور بغـيره فإنهـا لا تـدوم ، بـل قـد يؤذيـه اتصالـه بهـذه اللـذة مـن جهتهـا .

ولهـذا فـإن مـن أشـرك مـع الله غـيره يصبـح في تعاسـة وشـقاء تـامين ؛ لأنـه حينـذاك يكـون قـد افتقـد غـذاء روحـه ، وخسـر قوتـه وصلاحـه وقوامـه الـذي لا يتـم إلا بـإخلاص العبـادة لله وحـده لا شـريك لـه .[١] وبهـذا يكـون المشـرك فقـد أهـم شـيء في حياتـه ، وإن كـان يملـك الدينـار والدرهـم .

قـال شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة - رحمـه الله - : (الشـرك أعظـم الفسـاد كمـا أن التوحيـد أعظـم الصـلاح ؛ ولهـذا قـال تعـالى : ﴿ إن فرعـون عـلا في الأرض وجعـل أهلهـا شـيعاً يسـتضعف طائفـة منهـم يذبـح أبنـاءهم ويسـتحيي نسـاءهم إنـه كـان مـن المفسـدين ﴾ [٢] إلى أن ختـم السـورة بقولـه : ﴿ تلـك الـدار الآخـرة نجعلهـا للذيـن لا يريـدن علـواً في الأرض ولا فسـاداً والعاقبـة للمتقـين ﴾ [٣] وقـال : ﴿ وقضينـا إلى بـني اسـرائيل في الكتـاب لتفسـدُنَّ في الأرض مرتـين وَلَتَعْلُـنَّ عُلُـواً كَبِـيْرَاً ﴾ [٤] وقـال : ﴿ مـن أجـل ذلـك كتبنـا علـى بـني اسـرائيل أنـه مـن قتـل نفسـاً بغـير نفـس أو فسـاد في الأرض

(١) انظـر الفتـاوى ١/٢٤ـ٢٥ .

(٢) سـورة القصـص ٤ .

(٣) سـورة القصـص ٨٣ .

(٤) سـورة الإسـراء ٤ .

فكأنما قتـل النـاس جميعـاً ومـن أحياهـا فكأنمـا أحيـا النـاس جميعـاً ﴾ [١] وقـالت الملائكـة : ﴿ أتجعـل فيهـا مـن يفسـد فيهـا ويسـفك الدمـاء ﴾ [٢]

فـأصل الصـلاح التوحيـد والإيمـان وأصـل الفسـاد الشـرك والكفـر ، كمـا قـال عـن المنـافقين : ﴿ وإذا قيـل لهـم لاتفسـدوا في الأرض قـالوا إنمـا نحـن مصلحـون ، ألا إنهـم هـم المفسـدون ولكـن لا يشـعرون ﴾[٣] وذلـك أن صـلاح كـل شـيء أن يكـون بحيـث يحصـل لـه وبـه المقصـود الـذي يـراد منـه ، ولهـذا يقـول الفقهـاء : العقـد الصحيـح مـا ترتـب عليـه أثـره وحصـل بـه مقصـوده والفاسـد مـالم يـترتب عليـه أثـره ولم يحصـل بـه مقصـود ، والصحيـح المقـابل للفاسـد في اصطلاحهـم هـو الصـالح .)[٤]

وقـال (وقولـه عـز وجـل : ﴿ ولا تفسـدوا في الأرض بعـد اصلاحهـا ﴾[٥] قـال أكـثر المفسـرين : لاتفسـدوا فيهـا بالمعـاصي ، والداعـي إلى غـير طاعـة الله بعـد اصـلاح الله إياهـا ببعـث الرسـل وبيـان الشـريعة والدعـاء إلى طاعـة الله [مُفْسِـد] فـإن عبـادة غـير الله والدعـوة إلى غـيره والشـرك بـه هـو أعظـم الفسـاد في الأرض ، بـل فسـاد الأرض في الحقيقـة إنمـا هـو الشـرك بـالله ، ومخالفـة أمـره . قـال الله تعـالى : ﴿ ظهـر الفسـاد في الـبر والبحـر بمـا كسـبت أيـدي النـاس ﴾ [٦] ...

وبالجملـة فالشـرك والدعـوة إلى غـير الله ، وإقامـة معبـود غـيره ، أو مطـاع متبـع غـير الرسـول ﷺ هـو أعظـم الفسـاد في الأرض ، ولا صـلاح لهـا ولأهلهـا إلا أن يكـون الله وحـده هـو المعبـود والدعـوة لـه لا لغـيره ، والطاعـة والاتبـاع لرسـول الله ﷺ وغـيره إنمـا تجـب طاعتـه إذا أمـر بطاعـة الرسـول ﷺ فـإن أمـر بمعصيتـه فـلا سمـع ولا طاعـة ، فـإن الله أصلـح الأرض برسـوله ﷺ ودينـه ، وبـالأمر بـالتوحيد ، ونهـى عـن فسـادها بالشـرك بـه ومخالفـة رسـوله ﷺ .

---

(١) سـورة المـائدة ٣٢ .

(٢) سـورة البقـرة ٣٠ .

(٣) سـورة البقـرة ١١ .

(٤) الفتـاوى ١٨/١٦٢ـ١٦٣ وانظـر الفتـاوى الكـبرى (المصريـة)١/٩٥ .

(٥) سـورة الأعـراف ٥٦ .

(٦) سـورة الـروم ٤١ .

ومن تدبر أحوال العالم وجد أن لكل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته ، وطاعة رسوله ﷺ ، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة الرسول ﷺ والدعوى إلى غيرة الله . ومن تدبر هذا حق التدبر وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه ، وفي غيره عموماً وخصوصاً ولا حول ولا قوة إلا بالله .) [١]

٢) الشرك أعظم السيئات

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : (أمر سبحانه بطاعته وطاعة رسله ، ونهى عن معصيته ومعصية رسله ، أمر بالتوحيد والإخلاص ، ونهى عن الإشراك بالله ، فأعظم الحسنات التوحيد ، وأعظم السيئات الشرك ، قال الله تعالى : ﴿ إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾[٢]وقال تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾[٣]

وفي الصحيحين عن ابن مسعود ﷺ قال : ((قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم ؟ قال أن تجعل لله نداً وهو خلقك ، قلت ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك ، قلت ثم أي ؟ قال : أن تزني بحليلة جارك . فأنزل الله تصديق ذلك ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق آثاما ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً ، إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾[٤].[٥] ...) [٦]

---

(١) الفتاوى ١٥/ ٢٤ـ٢٥ .

(٢) سورة النساء ٤٨ .

(٣) سورة البقرة ١٦٥ .

(٤) سورة الفرقان ٦٨-٧١ .

(٥) سبق تخريجه ، انظر الفهرس

(٦) الفتاوى ٢٥١/١١-٢٥٢ . وانظر ٦٥٩/١١ ، ٦٨٥ ، ١٩٩/١٠ .

كمـا أمـر سـبحانه باتبـاع شـرعه (وذم مـن شـاق الرسـول واتبـع غـير سـبيل المؤمنين ، وتعظيـم أمـر الشـرك ، وشـديد خطـره وأن ا لله لايغفـره ، ولكـن يغفـر مـا دونـه لمـن يشـاء .. [و] بـين أن أحسـن الأديـان ديـن مـن يعبـد ا لله وحـده لايشـرك بـه شيئاً ، بشـرط أن تكـون عبادتـه بفعـل الحسـنات الـتي شـرعها لا بـالبدع والأهـواء . وهـم أهل ملـة إبراهيـم الذيـن اتبعـو ملـة إبراهيـم حنيفـاً ﴿ واتخـذ ا لله ابراهيـم خليـلاً ﴾ [١]

فكـان في الأمـر بطاعـة الرسـول ﷺ والجهـاد عليهـا اتبـاع التوحيـد ، وملـة ابراهيـم ، وهـو إخـلاص الديـن لله ، وأن يعبـد ا لله بمـا أمـر بـه علـى ألسـن رسـله مـن الحسـنات) [٢]

فتبـين بهـذا أن التوحيـد أعظـم الحسـنات كمـا أن الشـرك أعظـم السـئآت وأقبحهـا شرعاً وعقلاً ممـا يبن قبـح الشـرك وعظمـه .

٣) تخبـط المشـرك:

ممـا يبـين قبـح الشـرك وعظمـه أن المشـرك دائمـا مضطـرب بحسـب كـل صيحـة عليـه ، فيخـاف مـن المخلوقـين أشـد مـن خوفـه مـن ا لله ؛ بـل ويرجوهـم دائمـاً أعظـم ممـا يرجـو ا لله ، فيحصـل لـه مـن التخبـط والاضطـراب والألم والرعـب والهلـع مـا ا لله بـه عليـم . أمـا المؤمن الموحد فهـو بخلاف ذلـك كلـه .

قـال شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة – رحمـه ا لله – : (المشـرك يخـاف المخلوقـين ويرجوهـم ، فيحصـل لـه رعـب كمـا قـال تعـالى : ﴿ سـنلقي في قلـوب الذيـن كفـروا الرعـب بمـا أشـركوا بـا لله مـا لم ينـزل بـه سـلطاناً ﴾ [٣] والخـالص مـن الشـرك يحصـل لـه الأمـن كمـا قـال تعـالى : ﴿ الذيـن آمنـوا و لم يلبسـوا إيمـانهم بظلـم أولئـك لهـم الأمـن وهـم مهتـدون﴾ [٤] وقـد فسـر النـبي ﷺ الظلـم هنـا بالشـرك ، ففـي الصحيـح عـن ابـن مسعود : ((أن هـذه الآيـة لمـا نزلـت شـق ذلـك علـى أصحـاب النـبي ﷺ وقـالوا : أينـا لم

---

(١) سـورة النسـاء ١٢٥ .

(٢) الفتـاوى ١٤/٢٣١-٢٣٢ .

(٣) سـورة ال عمـران ١٥١ .

(٤) سـورة الأنعـام ٨٢ .

يظلـم نفسـه ؟ فقـال النـبي ﷺ : إنمـا هـذا الشـرك ، ألم تسـمعوا إلى قـول العبـد الصالح : ﴿ إن الشـرك لظلـم عظيـم ﴾ [1])[2] ، (فالشـرك أعظـم الظلـم . قـال ابـن مسـعود : قلـت يارسـول ا لله : أي الذنـب أعظـم ؟ قـال : ((أن تجعـل لله نـداً وهـو خلقـك)) [3] ...)[4]

و(قـال تعـالى : ﴿ ومـن النـاس مـن يتخـذ مـن دون ا لله أنـداداً يحبونهـم كحـب ا لله ، والذيـن آمنوا أشـد حبـاً لله ولـو يـرى الذيـن ظلمـوا إذا يـرون العـذاب أن القـوة لله جميعـاً وأن ا لله شـديد العـذاب ۞ إذ تـبرأ الذيـن اتبعـوا مـن الذيـن اتبعـوا ورأو العـذاب وتقطعـت بهـم الأسباب ، وقـال الذيـن اتبعـوا لـو أن لنـا كـرة فنتـبرأ منهـم كمـا تـبرؤا منـا ، كذلـك يريهـم ا لله أعمـالهم حسـرات عليهـم ومـا هـم بخـارجين مـن النـار ﴾ [5] وقـال تعـالى : ﴿ قـل ادعـوا الذيـن زعمتـم مـن دونـه فـلا يملكـون كشـف الضـر عنكـم ولا تحويـلاً أولئـك الذيـن يدعـون يبتغـون إلى ربهـم الوسية أيهـم أقـرب ويرجـون رحمتـه ويخافون عذابـه إن عـذاب ربـك كـان محـذوراً ﴾ [6] ولهـذا يذكـر ا لله الأسـباب ويـأمر بـأن لا يعتمـد عليهـا ، ولا يُرْجَى إلا ا لله ، قـال تعـالى لمـا أنـزل الملائكـة : ﴿ ومـا جعلـه ا لله إلا بشـرى ولتطمئـن قلوبكـم بـه ، ومـا النصـر إلا مـن عنـد ا لله العزيـز الحكيـم ﴾ [7] وقـال : ﴿ إن ينصركـم ا لله فـلا غـالب لكـم وإن يخذلكـم فمـن ذا الـذي ينصركـم مـن بعـده وعلـى ا لله فليتوكـل المؤمنـون ﴾[8] ...)[9]

---

(١) سـورة لقمـان ١٣ .

(٢) الفتـاوى ٥٧٧/١٦ .

(٣) تقـدم تخريجـه انظـر الفهـرس .

(٤) الفتـاوى ٥٧٧/١٦ .

(٥) سـورة البقـرة ١٦٧ .

(٦) سـورة الإسـراء ٥٧ .

(٧) سـورة ال عمـران ١٢٦ .

(٨) سـورة ال عمـران ١٦٠ .

(٩) الفتـاوى ٢٥٧/١٠-٢٥٨ .

وهذا حال المؤمن الذي يأتي بالسبب ولايعتمد عليه ، أما المشرك فإن اعتماده على السبب لا على المسبب ، بل يعتمد على ما زعمه أن إلهه ينفعه ويضره ، ولذا فهو يقع في بلاء ومحن ، في الروح والجسد يعذب به في الدنيا قبل الآخرة ، ومع هذا العذاب الذي يحصل للمشرك في الدنيا جزاء شركه ، فإن هذه الأنداد التي اتخذها من دون الله تتخلى عنه في وقت هو بأمس الحاجة إليها . فتجده تارة يستغيث بالله ، وتارة يستغيث بغيره من الإنس أو الجن ، وتارة يستغيث ببعض الأموات ، وتارة ببعض الأحياء ، ومرة يخاف من هذا ، ومرة يخاف من ذاك ، ومرة يجعل له الحجب لدفع الشر جلب الخير ، مرة يستعين بالسحرة والمشعوذين ليعرف ما ينتظره من خير أو شر، ونحو ذلك .

فهو دائم التغيير لمن يستغيث به حسب ما يبدو لعقله القاصر ، وكل هذا التخبط نتيجة طبيعية للمشرك بعد أن جعل لله شركاء ، حيث تركه الله وشركه . ومع هذا التخبط كله فهو مستكبر عن الحق ومتعال على الله وعلى خلقه .

٤) المشرك مستكبر ومتعالي عن عبادة الله ومتعالي على خلقه :

ومما يبين عظم الشرك وقبحه أن المشرك يكون في الغالب مستكبراً عن عبادة ربه ، متعال على كل من يدعوه إلى توحيد العبادة لله وحده ، وعلى كل من يبين له قبح ماهو عليه من الشرك .

ولذا فإن أعظم الناس شركاً المستكبرين عن عبادة الله جل وعلا ، وقد حرم الله عليهم الجنة ومأواهم النار وبئس القرار .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : بعد ذكره وجوب الاستسلام لله لا لغيره : (فالمستسلم له ولغيره مشرك والممتنع عن الاستسلام له مستكبر ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أن الجنة لا يدخلها من في قلبه مثقال ذرة من كبر ، كما أن النار لا يدخلها من في قلبه مثقال ذرة من إيمان [1] فجعل الكبر مقابلاً للإيمان ، فإن الكبر ينافي حقيقة العبودية ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : ((يقول الله

---

(١) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث

العظمـة ازاري والكبريـاء ردائـي فمـن نـازعني واحـداً منهـا عذبتـه)) [(١)] فالعظمــة والكبريــاء مـن خصـائص الربوبيـة والكبريـاء أعلـى مـن العظمـة ؛ ولهــذا جعلهـا بمنزلـة الرداء ، كمـا جعـل العظمـة بمنزلـة الإزار ... قـال تعــالى : ﴿ وقـال ربكـم ادعونـي أسـتجب لكـم إن الذيـن يسـتكبرون عـن عبـادتي سيدخلون جهنـم داخريـن ﴾[(٢)]

وكـل مــن اسـتكبر عــن عبــادة ا لله لابـد أن يعبـد غـيره ، فـإن الانسـان حسـاس يتحرك بالإرادة .. وكل ارادة فلابـد لهـا مـن مـراد تنتهـي إليـه ، فـلا بـد لكـل عبـد مـن مـراد محبـوب هـو منتهـي حبـه وإرادتـه ، فمـن لم يكـن ا لله معبـوده ومنتهــى حبـه وإرادتـه ؛ بـل استكبر عـن ذلـك فـلا بـد أن يكـون لـه مــراد محبـوب يسـتعبده غــير ا لله ، فيكـون عبـداً لذلـك المـراد المحبـوب ، إمـا المـال وإمـا الجـاه ، وإمـا الصـورة ، وإمـا مـا يتخـذه إلهـاً مـن دون ا لله كالشـمس والقمـر والكواكـب والأوثـان وقبـور الأنبيـاء والصـالحين ، أو مـن الملائكـة والأنبياء الذيـن يتخذهـم أربابـاً ، أو غـير ذلـك ممـا عبـد مـن دون ا لله .

وإذا كـان عبـداً لغير ا لله يكـون مشـركاً ، وكـل مستكبر فهـو مشـرك ، ولهــذا كـان فرعـون مـن أعظـم الخلـق استكباراً عـن عبـادة ا لله ، وكـان مشـركاً . قـال تعـالى : ﴿ ولقـد أرسـلنا موسـى بآياتنـا وسـلطان مبـين ، إلى فرعـون وهامـان وقـارون فقـالوا سـاحر كـذاب ﴾[(٣)] إلى قولـه : ﴿ وقـال موسـى إنـي عـذت بربـي وربكـم مـن كـل متكـبر لا يؤمـن بيـوم الحسـاب ﴾ إلى قولـه : ﴿ كذلـك يطبـع ا لله علـى كـل قلـب متكـبر جبـار ﴾[(٤)] وقـال تعـالى : ﴿ وقـارون وفرعـون وهامـان ولقـد جـاءهم موسـى بالبينـات فاسـتكبروا في الأرض ومـا كـانوا سـابقين ﴾[(٥)] وقـال تعـالى : ﴿ إن فرعـون عـلا في

(١) رواه مسـلم في الـبر والصلـة والآداب (ح٢٠٢٦) وأبـو داود في اللبـاس (ح٤٠٩٠) وابـن ماجـه في الزهـد (ح٤١٧٤) إلا أن لفظـه عنـد أبـي دواد : ((.. فمـن نـازعني واحـد منهـا قذفتـه في النـار)) عـن أبـي هريـرة ، أمـا لفظـه عنـد مسـلم فهـو : ((العـز إزاره والكبريـاء رداؤه فمـن ينـازعني عذبتـه)) عـن أبـي هريـرة وأبـي سـعيد رضـي ا لله عنهمـا .

(٢) سـورة غـافر ٦٠ .

(٣) سـورة غـافر ٢٣-٢٤ .

(٤) سـورة غـافر ٣٥ .

(٥) سـورة العنكبـوت ٣٩ .

الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين إنه كان من المفسدين ﴾ إلى قوله : ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾(١) ومثل هذا في القرآن كثير .

وقد وصف فرعون بالشرك في قوله : ﴿ وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك ﴾(٢) بل الاستقراء يدل على أنه كلما كان الرجل أعظم استكباراً عن عبادة الله كان أعظم إشراكاً بالله ؛ لأنه كلما استكبر عن عبادة الله ازداد فقره وحاجته إلى المراد المحبوب الذي هو المقصود ، مقصود القلب بالقصد الأول ، فيكون مشركاً بما استعبده من ذلك ...)(٣)

والسبب في استكبار المشرك وتعاليه عن عبادة الله ، وتعاليه على خلقه إنما يعود إلى الجهل بعاقبة الأمور ، وضيق التفكير ، والرغبة في التعالى لتغطية النقص الذي يشعر به ، لما ورثه من الأنفة الجاهلية ، حيث تأخذه العزة بالإثم فيترفع عن قبول الحق لكونه معجباً بنفسه مزدرياً لغيره ، قال تعالى عن قوم نوح : ﴿ أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾(٤) وقال عنهم أيضاً : ﴿ وقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ﴾(٥) وكذا من جاء بعدهم من الكفار ، كانوا يستكبرون عن عبادة ربهم واتباع رسله لأجل هذا .

وهذا مما يبين أن الشرك من أعظم الذنوب وأقبحها ، وأن ضررها يقع أول ما يقع على النفس ولا يقتصر عليها ؛ بل يتعداها إلى الفساد في الأرض والعمل على خرابها . فإذا ما تعالى عن عبادة ربه ، فمن الطبيعي أن يتعالى عن قبول الحق في الأرض والسعي في تمكينه ، فيكون شأنه شأن من قال الله فيه : ﴿ وإذا تولى سعى في

---

(١) سورة القصص من ٤-٤٠ .

(٢) سورة الأعراف ١٢٧ .

(٣) الفتاوى ١٠/١٩٦-١٩٨ .

(٤) سورة الشعراء ١١١ .

(٥) سورة هود ٢٧ .

الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ، وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد ﴾ [(١)] .

٥) الشرك فيه استهزاء بالله:

يبين شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : أن في شرك المشركين استهزاء بالله في عبادتهم غيره ، بل إنهم ليمقتون من يدعونهم إلى توحيد الله وحسن عبادته ، ويستهزؤن بهم ويرمونهم بالتهم . واستهزاءهم إما أن يكون استهزاءً بآيات الله أو برسوله ﷺ أو بمن يدعوهم إلى توحيده واخلاص الدعاء له أو غير ذلك .

قال ــ رحمه الله ــ في الكلام على قوله تعالى : ﴿ قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن ﴾ [(٢)] قال : (تدل على أن الاستهزاء بالله كفر ، وبالرسول كفر من جهة الاستهزاء بالله وحده كفر بالضرورة ، فلم يكن ذكر الآيات والرسول شرطاً فعلم أن الاستهزاء بالرسول كفر ، وإلا لم يكن لذكره فائدة ، وكذلك الآيات .

وأيضاً فالاستهزاء بهذه الأمور متلازم ، والضالون مستخفون بتوحيد الله تعالى يعظمون دعاء غيره من الأموات ، وإذا أمروا بالتوحيد ونهوا عن الشرك استخفوا به ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً ﴾ الآية ، فاستهزأوا بالرسول ﷺ لما نهاهم عن الشرك ، وما زال المشركون يسبون الأنبياء ويصفونهم بالسفاهة والضلال والجنون إذا دعوهم إلى التوحيد ، لما في أنفسهم من عظيم الشرك .

وهكذا تجد من فيه شبه منهم إذا رأى من يدعو إلى التوحيد استهزأ بذلك لما عنده من الشرك ، قال الله تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ﴾ [(٣)] فمن أحب مخلوقاً مثل ما يحب الله فهو مشرك ، ويجب التفريق بين الحب في الله والحب مع الله .

---

(١) سورة البقرة ٢٠٥ -٢٠٦ .

(٢) سورة التوبة ٦٥ .

(٣) سورة البقرة ١٦٥ .

فهؤلاء الذين اتخذوا القبور أوثاناً تجدهم يستهزؤون بما هو من توحيد الله وعبادته ، ويعظمون ما اتخذوه من دون الله شفعاء ، ويحلف أحدهم اليمين الغموس كاذباً ولا يجترء أن يحلف بشيخه كاذباً .

وكثير من طوائف متعددة ترى أحدهم يرى أن استغاثته بالشيخ إما عند قبره أو غيره قبره أنفع له من أن يدعو الله في المسجد عند السحر ، ويستهزء بمن يعدل عن طريقته إلى التوحيد ، وكثير منهم يخربون المساجد ويعمرون المشاهد ، فهل هذا إلا من استخفافهم بالله وبآياته ورسوله ؟ وتعظيمهم للشرك .

وإذا كان لهذا وقف ولهذا وقف كان وقف الشرك أعظم عندهم ؛ مضاهات لمشركي العرب الذين ذكرهم الله في قوله : ﴿ وجعلوا لله مما ذرا من الحرث والأنعام نصيباً ﴾ (١) الآية ، فيفضلون ما يجعل لغير الله على ما يجعل لله ويقولون : الله غني وآلهتنا فقيرة .

وهؤلاء إذا قصد أحدهم القبر الذين يعظمه يبكي عنده ويخشع ويتضرع مالا يحصل له مثله في الجمعة ، والصلوات الخمس ، وقيام الليل ، فهل هذا إلا من حال المشركين لا الموحدين ، ومثل هذا أنه إذا سمع أحدهم سماع الأبيات حصل له من الخشوع والحضور مالا يحصل له عند الآيات ، بل يستثقلونها ويستهزؤن بها ، وبمن يقرؤها مما يحصل لهم به أعظم نصيب من قوله : ﴿ قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون ﴾ (٢)

والذين يجعلون دعاء الموتى أفضل من دعاء الله منهم من يحكي أن بعض المريدين استغاث بالله فلم يغثه ، واستغاث بشيخه فأغاثه ، وأن بعض المأسورين دعا الله فلم يخرجه ، فدعا بعض الموتى فجاءه فأخرجه إلى بلاد الإسلام ، وآخر قال : قبر فلان الترياق المجرب .

ومنهم من إذا نزل به شدة لايدعو إلا شيخه ؛ قد لهج به كما يلهج الصبي بذكر أمه ، وقد قال تعالى للموحدين : ﴿ فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله

---

(١) سورة الأنعام ١٣٦ .

(٢) سورة التوبة ٦٥ .

كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً ﴾ [1] وقد قال شعيب : ﴿ ياقوم أرهطي أعز عليكم من الله ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ﴾ [3] ...) [4]

فاتضح من هذا أن المشركين أعظم الناس استهزاء بالله وبآياته ، ولا أعظم من عدولهم عن عبادة الله إلى عبادة غيره مما كان له أعظم الأثر في وقوع ما بعده من الكفر والزندقة[5]

٦) عبادة المشرك لما لاينفع ولا يضر:

ومما يبين عظم الشرك وقبحه أن كل ما عبد من دون الله ـ جل وعلا ـ فهو لايملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، فضلاً عن أن يملك لغير النفع أو يدفع عنه الضر ، قال تعالى : ﴿ قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم نفعاً ولا ضراً والله هو السميع العليم ﴾ [6] وقال سبحانه آمراً نبيه محمداً ﷺ أن يقول : ﴿ قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ...﴾ [7] وقال سبحانه : ﴿ قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفاً ولا ضراً ...﴾ [8] وقال سبحانه وتعالى منكراً على قوم موسى

---

(١) سورة البقرة ٢٠٠ .

(٢) سورة هو ٩٢ .

(٣) سورة الحشر ١٣ .

(٤) الفتاوى ١٥/٤٨ـ٥٠

(٥) ومما يجدر التنبيه إليه أن من الاستهزاء ما يفضي إلى الكفر في النهاية ، وأن له صوراً كثيرة قد يقولها الإنسان ولا يدرك مخاطرها . وقد يكون الاستهزاء بالسب والشتم ، وقد يكون بقصد إضحاك الناس من الدين وأهله ، وقد يكون بألفاظ يراد من ورائها احتقار أهل الدين كالكلمات الدارجة لقولهم " دقن " أو " اذهب إلى المسجد " أو " مطوع " على سبيل الاستهزاء والاستنقاص ، أوغير ذلك من الألفاظ القديمة والحديثة التي تفضي بصاحبها إلى الكفر من حيث لا يشعر الإنسان بذلك . وقد وصف الله من نزل فيهم الآية المذكورة بالكفر بمجرد وصفهم لصحابة رسول الله ﷺ بأنهم يأكلون كثيراً ولا يشبعون ، وأن بطونهم كبيرة ، وهي كلمات تبدوا أقل مما يطلقه الناس في وقتنا الحاضر . وهؤلاء أولى بالسخرية والاستهزاء ، كما قال نوح عليه السلام : ﴿ إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون ﴾ هود ٣٨ .

(٦) سورة المائدة ٧٦ .

(٧) سورة النساء ١٨٨ .

(٨) سورة الرعد ١٦ .

اتخـاذهم العجـل : ﴿ أفـلا يـرون أنـه لا يرجـع إليهـم قـولاً ولا يملـك لهـم ضـراً ولا نفعاً ﴾ (١) وقـال سبحانه : ﴿ ومـن الناس مـن يعبـد ا لله علـى حـرف فـإن أصابـه خـير اطمـأن بـه وإن أصابتـه فتنـة انقلب على وجهـه خسـر الدنيـا والآخـرة ذلـك هـو الخسـران المبين ۞ يدعـو مـن دون ا لله مـا لايضـره ومـالا ينفعـه ذلـك هـو الضـلال البعيـد ۞ يدعـوا لمن ضره أقـرب مـن نفعـه لبئـس المولى ولبئـس العشـير ﴾ (٢)

قـال شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة - رحمـه ا لله - : (قولـه : ﴿ مـالا يضـره ومـا لا ينفعـه ﴾ هـو نفـي لكـون المدعـو المعبـود مـن دون ا لله يملـك نفعـاً أو ضـراً ، وهـذا يتنـاول كـل مـا سـوى ا لله مـن الملائكـة والبشـر والجـن والكواكـب والأوثـان كلهـا ، فإنمـا سـوى ا لله لايملـك لا لنفسـه ولا لغـيره ضـراً ولا نفعـاً ، كمـا قـال تعـالى في سياق نهيـه عـن عبـادة المسيح : ﴿ لقـد كفـر الذيـن قـالوا إن ا لله هـو المسيح بـن مريـم وقـال المسيح يـابني اسـرائيل اعبـدوا ا لله ربـي وربكـم إنـه مـن يشـرك بـا لله فقـد حـرم ا لله عليـه الجنـة ومـأواه النـار ومـاللظـالمين مـن أنصـار ۞ لقـد كفـر الذيـن قـالوا إن ا لله ثـالث ثلاثـة ومـا مـن إلـه إلا إلـه واحـد وإن لم ينتهـو عمـا يقولـون لَيَمَسَّنَّ الذيـن كفـروا منهـم عـذاب أليـم ۞ أفـلا يتوبـون إلى ا لله ويستغفرونه وا لله غفـور رحيـم ۞ مـا المسيح بـن مريـم إلا رسـول قـد خلـت مـن قبلـه الرسـل وأمـه صديقـة كانـا يـأكلان الطعـام انظـر كيـف نبـين لهـم الآيـات ثـم انظـر أنـى يؤفكـون ۞ قـل أتعبـدون مـن دون ا لله مـالا يملـك لكـم ضـراً ولا نفعـاً وا لله هـو السـميع العليـم ﴾(٣) وقـال لخـاتم الرسـل : ﴿ قـل لا أملـك لنفسـي نفعـاً ولا ضـراً إلا مـا شـاء ا لله ﴾ (٤) وقـال : ﴿ قـل إنـي لا أملـك لكـم ضـراً ولا رشـداً ﴾(٥) وقـال علـى العمـوم : ﴿ مـا يفتـح ا لله للنـاس مـن رحمـة فـلا ممسـك لهـا ومـا يمسـك فـلا مرسـل لـه مـن بعـده ﴾(٦) وقـال : ﴿ وإن يمسسـك ا لله بضـر فـلا كاشـف لـه إلا هـو وإن يـردك بخـير فـلا

---

(١) سـورة طـــه ٨٩ .

(٢) سـورة الحـج ١١ـــ ١٣ .

(٣) سـورة المـائدة ١٧-٢٠ .

(٤) سـورة الأعـراف ١٨٨ .

(٥) سـورة الجـن ٢١ .

(٦) سـورة فـاطر ٢ .

راد لفضله ﴾ [١] وقال : ﴿ قل أرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾[٢] وقال صاحب يس : ﴿ ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ، إني إذا لفي ضلال مبين إن آمنت بربكم فاسمعون ﴾[٣] وقوله : ﴿ يدعو من دون الله ما لايضره وما لاينفعه ﴾ نفي عام كما في قوله : ﴿ لايملك لهم ضراً ولا نفعاً ﴾ فهو لايقدر أن يضر أحداً سواء عبده أو لم يعبده ولا ينفع أحداً سواء عبده أو لم يعبده ...

[فـ] لا ينفع ولا يضر مطلقاً [إلا الله] ، فإن الله سبحانه وسعت رحمته كل شيء وهو ينعم على كثير من خلقه وإن لم يعبدوه ، فنفعه للعباد لايختص بعابديه ... وما دونه لا ينفع لا من عبده ولا من لم يعبده ، وهو سبحانه الضار النافع ، قادر على أن يضر من يشاء ، وإن كان ما ينزله من الضر بعابديه هو رحمه في حقهم كما قال أيوب : ﴿ وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ﴾[٥] ...

والمقصود هنا أن نفي الضر والنفع عمن سواه عام لا يجب أن يخص هذا بمن عبده ، وهذا بمن لم يعبده ، وإن كان هذا التخصيص حقاً باعتبار صحيح ، وجواب من أجاب بأن معناه لا يضر ترك عبادته وضره بعبادته أقرب من نفعه مبني على هذا التخصيص .) [٦]

---

(١) سورة الأنعام ١٧ .

(٢) سورة الزمر ٣٨ .

(٣) سورة يس ٢٣ - ٢٤.

(٤) سورة الأنبياء ٨٣ .

(٥) سورة الأنعام ١٧ .

(٦) الفتاوى ١٥/٢٧٠-٢٧٣ .

وأما قوله تعالى : ﴿ يدعو لمن ضره أقرب من نفعه ﴾[١] فقد بين ــ رحمه الله ــ أنه لا يفهم منه أن تلك المعبودات تملك الضر ، فإن المنفي هو فعلهم ، والمثبت اسم مضاف إليه ، ولم يقل يضر أعظم مما ينفع ، بل قال : ﴿ لمن ضره أقرب من نفعه ﴾ والشيء يضاف إلى الشيء بأدنى مُلاَبَسَة ، فكأنه قال : لمن شره أقرب من خيره ، وخسارته أقرب من ربحه .

(ولوجعل هو فاعل الضر بهذا[٢] ؛ لأنه سبب فيه ؛ لا لأنه هو الذي فعل الضر ، وهذا كقول الخليل عن الأصنام : ﴿ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس ﴾[٣] فنسب الإضلال إليهن ، والإضلال هو ضرر لمن أضللنه ، وكذلك قوله : ﴿ وما زادوهم غير تتبيب ﴾[٤] وهذا كما يقال : أهلك الناس الدرهم والدينار ، وأهلك النساء الأحمران : الذهب والحرير ، وكما يقال للمحبوب والمعشوق الذي تضر محبته وعشقه : إنه عذب هذا وأهلكه وأفسده وقتله وغثره ، وإن كان ذلك المحبوب قد لا يكون شاعراً بحال هذا البتة ، وكذلك يقال في المحسود : إنه يعذب حاسديه وإن كان لا شعور له بهم .

وفي الصحيحين عن عمرو بن عوف عن النبي ﷺ أنه قال : ((والله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخاف أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتتنافسوا فيها كما تنافسوا فيها وتهلككم كما أهلكتهم))[٥] فجعل الدنيا المبسوطة هي المهلكة لهم ، وذلك بسبب حبها والحرص عليها والمنافسة فيها ، وإن كانت مفعولاً بها لا اختيار لها ، فكذا المدعو المعبود من دون الله الذي لم يأمر بعبادة نفسه إما لكونه جماداً ، وإما لكونه عبداً مطيعاً لله من الملائكة والأنبياء والصالحين من الإنس والجن ، فما يدعى من دون الله هو لاينفع ولا يضر ؛ لكن هو السبب في دعاء

---

(١) سورة الحج ١٣ .

(٢) أي ما يلحق بسبب عبادته من الضر والخذلان في الدنيا والآخرة .

(٣) سورة ابراهيم ٣٦ .

(٤) سورة هود ١٠١ .

(٥) رواه البخاري في المغازي (ح٤٠١٥) ومسلم في الزهد والرقائق (ح٢٩٦١) والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (ح٢٤٦٢) .وابن ماجه في الفتن (ح٣٩٩٧) .

الداعـي لـه وعبادتـه إيـاه ، وعبـادة ذاك ودعـاؤه هـو الـذي ضـره ، فهـذا الضـر المضـاف إليـه غير الضر المنفـي عنـه فضـرر العـابد لـه بعبادتـه يحصـل في الدنيـا والآخـرة .)[1]

وعلى هذا فإن المشـرك أيـاً كـان إلهـه ومعبـوده فإنـه لـن يملـك لـه ضـراً ولا رشـداً ، لـن يملـك لـه نصـراً ولا عـزاً ، لا جلبـاً للخير ولا رداً للشـر ، بـل إن الضـر والبـلاء قـد يأتيـه مـن جهتـه ، حيـث اتخذه نـداً لله ، فـأصبح عملـه هبـاء منثـوراً كمـا مثـل ذلـك سبحانه بقولـه : ﴿ والذيـن كفـروا أعمـالهم كسـراب بقيعـة يحسـبه الضمـآن مـاءاً حتـى إذا جـاءه لم يجـده شيئاً ووجـد ا لله عنـه فوفـاه حسـابه ﴾ [2] .

ففـي الآخـرة يتبـين لهـم بطـلان كـل مـا عبـدوه مـن دون ا لله ، فضـلاً عمـا يلحقهـم في الدنيا مـن الضـرر بسـبب عبـادتهم إياهـا .

وبالجملـة فـإن تلـك النصـوص في كتـاب ا لله وفي سـنة نبيـه ﷺ وغيرهـا ممـا لانريـد الاطالـة بذكـره كلهـا تـدل على عظـم الشـرك وقبحـه ، وأن المشـرك يعبـد مـالا ينفعـه ومـالا يضـره ، سـواء كـان ذلـك المعبـود بشـكل حيـوان أو جمـاد ، وهـو ظـاهر بالتـأمل لـولا غلبـة الجهـل وتقليـد الآبـاء في عبـادة غـير ا لله .

ومـن العجيـب أن المشـركين الذيـن بعـث إليهـم النـبي ﷺ لا يعتقـدون حصـول النفـع والضـر استقلالاً مـن آلهتهـم ، وإنمـا يزعمـون أنهـا وسـائط إلى ا لله ـ عـز وجـل ـ بـين هـذا قولـه سبحانه عنهـم : ﴿ مـا نعبدهـم إلا ليقربونـا إلى ا لله زلفـى ﴾[3]

٧) الشـرك ظلـم وبغـي وعـدوان :

الشـرك مـن أعظـم الظلـم على وجـه الإطـلاق ، كمـا قـال جـل وعـلا علـى لسـان لقمـان : ﴿ يـابني لا تشـرك بـا لله إن الشـرك لظلـم عظيـم ﴾[4] فالمشـرك يقـع في الظلـم

---

(١) الفتـاوى ١٥/٢٧٣-٢٧٤ .

(٢) سـورة النـور ٣٩ .

(٣) سـورة الزمـر ٣ .

(٤) سـورة لقمـان ١٣ .

والغواية ، الظلم لله[1] ـ عز وجل ـ والغواية عن طريقه المستقيم وهذا يتبين من عدة جوانب وضحها شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ ومنها :

أ) أن المشرك لم يقدر الله حق قدره :

إن مما يبين قبح الشرك وعظمه أن المشرك لم يعرف لله حقاً ، ولم يقدر لله قدراً ، ولم يرى لله فضلاً ، ، قال سبحانه : ﴿ وما قدروا لله حق قدره إذا قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾[2]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : (والله سبحانه قد ذكر في هذه الكلمة ﴿ ما قدروا الله حق قدره ﴾ في ثلاث مواضع ؛ ليثبت عظمته في نفسه ، وما يستحقه من الصفات ، وليثبت وحدانيته وأنه لا يستحق العبادة إلا هو ، وليثبت ما أنزله على رسله ، فقال في الزمر : ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ﴾الآية[3] وقال في الحج : ﴿ ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز ﴾ [4] وقال في الأنعام : ﴿ وما قدروا لله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾[5]

وفي المواضع الثلاثة ذم الذين ما قدروه حق قدره من الكفار ...

---

(١) ليس المقصود بالظلم هنا مثل ما يقع من العباد على العباد ، بل المقصود أن العبد بانتهاكه حرمه أمر ربه ، وانتهاكه لنهي خالقه ومالكه ، وصرفه خالص حق الله ـ عز وجل ـ إلى غيره يكون قد اعتدى على حق ربه ، وهذا هو عين الظلم والجهل ، وليس المقصود به ما ينتج ويترتب عليه من الأثر ، بل الله عز وجل هو المؤثر وحده ، والله لايقع عليه ظلم ولا نقص في كماله وقدرته ، وإنما الظلم في هذا الحال يرجع إلى العبد = = ذاته ، والضر من ظلمه إنما يقع على نفسه لا يلحق الله منه شيئاً ،. كما قال سبحانه : ﴿ ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾ [سورة الطلاق ١]وقوله : ﴿ ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ﴾ [سورة محمد ﷺ ٣٨] مع أنه النفقة قد أمر الله بها فمن عصاه و لم ينفق فقد بخل على نفسه . وقوله : ﴿ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه ﴾ [سورة النساء ١١١] .

(٢) سورة الأنعام ٩١ .

(٣) سورة الزمر ٦٧ .

(٤) سورة الحج ٧٤ .

(٥) سورة الأنعام ٩١ .

ودلت الآية على أنه له قدراً عظيماً ؛ لاسيما قوله : ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ .. وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : ((يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض ؟))[١] وفي الصحيحين عن ابن عمر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ((يطوي الله ـ عز وجل ـ السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول : أين الملوك ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون؟))[٢] ...

وقوله : ﴿ عما يشركون ﴾ فكل من جعل مخلوقاً مثلاً للخالق في شيء من الأشياء فأحبه مثل ما يحب الخالق ، أو وصفه بمثل ما يوصف به الخالق فهو مشرك سوى بين الله وبين المخلوق في شيء من الأشياء فعدل بربه . والرب تعالى لا كفؤ له ولا سمي له ، ولا مثل له ، ومن جعله مثل المعدوم والممتنع فهو شر من هؤلاء ، فإنه معطل ممثل ، والمعطل شر من المشرك .) [٣]

ب) الشرك عصيان وتمرد على أمر الخالق :

لقد خلق الله الخلق لعبادته ، فهو المقصود المطلوب ، فكل أمر أمر به فهو مطلوب ومقصود ، وكل نهي نهى عنه فهو زيغ وانحراف عن الاستقامة ، ووضع للشيء في غير موضعه ، ومن كان هذا حاله فقد دخل في أوسع أبواب الظلم ، وهو العدول عن طاعة الله إلى طاعة غيره ، ولهذا كان جماع الخير اخلاص الدين كله لله بامتثال أمره واجتناب نهيه ، وكل أمر لايحصل فيه هذا المقصود فهو باطل .

قال تعالى : ﴿ قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين ﴾ [٤]

---

(١) رواه البخاري في تفسير القرآن (ح ٤٨١٢) ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار (ح٢٧٨٧) وابن ماجه في المقدمة (ح١٩٢) والدارمي في الرقاق (ح٢٧٩٩) .

(٢) رواه البخاري في التوحيد (ح٧٤١٣) ومسلم في صفة القيامة الجنة والنار (ح ٢٧٨٨) واللفظ له ، ورواه ابن ماجه في المقدمة (ح١٩٨) وفي الزهد (ح٤٢٧٥) .

(٣) الفتاوى ١٥/١٦٠ــ ١٦٤ .

(٤) سورة الأعراف ٢٩ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : (فهذه الآية في سورة الأعراف المشتملة على أصول الدين ، والاعتصام بالكتاب ، وذم الذين شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله كالشرك وتحريم الطيبات ، أو خالفوا ما شرعه من أمور دينهم كإبليس ، ومخالفي الرسل من قوم نوح إلى قوم فرعون ، والذين بدلوا الكتاب من أهل الكتاب ، فاشتملت .. على ذم من أتي بدين باطل ككفار العرب ، ومن خالف الدين الحق كله ؛ كالكفار بالأنبياء ، أو بعضه ككفار أهل الكتاب .

وقد جمع سبحانه في هذه السورة وفي الأنعام وفي غيرهما ذنوب المشركين في نوعين :

أحدهما : أمر بما لم يأمر الله به كالشرك ، ونهى عما لم ينه الله عنه كتحريم الطيبات ، فالأول شرع من الدين ما لم يأذن به الله .

والثاني : تحريم لما لم يحرمه الله .

وكذلك في الحديث الصحيح عن عياض بن حمار ﷺ عن النبي ﷺ عن الله تعالى : ((إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين ، فحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً)) (١)

ولهذا كان ابتداع العبادات الباطلة من الشرك ونحوه هو الغالب على النصارى ومن ضاهاهم من منحرفة المتعبدة والمتصوفة ، وابتداع التحريمات الباطلة هو الغالب على اليهود ومن ضاهاهم من منحرفة المتفقهة ... [فـ] توحيد الله الذي هو إخلاص الدين له والعدل الذي نفعله نحن هو جمع الدين يرجع إلى ذلك ، فإن إخلاص الدين لله أصل العدل ، كما أن الشرك بالله ظلم عظيم .) (٢)

وهو كذلك وضع للشيء في غير موضعه ، [فإن صرف العبادة لمستحقها وهو الله – عز وجل – إلى غيره من مخلوقاته هو وضع للشيء في غير موضعه . وهو من الظلم الذي بينه شيخ الإسلام – رحمه الله –] فيما يلي :

---

(١) رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (ح٢٨٦٥) .

(٢) الفتاوى ١/٨٦-٨٧ .

ج) الشرك وضع للشيء في غير موضعه :

إن العبد مفتقر إلى الله أيما افتقار ، ومحتاج إلى عبادته وطاعته أشد من احتياجه للطعام والشراب ، وقد أمره الله ـ عز وجل ـ بذلك ، وأرسل إليه الرسل من أجل أن يحقق العبادة لله ـ عز وجل ـ وليحذره من الشرك به ، إلا أننا نجد العباد يحيدون عن أمره وطاعته ، فيصرفون العبادة لغيره ، مع إنعامه عليهم وتفرده برزقهم وتدبير شؤونهم ، بل إنك لتعجب كل العجب من تكبر العباد عن عبادة ربهم مع كون كل من في السماء والأرض قد أسلم له وانقاد وأذعن طوعاً أو كرها .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : (قال ـ جل وعلا ـ : ﴿ أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرها ﴾ [1] فذكر اسلام الكائنات طوعاً وكرهاً ؛ لأن المخلوقات جميعها متعبدة له التعبد العام ، سواء أقر المقر بذلك أو أنكره ، وهم مدينون مدبرون ، فهم مسلمون له طوعاً وكرهاً ، ليس لأحد من المخلوقات خروج عما شاءه وقدره وقضاه ، ولا حول ولا قوة إلا به ، وهو رب العالمين ، ومليكهم يصرفهم كيف يشاء ، وهو خالقهم كلهم وبارئهم ومصورهم ، وكل ما سواه فهو مربوب مصنوع مفطور فقير محتاج معبد مقهور ، وهو الواحد القهار الخالق البارئ المصور ...

وهو سبحانه وحده الغني عن كل ما سواه ليس له شريك يعاونه ولا ضد يناوئه ويعارضه . قال تعالى : ﴿ قل أرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته ؟ قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾ [2] وقال تعالى : ﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير ﴾ [3] ...

وإبرهيم الخليل إمام الحنفاء المخلصين ، حيث بعث وقد طبق الأرض دين المشركين قال الله تعالى : ﴿ وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك

---

(١) سورة ال عمران ٨٣ .

(٢) سورة الزمر ٣٨ .

(٣) سورة الأنعام ١٧ .

للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾ [١] فبين أن عهده بالإمامة لا يتناول الظالم ، فلم يأمر الله سبحانه أن يكون الظالم إماماً وأعظم الظلم الشرك .)[٢]

فكل من عبد غير الله ورغب بعبادة ما سواه عن عبادته ، وتوجه بطلبه إلى الفقير الحقير ، وانصرف عن الغني الجواد القدير ، فقد اقترف أعظم الظلم وأساء أعظم الإساءة ، حيث وضع الشيء في غير موضعه ، والله الذي خلقه وأوجده من عدم ، ثم رباه ورزقه وتكفل له بما يعينه على البقاء في الحياة الدنيا على قيد الحياة إلى حين الأجل .

قال سبحانه في الحديث القدسي : ((إني والإنس والجن لفي نبأ عظيم ، أخلق ويعبد غيري ، وأرزق ويدعى سواي)) [٣]

وهذا مما يؤكد أن كل معبود يعبده سوى الله فهو ناقص ضعيف لايملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، فضلاً عن أن يملك لغيره ، بينما المعبود الحق سبحانه في غاية الكمال والجلال والقدرة والملك ، وهذا الفعل من المشرك إنما يدل على جهله وعدله عن الله بغيره في العبادة ، وهذا من أعظم الاستنقاص لرب العباد ، والازدراء ونكران الجميل .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : (قد بين سبحانه أنه أحق بالكمال من غيره ، وأن غيره لا يساويه في الكمال ،في مثل قوله تعالى : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ﴾ [٤] وقد بين أن الخلق صفة كمال ، وأن الذي يخلق أفضل من الذي لايخلق وأن من عدل هذا بهذا فقد ظلم .

وقال تعالى : ﴿ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا

---

(١) سورة البقرة ١٢٤ .

(٢) الفتاوى ١٠/٢٠٠-٢٠١ .

(٣) تقدم تخريجه انظر الفهارس.

(٤) سورة النحل ١٧ .

يعلمـون ﴾ (١) فبـين أن كونـه مملوكـاً عـاجزاً صفـة نقـص ، وأن القـدرة والملـك والإحسان صفة كمـال ، وأنـه ليس هـذا مثـل هـذا ، وهـذا لله وذاك لما يعبـد من دونـه .

وقـال تعالى : ﴿ وضرب ا الله مثلاً رجلين أحدهما أبكـم لا يقـدر على شـيء وهـو كـل على مولاه أينما يوجـه لايأت بخير هـل يستوي هـو ومـن يـأمر بـالعدل وهـو علـى صراط مستقيم ﴾ (٢) وهـذا مثـل آخـر ، فـالأول مثـل العـاجز عـن الكـلام ، وعـن الفعـل الـذي لا يقـدر علـى شـيء ، والآخـر المتلكـم الآمـر بـالعدل الـذي هـو علـى صـراط مستقيم ، فهـو عـادل في أمـره مستقيم في فعلـه .

فبـين أن التفضيـل بـالكلام المتضمـن للعـدل والعمـل المسـتقيم ، فـإن مجـرد الكـلام والعمـل قـد يكـون محمـوداً وقـد يكـون مذمومـاً ، فـالمحمود هـو الـذي يسـتحق صاحبـه الحمد [والعبـادة]، فـلا يستوي هـذا والعـاجز عـن الكـلام والفعـل .

[وقـال تعالى :﴿ واتخـذ قـوم موسـى مـن بعـده مـن حليهـم عجـلاً جسـداً لـه خـوار ألم يـروا أنـه لايكلمهـم ولا يهديهـم سـبيلاً اتخـذوه وكـانوا ظـالمين ﴾ (٣) فـدل ذلـك علـى أن عـدم التكلـم والهدايـة نقـص ، وأن الـذي يتكلـم ويهـدي أكمـل ممـن لا يتكلـم ولا يهـدي والـرب أحـق بالكمـال .](٤)

وقـال تعـالى ﴿ ضـرب لكـم مثـلاً مـن أنفسـكم هـل لكـم ممـا ملكـت أيمـانكم مـن شـركاء فيمـا رزقنـاكم فـأنتم فيـه سـواء تخـافونهم كخيفتكـم أنفسـكم كذلـك نفصـل الآيـات لقـوم يعقلـون ﴾ (٥)

يقـول تعـالى : إذا كنتـم أنتـم لا ترضـون بـأن المملوك يشـارك مالكـه لما في ذلـك مـن النقص والظلـم فكيـف ترضـون ذلـك لي وأنـا أحـق بالكمـال والغنـى منكـم ؟

وهـذا يبين أنـه تعالى أحـق بكـل كمـال مـن كـل أحـد ، وهـذا كقولـه : ﴿ وإذا بشـر أحدهم بالأنثى ضل وجهـه مسـوداً وهـو كظيـم ۞ يتـوارى مـن القـوم مـن سـوء مـا بشـر بـه

(١) سـورة النحـل ٧٥ .
(٢) سـورة النحـل ٨٦ .
(٣) سـورة الأعـراف ١٤٨ .
(٤) الفتـاوى ٧٩/٦ .
(٥) سـورة الـروم ٢٨ .

أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ؟ ألا ساء ما يحكمون ۞ للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء و لله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم ۞ ولو يؤآخذ ا لله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ۞ ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى لاجرم أن لهم النار وأنهم مفرطون ﴾ (١) حيث كانوا يقولون الملائكة بنات ا لله ، وهم يكرهون أن يكون لأحدهم بنت فيعدون هذا نقصاً وعيباً ...)(٢)

فإذا كان ا لله أحق بكل كمال من كل أحد فالواجب صرف العبادة له وحده لاشريك له ، فمن عدل بها إلى غيره فقد ظلم وأساء أعظم الاساء ة حيث صرف العبادة لغير مستحقها .

(وقال تعالى : ﴿قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل ا لله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدي إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون ﴾ (٣) فبين سبحانه بما هو مستقر في الفطر أن الذي يهدي إلى الحق أحق بالاتباع ممن لا يهتدي إلا أن يهديه غيره ، فلزم أن يكون الهادي بنفسه هو الكامل دون الذي لا يهتدي إلا بغيره .

وإذا كان لابد من وجود الهادي لغير المهتدي بنفسه فهو الأكمل . وقال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ﴾ (٤) فدل على أن الذي يرجع إليه القول ويملك الضر والنفع أكمل منه .

وقال إبرهيم لأبيه : ﴿ يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ﴾ (٥) فدل على أن السميع البصير الغني أكمل ، وأن المعبود يجب أن يكون كذلك .

---

(١) سورة النحل ٥٨ - ٦٣ .

(٢) الفتاوى ٦/٧٩ـــ٨٣ .

(٣) سورة يونس ٣٥ .

(٤) سورة طه ٨٩ .

(٥) سورة مريم ٤٢ .

ومثل هذا في القرآن متعدد من وصف الأصنام بسلب صفات الكمال كعدم التكلم والفعل وعدم الحياة ، ونحو ذلك مما يبين أن المتصف بذلك منتقص معيب كسائر الجمادات ، وأن هذه الصفات لا تسلب إلا عن ناقص معيب .

وأما رب الخلق الذي هو أكمل من كل موجود فهو أحق الموجودات بصفات الكمال ، وأنه لايستوي المتصف بصفات الكمال والذي لا يتصف بها ، وهو يذكر أن الجمادات في العادة لا تقبل الاتصاف بهذه الصفات ...

والله سبحانه لم يذكر هذه النصوص لمجرد تقرير صفات الكمال له ، بل ذكرها لبيان أنه المستحق للعبادة دون ما سواه ، فأفاد الأصلين اللذين بهما يتم التوحيد ، وهما إثبات صفات الكمال رداً على أهل التعطيل ، وبيان أنه المستحق للعبادة لا إله إلا هو رداً على المشركين.)[١]

ومن هنا يتضح أن كل من عدل عن الإله الحق السوي ، المتصف بجميع صفات الكمال إلى معبود سواه فقد وضع الشيء في غير موضعه ، ونسب الشيء إلى غير صاحبه وخالقه ومستحقه ، وبهذا يكون قد افترى إثماً عظيماً ، واقترف جرماً شنيعاً ، وأساء أشد الإساءة إلى خالقة ورازقه وموجده ومفنيه الذي بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ، تعالى وتقدس ربنا .

د) اساءة المشرك إلى من أحسن إليه :

ومما يبين أيضاً أن الشرك من أبشع أنواع الظلم ؛ جهل المشركين بالله ، ونكران النعم ، وكفرها ؛ بل جحدها ، وهذا من أعظم الإساءة إلى المحسن ، فإن منهم من يعبد الله ﷻ في الشدة دون الرخاء ، فإذا ما أصابه شدة وبلاء هرع إلى ربه مخلصاً له الدين ، فإذا ما كشف الله عنه البلاء والمحنة رجع إلى ما كان يدعو ويعبد من قبل والعياذ بالله .

قال تعالى : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا أصابكم الضر فإليه تجأرون ، ثم إذا كشف عنكم الضر إذا فريق منكم بربهم يشركون ﴾ [٢]

---

(١) المصدر السابق ٦/٧٩-٨٣ .

(٢) سورة النحل ٥٣-٥٤ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : (وهذا المعنى قد ذكره الله في غير موضع ، يذم من يشرك به بعد كشف البلاء عنه ، وإسباغ النعماء عليه ، فيضيف العبد بعد ذلك الإنعام إلى غيره ، ويعبد غيره تعالى ، ويجعل المشكور غيره على النعم كما قال تعالى : ﴿وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمه إذا فريق منهم بربهم يشركون ۞ ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون﴾[1] وقال تعالى : ﴿قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ۞ قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون﴾[2] وقال تعالى :﴿ وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار﴾[3] ...

فذم سبحانه حزبين حزباً لا يدعونه في الضراء ولا يتوبون إليه وحزباً يدعونه ويتضرعون إليه ويتوبون إليه ، فإذا كشف الضر عنهم أعرضوا عنه ، وأشركوا به ما اتخذوهم من الأنداد من دونه ...

قال تعالى : ﴿وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون﴾[4] وقال: ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض﴾[5] ...)[6]

فهذا النوع من المشركين يعطي الله العهود والمواثيق بالإخلاص له في العبادة إن هو أنجاه من الكرب الذي وقع فيه ، لمعرفته أنه لا ينجي من الكرب سواه ، فإذا ما كشف عنه الكرب وأذهب الخوف ، عاد ذلك المشرك إلى غيه وشركه وكفره

---

(١) سورة الروم ٣٣ .

(٢) سورة الأنعام ٦٣ .

(٣) سورة الزمر ٨ .

(٤) سورة يونس ١٢ .

(٥) سورة فصلت ٥١ .

(٦) الفتاوى ١٤/٣٦٩-٣٧١ .

وعنـاده ، مـع علمـه ويقينـه بـا لله وبقدرتـه ، وأن آلهتـه لا تغـني عنـه شيئاً والعيـاذ بـا لله مـن العمى بعـد الهـدى .

وهـذا يـدل على أن المشرك معتد ظلـوم لنفسـه ، معتـد علـى حـق ربـه ، منتهـك لحرمـة أمره ونهيه ،كمـا قـال سـبحانه : ﴿ إن الشـرك لظلـم عظيـم ﴾[١] وا لله ﷻ غـني عـن العـالمين لا يقـع عليه ظلـم ولا نقـص في كمالـه وقدرتـه ، كمـا قـال تعـالى : ﴿الحمـد لله الـذي لم يتخـذ ولـداً و لم يكـن لـه شـريك في الملـك و لم يكـن لـه ولي مـن الـذل ﴾[٢] فـالظلم إنمـا يقـع علـى الإنسـان نفسـه ، واعتـداء عليهـا بجهلـه ، قـال ا لله تعـالى : ﴿ ومـا ظلمونـا ولكـن كـانوا أنفسـهم يظلمـون ﴾[٣] وقـال : ﴿ وحملهـا الإنسـان إنـه كـان ظلومـاً جهـولاً ﴾[٤]

فتبـين بهـذا أن الشـرك أعظـم الظلـم وأشـعنه علـى الإطـلاق ، بالإضافـة إلى أنـه بغـي وعـدوان علـى حـق ا لله تعـالى[٥]، واستنقاص لعظمتـه وشـأنه ، حيـث لم يقـدره المشـركون حـق قـدره ، وذلـك بصرفهـم خـالص حقـه إلى غـيره ، كمـا أن الشـرك زيـع وانحـراف عـن الحـق والهـدى ولاستقامة علـى شـرع ا لله وصراطـه المسـتقيم ، كمـا أنـه كذلـك وضـع للشـيء في غـير موضعـه ، فـإن مـن صـرف العبـادة لغـير مسـتحقها فقـد وضعهـا في غـير موضعهـا ، كمـا تبـين أن في الشـرك أعظـم الإسـاءة للمحسـن علـى عبـاده ، وهـذا فيـه نـوع جهـل وظلـم ، واعتـداء علـى حـق ا لله جـل وعـلا ؛ بـل إن لم يكـن هـذا اعتـداء فـلا اعتـداء في الوجـود ، قـال ﷺ لمعـاذ : ((أتـدري مـا حـق ا لله علـى العبـاد ومـا حـق العبـاد علـى ا لله قـال ا لله ورسـول أعلـم ، قـال حـق ا لله علـى العبـاد أن يعبـدون ولا يشـركوا بـه شـيئاً))[٦] فمن أشـرك بـا لله فقـد تعـدى حقوقـه .)

(١) سـورة لقمـان ١٣ .

(٢) سـورة الإسـراء ١١١ .

(٣) سـورة البقـرة ٥٧ والأعـراف ١٦٠ .

(٤) سـورة الأحـزاب ٣٢ .

(٥) انظر الفتـاوى ١/١٦ .

(٦) تقـدم تخريجـه انظـر الفهـارس .

٩) أن المشرك يضم إلى شركه الكذب

بين شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ أن المشرك يضم إلى شركه الكذب على الله بالافتراء عليه ، كزعمهم أن الله يرضى بعبادتهم لآلهتهم المزعومة ، ومن ثم فهو راض عن شركهم ومحباً له قال تعالى عنهم : ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ﴾ فقال عز وجل راداً عليهم : ﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون﴾[١].

ومن كذبهم : زعمهم أن الله عز وجل لم يرسل رسلاً ولم ينزل كتباً ، قال تعالى على ألسنتهم : ﴿ ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين ﴾[٣] .

ومن ذلك التحليل والتحريم ، ونسبة ذلك إلى الله ، والتقول على رسلهم ، ووصفهم بما زكاهم الله عنه من وصفهم بصفات النقائص ورميهم إياهم بالسحر والجنون والكذب والافتراء وما إلى ذلك .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : بعد كلامه على الشرك (وهؤلاء المشركون يضمون إلى الشرك الكذب ، فإن الكذب مقرون بالشرك ، وقد قال تعالى : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ﴾ [٤] وقال النبي ﷺ : ((عدلت شهاة الزور الإشراك بالله مرتين أو ثلاثاً)) [٥] وقال تعالى : ﴿ إن الذين اتخذوا

---

(١) سورة الأنعام ١٤٧ .

(٢) سورة يس ١٥ .

(٣) سورة ابراهيم ١٠ .

(٤) سورة الحج ٣٠ .

(٥) رواه أبو دواد في الأقضية (ح٣٥٩٩) والترمذي في الشهادات (ح٢٣٠٠) وقال : "هذا عندي أصح يعنى من الحديث الذي قبله (ح٢٢٩٩) ، وخزيم بن فاتك له صحبة ، وقد روي عن النبي ﷺ أحاديث وهو مشهور" وورواه ابن ماجه في الأحكام (ح٢٣٧٢) ، وأحمد ٣٢١/٤.

العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين ﴾[١] وقال الخليل ﷺ : ﴿ أإفكاً آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين ﴾ [٢] ...)[٣]

وهكذا كل من عبد غير الله فهو مفتر كاذب وإن زعم أنه يعبد الله ـ عز وجل ـ فالمشركين من اليهود والنصارى زعموا أنهم إنما يعبدون الله لظنهم أن عبادة الله مع الشرك به عبادة وهذا كذب .

وما اتخذه الناس من آلهة بزعمهم ، وسموها بذلك (فتلك ليست في نفسها آلهة ، وإنما هي آلهة في أنفس العابدين ، فإلهيتها أمر قدره المشركون وجعلوه في أنفسهم من غير أن يكون مطابقاً للخارج ، كالذي يجعل من ليس بعالم عالماً ، ومن ليس بحي حياً ، ومن ليس بصادق ولا عدل صادقاً وعدلاً ، فيقال هذا عندك صادق وعادل وعالم ، وتلك اعتقادات غير مطابقة وأقوال كاذبة غير لائقة .

ولهذا يجعل ـ سبحانه ذلك من باب الافتراء والكذب ، كما قال أصحاب الكهف : ﴿ هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لو لا يأتون عليهم بسلطان بين ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ [٤] وقال الخليل ﷺ : ﴿ إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً ﴾ [٥] وقال : ﴿ وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾ أي أيُّ شيء يتبع الذين يشركون ؟ وإنما يتبعون الظن والخرص ، وهو الحزر ...

وقال هود ﷺ : ﴿ اعبدوا ، مالكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون ﴾ [٦] وإذا كانت إلهية ما سوى الله أمراً مختلفاً يوجد في الذهن واللسان لا وجود له في الأعيان . وهو من باب الكذب والاعتقاد الباطل الذي ليس بمطابق . وما عند عابديها

---

(١) سورة الأعراف ١٥٢ .

(٢) سورة الصافات ٢٣ .

(٣) الفتاوى ٨٢/٢٧ وما بعدها .

(٤) سورة الكهف ١٥ .

(٥) سورة العنكبوت ١٧ .

(٦) سورة هود ٥٠ .

مـن الحـب والخـوف والرجـاء لهـا تـابع لذلـك ، كمـن اعتقـد في شـخص أنـه صـادق فصدقـه فيما يقول ، وبنـى علـى إخبـاره أعمـالاً كثـيرة ، فلمـا تبـين كذبـه ظهـر فسـاد تلـك الأعمـال كاتبـاع مسـليمة والأسـود ، وغيرهمـا مـن أصحـاب الزوايـا والترهـات ، ومـا يشـرعون لأتبـاعهم ممـا لم يـأذن بـه الله ، بخـلاف الصـادق والصـدق .ولهـذا كـانت كلمـة التوحيـد : ﴿ كشـجرة طيبـة أصلهـا ثـابت وفرعهـا في السـماء ﴾ وقـال في كلمـة الشـرك : ﴿ كشـجرة خبيثـة اجتثـت مـن فـوق الأرض مـا لهـا مـن قـرار ﴾[١] فليـس لهـا أسـاس ثـابت ، ولا فـرع ثـابت ، إذا كـانت باطلـة ، كـأقوال الكـاذبين وأعمـالهم . بـل هي أعظـم الكـذب والافـتراء مـع الحـب لهـا .) (٢)

وقـد ذكـر ـ رحمـه الله ـ إشـكالاً وأجـاب عنـه ، فذكـر أنـه لـو قـال قـائل : إن المشـركين يعبـدون الله وغـيره بدليـل قـول الخليـل عليه السلام : ﴿ أفرأيتـم مـا كنتـم تعبـدون أنتـم وآباؤكـم الأقدمـون فـإنهم عـدو لي إلا رب العـالمين ﴾ [٣] فقـد استثناه ممـا يعبـدون ، فـدل هـذا علـى أنهـم كـانوا يعبـدون الله . وكذلـك قولـه : ﴿ إنـي بـراء ممـا تعبـدون إلا الـذي فطرنـي فإنـه سيهدين ﴾[٤] فاسـتثناه أيضـاً .

قيل : هـذا استثناء منقطـع علـى قـول ، وعلـى قـول آخـر أنهـم كـانوا يعبـدون الله مـع عبـادتهم لآلهتهـم ، فيكـون المعنـى أنهـم يعبـدون الله مـع عبـادتهم لآلهتهـم . إلا أن هـذه العبـادة في الحقيقـة ليسـت هـي العبـادة الـتي هـي عنـد الله عبـادة ، فإنـه كمـا قـال تعـالى في الحديـث القدسـي : عـن أبـي هريـرة أن رسـول الله ﷺ قـال قـال الله ﷻ ((أنـا أغنـى الشـركاء عـن الشـرك ، فمـن عمـل لي عمـلاً أشـرك فيـه غـيري فأنـا منـه بـريء وهـو للـذي أشـرك .))[٥] وهـذا كقولـه تعـالى : ﴿ ومـا يؤمـن أكـثرهم بـالله إلا وهـم مشـركون ﴾[٦]

---

(١) سـورة ابراهيـم ٢٤-٢٦ .

(٢) الفتـاوى ١٦/ ٥٧٥-٥٧٧ .

(٣) سـورة الشـعراء ٧٥-٧٦ .

(٤) سـورة الزخـرف ٢٧ .

(٥) رواه ابـن ماجـه في الزهـد (ح ٤٢٠٢) واللفـظ لـه . وقـد تقـدم تخريجـه انظـر فهـرس الأحـاديث . قـال محققـه في الزوائد إسـناده صحيـح ورجالـه ثقـات .

(٦) سـورة يوسـف ١٠٦ .

سماه إيماناً مع التقييد عند الاطلاق ، وقد قال : ﴿ يؤمنون بالجبت والطاغوت ﴾[١] وقال : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾[٢] فهذا مع التقييد ، ومع الاطلاق فالإيمان هو الإيمان با لله ، والبشارة بالخير .[٣] انتهى ملخصاً .

فاتضح بهذا كذب المشركين وافترائهم على ا لله بزعمهم أن تلك المعبودات التي اتخذوها آلهة ، لها من الصفات ما تستحق به العبادة ، وفي الحقيقة ليس لها من تلك الصفات شيئاً ؛ وإنما هي آلهة في أنفس عابديها لا في الحس والواقع .

(ومن كذبهم : أن أحدهم يقول عن شيخه إن المريد إذا كان بالمغرب وشيخه بالمشرق وانكشف غطاؤه رده عليه ، وإن الشيخ إن لم كذلك لم يكن شيخاً . وقد تغويه الشياطين كما تغوي عباد الأصنام كما كان يجري في العرب في أصنامهم ، ولعباد الكواكب وطلاسمها من الشرك والسحر كما يجري للتتار والهند والسودان ، وغيرهم من أصناف المشركين من إغواء الشياطين ومخاطبتهم ونحو ذلك ، فكثير من هؤلاء قد يجري له نوع من ذلك لا سيما عند سماع المكاء والتصدية ، فإن الشيطان قد تنزل عليهم وقديصيب أحدهم كما يصيب المصروع من الإرغاء والإزباد والصياح المنكر ، ويكلمه بما لا يعقل هو والحاضرون ، وأمثال ذلك مما يمكن وقوعه في هؤلاء الضالين .)[٤]

ولا يستغرب منهم الكذب والاتصاف به ؛ بعد أن أجازوا لأنفسهم الكذب على ا لله ـ عز وجل ـ الذي ينافي صفة الإيمان .

وما ذاك إلا لأن المشرك لا رادع له عن الكذب واستحلاله ، بعد أن خبث قلبه ، وأظلمت نفسه بالشرك ، ولهذا تجده يتخبط في كل واد ، بعد أن سلم قيادة نفسه للشيطان .



(١) سورة النساء ٥١ .

(٢) سورة ال عمران ٢١ ، والتوبة ٣٤ ، والانشقاق ٢٤ .

(٣) الفتاوى ٥٧٣/١٦ .

(٤) الفتاوى ٨٢/٢٧-٨٣ .

الفصل الثاني

بيانه لأقسام الشرك المنافية لتوحيد العبادة :

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : توضيحه للشرك الأكبر

المبحث الثاني : توضيحه لللشرك الأصغر

المبحث الأول : بيانه للشرك الأكبر

بيانه لأقسام الشرك المنافية لتوحيد العبادة

تمهيد

قبل البدء بذكر أقسام الشرك المنافي لتوحيد العبادة ، سواء كان منافياً لأصله أو منافياً لكماله يجدر أن أنوه إلى أن أقسام الشرك متنوعة بحسب تنوع تقسيمات العلماء لأنواع التوحيد .

فمنها الشرك في الربوبية[1]، ومنها الشرك في الأسماء والصفات ، ومنها الشرك في العبادة والتأله .

وليس المقصود هنا التفصيل في هذه الأنواع وبسطها ، وإنما المقصود الإشارة إلى أن الشرك يتنوع بحسبه .

والذي يهمنا منه هنا هو : الشرك في العبادة [الإلهية] إذ هو مجال البحث ، فقد قسم العلماء الشرك في الإلهية إلى نوعين : حسب النصوص الواردة في ذلك ، وهما : شرك أكبر منافٍ لأصله لا يغفره الله إلا بالتوبة منه ، وصاحبه إن مات عليه يكون خالداً مخلداً في النار .

والنوع الثاني : شرك أصغر مناف لكماله يقع من بعض المسلمين ، وقد يعذب عليه العبد يوم القيامة ؛ بل قد يأتي على أعماله فيحبطها كما سيأتي بيانه بحول الله وقوته .

وهناك قسم ثالث يذكره العلماء ، وهو : الشرك الخفي الذي يتعلق بالنيات والمقاصد .

وهذا النوع قد يكون شركاً أكبراً ، وقد يكون أصغراً بحسبه ؛ بل إنه ليتفاوت تفاوتاً عظيماً بحسب عمل العبد وقوله ، فإذ كان دقيقاً جداً قد يسمى خفياً لخفائه ودقته وعدم تفطن كثير من الناس له .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في بيانه : (وأما الشرك الخفي فهو الذي لا يكاد أحد أن يسلم منه ...) [2] (وهو كما جاء في الحديث : ((وهو في

---

(١) انظر في ذلك الفتاوى الكبرى ١/٦٦-٦٧ .

(٢) الفتاوى ١/٩٥ .

هـذه الأمـة أخفـى مـن دبيـب النمـل))[١] وفي حديـث آخـر : ((قـال أبـو بكـر ﷺ يارسـول الله ، كيـف ننجـو منه وهـو أخفـى مـن دبيـب النمـل ؟ فقـال النبي ﷺ لأبي بكـر : ألا أعلمـك كلمـة إذا قلتهـا نجوت مـن دقـه وجلـه ؟ قـل اللهـم إنـي أعـوذ بـك أن أشـرك بـك وأنـا أعلـم ، وأستغفرك لمـا لا أعلـم))[٢] وكـان عمـر يقـول في دعائـه : (اللهـم اجعـل عملي كلـه صالحـاً ، واجعلـه لوجهـك خالصـاً ولا تجعـل لأحـد فيـه شيئاً)[٣].

وكثيراً مـا يخـالط النفـوس مـن الشـهوات الخفيـة مـا يفسـد عليهـا تحقيـق محبتهـا لله وعبوديتهـا لـه ، وإخـلاص دينهـا لـه ، كمـا قـال شـداد بـن أوس[٤] : يـا بقايـا العـرب : إن أخـوف مـا أخـاف عليكـم الريـاء ، والشـهوة الخفيـة [٥]، قيـل لأبـي داود السجسـتاني[٦] : وما الشـهوة الخفيـة ؟ قـال حـب الرئاسـة .

---

(١) رواه الإمـام أحمـد عـن أبـي موسـى الأشـعري ولفظـه : قـال : خطبنـا رسـول الله ﷺ ذات يـوم فقـال : ((أيهـا النـاس اتقـوا هـذا الشـرك فإنـه أخفـى مـن دبيـب النمـل فقـال لـه مـن شـاء الله أن يقـول وكيـف نتقيـه وهـو أخفـى مـن دبيـب النمـل يـا رسـول الله قـال قولـوا اللهـم إنـا نعـوذ بـك مـن أن نشـرك بـك شيئا نعلمـه ونستغفرك لمـا لا نعلـم)) (٤٠٣/٤) والحـاكم (٢٩١/٢) وقـال الهيثمـي في مجمـع الزوائـد : رجالـه رجـال الصحيـح ٢٢٤/١٠ ، وصححـه الألبـاني في صحيـح الجـامع (ح٣٧٣١) .

(٢) أورده السـيوطي في الجـامع الصغـير (ح ٤٩٣٤) وعـزاه للحكيـم الـترمذي (٥٧٥/٢) في الأصـل الرابـع والسـبعين والمائتـان وضعفـه الألبـاني في ضعيـف الجـامع (ح ٣٤٣٢) والضعيفـة (٢٧٥٥١) ، وأخرجـه مـن طريـق أخـرى ابـن حبـان في المجروحـين في ترجمـة يحيـى بـن كثـير (١٣٠/٣) وأبـو نعيـم في الحليـة (١١٢/٧) وابـن الجـوزي في العلـل المتناهيـة (٨٢٣/٢) (ح ١٣٧٩).

(٣) أخرجـه أحمـد في الزهـد ص ١٤٧ .

(٤) هو شـداد بـن أوس بـن ثـابت بـن المنـذر بـن حـرام الأنصـاري النجـاري الخزرجـي ، ابـن أخـي حسـان بـن ثـابت ، مـن فضـلاء الصحابـة ، نـزل بيـت المقـدس وتـوفي سـنة ٥٨ . انظـر السـير ٤٦٠/٢ .

(٥) أخـرج الإمـام أحمـد عـن شـداد بـن أوس أنـه بكـى فقيـل لـه مـا يبكيـك قـال شيئا سمعتـه مـن رسـول الله ﷺ يقولـه فذكرتـه فأبكـاني سمعـت رسـول الله ﷺ يقـول : ((أتخـوف علـى أمـتي الشـرك والشـهوة الخفيـة قـال قلـت يـا رسـول الله أتشـرك أمتـك مـن بعـدك قـال نعـم أمـا إنهـم لا يعبـدون شمسـاً ولا قمـراً ولا حجـراً ولا وثنـاً ولكـن يـراءون بأعمـالهم والشـهوة الخفيـة أن يصبـح أحدهـم صائمـا فتعـرض لـه شـهوة مـن شـهواته فيـترك صومـه)) ١٢٤/٤ وانظـر الفتـح الربـاني ٢٢٠/١٩ .

(٦) هـو : أبـو داود سـليمان بـن الأشـعث بـن شـداد الأزدي السجسـتاني صـاحب السـنن ، ولـد سـنة ٢٠٢ وتـوفي سنة ٢٧٥ ، كـان مـن أهـل الصـلاح والعلـم والـورع . انظـر السـير ٢٠٣/١٣ .

وعن كعب بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال : ((ما ذئبان جائعان أرسلا في زريبة غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه)) [١]

فبين ﷺ أن الحرص على المال والشرف في فساد الدين لا ينقص عن فساد الذئبين الجائعين لزريبة الغنم ، وذلك بين ؛ فإن الدين السليم لا يكون فيه هذا الحرص ، وذلك أن القلب إذا ذاق حلاوة عبوديته لله ومحبته له لم يكن شيء أحب إليه من ذلك حتى يقدمه عليه .. والمخلص لله ذاق حلاة عبوديته لله ما يمنعه عن عبوديته لغير .. بخلاف القلب الذي لم يخلص لله ، فإنه في طلب وإرادة وحب مطلق ، فيهوى ما يسنح له ويتشبث بما يهواه ، كالغصن أي نسيم مر بعطفه أماله ، فتارة تجتذبه الصورة المحرمة وغير المحرمة ، فيبقى أسيراً عبداً لمن لو أتخذه هو عبداً له لكان ذلك عيباً ونقصاً وذماً ، وتارة يجتذبه الشرف والرئاسة فترضيه الكلمة وتغضبه الكلمة ويستعبده من يثني عليه ولو بالباطل ، ويعادي من يذمه ولو بالحق ، وتارة يستعبده الدرهم والدينار ، وأمثال ذلك من الأمور التي تستعبد القلوب ، والقلوب تهواها فيتخذ إلهه هواه ويتبع هواه بغير هدى من ا لله .

ومن لم يكن خالصاً لله عبداً له قد صار قلبه معبداً لربه وحده لا شريك له ، بحيث يكون ا لله أحب إليه من كل ما سواه ، ويكون ذليلاً له خاضعاً ، وإلا استعبدته الكائنات ، واستولت على قلبه الشياطين ، وكان من الغاوين إخوان الشياطين ، وصار فيه من السوء والفحشاء ما لا يعلمه إلا ا لله ، وهذا أمر ضروري لا حيلة فيه ، فالقلب إن لم يكن حنيفاً مقبلا على ا لله معرضاً عما سواه وإلا كان مشركاً ، قال تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة ا لله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق ا لله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين ، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ [٢]

---

(١) رواه الترمذي في الزهد (ح٢٣٧٦) وقال : هذا حديث حسن صحيح ورواه الدارمي في الرقاق (ح٢٧٣٠) .

(٢) سورة الروم ٣٠-٣٣ .

ومن أمثلة هذا النوع من الشرك ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله- بقوله : (.. مثل أن يحب مع الله غيره ... فإن كانت محبة تتعلق بالنفوس لغير الله تعالى ، فهذا لاشك أنه نقص في توحيد المحبة لله ، وهو دليل على نقص محبة الله تعالى إذ لو كملت محبته لم يحب سواه .. فكلما قويت محبة العبد لمولاه ، صغرت عنده المحبوبات وقلت ، وكلما ضعفت كثرت محبوباته وانتشرت .

وكذا الخوف والرجاء وما أشبه ذلك ، فإن كمل خوف العبد من ربه لم يخف شيئاً سواه ، قال الله تعالى : ﴿ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله ﴾ [1] وإذا نقص خوفه خاف من المخلوق ، وعلى قدر نقص الخوف وزيادته يكون الخوف كما ذكرنا في المحبة ، وكذا الرجاء وغيره ، فهذا هو الشرك الخفي الذي لا يكاد أحد أن يسلم منه ؛ إلا من عصمه الله تعالى ، وقد روي أن الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل [2] .

وطريق الخلاص من هذه الآفات كلها : الإخلاص لله عز وجل قال تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾[3] ولا يحصل الإخلاص إلا بعد الزهد ، ولا زهد إلا بتقوى ، والتقوى متابعة الأمر والنهي .)[4].

والمقصود من هذا الفصل بيان ما يضاد توحيد العبادة من نوعي الشرك . وسوف أتناول هذين القسمين ـ الأكبر والأصغر ـ بالذكر الذي يتبين من خلاله كون ذلك الشرك مناقضاً لتوحيد العبادة ومحبطاً له ، أو كونه مخلاً به منقصاً من ثوابه وحقيقته فيما يلي :

---

(١) سورة الأحزاب ٣٩ .

(٢) تقدم تخريجه قريباً وانظر فهرس الأحاديث .

(٣) سورة الكهف ١١٠ .

(٤) الفتاوى ١/٩٣-٩٤ .

المبحث الأول : بيانه للشرك الأكبر

بيانه للشرك الأكبر

لقد سبق تعريف الشرك بأنه اتخاذ الأنداد من دون الله ، وذلك بأن يجعل العبد لله نداً يصرف له شيئاً من العبادة التي لا يجوز صرفها لغير الله وأن من فعل ذلك فقد أشرك شركاً أكبراً .

وبناء على هذا فإن الشرك الأكبر يتنوع إلى أنواع عديدة أذكر منها على سبيل المثال - مما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : ما يلي :

١) : اتخاذ الأنداد[١] والوسطاء[٢] والشفعاء[٣] من دون الله :

لقد أكد شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - على أن من اتخذ نداً لله يعبده أو يصرف له شيئاً من العبادة فقد أشرك ، مستدلاً بما تواتر من الأدلة الدالة على ذلك ، وذكر أن ذلك من الأمور المسلمة التي يجب على كل مسلم أن يتعلمها ويعمل بمقتضاها ، وهذا من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة [٤]

قال الله تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ﴾ [٥] وقال : ﴿ ألقيا في جهنم كل كفار عنيد ، مناع للخير معتد مريب ، الذي جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه في العذاب الشديد ﴾ [٦]

---

(١) الأنداد : جمع ند ، والند هو المثل والنظير ، والند هو المثيل الذي يشاركه أو يضاهيه في أموره ، والمقصود به : كل ما يتخذ معبوداً من دون الله . انظر اللسان ٤٢٠/٢ ، والنهاية ٣٥/٥ ، والمفردات ٤٨٦ ، مادة ندد .

(٢) الوسطاء : جمع وسيط ، وهو الحسيب في قومه الرفيع في المجد والسؤدد ، المقدم عندهم ، ذو الجاه والمكانة والمنزلة والقدوة ، والمقصود اتخاذ من يعتقد بهم مثل ذلك عند الله جل وعلا ليشفعوا لهم . انظر اللسان ٤٣٠/٧ وما بعدها مادة وسط ، وانظر مادة وجه في اللسان ٥٥/١٣-٥٦٠ .

(٣) الشفعاء جمع شافع ، والشافع الطالب لغيره أن يشفع له عند ذي السلطان ، وغالباً ما تستعمل في انظمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى من هو أدنى . وسيأتي مزيد تعريف لها في الباب الثالث المبحث الثالث . والمقصود هنا : اتخاذ شفعاء يشفعون للعبد عند الرب يسألونه التجاوز عن المشفوع له . انظر اللسان ١٨٤/٨ والمفردات ٢٦٣ . مادة شفع .

(٤) انظر الفتاوى ١٠٦/١، ٤٣٤/١٠-٤٣٥ ، والرد على الأخنائي ٢٥ .

(٥) سورة البقرة ١٦٥ .

(٦) سورة ق ٢٤-٢٦ .

وقال : ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴾ (١) وقال ﷺ لابن عباس : ((.. إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قدكتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك...)) (٢)

فهذا النصوص وغيرها تدل على تحريم الشرك مطلقاً ، وتبين أن المشرك إذا مات على شركه خسر الدنيا والآخرة ، والعياذ بالله . (٣)

ولقد حاد كثير من الناس عن الصراط المستقيم ، وسلكوا صراط المغضوب عليهم وصراط الضالين ، الجاهلين بما يحبه الله ويرضاه وبما يبغضه ويكرهه ، الجاهلين بما أمر الله به وما نهى عنه ، المستكبرين عن عبادة ربهم ، الذين اتخذوا أنداداً وشفعاء ووسطاء يعبدونهم من دون الله ظانين (.. أن للخلق عند الله القدرة أن يشفعوا عنده بغير إذنه ، كما يشفع الناس بعضهم عند بعض فيقبل المشفوع إليه شفاعة شافعٍ لحاجته إليه رغبة ورهبة ، وكما يعامل المخلوق المخلوق بالمعاوضة .

والمشركون كانوا يتخذون من دون الله شفعاء من الملائكة والأنبياء والصالحين ، ويصورون تماثيلهم فيستشفعون بها ويقولون هؤلاء خواص الله ، فنحن نتوسل إلى الله بدعائهم وعبادتهم ليشفعوا لنا ، كما يتوسل إلى الملوك بخواصهم لكونهم أقرب إلى الملوك من غيرهم ، فيشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك ، وقد يشفع أحدهم عند الملك فيما لا يختاره ، فيحتاج إلى إجابة شفاعته رغبة ورهبة .

فأنكر الله هذه الشفاعة فقال تعالى : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ (٤) وقال : ﴿ وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد

---

(١) سورة الحج ٣١ .

(٢) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٣) انظر الفتاوى ١/٩١ ــ ٩٣ .

(٤) سورة البقرة ٢٥٥ .

أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ [1] وقال عن الملائكة : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾ [2] وقال : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لايملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ومالهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ [3] ...) [4]

كما أنكر سبحانه على أولئك الذين اتخذوا وسطاء وشفعاء يدعونهم ويلتجؤون إليهم يطلبون منهم الحاجات ودفع الكربات ، والشفاعة عند رب الأرض والسموات ، فقال ــ عز وجل ــ : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ [5] وقال تعالى : ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون ﴾[6] وقال تعالى : ﴿الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾[7] وقال تعالى : ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾[8] وقال : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى

---

(١) سورة النجم ٢٦ .

(٢) سورة الأنبياء ٢٧ .

(٣) سورة سبأ ٢٢-٢٣ .

(٤) الفتاوى ١/١٥٠

(٥) سورة يونس ١٨ .

(٦) سورة الأنعام ٥١ .

(٧) سورة السجدة ٤ .

(٨) سورة الزخرف ٨٦ .

معكم شفعاءكم الذين زعتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾[١]

قال ـ رحمه الله ـ بعد أن سرد هذا الآيات وغيرها الدالة على نفي الشفعاء والوسطاء : (فهذه الشفاعة التي أثبتها المشركون للملائكة والأنبياء والصالحين حتى صوروا تماثيلهم وقالوا : استشفاعنا بتماثيلهم استشفاع بهم ، وكذلك قصدوا قبورهم وقالوا : نحن نستشفع بهم بعد مماتهم ليشفعوا لنا إلى الله ، وصوروا تماثيلهم فعبدوهم كذلك .

وهذه الشفاعة أبطلها الله ورسوله ، وذم المشركين عليها وكفرهم بها . قال الله تعالى عن قوم نوح : ﴿ وقالوا لاتذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً ، وقد أضلوا كثيراً ...﴾ [٢] قال ابن عباس وغيره : هؤلاء قوم صالحون كانوا في قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم فعبدوهم ، وهذا مشهور في كتب التفسير والحديث وغيرها كالبخاري وغيره ...) [٣]

(والمشركون من هؤلاء قد يقولون : إنا نستشفع بهم أي نطلب من الملائكة والأنبياء أن يشفعوا ، فإذا أتينا قبر أحدهم طلبنا منه أن يشفع لنا ، فإذا صورنا تمثاله ــ والتماثيل إما مجسدة وإما تماثيل مصورة كما يصورها النصارى في كنائسهم ــ قالوا : فمقصودنا بهذه التماثيل تذكر أصحابها وسيرهم ، ونحن نخاطب هذه التماثيل ومقصودنا خطاب أصحابها ليشفعوا لنا إلى الله ، فيقول أحدهم : ياسيدي فلان ، أو ياسيدي جرجس أو بطرس أو ياستي الحنونة مريم أو ياسيدي الخليل ، أو موسى بن عمران أو غير ذلك اشفع لي إلى ربك .

وقد يخاطبون الميت عند قبره : سل لي ربك ، أو يخاطبون الحي وهو غائب كما يخاطبونه لو كان حاضراً حياً ، وينشدون قصائد يقول أحدهم فيها : ياسيدي فلان ، أنا في حسبك ، أنا في جوارك ، اشفع لي إلى الله ، سل الله لنا أن ينصرنا على

---

(١) سورة الأنعام ٩٤ .

(٢) سورة نوح ٢٣ .

(٣) الفتاوى ١/١٥٠-١٥٢ .

عدونا ، سل الله أن يكشف عنا هذه الشدة ، أشكو إليك كذا وكذا ، فسل الله أن يكشف هذه الكربة ، أو يقول أحدهم سل الله أن يغفر لي .

ومنهم من يتأول قوله تعالى : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾ [(١)] ويقولون : إذا طلبنا منه الاستغفار بعد موته كنا بمنزلة الذين طلبوا الاستغفار من الصحابة ، ويخالفون بذلك إجماع الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر المسلمين ، فإن أحداً منهم لم يطلب من النبي ﷺ بعد موته أن يشفع له ولا سأله شيئاً ولا ذكر ذلك أحد من أئمة المسلمين في كتبهم ، وإنما ذكر ذلك من متأخري الفقهاء وحكوا حكاية مكذوبة على مالك رضي الله عنه[(٢)] ...) [(٣)]

حكم اتخاذ الوسطاء

وبناء على ما تقدم فإنه يتبين من ذلك أن (من جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم ، ويتوكل عليهم ، ويسألهم جلب المنافع ودفع المضار ، مثل أن يسألهم غفران الذنب ، وهداية القلوب وتفريج الكروب ، وسد الفاقات : فهو كافر بإجماع المسلمين ، قال الله تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيدهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ، ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴾[(٤)] وقال : ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ﴾ [(٥)] ...

---

(١) سورة التوبة ٦٤ .

(٢) وسيأتي الكلام على هذه الحكاية بالتفصيل بحول الله وقوته انظر ص ٨١٠ .

(٣) نفس المصدر السابق ١٥٨/١-١٥٩ . وانظر ٣٠٩/١١ وما بعدها .

(٤) سورة الأنبياء ٢٦-٢٨ .

(٥) سورة النساء ١٧٢ .

ومثل هذا كثير في القرآن ، ومن سِوَى الأنبياء — من مشايخ العلم والدين — فمن أثبتهم وسائط بين الرسول وأمته يبلغونهم ويعلمونهم، ويؤدبونهم ويقتدون بهم ، فقد أصاب في ذلك ...

وإن أثبتم وسائط بين الله وبين خلقه — كالحُجَّاب الذين بين الملك ورعيته — بحيث يكونون هم يرفعون إلى الله حوائج خلقه ، فالله إنما يهدي عباده ويرزقهم بتوسطهم ، فالخلق يسألونهم وهم يسألون الله ، كما أن الوسائط عند الملوك يسألون الملوك الحوائج للناس لقربهم منهم ، والناس يسألونهم أدباً منهم أن يباشروا سؤال الملك ، أو لأن طلبهم من الوسائط أنفع لهم من طلبهم من الملك لكونهم أقرب إلى الملك من الطالب للحوائج ، فمن أثبتهم وسائط على هذا الوجه فهو كافر مشرك يجب أن يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل ...

والوسائط بين الملوك وبين الناس يكونون على أحد وجوه ثلاثة :

١) إما لأخبارهم من أحوال الناس بما لا يعرفونه . ومن قال إن الله لايعلم أحوال عباده حتى يخبره بتلك بعض الملائكة أو الأنبياء أو غيرهم فهو كافر ...

٢) وإما أن يكون الملك عاجزاً عن تدبير رعيته ودفع أعدائه إلا بأعوان يعينونه فلا بد له من أنصار وأعوان لذله وعجزه .

والله — سبحانه — ليس له نظير ولا ولي من الذل ، قال الله تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، ومالهم فيهما من شرك ، وماله منهم من ظهير ﴾[1] وقال : ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً ﴾[2] . وكل ما في الوجود من الأسباب فهو خالقه وربه ومليكه ، فهو الغني عن كل ما سواه ، وكل ما سواه فقير إليه ، ومن اعتقد شيئاً من ذلك فهو كافر ...

٣) أن يكون الملك ليس مريداً لنفع رعيته والإحسان إليهم ورحمتهم إلا بمحرك يحركه من خارج ، فإذا خاطب الملك من ينصحه ويعظمه أو من يدل عليه ، بحيث

---

(١) سورة سبأ ٢٢ .

(٢) سورة الإسراء ١١١ .

يكون يرجوه ويخافه تحركت إرادة الملك وهمته في قضاء حوائج رعيته ، إما لما حصل في قلبه من كلام الناصح الواعظ المشير ، وإما لما يحصل من الرغبة أو الرهبة من كلام المدل عليه .

والله رب كل شيء ومليكه ، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، وكل الأشياء إنما تكون بمشيئته .. وهو إذا أجرى نفع العباد بعضهم على بعض فجعل هذا يحسن إلى هذا ويدعو له ويشفع فيه ونحو ذلك فهو الذي خلق ذلك كله ، وهو الذي خلق في قلب هذا المحسن الداعي الشافع إرادة الإحسان ، والدعاء والشفاعة ..) [(١)] فإذا كان الأمر كذلك علم أن اتخاذ الوسطاء بين الله وبين خلقه لأجل الشفاعة أو طلب المغفرة شرك أكبر .

فإذا كان الأمر كذلك علم أن اتخاذ الوسائط بين الله بين خلق لأجل الشفاعة أو طلب المغفرة شرك أكبر .

الناس في اتخاذ الوسائط درجات

وقد ذكر ـ رحمه الله ـ أن الناس بالنسبة إلى اتخاذ الوسطاء بين الله وبين خلقه ثلاث درجات :

أحدها : أن يأتي القبر الذي يعتقد أنه قبر نبي أو صالح ونحوه ليسأله ويستنجده ، بأن يكشف كربه ويزيل مرضه ، او مرض دوابه ، أو يقضي دينه ، أو ينتقم له من عدوه ، أو يعافي نفسه وأهله ونحو ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله ــ عز وجل ـ فهذا شرك صريح يجب أن يستتاب صاحبه فإن تاب وإلا قتل .

وإن زعم أنه إنما يسأله ليشفع له لكونه أقرب إلى الله منه ، لأنه يتوسل به إلى الله كما يتوسل إلى السلطان بخواصه فهذا من أفعال المشركين والنصارى فإنهم إنما يزعمون أنهم يتخذون أحبارهم ورهبانهم شفعاء يشفعون لهم عند الله في قضاء

---

(١) الفتاوى ١/١٢٦-١٢٨ . وانظر ١/١١٤ ، ١٣٠ ، ١١/٤٣٦-٤٣٧ ، ٥٢٨ ، ١٤/٤١١-٤١٥ ، ٣٨٠ ـ ٣٨٢ ، ٣٨٤ . ١٧/٤٧١ وما بعدها ، والرد على البكري ص٢٦ . والرد عل الأخنائي ٦٠-٦١

حوائجهم ، وهذا ما أخبر الله عن المشركين أنهم قالوا : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ [١]

الثاني : أن يزعم أن صاحب القبر أو الولي إذا دعا الله أجاب دعاءه أعظم مما يجيبه إذا دعاه هو . وهذا مثل قولك للحي ادعوا لي ، وكما كان الصحابة يطلبون من النبي ﷺ أن يدعو لهم . فهذا مشروع في الحي فقط ، أما الميت من الأنبياء والصالحين وغيرهم فلم يشرع لنا أن نقول : ادع لنا ، ولا اسأل لنا ربك ، ولم يفعل هذا أحد من الصحابة والتابعين ولا أمر به أحد من الأئمة ، ولا ورد فيه حديث .

بل لما أجدب الناس في زمن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ استسقى بدعاء العباس ودعاءهم معه ، ولم يأتوا إلى قبر النبي ﷺ يسألونه ذلك .

الثالث : وهو أن يقول : اللهم بجاه فلان عندك أو ببركة فلان ، أو بحرمة فلان عندك افعل بي كذ وكذا ، فهذا يفعله كثير من الناس ؛ لكن لم ينقل عن أحد من الصحابة والتابعين وسلف الأمة أنهم كانوا يدعون بمثل هذا الدعاء لأحد من الناس ، إلا ما حكي عن الفقيه أبي محمد بن عبد السلام أنه أفتى بأنه لا يجوز لأحد أن يفعل ذلك إلا للنبي ﷺ إن صح حديث التوسل به ﷺ [٢]

فقال هؤلاء إن للنبي ﷺ جاهاً عند الله ومنزلة ، فهذا يتوسل إلى الله ويسأله بجاهه ، لا أنه يدعو النبي ﷺ ويستغيث به .

وقال آخرون ليس في الحديث المذكور ولا غيره جواز التوسل به بعد مماته وفي مغيبه ، بل إنما فيه التوسل في حياته بحضوره كما في صحيح البخارى في استسقاء عمر ابن الخطاب بعم النبي ﷺ وهذا فعل الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ لم يكونوا بتوسلون بجاهه ﷺ بعد مماته ، وإنما كانوا يتوسلون بدعاءه في حياته ، كما في قصة استسقاء ذلك الرجل وسؤاله للنبي ﷺ أن يدعو الله أن ينزل المطر ، وفي الجمعة الأخرى جاءه وسأله أن يسأل ربه أن يكشف عنهم المطر .[٣]

---

(١) سورة الزمر ٤ .

(٢) وسيأتي تفصيل ذلك وبيانه في الفصل الثالث من الباب الثالث إن شاء الله تعالى ، وحديث التوسل هو ما يعرف بحديث الأعمى ، أو بحديث الأعرابي ، وسيأتي الكلام عليه مفصلاً هناك انظر ص .

(٣) وسيأتي تفصيل هذا في الباب الثالث إن شاء الله .

والعبادة مبناها على الاتباع لا على الأهواء والابتداع ، وإنما يعبد الله بما شرع ، لا يعبد بالأهواء والبدع ، قال تعالى : ﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾[١]...[٢]

وبهذا يتبين أنه لا يجوز لأحد أن يتخذ وسائط يدعوهم من دون الله ، أو يرجوهم ، أو يتوكل عليهم ، كما تبين أنه لا يتوسل أو يستشفع إلا بما شرع وارتضى من التوسل بالإيمان به أو بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ونحو ذلك أو طلب الشفاعة منه سبحانه وحده لا شريك له . فمن خالف ذلك فدعى غير الله أو استشفع به في جلب الحاجات ودفع المكروهات ونحو ذلك فقد افترى على الله إثماً عظيماً ، واقترف جرماً جسيماً ، حيث أتى بناقض من أعظم نواقض الإيمان والتوحيد.

٢) الذبح لغير الله

الذبح لله عبادة من أجل العبادات الشرعية ، فقد أمر الله نبيه ﷺ بها ، وحثه عليها ، فقال عز وجل ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ وأمره أن يخلص في ذبحه لله ويعلن ذلك للمشركين الذين يذبحون للأصنام والجن ونحو ذلك من المخلوقاتَ فقال : ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له ، وبذلك إمرت وأنا أول المسلمين ﴾ [٣]

ولقد كان المشركون يذبحون للقبور ويقربون لها القرابين ، وكانوا في الجاهلية إذا مات لهم عظيم ذبحوا عند قبره الخيل والإبل وغير ذلك تعظيماً للميت ، فنهى النبي ﷺ عن ذلك كله ، ففي سنن أبي داود عن النبي ﷺ

---

(١) سورة الشورى ٢١ .

(٢) انظر الفتاوى ٢٧/٧٢-٩٢ . ١٤/٣٨٠

(٣) سورة الأنعام ١٦٢ .

: ((أنه نهى عن العقر عند القبر))[١] فهذا نهي منه ﷺ عن الذبح عند القبر حتى وإن كان لله ، إذ أنه لا يجوز الذبح لله في مكان يذبح فيه لغير الله ، سداً لأبواب الشرك ، كما جاء في الأثر عن ثابت بن الضحاك قال نذر رجل على عهد رسول الله ﷺ أن ينحر إبلاً ببوانة فأتى النبي ﷺ فقال إني نذرت أن أنحر إبلا ببوانة فقال النبي ﷺ : ((هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد ؟ قالوا : لا ، قال : هل كان فيها عيد من أعيادهم ؟ قالوا : لا ، قال رسول الله ﷺ : أوف بنذرك فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم)) .[٢] حتى كره أحمد الأكل مما يذبح عند القبر — وإن ذكر عليه اسم الله — لأنه يشبه ما ذبح على النصب ، فإن الذبح عند القبور يشبه من ذبح لها .[٣]

ولقد كان المشركون يذبحون للجن ويتقربون بذلك إليهم . ولما بعث النبي ﷺ حرم ذلك وبين أنه شرك .

---

(١) رواه أبو داوه عن أنس أن النبي ﷺ قال : ((لا عقر في الإسلام)) قال عبد الرزاق : كانوا يعقرون عند القبر بقرة أو شاة ، الجنائز (ح٣٢٢٢) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود . وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٣١٤/٩ عن أنس رضي الله عنه بلفظ ((لا عقر في الإسلام)) وقال : قال أبو زكريا : العقر يعني الأعراب عند الماء يعقر هذا ويعقر هذا ، فيأكلون لغير الله . وقال أبو سليمان الخطابي فيما بلغني عنه : معاقر الأعراب أن يتبارى الرجلان كل واحد منهما يجادل صاحبه فيعقر هذا عدداً من إبله ويعقر صاحبه ، فأيهما كان ألذ عقراً غلب صاحبه ، وكره لحومها لئلا يكون مما أهل لغير الله . سنن البيهقي ٣١٤/٩ .

(٢) رواه أبو داود في الأيمان والنذور (ح٣٣١٣) والبيهقي ٨٣/١٠ والطبراني في الكبير (ح١٣٤١) ، وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب : " إسناده على شرطهما " ، وقال حفيده : إسناده جيد . انظر تيسير العزيز الحميد ١٩٨ — ١٩٩ ، وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود : " صحيح " ٦٣٧/٣ (ح ٣٣١٣) وفي المشكاة (ح ٣٤٣٧) .

(٣) انظر الفتاوى ٣٠٦/٢٦ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : (ومما يتقرب به إلى الجن الذبائح ، فإن من الناس من يذبح للجن[1] وهو من الشرك الذي حرمه الله ورسوله ، وروي أنه نهى عن ذبائح الجن[2]...) [3]

وبين أن من ذبح لغير الله فقد أشرك شركاً أكبراً ؛ لأن (الذبح للمعبود غاية الذل والخضوع له .

ولهذا لم يجز الذبح لغير الله ، ولا أن يسمى غير الله على الذبائح ، وحرم سبحانه ما ذبح على النصب ، وهو ما ذبح لغير الله ، وما سمى عليه غير اسم الله ، وإن قصد به اللحم لا القربان ، ولعن النبي ﷺ من ذبح لغير الله[4] ، ونهى عن ذبائح الجن ، وكانوا يذبحون للجن ، بل حرم الله ما لم يذكر اسم الله عليه مطلقاً كما دل على ذلك الكتاب والسنة في غير موضع .

وقد قال تعالى : ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ أي انحر لربك كما قال الخليل : ﴿ إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ﴾ وقال هو وإسماعيل إذ يرفعان القواعد من البيت : ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا ﴾ فالمناسك هنا مشاعر الحج كلها ، كما قال تعالى : ﴿ ولكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكون ﴾ وقال تعالى

---

(١) قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ : " قال الزمخشري : كانوا إذا اشتروا داراً أو بنوها ، أو استخرجوا عيناً ذبحوا ذبيحة خوفاً أن تصيبهم الجن ، فأضيفت الذبائح إليهم " تيسير العزيز الحميد (ص١٩١) .

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى ٣١٤/٩ عن الزهري مرسلاً ، وأخرجه ابن حبان في الضعفاء والمتروكين من وجه آخر عن عبد الله بن أذينة ، عن ثور بن يزيد ، عن الزهري عن حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة مرفوعاً ، وقال : " وعبد الله يروى عن ثور ما ليس من حديثه " انظر المجروحين (١٩/٢). وأخرجه ابن الجوزي في الموضوعات عن أبي هريرة مرفوعاً (٣٠٢/٢) ، وقال الشيخ سليمان بن عبد الوهاب : " في إسناده عمر بن هارون وهو ضعيف عند الجمهور ، إلا أن أحمد بن يسار روى عن قتيبة أنه كان يوثقه ، التيسير (ح ١٩١) وقد أشار شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ إلى ضعفه بقوله : " وروي " إلا أنه وإن كان هذا الحديث فيه مقال ، فإن أدلة تحريم الذبح لغير الله مستفيضة في الكتاب والسنة ، سواء كان المذبوح له من الجن أو من الأنس أو من شياطينهما .

(٣) الفتاوى ٥٢/١٩ .

(٤) رواه الإمام مسلم في الأضاحي (١٩١٨) ، وأخرجه غيره .

: ﴿ ولكل أمة جعلنا منسكاً ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ وقال : ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾ كما قال تعالى : ﴿ومن يعظم شعائر الله فإنا من تقوى القلوب ﴾ [١] .

والمقصود تقوى القلوب لله وهو عبادتها له وحده دون ماسواه بغاية العبودية له ، والعبودية فيها غاية المحبة وغاية الذل والإخلاص ، وهذه ملة ابراهيم الخليل عليه السلام .) [٢]

قال تعالى : ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب ﴾ فدلت هذه الآية على تحريم ما ذبح لغير الله ــ جل وعلا ــ ، كما دلت على تحريم ما ذبح على النصب ، وسبب التحريم هو ذبحها لغير الله ــ جل وعلا ــ . سواء ذكر الذابح اسماً غير اسم الله على ذبيحته عند ذبحها أو لم يسمي وإنما قصد بذبيحته تلك الأنصاب والأوثان ، وهذا أعظم .

وقد بين شيخ الإسلام ــ رحمه الله ــ أن هذا قد وقع فيه كثير من الناس ، فمنهم من يذبح للجن ــ كما تقدم ــ ومنهم من يذبح للأوثان ومنهم من يذبح للملائكة أو الأنبياء أو غيرهم ، ومنهم من يذبح للأولياء وأصحاب الأضرحة والقبور ، وبين أن هذا كله شرك ولا يجوز أكل شيء من الذبائح .[٣]

فمن ذبح لغير الله قاصداً أن يتقرب بذلك إليه فقد وقع في الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة . ومثله من ذبح لغير الله بأن يذكر اسماً غير اسم الله على ذبيحته كأن يذكر اسم المسيح أو موسى أو الكعبة أو غير ذلك فهذا شرك إلا أن الأول أعظم منه لأن عبادة الله سبحانه وتعالى بالصلاة له والنسك له أعظم من الاستعانة باسمه في فواتح الأمور ، فكذلك الشرك بالصلاة لغير الله والنسك لغيره

---

(١) سورة الحج ٣٢ .

(٢) الفتاوى ١٧/٤٨٤ـــ٤٨٥ . وانظر الفتاوى ١٦/٥٣١-٥٣٣ . وانظر اقتضاء الصراط المستقيم ٢/٥٦١ـــ٥٦٨

(٣) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ٢/٥٥٨ ـــ ٥٦٨ .

أعظم من الاستعانة باسمه في فواتح الأمور .. فإن العبادة لغير الله أعظم كفراً من الاستعانة بغير الله .

وعلى هذا فلو ذبح لغير الله متقرباً به إليه لحرم ، وإن قال فيه باسم الله ، كما قد يفعله طائفة من منافقي هذه الأمة الذين يتقربون إلى الكواكب بالذبح والنحور ونحو ذلك ...) .[1]

فبهذا يتبين أن الذبح لله عبادة من أجل العبادات التي يكون فيه التذلل لله والتقرب إليه بذبح القرابين المصاحب للخضوع والذل والانقياد والتسليم والإخلاص ، فمن صرفها لغير الله فقد أشرك شركاً أكبراً .

٢) الاستسقاء بالأنواء[2]

إن نعم الله على عبادة لا تحصى ، ومننه لا تجحد ولاتنسى ؛ إلا أن كثيراً من الناس قد يشركون مع الله غيره في اسداء النعم إليهم ، فينسبون الغيث إلى النوء ، وسير المراكب وسهولة ذلك إلى الريح ونحو ذلك من نسبة الأمور إلى غير خالقها .

فهذا الأمر إن صاحبه اعتقاد في أن النوء أو الريح هي المسبب للفعل ، أو مشاركة للمسبب فهذا شرك أكبر .

ولـ (قد ذم سبحانه من كفر بعد إيمانه بإسناد الفعل إلى غير الله استقلالاً ، كما قال : ﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين ، قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون ﴾[3] الآية ، فهذا في كشف الضر ، وفي النعم قال

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/٥٦٣ ـ ٥٦٤ .

(٢) الأنواء جمع نوء ، وهي منازل الكواكب ـ مطالعها ومغاربها ـ وسمي نوءاً ؛ لأنه إذا سقط الساقط منها بالمغرب ناء الطالع بالمشرق ، ينوء نوءاً أي : ظهر وطلع ، فنسب المشركون نزول المطر إلى طلوع نوء وغروب آخر . انظر النهاية ٥/١٢٢ مادة نوأ .

(٣) سورة الأنعام ٦٣ -٦٤ .

: ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾[١] أي شكركم وشكر ما رزقكم الله ، ونصيبكم تجعلونه تكذيباً وهو الاستسقاء بالأنواء ، كما ثبت في حديث ابن عباس في الصحيح قال : مطر الناس على عهد رسول الله ﷺ فقال ﷺ : ((أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر ، قالوا : هذه رحمة الله ، وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا وكذا ، قال : فنزلت هذه الاية : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ حتى بلغ : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾..[٢]

وفي صحيح مسلم أيضاً عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ : ((ما أنزل الله من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين ، ينزل الله الغيث فيقول : الكوكب كذا وكذا ، وفي لفظ له : ((بكوكب كذا وكذا))[٣]

وفي الصحيحين عن زيد بن خالد الجهني قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح على إثر سماء كانت من الليل ، قال : ((أتدرون ما ذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فمن قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب .))[٤]

وهذا كثير جداً في الكتاب والسنة ، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ، ويشركه به ، قال بعض السلف : هو كقولهم كانت الريح طيبة والملاح حاذقاً.

ولهذا قرن الشكر بالتوحيد في الفاتحة وغيرها ...) [٥]

فمن أضاف الإنعام إلى غير الله اضافة إيجاد وتصرف ونحوه فقد أشرك شركاً أكبراً ، ومن أضافه إلى غير الله إضافة تسبب في وقوع النعمة وحدوثها ونحو ذلك فقد أشرك شركاً أصغر .

---

(١) سورة الواقعة ٨٢ .

(٢) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٣) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٤) رواه البخاري في الأذان (ح ٨٤٦) ومسلم في الإيمان (ح٧١) وأبو داود في الطب (ح٣٩٠٦) .

(٥) الفتاوى ٨/٣٢-٣٣ . ١٦/١٥٠-١٥١ .

أما من اعتقد أن المخلوق سبب من الأسباب التي جعلها الله سبباً في حصول النعمة ونحو ذلك واعتقد أن المسبب وموجد السبب هو الله تعالى فإن هذا ليس بشرك . والله تعالى أعلم .

٣) النذر لغير الله

النذر عبادة من العبادات الشرعية التي لا يجوز صرفها لغير الله ـ عز وجل ـ فمن نذر لغير الله عز وجل فلا يجوز له الوفاء بنذره ؛ لأن ذلك شرك ومعصية من المعاصي .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : (وأما النذر للموتى من الأنبياء والمشائخ وغيرهم : أو لقبورهم أو المقيمين عند قبورهم ، فهو نذر شرك ومعصية لله تعالى ، سواء كان النذر نفقة أو ذهباً ، أو غير ذلك ، وهو شبيه بمن ينذر للكنائس والرهبان وبيوت الأصنام.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : ((من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه)) [1] وقد اتفق العلماء على أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به ، بل عليه كفارة يمين في أحد قولي العلماء ، وهذا إذا كان النذر لله ، وأما إذ كان النذر لغير الله ، فهو كمن يحلف بغير الله وهذا شرك ، فيستغفر الله منه ، وليس في هذا وفاء ولا كفارة .)[2]

وأما السفر إلى قبر ونحوه من أجل الوفاء بالنذر سواء كان قبر النبي ﷺ أو غيره من القبور فمحرم شرعاً ، ولا يجب عند أحد من الأئمة انشاء السفر إلى القبر المنذور الذهاب إليه ، لأنه ليس بطاعة .[3]

---

(١) رواه البخاري في الأيمان والنذورة (ح٦٦٩٦) وأبو داود في الأيمان والنذور (ح ٣٢٨٩) والنسائي في الأيمان والنذور (ح٣٨٠٧) وابن ماجه في الكفارات (ح٢١٢٦) .والدارمي في الأيمان والنذور (ح٢٣٣٨) ومالك في الأيمان والنذور (ح١٠٣١) .

(٢) الفتاوى ٥٠٤/١١ . وانظر ٧٧/٢٧-٧٩ ، ١٣٦ ، ١٤٦-١٤٧ وما بعدها . ٨١/١ -٨٢ .

(٣) وسيأتي الكلام في شد الرحال إلى زيارة القبور مستقلاً في الباب الثالث إن شاء الله تعالى .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : (وقد اتفق الأئمة على أنه لو نذر أن يسافر إلى قبره صلوات الله وسلامه عليه ، أو قبر غيره من الأنبياء والصالحين ، لم يكن عليه أن يوفي بنذره ؛ بل ينهى عن ذلك .) [١]

(وليس في شريعة الإسلام بقعة تقصد لعبادة الله فيها بالصلاة والدعاء والذكر والقراءة ونحو ذلك إلا مساجد المسلمين ومشاعر الحج ، أما المشاهد التي على القبور سواء جعلت مساجد أو لم تجعل ، أو المقامات التي تضاف إلى بعض الأنبياء والصالحين ، أو المغارات والكهوف أو غير ذلك ، مثل الطور الذي كلم الله عليه موسى تكليماً ، ومثل غار حراء الذي كان النبي ﷺ يتحنث فيه قبل نزول الوحي عليه ، والغار الذي ذكره الله في قوله : ﴿ ثاني اثنين إذ هما في الغار ﴾[٢] والغار الذي بجبل قاسيون بدمشق الذي يقال لأحدهما : مقام ابراهيم عليه السلام وقال للآخر : مقام عيسى عليه السلام وما أشبه هذه البقاع والمشاهد في شرق الأرض وغربها[٣] : فهذه لا يشرع السفر إليها لزيارتها ، ولو نذر ناذر السفر إليها لم يجب عليه الوفاء بنذره باتفاق أئمة المسلمين ، بل ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وهو يروي عن غيرهما أنه قال : ((لا تشد الرحال إلى إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى))[٤]...)[٥] بل لا يجوز الوفاء بنذر الطاعة في مكان عبد فيه غير الله ، كما تقدم في حديث الضحاك .

فثبت بهذا أنه لا يجوز الوفاء إلا بنذر الطاعة ، وأما نذر المعصية فلا يجوز الوفاء به ، فإن نذر أن يشد الرحال لزيارة قبرٍ فقد ارتكب محضوراً شرعياً ، يأثم بفعله وإن نذر أن يذبح لصاحب قبر فلا يجوز له الوفاء به لكونه نذر معصية ، وإن فعل فقد أشرك شركاً أكبرا .

---

(١) الفتاوى ١/٢٣٤-٢٣٥ .

(٢) سورة التوبة ٤٠ .

(٣) وسيأتي بيان الأماكن المشروعة زيارتها من غير المشروعة في الباب الثالث إن شاء الله تعالى .

(٤) رواه البخاري في الجمعة (ح١١٨٩ ، ١١٩٧) ومسلم في الحج (ح٨٢٧) وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (ح١٤١٠) .

(٥) الفتاوى ٢٧/١٣٧-١٣٨ .

٤) شرك الطاعة :

مما هو معلوم بالضرورة وجوب طاعة الله ورسوله ﷺ طاعة مطلقة ، لا محيد عنها ، وما سوى ذلك فلا يطاع إلا وفق طاعة الله ـ عز وجل ـ (والرسول ﷺ إنما وجبت طاعته ؛ لأنه من يطع الرسول فقد أطاع الله ، فالحلال ما حلله والحرام ما حرمه ، والدين ما شرعه ، ومن سوى الرسول ﷺ من العلماء والمشايخ والأمراء والملوك إنما تجب طاعتهم إذا كانت طاعتهم طاعة لله ، وهم إذا أمر الله ورسوله بطاعتهم فطاعتهم داخلة في طاعة الرسول ﷺ ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ [1] فلم يقل وأطيعوا الرسول وأطيعوا أولي الأمر منكم ؛ بل جعل طاعة أولي الأمر داخلة في طاعة الرسول ﷺ ، وطاعة الرسول طاعة لله ، وأعاد الفعل في طاعة الرسول دون طاعة أولي الأمر . فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله ، فليس لأحد إذا أمره الرسول ﷺ بأمر أن ينظر هل أمر الله به أم لا ؛ بخلاف أولي الأمر فإنهم قد يأمرون بمعصية الله ، فليس كل من أطاعهم مطيعاً لله ؛ بل لابد فيما يأمرون به أن يعلم أنه ليس معصية لله ، وينظر هل أمر الله به أم لا ، سواء كان أولي الأمر من العلماء أو الأمراء ، ويدخل في هذا تقليد العلماء وطاعة أمراء السرايا وغير ذلك ، وبهذا يكون الدين كله لله ، قال تعالى : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾[2] وقال النبي ﷺ : لما قيل له : يارسول الله ! الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء ، فأي ذلك في سبيل الله ؟ فقال : ((من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله))[3] ...

فمن جعل غير الرسول تجب طاعته في كل ما يأمر به وينهى عنه ويحلله ويحرمه ، ويقيمه مقام الله ورسوله ، فهذا من الشرك الذي يدخل أصحابه في قوله

---

(١) سورة النساء ٥٩ .

(٢) سورة البقرة ١٩٣ .

(٣) رواه البخاري في العلم (ح١٢٣) ومسلم في الأمارة (ح١٩٠٤) وأبو داود في الجهاد (ح٢٥١٧) والترمذي في فضائل الجهاد (ح١٦٤٦) والنسائي (ح٣١٣٦) .

تعالى : ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله﴾[١] ...)[٢]

(وكثير من الناس يغلط في هذا الموضع فيظن في شخص أنه ولي لله ، وأن ولي الله يقبل منه ما يقوله ، ويسلم إليه كل ما يفعله وإن خالف الكتاب والسنة ، ويجعل طاعته واتباعه هو الفارق بين أوليائه وأعدائه ، وبين أهل الجنة والنار ، وبين المتقين والفجار ، فمن اتبعه كان من أولياء الله المتقين ، وجنده المفلحين ، وعباده الصالحين ، ومن يعاديه كان من أعداء الله الخاسرين المجرمين ، فتجره مخالفة الرسول ﷺ وموافقة ذلك الشخص أولا : إلى البدعة والضلال ، وآخِراً : إلى الكفر والشرك والنفاق . فيكون له نصيب من قوله — عز وجل — : ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ۞ ياويلتى ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً ۞ لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً ﴾[٣] وقوله تعالى : ﴿ ويوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولاً ، وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتها وكبراءنا فأضلونا السبيلاً ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً ﴾ [٤]

وهؤلاء مشابهون للنصارى الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ [٥]

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه لما سأل النبي ﷺ عن هذه الآية فقال : ما عبدوهم يارسول الله ، فقال النبي ﷺ : ((.. أحلو لهم الحرام وحرموا

---

(١) سورة البقرة ١٦٥ .

(٢) الفتاوى ١٠/٢٦٦-٢٦٨ .

(٣) سورة الفرقان ٢٧ .

(٤) سورة الأحزاب ٦٧-٦٩ .

(٥) سورة التوبة ٣١ .

عليهم الحلال فأطاعوهم وكانت هذه عبادتهم إياهم[١])) [٢] ...

فكل من خالف شيئاً مما جاء به الرسول ﷺ مقلداً في ذلك لمن يظن أنه ولي الله فإنه بنى أمره على أنه ولي الله ، وأن ولي الله لا يخالف في شيء ولو كان هذا الرجل من أكبر أولياء الله ، كأكابر الصحابة والتابعين لهم بإحسان لم يقبل منه ما خالف الكتاب والسنة ، فكيف إن لم يكن كذلك ؟ ...) [٣]

أما إذا كان الشخص ذاته يطلب من الناس طاعته من دون الله فإن هذا من الطواغيب الذين نصبوا أنفسهم آلهة تعبد من دون الله كفرعون ومن نحا نحوه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : (من طلب أن يطاع دون الله ﷻ فهذ حال فرعون ، ومن طلب أن يطاع مع الله فهذا يريد من الناس أن يتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والله ﷻ أمر أن لا يعبد إلا إياه ، وأن لا يكون الدين إلا له ، وأن تكون الموالاة فيه ، والمعاداة فيه ، وأن لا يتوكل إلا عليه ولا يستعان إلا به .) [٤]

فمن طلب أن يطاع فقد طلب من الناس أن يعبدوه ، وما ذلك إلا لإن هناك تلازم بين شرك الدعاء والعبادة ، وبين شرك الطاعة والامتثال ، فإن كل من وقع في شرك الدعاء أو شرك العبادة أو بهما جميعاً فقد وقع في شرك الطاعة ، فإن (كثيراً من المتفقهة وأجناد الملوك ، وأتباع القضاة ، والعامة المتبعة لهؤلاء يشركون شرك الطاعة ..

فتجد أحد المنحرفين يجعل الواجب ما أوجبه متبوعه ، والحرام ما حرمه ، والحلال ما حلله ، والدين ما شرعه إما ديناً وإما دنياً ، وإما دنياً وديناً ، ثم يخوف من امتنع من هذا الشرك ، وهو لا يخاف أنه أشرك به شيئاً في طاعته بغير سلطان من الله ، وبهذا يخرج من أوجب الله طاعته من رسول وأمير وعالم ووالد وشيخ وغير ذلك .

---

(١) فجعل الرسول ﷺ طاعة الأحبار والرهبان في تحريم الحلال وتحليل الحرام من اتخاذهم أرباباً من دون الله ، وذلك بمجرد الطاعة . وسيأتي هذا مفصلاً بحول الله وقوته في الباب الثالث.

(٢) رواه الترمذي والبيهقي وغيرهما وقد تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٣) الفتاوى ٢١٠/١١-٢١٣ بتصرف .

(٤) الفتاوى ٣٢٨/١٤-٣٢٩ . وانظر درء التعارض ٢٧٢/١-٢٧٣ .

[وهناك نوع آخر من الناس ككثير] من أتباع المتكلمة والمتفلسفة ؛ بل وبعض المتفقهه والمتصوفة ؛ بل وبعض أتباع الملوك والقضاة يقبل قول متبوعه فيما يخبر به من الاعتقادات الخبرية ، ومن تصحيح بعض المقالات وإفساد بعضها ، ومدح بعضها ، وبعض القائلين وذم بعض بلا سلطان من الله [1] ، ويخاف ما أشركه في الإيمان والقبول ، ولا يخاف إشراكه بالله شخصاً في الإيمان به وقبول قوله بغير سلطان من الله . وبهذا يخرج من شرع الله ..) [2] ويقع في شرك الطاعة من حيث يشعر أو لا يشعر .

والخلاصة أن الطاعة الكاملة التي يرافقها الإستسلام والإذعان والذل والخضوع دون نظر وطلب الدليل إنما تكون لله ـ عز وجل ـ إذ هو الخالق الذي بيده الأمر والنهي المطلق ، ولرسوله ﷺ الذي اختاره الله لتبليغ دينه ، وبيان شرعه .

وأما طاعة من أطاع الله ورسوله ﷺ فإنها مفروضة بامتثالهم الأمر الشرعي والقيام به ، فطاعتهم ليست لذاتهم ، وإنما هي تبع لامتثالهم الشرع ، لمظنة خطأهم وعدم موافقتهم لمراد الله وأمر رسوله ﷺ .

فإن من أطاع غير الله في كل شيء دون طلب للدليل الشرعي الموجب للفعل أو الترك فهو مشابه لحال النصارى في اتخاذهم أحباراً وأرباباً من دون الله ، حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحله الله ، فكانت تلك عبادتهم .

٥) التحاكم إلى الطاغوت

(الطاغوت فعلوت من الطغيان ... والطغيان مجاوزة الحد ؛ وهو الظلم والبغي.

فالمعبود من دون الله إذا لم يكن كارهاً لذلك : فهو طاغوت ، ولهذا سمى النبي ﷺ الأصنام طواغيت في الحديث الصحيح لما قال : ((ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت))[3] .

---

(١) وهذا فيه مشابهة للنصارى .

(٢) الفتاوى ١/٩٧-٩٨ .

(٣) رواه البخاري في التوحيد (ح٧٤٣٨) ومسلم في الإيمان (ح١٨٢) .

والمطاع في معصية الله ، والمطاع في اتباع غير الهدي ودين الحق ــ سواء كان مقبولاً خبره المخالف لكتاب الله ، أو مطاعاً أمره المخالف لأمر الله ــ هو طاغوت ؛ ولهذا سُمي من تحوكم إليه من حاكم بغير كتاب الله طاغوتاً ، وسمي الله فرعون وعاداً طغاة ، وقال في صيحة ثمود : ﴿ فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ﴾[1] .

([ولذا فقد بين شيخ الإسلام ــ رحمه الله تعالى ــ أن] من كان من هذه الأمة موالياً للكفار : من المشركين أو أهل الكتاب ببعض أنواع الموالاة ، ونحوها : مثل إتيانه أهل الباطل وإتباعهم في شيء من مقالهم ، وفعالهم الباطل كان له من الذم والعقاب والنفاق بحسب ذلك ؛ وذلك مثل متابعتهم في آرائهم وأعمالهم ؛ كنحو أقوال الصابئة وأفعالهم ، من الفلاسفة ونحوهم ، المخالفة للكتاب والسنة ، ونحو أقوال اليهود والنصارى وأفعالهم المخالفة للكتاب والسنة ، ونحو أقوال المجوس والمشركين وأفعالهم المخالفة للكتاب والسنة ...

ولا ريب أن هذه الطوائف : وإن كان كفرها ظاهراً فإن كثيراً من الداخلين في الاسلام ، حتى من المشهورين بالعلم ، والعبادة والإمارة قد دخل في كثير من كفرهم ، وعظمهم ويرى تحكيم ما قرروه من القواعد ونحو ذلك ، وهؤلاء كثروا في المستأخرين ، ولبسوا الحق الذي جاءت به الرسل بالباطل الذي كان عليه أعداؤهم .

والله تعالى يحب تمييز الخبيث من الطيب ، والحق من الباطل ، فيعرف أن هؤلاء الأصناف منافقون ، أو فيهم نفاق ، وإن كانوا مع المسلمين ، فإن كون الرجل مسلماً في الظاهر لايمنع أن يكون منافقاً في الباطن ، فإن المنافقين كلهم مسلمون في الظاهر ، والقرآن قد بين صفاتهم وأحكامهم ، وإذا كانوا موجودين على عهد رسول الله ﷺ وفي عزة الاسلام مع ظهور أعلام النبوة ، ونور الرسالة فهم مع بعدهم عنها أشد وجوداً ، لاسيما وسبب النفاق هو سبب الكفر ، وهو المعارض لما جاءت به الرسل.)[2]

---

(١) سورة الحاقة ٥ .

(٢) الفتاوى ٢٨/٢٠٠ــ ٢٠٢ .

ومما هو (معلوم باتفاق المسلمين أنه يجب تحكيم الرسول ﷺ في كل ما شجر بين الناس في أمر دينهم ودنياهم ، في أصول دينهم وفروعه ، وعليهم كلهم إذا حكم بشيء أن لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما حكم ويسلموا تسليماً ...) [(١)]

وإن من مقتضى التوحيد ولوازمه الاستسلام لله ولرسوله في كل شيء ، ومن ذلك التحاكم إلى شرع الله المنزل على رسوله ﷺ في موارد النزاع وغيرها ، فإن من عرف الشهادتين اللتين هما أساس توحيد العبادة ومبدأه لزمه الانقياد لكل ما دلتا عليه ، ومن ذلك رد الأمر إلى الله ورسوله ﷺ في حياته وإلى سنته بعد مماته ، فمن شهد أن لا إله إلا الله ثم عدل إلى تحكيم غير شرع الله فقد كذب في شهادته ، واقترف قادحاً من قوادح توحيد العبادة والتأله . قال الله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذي يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يظلهم ظلالاً بعيداً ، وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً ﴾ الآيات ...[(٢)] [(٣)]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : (وفي هذه الآيات أنواع من العبر من الدلالة على ضلال من يحاكم إلى غير الكتاب والسنة ، وعلى نفاقه ، وإن زعم أنه يريد التوفيق بين الأدلة الشرعية وبين ما يسميه هو عقليات من الأمور المأخوذة عن بعض الطواغيت من المشركين وأهل الكتاب وغير ذلك من أنواع الاعتبار .) [(٤)]

وقد ذم سبحانه في هذه الآيات (المدعين الإيمان بالكتب كلها وهم يتركون التحاكم إلى الكتاب والسنة ، ويتحاكمون إلى بعض الطواغيت المعظمة من دون الله كما يصيب ذلك كثيراً ممن يدعي الاسلام وينتحله في تحاكمهم إلى مقالات الصابئة الفلاسفة أو غيرهم ، أو إلى سياسة بعض الملوك الخارجين عن شريعة الاسلام من ملوك الترك وغيرهم ، وإذا قيل لهم : تعالوا إلى كتاب الله وسنة رسوله أعرضوا عن ذلك

---

(١) الفتاوى ٣٨/٧ .

(٢) سورة النساء ٦٠ .

(٣) انظر الفتاوى ٣١٤/٣-٣١٧ . وانظر حاشية ابن قاسم على كتاب التوحيد ٢٨٤ .

(٤) الفتاوى ٣١٧/٣ .

إعراضاً ، وإذا أصابتهم مصيبة في عقولهم ودينهم بالشبهات والشهوات أو في نفوسهم وأموالهم ؛ عقوبة على نفاقهم قالوا إنما أردنا أن نحسن بتحقيق العلم بالذوق ونوفق بين الدلائل الشرعية والقواطع العقلية التي هي في الحقيقة ظنون وشبهات ، أو الذوقية التي هي في الحقيقة أوهام وخيالات ﴿ أولئك الذين يعلم ا لله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً ۞ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن ا لله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا ا لله واستغفر لهم الرسول لوجدوا ا لله تواباً رحيماً ۞ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ ويقولون آمنا با لله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين وإذا دعوا إلى ا لله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ﴾ إلى قوله : ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى ا لله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ﴾[2] الاية .

وقال تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل ا لله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم ﴾ [3] ...)[4]

وهؤلاء المتحاكمون إلى الطواغيت ، الراضون بها المفضلون لها على شرع ا لله وحكمه ؛ هم كمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض ، (وكمن آمن ببعض صفات الرسالة وكفر ببعض ، من الصابئن الفلاسفة ونحوهم الذين قد يقرون بأصل الرسالة ؛ لكن يجعلون الرسول بمنزلة الملك العادل الذي قد وضع قانوناً لقومه ، أو يقولون : إن الرسالة للعامة دون الخاصة ، أو في الأمور العملية دون العلمية ، او في الأمور التي يشترك فيها الناس دون الخصائص التي يمتاز بها الكمل ويقرون برسالة محمد ﷺ من حيث الجملة ، ويعظمونه ، ويقولون : اتفق فلاسفة العالم على أنه لم يرد إلى الأرض ناموس أعظم من ناموسه ؛ لكنهم مع هذا يكفرون ببعض ما جاء به ، مثل

---

(١) سورة النساء ٦٣ــ ٦٥ .

(٢) سورة النور ٥١ .

(٣) سورة البقرة ٩١ .

(٤) الفتاوى ١٢/٣٣٩-٣٤٠ .

أن يسوغوا اتباع غير دينه من اليهودية والنصرانية [(١)] ، وقد يسوغون الشرك أيضاً للعامة أو للخاصة : مثل أن يسوغوا دعوة الكواكب وعبادتها ، والسجود لها ، وقد يكذبون في الباطن بأشياء مما أخبر بها ، ويزعمون أن ما أخبروا به من أمور الإيمان بالله واليوم الآخر إنما هي أمثال مضروبة لتفهيم العامة ما لا يجوز إظهاره وإبانة حقيقته ، وذلك أنهم يجوزون كذبه لمصلحة العامة بزعمهم .

وقد يزعمون أن حقيقة العلم بالله تؤخذ من غير ما جاء به الرسول ﷺ وأن من الناس من يكون أعلم بالله منه أو أفضل منه ، ونحو ذلك من المقالات ، وهذا الضرب ما زال موجوداً لا سيما مع القرامطة الباطنية من الاسماعيلية والنصيرية والملوك العبيدية الذين كانوا يدعون الخلافة ، ومع الخرمية والمزدكية وأمثالهم من الطوائف ، وهؤلاء خواصهم أكفر من اليهود والنصارى ومن الغالية الذين يقولون بإلهية علي ونحوهم[(٢)] ، من البشر أو نبوته ، وهم منافقون زنادقة ؛ لكن في كثير من أتباعهم من يظن أنه مؤمن بالكتب والرسل لما لبسوا عليه أصل قولهم ، أو وافقهم في قول بعضهم دون بعض ، وأكثر هؤلاء يميلون إلى الرافضة ، ومنهم من ينتسب إلى التصوف ، ومنهم من ينتسب إلى الكلام ، ومنهم من يدخل مع الفقهاء في مذاهبهم ، وهذا الضرب يكثر في الدول الجاهلية البعيدين عن معرفة الاسلام والتزامه ، كما كانوا كثيرين في دولة الدَيْلَم والعبيديين ونحوهم ، وكما يكثرون في دولة الجهال من الترك ونحوهم من الجهال الذي آمنوا بالرسالة من حيث الجملة من غير علم بتفاصيل ما جاء به الرسول ﷺ ؛ لأن الجهال من الترك وغيرهم بهذا الضرب أشبه منهم بغيرهم ؛ فإن هؤلاء لا يوجبون اتباع الرسول على جميع أهل الأرض ؛ لكنهم قد يرون اتباعه أحسن من ابتاع غيره فيتبعونه على سبيل الاستحباب أو يتبعون بعض ما جاء به ، أو لايتبعونه بحال ، وهم في ذلك مقرون له ولأتباعه . والمؤمن ببعض الرسالة دون بعض كافر...) [(٣)]

---

(١) كما هو حال بعض الكتاب والمستغربين ممن ينتسب إلى الاسلام في هذا العصر .

(٢) كالدروز الذين يؤلهون الحاكم بأمر الله ، وكالبهائية الذين يقولون بألوهية حسن على المازندراني وغيرهم .

(٣) الفتاوى ١٢/٣٣٦-٣٣٨ . وانظر ٧/٣٦-٣٧ .

وإن مما يلحق بالمتحاكمين إلى الطواغيت أولئك المتكلمين الذين حكموا عقولهم القاصرة في معرفة الله وصفاته فما وافق عقولهم أخذو به ، وما لم يوافق عقولهم ولم تثبتهم أفهامهم نفوه أو أولوه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : مبيناً حقيقة مذهبهم : (.. حقيقة الأمر على ما يقوله هؤلاء : إنكم يامعشر العباد لا تطلبوا معرفة الله عز وجل ، وما يستحقه من الصفات نفياً وإثباتاً ، لا من الكتاب ولا من السنة ، ولا من طريق سلف الأمة ؛ ولكن انظروا أنتم فما وجدتموه مستحقاً له من الصفات فصفوه به ـ سواء كان موجوداً في الكتاب والسنة أو لم يكن ـ وما لم تجدوه مستحقاً له في عقولكم فلا تصفوه به !!

ثم ههنا فريقان : أكثرهم يقولون : مالم تثبته عقولكم فانفوه ، ومنهم من يقول : بل توقفوا فيه ـ وما نفاه قياس عقولكم ـ الذي أنتم فيه مختلفون ومضطربون اختلافاً أكثر من جميع من على وجه الأرض فانفوه ، وإليه عند التنازع فارجعوا ، فإنه الحق الذي تَعَبدتُكُم به ؛ وما كان مذكوراً في الكتاب والسنة مما يخالف قياسكم هذا أو يثبت مالم تدركه عقولكم على طريقة أكثرهم فاعلموا أني امتحنكم بتنزيله لا لتأخذوا الهدي منه ؛ لكن لتجتهدوا في تخريجه على شواذ اللغة ، ووحشي الألفاظ ، وغرائب الكلام ، أو تسكتوا عنه مفوضين علمه إلى الله ، مع نفي دلالته على شيء من الصفات .

هذا حقيقة الأمر على رأي هؤلاء المتكلمين ، وهذا الكلام قد رأيته صرح بمعناه طائفة منهم ، وهو لازم لجماعتهم لزوماً لا محيد عنه .

ومضمونه أن كتاب الله لايهتدى به في معرفة الله ، وأن الرسول معزول عن التعليم والإحبار بصفات من أرسله ، وأن الناس عند التنازع لايردون ما تنازعوا فيه إلى الله والرسول ؛ بل إلى مثل ما كانوا عليه في الجاهلية ، وإلى مثل ما يتحاكم إليه من لا يؤمن بالأنبياء كالبراهمة(١) والفلاسفة ـ وهم مشركون ـ والمجوس وبعض الصابئين .

---

(١) البراهمة قبلة بالهند فيهم أشراف أهل الهند ، ينسبون إلى ملك من ملوكهم يسمى برهم ، يعتقدون بوجود الله إلا أنهم ينكرون النبوات . انظر الفصل في الملل والنحل لابن حزم ١٣٧/١ ، والملل والنحل للشهرستاني ٢٥٠/٢ .

وإن كان هذا الرد لايزيد الأمر إلا شدة ، ولا يرتفع الخلاف به ، إذ لكل فريق طواغيت يريدون أن يتحاكموا إليهم ، وقد أمروا أن يكفروا بهم ، وما أشبه حال هؤلاء المتكلمين بقوله سبحانه توتعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ...﴾ الآيات

فإن هؤلاء إذا دعوا إلى ما أنزل الله من الكتاب وإلى الرسول ـ والدعاء إليه بعد وفاته هو الدعاء إلى سنته ـ أعرضوا عن ذلك وهم يقولون : إنا قصدنا الإحسان علماً وعملاً بهذه الطريق التي سلكناها ، والتوفيق بين الدلائل العقلية والنقلية .

ثم عامة هذه الشبهات التي يسمونها دلائل : إنما تقلدوا أكثرها عن طاغوت من طواغيت المشركين أو الصابئين أو بعض ورثتهم الذين أمروا ان يكفروا بهم مثل فلان وفلان ، أو عمن قال كقولهم لتشابه قلوبهم .

قال تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ ...) [١]

٦) الاستغاثة والاستعانة والاستعاذة بغير الله

تقدم في أنواع العبادة الكلام على الاستغاثة والاستعانة والاستعاذة ، وذكرت فيها أن هذه الأمور من أنواع العبادة التي لا يجوز صرفها إلا لله ، فلا يجوز أن يستعين العبد فيما لا يقدر عليه إلا بالله لا بملك مقرب ولا نبي مرسل ، ولاصالح يعتقد ولايته ، بل يجب أن يستعين العبد بالله وحده كما قال سبحانه في الفاتحة وأمر عبادة أن يمتثلوا بها : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ حيث خص نفسه سبحانه بالعبادة كما خصها بالإستعانه .[٢]

وقال سبحانه (: ﴿ إذ تستغيثون ربك فاستجاب لكم ﴾[٣] وفي الدعاء المأثور: ((ياحي ياقيوم لا إله إلا أنت برحمتك أستغيث ، أصلح لي شأني كله ولا

---

(١) الفتاوى ١٧/٥-١٨ .

(٢) انظر الفتاوى ١٠٣/١ وما بعدها .

(٣) سورة الأنفال ٩ .

تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا إلى أحد من خلقك))[١] والاستغاثة برحمته استغاثة به في الحقيقة ، كما أن الاستعاذة بصفاته استعاذة به في الحقيقة ، وكما أن القسم بصفاته قسم به في الحقيقة ...)[٢]

ومن هنا نستطيع القول بأن الاستغاثة لا يجوز أن تصرف إلا لله فيما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل ، وأن من صرفها لغير الله فقد أشرك ، ولا عبرة بما يدعيه من يستغيث بالرسول ﷺ أو بأحد من الخلق أن حاجته قضيت ، وأن كربته فرجت بفضل تلك الاستغاثة بالرسول ﷺ أو بالشيخ الفلاني ونحو ذلك مما يعظمه (كثير من أهل البدع والضلال والشرك المنتسبين إلى هذه الأمة ، فإن أحدهم يدعو ويستغيث بشيخه الذي يعظمه وهو ميت ، أو يستغيث به عند قبره ويسأله ، وينذر له نذراً ونحو ذلك ، ويرى ذلك الشخص قد أتاه في الهواء ودفع عنه بعض ما يكره ، أو كلمه ببعض ما سأله عنه ، ونحو ذلك فيظنه الشيخ نفسه أتى إن كان حياً ...

وقد يأتون إلى الشيخ .. الذي استغاثوا به وقد رأوه أتاهم في الهواء فيذكرون ذلك له .. فتارة يكون الشيخ نفسه لم يكن يعلم بتلك القضية ، فإن كان يحب الرياسة سكت وأوهم أنه نفسه أتاهم وأغاثهم ، وإن كان فيه صدق مع جهل وضلال قال : هذا ملك صوره الله على صورتي ، وجعل هذا من كرامات الصالحين ، وجعله عمدة لمن يستغيث بالصالحين ، ويتخذهم أرباباً ، وأنهم إذا استغاثوا بهم بعث الله ملائكة على صورهم تغيث المستغيث ... ولهذا .. صار أحدهم يوصي مريديه يقول : إذا كانت لأحدكم حاجة فليستغث بي ، وليستنجدني وليستوصني ، ويقول : أنا أفعل بعد موتي ما كنت أفعل في حياتي ، وهو لا يعرف أن تلك شياطين تصورة على صورته لتضله وتضل أتباعه ، فتحسن لهم الإشراك بالله ، ودعاء غير الله ، والاستغاثة بغير الله ...

---

(١) روى نحوه أبو داود (ح ٥٠٩٠) ، وروى الترمذي بعضه عن أنس بن مالك قال كان النبي ﷺ إذا كربه أمر قال : ((يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث)) في كتاب الدعوات (ح٣٥٢٤) ، وحسنه الألباني . انظر صحيح مسند أبي داود (جـ٣/٩٥٩) .

(٢) الفتاوى ١١١/١

وقد ذكر لي غير واحد ممن أعرفهم أنهم استغاثوا بي فرأوني في الهواء وقد أتيتهم وخلصتهم من تكل الشدائد .. فذكرت لهم أني ما دريت بما جرى أصلاً ، وحلفت لهم على ذلك حتى لا يظنوا أني كتمت ذلك كما تكتم الكرامات .. وبينت لهم أن هذه شياطين تتصور على صورت المستغاث به ...)[1]

وقد تقدم أيضاً أن الاستعاذة من أنواع العبادة التي لا يجوز صرفها إلا لله ، فمن استعاذ بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فقد أشرك ، وأن تلك الاستعاذة لا تزيد المستعيذ إلا ذعراً وخوفاً وبعداً عن الله عز وجل .[2]

والإنسان تحيط به الشرور والأفات من كل مكان حتى من نفسه التي بين جنبيه ، ولا يمكن أن يدفع هذه الشرور سواء الموجودة الحاصلة ، أو المتوقع حصولها ، لا يمكن أن يدفعها سوى الله ـ عز وجل ـ ولهذا أمر الله عبادة بالاستعاذة به من شر كل ذي شر ، فقال سبحانه : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ، من شر ما خلق ، ومن شر غاسق إذا وقب ، ومن شر النفاثات في العقد ، ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ وقال سبحانه : ﴿ قل أعوذ برب الناس ملك الناس ، إله الناس ، من شر الوسواس الخناس ...﴾ وقال سبحانه ﴿ وإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ وقال ﷺ : ((.. ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا)) [3] فأمر سبحانه عبادة بالاستعاذة به وحده دون من سواه ، فدل هذا على أن من استعاذ بغيره ممن لا يقدر على إعاذته فقد أشرك .[4]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : (وقال غير واحد من السلف : كان الرجل من الإنس إذا نزل بالوادي قال : أعوذ بعظيم هذا الوادي من شر سفهاء قومه ، فلما استغاثت الإنس بالجن إزدادت الجن طغياناً وكفراً كما قال تعالى :﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً ، وأنهم ظنوا كما ظننتم

---

(١) الفتاوى ٤٥٦/١٧ وما بعدها .

(٢) وانظر الفتاوى ٣٢٩/١ ، ٣٣٦ .

(٣) تقدم تخريجه في أنواع العبادة ، انظر فهرس الأحاديث .

(٤) انظر الفتاوى ٥١٤/١٧ -٥١٩ .

أن لن يبعث الله أحداً ، وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً ﴾[(١)]...)[(٢)]

كما تقدم كذلك كلام شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : في الاستعانة أنها من العبادات التي أمر العباد بصرفها لله وحده ، بل لقد قرنها الله بالعبادة وفرض علينا أن نعبده ونستعينه في كل صلاة فقال : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ وهذا يقتضى أن نستعين به وحده ، وأن نتوكل عليه وحده ، وأن نعتمد عليه وحده ، وقد أمر بذلك سبحانه حيث قال : ﴿ فاعبده وتوكل عليه﴾[(٣)] وقال : ﴿ وتوكل على الحي الذي لايموت ﴾[(٤)] وغير ذلك من الآيات التي يأمر الله بالاستعانة به وحده والتوكل عيه وحده .

ومن هنا يتبين ضلال كل من استعان بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله .

ولقد وقع كثير من الخلق في الاستعانة بغير الله والاتكال عليهم ، والإعراض عن ربهم ومولاهم ، وخاصة أولئك الذين يستعينون بالجن والشياطين لقضاء أغراضهم .

وقد قسم شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : الاستعانة بالجن إلى أقسام منها :

أحدهما : من يستعملهم في الأمور المباحة ، كأن يأمرهم بما أوجب الله عليهم ، ينهاهم عما حرم الله عليهم ، ويستعملهم مع ذلك في أمور مباحات له ، فيكون بمنزلة الملوك الذين يفعلون مثل ذلك ، وهذا إذا قدر أنه من أولياء الله فغايته أن يكون في عموم أولياء الله مثل النبي الملك مع العبد الرسول : كسليمان ويوسف مع إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

والثاني من كان يستعمل الجن فيما نهى الله عنه ورسوله إما في الشرك ، وإما في القتل ، أو العدوان بالمرض والإيذاء ، وإما في فاحشة من الفواحش ونحو ذلك .

---

(١) سورة الجن ٦-٨ .

(٢) الفتاوى ٣٠٤/١١ .

(٣) سورة هود ١٢٣ .

(٤) سورة الأنعام ١٢٨ .

وحكم هذا بحسبه ، فإن استعان على القتل والإيذاء فهذا مستعين بهم على الإثم والعدوان ، وإن كان مستعيناً بهم على الفواحش والمعاصي ، فهو عاص إما فاسق ، وإما مذنب غير فاسق .

وإن استعان بهم على الشرك والكفر فهو كافر ، كمن يستعين بهم على دخول النار ، وحصول بعض الخوارق التي تحصل بسببهم وبفعلهم ، فهذا من أعظم الشرك بالله ، واستخدام الشياطين والاستعانة بهم على إضلال الخلق . قال سبحانه حكاية عنهم يوم القيام : ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم ﴾ [(١)] ومنهم من يستخدمهم لإضلال مريديه وأتباعه كما يحصل لكثير من مبتدعة الصوفية وغيرهم [(٢)]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : عند ذكره لأولئك الذين يفعلون بعض خوارق العادات من الدخول في النار وأخذ الحيات وإخراج اللاذن[(٣)] والسكر والدم وماء الورد ، قال (: وهي نوعان :

أحدهما : أن يفعلوا ذلك بحيل طبيعية ...

والثاني : وهم أعظم : عندهم أحوال شيطانية تعتريهم عند السماع الشيطاني ، فتنزل الشياطين عليهم ، كما تدخل في بدن المصروع ويزبد أحدهم كما يزبد المصروع ، وحينئذ يباشر النار والحيات والعقارب ، ويكون الشيطان هو الذي يفعل ذلك كما يفعل ذلك من تقترن بهم الشياطين من إخوانهم الذين هم شر الخلق عند الناس من الطائفة التي تطلبهم الناس لعلاج المصروع ، وهم شر الخلق عند الناس ، فإذا طلبوا تحيلوا بحلية المقاتلة ، ويدخل فيهم الجن ، فيحارب مثل الجن الداخل

---

(١) سورة الأنعام ١٢٨ .

(٢) انظر الفتاوى ١١/٣٠٧-٣١٠ .

(٣) اللاذن هو : نوع من العُلُوك ، وقيل هو : دواء بالفارسية ، وقيل هو ندى يسقط على الغنم في بعض جزر البحر . ولعل هذا هو المقصود ، إذ أنهم يخرجون من أجسامهم هذا الندى أو نحوه والمقصود أنهم يأتون بشيء خارق للعادة مما يوهم المشاهد أن له قدرة خارقة لقدرات بني آدم . انظر اللسان ١٣/٣٨٥ مادة لذن .

في المصروع ، ويسمع الناس أصواتاً ، ويرون حجارة يرمي بها ، ولا يرون من يفعل ذلك ، ويرى الإنسي واقفاً على رأس الرمح الطويل ، وإنما الواقف هو الشيطان ، ويرى الناس ناراً تحمى ، ويضع فيها الفؤوس والمساحي ، ثم إن الإنسي يلحسها بلسانه ، وإنما يفعل ذلك الشيطان الذي دخل فيه ، ويرى الناس هؤلاء يباشرون الحيات والأفاعي وغير ذلك ، ويفعلون من الأمور ما هو أبلغ مما يفعله هؤلاء المبتدعون الضالون المكذبون الملبسون الذين يدعون أنهم أولياء الله ، وإنما هم من أعاديه المضيعين لفرائضه ، المتعدين لحدوده .. وهذه الأحوال من جنس أحوال أعداء الله الكافرين والفاسقين ...) [١]

فتبين من هذا أن الاستعاذة والاسغاثة والاستعانة كلها تأخذ حكماً واحداً إذا وجهت لغير الله ـ عز وجل ـ فيما لا يقدر عليه إلا الله ، وذلك أن الذي يقع في هذه الأشياء في الغالب يكون توجهه إلى أولئك توجه عبادة ورغبة ورهبة كتوجه المؤمن إلى ربه وهذا من الشرك الأكبر الذي لا يُغفر إلا بالتوبة منه .

٧) *الشرك في المحبة :*

تنقسم المحبة إلى : محبة شرعية ، ومحبة شركية ، فالمحبة الشرعية هي المحبة لله وفي الله ، وهي من أَجَل العبادات الشرعية ، ولذا فإنه يجب أن تكون هذه المحبة خالصة لله ـ عز وجل ـ لا يُشْرَك فيها معه غيره ، وقد تقدم الكلام عليها [٢] وأما المحبة الشركية فهي المحبة مع الله ، فمن أحب شيئاً مع الله ، أو أحبه كما يحب الله فقد أشرك شركاً أكبراً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : (.. من أحب مخلوقاً كما يحب الخالق فهو مشرك به ، قد اتخذ من دون الله أنداداً يحبهم كحب الله ، وإن كان مقراً بأن الله خالقه.

ولهذا فرق الله ورسوله بين من أحب مخلوقاً لله ، وبين من أحب مخلوقاً مع الله .

(١) الفتاوى ١١/٦١٠-٦١١ .

(٢) انظر أنواع العبادة ص

فالأول : يكون الله هو محبوبه ومعبوده الذي هو منتهى حبه وعبادته لا يحب معه غيره ؛ لكنه لما علم أن الله يحب أنبياءه وعباده الصالحين أحبهم لأجله ، وكذلك لما علم أن الله يحب فعل المأمور وترك المحظور أحب ذلك ، فكان حبه لما يحبه تابعاً لمحبة الله وفرعاً عليه وداخلاً فيه ، بخلاف من أحب مع الله فجعله نداً لله يرجوه ويخافه ، أو يطيعه من غير أن يعلم أن طاعته طاعة لله ...

فمن جعل غير الرسول ﷺ تجب طاعته في كل ما يأمر به وينهى عنه وإن خالف أمر الله ورسوله فقد جعله نداً ، وربما صنع به كما تصنع النصارى بالمسيح ، ويدعوه ويستغيث به ، ويوالي أولياءه ، ويعادي أعداءه مع إيجابه طاعته في كل ما يأمر به وينهى عنه ويحلله ويحرمه ، ويقيمه مقام الله ورسوله ، فهذا الشرك الذي يدخل أصحابه في قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾[1]...)[2] فالمحبة الشرعية هي الموجبة لاتباع الرسول ﷺ ومحبة ما يحبه الله ويرضاه ، وبغض ما يبغضه الله .

وأما المحبة الشركية فعلى العكس من ذلك (ليس فيها متابعة للرسول ﷺ ولا بغض لعدوه ومجاهدة له ، كما يوجد في اليهود والنصارى والمشركين يدعون محبة الله ولا يتابعون الرسول ولا يجاهدون عدوه .

وكذلك أهل البدع المدعون للمحبة لهم من الإعراض عن اتباع الرسول ﷺ بحسب بدعتهم ، وهذا من حبهم لغير الله ، وتجدهم من أبعد الناس عن موالاة أولياء الرسول ، ومعاداة أعدائه والجهاد في سبيله لما فيهم من البدع التي هي شعبة من الشرك .)[3]

(وكذلك الذين ادعوا المحبة من الصوفية وكان قولهم في القدر من جنس قول الجهمية المجبرة هم في آخر الأمر لا يشهدون للرب محبوباً إلا ما وقع وقدر ، وكل ما وقع من كفر وفسوق وعصيان فهو محبوب عندهم ، فلا يبقى في هذا الشهود فرق بين موسى وفرعون ، ولا بين محمد ﷺ وأبي جهل ، ولا بين أولياء الله وأعدائه ، ولا بين

---

(١) سورة البقرة ١٥٦ .

(٢) الفتاوى ١٠/٢٦٥-٢٦٧ .

(٣) الفتاوى ٨/٣٦٥ .

عبادة الله وحده وعبادة الأوثان ، بل هذا كله عند الفاني في توحيد الربوبية سواء ؛ لا يفرق بين حادث وحادث إلا من جهة ما يهواه ويحبه ، وهذه هو الذي اتخذ إلهه هواه ، إنما يأله ويحب ما يهواه وهو وإن كان عنده محبة لله فقد اتخذ من دون الله أنداداً يحبهم كحب الله ، وهم من يهواه ؛ هذا ما دام فيه محبة لله ، وقد ينسلخ منها حتى يصير إلى التعطيل كفرعون وأمثاله الذي هو أسوء حالاً من مشركي العرب ونحوهم .

ولهذا هؤلاء يحبون بلا علم ، ويبغضون بلا علم ، والعلم ما جاء به الرسول ﷺ : ﴿ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم ﴾ وهو الشرع المنزل ، ولهذا كان الشيوخ العارفون كثيراً ما يوصون المريدين باتباع العلم والشرع ...)[1]

(والمحبة جنس تحته أنواع كثيرة ، فكل عابد محب لمعبوده : فالمشركون يحبون آلهتهم كما قال الله تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ...﴾ الآية ، وفيها قولان[2] :

أحدهما : يحبونهم كحب المؤمنين لله ، والثاني يحبونهم كما يحبون الله ؛ لأنه قد قال : ﴿ والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ فلم يمكن أن يقال إن المشركين يعبدون آلهتهم كما يعبد الموحدون الله ؛ بل كما يحبون هم الله ؛ فإنهم يعدلون آلهتهم برب العالمين ، كما قال تعالى : ﴿ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ [3] وقال : ﴿ تالله إن كنا لفي ضلال مبين ۞ إذ نسويكم برب العالمين ﴾[4].

وقد قال بعض من نصر القول الأول في الجواب عن حجة القول الثاني : قال المفسرون قوله : ﴿ والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ أي أشد حباً لله من المشركين لآلهتهم ، فيقال له : ما قاله هؤلاء المفسرون مناقض لقولك ، فإنك تقول : إنهم يحبون

---

(١) الفتاوى ٨/٣٦٥-٣٦٦ . وانظر منهاج السنة النبوية ٥/٣٢٩ .

(٢) انظر إلى الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) ٢/٢٠٣ وما بعدها .

(٣) سورة الأنعام ١ .

(٤) سورة الشعراء ٩٧ ــ ٩٨ .

الأنداد كحب المؤمنين لله ، وهذا يناقض أن يكون المؤمنون أشد حباً لله من المشركين لأربابهم ، فتبين ضعف هذا القول ، وثبت أن المؤمنين يحبون الله أكثر من محبة المشركين لله ولآلهتهم ؛ لأن أولئك أشركوا في المحبة ، والمؤمنون أخلصوها كلها لله .

وأيضاً فقوله : ﴿ كحب الله ﴾ أضيف فيه المصدر إلى المحبوب المفعول ، وحذف فاعل الحب ، فإما أن يراد كما يحب الله من غير تعيين فاعل فيبقى عاماً في حق الطائفتن ، وهذا يناقض قوله : ﴿ والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ وإما أن يراد كحبكم لله ، ولا يجوز أن يراد كما يحب غيرهم الله ، إذ ليس في الكلام ما يدل على هذا بخلاف حبهم ، فإنه قد دل عليه قوله : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ﴾ فأضاف الحب المشبه إليهم ، فكذلك الحب المشبه لهم ، إذ كان سياق الكلام يدل عليه ؛ إذا قال : يحب زيداً كحب عمرو ، أو يحب علياً كحب أبي بكر ، أو يحب الصالحين من غير أهله كحب الصالحين من أهله ، أو قيل : يحب الباطل كحب الحق ، أو يحب سماع المكاء والتصدية كحب سماع القرآن وأمثال ذلك لم يكن المفهوم إلا أنه هو المحب للمشبه والمشبه به ، وأنه يحب هذا كما يحب هذا ، لا يفهم منه أنه يحب هذا كما يحب غيره هذا ، إذ ليس في الكلام ما يدل على محبة غيره أصلاً .

ونخلص من هذا أن المشركين يساوون بين الله وبين الأنداد في المحبة ، بل قد تكون محبتهم لأندادهم أعظم ، وأن جملة والذين آمنوا أشداً حباً لله جملة خبرية مستأنفة ، وأن هذه المحبة هي المحبة الشركية المذمومة .

والمقصود أن المحبة تكون لما يتخذ إلهاً من دون الله ، وقد قال تعالى : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ﴾ [1] فمن كان يعبد ما يهواه فقد اتخذ إلهه هواه ، فما هَوِيَهُ هَوِيَهُ إِلَهَهُ ، فهو لا يتأله من يستحق التأله ، بل يتأله ما يهواه ، وهذا المتخذ إلهه هواه له محبة كمحبة المشركين لآلهتهم ، ومحبة عباد العجل له ، وهذه محبة مع الله لا محبة لله ، وهذه محبة أهل الشرك .

---

(١) سورة الفرقان ٤٣ .

والنفوس قد تَدَّعِي محبة الله ، وتكون في نفس الأمر محبة شرك تحب ما تهواه ، وقد أشركته في الحب مع الله ، وقد يخفى الهوى على النفس فإن حبك الشيء يعمي ويصم ...)[١]

ولذا فإن (حقيقة التوحيد أن لا يحب إلا الله ، وأن يحب ما يحبه الله لله ، فلا يحب إلا الله ، ولا يبغض إلا ما يبغض الله ، قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذي آمنوا أشد حباً لله ﴾ والفرق ثابت بين الحب لله والحب مع الله ، فأهل التوحيد والإخلاص يحبون غير الله لله ، والمشركون يحبون غير الله مع الله كحب المشركين لآلهتهم ، وحب النصارى للمسيح ، وحب أهل الأهواء رؤوسهم) [٢]

ومن تمام المحبة الشرعية تصديق الرسول ﷺ بما أخبر ، وطاعته فيما أمر ، ومن ذلك الإيمان بما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ فمن نفى الصفات فقد كذب خبره ، وناقض محبته لله .

ومن المحبة الشرعية أيضاً محبة ما أمر به وترك ما نهى عنه ، ومحبة الحسنات وبغض السيئآت ، ولزوم هذا إلى الممات ، ومن لم يستحسن الحسن المأمور به ، ويستقبح القبيح المنهى عنه لم يكن معه من المحبة لله تعالى والإيمان به شيء ، كما قال رسول الله ﷺ : ((من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان))[٣] وفي حديث ابن مسعود : ((.. ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل))[٤]

(فأضعف المحبة المقتضية للإيمان بالله جل وعلا الإنكار بالقلب فمن لم يكن في قلبه بغض المنكر الذي يبغضه الله ورسوله لم يكن معه من الإيمان شيء ، ولهذا يوجد المبتدعون الذي يدعون المحبة المجملة المشتركة التي تضاهي محبة المشركين ؛ يكرهون من

---

(١) الفتاوى ٨/٣٥٧-٣٥٩ . وانظر منهاج السنة ٥/٣٩٥-٣٩٧ .

(٢) الفتاوى ١٠/٤٦٥ .

(٣) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٤) رواه مسلم في الإيمان (ح٥٠) .

ينكر عليهم شيئاً من أحوالهم ويقولون : فلان ينكر وفلان ينكر ، وقد يبتلون كثيراً بمن ينكر مامعهم من حق وباطل ، فيصير هذا يشبه النصراني الذي يصدق بالحق والباطل ، ويحب الحق والباطل ، كالمشرك الذي يحب ا لله ويحب الأنداد ، وهذا كاليهودي الذي يكذب بالحق والباطل ، ويبغض الحق والباطل ، فلا يحب ا لله ولا يحب الأنداد ، بل يستكبر عن عبادة ا لله ، كما استكبر فرعون وأمثاله .

وهذا موجود كثيراً في أهل البدع من أهل الإرادة ، والبدع من أهل الكلام . هؤلاء يقرون بالحق والباطل مضاهاة للنصارى ، وهؤلاء يكذبون بالحق والباطل مضاهاة لليهود ، وإنما دين الإسلام وطريق أهل القرآن إنكار ما يبغضه ا لله ورسوله ، ومحبة ما يحبه ا لله ورسوله ، والتصديق بالحق والتكذيب بالباطل . فهم في تصديقهم ومحبتهم معتدلون يصدقون بالحق ويكذبون بالباطل ، ويحبون الحق ويبغضون الباطل ...

والمقصود هنا أن المحبة الشركية البدعية هي التي أوقعت هؤلاء إلى أن آل أمرهم إلى أن لا يستحسنوا حسنة ، ولا يستقبحوا سيئة لظنهم أن ا لله لا يحب مأموراً ولا يبغض محظوراً ...)[1]

ومحبة غير ا لله لا تنفع صاحبها ، بل تزيده بعداً وهلاكاً ، وقد مثل لها شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه ا لله – : بـ (حب النصارى للمسيح ، وحب اليهود لموسى ، وحب الرافضة لعلي ، وحب الغلاة لشيوخهم ، وأئمتهم مثل من يوالي شيخاً أو إماماً وينفر عن نظيره ، وهما متقاربان أو متساويان في الرتبة ، فهذا من جنس أهل الكتاب الذين آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض ، وحال الرافضة الذين يوالون بعض الصحابة ويعادون بعضهم ، وحال أهل العصبية من المنتسبين إلى فقه وزهد الذين يوالون الشيوخ والأئمة دون بعض .) [2]

فاتضح من هذا أن المحبة الشرعية هي : المقتضية لمحبة ا لله بحب ما يحبه ومحبة ما يحبه من الحسنات ، وبغض ما يبغضه من المنكرات والسيئات ، وبامتثال

---

(١) الفتاوى ٣٦٧/٨-٣٦٨ .

(٢) الفتاوى ٣٢٠/١٨ .

أمره ، واجتناب نهية ، والتصديق برسله ، واتباع شريعة رس وله ﷺ بطاعته واقتفاء هديه . وأن المحبة الشركية هي ما سوى ذلك ، مثل من يدعي محبة ا الله ثم يساوي بينه وبيه غيره ، سواء من الأشخاص كالأولياء والصالحين أو من الأصنام والأحجار أو من غير ذلك من الشهوات والأهواء وكمن يدعي كمال المحبة، ثم في النهاية لا يشهد لله محبوباً إلا ما قدره وقضاه ؛ بل قد يؤول الأمر إلى التعطيل ، فيكون كفرعون الذي هو أسوأ حالاً من مشركي العرب فهذه هي المحبة الشركية المحرمة .



المبحث الثاني : توضيحه للشرك الأصغر

توضيحه للشرك الأصغر

هذا هو النوع الثاني من أنواع الشرك ، وسمي أصغراً بالنظر إلى ما هو أكبر منه ، وهذه التسمية لا تقلل من أهمية خطره ؛ بل قد يكون هذا الشرك سبباً وطريقاً إلى الشرك الأكبر(١) .

وهذا النوع من الشرك يناقض كمال توحيد العبادة دون أصله ، فقد يجتمع في العبد الشرك الأصغر مع وجود التوحيد في القلب .

وهذا النوع من الشرك يتعلق بأعمال القلب تارة ، وبأقوال اللسان تارة أخرى ، وبأفعال الجوارح تارة أخرى . مما يوجب على العبد التنبه له والحذر من الوقوع فيه .

وسوف أورد بعض الأمثلة على ذلك ليتبين المراد ويتضح المقصود من ذكره هنا ، وذلك من خلال كلام شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - وهذه الأمثلة تتفاوت تفاوتاً بيناً بحسب فعل العبد واعتقاده ، فقد تكون شركاً أصغراً ، تكفره الحسنات ، وكثرة الأعمال الصالحة ، والتوبة والاستغفار العامة ، وقد يكون أعظم من ذلك فيحتاج إلى توبة واستغفار . ومن هذه الأمثلة ما يلي :

الرياء

لقد سبق في شرطي العبادة الكلام على أن العبادة لاتتم إلا إذكانت خالصة وصواباً ، ومن هنا فيجب أن تكون العبادة خالصة لله ـ عز وجل ـ لا يشوبها شائبة ، فقد أمر الله ﷻ الخلق أن يعبدوه وحده لا يشركون به شيئاً ، وأمر أن لا يعبد إلا بما شرع ، قال تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة

---

(١) ولم أعثر للعلماء تعريفاً محدداً له وافياً مستوفياً ، وإنما يكتفي بعضهم بذكر الأمثلة لتي تدل عليه كما فعل ابن القيم ـ رحمه الله ـ وذكر تعريفات لكنها ليست جامعة ، فقد عرفة الراغب الاصفهاني بقوله : " هو مراعاة غير الله معه في بعض الأمور ، وهو الرياء والنفاق المشار إليه في قوله تعالى : ﴿ جعلا له شركاء فيما آتاهما ﴾ " الأعراف ١٩٠ ، المفردات ٤٥٢ ، وعرفه ابن سعدي بقوله : " كل وسيلة أو ذريعة يتطرق بها إلى الشرك الأكبر من الإرادات والأقوال والأفعال التي لم تبلغ رتبة العبادة ".القول السديد ٤٨. وعُرف بغير هذه التعريفات وهو كما أرى ـ من الأمور النسبية التي يختلف فيها الواقعون فيه من حيث الحكم .

ربه أحداً ﴾ [١] فمن أظهر العبادة والزهادة وكان متبعاً للشريعة في الظاهر وقصده الرياء والسمعة وتعظيم الناس له ، كان عمله باطلاً لايقبله الله منه ، كما ثبت في الصحيح أن الله يقول : ((أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري فأنا منه بريء ، وهو كله للذي أشرك))[٢] وفي الصحيح عنه أنه قال : ((من سمع سمع الله به ومن يرآئي يرآئي الله به))[٣] ..[٤]

ويتضح سبب ذلك كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : (أن الشيء إذا انقسم ووقعت فيه الشركة نقص ما يحصل لكل واحد ، فإذا كان جميعه لواحد كان أكمل ، فلهذا كان حب المؤمنين الموحدين المخلصين لله أكمل ، وكذلك سائر ما نهو عنه من كبائر الإثم والفواحش ، يوجب كمال الأمور الوجودية في عبادتهم وطاعتهم ومعرفتهم ومحبتهم ، وذلك من زكائهم ، كما أن الزرع كلما نقى عنه الدغل كان أزكى له وأكمل ، لصفات الكمال الوجودية فيه ، قال تعالى : ﴿... وويل للمشركين ، الذي لا يؤتون الزكاة ﴾[٥] وأصل الزكاة التوحيد والإخلاص كما فسرها بذلك أكابر السلف .) [٦]

والرياء يكون خفياً ؛ لأن الأعمال بالنيات (وإنما لكل امرئ ما نوى ، والنية هي مما يخفيه الإنسان في نفسه ، فإن كان قصده ابتغاء وجه ربه الأعلى استحق الثواب ، وإن كان قصد رياء الناس استحق العقاب ، كما قال تعالى : ﴿ فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون ﴾ [٧] وقال : ﴿ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤو الناس ﴾ [٨] .

---

(١) سورة الكهف ١١٠ .

(٢) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٣) رواه البخاري في الرقاق (ح٦٤٩٩) ومسلم في الزهد والرقائق (ح٢٩٨٧) وابن ماجه في الزهد (ح٤٢٠٧).

(٤) انظر الفتاوى ٦١٣/١٦ . وانظر أيضاً ١٩/٢٢-٢٠ .

(٥) سورة فصلت ٦-٧ .

(٦) الفتاوى ١٤٥/١٧-١٤٦ .

(٧) سورة الماعون ٣-٥ .

(٨) سورة النساء ١٤٢ .

وفي حديث أبي هريرة في الصحيح في الثلاثة الذين أول من تسعر بهم النار في الذي تعلم العلم وعلم ليقال : عالم قاريء ، والذي قاتل ليقال جريء وشجاع ، والذي تصدق ليقال جواد وكريم، فهؤلاء إنما كان قصدهم مدح الناس لهم ، وتعظيمهم لهم ، وطلب الجاه عندهم ، لم يقصدوا بذلك وجه الله ، وإن كانت صور أعمالهم صوراً حسنة ،فهؤلاء إذا حوسبوا كانوا ممن يستحق العذاب ، كما في الحديث : ((من طلب العلم ليباهي به العلماء ، أو ليماري به السفهاء ، أو ليصرف به وجوه الناس إليه فله من عمله النار))[(١)] وفي الحديث الآخر : ((من طلب علماً مما يبتغى به وجه الله لا يطلبه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام))[(٢)] ... [(٣)] فدل هذا على أن الرياء محبط للعمل ، وسبب ذلك كون العامل أشرك في العمل غير الله ــ عز وجل ــ وقد قال ﷺ : كما تقدم ((من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه))[(٤)] .

إلا أن بعض الناس قد يترك العمل خوفاً من الرياء ، وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : أن هذا لا ينبغي ، حيث قال : (.. ولا ينبغي له أن يدع ورده المشروع لأجل كونه بين الناس ، إذا علم الله من قلبه أنه يفعله سراً لله مع اجتهاده في سلامته من الرياء ، ومفسدات الإخلاص ، ولهذا قال الفضيل بن عياض[(٥)] : ترك العمل

---

(١) رواه ابن ماجه في المقدمة (ح٢٥٣) ولفظه عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : ((من طلب العلم ليماري به السفهاء أو ليباهي به العلماء أو ليصرف وجوه الناس إليه فهو في النار)) ورواه أيضاً في المقدمة (ح٢٦٠) عن أبي هريرة ، ورواه الدارمي موقوفاً على ابن مسعود ، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجة حديث رقم (٢٥٣) .

(٢) رواه أبو داود في العلم (ح٣٦٦٤) ولفظه : عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ((من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله ــ عز وجل ــ لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة يعني ريحها)) ورواه ابن ماجه في المقدمة (ح٢٥٢) صححه الألباني في صحيح سنن ابن داود حديث رقم (٣٦٦٤) .

(٣) الفتاوى ١١٣/١٤ .

(٤) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٥) هو الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي الخرساني كان عابداً زاهداً ورعاً عالماً ، توفي سنة سبع وثمانين ومئة . انظر السير ٤٢١/٨ .

لأجل الناس رياء ، والعمل لأجل الناس شرك . وفعله في مكانه الذي تكون فيه معيشته التي يستعين بها على عبادة الله خير له من أن يفعله حيث تتعطل معيشته ، ويشتغل قلبه بسبب ذلك ، فإن الصلاة كلما كانت أجمع للقلب وأبعد من الوسواس كانت أكمل ...)[١]

وقد بين رحمه الله أن من نهى عن أمر مشروع بمجرد زعمه أن ذلك رياء فنهيه مردود عليه من وجوه : أوجزها فيما يلي :

١) أن المشروع اظهار شعائر الإسلام ، وعدم تركها لخوف الرياء بل يؤمر العبد بالإخلاص فيها دون تركها ، فإن تركها يترتب عليه فساد أعظم من الفساد في اظهار العبد للرياء .

٢) أن الذي يحكم به على الشخص هو ما أظهره ، ولم نؤمر بأن ننقب عن قلوب الناس كما جاء بذلك الأثر .

٣) أن تسويغ مثل هذا يفضي إلى انكار الأمور المشروعة والمسنونة من قبل أهل الشرك والفساد ، وقولهم بأن هذا مراء ، فيترك أهل الدين الأمور المشروعة خوفاً من همزهم ولمزهم .

٤) أن مثل هذا من شعائر المنافقين ، قال الله تعالى : ﴿ الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم ﴾ [٢] فإن النبي ﷺ لما حض على الإنفاق في عام تبوك ، جاء بعض الصحابة بصرة كادت يده تعجز من حملها ، فقالوا هذا مراء ، وجاء بعضهم بصاع ، فقالوا : لقد كان الله غنياً عن صاع فلان ، فلمزوا هذا وهذا ، فأنزل الله ذلك وصار عبرة فيمن يلمز المؤمنين المطيعين لله ورسوله ، والله أعلم [٣]

(١) الفتاوى ١٧٤/٢٣ .

(٢) سورة التوبة ٧٩ .

(٣) انظر الفتاوى ١٧٤/٢٣ـ ١٧٦ .

وقد تبين مما سبق أن الرياء من أخطر الأمور التي يُرَدُّ بها العمل ، وتُمْحَقُ بركته ، وأنه وإن سمي بالشرك الأصغر لكنه قد يصل إلى دَرَجَةِ وَخُطُورَةِ الشرك الأكبر .

وهو من أمور السرائر التي لا يطلع عليه إلا الله ، وفيما تقدم من النصوص من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ما فيه الكفاية لمن وفقه الله .

الخوف :

تقدم أن الخوف منه ماهو مأمور به كالخوف من الله ـ عز وجل ـ وهو من أنواع العبادات التي مدح الله بها أهلها ، حيث قال : ﴿ والذين هم من خشية ربهم مشفقون ﴾[1]

ويقع الشرك الأصغر في الخوف من جراء ما يجد الإنسان في نفسه من خوفٍ في قلبه من فلان من الناس خوفاً يصده عن فعل طاعة ، أو يدعوه إلى فعل مصية أو ترك واجب ، فهذا هو الخوف الذي يحصل كثيراً في قلوب الناس حتى يعجزوا عن قول الحق والقيام بالواجب ، وهو نوع من الشرك الأصغر لكونه ترك ما أوجب الله عليه خوفاً ممن خلقه الله وسخره .

فمن كان في قلبه رياسة لمخلوق ففيه من عبوديته بحسب ذلك ، ولهذا فالمؤمن القوى الموحد يسلخ كل خوف من غير الله ، ويكون بذلك قائماً بما أوجبه الله عليه ، منتهياً عما نهاه الله عنه ، وإن اجتمع عليه الثقلان .[2] وهذا لا يقع إلا ممن حقق التوحيد في نفسه فلم يبق في قلبه خوف من أحد سوى الله ، قال ﷻ : ﴿ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾[3] والمعنى أنه يخوفكم بأوليائه وأعوانه من شياطين الإنس والجن . كما (دلت على أن المؤمن لا يجوز له أن يخاف أولياء الشيطان ، ولا يخاف الناس ، كما قال : ﴿ فلا تخشوهم واخشون ﴾[4]

(١) سورة المعارج ٢٧ .

(٢) انظر الفتاوى ٢٨/٣٥-٣٦ .

(٣) سورة ال عمران ١٧٥ .

(٤) سورة المائدة ٥ .

فخوف الله أمر به وخوف أولياء الشيطان نهى عنه ، قال تعالى : ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ﴾ (١) فنهى عن خشية الظالم وأمر بخشيته [وحده] ، وقال : ﴿ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله ﴾(٢)

وقال : ﴿ فإياي فارهبون ﴾(٣) .. فعلى العبد أن يخاف الله وحده ولا يخاف أحداً ...)(٤)

ومن هنا يتبين أن من خاف الناس خوفاً صده عن فعل الواجب وترك المحرم فقد وقع في الشرك الأصغر لكونه ترك طاعة الله بسبب خوفه من الناس فأشرك في ـ هذا الأمر ـ الناس مع الله . وهذا الحكم بِغضِّ النظر عما قد يترتب عليه من كفر ونحوه ، كمن ترك دينه خوفاً ونحو ذلك ، إذ أن هذا في هذه الحالة قد يخرج إلى الكفر والعياذ بالله .

الشرك في المحبة :

ينقسم الشرك في المحبة إلى قسمين : شرك أكبر وشرك أصغر ، وقد تقدم في بيان الشرك الأكبرمنهما (٥) ، وَذُكِرَ أنه يكون باتخاذ المحبوب نداً لله يصرف له الطاعة والانقياد والعبادة من دون الله .

وأما الشرك الأصغر في المحبة فيتفاوت تفاوتاً بيناً بين شخص وآخر بحسب محبته وعمله حتى قد يصل إلى الشرك الأكبر ، وقد يكون دون ذلك ؛ لأن (أصل العبادة هي المحبة ، وأن الشرك فيها أصل الشرك كما ذكره الله في قصة إمام الحنفاء إبراهيم الخليل عليه السلام حيث قال : ﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال

---

(١) سورة البقرة ١٥٠ .

(٢) سورة الأحزاب ٣٩ .

(٣) سورة النحل ٥١ .

(٤) الفتاوى ١/٥٧-٥٨ .

(٥) انظر ص ٥٩٠ .

لا أحب الآفلين ﴾ [١] وقال في القمر : ﴿ لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ﴾[٢] فلما أفلت الشمس قال : ﴿ ياقوم إني بريء مما تشركون ، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنفياً وما أنا من المشركين ﴾ [٣]...) [٤]

فذكر الله ﷻ عن إمام الحنفاء أن مدار العبادة التي يسعى في تحقيقها لربه هي تمام المحبة ، مبيناً أن من مقتضى ذلك أن يكون المحبوب موصوفاً بالديمومة ، واستدل ببطلان عبادة الكواكب المبينة على المحبة بأفولها وزوالها ، وما كان كذلك فليس أهلاً للمحبة التي عبر بها عن العبادة لرب العباد . ولهذا قال لما أفلت الشمس : ﴿ ياقوم إني بريء مما تشركون ، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾ .

وإذا كان الأمر في المحبة بهذه المثابة ، فإن هذا يدل على أن الشرك في المحبة هو أصل الشرك ، الذي وقع فيه الناس في القديم والحديث ، سواء صغيره أو كبيره .

ومما يبن هذا ويوضحه أنه لا عمل إلا بإرادة ونية ، والذي يحرك الإرادة ويبعثها هو الحب أصلاً والبغض تبعاً .

وهذا تجلى في محبة إبراهيم الخليل عليه السلام لربه جل وعلا و (تبرأه عليه السلام من المشركين ومما أشركوا بالله ، قال : ﴿ أفرأيتم ما كنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فإنهم عدو لي إلا رب العالمين ﴾[٥] وقال تعالى : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العدواة والبغضاء أبداً حتى تؤمنو بالله وحده ﴾[٦]...)[٧]

---

(١) سورة الأنعام ٧٦ .

(٢) سورة الأنعام ٧٧ .

(٣) سورة الأنعام ٨٧ -٧٩

(٤) قاعدة في المحبة ٨٧ .

(٥) سورة الشعراء ٧٥ - ٧٧ .

(٦) سورة الممتحنة ٤ .

(٧) قاعدة في المحبة ٨٧-٨٨ .

ولهذا فإن المرء (إذا أحب الشيء لم يحب ضده ، بل يبغضه ، فلا يتصور اجتماع إرادتين تامتين للضدين ، لكن قد يكون في القلب نوع محبة وإرادة لشيء ، ونوع محبة وإرادة لضده ، فهذا كثير؛ بل هو غالب على بني آدم ، لكن لا يكون واحد منهما تاماً ، فإن المحبة والإرادة التامة توجب وجود المحبوب المراد مع القدرة ، فإذا كانت القدرة حاصلة و لم يوجد المحبوب المراد لم يكن الحب والإرادة تامة ، وكذلك البغض التام يمنع وجود البغيض مع القدرة فمتى وجد مع إمكان الامتناع لم يكن البغض تاماً .)[1]

ومن هنا يقع كثير من العباد والنساك وأهل الشهوات والأهواء وغيرهم في الشرك الأصغر، فقد تكون محبته أحدهم لله غير تامة وقدرته قاصرة وإرادته للحق قاصرة وفيه من إرادة الباطل وحب الشهوات ما يجعله يصرف لها نصيباً من المحبة ، ويخضع لمحبة الشهوة أو الشخص المحبوب ونحوه فيشرك في تقديم محبة ما يشتهيه ويهواه على محبه الله فيقع في المحذور وهذا شرك أصغر قد يرتقي إلى الأكبر ، (فإن كل محبوب لغير الله ومعظم لغير الله ، ففيه شوب من العبادة ، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : ((تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار تعس عبد القطيفة ، تعس عبد الخميصة ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش)) [2] ...) [3]

وسماه ﷺ عبداً لكونها وقعت في قلبه موقع المحب لها ، الساعي إلى جلبها بأي شكل من الأشكال دون النظر إلى محبوبات الله ، وما يبغضه الله .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : (جعله عبد ما يرضيه وجوده ويسخطه فقده ، حتى يكون عبد الدرهم وعبد ما وصف في هذا الحديث ، والقطيفة هي التي يجلس عليها، فهو خادمها .. والخميصة هي التي يرتدي بها ، وهذا من أقل المال ، وإنما نبه النبي ﷺ على ما هو أعلى منه فهو عبد لذلك ، فيه أرباب متفرقون وشركاء متشاكسون .

---

(١) المصدر السابق ٩١ . وانظر الفتاوى ٣٦١/٨ .

(٢) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٣) قاعدة في المحبة ٩٩ .

ولهذا قال : ((إن أعطي رضي وإن منع سخط)) فما يرضى الإنسان حصوله ، ويسخطه فقده فهو عبد له ، إذا العبد يرضى باتصاله بهما ، ويسخط لفقدهما ، (والمعبود الحق الذي لا إله إلا هو إذا عبده المؤمن وأحبه حصل للمؤمن بذلك في قلبه إيمان وتوحيد ومحبة، وذِكْرٌ وعبادة ، فيرضى بذلك ، وإذا مُنَعَ من ذلك غضب .

وكذلك من أحب شيئاً فلا بد أن يتصوره في قلبه ، ويريد اتصاله به بحسب الإمكان .)[1] فإذا قدم محبته على محبة الله فقد أشرك فإن العبد إذا كان (قادراً على محبوبات الحق ولا يفعلها فلضعف في محبتها في قلبه ، أو وجود ما يعارض الحق ، مثل محبته لأهله وماله ، فإن ذلك قد يمنعه عن فعل محبوب الحق ، كما قال تعالى : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا ﴾[2] ...

وإذا فعل مكروهات الحق فلضعف بغضها في قلبه ، أو لقوة محبتها التي تغلب بغضها ، فالإنسان لا ياتي شيئاً من المحرمات كالفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق ، والشرك بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، والقول على الله بغير علم ؛ إلا لضعف الإيمان في أصله أو كماله ، أو ضعف العلم والتصديق ، وإما ضعف المحبة والبغض ؛ لكن إذا كان أصل الإيمان صحيحاً ــ وهو التصديق ــ فإن هذه المحرمات يفعلها المؤمن مع كراهته وبغضه لها ، فهو إذا فعلها لغلبة الشهوة عليه فلا بد أن يكون مع فعلها فيه بغض لها ، وفيه خوف من عقاب الله عليها ، وفيه رجاء لأن يخلص من عقابها ، إما بتوبة ، وإما حسنات ، وإما عفو ، وإما دون ذلك ، وإلا فإذا لم يبغضها ، ولم يخف الله فيها ، ولم يرج رحمته ، فهذا لايكون مؤمناً بحال ، بل هو كافر أو منافق .

فكل سيئة يفعلها المؤمن لابد أن تقترن بها حسنات له ، لكن قوة شهوته للسيئة وما زين له فيها ، حتى ظن أنها مصلحة له ، أوجب وقوعها ، وهو اتباع الظن وما تهوى الأنفس ، وهذا القدر عارض بعض إيمانه فترجح

---

(١) الفتاوى ١٠/٥٩٧-٥٩٨ ، وانظر قاعدة في المحبة ٧٥ .

(٢) سورة التوبة ٢٤ .

عليه ، حتى ماهو ضد لبعض الإيمان ، فلم يبق مؤمناً الإيمان الواجب ، كما قال النبي ﷺ : ((لايزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن)) (١)

وهو فيما يفعله متبع للشيطان فيما زينه له حتى رآه حسناً ، وفيما أمره به فأطاعه ، وهذا من الشرك بالشيطان ، كما قال الله تعالى : ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ألم أعهد إليكم يابنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ، وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ﴾(٣).

ولهذا لم يخلص من الشيطان إلا المخلصون لله ، كما قال تعالى عن إبليس : ﴿ولأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ (٤) وقال تعالى : ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ (٥) ...

فإذا كان الشيطان ليس له سلطان إلا على من أشرك به ، فكل من أطاع الشيطان في معصية الله فقد تسلط الشيطان عليه ، وصار فيه من الشرك بالشيطان بقدر ذلك .

والشيطان يوالي الإنسان بحسب عدم إيمانه كما قال تعالى : ﴿ إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ (٦) ...

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأشربة (ح٥٥٧٨) ومسلم في الإيمان (ح٥٧) وأبو داود في السنة (ح٤٦٨٩) والترمذي في الإيمان (٢٦٢٥ح) والنسائي في قطع يد السارق (ح٤٨٧٠) وابن ماجه في الفتن (ح٣٩٣٦) والدارمي في الأشربة (ح٢١٠٦) .

(٢) سورة الكهف ٥٠ .

(٣) سورة يس ٦٠ـ٦١ .

(٤) سورة الحجر ٣٩ـ٤٠ .

(٥) سورة الحجر ٤٢ .

(٦) سورة الأعراف ٢٧ .

فجميع ما نهى الله عنه [فهو] من شعب الكفر وفروعه ، كما أن كل ما أمر الله به [فـ] هو من الإيمان والإخلاص لدين الله ولهذا قال تعالى : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾(١) .

لكن قد يكون ذلك شركاً أكبر ، وقد يكون شركاً أصغر بحسب ما يقترن به من الإيمان ، فمتى اقترن بما نهى الله عنه الإيمان لتحريمه وبغضه وخوف العقاب ورجاء الرحمة لم يكن شركاً أكبر ، وأما إن اتخذ إلهاً من دون الله وأحبه كحب الله فهذا شرك أكبر ، والدرجات في ذلك متفاوته .)(٢)

ولقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : بعض الأمثلة على المحرمات التي قد تصل إلى حد الشرك في بعض صورها ، ومن ذلك ما يلي :

١) **عدم الوقوع في الفواحش** ، التي حرمها الله جل وعلا بقوله : ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾(٣) وقد أثنى الله جل وعلا على الذين حفظوا فروجهم عما حرمه بقوله : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ﴾(٤) فلم يحل من النساء إلا الزوجة أو ذات اليمين . وقد ذكر سبحانه ما اشترطه في الحلال بقوله : ﴿ غير مسافحات ولا متخذا أخدان ﴾ (٥) فمن تعدى ذلك فأباح وشرع أنكحة أخرى مثل ما كان موجوداً في الجاهلية (٦)

---

(١) الأنفال ٣٩ .

(٢) قاعدة في المحبة ١٠٣-١٠٧ .

(٣) سورة الأعراف ٣٣ .

(٤) سورة المؤمنون ٥ - ٦ .

(٥) سورة النساء ٢٥ .

(٦) خرج البخاري ـ رحمه الله ـ عن عائشة رضي الله عنها " أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء : فنكاح منها نكاح الناس اليوم يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها ، ونكاح آخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها : أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه ، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتى يتبين من ذلك الرجل الذي تستبضع منه ، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد ، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع , ونكاح آخر يجتمع الرهط مادون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها فإذا حملت ووضعت ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها تقول لهم قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان ، تسمي من أحبت باسمه ، فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل . والنكاح الرابع يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما فمن أرادهن دخل عليهن فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لهم القافة ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاط به ودعي ابنه لا يمتنع من ذلك فلما بعث محمد ﷺ بالحق هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم)) كتاب النكاح (٥١٢٧) .

أو اتخاذ الأخدان[1] فقد جعل من الحرام ما فيه مضاهاة للحلال ، وإن سمي باسم آخر ـ كما يفعله بعض المتصوفه ـ لكن المعنى فيه اشتراك، فالله أباح للرجل امرأته ومملوكته ، وكل من الرجل والمرأة زوج الآخر ، فذات الأخدان بينهن وبين أخدانهن نوع ازدواج واقتران كذلك .)[2]

وأخفى منه مؤاخاة كثير من الرجال لكثير من النساء أو لكثير من الصبيان ، وقولهم : إن هذه مؤاخاة لله ، إذ لم تكن المؤاخاة على فعل الفاحشة ، كذوات الأخدان ، فهذا الذي يظهرونه للناس يوافقونهم ويقرونهم على ذلك ، ويرون كلهم أن من أحب صبياً أو امرأة لصورته وحُسْنِه من غير فعل فاحشة فإن هذه محبة لله فهذا هو الضلال والغي وتبديل الدين ، حيث جعل ما كرهه الله محبوباً لله وهو نوع من الشرك ، والمحبوب المعظم بذلك طاغوت .[3] أما إذا بلغ أن يتمتع الرجل بالمرأة أو الصبي وهو محرم معتقداً أن ذلك لله وهو حب لله فهو شرك أكبر بل كفر هذا في حالة علمه بتحريمه .[4]

وهؤلاء الذين زُيّن لهم أنواعاً من المحرمات ظاهو بها الحلال ، على ثلاثة أصناف :

الصنف الأول : الذين يظنون أنها محبوبة لله مأمور بها ، لأنها محرمة بغيضة .

الصنف الثاني : من يظن أن فيها ما هو محرم وما هو محبوب لكنه يتبع الظن وما تهوى الأنفس ، فهؤلاء قدموا محبوبات نفوسهم على محبوبات الله وهذا نوع من الشرك .

الصنف الثالث : الذين يعلمون أنه محرم لكنهم يظهرون أنه غير محرم خداعاً ونفاقاً واتباعاً لشهواتهم . وهؤلاء غير الصنف الثاني .[5]

---

(١) الأخدان جمع خدن ، أي المصاحب وأكثر ذلك يُستعمل فيمن يصاحب شهوة . يقال خدن المرأة وخدينها أي مصاحبها وملازمها . انظر المفردات ١٤٤ ، مادة خدن .

(٢) قاعدة في المحبة ص ١٠٧ .

(٣) انظر قاعدة في المحبة ص ١٠٩ ـــ ١١٠ .

(٤) المرجع السابق .

(٥) انظر قاعدة في المحبة ص ١٠٧ ، ١١١ .

فتبين من هذا أن كثيراً من المسلمين قد يتعدى حدود الله ما علم بتحريم ذلك جرياً وراء شهواته وملذاته ومحبوباته وهذا نوع من الشرك الأصغر ، حيث قدم محبوبات نفسه على محبوبات الله .

٢) **العشق** : (هو المحبة المفرطة الزائدة على الحد الذي ينبغي .. وهو مذموم مطلقاً لا يمدح لافي محبة الخالق ولا المخلوق ؛ لأنه المحبة المفرطة الزائدة على الحد المحمود ، وأيضاً فإن لفظ العشق إنما يستعمل في العرف في محبة الإنسان لأمرأة أو صبي ، لا يستعمل في محبة كمحبة الأهل والمال والوطن والجاه ، ومحبة الأنبياء والصالحين ، وهو مقرون كثيراً بالفعل المحرم ...)[١]

ويجعله بعضهم (مراتب مثل : العلاقة ثم الصبابة ، ثم الغرام ، ويجعلون آخرة التتيم ، والتتيم التعبد ..) [٢]

والعشق من أمراض القلوب التي تضر صاحبها ، وقد توررده المهالك والعياذ بالله ، وذلك ؛ لأن العاشق لا ينفعه اتصاله بالمعشوق ؛ سواء كان عشقه لصورة أو رياسة أو مال أو نحوه ؛ لأن ذلك لا يزيده إلا أملاً ، فهو كالمريض الذي يشتهي ما يضره ، فإذا لم يطعم ذلك تألم ، وإن طعم قوي ذلك المرض وزاد ، فالعاشق يضره اتصاله بالمعشوق مشاهدة وملامسة وسماعاً ؛ بل يضره التفكر فيه والتخيل له ، وهو مشتهى ذلك ، فإن منع من مشتهاه تألم وتعذب وإن اعطي قوى مرضه وكان سبباً لزيادة الألم [٣]

ولقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : خطر العشق وأنه قد يفضي إلى الكفر والزندقة بل والإلحاد برب الأرباب ، فقد زعم بعضهم أن الله حل في محبوبه ، والآخر يزعم أن الله تقدس وتعالى اتحد في محبوبه ومعشوقه .[٤]

والذي يعنينا هنا كيف يكون العشق شركاً ، وهذا يتضح ويتجلى فيما يلي :

---

(١) الفتاوى ١٣١/١٠ .

(٢) قاعدة في المحبة ٧٦ .

(٣) انظر الفتاوى ١٣٠/١٠، ١٤٠-١٤١ ، ١٩٣-١٩٤ ، ٦٠٥/١١ .

(٤) انظر قاعدة في المحبة ٨٠ .

١) لقد أكد شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : على أن حقيقة المحبة لا تتم إلا بموالاة المحبوب وموافقته فيما يحب وفيما يبغض ، فكلما قويت المحبة في القلب وكملت استلزمت ارادة جازمة في فعل المحبوب ، فإذا كانت هذه الإرادة وهذه المحبة خالصة لله فهي حقيقة الإيمان ، وإذا كانت لغير الله فهي المحبة الشركية ـ محبة الأنداد ـ وإذا كانت دون ذلك بمعنى أنه أحب محبوباً لغير الله حتى جذب قلبه وأوجد فيه الإرادة الجازمة على فعل ما يحبه المحبوب ، مما يدفعه إلى احتمال الأذى والألم من أجل المحبوب مالا يحتمله عند فعل ما أمر الله به أو نهى عنه ، فهذا نوع من الشرك الأصغر يتفاوت قلة وكثرة بحسب ما قام بقلب المحب سواء كان المحبوب شخصاً أو مال أو رياسة ، أو صورة أو غير ذلك . (١)

٢) ومما يوضح هذا ويبيه : أن كل ما يريده الانسان ويحبه لابد أن يتصوره في نفسه ، فتلك الصورة العلمية محركة له إلى محبوبه ولوازم الحب ، فمن عبدها عبد غير الله وتمثلت له الشياطين في صورة من يعبده ، وهذا كثير ما زال ولم يزل ، ولهذا كان كل من عبد شيئاً غير الله فإنما يعبد الشيطان ...(٢)

وقد كان الشيطان يتمثل في صورة من يُعْبَد ، كما كانت تكلمهم من الأصنام التي يعبدونها .

والمبتلون بالعشق لايزال الشيطان يمثل لأحدهم صورة المعشوق أو يتصور بصورته ، فلا يزال يرى صورته مع مغيبه عنه بعد موته ، فإنما جلاه الشيطان على قلبه .. وصورة المحبوب تستولي على المحب أحياناً حتى لايرى غيرها ولا يسمع غير كلامها ، فتبقى نفسه مشتغلة بها .(٣)

(ولذا فإن أصحاب العشق الذي يحبه الشيطان ، فيهم من تولى الشيطان ، والإشراك به بقدر ذلك لِمَا فاتهم من إخلاص المحبة لله ، والإشراك بينه وبين غيره في المحبة ، حتى يكون فيه نصيب من اتخاذ الأنداد ، وحتى يصيروا عبيداً لذلك المعشوق

---

(١) انظر الفتاوى ١٠/ ١٩٢ – ١٩٤ ، ٥٩٥ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) انظر الفتاوى ٥٩٣/١٠ .

فيفنون فيه ويصرحون بأنا عبيد له .. ولهذا لا يبتلى بهذا العشق إلا من فيه نوع شرك في الدين ، وضعف إخلاص لله) [(١)]

(والمقصود أن المتبعين لشهواتهم من الصور والطعام والشراب واللباس يستولي على قلب أحدهم ما يشتهيه حتى يقهره ويملكه ويبقى أسيراً لما يهواه ، يصرفه كيف تصرف ذلك المطلوب ، ولهذا قال بعض السلف : ما أنا على الشاب الناسك بأخوف مني عليه من سبع ضار يثب عليه من صبي حدث يجلس إليه .) [(٢)]

٣) وقد يصل الحال بالعشاق إلى حد يفضي بهم إلى انصراف قلوبهم إلى معشوقيهم واستعبادها لهم ، والعبد إذا تعلق بمخلوق خضع قلبه له ، وصار فيه من العبودية له بقدر ذلك كما سبقت الإشارة إليه .

والرجل إذا تعلق قلبه بامرأة ولو كانت مباحة له يبقى قلبه أسيراً لها تحكم فيه وتتصرف فيه بما تريد ؛ لكونها قد أسرت قلبه أسراً لا يستطيع معه الخلاص ، حتى أصبح أسرها له أعظم من أسر العدو للأسير لكون هذا مأسور البدن لا يبالى إذا كان قلبه مستريحا من ذلك مطمئناً ؛ بل يمكنه الاحتيال في الخلاص ، أما إذا كان القلب رقيقاً مستعبداً متيماً لغير الله فهذا هو الذل والأسر المحض والعبودية لغير الله ...[(٣)](فقد يحب الرجل امرأته أو سريته محبة تخرجه عن العدل بحيث يفعل لأجلها ما لا يحل ، ويترك ما يحب ، كما هو الواقع كثيراً حتى يظلم ابنه من امرأته العتيقة ؛ لمحبته الجديدة ، وحتى يفعل من مطالبها المذمومه ما يضره في دينه ودنياه ، مثل أن يخصها بميراث لا تستحقه ، أو يعطي أهلها من الولاية والمال ما يتعدى به حدود الله ، أو يسرف في الانفاق عليها ، أو يملكها من أمور محرمة تضره في دينه ودنياه ، وهذا في عشق من يباح له وطئها فكيف عشق الأجنبية والذكران من العالمين ...

---

(١) قاعدة في المحبة ٨٠ ، وانظر الفتاوى ٥٩٣/١ .

(٢) الفتاوى ٥٩٤/١٠ .

(٣) انظر الفتاوى ١٨٥/١٠-١٨٦ . وانظر ٥٩٤- ٥٩٧ . وقاعدة في المحبة ٨١-٨٣ .

والنفس إذا أحبت شيئاً سعت في حصوله بما يمكن ، حتى تسعى في أمور كثيرة تكون كلها مقامات لتلك الغاية ، فمن أحب محبة مذمومة أو أبغض بغضاً مذموماً وفعل ذلك كان آثماً ...) [1] وكان فيه نوع من الشرك الأصغر .

(وهذا لعمري إذا كان قد استعبد قلبه صورة مباحة ، فأما من استعبد قلبه صورة محرمة امرأة أو صبي فهذا هو العذاب الذي لا يدان فيه ، وهؤلاء من أعظم الناس عذاباً وأقلهم ثواباً...)[2]

(ولهذا قد يطيع هذا المحب لغير الله محبوبه أكثر مما يطيع الله ، حتى يطلب القتل في سبيله ، كما يختار المؤمن القتل في سبيل الله ، وإذا كان محبوبه مطيعة من وجه وعبداً له فهو أولى بأن يكون هو مطيعه وعبداً له من وجه آخر .

وإذا كان النبي ﷺ قال : ((شارب الخمر كعابد وثن)) [3] ... والشارب للخمرة سكره بها يوماً أو قريباً من يوم أو بعض يوم ، وأما سكر الشهوة والمحبة الفاسدة من العشق ونحوه فسكره قوي دائم ، قال تعالى في قوم لوط : ﴿ لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾[4] فكيف إذا خرج عن حد السكر إلى حد الجنون المطبق .. فصاحبه أحق بأن يشبه بعابد الوثن والعاكفين على التماثيل يعملونها على صورة آدمي .

وقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً ﴾ [5] أي شغفها حبه ، أي وصل حبه إلى شغاف القلب ، وهي جلدة في داخله ، فهذا يكون قد اتخذ نداً يحبه كحب الله .) [6]

---

(١) الفتاوى ١٠/١٣٣ .

(٢) انظر الفتاوى ١٠/١٨٦ .

(٣) رواه ابن ماجة في الآشربة (ح٣٣٧٥) عن أبي هرية ونصه : ((مدمن خمر كعابد وثن)) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ٥/٢٠٥ .

(٤) سورة الحجر ٧٢ .

(٥) سورة يوسف ٣٠ .

(٦) قاعدة في المحبة ٨٣ وانظر ص ٨٥ . ونفس الرسالة في جامع الرسائل ٢/٢٦٨-٢٦٩ .

(والمقصود أن القلب قد يغمره [الحب والعشق] فيستولي عليه ما يريده العبد ويحبه وما يخافه ويحذره كائناً من كان ، ولهذا قال تعالى : ﴿ بل هم في غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون ﴾ (١) فهي فيما يغمرها عما أنذرت به ، فيغمرها ذلك عن ذكر الله والدار الآخرة وما فيها من النعيم ، والعذاب الأليم ، قال تعالى : ﴿ فذرهم في غمرتهم حتى حين ﴾(٢) أي فيما يغمر قلوبهم من حب المال والبنين المانع لهم من المسارعة في الخيرات والأعمال الصالحة ، وقال تعالى : ﴿ قتل الخراصون ، الذين هم في غمرة ساهون ﴾ (٣) الآيات : أي ساهون عن أمر الآخرة ، فهم في غمرة عنها ، أي فيما يغمر قلوبهم من حب الدنيا ومتاعها ، ساهون عن أمر الآخرة وما خلقوا له ...) (٤)

فتبين مما سبق أن المحبة درجات متفاوتة فقد تكون المحبة عبادة محضة لله ـ جل وعلا ـ إذا كانت خالصة لوجهه سبحانه وتعالى ، وقد تكون شركاً أكبر إذا استعبد المحبوب عبادة جعلته يساوي محبة الله بمحبة محبوبه ، كما يقع فيه كثير من العشاق ؛ بل قد يصل بهم الأمر إلى يتعدى مساوات الله بمحبوبه حتى يفضله عليه والعياذ بالله ، هذا من تمام استعباد محبة المعشوق لقلبه ، نسأله الله العافية والسلامة ، وقد تكون المحبة دون ذلك حينما يحب محبوبات نفسه وشهواته ، ومحبوبات محبوبه أكثر من حبه لله ، فيقدم محبوبات نفسه ومحبوبه على محبوبات الله ، مع اعترافه بالتقصير في حق الله ، وأنه واقع فيما حرم الله راجياً التوبة والعفو من الله . وهذا نوع من الشرك الأصغر .

الحلف بغير الله

الحلف أو القسم بغير الله مما يدخل في أنوع الشرك الأصغر ، إلا أنه قبل بيان ذلك يجدر أن أقدم لذلك مقدمة أبين فيها معاني ذلك :

فالحلف واليمين والقسم بمعنى واحد

---

(١) سورة المؤمنون ٦٣ .

(٢) سورة المؤمنون ٥٤ .

(٣) سورة الذاريات ١٠ .

(٤) الفتاوى ٥٩٦/١٠ .

قال ابن فارس ـ رحمه الله ـ (ح ل ف أصل واحد ، وهو الملازمة ، يقال : حالف فلان فلاناً إذ لازمه ، ومن الباب الحَلِف ، يقال حَلَف يَحْلِف حَلِفاً ، وذلك أن الإنسان يلزمه الثبات عليها) [١]

وقال ابن الأثير : (الحلف هو اليمين وأصلها العقد بالعزم والنية) [٢]

وأما اليمين فسمي بها الحلف (لأن المتحالفين يصفق بيمينه على يمين صاحبه) [٣]

وسميت يميناً استعارة من اليد اعتباراً بما يفعله المعاهِدُ والمحالِف وغيره [٤]

وأما القسم فسمي به الحلف واليمين ؛ لأن أصل ذلك من القسامة وهي الأيمان التي تُقسم على أولياء المقتول إذا ادعوا دم مقتولهم على ناس اتهموهم به ، ثم صار القسم اسماً لكل حَلِف[٥]ولكي يتضح الشرك الأصغر في هذا النوع من الألفاظ أذكر هنا ما وضحه شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : من الحلف الجائز منه والممنوع ، ويمكن أن يُجْمَلَ في النقاط التالية :

١) الحلف بالله .

٢) الحلف بغير الله .

٣) الحلف بجاه أحد من الخلق .

٤) الحلف بجاه النبي ﷺ .

٥) اقسام الله ـ جل وعز ـ بمخلوقاته .

١) الحلف بالله

إن مما هو معلوم أن الحلف عبادة من أنواع العبادات التي يجب صرفها لله ـ عز وجل ـ وذلك لما فيها من التعظيم بالمحلوف به ، والتعظيم على هذا الوجه لا يكون إلا لله ، ومما يبين ذلك ورود النهي عن الحلف بغير الله ـ عز وجل ـ .

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٢/٩٧ـ٩٨ مادة

(٢) النهاية ١/٤٣٥ .

(٣) معجم مقاييس اللغة ٦/١٥٩ ، وانظر : لسان العرب ٨/٧٩٤. مادة حلف .

(٤) انظر المفردات ٣٩٨ .

(٥) انظر المفردات ٦٧٠ ، مقاييس اللغة ٥/٨٦ .

كما أن الحلف فيه معنى إشهاد المحلوف به على صدق الحالف ، وعقابه إن كان كاذباً وقدرة الانتقام منه ، وهذا ليس إلا لله عز وجل .

ولهذه الأمور وغيرها صار الحلف عبادة لا يجوز صرفها لغير الله ، فلا يجوز للعبد أن يحلف إلا بالله أو بأسمائه وصفاته [(١)] لقوله ﷺ : ((من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت))[(٢)] كما يجوز الحلف " بعزة الله " و " لعمر الله " .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : (.. قد ثبت في الصحيح : الحلف "بعزة الله "[(٣)] و " لعمر الله "[(٤)] ونحو ذلك مما اتفق المسلمون على أنه ليس من الحلف بغير الله الذي نهي عنه .)[(٥)] وهذا من باب الحلف بصفاته سبحانه ، وهذا أمر مشروع ؛ بل عبادة يتعبد بها المرء لله جل وعلا كما يتعبد بالاستعاذة بصفاته ، وذلك

---

(١) انظر الفتاوى ٢٠٦/١ ، ٢٥٠/٣٥

(٢) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٣) أخرج البخاري تعليقاً في باب قول الله تعالى (وهو العزيز الحكيم) (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) (ولله العزة ولرسوله) ومن حلف بعزة الله وصفاته وقال أنس قال النبي ﷺ : ((تقول جهنم قط قط وعزتك)) وقال أبو هريرة عن النبي ﷺ ((يبقى رجل بين الجنة والنار آخر أهل النار دخولا الجنة فيقول يا رب اصرف وجهي عن النار لا وعزتك لا أسألك غيرها)) قال أبو سعيد إن رسول الله ﷺ قال : قال الله عز وجل : لك ذلك وعشرة أمثاله وقال أيوب : ((وعزتك لا غنى بي عن بركتك)) وأخرج أبو داود في الطب (ح٣٨٩١) .والترمذي في سننه في الطب (ح٢٠٨٠) عن عثمان بن أبي العاص أنه قال : أتاني رسول الله ﷺ وبي وجع قد كاد يهلكني ، فقال رسول الله ﷺ : ((امسح بيمينك سبع مرات وقل أعوذ بعزة الله وقدرته وسلطانه من شر ما أجد)) قال : ففعلت فأذهب الله ما كان بي فلم أزل آمر به أهلي وغيرهم . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(٤) أخرج البخاري ـ رحمه الله ـ أن سعد بن عبادة قال بحضرة النبي ﷺ : " لعمر الله " ولم يقل النبي ﷺ شيئاً وكذلك قالها رجل آخر والنبي ﷺ يسمع وذلك في كتاب المغازي (ح٤١٤١) . وأخرجه مسلم في التوبة (ح٢٧٧٠) .

(٥) الفتاوى ١١٢/١ .

مثل قول النبي ﷺ : ((أعوذ بوجهك))[١] و ((أعوذ بكلمات الله التامات))[٢] ونحو ذلك ، وهذا أمر متقرر عند العلماء .[٣]

٢) الحلف بغير الله :

بين شيخ الإسلام ــ رحمه الله ــ أنه لا يجوز الحلف بالمخلوقات أياً كان المخلوق ، عند عامة الأئمة ؛ وذلك لأن الحلف بالمخلوق شرك بالخالق كما في السنن عن النبي ﷺ أنه قال : ((من حلف بغير الله فقد أشرك))[٤]وفي لفظ ((فقد كفر))[٥] وقد ثبت عنه في الصحيحين أنه قال : ((من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت))[٦] وقال : ((لا تحلفوا بآبائكم فإن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم))[٧] وفي الصحيحين : ((من حلف باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله))[٨][٩].

ــ وأحب أن أنبه هنا زيادة في الإيضاح أن أطلاق حكم الشرك أو الكفر على الحالف بغير الله قد لا يراد به ابتداء الشرك المخرج من الملة ، وإنما هو الشرك الأصغر ، وقد يصل إلى درجة الشرك الأكبر حسب ما يقترن به من التعظيم لغير الله والرغبة والرهبة إليه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : (وقد اتفق المسلمون على أنه من حلف بالمخلوقات المحترمة ، أو بما يعتقد هو حرمته كالعرش ، والكرسي والكعبة والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجد النبي ﷺ ، والملائكة والصالحين ،

---

(١) رواه البخاري في تفسير القرآن (ح٤٦٢٨) والترمذي في تفسير القرآن (ح٢٠٦٥) .

(٢) رواه مسلم في الدعاء والذكر .. (ح٢٧٠٨) والترمذي في الدعوات (ح٣٤٣٧) وابن ماجه في الطب (ح٣٥٤٧) والدارمي في الاستئذان (ح٢٦٨٠) . وروى البخاري نحوه في أحاديث الأنبياء (ح٣٣٧١) .

(٣) انظر الفتاوى ٢٧٣/٣٥ .

(٤) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث

(٥) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث

(٦) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث

(٧) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٨)تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٩) انظر الفتاوى ٢٠٣/١ ، ٢٧/١٣١-١٣٢ .

والملوك ، وسيوف المجاهدين ، وترب الأنبياء والصالحين ، وأيمان البندق ، وسراويل الفتوة ، وغير ذلك ، لاينعقد يمينه ، ولا كفارة عيله في الحلف بذلك .

والحلف بالمخلوقات حرام[1] .. وقد حكى إجماع الصحابة على ذلك ، وقيل هي مكروهة كراهة تنزيه ، والأول أصح حتى قال عبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس وعبدا لله بن عمر : لأن أحلف با لله كاذباً أحب إلي من أن أحلف بغير ا لله صادقاً [2] وذلك لأن الحلف بغير ا لله شرك ، والشرك أعظم من الكذب .) [3]

وعلى العموم فإنه لا يجوز الحلف إلا با لله أو بأسماء ا لله وصفاته وما يلحق بها ، أما الحلف بما عدا ذلك فلا يجوز مهما كان نوع المحلوف به ، سواء كان بشراً رسولاً أو ملكاً مقرباً ، أو حيواناً أو جماداً .

والحلف بغير ا لله له صوراً وأشكالاً مختلفة كما تقدم ، إلا أن من أكثرها شيوعاً الحف بالجاه ، سواء كان بجاه النبي ﷺ أو بغيره من البشر .

٣) الحلف بجاه أحد من الخلق :

لايجوز الحلف بجاه أحد من خلق ا لله ﷻ سواء كان نبياً أو ولياً أو مكاناً مقدساً أو غير ذلك .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه ا لله – : (قال بشر بن الوليد[4] حدثنا أبو يوسف قال أبو حنيفة : " لا ينبغي لأحد أن يدعو ا لله إلا به ، وأكره أن يقول : "بمعاقد العز من عرشك ، أو بحق خلقك " وهو قول أبي يوسف . قال أبو يوسف : "بمعقد العز من عرشك هو ا لله فلا أكره هذا ، وأكره أن يقول بحق فلان أو بحق

---

(١) أطلق – رحمه ا لله – هذا الحكم الشرعي على الحلف بغير ا لله وذلك لأن الحلف بغير ا لله شرك أصغر – وهذا ما صرح به بعد قليل – إلا أن من العلماء من عدَّ ذلك من المعاصي ، ولا شك أنه منها إلا أنه من أغلظها وأعظمها ...

(٢) أخرجه عبد الرزاق ٤٦٩/٨ والطبراني في الكبير (٨٩٠٢) ، وقال الهيثمي في المجمع : " رواته رواة الصحيح" ١٧٧/٤ . صححه الألباني في الإرواء ١٩١/٨ .

(٣) الفتاوى ٢٠٤/١ ، وانظر ١٤٠ ، ٢٨٦ ، ٣٣٥ . ٣٤٩/٢٧–٣٥٠ .

(٤) تقدمت ترجمته في ملف ١٩ .

أنبيائك ورسلك ، وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام . قال القدوري[١] : المسألة بخلق الله لا تجوز ؛ لأنه لا حق للخلق على الخالق ، فلا تجوز وفاقاً .

وهذا الذي قال أبو حنيفة وأصحابه من أن الله لايسأل بمخلوق له معنيان :

أحدهما : هو موافق لسائر الأئمة الذين يمنعون أن يقسم أحد بالمخلوق ، فإنه إذا منع أن يقسم على مخلوق فلأن يمنع أن يقسم على الخالق بمخلوق أولى وأحرى ...)[٢] (كما ينهى أن يقسم على الله بالكعبة والمشاعر باتفاق العلماء .

والثاني : السؤال به ، فهذا يجوزه طائفة من الناس ، ونقل في ذلك آثار عن بعض السلف ، وهو موجود في دعاء كثير من الناس ؛ لكن ما روي عن النبي ﷺ في ذلك كله ضعيف ؛ بل موضوع ، وليس عنه حديث ثابت قد يظن أن لهم فيه حجة ، إلا حديث الأعمى الذي علمه أن يقول : ((أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة))[٣] وحديث الأعمى لا حجة لهم فيه .)[٤] وسيأتي تفصيل هذه المسأله بحول الله[٥]

وقد بين شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ أن الإقسام أو السؤال بحق أحد من المخلوقين ، (**السؤال بحق فلان مبني على أصلين :**

أحدهما : ماله من الحق عند الله .

والثاني : هل نسأله الله بذلك كما نسأله بالجاه والحرمة ، [أو نقسم به] ؟ .

أما الأول : فمن الناس من يقول : للمخلوق على الخالق حق يعلم بالعقل وقاس المخلوق على الخالق ، كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة وغيرهم ،

---

(١) تقدمت ترجمته انظر فهرس الأعلام

(٢) الفتاوى ٢٠٣/١ . وانظر إقتضاء الصراط المستقيم ٧٧٣/٢-٧٧٤ .

(٣) رواه الترمذي في الدعوات (ح٣٥٧٨) وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (ح١٣٨٥) . وسيأتي مزيد تخريج له عند الكلام عليه مفصلا . انظر فهرس الأحاديث .

(٤) الفتاوى ٢٢٢/١ .

(٥) انظر الباب الثالث الفصل الثالث المبحث الأول في التوسل .

ومن الناس من يقول : لا حق للمخلوق على الخالق بحال ؛ لكن يعلم ما يفعله بحكم وعده وخبره ، كما يقول ذلك من يقوله من أتباع جهم والأشعري وغيرهما ممن ينتسب إلى السنة .

ومنهم من يقول : بل كتب الله على نفسه الرحمة ، وأوجب على نفسه حقاً لعباده المؤمنين ، كما حرم الظلم على نفسه ، لم يوجب ذلك مخلوق عليه ، ولا يقاس بمخلوقاته ؛ بل هو بحكم رحمته وحكمته وعدله كتب على نفسه الرحمة ، وحرم على نفسه الظلم ، كما قال في الحديث الصحيح الإلهي : ((ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا))[1] . وقال تعالى : ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ [2] ...

وفي الصحيحين عن معاذ عن النبي ﷺ أنه قال : ((يا معاذ ، أتدري ما حق الله على عباده ؟ قلت الله ورسوله أعلم ، قال : حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . يا معاذ أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ قلت الله ورسوله أعلم . قال : حقهم عليه أن لا يعذبهم .)) [3] فعلى هذا القول لأنبياءه وعباده الصالحين عليه سبحانه حق أو جبه على نفسه مع إخباره .

وعلى الثاني يستحقون ما أخبر بوقوعه وإن لم يكن ثم سبب يقتضيه .

فمن قال ليس للمخلوق على الخالق حق يسأله به [أو يقسم به] .. فهو صحيح إذا أريد بذلك أنه ليس للمخلوق عليه حق بالقياس والاعتبار على خلقه ، كما يجب للمخلوق على المخلوق ، وهذا كما يظنه جهال العباد من أن لهم على الله حقاً بعبادته ...

ومن قال : بل للمخلوق على الله حق فهو صحيح إذا أراد به الحق الذي أخبر الله بوقوعه ، فإن الله صادق لا يخلف الميعاد ، وهو الذي أوجبه على نفسه بحكمته وفضله ورحمته ...)[4]

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة (ح٢٥٧٧) .

(٢) سورة الأنعام ٥٤ .

(٣) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٤) الفتاوى ٢١٣/١-٢٢٠ . وانظر إقتضاء الصراط المستقيم ٧٧٥/٢-٧٧٩ .

وأما الأصل الثاني : فإنه يقال : ما بين الله ورسله أنه حق للعباد على الله فهو حق ، لكن يبقى الحلف بهذا الحق وهذا الجاه والمنزلة التي استحقها العبيد بفضل الله ومنته ، هل يجوز الإقسام بها أو لا يجوز . ؟

تقدم بيان تحريم الحلف بغير الله ، والحلف بالحق داخل في هذا التحريم ، حتى ولو ظن الحالف أن لفلان ـ المحلوف به ـ حق على الله بعبادته له ؛ كما يظنه بعض الجهال ، فإن هذا لايسوغ الحلف به .

وأما إذا اعتقد أن لأولئك حق عند الله بأن لا يعذبهم وأن يكرمهم بثوابه لهم ، رفع دراجاتهم ـ كما وعدهم بذلك وأوجبه على نفسه ـ فليس في استحقاق أولئك ما استحقوه من كرامة الله ما يكون سبباً للحلف بهذا الحق لهم [1]

ونخلص من هذا : أنه لا يجوز لأحد أن يقسم بجاه أحد من الخلق ، أو حقه أومنزلته ونحو ذلك ؛ لأن ذلك داخل تحت تحريم الحلف بغير الله ، ومن فعل ذلك فقد أشرك شركاً أصغراً ؛ لأن إقسامه بحق المخلوق إقسام بالمخلوق ، وهذا داخل تحت النهي عن الحلف بالمخلوق .

فـ(إن قال قائل : بل أنا أسأله أو أقسم عليه بمعظم دون معظم من المخلوقات إما الأنبياء دون غيرهم ، أو نبي دون غيره ، كما جوز بعضهم الحلف بذلك ، أو بالأنبياء والصالحين دون غيرهم .

قيل له : بعض المخلوقات وإن كان أفضل من بعض فكلها مشتركة في أنه لا يجعل شيء منها نداً لله تعالى ، فلا يعبد ولا يتوكل عليه ، ولا يخشى ولا يتقى ويصام له ، ولا يسجد له ولا يرغب إليه ، ولا يقسم بمخلوق ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : ((من كان حالفاً فليحلف بالله ، أو ليصمت)) [2] وقال : ((لا تحلفوا إلا بالله))[3] وفي السنن عنه ﷺ أنه قال : ((من حلف بغير الله فقد أشرك))[4]

---

(١) انظر المصدر السابق .

(٢) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث

(٣) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث

(٤) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث

فقد ثبت بالنصوص الصحيحة الصريحة عن النبي ﷺ أنه لا يجوز الحلف بشيء من المخلوقات ، لا فرق في ذلك بين الملائكة والأنبياء والصالحين وغيرهم ، ولا فرق بين نبي ونبي.

وهذا كما قد سوى الله تعالى بين جميع المخلوقات في ذم الشرك بها ، وإن كانت معظمة ، قال تعالى : ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ، ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ [١] ...

فالحلال ما حلله الله ورسوله ، والحرام ما حرمه الله ورسوله ، والدين ماشرعه الله ورسوله ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ [٢] .. وقال : ﴿ سيؤتينا الله من فضله ورسوله ﴾ [٣] فذكر الإيتاء لله ورسوله ، لكن وسَّطه بذكر الفضل ، فإن الفضل لله وحده بقوله : ﴿سيؤتينا الله من فضله ورسوله ﴾ ثم قال : ﴿ إنا إلى الله راغبون ﴾ فجعل الرغبة إلى الله وحده دون الرسول وغيره من المخلوقات .

فقد تبين أن الله سوى بين المخلوقات في هذه الأحكام و لم يجعل لأحد من المخلوقين ـ سواء كان نبياً أو ملكاً ـ أن يقسم به ولا يتوكل عليه ، ولا يرغب إليه ولا يخشى ولا يتقى ...) [٤]

٤) الحلف بجاه النبي ﷺ

الحلف بجاه النبي ﷺ أو بذاته أو بنحو ذلك غير جائز شرعاً .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : (التوسل به بمعنى الاقسام على الله بذاته ، والسؤال بذاته ، فهذا لم تكن الصحابة يفعلونه في الاستسقاء ونحوه ، لافي

---

(١) سورة ال عمران ٧٩ .

(٢) سورة الحشر ٧ .

(٣) سورة التوبة ٥٩ .

(٤) الفتاوى ١/٢٩١-٢٩٤ .

حياته ولا بعد مماته ، لا عند قبره ولا غير قبره ، ولا يعرف هذا في شيء من الأدعية المشهورة بينهم ، وإنما ينقل شيء من ذلك في أحاديث ضعيفة مرفوعة وموقوفة أو عن من ليس قوله حجة [(١)] ...)[(٢)]

(ولا يقدر أحد أن ينقل فيه عن النبي ﷺ شيئاً يحتج به أهل العلم .. فإنه لا يقدر أحد أن ينقل فيه عن النبي ﷺ شيئاَ ثابتاً لافي الإقسام أو السؤال به ، ولا في الإقسام أو السؤال بغيره من المخلوقين ، وإن كان في العلماء من سوغه فقد ثبت عن غير واحد من العلماء أنه نهى عنه ، فتكون مسأله نزاع ، فيرد ما تنازعوا فيه إلى ا لله ورسوله ، ويبدي كل واحد حجته كما في سائر مسائل النزاع ...)[(٣)]

ولا ريب أن خلاف هؤلاء مرجوح ، وأن الحق الذي يظهر من خلال النصوص يفيد المنع ؛ بل ويحرم كل حلف بغير ا لله أياً كان كما تقدم .

أما من ناحية انعقاد اليمن من عدمه ، وهل يحنث أو لا ؟ فقد اختلف العلماء في ذلك على قولين [(٤)] ، (والجمهور على أنه لا تنعقد لابه ولا بغيره ، وقد قال النبي ﷺ : ((من كان حالفاً فليحلف با لله أو ليصمت)) [(٥)] وقال : ((من حلف بغير ا لله فقد أشرك)) [(٦)] وقال : ((من حلف بغير ا لله فقد كفر)) [(٧)] فمن حلف بشيخه أو بتربته أو بحياته أو بحقه على ا لله ، أو بالملوك ، أو بنعمة السلطان أ و بالسيف أو بالكعبة أو

---

(١) أي بالسؤال به أو بذاته .

(٢) الفتاوى ٢٠٢/١ . وانظر ١٢٣/٢٧ .

(٣) المصدر السابق ٢٨٦ .

(٤) انظر الفتاوى ٢٠٤/١ .

(٥) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث

(٦) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث

(٧) تقدم تخريجه أيضاً انظر فهرس الأحاديث

وهذا الجانب إنما ذكرته في هذا الموضع لبيان غلط من أجاز القسم بالمخلوقات قياساً على قسم الخالق بمخلوقاته . لا سيما وقد ردَّ شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ على من تعلق بهذا مستدلاً على جواز القسم بسائر المخلوقات ، فقال ـ رحمه الله ـ :

(وأصل هذا الباب أن يقال : الإقسام على الله بشيء من المخلوقات أو السؤال له به ، إما أن يكون مأموراً به إيجاباً أو استحباباً ، أو منهياً عنه نهي تحريم أو كراهة ، أو مباحاً لا مأموراً به ولا منهياً عنه .

وإذا قيل : إن ذلك مأمور به أو مباح ، فإما أن يفرق بين مخلوق ومخلوق ، أو يقال : بل يشرع بالمخلوقات المعظمة أو ببعضها ، فمن قال : إن هذا مأمور به أو مباح في المخلوقات جميعاً لزم أن يسأل الله تعالى بشياطين الإنس والجن فهذا لا يقوله مسلم .

فإن قال : بل يسأل[1] بالمخلوقات المعظمة كالمخلوقات التي أقسم بها في كتابه ، لزم من هذا أن يسأل بالليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى ، والذكر والأنثى ، والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ...

ويسأل ويقسم عليه بالصافات صفاً ، وسائر ما أقسم الله به في كتابه .

فإن الله يقسم بما يقسم به من مخلوقاته لأنها آياته ومخلوقاته ، فهي دليل على ربوبيته وألوهيته ، ووحدانيته وعلمه وقدرته ومشيئته ورحمته وحكمته وعظمته وعزته ، فهو سبحانه يقسم بها ؛ لأن إقسامه بها تعظيم له سبحانه .

ونحن المخلوقون ليس لنا أن نقسم بها بالنص والإجماع ؛ بل ذكر غير واحد الإجماع على أنه لا يقسم بشيء من المخلوقات ، وذكروا إجماع الصحابة على ذلك ، بل ذلك شرك منهي عنه .

ومن سأل الله [أو أقسم] بها لزمه أن يسأله بكل ذكر وأنثى ، وبكل نفس ألهمها فجورها وتقواها ، ويسأله بالرياح والسحاب والكواكب ، والشمس والقمر والليل والنهار .. وغير ذلك من المخلوقات ، ويلزم أن يسأله [أو يقسم عليه]

---

(١) ومثله الإقسام بهذه المخلوقات فإن الإقسام والسؤال كلاهما عبادة يجب أن تكون لله وحده ولذا فإن الكلام على أحدهما والحكم عليه يتدرج على الآخر .

بالمخلوقـات الـتي عبـدت مـن دون الله ، كالشـمس والقمـر والكواكـب ، والملائكـة والمسيح ، والعزير ، وغـير ذلـك مما عبـد من دون الله ومما لم يعبـد مـن دونـه .

ومعلـوم أن السـؤال بـه بهـذه المخلوقـات أو الاقسـام عليـه بهـا مـن أعظـم البـدع المنكـرة في دين الإسـلام ، ومما يظهـر قبحـه للخـاص والعـام .

ويـلزم مـن ذلـك أن يقسـم علـى الله تعـالى بالأقسـام والعزائـم الـتي تكتـب في الحـروز والهيـاكل الـتي تكتبهـا الطرقيـة[1] والمعزمـون[2] ، بـل ويقـال : إذا جـاز السـؤال والإقسـام علـى الله بهـا فعلـى المخلوقـات أولى ، فحينئـذ تكـون العزائـم والإقسـام الـتي يقسـم بهـا علىالجـن مشـروعة في ديـن الإسـلام ، وهـذا الكـلام يستلزم الكفـر والخـروج مـن ديـن الإسـلام ؛ بـل ومـن ديـن الأنبيـاء أجمعين .)[3]

الخلاصـة :

وخلاصـة مـا تقـدم أن الإئمـة قـد اتفقـوا علـى أنـه لا يجـوز الحلـف بشـيء مـن مخلوقـات الله ، وأن مـن حلـف بذلـك فقـد أشـرك شـركاً أصغـراً ، وأن يمينـه لا تنعقـد ولا تجـب عليـه كفـارة لكـون حلفـه بـاطل ، ومـا ترتـب علـى البـاطل فهـو بـاطل ، مـع حصـول الإثـم .

وأمـا الحلـف بـالنبي ﷺ فـالصحيح الـذي لا مريـة فيـه أنـه لا يجـوز أن يحلـف بـه ، كمـا لا يجـوز أن يحلـف بغيره مـن الخلـق ولـو كـان مـن المقربـين كالملائكـة والأنبيـاء والصديقـين والشـهداء والصـالحين وغـيرهم للنصـوص المتقدمـة الـتي تحـرم الحلـف بغـير الله وتعـده شـركاً ، كقولـه ﷺ : ((مـن حلـف بغير الله فقـد أشـرك)) [4] .

---

(١) أي أصحـاب الطرق مـن أهـل التصـوف والسـلوك . انظـر الطحاويـة ٧٦٤/٢ ، عنـد قولـه : الواجـب علـى ولي الأمر عنـد السحر .

(٢) العزيمة نـوع مـن الرقـي الـتي يُعـزم بهـا علـى المرقـي ويستخدم المعزمـون فيهـا الجـن وتحضـير الأرواح . انظـر اللسـان ٤٠٠/١٢ مـادة عـزم ، ومعجـم مقـاييس اللغـة ٣٠٨/٤ عـزم . قـال الخليـل : العـزم مـا عقـد عليـه القلـب أنـك فاعلـه ، أو مـر تبغيـه ، والعزيمـة الرقـي ونحوهـا مـن الجـن ونحوهـا مـن الأرواح . كتـاب العـين ٣٦٣/١ ، بـاب العـين والـزاي .

(٣) الفتـاوى ٢٩١/١-٢٩٤ .

(٤) تقـدم تخريجـه قريبـاً انظر فهـرس الأحـاديث .

والنهى الوارد في الحديث : ((لاتحلفوا بآبائكم ...)) نهي تحريم عند أكثر العلماء كأبي حنيفة وغيره ، (حتى أن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما يقول أحدهم : (لأن أحلف با لله كاذباً أحب إلى من أن أحلف بغيره صادقاً)[١] وفي لفظ : (لأن أحلف با لله كاذباً أحب إلي من أن أضاهي) فالحلف بغير ا لله شرك ، والشرك أعظم من الكذب ، وغاية الكذب أن يشبه بالشرك ، كما في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : ((عدلت شهادة الزوربالإشراك با لله))[٢] قالها مرتين أو ثلاثاً . وقرأ قوله تعالى : ﴿ ..واجتنبوا قول الزور ، حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك با لله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴾[٣] وهذا المنهي عنه بل المحرم الذي هو أعظم من اليمين الفاجرة عند الصحابة ـ رضوان ا لله عليهم ـ قد ظن طائفة من أهل العلم أنه مشروع غير منهي عنه ، ولهذا نظائر كثيرة ؛ لكن قال ا لله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا ا لله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى ا لله والرسول إن كنتم تؤمنون با لله واليوم الاخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾[٤] وما أمر ا لله ورسوله به فهو الحق .

وهو ﷺ نهى عن الحلف بغير ا لله ، وعن الصلاة عند طلوع الشمس وغروبها ، وعن اتخاذ القبور مساجد ، واتخاذ قبره عيداً ، ونهى عن السفر إلى غير المساجد الثلاثة ، وأمثال ذلك لتحقيق إخلاص الدين لله ، وعبادة ا لله وحده لا شريك له ، فهذا كله محافظة على توحيد ا لله ـ عز وجل ـ وأن يكون الدين كله لله ، فلا يعبد غيره ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يدعى إلا هو ...ولا يحلف إلا به ، ولا يحج إلا إلى بيته ...)[٥] وهذا هو القول الصحيح الذي دلت عليه النصوص ، وجاءت الشريعة لتقريره ، ولا شك في خطأ غيره ، لما تقدم وا لله تعالى أعلم .

---

(١) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث

(٢) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٣) سورة الحج ٣١ .

(٤) سورة النساء ٥٩ .

(٥) الفتاوى ٣٤٩/٢٧ـ٣٥١ . وانظر ١٠٧/٣٥ .

التشريك بين الخالق والمخلوق بحرف العطف

ومن الشرك الأصغر التشريك بين الخالق والمخلوق في المشيئة ، كقول القائل : ما شاء الله وشاء فلان ، أو ما شاء الله وشئت أومالي إلا الله وأنت ، أو أرجوا الله وأرجوك ، أو هذا من بركات الله وبركاتك ، ونحو ذلك من الألفاظ التي يجمع بينها وبين الله ـ عز وجل ـ وبعض خلقه بحرف العطف ، في أمر تصح إضافته إلى الله وإلى المخلوق[(١)] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : (.. نهى النبي r أن يتخذ قبره مسجداً وأن يتخذ عيداً ... وقال : ((لاتقولوا ما شاء الله وشاء محمد ، بل ما شاء الله ثم شاء محمد))[(٢)] وقال له بعض الأعراب : ما شاء الله وشئت فقال : ((أجعلتني لله نداً ؟ بل ما شاء الله وحده)) [(٣)] وقد قال الله تعالى : ﴿ قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ومامسني السوء ﴾[(٤)] وقال تعالى : ﴿ قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً ﴾[(٥)] وقال تعالى : ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾[(٦)] وقال تعالى : ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾[(٧)] وهذا تحقيق التوحيد مع أنه ﷺ أكرم الخلق على الله وأعلاهم منزلة عند الله)[(٨)]

كما أن من هذا الباب قول من يقول : هذا من بركة الله ومن بركتك ونحوه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : (وأما قول القائل : انقضت حاجتي ببركة الله وبركتك ، فمنكر من القول ؛ فإنه لا يقرن بالله في مثل هذا غيره ،

---

(١) انظر الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ص ١٤٠ .

(٢) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٣) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٤) سورة الأعراف ١٨٨ .

(٥) سورة يونس ٤٩ .

(٦) سورة القصص ٥٦ .

(٧) سورة ال عمران ١٢٨ .

(٨) الفتاوى ٣٠٣/١ .

حتى إن قائلا قال للنبي ﷺ : ما شاء الله وشئت ، فقال : ((أجعلتني لله نداً ؟ ! بل ما شاء الله وحده)) ...

وفي الحديث أن بعض المسلمين رأى قائلاً يقول : نعم القوم أنتم لولا أنكم تنددون ، أي : تجعلون لله نداً ، يعني تقولون : ما شاء الله وشاء محمد فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك[١] .

وفي الصحيح عن زيد بن خالد قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الفجر بالحديبية في أثر سماء من الليل[٢] ، فقال : ((أتدرون ماذا قال ربكم الليلة ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب))[٣] والأسباب التي جعلها الله أسباباً لا تجعل مع الله شركاء وأنداداً وأعواناً ...)[٤]

فتبين من هذا أن التشريك بين الله وبين أحد من خلقه في المشيئة وغيرها من الألفاظ المنهي عنها نهي تحريم ؛ لأن المشيئة لله وحده لا شريك له في ذلك ، وإذا كان النبي ﷺ ليس له من الأمر شيء إلا ما آتاه الله ، وليس له مشيئة مستقلة عن مشيئة الله ولا مشاركة له فكيف بغيره لا سيما وقد نهى ﷺ عن ذلك .

((وجاء يهودي النبي ﷺ فقال : إنكم تشركون وتقولون : ما شاء الله وشئت ، وتقولون : والكعبة ، فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا : ورب الكعبة ، وأن يقولوا : ما شاء الله ثم شئت))[٥] فأقر النبي ﷺ هذا اليهودي على قوله : إنكم تشركون ، فصدق وصف هذا القول بالشرك .

---

(١) وسيأتي نص الحديث قريباً

(٢) أي إثر مطر سقط بالليل .

(٣) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث

(٤) الفتاوى ٢٧/٩٥—٩٦ .

(٥) رواه الإما أحمد ٦/٣٧١—٣٧٢ ، والنسائي في السنن ٦/٧ كتاب الأيمان والنذور ، والحاكم ٤/٢٩٧ وقال هذا حديث صحيح ووافقه الذهبي .وصححه الألباني في الصحيحة ١/٢١٣ .

الرقى

الرقية هو العوذة ، بالكلمات التي تقرأ لدفع البلاء أو رفعه ، كالحمى والصرع ، ودفع الشرور والشياطين وغير ذلك [(١)]

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : أنها قسمان :

رقية جائزة مشروعة ، ورقية محرمة ممنوعة .

فأما الرقية الجائزة

فهي : التي تكون بكلام الله وبما شرعه رسوله ﷺ من الأدعية والأذكار الصحيحة .

وهي التي أباحها رسول الله ﷺ ورقى بها نفسه ورقاه جبريل عليه السلام بها . فعن أنس رضي الله عنه قال : رخص رسول الله ﷺ في الرقية من العين والحمة ، والنملة . [(٢)] وفي رواية عنه مرفوعاً : (لا رقية إلا من عين أو حمة أو دم لا يرقأ .) [(٣)]

وقد كان ﷺ يرقي ويقول كما في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ : (امسح البأس رب الناس ، بيدك الشفاء لا كاشف إلا أنت) [(٤)] وقد حكى ابن عبد البر الاجماع في جواز الرقى في العين والحمة [(٥)]

وقد فرق شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : بين طلبها من الغير وبين أن يرقي الإنسان نفسه ، أو يرقي غيره ، وعد الثاني أكمل في التوكل وتحقيق التوحيد من الأول ، قياساً على الدعاء ، وتوجيها لحديث التوكل في السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بلا حساب ، حيث قال ـ رحمه الله ـ : (.. وقد ثبت عنه في الصحيح أنه قال :

---

(١) انظر النهاية في غريب الحديث ٢٥٤/٢ .والشرك الأصغر حقيقته وأحكامه وأنواعه ٢٠٦ .

(٢) رواه مسلم (ح ٢١٩٦).

(٣) رواه أبو داود (ح ٣٨٨٩)، وقد حكم ابن حجر ـ رحمه الله ـ على هذه الرواية بالشذوذ الفتح ١٦٥/١٠ .

(٤) رواه البخاري في الطب (ح ٥٧٤٤) ومسلم في السلام (ح ٢١٩١) بلفظ (أذهب البأس).

(٥) التمهيد ١٥٦/٢٣ .

((يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفاً بغير حساب ، هم الذي لا يسترقون ، ولا يكتوون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون)) [١] .

فهؤلاء من أمته وقد مدحهم بأنهم لا يسترقون ، والاسترقاء أن يطلب من غيره أن يرقيه ، والرقية من نوع الدعاء ، وكان هو ﷺ يرقي نفسه وغيره ، ولا يطلب من أحد أن يرقيه ، ورواية من روى في هذا ((لا يُرْقُون))ضعيفة غلط .

فهذا مما يبين أمره لأمته بالدعاء أنه ليس من باب سؤال المخلوق للمخلوق الذي غيره أفضل منه ؛ فإن من لا يسأل الناس ، بل لا يسأل إلا الله أفضل ممن يسأل الناس ، ومحمد ﷺ سيد ولد آدم) [٢] .

(وكان النبي ﷺ يرقى نفسه وغيره ،ولم يكن يسترقي ، فإن رقيته نفسه وغيره من جنس الدعاء لنفسه ولغيره ، وهذا مأمور به ، فإن الأنبياء كلهم سألوا الله ودعوه كما ذلك الله ذلك في قصة آدم وإبراهيم وموسى وغيرهم .) [٣]

أما رقية جبريل عليه السلام للنبي ﷺ فيجاب عنه بأن لم يطلب النبي ﷺ ذلك منه ، بل جبريل عليه السلام هو الذي فعل ذلك .

شروط الرقية

ذكر ـ رحمه الله ـ شروطاً للرقية الجائزة وهي :

١) أن تكون بما يعرف معناه [٤]

٢) أن تكون بلسان عربي ؛ لأن بعض العزائم الأعجمية تتضمن شركاً كأسماء رجال من الجن يستغاث بهم ،ويقسم به الإنس ويستغيثون بهم ، فتطيعهم الشياطين بسبب ذلك في بعض الأمور [٥]

---

(١) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث

(٢) الفتاوى ٣٢٨/١ .

(٣) المصدر السابق ١٢٨ .

(٤) انظر الفتاوى ٦١/١٩ ، ٣٣٦/١ ، ١٣١/٢٧ . واشترط ذلك ؛ لأن كل اسم مجهول يكون عرضة لدخول الشرك فيه.

(٥) انظر الفتاوى ٣٦٢/١٤ ، ٢٩٢/١١ .

٣) أن تخلو من الشرك [١] فاتضح من هذا النوع من الرقية مشروع ولا يدخل في الشرك إذا توفرت هذه الشروط المذكورة .[٢]

وأما الرقية الشركية

فهي التي تكون بها استعانة بالمخلوقين من الجن وغيرهم ، إما بكتابة أسماء ملوكهم أو من يعظمونه ، كما كان الناس في الجاهلية إذا نزلوا وادياً استعاذوا بعزيم الجن من شرارهم .

وقد يكتب الراقي رقية بأمور شركية كطلاسم أو كتابة كلام الله بالنجاسة كالدم أو غيره ، وقد يكتبون حروف الفاتحة ، أو قل هو الله أحد أو غيرهما ، أو يكتبون غير ذلك مما يرضاه الشيطان ، أو يتكلمون بذلك ، فإذا قالوا أو كتبوا ما ترضاه الشياطين أعانتهم على بعض أغراضهم ، وهذا من جنس السحر [٣]

كما أن هذا العمل من الشرك الأكبر (بل عامة ما يقوله أهل الرقى والعزائم فيه شرك ، وقد يقرأون مع ذلك شيئاً من القرآن ، ويظهرونه ويكتمون ما يقولونه من الشرك ، وفي الاستشفاء بما شرعه الله ورسوله ما يغني عن الشرك وأهله) [٤]

فلا يجوز التداوي بهذا النوع من الرقى والعزائم بكل حال ، باتفاق المسلمين ، وإن تنازع المسلمون في جواز التداوي بالمحرمات كالميتة والخنزير ، فإنهم لم يتنازعوا في تحريم التداوي بالشرك والكفر بكل حال .[٥]

---

(١) انظر الفتاوى ٢٤/٢٧٨ . واستدلوا لهذا الشرك بقوله ﷺ : ((إعرضوا علي رقاكم)) ثم قال : ((لا بأس بما ليس فيه شرك)) رواه مسلم في السلام (ح٢١٩٦) .

(٢) وقد ذكر العلماء شروطاً غيرها . كما زاد بعضهم : أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها ، بل بتقدير الله تعالى .انظر تيسير العزيز الحميد ١٦٦-١٦٧ . وانظر النهاية ٢/٢٥٥ وحكى الاجماع عليه ابن حجر في الفتح ١٠/٢٠٦. وزاد بعضهم : أن لا تكون الرقية من عَرَّاف أو كاهن لأنهما لا يجوز لأحد أن يأتي إليهما فضلاً عن أن يصدقهما . انظر الرقى للعلياني ص ٦٦ .

(٣) انظر الفتاوى ١٦/٣٣ـ٣٥ ١١/٢٩٢ ـ٢٩٣ ، ١/٣٦٢ .

(٤) الفتاوى ١٩/٦١ .

(٥) انظر المصدر السابق .

تعبيد الأسماء لغير الله

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : (كان المشركون يعبدون أنفسهم وأولادهم لغير الله ، فيسمون بعضهم رب الكعبة ، كما كان اسم عبد الرحمن بن عوف ، وبعضهم عبد شمس كما كان اسم أبي هريرة ، واسم عبد شمس بن عبدن مناف ، وبعضهم عبد اللات ، وبعضهم عبد العزى ، وبعضهم عبد مناة ، وغير ذلك مما يضيفون فيه التعبيد إلى غير الله من شمس أو وثن أو بشر أو غير ذلك مما قد يشرك بالله .

ونظيره تسمية النصارى عبد المسيح ، فَغَيَّرَ النبي ﷺ ذلك وعبدهم لله وحده ، فسمى جماعات من أصحابه: عبد الله ، وعبد الرحمن ، كما سمى عبد الرحمن بن عوف ونحو هذا ، وكما سمى أبامعاوية ، وكا ن اسمه عبد العزى فسماه عبد الرحمن ، وكان اسم مولاه قيوم فسماه عبد القيوم .

ونحو هذا من بعض الوجوه ما يقع في الغالية من الرافضة ومشابهيهم الغالين في المشائخ ، فيقال هذا غلام الشيخ يونس ، أو للشيخ يونس ، أو غلام ابن الرفاعي ، أو الحريري ونحو ذلك مما يقوم فيه للبشر نوع تأله ، كما قد يقوم في نفوس النصارى من المسيح ، وفي نفوس المشركين من آلهتهم رجاء وخشية ، وقد يتوبون لهم لما كان المشركون يتوبون لبعض الآلهة ، والنصارى للمسيح أو لبعض القديسين .

وشريعة الإسلام الذي هو الدين الخالص لله وحده : تعبيد الخلق لربهم كما سنه رسول الله ﷺ ، وتغيير الأسماء الشركية إلى الأسماء الإسلامية ، والأسماء الكفرية إلى الأسماء الإيمانية ، وعامة ما سمى به النبي ﷺ عبد الله وعبد الرحمن ، كما قال تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ [١] فإن هذين الإسمين هما أصل بقية أسماء الله تعالى .

وكان شيخ الاسلام الهروي قد سمى أهل بلده بعامة أسماء الله الحسنى ، وكذلك أهل بيتنا ؛ غلب على أسمائهم التعبيد لله ...) [٢]

---

(١) سورة الإسراء ١١٠ .

(٢) الفتاوى ١/٣٧٨-٣٧٩ .

فتبين مما تقدم وجوب تغيير الاسم المعبد لغير الله ، كما تبين أن من فعل ذلك فقد زعم أن المسمى عبد للمسمى به ، وهذا فيه نوع تعبيد لغير الله ، وإن كان في المسمى فقط ، أما إذا صاحبه الاعتقاد انتقل إلى الشرك الأكبر والعياذ بالله .



الباب الثالث : حماية التوحيد من وسائل الشرك

وفيه أربعة فصول

الفصل الأول : تحذير النبي ﷺ من الأسباب المفضية إلى الشرك

وفيه تميهد وثلاثة مباحث

الفصل الثاني : بيانه للغلو الذي يقدح في توحيد العبادة

الفصل الثالث : بيانه للتوسل وطلب الشفاعة وفيه مبحثان .

الفصل الرابع : بيانه لاتباع الهوى وطاعة العلماء والأمراء في معصية الله . وفيه مبحثان .

الفصل الأول : بيانه لتحذير النبي ﷺ من الأسباب المفضية إلى الشرك

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث :

المبحث الأول : في اتخاذ القبور مساجد

المبحث الثاني : في زيارة القبور وشد الرحال إليها

المبحث الثالث : في زيارة قبر النبي ﷺ

المبحـــث الأول : اتخـــاذ القبـــور مســـاجد

تمهيد

لقد أرسل الله رسله لأجل أن يوحد في العبادة فلا يعبد إلا هو ، ويفرد بها فلا يشرك معه غيره ، كما أمر سبحانه رسله بالتحذير من الشرك والنهي عنه ، وبين سبحانه ذلك في كتابه أعظم مما بين غيره من الشريعة ، وجعل ذلك حقاً له وحده لا يجوز أن يشرك معه غيره ، قال تعالى : ﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذي كنتم تزعمون ، ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ (١)

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ (وهذا الحق لله كما ثبت عنه [ﷺ] في الصحيح أنه قال لمعاذ بن جبل : ((يا معاذ أتدري ما حق الله على عباده ؟ قال الله ورسوله أعلم ، قال حقه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، يا معاذ أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ قال : الله ورسوله أعلم ، قال حقهم عليه أن لا يعذبهم)) (٢) وقال تعالى : ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون ﴾ (٣) ومثل هذا في القرآن متعدد يصف أهل الشرك بالفرية ؟ ولهذا طالبهم بالبرهان والسلطان ، كما في قوله : ﴿ ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه ﴾ (٤) وفي قوله : ﴿ قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ﴾ (٥) وقال : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين ، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون ، وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم

---

(١) سورة القصص ٧٥ .

(٢) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٣) سورة هود ٥٠ .

(٤) سورة المؤمنون ١١٧ .

(٥) سورة الأحقاف ٤ .

يشركون ، ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون ، أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون ؟ ﴾ [١] وقوله تعالى : ﴿ ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ﴾[٢] ؛ لأن التوحيد هو دين الله الذي بعث به الأولين والآخرين كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[٣] وقال تعالى : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ [٤] وقال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ [٥] وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : ((إن الله يرضى لكم ثلاثاً : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم)) [٦]

ولهذا لما كان المتخذون القبور مساجد لما كان فيهم من الشرك ما فيهم ، قد فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، فتجد كل قوم يعظمون متبوعهم أو نبيهم ، ويقولون الدعاء عند القبر يستجاب ، وقلوبهم معلقة به دون غيره من قبور الأنبياء والصالحين ، وإن كان أفضل منه[٧] ، كما أن عباد الكواكب والأصنام كل منهم قد اتخذ إلهه هواه ، فهو يعبد ما يألهه وإن كان غيره أفضل منه ...) [٨]

فتبين من هذا وجوب عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن الله سبحانه وتعالى إنما أرسل رسله لذلك ، وأنه جل وعلا حذر من الشرك ، وبين خطره وعظمه .

---

(١) سورة الروم ٣٠ وما بعدها .

(٢) سورة الروم ٣١-٣٢ .

(٣) سورة الأنبياء ٢٥ .

(٤) سورة الزخرف ٤٥ .

(٥) سورة النحل ٣٦ .

(٦) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٧) يريد ـ رحمه الله ـ اثبات أن عُبَّاد المخلوقات ليس لهم منهج ثابت في عبادتهم ، وكان الحال يقتضي مع مفهومهم هذا أن يتحروا في عباداتهم هذه ـ التي لا تقوم على أصل ـ الفاضل دون المفضول .

(٨) الفتاوى ٢٧/١٦٢ـ ١٦٤ .

ولما كان أصل الشرك في الناس إنما حصل من تعظيم الأشخاص ، وتصوير صورهم ومن ثم وقوعهم في عبادتهم حذر النبي ﷺ من ذلك أيما تحذير ، سواء كان وقع ذلك التعظيم بأمر من الأشخاص ذواتهم أم أنه وقع بغير ذلك .

وقد وضح ذلك شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ حينما بَيَّنَ أن كثيراً من الخلق قد تنكبوا صراط الله المستقيم ، فساروا على درب أصحاب الجحيم ، فاتخذوا آلهة من دون الله ؛ ممن أمرهم بعبادة نفسه ، أو ممن لم يأمرهم بذلك : (كالذين يعبدون المسيح وعزيراً ، وكقوم فرعون الذين قال لهم ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ [1] و ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ [2] وقال لموسى : ﴿ لئن اتبعت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين ﴾ [3] وكالذي آتاه الله نصيباً من الملك الذي حاج إبراهيم في ربه ﴿ إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت ﴾ [4] وكالدجال الذي يدعي الإلهية ـ وما من خلق آدم إلى قيام الساعة فتنة أعظم من فتنة الدجال ـ وكالذين قالوا : ﴿ لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً ﴾ [5]

قال غير واحد من السلف : إن هذه أسماء قوم صالحين كانوا فيهم ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم بعد ذلك عبدوهم ، وذلك أول ما عبدت الأصنام ، وأن هذه الأصنام صارت إلى العرب ، وقد ذكر ذلك البخاري في صحيحه عن ابن عباس ... [أنها] أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا ، ولم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت [6] ...

وكل المرسلين بعث إلى مشركين يعبدون هذه الأصنام التي صورت الصالحين من البشر ، والمقصود بعبادتها عبادة أولئك الصالحين .

---

(١) سورة النازعات ٢٤ .

(٢) سورة القصص ٣٨ .

(٣) سورة الشعراء ٢٩ .

(٤) سورة البقرة ٢٥٨ .

(٥) سورة نوح ٢٣ .

(٦) رواه البخاري في تفسير القرآن (ح٤٩٢٠) .

وكذلك المشركون من أهل الكتاب ومن مبتدعة هذه الأمة وضلالها ، هذا غاية شركهم ، فإن النصارى يصورون في الكنائس صور من يعظمونه من الإنس غير عيسى وأمه : مثل ما رجرجس وغيره من القداديس ، ويعبدون تلك الصور ، ويسألونها ويدعونها ، ويقربون لها القرابين ، وينذرون لها النذور ، ويقولون هذه تذكرنا بأولئك الصالحين ، والشياطين تضلهم كما كانت تضل المشركين : تارة بأن يتمثل الشيطان في صورة ذلك الشخص الذي يدعي ويعبد فيظن داعيه أنه قد أتى ، أو يظن أن الله صور ملكاً على صورته ...

وهكذا كثير من أهل البدع والضلال والشرك المنتسبين إلى هذه الأمة ، فإن أحدهم يدعو ويستغيث بشيخه الذي يعظمه وهو ميت ، أو يستغيث به عند قبره ويسأله ، وقد ينذر له نذراً ونحو ذلك ، ويرى ذلك الشخص قد أتاه في الهواء ودفع عنه بعض ما يكره ، أو كلمه ببعض ما سأله عنه ونحو ذلك ، فيظنه الشيخ نفسه أتى ...)[1]

وهذا كله تمويه من الشياطين حيث أنهم يظهرون بصور الأشخاص المُعَظَمِيْن من قِبَلِ أولئك المبتدعة ؛ مما يكون سبباً في إغوائهم وهكذا كان تعظيم الأشخاص وتصوير الصور لهم من أهم الأسباب التي بعد كثير الناس بسببها عن التوحيد ، مما أدى بهم إلى الانخراط في الشرك (ولهذا جمع النبي ﷺ بين القبور والصور في غير حديث ، كما في صحيح مسلم ، عن أبي الهياج الأسدي[2] قال : قال لي علي بن أبي طالب : ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ((أمرني أن لا أدع قبراً مشرفاً إلا سويته ، ولا تمثالاً إلا طمسته))[3] فأمره بمحو الصور وتسوية القبور ، كما قال في الحديث الآخر الصحيح : ((إن أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره

---

(١) الفتاوى ١٧/٤٥٤-٤٥٦ . وانظر منهاج السنة ١/٤٧٣-٤٨١ .

(٢) هو : حيان بن حصين أبو الهياج الأسدي الكوفي . انظر التقريب ١٨٤ (١٥٩٦) .

(٣) رواه مسلم في الجنائز (ح٩٦٩) وأبو داود في الجنائز (ح٣٢١٨) والترمذي في الجنائز (ح١٠٤٩) والنسائي في الجنائز (ح٢٠٣١) .

مسـجداً وصـوروا فيـه تلـك التصـاوير ، أولئـك شـرار الخلـق عنـد ا لله يـوم القيامـة))[١]...)[٢].

✍ سد النبي ﷺ لأبواب الشرك :

وقد سد النبي ﷺ هذا الباب بتحقيقه للعبودية لله رب العالمين (لئلا تقع الأمة فيما وقعت فيه النصارى في المسيح ؛ من دعوى الألوهية ، حتى قال له رجل : ما شاء ا لله وشئت فقال : ((أجعلتني لله نداً ؟ بل ما شاء ا لله وحده))[٣] وقال أيضاً لأصحابه : ((لاتقولوا ما شاء ا لله وشاء محمد ، بل قولوا ما شاء ا لله ثم شاء محمد)) [٤] وقال : ((لاتتخذوا قبري عيداً وصلوا علي حيث ما كنتم فإن صلاتكم تبلغني)) [٥] وقال : ((اللهم لاتجعل قبري وثناً يعبد ، اشتد غضب ا لله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد))[٦] وقال : ((إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك)) [٧] ...) [٨]

---

(١) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث

(٢) الفتـاوى ١٥٧/٢٧ .

(٣) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث

(٤) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث

(٥) رواه أحمد عن أبي هريرة ٣٦٧/٢ ، ورواه البخاري في التاريخ الكبير ١٨٦/٢ في ترجمة جعفر بن إبراهيم في فصل الصلاة على النبي ﷺ ، وأبو عبدا لله محمد بن عبدالواحد في المختاره (ح ٤٢٨) . وذكره القاضي عياض بالشفاء ، وصححه البزار . انظر تنوير الحوالك ١٨٦/١ . وغيره عن علي بن الحسين عن أبيه عن جده . وقد حسنه السخاوي في القول البديع ص ١٦١ .

(٦) رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة ٢٤٦/٢ وقال أحمد شاكر : إسناده صحيح . انظر تحقيقه للمسند ٨٦/١٣ (ح ٧٣٥٢) . ومالك في الموطأ مرسلا عن عطاء بن يسار في كتاب النداء للصلاة (ح٤١٦) وابن أبي شيبة ٣٤٥/٣ بلفظ : ((اللهم لا تجعل قبري وثناً يصلى له)) ، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق في مصنفه ٤٠٦/١ (ح ١٥٨٧) ، والحميدي (ح١٠٢٥) بنحوه ، وروى آخره بمعناه البخاري في الصلاة (ح٤٣٧) ومسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة (ح٥٣٠) وأبو داود في الجنائز (ح٣٢٢٧) والنسائي في الجنائز (ح٢٠٤٧) بلفظ " قاتل ا لله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد "

(٧) رواه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (ح٥٣٢) .

(٨) الفتـاوى ٦٦/١ . وانظر ٣٩٧/٣-٣٩٨ .

فكان هذا منه ﷺ نهياً عن تعظيمه والغلو فيه وإطرائه ؛ بل هذا منه ﷺ نهي (عن جنس الشرك وحسم مادته بلعنه ونهيه عن اتخاذ القبور مساجد ؟ فنهى عن الصلاة لله مستقبلاً لها وإن كان المصلي لا يعبد الموتى ولا يدعوهم ، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت الغروب ؛ لأنها وقت سجود المشركين للشمس ، وإن كان المصلي لا يسجد إلا لله ؛ سداً للذريعة ، فكيف إذا تحققت المفسدة بأن صار العبد يدعو الميت ويدعو به ، كما إذا تحققت المفسدة بالسجود للشمس وقت الطلوع ووقت الغروب ...) (١)

كما أوصد ﷺ باب الشرك حينما قال له بعض الصحابة أنت سيدنا وابن سيدنا فقال : ((قولوا بقولكم أو بعض قولكم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله))(٢) ، وحينما أنشدت تلك الجارية بقولها : وفينا رسول يعلم ما في غد فقال ﷺ : ((دعي هذا ، قولي بالذي كنت تقولين))(٣) وقال : ((لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله)) (٤) ، ولما صفوا خلفه قياماً قال : ((لا تعظموني كما تعظم الأعاجم بعضهم بعضاً)) (٥)

---

(١) الفتاوى ٢٧/١٢٣-١٢٤ . وانظر ١/٣٢١ . وإقتضاء الصراط المستقيم ١/١٩٠-١٩٣ .

(٢) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث . .

(٣) رواه البخاري في المغازي (ح٤٠٠١) وأبو داود في الأدب (ح٤٩٢٢) واللفظ له ، ورواه الترمذي أيضاً في النكاح (ح١٠٩٠) وابن ماجه في النكاح (ح١٧٩٧) .

(٤) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٥) رواه أبو داود في الأدب (ح٥٢٣٠) ولفظه : عن أبي أمامة قال خرج علينا رسول الله ﷺ متوكئا على عصا فقمنا إليه فقال : ((لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضها بعضا)) ورواه ابن ماجه في الدعاء (ح٣٨٣٦) وأحمد ٥/٢٥٣ . وصححه الألباني في الضعيفة (ح٣٤٦) وقال : "في إسناده اضطراب وضعف ؟ ". قال : "نعم معنى الحديث صحيح من حيث دلالته على كرهه القيام للرجل إذا دخل ، وقد جاء ذلك في حديث صحيح صريح " وذكر حديث أنس التالي ذكره . الضعيفة ٢/٣٥٢ .

وقال أنس : (لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ قال : وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له ؛ لما يعلمون من كراهته لذلك)[١] ، ولما سجد له معاذ نهاه ، وقال : ((إنه لايصلح السجود إلا لله ، ولو كنت آمراً احداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها)) [٢] وقال : ((من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت))[٣] ، وقال : ((من حلف بغير الله فقد أشرك)) [٤] ، وقال لابن عباس : ((إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، جف القلم بما أنت لاق ؛ فلو جهدت الخليقة على أن تنفعك لم تنفعك إلا بشيء كتبه الله لك ، ولو جهدت أن تضرك لم تضرك إلا بشيء كتبه الله عليك))[٥] وقال أيضاً : ((اللهم لاتجعل قبري وثناً يعبد))[٦] وقال : ((لا تتخذوا قبري عيداً وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث ماكنتم)) [٧] وقال في مرضه : ((لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبياءهم مساجد يحذر ما صنعوا ، قالت عائشة ــ رضي الله عنها ــ ولولا ذلك لأبرز قبره ؛ ولكن كره أن يتخذ مسجداً))[٨]... [٩]

(وهكذا سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإنهم لا يدعون أحداً يشرك بهم بحضورهم ؛ بل ينهونهم عن ذلك ويعاقبونهم عليه ، ولهذا قال المسيح ــ عليه السلام ــ ﴿ ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم ، وكنت عليهم

---

(١) رواه الترمذي في الأدب (ح٢٧٥٤) وقال هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه ، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (ح ٤٩٩) مع الشرح ٣١٣/٢ ، وقال الألباني : سنده صحيح على شرط مسلم . الضعيفة ٣٥٢/١ وصحيح الأول المفرد .

(٢) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٣) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٤) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٥) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٦) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٧) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٨) رواه البخاري في الصلاة (ح٤٣٦) ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (ح٥٣١) والنسائي في المساجد (ح٧٠٣) والدارمي في الصلاة (ح١٤٠٣) .

(٩) انظر الفتاوى ١٣٦/١ . والفتاوى الكبرى ٥٦/١ وإقتضاء الصراط المستقيم ٣٤٣/١ .

شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ﴾ (١)

وكذا سائر الصالحين فإنهم لا يتركون أحداً يعبدهم بحضورهم ، ولهذا لما أتي علي بالزنادقة الذين غلوا فيه واعتقدوا فيه الإلهية أمر بتحريقهم بالنار .

وهذا هو شأن أنبياء الله وأوليائه ، وإنما يقر على الغلو فيه وتعظيمه بغير حق من يريد علواً في الأرض وفساداً ، كفرعون ونحوه ، ومشائخ الضلال الذين غرضهم العلو في الأرض والفساد ، والفتنة بالأنبياء والصالحين ، واتخاذهم أرباباً من دون الله والإشراك بهم مما يحصل في مغيبهم وفي مماتهم كما أشرك بالمسيح وعزير ...)(٢)

كما قطع الله دابر الشرك في كتابه ، (وحسم مواد الإشراك حتى لا يخاف أحد غير الله ، ولا يرجى سواه ، ولا يتوكل إلا عليه ، وقال تعالى : ﴿ فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ﴾ (٣) ﴿ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه ﴾ أي يخوفكم أولياءه ﴿ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾(٤)وقال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ﴾ (٥) وقال تعالى : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الاخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله ﴾ (٦) وقال تعالى : ﴿ ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴾ (٧) فبين أن الطاعة لله ورسوله ، وأما الخشية فلله وحده ...)(٨)

---

(١) سورة المائدة ١١٧ .

(٢) انظر الفتاوى ٢٧/٨٠-٨١ بتصرف .

(٣) سورة المائدة ٤٤ .

(٤) سورة ال عمران ١٧٥ .

(٥) سورة النساء ٧٧ .

(٦) سورة التوبة ١٨ .

(٧) سورة النور ٥٢ .

(٨) الفتاوى ١/١٣٥-١٣٦ .

والمقصود أن النبي ﷺ نهى عن الشرك وحذر منه ، بل وسد كل باب أو وسيلة تؤدي إلى الوقوع فيه ، وبالغ في إظهار ذلك أكثر من غيره ، حتى أنه وفي مرض موته أخذ يلعن الذين يتخذون القبور مساجد ، ويحذر ما فعله اليهود والنصارى من الغلو في أنبياءهم ، وسيتبين ذلك من خلال المباحث التالية :



المبحث الأول: اتخاذ القبور مساجد

اتخاذ القبور مساجد :

لقد وضح شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ أنه لما كان مبدأ الشرك في العالم من عبادة البشر الصالحين ، وعبادة تماثيلهم وكذلك حذر الله من ذلك وسد أبوابه كما تقدم .

وإن من أوضح الأمثلة على ذلك ما وقع فيه قوم نوح حيث عظموا الصالحين وصوروا صورهم وبنوا عليها مساجد مما أدى بهم في النهاية إلى عبادتها ، فكان هذا مبدؤه من عبادة الصالحين وإن كان من المشركين من كان يعبد الشمس أو القمر أو سوى ذلك من الكواكب ، أو كان يعبد الملائكة أو الأنبياء أو غيرها ؛ لأن الشيطان يجر الناس من هذا إلى غيره ؛ لكن هذا أقرب إلى الناس ؛ لأنهم يعرفون الرجل الصالح وبركته ودعاءه ، فيعكفون على قبره ، ويقصدون ذلك منه ، فتارة يسألونه ، وتارة يسألون الله به ، وتارة يصلون ويدعون عند قبره ظانين أن الصلاة والدعاء عند قبره أفضل منه في المساجد والبيوت . ولأجل هذا نهي الناس عن اتخاذ القبور مساجد ، لئلا يقصد الناس صاحب القبر بشيء من العبادات [1] .

قال رحمه الله تعالى : (نهى النبي ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد وعن الصلاة إليها ، ولعن اليهود والنصارى لكونهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ؛ لأن هذا كان هو أول أسباب الشرك في قوم نوح ، قال الله تعالى عنهم : ﴿ وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً وقد أضلوا كثيراً ﴾ [2] قال ابن عباس وغيره من السلف : هؤلاء كانوا قوماً صالحين في قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم عبدوهم[3] ، فهو ﷺ لكمال نصحه لأمته حذرهم من أن يقعوا فيما وقع فيه المشركون وأهل الكتاب ، فنهاهم عن اتخاذ القبور مساجد ، وعن الصلاة إليها لئلا يتشبهوا بالكفار ، كما نهاهم عن الصلاة وقت

---

(١) انظر الفتاوى ١٧/٤٦٠-٤٦١ .

(٢) سورة نوح ٢٣ .

(٣) أخرجه البخاري في التفسير (٤٩٤٠) .

طلوع الشمس ووقت غروبها لئلا يتشبهوا بالكفار)[١] . ولكونها سبب من أسباب الشرك التي خاف النبي ﷺ أن تعبد لأجل ذلك السبب .

وبين رحمه الله أن المساجد إنما شرعت ، وأمرت الأمة ببنائها لأجل العبادة الخالصة لله وحده ، (فالصلاة قد شرع للأمة أن تتخذ لها مساجد ، وهي أحب البقاع إلى الله ، كما ثبت عنه ﷺ في صحيح مسلم وغيره أنه قال : ((أحب البقاع إلى الله المساجد ، وأبغض البقاع إلى الله الأسواق .) [٢] ولهذا كانت عمارتها من أفضل القربات إلى الله ــ عز وجل ــ فإذا ما خالطها قصد آخر ، كانت مشوبة ، كمن يبنى مسجداً على قبر ونحوه ، فإن هذا هو موضع النهي ، والله جل وعلا إنما أراد أن تكون المساجد خالصة له وحده ، تبنى لأجل عبادته فقط لا يشركه في ذلك مخلوق ، فإذا بُنِيَ مسجد لأجل ميت كان حراماً ، وكذلك إذا كان لأثر آخر [من آثار الصالحين] ، فإن الشرك في الموضعين حاصل .

ولهذا كانت النصارى يبنون الكنائس على قبر النبي والرجل الصالح وعلى أثره وباسمه ، وهذا الذي خاف عمر ــ رضي الله عنه ــ أن يقع فيه المسلمون[٣] ، وهو الذي قصد النبي ﷺ منع أمته منه ، كما قال الله تعالى : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين ﴾ [٥] وقال تعالى : ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ، أولئك حبطت أعمالهم وفي النار

---

(١) الفتاوى ٣٢٧/٢٧ - ٣٢٩ . وانظر ١٢٤/٢٧ ، ٣٩٨ ، ٣٢١/١ .

(٢) الفتاوى ٤٠٣/٢٧ . وانظر ٢٩٠/١١

(٣) وذلك حينما عثر على قبر دانيال ، فأمر بحفر ثلاثة عشر قبراً ودفنه في أحدها في الليل ، ودفن الباقي ، تعمية لموقع قبره حتى لا يتخذ مسجداً . رواه البيهقي في دلائل النبوة ٣٨١/١ ــ ٣٨٢ ، ٣٩٠ وذكرها شيخ الإسلام في الاقتضاء ٦٧٩/٢ ــ ٦٨٠ ، وابن كثير في البداية والنهاية ٤٠/٢ وقال : إسناده صحيح إلى أبي العالية .

(٤) سورة الجن ١٨ .

(٥) سورة الأعراف ٢٩ .

هم خالدون ، إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين[(١)] ﴾[(٢)] ...[(٣)]

وقد اتفق أئمة الإسلام على تحريم اتخاذ القبور مساجد وعلى أنه لا يشرع بناء المساجد على القبور ، ولا تشرع الصلاة عند القبور ؛ بل كثير من العلماء يقول الصلاة عندها باطلة [(٤)]

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ أن اتخاذ القبور مساجد يتناول شيئين :

أحدهما : أن يبني عليها مسجداً .

والثاني : أن يصلي عندها من غير بناء .

لقد ورد النهي والتحذير الشديد من النبي ﷺ بالنهي عن بناء المساجد على القبور أو اتخاذ القبور مساجد تقصد للعبادة والتقرب ، وكرر شيخ الاسلام ـ رحمه الله تعالى ـ ذكر تلك النصوص مؤكداً ومقرراً أن ذلك من أعظم الوسائل التي صرفت كثيراً من الناس عن عبادة الله إلى عبادة غيره ، فقال ـ رحمه الله ـ

في بيان الأمر الأول بعد أن ذكر أن هذه الأمة ستتبع سنن من كان قبلها كما أخبر الصادق المصدوق بذلك في قوله ﷺ : ((لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه ، قالوا : يارسول الله اليهود والنصارى ؟ قال : فمن !)) [(٥)] وقوله ﷺ : ((لتأخذن أمتي مأخذ الأمم قبلها :

---

(١) قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ يقول تعالى ذكره : " إنما يعمر مساجد الله المصدق بوحدانية الله المخلص له العبادة ﴿ واليوم الآخر﴾ يقول : الذي يصدق ببعث الموتى أحياء من قبورهم يوم القيامة ، وأقام الصلاة المكتوبة بحدودها ، وأدى الزكاة الواجبة عليه في ماله إلى من أوجبها لله له ، ﴿ ولم يخش إلا الله ﴾ يقول : ولم يرهب عقوبة شيء على معصيته إياه سوى الله ﴿ فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾ يقول : فخليق بأولئك الذين هذه صفتهم أن يكونوا عند الله ممن قد هداه الله للحق وإصابة الصواب ." ثم ساق بسنده عن ابن عباس في معنى عمارة المساجد أن المقصود بها من وحد الله وأخلص في عبادته له . جامع البيان ٦/١٠/ص٩٤ .

(٢) سورة التوبة ١٨ .

(٣) الفتاوى ٥٠٣/٢٧ .

(٤) انظر الفتاوى ٢٨٩/٣ .

(٥) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، قالوا : يارسول الله فارس والروم ؟ قال : فمن الناس إلا هؤلاء ؟)) [١]

قال ـ رحمه الله ـ بعد ذلك : (ومشابهتهم في الشرك بقبور الأنبياء والصالحين هو من مشابهتهم التي حذر منها أمته قبل موته في صحته ومرضه .

وفي صحيح مسلم عن جندب بن عبد الله قال : سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس يقول : ((إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل ، فإن الله قد اتخذني خليلاً ، كما اتخذ ابراهيم خليلاً ، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لا اتخذت أبا بكر خليلاً ، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك)) [٢] .

وأما لعنه لمن فعل ذلك ففي الصحيحين عن عائشة وابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قالا : لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة[٣] على وجهه ، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه ، ، فقال وهو كذلك : ((ألا لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) يحذر ما صنعوا [٤]. وفي الصحيحين عن عائشة قال : قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي لم يقم منه : ((لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) قالت عائشة : ولولا ذلك لأبرز قبره ؛ غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً ، وفي لفظ : غير أنه خُشَيَ أو خَشِيَ . [٥]

وفي الصحيح أيضاً عن أبي هريرة : أن النبي ﷺ قال : ((لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد))[٦] هذا لفظ مسلم ، وله وللبخاري : ((قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم

---

(١) رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (ح٧٣١٩) وابن ماجه في الفتن (ح٣٩٩٤) .

(٢) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث . .

(٣) الخميصة : " ثوب خَزٍّ أو صوف مُعَلَّم ، وقيل لا تسمى خميصة إلا أن تكون سوداء مُعَلَّمة ، وكانت لباس الناس قديماً ، وجمعها الخمائص " النهاية في غريب الحديث ٨١/٢ .

(٤) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث . .

(٥) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث . .

(٦) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث . .

مساجد))[١] وفي الصحيحين عن عائشة : أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بأرض الحبشة فيها تصاوير لرسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : ((إن أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ، وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة)) [٢]

وفي المسند وصحيح أبي حاتم عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال : ((إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد))[٣]...)[٤]

(وعائشة ـ رضي الله عنها ـ صاحبة الحجرة النبوية قد روت أحاديث هذا الباب مع مشاركة غيرها من الصحابة كابن عباس وأبي هريرة وجندب وابن مسعود وغيرهم ...

وفي سنن أبي داود عنه ﷺ أنه قال : ((لا تتخذوا قبري عيداً ، وصلوا علي حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغني))[٥] وفي موطأ مالك عن النبي ﷺ أنه قال : ((اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد))[٦] وفي سنن أبي سعيد بن منصور أن عبد الله بن حسن بن حسين بن علي بن أبي طالب ـ أحد الأشراف الحسنيين بل أجلهم قدراً في عصر تابعي التابعين في خلافة المنصور وغيره ـ رأى رجلاً يكثر الاختلاف إلى قبر النبي ﷺ فقال :

---

(١) رواه البخار في الصلاة (ح ٤٣٧) ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (ح٥٣٠) .

(٢) رواه البخار في الصلاة (ح٤٣٤) ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (ح٥٢٨) والنسائي في المساجد (ح٧٠٤) .

(٣) رواه أحمد ٤٧٥/١ وابن أبي شيبة في المصنف ٣٤٥/٣ وابن خزيمة في صحيحه (ح٧٨٩) وابن حبان (ح٣٤٠ ، ٣٤١) وقال شيخ الإسلام اسناده جيد انظر الاقتضاء ٣٣٠ وكذا شيخ الاسلام ابن عبد الوهاب في باب التغليظ فيـن عبد الله عند قبر رجل صالح ، وقال الهيثـي في المجمع : " اسناده حسن " وذكر أوله البخاري رحمه الله معلقاً عن ابن مسعود انظر (ح٧٠٦٧) .

(٤) الفتاوى ٢٨٦/٢٧-٢٨٨ . وانظر ٣٨١/٢٧ ، ٣١ ، ٦١ ، ١٢١ ، ١٠٩ ، ١٤٦ ، ٣٨١ ، ٣٩٨/٣ ، ٥٠٩/٤ ، ٢٩٠/١١, وإقتضاء الصراط المستقيم ٢٩٣/١-٢٩٤ ، و٦٥٦/٢-٦٥٧ .

(٥) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث . .

(٦) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث . .

ياهذا ، إن رسول الله ﷺ قال : ((لا تتخذوا قبري عيداً وصلوا علي حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغني)) فما أنت ورجل بالأندلس إلا سواء)[1]...)[2]

وقال ـ رحمه الله ـ موضحاً معنى اتخاذ القبور مكاناً للعبادة ببناء أو بغير بناء فقد وضح شيخ الاسلام ـ رحمه الله ـ ذلك بقوله : (اتخاذ المكان مسجداً هو : أن يتخذ للصلوات الخمس وغيرها ، كما تبنى المساجد لذلك ، والمكان المتخذ مسجداً إنما يقصد فيه عبادة الله ودعاؤه ، لا دعاء المخلوقين .

فحرم ﷺ أن تتخذ قبورهم مساجد بقصد الصلوات فيها كما تقصد المساجد ، وإن كان القاصد لذلك إنما يقصد عبادة الله وحده ؛ لأن ذلك ذريعة إلى أن يقصدوا المسجد لأجل صاحب القبر ودعاءه والدعاء به ، والدعاء عنده ، فنهى رسول الله ﷺ عن اتخاذ هذا المكان لعبادة الله وحده لئلا يتخذ ذريعة إلى الشرك بالله.

والفعل إذا كان يفضي إلى مفسدة وليس فيه مصلحة راجحة ينهى عنه كما نهى عن الصلاة في الأوقات الثلاثة لما في ذلك من المفسدة الراجحة ، وهو التشبه بالمشركين الذي يفضي إلى الشرك ، وليس في قصد الصلاة في تلك الأوقات مصلحة راجحة لإمكان التطوع في غير ذلك من الأوقات ...

فإذا كان نهيه عن الصلاة في هذه الأوقات لسد ذريعة الشرك لئلا يفضي ذلك إلى السجود للشمس ودعائها وسؤالها ـ كما يفعله أهل دعوة الشمس والقمر والكواكب الذي يدعونها ويسألونها ـ كان معلوماً أن دعوة الشمس والسجود لها هو محرم في نفسه أعظم تحريماً من الصلاة التي نهى عنها لئلا يفضى إلى دعاء الكواكب .

كذلك لما نهى عن اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد فنهى عن قصدها للصلاة عندها لئلا يفضى ذلك إلى دعائهم والسجود لهم ـ كان دعاؤهم والسجود لهم

---

(١) أخرجه بهذا الإسناد اسماعين بن إسحاق القاضي في فضل الصلاة على النبي (ح٣٠) وليس فيه (وما أنت ورجل بالأندلس إلا سواء) وأخرجه بإساد آخر (ح ٢٠) على اختلاف يسير في لفظه ، كما أخرجه البزار في مسنده عن علي بن أبي طالب (ح٧٠٧) وقد تقدم نحوه عن علي بن الحسين عن أبيه عن جده انظر ص٦٢٢ .

(٢) الفتاوى ٣٨٢/٢٧-٣٨٣ . وانظر٣١/٢٧ ، ٦١ ، ١٠٩ ، ١٢١ ، ٥١٩/٤-٥٢٦ ، ٢٠٢/١٠ ، ٢٧٤/٣ .

أعظم تحريماً من اتخاذ قبورهم مساجد ...)[١] وذكر أن ما يرويه بعض الناس من أنه ﷺ صلى بمسجد الخليل ، أو صلي عند قبر الخليل ، فإن هذا الحديث غير ثابت عند أهل العلم ، وإن كان قد ذكر ذلك طائفة توصف بالصلاح[٢] ؛ بل الذي في الصحيحين أنه صلي في بيت المقدس[٣] . [٤]

وهذا ما خافه النبي ﷺ على قبره وخافته الصحابة حينما دفنوه بارزاً : خافوا أن يصل عنده فيتخذ قبره مسجدا (ولهذا لما أدخلت الحجرة في مسجده المفضل في خلافة الوليد بن عبد الملك .. بنوا عليها حائطاً وسنموه وحرفوه لئلا يصلي أحد إلى قبره الكريم ﷺ ، وفي موطأ مالك عنه أنه قال : ((اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) [٥] . وقد استجاب الله دعوته ؛ فلم يتخذ و لله الحمد وثناً كما اتخذ قبر غيره ، بل ولا يتمكن أحد من الدخول إلى حجرته بعد أن بنيت الحجرة ، وقبل ذلك ما كانوا يمكنون أحداً من أن يدخل إليه ليدعو عنده ، ولا يصلي عنده ، ولا غير ذلك مما يفعل عند قبره غيره ؛ لكن من الجهال من يصلي إلى حجرته ، أو يرفع صوته أو يتكلم بكلام منهي عنه ، وهذا إنما يفعل خارجاً عن حجرته لا عند قبره ، وإلا فهو و لله الحمد استجاب الله دعوته فلم يُمَكَّن أحد قط أن يدخل إلى قبره فيصلي عنده أو يدعو أو يشرك به كما فعل بغيره اتخذ قبره وثناً ، فإنه في حياة عائشة ـ رضي الله عنها ـ ما كان أحد يدخل إلا لأجلها ، و لم تكن تُمَكِّنَ أحداً أن يفعل عند قبره شيئاً مما نهي عنه ، وبعدها كانت مغلقة إلى أن أدخلت في المسجد فسد بابها وبني عليها حائط آخر .

---

(١) الفتاوى ١/١٦٣-١٦٤ . وانظر منهاج السنة ١/٤٧٦-٤٧٨ ، وإقتضاء الصراط المستقيم ٢/٦٧٦-٦٨٧.

(٢) فقد رواه النسائي ـ رحمه الله ـ في كتاب الصلاة (ح ٤٥٠) .

(٣) رواه مسلم في الإيمان (ح١٦٢) ، وأصله في البخاري في الصلاة (ح٣٤٩) وفي المناقب (ح٣٨٨٧) وغيرها . والنسائي في الصلاة (ح٤٥٠) . وأحمد بلفظ : " قال أتيت بالبراق وهو دابة ... " .

(٤) الفتاوى ٢٧/١٦٠-١٦١ . وانظر ١/١٦٣ . إقتضاء الصراط المستقيم ٢/٨١٤ .

(٥) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث . .

كل ذلك صيانه له ﷺ أن يتخذ بيته عيداً وقبره وثناً ، وإلا فمعلوم أن أهل المدينة كلهم مسلمون ، ولا يأتي إلى هناك إلا مسلم ، وكلهم معظمون للرسول ﷺ ، وقبور آحاد أمته في البلاد معظمة ، فما فعلوا ذلك ليستهان بالقبر المكرم ، بل فعلوه لئلا يتخذ وثناً يعبد ، ولا يتخذ بيته عيداً ، ولئلا يفعل به كما فعل أهل الكتاب بقبور أنبيائهم ...

وهو ﷺ إنما نهى عن ذلك سداً للذريعة .. لئلا يفضي ذلك إلى الشرك ودعا الله ـ عز وجل ـ أن لا يتخذ قبره وثناً يعبد ، فاستجاب الله دعاءه ﷺ ، فلم يكن مثل الذين اتخذت قبورهم مساجد ، فإن أحداً لا يدخل عند قبره البتة ، فإن من كان قبله من الأنبياء إذا ابتدع أممهم بدعة بعث الله نبياً ينهى عنها ، وهو ﷺ خاتم الأنبياء لا نبي بعده ، فعصم الله أمته أن تجتمع على ضلالة ، وعصم قبره المكرم أن يتخذ وثناً ، فإن ذلك والعياذ بالله لو فعل لم يكن بعده نبي ينهى عن ذلك ، وكان الذين يفعلون ذلك قد غلبوا الأمة ، وهو ﷺ قد أخبر أنه لا تزال طائفة من أمته ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم إلى يوم القيامة ، فلم يكن لأهل البدع سبيل أن يفعلوا بقبره المكرم كما فعل بقبور غيره ﷺ .) [١]

وقد بين شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ أن قصد القبور للدعاء عندها أو بها محرم إلا أنه بين أن الدعاء عند القبور يمكن أن يقسم إلى قسمين :

(أحدهما : أن يحصل الدعاء بحكم الاتفاق لا لقصد الدعاء فيها كمن يدعو الله في طريقه ويتفق أن يمر بالقبور ، أو كمن يزورها فيسلم عليها ويسأل الله العافية له وللموتى ، كما جاءت به السنة فهذا أو نحوه لا بأس به .

والثاني : أن يتحرى الدعاء عندها بحيث يستشعر أن الدعاء هناك أجوب منه في غيره ، فهذا النوع منهي عنه إما نهي تحريم أو تنزيه ، وهو إلى التحريم أقرب . والفرق بينهما ظاهر ، فإن الرجل لو كان يدعو الله واجتاز في ممره بصنم او صليب أو كنيسة أو كان يدعو في بقعة وهناك صليب هو عنه ذاهل ، أو دخل كنيسة ليبيت فيها

---

(١) الفتاوى ٢٧/٣٢٧ - ٣٢٩ .

مبيتاً جائزاً ودعا الله في الليل ، أو باب في بيت بعض أصدقائه ودعا الله لم يكن بهذا بأس .

ولو تحرى الدعاء عند صنم أو صليب أو كنيسة يرجو الإجابة بالدعاء في تلك البقعة ، لكان هذا من العظائم ؛ بل لو قصد بيتاً ، أو حانوتاً في السوق ، أو بعض عواميد الطرقات يدعو عندها يرجوا الإجابة بالدعاء عندها ؛ لكان هذا من المنكرات المحرمة . إذا ليس للدعاء عندها فضل ، فقصد القبور للدعاء عندها من هذا الباب ؛ بل هو أشد من بعضه ؛ لأن النبي ﷺ نهى عن اتخاذها مساجد ، واخاذها عيداً ، وعن الصلاة عندها ، بخلاف كثير من هذه المواضع .

ومما يرويه بعض الناس من أنه قال : ((إذا أعيتكم الأمور فاستعينوا بأهل القبور)) أو نحو هذا فهو كلام موضوع مكذوب باتفاق العلماء .[١]

والذين يبين ذلك أمور :

أحدها : أنه قد تبين أن العلة التي نهى النبي ﷺ لأجلها عن الصلاة عندها إنما هو لئلا تتخذ ذريعة إلى نوع من الشرك ، بالعكوف عليها ، وتعلق القلوب بها رغبة ورهبة .

ومن المعلوم أن افتتان المضطر في الدعا الذي نزلت به نازلة بالقبور حاله أعظم من المصلين عند القبور في حالة العافية ، إذ أن قلوبهم لا تكاد تفتتن بذلك إلا قليلاً . أما الداعون المضطرون فأعظم فتنة ، فإذا كانت المفسدة والفتنة التي لأجلها نهى عن الصلاة متحققة في حال هؤلاء كان نهيهم عن ذلك أوكد وأوكد ، وهذا واضح لمن فقه في دين الله وتبينت له سنة إما المتقي في تجريد التوحيد ونفي الشك بكل طريق .

الثاني : أن قصد القبور للدعاء عندها ، ورداء الإجابة بالدعاء هنالك ، رجاء أكثر من رجائها بالدعاء في غير ذلك الموطن — أمر لم يشرعه الله ولا رسوله ﷺ ولا فعله أحد من الصحابة ولا التابعين ، ولا أئمة المسلمين ، ولا ذكره أحد من العلماء ، ولا الصالحين المتقدمين ؛ بل أكثر ما ينقل من ذلك عن بعض المتأخرين بعد المائة الثانية .)[٢]

---

(١) انظر الفتاوى ٣٥٦/١ ، ٢٩٣/١١ .

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ٦٧٦/٢-٦٧٨ بتصرف يسير في بعضه . وانظر ص ٦٨١ .

ومما تقدم يتضح لنا أن النبي ﷺ نهى عن اتخاذ القبور مساجد سداً لذريعة الشرك ، كما نهى عن الصلاة في الأوقات التي كان المشركون يصلون فيها للشمس ونحوها لئلا تقع الأمة في المشابهة والشرك .

كما اتضح من كلام شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ أن اتخاذ القبور مساجد يكون على شقين:

الشق الأول : بالبناء على نفس القبور تعظيماً لشأنها ، وإظهاراً لقبر المقبور .

والشق الثاني : اتخاذها مساجد بالصلاة إليها ، أو عندها ، أو تحري الدعاء والعبادة عندها وإن لم يكن عليها بناء ، وقد حفظ الله قبره ﷺ من ذلك كله .

وهذا كله محرم منهي عنه لكونه من الأسباب المفضية إلى الشرك . والله تعالى أعلم .



المبحث الثاني : زيارة القبور وشد الرحال إليها

زيارة القبور وشد الرحال إليها :

وردت نصوص تنهى عن زيارة القبور ، ونصوص أخرى تبيح ذلك ، ونصوص تحرمها على النساء دون الرجال ، ولهذا تنازع العلماء في حكم زيارة القبور ، فكيف بما هو أعظم من ذلك من الصلاة عندها والدعاء وطلب الحاجات من أصحابها ونحو ذلك .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـــ رحمه الله تعالى ـــ (تنازع المسلمون في زيارة القبور[١] ، فقال طائفة من السلف إن ذلك كله منهي عنه لم ينسخ ، فإن أحاديث النسخ لم يروها البخاري ، ولم تشتهر ، ولما ذكر البخاري زيارة القبور احتج بحديث المرأة التي بكت عند القبر ، ونقل ابن بطال عن الشعبي أنه قال : لولا أن رسول الله ﷺ نهى عن زيارة القبور لزرت قبر ابني .

وقال النخعي : كانوا يكرهون زيارة القبور[٢]، وعن ابن سيرين مثله .

قال ابن بطال : وقد سئل مالك عن زيارة القبور فقال ؛ قد كان نهى عنها عليه السلام ثم أذن فيها ، فلو فعل ذلك إنسان ولم يقل إلا خيراً لم أر بذلك بأساً ، وليس من عمل الناس ، وروي عنه أنه كان يضعف زيارتها .

وكان النبي ﷺ قد نهى أولا عن زيارة القبور باتفاق العلماء . فقيل : لأن ذلك يفضي إلى الشرك ، وقيل لأجل النياحة عندها ، وقيل لأنهم كانوا يتفاخرون بها ، وقد ذكر طائفة من العلماء في قوله تعالى : ﴿ ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر ﴾ [٣] أنهم كانوا يتكاثرون بقبور الموتى . وممن ذكره ابن عطية في تفسيره ، قال : وهذا تأنيب على الإكثار من زيارة القبور ، أي حتى جعلتم أشغالكم القاطعة لكم عن العبادة والعلم زيارة القبور تكثراً بمن سلف ، وإشادة بذكره . ثم قال النبي ﷺ : ((كنت نهيتكم عن زيارة

---

(١) (وهذا النزاع نزاع مرجوح والصحيح أنها مستحبه) الرد على الأخنائي ١٣ .

(٢) إلا أن كراهة السلف لذلك لا لذات الزيارة وإنما لخوف ما يترتب على ذلك من محظور ، كما سيأتي تبيين الشيخ ـ رحمه الله ـ له .

(٣) سورة التكاثر ١-٢ .

القبور فزوروها ولا تقولوا هُجْراً [(١)])) [(٢)] فكان نهيه في معنى الآية . ثم أباح الزيارة بعد لمعنى الاتعاظ لا لمعنى المباهات والتفاخر [كما يصنع الناس في ملازمتها وتسنيمها] [(٣)] بالحجارة والرخام ، وتلوينها سرفاً ، وبنيان النواويس[(٤)] عليها ، هذا لفظ ابن عطية [(٥)] .

والمقصود أن العلماء متفقون على أنه ﷺ كان نهى عن زيارة القبور ، ونهى عن الانتباذ[(٦)] في الدباء[(٧)] والحنتم[(٨)] والمزفت[(٩)] والمقير[(١٠)] .[(١١)]

واختلفوا هل نسخ ذلك ؟

فقالت طائفة : لم ينسخ ذلك ؛ لأن أحاديث النسخ ليست مشهورة ، ولهذا لم يخرج أبا عبد الله البخاري ما فيه نسخ عام .

---

(١) هُجْراً : أي فحشاً يقال : أهجر في منطقه يهجر هجاراً إذا فحش . النهاية ٢٤٥/٥ .

(٢) ذكره الشيخ ـ رحمه الله ـ هنا مختصراً ، وقد رواه النسائي مطولاً في الجنائز (ح٣٠٣٣) وأخرج مسلم نحوه في الأضاحي (ح٩٧٧، ١٩٧٧) وأبو داود في الجنائز (ح٣٢٣٥) .

(٣) الصاوي ٥١٨/٥ .

(٤) النوس : هو تذبذب الشيء ، ناس الشيء ينوس نوساً ونوساً ، تحرك وتذبذب متدلاً ، ونوس بالمكان أقام ، والناووس : مقابر النصاري . انظر اللسان مادة نوس ٢٤٥/٦ . ولعل المراد أنهم يبالغون في تزيين القبور وزخرفتها بما جاء ت الشريعة بتحريمه . والله أعلم .

(٥) انظر تفسير ابن عطية ، المحور الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٥١٨/٥ .

(٦) معنى الانتباذ في هذه الأوعية بخصوصها ؛ لأنه يسرع فيه الاسكار ، فربما شرب منها من لا يشعر بذلك . الفتح ١٥٣/١ .

(٧) الدباء : القرع ، فقد كانوا ينتبذون فيها ، فنهى النبي ﷺ عن ذلك ، وفي نَسْخِهِ خلاف على قولين .

(٨) الحنتم : جرارٍ مدهونة خضر ، كانت تحمل الخمر فيها إلى المدينة ، ثم اتسع فيه فقيل للخزف كله واحدتها حنتمة " النهاية ٤٤٨/١ .

(٩) المزفت هو : الإناء الذي طلي بالزفت ، وهو نوع من القار ثم انتبذ فيه . النهاية ٣٠٤/٢ .

(١٠) الْمُقَيَّرُ : " ما طلي بالقار ، وقال له القير ، وهو نبت يحرق إذا يبس تطلى به السفن وغيرها كما تطلى بالزفت" ، وجاء تفسير هذه الأربع عن أبي بكرة في مسند أبو داود الطيالسي قال عنه ابن حجر اسناده حسن ، وقال : وتفسير الصحابي أولى أن يعتمد عليه من غير لأنه أعلم بالمراد . الفتح ١٥٢/١-١٥٣ .

(١١) وقد روى البخارى وغيره عن ابن عباس في الإيمان (ح٥٣) ومسلم في الإيمان (ح١٧) في حديث وفد عبد القيس لما أتو إلى النبي ﷺ فنهاهم " عن أربع : عن الحنتم وعن الدباء والنقير والمزفت وربما قال : والمقير ، وقال احفظوهن وأخبروا بهن من وراءكم " وهذا لفظ البخاري . ورواه غيرهم .

وقال الآخرون : بل نسخ ذلك . ثم قالت طائفة منهم إنما نسخ إلى الإباحة ، فزيارة القبور مباحة لا مستحبة ، وهذا قول في مذهب مالك وأحمد .

قالوا : لأن صيغة إفعل بعد الحظر إنما تفيد الإباحة ، كما قال ﷺ في الحديث الصحيح : ((كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فزوروها . وكنت نهيتكم عن الانتباذ في الأوعية فانتبذوا ولا تشربوا مسكراً))(١) وروي ((فزوروها ولا تقولوا هجراً))(٢) وهذا يدل على أن النهي كان لما كان يقال عندها من الأقوال المنكرة سداً للذريعة ، كالنهي عن الانتباذ في الأوعية أولاً ؛ لأن الشدة المطربة تدب فيها ولا يدري بذلك ، فيشرب الشارب الخمر وهو لا يدري .

وقال الأكثرون : زيارة قبور المؤمنين مستحبة للدعاء للموتى مع السلام عليهم كما كان النبي ﷺ يخرج إلى البقيع فيدعو لهم . وكما ثبت عنه ﷺ في الصحيحين أنه خرج إلى شهداء أحد فصلى عليهم صلاته على الموتى كالمودع للأحياء والأموات (٣). وثبت عنه ﷺ في الصحيح أنه كان يعلم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقولوا : ((السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين ...))(٤) ...

والأقوال الثلاثة صحيحة باعتبار ؛ فإن الزيارة إذا تضمنت أمراً محرماً من شرك أو كذب أو ندب أو نياحة وقول هجر فهي محرمة بالإجماع ، كزيارة المشركين با لله والساخطين لحكم ا لله ، فإن هؤلاء زيارتهم محرمة ، فإنه لا يقبل دين إلا دين الاسلام ...

والنوع الثاني : زيارة القبور لمجرد الحزن على الميت ، لقرابته أو صداقته ، فهذه مباحة كما يباح البكاء على الميت بلا ندب ولا نياحة . كما زار النبي ﷺ قبر أمه

---

(١) رواه مسلم في الاشربة (ح٩٧٧) وأبو داود بنحوه في الأشربة (ح٣٦٩٨) والنسائي في الاشربة (ح٥٦٥٣) واللفظ له .

(٢) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث . .

(٣) رواه البخاري في الجنائز (ح١٣٤٤) ومسلم في الفضائل (٢٢٩٦) وأبو داود في الجنائز (ح٣٢٢٣) والنسائي الجنائز (ح١٩٥٤) .

(٤) رواه مسلم في الجنائز (ح٩٧٥) والنسائي في الجنائز (ح ٢٠٣٧، ٢٠٤٠) وابن ماجه في ما جاء في الجنائز (ح١٥٤٧)

فبكى وأبكى من حوله ، وقال : ((زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة)) [١] فهذه الزيارة كان نَهَى عنها لما كانوا يفعلون من المنكر ، فلما عرفوا الإسلام أذن فيها ؛ لأن فيها مصلحة ، وهو تذكر الموت ، فكثير من الناس إذا رأى قريبه وهو مقبور ذكر الموت واستعد للآخرة ، وقد يحصل منه جزع ، فيتعارض الأمران ، ونفس الحزن مباح ، إن قصد به طاعة كان طاعة ، وإن عمل معصية كان معصية .

وأما النوع الثالث : فهو زيارتها للدعاء لها كالصلاة على الجنازة فهذا هو المستحب الذي دلت السنة على استحبابه ؛ لأن النبي ﷺ فعله ، كان يعلم أصحابه ما يقولون إذا زاروا القبور .) [٢]

فاتضح من هذا أن زيارة القبور أمر مشروع وصحيح إذا خلا من المحظور واتبع فيه المشروع ، وعلى هذا فتكون زيارة القبور على شقين : شرعية وبدعية .

أنواع الزيارة :

بين شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك ووضحه حينما قسم الزيارة إلى قسمين :

زيارة شرعية ، وزيارة بدعية ، ثم وضح المراد بالزيارتين فقال :

(الزيارة الشرعية أي يكون مقصود الزائر الدعاء للميت ، كما يقصد بالصلاة على جنازته الدعاء له ، فالقيام على قبره من جنس الصلاة عليه ، قال الله تعالى في المنافقين : ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره ﴾ [٣] فنهى نبيه عن الصلاة عليهم والقيام على قبورهم لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم كافرون ، فلما نهى عن هذا وهذا لأجل هذه العلة وهي الكفر دل ذلك على انتفاء هذه العلة .

ودل تخصيصهم بالنهي على أن غيرهم يصلي عليه ويقام على قبره ، إذ لو كان هذا غير مشروع في حق أحد لم يخصوا بالنهي ؛ و لم يعلل ذلك بكفرهم ، ولهذا كانت

---

(١) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث . .

(٢) الفتاوى ٢٧/٣٧٥-٣٧٩ ، وانظ ٢٤/٣٤٣-٣٥٩ ، وإقتضاء الصراط المستقيم ٢/٦٦٤ .

(٣) سورة التوبة ٨٤ .

الصلاة على الموتى من المؤمنين ، والقيام على قبورهم من السنة المتواترة ، فكان النبي ﷺ يصلي على موتى المسلمين وشرع ذلك لأمته ، وكان إذا دفن الرجل من أمته يقوم على قبره ويقول : ((سلوا له التثبيت فإنه الآن يسأل))[(١)] ...

وكان يزور قبور أهل البقيع والشهداء بأحد ، ويعلم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقول أحدهم : ((السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وإنا إن شاء الله لنا ولكم العافية ، اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم))[(٢)] وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج إلى المقبرة فقال : ((السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لا حقون)) [(٣)] والأحاديث في ذلك صحيحة معروفة ، فهذه الزيارة لقبور المؤمنين مقصودها الدعاء لهم .

وهذه غير الزيارة المشتركة التي تجوز في قبور الكفار ... [(٤)]

وأما الزيارة البدعية فهي التي يقصد بها أن يطلب من الميت الحوائج ، أو يطلب منه الدعاء والشفاعة ، أو يقصد الدعاء عند قبره لظن القاصد أن ذلك أجوب للدعاء ، فالزيارة على هذه الوجوه كلها مبتدعة لم يشرعها النبي ﷺ ولا فعلها الصحابة لا عند قبر النبي ﷺ ولا عند قبر غيره ، وهي من جنس الشرك وأسباب الشرك .

ولو قصد الصلاة عند قبور الأنبياء والصالحين من غير أن يقصد دعائهم والدعاء عندهم مثل أن يتخذ قبورهم مساجد لكان ذلك محرماً منهياً عنه ، ولكان صاحبه متعرضاً لغضب الله ولعنته كما قال النبي ﷺ : ((اشتد غضب الله على قوم اتخذوا

---

(١) رواه أبو داود في الجنائز (ح٣٢٢١) ، وصححه الألباني في صحيح أبي داود ج ٢/٦٢٠ .

(٢) رواه مسلم في الجنائز (ح٩٧٥) وقد تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث . .

(٣) رواه مسلم في الجنائز (ح٩٧٤) .

(٤) وسيأتي بيانها قريباً بحول الله انظر ص ٦٤٥ .

قبور أنبيائهم مساجد)) يحذر ما صنعوا [(١)] . وقال : ((إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك)) [(٢)]

فإذا كان هذا محرماً ، وهو سبب لسخط الرب ولعنته ، فكيف بمن يقصد دعاء الميت والدعاء عنده وبه واعتقد أن ذلك من أسباب إجابة الدعوات ونيل الطلبات وقضاء الحاجات ؟ ! .

وهذا كان أول أسباب الشرك في قوم نوح وعبادة الأوثان في الناس ، قال ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ، ثم ظهر الشرك بسبب تعظيم قبور صالحيهم [(٣)] .) [(٤)]

الفرق بين الزيارتين :

ذكر شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ أن سورة الفاتحة اشتملت على الفرق ما بين الزيارة الشرعية و الزيارة البدعية . وذلك في قوله جل وعلا : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ (ولا يحقق ذلك إلا من فرق بين الزيارة الشرعية والزيارة البدعية .

فإن الزيارة الشرعية عبادة لله ، وطاعة لرسوله وتوحيد لله ، وإحسان إلى عباده ، وعمل صالح من الزائر يثاب عليه .

والزيارة البدعية : شرك بالخالق وظلم للمخلوق ، وظلم للنفس .

فصاحب الزيارة الشرعية هو الذي يحقق قوله : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ . ألا ترى أن اثنين لو شهدا جنازة ، فقام أحدهما يدعو للميت ، ويقول : اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه ، وأكرم نزله ، ووسع مدخله ، واغسله بماء وثلج وبرد .. ونحو ذلك من الدعاء له .

---

(١) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٢) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٣) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث . .

(٤) الفتاوى ١/١٦٥ـ١٦٧ . وانظر ص ٢٣٥ ، ٣٥٦ . ٢٤/٣٢٦-٣٢٨ ، ٣٤٣ وما بعده . ٢٦/١٤٨-١٤٩ ، وإقتضاء الصراط المستقيم ٢/٧٦٣ وما بعدها .

وقام الآخر فقال : ياسيدي أشكو لك ديوني ، وأعدائي وذنوبي ، أنا مستغيث بك ، مستجير بك ، أغثني ! ونحو ذلك ؛ لكان الأول عابداً لله ، ومحسناً إلى خلقه ، محسناً إلى نفسه بعبادة الله ونفعه عباده ، وهذا الثاني مشركاً مؤذياً ظالماً معتدياً على الميت ظالماً لنفسه .

فهذا بعض ما بين البدعية والشرعية من الفروق .

والمقصود أن صاحب الزيارة الشرعية إذا قال : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ كان صادقاً ؛ لأنه لم يعبد إلا الله ، ولم يستعن إلا به ، وأما صاحب الزيارة البدعية فإنه عبد غير الله واستعان بغيره .) [١]

وصاحب الزيارة البدعية غالباً ما ينزل حاجاته بالمقبور ، (فيسأله من الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله : مثل أن يطلب شفاء مريضه من الآدميين والبهائم ، أو وفاء دينه من غير جهة معينة ، أو عافية أهله وما به من بلاء الدنيا والآخرة ، وانتصاره على عدوه ، وهداية قلبه ، وغفران ذنبه ، أو دخوله الجنة ، أو نجاته من النار ، أو أن يتعلم العلم والقرآن ، أو أن يصلح قلبه ويحسن خلقه ويزكي نفسه ، وأمثال ذلك : فهذه الأمور كلها لا يجوز أن تطلب إلا من الله تعالى ، ولا يجوز أن يقول لملك ولا نبي ولا شيخ — سواء كان حياً أو ميتاً — اغفر ذنبي ولا انصرني على عدوي ولا اشف مريضي ولا عافني أو عاف أهلي أو دابتي ، وما أشبه ذلك .

ومن سأل ذلك مخلوقاً كائناً من كان فهو مشرك بربه ، من جنس المشركين الذين يعبدون الملائكة والأنبياء والتماثيل التي يصورونها على صورهم ، ومن جنس دعاء النصارى للمسيح وأمه ...) [٢]

فاتضح مما سبق أن زيارة القبور إذا كانت لأجل السلام على الموتى والدعاء لهم وتذكر الموت بالوقوف على حالهم فإن هذا مشروع قد سنه المصطفى بقوله وفعله . وهذه هي الزيارة الشرعية .

---

(١) الفتاوى ٢٦٣/٦-٢٦٤ .

(٢) الفتاوى ٦٦/٢٧-٦٧ .

وأما إذا كانت الزيارة للقبر لأجل أنه قبر صالح من نبي وغيره يرجى قبول الدعاء عند القبر أكثر مما يرجى قبوله في المسجد ، أو يعتقد أن للصلاة عند ذلك القبر مزية وفضل ، وهذا محرم ، فإن تجاوز ذلك وتعدى حدود الله بطلب الحاجات وكشف الكربات من صاحب القبر ، فإن هذا محرم لايجوز بالاتفاق ؛ بل هو شرك أكبر ، ومن فعله فقد خالف شرع الله وهدي رسوله ﷺ ، واقترف أكبر الكبائر .[١]

زيارة قبر الكافر :

وأما زيارة قبر الكافر للعبرة والاتعاظ فهذا أمر جائز (رخص فيها النبي ﷺ لأجل تذكار الآخرة [٢]، ولا يجوز الاستغفار لهم ، وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه زار قبر أمه فبكى وأبكى من حوله وقال : ((استأذنت ربي في أن أزور قبرها فأذن لي ، واستأذنته في أن استغفر لها فلم يأذن لي ، فزوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة)) [٣] ...)[٤]

فعل بعض العبادات عند القبور :

العبادات جعل الله لها أمكنة تؤدى فيها ، وخص أماكن أخرى بالنهي عن العبادة فيها أو عندها ، ويلحق فيها ما كان في الحكم قريباً منها ؛ كالأماكن التي استحسنها المبتدعة لأداء بعض الأنواع من العبادات والطقوس المبتدعة .

أولا : الدعاء والصلاة :

لقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله تعالى ــ أن الله حرم زيارة القبور لأجل فعل بعض العبادات عندها كالدعاء والصلاة ونحوها ، وذكر أن الإسلام نهى

---

(١) انظر الفتاوى ٣٧٩/٢٧ .

(٢) أما ما يفعله كثير من المسلمين اليوم من زيارة قبور الكفار ووضع الزهو عليها ونحو ذلك ، أو زيارة قبور الزنادقة والملاحدة ، أو حتى تكثير سواد الكفار بحضور جنائز موتاهم المعظمين منهم وغير المعظمين ، كل هذا أمر ممنوع قد ابتلي به بعض المسلمين ، انسياقاً وراء عادات وتقاليد الكفار ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

(٣) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٤) الفتاوى ٣٧٧/٢٧ .

مثل هذه الأمور وحذر منها لكونها من وسائل الشرك التي تؤدي إلى صرف العبادة لغير الله .

وذكر ـ رحمه الله تعالى ـ أن مما حرمه الله ـ ﷻ الذهاب إلى المقابر ـ سواء كانت مقابر الأنبياء أو ممن هو دونهم ـ لأجل طلب الدعاء من الموتى ونحو ذلك مما يقع فيه بعض المسلمين ، فقد يأتي أحدهم إلى القبر ويقول : (.. للميت أو الغائب من الأنبياء والصالحين : ادع لي ، أو أدع لنا ربك ، أو إسأل الله لنا كما تقول النصارى لمريم وغيرها ـ فهذا أيضاً لايستريب عالم أنه غير جائز ، وأنه من البدع التي لم يفعلها أحد من سلف الأمة ؛ وإن كان السلام على أهل القبور جائزاً ومخاطبتهم جائزة كما كان النبي ﷺ يعلم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقول قائلهم : ((السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وإنا إن شاء الله بكم لا حقون ، يغفر الله لنا ولكم ، نسأل الله لنا ولكم العافية ...)) [١] ...

وقد ذكر إسماعيل بن إسحاق القاضي[٢] وغيره .. عن الإمام مالك أنه سئل عن أقوام يطيلون القيام مستقبلي الحجرة يدعون لأنفسهم ، فأنكر مالك ذلك ، وذكر أنه من البدع ، التي لم يفعلها الصحابة والتابعون لهم بإحسان ، وقال لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها .

ولا ريب أن الأمر كما قاله مالك ، فإن الاثار المتواترة عن الصحابة والتابعين تبين أن هذا لم يكن من عملهم وعادتهم ، ولو كان استقبال الحجرة عند الدعاء مشروعاً لكانوا هم أعلم بذلك ، وكانوا أسبق إليه ممن بعدهم ، والداعي يدعوا الله وحده ، وقد نهى عن استقبال الحجرة عند دعائه الله ، كما نهي عن استقبال الحجرة

---

(١) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث . .

(٢) هو إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد الجهضمي الأزدي ، فقيه على مذهب مالك ، جليل التصانيف من بيت علم وفضل ، ولد سنة ٢٠٠هـ وتوفي سنة ٢٨٢هـ . انظر الأعلام للزركلي ج ٣١٠/١ ، والسير ٣٣٩/١٣ .

عند الصلاة لله تعالى ، كما ثبت في صحيح مسلم وغيره عن أبي مرثد الغنوي أن النبي ﷺ قال : ((لاتجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها)) [١] .

فلا يجوز أن يصلى إلى شيء من القبور ، لا قبور الأنبياء ولا غيرهم ، لهذا الحديث الصحيح .

ولا خلاف بين المسلمين أنه لا يشرع أن يقصد الصلاة إلى القبر ، بل هذا من البدع المحدثة ، وكذلك قصد شيء من القبور ، لا سيما قبور الأنبياء والصالحين عند الدعاء ، فإذا لم يجز قصد استقباله عند الدعاء لله تعالى فدعاء الميت نفسه أولى أن لا يجوز ، كما أنه لا يجوز أن يصلى مستقبله فلأن لا يجوز الصلاة له بطريق الأولى ...)[٢]

(والأحاديث عن النبي ﷺ في النهي عن اتخاذ القبور مساجد ، والصلاة في المقبرة : كثيرة جداً ، مثل ما في الصحيحين والسنن ، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : ((قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) [٣] ...

و.. عن عائشة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ((لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) [٤] وفي الصحيحين عن ابن عمر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ((اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً)) [٥] وفي صحيح مسلم عن أبي مرثد الغنوي : أن النبي ﷺ قال : ((لاتصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها)) [٦] وعن عبد الله بن عمرو قال : نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة في

---

(١) رواه مسلم في الجنائز (ح٩٧٢) وأبو داود في الجنائز (ح٣٢٢٩) والترمذي في الجنائز (ح١٠٥٠) والنسائي في القبلة (ح٧٦٠) .

(٢) الفتاوى ١/٣٥١-٣٥٤ .

(٣) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٤) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٥) رواه البخاري في الصلاة (ح٤٣٢) ومسلم في صلاة المسافرين (ح٧٧٧) وأبو داود في الصلاة (ح١٤٤٨) وغيرهم .

(٦) تقدم تخريجه قريباً انظر فهرس الأحاديث .

المقبرة [(١)]...

وعن أنس ﷺ : ((أن النبي ﷺ نهى أن يصلى بين القبور))[(٢)] وعن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال : ((الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام)) [(٣)] ...

وفي سنن أبي داود عن علي قال : ((إن حبيبي نهاني أن أصلي في المقبرة ، ونهاني أن أصل في أرض بابل فإنها ملعونة))[(٤)] والآثار في ذلك كثيرة جداً ...

والعلة [في النهي عن ذلك] ما ذكره غير واحد من العلماء من السلف والخلف في زمن مالك والشافعي وأحمد وغيرهم : إنما هو ما في ذلك من التشبه

---

(١) رواه الترمذي في الصلاة (ح٣٤٦) وابن ماجه في المساجد والجماعات (ح٧٤٦) عن ابن عمر قال : ((نهى رسول الله ﷺ أن يصلى في سبع مواطن في المزبلة والمجزرة والمقبرة وقارعة الطريق والحمام ومعاطن الإبل وفوق الكعبة)) .

(٢) رواه الطبراني في الكبير (ح٥٦٢٧) وابن أبي شيبة في المصنف ١٨٥/٢ ، وذكره الهيثمي في المجمع وقال : " إسناده حسن " ٣٦/٣ ، وحسنه الألباني كما في أحكام الجنائز ص ١٠٨ .

(٣) رواه أبو داود في الصلاة (ح٤٩٢) انظر صحيح أبي داود ج ٩٧/١ ، والترمذي في الصلاة (ح٣١٧) ، والدارمي في الصلاة (ح ١٣٩٠) . قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ قال الترمذي فيه اضطراب ؛ لأن سفيان الثوري أرسله ؛ لكن غير الترمذي جزم بصحته ؛ لأن غيره من الثقات أسندوه ، وقد صححه ابن حزم أيضاً ، انظر مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ١٥٩/٢٧ . وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود .

(٤) رواه أبو داود في الصلاة (ح٤٩٠) ، والحديث فيه ابن لَهِيعَة وهو ضعيف ، قال الخطابي : اسناد الحديث فيه مقال ، الفتح ٥٣٠/١ . وقال الحافظ في الفتح : في إسناده ضعف . وذكره البخاري معلقاً موقوفاً ، في (كتاب الصلاة باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب ٥٣) . قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : "هذا الأثر رواه ابن أبي شيبة من طريق عبد الله بن أبي المحلى .. قال : " كنا مع علي فمررنا على الخسف الذي ببابل فلم يصل حتى أجازه " أي تعداه ، ومن طريق أخر عن علي قال " ما كنت لأصلي في أرض خسف الله بها ثلاث مرار " .. وذكر أهل التفسير والأخبار أن المراد بذلك أن النمروذ بن كنعان بنى ببابل بنياناً عظيماً يقال : إن ارتفاعه كان خمسة آلاف ذراع ، فخسف الله بهم ..." الفتح ٥٣٠/١. وانظر عون المعبود ١٥٦/٢-١٥٧ . وعلى كل فإن أوله صحيح المعنى شهدت له الأحاديث الصحيحة المذكورة آنفاً ، وكذلك الصلاة في الأماكن التي نزل بها غضب الله ، بل والمكوث فيها قد ورد النهي عنه ، لا سيما وقد بينه الراوى . قال البخاري ـ رحمه الله ـ " باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب " وذكر أثر علي ثم ذكر حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال : ((لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لا يصيبنكم ما أصابهم)) كتاب الصلاة (ح٤٣٣) وهذا النهي كان لما مروا مع النبي ﷺ بالحجر ديار ثمود في حال توجههم إلى تبوك . المصدر السابق . والله أعلم .

بالمشركين ، وأن تصير ذريعة إلى الشرك ، ولهذا نهى عن اتخاذ قبور الأنبياء مساجد ، وقال : ((إن أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجد وصوروا فيه تلك التصاوير)) [١] ...) [٢]

فـ (قصد الصلاة والدعاء عندما يقال إنه قدم نبي أو أثر نبي أو قبر بعض الصحابة أو بعض الشيوخ ، أو بعض أهل البيت ، أو الأبراج[٣] أو الغيران[٤] من البدع المحدثة ، المنكرة في الإسلام ، لم يشرع ذلك رسول الله ﷺ ولا كان السابقون الأولون والتابعون لهم بإحسان يفعلونه ، ولا استحبه أحد من أئمة المسلمين ، بل هو من أسباب الشرك وذرائع الإفك ...)[٥]

ثانياً : النذر للقبر أو عنده :

ومثل الصلاة عند القبور والدعاء والتوجه إليها ، كذلك النذر فإنه محرم لا يجوز فعل شيء من ذلك ، وقد أكد شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ على ذلك بقوله :

(وكذلك النذر للقبور أو لأحد من أهل القبور كالنذر لإبراهيم الخليل ، أو للشيخ فلان أو فلان ، أو لبعض أهل البيت ، أو غيرهم نذر معصية لا يجب الوفاء به باتفاق أئمة الدين ، بل ولا يجوز الوفاء به ، فإنه قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : ((من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه)) [٦]

---

(١) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث . .

(٢) الفتاوى ٢٧/١٥٨-١٦٠ . ٢٦/١٥٠ .

(٣) جمع برج ، ويجمع على بروج وهي الأفلاك ، وهي اثنا عشر برجاً ، كما يسمى بذلك أبراج المدينة والقصور ، تبنى على نواحي أركان المدينة أو القصر ، انظر اللسان ٢/٢١٤-٢١٥ ، والمقصود أن قصد هذه الأمكنة غير المشروعة للعبادة أمر منكر ، لا يقره شرع الله ودينه .

(٤) جمع غار ، يقصد ـ رحمه الله ـ ما يفعله بعض الجهال من الذبح أو النذر أو نحو ذلك للمغارات في الجبال ونحوها زاعمين أن فيها أولياء الله ونحو ذلك مما اصطلحوا على تسميتهم أقطاب أو أوتاد وغير ذلك .

(٥) الفتاوى ٢٧/١٤٥ . وانظر ١٧/٤٧١ .

(٦) تقدم تخريجه انظر فهرس الآحاديث حرف الميم .

وفي السنن : ((لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج))[(١)]

فقد لعن رسول الله ﷺ من يبني على القبور المساجد ، ويسرج فيها السرج كالقناديل والشمع وغير ذلك . وإذا كان هذا ملعوناً فالذي يضع فيه قناديل الذهب والفضة ، وشمعدان الذهب والفضة ، ويضعها عند القبور أولى باللعنة ، فمن نذر زيتاً أو شمعاً أو ذهباً ، أو فضة أو ستراً أو غير ذلك ليجعل عند قبر نبي من الأنبياء ، أو بعض الصحابة أو القرابة ، أو المشايخ فهو نذر معصية لا يجوز الوفاء به ، وهل عليه كفارة يمين ؟ فيه قولان للعلماء .

وإن تصدق بما نذره على من يستحق ذلك من أهل بيت النبي ﷺ وغيرهم من الفقراء الصالحين كان خيراً له عند الله وأنفع له ...) [(٢)]

فالنذر لغير الله لا يجوز ، لكونه عبادة من العبادات التي يجب أن تكون خالصة لله رب العالمين وحده لا شريك له ، فإن مما هو معلوم أن (إخلاص الدين لله واجب في جميع العبادات البدنية والمالية ، كالصلاة والصدقة ، والصيام والحج ، فلا يصلح الركوع والسجود إلا لله ، ولا الصيام إلا لله ، ولا الحج إلا إلى بيت الله ، ولا الدعاء إلا لله ، قال تعالى : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ [(٣)] وقال تعالى : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ [(٤)] ...

وهذا هو أصل الإسلام وهو أن لا نعبد إلا الله ، ولا نعبده إلا بما شرع ، لا نعبده بالبدع كما قال تعالى : ﴿ فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا

---

(١) رواه أبو داود في الجنائز (ح٣٢٣٦) والترمذي في الصلاة (ح٣٢٠) وقال : هذا حديث حسن . والنسائي في الجنائز (ح٢٠٤٣) وابن ماج في ما جاء في الجنائز (ح١٥٧٥) بلفظ " لعن رسو لا لله ﷺ زوارات القبور "

(٢) الفتاوى ١٤٥/٢٧-١٤٨ . وانظر ١٣٦ ، ٣٣٣ . والفتاوى الكبرى ١٧٥/١-١٧٦ ، وإقتضاء الصراط المستقيم ٧٠٧/٢-٧٠٩ .

(٣) سورة الأنفال ٣٩ .

(٤) سورة الزخرف ٤٥ .

يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ [(١)] وقال تعالى : ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ [(٢)] قال الفضيل بن عياض : أخلصه وأصوبه ...) [(٣)]

وقد يتشبث بعض من ينذر للقبور بقولهم إن الشخص إذا نذر للقبر ووفى بذلك فإن حاجته تقضى ، ويستشهدون بأن فلاناً من الناس فعل ذلك فَشُفِيَ مريضه ، أو رُدَّ غائبه ، أو قُضيت حاجته ونحو ذلك ، وينسبون قضاء الحاجات إلى تلك الأسباب .

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ أن ذلك الظن باطل من عدة أوجه منها : أن كثيراً من حوائج المشركين والمجوس وأهل الكتاب تقضى عند الأصنام ، وعند تماثيل القديسين التي يعظمونها ، وهذا لا يسوغ مثل هذا الفعل من العبادة عندها بإجماع المسلمين .

ومنها : أن هذا الباب يكثر فيه الكذب جداً ، فما أكثر ما يحتال المعظمون للقبر بحيل يُلَبِّسُونَ على الناس أنه حصل به خرق عادة أو قضاء حاجة مما لا حقيقة له .[(٤)]

ومنها : (أن المسلم إذا قضيت حاجته وكان نذر نذراً للقبر أو دعى دعوة عنده ، فمن أين له أن لذلك القبر تأثيراً في تلك الحاجة ؟

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ ((أنه نهى عن النذر وقال : إنه لا يأتي بخير ، وإنما يستخرج به من البخيل))[(٥)] وفي لفظ : ((إن النذر لا يأتي ابن آدم بشيء لم يكن قدر له ، ولكن يلقيه النذر إلى القدر قدرته .[(٦)]))[(٧)] فإذا ثبت بهذا الحديث الصحيح : أن النذر

---

(١) سورة الكهف ١١٠ .

(٢) سورة هود ٧ .

(٣) الفتاوى ٢٧/١٤٥-١٤٨ . وانظر ١٣٦ ، ٣٣٣ .

(٤) انظر الفتاوى ٢٧/١٧٢ وما بعدها .

(٥) رواه البخاري في القدر (ح٦٦٠٨) ومسلم في كتاب النذر (ح١٦٣٩) وأبو داود في الأيمان والنذور (ح٣٢٨٧) والنسائي في الأيمان والنذور (ح٣٨٠١) والدارمي في الكفارات (ح٢١٢٢) .

(٦) هذه الرواية تفسرها رواية مسلم - رحمه الله - وفيها قوله : ((ولكن النذر يوافق القدر فيخرج بذلك من البخيل ما لم يكن البخيل يريد أن يخرج)) وقد بوب البخاري ـ رحمه الله ـ لهذا الحديث بقوله : باب إلقاء العبد النذر إلى القدر .(الفتح ١١/٤٩٩) أي أن النذر يسوق العبد إلى الوقوع في القدر الذي قدره الله من إخراج البخيل ما لم يكن ليخرجه لولا النذر .

(٧) رواه البخاري في القدر (ح٦٦٠٩) وفي الأيمان والنذور (ح٦٦٩٤) ومسلم في النذر (ح١٦٤٠) وأبو داود في الأيمان والنذور (ح٣٢٨٨) واللفظ له دون قوله : " إلى " ورواه النسائي أيضاً في الأيمان والنذور (ح٣٨٠٤) وابن ماجه في الكفارات (ح٢١٢٣) .

ليس سبباً في دفع ما علق به من جلب منفعة ، أو دفع مضرة ، مع أن النذر جزاء تلك الحاجة ، ويعلق بها ، ومع كثرة من تقضى حوائجهم التي علقوا بها النذور كانت القبور أبعد عن أن تكون سبباً في ذلك . ثم تلك الحاجة إما أن تكون قضيت بغير دعائه ، وإما أن تكون قضيت بدعائه ، فإن كان الأول فلا كلام ، وإن كان الثاني فيكون قد اجتهد في الدعاء اجتهاداً لو اجتهده في غير تلك البقعة أو عند الصليب لقضيت حاجته ، فالسبب هو اجتهاده في الدعاء لا خصوص القبر .

ولو قدر أن للقبور نوع تأثير في ذلك سواء كان بها أو بسبب آخر فيقال : ليس كل سبب نال به الإنسان حاجته يكون مشروعاً ، بل ولا مباحاً ، وإنما يكون مشروعاً إذا غلبت مصلحته على مفسدته ، أما إذا غلبت مفسدته ، فإنه لا يكون مشروعاً بل محظوراً وإن حصل به بعض الفائدة ...) [١]

والذي يظهر والله تعالى أعلم أن سبب حصول إجابة دعاء المستغيثين بغير الله عند القبور لا يخلوا من حالات ثلاث :

إما أن يكون ذلك الفعل منهم قد وافق القدر في وقته الذي توجهوا فيه باستغاثتهم .

وإما أن يكون ذلك من باب الاستدراج لهم كما قال سبحانه : ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾[٢] .

وإما أن يكون حصول ذلك رحمه من الله تعالى بهم كسائر رحمته العامة بخلقه .

كما أنه لا يخلوا الأمر من مساعدة الشياطين لهم فيما يستطيعون القيام به ، كجلب مال أو قضاء حاجة ونحو ذلك . والله تعالى أعلم .

حكم شد الرحال إلى القبور :

لايجوز شد الرحال إلى أي بقعة من بقاع الأرض سوى المساجد الثلاثة المسجد الحرام والمسجد النبوي والمسجد الأقصى ، وما سوى هذه الأماكن فلا يجوز شد الرحال والسفر إليها بقصد العبادة بحال من الأحوال .

---

(١) الفتاوى ٢٧/١٧٦-١٧٧ . بتصرف يسير . وانظر اقتضاء الصراط المستقيم ٢/٥٠٨ ، ٦٥٣ ، ٦٩٢ وما بعدها.

(٢) سورة القلم ٤٤ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ : (وأصل هذا الباب أنه ليس في شريعة الإسلام بقعة تقصد لعبادة الله فيها بالصلاة والدعاء والقراءة ونحو ذلك إلا مساجد المسلمين ، ومشاعر الحج ، وأما المشاهد التي على القبور ، سواء جعلت مساجد أو لم تجعل ، أو المقامات التي تضاف إلى بعض الأنبياء أو الصالحين ، أو المغارات والكهوف ، وما أشبه ذلك في شرق الأرض وغربها ، فهذه لا يشرع السفر إليها لزيارتها ، ولو نذر ناذر السفر إليها لم يجب عليه الوفاء بنذره باتفاق أئمة المسلمين ، بل قد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ .. أنه قال : ((لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ومسجدي هذا)) [١] ...

وقد تنازع المتأخرون فيمن سافر لزيارة قبر نبي أو نحو ذلك من المشاهد ، والمحققون منهم قالوا : إن هذا سفر معصية ... ، وذكر أبو عبد الله ابن بطة[٢] أن هذا من البدع المحدثة في الإسلام[٣] ، بل نفس قصد هذا البقاع للصلاة فيها والدعاء ليس له أصل في شريعة المسلمين ، ولم ينقل عن السابقين الأولين ـــ رضي الله عنهم وأرضاهم ـ أنهم كانوا يتحرون هذه البقاع للدعاء والصلاة ؛ بل لا يقصدون إلا مساجد الله ، بل المساجد المبنية على غير الوجه الشرعي لا يقصدونها أيضاً كمسجد الضرار الذي قال الله فيه : ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون ، لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المتطهرين ﴾ [٤]. بل المساجد المبنية على

---

(١) رواه البخاري في الجمعة (ح٨٢٧) ومسلم في الحج (ح١٣٩٧) وأبو داود في المناسك (ح٢٠٣٣) والنسائي في المساجد (ح٧٠٠) وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (ح١٤١٠) والدارمي في الصلاة (ح١٤٢١).

(٢) هو أبو عبدالله عبدالله بن محمد بن فرق المشهور بابن بطة العكبري نسبة إلى غلب ، ولد سنة ٣٣٤ وتوفي سنة ٣٨٧ . انظر شذرات الذهب ١٢٢/٣ ، والكامل لابن الأثير ١٣٧/٩ .

(٣) انظر الشرح والإبانة على أصول الديانة ص ٣٤٢ .

(٤) سورة التوبة ١٠٧ .

قبور الأنبياء والصالحين لا تجوز الصلاة فيها ، وبناؤها محرم ، كما قد نص على ذلك غير واحد من الأئمة ...) [١]

(ولهذا لم يكن الصحابة يسافرون إلى قبر الخليل ولا غيره من قبور الصالحين .) [٢]

فتين من هذا أن السفر إلى القبور على وجه التقرب إلى ا لله عز وجل محرم لا يجوز ، ولهذا فقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه ا لله تعالى ـ أن العلماء إختلفوا في جواز قصر الصلاة فيه من عدمه ، لكونه سفر معصية على قولين :

فالجمهور على أنه لا يجوز قصر الصلاة فيه لكونه سفر معصية .

وقال أبو حنيفة ـ رحمه ا لله تعالى ـ يجوز له القصر ، لكونه يجيز القصر في السفر المحرم ، وبه قال بعض المتأخرين من أصحاب الشافعي وأحمد ممن يجوز السفر لزيارة قبور الأنبياء والصالحين كأبي حامد الغزالي وأبي الحسن ابن عبدون الحراني ، وأبي محمد بن قدامة المقدسي . وهؤلاء يقولون : إن هذا السفر ليس بمحرم لعموم قوله ﷺ ((زوروا القبور)) [٣]

ثم ذكر ـ رحمه ا لله ما ستدل به ابن قدامة من أنه ﷺ كان يزور قباء [٤] وجوابه عن قوله ﷺ ((لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد)) بأنه محمول على نفي الاستحباب

وقد أجاب عن ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه ا لله تعالى ـ : بأن الجمهور يحتجون بهذا الحديث على أنه لا يجوز شد الرحال إلى غير هذه المساجد ، لا سيما وأن الإئمة قد اتفقوا على صحة هذا الحديث والعمل به ، فلو نذر الرجل أن يشد الرحل ليصلي بمسجد ، أو مشهد أو يعتكف فيه أو يسافر إليه غير هذه الثلاثة لم يجب عليه ذلك باتفاق الإئمة .

ولو نذر أن يسافر ويأتي المسجد الحرام لحج أو عمرة ، أو يأتي المسجد النبوي

---

(١) الفتاوى ٢٧/١٣٧-١٤٠ . وانظر ٥٥ ، ١٧٨ . وإقتضاء الصراط المستقيم ٦٦٥-٦٦٨ .

(٢) الفتاوى ٢٧/١١٠ . وانظر ٢٦/١٥٠-١٥٣ ، والفتاوى الكبرى ١/١٧٥-١٧٧ .

(٣) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٤) رواه البخاري في الجمعة (ح١١٩٢) ومسلم في الحج (١٣٩٩) وأبو داود في المناسك (ح٢٠٤٠) والنسائي في المساجد (ح٦٩٨) ومالك في المناسك (ح٤٠٢) .

أو الأقصى لصلاة أو اعتكاف وجب عليه الوفاء بهذا النذر ...

وأما السفر إلى بقعة غير هذه المساجد الثلاثة ، فلم يوجبه أحد من العلماء إذا نذره ، حتى نص العلماء على أنه لا يسافر إلى مسجد قباء ؛ لأنه ليس من المساجد الثلاثة ...

ولما تقدم أيضاً من أن السفر إلى زيارة قبور الأنبياء والصالحين بدعة . ومن اعتقد خلاف ذلك فهو مخالف لأجماع المسلمين .

وأجاب عن قول ابن قدامة بأن حديث ((لا تشد الرحال)) محمول على نفي الاستحباب من وجهين :

أحدهما : أن هذا تسليم منه بأن هذا السفر ليس بعمل صالح ، ولا قربة ، ولا طاعة ، ولا هو من الحسنات ، فإن من اعتقد أن السفر لزيارة قبور الأنبياء والصالحين قربة وعبادة وطاعة فقد خالف الإجماع ، وإذا سافر لاعتقاد أن ذلك طاعة ، كان ذلك محرماً بإجماع المسلمين ، فصار التحريم من جهة اتخاذه قربة ، ومعلوم أن أحداً لا يسافر إليها إلا لذلك .

أما إذا نذر الرجل السفر إليها لغرض مباح فهذا جائز وليس من هذا الباب .

الوجه الثاني : أن هذا الحديث[1] يقتضي النهي ، والنهي يقتضي التحريم[2]، وما ذكروه من الأحاديث فكلها ضعيفة باتفاق أهل العلم بالحديث ؛ بل موضوعة ؛ لم يرو أحد من أهل السنن المعتمدة شيئاً منها ، ولم يحتج أحد من الأئمة بشيء منها . بل مالك – إمام أهل المدينة النبوية الذين هم أعلم الناس بحكم هذه المسألة – كره أن يقول الرجل : زرت قبره ﷺ ولو كان هذا اللفظ معروفاً عندهم ، أو مشروعاً أو مأثوراً عن النبي ﷺ لم يكرهه عالم أهل المدينة . [3]

وخلاصة ما تقدم أنه لا يجوز إنشاء السفر وشد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة سفر تعبد ، وما سوى ذلك فلا يجوز أن تشد الرحال إليه بحال من الأحوال .

---

(١) أي حديث النهي عن شد الرحال .

(٢) وانظر تفصيل الرد على هذا القول والاستدلال بالحديث على تحريم زيارة ما سوى هذه المساجد سواء كان مسجداً أو قبراً ، أو مكاناً معظماً أو غير ذلك مما يكون القصد منه التعبد والتقرب . انظر ذلك في الرد على الأخنائي ص ١٣-١٤ .

(٣) انظر الفتاوى ٢٧/١٨٥-١٨٨ .

المحبث الثالث : زيارة قبر النبي ﷺ

زيارة قبر النبي ﷺ :

وضح شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ ما يجب على المؤمنين تجاه نبيهم من المحبة والمودة ، والاتباع والانقياد لأمره والانتهاء عن نهيه ، وموالاته ، ومعاداة أعدائه ، والذب عنه وعن سنته .

قال ـ رحمه الله ـ : (والنبي ﷺ يجب علينا أن نحبه حتى يكون أحب إلينا من أنفسنا وآبائنا ، وأبنائنا وأهلنا وأموالنا ، ونعظمه ونوقره ونطيعه باطناً وظاهراً ، ونوالي من يواليه ، ونعادي من يعاديه ، ونعلم أنه لا طريق إلى الله إلا بمتابعته ﷺ . ولا يكون ولياً لله بل ولا مؤمناً ولا سعيداً ناجياً من العذاب إلا من آمن به واتبعه باطناً وظاهراً .

ولا وسيلة يتوسل إلى الله ـ عز وجل ـ بها إلا الإيمان به وطاعته ، وهو أفضل الأولين والآخرين وخاتم النبيين ، والمخصوص يوم القيامة بالشفاعة العظمى التي ميزه الله بها على سائر النبيين ، صاحب المقام المحمود ، واللواء المعقود ، لواء الحمد ، آدم فمن دونه تحت لوائه ، وهو أول من يستفتح باب الجنة ، فيقول الخازن : من أنت ؟ فيقول : أنا محمد . فيقول بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك .)[1]

(و .. لا نجاة لأحد من عذاب الله ، ولا وصول له إلى رحمته إلا بواسطة الرسول ﷺ بالإيمان به ، ومحبته وموالاته واتباعه ، وهو الذي ينجيه الله به من عذاب الدنيا والآخرة ، وهو الذي يوصله إلى خير الدنيا والآخرة ، فأعظم النعم وأنفعها نعمة الإيمان ، ولا تحصل إلا به ، وهو أنصح وأنفع لكل أحد من نفسه وماله فإنه الذي يخرج الله به من الظلمات إلى النور ، ولا طريق له إلا هو . وأما نفسه وأهله فلا يغنون عنه من الله شيئاً ...)[2]

وبين رحمه الله أن كل ما أمر الله به أو ندب إليه من حقوقه لا يختص بمكان دون مكان ولا زمان دون زمان فقال :

---

(١) الفتاوى ٢٧/٣٢٠-٣٢١ . وانظر ٤٢٤ وما بعدها ، و ١/٣١٩ - ٣٢٠ .

(٢) الفتاوى ٢٧/٤٢٧-٤٢٨ .

(وكـل مـا أمـر بـه أو نـدب إليـه مـن حقوقــه ﷺ فإنــه لا يختــص بحجرتــه لا مــن داخل ولا من خــارج . بـل يفعـل في جميـع الأمكنـة الـتي شـرع فيهـا . فليس فعـل شـيء مـن حقوقـه ﷺ كالإيمـان بـه ومحبتـه وموالاتـه ، وتبليــغ العلــم عنــه ، والجهــاد علــى مــا جــاء بـه ، وموالاتـه ، وموالاة أوليائـه ومعـاداة أعدائـه ، والصـلاة والسـلام عليـه ، وكـل مــا يحبـه ا لله ويتقــرب إليــه ، ليــس شــيء مــن ذلــك عنــد حجرتــه أفضــل منــه فيمــا بعــد عــن الحجـرة ، لا الصـلاة والسـلام عليـه ولا غـير ذلـك مـن حقوقـه . بـل قــد نهــى هــو ﷺ أن يجعـل بيتـه عيـداً ، فنهـى أن يقصـد بيتـه بتخصيـص شـيء مـن ذلـك ، فمـن قصـد أو اعتقــد أن فعل ذلــك عنـد الحجـرة أفضـل فهـو مخـالف لـه ﷺ وهـذا ممـا كـان مشـروعاً ، كالإيمـان بـه والشــهادة لـه بأنـه رسـول ا لله ، والصـلاة والسـلام عليـه .

وأمـا مـا لم يشـرعه ولم يـنزل بـه سـلطاناً إليـه ، بـل نهـى عنـه ﷺ كدعـاء غــير ا لله وعبـادتهم مـن جميــع المخلوقـات ، الملائكـة والأنبيــاء وغــيرهم والحـج إلى المخلوقـين وإلى قبورهـم ، فهـذه إنمـا يـأمر بهـا مـن ليـس معهـم بذلـك علـم ولا وحـي منـزل مـن ا لله ، فهـم يضـاهئون الذيـن يعبـدون مـن دون ا لله مـا لم يـنزل بـه سـلطاناً ومـاليس لهـم بـه علـم ، أو هـم نـوع منهــم .

وقــد مـيز ا لله بـين حقــه وحــق الرســول ﷺ في مثـل قولـه : ﴿ ومــن يطــع ا لله ورسـوله ويخـش ا لله ويتقـه ﴾ [1] فالطاعـة لله والرســول ، والخشـية لله وحــده ، والتقــوى لله وحـده ، لا يخشـى مخلـوق ، ولا يتقـى لاملــك ولا نـبي ولا غيرهمــا ...) [2]

فتبـين مـن هـذا أن للنبي ﷺ علينـا حقوقـاً شـرعها ا لله وأمــر بهــا ، ورتــب حصــول الإيمـان بوجودهـا ، كمـا أن لله حقوقـاً يختـص بهـا ، فـلا يشـترك معـه أحـد غـيره مـن وجـوب إفـراده بـأنواع العبـادة ، الـتي أرسـل النـبي ﷺ لتحقيقهـا لـرب العـالمين ، ودعـوة النـاس إليهـا أجمعـين ، وقـرن ا لله طاعـة الرسـول بطاعتـه ؛ لأن طاعـة الرسـول طاعـة لله لكونه هو الواسـطة بينـه وبـين خلقـه .

---

(١) سـورة النـور ٥٢ .

(٢) الفتــاوى ٢٧/٤٢٧-٤٢٨ .

ومن هنا ينطلق شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ في الذب عن الرسول ﷺ ببيان ما أرسل به ، والعمل على تجريد التوحيد الخالص لرب العالمين ، مبيناً ما يجوز من الزيارة وما يحرم منها ، ومتبعاً لأمر الرسول ﷺ في تحقيق التوحيد والبعد عن اتخاذ قبره مسجداً .

وقد أوذي ـ رحمه الله ـ بسبب ذلك وسجن ، ولاقى في سبيل الله ما لاقى ، مما نسأل الله العلي القدير أن يكون رفعة في درجة ، وإعلاء لذكره في الدنيا والآخرة .

وقد وضح ـ رحمه الله ـ أن شد الرحال لقصد زياة قبره ﷺ فقط محرم باتفاق الأئمة ، مستدلاً بقوله ﷺ : ((لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ، المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى)) (١)

إلا أن أهل البدع أبو إلا أن يحرفوا كلامه ـ رحمه الله ـ حيث زعموا أنه يحرم زيارة قبر النبي ﷺ وهو لم يقل بذلك ، بل بين ـ رحمه الله ـ أن زيارة قبر النبي ﷺ مشروعة كسائر القبور ، لاتقصد بالسفر ، ويزوها كل من كان قريباً منها أو قدم إلى المكان الذي هي فيه من غير أن يكون سفره لأجل ذلك القبر . ولهذا أحببت الايتان بهذه المقدمة الموجزة للإشارة إلى موقفه ـ رحمه الله ـ من هذه المسألة التي أساء أعدائه فهمها عنه حيث لفقوا عليه تهماً باطلة يصفونه فيها بجفوته للرسول ﷺ ولتنفير الناس عنه وعن زيارته .

ولولا خوف الإطالة لأوردت أمثلة كثيرة من كلامه ، إلا أنه سيتضح مزيد بيان لذلك من خلال دراسة هذه القضية فيما يلي .

بيانه لحكم الزيارة :

بين ـ رحمه الله ـ أنه لم يرد حديث صحيح في زيارة قبر النبي ﷺ البتة ، وأن كل ما ورد في ذلك من أحاديث فهي ضعيفة ، بل موضوعة ، ولم يرو أهل الصحاح

---

(١) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

والمسانيد كمسند أحمد من ذلك شيئاً . (١)

وذكر مجموعة من الأحاديث المروية في زيارة قبر النبي ﷺ كقوله : ((من زارني بعد مماتي فكأنما زارني في حياتي)) وقوله : ((من حج ولم يزرني فقد جفاني)) وقوله : ((من زارني وزار أبي في عام واحد ضمنت له على الله الجنة)) وبين أن هذا كله باطل باتفاق العلماء (٢)

قال ـ رحمه الله ـ (.. من أتى المسجد فلم يصل فيه ؛ ولكن أتي القبر ثم رجع ، فهذا هو الذي أنكره الأئمة كمالك وغيره ، وليس هذا مستحباً عند أحد من العلماء ، وهو محل النزاع هل هو حرام أو مباح ؟ وما علمنا أحداً من علماء المسلمين استحب مثل هذا ، بل أنكروا إذا كان مقصوده بالسفر مجرد القبر من غير أن يقصد الصلاة في المسجد ، وجعلوا هذا من السفر المنهي عنه . ولا كان أحد من السلف يفعل هذا بل كان الصحابة إذا سافروا إلى مسجده ﷺ صلوا فيه واجتمعوا بخلفائه مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، يسلمون عليه ويصلون عليه في الصلاة ، ويفعل ذلك من يفعله منهم عند دخول المسجد والخروج منه ، ولم يكونوا يذهبون إلى القبر ، وهذا متواتر عنهم لايقدر أحد أن ينقل عنهم أو عن واحد منهم أنه كان إذا صلى خلف الخلفاء الراشدين يذهب في ذلك الوقت أو غيره يقف عند الحجرة خارجاً منها ، وأما دخول الحجرة فلم يكن يمكنهم .

فإذا كانوا هذا بعد السفر إلى مسجده ﷺ يفعلون ما سنه لهم في الصلاة والسلام عليه ولا يذهبون إلى قبره فكيف يقصدون أن يسافروا إليه ؟ أو يقصدون بالسفر إليه دون الصلاة في المسجد ؟ !

ومن قال إن هذا مستحب فلينقل ذلك عن إمام من أئمة المسلمين ، ثم إذا نقله يكون قائله قد خالف أقوال العلماء ؛ كما خالف فاعله فعل الأمة ، وخالف سنة رسول ﷺ وإجماع أصحابه ، وعلماء أمته .

---

(١) انظر الفتاوى ١٦/٢٧ . ٣٥٦/٢٤-٣٥٩ .

(٢) انظر الفتاوى ٢١٦/٢٧ وما بعدها

قال تعالى : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً ﴾ [(١)] ، وقال ﷺ ((إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى))[(٢)] .

وعلماء المسلمين قد ذكروا في مناسكهم استحباب السفر إلى مسجده ﷺ ، وذكروا زيارة قبره المكرم ، وما علمت أحداً من المسلمين قال إنه من لم يقصد إلا زيارة القبر يكون سفره مستحباً . ولو قالوا ذلك في قبر غيره ؛ لكن هذا لم يقصده بعض الناس ممن لا يكون عارفاً بالشريعة وبما أمر به النبي ﷺ ونهى عنه ، وغايته أن يعذر بجهله ، ويعفو الله عنه ، وأما من يعرف ما أمر الله به ورسوله ، وما نهى الله عنه ورسوله ، فهؤلاء كلهم ليس فيهم من أمر بالسفر لمجرد زيارة قبره ﷺ ، لا نبي ولا غير نبي ، بل صرح أكابرهم بتحريم مثل هذا السفر من أصحاب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم ، وإنما قال إنه مباح غير محرم طائفة من متأخري أصحاب الشافعي وأحمد .) [(٣)]

مقصود من قال تستحب زيارة قبره ﷺ : بين ــ رحمه الله ــ أن ما أثر عن بعض أئمة المسلمين من قولهم باستحباب زيارة قبر النبي ﷺ أن المراد به زيارة مسجده ﷺ ، إذ لا يمكن أن يقصد الشخص زيارة قبر النبي ﷺ دون قصد الصلاة في المسجد .

قال ــ رحمه الله ــ في رده على الأخنائي : (إن الذين استحبوا السفر إلى زيارة قبر نبينا مرادهم السفر إلى مسجده ، وهذا مشروع بالإجماع ، ولو قصد المسافر إليه فهو إنما يصل إلى المسجد ، والمسجد منتهى سفره ؛ لا يصل إلى القبر ؛ بخلاف غيره فإنه يصل إلى القبر ؛ إلا أن يكون متوغلاً في الجهل والضلال ، فيظن أن مسجده إنما شرع السفر إليه لأجل القبر ، وأنه لذلك كانت الصلاة فيه بألف صلاة ، وأنه لولا

---

(١) سورة النساء ١١٥ .

(٢) أخرجه البخاري (ح١) ومسلم في الأمارة (ح١٩٠٧) وأبو داود في الطلاق (ح٢٢٠١) ، والترمذي في فضائل الجهاد (ح١٦٤٧) ، والنسائي في الطهارة (ح٧٥) .

(٣) الفتاوى ٢٧/٣٤٤-٣٤٦ . وانظر ٢٩٥ .

القبر لم يكن له فضيلة على غيره ، أو يظن أن المسجد بني أو جعل تبعاً للقبر ، كما تبنى المساجد على قبور الأنبياء والصالحين ، ويظن أن الصلاة في المسجد تبع ، والمقصود هو القبر ، كما يظن المسافرون إلى قبور الأنبياء والصالحين غير قبر نبينا ، وكما أن الذي يذهب إلى الجمعة يصلي إذا دخل تحية المسجد ركعتين ، ولكن هو إنما جاء لأجل الجمعة ، لا لأجل ركعتي التحية ، فمن ظن هذا في مسجد نبينا ﷺ فهو من أضل الناس وأجهلهم بدين الإسلام ، وأجهلهم بأحوال الرسول وأصحابه ، وسيرته ، وأقواله وأفعاله ، وهذا محتاج إلى أن يتعلم ما جهله من دين الإسلام حتى يدخل في الإسلام ، ولا يأخذ بعض الإسلام ويترك بعضه ؛ فإن مسجده ﷺ أسس على التقوى في السنة الأولى من الهجرة ...

فهل يقول عاقل : إن مساجد المسلمين ـ مساجد الجوامع التي يصلي فيها الجمعة وغيرها ـ فضيلتها واستحباب قصدها للصلاة فيها لأجل قبر عندها ، فإذا لم يجز أن يقال هذا في مثل هذه المساجد فكيف يقال فيما هو خير منها كلها وأفضل .) [١]

فمن استحب زيارة قبره ﷺ من العلماء ممن ورد في كلامه القول باستحباب زيارة قبر الرسول ﷺ فإنما لقصد السفر إلى مسجده ومن ثم السلام عليه عند قبره ، كمن قصد أن يأتي مسجده ويفعل فيه ما يشرع وأن يفعل في مسجده ما يشرع من الصلاة والسلام عليه ، والدعاء له والثناء عليه ، وهذا عندهم يسمى زيارة لقبره ، مع اتفاق الجميع على أن أحداً لا يزور قبر الزيارة المعروفة في سائر القبور ، فإن تلك قبور بارزة يوصل إليها ، ويقعد عندها ، أو يقام عندها ، ويمكن أن يفعل عندها ما يشرع كالدعاء للميت والاستغفار له ، وما ينهى عنه ، كدعائه ، والشرك به ، والنياحة عند قبره ، والندب ، فهذا هو المفهوم من زيارة القبور .

والرسول ﷺ دفن في بيته في حجرته ، ومنع الناس من الدخول إلى هناك ، والوصول إلى قبره ، فلا يقدر أحد أن يزور قبره كما يزور قبر غيره ؛ لا زيارة شرعية ولا بدعية . بل إنما يصل جميع الخلق إلى مسجده .) [٢]

---

(١) الفتاوى ٢٧/٢٥٤ . وانظر ٢٩٢ .

(٢) الفتاوى ٢٧/٢٤٦ـ٢٤٧ .

إجماع المسلمين على أن السفر يكون إلى مسجده ﷺ لا إلى قبره :

كما بين ــ رحمه الله ــ أن المسلمين أجمعوا سلفاً وخلفاً قرناً بعد قرن أن السفر يكون إلى مسجده ﷺ لا إلى قبره ، سواء سمي ذلك السفر زيارة أو لم يسم . فإن لفظ الزيارة لقبره واستحباب ذلك لا يعرف عن أحد من الصحابة ، بل المنقول عن ابن عمر ومن وافقه السلام عليه هناك ، والصلاة ، وهم لا يسمون هذا زيارة لقبره ، فكيف بالذين لم يكونوا يقفون عند القبر بحال ؟ ! وهم جمهور الصحابة .

وأما ما ابتدعه بعض الناس من الشرك والبدع وسمى ذلك زيارة لقبره فهو من جنس الزيارة البدعية التي تفعل عند قبر غيره ، ليس هو من الزيارة الشرعية .

ثم إن من الأئمة من لا يسمى هذا زيارة لقبره . بل يكره هذه التسمية ؛ فضلاً عن أن يقول : إن ذلك سفر إلى قبره ، وقد صرح من قال ذلك مثل مالك وغيره بأن المسافر إلى هناك إذا كان مقصوده القبر أنه سفر منهي عنه داخل في قوله ﷺ : ((لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد))[1] وأن السفر الذي هو طاعة وقربه أن يقصد السفر لأجل الصلاة في المسجد ...

فإذا كان قولهم هذا معروفاً في الكتب الصغار والكبار ، فكيف يظن أن السفر لمجرد زيارة القبور هو مجمع عليه بين الأئمة ...) [2]

(وقد أجمع المسلمون على أن إتيان مسجده أولى من إتيان قبره ، فإن الصحابة كانوا يأتون مسجده في اليوم والليلة خمس مرات ، والحجرة إلى جانب المسجد لم يدخلها أحد منهم ؛ لأنهم قد علموا أنه نهاهم أن يتخذوا القبور مساجد ، وأن يتخذوا قبره عيداً أو وثناً ، وأنه قال لهم : ((صلوا علي حيثما كنتم))[3] ...) [4]

كراهية الإمام مالك أن يقال زرت قبر النبي ﷺ : ولهذا فقد (كره الإمام مالك ــ رحمه الله ــ وغيره أن يقال زرت قبر النبي ﷺ . ومالك أعلم الناس بهذا الباب ، فإن

---

(١) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٢) الفتاوى ٢٧/٢٤٥ .

(٣) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث . وهو جزء من حديث .

(٤) الفتاوى ٢٧/٣٠٩ بتصرف يسير . وانظر ٤٠٠ .

أهل المدينة أعلم أهل الأمصار بذلك ، ومالك إمام أهل المدينة ، فلو كان في هذا سنة عن رسول الله ﷺ فيها لفظ زيارة قبره لم يخف ذلك على علماء أهل مدينته وجيران قبره بأبي هو وأمي) (١)

(قال القاضي عياض ـ رحمه الله ـ كراهة مالك له لإضافته إلى قبر النبي ﷺ ؛ لقوله : ((اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) ، ينهى عن إضافة هذا اللفظ إلى القبر والتشبه بفعل ذلك ؛ قطعاً للذرية ، وحسماً للباب .) (٢)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ (والذي ذكرناه عن مالك وغيره من الأئمة كان معروفاً عند السلف ، كما رواه أبو يعلى الموصلي في مسنده(٣) ، وذكره الحافظ أبو عبد الله المقدسي في مختاره(٤) ، عن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب المعروف بزين العابدين أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ فيدخل فيدعو فيها فنهاه ، فقال : ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ ؟ قال : ((لاتتخذوا قبري عيداً ، ولا بيوتكم قبوراً ، فإن تسليمكم يبلغني أينما كنتم)) (٥) ...) (٦)

---

(١) انظر الفتاوى ١٦٦/٢٧ ، وانظر ١١٨، ١٢١ ، ٣٥ .

(٢) الفتاوى ١١٨/٢٧ــ١١٩ .

(٣) انظره في ٢٤٥/١ ــ ٢٤٦ (ح ٤٦٥) .

(٤) انظر ٤٩/٢ (ح ٤٢٨) من طريق أبي يعلى الموصلي وابن أبي شيبة ٣٧٥/٢ وفيه : " وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم " ، وأحمد ٣٦٧/٢ ، وأورده البخاري في التاريخ الكبير ١٨٦/٢ عند ترجمة جعفر بن إبراهيم ، والقاضي إسماعيل . ورواه القاضي إسماعيل بسنده في فضل الصلاة على النبي ﷺ (ح٢٠) و (ح٣٤) وقال محققه الألباني حديث صحصح بطرقه وشواهده ، وقال في الموضع الثاني : إسناده جيد ورجاله رجال البخاري . وانظر تحذير الساجد ص ١٤٠ .

(٥) تقدم تخريجه انظر الإحالة السابقه لهذا مباشرة .

(٦) الفتاوى ١٢١/٢٧ .

الفرق بين قبره ﷺ وبين قبر غيره :

هـذا مـع أن هنـاك فروقـاً ظـاهرة بـين قـبره ﷺ وقـبر غـيره ذكـر شـيخ الإسـلام ذلـك من عـدة أوجـه :

أحدهـا : أن مسـجده عنـد قـبره ، والسـفر إليـه مشـروع بـالنص والإجمـاع بخـلاف غـيره .

والثـاني : أن زيارتـه كمـا يـزار غـيره ممتنعـة ، وإنمـا يصـل الإنسـان إلى مسجده ، وفيه يفعـل مـا شـرع لـه .

الثـالث : أنـه لـو كـان قـبر نبينـا ﷺ يـزار كمـا تـزار القبـور لكـان أهـل مدينتـه أحـق النـاس بذلـك ، كمـا أن أهـل كـل مدينـة أحـق بزيـارة مـن عندهـم مـن الصـالحين ، فلمـا اتفـق السـلف وأئمـة الدين على أن أهـل مدينته لا يـزورون قـبره ، بـل ولا يقفـون عنـده للسـلام إذا دخلـو المسجد وخرجـوا ، وإن لم يسـمى هـذا زيارة بـل يكـره لهـم ذلـك عنـد غـير السـفر كمـا ذكـر ذلـك مـالك ، وبـين أن ذلـك مـن البـدع الـتي لم يكـن صـدر هـذه الأمة يفعلونـه علـم أن مـن جعـل زيـارة قـبره مشـروعة كزيـارة قـبر غـيره فقـد خـالف إجمـاع المسـلمين .

الرابـع : أنـه قـد نهـى أن يتخـذ قـبره عيـداً ، وأمـر الأمـة أن تصلـى وتسـلم عليـه حيـث مـا كـانت ، وأخـبر أن ذلـك يبلغـه ، فلـم يكـن تخصيـص البقعـة بالدعـاء لـه مشـروعاً ، بـل يدعـى لـه في جميـع الأمـاكن ، وعنـد كـل آذان وفي كـل صـلاة ، وعنـد دخـول كـل مسـجد ، والخـروج منـه ، بخلاف غـيره ، وهـذا لعلـو قـدره وارتفـاع درجتـه ، فقـد خصـه الله مـن الفضيلـة بمـا لم يشـركه فيـه غـيره ؛ لئـلا يجعـل قـبره مثـل سـائر القبـور ، بـل يفـرق بينها من وجوه متعـددة ، ويبـين فضلـه علـى غـيره ، ومـا مـن الله بـه علـى أمتـه .)[1]

مشروعية السلام على رسول الله ﷺ :

تشـرع الصـلاة والسـلام عليـه ﷺ في كـل وقـت وفي كـل مكـان ، لا فـرق في ذلـك بـين مـن في المدينـة ، وبـين مـن في الأندلـس ، لأن السـلام

(١) الفتـاوى ٢٧/٢٤٣-٢٤٤ .

عليه ﷺ يبلغه في أي مكان كان المسلم ، وهذا من خصائصه ﷺ ، ولهذا لم يكن الصحابة ﷺ يذهبون إلى قبره للسلام ، بل يسلمون عليه في الصلاة ، وفي غيرها دون الحاجة إلى الذهاب إلى قبره ﷺ ولم يعهد عنهم أن احداً منهم كان يذهب إلى الحجرة — وكانت خارج المسجد — للسلام عليه ، إلا ما عهد عن ابن عمر ﷺ من أنه إذا قدم من سفر ذهب يسلم عليه ﷺ وعلى صاحبيه .

وقد قرر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية — رحمه الله تعالى — ووضحه وبينه في مواضع عديدة من رسائله وفتاويه .

قال — رحمه الله — (.. والسلام عند قبره المكرم جائز لما في السنن عن النبي ﷺ أنه قال : ((مامن أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي[1] حتى أرد عليه السلام))[2] .

وحيث صلى الرجل وسلم عليه من مشارق الأرض ومغاربها فإن الله يوصل صلاته وسلامه إليه ، لما في السنن عن أوس بن أوس أن النبي ﷺ قال : ((أكثروا علي من الصلاة يوم الجمعة وليلة الجمعة فإن صلاتكم معروضة علي ، قالوا : وكيف تعرض عليك وقد أرمت ؟ — أي صرت رميماً — قال : إن الله حرم على الأرض أن

---

(١) قوله : " رد الله علي روحي " رَدُّ روحه عليه الصلاة والسلام تكون على صفة لا يعلمها إلا الله ، ومن زعم أنه حي في قبره كما كان حياً قبل موته فقد أخطأ ؛ لأن حياة البرزخ هيئتها وصفتها لا يعلمها إلا الله ﷻ ، فحياة البرزخ تتعلق بالأرواح دون الأبدان ، لأن الأبدان تبلى في الغالب ما عدا الأنبياء والشهداء . ورد الروح هنا من الأمور الغيبية التي قد لا ندرك كنهها ، لا سيما وأننا في الدنيا لا ندرك حقائق الروح وكنهها ، قال الله تعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ الإسراء ٨٥ .

(٢) رواه أبو داود في المناسك (ح٢٠٤١) وحسنه الألباني . انظر صحيح أبي داود ج ٣٨٣/١ .

تأكل لحوم الأنبياء)) . [١] ولهذا قال ﷺ : ((لا تتخذوا قبري عيداً ، وصلوا علي حيث ما كنتم فإن صلاتكم تبلغني)) [٢] ..

فالصلاة تصل إليه من البعيد كما تصل إليه من القريب . وفي سنن النسائي عنه ﷺ أنه قال : ((إن لله ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام)) [٣] وقد أمرنا الله أن نصلي عليه ، وشرع ذلك لنا في كل صلاة أن نثني على الله بالتحيات ثم نقول : ((السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته)) [٤] . وهذا السلام يصل إليه من مشارق الأرض ومغاربها ، وكذلك إذا صلينا عليه فقلنا : ((اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد)) [٥] .

وكان المسلمون على عهده وعهد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي يصلون في مسجده ﷺ ، ويسلمون عليه في الصلاة ، وكذلك يسلمون عليه إذا دخلوا المسجد ، وإذا خرجوا منه ، ولا يحتاجون أن يذهبوا إلى القبر المكرم ، ولا أن يتوجهوا نحو القبر المكرم ، ولا أن يتوجهوا نحو القبر ويرفعوا أصواتهم بالسلام كما يفعله بعض الحجاج ، بل هذا بدعة لم يستحبها أحد من العلماء ...

وكان النبي ﷺ لما مات دفن في حجرة عائشة ـ رضي الله عنها ـ وكانت هي وحجر نسائه شرقي المسجد وقبليه ، لم يكن شيء من ذلك داخلاً في المسجد ، واستمر الأمر إلى أن انقرض عصر الصحابة بالمدينة . ثم بعد ذلك في خلافة

---

(١) رواه أبو داود في الصلاة (ح١٠٤٧ ، ١٥٣١) والنسائي في الجمعة ، (ح١٣٧٤) وصححه الألباني انظر باب إكثار الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة ، ورواه ابن ماجه في الجنائز (ح١٦٣٦) والدارمي في الصلاة (ح١٥٧٢) ، وصححه الألباني . انظر صحيح السنن .

(٢) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٣) رواه النسائي في السهو (ح١٢٨٢) والدارمي في الرقاق (ح٢٧٧٤) وأحمد في مسنده ، وصححه الألباني . انظر صحيح النسائي جـ ٢٧٤/١ .

(٤) رواه البخاري في الأذان (ح٨٣١) ومسلم في الصلاة (ح٤٠٢) وأبو داود في الصلاة (ح٩٦٨) والترمذي في في الصلاة (ح٢٨٩) والنسائي في التطبيق (ح١١٦٢) والدارمي في الصلاة (ح١٣٤٠) .

(٥) تقدم تخريجه في الحديث الذي سبق هذا .

الوليد بن عبد الملك بن مروان بنحو من سنة من بيعته وسع المسجد ، وأدخلت فيه الحجرة للضرورة .. وبقيت حجرة عائشة ـ رضي الله عنها ـ على حالها ، وكانت مغلقة لا يُمَكَّن أحد من الدخول إلى قبر النبي ﷺ لا لصلاة عنده ولا لدعاء ولا غير ذلك ؛ إلى حين كانت عائشة في الحياة ، وهي توفيت قبل إدخال الحجرة بأكثر من عشرين أو ثلاثين سنة ، فإنها توفيت في خلافة معاوية ـ رضي الله عنه ـ ...

ففي حياة عائشة ـ رضي الله عنها ـ كان الناس يدخلون عليها لسماع الحديث ، ولاستفتائها ، وزيارتها ، من غير أن يكون إذا دخل أحد يذهب إلى القبر المكرم ، لا لصلاة ولا لدعاء ولا غير ذلك ...

و.. كان الداخل يسلم على النبي ﷺ لقوله : ((ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام)) [١] وهذا السلام مشروع لمن كان يدخل الحجرة ، وهذا السلام هو القريب الذي يرد النبي ﷺ على صاحبه ،وأما السلام المطلق الذي يفعل خارج الحجرة وفي كل مكان فهو مثل السلام عليه في الصلاة . وذلك مثل الصلاة عليه . والله يصلي على من يصلي عليه مرة عشراً ، ويسلم على من يسلم عليه مرة عشراً . فهذا هو الذي أمر به المسلمون خصوصاً للنبي ﷺ ؛ بخلاف السلام عليه عند قبره ، فإن هذا قدر مشترك بينه وبين جميع المؤمنين ، فإن كل مؤمن يسلم عليه عند قبره كما يسلم عليه في الحياة عند اللقاء . وأما الصلاة والسلام في كل مكان ، والصلاة على التعيين ، فهذا إنما أمر به في حق النبي ﷺ ، فهو الذي أمر الله العباد أن يصلو عليه ويسلموا تسلمياً .) [٢]

وقد (اتفق السلف وأئمة الدين على أن أهل مدينته لا يزورون قبره ، بل ولا يقفون عنده للسلام إذا دخلوا المسجد وخرجوا ، .. بل يكره لهم ذلك عند غير السفر كما ذكر ذلك مالك ، وبين أن ذلك من البدع التي لم يكن صدر هذه الأمة يفعلونه ...)[٣] (قال مالك ـ رحمة الله عليه ـ : ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما

---

(١) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٢) الفتاوى ٣٢١/٢٧-٣٢٥ . وانظر ١٦ ، ١١٦-١١٧ ، ١٢١ ، ٣٨٤. ١٥٥/١٦-١٥٢ ، وانظر إقتضاء الصراط المستقيم ٦٥٤/٢ وما بعدها .

(٣) الفتاوى ٢٤٣/٢٧ . وانظر إقتضاء الصراط المستقيم ٧٦١/٢-٧١٧ .

أصلح أولها . بل كانوا يأتون إلى مسجده فيصلون فيه خلف أبي بكر الصديق وعمر وعثمان وعلي ـ ﷺ أجمعين ، فإن هؤلاء الأربعة أئمة في مسجده والمسلمون يصلون خلفهم كما كانوا يصلون خلفه ، وهم يقولون في الصلاة : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، كما كانوا يقولون ذلك في حياته ، ثم إذا قضوا الصلاة قعدوا أو خرجوا ، ولم يكونوا يأتون القبر للسلام لعلمهم بأن الصلاة والسلام عليه في الصلاة أكمل وأفضل وهي المشروعة .

وأما دخولهم عند قبره للصلاة والسلام عليه هناك أو الصلاة والدعاء فإنه لم يشرعه لهم ، بل نهاهم وقال : ((لاتتخذوا قبري عيداً وصلو علي حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغني)) (١) .. وتخصيص الحجرة بالصلاة والسلام جعل لها عيداً ، وهو قد نهاهم عن ذلك ، ونهاهم أن يتخذوا قبره أو قبر غيره مسجداً ...

وكان أصحابه وهم خير القرون ، وهم أعلم الأمة بسنته ، وأطوع الأمة لأمره ، وكانوا إذا دخلوا إلى مسجده لا يذهب أحد منهم إلى قبره ، لا من دخل الحجرة ولا من خارجها ، وكانت الحجرة في زمانهم يدخل إليها من الباب إذا كانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ فيها ، وبعد ذلك ، إلى أن بنى الحائط الآخر ، وهم مع ذلك التمكن من الوصول إلى قبره لا يدخلون إليه ؛ لا لسلام ، ولا لصلاة عليه ، ولا لدعاء لأنفسهم ولا لسؤال عن حديث أو علم ...

والصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ خير قرون هذه الأمة التي هي خير أمة أخرجت للناس ، وهم تلقو الدين عن النبي ﷺ بلا واسطة ، ففهموا من مقاصده ﷺ وعاينوا من أفعاله ، وسمعوا منه شفاهاً ما لم يحصل لمن بعدهم . وكذلك كان يستفيد بعضهم من بعض ما لم يحصل لمن بعدهم ...) (٢)

(ولكن ابن عمر كان يأتيه فيسلم عليه وعلى صاحبيه عند قدومه من السفر ، وقد يكون فعله غير ابن عمر أيضاً ، فلهذا رأى من رأى من العلماء هذا جائزاً اقتداء بالصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وابن عمر كان يسلم ثم ينصرف ، ولا يقف ، يقول : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليكم يا أبا بكر ، السلام عليك

---

(١) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٢) الفتاوى ٣٨٦/٢٧-٣٨٨ . وانظر ٣٩٥ وما بعدها . وإقتضاء الصراط المستقيم ٦٥٧/٢-٦٧٠ .

يا أبت . ثم ينصرف و لم يكن جمهور الصحابة يفعلون كما يفعل ابن عمر ، بل كان الخلفاء وغيرهم يسافرون للحج وغيره ويرجعون ولا يفعلون ذلك ، إذ لم يكن هذا عندهم سنة لهم ، وكذلك أزواجه كن على عهد الخلفاء وبعدهم يسافرون إلى الحج ، ثم ترجع كل واحدة إلى بيتها كما وصاهن بذلك .

وكان أمداد اليمن الذين قال الله فيهم : ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾ [1] على عهد أبي بكر الصديق وعمر يأتون أفواجاً من اليمن للجهاد في سبيل الله ، ويصلون خلف أبي بكر وعمر في مسجده ، ولا يدخل أحد منهم إلى داخل الحجرة ، ولا يقف في المسجد خارجاً ؛ لا لدعاء ولا لصلاة ولا سلام ولا غيره ذلك ، وكانوا عالمين بسنته كما علمتهم الصحابة والتابعون ، وأن حقوقه لا زمة لحقوق الله ـ عز وجل ـ ، وأن جميع ما أمر الله به وأحبه من حقوقه وحقوق رسوله فإن صاحبها يؤمر بها في جميع المواضع والبقاع ، فليست الصلاة والسلام عند قبره المكرم بأوكد من ذلك في غير ذلك المكان ، بل صاحبها مأمور بها حيث كان ، إما مطلقاً وإما عند الأسباب المؤكدة لها ...) [2]

(ومع هذا فقد نقل عن مالك كراهة اتخاذ ذلك سنة ، و لم يأخذ في هذا بفعل ابن عمر ...) [3]

السلام عليه ﷺ في موضعين : وقد ذكر شيخ الإسلام أن السلام عليه ﷺ قد شرع للمسلمين في موضعين :

١ـ السلام في كل صلاة .

٢ـ السلام إذا دخل المسجد .

فالموضع الأول : فإنه (قد شرع للمسلين في كل أن يسلموا عليه خصوصاً وعلى عباد الله الصالحين عموماً من الملائكة والإنس والجن ، فعن ابن مسعود أنه قال : كنا نقول خلف رسول الله ﷺ في الصلاة : السلام على فلان وفلان ، فقال النبي ﷺ : ((إن الله هو السلام فإذا قعد أحدكم في الصلاة فليقل : التحيات لله

---

(١) سورة المائدة ٥٤ .

(٢) الفتاوى ٢٧/٤٠٠ـ٤٠١ . وانظر ٤١٣ وما بعدها .

(٣) الفتاوى ٢٧/٤١٦ .

والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ...)) قال النبي ﷺ : ((فإذا قلتم ذلك أصابت كل عبد صالح لله في السماء والأرض))[١]

وأما الموضع الثاني : السلام عليه عند دخول المسجد ، كما في المسند والسنن عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ورضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : ((إذا دخل أحدكم المسجد فليقل : بسم الله ، والسلام على رسول الله ، اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك ، وإذا خرج قال : بسم الله والسلام على رسول الله ، اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك))[٢] .

.. فكان السلام عليه بهذه الصفة وفي هذه المواضع أفضل وأنفع من السلام عليه عند قبره وأدوم ، وهذا مصلحة لا مفسدة فيها تخشى ، فبها يرضى الله ويوصل نفع ذلك إلى رسوله وإلى المؤمنين . وهذا مشروع في كل صلاة وعند دخول المسجد والخروج منه ؛ بخلاف السلام عند القبر . مع أن قبره من حين دفن لم يُمَكَّن أحد من الدخول إليه لا لزيارة ولا لصلاة ولا لدعاء ولا غير ذلك ...)[٣] .

وكذلك يشرع السلام عليه والصلاة في كل وقت وكل حين ، وهو في يوم الجمعة وليلتها آكد [٤] .

علماً بأن المصلي في كل صلاة يقول : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته .

صفة الوقوف للسلام عليه :

وأما السنة في الوقوف للسلام عليه ﷺ هل يستقبل القبلة أم يستقبل القبر فقد بين - رحمه الله - أن (العلماء إختلفوا في ذلك على قولين :

---

(١) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث . .

(٢) رواه ابن ماجة في المساجد والجماعات (ح٧٧١) واللفظ له ، ورواه الترمذي في كتاب الصلاة (ح٣١٤) وقال الترمذي : حديث فاطمة حديث حسن .

(٣) الفتاوى ٢٧/٣٩٧-٣٩٩ بتصرف يسير . وانظر ٤١٥ .

(٤) انظر الفتاوى ٢٧/٤٠٧ . ٣٢١ وما بعدها . ٢٦/١٤٦-١٤٧ ، ٢٤/٣٢٩ ، وإقتضاء الصراط المستقيم ٢/٧٧٦.

فالأكثرون يقولون : يستقبل الحجرة كمالك والشافعي وأحمد .

وأبو حنيفة يقول : يستقبل القبلة ، ويجعل الحجرة عن يساره في قول ، وخلفه في قول ؛ لأن الحجرة المكرمة لما كانت خارجة عن المسجد وكان الصحابة يسلمون عليه لم يكن يمكن أحد أن يستقبل وجهه ﷺ ويستدبر القبلة ، كما صار ذلك ممكناً بعد دخولها في المسجد ، بل كان إن استقبل القبلة صارت عن يساره ، وحينئذ فإن كانوا يستقبلونه ويستدبرون الغرب فقول الأكثرين أرجح ، وإن كانوا يستقبلون القبلة حينئذ ويجعلون الحجرة عن يسارهم فقول أبي حنفية أرجح .) [(١)]

(اتفق العلماء على أنه لا يستحب لمن سلم على النبي ﷺ عند قبره أن يقبل الحجرة ولا يتمسح بها لئلا يضاهي بيت المخلوق بيت الخالق ، ولإنه ﷺ قال : ((اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد)) [(٢)] وقال : ((لا تتخذوا قبري عيداً)) [(٣)]...

فإذا كان دين المسلمين في قبر النبي ﷺ الذي هو سيد ولد آدم فقبر غيره أولى أن لا يقبل ولا يستلم .

وقد حكى بعض العلماء في هذا خلافاً مرجوحاً ، وأما الأئمة المتبعون والسلف الماضون ، فما أعلم بينهم في ذلك خلافاً ، وا لله سبحانه أعلم .) [(٤)]

وقد بين ــ رحمه ا لله ــ أن الطواف والتسمح وتقبيل قبر نبينا ﷺ أو قبور غيره من الصالحين من أعظم البدع والمنكرات ، وأن من اتخذ ذلك ديناً استتيب ، فإن تاب وإلا قتل .) [(٥)]

---

(١) الفتاوى ٣٣٠/٢٧ ، ١١٧ .

(٢) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٣) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٤) الفتاوى ٩٧/٢٦ .

(٥) الفتاوى ١٢١/٢٦ .

الدعاء عند قبر النبي ﷺ :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ (نص أئمة السلف على أنه لا يقف عند[قبره ﷺ] للدعاء مطلقاً ، كما ذكر ذلك إسماعيل بن إسحاق[1] في كتا(ب) المبسوط[2] وذكره القاضي عياض[3] .

قال مالك : لا أرى أن يقف عند قبر النبي ﷺ ويدعو ؛ ولكن يسلم ويمضي . وقال أيضاً في المبسوط[4] : لا بأس لمن قدم من سفر أو خرج إلى سفر أن يقف على قبر النبي ﷺ فيصلي عليه ويدعو له ولأبي بكر وعمر ، فقيل له : فإن ناساً من أهل المدينة لا يقدمون من سفر ولا يريدونه ، يفعلون ذلك في اليوم مرة أو أكثر ، وربما وقفوا في الجمعة أو في اليوم المرة والمرتين أو أكثر عند القبر فيسلمون ويدعون ساعة ، فقال : لم يبلغني هذ عن أحد من أهل الفقه ببلدتنا ، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ، ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك ؛ إلا من جاء من سفر أو أراده . قال ابن قاسم : رأيت أهل المدينة إذا خرجوا منها أو دخلوها أتو القبر وسلموا . قال : وذلك دأبي .[5]

فهذا مالك وهو أعلم أهل زمانه ـ أي زمن تابعي التابعين بالمدينة النبوية ـ الذين كان أهلها في زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أعلم الناس بما يشرع عند قبر النبي ﷺ يكرهون الوقوف للدعاء بعد السلام عليه ، وبين أن المستحب هو الدعاء له ولصاحبيه ، وهو المشروع من الصلاة والسلام .وأن ذلك أيضاً لا يستحب لأهل المدينة كل وقت ؛ بل عند القدوم من سفر أو إرادته ؛ لأن ذلك تحية له ، والحيا لا يُقْصَد بيته كل وقت لتحيته ، بخلاف القادمين من السفر ، وقال مالك في رواية ابن وهب : إذا سلم على النبي ﷺ يقف وجهة القبر ؛ لا إلى القبلة ، ويدنو ويسلم ،ولا

---

(١) هو الإمام الحافظ أبو القاسم بن إسحاق بن إبراهيم القيسي القرطبي المالكي صاحب التصانيف توفي في صفر سنة ٣٨٤ . انظر السير ٥٠٢/١٦ ، والأعلام ٣١٠/١ .

(٢) كتاب المبسوط في الفقه . ذكر الزركلي أنه غير مطبوع . الأعلام ١٠٨/٣ .

(٣) انظر الشفاء ٨٥/٢ ، فصل في حكم زيارة قبر النبي ﷺ .

(٤) انظر الشفاء للقاضي عياض ٨٨/٢ في آخر الفصل .

(٥) انظر الشفاء ٨٤/٢ .

يمس القبر بيده .)[١] فقوله في هذه الرواية (إذا سلم ودعا) قد يريد بالدعاء السلام فإنه يدنو ويسلم ولا يمس القبر بيده ، ويؤيد ذلك أنه قال في رواية ابن وهب : يقول السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته . وقد يراد أنه يدعو له بلفظ الصلاة ، لما ذكر في الموطأ من رواية عبد الله بن دينار أنه كان يصلي على النبي ﷺ وعلى أبي بكر وعمر . وفي رواية يحيى بن يحيى وقد غلطه ابن عبد البر وغيره وقالوا : إنما لفظ الرواية على ما ذكره ابن القاسم والقعنبي وغيرهما يصلي على النبي ويسلم على أبي بكر وعمر . وقال أبو الوليد الباجي : وعندي أنه يدعو للنبي ﷺ بلفظ الصلاة ولأبي بكر وعمر لما في حديث ابن عمر من الخلاف[٢] .

وفي سنن أبي سعيد بن منصور : أن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب رأى رجلاً يختلف إلى قبر النبي ﷺ ويدعو عنده ، فقال : ياهذا ! إن رسول الله ﷺ قال ((لاتتخذوا قبري عيداً ، وصلوا علي فإن صلاتكم حيثما كنتم تبلغني)) فما أنت ورجل بالأندلس منه إلا سواء))[٣] (ولم يقل أحد من الأئمة إنه يستقبل القبر عند الدعاء . وليس في ذلك إلا حكاية مكذوبة تروى عن مالك[٤]، ومذهبه بخلافها .) [٥]

قصد القبر للدعاء :

وقد أكد شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله تعالى ــ على أنه لا يشرع للعبد أن يقصد قبر نبي ولا غيره لأجل الدعاء عنده ، لما يظنه بعضهم أن ذلك أدعى لقبول الدعاء وكشف البلاء ، وبين ــ رحمه الله ــ أن هذا من البدع المحدثة (التي لم يفعلها رسول الله ﷺ ولا أحد من أصحابه ، ولا من أئمة الدين الذين يقتدي بهم المسلمون في دينهم ، ولا أمر بذلك ولا استحبه : لا رسول الله ﷺ ولا أحد من

---

(١) الفتاوى ٢٧/ ١١٧-١١٨ . وانظر اقتضاء الصراط المستقيم ٧٧٥/٢ .

(٢) انظر الرد على السبكي ص ١١٢ ، ٢٢٢ ، و انظر اقتضاء الصراط المستقيم ٧٢٠/٢ .

(٣) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث . وانظر الفتاوى ١٢١/٢٧-١٢٢ .

(٤) وسيأتي ذكر هذه الحكاية في مبحث التوسل إن شاء الله . انظر ص

(٥) الفتاوى ١٩٠/٢٧ . وانظر اقتضاء الصراط المستقيم ٦٥٦/٢ .

أصحابه ، ولا أئمة الدين ؛ بل لا يعرف هذا عن أحد من أهل العلم والدين من القرون المفضلة التي أثنى عليها رسول الله ﷺ من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، لا من أهل الحجاز ولا من اليمن ، ولا من الشام ولا العراق ، ولا مصر ولا المغرب ولا خراسان ، وإنما أحدث بعد ذلك .

ومعلوم أن كلما لم يسنه ولا استحبه رسول الله ﷺ ولا أحد من هؤلاء الذين يقتدي بهم المسلمون في دينهم فإنه يكون من البدع المنكرات ...

فمن اتخذ عملاً من الأعمال عبادة وديناً وليس ذلك في الشريعة واجباً ولا مستحباً فهو ضال باتفاق المسلمين .

وقصد القبور لأجل الدعاء عندها رجاء الإجابة هو من هذا الباب ، فإنه ليس من الشريعة ...

ولهذا كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا نزلت بهم الشدائد وأرادوا دعاء الله لكشف الضر ، أو طلب الرحمة لا يقصدون شيئاً من القبور ، لا قبور الأنبياء ولا غير الأنبياء ، حتى إنهم لم يكونوا يقصدون الدعاء عند قبر النبي ﷺ ...) [1]

وبهذا يتبين أنه لا يسوغ لأحد أن يقصد القبور للدعاء ، وإن كان قد يحصل إجابة دعاء عندها ؛ فإن هذا لايسوغ قصدها لعدة وجوه بينها شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ ومنها :

أحدها : أن المشركين وأهل الكتاب يقضى كثير من حوائجهم بالدعاء عند الأصنام ، وعند تماثيل القديسين ، والأماكن التي يعظمونها ؛ وتعظيمها حرام في زمن الإسلام . فهل يقول مسلم : إن مثل ذلك سوغ لهم هذا الفعل المحرم بإجماع المسلمين ...

الثاني : أن هذا الباب يكثر فيه الكذب ، لكون الكذب مقروناً بالشرك كما تقدم[2]، والصدق مقرون بالتوحيد والإخلاص ، ومن ذلك :

الإخبار عن أحواله بأمور يكثر فيها الكذب .

---

(١) الفتاوى ٢٧/١٥١–١٥٣ . وانظر اقتضاء الصراط المستقيم ٢/٧٢١–٧٢٥ .

(٢) انظر ص ٥٨٤

ومنها الإخبار بما يقضى عنده من الحاجات ، فما أكثر ما يحتال المعظمون للقبر بحيل يلبسون على الناس أنه حصل به خرق عادة أو قضاء حاجة ، وما أكثر من يخبر بما لا حقيقة له .

ومنها : أن هذا الإدعاء يكثر عند الغلاة في القبور ، وخاصة الرافضة الذين هم أكذب الناس ، وأعظم الطوائف المنتسبة إلى الإسلام تعظيماً للقبور .

وكذلك الجهال من ضلال العبادة وأتباع المشايخ ، فإنهم أعظم الناس غلواً بعد الرافضة ، وأكثر الطوائف كذباً ...

الوجه الثالث : أنه إذا قضيت حاجة مسلم وكان قد دعا دعوة عند قبره ، فمن أين له أن لذلك القبر تأثيراً في تلك الحاجة .

الوجه الرابع : أنه إذا قدر أن للقبور نوع تأثير في ذلك ، فيقال : ليس كل سبب نال به الإنسان حاجته يكون مشروعاً ، بل ولا مباحاً ، وإنما يكون مشروعاً إذا غلبت مصلحته على مفسدته ، أما إذا غلبت مفسدته فإنه لا يكون مشروعاً بل محظوراً ، وإن حصل به بعض الفائدة ، كتحريم السحر ، والميسر ، والخمر ونحوها .(١)

(ومن المعلوم بالاضطرار أن الدعاء عند القبور لو كان أفضل من الدعاء عند غيرها ، وهو أحب إلى الله وأجوب ؛ لكان السلف أعلم بذلك من الخلف ، وكانوا أسرع إليه ، فإنهم كانوا أعلم بما يحبه الله ويرضاه ، وأسبق إلى طاعته ورضاه ، ولكان النبي ﷺ يبين ذلك ، ويرغب فيه ؛ فإنه أمر بكل معروف ، ونهى عن كل منكر ، وما ترك شيئاً يقرب إلى الجنة إلا وقد حدث أمته به ، ولا شيئاً يبعد عن النار إلا وقد حذر أمته منه ، وقد ترك أمته على البيضاء ليلها كنهارها ، لا ينزوي عنها بعده إلا هالك ، فكيف وقد نهى عن هذا الجنس وحسم مادته بلعنه ونهيه عن اتخاذ القبور مساجد .. سداً للذريعة ، فكيف إذا تحققت المفسدة بأن صار العبد يدعو الميت ويدعو به ...)(٢)

---

(١) الفتاوى ١٧٢/٢٧ ــ ١٧٧ بتصرف .

(٢) الفتاوى ١٢٣/٢٧-١٢٤ .

وكون المكان فيه قبر نبي أو ولي فإنه (لم يقل أحد من سلف الأمة وأئمتها : أن الدعاء فيه أفضل من غيره ؛ ولكن هذا مما ابتدعه بعض أهل القبلة مضاهاة للنصارى وغيرهم من المشركين ، فأصله من دين المشركين ؛ لا من دين عباد الله المخلصين ؛ كاتخاذ القبور مساجد ، فإن هذا لم يستحبه أحد من سلف الأمة وأئمتها ؛ ولكن ابتدعه بعض أهل القبلة مضاهاة لمن لعنهم رسول الله ﷺ من اليهود والنصارى) [1]

(كما أنه لو كان الدعاء عند قبور الأنبياء والصالحين أفضل من الدعاء عند غيرها لكان ينبغي أن تستحب الصلاة في تلك البقاع ، واتخاذها مساجد ؛ فإن الصلاة مقرونة بالدعاء ، ولهذا لا يقول مسلم إن الموضع الذي ينهى عن الصلاة فيه كأعطان الإبل أو المقبرة والمواضع النجسة يكون الدعاء فيه أفضل من الدعاء في غيره ؛ بل من قال ذلك فقد راغم الرسول ﷺ ، وجعل ما نهى عنه من الشرك وأسباب الشرك مماثلاً أو مفضلاً على ما أمر به من التوحيد وعبادة الله وحده .) [2]

الخلاصة :

ويمكن أن نجمل ما سبق بعدة نقاط :

أولا : مشروعية السلام على رسول الله ﷺ في كل وقت وفي كل مكان ، دون الحاجة إلى الذهاب إلى قبره ، وأن ذلك لا يشرع وقد رخص الإمام مالك بذلك لمن قدم من سفر أو أراده استناداً على فعل ابن عمر .

ثانياً : الكيفية الشرعية للسلام عليه ﷺ بأن يستقبل القبر ، وقيل القبلة ويسلم على النبي ﷺ بقوله : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، ثم يسلم على أبي بكر ثم على عمر ، ثم ينصرف ، ولا يقف للدعاء .

ثالثاً : الدعاء عند القبر له ثلاث حالات :

الأولى : أن يقف عند القبر في أثناء السلام يدعو للنبي ﷺ بالوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة والصلاة عليه . وهذا هو الذي عناه الإمام مالك في رواية ابن وهب عنه . وفي استقبال القبر أو القبلة قولان .

---

(١) الفتاوى ٢٧/١٣٠ . وانظر ١٨٠-١٨١ .

(٢) الفتاوى ٢٧/١٦١ .

الثانيـة : أن يقصـد القـبر للسـلام والدعـاء لنفسـه عنـد القـبر لاعتقـاده أن ذلـك أحـرى لقبول الدعاء ، فهـذا أمر منكـر ومبتـدع لم يعـرف عـن أحـد مـن سـلف الإمـة مـن الصحابة ولا التـابعين ولا الأئمـة المعتـبرين . وقـال شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة ـ رحمـه الله تعـالى ـ إنـه بدعـة باتفـاق المسـلمين(١) .

الثالثـة : أن يقصـد القـبر لدعـاء المقبـور وطلـب الحاجـات منـه ، ودفـع الكربات ، وهـذا شـرك أكـبر يجـب علـى صاحبـة المبادة إلى التوبـة وإلا هلـك .

كمـا تبـين ممـا سبق أن السـفر إلى زيـارة قـبر النـبي ﷺ وشـد الرحـال إليـه أمـر غـير مشـروع ، لعـدم ورود النـص بذلـك ، ولا عـبرة بمـن يخـالف في هـذا انسـياقاً مـع عاطفتـه ، أو اتباعاً لشـيخه أو مجتمعه ، فـإن العـبرة إنمـا هـي في اتبـاع النـص .

وهـذا بخـلاف زيـارة قـبره للسـلام عليـه ﷺ دون شـد الرحـال لذلـك ؛ فـإن هـذا جـائز باتفـاق المسـلمين علـى الصفـة الـتي وردت بهـا السـنة ، كمـا تقـدم . وأن لا يتعـدى ذلـك إلى مـا يستحسـنه بعـض الجهـال مـن التمسـح بالقـبر(٢) والدعـاء عنـده ، زاعمـاً أن ذلـك يكـون أرجـى للإجابـة ، فينبغـي للمسـلم أن يحتـاط لدينـه ، وأن لا يقـدم رأيـه أو رأي غـيره علـى السنة ، فـإن بعضهـم إذا ذكـرت لـه هـذا الحـق أعـرض وقـال : إنكـم تفضلـون زيـارة الجمـاد علـى زيـارة خـير العبـاد . وهـذا كـلام يـراد بـه رد النصـوص بمجـرد الهـوى واتبـاع الآبـاء والأجـداد .

---

(١) الفتـاوى ٤٧١/١٧ .

(٢) قـال ابـن قدامـة في المغـني : " ولا يسـتحب التمسـح بحـائط قـبر النـبي ﷺ ولا تقبيلـه . قـال أحمـد : مـا أعـرف هذا . قال الأثرم : رأيـت أهـل العلـم مـن أهـل المدينـة لا يمسُّـون قـبر النـبي ﷺ يقومـون مـن ناحيـة فيسـلمون ، قـال أبو عبـدالله : وهكـذا كـان ابـن عمـر يفعـل . المغـني ٤٦٨/٥ .

والأمر ليـس مـن بـاب الاستحباب بـل إن أقـل أحوالـه أن يقـال لا يجـوز فعلـه لَمَّـا سـبق مـن كـلام شـيخ الإسـلام مـن أن النـبي ﷺ نهـى عـن الصـلاة وقـت طلـوع الشـمس وغروبهـا سـداً لذريعـة الشـرك ، فمـا بـالك بالتمسـح بآثـار الصـالحين طلبـاً للبركـة فـإن هـذا مـن بـاب أولى لكونـه أدعـى للشـرك مـن الشـرك بـالكواكب ، كمـا سـبق بيانـه . والله تعـالى أعلـم .

تتبع الآثار :

لقد سبق الحديث على أن مبدأ العبادت الاتباع وعدم الابتداع ، وأن على المسلم أن يعتنى بذلك ، (وينظر ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ الذين هم أعلم الناس بما جاء به ، وأعلم الناس بما يخالف ذلك من دين أهل الكتاب والمشركين والمجوس والصابئين ، فإن هذا أصل عظيم .

ولهذا قال الأئمة ـ كأحمد بن حنبل وغيره ـ أصول السنة هي التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ .

ومن تأمل هذا الباب وجد كثيراً من البدع أحدثت بآثار أصلها عنهم[1] ، مثل ما يروى في فضائل بقاع في الشام ، من الجبال والغيران ، ومقامات الأنبياء ونحو ذلك ، مثل ما يذكر في جبل قاسيون[2] ، ومقامات الأنبياء التي فيه ، وما في إتيان ذلك من الفضيلة ، حتى إن بعض المفترين من الشيوخ جعل زيارة مغارة فيه ثلاث مرات تعدل حجة ، ويسمونها مقامات الأنبياء .

والآثار التي تروى في ذلك لا تصل إلى الصحابة ، وإنما هي عمن دونهم ممن أخذها من أهل الكتاب ، وإلا لو كان لهذا أصل لكان هذا عند أكابر الصحابة الذين قدموا الشام مثل بلال بن رباح ، ومعاذ بن جبل وعبادة بن الصامت ؛ بل ومثل أبي عبيدة بن الجراح أمين الأمة وأمثالهم ، فقد دخل الشام من أكابر الصحابة أفضل ممن دخل بقية الأمصار غير الحجاز ، فلم ينقل عن أحد منهم اتباع شيء من آثارة الأنبياء ، لا مقابرهم ولا مقاماتهم ، فلم يتخذوها مساجد ، ولا كانوا يتحرون الصلاة فيها ، والدعاء عندها ؛ بل قد ثبت عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان في سفر فرأى قوماً ينتابون مكاناً يصلون فيه ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : هذا مكان صلى فيه

---

(١) أي عن أهل الكتاب .

(٢) قَاسيونُ : بالفتح وسين مهملة وضم الياء ، وهو الجبل المشرف على مدينة دمشق ، وفيه عدة مغارات ، وآثار للأنبياء وكهوف ، وفي سفحه مقبرة أهل الصلاح ، وهو جبل يقدسه بعض العامة . فيه مغارة تعرف بمغارة الدم ، يقال بها قتل قابيل أخاه هابيل ، وهناك لون شبيه بالدم يزعمون أنه باق إلى الآن ، وفيه حجر ملقى يزعمون أنه الحجر الذي فلق به هامته ، كما أن فيه مغارة الجوع يزعمون أنه مات فيها أربعون نبياً . فتوح البلدان ٢٩٥/٤ ـ ٢٩٦ . فانظر ـ رحمك الله ـ إلى المدى الذي وصلت إليه عقول هؤلاء ، مما يبين لك مدى حقيقة خوف النبي ﷺ من تعظيم الأشخاص والأمكنة مما لم يشرعه .

رسول الله ﷺ ، فقال : ومكان صلى فيه رسول الله ﷺ ؟ ! أتريدون أن تتخذوا آثار أنبيائكم مساجد ؟ إنما هلك من كان قبلكم بهذا ، من أدركته الصلاة فيه فليصل وإلا فليمض .(١)

ولما دخل البيت المقدس وأراد أن يبني مصلى المسلمين قال لكعب : أين أبنيه ؟ قال ابنه خلف الصخرة . قال : خالطتك يهودية يا ابن اليهودية ؛ بل أبنيه أمامها (٢).

ولهذا كان عبد الله بن عمر إذا دخل بيت المقدس صلى في قبليه ، ولم يذهب إلى الصخرة ...

ولم تكن الصحابة يعظمونها ، وقالوا : إنما بنى القبة عليه عبد الملك بن مروان لما كان محارباً لابن الزبير ، وكان الناس يذهبون إلى الحج فيجتمعون به عظم الصخرة ، ليشتغلوا بزيارتها عن جهة ابن الزبير ، وإلا فلا موجب في شريعتنا لتعظيم الصخرة ، وبناء القبة عليها وسترها بالنطاع والجوخ(٣)، ولو كان هذا من شريعتنا لكان عمر وعثمان ومعاوية ﷺ أحق بذلك ممن بعدهم ، فإن هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ وأعلم بسنته ، وأتبع لها ممن بعدهم .

وكذلك الصحابة لم يكونوا يقصدون قبر الخليل ﷺ ؛ بل ولا فتحوه ؛ بل ولا بنوا على قبر أحد من الأنبياء مسجداً ...

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (ح٢٧٣٤) ، وذكره شيخ الإسلام – رحمه الله – في التوسل والوسيلة ٢٠٣ واقتضاء الصراط المستقيم ٧٤٤/٢ وذكره الحافظ في الفتح ٥٩٦/١ ، وابن وضاح في البدع ٤١ – ٤٢ وابن الجوزي في مناقب عمر ١٢٣ . وقال شيخ الإسلام – رحمه الله – في قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة إسناده صحيح ٢٠٣ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣٨/١ ولفظه : (عن عبيد بن آدم قال سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لكعب أين ترى أن أصلي فقال إن أخذت عني صليت خلف الصخرة فكانت القدس كلها بين يديك فقال عمر رضي الله عنه ضاهيت اليهودية لا ولكن أصلي حيث صلى رسول الله ﷺ فتقدم إلى القبلة فصلى ثم جاء فبسط رداءه فكنس الكناسة في ردائه وكنس الناس)). وقال أحمد شاكر اسناده حسن (ح ٢٦١) ، وأورده ابن كثير في مسند الفاروق (١٦٠/١) وقال : " وهذا حديث حسن الإسناد : اختاره الحافظ الضياء في كتابه ، وقال محققه : اسناده حسن . وهو في الموسوعة الحديثة (مسند الإمام أحمد) برقم (ح٢٦١) قال المحقق وإسناده ضعيف لضعف أبي سنان .

(٣) الجوخ نوع من الكساء الفاخر ، قال في المعجم الوسيط ١٤٥/١ : كساء من الخز الصفيق .

ولما ظهر قبر دانيال بتستر[١] كتب فيه أبو موسى إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فكتب إليه عمر ، "إذا كان بالنهار فاحفر ثلاثة عشر قبراً ثم ادفنه بالليل في واحد منها ، وعفر قبره لئلا يفتتن به الناس"[٢] . وقد تأملت الآثار التي تروى في قصد هذه المقامات ، والدعاء عندها أو الصلاة فلم أجد لها عن الصحابة أصلاً ؛ بل أصلها عمن أخذ عن أهل الكتاب .)[٣]

ومعلوم أن أصحاب رسول الله ﷺ من السابقين الأولي والتابعين لهم بإحسان ، قد فتحوا البلاد بعد موت النبي وسكنوا بالشام والعراق ومصر وغير هذه الأمصار ، وهم كانوا أعلم بالدين وأتبع له ممن بعدهم ، فليس أحد أن يخالفهم فيما كانوا عليه . فما كان من هذه البقاع لم يعظمون ، أو لم يقصدوا تخصيصه بصلاة أو دعاء ، أو نحو ذلك لم يكن لنا أن نخالفهم في ذلك ، وإن كان بعض من جاء بعدهم من أهل الفضل والدين فعل ذلك ، لأح اتباع سبيلهم أولى من اتباع سبيل من خالف سبيلهم ، وما من احد نقل عنه ما يخالف سبيلهم إلا وقد نقل عن غيره ممن هو أعلم وأفضل منه ، أنه خالف سبيل هذا المخالف .)[٤]

ونقل عن عمر بن الخطاب ﷺ لما بلغه (أن أقواماً يزورون الشجرة التي بويع تحتها بيعة الرضوان ، ويصلون هناك ، فأمر بقطع الشجرة [٥] .)[٦]

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ في جواب سؤال عن جواز تعظيم بعض الأمكنة لكون النبي ﷺ رؤي عندها .. (ومن المعلوم أن النبي ﷺ كان يصلي في

---

(١) قال الياقوت الحموي : " تستر بضم التاء ثم السكون ، وفتح التاء الأخرى ، رواء ، أعظم مدينة بخورستان اليوم " . انظر معجم البلدان ٢/٢٩ .

(٢) ذكر هذه الواقعة الطبري في حوادث سنة ١٧/ والبلاذري ص ٣٨٦ ، وابن كثير في البداية والنهاية ٢/٤٠-٤٢ ، وقال اسناده صحيح إلى أبي العالية وذكر له طرقاً عديدة . .

(٣) الفتاوى ١٥/١٥٢-١٥٥ . وانظر ٢٧/٣٣ ، ١٣٤-١٣٩ . ١/٤٨٠ . وانظر اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٣٣١ . ٢/٨٠٨. ٦٨٠ ، ومنهاج السنة ٤٨٠-٤٨١ .

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/٨١٣-٨١٤ .

(٥) رواه ابن سعد في الطبقات ٢/١٠٠ ، و ابن وضاح في البدع ٤٢ ، وأورده الطرطوشي في الحوادث والبدع ١٤٨-١٦٠ . وابن الجوزي في مناقب عمر ١٢٢-١٢٣ . وذكره شيخ الاسلام في الاقتضاء ٧٤٤-٧٤٥ وذكر الحافظ في الفتح ٤٤٨ وقال : عند ابن سعد باسناد صحيح عن نافع أن عمر فذكره .

(٦) الفتاوى ٢٧/١٧١ . وانظر منهاج السنة ١/٤٨١ . وإقتضاء الصراط المستقيم ٢/٨٠٨-٨١٠ .

أسفاره في مواضع ، وكان المؤمنين يرونه في المنام في مواضع ، وما اتخذ السلف شيئاً من ذلك مسجداً ولا مزاراً ، ولو فتح هذا الباب لصار كثير من ديار المسلمين أو أكثرها مساجد ومزارات ؛ فإنهم لا يزالون يرون النبي ﷺ في المنام ، وقد جاء إلى بيوتهم ، ومنهم من يراه مراراً كثيرة...)(١)

ولهذا فإن تعظيم الأمكنة غير المشروعة ، و التعلق بهذه الحجج الواهية من الأمور المبتدعة في دين الله جل وعلا ، والتي لم تكن موجودة في القرون المفضلة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، فـ (لم يكن الصحابة يسافرون إلى قبر الخليل ولا غيره من قبور الصالحين ، ولا سافروا إلى زيارة جبل طور سيناء وهو البقعة المباركه والوادي المقدس الذي ذكره الله في كتابه ، وكلم عليه كليمه موسى عليه السلام ؛ بل ولا كان النبي ﷺ وأصحابه في حياته وبعد مماته يزورون جبل حراء الذي نزل الوحي على رسول الله ﷺ فيه ، ولم يكونوا يزورون بمكة غير المشاعر ــ المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة ــ في الحج ، وكذلك لم يكن أحد من أصحاب النبي ﷺ يقصد الدعاء عند قبر أحد من الأنبياء ؛ لاقبر نبينا ﷺ ولا قبر الخليل ولا غيرهما .) (٢)

(ولهذا لم يستحب علماء السلف من أهل المدينة وغيرها قصد شيء من المساجد والمزارات التي بالمدينة وما حولها بعد مسجد النبي ﷺ إلا مسجد قباء ؛ لأن النبي ﷺ لم يقصد مسجداً بعينه يذهب إليه إلا هو .

وقد كان بالمدينة مساجد كثيرة لكل قبيلة من الأنصار مسجد ، لكن ليس في قصده دون أمثاله فضيلة ، بخلاف مسجد قباء ، فإنه أول مسجد بني بالمدينة على الإطلاق ، وقد قصد الرسول ﷺ الذهاب إليه ، وصح عنه ﷺ أنه قال : ((من توضأ في بيته ثم أتى مسجد قباء لا يريد إلا الصلاة فيه كان كعمره) (٣) .

---

(١) الفتاوى ١٣٥/٢٧ .

(٢) الفتاوى ١١٠/٢٧ . وانظر ٢٥٣/٢٧ ، ٥٠٠ .

(٣) رواه ابن ماجة في إقامة الصلاة والسنة فيها (ح١٤١٢) والنسائي في المساجد (ح٦٩٩) وأحمد ٤٨٧/٣ . وعبد بن حميد في مسنده (ح ٤٦٩) . وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه ، وقد تقدم من حديث ابن عمر في الصحيحين وغيرهما : أنه ﷺ كان يزور قباء . انظر ص ٦٥١

ومع هذا فلا يسافر إليه ؛ لكن إذا كان الإنسان بالمدينة أتاه ولا يقصد إنشاء السفر إليه ...) [(١)]

ثم إنه ثمت مسألة مهمة لا بد من ملاحظتها عند قصد مثل هذه الأماكن المشروعة كبيت المقدس وقباء وغيرها من الأمكنة ، وهو : عدم قصدها في وقت إعتاده الضلال بالزيارة أمر محرم .

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ : (وأما زيارة بيت المقدس فمشروعة في جميع الأوقات ؛ ولكن لا ينبغي أن يؤتى في الأوقات التي تقصدها الضلال : مثل وقت عيد النحر ، فإن كثيراً من الضلال يسافرون إليه ليقفوا هناك ، والسفر إليه لأجل التعريف به معتقداً أن هذا قربة محرم بلا ريب ، وينبغي أن لا يتشبه بهم ولا يكثر سوادهم)[(٢)]

الاعتبار في الاقتداء ما فعله ﷺ قصداً لا اتفاقاً :

ولقد بين شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ أن المعتبر في الاقتداء بالنبي ﷺ : موافقته فيما قصد به التعبد ، لا ما تعبد به اتفاقاً بلاقصد ، إذ (.. المقصود هنا متابعة النبي ﷺ ، وهو أنه يعتبر فيه متابعته في قصده ، فإذا قصد مكاناً للعبادة فيه كان قصده لتلك العبادة سنة ، وأما إذا صلى فيه اتفاقاً من غير قصد لم يكن قصده للعبادة سنة ، ولهذا لم يكن جمهور الصحابة يقصدون مشابهته في ذلك ، وابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ مع أنه كان يحب مشابهته في ظاهر الفعل لم يكن يقصد الصلاة إلا في الموضع الذي صلى فيه لا في كل موضع نزل به ، ولهذا رخص أحمد بن حنبل في ذلك إذا كان يسيراً ، كما فعله ابن عمر ، ونهى عنه ـ رضي الله عنه ـ إذا كثر ؛ لأنه يفضي إلى المفسدة ، وهي اتخاذ آثار الأنبياء مساجد ، وهي التي تسمى المشاهد ، .. مما ابتدعه من لم يعرف شريعة الإسلام ، وما بعث الله به محمداً ﷺ من كمال التوحيد وإخلاص الدين لله ، وسد أبواب الشر التي يفتحها الشيطان لبني آدم ، ولهذا يوجد [هذا في] من كان أبعد عن التوحيد وإخلاص الدين لله ومعرفة دين الإسلام [ممن] هم أكثر تعظيماً لمواضع الشرك ، فالعارفون بسنة رسول الله ﷺ

---

(١) الفتاوى ١٧/٤٦٩-٤٧٠ .

(٢) الفتاوى ٢٧/١٥ .

وحديثه أولى بالتوحيد وإخلاص الدين لله ، وأهل الجهل بذلك أقرب إلى الشرك والبدع ...) (١)

وأما ما فعله بحكم الاتفاق لا القصد ، فقد بين ـ رحمه الله ـ أنه من البدع المحدثة حيث قال : (وأما ما فعله ﷺ بحكم الاتفاق و لم يقصده ـ مثل أن ينزل بمكان ويصلي بمكان يصلي فيه لكونه نزله لا قصداً لتخصيصه به بالصلاة والنزول فيه ـ فإذا قصدنا تخصيص ذلك المكان بالصلاة فيه ، أو النزول لم نكن متبعين ، بل هذا من البدع التي كان ينهى عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما ثبت بالإسناد الصحيح من حديث شعبة عن سليمان التيمي عن المعروف بن سويد قال كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سفر فصلى الغداة ثم أتى على مكان فجعل الناس يأتونه فيقولون : صلى فيه النبي ﷺ ، فقال عمر رضي الله عنه : إنما هلك أهل الكتاب أنهم اتبعوا آثار أنبياءهم فاتخذوها كنائس وبيعاً ، فمن عرضت له الصلاة فليصل وإلا فليمض .(٢)

فلما كان النبي ﷺ لم يقصد بالصلاة فيه بل صلى فيه لأنه موضع نزوله رأى عمر أن مشاركته في صورة الفعل من غير موافقة له في قصده ليس متابعة ، بل تخصيص ذلك المكان بالصلاة من بدع أهل الكتاب التي هلكوا بها ، ونهى المسلمين عن التشبه بهم في ذلك ففاعل ذلك متشبه بالنبي ﷺ في الصورة ومتشبه باليهود والنصارى في القصد الذي هو عمل القلب .) (٣)

وقال أيضاً : (وأما الأمكنة التي كان النبي ﷺ يقصد الصلاة أو الدعاء عندها بقصد الصلاة فيها أو الدعاء سنة ، اقتداء برسول الله ﷺ واتباعاً له ، كما إذا تحرى الصلاة أو الدعاء في وقت من الأوقات فإن قصد الصلاة أو الدعاء في ذلك الوقت سنة كسائر عباداته وسائر الأفعال التي فعلى على وجه التقرب . ومثل هذا : ما خرجاه في الصحيحين عن يزيد بن أبي عبيد قال : " كان سلمة بن الأكوع يتحرى الصلاة عند الاصطوانة التي عند المصحف ، فقلت له : يا أبا مسلم ، أراك تتحرى الصلاة عند

---

(١) الفتاوى ٤٩٦/١٧-٤٩٧ . وانظر ٥٠٢/٢٧ ، ٤٠٩/١٠ وما بعدها . وإقتضاء الصراط المستقيم ٧٤٢/٢ وما بعدها .

(٢) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث والآثار .

(٣) الفتاوى ٢٨٠/١-٢٨١ . وانظر التوسل والوسيلة ٢٠٣ . وإقتضاء الصراط المستقيم ٧٣٤/٢-٤٩٥ .

هذه الاصطوانة ؟ قال : رأيت النبي ﷺ ايتحرى الصلاة عندها " [(١)]. وفي رواية لمسلم عن سلمة بن الكوع : " أنه كان يتحرى الصلاة موضع المصحف ، يسبح فيه ، وذكر أن رسول الله ﷺ كان يتحرى ذلك المكان ، وكان بين المنبر والقبلة قدر ممر الشاة". [(٢)]

وقد ظن بعض المصنفين أن هذا مما اختلف فيه وجعله والقسم الأول[(٣)] سواء ، وليس بجيد ، فإنه هنا أخبر أن النبي ﷺ كان يتحرى البقعة . فكيف لا يكون هذا القصد مستحباً ؟ . نعم ؛ إيطان [(٤)] بقعة في المسجد لا يصلي إلا فيها ؛ منهي عنه كما جاءت به السنة ، والإيطان ليس هو التحري من غير إيطان ، فيجب الفرق بين اتباع النبي ﷺ والاستنان به فيما فعله ، وبين ابتداع بدعة لم يسنها لأجل تعلقها به.)[(٥)]

وثم مسألة أخرى وهي : فيما إذا فعل فعلاً من المباحات لسبب من الأسباب فهل نفعله نحن تشبهاً به مع انتفاء السبب أو لا ؟.

ذكر شيخ الإسلام أن العلماء تنازعوا في ذلك (فمنهم من يستحب ذلك ومنهم من لا يستحبه ، وعلى هذا يخرج فعل ابن عمر رضي الله عنهما ، بأن النبي ﷺ كان يصلي في تلك البقاع التي في طريقه ؛ لأنها كانت منزله لم يتحر الصلاة فيها لمعنى في البقعة . فنظير هذا أن يصلي المسافر في منزله ، وهذا سنة ، فأما قصد الصلاة في تلك البقاع التي صلى فيها اتفاقاً فهذا لم ينقل عن غير ابن عمر من الصحابة ، بل كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار يذهبون من المدينة إلى مكة حجاجاً وعماراً ومسافرين ، ولم ينقل عن أحد منهم أنه تحرى الصلاة في مصليات النبي ﷺ ، ومعلوم أن هذا لو كان عندهم مستحباً لكانوا إليه أسبق ، فإنهم أعلم بسنته وأتبع لها من غيرهم ، وقد قال ﷺ : ((عليكم بسنتى وسنة الخلفاء

---

(١) رواه البخاري في الصلاة (ح٥٠٢) ، ومسلم في الصلاة أيضاً (ح٥٠٩) .

(٢) رواه مسلم في كتاب الصلاة (ح٥٠٨) .

(٣) أي الذي يتتبع الأماكن التي ﷺ فيها رسول الله ﷺ قصداً لا إتفاقاً .

(٤) الإيطان هو : اتخاذه موطناً ، وذلك بأن يألف الرجل مكاناً بعينه في المسجد يصلي فيه . انظر لسان العرب ٤٥١/١٣ مادة وطن .

(٥) اقتضاء الصراط المستقيم ٧٤٧/٢

الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليه بالنوجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة))[١] .

وتحري هذا ليس من سنة الخلفاء الراشدين ؛ بل هو مما ابتدع ، وقول الصحابي إذا خالفه نظيره ليس بحجة فكيف إذا انفرد به عن جماهير الصحابة ؟ .

أيضاً : فإن تحري الصلاة فيها ذريعة إلى اتخاذها مساجد والتشبه بأهل الكتاب مما نهينا عن التشبه بهم فيه ، وذلك ذريعة إلى الشرك با لله ، والشارع قد حسم هذه المادة بالنهي عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها ، وبالنهي عن اتخاذ القبور مساجد . فإذا كان قد نهى عن الصلاة المشروعة في هذا المكان وهذا الزمان سداً للذريعة فكيف يستحب قصد الصلاة والدعاء في مكان اتفق قيامهم فيه ، أو صلاتهم فيه ، من غير أن يكونوا قصدوه للصلاة فيه والدعاء فيه ؟ ولو ساغ هذا لاستحب قصد جبل حراء والصلاة فيه ، وقصد جبل ثور والصلاة فيه ، وقصد الأماكن التي يقال أن الأنبياء قاموا فيها كالمقامين الذين بطريق جبل قاسيون بدمشق ، الذي يقال إنها مقام ابراهيم وعيسى ، والمقام الذي يقال إنه مشارة دم قابيل وأمثال ذلك من البقاع التي بالحجاز والشام وغيرها .

ثم ذلك يفضى إلى ما أفضت إليه مفاسد القبور ، فإنه يقال : إن هذا مقام نبي أو قبر نبي أو ولي بخبر لا يعرف قائله ، أو بمنام لا تعرف حقيقته ، ثم يترتب على ذلك اتخاذه مسجداً فيصير وثناً يعبد من دون ا لله تعالى ، شرك مبني على أفك وا لله سبحانه يقترن في كتابه بين الشرك والكذب ، كما يقرن بين الصدق والإخلاص ...

والشرك وسائر البدع مبناها على الكذب والافتراء ، ولهذا كل من كان عن التوحيد والسنة أبعد كان إلى الشرك والابتداع والافتراء أقرب ...))[٢].

ونخلص من هذا أن الاعتبار في الاتباع ما قصد النبي ﷺ فعله في المكان أو الزمان المعين ، أما ما فعله اتفعاقاً لا قصداً فليس في تتبعه سنة واردة ، لأمور منها :

---

(١) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ٧٤٨/٢-٧٥١ .

١) أن ذلك لم ينقل الصحابة إلا اللهم ما ورد عن ابن عمر ويخرج على أنه قصد الصلاة لا لمعنى في البقعة ، وإنما لأنها كانت منزله ، كما يصلي الرجل المسافر في المنزل الذي ينزله .

٢) وعلى حمل ما ورد عن ابن عمر أنه كان يتتبع آثار النبي ﷺ فيقال : إن جماهير الصحابة قد خالفوه ؛ بل قد ورد النهي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

٣) أن قول الصحابي إذا خالفه نظيره ليس بحجة فكيف إذا انفرد عن جماهيرهم ؟ .

٤) أن تحري الصلاة في هذه الأماكن وتتبعها من ذرائع الشرك التي سدها الإسلام بالنهي عنها .

٥) أن تتبع الآثار يفضي إلى ما أفضت إليه مفاسد القبور من اتخاذها أوثاناً تعبد من دون الله .

٦) أن هذه الأماكن ؛ بل أغلبها لم يعرف بدليل صحيح ، بل بمنام أو قول لا يعرف قائله ، وهذا لا يثبت به حكم شرعي ، فكيف إذا خالف الدليل الشرعي الصحيح .

هذا والله تعالى أعلم .



الفصل الثاني : بيانه للغلو القادح في توحيد العبادة

بيانه للغلو القادح في توحيد العبادة

الغلو هو : مجاوزة الحد في المدح أو الذم ، أو في الفعل .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ (الغلو : مجاوزة الحد بأن يزاد الشيء في حمده أو ذمه على ما يستحق ، ونحو ذلك) [١]

فعلى هذا فإن الغلو هو :

مجاوزة الحد سواء في الزيادة أو النقصان بقصد التعبد ، فإن الحد الذي حده الشارع يجب المصير إليه ، ولا يجوز أن يتجاوز أبداً ؛ لا بإفراط ولا تفريط .

(والحدود : هي النهايات لَمَّا يجوز من المباح المأمور به وغير المأمور به)[٢] .

وقد بين شيخ الإسلام ـــ رحمه الله ـــ (أن المشروع [في العبادات] المأمور به الذي يحبه الله ورسوله هو الاقتصاد في العبادة ، كما قال النبي ﷺ : ((عليكم هدياً قاصداً ، عليكم هدياً قاصداً))[٣] وقال : ((إن هذا الدين متين ، ولن يشادَّ الدين أحد إلا غلبه ، فاستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة تبلغوا .))[٤] ...

وقال أبي بن كعب : ((إقتصاد في سنة خير من اجتهاد في بدعة ، فمن كانت عبادة توجب ضرراً يمنعه عن فعل واجب أنفع له منها كانت محرمة ، مثل أن يصوم صوماً يضعفه عن الكسب الواجب ، أو يمنعه من العقل ...

وأما إن أضعفته عما هو أصلح منها وأوقعته في مكروهات فإنها مكروهة ...)[٥]

كما بيَّن ـــ رحمه الله تعالى ـــ أن الغلو في العبادة له جانبان (.. تارة يكون باتخاذ ماليس بواجب ، ولا مستحب ، بمنزلة الواجب والمستحب في العبادات .

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ٢٨٩/١ . وانظر المفردات ٣٦٥ .وانظر تيسير العزيز الحميد ٣٠٥ .

(٢) الفتاوى ٣٦٢/٣ .

(٣) رواه الإمام أحمد في ٥٣٠/٥ . وقال الهيثمي في المجمع : " رجاله موثوقون " ٦٢/١ .

(٤) رواه البخاري في الإيمان (ح٣٩) والنسائي في الإيمان وشرائعة (خ٥٠٣٤) .

(٥) الفتاوى ٢٧٢/٢٥ -٢٧٣ ، وانظر ٢٧٩ وما بعدها .

وتارة باتخاذ ما ليس بمحرم ، ولا مكروه بمنزلة المحرم والمكروه ، في الطيبات))[١]. فإيجاب ما لم يجب واستحباب ما ليس بمستحب ، وتحريم ما ليس بمحرم نوع من الغلو في العبادة ، فإن صاحبه اعتقد أن ذلك غفل عنه الشارع فهذا من أقبح الكفر وإلا كان من البدع المذمومة شرعاً .

والغلو يكون (في الاعتقادات والأعمال[٢])[٣] والأقوال . وضابطه تعدي ما أمر الله به وهو الطغيان الذي ذمه الله في قوله : ﴿ ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ﴾[٤][٥].

والغلو في الاعتقادات أشد خطراً وأعظم ضرراً من الغلو في الأعمال والأقوال ، لأن الأول يترتب عليه التفرق والاختلاف بسبب مخالفة صاحبه للشريعة في قاعدة من قواعد الدين ، أو ركيزة من ركائزه ، أما الثاني فغالباً ما يقضي على صاحبه ، ولا يقع بسببه ما يقع بسبب الأول ، وهذا كمن عزم على اعتزال النساء أو عدم أكل اللحم ونحوه ، والأول كمن قال فيهم ﷺ : ((إن من ضئضيء هذا قوماً يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان))[٦]

وقد خالف هذا بالتأويل ولعدم العلم طائفة من الفقهاء والعباد .)[٧]

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ٢٨٣/١ .

(٢) الغلو في الاعتقادات أوالعبادات منه ما يكون مخرجاً من الملة كالغلو مثلاً بالأولياء ونحوهم بتعظيمهم ورفعهم فوق منزلتهم ، أو بصرف أي نوع من أنواع العبادة لهم ، ومنه ما لا يخرج من الملة كالاعتقاد بأن لفلان من الناس جاهاً ومنزلة عند الله أو حقاً بفعله . كما أن من الغلو العملي ما هو مخرج من الملة كالغلو في العبادات إلى درجة صرفها إلى غير الله ، ومنه ما ليس كذلك كالتوسل والتبرك الذي لا يصاحبه اعتقاد النفع أوالضر في المتوسل به أو التبرك به ، ويقابل هذا التقسيم قولهم : إن النفاق نوعان إعتقادي مخرج من الملة كبغض الرسول ﷺ ونحوه ، وما لا يخرج من الملة كمن وقع في صفة من صفات المنافقين المذكورة في قوله ﷺ : ((آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ...)) انظر مجموعة التوحيد ٧ ــ ٩ . وقد تقدم تقسيم البدع إلى مكفرة وغير مكفرة فراجعه إن شئت .

(٣) نفس المصدر ٢٨٩/١ .

(٤) سورة طه ٨١ .

(٥) انظر تيسير العزيز الحميد ص ٣٠٥ .

(٦) أخرجه البخاري في استتابة المرتدين (ح ٦٩٣٣) ، ومسلم في باب الزكاة (ح ١٠٦٤) واللفظ له .

(٧) إقتضاء الصراط المستقيم ٢٨٦/١ .

ولقد سد النبي ﷺ باب الغلو وحذر منه ، فنهى عن الغلو في العبادات كما في حديث أولئك الثلاثة الذي قال أحدهم : أصوم ولا أفطر ، وقال الآخر : لا أتزوج النساء ، وقال الثالث : لا آكل اللحم ، فقام النبي ﷺ خطيباً وحذر من ذلك ونهى عنه ، وبين أنه يصوم ويفطر ، ويتزوج النساء ، ويأكل اللحم ، وذكر أن هذه هي سنته ﷺ فمن رغب عنها فإنه ليس منه ﷺ .[1]

وكما نهى النبي ﷺ عن الوصال في الصوم[2] ، ورأى رجلاً واقفاً في الشمس فسأل عنه فقيل إنه نذر أن يقوم في الشمس ولا يستظل ، فأمره أن يستظل ويترك القيام في الشمس[3] ، ورأى حبلاً في المسجد لأحد زوجاته ﷺ فسأله عنه فقيل إنها إذا فترت من العبادة تعلقت به لتواصل العبادة ، فأمر بحله[4] .

ومن ذلك أيضاً : ما يفعله بعض الناس من اتخاذ الصمت سنة وعبادة .[5]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ (.. فأما الصمت الدائم فبدعة منهي عنها ، [وفي صيحيح البخاري : أن أبا بكر الصديق دخل على امرأة من أحمس فوجدها مصمتة لا تتكلم ، فقال لها أبو بكر : (إن هذا لا يحل ، إن هذا من عمل الجاهلية)[6] ...][7]وكذلك الامتناع عن أكل الخبز واللحم وشرب الماء فذلك من البدع المذمومة أيضاً ، كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس ـ رضي الله

---

(١) رواه البخاري في النكاح (ح٥٠٦٣) و مسلم في النكاح (ح ١٤٠١) والنسائي في النكاح (ح٣٢١٧) .

(٢) رواه البخاري في الصوم (ح١٩٦٢) ومسلم في الصيام (ح١١٠٢) وأبو داود في الصوم (ح٢٣٦٠) ومالك في الموطأ (ح٦٧٠) .

(٣) رواه البخاري في الأيمان والنذور (ح٦٧٠٤) وأبو دواود في الأيمان والنذور (ح٣٣٠٠) وابن ماجه في الكفارات (ح٢١٣٦) ومالك في الموطأ (ح١٠٢٩) .

(٤) رواه البخاري في الجمعة (ح١١٥٠) ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (ح٧٨٤) وأبو داود في الصلاة (ح١٣١٢) والنسائي في قيام الليل وتطوع النهار (ح١٦٤٣) ولفظه عند البخاري وغيره : عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال دخل النبي ﷺ فإذا حبل ممدود بين الساريتين فقال : ((ما هذا الحبل قالوا هذا حبل لزينب فإذا فترت تعلقت فقال النبي ﷺ لا ، حلوه ليصل أحدكم نشاطه فإذا فتر فليقعد))

(٥) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ٣٢٦/١-٢٣٧ .

(٦) رواه البخاري في المناقب (ح٣٨٣٤) .

(٧) الفتاوى ٢٩٢/٢٥ .

عنهما - أن النبي ﷺ رأى رجلاً قائماً في الشمس فقال : ((ما هذا)) فقالوا : أبو اسرائيل نذر أن يقوم في الشمس ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم ، فقال النبي ﷺ : ((مروه فليجلس وليستظل وليتكلم وليتم صومه)) [١]

وثبت في الصحيحين عن أنس أن رجالاً سألوا عن عبادة رسول الله ﷺ فكأنهم تقالوها ، فقالوا وأينا مثل رسول الله ﷺ ؟ ثم قال أحدهم : أما أنا فلا آكل اللحم وقال الآخر : أما أنا فلا أتزوج النساء . فقال رسول الله ﷺ : ((ما بال رجال يقول أحدهم كذا وكذا ؟ ولكني أصوم وأفطر وأقوم وأنام وآكل اللحم وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني)) أي سلك غيرها ظاناً أن غيرها خير منها ، فمن كان كذلك فهو بريء من الله ورسوله)) .

قال تعالى : ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ﴾ [٢] بل يجب على كل مسلم أن يعتقد أن خير الكلام كلام الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، كما ثبت عنه في الصحيح أنه كان يخطب بذلك كل يوم جمعة .[٣]) [٤]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ (والأحاديث الموافقه لهذا كثيرة في بيان أن سنته التي هي الاقتصاد في العبادة ، وفي ترك الشهوات خير من رهبانية النصارى ، التي هي ترك عامة الشهوات من النكاح وغيره ، والغلو في العبادات صوماً وصلاة .

(و الصوم والصلاة جنسها عبادة ، وترك اللحم والتزويج جائز ، لكن لما خرج في ذلك عن السنة فالتزم القدر الزائد على المشروع ، والتزم هذا ترك المباح ، كما يفعل الرهبان تبرأ النبي ﷺ ممن فعل ذلك ، حيث رغب عن سنته إلى خلافها ، وقال

---

(١) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٢) سورة البقرة ١٣٠ .

(٣) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٤) الفتاوى ١١/٢٠٠ـ٢٠١ . وانظر ٦١٣-٦١٥ . وانظر اقتضاء الصراط المستقيم ١/٢٢٧ ، ٢٨٥-٢٨٧ .

((لا رهبانيـة في الإسـلام))[١] فكيـف بمـن يرغـب عمـا هـو مـن أعظـم شـعائر الإسلام ، وهـو الصلاة في الجمعـة والجماعـات ؟) .[٢]

وقـد ذم النبي ﷺ التعمق والتنطـع والغلـو المفـرط في العبـادة ، كـالجوع أو العطـش المفـرط الـذي يضر العقـل والجسـم ويمنع أداء واجبـات أو مستحبات أنفـع منـه ، وكذلـك الاحتفـاء والتعري والمشي الـذي يضر الإنسـان بـلا فـائدة ، كـل هـذا وأمثالـه قـد نهـى عنـه الشـارع وذمـه المصطفى ﷺ حيـث قـال : ((هللك المتنطعون))[٣] وقـال : ((لـو مـد لي الشـهر لواصلت وصـالاً يـدع المتعمقـون تعمقهـم))[٤] بالإضافـة إلى حديـث أبـو اسـرائيل المتقـدم . ولهـذا تجـد هـؤلاء مـع مـن شـابههم مـن الرهبـان يعـالجون الأعمـال الشـاقة الشـديدة المتعبـة مـن أنـواع العبـادات والزهـادات مـع أنـه لا فـائدة فيهـا ولا ثمـرة لهـا ولا منفعـة إلا أن يكون شـيئاً يسـيراً لا يقـاوم العـذاب الأليـم الـذي يجدونـه .

ونظـير هـذا الأصـل الفاسـد مـدح الرهبـان الذيـن لا ينكحـون ولا يذبحـون ، وأمـا الحنفـاء فقـد قـال النبي ﷺ : ((لكـني أصـوم وأفطـر وأتـزوج النسـاء وآكـل اللحـم ، فمـن رغـب عـن سـنتي فليـس مـني)) [٥] وهـذه الأشـياء مـن الديـن الفاسـد ، وهـي مذمومـة ...[٦] وهـذا النـوع مـن الغلـو في العبـادات هـو النـوع الثـاني الـذي هـو الغلـو في الأعمـال وغالبـاً لا يخرج صاحبـه مـن الملـة مـا لم يصاحبـه اعتقـاد في التشـريع أو غـيره ، إلا أنـه لا شـك مخل بـالتوحيد الواجـب كمـا تقـدم في موانـع تحقيـق التوحيـد ، والـذي يهمنـا في هـذا المبحـث هـو الغلـو الاعتقـادي أو العملـي المخـرج مـن الملـة أو الملحـق بالشـرك الأصغـر .

---

(١) رواه أحمـد ٢٢٦/٦ بلفـظ ((يـا عثمـان إن الرهبانيـة لم تكتـب علينـا فمـا لـك فيَّ أسـوة ، فـوالله إنـي أخشـاكم لله وأحفظكـم لحـدود)) قـال البغـوي : " ويـروى لا رهبانيـة في الإسـلام " ٣٧١/٢ . وقـال محققـه شـعيب الأرنـاووط : قـال الحـافظ في الفتـح : ٩٦/٩ : (لم أره بهـذا اللفـظ ، قلـت [أي شـعيب] ذكـره السـيوطي في الجـامع الصغير ونسبه إلى عبـد الـرزاق عـن طـاووس مرسـلاً بلفـظ لا رهبانيـة في الأسـلام " وأخـرج الدارمـي ١٣٣/٢ بسند قوي من حديـث سعد بـن أبي وقـاص ..) ثـم سـاقه كمـا ورد عنـد أحمـد وقـال : رجالـه ثقـات .

(٢) الفتـاوى ٦١٤/١١ .

(٣) رواه مسـلم في العلـم (ح٢٦٧٠) وأبـو داود في السـنة (ح ٤٦٠٨) .

(٤) رواه البخـاري في كتـاب التمـني (ح٧٢٤١) ومسـلم في الصيـام (ح١١٠٤) .

(٥) تقـدم تخريجـه قريبـاً .

(٦) انظـر الفتـاوى ٦٢٠/١١ .

من أنـواع الغلـو :

أنـواع الغلـو كثـيرة ، وأمثلتـه عديـدة لا تكـاد تحصـى إلا بالكلفـة ؛ ولـذا فـإني ساشـير إلى أهـم تلـك الأمـور الـتي تنطـوي علـى ضـرر في ديـن العبـد وعقيدتـه ممـا لـه مسـاس بموضوعنـا وذلـك مـن خـلال مـا أفـاده شيخ الإسـلام ـ رحمـه ا لله وبينـه ـ وذلـك للتحذيـر من الوقوع فيهـا أو التسـاهل تجاهها ، فـإن معظـم النـار مـن مستصغر الشـرر .

قـال أنـس بـن مـالك ﷺ : " إنكـم لتعلمـون أعمـالاً هـي أدق في أعينكـم مـن الشـعر إن كنـا لنعدهـا علـى عهـد النبي ﷺ الموبقـات " قـال أبـو عبـدا لله [البخـاري] يعـني بذلـك المهلكـات[1] .

ومن تلك الأنـواع مـا يلـي :

١) الغلـو فـي القبـور :

لقد نهـى النبي ﷺ عـن الغلـو في المقـابر ، حتـى أنـه أغلـق بـاب زيارتهـا في بدايـة الأمـر خوفـاً مـن أن تتخـذ أمكنـة للعبـادة ، فلمـا تشـربوا التوحيـد ، أجـاز لهـم زيارتهـا ، وعلمهـم السـنة في السـلام .

وشـدد ﷺ في النهـي عـن اتخاذهـا أمكنـة للعبـادة حتـى حـرم الصـلاة فيهـا لأجـل ألا تعبـد مـن دون ا لله ، ونهـى عـن الصـلاة إليهـا ، بـل إنـه في آخـر حياتـه حـذر مـن اتخاذهـا مساجد ، ولعـن مـن فعـل ذلـك ، وقـد تقـدم بيـان ذلـك مـن كـلام شـيخ الإسـلام ابـن تيميـه ـ رحمه ا لله تعـالى ـ .

فأمـا الغلـو في العبـادة فقـد تقدمـت أمثلـة عليـه كاتخـاذ القبـور مسـاجد ، والعكـوف علـى قبـور الصـالحين بقصـد التعبـد ، والطـواف بهـا وذبـح القرابـين لهـا ، والنـذر بالسـفر إليهـا ونحـو ذلـك ممـا يفعـل عنـد القبـور ، مـن صـرف العبـادة لهـا بدعـاء أصحابهـا وطلـب الشفاعة منهم ، والتوسـل بهـم ونحـو ذلـك ممـا تقـدم بيانـه في المبحـث السـابق .

ومـن ذلـك أيضـاً قصـد بعـض الأمـاكن الغير مشـروعة للعبـادة ، كطلـب الاعتكـاف في غـار حـراء ، وبعـض إلغـيران في الشـام ، وسـكنى الجبـال والمغـارت والبـوادى علـى سـبيل

(١) أخرجـه البخـاري في الرقـاق (ح ٦٤٩٢) ، وأخـرج نحـوه أحمـد ٣/٣ ، والخـلال في السـنة ١٠٩/٤ (ح ١٢٨٥) .

التعبد والترهب [(١)] والذهاب إلى جبل الطور ، والصخرة ، وتتبع آثار الأنبياء والصالحين ، وقصد بعض الأمكنة للعبادة ، أو تخصيص مكان لذلك [(٢)] ونحو هذا مما قد يقع فيه كثير من الناس ظانين أنها قربة وعبادة من أعظم العبادات . وقد تقدم بيان ذلك في المبحث السابق [(٣)] من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ .

ومن ذلك غلو الرافضة في الأئمة ، واتخاذ قبورهم مساجد مضاهين بذلك اليهود والنصارى (فتجدهم يعطلون المساجد التي أمر الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، فلا يصلون فيها جمعة ولا جماعة ، وليس لها عندهم كبير حرمة ، وإن صلوا فيها صلو فيها وحداناً ، ويعظمون المشاهد المبنية على القبور ويعكفون عليها مشابهة للمشركين ، ويحجون إليها كما يحج الحاج إلى البيت العتيق ، ومنهم من يجعل الحج إليها أعظم من الحج إلى الكعبة ، بل يسبون من لا يستغنى بالحج إليها عن الحج الذي فرضه الله على عباده ، ومن لا يستغني بها عن الجمعة والجماعة .

وهذا من جنس دين النصارى والمشركين الذي يفضلون عبادة الأوثان على عبادة الرحمن ... وقد صنف شيخهم ابن النعمان المعروف عندهم بالمفيد .. كتاباً سماه : ((مناسك المشاهد)) جعل قبور المخلوقين تحج كما تحج الكعبة البيت الحرام ، الذي جعله الله قياماً للناس ...

وقد علم بالاضطرار من دين الاسلام أن النبي ﷺ لم يأمر بما ذكروه من أمر المشاهد ، ولا شرع لأمته مناسك عند قبور الأنبياء والصالحين ؛ بل هذا من دين المشركين ...)[(٤)]

٢) الإعراض عن العلم الشرعي :

ومن التفريط في العبادة إلى درجة الغلو : ما يفعله كثير من المتصوفة من الإعراض عن العلم الشرعي من القرآن والحديث وتعلمه ، وطلبه من أمور مبتدعة ما أنزل الله

---

(١) انظر الفتاوى ٥٥/٢٧ .

(٢) انظر تتبع آثار الأنبياء ص٥٠١ وانظر الفتاوى ٢٨٠/١ وما بعدها ، ٤٧٥/١٧وما بعدها ، ٤٠٦/١٠ وما بعدها. واقتضاء الصراط المستقيم ٦٤٢/٢-٦٥٤ ، ٦٧٣ وما بعدها .

(٣) انظر المبحث الأول من هذا الباب .

(٤) منهاج السنة النبوية ٤٧٤/١-٤٧٦ .

بها من سلطان ، معرضين عن تلقى العلم الشرعي ـ الذي مبنى العبادات والشريعة عليه ـ من مصدره الذي أمر الله بأخذه منه واتباع رسوله الذي أرسله بذلك؛ حتى بلغ بأحدهم أن هجر من رأى معه محبرة وقلماً ، لاعتقادهم أن ذلك ينافي الزهد والعبادة والتوكل ؛ حتى يصل بهم الحال إلى أن (يبغضوا الكتاب ولو كان مصحفاً أو حديثاً ، كما حكي النصرباذي[1] أنهم كانوا يقولون : يدع علم الخرق ويأخذ علم الورق ، قال : وكنت أستر الواحد منهم فلما كبرت احتاجوا إلى علمي .

وذلك لأنهم استشعروا أن هذا الجنس فيه ما يخالف طريقهم فصارت شياطينهم تهربهم من هذا ، كما يهرب اليهودي والنصراني ابنه أن يسمع كلام المسلمين ، حتى لا يتغير اعتقاده في دينه ، وكما كان قوم نوح يجعلون أصابعهم في آذانهم ويستغشون ثيابهم لئلا يسمعوا كلامه ولا يروه .

وقال تعالى عن المشركين : ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيهم لعلكم تغلبون ﴾ [2] وقال تعالى : ﴿ فمالهم عن التذكرة معرضين ، كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة ﴾ [3] وهم من أرغب الناس في السماع البدعي سماع المعازف ، ومن أزهدهم في السماع الشرعي سماع آيات الله تعالى ...

وقد يظنون أنهم يحصل لهم بطريقهم أعظم مما يحصل في الكتب .

فمنهم من يظن أنه يلقن القرآن بلا تلقين ، ويحكون أن شخصاً حصل له ذلك ، وهذا كذب ، نعم قد يكون سمع آيات الله فلما صفى نفسه تذكرها فتلاها ، فإن الرياضة تصقل النفس فيذكر أشياء كان قد نسيها ، ويقول بعضهم أو يحكى أن بعضهم قال : أخذوا علمهم ميتاً عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت[4]، وهذا يقع ، لكن منهم من يظن أنما يلقى إليه من خطاب أو خاطر هو من الله تعالى بلا واسطة ، وقد يكون من الشيطان وليس عنهم فرقان يفرق بين الرحماني

---

(١) هو شيخ الصوفيه أبو القاسم ابراهيم بن محمد بن أحمد بن محمويه الخرساني النصراباذي النيسابوري الزاهد توفي في مكة ودفن فيها في ذي الحجة من عام ٣٦٧هـ انظر السير ٢٦٣/١٦ .

(٢) سورة فصلت ٤١ .

(٣) سورة ٤٩-٥١ .

(٤) وهذا ما يسمونه بالعلم اللدني .

والشيطاني ، فإن الفرق الذي لا يخطيء هو القرآن والسنة ، فما وافق الكتاب والسنة فهو حق ، وما خالف ذلك فهو خطأ .

وقد قال تعالى : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ، حتى إذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ﴾ [(١)] ...

ثم إن هؤلاء لما ظنوا أنه هذا يحصل لهم من الله بلا واسطة صاروا عند أنفسهم أعظم من اتباع الرسول ، يقول أحدهم : فلان عطيته على يد محمد ، وأنا عطيتي من الله بلا واسطة ، ويقول أيضاً فلان يأخذ من الكتاب ، وهذا الشيخ يأخذ عن الله ، ومثل هذا .) [(٢)]

وهذا شطح وغاية في الاعراض عن دين الله عز وجل ، وغلو فاحش أوقعهم فيما وقعوا فيه مما يعد من أهم الأمور التي تكون سبيلاً إلى الشرك والشطح المخل بالتوحيد .

ثم بين ــ رحمه الله ــ أن هذا الكلام لفظ مجمل ، إن أراد به القائل الإعطاء الكوني الخلقي أي بمشيئة الله وقدره فهذا حق وهو أمر مشترك بين الناس كلهم مؤمنهم وكافرهم . [(٣)]

أما إن أراد أن هذا الذي حصل له هو مما يحبه الله ويرضاه ويقرب إليه ، وما ألقي إليه من خطاب فإنما هو من الله فهنا طريقان :

(أحدهما : أن يقال له من أين لك أن هذا إنما هو من الله لا من الشيطان وإلقائه ووسوسته ؟ فإن الشياطين يوحون إلى أوليائهم وينزلون عليهم ، كما أخبر الله تعالى بذلك في القرآن ، وهذا موجود كثيراً في عباد المشركين وأهل الكتاب ، وفي الكهان والسحرة ونحوهم ، وفي أهل البدع بحسب بدعتهم ، فإن هذه الأحوال قد تكون شيطانية ، وقد تكون رحمانية فلا بد من الفرقان بن أولياء الرحمن وأولياء

---

(١) سورة الزخرف ٣٦ .

(٢) الفتاوى ٤١١/١٠-٤١٥ . وانظر اقتضاء الصراط المستقيم ٧٧/١-٧٨ .

(٣) وهم لا يقصدون هذا قطعاً لكن هذا مما يدل على إنصاف شيخ الإسلام وعدله مع الخصوم كما يدل على سعة علمه واطلاعه .

الشيطان ، والفرقان إنما هو الفرقان الذي بعث الله به محمداً ﷺ فهو : ﴿ الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾ [(١)] وهو الذي فرق الله به بين الحق والباطل ، وبين الهدى والضلال ، وبين الرشاد والغي ، وبين طريق الجنة وطريق النار ، وبين سبيل أولياء الرحمن وسبيل أولياء الشيطان ...

الثاني : أن يقال : بل هذا من الشيطان ؛ لأنه مخالف لما بعث الله به محمداً ﷺ ؛ وذلك أنه يظهر فيما حصل له وإلى سببه وإلى غايته ، فإن كان السبب عبادة غير شرعية مثل أن يقول له اسجد لهذا الصنم حتى يحصل لك المراد ، أو استشفع بصاحب هذه الصورة حتى يحصل لك المطلوب ، أو ادع هذا المخلوق واستغث به ، مثل أن يدعوا الكواكب ، كما يذكرونه في كتب دعوة الكواكب ، أو أن يدعو مخلوقاً كما يدعو الخالق ، سواء كان المخلوق ملكاً أو نبياً أو شيخاً ، فإذا دعاه كما يدعو الخالق سبحانه إما دعاء عبادة ، وإما دعاء مسألة صار مشركاً به ، فحينئذ ما حصل له بهذا السبب حصل بالشرك كما كان يحصل للمشركين .) [(٢)]

فتبين من هذا أن الاعراض عن العلم الشرعي تعلماً وعملاً من الغلو المذموم الذي لصاحبه نصيب من الذم الذي وقع على أولئك النفر ، حينما عزم أحدهم على الوصال في الصيام والآخر اعتزال النساء والثالث عن أكل اللحم ؛ بل هذا الفعل أعظم من ذلك لكونه يؤي إلى الشطح في عموم العبادات ، وهذا هو الذي وقع فيه أولئك المعرضين عن شريعة الله تعلماً وعملاً ، متبعين لأهوائهم وما تملي به عليهم عقولهم وشهواتهم مما حدا بأهل التوحيد إلى أن شمروا سواعدهم ببيان الحق ذباً عن دين الله وحماية للتوحيد من وسائل الشرك وطرائقه .

---

(١) سورة الفرقان ١ .

(٢) المصدر السابق . .

٣) الغلـو فـي الأشـخاص :

لقـد نهـى ا لله سبحانه وتعـالى عـن الغلـو في الأشـخاص ، وحـذر النـبي ﷺ أمتـه مـن أن تقـع فيمـا وقعـت فيـه الأمـم السـابقة مـن تعظيـم الأشـخاص ، والغلـو فيهـم ، ممـا يفضـي في نهاية الأمر إلى عبادتهم كما وقـع فيـه قـوم نـوح ـ عليـه السـلام ـ وغـيرهم .

وقد بين شيخ الإسـلام ابـن تيميـة ـ رحمـه ا لله تعـالى ـ كيـف وقـع كثـير مـن النـاس في هـذا الغلـو المنهـي عنـه ، وأكـد علـى أن الشـريعة جـاءت لسـد هـذا البـاب . وذلـك في بيانـه لما يلـي :

أ) نسـبة الولـد إلى ا لله :

لقـد أكـد شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة ـ رحمـه ا لله تعـالى ـ علـى أن ا لله سـبحانه نهـى عـن الغلـو في ذاتـه سـبحانه ، بوصفـه ـ جـل وعـلا ـ بالنقـائص قياسـاً علـى البشـر، أو سـلبه صفـات الكمـال وذكـر أن ا لله سـبحانه نهـى أهـل الكتـاب وغـيرهم عـن الغلـو فقـال سبحانه : ﴿ يـا أهـل الكتـاب لا تغلـوا في دينكـم ولا تقولـوا علـى ا لله إلا الحـق إنمـا المسـيح عيسـى ابـن مريـم رسـول ا لله ، وكلمتـه ألقاهـا إلى مريـم وروح منـه فـآمنوا بـا لله ورسـله ولا تقولـوا ثلاثـة انتهـو خـيراً لكـم إنمـا ا لله إلـه واحـد سـبحانه أن يكـون لـه ولـد لـه مـا في السـموات ومـا في الأرض وكفـى بـا لله وكيـلاً ، لـن يسـتنكف المسـيح أن يكـون عبـداً لله ولا الملائكـة المقربـون ومـن يسـتنكف عـن عبادتـه ويسـتكبر فسيحشـرهم إليـه جميعـاً ، فأمـا الذيـن آمنـوا وعملـوا الصالحـات فيوفيهـم أجورهـم ويزيدهـم مـن فضلـه ، وأمـا الذيـن اسـتنكفوا واسـتكبروا فيعذبهـم عذابـاً أليمـاً ولا يجـدون لهـم مـن دون ا لله وليـاً ولا نصـيراً ﴾[1]

قال شيخ الإسلام ابـن تيميـة ـ رحمـه ا لله تعـالى ـ معلقـاً علـى هـذه الآيـة ومبينـاً للأدلـة الدالـة علـى نفـي هـذه المقالـة ، أيـاً كـان قائلهـا قـال : (.. فنهـى أهـل الكتـاب عـن الغلـو في الديـن ، وعـن أن يقولـوا علـى ا لله إلا الحـق ، وذكـر القـول الحـق في المسـيح ثـم قـال لهـم : ﴿ آمنـوا بـا لله ورسـله ﴾ لأنهـم كفـروا بـا لله بتثليثهـم وكفـروا برسـله بالاتحـاد والحلـول ، فكفـروا بـأصلي الإسـلام العـام ، الـتي هـي الشـهادة لله بالوحدانيـة في

(١) سـورة النسـاء ١٧١-١٧٢ .

الألوهية ، والشهادة للرسل بالرسالة ، وذكر أن المسيح والملائكة لا يستنكفون عن عبادته ؛ لأن من الناس من جعل الملائكة أولاد الله كالمسيح ، وعبدوا الملائكة والمسيح .

ولهذا قال : ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كنوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ، ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ [1] فذكر الملائكة والنبيين .[2]

وقد نفي في كتابة عن نفسه الولادة ، ونفى اتخاذ الولد جميعاً فقال : ﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ﴾ الآية [4] وقال : ﴿ الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ﴾ [5] ...

وأما قوله : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون ، بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبه وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ﴾ [6] فإن قوله : ﴿ بديع السموات والأرض ﴾ أي مبدعهما ، كما ذكر مثل ذلك في البقرة ؛ وليس المراد أنهما بديعة سماواته وأرضه ، كما تحتمله العربية لو السياق ؛ لأن المقصود نفي ما زعموه من خرق البنين والبنات له ، ومن كونه اتخذ ولداً ...

ثم قال : ﴿ أنى يكون له ولد ﴾ وذكر ثلاثة أدلة على نفي ذلك :

أحدها كونه ليس له صاحبة فهذا نفي الولادة المعهودة . وقوله : ﴿ وخلق كل شيء ﴾ نفي للولادة العقلية ، وهي التولد ؛ لأن خلق كل شيء ينافي تولدها

---

(١) سورة ال عمران ٧٩-٨٠ .

(٢) وانظر الجواب الصحيح ٢/٥٠-٥٢ .

(٣) سورة الإسراء ١١١ .

(٤) سورة المؤمنون ٩١ .

(٥) سورة الفرقان ٢ .

(٦) سورة الأنعام ١٠٠-١٠١ .

عنه . وقوله : ﴿ وهو بكل شيء عليم ﴾ يشبه وا لله أعلم أن يكون لما ادعت النصارى أن المتحد به هو الكلمة التي يفسرونها بالعلم ، والصابئة القائلون بالتولد والعلة ، لا يجعلونه عالماً بكل شيء ، ذكر أنه بكل شيء عليم لإثبات هذه الصفة له ، رداً على الصابئة ، ونفيها عن غيره رداً على النصارى ...

فهذا كونه ﷻ والداً لشيء ، أو متخذاً لشيء ولداً بأي وجه من وجوه الولادة ، أو اتخاذ الولد أياً كان .

وأما نفي كونه مولوداً فيتضمن نفي كونه متولداً بأي نوع من التوالد من أحد من البشر وسائر ما تولد من غيره ، فهو رد على من قال المسيح هو ا لله ، ورد على الدجال الذي يقول : إنه ا لله ، ورد على من قال في بشر إنه ا لله من غالية هذه الأمة في علي وبعض أهل البيت ، أو بعض المشايخ ، كما قال قوم ذلك في علي وطائفة من أهل البيت[١] ، وقالوه في الأنبياء أيضاً ، وقاله قوم في الحلاج ، وقوم في الحاكم بمصر ، وقوم في الشيخ عدي[٢] ، وقوم في يونس العنيني[٣]، وقوم يعمونه في المشايخ ، ويصوبون هذا كله[٤] .

فقوله سبحانه : ﴿ لم يولد ﴾ نفي لهذا كله ؛ فإن هؤلاء كلهم مولودون ؛ وا لله لم يولد ، ولهذا لما ذكر ا لله المسيح في القرآن قال : ﴿ ابن مريم ﴾ بخلاف سائر الأنبياء كقوله : ﴿ لقد كفر الذي قالوا إن ا لله هو المسيح بن مريم ﴾[٥] وقوله : ﴿ ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾ [٦] وقوله : ﴿ إذ قال

---

(١) كالخطابية الذين قالوا بتأليه علي بن أبي طالب .

(٢) يعنى عدي بن مسافر واسمه : أبو محمد عدي بن صخر الشامي ، قال الذهبي : شيخ إمام صالح قدوة ، زاهد وقته . السير ٣٤٢/٢٠ .

(٣) في نسخة القنيني . نفس المصدر .

(٤) كالغلات من الصوفية وغيرهم القائلين بوحدة الوجود والاتحاد .

(٥) سورة المائدة ١٧ ، ٧٢ .

(٦) سورة المائدة ٧٥ .

ا لله يـا عيسـى بـن مريـم اذكـر نعمـتي عليـك وعلـى والدتـك ﴾ [١] وقولـه : ﴿ ياعسـى بـن مريـم أأنـت قلـت للنـاس اتخذونـي وأمـي إلهـين مـن دون ا لله ﴾ [٢] ...

وفي ذلـك فائدتـان :

أحدهمـا : بيـان أنـه مولـود وا لله لم يولـد .

والثانية : نسبته إلى مريـم بأنـه ابنهـا ليـس هـو ابـن ا لله ...

فهـذه نكـت تبـين اشـتمال كتـاب ا لله على إبطـال قـول مـن يعتقـد في احـد مـن البشـر الإلهيـة ؛ باتحـاد أو حلـول أو غـير ذلــك .) [٣]

فهـذا النـوع مـن الغلـو في الإلهيـة ، حيـث ادعــى أقـوام أن المسـيح ابـن ا لله ، وادعـى آخـرون أن عزيـراً ابـن ا لله ، وادعـى آخـرون أن الملائكـة بنـات ا لله وهكـذا ، فـإن كثـيراً مـن النـاس قـد يشـطح ويغلـوا في جـانب الألوهيـة حتـى ينسـبها إلى غـير مسـتحقها ، ويلمـزون ا لله سبحانه وتعـالى بـأنواع اللمز والقـول البـاطل ، وهـذا نـوع قـد وقـع فيـه كثـير ممـن ينتسـب إلى هـذا الأمـة ؛ مـن الطوائـف الـتي تنتسـب إلى الإسـلام وتدعيـه . كـالذين غلـو في علـي ﷺ ورفعـوه فـوق منزلتـه [٤]، وكـالذين يتمسـحون بـأهل البيـت ويغلـون فيهـم ، ويحيـون الليـالي في ذكرهـم والتحسـر علـى عـدم نصرتهـم ، وكدعـوى قـوم مـن الجهـال الغاليـة في مثـل الحـلاج أو ابـن عربـي ، أو الحـاكم بمصـر أو غيرهمـا . الذيـن غلـو في الـذوات حتـى جـاؤا بـالقول بالاتحـاد العـام الـذي (مـا علمـت أحـداً سـبقهم إليـه إلا مـن أنكـر وجـود الصـانع ، مثـل فرعـون والقرامطـة ـ وذلـك أن حقيقـة أمرهـم أنهـم يـرون أن عـين وجـود الحـق هـو عـين وجـود الخلـق ، وأن وجـود ذات ا لله خـالق السـموات والأرض ؛ هـي نفـس وجـود المخلوقـات ، فـلا يتصـور عندهـم أن يكـون ا لله تعـالى خلـق غـيره ، ولا أنه رب العـالمين ، ولا أنـه غنـى ومـا سـواه فقـير ...

ويقولـون : إن ا لله سـبحانه لم يعـط أحـداً شـيئاً ، ولا أغنـى أحـداً ولا أسـعده ولا أشـقاه ، وإنمـا وجـوده فـاض علـى الـذوات ، فـلا تحمـد إلا نفسـك ولا تـذم إلا نفسـك ..

---

(١) سـورة المـائدة ١١٠ .

(٢) سـورة المـائدة ١١٦ .

(٣) الفتـــاوى ٢/٤٤١-٤٤٩ .

(٤) كالنصـيريون وغـلاة الرافضـة .

وأن للحق في كل معبود وجهاً يعرفه من عرفه ، وينكره من أنكره ، وأن التفريق والكثرة كالأعضاء في الصورة المحسوسة ...)[١]

وكدعوى (الفلاسفة الصابئون تولد العقول العشرة ـــ والتي قد يجعلونها بمنزلة الذكور ، والنفوس الفلكية التي قد يجعلونها بمنزلة الإناث ، ويجعلون ذلك آباءهم وأمهاتهم وآلهتهم وأربابهم القريبة ، وهذا شبيه بقول المشركين العرب الذي جعلوا الله بنين وبنات ، قال تعالى : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن وخرقوا له بينن وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون ﴾[٢] فكانوا يقولون الملائكة بنات الله ، وهؤلاء يزعمون أن العقول أو العقول والنفوس هي الملائكة ، وهي متولدة عن الله ، قال تعالى : ﴿ أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ، وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين ، وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون . ﴾[٣]...)[٤] (فبين سبحانه أن الرب الخالق أولى بأن ينزه عن الأمور الناقصة منكم ، فكيف يجعلون له ما يكرهون أن يكون لكم وتستحيون من إضافته إليكم مع أن ذلك واقع لا محالة ، ولا تنزهونه عن ذلك ، وتنفونه عنه ، وهو أحق بنفي المكروهات المنقصات منكم ؟ .

وكذلك قوله سبحانه في التوحيد : ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ﴾[٥]...

فبين سبحانه أن المخلوق لا يكون مملوكه شريكه في ماله حتى يخاف مملوكه كما يخاف نظيره ، بل تمتنعون أن يكون المملوك لكم نظيراً فكيف ترضون أن تجعلوا ما هو

---

(١) الفتاوى ٤٦٦/٢-٤٦٧ . وانظر ٣٥٩/٢ .

(٢) سورة الأنعام ١٠٠ .

(٣) سورة الزخرف ١٦-١٩ .

(٤) انظر درء تعارض العقل والنقل ٣٥/١-٣٦ .

(٥) سورة الروم ٢٨ .

مخلوقي ومملوكي شريكاً لي يدعى ويعبد كما أدعى وأعبد ؟ ...)[١] فتعالى الله وتنزه وتبارك وتقدس عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

ب) الغلو في شخص النبي ﷺ :

وقد أكد شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ على أن النبي ﷺ نهى عن الغلو في الأشخاص ، وحذر من ذلك ، وبين أن سبب الشرك في قوم نوح ومن جاء بعدهم هو الغلو في الأشخاص ، ولهذا نهى عن الغلو في شخصه ﷺ لئلا يكون ذلك سبباً في صرف العبادة له من دون الله ، كنهيه عن إطرائه والغلو في مدحه ، والأمر بإنزاله منزلته التي أنزله الله إياها ، خلافاً لما زعمه اليهود والنصارى في انبيائهم من إفراط في مدحهم وإطرائهم إلى حد رفعهم إلى مرتبة الألوهية ، أو المبالغة في ذمهم ووصفهم بالنقائص إلى حد يفضي بالانتقاص من مكانتهم التي يجب أن ينزلهم العباد إياها . بل إنه ﷺ دعا ربه ﷻ أن يحفظ قبره من أن يتخذ وثناً يعبد ، فقال : ((اللهم لا تجعل قبري وثناً))[٢]وقد استجاب الله دعاءه[٣]وقال : ((لا تتخذوا قبري عيداً ، وصلوا علي حيث كنتم فإن صلاتكم تبلغني))[٤]بل إنه ﷺ لعن من اتخذ قبره مسجداً كما لعن اليهود والنصارى لاتخاذهم قبور أنبياءهم مساجد[٥].

كما نهى ﷺ عن التشريك بينه وبين الله ﷻ في المشيئة ، فقد انتهر رجلاً قال ذلك وأمره بأن يسند المشيئة لله وحده ، حماية للتوحيد من الشرك ، وحرصاً منه ﷺ على تحقيق التوحيد. وقد تقدم بيان هذا كله.[٦]

كما وضح ـ رحمه الله ـ أنه ﷺ نهى عن السجود له ، وذلك لما قدم معاذ رضي الله عنه من الشام سجد له ، فقال له النبي ﷺ : ((ما هذا يا معاذ ؟)) ، فقال : يا رسول الله

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ٣٦/١ .

(٢) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث . .

(٣) وسيأتي بيانه بحول الله انظر ص التوسل

(٤) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث . .

(٥) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٦)تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

رأيتهم في الشام يسجدون لأساقفتهم ويذكرون ذلك عن أنبياءهم فقال يا معاذ : ((لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها))[1]. وقال : ((يا معاذ لو مررت بقبري أكنت ساجداً لقبري ؟ قال : لا . قال : فإنه لا يصلح السجود إلا لله))[2]

فإذا كان السجود لا يجوز لرسول الله ﷺ حياً ولا ميتاً ، ولا لقبره فكيف يجوز السجود لغيره ؟ بل قد ثبت عنه في الصحيح أنه قال : ((لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها))[3] فقد نهى عن الصلاة إليها ، كما نهى عن اتخاذها مساجد ، ولهذا لما أدخلوا حجرته في المسجد لما وسعوه جعلوا مؤخرها مسنماً منحرفاً عن سمت القبلة لئلا يصلي أحد إلى الحجرة النبوية ، فما الظن بالسجود إلى جهة غيره كائناً من كان[4] .

والصحابة — رضوان الله عليهم (لما مات ﷺ لم يكونوا يدعونه ، ولا يستغيثون به ، ولا يطلبون منه شيئاً لا عند قبره ولا بعيداً من قبره ؛ بل ولا يصلون عند قبره ولا قبر غيره ؛ لكن يصلون ويسلمون عليه ويطيعون أمره ويتبعون شريعته ، ويقومون بما أحبه الله تعالى من حق نفسه وحق رسوله ، وحق عباده المؤمنين ، فإنه ﷺ قال : ((لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ، فإنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله))[5] وقال : ((اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد))[6] وقال : ((لا تتخذوا قبري عيداً ، وصلوا علي حيث كنتم فإن صلاتكم تبلغني))[7] وقال : ((لعن

---

(١) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٢) رواه أبو داود في النكاح (٢١٤٠) والدارمي في الصلاة (ح١٤٦٣) غير أنهما لم يذكرا في روايتهما أن معاذاً سجد له ، وصححه الألباني . انظر صحيح أبي داود .

(٣) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث

(٤) انظر الفتاوى ١١/٥٠١-٥٠٢ .

(٥) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٦) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث

(٧) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث

ا لله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) يحذر ما فعلوا[1] وقال له رجل : ما شاء ا لله وشئت فقال : ((أجعلتني لله نداً ؟ قل : ما شاء ا لله وحده))[2] وقال : ((لا تقولوا ما شاء ا لله وشاء محمد ، ولكن قولوا ما شاء ا لله ثم شاء محمد))[3]...)[4]

وقد تجاوز بعضهم الحد في الغلو في شخص النبي ﷺ حتى اعتقد أنه من أجله خلق العالم ، ولولا وجوده لما وجد العالم ، ولولا هو لما خلق عرشاً ولا كرسياً ، و لا سماء ولا أرضاً ولا شمساً ولا قمراً ...[5]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه ا لله تعالى ــ (والنبي ﷺ خلق مما يخلق منه البشر و لم يخلق أحد من البشر من نور ؛ بل قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : ((إن ا لله خلق الملائكة من نور وخلق إبليس من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم))[6] وليس تفضيل بعض المخلوقات على بعض باعتبار ما خلقت منه فقط ؛ بل قد يخلق المؤمن من كافر ؛ والكافر من مؤمن ؛ كابن نوح منه ، وكإبراهيم من آزر ؛ وآدم خلقه ا لله من طين ، فلما سواه ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة ؛ وفضله عليهم بتعليمه أسماء كل شيء ، وبأن خلقه بيديه وبغير ذلك ؛ فهو وصالحوا ذريته أفضل من الملائكة ؛ وإن كان هؤلاء مخلوقين من طين وهؤلاء من نور ...

وقد ظهر فضل نبينا ﷺ على الملائكة ليلة المعراج لما صار بمستوى يسمع فيه صريف الأقلام ؛ وعلا على مقامات الملائكة ، وا لله تعالى أظهر من عظيم قدرته وعجيب حكمته من صالحي الآدميين من الأنبياء والأولياء ما لم يظهره من الملائكة ، حيث جمع فيهم ما تفرق في المخلوقات فخلق بدنه من الأرض وروحه من الملأ الأعلى ...

---

(١) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٢) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٣) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٤) الفتاوى ١١/٤٩٨-٥٠١ . وانظر في الغلو في تعظيم الأماكن ولزوم السنة ١٥/١٥٣ وما بعدها .

(٥) وهذا ما يدعيه القبوريون وغلاة الصوفية .

(٦) رواه مسلم في الزهد والرقائق (ح٢٩٩٦) وأحمد .

ومحمد ﷺ سيد ولد آدم ، وأفضل الخلق وأكرمهم عليه ، ومن هنا قال من قال : إن الله خلق من أجله العالم ، أو أنه لولا هو لما خلق عرشاً ولا كرسياً ولا سماء ولا أرضاً ولا شمساً ولا قمراً .

لكن ليس هذا حديثاً عن النبي ﷺ لاصحيحاً ولا ضعيفاً ، ولم ينقله أحد من أهل العلم بالحديث عن النبي ﷺ ؛ بل ولا يعرف عن الصحابة ، بل هو كلام لا يُدْرَى قائله ...

[فإذا ما] حصل في ذلك غلو من جنس غلو النصارى بإشراك بعض المخلوقات في شيء من الربوبية كان ذلك مردوداً غير مقبول ، فقد صح عنه ﷺ أنه قال : ((لاتطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله))(١) وقد قال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فأمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهو خيراً لكم إنما الله إله واحد ﴾(٢)

والله جعل له حقاً لا يشركه فيه مخلوق فلا تصلح العبادة إلا له ، ولا الدعاء إلا له ، ولا التوكل إلا عليه ، ولا الرغبة إلا إليه ، ولا الرهبة إلا منه ، ولا ملجأ ولا منجأ منه إلا إليه ، ولا يأتي بالحسنات إلا هو ، ولا يذهب السيئات إلا هو ، ولا حول ولا قوة إلا به ، ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾(٣) ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾(٤) .. وقال تعالى : ﴿ ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴾(٥) فجعل الطاعة لله وللرسول ، وجعل الخشية والتقوى لله وحده ، وكذلك في قوله : ﴿ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله ، سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون ﴾(٦) فالإيتاء لله والرسول . وأما

(١) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .
(٢) سورة النساء ١٧١ .
(٣) سورة سبأ ٢٣ .
(٤) سورة البقرة ٢٥٥ .
(٥) سورة النور ٥٢ .
(٦) سورة التوبة ٥٩ .

التوكل فعلى الله وحده ، والرغبة إلى الله وحده)[1] فتبين من هذا أنه يجب حماية التوحيد مما يقدح فيه أو يكون سبباً لزواله لا سيما الغلو في شخص النبي ﷺ والذي وقع في الشرك بسببه كثير من المسلمين .

ج) الغلو في الملائكة والأنبياء والصالحين :

بين شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله تعالى ــ أن من الطوائف من غلا (في الأنبياء والصالحين وفي الملائكة أيضاً ، فجعلوهم وسائط في العبادة ، فعبدوهم ليقربوهم إلى الله زلفى ، وصوروا تماثيلهم ، وعكفوا على قبورهم ، وهذا كثير في النصارى ومن ضاهاهم من ضلال أهل القبلة ، ولهذا ذكر الله هذا الصنف في القرآن في آل عمران وفي براءة في ضمن الكلام على النصارى ، وقال تعالى : ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ، ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذا أنتم مسلمون ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾[4] وهذا الذي أمره الله أن يقوله لهم هو الذي كتبه إلى هرقل ملك الروم .

وهؤلاء قد يظنون أنهم إذا استشفعوا بهم شفعوا لهم ، وأن من قصد معظماً من الملائكة والأنبياء فاستشفع به شفع له عند الله ، كما يشفع خواص الملوك عندهم ، وقد أبطل الله هذه الشفاعة في غير موضع من القرآن ...

---

(١) الفتاوى ١١/٩٤-٩٩ . وانظر ٣/٢٧٦ وما بعدها .

(٢) سورة ال عمران ٧٩-٨٠ .

(٣) سورة التوبة ٣١ .

(٤) سورة ال عمران ٦٣ .

وهؤلاء يحجون إلى قبورهم ويدعونهم ، وقد يسجدون لهم وينذرون لهم ، وغير ذلك من أنواع العبادات ، وهؤلاء أيضاً مشركون ، وأكثر المشركين يجمعون بين التكذيب ببعض ما جاؤوا به وبين الشرك ، فيكون فيهم نوع من الشرك بالخالق وتكذيب رسله ، ومنهم من يجمع بين الشرك والتعطيل ، فيعطل الخالق أو بعض ما يستحقه من أسمائه وصفاته .

فأصحاب رسول الله ﷺ والتابعون لهم بإحسان إلى يوم القيامة ليسوا من هؤلاء ولا من هؤلاء ، بل يثبتون أنهم وسائط في التليغ عن الله ، ويؤمنون بهم ويحبونهم ولا يحجون إلى قبورهم ، ولا يتخذون قبورهم مساجد ، وذلك تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . فإظهار ذكرهم وما جاؤوا به هو من الإيمان بهم ، وإخفاء قبورهم لئلا يفتن بها الناس هو من تمام التوحيد وعبادة الله وحده ، والصحابة وأمة محمد قاموا بهذا .

ولهذا تجد عند علماء المسلمين من أخبار أهل العلم والدين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من مشائخ العلم والدين ، والعدل من ولاة الأمور ما يوجب معرفة ذلك الشخص ، والثناء عليه والدعاء له ، وأن يكون له لسان صدق وما ينتفع به ، إما كلام له ينتفع به ، وإما عمل صالح يقتدى به فيه ، فإن العلماء ورثة الأنبياء ، والأنبياء ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ يقصد الانتفاع بما قالوه وأخبروا به وأمروا به ، والاقتداء بهم فيما فعلوه ــ صلوات الله عليهم أجميعن .

وأما أهل الضلال كالنصارى وأهل البدع فهم مع غلوهم وتعظيمهم لقبورهم وتماثيلهم والاستشفاع بهم لا تجد عندهم من أخبارهم ما يعرف صدقه من كذبه ، بل قد التبس هذا بهذا ، ولا يكاد أحد من علمائهم يميز فيما هم عليه من الدين بين ما جاء عن المسيح وما جاء عن غيره ، إما من الأنبياء وإما من شيوخهم ، بل قد لبسوا الحق بالباطل .

وكذلك أهل الضلال والبدع من أهل القبلة تجدهم يعظمون شيخاً أو إماماً أو غير ذلك ويشركون به ، ويدعونه من دون الله ويستغيثون به ، وينذرون له ، ويحجون إلى قبره ، وقد يسجدون له ، وقد يعبدونه أعظم مما يعبدون الله ، كما يفعل النصارى ، وهم مع ذلك من أجهل الناس بأحواله ، ينقلون عنه أخباراً مسيبة ليس لها

إسناد ، ولا يعرف صدقها من كذبها ، بل عامة ما يحفظونه ما فيه غلو وشطح للإشراك به ، فأهل الإسلام يعرفون دين الإسلام ولا يشوبونه بغيره ، يعرفون ا لله ويعبدونه وحده ، ويعرفون أنبياءه فيقرون بما جاؤا به ، ويقتدون به ، ويعرفون أهل العلم والدين ، وينتفعون بأقوالهم وأفعالهم ، وأهل الضلال في ظلمة لا يعرفون ا لله ولا أنبياءه ولا أولياءه ، ولا يميزون بن ما أمر ا لله به وما نهى عنه ، وبين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان .)[1]

ومن الغلو في الصالحين من الأنبياء وغيرهم العكوف على قبورهم والتبرك بها وتحري الصلاة عندها والدعاء ، وتسنيمها والبناء عليها ، واتخاذها مزارات ومشاهد تقصد بالسفر والعبادة ، ونحو ذلك مما جاء الشرع بتحريمه والنهي عنه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه ا لله تعالى ـ (.. وثقيف كان فيهم اللات المذكورة في القرآن في قوله تعالى : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر وله الأنثى ﴾ [2] وقد ذكروا أنها مكان رجل كان يلت السويق ويسقيه للحجاج ، فلما مات عكفوا على قبره ، وصار ذلك وثناً عظيماً يعبد[3] ...

قال عبد بن حميد في تفسيره : حدثنا قبيصة عن سفيان عن منصور عن مجاهد : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ﴾ قال : كان رجل يلت السويق فمات ، فَاتُخِذَ قبره مصلى[4] ، وقال : حدثنا سليمان بن دواد عن أبي الأشهب عن أبي الجوزاء عن ابن عباس قال : اللات رجل يلت السويق للحجاج[5] ، وكذلك رواه ابن أبي حاتم عن أبي الجوزاء عن ابن عباس قال : كان يلت السويق على الحجر فلا يشرب منه أحد إلا

---

(١) الفتاوى ٢٧/٢٨٣-٢٨٦ . وانظر اقتضاء الصراط المستقيم ١/٧٧ ، ٢٨٩ .

(٢) سورة النجم ١٩-٢١ .

(٣) قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ " كانت اللات صخرة بيضاء منقوشة ، وعليها بيت بالطائف له استار وسدنة ، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف ... يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش " ٧/٤٣٠.

(٤) روى ابن جرير نحوه بسنده إلى مجاهد ٢٧/٥٨ .

(٥)رواه البخاري في التفسير موقوفاً (ح٤٨٥٩) ، وأخرجه ابن جرير بسنده إلى ابن عباس جامع البيان ٢٧/٥٩ .

سمن ، فعبدوه[١] ، وروي عن الأعمش قال : كان مجاهد يقرأ اللاتّ مثقلة ، ويقول : كان رجل يلت السويق على صخرة في طريق الطائف ويطعمه الناس فمات ، فقبر فعكفوا على قبره .[٢]

.. [و] عن السدي عن أبي صالح قال : اللات الذي كان يقوم على آلهتهم وكان يلت لهم السويق ، والعزى نخلة كانوا يعلقون عليها الستور والعهن[٣] ، ومناة حجر بقديد .

وقد قرأ طائفة من السلف اللات بتشديد التاء ، وقيل إنها اسم معدول عن اسم الله .[٤]

قال الخطابي : المشركون يتعاطون الله اسماً لبعض أصنامهم فصرفه الله إلى اللات صيانة لهذا الإسم وذباً عنه .[٥]

قلت : ولا منافاة بين القولين والقرآءتين ، فإن كان رجل يلت السويق على حجر، وعكفوا على قبره ، وسموه بهذا الاسم وخففوه ، وقصدوا أن يقولوا هو الإله ، كما كانوا يسمون الأصنام آلهة ، فاجتمع في الاسم هذا وهذا ، وكانت اللات لأهل الطائف ، وكانوا يسمونها " الرَّبَّة " و العزى لأهل مكة .. وكانت مناة لأهل المدينة ، فكل مدينة من مدائن أهل الحجاز كان لها طاغوت تحج إليه وتتخذه شفيعاً وتعبده ...

[وقد كان المشركون يحجون إلى هذه الأصنام ، ويشدون الرحال قاصدينها بالعبادة والدعاء ونحو ذلك ، ويدل على ذلك قول] أمية بن الصلت : فينا بيت يحجه

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه كما في الدر ٦٥٣/٧ .

(٢) أخرجه ابن جرير بسنده ٥٨/٢٧ .

(٣) العهن هو : الصوف المصبوغ ، انظر المفردات عهن ص ٣٥١ . وانظر اللسان ٢٩٧/١٣ مادة عهن .

(٤) انظر النشر في القرآءات العشر لابن الجزري ٣٧٩/٢ ، وابن جرير ٥٨/٢٧ ، وابن كثير ٤٣٠/٧ .

(٥) انظر ابن كثير ٤٣٠/٧ .

العـرب ، وأبـو سـفيان يوافقـه علـى ذلـك [١] ، فـدل ذلـك علـى أن .. السـفر إليهـا حج ، والحج نسك ، وهو حج إلى غير بيت الله ،ونسك لغير الله ، كما أن الدعاء لها صلاة لغير الله ، وقد قال تعالى : ﴿ قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ، قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ [٢] فالله تعالى أمر نبيه ﷺ أن تكون صلاته ونسكه لله ، فمن سافر إلى بقعة غير بيوت الله التي يشرع السفر إليها ودعا غير الله فقد جعل نسكه وصلاته لغير الله عز وجل ...

فإذا كان السفر إلى بيوت الله غير الثلاثة ليس بمشروع باتفاق الإئمة الأربعة ؛ بل قد نهى عنه الرسول ﷺ فكيف بالسفر إلى بيوت المخلوقين الذين تتخذ قبورهم مساجد وأوثاناً وأعياداً ويشرك بها ، وتدعى من دون الله ؟ حتى إن كثيراً من معظميها يفضل الحج إليها على الحج إلى بيت الله ، فيجعل الشرك وعبادة الأوثان أفضل من التوحيد وعبادة الرحمن ، كما يفعل ذلك من يفعله من المشركين ...) [٣]

وهذا نوع من الغلو الذي نهى النبي ﷺ عنه وحذر أمته منه ، حيث نهى عن العكوف على القبور ، أو الصلاة إليها ، أو طلب الدعاء عندها ... [٤]

ومن أنواع الغلو في الأشخاص الغلو في بعض الصالحين أو من يُظَنُّ به ذلك ، أو من يدعيه ، واعتقاد أنه من الأولياء والأصفياء ، حتى بلغ بهم الحال إلى وصفهم بصفات الألوهية ، وهذا النوع يكثر في المتصوفة .[٥]

ومن الغلو في الأشخاص أيضاً الغلو في المشايخ بدعائهم والاستغاثة بهم والسجود لهم ونحوه مما يفعله بعض المنتسبين إلى الزهد والطرق .

---

(١) وذلك حينما اجتمعا ، فذكر أبو سفيان عن علماء النصارى قولهم بقرب مبعث نبي من العرب ، فقال أمية نحن من العرب ، قال سفيان : إنه من أهل بيت يحجه العرب ، قال فقلت : نحن معشر ثقيف فينا بيت يحجه العرب . الفتاوى ٣٥٦/٢٧ .

(٢) سورة الأنعام ١٦١ .

(٣) الفتاوى ٣٥٧/٢٧-٣٦٠ . وانظر اقتضاء الصراط المستقيم ٧٧/١ .

(٤) وقد تقدم بيان هذا قريباً في الفصل السابق انظر ص

(٥) انظر منهاج السنة النبوية ٤٨٢/١-٤٨٤ .

وقـد بـين شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ أن الشيوخ الصالحين الذين يقتدى بهم هم المتبعون لطريق الأنبياء والمرسلين كالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، الذين لا يقرون مثل هذه الأمور المحرمة ، بل طريقتهم دعوة الخلق إلى الله ﷻ وإلى طاعة الله ورسوله ﷺ ، يأمرون الناس بالإخلاص لله وحده في العبادة ، وينهون الشرك بهم كما دعا إلى ذلك الرسل من قبلهم .

بل إن (خير الشيوخ الصالحين وأولياء الله المتقين : أتبعهم له وأقربهم وأعرفهم بدينه وأطوعهم لأمره ، كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، وسائر التابعين بإحسان .. وليس لأحد أن يدعو شيخاً ميتاً أو غائباً بل ولا يدعو ميتاً ولا غائباً لا من الأنبياء ولا غيرهم ، فلا يقول لأحدهم ياسيدي فلان أنا في حسبك أو في جوارك ، ولا يقول بك استغيث وبك أستجير ، ولا يقول إذ عثر : يافلان ، ولا يقول : محمد وعلي ولا الست نفيسة ، ولا سيدي الشيخ أحمد ، ولا الشيخ عدي ، ولا الشيخ عبد القادر ، ولا غير ذلك مما فيه دعاء الميت والغائب ، ومسألته ، والاستغاثة به ، والاستنصار به ، بل ذلك من أفعال المشركين ، وعبادات الضالين ...

قال الله تعالى : ﴿ قل ادعو الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ومالهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾(١) فبين سبحانه أن المخلوقات كلها ليس لأحد منها شيء في الملك ، ولا له شريك فيه ، ولا له ظهير ، أي معين لله تعالى كما تعاون الملوك ، وبين أن الشفاعة عنده لا تنفع إلا لمن أذن له ...) (٢)

---

(١) سورة سبأ ٢٢-٢٣ .

(٢) الفتاوى ١١/٤٩٨-٥٠١ . وانظر في الغلو : تعظيم الأماكن ووجوب لزوم السنة الفتاوى ١٥/١٥٣ وما بعدها .

د) الغلو في مرتبة الولاية :

ومن الغلو في الأشخاص غلو بعضهم في مرتبة الولاية ، حيث تكلّم بعضهم (١) في " خاتم الأولياء " وعظموا أمره ، حتى زعم بعضهم أن ابن عربي خاتم الأولياء ، بل جعل بعضهم مرتبة الولاية فوق منزلة النبوة ، بل قد يفضل بعضهم شيخه على النبي ﷺ أو غيره من الأنبياء ، وربما ادعوا في شيخهم نوعاً من الإلهية . (٢)

(و .. طائفة من السعدية : يفضلون الولي على النبي ﷺ (٣) و بعضهم يقلد الشافعي ولا يقلد أبو بكر وعمر ، وكذلك غالية الرافضة الذين يجعلون الإمام كان ممداً للنبي في الباطن ، كما قد يجعلونه إلهاً ، فأما الغلو في ولي غير النبي ﷺ حتى يفضل على النبي ﷺ ، سواء سمي ولياً أو إماماً أو فيلسوفاً ، وانتظارهم للمنتظر الذي هو محمد بن الحسن(٤) ، أو اسماعيل بن جعفر ، نظير ارتباط الصوفية على الغوث ، وعلى خاتم الأولياء ، فبطلانه ظاهر بما علم من نصوص الكتاب والسنة ، وما عليه إجماع الأمة ، فإن الله جعل الذين أنعم عليهم أربعة : النبيين والصديقين ، والشهداء والصالحين ، فغاية من بعد النبي أن يكون صديقاً كما كان خير هذة الأمة بعد نبيها صديقاً ؛ ولهذا كانت غاية مريم ذلك ؛ في قوله : ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمة صديقة ﴾ (٥) ...

[وقد] ذكر الله ذلك في بيان فضلها ، دفعاً لغلو النصارى فيها ، كما يقال لمن ادعى في رجل أنه ملك من الملوك ؛ أو غني من الأغنياء ونحو ذلك ، فيقال : ما هو إلا رئيس قرية ، أو صاحب بستان ، فيذكر غاية ماله من الرئاسة المال ، فلو كان للمسيح مرتبة فوق الرسالة أولها مرتبة فوق الصديقية لذكرت .

---

(١) من أولئك بعض الصوفية الذين غلوا في ابن عربي ، وقد تكلم الحكيم الترمذي في مرتبة الولاية ، حتى قال بأن للأولياء خاتم كما أن للنبيين خاتم . انظر المصدر نفسه .

(٢) انظر الفتاوى ٣٦٣/١١ . ودرء التعارض ٢٢/٥-٢٤ .

(٣) وانظر ٧١/١١ .

(٤) العسكري .

(٥) سورة المائدة ٧٥ .

ولهذا كان أصل الغلو في النصارى ويشابههم في بعضه غالية المتصوفة والشيعة ، ومن انظم إليهم من الصابئة المتفلسفة ...) [١]

ومما يلاحظ أن الغالين في مفهوم الولاءة يختلفون فيمن ينسبون إليه ختم الولاية ، وكل زعيم طاعئفة يزعم أن الولاية ختمت به ، وأن من يدعيها بعده فهو كذاب ، فيأتي الآخر فيدعي نفس الكلام مما يشهد بكذبهم جميعاً .

كما أنهم غلو أيضاً في نسبة التشريع إلى الولي ، فزعموا أن للنبي شريعة وللولي شريعة ، وأنه إذا تعارضت شريعة النبي والولي فإن شريعة الولي هي التي تقدم ؛ لأن الولي كما يزعمون يأخذ عن الله مباشرة ، بينما النبي يأخذ عن الله بواسطة ، ولا ريب أن هذا غلو وخروج عن الحق ، وهي ليست ولاية رحمانية ، وإنما هي ولاية شيطانية ، ولا يختلط الآمر فيها إلا عى من قلت معرفته وفسدت فطرته .

٤) *الغلو في المحبة :*

المحبة عبادة من أجل العبادات ؛ بل مدار العبادات وأصلها المحبة كما تقدم بيانه[٢] إلا أن من الناس من بالغ في المحبة حتى خرج عن الحد الشرعي الذي أمر الله به ، فقد (وُجِدَ في المستأخرين من انبسط في دعوى المحبة حتى أخرجه ذلك إلى نوع من الرعونة ، والدعوى التي تنافي العبودية وتدخل العبد في نوع من الربوبية التي لا تصلح إلا لله ؛ ويدعي أحدهم دعاوى تتجاوز حدود الأنبياء والمرسلين ، أو يطلبون من الله مالا يصلح بكل وجه إلا لله ، لا يصلح للأنبياء والمرسلين .

وهذا باب وقع فيه كثير من الشيوخ . وسببه : ضعف تحقيق العبودية التي بينتها الرسل وحررها الأمر والنهي الذي جاؤا به ، بل ضعف العقل الذي به يعرف العبد حقيقته ، وإذا ضعف العقل وقل العلم بالدين ، وفي النفس محبة انبسطت النفس بحمقها في ذلك ، كما ينبسط الإنسان في محبة الإنسان مع حمقه وجهله ، ويقول : أنا محب فلا أؤآخذ بما أفعله من أنواع يكون فيها عدوان وجهل ، فهذا عين الضلال ، وهو

---

(١) الفتاوى ١١/٣٦٤-٣٦٦ . وانظر ١١/٣٧٣ وما بعدها ، ٣٧٥ . ودرء التعارض ٢٥-٢٨ ، وانظر في الرد على هذه الدعوى الفتاوى ١١/٣٦٥ -٣٧٢ .

(٢) انظر ص ٤٥٥ وما بعدها .

شبيه بقول اليهود والنصارى : ﴿ نحـن أبنـاء ا الله وأحبـاؤه ﴾ قـال تعـالى : ﴿ قـل فلـم يعذبكـم بذنوبكـم بـل أنتـم بشر ممـن خلـق يغفـر لمـن يشاء ويعـذب مـن يشـاء ﴾ [1] فـإن تعذيبه لهـم بذنوبهـم يقتضـي أنهـم غـير محبوبـين ولا منسـوبين إليـه بنسبة البنـوة ، بـل يقتضـي أنهـم مربوبـون مخلوقـون .

فمـن كـان ا الله يحبه استعمله فيمـا يحبه محبوبـه ، لا يفعـل مـا يبغضـه الحـق ويسـخطه مـن الكفـر والفسـوق والعصيـان ، ومـن فعـل الكبـائر وأصر عليهـا ولم يتـب منهـا فـإن ا الله يبغـض منـه ذلـك ... فـإن المحب للمخلـوق إذا لم يكـن عارفـاً بمصلحتـه ولا مريـداً لهـا ، بـل يعمـل بمقتضـى الحـب وإن كـان جهـلاً وظلمـاً كـان ذلـك سـبباً لبغـض المحبـوب لـه ونفـوره عنه ؛ بـل لعقوبتـه .

وكثـير مـن السـالكين سـلكوا في دعـوى حـب ا الله أنواعـاً مـن أمـور الجهـل بـالدين ؛ إمـا مِنْ تَعَـدِي حـدود ا الله ، وإمـا مـن تَضْيِيْـعِ حقـوق ا الله ، وإمـا مـن ادعـاء الدعـاوي الباطلـة الـتي لا حقيقـة لهـا ، كقـول بعضهـم : أي مريـد لي تـرك في النـار أحـداً فأنـا منـه بـريء . فقـال الآخـرة : أي مريـد لي تـرك أحـداً مـن المؤمنـين يدخـل النـار فأنـا منـه بـريء ، فـالأول جعـل مريـده يخـرج كـل مـن في النـار ، والثـاني جعـل مريـده يمنـع أهـل الكبائر مـن دخـول النـار ...

وكثـير ممـن يدعـي المحبـة يخـرج عـن شـريعة ا الله وسـنة رسـوله ﷺ ويدعـي مـن الخيـالات .. حتـى قـد يظـن أحدهـم سقوط الأمـر وتحليـل الحـرام لـه وغـير ذلـك ممـا فيـه مخالفـة شريعة الرسـول وسـنتة وطاعتـه ، بـل قـد جعـل محبـة ا الله ومحبـة رسـوله الجهـاد في سـبيله . والجهـاد يتضمـن كمـال محبـة مـا أمـر ا الله بـه ، وكمـال بغـض مـا نهـى ا الله عنـه ، ولهـذا قـال في صفـة مـن يحبهـم ويحبونـه : ﴿ أذلـة علـى المؤمنـين أعـزة علـى الكـافرين يجـاهدون في سـبيل ا الله ﴾ [2] ...) [3] وهـؤلاء بخـلاف ذلـك .

وقـد بـين شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة ــ رحمـه ا الله تعـالى ــ أن هـؤلاء غلـو غلـواً عظيمـاً حتـى ظنـوا أن كمـال المحبـة أن يحـب العبـد كـل شـيء في هـذا الوجـود حتـى الكفـر

---

(١) سـورة المـائدة ١٨ .

(٢) سـورة المـائدة ٥٤ .

(٣) الفتـاوى ١٠/٢٠٨-٢١٠ . وانظـر ٣٦٠/٨ ومـا بعدهـا .

والمعاصي والعدوان . قال ـ رحمه الله ـ (وفي كلام بعض الشيوخ : المحبة نار تحرق في القلب ما سوى مراد المحبوب ، وأرادوا أن الكون كله قد أراد الله وجوده ، فظنوا أن كمال المحبة أن يحب العبد كل شيء حتى الكفر والفسوق والعصيان ، ولا يمكن أحد أن يحب كل موجود ؛ بل يحب ما يلائمه وينفعه ، ويبغض ما ينافيه ويضره ، ولكن استفادوا بهذا الضلال اتباع أهوائهم ، فهم يحبون ما يهوونه كالصور والرئاسة وفضول المال ، والبدع المضلة ، زاعمين أن هذا من محبة الله ، ومن محبة الله بغض ما يبغضه الله ورسوله ، وجهاد أهله بالنفس والمال .

وأصل ضلالهم أن هذا القائل الذي قال : " إن المحبة نار تحرق ما ما سوى مراد المحبوب " قصد بمراد الله تعالى الإرادة الدينية الشرعية[1] التي هي بمعنى محبته ورضاه[2] ، فكأنه قال تحرق من القلب ما سوى المحبوب لله ، وهذا معنى صحيح ، فإن من تمام الحب أن لا يحب إلا ما يحبه الله ، فإذا أحببت ما لا يحب كانت المحبة ناقصة . وأما قضاؤه وقدره فهو يبغضه ويكرهه ويسخطه ونهى عنه فإن لم أوافقه في بغضه وكراهته وسخطه لم أكن محباً له ، بل محباً لما يبغضه . فاتباع الشريعة والقيام بالجهاد ، من أعظم الفروق بين أهل محبة الله وأوليائه الذين يحبهم ويحبونه ، وبين من يدعي محبة الله ناظراً إلى عموم ربوبيته ، أو متبعاً لبعض الدعاوى المخالفة لشريعته ، فإن دعوى هذه المحبة لله من جنس دعوى اليهود والنصارى المحبة لله ، بل قد تكون دعوى هؤلاء شراً من دعوى اليهود والنصارى لما فيهم من النفاق الذين هم به في الدرك الأسفل من النار ، كما قد تكون دعوى اليهود والنصارى شراً من دعواهم إذا لم يصلوا إلى مثل كفرهم ....) [3]

---

(١) لا الكونية القدرية ، فإنه لم يقصدها .

(٢) أي وأصل ضلال هؤلاء الذين غلوا في المحبة حتى لم يفرقوا بين الشرعية والكونية أصل ضلالهم عدم فهم لمراد هذا القائل ، فهذا القائل قصد المحبة الشرعية الدينية المتعلقة بالرضا و لم يقصد ما قصدوه من محبة كل موجود ، فإنه ليس كل موجود محبوب .

(٣) نفس المصدر السابق الفتاوى ١٠/٢١٠-٢١١ .

وهذا لما ادعوا المحبة (ولم يزنوها بميزان الكتاب والسنة دخل فيها نوع من الشرك ، واتباع الأهواء والله تعالى قد جعل محبته موجبة لاتباع رسوله ﷺ فقال : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ [١] ...

فكل من ادعى أنه يحب الله ولم يتبع الرسول فقد كذب ، ليست محبته لله وحده ، بل إن كان يحبه فهي محبة شرك ، فإنما يتبع ما يهواه كدعوى اليهود والنصارى محبة الله ، فإنهم لو أخلصوا له المحبة لم يحبوا إلا ما أحب ، فكانوا يتبعون الرسول ، فلما أحبوا ما أبغض الله مع دعواهم حبه كانت محبتهم من جنس محبة المشركين .

وهكذا أهل البدع . فمن قال : إنه من المريدين لله المحبين له ، وهو لا يقصد اتباع الرسول والعمل بما أمر به ، وترك ما نهى عنه فمحبته فيها شوب من محبة المشركين واليهود والنصارى بحسب ما فيه من البدعة ، فإن البدع ليست مشروعة وليست مما دعا إليه الرسول ﷺ لا يحبها الله ، فإن الرسول دعا إلى كل ما يحبه الله ، فأمر بكل معروف ونهى عن كل منكر ...) [٢]

كما أن لهم من المبالغات في محبة الله التي يزعمونها ما يصلون به إلى درجة الاتحاد والحلول وهو الكفر بعينه ، ويطلقون عليه الفناء ، وفناء الفناء ، والسحق[٣] ، والمحق[٤] ، والدك[٥] ، ورفع الإنِّيَّة والبَيْنِية فيما بينهم وبين الله[٦] ، وهي ألفاظ يراد بها الحلول والاتحاد ؛ بل ووصلوا بعد ذلك إلى مرتبة الكشف والنيابة عن الله ﷻ في تصريف شئون هذا الكون . فإلى الله المشتكى ولا حول ولا قوة إلا به .

---

(١) سورة آل عمران ٣١ .

(٢) الفتاوى ٣٦٠/٨ .

(٣) السحق يقصدون به ذوبان الجسم البدني في ذات الله تعالى حتى لا يبقى له حساً ولا وعياً لأنه قد سحق جسمه ولم يبق شيء منه . معجم ألفاظ الصوفية للشرقاوي ص ١٧٢ .

(٤) المحق يلي مرتبة السحق بحيث أنه لا يبقى للعبد وجود لا جسماً ولا وعياً لأنه في حالة محق في فناء كلي . معجم ألفاظ الصوفية للشرقاوي ص ١٧٢ .

(٥) أي كما يقولون : " أنا أنت وأنت أنا " وكقول بعضهم : " أنا من أهوى ومن أهوى أنا ، نحن روحان حللنا بدن فإذا ما أبصرني أبصرته ... ".

(٦) يقصدون به عدم وجود تباين بن الخالق والمخلوق .

الفناء :

كما أن من غلو هؤلاء في المحبة أن جعلوا من درجاتها الفناء في الحق حتى يفنى العبد في المعبود ، فلا يشهد سوى الحق . وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ أن الفناء والاصطلام في توحيد الربوبية الذي يدعيه هؤلاء هو : أن يبقى العبد في عين الجمع ، بحيث لا يفرق بين ما يؤلم أو مايلذ .

وهذا الأمر مما يعلم كذبه ، إن كان فيهم من يفهم ما يقول ، وإلا كان ضالاً يتكلم بما لا يعرف حقيقته ، وهو الغالب على من يتكلم في هذا .

فإن القوم قد يحصل لأحدهم هذا المشهد ـ مشهد الفناء في توحيد الربوبية ـ فلا يشهد فرقاً ما دام في هذا المشهد ، وقد يغيب عنه الإحساس بما يوجد الفرق مدة من الزمان ، فيظن هذا الفناء مقاماً محموداً ، ويجعله إما غاية ، وإما لا زماً للسالكين ، وهذا غلط ؛ فإن عدم الفرق بين ما ينعم ويعذب أحياناً ؛ هو مثل عدم الفرق بين النوم والنسيان ، والغفلة والاشتغال بشيء عن آخر ...

ومن لم يدرك هذا الفرق فإن كان لسبب أزال عقله هو به معذور ، وإلا كان مطالباً بما فعله من الشرك وتركه من الخير ...

[وهذا الحال قد أدى بكثير منهم إلى الفناء في الخالق ، والقول بالاتحاد الخاص حتى يعتقد الواحد منهم أنه اتحد مع خالقه فلا يرى سواه ، ولا يبصر غيره ، فغيب بمحبوبه عن حبه ، وبموجوه عن وجوده .] والذين يذكرون عن أبي يزيد[1] وغيره كلمات من الاتحاد الخاص ، ونفي الفرق ويعذرونه في ذلك يقولون : إنه غاب عقله حتى قال أنا الحق وسبحاني ، وما في الجبة إلا الله ، ويقولون : إن الحب إذا قوي على صاحبه وكان قلبه ضعيفاً يغيب بمحبوبه عن حبه ، وبموجوده عن وجده ، وبمذكوره عن ذكره ، حتى يفنى من لم يكن ، ويبقى من لم يزل ، ويحكون أن شخصاً ألقى بنفسه في الماء فألقى محبه نفسه خلفه فقال : أنا وقعت فلم وقعت أنت ؟ فقال : غبت بك عني فظننت أنك أني ، فمثل هذا الحال التي يزول فيها تمييزه بن الرب

(١) أبو يزيد البسطامي . وقد تقدمت ترجمته انظر ص ٤٣٤ .

والعبـد ، وبـين المأمور والمحظور ، ليسـت علمـاً ولا حقـاً ، بـل غايتـه أنـه نقـص عقلـه الـذي يفرق بـه بـين هـذا وهـذا ، وغايتـه أن يعـذر ، لا أن يكـون قولـه تحقيقـاً . [1]

وطائفـة مـن الصوفيـة المدعـين للتحقيـق يجعلـون هـذا تحقيقـاً وتوحيـداً ، كمـا فعلـه صـاحب منـازل السـائرين[2] ، وابـن العريـف[3] وغيرهمـا ، كمـا أن الاتحـاد العـام جعلـه طائفـة تحقيقـاً وتوحيـداً كـابن عربـي الطـائي[4] .) [5]

(وهـذه الحـال تعـرض لكثـير مـن السـالكين ، وليسـت حـالاً لازمـة لكـل سـالك ، ولا هـي أيضـاً آيـة محمـودة ، بـل ثبـوت العقـل والفهـم والعلـم مـع التوحيـد باطنـاً وظـاهراً كحـال نبينـا ﷺ وأصحابـه أكمـل مـن هـذا وأتم .

والمعنـى الـذي يسـمونه الفنـاء ينقسـم إلى ثلاثـة أقسـام : فنـاء عـن عبـادة السوى ، وفنـاء عـن شـهود السـوى ، وفنـاء عـن وجـود السـوى .

فـالأول : أن يفنـى بعبـادة الله عـن عبـادة مـا سـواه ، وبخوفـه عـن خوفـه مـا سـواه .. وبمحبتـه عـن محبـة مـا سـواه ، وهـذا هـو حقيقـة التوحيـد والإخـلاص الـذي أرسـل الله بـه رسله .. فإنـه يفنـى مـن قلبـه كـل تألهـة لغير الله ، ولا يبقـى في قلبـه تألـه لغـير الله ، وكـل من كان أكمـل في هـذا التوحيـد كـان أفضـل عنـد الله .

الثـاني : أن يشـهد مـا سـوى الله ، وهـذا الـذي يسـميه كثـير مـن الصوفيـة حـال الإصطـلام والفنـاء والجمـع ونحـو ذلـك ...) [6]

---

(١) انظر تفصيل الحكم على مثل هذا القول في الفتاوى ٢/٣٧٦ .

(٢) هو أبو إسماعيل عبدالله بن محمد بن علي الهروي الحنبلي الصوفي توفي في ذي الحجة سنة ٤٨١هـ .

(٣) هو أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله ابن العريف الضهاجي الآندلسي صاحب المقالات والإشارات ، ولد سنة ٤٢١هـ وتوفي بمراكش سنة ٥٣٦ هـ . السير ٢٠/١١١ .

(٤) والواقع أن ما يعتذر به غلاة الصوفية عن شطحهم هو عذر باطل لا يجعل بحكم واحد ومنزلة واحدة لكون عملهم هذا مبني على غير أساس من الشرع والدين ، وما كان كذلك فما نتج عنه فحكمه حكمه ، ولقد كان الرسول ﷺ وأصحابه من بعده أعرف بالله وأخوف لله ، ولم يصدر عنهم مثل هذا الكلام الإلحادي ، بل لم تكن تعرف هذه الكلمة - السكر بالله أو الفناء بالله - في تلك العهود الصافية ، وإنما وجدت بعد انتشار الجهل وخزعبلات الصوفية ، ولو كان ذلك خيراً لما سبق غلاةُ الصوفيةِ إليهِ الصحابةَ والتابعينَ لهم بإحسان .

(٥) الفتاوى ٨/٣١٠-١١٣ . وانظر ١٠/٢٢٠-٢٢٥ ، ٢/٣٧٧-٣٧٩ ، ٣٤٣-٣٤٦ .

(٦) الفتاوى ٢/٣٦٩-٣٧٠ . وانظر ٣٤٣ . و ١٠/٢١٩ . ٢٢/٣٠٧-٣٠٨ ، ومنهاج السنة ٥/٣٤٧ ، والصفدية ٢/٣٣٩ .

(وهـذا يحصـل لكثير مـن السـالكين ، فـإنهم لفـرط انجـذاب قلوبهـم إلى ذكـر ا لله وعبادتـه ومحبته وضعف قلوبهـم عـن أن تشـهد غير مـا تعبـد وتـرى غـير مـا تقصـد ، لا يخطـر بقلوبهـم غـير ا لله ، بـل ولا يشـعرون ، كمـا قيـل في قولـه : ﴿ وأصبـح فـؤاد أم موسى فارغـاً إن كـادت لتبـدى بـه لـولا أن ربطنـا على قلبهـا لتكـون مـن المؤمنـين ﴾ (١) قالوا : فارغا من كـل شيء إلا مـن ذكـر موسى ، وهـذا كثير يعـرض(٢) لمـن فقمـه أمـر مـن الأمـور إمـا حـب وإمـا خـوف ، وإمـا رجـاء يبقـى قلبـه منصرفـاً عـن كـل شـيء إلا عمـا قـد أحبه أو خافـه أو طلبـه ، بحيـث يكـون عنـد استغراقه في ذلـك لا يشـعر بغيره .

فـإذا قـوي على صاحب الفنـاء هـذا فإنـه يغيـب بموجـوده عـن وجـوده ، وبمشـهوده عـن شـهوده ،وبمذكـوره عـن ذكـره ، وبمعروفـه عـن معرفتـه ، حتـى يفنـى مـن لم يكـن وهـي المخلوقـات المعبـدة ممن سـواه ، ويبقـى مـن لم يـزل وهـو الـرب تعـالى ، والمـراد فناؤهـا في شـهود العبـد وذكـره ، وفنـاؤه عـن أن يدركهـا أو يشـهدها ، وإذا قـوي هـذا ضعـف المحـب حتى اضطرب في تميـيزه ، فقـد يظـن أنـه هـو محبوبـه ...

وهـذا الموضـع زل فيـه أقـوام وظنـوا أنـه اتحـاد ، وأن المحـب يتحـد بـالمحبوب حتـى لا يكـون بينهمـا فـرق في نفـس وجودهمـا ، وهـذا غلـط ، فـإن الخـالق لا يتحـد بـه شـيء أصـلاً ، بـل لا يتحـد شـيء بشـيء إلا إذا استحالا وفسـدا وحصـل مـن اتحادهمـا أمـر ثـالث لا هـو هـذا ولا هـذا ، كمـا إذا اتحـد المـاء بـاللبن .. ولكـن يتحـد المـراد والمحبـوب والمكـروه ، ويتفقـان في نـوع الإرادة والكراهـة ، فيحـب هـذا مـا يحب هـذا ، ويبغـض هـذا مـا يبغـض هـذا ، ويرضـى مـا يرضـى ويسـخط مـا يسـخط ، ويكـره مـا يكـره ، ويـوالي مـن يوالي ، ويعادي مـن يعـادي ، وهـذا الفنـاء كلـه فيـه نقـص .

وأكـابر الأوليـاء كـأبي بكـر وعمـر والسـابقين الأولـين مـن المهـاجرين والأنصـار لم يقعـوا في هـذا الفنـاء ، فضـلاً عمـن هـو فوقهـم مـن الأنبيـاء ، وإنمـا وقـع شـيء مـن هـذا بعـد الصحابـة ...)(٣)

---

(١) سورة القصـص ١٠ .

(٢) هكـذا في المطبـوع ولعلهـا وهـذا يعـرض كثـيراً ، أو كثـيراً مـا يعـرض .

(٣) الفتـــاوى ١٠/٢١٩-٢٢٠ .

(والثالث : الفناء عن وجود السوى ، وهو قول الملاحدة أهل الوحدة كصاحب الفصوص وأتباعه الذين يقولون وجود الخالق هو عين وجود المخلوق ، ومما ثم غير ولا سوى في نفس الأمر . فهؤلاء كفرهم أعظم من كفر اليهود والنصارى وعباد الأصنام .) [١]

(وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : ((إن أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم))[٢] حتى يبلغ الأمر بأحدهم إلى أن يهوى المردان ، ويزعم أن الرب تعالى تجلى في أحدهم ، ويقولون : هو الراهب في الصومعة ، وهذه مظاهر الجمال ، ويقبل أحدهم الأمرد ويقول : أنت الله .

ويذكر عن بعضهم أنه كان يأتي ابنه ، ويدعي أنه الله رب العالمين ، أو أنه خلق السموات والأرض ، ويقول أحدهم لجليسه : أنت خلقت هذا وأنت هو وأمثال ذلك .

فقبح الله طائفة يكون إلهها الذي تعبده هو موطوئها الذي تفترشه ، وعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منهم صرفاً ولا عدلاً .) [٣]

ولهذا قال بعض السلف : (من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبد الله بالخوف وحده فهو حروري ، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجيء ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد ، وذلك لأن الحب المجرد تنبسط النفوس فيه حتى تتوسع في أهوائها إذا لم يزعها وازع الخشية لله ، حتى قالت اليهود والنصارى ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ [٤] ويوجد في مدعي المحبة من مخالفة الشريعة مالا يوجد في أهل الخشية ، ولهذا قرن الخشية بها في قوله : ﴿ هذا ما توعدون لكل أواب

---

(١) الفتاوى ٢/٦٩-٣٧٠ . وانظر ٣٤٣ .

(٢) رواه أحمد في ٤/٤٢٠ ولفظه : عن النبي ﷺ قال : ((إن مما أخشى عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم ومضلات الفتن)) عن أبي برزة ، ورواه ابن أبي عاصم في السنة (ح١٤) ، وقال الألباني إسناده صحيح ، كما صححه أيضاً في صحيح الترغيب والترهيب (ح٥٠) .

(٣) الفتاوى ٢/٣٧٨ .

(٤) سورة المائدة ١٨ .

حفيظ ، من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ، ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود ﴾ (١)

وكان المشائخ المصنفون في السنة يذكرون في عقائدهم مجانبة من يكثر دعوى المحبة والخوض فيها من غير خشية ، لما في ذلك من الفساد الذي وقع فيه طوائف من المتصوفة ، وما وقع في هؤلاء من فساد الاعتقاد والأعمال أوجد إنكار طوائف لأصل طريقة المتصوفة بالكلية ...

وكثير ممن يدعي المحبة هو أبعد من غيره عن اتباع السنة وعن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله ، ويدعي مع هذا أن ذلك أكمل لطريق المحبة من غيره لزعمه أن طريق المحبة لله ليس فيه غَيْرَة ، ولا غضب لله وهذا خلاف ما دل عليه الكتاب والسنة ، ولهذا في الحديث المأثور : ((يقول الله تعالى يوم القيامة : أين المتحابون بجلالي ؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي)) (٢) فقوله : أين المتحابون بجلال الله تنبيه على ما في قلوبهم من إجلال الله وتعظيمه مع التحاب فيه ، وبذلك يكونون حافظين لحدوده ، دون الذين لا يحفظون حدوده لضعف الإيمان في قلوبهم ...)(٣)

وغاية هؤلاء ومنتهاهم أن يصلوا إلى درجة الفناء في توحيد الربوبية والاصطلام ، حتى قالوا إن صاحب الفناء لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة ، ويجعلون هذا غاية السلوك ؛ لأنه في هذه الحالة لا يبقى عنده مكروه للحق ، بل كل مخلوق فهو عنده محبوب للحق ، كما أنه مراد ، وأصل قول هؤلاء هو قول جهم بن صفوان من القدرية ، فهم من غلاة الجهمية الجبرية في القدر .

فهؤلاء أقروا بالقدر موافقة للسلف وجمهور الأئمة ، وهم مصيبون في ذلك ، وخالفوا القدرية من المعتزلة وغيرهم في نفي القدر ؛ ولكن سلكوا في ذلك مسلك الجهم بن صفوان وأتباعه ، فزعموا أن الأمور كلها لم تصدر إلا عن إرادة

---

(١) سورة ق ٣٢ .

(٢) رواه مسلم في البر والصلة والآداب (ح٢٥٦٦) ومالك في الموطأ (ح١٧٧٦) والدارمي في الرقاق (ح٢٧٥٧) .

(٣) الفتاوى ١٠/٨١-٨٢ .

تخصيص أحد المتماثلين بلا سبب ، وقالوا : الإرادة والمحبة والرضا سواء . فكل ما في الوجود فهو بمشيئته وقدرته وإرادته ، وهو خالقه ، سواء في أفعال العباد وغيرها ، وإذا كان كذلك فهو مريد لكل حادث ، والإرادة هي المحبة والرضا ، فهو محب راض لكل حادث ، حتى ظنوا أن كل ما في الوجود من كفر وفسوق وعصيان فإن الله راض به محب له كما هو مريد له .

[هم في آخر الأمر لا يشهدون للرب محبوباً إلا ما وقع وقدر ، وكل ما وقع من كفر وفسوق وعصيان فهو محبوب عندهم ، فلا يبقى في هذا الشهود فرق بين موسى وفرعون ، ولا بين محمد وأبي جهل ، ولا بين أولياء الله وأعدائه ، ولا بين عبادة الله وحده وعبادة الأوثان ؛ بل هذا كله عند الفاني في توحيد الربوبية سواء ، ولا يفرق بين حادث وحادث إلا من جهة ما يهواه ويحبه ، وهذا هو الذي اتخذ إلهه هواه ، إنما يألهه ويحب ما يهواه وهو وإن كان عنده محبة لله فقد اتخذ من دون الله أنداداً يحبهم كحب الله ، وهم من يهواه، هذا ما دام فيه محبة لله ، وقد ينسلخ منها حتى يصير إلى التعطيل ، كفرعون وأمثاله الذي هو أسوء حالاً من مشركي العرب ونحوهم .][1]

[ولهذا فإن] هؤلاء إذا شهدوا هذا لم يبق عندهم فرق بين جميع الحوادث في الحسن والقبيح إلا من حيث موافقه للإنسان ، ومخالفتة بعضها له ، فما وافقه مرادة ومحبوبه كان حسناً عنده ، وما خالف ذلك كان قبيحاً عنده ، فلا يكون في نفس الأمر حسنة يحبها الله ولا سيئة يكرها الله إلا بمعنى ما اقترن بلذة صاحبها .

ولهذا يجوز عندهم أن يأمر الله بكل شيء حتى الكفر والفسوق والعصيان ، وينهى عن كل شيء حتى الإيمان والتوحيد .

فصار عندهم صاحب الفناء في مشهد الربوبية من يشهد كل ما في الوجود أنه بإرادة الله ومحبته ورضاه عندهم ، لا فرق بين شيء وشيء ، فلا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة كما قاله صاحب منازل السائرين .

---

(١) الفتاوى ٨/٣٦٥-٣٦٦ .

حتى جوزوا قتال الأنبياء وقتلهم كما قال شيخ مشهور منهم كان بالشام لو قتلت سبعين نبياً ما كنت مخطئاً ، فإنه ليس في مشهدهم لله محبوب مرضي مراد إلا ما وقع ، فما وقع فالله يحبه ويرضاه ، وما لم يقع فالله لا يحبه ولا يرضاه .)[١]

وقد بين ـ رحمه الله أن هؤلاء المدعين للفناء في المحبوب لا يبقى عندهم في النهاية فرق بين الإيمان والتوحيد ، وبين الكفر والفسوق والعصيان ، بل إن منتهى قولهم الاتفاق مع غلاق الجهمية الجبرية في المحبة والإرادة والرضا . [٢]

وغلو هؤلاء إنما وجد بسبب جهلهم بضوابط المحبة والبغض ، حتى أصبحوا (يحبون بلا علم ، ويبغضون بلا علم ، والعلم ما جاء به الرسول ﷺ كما قال : ﴿ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم ﴾ [٣] وهو الشرع المنزل ... [فـ] الإرادة والمحبة إذا كانت بغير علم وشرع كانت من جنس محبة الكفار وإرادتهم ، فهؤلاء السالكون المريدون الصوفية والفقراء الزاهدون العابدون الذين سلكوا طريق المحبة والإرادة إن لم يتعبوا الشرع المنزل والعلم الموروث عن النبي ﷺ فيحبون ما أحب الله ورسوله ، ويبغضون ما أبغض الله ورسوله ، وإلا أفضى بهم الأمر إلى شعب من شعب الكفر والنفاق ، ولا يتم الإيمان والمحبة إلا بتصديق الرسول ﷺ فيما أخبر وطاعته فيما أمر .) [٤]

ومن هنا يتبين أن غلو هؤلاء في المحبة هو عين غلو الجهمية في المحبة حيث زعموا أن كل شيء يقع في هذا الكون فهو محبوب لله ومراد ، فسووا بين المحبة والرضا ، وسار على ذلك المتصوفة حيث أحبوا السيئات وفعلوها ، وزعموا أنها واقعة بمحبة الله ورضاه ، فلذلك أحبوها ورضوها ، فخلطوا بين محبة الله الشرعية ، وبين محبة الله القدرية الكونية .

---

(١) الفتاوى ٨/٣٣٧-٣٤٩ بتصرف واختصار .

(٢) انظر الفتاوى ٨/٣٦٥-٣٦٦ .

(٣) سورة ال عمران ٦١ .

(٤) الفتاوى ٨/٣٦٥-٣٦٦ .

٥) تلاعب الشياطين بأصحاب الغلـو :

وفيما تقدم بحثه يتضح أن الغلو مذموم بشتى صورة وألوانه ، سواء كان في القبور أو في الأشخاص ؛ مهما عظمت منزلتهم كالأنبياء ، وفي مقدمتهم نبينا محمد ﷺ والصالحين من أتباعهم ، أو من الملائكة ، أو من غيرهم من خلق الله وأوليائه ، أو حتى من أعدائه من الشياطين ونحوهم ، فإن هذا من أهم نتائجه وأسبابه تلاعب الشياطين بأصحاب الغلو ، وتزيينهم لذلك الغلو ، وتحبيبه إلى قلوبهم ، ليصبح الباطل حقاً ، والعدل قبحاً واجحافاً بحق أهله .

وهذا من سنة الله في خلقه فإن من أعرض عن أمر الله وشرعه قيض له ، شيطاناً فهو له قرين يزين له الباطل ، ويسهل عليه اتباعه ، ويكره إليه الحق ويثقل عليه اتباعه .

قال تعالى : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ، وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ﴾[١] وقال سبحانه : ﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾[٢] .

ولها قد يعاقب الله ﷻ من غلا في المشايخ وغيرهم ، بأن يسلط عليهم الجن وغيرهم ليردوهم وليغووهم ، فيزينوا لهم أعمالهم ، ويموهوا عليهم تصوراتهم .

وهذا ما بينه شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله : (وكثيراً ما يستغيث الرجل بشيخه الحي أو الميت ، فيأتيه [الجن] في صورة ذلك الشيخ ، وقد يُخَلِّصُونَـهُ مما يكره فلا يشك أن الشيخ نفسه جاءه ، أو أن ملكاً تصور بصورته وجاءه ، ولا يعلم أن ذلك الذي تمثل إنما هو الشيطان لما أشرك بالله أضلته الشياطين ، والملائكة لا تجيب مشركاً...

ومن هنا ضلت النصارى حيث اعتقدوا أن المسيح بعد أن صلب ـ كما يظنون ـ أنه أتى إلى الحواريين وكلمهم ووصاهم وهذا مذكور في أناجيلهم ...

---

(١) سورة الزخرف ٣٦-٣٧ .

(٢) سورة الأعراف ١٤٦ .

وأصحاب الحلاج لما قتل كان يأتيهم من يقول أنا حلاج فيرونه في صورته عياناً ، وكذلك شيخ بمصر يقال له الدسوقي[(١)] بعد أن مات كان يأتي أصحابه من جهته رسائل وكتب مكتوبة ، وأراني صادق من أصحابه الكتاب الذي أرسله فرأيته بخط الجن — وقد رأيت خط الجن غير مرة — وفيه كلام من كلام الجن ، وذلك المعتقد يعتقد أن الشيخ حي ...)[(٢)]

ومن هنا يتضح أن الغلو من أعظم الأسباب التي تؤدي بصاحبها إلى المروق من الدين ، مع ما يقع منه من عبادات عظيمة ، فإذا كان على عهد رسول الله ﷺ وخلفاءه الراشدين قد انتسب إلى الإسلام من مرق منه مع عبادته العظيمة حتى أمر النبي ﷺ بقتالهم ، فيعلم أن المنتسب إلى الإسلام أو السنة في هذه الأزمان قد يمرق أيضاً من الإسلام أو السنة ، حتى يَدَّعِي السنة من ليس من أهلها ، بسبب غلوه في الدين ؛ الذي ذمه الله تعالى في كتابه حيث قال : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً ﴾[(٣)]

وقال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾[(٤)] وقال النبي ﷺ : ((إياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين ﴾[(٥)] (وهو حديث صحيح)[(٦)]

---

(١) الدسوقي هو إبراهيم بن أبي المجد الدسوقي يتصل نسبه بالحسين السبط ، من كبار المتصوفة ، ينحوا منحى ابن القارص في القول بوحدة الوجود . الأعلام للزركلي ٥٩/١ ، وانظر ترجمته في الطبقات الكبرى للشعراني ١٦٥/١ — ١٨٣ .

(٢) الفتاوى ٩٢/١٣-٩٤ ، وانظر الصفدية ٢٩٢/٢-٢٩٣ ، والجواب الصحيح ٣٢٥/١-٣٢٧ .

(٣) سورة النساء ١٧١ .

(٤) سورة المائدة ٧٧ .

(٥) رواه النسائي في مناسك الحج ، (ح٣٠٥٩) ، وابن ماجه في كتاب المناسك (ح٣٠٢٩) وأحمد في ٢١٥/١ و ٣٤٧ ، عن ابن عباس . وصححه الألباني ، انظر الصحيحة (ح١٢٨٣) .

(٦) الفتاوى ٣٨٣/٣ . بتصرف وانظر الجواب الصحيح ٣٣/٢-٣٥ .

الفصل الثالث : بيانه للتوسل وطلب الشفاعة

وفيه مبحثان

المبحث الأول : التوسل بالأنبياء والصالحين

المحبث الثاني : الاستشفاع بالأنبياء والصالحين

المبحث الأول : التوسل بالأنبياء والصالحين

بيانه للتوسل

توطئة :

التوسل من أنواع العبادات التي يدخلها الشرك من طريق قد لا يفطن له الانسان ، ولذا فإن بيان مثل هذه المسألة بذكر المشروع والممنوع من التوسل من تمام بيان التوحيد ، وإخلاص العبادة لله عز وجل .

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ أنه لما كان في الديار المصرية كتب في التوسل جواباً مبسوطاً اثر سؤال عن ذلك ، وذكر ـ رحمه الله ـ أن كثرة ترداده وذكره وبيان مثل هذه الأمور فيه مزيد فائدة ،قال (فإن القواعد المتعلقة بتقرير التوحيد وحسم مادة الشرك والغلو ـ كلما تنوع بيانها ووضحت عباراتها كان ذلك نوراً على نور) [١]

ولذا فإن مثل هذا المسألة من أهم المسا ئل التي ينبغي أن يعرفها المسلم ، لكي يحمي حمى التوحيد ، ويحقق الإخلاص لله العزيز الحميد . خصوصاً وأن الانسان في حالة الشدة يبحث عن أي طريق توصله إلى ما يرجوه ، وتبعده عما يخافه ، ولا حرج على المسلم في ذلك ؛ بشرط أن يكون ذلك في حدود الشرع .

وقد انقسم الناس فيها إلى قسمين : قسم مؤمن موحد يعلم أن الأمور كلها بيد الله ﷻ ، وأنه لا يخرج شيء في هذه الأكوان عن إرادته ومشيئة ، موقناً أن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولذا فإن صاحب هذا القسم تجده مع إتيانه بالاسباب الشرعية قرير العين ، ثابت الجأش لا تزعزع إيمانه المصائب مهما كان ، بخلاف غير المتقي المخلص في التوحيد فإنه لا يتورع عن أي وسيلة يظن أنها توصله إلى مراده ، أو تخلصه من مكروبه ، سواء كانت وسيلة مشروعة أو غير مشروعة ، إما جهلاً أو لغلبة التقليد عليه .

---

(١) الفتاوى ٣١٢/١-٣١٣ .

وفيما يلي ستضح المراد ، ويتجلى المقصود من خلال كلام شيخ الاسلام ـ رحمه الله ـ

تعريف التوسل :

التوسل في اللغة : ما يتوسل به إلى الغير ويتقرب به إليه ، يقال : (وسل فلان إلى الله وسيلة إذا عمل عملاً تقرب به إليه ، والواسل الراغب إلى الله . وتوسل إليه بوسيلة إذا تقرب إليه بعمل ... والوسيلة الوُصْلة والقربى ، وجمعها الوسائل ، قال الله تعالى : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب﴾[١] الجوهري : الوسيلة ما يتقرب به إلى الغير ، والجمع الوُسُلُ والوسائلُ ، والتوسيل والتوسُّل واحد .

وفي حديث الأذان : ((اللهم آت محمداً الوسيلة))[٢] هي في الأصل ما يتوصل به إلى الشيء ويتقرب به ..)[٣]

فنخلص من هذا أن الوسيلة هي التزلف والتقرب والتوسل بالشيء إلى الغير . كما أنها الرغبة إلى الله والتقرب إليه بالأعمال الصالحة ، وعلى هذا فإن التوسل بالأعمال الصالحة إلى الله تكون قربة وعبادة ، والتوسل بها إلى الغير يكون شركاً في العبادة . وعلى هذا حمل المعنى الشرعي كما جاءت بذلك النصوص .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ (فلفظ الوسيلة مذكور في القرآن في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة ﴾[٤] وفي قوله تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا

---

(١) سورة الإسراء ٥٧ .

(٢) رواه البخاري في الأذان (ح٦١٤) وأبو داود في الصلاة (ح٥٢٩) والترمذي في الصلاة (ح٢١١) والنسائي في الأذان (ح٦٨٠) وابن ماجه في الأذان والسنة فيها (ح٧٢٢) .

(٣) لسان العرب ١١/٧٢٤ ، مادة وسل .

(٤) سورة المائدة ٣٥ .

تحويلاً ، أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، إن عذاب ربك كان محذوراً ﴾(١)

فالوسيلة التي أمر الله أن تبتغى إليه ، وأخبر عن ملائكته وأنبيائه أنهم يبتغونها إليه هي ما يتقرب [به] إليه من الواجبات والمستحبات .

فهذه الوسيلة التي أمر الله المؤمنين بابتغائها تتناول كل واجب ومستحب ، وما ليس بواجب ولا مستحب لا يدخل في ذلك سواء كان محرماً أو مكروهاً أو مباحاً .

فالواجب والمستحب هو : ما شرعه الرسول ﷺ فأمر به أمر إيجاب أو استحباب ، وأصل ذلك الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ .

فجماع الوسيلة التي أمر الله الخلق بابتغائها هو التوسل إليه باتباع ما جاء به الرسول، لا وسيلة لأحد إلى الله إلا ذلك .

[وتطلق الوسيلة في الشرع ويراد بها معنى آخر ، وهو ما جاء] في الأحاديث الصحيحة كقوله ﷺ : ((سلوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت له شفاعتي يوم القيامة)) (٢) وقوله : ((من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد حلت له الشفاعة)) (٣)

فهذه الوسيلة للنبي ﷺ خاصة ، وأخبر أنها لا تكون إلا لعبد من عباد الله وهو يرجو أن يكون ذلك العبد ، وهذه الوسيلة قد أُمِرْنَا أن نسألها للرسول ﷺ ، وأخبر ﷺ أن من سأل له هذه الوسيلة فقد حلت عليه الشفاعة يوم القيامة ؛ لأن

---

(١) سورة الإسراء ٥٦-٥٧ .

(٢) رواه الإمام مسلم من حديث عمر بن العاص في الصلاة (ح٣٨٤) والترمذي في الصلاة (ح٢١١) .

(٣) تقدم تخريجه في الصفحة السابقة ، دون قوله : " إنك لا تخلف المعياد " ، وقد أخرجه بهذه الزيادة البيهقي في السنن الكبرى ٤١٠/١ ، وقال الألباني : هذه الرواية شاذة . قال : وقد وقعت في الحديث في كتاب قاعدة جليلة لشيخ الإسلام والظاهر أنها مدرجة من بعض النساخ ". أرواء الغليل ٢٤٣/١ ، ٢٦٠ .

الجزاء من جنس العمل ، فلما دعوا للنبي ﷺ استحقوا أن يدعو هو لهم ، فإن الشفاعة نوع من الدعاء ...) (١)

فهذه الوسيلة التي أَمَرَنَا أن نسألها من الله تعالى له ؛ ـ كما شرع لنا أن نصلي عليه ونسلم عليه ـ هي حق له ، كما أن الصلاة عليه والسلام حق له ﷺ .

والوسيلة التي أمرنا الله أن نبتغيها إليه هي التقرب إلى الله بطاعته ، وهذا يدخل فيه كل ما أمرنا الله به ورسوله .

وهذه الوسيلة لا طريق لنا إليها إلا باتباع النبي ﷺ بالإيمان به وطاعته ، وهذا التوسل به فرض على كل أحد .

فتبين من هذا أن الوسيلة الشرعية هي التقرب بما شرع الله ورسوله ، سواء كانت القربة واجبة أو مستحبة ، وأن ما سوى ذلك فهو وسيلة مبتدعة ، وأن الوسيلة تطلق ويراد بها ما اختص به النبي ﷺ .

فهذا هو مفهوم التوسل الشرعي ، وهذا هو التوسل في عرف الصحابة أيضاً كما سيتضح بيانه فيما يأتي :

التوسل في عرف الصحابة :

بين شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ أن التوسل في عرف الصحابة ـ رضوان الله عليهم كما عرف من استقراء أفعالهم ـ فهو نوعان : نوع قبل وفاة النبي ﷺ ، حيث كانوا يسألونه في حياته أن يدعو لهم ويتوسلون إلى الله بدعائه وشفاعته .

النوع الثاني : توسلهم به بعد وفاته وهو التقرب إلى الله ﷻ بأنواع القرب من طاعته واتباع أمره ، والتوسل بالإيمان به ، واتباع أمر النبي ﷺ ، واجتناب نهيه ونحو ذلك .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ (ولفظ التوسل في عرف الصحابة كانوا يستعملونه في هذا المعنى ، والتوسل بدعائه وشفاعته ينفع مع الإيمان

---

(١) الفتاوى ١/١٩٩-٢٠٠ .

به ، وأما بدون الإيمان به فالكفار والمنافقون لا تغنى عنهم شفاعة الشافعين في الآخرة .)[١]

ثم ذكر ــ رحمه الله أنه لما مات النبي ﷺ لم يكن الصحابة يأتون إلى قبره ويتوسلون به ، ويسألونه أن يدعو له ، فقد كان عمر رضي الله عنه وأكابر الصحابة يتوسلون في الاستسقاء به في حياته ، أما بعد مماته فلم يتوسلوا به ؛ بل توسل عمر رضي الله عنه بالعباس ، وتوسل معاوية بيزيد بن الأسود ، وقد أقر بذلك جميع الصحابة ولم ينكره أحد مع شهرته ، وهو من أظهر الإجماعات الإقرارية .[٢]

وأكد ــ رحمه الله ــ على أنه لم يكن قط توسل الصحابة بالرسول ﷺ بمعنى أنهم يقسمون به ويسألون به ، ويدعون به ، أو يتوسلون بذاته بعد مماته وفي مغيبه أن يقضي الله حوائجهم ، أو أن من مقتضى التوسل به أنه لا يحتاج العبد إلى أن يدعو النبي ﷺ له ، ولا إلى أن يطيع أمره ويجتنب نهيه ، ويظن أن الله تعالى يقضي حاجة هذا الذي توسل به بزعمه ولم يدعو له الرسول ﷺ ، كما يقضي حاجة هذا الذي توسل بدعائه ودعا له الرسول ﷺ ، إذ كلاهما متوسل به عندهم ، ويظنون أن كل من سأل الله تعالى بالنبي ﷺ فقد توسل به كما توسل به ذلك الأعمى[٣] ، وهذا باطل شرعاً وقدراً ، فلا هو موافق لشرع الله ، ولا ما يقوله مطابق لخلق الله ــ ولم يكن الصحابة رضي الله عنهم يفهمون هذا أنه من التوسل ــ ويستدلون بأحاديث واهية [٤]. وسيأتي بيان هذا بحول الله .

قال ــ رحمه الله ــ : (وليس في الأحاديث المرفوعة في ذلك حديث في شيء من دواوين المسلمين التي يعتمد عليها في الأحاديث ــ لا في الصحيحين ولا كتب السنن

---

(١) الفتاوى ١٤٣/١ .

(٢) انظر الفتاوى ٢٨٤/١ .

(٣) وسيأتي بيانها بالتفصيل بحول الله وقوته انظر ص ٧٩٧ .

(٤) انظر الفتاوى ٣٢٤/١ ــ ٣٢٦ .

ولا المسانيد المعتمدة كمسند الإمام أحمد وغيره ؛ وإنما يوجد في الكتب التي عرف أن فيها كثيراً من الأحاديث الموضوعة المكذوبة التي يختلقها الكذابون ، بخلاف من قد يغلط في الحديث ولا يتعمد الكذب، فإن هؤلاء توجد الرواية عنهم في السنن ومسند الإمام أحمد ونحوه ، بخلاف من يتعمد الكذب فإن الإمام أحمد لم يرو في مسنده عن أحد من هؤلاء .

ولا يجوز أن يعتمد في الشريعة على الأحاديث الضعيفة التي ليست صحيحة ولا حسنة ، لكن الإمام أحمد وغيره من العلماء جوزوا أن يروى في فضائل الأعمال ما لم يعلم أنه ثابت إذا لم يعلم أنه كذب .)[١]

الخلاصة :

ونخلص مما تقدم أن التوسل في اللغة : التقرب والتزلف بالشيء إلى الغير، وأن معناه في الشرع مأخوذ من المعنى اللغوي ، مع قصره على المشروع منه ، كالتقرب إلى الله والتوسل إليه بسائر الأعمال الصالحة من الدعاء ونحوه .

وأن هذا الفهم هو الذي كان عليه الصحابة في مفهومهم لمعنى التوسل ، وهو الذي فعلوه في حياة النبي ﷺ وبعد مماته ، أما في حياته فقد كانوا يطلبون من النبي ﷺ أن يدعو لهم ، وأما بعد مماته فكانوا يتوسلون إلى الله بطاعتهم لنبيه ، وحبهم له ، كما كانوا يطلبون أيضاً التوسل إلى الله بدعاء الرجل الصالح ، وهم يدعون الله معه ، كما فعل عمر ومعاوية ـ رضي الله عنهما ـ في مسألة الاستسقاء . وأما ما عرف من التوسل بذات النبي ﷺ بعد مماته فهو أمر مبتدع مخل بالتوحيد . وسيأتي بيانه .

أنواع التوسل :

ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ أن التوسل يتنوع إلى ثلاثة أنواع : نوعان متفق على مشروعيتهما بين المسلمين :

(١) نفس المصدر ١/٢٤٨ ، ٢٥٠ .

أحدهما : التوسل بطاعة الله ورسوله ﷺ وهذا فرض لا يتم الإيمان إلا به، بل هو أصل الإيمان والإسلام .

والثاني : التوسل بدعائه ﷺ وشفاعته ، وهذا كان في حياته ، ويكون يوم القيامة ، حين يتوسل الناس بشفاعته ﷺ .

والنوع الثالث : التوسل بمعنى الإقسام على الله بذات النبي ﷺ أو غيره والسؤال بذاته أو ذات غيره أو حقه أو حق غيره من الأنبياء والصالحين وغيرهم .

وذكر ـ رحمه الله ـ أن من أنكر التوسل بأحد هذين المعنيين ـ الأول والثاني ـ فهو كافر مرتد ، يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل مرتداً . (١)

وإليك أخي القارئ الكريم بيانها فيما يأتي :

فأما الأول : فإنه من المعلوم أن الرسل (هم الوسائط بيننا وبين الله عز وجل في أمره ونهية ووعده ووعيده وخبره ، فعلينا أن نصدقهم في كل ما أخبروا به ، ونطيعهم فيما أوجبوا وأمروا ، وعلينا أن نصدق بجميع أنبياء الله ـ عز وجل ـ لا نفرق بين أحد منهم ...

وإذا تكلمنا فيما يستحقه الله من التوحيد ، بيَّنا أن الأنبياء وغيرهم من المخلوقين لا يستحقون ما يستحقه الله تبارك وتعالى من خصائص ؛ فلا يشرك بهم ، ولا يتوكل عليهم ، ولا يستغاث بهم كما يستغاث بالله ، ولا يقسم على الله بهم ، ولا يتوسل بذواتهم ، وإنما يتوسل بالإيمان بهم ، وبمحبتهم وطاعتهم ، وموالاتهم ، وتعزيرهم وتوقيرهم ومعاداة من عاداهم ، وطاعتهم فيما أمروا ، وتصديقهم فيما أخبروا ، وتحليل ما حللوه ، وتحريم ما حرموه .

---

(١) وذلك لأنه في هذه الحالة يعتبر منكراً لأمر معلوم من الدين بالضرورة ، للخاصة والعامة ؛ راداً للنصوص الشرعية ، فيبين له أن ما أنكره يوجب الردة والخروج من الدين ، فإن قبل وتاب ورجع عن مقولته وإلا قتل مرتداً والعياذ بالله . لكون كفره ظاهراً للعامة والخاصة .

أما دعاءه ﷺ وشفاعته وانتفاع المسلمين بذلك فمن أنكره فهو أيضاً كافر ، لكن هذا أخفى من الأول ، فمن أنكره عن جهل عُرِّف ذلك ؛ فإن أصر على إنكاره فهو مرتد . انظر نفس المصدر .

والتوسل بذلك على وجهين :

أحدهما : أن يتوسل بذلك إلى إجابة الدعاء وإعطاء السؤال ، كحديث الثلاثة الذين أووا إلى الغار ، فإنهم توسلوا بأعمالهم الصالحة ليجيب دعاءهم ويفرج كربتهم ... [فقد سأل كل واحد منهم بعمل عظيم أخلص فيه لله ، لأن ذلك العمل مما يحبه الله ويرضاه ؛ محبة تقتضي إجابة صاحبه : هذا سأل ببره لوالديه ، وهذا سأل بعفته التامة ، وهذا سأل بأمانته وإحسانه .] [١]

والوجه الثاني : التوسل بذلك[٢] إلى حصول ثواب الله وجنته ورضوانه ، فإن الأعمال الصحالة التي أمر بها الرسول ﷺ هي الوسيلة التامة إلى سعادة الدنيا والآخرة ، ومثل هذا كقول المؤمنين : ﴿ ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ﴾[٣] فإنهم قدموا ذكر الإيمان قبل الدعاء ، ومثل ذلك ما حكاه الله سبحانه عن المؤمنين في قوله تعالى : ﴿ إنه كا فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين ﴾[٤] وأمثال ذلك كثير . [٥]

(وكذلك كان ابن مسعود يقول في السَحَرِ : ((اللهم أمرتني فأطعتك ، ودعوتني فأجبتك ، وهذا سحر فاغفر لي))[٦] ومنه حديث ابن عمر أنه كان يقول

---

(١) الفتاوى ٢١٠/١ . وانظر ٣٠٩ .واقتضاء الصراط المستقيم ٧٨٥/٢ .

(٢) أي التوسل بالأعمال الصالحة من الإيمان والاتباع ونحو ذلك لإرادة الاخرة ، بخلاف الوجه الأول فإنه توسل لغرض من أعراض الدنيا المباحة .

(٣) سورة ال عمران ١٩٣ .

(٤) سورة المومنين ١٠٩ .

(٥) الفتاوى ٣٠٨/١-٣٠٩ .

(٦) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٢٦٦/٦ ، ٢٦١/١٦ ، وذكره القرطبي ١٧٢/٩ ، ونقله ابن كثير عن ابن جرير عند تفسير قوله تعالى : ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ آل عمران ١٧ ، وعزاه إلى ابن أبي حاتم .

على الصفا : (اللهم إنك قلت وقولك الحق ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ [(١)] وإنك لا تخلف الميعاد)[(٢)] ثم ذكر الدعاء المعروف عن ابن عمر أنه كان يقوله على الصفا.)[(٣)]

وأما النوع الثاني : من أنوع التوسل ، وهو التوسل بدعائه ﷺ وشفاعته ، فهذا النوع بين - رحمه الله - أنه يكون على وجهين أيضاً :

(**أحدهما** : أن يطلب منه الدعاء والشفاعة فيدعو ويشفع ، كما كان يطلب منه في حياته ، وكما يطلب منه يوم القيامة ، حين يأتون آدم ونوحاً ثم الخليل ثم موسى ، ثم عيسى ، ثم يأتون محمداً صلوات الله وسلامه عليه وعليهم، فيطلبون منه الشفاعة .

[وهذا الاستشفاع والتوسل حقيقته التوسل بدعائه ؛ فإنه كان يدعو للمتوسل به المستشفع به والناس يدعون معه ، كما أن المسلمين لما أجدبوا على عهد النبي ﷺ دخل عليه أعرابي فقال : يارسول الله هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ، فادع الله يغثنا ، فرفع النبي ﷺ يديه وقال : ((اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا)) وما في السماء قزعة[(٤)] ، فنشأت سحابة من جهة البحر فمطروا أسبوعاً لا يرون فيه الشمس ، حتى دخل عليهم الأعرابي - أو غيره - فقال : يارسول الله انقطعت السبل ، وتهدم البنيان ، فادع الله يكشفها عنا ، فرفع يديه وقال : ((اللهم حوالينا ولا علينا ، اللهم على الآكام[(٥)] والظراب[(٦)] ، ومنابت الشجر وبطون الأودية)) فانجابت عن المدينة كما ينجاب الثوب[(٧)]...] [(٨)]

---

(١) سورة غافر ٦٠ .

(٢) رواه الإمام مالك في الموطأ كتاب الحج (ح٨٣٧)

(٣) المصدر السابق ٣١٠/١ .

(٤) قزعة : أي قطعة من الغيم ، وجمعها قَزَعٌ . النهاية ٥٩/٤ .

(٥) الآكام بالكسر جمع أكمة وهي الرابية ، وتجمع الآكام على أَكَم ، والأكم على آكام ، النهاية ٥٩/١ . وفي اللسان : أن الأكمة هي : التل من الحجر الواحد أو الحجارة المرتفع عما حوله ، ويجمع على إكام ، وآكام ، وأكم . انظر اللسان مادة أكم ٢٠/١٢-٢١ .

والوجه الثاني : أن يكون التوسل مع ذلك بأن يسأل الله تعالى بشفاعته ودعائه ، كما في حديث الأعمى .. فإنه طلب منه الدعاء والشفاعة ، فدعا له الرسول ﷺ وشفع فيه ، وأمره أن يدعو الله فيقول : ((اللهم إني أسألك وأتوجه إليك به ، اللهم فشفعه فيَّ))[1] فأمره أن يسأل الله تعالى قبول شفاعته ، بخلاف من يتوسل بدعاء الرسول وشفاعة الرسول ﷺ ، والرسول لم يدع له ولم يشفع فيه ، فهذا تَوَسُّلٌ بما لم يوجد ، وإنما يَتَوَسَّلُ بدعائه وشفاعته من دعا له وشفع فيه .

وهذا المفهوم من الحديث هو ما فهمه الصحابة والمسلمون ، حينما تمثل بفعل عمر ﷺ والمسلمين معه ؛ فقد توسلوا بدعاء العباس وسألوا الله تعالى مع دعاء العباس ، فإنهم استشفعوا جميعاً ، ولم يكن العباس وحده هو الذي دعا لهم ، فصار التوسل بطاعة الله والتوسل بشفاعة العباس كل منهما يكون مع دعاء المتوسل وسؤاله ، ولا يكون بدون ذلك .

فهذا الأنواع كلها مشروعة لا ينازع في واحد منها أحد من أهل العلم والإيمان .)[2]

وأما النوع الثالث : وهو التوسل بالذوات والأشخاص كمن يقول أسألك بحق فلان أو بفلان ، أو يقول : أسألك بفلان أن ترزقني كذا وكذا ، أو تغفر لي ذنبي ونحو ذلك . وقد بين شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ أن هذا القسم ممنوع ، لم تكن الصحابة ولا التابعون لهم بإحسان (يفعلونه لا في حياة النبي ﷺ ولا بعد موته ، لا عند قبر ولا عند غير قبره ، ولا يعرف في شيء من الأدعية المشهورة بينهم ، وإنما

---

(١) سيأتي تخريجه قريباً إن شاء الله انظر فهرس الأحاديث .

(٢) الفتاوى ١/٣٠٩-٣١٠ . بتصرف

ينقل شيء من ذلك في أحاديث ضعيفة مرفوعة وموقوفة ، أو عن من ليس قوله حجة ...

وهذا [القسم] هو الذي قال [عنه] أبو حنيفة وأصحابه : إنه لا يجوز ، ونهوا عنه حيث قالوا : لايسأل بمخلوق ، ولا يقول أحد : أسألك بحق أنبيائك ، قال أبو الحسين القدوري في كتابه الكبير في الفقه المسمى بشرح الكرخي في باب الكراهة : وقد ذكر هذا غير واحد من أصحاب أبي حنيفة .(١)

قال بشر بن الوليد حدثنا أبو يوسف قال أبو حنيفة : لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به ، وأكره أن يقول بمعاقد العز من عرشك ، أو بحق خلقك ، وهو قول أبي يوسف ، قال أبو يوسف : بمعقد العز من عرشك هو الله فلا أكره هذا ، وأكره أن يقول بحق فلان أو بحق أنبيائك ولارسلك ، وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام .

قال القَدُوري : المسألة بخلقه لا تجوز ؛ لأنه لا حق للخلق على الخالق ، فلا تجوز وفاقاً .) (٢)

والأصل في القسم أن يقسم العبد بالله أو بأسمائه وصفاته ، وما عدا ذلك فلا يجوز القسم به كما تقدم (٣)

وأما السؤال بالأنبياء والصالحين فقد جاءت النصوص بالأمر بإخلاص السؤال لله عز وجل ، فالأصل في السؤال أن يسأل الله عز وجل ، فالعبد (مأمور بسؤال الله عز وجل والرغبة إليه والتوكل عليه ، وسؤال

---

(١) الكتاب مخطوط لم يطبع بعد وهو موجود في استانبول مكتبة مراد ملا برقم ٨٩٥ ، ومكتبة رامبور ٢١٠/١ فقه ، وموجود الجزء الثالث منه في مكتبة الجامعة الإسلامية برقم ١٤٧٨ فلم . لكن هذا النص ليس موجوداً فيه ، والكتاب شرح فيه أبو الحسين القدوري المتوفى سنة ٤٢٩ ، مختصر الكرخي المتوفى سنة ٣٤٠ . انظر تاريخ التراث العربي ١٠٢/٣ .

(٢) الفتاوى ٢٠٢/١ ، وانظر ١٥٣ .

(٣) انظر ص ٦٤٩ وما بعدها .

الخلق في الأصل محرم ؛ لكنه أبيح للضرورة ، [١] وتركه توكلاً على الله أفضل ، قال تعالى : ﴿ فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب ﴾[٢] أي أرغب إلى الله لا إلى غيره . وقال تعالى : ﴿ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله ورسوله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون ﴾[٣] فجعل الإيتاء لله والرسول لقوله تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾[٤] فأمر بإرضاء الله ورسوله .

وأما في الحسب فأمرهم أن يقولوا ﴿ حسبنا الله ﴾ لايقولوا حسبنا الله ورسوله ، ويقولوا : ﴿ إنا إلى الله راغبون ﴾ لم يأمرهم أن يقولوا : إنا لله ورسوله راغبون ، فالرغبة إلى الله وحده كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴾ [٥] فجعل الطاعة لله والرسول وجعل الخشية والتقوى لله وحده .

وقد قال النبي ﷺ لابن عباس : ((ياغلام إني معلمك كلمات احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، جف القلم بما أنت لاق ...)) [٦]

---

(١) وهذا فيما يقدر عليه العبد ، أما ما لا يقدر عليه العبد فلا يجوز طلبه إلا من الله ، كمغفرة الذنب ، وكشف الكرب ، وشفاء المرض ونحو ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله ، نعم لو طلب من الغير أن يدعو الله له بالشفاء أو بكشف الكرب ، أو بإزالة الهم والغم ونحو ذلك فلا بأس ، مع أنه يؤثر في تحقيق كمال التوحيد كما تقدم .

(٢) سورة الشرح

(٣) سورة التوبة ٥٩ .

(٤) سورة الحشر ٧ .

(٥) سورة النور ٥٢ .

(٦) رواه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (ح٢٥١٦) وقال : هذا حديث حسن صحيح ، ورواه الإمام أحمد ٢٩٣/١ .

وقوله : ((إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله)) هو من أصح ماروي عنه ، وفي المسند لأحمد أن أبا بكر الصديق كان يسقط السوط من يده فلا يقول لأحد ناولني إياه ، ويقول : إن خليل أمرني أن لا أسأل الناس شيئاً [١]...) [٢]

فإذا كان هذا في أمر مباح فما بالك بما أمر الله بالإخلاص فيه له ، من الدعاء ، بالمغفرة والجنة والنجاة من النار ، ومن كشف الكربات ودفع المكروهات ، وجلب المحبوبات ، مما لا يجوز طلبه إلا من رب الأرض والسموات ، فمن توسل بنبي ، أو ولي ميت أو غائب ، بأن يسأله أو يطلب منه أن يكشف كربه ، أو أن يشفع له عند خالقه ، أو أن يطلب منه أن يسأل الله له ذلك ؛ فقد وقع فيما حرم الله من الشرك به ما لم ينزل به سلطاناً ؛ لإنه لا يجوز سؤال الله بأحد من خلقه ، عدا سؤاله بالإيمان والعمل الصالح كما تقدم .

أما التوسل بالأنبياء والصالحين فإنه لايصل إلى هذه الدرجة ، فإن وصل فإنه يكون قد تجاوز التوسل إلى الاستغاثة والدعاء الذي لا يجوز إلا لله .

وأما إذا كان التوسل من جنس ما يفعله العامة (الذين يتوسلون في أدعيتهم بأمور ، كقول أحدهم : أتوسل إليك بحق الشيخ فلان ، أو بحرمته ، أو أتوسل إليك باللوح والقلم ، أو بالكعبة ، أو غير ذلك مما يقولونه في أدعيتهم ، يعلمون أنهم لا يستغيثون بهذه الأمور ، فإن المستغيث بالنبي ﷺ طالب منه وسائل له ، والمتوسل به لا يدعى ولا يطلب منه ولا يسأله ، وإنما يطلب به ، وكل أحد يفرق بين المدعو والمدعو به .) [٣]

---

(١) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث . .

(٢) الفتاوى ١/١٨١-١٨٢ .

(٣) الفتاوى ١/١٠٣ .

فهذا هو التوسل الذي يقع فيه كثير من عامة الناس . وشيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ يشير هنا إلى أن هذا التوسل لا يبلغ مبلغ الاستغاثة بغير الله ـ وإن كان منهياً عنه نهي تحريم ـ ويبين أن هذا لا يصل إلى حد الكفر المخرج من الملة ، وإن كان الشرع جاء بخلافه ؛ بل جاء بالأمر بإخلاص الدعاء لله جل وعلا كما تقدم ، ولم يرد لا عن الصحابة ولا التابعين ولا من يعتد به بقوله من أهل السنة ، بل إن هذا الفعل يعتبر وسيلة من وسائل الشرك ، وقد جاء الشرع بالتحذير من وسائل الشرك ؛ بل التغليظ في النهي عنها كما سبق ذكره .

التوسل بذات النبي ﷺ :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ (التوسل بذاته في حضوره أو مغيبه ، أو بعد موته ـ مثل الإقسام بذاته أو بغيره من الأنبياء أو السؤال بنفس ذواتهم لا بدعائهم ـ فليس هذا مشهوراً عند الصحابة والتابعين ، بل عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ومن بحضرتهما من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين لهم بإحسان لما أجدبوا استسقوا وتوسلوا واستشفعوا بمن كان حياً كالعباس وكيزيد بن الأسود ، ولم يتوسلوا ، ولم يستشفعوا ولم يستسقوا في هذه الحال بالنبي ﷺ لا عند قبره ولا غير قبره ، بل عدلوا إلى البدل كالعباس وكيزيد ، بل كانوا يصلون عليه في دعائهم ، وقد قال عمر رضي الله عنه : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا [(١)]

فجعلوا هذا بدلاً عن ذلك لما تعذر أن يتوسلوا به على الوجه المشروع الذي كانوا يفعلونه ، وقد كان من الممكن أن يأتوا إلى قبره فيتوسلوا به ويقولوا في دعائهم في الصحراء بالجاه ونحو ذلك من الألفاظ التي تتضمن القسم بمخلوق على الله عز وجل

---

(١) سيأتي تخريجه قريباً بحول الله وقوته انظر ص ٨١٩.

وجل أو السؤال به ، فيقولون : نسألك أو نقسم عليك بنبيك أو بجاه نبيك ، ونحو ذلك مما يفعله بعض الناس[١] .

[ولقد] علمت الصحابة أن التوسل بالنبي ﷺ إنما هو التوسل بالإيمان به وطاعته ومحبته ، وموالاته ، أو التوسل بدعائه وشفاعته ، فلهذا لم يكونوا يتوسلون بذاته مجردة عن هذا وهذا .

فلما لم يفعل الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ شيئاً من ذلك ،ولا دعوا بمثل هذه الأدعية وهم أعلم منا وأعلم بما يحب الله ورسوله ، وأعلم بما أمر الله به رسوله من الأدعية ، وما هو أقرب إلى الإجابة منا ، بل توسلوا بالعباس وغيره ممن ليس مثل النبي ﷺ ـ دل عدولهم عن التوسل بالأفضل إلى التوسل بالمفضول أن التوسل المشروع بالأفضل لم يكن ممكناً .)[٢]

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ أن من قال : (أسألك بنبيك محمد ﷺ على أنه أراد أسألك بإيماني به وبمحبته ، وأتوسل إليك بإيماني به ومحبته ، ونحو ذلك .. فهو مصيب في ذلك بلا نزاع[٣] ، وإذا حمل على هذا المعنى كلام من توسل بالنبي ﷺ بعد مماته من السلف كما نقل عن بعض الصحابة والتابعين وعن الإمام أحمد وغيره كان هذا حسناً ، . وحينئذ فلا يكون في المسألة نزاع .

ولكن كثير من العوام يطلقون هذا اللفظ ولا يريدون هذا المعنى ، فهؤلاء الذين أنكر عليهم من أنكر .

---

(١) الفتاوى ١/٣١٨ـ٣٢٠ .

(٢) الفتاوى ١/٣١٨ـ٣٢٢ .

(٣) والذي يظهر لي أن عمر ﷺ حينما قال : اللهم إنا كنا نتوسل بنبيك فإنا نتوسل إليك بعم نبيك ما كان يقصد إطلاقاً التوسل بجاه النبي ﷺ ؛ بل ما كان يخشى على السامعين أن يتبادر إلى أذهانهم هذا فضلاً عمن كان معه من كبار الصحابة ، وذلك لكونهم يعلمون جميعاً أن التوسل بالجاه والذات غير مشروع . ومن هنا فإن الشخص إذا كان يخشى من حصول محذور في لفظه فالأولى تركه سداً للذريعة .

وهذا كما أن الصحابة كانوا يريدون بالتوسل به التوسل بدعائه وشفاعته ، وهذا جائز بلا نزاع ، ثم إن أكثر الناس في زماننا لا يريدون هذا المعنى بهذا اللفظ .)(١)

وبين رحمه الله أن السؤال بالنبي ﷺ لايجوز وإن جوزه طائفة من الناس وَنَقَلَ في ذلك بعض الآثار من السلف ، فإن ذلك ليس بموسوغ ، إذ أن (ماروِيَ عن النبي ﷺ في ذلك كله ضعيف ، بل موضوع . وليس عنه حديث ثابت قد يُظَنُّ أن لهم فيه حجة إلا حديث الأعمى الذي علمه أن يقول : ((أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة)) (٢) وحديث الأعمى لا حجة لهم فيه ، فإنه صريح في أنه إنما توسل بدعاء النبي ﷺ وشفاعته ، وهو طلب من النبي ﷺ الدعاء ...

وشاع النزاع في السؤال بالأنبياء والصالحين دون الإقسام بهم .. والذي قاله أبو حنيفة - رحمه الله - وأصحابه إنه لا يجوز .

[و] ليس في المعروف من مذهب مالك ما يناقض ذلك فضلاً أن يجعل هذا من مسائل السب(٣) ؛ فمن نقل عن مذهب مالك أنه جوز التوسل به بمعنى الإقسام به أو السؤال به : فليس معه في ذلك نقل عن مالك وأصحابه ، فضلاً عن أن يقول مالك : إن هذا سب للرسول ﷺ أو تنقص له .

بل المعروف عن مالك أنه كره للداعي أن يقول : ياسيدي سيدي ، وقال : قل كما قالت الأنبياء : يارب يارب ياكريم ، وكره أيضاً أن يقول : ياحنان يامنان فإنه ليس بمأثور عنه .

---

(١) الفتاوى ٢٢١/١ .

(٢) سيأتي تخريجه قريباً وكذا الكلام عليه انظر ص ٨٠٨ ,

(٣) يقصد - رحمه الله - السب والتنقيص من مكانة الرسول ﷺ لمن منع القسم والتوسل بذاته ﷺ ، كما بينه - رحمه الله - في أثناء كلامه . وذلك حينما شنع عليه المخالفون حينما قرر عدم جواز الاقسام والتوسل بذات النبي ﷺ أو بجاهه بياناً للحق وتحقيقاً للتوحيد . فرحمه الله رحمة واسعة .

فإذا كان مالك يكره مثل هذا الدعاء إذ لم يكن مشروعاً عنده فكيف يجوز عنده أن يسأل الله بمخلوق نبياً كان أو غيره ، وهو يعلم أن الصحابة لما أجدبوا عام الرمادة لم يسألوا الله بمخلوق نبياً كان أو غيره ، بل قال عمر اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا فيسقون .

وكذلك ثبت في صحيح مسلم عن ابن عمر وأنس وغيرهما أنهم كانوا إذا أجدبوا إنما يتوسلون بدعاء النبي ﷺ واستسقائه[1] ، لم ينقل عن أحد منهم أنه كان في حياته ﷺ سأل الله تعالى بمخلوق لابه ولا بغيره ، لا في الاستسقاء ولا غيره .. فلو كان السؤال به معروفاً عند الصحابة لقالو لعمر : إن السؤال والتوسل به أولى من السؤال والتوسل بالعباس ، فلم نعدل عن الأمر المشروع الذي كنا نفعله في حياته وهو التوسل بأفضل الخلق إلى أن نتوسل ببعض أقاربه ، وفي ذلك ترك السنة المشروعة ، وعدول عن الأفضل ، وسؤال الله تعالى بأضعف السببين مع القدرة على أعلاهما ؟ . ونحن مضطرون غاية الاضطرار في عام الرمادة الذي يضرب به المثل في الجدب .

والذي فعله عمر فعل مثله معاوية بحضرة من معه من الصحابة والتابعين فتوسلوا بيزيد بن الأسود الجرشي كما توسل عمر بالعباس .

وكذلك ذكر الفقهاء من أصحاب الشافعي وأحمد وغيرهم أنه يتوسل في الاستسقاء بدعاء أهل الخير والصلاح ، قالوا : وإن كانوا من أقارب رسول الله ﷺ فهو أفضل اقتداء بعمر ، ولم يقل أحد من أهل العلم إنه يسأل الله تعالى في ذلك لا بنبي ولا بغير نبي .

---

(١) رواه البخاري في الجمعة (ح٩٣٣) ومسلم في الاستسقاء (ح٨٩٧) وأبو داود في الصلاة (ح١١٤٧) والنسائي في الاستسقاء (ح١٥٠٤، ١٥١٥) . ولفظه : عن أنس بن مالك أن رجلا دخل المسجد يوم جمعة من باب كان نحو دار القضاء ورسول الله ﷺ قائم يخطب فاستقبل رسول الله ﷺ قائما ثم قال يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله يغيثنا فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال اللهم أغثنا اللهم أغثنا اللهم أغثنا)) الحديث .

وكذلك من نقل عن مالك أنه جوز سؤال الرسول ﷺ أو غيره بعد موتهم أو نقل ذلك عن إمام من أئمة المسلمين ـ غير مالك ـ كالشافعي وأحمد وغيرهما فقد كَذَبَ عليهم ، ولكن بعض الجهال ينقل هذا عن مالك ويستند إلى حكاية مكذوبة عن مالك ، ولو كانت صحيحة لم يكن التوسل الذي فيها هو هذا ، بل هو التوسل بشفاعته يوم القيامة ، ولكن من الناس من يحرف نقلها وأصلها ضعيف[1] .)[2]

وقد استدل بعضهم بجواز التوسل بجاه النبي ﷺ بحديث الضرير وحديث الأعرابي وسيأتي الكلام عليهما مفردين قريباً بحول الله وقوته .

التوسل بالجاه وبالحق :

يقع كثير من الناس في التوسل بجاه الأنبياء والصالحين ونحوهم لكونهم يعتقدون أن لهم حقاً وجاهاً عند الله ومكانة ومنزلة تُسَوِّغُ لهؤلاء السؤال بحقهم وبجاههم ومنزلتهم عند الله عز وجل ، قياساً على المخلوق في باب الشفاعة ، حيث يقصد المخلوق صاحب المنزلة والجاه للشفاعة عند ذوي المقامات الدنيوية ، لما لهم من المنزلة والجاه عندهم مما يكون سبباً لقبول أولئك شفاعته ومن ثم قضاء حاجة المشفوع له .

ومن هنا أقدم كثير من الناس على التوسل بجاه الأنبياء والصالحين لما لهم من المكانة والمنزلة عند الله عز وجل .

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ أن (قول السائل لله تعالى : " أسألك بحق فلان وفلان من الملائكة والأنبياء والصالحين وغيرهم ، أو بجاه فلان أو بحرمة فلان " يقتضي أن هؤلاء لهم عند الله جاهاً ، وهذا صحيح .

فإن هؤلاء لهم عند الله منزلة وجاهاً وحرمة يقتضي أن يرفع الله درجاتهم ويعظم أقدارهم ويقبل شفاعتهم إذا شفعوا ، مع أنه سبحانه قال : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾[3]

---

(١)وسيأتي الكلام عليها قريبا بحول الله وقوته انظر ص ٧٩٧ .

(٢) الفتاوى ٢٢٤/١ - ٢٢٥ .

(٣) سورة البقرة ٢٥٥ .

ويقتضي أيضاً أن من اتبعهم واقتدى بهم فيما سن له الاقتداء بهم فيه كان سعيداً ، ومن أطاع أمرهم الذي بلغوه عن الله كان سعيداً ، ولكن ليس نفس مجرد قربهم وجاههم مما يقتضي إجابة دعائه إذا سأل الله بهم حتى يسأل الله بذلك ، بل جاههم ينفعه أيضاً إذا اتبعهم وأطاعهم فيما أمروا به عن الله ، أو تأسى بهم فيما سنوه للمؤمنين ، وينفعه أيضاً إذا دعوا له وشفعوا فيه[1] .

فأما إذا لم يكن منهم دعاء ولا شفاعة ، ولا منه سبب يقتضي الإجابة ، لم يكن متشفعاً بجاههم ولم يكن سؤاله بجاههم نافعاً له عند الله ، بل يكون قد سأل بأمر أجنبي عنه ليس سبباً لنفعه . ولو قال الرجل لمطاع كبير : " أسألك بطاعة فلان لك ، وبحبك له على طاعتك ، وبجاهه عندك الذي أوجبته طاعته لك لكان قد سأله بأمر أجنبي لا تعلق له به ، فكذلك إحسان الله إلى هؤلاء المقربين ومحبته لهم وتعظيمه لأقدارهم مع عبادتهم له وطاعتهم إياه ، ليس في ذلك ما يوجب إجابة دعاء من يسأل بهم ، وإنما يوجب إجابة دعائه بسبب منه لطاعته لهم ، أو سبب منهم لشفاعتهم له ، فإذا انتفى هذا وهذا فلا سبب .

نعم لو سأل الله بإيمانه بمحمد ﷺ ومحبته له وطاعته له واتباعه لكان قد سأله بسبب عظيم يقتضي إجابة الدعاء ، بل هذا أعظم الأسباب والوسائل...)[2]

(وروى بعض الجهال عن النبي ﷺ أنه قال : إذا سألتم الله فاسألوه بجاهي ، فإن جاهي عند الله عظيم ، وهذا الحديث كذب ليس في شيء من كتب المسلمين التي يعتمد عليها أهل الحديث ، ولا ذكره أحد من أهل العلم بالحديث ، مع أن جاهه عند الله تعالى أعظم من جاه جميع الأنبياء والمرسلين . وقد أخبرنا سبحانه عن موسى وعيسى عليهما السلام أنهما وجيهان عند الله فقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا

---

(١) أي في يوم القيامة .

(٢) الفتاوى ١/٢١١-٢٢٠ .

تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين ﴾ (٢)

فإذا كان موسى وعيسى وجيهين عند الله ـ عزو وجل ـ فكيف بسيد ولد آدم صاحب المقام المحمود الذي يغبطة به الأولون والآخرون ، وصاحب الكوثر والحوض المورود الذي آنيته عدد نجوم السماء ، وماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل ، ومن شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً ؟ .

وهو صاحب الشفاعة يوم القيامة حين يتأخر عنها آدم وأولو العزم .. وهو صاحب اللواء ، آدم ومن دونه تحت لوائه ...

ولكن جاه المخلوق عند الخالق تعالى ليس كجاه المخلوق عند المخلوق ، فإنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه : ﴿ إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً، لقد أحصاهم وعدهم عداً ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضلة ، وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله نصيراً ﴾(٤)

والمخلوق يشفع عند المخلوق بغير إذنه فهو شريك له في حصول المطلوب ،

---

(١) سورة الأحزاب ٥٩ .

(٢) سورة ال عمران ٤٥ .

(٣) سورة مريم ٩٣-٩٤ .

(٤) سورة النساء ١٧٢ - ١٧٣ .

والله تعالى لا شريك له ،[1] كما قال سبحانه : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ومالهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾[2] ...)[3]

[ثم بين رحمه الله أن السؤال بالحق مبني على أصلين :]

أحدهما : ما له من الحق عند الله .

والثاني : هل نسأل الله بذلك كما نسأله بالجاه والحرمة ؟

فالأول : قد تقدم ذكره في الحلف بغير الله[4] وخلاصة ذلك أن المسألة فيها ثلاثة أقوال هي :

١- أن للمخلوق على الخالق حق يعلم بالعقل والقياس .

٢- أنه ليس للمخلوق على الخالق حق بحال . وهذا صحيح إذا أريد أنه ليس للمخلوق حق بالقياس والاعتبار على خلقه كما يجب للمخلوق على المخلوق . وكما يظنه جهال العباد من أن لهم حق على الله بعبادته . أما إذا أريد به على وجه الإطلاق فهو غير صحيح .

---

(١) والمتوسل بالجاه والمنزلة والداعي بها حينما يقول أسألك بجاه فلان ، فإنه إنما يتوسل ويستشفع به ، لما يعلمه أو يظنه من منزلته ، ومكانته عند الله عز وجل فيؤول الأمر إلى أن يستشفع به ، ومن هنا يفهم كلام الشيخ رحمه الله تعالى وغفر له ولوالديه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – (والتوسل بالنبي الذي ذكره عمر بن الخطاب ﷺ – [وهو قوله : " إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ..."] – قد جاء مفسراً في سائر أحاديث الاستسقاء ، وهو من جنس الاستشفاع به ، وهو أن يطلب منه الدعاء والشفاعة ، ويطلب من الله أن يقبل دعاءه وشفاعته ، ونحن نقدمه بين أيدينا شافعاً وسائلاً لنا ، بأبي هو وأمي ﷺ ... وهذا الاستشفاع والتوسل حقيقته التوسل بدعائه ...) الفتاوى ١/٣١٤-٣١٥ .

(٢) سورة سبأ ٢٢-٢٣ .

(٣) الفتاوى ١/٣١٨-٣٢٢ .

(٤) انظر ص ٦٥٤ .

٣- وهو الصحيح : أن للمخلوق على الخالق حق أوجبه له سبحانه وتعالى تكرماً وتفضلاً ورحمة ، لم يوجبه عليه مخلوق ، بل هو الذي أوجبه بحكم رحمته وحكمته وعدله حيث كتب على نفسه الرحمة وحرم على نفسه الظلم .

وأما **الأصل الثاني** : (فإنه يقال : ما بين الله ورسوله أنه حق للعباد على الله فهو حق ، لكن الكلام في السؤال بذلك ، فيقال : إن كان الحق الذي سأل به سبباً لإجابة السؤال حسن السؤال به كالحق الذي يجب لعابديه وسائليه .

وأما إذا قال السائل : بحق فلان وفلان ، فأولئك إذا كان لهم عند الله حق أن لا يعذبهم وأن يكرمهم بثوابه ويرفع درجاتهم - كما وعدهم بذلك وأوجبه على نفسه - فليس في استحقاق أولئك ما استحقوه من كرامة الله ما يكون سبباً لمطلوب هذا السائل ، فإن ذلك استحق ما ستحقه بما يسره الله له من الإيمان والطاعة ، وهذا لايستحق ما استحقه ذلك ، فليس في إكرام الله سبب يقتضي إجابه هذا .

وإن قال : السبب هو شفاعته ودعاؤه ، فهذا حق إذا كان قد شفع له ودعا له ، وإن لم يشفع له ولم يدع له لم يكن هناك سبب .

وإن قال : السبب هو محبتي له وإيماني به وموالاتي له ، فهذا سبب شرعي وهو سؤال الله وتوسل إليه بإيمان هذا السائل ومحبته لله ورسوله ، وطاعته لله ولرسوله ، لكن يجب الفرق بين المحبة لله والمحبة مع الله[1]...)[2]

ثم إن هناك شبهات للذين أجازوا التوسل بالذات أو الجاه ، شبهات يتمسكون بها ويسمونها أدلة يزعمون أنها جاءت لتقرير جواز التوسل بالجاه والذات ، وفيما يلي نذكر أهم تلك الشبهات ونبين - من خلال كلام شيخ الإسلام - رحمه الله - خطأ أولئك ، وقصورهم عن إدراك فهم ما صح من تلك النصوص .

---

(١) المحبة مع الله هي : المحبة الشركية ، والمحبة في الله هي المحبة المشروعة ، كما تقدم بيانه في أنواع العبادة انظر ص ٤٥٥ .

(٢) الفتاوى ١/٢١٩-٢٢٠ .

شبهات استدل بها من أجاز التوسل غير المشروع :

لقد تمسك من أجاز التوسل بغير ما دلت النصوص على مشروعيته ، بروايات عن الصحابة أو غيرهم ، والتي لا تخلوا من أحد أمرين : إما أن يكون الاستدلال بها غير صحيح ، لكونها لا تدل على قصد المستدل ، وإما أن تكون واهية لا تثبت صحتها إلى قائليها ، وبالتالي فتكون لا حجة فيها لهم .

ومن هذه الروايات التي ذكرها شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ وفندها أو فند الاستدلال بها على جواز التوسل ما يلي :

أولا : حديث الأعمى :

ذكر شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ أن كثيراً ممن أجاز التوسل بالذوات أو الاشخاص أو غير ذلك مما لم يشرعه الله ، و كذلك من أجاز التوسل بالنبي ﷺ بعد موته بحديث الأعمى الذي جاء إلى النبي ﷺ طالباً منه أن يدعو الله له برد بصره ، فعلمه النبي ﷺ دعاءً وأمره أن يدعو به بعد أن يتوضأ ويصلي ركعتين ، والحديث قد جاء من عدة طرق عن عثمان بن حنيف ـ رضي الله عنه ولفظه : أن رجلاً ضريراً أتى النبي ﷺ فقال : ادع الله أن يعافيني قال : ((إن شئت صبرتَ فهو خير لك ، وإن شئت دعوتُ)) قال فادعه ، فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء ويصلي ركعتين ، ويدعو بهذا الدعاء : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه فيقضيها لي ، اللهم فشفعه فيَّ وشفعني فيه)) قال فقام وقد أبصر))[1]

---

(١) رواه الترمذي في الدعوات (ح٣٥٧٨) من حديث عثمان به عمر وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب ، ورواه ابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (ح١٣٨٥) ، والنسائي في عمل اليوم والليلة (ح٦٥٨) ،كلهم من طريق عثمان بن عمر ، عن شعبة عن أبي جعفر ، قال : سمعت عمارة بن خزيمة ... وأحمد في مسنده ١٣٨/٤ عن روح بن عبادة عن شعبة عن أبي جعفر الخطمي عن عمارة بن خزيمة عن عثمان بن حنيف .ورواه الحاكم في مستدركه (٣١٣/١ ، ٥١٩) وحكم عليه بأنه صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي ،.والبيهقي في دلائل النبوة في كتاب الدعوات ١٦٦/٦ ، ١٦٧ . وقد صححه شيخ الإسلام كما ترى.

وقد أكد شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ على أن هذا الحديث من التوسل بدعاء النبي ﷺ ـ وليس من التوسل بذاته أو جاهه أو مكانته ومنزلته ـ وهذا من القسم الجائز كما سبق ، ويدل على هذا أن الأعمى طلب من النبي ﷺ أن يدعو له بأن يرد الله عليه بصره فقال له النبي ﷺ : ((إن شئت صبرت ، وإن شئت دعوت لك)) وحينئذ فلا إشكال في طلب الدعاء من النبي ﷺ في حياته ، إذ أن هذا كان دأب كثير من الصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ .

وبين ـ رحمه الله ـ أن هذا الحديث بهذا النص قد ورد من عدة طرق كلها صحيحة مع اختلافٍ في بعض الروايات في آخره ، ففي رواية البيهقي وأحمد وأصحاب السنن عدا أبو داود ـ فإنه لم يخرجه ـ : قوله : " اللهم شفعه فيَّ وشفعني فيه".

وفي رواية الحاكم والطبراني وابن أبي خيثمة قوله : ((اللهم فشفعه فيَّ وشفعني في نفسي))[١]

ورواية ابن أبي خيثمة فيها زيادة على هذه وهي قوله : " اللهم فشفعني في نفسي وشفع نبيي في رد بصري ، وإذا كانت لك حاجة فافعل مثل ذلك"[٢]

---

(١) رواه الحاكم (٥٢٦/١) عن أحمد بن شبيب بن سعيد الخطمي عن أبيه ، وعون بن عمارة ، عن روح بن أبي القاسم عن أبي جعفر الخطمي .. ورواه البيهقي في الدلائل من طريق شبيب عن روح ، وابن أبي خيثمة في تاريخه عن مسلم بن ابراهيم عن حماد بن سلمة عن أبي جعفر الخطمي .وفيه قوله : ((اللهم فشفعني في نفسي ، وشفع نبيي في رد بصري ، وإذا كانت حاجة فافعل مثل ذلك)) ، والطبراني في الصغير ١٨٣/١ فيمن اسمه طاهرا . وسيأتي الجواب عن هذه الرواية من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ .

(٢) وسيأتي جواب شيخ الإسلام عنها قريباً .

وكذلك جاء من طريق شبيب بن سعيد[١] ، وفيه : " أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان في حاجة له ، وكان عثمان رضي الله عنه لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته ، فلقي الرجل عثمان بن حنيف فشكا إليه ذلك ، فقال عثمان بن حنيف : ائت الميضأة فتوضأ ثم ائت المسجد فصل ركعتين ثم قل : اللهم إني أسألك وأتوجه إليه بنبينا محمد نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي فيقضى لي حاجتي ، ثم اذكر حاجتك ، ثم رح حتى أروح معك . " قال فانطلق الرجل فصنع ذلك ، ثم أتى بعد عثمان بن عفان رضي الله عنه فجاء البواب فأخذ بيده فأدخله على عثمان فأجلسه معه على الطنفسة وقال : انظر ما كانت لك من حاجة فذكر حاجته فقضاها له .

ثم إن الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف فقال له : جزاك الله خيراً ، ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إلي حتى كلمته في . فقال عثمان بن حنيف : ما كلمته ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول : وجاءه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره فقال له النبي ﷺ : ((أو تصبر)) فقال له : يارسول الله ، ليس لي قائد ، وقد شق عليَّ ، فقال : ((أئت الميضأة فتوضأ وصل ركعتين ثم قل : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه إلى ربي فيجلي لي عن بصري ، اللهم فشفعه في وشفعني في نفسي)) قال عثمان بن حنيف : فو الله ما تفرقنا وما طال بنا

---

(١) هو " شبيب بن سعيد التميمي الحبطي ، أبو سعيد البصري .. قال ابن المديني ثقة كان يختلف في تجارة إلى مصر ، وكتابه كتاب صحيح ، وقال أبو زرعة ، لا بأس به ، وقال النسائي ليس به بأس ، وقال ابن عدي ولشبيب نسخة الزهري عنده عن يونس عن الزهري أحاديث مستقيمة ، وحدث عنه ابن وهب بأحاديث مناكير ، وذكره ابن حبان في الثقات [٣١٠/٨] . قلت : وقال يونس في تاريخ الغرباء مات بالبصرة = سنة ست وثمانين ومائة ؛ فيما ذكره البخاري . وقال الدارقطني ثقة ، ونقل ابن خلفون توثيقه عن النهلي. ولما ذكره ابن عدي .. قال : .. ولعل شبيباً لما قدم مصر في تجارته كتب عنه ابن وهب من حفظه فغلط ووهم ، وأرجو أن لا يتعمد الكذب ، وإذا حدث عنه ابنه أحمد فكأنه شبيب آخر يعني يجود ، وقال الطبراني في الأوسط ثقة ." تهذيب التهذيب ٣٠٦/٤-٣٠٧ .

الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضر قط .[١]

وقد رجح شيخ الإسلام — رحمه الله — الرواية الأولى التي فيها قوله : ((اللهم فشفعه في وشفعني فيه)) وردَّ باقي الروايات لمخالفتها كليات الشريعة التي فيها حماية التوحيد وسدٌّ أبواب الشرك ، لاسيما وأن النبي ﷺ حذر من الوسائل المفضية إلى الشرك ؛ حتى حذر من إطرائه والغلو فيه أو في قبره باتخاذه وثناً يعبد كما تقدم بيانه .

كما أن ردَّه لها ليس اتباعاً للهوى ، أو ترجيحاً بغير مرجح ؛ بل إنه بين ذلك بالحجة البينة والعلم الراسخ ، فقد أجاب — رحمه الله — عن هذه الزيادات الواردة فيما عدا هذه الرواية سواء فعل عثمان بن حنيف مع الرجل الذي شكا إليه ، أو قوله ((اللهم فشفعه فيَّ وشفعني في نفسي)) .

أجاب عن ذلك حينما بين أن الأولى والثانية انفرد فيهما الثقة[٢] عن

---

(١) رواه الطبراني في الصغير (١٨٣/١ فيمن اسمه طاهر) من طريق عبد الله بن وهب عن شبيب ، ورواه البيهقي في الدلائل كتاب الدعوات ١٦٧/٦ من حديث اسماعيل وأحمد ابني شبيب بن سعيد الحبطي كلاهما عن شبيب بن سعيد عن روح بن القاسم عن أبي جعفر المديني عن أبي أمامة سهل بن حنيف ، ورواه الحاكم في المستدرك (٣١٣/١ ، ٥١٩ ، ٥٢٦) إلا أنه لم يذكر قصة هذا الرجل .

وقال الطبراني : " لم يروه عن روح بن القاسم إلا شبيب بن سعيد أبو سعيد المكي وهو ثقة ، وهو الذي يحدث عنه أحمد بن شبيب عن أبيه عن يونس بن زيد الإيلي ، وقد روى هذا الحديث شعبة عن أبي جعفر الخطمي واسمه عمير بن يزيد وهو ثقة ، تفرد به عثمان بن عمر بن فارس عن شعبة والحديث صحيح "

قال الألباني — حفظه الله — الطبراني إنما صحح الحديث فقط دون القصة بدليل قوله " قد روى الحديث شعبة عن أبي جعفر الخَطْمِي ، وهو ثقة تفرد به عثمان بن عمر بن فارس عن شعبة والحديث صحيح " فهذا نص على أنه أراد حديث شعبة ، وشعبة لم يرو هذه القصة ، فلم يصححها إذن الطبراني " التوسل ٨٩ . ومما يؤكد كلامه أن رواية الطبراني من طريق عبد الله بن وهب ، عن شبيب ، وشبيب يُضعَّف من رواية أن وهب عنه كما سيأتي ، وقد أشار إلى ذلك شيخ الإسلام ، في الفتاوى ٢٧٢/١ ، ونص على أن وهب لم يتيقن لفظه كما أتقنه ابنا شبيب .

(٢) الذي هو شبيب بن سعيد الحبطي

الثقات الذين هم أحفظ منه [١] مثل شعبة وحماد بن سلمة وهشام الدستوائي ، وهذا يعتبر علة عند المحدثين ؛ فإن في الرواية الأولى رواها أبو جعفر عن عمارة بن خزيمة ، عن عثمان ابن حنيف ، وفي هذه أنه رواه عن أبي أمامة سهل [٢] عن عثمان بن حنيف ، لاسيما وفي هذه الرواية أنه قال : " فشفعه في وشفعني في نفسي " وأولئك قالوا : " فشفعه في وشفعني فيه " ، ومعنى قوله " فشفعني فيه " أي في دعائه وسؤاله لي فيطابق قوله وشفعه فيَّ. [٣]

---

(١) حيث رواه البيهقي والحاكم والطبراني عن شبيب بن سعيد الحبطي عن روح بن القاسم عن أبي جعفر الخطمي عن أبي أمامة سهل بن حنيف عن عثمان بن حنيف . وشبيب هذا قال عنه الذهبي في الميزان: " = صدوق يغرب ، ذكره ابن عدي في كامله فقال : له نسخة عن يونس بن يزيد مستقيمة ، حدث عنه ابن وهب بمناكير ...

قال ابن عدي : ولعل ذلك لكونه يغلط ويهم إذا حدث من حفظه ، وأرجو أنه لا يتعمد الكذب .
فإذا حدث عنه ابنه أحمد بأحاديث يونس ابن زيد فكأنه يونس آخر ــ يعني يُجَوِّد " ميزان الاعتدال ٢٦٢/٢ (٣٦٥٨)

وقال الألباني في التوسل (٨٣ ــ ٨٤) : هذا الكلام يفيد أن شبيباً لا بأس بحديثه بشرطين اثنين : أحدهما : أن يكون من رواية ابنه أحمد عنه ، والثاني : أن يكون شبيباً هذا يحدث عن يونس ، وذكر ابن أبي حاتم أنه كان عنده كتب يونس بن يزيد فهو إذا حدث منها أحاد وإن حدث من حفظه وهم ، ويؤيد هذا ما ذكره الحافظ بن حجر أن البخاري ــ رحمه الله ــ لم يخرج له إلا عن ابنه أحمد عن يونس فقط ، دون روايته عن ابن وهب . انظر مقدمة الفتح ص ٤٠٩ ، الفصل التاسع في سياق من طعن فيه من رجال البخاري .

(٢) والمعول في تضعيف رواية شبيب بن سعيد على علة السند هذه ، وهي : أن الأكثر والأوثق رووا الحديث عن أبي جعفر المدني عن عمارة بن خزيمة ، عن عثمان بن حنيف ، وليس في روايتهم ، " وشفعني في نفسي " ولم يروي شبيب هذه الرواية . وهي أصح من رواية : أبي جعفر عن أبي أمامة بن سهب عن عثمان بن حنيف ؛ والتي فيها : "وشفعني في نفسي " وهي من رواية شبيب وغيره عن روح عن أبي جعفر ، والتي جاء الاضطراب في متنها بزيادات لم ترو في أحاديث الثقات . وقد سبق تخريج هذه الرواية.

(٣) الفتاوى ٢٧١/١ . بتصرف يسير

كما ذكر – رحمه الله – أن رواية حماد التي فيها قوله : " فإن كان لك حاجة فافعل مثل ذلك " شاذة ، وإن كانت زيادة ثقة ، فإن زيادة الثقة تقبل ما لم يخالف من هو أوثق منه[١] كما هو مقرر في علم المصطلح [٢].

ثم قال – رحمه الله (وبالجملة فهذه الزيادة لو كانت ثابتة لم يكن فيها حجة ، وإنما غايتها أن يكون عثمان بن حنيف ظن أن الدعاء يدعى ببعضه دون بعض ، فإنه لم يأمره بالدعاء المشروع ؛ بل ببعضه ، وظن أن هذا مشروع بعد موته ﷺ ، ولفظ الحديث يناقض ذلك ، فإن في الحديث أن الأعمى سأل النبي ﷺ أن يدعو له ، وأنه عَلَّمَ الأعمى أن يدعو وأمره في الدعاء أن يقول : ((اللهم فشفعه في)) وإنما يدعى بهذا الدعاء إذا كان النبي ﷺ داعياً شافعاً له ، بخلاف من لم يكن كذلك ، فهذا يناسب شفاعته ودعاءه للناس في محياه في الدنيا ويوم القيامة إذا شفع لهم .

وفيه أيضاً أنه قال : ((وشفعني فيه)) وليس المراد أنه يشفع للنبي ﷺ في حاجة للنبي ﷺ .. [وإنما سأل الأعمى النبي ﷺ] الشفاعة ؛ فأمره أن يدعو بقبول هذه

---

(١) انظر الفتاوى ١/٢٧٥ .

(٢) قال الحافظ بن حجر – رحمه الله – " والزيادة مقبولة ما لم تقع منافية لم هو أوثق ، فإن خولف بأرجح ، فالراجح المحفوظ ومقابله الشاذ " انظر نخبة الفكر . قال الألباني – حفظه الله – : " وهذا الشرط مفقود هنا ، فإن حماد بن سلمة ، وإن كان من رجال مسلم ، فهو بلا شك دون شعبة في الحفظ ، ويتبين لك ذلك بمراجعة ترجمة الرجلين في كتب القوم ، فالأول أورده الذهبي في الميزان ، وهو إنما يورد فيه من تُكُلم فيه ، ووصفه بأنه : " ثقة له أوهام " بينما لم يورد فيه شعبة مطلقاً ، ويظهر لك الفرق بينهما بالتأمل في ترجمة الحافظ لهما ، فقال في التقريب (ص١٧٨) : " حماد ابن سلمة ثقة عابد أثبت الناس في ثابت ، وتغير حفظه بآخره " ثم قال (ص٢٦٦): " شعبة بن الحجاج ثقة حافظ متقن كان الثوري يقول : هو أمير المؤمنين في الحديث ، وهو أول من فتش بالعراق عن الرجال وذبَّ عن السنة وكان عابداً " ... فإذا تبين لك هذا عرفت أن مخالفة حماد لشعبة في هذا الحديث بزيادته عليه تلك الزيادة غير مقبوله ؛ لأنها منافية لمن هو أوثق منه ، فهي زيادة شاذة ... ولعل حماداً روى هذا الحديث حينما تغير حفظه . التوسل ٨٣–٨٤ . ومما يؤيد ذلك أن رواية حماد ، لم تسلم من الوهم : إذا كانت عند ثابت ؛ لأنه من أوثق الناس فيه ، ورواية التي معنا ليست عن ثابت وحماد لم يتابع على الزيادة كما تقدم .

الشفاعة ، وهو كالشفاعة في الشفاعة ؛ فلهذا قال : ((اللهم فشفعه في وشفعني فيه)).

وذلك أن قبول دعاء النبي ﷺ في مثل هذا هو من كرامات الرسول ﷺ على ربه ، ولهذا عد هذا من آياته ودلائل نبوته ؛ فهو كشفاعته يوم القيامة في الخلق ، ولهذا أَمَرَ طالب الدعاء أن يقول : ((فشفعه في وشفعني فيه)) بخلاف قوله : ((وشفعني في نفسي)) فإن هذا اللفظ لم يروه أحد إلا من هذا الطريق الغريب .

وقوله : ((وشفعني فيه)) رواته أحفظ للحديث من رواة : ((وشفعني في نفسي))[1]

مع أن قوله : ((وشفعني في نفسي)) إن كان محفوظاً .. [فـ] هو طلب [منه] أن يكون شفيعاً لنفسه مع دعاء النبي ﷺ ، ولو لم يدع له النبي ﷺ كان سائلاً مجرداً كسائر السائلين .

ولا يسمى مثل هذا شفاعة ، وإنما تكون الشفاعة إذا كان هناك اثنان يطلبان أمراً فيكون أحدهما شفيعاً للآخر بخلاف الطالب الواحد الذي لم يشفع غيره .

فهذه الزيادة[2] فيها عدة علل :

انفراد هذا بها عمن هو أكبر وأحفظ منه .

وإعراض أهل السنن عنها .

واضطراب لفظها .

وأن راويها عرف له عن روح هذا أحاديث منكرة .

---

(١) فإن الأولى رواها (عن شعبة رجلان جليلان : عثمان بن عمر ، وروح بن عبادة ، وشعبة أجل من روى هذا الحديث ، ومن طريق عثمان بن عمر عن شعبة رواه الثلاثة : الترمذي والنسائي وابن ماجة : رواه الترمذي عن محمود بن غيلان عن عثمان بن عمر عن شعبة .
ورواه ابن ماجة عن أحمدبن سيار عن عثمان بن عمر ، وقد رواه أحمد في المسند عن روح بن عبادة عن شعبة ، فكان هؤلاء أحفظ للفظ الحديث) الفتاوى ١/٢٧٧ .

(٢) سواء التي فيها قوله : ((وشفعني في نفسي)) أو قوله : ((فإن كان لك حاجة فافعل مثل ذلك))

ومثل هذا يقتضي حصول الريب والشك في كونها ثابتة ، فلا حجة فيها ، إذ الاعتبار بما رواه الصحابي لا بما فهمه ، إذا كان اللفظ الذي رواه لا يدل على ما فهمه بل على خلافه .

ومعلوم أن الواحد بعد موته إذا قال : اللهم فشفعه فيَّ وشفعني فيه مع أن النبي ﷺ لم يدع له كان هذا كلاماً باطلاً ؛ مع أن عثمان بن حنيف لم يأمره أن يسأل النبي ﷺ شيئاً ، ولا أن يقول فشفعه في ، ولم يأمره بالدعاء المأثور على وجهه ، وإنما أمره ببعضه ، وليس هناك من النبي ﷺ شفاعة ، ولا ما يظن أنه شفاعة ، فلو قال بعد موته : فشفعه فيَّ لكان كلاماً لا معنى له ، ولهذا لم يأمر به عثمان ...

ومثل هذا لا تثبت به شريعة كسائر ما ينقل عن آحاد الصحابة في جنس العبادات ، أو الإباحات ، او الإيجابات ، أو التحريمات ، إذا لم يوافقه غيره من الصحابة عليه ، وكان ما يثبت عن النبي ﷺ يخالفه لا يوافقه لم يكن فعله يجب على المسلمين اتباعه ، بل غايته أن يكون ذلك مما يسوغ فيه الاجتهاد ومما تنازعت فيه الأمة فيجب رده إلى الله والرسول . ولهذا نظائر كثيرة[1] ...

وإذا كان كذلك فمعلوم أنه إذا ثبت عن عثمان بن حنيف أو غيره أنه جعل من المشروع المستحب أن يتوسل بالنبي ﷺ ، بعد موته من غير أن يكون النبي ﷺ داعياً له ولا شافعاً فيه ، فقد علمنا أن عمر وأكابر الصحابة لم يروا هذا مشروعاً بعد مماته كما كان يشرع في حياته ، بل كانوا في الاستسقاء في حياته يتوسلون به ، فلما مات لم يتوسلوا به .

بل قال عمر في دعائه الصحيح المشهور الثابت باتفاق أهل العلم بمحضر من المهاجرين والأنصار في عام الرمادة المشهورد لما اشتد بهم الجدب حتى حلف عمر لا

---

(١) "مثل ما كان ابن عمر يدخل الماء في عينية في الوضوء ، ويأخذ لأذنيه ماءاً حديداً ، وكان أبو هريرة يغسل يديه إلى العضدين في الوضوء ويقول : من استطاع أن يطيل غرته فليفعل ، وروي عنه أنه كان يمسح عنقه ويقول : هو موضع الغل ، فإن هذا وإن استحبه طائفة من العلماء اتباعاً لهما فقد خالفهم في ذلك آخرون ، وقالوا سائر الصحابة لم يكونوا يتوضؤون هكذا ". الفتاوى ٢٧٩/١

يأكل سمناً حتى يخصب الناس ، ثم لما استسقى بالعباس قال : (اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا)[1] فيسقون . وهذا دعاء أقره عليه جميع الصحابة و لم ينكره أحد مع شهرته ، وهو من أظهر الإجماعات الإقرارية .

ودعا بمثلة معاوية بن أبي سفيان في خلافته لما استسقى بالناس .

فلو كان توسلهم بالنبي ﷺ بعد مماته كتوسلهم به في حياته لقالوا : كيف نتوسل بمثل العباس ويزيد بن الأسود ونحوهما ؟ ونعدل عن التوسل بالنبي ﷺ الذي هو أفضل الخلائق وهو أفضل الوسائل وأعظمها عند الله ؟ فلما لم يقل ذلك أحد منهم ، وقد علم أنهم في حياته إنما توسلوا بدعائه وشفاعته ، وبعد مماته توسلوا بدعاء غيره وشفاعة غيره ، علم أن المشروع عندهم التوسل بدعاء المتوسل به لا بذاته .

وحديث الأعمى حجة لعمر وعامة الصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ، فإنه إنما أمر الأعمى أن يتوسل إلى الله بشفاعة النبي ﷺ ودعائه لا بذاته ، وقال له في الدعاء : ((قل اللهم فشفعه في))

وإذا قدر أن بعض الصحابة أمر غيره أن يتوسل بذاته لا بشفاعته و لم يأمر بالدعاء المشروع بل ببعضه ، وترك سائره المتضمن للتوسل بشفاعته ، كان مافعله عمر ابن الخطاب هو الموافق لسنة رسول الله ﷺ وكان المخالف لعمر محجوجاً بسنة رسول الله ﷺ ، وكان الحديث الذي رواه عن النبي ﷺ حجة عليه لا له ، والله أعلم.)[2]

وإن مما ينبغي التفطن له : أن مسألة الاستشفاع والتوسل بجاه النبي ﷺ أو بذاته من المسائل التي لا ينبغي أن يصل الخلاف فيها إلى حد التكفير ، كما يظنه البعض ، وقد ورد أن رجلان في عهد شيخ الاسلام ـ رحمه الله ـ اختلفا في تكفير من توسل بذات النبي ﷺ ، فسألا شيخ الاسلام ـ رحمه الله ـ عن ذلك فأفتاهم بعدم جواز

---

(١) رواه البخاري الجمعة (ح١٠١٠) .

(٢) الفتاوى ١/ ٢٧٥-٢٨٥ .

التكفير في مثل هذه الأمور وقرر أنه (لا وجه لتكفير [من قال بجواز التوسل بذاته ﷺ بعد موته لأن] هذه مسألة خفية ، ليست أدلتها جلية ظاهرة ، والكفر إنما يكون بإنكار ما علم من الدين ضرورة ، أو بإنكار الأحكام المتواترة والمجمع عليها ، ونحو ذلك .

واختلاف الناس فيما يشرع من الدعاء ومالا يشرع ، كاختلافهم هل تشرع الصلاة عليه عند الذبح ، وليس هو من مسائل السب[1] عند أحد من المسلمين .) [2]

الخلاصة :

وخلاصة ما تقدم في حديث الأعمى ما يلي :

١) أن الحديث برواياته لا حجة فيه لمن أجاز التوسل بذات النبي ﷺ أو بذات غيره من الأنبياء والأولياء والصالحين ونحوه . وذلك لعدة أمور منها :

أن هذا الحديث من التوسل الجائز وهو التوسل بدعاء النبي ﷺ في حياته . ويدل على هذا قوله ﷺ : ((إن شئت دعوت لك)) وقول الضرير : ((فادع لي)) وأمره ﷺ له بالتوجه إلى الله عز وجل بالدعاء حينما علمه أن يقول : ((اللهم فشفعه في وشفعني فيه)) ويستحيل مع هذا كله أن يحمل على التوسل بالجاه أو الذات أو على التوسل بحقه ﷺ ، إذ أن المعنى المراد من الدعاء : اللهم اقبل شفاعته ﷺ فيَّ أي اقبل دعاءه ، فإن الشفاعة في اللغة الدعاء .

وهذا المفهوم هو الذي فهمه كثير من العلماء ، ولذلك عدوا هذا من معجزاته ﷺ .

٢) وحاصل ألفاظ الحديث ثلاثة : هي :

---

(١) يقصد رحمه الله المسائل التي تصل إلى حد النزاع والسباب الذي يقتضي بغض صاحب البدعة وتفسيقه أو تكفيره أو نحو ذلك كما هو ظاهر كلامه ـ رحمه الله ـ

(٢) الفتاوى ١/١٠٦ .

قوله : ((اللهم شفعه في وشفعني فيه)) وقوله : ((اللهم فشفعه في وشفعني في نفسي ، فإن كان لك حاجة فافعل مثل ذلك)) والرواية الثالثة : قصة الرجل مع عثمان بن حنيف وتعليه له .

فأما الرواية الأولى فهي المعتبرة لاتفاق الرواة على لفظها ولورودها من عدة طرق . ولما ذكر آنفاً .

وأما الرواية الثانية : فإنها معلولة من وجهين : من جهة السند والمتن .

الوجه الأول : من جهة السند وهو يتمثل بعدة أمور منها :

أ) أنها معلولة لمخالفة الثقة لمن هو أوثق منه .

ب) أن راويها شبيب ، رواها عن روح بن القاسم وله في روايته عنه مناكير .

ج) أن رواية حماد بن سلمة لها أيضاً معلولة للزيادة التي فيها لمخالفته لمن هو أوثق منه وأحفظ وأكثر ، وذلك في روايته للزيادة التي فيها ((فإن كان لك حاجة ...)) ، كما سبق ذكره .

وأما الوجه الثاني : فمن جهة المتن : فقوله : ((وشفعني في نفسي)) فيه عدة علل ، منها أنها مضطربة المتن ؛ لأن الواحد لا يكون شافعاً لوحده ، إذ الشفاعة لا تتم إلا باثنين يطلبان أمراً من ثالث ، وهذا مفهومها في اللغة ، إلا أنه يمكن أن تحمل على أن الضرير طلب أن يكون هو أيضاً شافعاً لنفسه مع شفاعة النبي ﷺ هذا وإن كان اللفظ غير مستقيم إلا أن يحمل على أنه سائل فتكون هذه اللفظة من قبيل السؤال لا الشفاعة .

وأما الرواية الثالثة التي وردت فيها قصة عثمان بن حنيف مع الرجل فيجاب عنها بما يلي :

أ) انفراد هذا بها عمن هو أكبر وأحفظ منه .

ب) وإعراض أهل السنن عنها .

ج) واضطراب لفظها .

د) وأن راويها عرف له عن روح هذا أحاديث منكرة ، وقد تقدم بيان ذلك .

هـ) أن عثمان بن حنيف لم يأمر الرجل بأن بأن يقول " فشفعه فيّ " بل أمره ببعض الدعاء الوارد في الحديث لا كله . وهذا مما يدل على أن عثمان رضي الله عنه كان يعلم أن الشفاعة لا تطلب من النبي ﷺ بعد موته .

و) أن مثل هذا لا تثبت به شريعة ، مثله مثل سائر ما ينقل عن الصحابة إذا لم يوافقه عليه غيره ، وكان ما ثبت عن النبي ﷺ يخالفه ، وغايته أن يكون من قبل الاجتهاد يرد فيه الأمر إلى ا لله ورسوله .

ز) أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن معه من الصحابة ، ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ومن معه من الصحابة والتابعين لما أجدبوا لم يتوسلوا بذات النبي ﷺ وإنما عدلوا عن ذلك بالتوسل بعمه وبيزيد ، ولو كان ذلك سائغاً لما عدلوا عن الفاضل إلى المفضول .

ثالثاً : توسل عمر رضي الله عنه بالعباس .

سبقت الاشارة فيما مضى إلى استسقاء عمر ـ رضي الله عنه بالعباس رضي الله عنه ، وهذه الحادثة قد ثبت في صحيح البخاري ـ رحمه ا لله ـ عن أنس بن مالك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما أجدب الناس في عام الرمادة جمع الناس واستسقى بالعباس رضي الله عنه عم النبي ﷺ وقال : (اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا) فيسقون [١]

ولقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه ا لله تعالى ـ أن توسل عمر ومن معه من الصحابة رضي الله عنهم بالعباس هو توسل بدعاءه (فقد ذكر عمر رضي الله عنه أنهم كانوا يتوسلون به في حياته في الاستسقاء ، ثم توسلوا بعمه العباس بعد موته ، وتوسلهم به هو استسقاؤهم به ، بحيث يدعو ويدعون معه ، فيكون هو وسيلتهم إلى ا لله .) [٢] وهذا

---

(١) رواه البخاري الجمعة (ح١٠١٠) .

(٢) الفتاوى ١/١٠٥-١٠٦ . وانظر ١/٢٨٤ .

اجماع من الصحابة بفعل عمر رضي الله عنه [(١)] ، (ولو كان السؤال والتوسل بالنبي ﷺ معروفاً عند الصحابة لقالوا لعمر : إن السؤال والتوسل به أولى من السؤال والتوسل بالعباس ، فلم نعدل عن الأمر المشروع الذي كنا نفعله في حياته ، وهو التوسل بأفضل الخلق إلى أن نتوسل ببعض أقاربه ؟ . وفي ذلك ترك السنة المشروعة ، وعدول عن الأفضل وسؤال الله تعالى بأضعف السببين مع القدرة على أعلاهما ؟ ـ ونحن مضطرون غاية الاضطرار في عام الرمادة الذي يضرب به المثل في الجدب .

والذي فعله عمر رضي الله عنه فعل مثله معاوية رضي الله عنه بحضرة من معه من الصحابة والتابعين ..

وكذلك ذكر الفقهاء من أصحاب الشافعي وأحمد وغيره أنه يتوسل في الاستسقاء بدعاء أهل الخير والصلاح ، قالوا : وإن كانوا من أقارب رسول الله ﷺ فهو أفضل ، اقتداء بعمر ، ولم يقل أحد من أهل العلم إنه يسأل الله تعالى في ذلك لا بنبي ولا بغير نبي .)[(٢)]

فتبين من هذا وما سبق ذكره أن توسل عمر بالعباس ـ رضي الله عنهما ـ لا حجة فيه لمن أجاز التوسل بالأشخاص سواء كانوا من الأنبياء أو من الصالحين أو من غيرهم ؛ بل ولا حجة فيه لمن أباح التوسل بالذوات ، فإن غاية ما فيه أن عمر رضي الله عنه توسل بدعاء العباس رضي الله عنه فدعا العباس ودعا الحاضرون معه ، وليس فيه أنه توسل بذاته أو بحقه أو بجاهه أو بمنزلته كما يظنه بعضهم .

رابعاً : توسل معاوية رضي الله عنه بيزيد :

الكلام على توسل معاوية رضي الله عنه بيزيد الجرشي[(٣)] هو كالكلام في توسل عمر رضي الله عنه بالعباس ، فقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ أن

---

(١) انظر الفتاوى ٢٨٥/١ .

(٢) الفتاوى ٢٢٥/١ . وانظر ٣١٤/١ ، ٧٦/٢٧ .

(٣) هو يزيد بن الأسود الجرشي من سادات التابعين بالشام ، انظر السير ١٣٦/٤ وما بعدها .

توسل معاوية ﷺ من جنس توسل عمر بالعباس ، أي أن معاوية توسل بدعاء يزيد لا بذاته[1] ، ولو كان معاوية يرى جواز التوسل بالذات أو بالجاه لما احتاج أن يخرج يزيد بن الأسود إلى المصلى ويدعو لهم وهم يؤمنون على دعائه ، ثم إن معاوية ﷺ لم يتوسل بزيد وإنما توسل بدعائه ، وهذا أمر مشروع ، ومن نستطيع القول بأنه لا حجة فيه لمن جوز التوسل بذوات الأنبياء والصالحين ، كما أنه لا حجة لمن جوز ذلك مستدلاً بتوسل عمر ﷺ بالعباس في الاستسقاء .[2]

خامساً : الحكاية المروية عن الإمام مالك ـ رحمه الله ـ في جواز ذلك :

ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ أن القاضي عياض ـ رحمه الله تعالى ـ نقل حكاية عن الإمام مالك يجيز فيها التوسل بالنبي ﷺ قال فيها : (حدثنا ابن حميد قال : ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكاً في مسجد رسول الله ﷺ ، فقال له مالك : لا ترفع صوتك في هذا المسجد ، فإن الله أدب قوماً فقال : ﴿ لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعض لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ ومدح قوماً فقال : ﴿ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾ وذم قوماً فقال : ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ﴾[3] وإن حرمته ميتاً كحرمته حياً ، فاستكان لها أبو جعفر ، فقال : يا أبا عبد الله ، أستقبل القبلة وأدعوا

---

(١) قال الذهبي ـ رحمه الله ـ " روى صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر قال : خرج معاوية يستسقي ، فلما قعد على المنبر ، قال أين يزيد بن الأسود ؟ فناداه الناس ، فأقبل يتخطاهم ، فأمره معاوية فصعد المنبر ، فقال معاوية : اللهم إنا نستشفع إليك بخيرنا وأفضلنا يزيد بن الأسود ، يا يزيد ارفع يديك إلى الله ، فرفع يديه ورفع الناس فما كان بأوشك من أن ثارت سحابة كالترس ، وهبت ريح فسقينا حتى كاد الناس أن لا يبلغوا منازلهم ، سمعها أبو اليمان من صفوان ." سير أعلام النبلاء ١٣٧/٤ .

(٢) انظر الفتاوى ٢٢٥/١ ، ٣١٤ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ .

(٣) الآيات من سورة الحجرات ١-٤

؟ أم أستقبل رسول الله ﷺ ؟ . فقال : ولم تصرف وجهك عنه ، وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى يوم القيامة ؟ بل استقبله واستشفع به فيشفعك الله ، قال الله تعالى : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾[1] [2] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله تعالى ــ (قلت وهذه الحكاية منقطعة ، فإن محمد بن حميد الرازي[3] لم يدرك مالكاً لا سيما في زمن أبي جعفر المنصور ، فإن أبا جعفر توفي بمكة سنة ثمان وخمسين ومائة ، وتوفي مالك سنة سنة تسع وسبعين ومائة ، وتوفي محمد بن حميد الزازي سنة ثمان وأربعين ومائتين ، ولم يخرج من بلده حين رحل في طلب العلم إلا وهو كبير مع أبيه ، وهو مع هذا ضعيف عند أكثر أهل الحديث ، كذبه أبو زرعة[4] ، وابن وارة[5] ، وقال صالح بن محمد الأسدي : مارأيت أحد أجرأ على الله منه واحذق بالكذب منه ، وقال يعقوب بن شيبة[6] : كثير المناكير ، وقال النسائي ليس بثقة ، وقال ابن حبان : ينفرد عن الثقات

---

(١) سورة النساء ٦٤ .

(٢) الشفاء ٢/٤٠ ــ ٤١ فصل : واعلم أن حرمة النبي ﷺ ...

(٣) هو ابن حبَّان أبو عبدالله محمد بن حميد الرازي توفي سنة ٢٤٨هـ . قال الذهبي : وهو مع إحاطته فهو منكر الحديث ، صاحب عجائب . السير ١١/٥٠٣ . وقال ابن حجر : " حافظ ضعيف " التقريب ص ٤٧٥ ، وانظر تهذيب التهذيب ٩/١٢٩ ــ ١٣١ .

(٤) هو سيد الحفاظ عبدالله بن عبدالكريم بن يزيد بن فروخ الرازي ، توفي سنة ٢٦٠هـ . السير ٦٥ وما بعدها . قال ابن حجر : " إمام حافظ ثقة " . التقريب ص ٣٧٣ .

(٥) هو محمد بن مسلم بن عثمان الحافظ المجود أبو عبدالله بن وارة الرَّازي ، توفي سنة ٢٧٠هـ . قال الذهبي : " كان يضرب به المثل في الحديث ... " . السير ١٣/٢٨ . وقال ابن حجر : " ثقة حافظ " . التقريب ص ٥٠٧ .

(٦) هو يعقوب بن شيبة بن الصلت بن عصفور الحافظ الكبير العلامة الثقة أبو يوسف السدوسي البصري صاحب المسند ، توفي سنة ٢٦٢هـ . السير ٤٧٦ ــ ٤٧٩ .

بالمقلوبات ،وآخر من روى الموطأ عن مالك هو أبو مصعب[١] وتوفي سنة اثنتين وأربعن ومائتين ، وآخر من روى عن مالك على الإطلاق هو أبو حذيفة أحمد بن إسماعيل السهمي[٢] توفي سنة تسع وخمسن ومائتين ، وفي الإسناد أيضاً من لا تعرف حاله .

وهذه الحكاية لم يذكرها أحد من أصحاب مالك المعروفين بالأخذ عنه ، ومحمد ابن حميد ضعيف عند أهل الحديث إذا أسند ، فكيف إذا أرسل حكاية لا تعرف إلا من جهته ؟ هذا إن ثبت عنه ، وأصحاب مالك متفقون على أنه بمثل هذا النقل لايثبت عن مالك قول له في مسألة في الفقه ، بل إذا روي عنه الشاميون كالوليد بن مسلم[٣] ومروان بن محمد الطاطري[٤] ضعفوا رواية هؤلاء ، وإنما يعتمدون على رواية المدنيين والمصريين ، فكيف بحكاية تناقض مذهبه المعروف عنه من وجوه رواها واحد من الخراسانيين لم يدركه وهو ضعيف عند أهل الحديث ؟ .

[ثم بين رحمه الله مناقضتها لمذهب مالك من وجوه عديدة] :

أحدها : قوله " استقبل القبلة وأدعو ، أم أستقبل رسول الله ﷺ وأدعو ؟ " فقال : " ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم " فإن المعروف عن

---

(١) هو شيخ دار الهجرة أبو مصعب أحمد بن أبي بكر القاسم بن الحارث بن زرارة القرشي الفقيه قاضي المدينة ، " لازم الإمام مالك وتفقه به ، وسمع منه الموطأ واتقنه عنه " . سير أعلام النبلاء ٤٣٦/١١ .

(٢) الإمام المحدث الفقيه المُعمر ، أبو حذيفة ، أحمد بن إسماعيل بن محمد بن نُبيه السهمي القرشي المدني ، نزيل بغداد ، وبَقِيَّة المُسْنِدِيْن . قال ابن حجر : " سماعه للموطأ صحيح وخلّط في غيره " التقريب ص ٧٧ ، السير ٢٤/١٢ .

(٣) هو أبو العباس الوليد بن مسلم الدمشقي الحافظ عالم أهل الشام ، كان من أوعية العلم ثقةً حافظاً لكن رديء التدليس ، فإذا قال : حدثنا فهو حجة . قال أحمد : " ليس أحد أروى لحديث الشاميين من الوليد ابن مسلم وإسماعيل بن عياش " توفي سنة ١٩٤هـ . سير أعلام النبلاء ٢١١/٩ ـ ٢٢١ . قال ابن حجر : " ثقة لكنه كثير التدليس والتشويه " . تقريب التهذيب ص ٥٨٤ .

(٤) هو أبو بكر مروان بن محمد الأسدي الطاطري ، ولد سنة ١٤٧هـ وتوفي سنة ٢١٠هـ . قال ابن حجر : " ثقة " . التقريب ص ٥٢٦ .

مالك وغيره من الأئمة وسائر السلف من الصحابة والتابعين أن الداعي إذا سلم على النبي ﷺ ثم أراد أن يدعو لنفسه فإنه يستقبل القبلة ويدعو في مسجده ، ولا يستقبل القبر ويدعو لنفسه ، بل إنما يستقبل القبر عند السلام على النبي ﷺ والدعاء له ، هذا هو قول أكثر العلماء كمالك في أحدي الروايتين والشافعي وأحمد وغيرهم .

وعند أصحاب أبي حنيفة لا يستقبل القبر وقت السلام عليه ...

ومع هذا فكره مالك أن يطيل القيام عند القبر لذلك . قال القاضي عياض ـ رحمه الله تعالى ـ في المبسوط عن مالك قال : " لا أرى أن يقف عند قبر النبي ﷺ يدعو ، ولكن يسلم ويمضي " (١) ...

[ثم ذكر ـ رحمه الله ـ أقوالاً عن الإمام] مالك وأصحابه ، وما نقلوه عن الصحابة يبين أنهم لم يقصدوا القبر إلا للسلام على النبي ﷺ والدعاء له ، وقد كره مالك إطالة القيام لذلك ،وكره أن يفعله أهل المدينة كلما دخلوا المسجد وخرجوا منه ، وإنما يفعل ذلك الغرباء ومن قدم من سفر أو خرج له ، فإنه تحية للنبي ﷺ .

فأما إذا قصد الرجل الدعاء لنفسه فإنما يدعو في مسجده مستقبل القبلة كما ذكروا ذلك عن أصحاب النبي ﷺ ، ولم ينقل عن أحد من الصحابة أنه فعل ذلك عند القبر ، بل ولا أطال الوقوف عند القبر للدعاء للنبي ﷺ فكيف بدعائه لنفسه .(٢)

وأما دعاء الرسول ﷺ وطلب الحوائج منه وطلب شفاعته عند قبره أو بعد موته فهذا لم يفعله أحد من السلف ، ومعلوم أنه لو كان قصد الدعاء عند القبر مشروعاً لفعله الصحابة والتابعون ، وكذلك السؤال به ، فكيف بدعاءه وسؤاله بعد موته ؟ .

فدل ذلك على أن ما في الحكاية المنقطعة من قوله : " استقبله واستشفع به " كذب على مالك ، مخالف لأقواله وأقوال الصحابة والتابعين وأفعالهم التي يفعلها مالك وأصحابه ونقلها سائر العلماء ، إذ كان أحد منهم لم يستقبل القبر للدعاء لنفسه

---

(١) وقد تقدم ذكر هذا انظر ص ٧٢٩ .

(٢) وقد تقدم بيان هذا انظر ص ٧٣٠ .

فضلاً عن أن يستقبله ، ويستشفع به ، يقول له يا رسول الله اشفع لي أو ادع لي ، أو يشتكي إليه مصائب الدين والدنيا ، أو يطلب منه أو من غيره من الموتى والأنبياء والصالحين ، أو من الملائكة الذين لا يراهم أن يشفعوا له ، أو يشتكي إليهم المصائب ، فإن هذا كله من فعل النصارى وغيرهم من المشركين ومن ضاهاهم من مبتدعة هذه الأمة ، ليس هذا من فعل السابقين الأولين من المهاجرن والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ولا مما أمر به أحد من أئمة المسلمين ، وإن كانوا يسلمون عليه إذا كان يسمع السلام عليه من القريب ويُبلّغ سلام البعيد .)[١]

فتبين من هذا أن هذه الحكاية عن مالك لا يمكن أن تكون حجة لمن أجاز التوسل والاستشفاع بالنبي ﷺ أو بغيره ؛ لكونها مكذوبة عليه مفتراه ، بل إنها أليق بوضع القبوريين وغلاة الصوفية ؛ الذين يرون أن وسيلة آدم إلى التوبة من ذنبه هو الرسول ﷺ ، في رواية مكذوبة لفقوها وزعموا فيها أيضاً أنه لولا الرسول ﷺ لما خلق الله آدم ولا سائر الخلق ، وأما الإمام مالك فهو أبعد ما يكون عن مثل هذه المفاهيم الباطلة . والله تعالى أعلم .



(١) الفتاوى ١/٢٢٧-٢٣٣ . وانظر ٣٥٦ .

المبحث الثاني : الاستشفاع بالأنبياء و الصالحين

الاستشفاع بالأنبياء والصالحين

تعريف الشفاعة في اللغة :

(الشفع خلاف الوتر ، وهو الزوج ، تقول : كان وتراً فشفعته شفعاً . وشَفَعَ الوَتْرَ من العدد شَفْعاً صيره زوجاً .

وشفع لي يشفع شفعاعة ، تشفع : طلب . والشفيع : الشافع ، والجمع شفعاء ، واستشفع بفلان على فلان ، وتشفع له إليه فشفعه فيه ، وقال الفارسي : استشفعه طلب منه الشفاعة ، أي قال له كن لي شافعاً .

وفي التنزيل : ﴿ من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ، ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها ﴾[1] وقرأ أبو الهيثم : ﴿ من يشفَعُ شفاعة حسنة ﴾ أي يزداد عملا إلى عمل ، وروي عن المبرد وثعلب أنهما قالا في قوله تعالى : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ قالا : الشفاعة الدعاء ههنا .[2]

والشفاعة كلام الشفيع للملك في حاجة يسألها لغيره ، وشفع إليه : في معنى طلب إليه ، والشافع : الطالب لغيره يتشفَّع به إلى المطلوب ، يقال : تشفَّعت بفلان إلى فلان فشفَّعني فيه ، واسم الطالب شفيع .

واستشفعته إلى فلان أي : سألته أن يشفع لي إليه ؛ وتشفعت إليه في فلان فشفعني فيه تشفيعاً ...

وقد تكرر ذكر الشفاعة في الحديث فيما يتعلق بأمور الآخرة ، وهي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم . والمُشَفَّعُ الذي يَقبل الشفاعة ، والمُشفَّع الذي تقبل شفاعته .)[3]

ونستخلص من هذا التعريف اللغوي ما يلي :

١) أن الشفاعة الطلب من الغير أن يشفع له لدى المشفوع عنده .

---

(١) سورة النساء ٨٥ .

(٢) وسيأتي بيان شيخ الإسلام لهذا قريباً في هذا المبحث إن شاء الله تعالى .

(٣) لسان العرب ٨/١٨٣-١٨٤ مادة شفع .

٢) أن الشفاعة تطلق ويراد بها أحياناً الدعاء ، كما في قول المبرد وثلعب . ومنه قوله ﷺ : ((مامن مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلا شفعهم الله فيه)) [١] ومنه قوله ﷺ في أبي سلمة لما توفي : ((اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين ، وافسح له في قبره ونور له فيه واخلفه في عقبه))[٢][٣]

٣) أن الشفاعة تطلق أحيانا ويراد بها العمل .

٤) أن الشفاعة هي : كلام الشفيع للملك يسأله حاجة لغيره .

٥) أن الشفاعة في الآخرة يراد بها الطلب من الله ﷻ أن يتجاوز عن الذنوب . كما أنها أيضاً تأتي لغير هذا كما في أنواع الشفاعة في الآخرة المعروفة .

ومن هنا يمكن أن نخلص إلى تعريف للشفاعة في الاصطلاح الشرعي فنقول : هي : الطلب للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة . وعرفها بعضهم بأنها : سؤال الخير للغير ، وعرفها آخرون بأنها : السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم [٤] إلا أن هذا التعريف الأخير قاصر ، لكونه قصر الشفاعة في العفو والتجاوز عن الذنوب والجرائم ، بينما الشفاعة أعم من ذلك سواء كانت الشفاعة التي في الآخرة ، أو التي تقع في الدنيا ، فإن من المعلوم أن من أنواع الشفاعة عند الله ، الشفاعة في أن يرفع الله درجات بعض المؤمنين ونحو ذلك ، أما في الدنيا فظاهر .

وأما التعريف الثاني فجيد لكونه يشمل كل خير للمشفوع له سواء كان دفع ضر أو جلب نفع ، وهذا ما دل عليه التعريف الأول ، فإن اشتمل على طلب أحد أمرين أو كلاهما وهما :

---

(١) رواه الإمام مسلم في الجنائز (ح٩٤٨) وأبو داود في الجنائز (ح٣١٧٠) وابن ماجه في الجنائز (ح١٤٨٩) ,

(٢) رواه الإمام مسلم في الجنائز (ح٩٢٠) وأبو داود في الجنائز (٣١١٨)من حديث أم سلمة .

(٣) وانظر القول المفيد على كتاب التوحيد ٣٣٥/١ .

(٤) انظر الكواشف الجلية للسلمان ص ٥٩٠ .

جلب المنفعة : كالدعاء للغير بالرحمة والمغفرة كما في الحديث المتقدم ، وكشفاعة النبي ﷺ لأقوام في دخول الجنة . وأيضاً كسؤال الله عز وجل .

ودفع المضرة : كسؤال الله التجاوز عن الذنوب والنجاة من النار للغير ، وكشفاعة النبي ﷺ لأقوام استحقوا النار في أن لا يدخلوها . وكسؤال الله للغير الرزق في الدنيا ونحو ذلك من حوائج الدنيا أو الآخرة . (١)

وقد يخلط البعض بين مفهوم الشفاعة ومفهوم التوسل ، لكون الفرق بينهما يخفى على بعض الناس . فهل هناك فرق بينهما أم أنهما بمعنى واحد أم يشتركان في بعض المعاني دون الأخرى ؟ ! . هذا ما سيتضح من الفقرة الآتية :

الخلط بين الشفاعة والتوسل :

قد يغلط كثير من العامة فيطلقون لفظ الشفاعة والاستشفاع على التوسل والعكس ، وهذا لخلطهم بين الأمرين ، ولتحريف في اللغة والاصطلاح . فإن الشافع لا بد أن يكون موجوداً يدعوا للمشفوع له ، وإلا فلا يسمى ذلك شفاعة ، فإن الشفاعة في اللغة ضد الوتر ، فإذا انظم إليه شخص آخر سمي شفعاً وشافعاً ، أما إذا لم يكن كذلك فإن الشخص بمفرده لا يسمى طلبه من الغائب أو الميت الشفاعة شفاعة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـــ رحمه الله تعالى ـــ (.. كثير من العامة .. يستعملون لفظ الشفاعة في معنى التوسل ، فيقول أحدهم : اللهم إنا نستشفع إليك بفلان وفلان ، أي نتوسل به ، ويقولون لمن توسل في دعائه بنبي أو غيره " قد تشفع به" من غير أن يكون المستشفع به شفع له ولا دعا له ، بل وقد يكون غائباً لم يسمع كلامه ولا شفع له ، وهذا ليس هو لغة النبي ﷺ وأصحابه وعلماء الأمة ؛ بل ولا هو لغة العرب ، فإن الاستشفاع طلب الشفاعة ، والشافع هو الذي يشفع السائل فيطلب له ما يطلب من المسئول المدعو المشفوع إليه .

وأما الاستشفاع بمن لم يشفع للسائل ولا طلب له حاجة ؛ بل قد لايعلم بسؤاله ، فليس هذا استشفاعاً ؛ لا في اللغة ولا في كلام من يدري ما يقول : نعم هذا

---

(١) انظر المصدر السابق .

سؤال به ، ودعاؤه ليس هو استشفاعاً به . ولكن هؤلاء لما غيروا اللغة ـ كما غيروا الشريعة ـ وسموا هذا استشفاعاً أي سؤالاً بالشافع صاروا يقولون : "استشفع به فيشفعك " أي يجيب سؤالك به ...

ومن لم يعرف لغة الصحابة التي كانوا يتخاطبون ويخاطبهم بها النبي ﷺ وعادتهم في الكلام ، وإلا حرف الكلم عن مواضعه ، فإن كثيراً من الناس ينشأ على اصطلاح قومه وعادتهم في الألفاظ ثم يجد تلك الألفاظ في كلام الله أو رسوله ، أو الصحابة فيظن أن مراد الله أو رسوله أو الصحابة بتلك الألفاظ ما يريده بذلك أهل عادته واصطلاحه ، ويكون مراد الله ورسوله والصحابة خلاف ذلك .

وهذا واقع لطوائف من الناس من أهل الكلام والفقه والنحو والعامة وغيرهم ، وآخرون يتعمدون وضع ألفاظ الأنبياء وأتباعهم على معاني أخرى مخالفة لمعانيهم ثم ينطقون بتلك الألفاظ مريدين بها ما يعنونه هم ، ويقولون : إنا موافقون للأنبياء ! وهذا موجود في كلام كثير من الملاحدة المتفلسفة والإسماعيلية ومن ضاهاهم من ملاحدة المتكلمة والمتصوفة ...

وكثير من كلام الله ورسوله يتكلم به من يسلك مسلكهم ، ويريد مرادهم لا مراد الله ورسوله ، كما يوجد في كلام صاحب " الكتب المضنون بها " وغيره ، مثل ما ذكره في اللوح المحفوظ .. حيث جعل لفظ الشفاعة فيضاً يفيض من الشفيع على المستشفع وإن كان الشفيع قد لا يدري ، وسلك في هذه الأمور ونحوها مسالك ابن سينا كما قد بسط في موضع آخر ...

ولفظ التوسل والاستشفاع ونحوهما دخل فيها من تغيير لغة الرسول ﷺ وأصحابه ما أوجب غلط من غلط عليهم في دينهم ولغتهم . والعلم يحتاج إلى نقل مصدق ونظر محقق .

والمنقول عن السلف والعلماء يحتاج إلى معرفة بثبوت لفظه ومعرفة دلالته ، كما يحتاج إلى ذلك المنقول عن الله ورسوله ...) [١]

---

(١) الفتاوى ١/٢٤٢-٢٤٦ .

أنواع الشفاعة :

لقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ أن الشفاعة تنقسم إلى قسمين :

شفاعة مثبة و شفاعة منفية كما جاء في الكتاب والسنة .

فأما الشفاعة المثبتة فهي : التي أثبتها الله عز وجل لأولياء وأصفيائه من عبادة الصالحين ، وهي لا تكون إلا بشرطين : إذن الله سبحانه وتعالى للشافع أن يشفع ، ورضاه عن المشفوع له ، قال تعالى : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾[1] وقال: ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ [2] .

وأما الشفاعة المنفية فهي : التي نفاها الله ، وبين أنه لا يقبل شيئاً منها ، كزعم المشركن بأن أصنامهم تشفع لهم ونحو ذلك . وما أشرت إليه من تقسم شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ لأنواع الشفاعة قد نبه عليه بقوله :

(الشفاعة نوعان : **أحدهما** : الشفاعة التي نفاها الله تعالى ، كالتي أثبتها المشركون ، ومن ضاهاهم من جهال هذه الأمة ، وضلالهم ، وهي شرك .

والثاني : أن يشفع الشفيع بإذن الله . وهذه التي أثبتها الله تعالى لعبادة الصالحين ، ولهذا كان سيد الشفعاء إذا طلب منه الخلق الشفاعة يوم القيام يأتي ويسجد . قال : ﴿ فأحمد ربي بمحامد يفتحها علي لا أحسنها الآن ، فيقال أي محمد ارفع رأسك وقل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع)) [3] فإذا أذن له في الشفاعة شفع ﷺ لمن أراد الله أن يشفع فيه .) [4]

---

(١) سورة البقرة ٢٥٥ .

(٢) سورة الأنبياء ٢٨ .

(٣) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (ح٣٣٤٠) ومسلم في الإيمان (ح١٩٤) والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (ح٢٤٣٤) .

(٤) الفتاوى ٣٣٢/١ . وانظر ٣٤١/٢٤-٣٤٢ ، وانظر الصفدية ٢٩٠/٢-٢٩٢ .

فبين رحمه الله أن الشفاعة نوعان : نوع أثبته الله وارتضاه ، ونوع نفاه وأقصاه . وذكر أن النوع المثبت يشترط فيه الشرطان المذكوران آنفاً . (١)

كما ذكر ـ رحمه الله ـ أن الناس في الشفاعة على ثلاثة أقوال :

١) المشركون والنصارى والمبتدعون من الغلاة في المشائخ وغيرهم يجعلون شفاعة من يعظمونه عند الله كالشفاعة المعروفة في الدنيا ، وهه هي الشفاعة المنفية .

والمعتزلة أنكروا شفاعة نبينا محمد ﷺ في أهل الكبائر .

والقول الثالث : هو قول أهل السنة والجماعة المثبتين لشفاعته صلي وشفاعة غيره بد الإذن والرضى . (٢)

والذي يهمنا في هذا المبحث القسم الممنوع ، إذ أن كثيراً من الناس قد وقع في الشرك من هذا الباب ، بل إن هذا النوع من أهم وسائل الشرك قديماً وحديثاً ، وهو الذي ضل بسببه خلق لا يحصيهم إلا الله عز وجل . فقد تعلق بأذيال الشفاعة خلق كثير ، قال الله عز وجل : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعارنا عند الله ﴾ (٣) وقال سبحانه :﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ (٤) ، ومن المعلوم أن في هذا العمل هظم لحوق الربوبية ، وتنقيص لمقام الألوهية ، وسوء ظن برب البرية ، وإن قصد بذلك تعظيم الله ؛ لأنه سوى بين الله وبين خلقه ، فكأن الله محتاج إلى أحد يساعده أو يعينه ، وبهذا قال الله عن هؤلاء : ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ (٥) ولهذا السبب ونحوه أُفرد هذا المبحث في هذا الباب ؛ لأنه من أعظم وسائل الشرك ، التي تعلق بها

---

(١) انظر في أنواع الشفاعة ما يلي : ١/١١٦-١١٨ ، ١٥١ ، ٣٣١ في الشفاعة المنفية ، وفي ذكر النوعين أو أحدهما انظر ١/٢٣٢ . ١٤/٣٩٩ ، ٣٤٥ ، ٤١٢ ـــ ٤١٤ .

(٢) انظر الصفدية ٢/٢٩٠ .

(٣) سورة يونس ١٨ .

(٤) سورة الزمر ٣ .

(٥) سورة الأنعام ٩١ .

كثير من المسلمين ، وانجرف ورائها كثير من العباد من حيث يشعرون أنها شرك أو لا يشعرون .[١]

وقبل الكلام على هذا النوع من الشفاعة التي تمسك بها من تمسك من المشركين ، يحسن أن نقدم لذلك بمقدمة في شرطي الشفاعة بإيجاز ، فأقول :

شرطي الشفاعة :

قد بين شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ أن الشفاعة المقبولة التامة هي التي يتوفر فيها شرطان :

أحدهما : الإذن للشافع والمشفوع فيه ، قال الله تعالى : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ؟ ﴾ فلا يشفع من له شفاعة ـ من الملائكة والنبيين ـ إلا بإذنه ، وأما قبورهم ـ وما نصب عليها من قباب وأنصاب ، أو تماثيلهم التي مثلت على صورهم مجسدة أو مرقومة ـ فجعل الاستشفاع بها استشفاعاً بهم فهذا باطل عقلا وشرعاً . فإنه لا شفاعة لها بحال ، ولا لسائر الأصنام التي عملت للكواكب والجن والصالحين وغيرهم...

فإذا كان لا يشفع عند الله أحد إلا بإذنه ، فهو يأذن لمن يشاء ، ولكن يكرم الشفيع بقبول الشفاعة ، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : ((اشفعوا تؤجروا ، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء)) [٢] ...

[والإذن] نوعان : إذن بمعنى المشيئة والخلق ، وإذن بمعنى الإباحة والإجازة .

فمن الأول : قوله في السحر : ﴿ وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾[٣] فإن ذلك بمشيئة الله وقدرته ، وإلا فهو لم يبح السحر . والقدرية تنكر هذا الإذن ، وحقيقة قولهم : إن السحر يضر بدون إذن الله .

---

(١) انظر تيسير العزيز الحميد ٢٣٥ .

(٢) رواه البخاري في الزكاة (ح١٤٣٢) ومسلم في البر والصلة (ح٢٦٢٧) وأبو داود في الأدب (ح٥١٣٢) والنسائي في الزكاة (ح٢٥٥٦) .

(٣) سورة البقرة ١٠٢ .

وكذلك قوله : ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ﴾ [(١)] فإن الذي أصابهم من القتل والجراح ، والتمثيل والهزيمة : إذا كان بإذنه فهو خالق لأفعال الكفار ولأفعال المؤمنين .

والنوع الثاني : قوله : ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه ﴾ [(٢)] وقوله : ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله ﴾[(٣)] فإن هذا يتضمن إباحته لذلك ، وإجازته له ورفع الجناح والحرج عن فاعله ، مع كونه بمشئته وقضائه .

فقوله : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ هو هذا الإذن الكائن بقدره وشرعه . ولم يرد بمجرد المشيئة والقدر ، فإن السحر وانتصار الكفار على المؤمنين كان بذلك الإذن .

.. ومن سأل الله بغير إذنه الشرعي فقد شفع عنده بغير إذن قدري ولا شرعي[(٤)] ...

---

(١) سورة ال عمران ١٦٦ .

(٢) سورة الأحزاب ٤٥-٤٦ .

(٣) سورة الحشر ٥ .

(٤) فقد قسم رحمه الله الإذن إلى قسمين قسم قدري كوني ، وهذا الذي استشفع به المشركون ، وطلبوا من شفعائهم الشفاعة عند رب العالمين ، لاعتقادهم أن الشفعاء يشفعون بالإذن القدري ، وإن لم يأذن لهم به إباحة وجوازاً .

وأعظم منهم من كذب بالقدر حتى زعم أن الشفعاء يشفعون بغير إذن ، لا قدري ولا شرعي .

وهذا الكلام كله مبني على أن قول القدرية إن العباد هم الذين يخلقون أفعال أنفسهم ، حيث أنه حسب قولهم هذا يلزمهم أن يكون الله عز وجل بشفاعة العبد قابلاً للشفاعة . كما أنه مبني على قول القدرية النفاة الذين يزعمون أنه يقع في هذا الكون ما لم يرده وما لم يشأه ويقدره . فمن شفع عند الله في اعتقادهم ، فقد شفع بغير إذنه الشرعي ولا القدري . وهذا خلاف مذهب أهل السنة والجماعة ؛ القائلين إن الله (سبحانه وتعالى هو الذي جعل هذا يدعو وهذا يشفع ، وهو الخالق لأفعال العباد ، فهو الذي وفق العبد للتوبة ، ثم قبلها ، وهو الذي وفقه للعمل ثم أثابه عليه ، وهو الذي وفقه للدعاء ثم أجابه ، فما يؤثر فيه شيء من المخلوقات ، بل هو سبحانه الذي جعل ما يعلمه سبباً لما يفعله .) انظر الفتاوى ١٤/٣٨٢-٣٨٥.

[ثم أورد ـ رحمه الله اشكالاً وأجاب عنه بقوله :] فإن قيل : فمن الشفعاء من يشفع بدون إذن الله الشرعي وإن كان خالقاً لفعله كشفاعة نوح لابنه ، وشفاعة ابراهيم لأبيه ، وشفاعة النبي ﷺ لعبد الله بن أبي بن سلول ، حين صلى بعد موته . وقوله : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ قد قلتم إنه يعم النوعين ، فإنه لو أراد الإذن القدري لكان كل شفاعة داخلة في ذلك ، كما يدخل في ذلك كل كفر وسحر ، ولم يكن فرق بين ما يكون بإذنه وما لا يكون بإذنه ، ولو أراد الإذن الشرعي فقط : لزم قول القدرية ، وهؤلاء قد شفعوا بغير إذن شرعي ؟ .

قيل : المنفي من الشفاعة بلا إذن هي : الشفاعة التامة ، وهي المقبولة ، كما في قول المصلي : " سمع الله لمن حمده " أي استجاب له . وكما في قوله تعالى : ﴿ هدى للمتقين ﴾[1] وقوله : ﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾[2] وقوله : ﴿ فَذَكِّرْ بالقرآن من يخاف وعيد ﴾[3]ونحو ذلك .

فإن الهدى والإنذار والتذكير والتعليم ، لا بد فيه من قبول المتعلم ، فإذا تعلم حصل له التعليم المقصود ، وإلا قيل : علمته فلم يتعلم ، كما قيل : ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾[4] فكذلك الشفاعة .

فالشفاعة : مقصودها قبول المشفوع إليه ، وهي الشفاعة التامة .

فهذه هي التي لا تكون إلا بإذنه ، وأما إذا شفع شفيع فلم تقبل شفاعته : كانت كعدمها ، وكان على صاحبها التوبة والاستغفار منها ، كما قال نوح : ﴿ رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم ، وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين﴾[5] وكما نهي النبي ﷺ عن الصلاة على المنافقين ، وقال له : ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره ، إنهم كفروا بالله وماتوا وهو

---

(١) سورة البقرة ٢ .

(٢) سورة النازعات ٤٥ .

(٣) سورة ق ٤٥ .

(٤) سورة فصلت ١٧ .

(٥) سورة هود ٤٧ .

فاسقون﴾[١] وقال له : ﴿ سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر ا لله لهم ﴾[٢] ولهذا قال على لسان المشركين : ﴿ فما لنا من شافعين ولا صديق حميم ﴾[٣] فالشفاعة المطلوبة هي : شفاعة المطاع الذي تقبل شفاعته ، وهذا ليست لأحد عند ا لله إلا بإذنه ، قدراً وشرعاً ، فلا بد أن يأذن فيها ...)[٤]

فإذا تبين هذا علمت أن الذين يطلبون الشفاعة من الأموات أو ممن لا يملكها إنما يطلبونها بغير إذن ا لله ﷻ الشرعي القدري ، ومن هنا فإنهم يقعون في الشرك ، حيث يصرفون هذه العباد إلى غير مستحقها .

وأما الشرط الثاني : فقد بين رحمه ا لله أنه الرضى عن المشفوع له كما قال عز وجل : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾[٥] وقال : ﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً ﴾[٦] ، وقد ذكر ـ رحمه ا لله تعالى ـ أن هذا الشرط داخل في أذن ا لله للشافع ، فإن قوله تعالى : ﴿ إلا لمن أذن له ﴾ (هو إذنه للمشفوع له ، فلا يأذن في شفاعة مطلقة لأحد ، بل إنما يأذن في أن يشفعوا لمن أذن لهم في الشفاعة فيه ، قال تعالى : ﴿يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً ، يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً .﴾ وهذا فيه قولان :

قيل : إلا شفاعة من أذن له الرحمن ، وقيل : لا تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن ، فهو الذي تنفعه الشفاعة .

---

(١) سورة التوبة ٨٤ .

(٢) سورة المنافقون ٦ .

(٣) سورة الشعراء ١٠٠-١٠١ .

(٤) الفتاوى ١٤/٣٨٠-٣٨٧ .

(٥) سورة الأنبياء ٢٨ .

(٦) سورة طه ١٠٩ .

.. فهي لا تنفع ولا ينتفع بها ، ولا تكون نافعة إلا للمأذون لهم ، كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ [١] ...

وهو سبحانه إذا أذن للمشفوع له فقد أذن للشافع . فهذا الإذن هو الإذن المطلق ، بخلاف ما إذا أذن للشافع فقط ، فإنه لا يلزم أن يكون قد أذن للمشفوع له ، إذ قد يأذن له إذناً خاصاً .

وهكذا قال غير واحد من المفسرين ، قالوا : وهذا يدل على أن الشفاعة لاتنفع إلا المؤمنين ، وكذلك قال السلف في هذه الآية ...

[ثم سرد ــ رحمه الله ــ جملة من أقوال المفسرين في بيان أن المراد بالإذن أذنه عز وجل للشافع والمشفوع على السواء .

والشفاعة تعم شفاعة كل شافع ، وكل شفاعة لمشفوع له . فإذا قال : ﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة ﴾ نفى النوعين : شفاعة الشفعاء والشفاعة للمذنبين ، فقوله : ﴿ إلا من أذن له الرحمن ﴾ يتناول النوعين : من أذن له الرحمن ورضي له قولاً من الشفعاء ، ومن أذن له الرحمن ، ورضي له قولاً من المشفوع له ، وهي بنفع المشفوع له ، فتخلصه من العذاب ، وتنفع الشافع فتقبل منه ، ويكرم بقولها ويثاب عليها .

والشفاعة يومئذ لا تنفع لا شافعاً ولا مشفوعاً له ﴿ إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾ [٢] فهذا الصنف المأذون لهم ، المرضي قولهم هم الذين يحصل لهم نفع الشفاعة وهذا موافق لسائر الآيات . فإنه تارة يشترط في الشفاعة إذنه ، كقوله : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ وتارة يشترط فيها الشهادة بالحق كقوله : ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ [٣]

---

(١) سورة سبأ ٢٣ .

(٢) سورة النبأ ٣٨ .

(٣) سورة الزخرف ٨٦ .

وهنا اشترط الأمرين : أن يأذن له الرحمن ، وأن يقول صواباً .. والمعنى لا تنفع الشفاعة إلا هذا النوع ، فإنهم تنفعهم الشفاعة ، ويكون المعنى أنها تنفع الشافع والمشفوع له .) (١)

وبهذا يتضح أن الشفاعة لا تنفع إلا من اتبع سبيل الله وسار على نهج رسوله ﷺ ، واتبع أمره في طلبها من الله وحده ، أو ممن يمكن أن يدعو له عند ربه ، وبغير هذا لا يمكن أن تحصل الشفاعة ، فمن طلبها من غير هذا الوجه فقد ضل ضلالاً مبيناً .

الشفاعة المنفية :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ (الشفاعة المنفية في القرآن : كقوله تعالى : ﴿ واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون ﴾(٢) وقوله تعالى : ﴿ ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ﴾(٣) وقوله : ﴿ من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ﴾(٤) وقوله : ﴿ فما لنا من شافعين ولا صديق حميم ﴾(٥) وقوله : ﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾(٦) وقوله : ﴿ يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل ﴾(٧) وأمثال ذلك .) (٨)

---

(١) الفتاوى ١٤/٣٨٧-٣٩٣ .
(٢) سورة البقرة ٤٨ .
(٣) سورة البقرة ١٢٣ .
(٤) سورة البقرة ٢٥٤ .
(٥) سورة الشعراء ١٠٠-١٠١ .
(٦) سورة غافر ١٨ .
(٧) سورة الأعراف ٥٣ .
(٨) الفتاوى ١/١١٦ .

ثم عرفها – رحمه الله – بقوله : (الشفاعة المنفية هي : الشفاعة المعروفة عند الناس عند الإطلاق ، وهي أن يشفع الشفيع إلى غيره ابتداء فيقبل شفاعته [١] . فأما إذا أذن له في أن يشفع فشفع ؛ لم يكن مستقلا بالشفاعة ، بل يكون مطيعاً له أي تابعاً له في الشفاعة ، وتكون شفاعته مقبولة ، ويكون الأمر كله للآمر المسؤول .

[ثم بين رحمه الله هذا النوع من الشفاعة [٢] فقال]

وقد ثبت بنص القرآن في غير آية : أن أحداً لايشفع عند الله إلا بإذنه ، كما قال تعالى : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ وقال : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ وقال : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ وأمثال ذلك .

والذي بَيَّنَ أن هذه هي الشفاعة المنفية : أنه قال : ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون ﴾[٣] وقال تعالى : ﴿ الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ، مالكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾[٤] فأخبر أنه ليس لهم من دون الله ولي ولا شفيع .

وأما نفي الشفاعة بدون إذنه : فإن الشفاعة إذا كانت بإذنه لم تكن من دونه[٥] كما أن الولاية التي بإذنه ليست من دونه ، كما قال تعالى : ﴿ إنما وليكم الله ورسوله

---

(١) يقصد – رحمه الله – أن الشفاعة التي نفاها الله عز وجل هي مثل ما تعارف عليه الناس ، من تقدم الشافع للمشفوع عنده بلا إذنه ، وقد يكون بلا رضاه . فهذه في حق الله منفية ، بل مستحيلة .

(٢) في الحقيقة هي ليست شفاعة ؛ لأن الشفاعة ما كانت مقبولةً وما لم تكن كذلك فإنها ليست بشفاعة – وإن سميت شفاعة – فإنه لو علم الشافع والمشفوع له أنها لن تقبل لما شفع الشافع ولما طلب المستشفع الشفاعة ، وإنما سميت شفاعة بالنظر إلى ما أطلقه عليها كثير ممن انساق وراء هذا النوع الذي ليس فيه من الشفاعة إلا اسمه . انظر الفتاوى ٣٨٨/١٤ .

(٣) سورة الأنعام ٥١ .

(٤) سورة السجدة ٤ .

(٥) أي كما في قوله : ﴿ مالكم من دونه من ولي ولا شفيع ﴾ .

والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ، ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾ (١) .

وأيضاً فقد قال : ﴿ أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ، قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض ﴾ (٢) فذم الذين اتخذوا من دون الله شفعاء ، وأخبر أن لله الشفاعة جميعاً ، فعلم أن الشفاعة منتفية عن غيره ، إذ لا يشفع أحد إلا بإذنه ، وتلك فهي له .

ومما يوضح ذلك : أنه نفى يومئذ الخلة بقوله : ﴿ من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون ﴾ (٣) ومعلوم أنه إنما نفي الخلة المعروفة ، ونفعها المعروف ، كما ينفع الصديق الصديق في الدنيا ، كما قال : ﴿ وما أدراك ما يوم الدين ، ثم ما أدراك ما يوم الدين ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ﴾(٤)...

[و] لم ينفِ أن يكون في الآخرة خلة نافعة بإذنه ، فإنه قد قال : ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ، يا عبادِ لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون﴾(٥) الآيات ، وقد قال النبي ﷺ : يقول الله تعالى : ((حقت محبتي للمتحابين في))(٦) ويقول الله تعالى : ((أين المتحابون بجلالي ؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي))(٧).

---

(١) سورة المائدة ٥٥ .

(٢) سورة الزمر ٤٣-٤٤ .

(٣) سورة البقرة ٢٥٤ .

(٤) سورة الانفطار ١٧-١٩ .

(٥) سورة الزخرف ٦٧ .

(٦)رواه الإمام أحمد ٣٨٦/٤ ، ٣٢٨/٥ ، ٣٢٩ ، ومالك في الموطأ (ح١٧٧٩) . وقال الألباني : " حديث صحيح " . رياض الصالحين (ح ٣٨٧) .

(٧)رواه مسلم في البر والصلة والآداب (ح٢٥٦٦) ومالك في الجامع (ح١٧٧٦) والدارمي الرقاق (ح٢٧٥٧).

فتبين أن الأمر عائد إلى تحقيق التوحيد ، وأنه لا ينفع أحد ولا يضر إلا بإذن الله ، وأنه لا يجوز أن يعبد غير الله ، ولا يستعان به من دون الله ، وأنه يوم القيامة يظهر لجميع الخلق أن الأمر كله لله ، ويتبرأ كل مدع من دعواه الباطلة ، فلا يبقى من يدعي لنفسه معه شركاً في ربوبيته ، أو إلهيته ، ولا من يدعي ذلك لغيره ، بخلاف الدنيا ، فإنه وإن لم يكن رب ولا إله إلا هو فقد اتخذ غيره رباً وإلهاً ، وادعى ذلك مدعون .

وفي الدنيا يشفع الشافع عند غيره ، وينتفع بشفاعته ، وإن لم يكن أذن له في الشفاعة ، ويكون خليله ، فيعينه ويفتدي نفسه من الشر ، فقد يُنْتَفَعُ بالنفوس والأموال في الدينا ، النفوس ينتفع بها تارة بالاستقلال ، وتارة بالإعانة وهي الشفاعة ، والأموال بالفداء ، فنفى الله هذه الأقسام الثلاثة ، قال تعالى : ﴿ لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ﴾[1] وقال : ﴿لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ﴾[2] كما قال : ﴿ لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ﴾ فهذا هذا والله أعلم .)[3]

والخلاصة : أن الشفاعة المنفية هي التي نفاها الله ﷻ في كتابه الكريم في غير موضع ، وأخبر أنها لا تقع ولا تكون عنده مقبولة حتى وإن سماها الجهال شفاعة إلا بعد إذنه للشافع والمشفوع له . بخلاف شفاعة المخلوقين فيما بينهم ، فإنها تسمى عندهم شفاعة واقعة سواء قبلت أو لم تقبل .

اتخاذ الشفعاء من دون الله :

اتخذ كثير من الناس شركاء لله في العبادة يتوسلون إليهم ويدعونهم ، ويتقربون بهم إلى الله عز جل زاعمين أنهم إنما إتخذوهم كذلك ـ على حسب مفهومهم لها في

---

(١) سورة البقرة ٤٨ .

(٢) سورة البقرة ٢٥٤ .

(٣) الفتاوى١/ ١١٨-١٢٠ .

الدنيا ـ ليكونوا شفعاء لهم ووسطاء عند الله عز وجل ، وقد أنكر الله عليهم هذا العمل ، وبين كفرهم وإعتدائهم على خالص حقه بصرفه إلى غيره .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ (فالمشركون كانوا يتخذون من دون الله شفعاء من الملائكة والأنبياء والصالحين ، ويصورون تماثيلهم فيستشفعون بها ويقولون : هؤلاء خواص الله ، فنحن نتوسل إلى الله بدعائهم وعبادتهم ليشفعوا لنا ، كما يتوسل إلى الملوك بخواصهم لكونهم أقرب إلى الملوك من غيرهم ، فيشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك ، وقد يشفع أحدهم عند الملك فيما لا يختاره فيحتاج إلى إجابة شفاعته رغبة ورهبة .

فأنكر الله هذه الشفاعة فقال تعالى: ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾[1] وقال : ﴿ وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾[2] وقال عن الملائكة : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيدهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾ [3] .. وقال : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾[4] .. وقال تعالى : ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾[5] وقال تعالى : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما

---

(١) سورة البقرة ٢٥٥ .

(٢) سورة النجم ٢٦

(٣) سورة الأنبياء ٢٦-٢٨ .

(٤) سورة يونس ١٨ .

(٥) سورة الزخرف ٨٦ .

خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ (١) ...

فهذه الشفاعة التي أثبها المشركون للملائكة والأنبياء والصالحين حتى صوروا تماثيلهم وقالوا : استشفاعنا بتماثيلهم استشفاع بهم ، وكذلك قصدوا قبورهم وقالوا : نحن نستشفع بهم بعد مماتهم ليشفعوا لنا إلى الله ، وصوروا تماثيلهم فعبدوهم كذلك ، وهذا الشفاعة أبطلها الله ورسوله وذم المشركين عليها ، وكفرهم بها .

قال تعالى عن قوم نوح : ﴿ وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً ، وقد أضلوا كثيراً ﴾ (٢) قال ابن عباس وغيره : هؤلاء قوم صالحون كانوا في قوم نوح ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم فعبدوهم ...)(٣)

ولقد (سمى الله آلهتهم التي عبدوها من دونه شفعاء ، كما سماها شركاء في غير موضع فقال في يونس : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ (٤) ...

وجمع بين الشرك والشفاعة في قوله : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾(٥) فهذا الأربعة هي التي يمكن أن يكون لهم بها تعلق :

---

(١) سورة الأنعام ٩٤ .

(٢) سورة نوح ٢٣ .

(٣) الفتاوى ١/١٥٠-١٥١ ، وانظر ١٢٣-١٢٦ . و ٢٤/٣٤٠-٣٤٣ .

(٤) سورة يونس ١٨ .

(٥) سورة سبأ ٢٢- ٢٣ .

الأول : ملك شيء ولو قل . والثاني : شركهم في شيء من الملك . فلا ملك ولا شركة ولا معاون يصير بها نداً . فإذا إنتفت الثلاثة : بقيت الشفاعة فعلقها بالمشيئة ...) (١)

فقطع الله ـ عز وجل ـ كلَ مُتَمَسَّكٍ يمكن أن يتمسك به من يتخذ من دون الله شفعاء ليشفعوا له عندة . وليس هناك احتمال آخر غير ما ذكر يمكن أن ينطبق على هذه الآلهة المزعومة ، فلا ملك ، ولا شركة في الملك ، ولا عون ، ولا ظهير للمالك ، حتى الشفاعة لا تكون إن بعد أن يأذن بها ، فأي شيء بعد هذا يمكن أن يتخذه من يتخذ شفعاء ليشفعوا له .

ثم إن هؤلاء المدعوين من دون الله لا يعدوا كونهم عباد لله مفتقرين له ، مذعنين خائفين وجلين منه ، يرجون رحمته ويخافون عذابه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ (قال الله تعالى : ﴿ قل ادعو الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا . أولئك الذين يدعون يبتغون إليه ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً ﴾ قال طائفة من السلف كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء كالعزيز والمسيح ، فبين الله تعالى أن الملائكة والأنبياء عباد الله ، كما أن الذين يعبدونهم عباد الله ، وبين أنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه ويتقربون إليه كما يفعل سائر عباد الصالحين .)(٢)

دحضه لبعض حجج المستشفعين بغير الله :

لكن قد يتمسك هؤلاء المشركون وأمثالهم ببعض الشبه التي يبررون بها شركهم واتخاذهم لهؤلاء شفعاء . وقد ذكر شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ أهم هذه الشبه وفندها ومن ذلك ما يلي :

١) قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ : (والمشركين من هؤلاء قد يقولون : إنا نستشفع بهم أي نطلب من الملائكة والأنبياء أن يشفعوا ، فإذا أتينا قبر أحدهم طلبنا

---

(١) الفتاوى ١/١١٤ . وانظر ١/١٢٨ . ودرء تعارض العقل والنقل ٥/١٤١ .

(٢) الفتاوى ١/١٥٨ .

منه أن يشفع لنا ، فإذا صورنا تمثاله ـ والتماثيل إما مجسدة وإما تماثيل مصورة كما يصورها النصارى في كنائسهم ـ قالوا : فمقصودنا بهذه التماثيل تذكر أصحابها وسيرهم ، ونحن نخاطب هذه التماثيل ومقصودنا خطاب أصحابها ليشفعوا لنا إلى الله ، فيقول أحدهم : يا سيدي فلان أو ياسيدي جرجس أو بطرس ، أو يا ستي الحنونة مريم أو يا سيدي الخليل أو موسى بن عمران أو غير ذلك اشفع لي إلى ربك .

وقد يخاطبونه لو كان حاضراً حياً ، وينشدون قصائد يقول أحدهم فيها : يا سيدي فلان ، أنا في حسبك ، أنا في جوارك ، اشفع لي إلى الله ، سل الله لنا أن ينصرنا ، على عدونا ، سل الله أن يكشف عنا هذه الشدة ، أشكو إليك كذا وكذا ، فسل الله أن يكشف هذه الكربة ، أو يقول أحدهم : سل الله أن يغفر لي ...

فهذه الأنواع من خطاب الملائكة والأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم وفي مغيبهم ، وخطاب تماثيلهم ، هو من أعظم أنواع الشرك الموجود في المشركين من غير أهل الكتاب ، وفي مبتدعة أهل الكتاب والمسلمين الذين أحدثوا من الشرك والعبادات ما لم يأذن به الله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾[1] فإن دعاء الملائكة والأنبياء بعد موتهم وفي مغيبهم وسؤالهم والاستغاثة بهم والاستشفاع بهم في هذه الحال ونصب تماثيلهم ـ بمعنى طلب الشفاعة منهم ـ هو من الدين الذي لم يشرعه الله ولا ابتعث به رسولاً ، ولا أنزل به كتاباً ، وليس هوا واجباً ولا مستحباً باتفاق المسلمين ، ولا فعله أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولا أمر به إمام من أئمة المسلمين ، وإن كان ذلك مما يفعله كثير من الناس ممن له عبادة وزهد ، ويذكرون فيه حكايات ، ومنامات ، فهذا كله من الشيطان .

وفيهم من ينظم القصائد في دعاء الميت والاستشفاع به ، والاستغاثة ، أو يذكر ذلك في ضمن مديح الأنبياء والصالحين ، فهذا كله ليس بمشروع ولا واجب ، ولا مستحب باتفاق أئمة المسلمين ، ومن تعبد بعبادة ليست واجبة ولا مستحبة وهو

---

(١) سورة الشورى ٢١ .

يعتقدها واجبة أو مستحبة فهو ضال مبتدع بدعة سيئة ، لا بدعة حسنة باتفاق ائمة الدين ، فإن الله لا يعبد إلا بما هو واجب أو مستحب .) [١]

٢) ومن الشبه أيضاً ما ذكره ـ رحمه الله تعالى ـ من أن كثيراً ممن يفعل هذه الأمور يحتج بحجج واهية من قبل الذوق أو الرأي أو التقليد أو القصص والحكايات ، أو المنامات ونحو ذلك ، ويتخذون هذا ديناً ، يتقربون به إلى الله ، بل ويزعمون بذلك أن هذا الطريق والعمل هو غاية المحبة لهؤلاء الأولياء من الأنبياء والصالحين .

وقد فند ـ رحمه الله ـ هذه الحجج الواهية بقوله :[٢]

(وجواب هؤلاء من طريقين :

أحدهما : الاحتجاج بالنص والإجماع .

والثاني : القياس والذوق والاعتبار ببيان ما في ذلك من الفساد ، فإن فساد ذلك راجح على ما يظن فيه من المصلحة .

أما الأول فيقال : قد علم بالاضطرار والتواتر من دين الاسلام وبإجماع سلف الأمة وأئمتها أن ذلك ليس بواجب ولا مستحب .

وعلم أنه لم يكن الرسول ﷺ بل ولا أحد من الأنبياء قبله شرعوا للناس أن يدعوا الملائكة والأنبياء والصالحين ، ولا يستشفعوا بهم ، لا بعد مماتهم ولا في مغيبهم ، فلا يقول أحد : ياملائكة الله اشفعوا لي عند الله ، سلوا الله لنا أن ينصرنا أو يرزقنا ، أو يهدينا .

وكذلك لا يقول لمن مات من الأنبياء والصالحين : يانبي الله ، يارسول الله ادع الله لي سل الله لي ، استغفر الله لي سل الله لي أن يغفر لي أو يهديني أو ينصرني أو يعافيني ، ولا يقول أشكوا إليك ذنوبي ، أو نقص رزقي أو تسلط العدو علي ، أو أشكو إليك فلاناً الذي ظلمني ولا يقول : أنا نزيلك أنا ضيفك ، أنا جارك أو أنت تجير من يستجير ، أو أنت خير معاذ يستعاذ به .

---

(١) الفتاوى ١/١٥٨-١٦٠ . وانظر ١٢٣-١٢٦ . ٣/١٠٥-١٠٦ .

(٢) وقد تقدم في الفصل الأول من هذا الباب رد وافي على مثل هذه الظنون الكاذبة .

ولا يكتب أحد ورقة ويعلقها عند القبور ، ولا يكتب أحد محضراً أنه استجار بفلان ويذهب بالمحضر إلى من يعمل بذلك المحضر ، ونحو ذلك مما يفعله أهل البدع من أهل الكتاب والمسلمين ، كما يفعله النصارى في كنائسهم ، وكما يفعله المبتدعون من المسلمين عند قبور الأنبياء والصالحين أو في مغيبهم ، فهذا مما علم بالاضطرار من دين الإسلام وبالنقل المتواتر ، وبإجماع المسلمين أن النبي ﷺ لم يشرع هذا لأمته .

وكذلك الأنبياء قبله لم يشرعوا شيئاً من ذلك ، بل أهل الكتاب ليس عندهم عن الأنبياء نقل بذلك ،كما أن المسلمين ليس عندهم عن نبيهم نقل بذلك ، ولا فعل هذا أحد من أصحاب نبيهم والتابعين لهم بإحسان ، ولا استحب ذلك أحد من أئمة المسلمين ، لا الأئمة الأربعة ولا غيرهم ، ولا ذكر أحد من الأئمة لا في مناسك الحج ولا غيرها أنه يستحب لأحد أن يسأل النبي ﷺ عند قبره أن يشفع له أو يدعو لأمته ، أو يشكو إليه ما نزل بإمته من مصائب الدنيا والدين .

وكان أصحابه يبتلون بأنواع من البلاء بعد موته ، فتارة بالجدب وتارة بنقص الرزق ، وتارة بالخوف وقوة العدو ، وتارة بالذنوب والمعاصي ، ولم يكن أحد منهم يأتي إلى قبر الرسول ﷺ ولا قبر الخليل ولا قبر أحد من الأنبياء فيقول : نشكوا إليك جدب الزمان أو قوة العدو، أو كثرة الذنوب ، ولا يقول : سل الله لنا أو لأمتك أن يرزقهم أو ينصرهم أو يغفر لهم ، بل هذا وما يشبهه من البدع المحدثة التي لم يستحبها أحد من أئمة المسلمين ، فليست واجبة ولا مستحبة باتفاق أئمة المسلمين .

وكل بدعة ليست واجبة ولا مستحبة فهي بدعة سيئة ، وهي ضلالة باتفاق المسلمين ، ومن قال في بعض البدع إنها بدعة حسنة فإنما ذلك إذا قام دليل شرعي أنها مستحبة ، فأما ماليس بمستحب ولا واجب فلا يقول أحد من المسلمين إنها من الحسنات التي يتقرب بها إلى الله .

ومن تقرب إلى الله بما ليس من الحسنات المأمور بها أمر إيجاب ولا استحباب فهو ضال متبع للشيطان ، وسبيله من سبيل الشيطان ، كما قال عبد الله بن مسعود : خط لنا رسول الله ﷺ خطاً وخط خطوطاً عن يمينه وشماله ثم قال : ((هذه سبيل الله ، وهذه سبل على كل سبيل شيطان يدعو إليه)) ثم قرأ : ﴿ وأن هذا صراطي

مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾[١] [٢] فهذا أصل جامع يجب على كل من آمن با لله ورسوله أن يتبعه ، ولا يخالف السنة المعلومة ، وسبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان باتباع من خالف السنة والإجماع القديم ، لا سيما وليس معه في بدعتة إمام من أئمة المسلمين ، ولا مجتهد يعتمد على قوله في الدين ، ولا من يعتبر قوله في مسائل الإجماع والنزاع فلا ينخرم الإجماع بمخالفته ، ولا يتوقف الإجماع على موافقته .

ولو قدر أنه نازع في ذلك عالم مجتهد لكان مخصوماً بما عليه السنة المتواترة ، وباتفاق الأئمة قبله ، فكيف إذا كان المنازع ليس من المجتهدين ولا معه دليل شرعي ، وإنما اتبع من تكلم في الدين بلا علم ، ويجادل في ا لله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .) [٣]

فتبين بهذا الوجه : أن من استشفع بأحد من الأولياء والصالحين سواء كانوا أنبياء أو ملائكة أو غيرهم ـ بعد مماتهم أو حال مغيبهم ـ فإن فعله هذا مخالف لشرع ا لله وسنة رسوله ﷺ و مناهض لطريقة السلف من الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم ، وإن زعم أن فعله ذلك من قبيل البدعة الحسنة ، أو احتج بأن هذا العمل فعله الشيخ الفلاني ، أو الولي لفلاني ، أو أنه وجد آباءه على ذلك سائرون ، فإن هذا ليس فيه حجة ولا دليل ، وإنما العمل بما جاء به الشرع من التنزيل ، وما سار عليه الصحابة والتابعون ، خير أجيال هذه الأمة .

ثم بين ـ رحمه ا لله ـ الوجه الثاني : وهو : بيان ما في ذلك من الفساد الراجح على ما يظن فيه من المصلحة .

---

(١) سورة الأنعام ١٥٣ .

(٢) رواه ابن ماجة في المقدمة (ح١١) ، وأحمد ٤٦٥/١ ، ٤٣٥ ، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة. والدارمي في المقدمة (ح٢٠٢) . والحاكم في المستدرك ٢٣٩/٢ ، ٣١٨ ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

(٣) الفتاوى ١٦٠/١-١٦٣ .

وهذا يتبين بعدة أمور منها : أن الشارع نهى عن أعمال ؛ بل حرم فعلها لسد ذرائع الشرك . ومن الأمثلة عليه ما سبق ذكره من بيان أن النبي ﷺ نهى عن اتخاذ القبور مساجد ، لئلا تكون وسيلة وذريعة إلى الشرك . (كما في صحيح مسلم عن جندب بن عبد الله أن النبي ﷺ قال قبل أن يموت بخمس : ((إن من كان قبلكم كانوا يتخذوان القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك))[1] وفي الصحيحين عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ قال قبل موته : ((لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) يحذر ما فعلوا ، قالت عائشة : ولولا ذلك لأبرز قبره ولكن كره أن يتخذ مسجداً [2] ...

فحرم ﷺ أن تتخذ قبورهم مساجد بقصد الصلوات فيها كما تقصد المساجد ، وإن كان القاصد لذلك إنما يقصد عبادة الله وحده ، لأن ذلك ذريعة لأن يقصدوا المسجد لأجل صاحب القبر ودعائه والدعاء به والدعاء عنده ، فنهى رسول ﷺ عن اتخاذ هذا المكان لعبادة الله وحده لئلا يتخذ ذريعة إلى الشرك بالله .

والفعل إذا كان يفضي إلى مفسدة وليس فيه مصلحة راجحة ينهى عنه ، كما نهي عن الصلاة في الأوقات الثلاثة لما في ذلكم من المفسدة الراجحة : وهو التشبه بالمشركين الذي يفضي إلى الشرك وليس في قصد الصلاة في تلك الأوقات مصحلة راجحة لأمكان التطوع في غير ذلك من الأوقات ...

فإذا كان نهيه عن الصلاة في هذه الأوقات لسدر ذريعة الشرك لئلا يفضي ذلك إلى السجود للشمس ودعائها وسؤالها ـ كما يفعله أهل دعوة الشمس والقمر والكواكب التي يدعونها ويسألونها ـ كان معلوماً أن دعوة الشمس والسجود لها هو محرم في نفسه أعظم تحريماً من الصلاة التي نهى عنها لئلا يفضى إلى دعاء الكواكب ..

كذلك لما نهى عن اتخاذ قبور الأنبيا والصالحين مساجد ـ فنهى عن قصدها للصلاة عندها لئلا يفضي ذلك إلى دعائهم والسجود لهم ـ كان دعاؤهم والسجود لهم

---

(١) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٢) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

أعظم تحريماً من اتخاذ قبورهم مساجد .) [١] وكذلك كان الاستشفاع بهم وسؤالهم أعظم تحريماً من ذلك .

فاتضح من هذا أن الشارع ينهى عن أمور لا لذاتها ، وإنما لخوف ما قد ينتج عن فعلها ، وإن كان أصلها صحيح كالصلاة ، فإنها مشروعة بل واجبة فلما اقترن بها أمر خارج عنها ـ كفعلها عند قبر أو ببناء المسجد الذي تقام فيه لأجل القبر أو عليه ، أو حتى اتخاذ بعض الأماكن وتخصيصها بالعبادة دون دليل شرعي ، وكتتبع آثار الأنبياء والصالحين ، لما اقترن بها ذلك ـ حرم الشارع فعلها وحذر منه ، كل ذلك خوفاً من أن تفضي إلى مفسدة راجحة على ما يظن العبد فيه من المصلحة ما فيه . وهذا يبين أن من استشفع بالأنبياء والصالحين بلا تمييز بين ما شرع وما لم يشرع فإنه قد سلك طريقاً على أقل الأحوال أن نقول إنه يفضي إلى الشرك ، فما بالك بمن وقع بسبب ذلك في عين الشرك ، كما وقع فيه كثير ممن عبد غير الله قاصداً أنها تشفع له عند العزيز القهار . وكمن سار على مسلكهم من بعض عامة المسلمين ، فالله المستعان وإليه المشتكى وعليه التكلان .

وقد بين شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ أن الله قد حرم الشفاعة لأمثال هؤلاء إذا ماتوا على الكفر وبين أن (.. الشافع ليس له أن يشفع إلا بإذن الله له في ذلك فلا يشفع شفاعة نُهي عنها ، كالشفاعة للمشركين والدعاء لهم بالمغفرة ، قال تعالى : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ، وما كان استغفار ابراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴾[٢] وقال تعالى في حق المنافقين : ﴿سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ﴾ [٣] .

---

(١) الفتاوى ١/١٦٣-١٦٥ .وانظر ١/١٩٤ ، وانظر في ايراده لهذا الاعتراض وجوابه عليه من الوجهين ١/١٨٠ وما بعدها .

(٢) سورة التوبة ١١٣ ـــ ١١٤ .

(٣) سورة المنافقون ٦ .

وقد ثبت في الصحيح أن الله نهى نبيه عن الاستغفار للمشركين والمنافقين، وأخبر أنه لا يغفر لهم كما في قوله: ﴿ إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ (١) وقوله: ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾ (٢) ...) (٣)

الفرق بين الاستشفاع بالنبي ﷺ والأنبياء والصالحين وبين طلب ذلك من رب العالمين :

قد يغتر كثير من الناس بما يعتقدونه من أن العبد إذا كان له مكانة ومنزلة عند الله عز وجل بكونه نبياً، أو صدّيقاً أو ولياً أن تلك المكانة والمنزلة تجعله مخولاً بأن يشفع لكل من طلب منه أن يشفع له عند ربه في قضاء حاجته، سواء كانت من حوائج الدنيا أو الآخرة، وهذا الاعتقاد ناشئ من قياسهم وساطة الناس وشفاعة بعضهم لبعض عند ذوي المكانة والسلطان، دون اداركهم الفرق البيِّن، والبون الشاسع بين طلب الشفاعة من المخلوق عند الخالق، وبين طلبها من المخلوق عند المخلوق .

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله تعالى ــ أن هناك فرق بَيِّنٌ بين طلب الشفاعة من المخلوق إلى الخالق، وبين طلبها من المخلوق إلى المخلوق .

قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (الشفعاء الذي يشفعون عند الله لا يشفعون إلا بعد إذنه ... وهذا بخلاف الملوك، فإن الشافع عندهم قد يكون له ملك، وقد يكون شريكاً لهم في الملك، وقد يكون مظاهراً لهم معاوناً لهم على ملكهم، وهؤلاء يشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك هم وغيرهم، والملك يقبل شفاعتهم : تارة بحاجته إليهم، وتارة لخوفه منهم، وتارة لجزاء إحسانهم إليه ومكافئتهم ولأنعامهم عليه، حتى أنه يقبل شفاعة ولده وزوجته لذلك، فإنه محتاج إلى الزوجة وإلى الولد، حتى لو أعرض عنه ولده وزوجته لتضرر بذلك، يقبل شفاعة مملوكه، فإذا لم يقبل شفاعته يخاف أن

---

(١) سورة النساء ٤٨ .

(٢) سورة التوبة ٨٤

(٣) الفتاوى ١/١٢٩ــ١٣٠ .

لا يطيعه ، أو أن يسعى في ضرره . وشفاعة العباد بعضهم عند بعض كلها من هذا الجنس ، فلا يقبل أحد شفاعة أحد إلا لرغبة أو رهبة .

والله تعالى لا يرجوا أحداً ولا يخافه ، ولا يحتاج إلى أحد بل هو الغني ، قال تعالى : ﴿ ألا إن لله من في السموات ومن في الأرض وما يتبع الذي يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾ إلى قوله : ﴿قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني له ما في السموات وما في الأرض ﴾[1] ...) [2]

كما أن الله عز وجل لا يقبل شفاعة من أحد إلا فيما يحبه ويرضاه ، فإذا ما شفع أحد في شيء لا يرضاه ولا يريده لم يقبل شفاعته ، حتى ولو كان أكرم الخلق عنده ، فهذا رسول الله نوح عليه السلام لم يقبل الله شفاعته في إبنه لكونه كافراً ، وكذلك إبراهيم الخليل عليه السلام رد شفاعته في أبيه ، وكذلك سيد الخلق ﷺ ردها في أمه وأبيه ، كذلك بعض المسلمين رد شفاعته في ذويهم الكفار بقوله : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾[3] . وقد تقدم ذكر هذا .

أما المخلوق فإنه قد يقبل الشفاعة من الغير في أمر لا يرتضيه ولا يريده لكونه له مصلحة في قبول تلك الشهادة ، وإن كانت لا توافق رغبته وهواه .

وفرق ثالث : أن الشفاعة عند رب العالمين لاتقبل إذا كان فيها عدوان ، كسؤاله سبحانه في معصيته ، أو سؤاله الإعانة على الكفر أو الفسوق أو العصيان أو الظلم أو غير ذلك من أنواع الاعتداء في الدعاء [4].

---

(١) سورة يونس ٦٨ .

(٢) الفتاوى ١/١٢٨-١٢٩ . وانظر ٣٢٠

(٣) سورة التوبة ١١٣ .

(٤) وقد تقدم ذكر أنواع الاعتداء في الدعاء انظر ص ٤٤٥ .

أما المخلوق فإنه قد يقبل شفاعة في إعانة على ظلم أو عدوان أو فسوق أو عصيان ، وهذا يقع كثيراً في الخلق .(١)

ومن هنا فإن المشركين ومن فعل فعلهم يتخذون شفعاء من جنس ما يعهدونه من الشفاعة لدى المخلوقين ، فقد اتخذوا آلهة وأصناماً يعبدونها من دون الله لتشفع لهم عند الله ، كما فعل فعلتهم كثير من جهلة المسلمين الذين يتوجهو إلى الأولياء من الأنبياء والصالحين وغيرهم يطلبون منهم الشفاعة عند رب الأرض والسموات في قضاء حوائجهم الدينية أو الدنيوية .

كما يعتقد كثير من الناس جهلاً منهم بحق الله ﷻ أن لبعض خلقه منزلة عند همؤثرة بذاتها كما أشرنا فيما سبق ، وخصوصاً ما يتعلق بشخص الرسول ﷺ ومنزلته عند الله ، فقد أساؤا الفهم منها وبالغوا في الاستشفاع بخصوص النبي ﷺ

ومن ذلك توجههم إلى النبي ﷺ وطلبهم منه الشفاعة بعد وفاته . ومنهم من بالغ في نفيها(٢) وكلاهما مذموم . وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ أن شفاعتة ﷺ هي من أصول الإيمان المعلومة من الدين بالاضطرار ، وأن من أنكر شفاعتة ﷺ ودعاء ه للمسلمين فهو كافر إن كان عن علم ، وإلا عُرِّف ذلك فإن أصر على إنكاره فهو مرتد .(٣)

شفاعة النبي ﷺ على نوعين :

ذكر رحمه الله أن شفاعته ﷺ على نوعين :

نوع في الدنيا يكون بالدعاء والشفاعة .

ونوع يكون في الآخرة . حيث أن له ﷺ فيها شفاعات متعددة يختص بها لا يشركه فيها أحد كشفاعته في كشف الموقف ، وفي عمه وغير ذلك ، وشفاعة يشركه

(١) انظر الفتاوى ١٢٩/١ وما بعدها .

(٢) كالخوارج والمعتزلة الذين زعموا أنه لا يشفع في الآخرة للعصاة وغيرهم .

(٣) انظر الفتاوى ١٥٣/١ .

فيها غيره من الأنبياء والصالحين ، لكن ماله فيها أفضل مما لغيره ، فإنه ﷺ أفضل الخلق وأكرمه على ربه عز وجل ، وله من الفضائل التي ميزه الله بها على سائر النبيين ما ليس هذا موضع بيانه . كالحوض المورود والمقام المحمود الذي يغبطه عليه الأولون والآخرون . وهذا النوع من الشفاعة يطلب من رب العالمين فقط لأنه لا يملكه أحد سواه . وليس المقصود هنا بيان هذا النوع من الشفاعة وإنما المقصود النوع الآخر .(١) وهو :

طلب الشفاعة منه ﷺ في الدنيا :

بين شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ أن طلب الشفاعة من النبي ﷺ في الدنيا على نوعين :

نوع جائز ومشروع : وهو ما كان في حياته .

ونوع محرم ممنوع : وهو طلبها منه بعد موته .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ (ومحمد ﷺ أعظم جاهاً من جميع الأنبياء والمرسلين ؛ لكن شفاعته ودعاؤه إنما ينتفع به من شفع له الرسول ﷺ وداعا له ، فمن دعا له الرسول ﷺ وشفع له توسل إلى الله بشفاعته ودعائه ، كما كان أصحابه يتوسلون إلى الله بدعائه وشفاعته ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً.)(٢) والانتفاع بهذا الدعاء والشفاعة مشروط بالإيمان (أما بدون الإيمان به فالكفار والمنافقون لا تغني عنهم شفاعة الشافعين في الآخرة ، ولهذا نُهي عن الاستغفار لعمه وأبيه وغيرهما من الكفار ، ونهي عن الإستغفار للمنافقين) (٣) وخص من ذلك شفاعته ﷺ لعمه أبي طالب يوم القيامة لتخفيف العذاب لا لإسقاطه لورود النص بذلك .

---

(١) انظر الفتاوى ٣١٣/١ .

(٢) الفتاوى ١٤٣/١ . وانظر صـ ١٠٩ .

(٣) المصدر السابق .

هذا هو النوع الجائز وهو معنى الاستشفاع بالنبي ﷺ في الدنيا إلا أنه يشترط فيه أمران:

الأول : أن يكون الطلب في حياته حتى يتمكن من الدعاء وإجابة المستشفع إلى ما أراد ، كما كان الصحابة يستشفعون به ﷺ في حياته ، أما بعد مماته فلا ، لتعذر ذلك ، ولكون طلب الشفاعة لا يكون إلا ممن يسمع المستشفع ويستطيع الدعاء له ، أما إذا كان على غير قيد الحياة فإنه لا يسمع المنادي ولا يجيب المستشفع ؛ لأن هذا من خصائص رب العالمين . فضلاً عن أن هذا الأمر غير مشروع .

الأمر الثاني : أن يكون الطلب لا يتعدي حد مقدرته التي آتاه الله إياها ، فقد جاء في (الحديث : : أن أعرابياً قال : يارسول الله جهدت الأنفس وجاع العيال ، وهلك المال ، فادع الله لنا فإنا نستشفع بالله عليك ، ونستشفع بك على الله ، فسبح رسول الله ﷺ حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه وقال : ((ويحك أتدري ما تقول ؟ شأن الله أعظم من ذلك ، إنه لا يستشفع به على أحد من خلقه))[1] فأنكر قوله : ((نستشفع بالله عليك)) ومعلوم أنه لا ينكر أن يسأل المخلوق بالله أو يقسم عليه بالله ، وإنما أنكر أن يكون الله شافعاً إلى المخلوق ، [لأن الشفيع يسأل المشفوع إليه أن يقضي حاجة الطالب ، والله تعالى لا يسأل أحداً من

---

(١) رواه أبو داود في السنة (ح٤٧٢٦) ، وابن خزيمة في التوحيد (١٠٣ـ١٠٤) ، واللالكائي (ح٦٥٦) ، وابن أبي عاصم في السنة ، وقال الألباني : إسناده ضعيف . قال ابن عثيمين : " وهذا الحديث فيه ضعف إلا أن معناه صحيح " . القول المفيد على كتاب التوحيد ٢٧٣/٣ .

عباده أن يقضي حوائج خلقه[١]][٢] ولهذا لم ينكر قوله : ((نستشفع بك على الله))

فإنه هو الشافع المشفع .)[٣]

و(روى الطبراني في معجمه الكبير أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين فقال أبو بكر الصديق : قوما بنا لنستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق فقال النبي ﷺ : ((إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله)) [٤] فهذا إنما أراد به النبي ﷺ المعنى الثاني وهو أن يطلب منه ما لا يقدر عليه إلا الله ، وإلا فالصحابة كانوا يطلبون منه الدعاء ويستسقون به ...) [٥]

النوع الثاني : طلب الشفاعة من النبي ﷺ بعد موته :

طلب الشفاعة منه ﷺ بعد مماته أمر محرم نهى عنه الشارع ، بل أرشد النبي ﷺ إلى طلبها من الله كما سبق في قوله ﷺ : ((.. من سأل الله لي الوسيلة

---

(١) ولا عبرة بمن فعل ذلك أو أطلق عبارات يستشفع بالله سبحانه وتعالى إلى النبي ﷺ كبعض ضلال الصوفية من الاتحادية ومن قال بقولهم ، كما قال قائلهم :

شفيعي إليك الله لا رب غيره وليس إلى رد الشفيع سبيل .

فالله سبحانه هو المسئول المدعو الذي يسأله كل من في السموات والأرض ، ولكنه تبارك وتعالى يأمر عباده فيطيعونه ، وكل من وجبت طاعته من المخلوقين ، فإنما وجبت لأن ذلك طاعة لله تعالى .. انظر الفتاوى ٣١٦/١.

(٢) الفتاوى ٣١٦/١ . وانظر ١٩٤/٢٥ .

(٣) الفتاوى ٢٤٠/١ . وانظر صـ ١٠٩

(٤) رواه الإمام أحمد ٣١٧/٥ والطبراني كما في مجمع الزوائد ١٦٢/١٠ ، ٤٠/٨ ، ولا يوجد في المطبوع من معجم الطبراني ، وابن سعد في الطبقات ٣٨٧/١ وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة ، وهو حسن الحديث . قال شيخ الإسلام – رحمه الله – : " هذا الخبر لم يذكر للإعتماد عليه ، بل ذكر في ضمن غيره ليتبين أن معناه موافق للمعاني المعلومة بالكتاب ةالسنة ، كما أنه إذا ذكر حكم بدليل معلوم ذكر ما يوافقه من الآثار والمراسيل وأقوال العلماء وغير ذلك من الاعتضاد والمعاونة ، لا لأن الواحد من ذلك يعتمد عليه في حكم شرعي .. " الرد.علي البكري ١٥٣ .

(٥) الفتاوى ١١٠/١ . وانظر صـ ٢٤٧ من نفس المجلد .

حلت له شفاعتي)) [١] ولم يعرف عن أحد من الصحابة ولا سلف الأمة أنهم طلبوها منه بعد موته ، بل الذي مضى عليه الصحابة أنهم كانوا يأتونه في حياته يطلبون منه الدعاء لهم بالمغفرة والرحمة ونحوها ، أما بعد موته فلم يعرف عنهم هذا .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ : (طلب شفاعته ﷺ ودعائه واستغفاره بعد موته وعند قبره ليس مشروعاً عند أحد من أئمة المسلمين ، ولا ذكر هذا أحد من الأئمة الأربعة ، وأصحابهم القدماء ، وإنما ذكر هذا بعض المتأخرين : ذكروا حكاية عن العتبي أنه رأى أعرابياً أتى قبره وقرأ هذه الآية [﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾[٢]] وأنه رأى في المنام أن الله غفر له .

وهذا لم يذكره أحد من المجتهدين من أهل المذاهب المتبوعين ، الذين يفتي الناس بأقوالهم ، ومن ذكرها لم يذكر عليها دليل شرعياً .

ومعلوم أنه لو كان طلب دعائه وشفاعته واستغفاره عند قبره مشروعاً لكان الصحابة والتابعون لهم بإحسان أعلم بذلك وأسبق إليه من غيرهم ، ولكان أئمة المسلمين يذكرون ذلك ، وما أحسن ما قال مالك : (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها) قال : ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك .)[٣] وقد سبق بيانه في التوسل مما يغنى عن تكراره هنا [٤] .

ومن هنا فإن الاستشفاع بالنبي ﷺ بعد موته محرم ولا يجوز ، ومن فعل ذلك فقد طلبه شيئاً لا يملكه ، واعتدى عليه في هذا الطلب بعصيان أمره وتنكب سنته وهديه في التحذير من طلب أمر من الأمور المختصة بالله من أمور العبادة ونحوها من غير الله عز وجل .

---

(١) سبق تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٢) سورة النساء ٦٤ .

(٣) الفتاوى ١/٢٤٠-٢٤١ .

(٤) انظر ص ٧٨٩ ، ٧٣٠ .

وأما طلب الشفاعة منه في حياته فإن هذا ثابت بالكتاب والسنة بهذين الشرطين ، ولكن لا يدعى إلا الله ، مع اعتقاد (أن الأمور التي لا يقدر عليها لا تطلب منه مثل : غفران الذنوب ، وهداية القلوب ، وإنزال المطر ، وإنبات النبات ، ونحو ذلك ... وهذا مما لا نزاع فيه بين المسلمين .. كما قال الله تعالى : ﴿ ومن يغفر الذنوب إلا الله ﴾ (١) وقال : ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ (٢) وكما قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ﴾ (٣) وكما قال تعالى : ﴿ وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ (٤) وقال : ﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾(٥) ...) (٦)

وهذا الأمر يتبين بالتفريق بين حقوق الله وحقوق الأنبياء فإن من حقوق الله عز وجل أن يوحد بالعبادة فلا يدعى إلا هو ، ولا يعبد بأي نوع من العبادة إلا هو .كما جاء في قوله ﷺ : ((أتدري ما حق الله على العباد ، وما حق العباد على الله ؟ قال الله ورسوله أعلم قال : حق الله على العبيد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله أن لا يعذب من مات لا يشرك بالله شيئاً)) (٧) وقد تقد

(١) سورة ال عمران ١٣٥ .

(٢) سورة القصص ٥٦ .

(٣) سورة فاطر ٣ .

(٤) سورة ال عمران ١٣٦ .

(٥) سورة التوبة ٤٠ .

(٦) الفتاوى ١/١٠٩-١١٠ .

(٧) سبق تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

بيان هذا [١] ، فمن تجاوز ذلك بصرف شيء من حقوقه إلى غيره فقد حاد عما شرعه الله ونبيه .

و (من توهم في نبينا أو غيره من الأنبياء شيئاً من الألوهية والربوبية فهو من جنس النصارى ، وإنما حقوق الأنبياء ما جاء به الكتاب والسنة عنهم ، قال تعالى في خطابه لبني اسرائيل : ﴿ وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ [٢] والتعزيز : النصر والتوقير والتأييد .

وقال تعالى : ﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه ﴾ [٣] فهذا في حق الرسول ﷺ ، ثم قال في حق الله تعالى :﴿ وتسبحوه بكرة وأصيلاً ﴾ وقال تعالى : ﴿ .. ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والأنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ [٤] وقال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم . قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴾[٥] ...

---

(١) انظر ص ٦٥٤ .

(٢) سورة المائدة ١٢ .

(٣) سورة الفتح ٨-٩ .

(٤) سورة الأعراف ١٥٦-١٥٧ .

(٥) سورة ال عمران ٣١ .

وقال ﷺ : ((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين)) [١] ...

فقد بين الله في كتابه حقوق الرسول من الطاعة له ، ومحبته وتعزيره وتوقيره ونصره وتحكيمه ، والرضى بحكمه والتسليم له ، واتباعه والصلاة والتسليم عليه ، وتقديمه على النفس والأهل والمال ، ورد ما يتنازع فيه إليه وغير ذلك من الحقوق .

وأخبر أن طاعته طاعته فقال : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾[٢] ومبايعته مبايعته فقال : ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ﴾[٣] وقرن بين اسمه واسمه في المحبة فقال : ﴿ أحب إليكم من الله ورسوله ﴾[٤] وفي الأذى فقال ﴿ إن النبيّ يؤذون الله رسوله ﴾[٥] وفي الطاعة والمعصية فقال : ﴿ومن يطع الله ورسوله ﴾[٦] ﴿ ومن يعص الله ورسوله ﴾[٧] وفي الرضا فقال :﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴾[٨] فهذا ونحوه هو الذي يستحقه رسول الله بأبي هو وأمي .

فأما العبادة والاستعانة فلله وحده لا شريك له ، كما قال : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ﴾ [٩] ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ ﴿ما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ﴾ [١٠] ...

---

(١) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث . .
(٢) سورة النساء ٨٠ .
(٣) سورة الفتح ١٠ .
(٤) سورة التوبة ٢٤ .
(٥) الأحزاب ٥٧ .
(٦) سورة النور ٥٢ .
(٧) سورة النساء ١٤ .
(٨) سورة التوبة ٦٢ .
(٩) سورة النساء ٣٦ .
(١٠) سورة البينة ٥ .

وكذلك التوكل كما قال : ﴿ وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾[١] ... والدعاء لله وحده سواء كان دعاء عبادة أو دعاء المسئلة والاستعانة كما قال تعالى : ﴿وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً ، قل إنما أدعوا ربي ولا أشرك به أحداً ﴾ [٢] ... وذم الذين يدعون الملائكة والأنبياء وغيرهم ...) [٣]

وبهذا يتبن ما لله عز وجل وما لرسوله ﷺ ، فمن خلط حق الله بحق رسوله ﷺ فقد أجحف ؛ لأن من صرف شيئاً مما لا يجوز أن يصرف إلا لله من أنواع العبادة لغير الله فقد أشرك ، وشفاعة النبي ﷺ من أهم ما يطلب من الله عز وجل .

شفاعته ﷺ تتحق بالإيمان والإخلاص :

لا شك أن شفاعة النبي ﷺ لا تكون إلا لمن آمن وعمل صالحاً ، ولا ينال أحد شفاعة النبي ﷺ بغير ذلك . وهذا مما نص عليه النبي ﷺ ، ببيانه أنه لا يمكن أن يشفع لأحد مهما كان قريباً منه ما لم يكن أتى بالإيمان بالله عز وجل والعمل الصالح . فـ (في الصحيح أن أبا هريرة ﷺ قال لرسول الله ﷺ : ((أي الناس أسعد بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال : يا أبا هريرة لقد ظننت أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أوّل من منك ، لما رأيت من حرصك على الحديث ، أسعد الناس بشفاعتي : من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه))[٤] فبين أن أسعد الناس بشفاعته في الآخرة أعظمهم إخلاصاً لله ، وتوحيداً له في الدين .)[٥]

---

(١) سورة ابراهيم ١٢ .

(٢) سورة الجن ٢٠ .

(٣) الفتاوى ١/٦٦-٦٩ .

(٤) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٥) الصفدية ٢/٢٩١ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ (ثبت عنه ﷺ في الصحيح عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ لما نزلت هذه الآية : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ [(١)] دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا ، فعم وخص ، فقال : ((يا بني كعب بن لؤي ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا بني عبد شمس ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا بني مرة بن كعب ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا بني عبد مناف . أنقذوا أنفسكم من النار . يا بني عبد المطلب ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا فاطمة ، أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لكم من الله شيئاً ، غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها[(٢)] .)) [(٣)] وفي رواية عنه : ((يا معشر قريش ، اشتروا أنفسكم من الله ، فإني لا أغني عنكم من الله شيئاً . يا بني عبد المطلب ، لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغني عنك من الله شيئاً . يا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أغني عنك من الله شيئاً . يا فاطمة بن رسول الله ، سليني من مالي ماشئت لا أغني عنك من الله شيئاً)) [(٤)] وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ لما نزلت : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ قام رسول الله ﷺ فقال : ((يا فاطمة بن محمد ، يا صفية بن عبد المطلب ، لا أملك لكم من الله شيئاً سلوني من مالي ما شئتم))[(٥)].

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً ذات يوم فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ثم قال : ((لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته

---

(١) سورة الشعراء ٢١٤ .

(٢) ببلالها أي : أصلكم في الدنيا ولا أغني عنكم من الله شيئاً ، والبلال جمع بلل ، وقيل هو كل ما بل الحلق من ماء أو لبن أو غيره . النهاية ١٥٣/١ مادة بلل .

(٣) رواه البخاري في الوصايا (ح٢٧٥٣) ومسلم في الإيمان (ح٢٠٤) واللفظ له والترمذي في تفسير القرآن (ح٣١٨٥) والنسائي في الوصايا (ح٣٦٤٤) والدارمي في الرقاق (ح٢٧٣٢) .

(٤) رواه البخاري في تفسير القرآن (ح٤٧٧١) ومسلم في الإيمان (ح ٢٠٦) والنسائي في الوصايا (ح٣٦٤٦ ، ٣٦٤٧) والدارمي في الرقاق (ح٢٧٣٢) .

(٥) رواه مسلم في الإيمان)ح٢٠٥) والترمذي في الزهد (ح٢٣١٠) وفي تفسير القرآن (ح٣١٨٤) والنسائي في الوصايا (ح٣٦٤٨)

بعير له رغاء يقول : يا رسول الله أغثني ، فأقول : لا أملك لك شيئاً ، قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجيئ يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة فيقول : يا رسول الله أغثني ، فأقول : لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك . لا ألفين أحدم يجئ يوم القيامة وعلى رقبته شاة لها ثغاء ، فيقول : يا رسول الله أغثني فأقول : لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع[1] تخفق فيقول : يا رسول الله أغثني فأقول : لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك . .لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت[2] فيقول : يا رسول الله أغثني فأقول : لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك.))[3] .. فقوله : هنا ﷺ ((لا أملك لك من الله شيئاً قد بلغت)) كقول ابراهيم لأبيه : ﴿لأستغفرن لك وما أملك لك من الله شيئاً﴾[4] ...)[5]

فإذا كان رسول الله ﷺ يؤكد على أنه لا يملك للأقربين من أهله أن ينفعهم بشيء ما لم يؤمنوا ويتبعوه ، فينتفعوا بذلك ، فما بالك بغيرهم . وهذا يبين أن من توهم أنه ﷺ له أن يشفع في كل من طلبها منه ، وقاس ذلك على شفاعة الناس بعضهم لبعض في الدنيا ، فهو على غير مصيب ، بل إن فعله سيكون وبالاً عليه وخسراناً ، لا سيما وأنه بهذا العمل يصرف أمراً من الأمور التي لا يجوز صرفها إلا لله ، يصرفها لغيره .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله تعالى ــ : (وأما الشفاعة والدعاء فانتفاع العباد به موقوف على شروط وله موانع ، فالشفاعة للكفار بالنجاة من النار

---

(١) الرقاع هي ما يتخذ من جلد ونحوه للكتابة ، وأراد به النبي ﷺ هنا ما على العبد من الحقوق المكتوبة في الرقاع ، وخفوقها حركتها . انظر النهاية ٢٥١/٢ . واللسان مادة رقع .

(٢) صامت : يقال : صمت العليل وأصحت فهو صامت ومصمت إذا أثقل لسانه فلم يستطع الكلام ، والمقصود هنا في الحديث : أن على رقبته الذهب والفضة ، خلاف الناطق وهو الحيوان . انظر النهاية ٥١/٣-٥٢ . واللسان مادة صمت .

(٣) رواه البخاري في الجهاد والسير (ح٣٠٧٣) ومسلم في الإمارة (ح١٨٣١) .

(٤) سورة الممتحنة ٤ .

(٥) الفتاوى ١٤٧/١-١٤٨ .

والاستغفار لهم مع موتهم على الكفر لا تنفعهم ــ ولو كان الشفيع أعظم الشفعاء جاهاً ــ فلا شفيع أعظم من محمد ﷺ ثم الخليل ابراهيم عليه السلام ، وقد دعا الخليل ابراهيم لأبيه واستغفر له كما قال تعالى عنه : ﴿ ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾ [1] وقد كان النبي ﷺ أرد أن يستغفر لأبي طالب اقتداء بإبراهيم وأراد بعض المسلمين أن يستغفروا لبعض أقاربهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربي من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾[2] ...)[3]



(١) سورة ابراهيم ٤١ .
(٢) سورة التوبة ١١٣ .
(٣) الفتاوى ١/١٤٥ .

الفصل الرابع :

بيانه لاتباع الهوى وطاعة العلماء والأمراء في معصية الله .

وفيه : مبحثان

المبحث الأول : في اتباع الهوى

المبحث الثاني : في طاعة العلماء والأمراء في معصية الله

المبحـــــث الأول :فـــي اتبـــاع الهــــوى

اتباع الهوى

تعريف الهوى :

قال ابن منظور ـ رحمه الله ـ : (الهوى مقصور : هَوَى النفس ، وإذا أضفته إليك قلت هوايَ . قال ابن بري : وجاء هَوَى النفس ممدودا في الشعر ...

[والهوى] العشق ... وهوى النفس إرادتها ، والجمع الأهواء ، التهذيب : قال اللغويون الهَوى محبة الإنسان الشيء وغلبته على قلبه.) [١]

وقال الراغب ـ رحمه الله ـ : (الهوى ميل النفس إلى الشهوة ، ويقال ذلك للنفس المائلة إلى الشهوة ، وقيل سمي بذلك لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية ، وفي الآخرة إلى الهاوية [٢] ...)[٣].

ونخلص مما سبق : أن الهوى يطلق ويراد به المحبة الزائدة التي تغلب على قلب المحب حتى ينجرف ورائها من غير شعور بخطرها ، وقد يشعر[٤] إلا أنه لايستطيع مخالفة هواه ، قال الله ﷻ : ﴿ وأشربوا في قلوبهم العجل ﴾[٥] .

كما أنها تطلق على العشق الذي هو درجة من دراجات المحبة الزائدة على الحد المعتدل .

ومعلوم أن الهوى ملازم للشهوة ومرتبط بها في الغالب ، كما عرفه الراغب بأنه : ميل النفس إلى الشهوة ، ومعلوم أن الشهوة هي أساس هلاك الإنسان ، كما قال النبي ﷺ : ((من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة)) [٦]

---

(١) لسان العرب ٣٧٢/١٥ مادة هوى .

(٢) وانظر الموافقات للشاطبي ١١٥/٤

(٣) المفردات ٥٤٨ .

(٤) قال الشافعي ـ رحمه الله ـ : " اتباع الهوى من حيث يظن أنه اتباع للشرع ضلال في الشرع ، ولذلك سميت البدع ضلالات وجاء أ، كل بدعة ضلالة لأن صاحبها مخطيء من حيث توهم أنه مصيب ، ودخول الأهواء في الأعمال خفي ، فأقوال أهل الأهواء غير معتديها في الخلاف المقرر بالشرع " الموافقات ٢٢٣/٤.

(٥) سورة البقرة ٩٣ .

(٦) رواه البخاري في الرقاق (ح٦٤٧٤) والترمذي في الزهد (ح٢٤٠٨) .

وقال الشاطبي ـ رحمه الله ـ : (اتباع الهوى .. نبه عليه قوله قوله : ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ ﴾ [(١)] وهو الميل عن الحق اتباعاً للهوى ...) [(٢)]

ومن هنا يمكن أن نقول إن اتباع الهوى هو : انسياق النفس لما تهواه وتريده ، دون اعتبار للضوابط الشرعية .

وله دواع عديدة منها المحبة أو العشق أو اتباع الشهوة الظاهرة أو الخفية أو غير ذلك .

وشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ يرى أن الهوى مصدر هوى يهوى هوى ، وأنه يطلق ليس على صاحبه فقط بل على نفس المهْوي ، وأن اتباعه كاتباع السبيل التي قال الله فيها : ﴿ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ﴾ [(٣)] وكما في لفظ الشهوة .

قال ـ رحمه الله ـ : (فاتباع الهوى يراد به نفس مسمى المصدر ، أي اتباع إرادته ومحبته التي هي هواه ، واتباع الإرادة هو فعل ما تهواه النفس . كقوله تعالى : ﴿واتبع سبيل من أناب إلي ﴾[(٤)] وقوله : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾[(٥)] وقال : ﴿ ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾[(٦)] . فلفظ الاتباع يكون للآمر والناهي ، وللأمر والنهي ، وللمأمور به والمنهي عنه ، وهو الصراط المستقيم .

كذلك يكون للهوى أمر ونهي ، وهو أمر النفس ونهيها ، كما قال تعالى : ﴿إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم ﴾[(٧)] ولكن ما يأمر به

---

(١) سورة ال عمران ٧ .

(٢) الموافقات ٤/١٨٧ .

(٣) سورة المائدة ٧٧ .

(٤) سورة لقمان ١٥ .

(٥) الأنعام ١٥٣ .

(٦) الأعراف ٣ .

(٧) يوسف ٥٣ .

من الأفعال المذمومة فأحدها مستلزم للآخر ، فاتباع الأمر هو فعل المأمور ، واتباع أمر النفس هو فعل ما تهواه ، فعلى هذا يعلم أن اتباع الشهوات واتباع الأهواء هو اتباع شهوة النفس وهواها ، وذلك بفعل ما تشتهيه وتهواه .

بل قد يقال : هذا هو الذي يتعين في لفظ اتباع الشهوات والأهواء ؛ لأن الذي يشتهي ويهوى إنما يصير موجوداً بعد أن يشتهي ويهوى ، وإنما يذم الإنسان إذا فعل ما يشتهي ويهوى عند وجوده ، فهو حينئذ قد فعل ، ولا ينهى عنه بعد وجوده ، ولا يقال لصاحبه لا تتبع هواك .

وأيضاً فالفعل المراد المشتهى الذي يهواه الإنسان هو تابع لشهوته وهواه ؛ فليست الشهوة والهوى تابعة له ...

وحقيقة الأمر أنهما متلازمان [١] : فمن اتبع نفس شهوته القائمة بنفسه [٢] اتبع ما يشتهيه ، وكذلك من اتبع الهوى القائم[٣] اتبع ما يهواه ، فإن ذلك من آثار الإرادة ، واتباع الإرادة هو امتثال أمرها ، وفعل ما تطلبه ، كالمأمور الذي يتبع أمر أميره ، ولا بد أن يتصور مراده الذي يهواه ويشتهيه في نفسه ويتخيله قبل فعله . فيبقى ذلك المثال كالإمام مع المأموم يتبعه حيث كان ، وفعله في الظاهر تبع لاتباع الباطن ، فتبقى صورة المراد المطلوب المشتهى التي في النفس هي المحركة للإنسان الآمرة له ...)[٤]

ونستطيع أن نستخلص من كلامه ــ رحمه الله ــ أن : (اتباع الشهوات واتباع الأهواء هو اتباع شهوة النفس وهواها ، وذلك بفعل ما تشتهيه وتهواه)[٥] وأن اتباع الهوى يطلق على صاحبه ، كما أن يطلق على نفس مسمى المصدر أي اتباع إرادته

(١) أي الهوى والشهوة

(٢) بالفعل .

(٣) بالإرادة

(٤) الفتاوى ١٠/٥٨٤-٥٨٧ .

(٥) الفتاوى ١٠/٥٨٥ . وانظر منهاج السنة ٥/٣٣٠ .

ومحبته الـتي هـي هـواه . كمـا أن للهـوى أمـر ونهـي ، وهـو أمـر النفـس ونهيهـا . فـلا يـذم الإنسان إلا إذا فعـل مـا يشـتهي ويهـوى عنـد وجـوده .

ذم الهـوى :

ذم ا لله ﷻ في كتـاب الكريـم الهـوى وبـين ، أنـه مصـدر كـل ضـلال ، وأن الهـدى والخير في اجتنابـه ، وكـذا رسـول ﷺ حيـث ذمـه في أحـاديث كثـيرة ، ومضـى علـى هـذا سـلف الأمـة وعلماؤهـا ، ومـن أولئـك العلمـاء شـيح الإسـلام ـ رحمـه ا لله ـ فقـد كـان لـه جهـداً واضحـاً في بيـان هـذا المسـلك الـرديء ؛ حيـث بـين أن أصـل الضـلال اتبـاع الهـوى كمـا قـال سـبحانه في حـق مـن ذمهـم : ﴿ إن يتبعـون إلا الظـن ومـا تهـوى الأنفـس .. ﴾ [1]

ولهـذا فقـد ذم ا لله سـبحانه وتعـالى اتبـاع الهـوى وحـذر منـه [2] ، وبـين أنـه هـو الـذي بسـببه هلـك كثـير مـن الخلـق . وذم أهـل التفـرق والاختـلاف ، وأمـر بالاتفـاق والاجتمـاع ، كمـا أمر بالتجرد من كـل شـهوة وهـوى ، فنهـى عـن اتبـاع الظـن ، وأمـر بـالتثبت .

قـال شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة ـ رحمـه ا لله تعـالى ـ في الكـلام علـى أولئـك الذيـن يتبعـون أهواءهـم دون أمـر ا لله وشرعه ، قـال : (.. فهـؤلاء لا يفعلـون ولا يـأمرون إلا بمـا يحبونـه بهواهـم ، ولا يـتركون وينهـون إلا عمـا يكرهونـه بهواهـم ، وهـؤلاء شـر الخلـق .

قـال تعـالى : ﴿ أفرأيـت مـن اتخـذ إلهـه هـواه أفـأنت تكـون عليـه وكيـلاً ﴾ [3] قـال الحسـن : هـو المنـافق لا يهـوى شيئاً إلا ركبـه . وقـال تعـالى : ﴿ ومـن أضـل ممـن اتبـع هـواه بغـير هدى مـن ا لله ﴾ [4] وقـال عمـر بـن عبـد العزيـز ـ رحمـه ا لله ـ : لا تكـن ممـن يتبـع الحـق إذا وافـق هـواه ، ويخالفـه إذا خـالف هـواه ، فـإذا أنـت لا تثـاب علـى مـا اتبعتـه مـن الحـق ، وتعـاقب علـى مـا خالفتـه ، وهـو كمـا قـال ـ رضـي ا لله عنـه ـ لأنـه في الموضعـين إنمـا قصـد اتبـاع هـواه لم يعمـل لله .

---

(١) سـورة النجـم ٢٣ .

(٢) انظـر الفتـاوى ٣/٣٨٤ . ٢٢/٣٥٧ .

(٣) سـورة الجاثيـة ٢٣ .

(٤) سـورة القصـص ٥٠ .

ألا أن ترى أبا طالب نصر النبي ﷺ وذب عنه أكثر من غيره ؛ لكن فعل ذلك لأجل القرابة ، لا لأجل الله تعالى ، فلم يتقبل الله ذلك منه ، ولم يثبه على ذلك ؟. وأبا بكر الصديق رضي الله عنه أعانه بنفسه وماله لله ، فقال الله فيه : ﴿ وسيجنبها الأتقى ، الذي يؤتي ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى ﴾ [١] ...) [٢] وهذا يبين أهمية الإخلاص لله — عز وجل — في العلم والعمل والإرادة والقصد ، وإلا فإن العمل والإرادة والقصد ، سيكون لغير الله عز وجل ، ومتى كان كذلك فإن الله عز وجل غني عن هذا العمل والعامل ، لكونه سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك فمن أشرك معه غيره تركه وشركه . [٣]

ثم يبين — رحمه الله — مدى تأثير هذه الشهوة واتباع الهوى في نفس صاحبها فيقول : (.. يبقى الإنسان عند شهوته وهواه أسيراً لذلك مقهوراً تحت سلطان الهوى أعظم من قهر كل قاهر ، فإن هذا القاهر الهوائي القاهر للعبد هو صفة قائمة بنفسه لا يمكنه مقارقته البتة ...) [٤]

وذلك لأن العبد قد يقع قيد هواه الذي يجره إلى الشرك من حيث يشعر أو لا يشعر ، فمن استحسن عملاً بلا علم ولا برهان ، فقد عبد هواه واتبعه ، ومن عمل عملاً صالحاً لأجل رياسة أو مال أو شرف أو قربة من شيخ ، أو سلطان ونحوه فقد اتبع هواه وعبده . قال تعالى : ﴿ أفرأيت من

---

(١) سورة الليل ١٧-٢١ .

(٢) الفتاوى ١٠/٤٧٩-٤٨٠ . وانظر في هذا الموضوع : الفتاوى ١١/٤٦٦ وما بعدها ، ١٢/١٤٠ ، ٣٤٠ ، ١٣/١١٠-١١١ . ٢٢/٢٤٠-٢٤١ .

(٣) انظر الفتاوى ١٠/٥٤٥ . وانظر أيضاً منهاج السنة ٥/٢٥٠-٢٥١ ، ٢٥٤-٢٥٥ ، والحديث قد سبق تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٤) الفتاوى ١٠/ ٥٨٧-٥٨٨ .

اتخـذ إلهـه هـواه ﴾ [١] أي يتخـذ إلهـه الـذي يعبـده وهـو مـا يهـواه مـن آلهـة ، ولم يقـل إن هـواه نفس إلهه فليس كـل مـن يهـوى شـيئاً يعبـده .[٢]

وقد قال ﷺ في الثلاث المهلكات والثلاث المنجيات : ((شح مطاع وهوى متبع ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ...)) الحديث [٣] حيث جعل الهوى متبع ، لأن صاحب الهوى يأمره هواه ويدعوه فيتبعه كما تتبع حركات الجوارح إرادة القلب ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً ﴾ [٤] وقال : ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من ا لله ﴾ [٥] ... [٦]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه ا لله تعالى ـ في معرض كلامه على قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إن كنتم تؤمنون بـا لله واليوم الآخر ﴾ [٧] قال : (فالمؤمن بـا لله واليوم الآخر يفعل ما يحبه ا لله ورسوله ، وينهى عما يبغضه ا لله ورسوله ، ومن لم يؤمن بـا لله واليوم الآخر فإنه يتبع هواه ، فتارة تغلب عليه الرأفة هوى ، وتارة تغلب عليه الشدة هوى ، فيتبع ما يهواه في الجانبين بغير هدى من ا لله ، ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من ا لله ﴾ ... [٨]

---

(١) سورة الجاثية ٢٣ .

(٢) انظر الفتاوى ١٣/٦٤-٦٨ ، ١٠/٥٩٢ ، ٦٠٩-٦١١ . ١٨/٣٣٢ ، ١٤/٢٨٩ .

(٣) رواه البزار في مسنده (ح٨٠) وأبو نعيم في الحلية (٢/٣٤٣) والهروي في ذم الكلام ١/١٤٥ ، وذكره الالباني في الصحيحة (ح ١٨٠٢) نقلاً عن الصحيحة

وأخرج أبو داود في الملاحم (ح٤٣٤١) والترمذي في تفسير القرآن (ح٣٠٥٨) وابن ماجة في الفتن (ح٤٠١٤) نحوه ولفظه ((.. حتى إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ...)) وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب

(٤) سورة المائدة ٧٧ .

(٥) سورة القصص ٥٠ .

(٦) انظر الفتاوى ١٨/٣٣٢ .

(٧) سورة النساء ٥٩ ، والنور ٢ .

(٨) الفتاوى ١٥/٢٩٢-٢٩٣ .

وقد يعميه الهوى (ويصمّه فلا يستحضر ما لله ورسوله في ذلك ولا يطلبه ولا يرضى لرضا الله ورسوله ، ولا يغضب لغضب الله ورسوله ، بل يرضى إذا حصل ما يرضاه بهواه ، ويغض إذا حصل ما يغضبه له بهواه ، ويكون معه شبهة دين : أن الذي يرض له ويغض له أنه السنة ، وهو الحق وهو الدين ، فإذا قدر أن الذي معه هو الحق المحض دين الإسلام ولم يكن قصده أن يكون الدين كله لله ، وأن تكون كلمة الله هي العليا ؛ بل قصد الحميَّة لنفسه وطائفته أو ياء ليعظَّم ويُثني عليه ، أو فعل ذلك شجاعة وطبعاً ، أو لغرض من الدنيا لم يكن لله ...)[1]

ومن هنا فإن الهوى يقود صاحبه إلى الشرك والعياذ با لله ، وهذا الشرك قد يكون كبيراً وقد يكون صغيراً بحسب اعتقاد الفاعل وفعله ؛ لأن منه ما يوصل إلى الكفر كما قال سبحانه عن اليهود : ﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾ [2] وقال سبحانه : ﴿ ولقد أخذنا ميثاق بني اسرائيل وأرسلنا إليهم رسلاً كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون ﴾[3] وقال سبحانه : ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ول شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ [4]ومنه ما يصل إلى دون ذلك .
وكل من خالف الحق لايخرج عن اتباعه للهوى أو الاعتماد على الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً [5] .

---

(١) منهاج السنة النبوية ٢٥٦/٥ .

(٢) سورة البقرة ٨٧ .

(٣) سورة المائدة ٧٠ .

(٤) سورة الأعراف ١٧٥-١٧٦ .

(٥) انظر الهوى وأثره في الخلاف ١٢-١٣ .

قـال شيخ الإسلام ابن تيميـة ـ رحمه الله تعالى ـ : (إن من خالف الرسـول ﷺ فـلا بد أن يتبع الظن وما تهوى الأنفس كما قال تعالى في المشركين الذين يعبدون اللات والعزى : ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾[١] وقال في الذين يخبرون عن الملائكة أنهم إناث : ﴿ ..إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً ...﴾ الآيات ...

فهؤلاء قال عنهم : ﴿إن يتبعون إلا الظن ﴾ لأنه خبر محض ليس فيه عمل ، [في الأولى] قال : ﴿ وما تهوى الأنفس ﴾ لأنهم كانوا يعبدونها ويدعونها ، فهنا عبادة وعمل بهوى أنفسهم .

والذي جاء به الرسول ﷺ قال فيه تعالى : ﴿ .. ماضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، علمه شديد القوى ﴾[٢] وكل من خالف الرسول ﷺ لا يخرج عن الظن وما تهوى الأنفس ، فإن كان ممن يعتقد ما قاله وله فيه حجة يستدل بها كان غايته الظن الذي لا يغنى من الحق شيئاً كاحتجاجهم بقياس فاسد أو نقل كاذب ، أو خطاب ألقي إليهم اعتقدوا أنه من الله وكان من الشيطان .)[٣]

(والعاقل إذا تعرف على أحوال النفس ونظر في أخبارالناس وجد أن كل واحد منهم يريد لنفسه أن تطاع وتعلو بحسب حاله وقدرته ، فالنفوس مشحونة بحب العلو والرئاسة بحسب إمكانها ، فتجد أحدهم يوالي من يوافقه على هواه ، ويعادي من يخالفه في هواه ! فمعبوده ما يريده ويهواه كما قال تعالى : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم أفأنت تكون عليه وكيلاً ﴾[٤] فمن وافق هواه واستمع لأقواله واتبعه صار صديقاً له مقرباً منه ، وإن كان عاصياً لله تعالى ، بل ربما وإن كان

---

(١) سورة النجم ٢٣

(٢) سورة النجم ٢-٥ .

(٣) الفتاوى ١٣/٦٧-٦٨ . وانظر منهاج السنة ١/١٨-٢٠ ، ٢/١٢-١٤ .

(٤) سورة الفرقان ٤٣ .

مشركاً كافراً . ومن لم يوافقه فيما يهواه كان عدواً ، وإن كان من أولياء الله المتقين ، والتفاوت في هذا بين الناس كبير ...

ومن علامات ذلك محبة من يعظمه بقبول قوله ، أو الاستماع له أكثر من غيره ، وإن كان ذلك الغير أطوع لله وأتقى وهذا يوجد كثيراً في أهل العلم .) (١) والله تعالى أعلم .

ومما يوضح أن اتباع الهوى من الأسباب المؤدية إلى الشرك ما نلاحظه في النظرة والمحبة اللتان تؤديان في نهايتهما إلى الشرك وإليك بيان ذلك — وسأقتصر على هذين المثالين لكثرة وقوع الناس فيها :

١) *اتباع الهوى في النظرة ونحوهما :*

إن من الناس من يطلق لنظره العنان ، فينظر إلى ما حرم الله — عز وجل — من الصور الجميلة ونحوها ، وقد قسم شيخ الإسلام ابن تيمية — رحمه الله تعالى — النظر إلى مثل هذه الصور إلى ثلاثة أقسام .

قسم : تقترن به الشهوة فهو حرام بالاتفاق .

وقسم لا شهوة معه كنظر الرجل الورع إلى ابنه الحسن ، وابنته الحسناء ، وأمه الحسناء ، فهذا لا شهوة معه إلا أن يكون الرجل من أفجر الناس ، فإن اقترنت به الشهوة فهو حرام كسابقه .

وأما القسم الثالث : فهو النظر إلى الأجنبية ونحوها من المردان بغير شهوة ، فهذا اختلف فيه العلماء على قولين أرجحهما عدم الجواز .

أما كيف يكون هذا الأمر سبب من أسباب الشرك ؟ فقد بين ذلك — رحمه الله تعالى — بقوله : (النظر يولد المحبة ، فيكون علاقة لتعلق القلب بالمحبوب ، ثم صبابة لانصباب القلب إليه ، ثم غراماً للزومه للقلب ، كالغريم الملازم لغريمه ؛ ثم عشقاً ، إلى أن يصير تتيماً ، والمتيم المعبد ، وتيم الله عبد الله ، فيبقى القلب عبداً لمن لا يصلح أن يكون أخاً ولا خادماً .

---

(١) الهوى وأثره في الخلاف ١٥-١٦ . وانظر إلى كلام شيخ الإسلام ابن تيمية — رحمه الله تعالى — حول هذا في الشرك الأكبر — اتباع الهوى درجات ، وانظر الفتاوى ٥٩٢/١٠ . ٢٩٢/١٥-٢٩٣ .

وهذا إنما يبتلى به أهل الإعراض عن الإخلاص لله ، الذين فيهم نوع من الشرك ، وإلا فأهل الإخلاص كما قال الله تعالى في حق يوسف عليه السلام ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ [١] فامرأة العزيز كانت مشركة فوقعت مع تزوجها فيما وقعت فيه من السوء ، ويوسف عليه السلام مع عزوبته ومراودتها له ، واستعانتها عليه بالنسوة ، وعقوبتها له بالحبس على العفة عصمه الله بإخلاصه لله ، تحقيقاً لقوله : ﴿ لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ﴾[٢] قال تعالى : ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾[٣] والغي هو اتباع الهوى .

وهذا الباب من أعظم أبواب اتباع الهوى .

ومن أمر بعشق الصور من المتفلسفة ـ كابن سينا وذويه ، أو من الفرس ، كما يذكر عن بعضهم من جهال المتصوفة ـ فإنهم أهل ضلال ، فهم مع مشاركة اليهود في الغي والنصارى في الضلال زادوا على الأمتين في ذلك [٤] ، فإن هذا وإن ظن أن فيه منفعة للعاشق كتلطيف نفسه ، وتهذيب أخلاقه ، او للمعشوق من السعي في مصالحه ، وتعليمه وتأديبه ، وغير ذلك فمضرة ذلك أضعاف منفعته ، وأين إثم ذلك من نفعه ؟...

وليس بين أئمة الدين نزاع في أن هذا ليس بمستحب ، كما أنه ليس بواجب ، فمن جعله ممدوحاً وأثنى عليه فقد خرج عن إجماع المسلمين واليهود والنصارى ، بل وعما عليه عقلاء بنى آدم من جميع الأمم ، وهو ممن اتبع هواه بغير هدى من الله : ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾[٥]

---

(١) سورة يوسف ٢٤

(٢) سورة ص ٨٢-٨٣ .

(٣) سورة الحجر ٤٢ .

(٤) وزيادتهم في هذا تعبدهم به وقولهم إن في ذلك منافع .

(٥) سورة القصص ٥٠

وقال تعالى : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾[2] .

وأما من نظر إلى المردان ظاناً أنه ينظر إلى مظاهر الجمال الإلهي ، وجعل هذا طريقاً له إلى الله ، كما يفعله طوائف من المدعين المعرفة[3] ، فقوله هذا أعظم كفراً من قول عباد الأصنام ، ومن كفر قوم لوط ، فهؤلاء من شر الزنادقة المرتدين الذي يجب قتلهم بإجماع كل أمة ، فإن عباد الأصنام قالوا : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾[4] وهؤلاء يجعلون الله سبحانه موجوداً في نفس الأصنام ، وحالاً فيها ، فإنهم لا يريدون بظهوره وتجليه في المخلوقات أنها أدلة عليه ، وآيات له ، بل يريدون أنه سبحانه ظهر فيها ، وتجلى فيها ، ويشبهون ذلك بظهرو الماء في الصوفة والزبد في اللبن ، والزيت في الزيتون ، والدهن في السمسم ، ونحو ذلك مما يقتضي حلول نفس ذاته في مخلوقاته ، أو اتحاده بها ، فيقولون في جميع المخلوقات نظير ما قاله النصارى في المسيح خاصة . ثم يجعلون المردان مظاهر الجمال ، فيقرون هذا الشرك الأعظم طريقاً إلى إستحلال الفواحش ، بل إلى استحلال كل محرم ، كما قيل لأفضل مشايخهم التلمساني : إذا كان قولكم بأن الوجود واحد هو الحق ، فما الفرق بين أمي وأختي وبنتي حتى يكون هذا حلال وهذا حرام ؟ قال الجميع عندنا سواء ، لكن هؤلاء المحجوبون قالوا حرام فقلنا حرام عليكم .

---

(١) سورة النازعات ٤٠

(٢) سورة ص آية ٢٦ .

(٣) وهذا العمل دافعه الهوى والشهوة فحسب ، فانظر رحمك الله كيف جرَّت عليهم أهواؤهم الزندقة والردة عن دين الله ، لتعرف مدى خطورة هذا الأمر ، ومن هنا فإنه يجب على العبد أن يتعاهد نفسه ويردعها عن كل ما حرم الله وإن كانت تهواه نفسه وتسوقه إليه . قال تعالى : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هي المأوى ﴾ سورة النازعات ٤٠ .

(٤) سورة الزمر ٣ .

ومن هؤلاء الحلولة والاتحادية من يخص الحلول والاتحاد ببعض الأشخاص ، إنما ببعض الأنبياء كالمسيح ، أو ببعض الصحابة كقول الغالية في علي ، أو ببعض الشيوخ كالحلاجية ، أو ببعض الملوك ، أو ببعض الصور كصور المردان ، ويقول أحدهم : إنا أنظر إلى صفات خالقي ، وأشهدها في هذه الصورة . والكفر في هذا القول أبين من أن يخفى على من يؤمن با لله ورسوله ، ولو قال مثل هذا الكلام في نبي كريم لكان كافراً ، فكيف إذا قاله في صبي أمرد ؟ ! فقبح ا لله طائفة يكون معبودها من جنس موطوئها !!! .)[١]

فانظر بارك ا لله فيك إلى أي مدى وصل اتباع الهوى بأصحابه هؤلاء ومن شاكلهم ، حيث اتبعوا ما يهوون وما يشتهون ، حتى غلو في ذلك فجعلوه أمر مباحاً بل قربة من القرب التي يتقرب بها إلى ا لله ، مع أنه عين الشرك ، فلا حول ولا قوة إلا با لله العلي العظيم .

٢) *اتباع الهوى في المحبة :*

إن من أسباب الشرك وطرائقه أن يحب العبد محبوبه لغير ا لله ــ عز وجل ــ إذ أن المحبة عبادة من أجل العبادات كما تقدم ذكره ، ولذا فإن (من أحب شخصاً لهواه ، مثل أن يحبه لدنيا يصيبها منه ، أو لحاجة يقوم له بها ، أو لمال يتآكله به ، أو بعصبية فيه ، ونحو ذلك من الأشياء فهذه ليست محبة لله ؛ بل هذه محبة لهوى النفس ، وهذه المحبة هي التي توقع أصحابها في الكفر والفسوق والعصيان ، وما أكثر من يدعي حب مشائخ لله ، ولو كان يحبهم لله لأطاع ا لله الذي أحبهم لأجله ، فإن المحبوب لأجل غيره تكون محبته تابعة لمحبة ذلك الغير ، وكيف يحب شخصاً لله من لا يكون محباً لله ، وكيف يكون محباً لله من يكون معرضاً عن رسول ا لله ﷺ وسبيل ا لله ، وما أكثر من يحب شيوخاً أو ملوكاً أو غيرهم فيتخذهم أنداداً يحبهم كحب ا لله ...) [٢]

---

(١) الفتاوى ١٥/٤٢١-٤٢٤ . ٢١/٢٥٣-٢٥٦ ، وانظر ٢١/٢٤٥-٢٤٧ .

(٢) الفتاوى ١١/٥٢٠-٥٢١ . وانظر ١٠/٦٠٩ وما بعدها

وقد قال رسول الله ﷺ : في الحديث المتفق عليه : ((من كانت هجرة إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه ...)) الحديث [(١)] فبين ﷺ في هذا الحديث أن من الناس من يكون عمله ، وإن كان عمل قربة وعبادة قد يكون لغير الله ، وهذا لا نصيب له في الآخرة من هذا العمل . ومثله المحبة غير الشرعية ، كمحبة المال والرياسة ونحو ذلك ، فإن هذه المحبة تابعة لهواى العبد وشهوته ، فهو في الحقيقة إنما يتبع شهوته وهواه ، فيكون ممن قال الله فيهم : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم﴾[(٢)] .

ولقد وقع في هذه النوع من المحبة ـ محبة شهوة النفس وهواها ، واتّباعِ ذلك ، وتقديمه على محبة الله ورسوله المحبة الشرعية ـ كثير من النساك الذين يدعون الفناء في المحبة (والاصطلام في توحيد الربوبية حتى لا يستحسنوا حسنة ولا يستقبحوا سيئة ، ويجعلون هذا غاية السلوك .

وكذلك الذين يفرقون بين ما يستحسنونه ويستقبحونه ، ويحبونه ويكرهونه ، ويأمرون به وينهون عنه ، لكن بإرادتهم ومحبتهم وهواهم ؛ لا بالكتاب المنزل من عند الله ، كلا الطائفتين متبع لهواه بغير هدى من الله[(٣)] ، وكلا الطائفتين لم يحققوا شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمداً رسول الله ، فإن تحقيق الشهادة يقتضي أن لا يحب إلا لله ، ولا يبغض إلا لله ، ولا يوالي إلا لله ، ولا يعادي إلا لله ، وأن يحب ما يحبه الله ، ويبغض ما أبغضه ، ويأمر بما أمر الله به وينهى عما نهى الله عنه .. وهذه ملة ابراهيم عليه السلام وهذا هو الإسلام الذي بعث به جميع المرسلين .) [(٤)]

---

(١) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٢) سورة الجاثية ٢٣ .

(٣) وانظر الموافقات ٤/٢٢٣ .

(٤) الفتاوى ٨/٣٣٧ .

(والنفوس قد تدعي محبة ا لله وتكون في نفس الأمر محبة شرك تحب ما تهواه ، وقد أشركته في الحب مع ا لله ، وقد يخفى الهوى على النفس فإن حبك الشيء يعمي ويصم .

وهكذا الأعمال التي يظن الإنسان أنه يعملها لله وفي نفسه شرك قد خفي عليه وهو يعمله : إما لحب رياسة ، وإما لحب مال ، وإما لحب صورة ، ولهذا قالوا : يارسول ا لله ! الرجل يقاتل شجاعة وحمية ورياء فأي ذلك في سبيل ا لله ؟ فقال :

((من قاتل لتكون كلمة ا لله هي العليا فهو في سبيل ا لله .)) [1] .

[ولهذا] لما صار كثير من الصوفية النساك المتأخرين يدعون المحبة و لم يزنوها بميزان العلم والكتاب والسنة دخل فيها نوع من الشرك ، واتباع الإهواء ، وا لله قد جعل محبته موجبة لاتباعة رسوله ﷺ فقال : ﴿ قل إن كنتم تحبون ا لله فاتبعوني يحببكم ا لله ﴾[2] وهذا لأن الرسول ﷺ هو الذي يدعو إلى ما يحبه ا لله ، وليس شيء يدعو إليه الرسول ﷺ إلا وا لله يحبه ، فصار محبوب الرب ومدعو الرسول ﷺ متلازمين ، بل هذا هو هذا في ذاته ، وإن تنوعت الصفات .

فكل من ادعى أنه يحب ا لله و لم يتبع الرسول فقد كذب ، ليست محبته محبة لله وحده ، بل إن كان يحبه فهي محبة شرك ، فإنما يتبع ما يهواه ؛ كدعوى اليهود والنصارى محبة ا لله ، فإنهم لو أخلصوا له المحبة لم يحبوا إلا ما أحب ، فكانوا يتبعون الرسول ﷺ ، فلما أحبوا ما أبغض ا لله مع دعواهم حبه كانت محبتهم من جنس [محبة] المشركين .

وهكذا أهل البدع ، فمن قال : إنه من المريدين لله المحبين له ، وهو لا يقصد اتباع الرسول ﷺ والعمل بما أمر به ، وترك ما نهى عنه فمحبته فيها شوب من محبة المشركين واليهود والنصارى ، بحسب ما فيه من البدعة ، فإن البدع التي ليست

---

(١) تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

(٢) سورة ال عمران ٣١ .

مشروعة وليست مما دعا إليه الرسول ﷺ لا يحبها الله ،فإن الرسول دعا إلى كل ما يحبه الله فأمر بكل معروف ونهى عن كل منكر .) [١]

وبها يتضح من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ (.. أن المحبة تكون لما يتخذ إلهاً من دون الله ، وقد قال الله تعالى : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ﴾ فمن كان يعبد ما يهواه فقد اتخذ إلهه هواه ، فما هَوِيَهُ [فهو] إلهه ، فهو لا يتأله من يستحق التأله ، بل يتأله ما يهواه ، وهذا المتخذ إلهه هواه له محبة كمحبة المشركين لألهتهم ، ومحبة عُبَّادَ العجل له ، وهذه محبة مع الله لا محبة لله ، وهذه محبة أهل الشرك .) [٢]

وهذا ما يُبين أن الإعراض عن معرفة حقيقة المحبة وتتبع النفس في إراداتها ومقاصدها من أهم الأسباب التي يقع العبد بسببها في الشرك ؛ فإنه إن لم يوجه إرادته وقصده وإلا فإن المحبة سوف تكون سبباً دافعاً إلى الشرك .

وقد وضح شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ أن النبي ﷺ قد سمى الإنسان حارث وهمام[٣] ، (فهو دائم يهم ويعمل لكنه لا يعمل إلا ما يرجو نفعه أو دفع مضرته ، ولكن قد يكون الرجاء مبنياً على اعتقاد باطل إما في نفس المقصود فلا يكون نافعاً ولا ضاراً ، وإما في الوسيلة ، فلا تكون طريقاً إليه . وهذا جهل ، وقد يعلم أن هذا الشيء يضره ويفعله ، ويعلم أنه ينفعه ويتركه ؛ لأن ذلك العلم عارضه ما في نفسه من طلب لذة أخرى أو دفع ألم آخر جاهلاً ظالماً ...)[٤] حيث قدم ما يهواه ويحبه على ما فيه نفعه واستقامته وصلاحه ، فإن داعي الهوى والشهوة في النفس يقوى ويضعف

---

(١) الفتاوى ٣٥٩/٨-٣٦١ . انظر منهاج السنة ٣٣٠/٥-٣٣٣ .

(٢) الفتاوى ٣٥٩/٨ . وانظر ١٣٢/٢٨-١٣٣ .

(٣) كما جاء في حديث وهب الجشمي أنه صلى الله عليه وسلم قال : ((تسموا بأسماء الأنبياء ، وأحب الأسماء إلى الله : عبد الله وعبد الرحمن وأصدقها : حارث وهمام ، وأقبحها : حرب ومرة)) رواه أبو داود في كتاب الأدب (ح٤٩٥٠) وأحمد ٣٤٥/٤ . وصححه الألباني في سنن أبي داود .

(٤) الفتاوى ٣٢/٤ .

بحسب قوة داعي الخير وضعفه[1] ، فإذا انحرف العبد خلف هواه قاده إلى المهالك ، وهذا إنما يتم حينما يقدم العبد محبوبات نفسه التي فيها ضرره على محبوبات ربه التي فيها سعادته ونجاته ، وهذا نوع من الشرك ، لا سيما إذا قدم أمر شهوته وهواه على أمر ربه وما فيه رضاه . وهذا قد يكون شركاً أكبراً وقد يكون أصغراً بحسب فعل العبد وقصده . إلا أن (الهوى وحده لا يستقل بفعل السيئات إلا مع الجهل ، وإلا فصاحب الهوى إذا علم قطعاً أن ذلك يضره ضرراً راجحاً : انصرفت نفسه عنه بالطبع ، فإن الله تعالى جعل في النفس حباً لما ينفعها ، وبغضاً لما يضرها ، فلا تفعل ما تجزم بأنه يضرها ضرراً راجحاً ، بل متى فعلته كان لضعف العقل . ولهذا يوصف هذا بأنه عاقل ، وذو نهى ، وذو حجى .) [2]

ومن هنا يتضح لنا من بيان شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ لهذه المسألة أن من أعظم ما يسوق الإنسان إلى الشرك من حيث يدري أو قد لا يدري اتباع هواه ، وانجرافه لاهثاً خلف رغباته وشهواته وما تملي عليه نفسه .[3]

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

---

(١) ويدل على هذا قوله ﷺ : ((إن للشيطان لمة لابن آدم وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله ، فليحمد الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان ، ثم قرأ : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمرك بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً ﴾ [البقرة ٢٦٨] والحديث أخرجه الترمذي في تفسير القرآن (ح٢٩٨٨) عن عبد الله بن مسعود ـ ﷺ ـ وقال : هذا حديث حسن غريب لا نعلمه مرفوعاً إلا من حديث الأحوص .

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ : (لابد أن يُعْلم أن المبدأ في النفس وحركتها هم الملائكة أو الشياطين ، والشيطان يلقى التكذيب بالحق والآمر بالشر) الفتاوى ٣٥/٥

(فمبدأ العلم الحق والإرادة الصالحة من لمة الملك ، ومبدأ الاعتقاد الباطل والإرادة الفاسدة من لمة الشيطان ، قال الله تعالى : .. ﴿ إنما ذلك الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ [ال عمران ٧٥] وقال تعالى : ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ، فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه ﴾ [الأنفال ٤٨] ....) الفتاوى ٣٤/٤ . فدواعي الهوى غالباً تأتي الإرادات الفاسدة المقترنة بحب الشهواة ، والتي ينتج عنها تقديم الهوى على ما يحبه الله ويرضاه ، فتجد العبد يقدم محبوبات النفس وما تهواه على محبوبات الله وما يحبه ويرضاه وهذا نوع من الشرك .

(٢) الفتاوى ٢٨٩/١٤ .

(٣)للتوسع في هذه المسألة راجع أقسام الشرك ، في الباب الثاني .

المبحث الثاني :

طاعة العلماء والأمراء في معصية الله

طاعة العلماء والأمراء في معصية الله

سبق الكلام في الشرك الأكبر الحديث عن شرك الطاعة ، حيث اتضح فيه من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ وجوب طاعة الله ﷻ وطاعة رسوله ﷺ استقلالاً ، وأن طاعة من أوجب الله طاعته من العلماء والأمراء تابعة لطاعة الله ﷻ ولطاعة رسوله ﷺ ، فلا يطاع أحد منهم إذا خالف أمر الله أو أمر رسول ﷺ .

كما تبين أن من أمر بطاعة نفسه من دون الله ﷻ ، فقد طلب أن يتخذ نداً من دون الله ـ جل وعلا ـ .

كما ذكرت من كلامه ـ رحمه الله ـ أن هناك تلازماً بين شرك الطاعة وشرك العبادة ، فمن أوجب ما أوجبه متبوعه ، وحرم ما حرمه متبوعه ، وأحل ما أحله متبوعه ، مما يخالف دين الله وشرعه ، فقد اتخذه نداً وشريكاً في الطاعة والعبادة والتأله .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ (.. كل من وجبت طاعته من المخلوقين فإنما وجبت لأن ذلك طاعة لله تعالى ، فالرسل يبلغون عن الله أمره ، فمن أطاعهم فقد أطاع الله ، ومن بايعهم فقد بايع الله ، قال الله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ﴾ [١] وقال تعالى : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾[٢] وأولوا الأمر من أهل العلم وأهل الإمارة إنما تجب طاعتهم إذا أمروا بطاعة الله ورسوله ﷺ . قال ﷺ : في الحديث الصحيح : ((على المرء المسلم السمع

---

(١) سورة النساء ٦٤ .

(٢) سورة النساء ٨٠ .

والطاعة في عسره ويسره ومنشطه ومكره ، ما لم يؤمر بمعصية الله ، فإذا أمر بمعصية الله فلا سمع ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق))[١]...)[٢]

ومن هنا يتضح أن طاعة الله ورسوله واجبة على كل أحد ، فليس لأحد أن يخرج عن طاعته إلى طاعة غيره ؛ لأن من أطاع غير الله في معصية الله فقد اتخذه نداً لله وظهيراً أياً كان متبوعه ، سواء كان عادات قومه أو هواه ، أو شهوته ، أو شيخه أوأميره أو رئسه أو غير ذلك ، وسواء كانت طاعته لهم ناتجة عن تقليد أو محبة أو شهوة أو غيرها .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – (فمن اتبع دين آبائه وأسلافه لأجل العادة التي تعودها ، وترك اتباع الحق الذي يجب اتباعه : فهذا هو المقلد المذموم ، وهذه حال اليهود والنصارى ، بل أهل البدع والأهواء في هذه الأمة : الذين اتبعوا شيوخهم ورؤساءهم في غير الحق ، كما قال تعالى : ﴿ يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا . وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبرائنا فأضلونا السبيلاً ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً ﴾ [٣] وقال تعالى ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ، يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً ، لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان لإنسان خذولا.﴾[٤] وقال تعالى :﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ، وقال الذين ابتعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منها ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾[٥]

---

(١) رواه مسلم بنحوه في الأمارة (ح١٨٣٩) وأبو داود في الجهاد (ح٢٦٢٦) والترمذي في كتاب الجهاد (ح١٧٠٧) وابن ماجه في الجهاد (ح٢٨٦٤) .

(٢) الفتاوى ٣١٦/١ . وانظر ٣٢٣/٢٢ .

(٣) سورة الأحزاب ٦٨ .

(٤) سورة الفرقان ٢٧-٢٩ .

(٥) سورة البقرة ١٦٦ وما بعدها .

وقال ﷻ : ﴿ وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار ، قال الذين استكبروا إنا كلٌ فيها إن الله قد حكم بين العباد ﴾[1] وأمثال ذلك مما فيه بيان أن من أطاع مخلوقاً في معصية الله كان له نصيب من هذا الذم والعقاب .

والمطيع للمخلوق في معصية الله ورسوله إما أن يتبع الظن وإما أن يتبع ما يهواه ، أو يتبعهما .

وهذا حال كثير ممن عصى رسول الله ﷺ من المشركين وأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ومن أهل البدع والفجور من هذه الأمة ، كما قال تعالى : ﴿ إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾[2] ...

وبيان ذلك : أن الشخص إما أن يتبين له أن ما بعث الله به رسوله ﷺ حق ، ويعدل عن ذلك إلى اتباع هواه ، أو يحسب أن ما هو عليه من ترك ذلك هو الحق ، فهذا متبع للظن ، والأول متبع لهواه ...)[3] فالأول حاله حال اليهود المغضوب عليهم ، الذين يعرفون الحق ولا يتبعونه . والثاني : حاله حال النصارى الذين يعملون بغير علم . وقد يجتمع الأمران في شخص واحد .[4]

فكل من يخالف الرسول ﷺ فهو مقلد متبع لمن لا يجوز له اتباعه ، وكذلك من اتبع الرسول ﷺ بغير علم ولا بصيرة فهو مقلد لم يدخل الإيمان في قلبه ، كالذي يقال له في القبر : من ربك ؟ ما دينك ؟ من نبيك ؟ فيقول : هاه ، هاه لا أدري ،

---

(١) سورة الزمر ٤٧-٤٨ .

(٢) سورة النجم ٢٣

(٣) الفتاوى ٤/١٩٧-١٩٩ . وانظر درء التعارض ١/٢٧٢-٢٧٣ .

(٤) انظر نفس المصدر السابق .

سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته [١] وقد قال تعالى : ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ [٢] ، فمن لم يدخل الإيمان قلبه وكان مسلماً في الظاهر فهو من المقلدين المذمومين .

فتبين من هذا أن المقلد مذموم ، وهو من اتبع هوى من لا يجوز اتباعه ، كالذي يترك طاعة رسول الله ، ويتبع ساداته وكبرائه ، من أمراء أو مشايخ ، أو علماء ، أو يتبع غيرهم ، أو يتبع الرسول ﷺ ظاهراً من غير إيمان في قلبه . وعلى هذا فإن من أطاعهم في معصية الله فقد أشرك مع الله غيره [٣] .

قال تعالى : ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ، ولكن كونوا ربانين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ [٤] فبين سبحانه أن من اتخذ الملائكة والنبيين أرباباً فهو كافر . ومن اتخاذهم أرباباً طاعتهم في معصية الله ﷻ كما في حديث عدي بن حاتم أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم ﴾ [٥] فقلت لسنا نعبدهم ، قال : ((أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ، ويحلون ما حرم الله فتحلونه)) ؟ فقلت : بلى قال : ((فتلك عبادتهم)) [٦]

فكل من أطاع شيخه أو أميره أو إمامه أو غيره في تحليل ما حرم الله أو العكس فقد اتخذهم أرباباً . ومن ذلك ـ كما أشار إليه شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله

---

(١) رواه أبو داود في السنة (ح٤٧٥٣) وأحمد ٢٨٧/٤ وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود .

(٢) سورة الحجرات ١٤ .

(٣) انظر المصدر السابق ص ٢٠٠ .

(٤) سورة ال عمران ٨٠ .

(٥) سورة التوبة ٣١ .

(٦) تقدم تخريجه انظر الفهارس . وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ هو حديث حسن الفتاوى ٦٧/٧ .

تعالى ـ تقليد الأتباع لمتبوعيهم من الفقهاء والوجهاء ونحوهم ، فمن قدم قول إمامه أو شيخه مع علمه بمخالفة ذلك لقول الرسول ﷺ وأمره ونهيه فقد أطاعهم في معصية الله تبارك وتعالى . قال تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾(١) وقال سبحانه : ﴿ وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾ (٢) وهذا وقع لكثير من الناس مع من قلدوه ، لعدم اعتبارهم الدليل إذا خالف المقلد ، وهو من هذا الشرك العظيم والذنب الوخيم . (٣)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ في التعليق على الحديث : (قال أبو البختري : أما إنهم لم يصلوا لهم ، ولو أمروهم أن يعبدوهم من دون الله ما أطاعوهم ، ولكن أمروهم فجعلوا حلال الله حرامه ، وحرامه حلاله ، فأطاعوهم فكانت تلك الربوبية .

وقال الربيع بن أنس : قلت لأبي العالية : كيف كانت تلك الربوبية في بني اسرائيل ؟ قال : كانت الربوبية أنهم وجدوا في كتاب الله ما أمروا به ونهوا عنه ، فقالوا : لن نسبق أحبارنا بشيء ، فما أمرونا به أئتمرنا ، وما نهونا عنه انتهينا ، لقولهم فاستنصحوا الرجال ، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم .

فقد بين النبي ﷺ أن عبادتهم إياهم كانت في تحليل الحرام وتحريم الحلال لا أنهم صلو لهم وصاموا لهم ، ودعوهم من دون الله ، فهذه عبادة للرجال ، وتلك عبادة للأموال (٤)...

وقد ذكر الله ﷻ أن ذلك نوع من الشرك . قال تعالى : ﴿ لا إله

---

(١) سورة التوبة ٣١ .

(٢) سورة الأنعام ١٢١ .

(٣) انظر الفتاوى ٩٨/١-٩٩ . وانظر منهاج السنة ٤٧/١-٤٩ ، وإقتضاء الصراط المستقيم ٧٦/١ .

(٤) يقصد ـ رحمه الله ـ الذين يكنزون الذهب والفضة ولا يؤدون حق الله فيها هم داخلون في قوله ﷺ : ((تعس عبد الدينار ...)) الحديث ، وقد تقدم تخريجه انظر فهرس الأحاديث .

إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾[١] هذا من الظلم الذي بينه النبي ﷺ ، وهو داخل في قوله تعالى : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله ﴾ [٢] فإن هؤلاء والذين أمروهم بهذا هم جميعاً معذبون ، وقال : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾[٣] وإنما يخرج من هذا من عبد مع كراهته ؛ لأنْ يعبد ويطاع في معصية الله . فهم الذين سبقت لهم الحسنى ، كالمسيح والعزير وغيرهما فأولئك مبعدون .

وأما من رضي أن يعبد ويطاع في معصية الله فهو مستحق للوعيد ، ولو لم يأمر بذلك ، فكيف إذا أمر ؟! وكذلك من أمر غيره بأن يعبد غير الله ، وهذا من أزواجهم ، فإن أزواجهم قد يكونون رؤساء لهم ، وقد يكونون أتباعاً ، وهم أزواج وأشباه لتشابههم في الدين ، وسياق الآية يدل على ذلك [٤]...

وقوله في سياق الآية : ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ﴾ ولا ريب أنها تتناول الشركين الأصغر والأكبر ، وتتناول أيضاً من استكبر عما أمره الله به من طاعته ، فإن ذلك من تحقيق قول لا إله إلا الله ، فإن الإله هو المستحق للعبادة ، فكل ما يعبد به الله فهو من تمام تأله العبادة له ، فمن استكبر عن بعض عبادته سامعاً مطيعاً في ذلك لغيره ، لم يحقق قول لا إله إلا الله في هذا المقام .)[٥]

---

(١) وهذه تمام الآية التي تلاها النبي ﷺ على عدي بن حاتم ، قال تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾

(٢) سورة الصافات ٢٢ .

(٣) سورة الأنبياء ٩٨ .

(٤) يقصد ـ رحمه الله ـ قوله تعالى : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم ، وقفوهم إنهم مسؤولون ﴾ سورة الصافات ٢٢ .

(٥) الفتاوى ٧/٦٧-٧٠ .

حكم هؤلاء

وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحليل ما حرم الله ، هم على وجهين :

(أحدهما : أنهم يعلمون أنهم بدلوا دين الله فيتبعونهم على التبديل ، فيعتقدون تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل اتباعاً لرؤسائهم ، مع علمهم بأنهم خالفوا دين الرسول ﷺ ، فهذا كفر ، وقد جعله الله ورسوله شركاً ، وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم . فكان من اتبع غيره في خلاف الدين مع علمه أنه خلاف الدين ، واعتقد ما قاله الله ورسوله مشركاً مثل هؤلاء .

الثاني : أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال ، وتحليل الحرام ثابتاً ؛ لكنهم أطاعوهم في معصية الله ، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاص ، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : ((إنما الطاعة في المعروف)) [١] وقال : ((على المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية)) [٢] وقال : ((لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)) [٣] وقال : ((من أمركم بمعصية الله فلا تطيعوه)) [٤] .

ثم ذلك المحرم والمحلل إن كان مجتهداً قصده اتباع الرسول ﷺ لكن خفي عليه الحق في نفس الأمر ، وقد اتقى الله ما استطاع ؛ فهذا لا يؤاخذه الله بخطئه ، بل يثيبه على اجتهاده الذي أطاع به ربه ، ولكن من علم أن هذا خطئاً [ولم يرد] فيما جاء به الرسول ﷺ ثم اتبعه على خطئه ، وعدل عن قول الرسول ﷺ فهذا له نصيب من هذا الشرك الذي ذمه الله ، لا سيما إن اتبع في ذلك هواه ، ونصره باللسان واليد ؛ مع علمه بأنه مخالف للرسول ﷺ ؛ فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة .

---

(١) رواه البخاري في الأحكام (ح٧١٤٥) ومسلم في الأمارة (ح١٨٤٠) وأبو داود في الجهاد (ح٢٦٢٥) والنسائي في البيعة (٤٢٠٥) .

(٢) تقدم تخريجه قريباً انظر فهرس الأحاديث .

(٣) روى البخاري وغيره نحوه وقد تقدم انظر ص ، ولفظ البخاري عن عبدالله ﷺ عن النبي ﷺ قال : ((السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة))

(٤) رواه ابن ماجة في الجهاد (ح٢٨٦٣) وحسنه الألباني في صحيح السنن ، وفي الصحيحة (ح ٢٣٢٤) .

ولهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف الحق لا يجوز له تقليد أحد في خلافه ، وإنما تنازعوا في جواز التقليد للقادر على الاستدلال ، وإن كان عاجزاً عن إظهار الحق الذي يعلمه ، فهذا يكون كمن عرف أن دين الإسلام حق وهو بين النصارى ، فإذا فعل ما يقدر عليه من الحق لا يؤاخذ بما عجز عنه ، وهؤلاء كالنجاشي وغيره ...

وأما إن كان المتبع للمجتهد عاجزاً عن معرفة الحق على التفصيل ، وقد فعل ما يقدر عليه مثله من الاجتهاد في التقليد ، فهذا لا يؤاخذ إن أخطأ ، كما في القبلة .

وأما إن قلد شخصاً دون نظيره بمجرد هواه ، ونصره بيده ولسانه ، من غير علم أن الحق معه ، فهذا من أهل الجاهلية ، فإن كان متبوعه مصيباً لم يكن عمله صالحاً ، وإن كان متبوعه مخطئاً كان آثماً ، كمن قال بالقرآن برأيه ، فإن أصاب فقد أخطأ ، وإن أخطأ فليتبوأ مقعده من النار .) [1]

وعلى كلٍ فإن من طلب أن يطاع من دون الله فهذا حاله حال فرعون ، ومن طلب أن يطاع مع الله : فهذا يريد من الناس أن يتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والله سبحانه وتعالى أمر أن لا يعبد إلا إياه ، وأن لا يكون الدين إلا له ، وأن تكون الموالاة فيه ، والمعاداة فيه ، وأن لا يتوكل إلا عليه ولا يستعان إلا به . [2]

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ : (وليس لأحد أن ينصب للأمة شخصاً يدعو إلى طريقته ، ويوالي ويعادى عليها غير النبي ﷺ ، ولا ينصب لهم طلاماً يوالي عليه ويعادى غير كلام الله ورسوله ، وما أجمعت عليه الأمة ...)[3]

ومن هنا نستطيع القول بأنه اتضح من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ أن الطاعة في المعصية أمر محرم ، بل إن ذلك من وسائل الشرك وطرائقه ، وسبل الشيطان التي زينها لأتباعه وأولياء من شياطين الإنس والجن ، فكل من أطاع مخلوقاً فيما حرم الله فقد اتخذه رباً وإن لم يسجد له ويركع ؛ لأن الطاعة المطلقة لا تكون إلا لله الواحد القهار ، لكونها عبادة من أنواع العبادات الشرعية . إلا أن حكم هؤلاء بحسب حالهم كما تقدم ، والله تعالى أعلم .

---

(١) الفتاوى ٧/٦٧-٧٢ . وانظر ٢٢/٢٥٢-٢٥٣ ، وانظر درء التعارض ١/٢٧٢-٢٧٣ .

(٢) انظر الفتاوى ١٤/٣٢٨-٣٢٩ .

(٣) الفتاوى ٢٠/١٦٤ .

الخاتمة

الخاتمة

وبعد هذا فإني أحمد الله العلي القدير على توفيقه وامتنانه عليَّ بإكمال هذا البحث الذي أرجوا أن يكون لبنة في مسيرة الدعوة إلى الله على منهج السلف الصالح.

وألخص في نهاية هذا البحث أهم النتائج التي توصلت إليها وهي كالتالي :

١ ـ أن التوحيد الذي جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام قاطبة مبني على إخلاص التأله لله ﷻ والقصد والطلب . بخلاف ما يظنه بعض الفرق الحائدة عن الحق .

٢ ـ أن النصوص الشرعية ، بل وإجماع السلف دلت على أن التوحيد يشمل ثلاثة أمور هي : توحيد الله في الربوبية وفي الألوهية وفي الأسماء والصفات ، وأن هذا التقسيم ليس من ابتداع شيخ الإسلام ولا غيره ، كما أن هذا التنوع ليس من باب التضاد ؛ لأن هذه الأقسام لا يمكن أن ينفك بعضها عن بعض .

٣ ـ أن الإله معناه في اللغة والاصطلاح الشرعي : المألوه ، المعبود ، المقصود بالتوجه والإنابة والتوكل والإذعان وغير ذلك من أنواع العبادة ، فهو الذي تألهه القلوب محبة وإنابة وتوكلاً ، بخلاف ما عليه كثير من المسلمين من اعتقادهم أن معنى الإله هو القادر على الاختراع فقط .

٤ ـ أن المؤمنين يتفاوتون في تحقيقهم للتوحيد ، وذلك حسب ما قام في قلوبهم وظهر على أفعالهم من الاتيان بأصل التوحيد وتحقيق كمالاته .

٥ ـ كيفية التوحيد تتلخص في تخليصه من شوائب الشرك والبدع والمعاصي ؛ بل وبالبعد عن كل مكروه والعمل بكل مستحب .

٦ ـ أن تحقيق التوحيد له دواعي تعين على تحقيقه ، كما أنه له قوادح تقدح في ذلك ؛ ومن تلك القوادح ما يقدح في أصله ، ومنها ما يقدح في كماله سواء الواجب أو المستحب .

٧ ـ جعل الله لمحققي التوحيد منزلة عالية ينالون بها الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة ، لا يحصل عليها سواهم ، وأكمل أولئك منزلة وأعلاهم هو سيدنا محمد ﷺ .

٨ ـ توحيد العبادة هو مدار الدين ؛ الذي بعث به جميع الرسل ، إلا أن كثيراً من العباد قد ضلوا عنه .

العبادة هي الذل والخضوع والمحبة التامة للمعبود ، وترتكز على ثلاثة أمور : عابد ومعبود وعبادة . ويشترط في كل منها شروط ، فشروط العابد هي شروط التكليف وشروط المعبود : أن يكون مالكاً للضر والنفع ، إلهاً ظاهراً وباطناً . والعبادة يشترط فيه أن تكون خالصة لله ﷻ موافقه لشرعه وما جاء به رسوله ﷺ .

١ ـ أنواع العبادة الشرعية عديدة يمكن حصرها في الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة ، المحبوبة المرضية من قبل رب البرية . وهذه العبادات تتفاوت من حيث الوجود والاستحباب ، ولذالك يتفاوت أهلها في العبودية لرب العالمين .

٢ ـ توحيد العبادة من أهم المهمات ، ومن أوجب الواجبات ، ولا أدل على ذلك من كون العباد خلقوا من أجله ؛ بل إن النجاة في الدنيا والآخرة متوقفة على الإتيان به على الوجه الصحيح .

٣ ـ لا يمكن أن يحقق العبد التوحيد كمال التحقيق حتى يعرف ضده من الشرك ونحوه ، إذ أن العبد قد يقع في الشرك من حيث لا يعلم أنه شرك ، وعلى أقل الأحوال أنه إذا رآه لاينكره لأنه لا يعرف أنه مناقض للتوحيد .

٤ ـ كما أن العبادة أنواع فكذلك الشرك أنواع ،منه ما يتعلق بالجنان ، ومنه ما يتعلق باللسان ، ومنه ما يتعلق بالجوارح .

٥ ـ جاء الإسلام لحماية التوحيد وسد جميع أبواب الشرك الموصلة إليه ، وذلك بالتحذير من أمور منها :

أ) اتخاذ القبور مساجد ، وتتبع الآثار ، بالدعاء أو الصلاة أوالنذر

عندها ، أو إليها أو صرف أي نوع من أنواع العبادة عندها ، أو قصدها بسفر ، أو غير ذلك .

ب) ومنها الغلو في الأنبياء والصالحين أو غيرهم .

ج) التوسل أو الاستشفاع بالأنبياء أو الصالحين ، أو من يظن به ذلك ، يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله ، سواء كان التوسل بالذوات أو بالأشخاص أو بالجاه أو غير ذلك .

د) اتباع الهوى أو طاعة الرؤساء من العلماء أو الأمراء أو غيرهم في معصية الله ﷻ.

هذا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلى على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

الفهارس

فهـــــــــــرس الأحـــــــــــاديث

فهرس الإعلام المترجم لهم

فهـــــــــــــــرس المراجـــــــــــــــع

- أخبار القضاة لوكيع محمد بن خلف بن حيان المتوفى عام ٣٠٦هـ ط/ عالم الكتب بيروت لبنان .
- الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية ، تأليف الحافظ عمر بن علي البزار المتوفى سنة ٧٤٩هـ تحقيق زهير الشاويش ، ط/ المكتب الإسلامي .
- الأعلام لخير الدين الزركلي ، ط/ دار العلم للملايين ، بيروت ـ لبنان . الطبعة الثامنة ١٩٨٩م .
- أمراض القلوب وشفائها ، تقديم د/ محمود مطرجي ، ط/ الأولى دار القلم ـ بيروت ـ لبنان .
- أوراق مجموعة من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية ، لمحمد بن ابراهيم الشيباني ، ط/ مكتبة ابن تيمية بالكويت .
- الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية .. للإمام أبي عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري الحنبلي المتوفى سنة ٣٨٧هـ تحقيق د/ يوسف الوابل ، ط/ دار الراية ١٤١٥هـ .
- الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ، للأمير علاء الدين على الفارسي المتوفى عام ٧٣٩هـ الطبعة الأولى بمطبعة دار الكتب العلمية ببيروت لعام ١٣٠٧هـ
- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل ، تأليف محمد بن ناصر الدين الألباني ، ط/ المكتب الإسلامي ١٤٠٥هـ .
- الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني المتوفى عام ٨٥٢هـ تحقيق علي محمد البجاوي ط/ دارنهضة مصر .
- الإعتصام للإمام أبي اسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد الشاطبي ، ط/ دار المعرفة ١٤٠٥هـ.
- إعلام الموقعين عن رب العالمين ، لشيخ الإسلام شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم ، المتوفى عام ٧٥١هـ ط/ مكتبة الكليات الأزهرية ، مراجعة طه عبد الرؤوف سعيد .١٣٨٨هـ .
- اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ، لشيخ الإسلام ابن القيم ، ط/ المكتبة السلفية بالمدينة النبوية .

- الاستقامة ، تحقيق د/ محمد رشاد سالم ط/ جامعة الإمام محمد بن سعود ١٤٠٤هـ.
- اقتضاء الصراط المستقيم / لشيخ الإسلام ابن تيمة / تحقيق د/ ناصر العقل ، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ .
- بدائع التفسير الجامع لتفسير ابن القيم ، جمع يسري السيد محمد ، ط/ دار ابن الجوزي ، الدمام ١٤١٤هـ .
- البداية والنهايية ، تأليف أبي الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤هـ ، تحقيق دكتور أحمد أبو ملحم ، ود/ علي نجيب عطوري ورفاقهما .ط/ دار الكتب العلمية ، بيروت .
- بيان تلبيس الجهمية ، تصحيح محمد بن عبد الرحمن بن قاسم ، مطابع الحكومة السعودية بمكة المكرمة ١٣٩٢هـ .
- تاج العروس من جواهر القاموس ، للسيد متضى الحسيني الزبيدي ، تحقيق عبدالكريم الفرياوي ط حكومة الكويت ١٣٨٦هـ
- تاريخ ابن الوردي ، لزين الدين عمر بن الوردي ، تحقيق أحمد رفعت البدرواوي ، ك/ دار المعرفة ١٣٨٩هـ .
- تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد /للألباني ط/المكتب الإسلامي ١٣٩٢هـ بيروت لبنان .
- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ، للإمام الحافظ / أبي العلي محمد عبد الرحمن بن عبد المباركفوري ، المتوفى سنة ١٢٨٣هـ ، راجع أصوله صححه عبد الرحمن محم عثمان ، ط/ مؤسسة قرطبة ، مصر ، الطبعة الثالثة .
- التحفة العراقية في الأعمال القلبية ، تقديم / محمود مطرجي ، ط/ الأولى دار القلم — بيروت لبنان .
- تخريج أحاديث مشلكة الفقر وكيف علاجها في الإسلام ، تأليف محمد بن ناصر الدين الألباني ، ط/ المكتب الإسلامي ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ وأصل الكتاب محاضرة للقرضاوي .
- تفسير الطبري ، جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ، المتوفى عام ٣١٠هـ ، تحقيق محمود محمد شاكر ، ومراجعة وتخريج أحمد شاكر .ط/ ابن تيمية القاهرة .

- تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير تحقيق محمد ابراهيم البنا ، ومحمد أحمد عاشور ، وعبدالعزيز غنيم : ط دار الشعب بمصر .
- تفسير سورة الإخلاص ، مراجعة وتعليق د/ عبد العلي عبد الحميد حامد . ط/ دار الريان للتراث ١٤٠٨هـ .
- تقريب التهذيب للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفى عام ٨٥٢هـ ، تحقيق محمد عوامه ط/ دار الرشد حلب ، الطبعة الأولى .
- التكملة والصلة لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية ، تأليف الحسن بن محمد بن الحسن الصنعاني المتوفى ٦٥٠هـ تحقيق عبدا لله الطحاوي ، ط دار الكتب العلمية ١٩٧٠هـ .
- تلخيص الاستغاثة ، المعروف بالرد على البكري ، معه كتاب الرد على الأخنائي / لشيخ الإسلام ابن تيمية ، ط/ الدار العلمية للطباعة والنشر والتوزيع ، موري كيك — دلهي - الهند .١٤٠٥هـ
- تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري المتوفى عام ٣٧٠هـ ، تحقيق أ/ عبدالعظيم محمدود ، أ/ محمد علي النجار ، ط الدار المصرية للتأليف والترجمة .
- التوسل أنواعه وأحكامه ، للشيخ محمد بن ناصر الدين الألباني ، بحوث آلف بينها ونسقها محمد عيد العباسي ، ط/ الثانية .
- تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ، للشيخ سليمان بن عبد ا لله بن محمد بن عبد الوهاب ، المتوفى عام ١٢٣٣هـ ، ط/ المكتب الإسلامي بيروت ، الطبعة الخامسة.
- الجامع الصحيح للإمام محمد بن اسماعيل البخاري ، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ، ط المكتبة السلفية .
- الجامع الصغير من حديث البشير النذير ، لجلال الدين السيوطي المتوفى ٩١١هـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط/ الحلبوني دمشق .
- جامع العلوم والحكم في شرع خمسين حديثاً من جوامع الكلم ، لزين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين بن رجب الحنبلي ، تحقيق / شعيب الأرناووط ، وإبراهيم باحبس ط/ مؤسسة الرسالة ـ ١٤١٢هـ .

- الجـامع لأحكـام القـرآن لأبـي عبـد الله محمـد بـن أحمـد النصـاري القرطـبي ، ط / دار الكتـب المصريـة الطبعـة الثانيـة عـام ١٣٧٣هـ .
- الجـامع لشعب الإيمـان ، للإمـام الحـافظ أبي بكـر البيهقـي المتوفـى عـام ٤٥٨هـ ، تحقيـق عبـد العلي عبـد الحميـد حـامد ، ط / دار الريـان للـتراث الطبـة الأولى .
- جلاء العينين في محاكمـة الأحمدين / تـأليف السيد نعمـان خير الديـن الألوسـي البغـدادي ، ط/ دار الكتـب العلميـة ـ بـيروت لبنـان .
- الجـواب البـاهر في زوار المقـابر / قـدم لـه د/ محمـود مطرجـي . ط/ دار القلـم . بـيروت لبنـان .١٤٠٦هـ .
- الجـواب الصحيـح لمـن بـدل ديـن المسيح ، ط/ دار المجـد .
- الجـواب الصحيـح لمـن بـدل ديـن المسيح ، لشيخ الإسـلام أحمـد بـن عبـد الحليـم بـن تيميـة ، / ط المجـد التجاريـة .
- الجواب الكافي لمـن سـأل عـن الـدواء الشـافي / تحقيـق بشـير عـون / ط المؤيـد دمشـق .
- حاشية ابـن قاسـم على كتـاب التوحيـد للشيخ : عبـد الرحمـن بـن محمـد بـن قاسـم النجدي . ط/ دار العربيـة بـيروت الطبعـة الثانيـة ١٤٠٣ هـ .
- الحجـج العقليـة والنقليـة فيمـا ينـافي الإسـلام مـن بـدع الجهميـة والصوفيـة ٢/٢٨٦-٣٦١ .
- حقيقـة مذهـب الاتحـاديين ووحـدة الوجـود ٢/١٣٤-٢٨٥ .
- الـدر النضيـد في تخريـج كتـاب التوحيـد ، بقلـم صـالح بـن عبـد الله العصيمـي ، ط/ دار ابـن خزيمـة .
- درء تعـارض العقـل والنقـل ، لشيخ الإسـلام أحمدبـن عبـد الحليـم بـن تيميـة ، ط / جامعـة الإمـام محمـد بـن سـعود الإسـلامية ، الطبعـة الأولى ١٣٩٩هـ .
- الـدرر السـنية في الأجوبـة النجدية ، جمـع الشيخ عبـد الرحمـن بـن محمـد بـن قاسـم النجـدي، المتوفـى ١٣٩٢ هـ .
- الـدرر الكامنـة في أعيـان المائـة الثامنـة ، تـأليف الحـافظ بـن حجـر العسـقلاني ، ط/ مجلـس دائرة المعارف العثمانيـة ، بحيـدر أبـاد ـ الهنـد . الطبعـة الثانيـة ١٣٩٦هـ .
- دلائـل النبـوة ومعرفـة أحـوال الشريعة ، لأبـي بكـر أحمـد بـن الحسـين البيهقـي ، تحقيـق ، د/ عبـد المعطـي قلعـة جـي ، ط/ دار الكتـب العلميـة ببـيروت الطبعـة الأولى لعـام ١٤٠٥هـ .

● الذيل على طبقات الحنابلة ، للحافظ الفقيه زين الدين أبي الفرج عبدالرحمن بن شهاب الدين الحنبلي ، المتوفى عام ٧٩٥هـ . ط/ دار المعرفة ، بيروت لبنان .
● ذيول العبر في خبر من غبر للحافظ الإمام الذهبي المتوفى ٧٤٨ هـ . تحقيق أبو هاجر محمد العسيد بسيوني زغلول . ط/ دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان .
● رجال الفكر والدعوة في الأسلام ، حياة شيخ الإسلام ابن تيمية ، تأليف أبو الحسن علي الحسني الندوي ، ط/ دار القلم بالكويت . ١٤٠٧هـ .
● الرد الأقوم على ما في فصوص الحكم ٢/٣٦٢-٤٥١ .
● الرد الواف على من زعم بأن من سمى شيخ الإسلام ابن تيمية كافر ، تأليف / ابن ناصر الدين الدمشقي أبي بكر الشافعي ، تحقيق زهير الشاويش ، ط/ المكتب الإسلامي ١٤١١هـ .
● الرد على الأخنائي ، واستحباب زيارة خير البرية ، الزيارة الشرعية ، تحقيق الشيخ : عبد الرحمن بن يحي المعلمي اليماني ، ط/ الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد . ١٤٠٤هـ .
● الرد على الزنادقة ، للإمام أحمد بن حنبل الشيباني ، تحقيق الفقي ، ط/ السنة المحمدية.
● الرسالة التدمرية ٣/١-١٢٨ .
● سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ محمد بن ناصر الدين الألباني ، ط/ المكتب الإسلامي ، بيروت .
● سلسلة الأحاديث الضعيفة للشيخ ناصر الدين الأباني ، ط/ مكتبة المعارف الرياض الطبعة الرابعة . ١٤٠٨هـ
● سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ، تأليف عبد الملك بن حسين العصامي المكي ، المتوفى ١١١١هـ . ط/ المطبعة السلفية ، ومكتبتها بمصر .
● السنة لأبي بكر أحمد الخلال ، ط/ دار الراية ، تحقيق د/ عطية الزهراني ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ .
● سنن أبي داود للحافظ أبي داوود سليمان السجستاني الأزدي ، تحقيق وترقيم محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط/ دار إحياء التراث العربي .

- سنن ابن ماجة للحافظ محمد ابن عبدا لله القزويني ابن ماجة المتوفى ٣٧٥هـ ، تحقيق وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي .
- سنن الدارمي للحافظ أبو محمد عبدا لله بن عبد الرحمن الدارمي المتوفى عام ٢٥٥هـ ، ترقيم علمي ، وزمرلي .
- السنن الكبرى للحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهيق ، المتوفى سنة ٤٥٨هـ ط/ دار المعرفة ـ بيروت . الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ .
- سنن النسائي ، للحافظ أحمد بن شعيب بن علي النسائي المتوفى عام ٣٠٣هـ تحقيق وترقيم أبي غدة .
- سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي ، ط/ مؤسة الرسالة ، الطبعة الأولى .
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، للمؤرخ أبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي ، المتوفى عام ١٠٨٩هـ ، ط/ دار الفكر ، نشر وتوزيع دار الباز بمكة المكرمة .
- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ، للإمام أبي القاسم هبة ا لله بن الحسن بن منصور اللالكائي المتوفى ٤١٨هـ تحقيق د/ أحمد بن سعد الغامدي ، الناشر ، دار طيبة الرياض.
- شرح السنة لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي المتوفى ٥١٦هـ تحقيق شعيب الأرواوط الطبعة الأولى دار المكتب الإسلامي .
- شرح الطحاوية لأبي العز الأذرعي الحنفي ، تخريج محمد بن ناصر الدين الألباني ، ط/ دار المكتب الإسلامي ، بيروت .
- الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ، للقاضي عياض بن موسى اليحصبي ، ط/
- شيخ الإسلام سيريته وأخباره عند المؤرخين ، نصوص مخطوطة ومطبوعة جمعها د/ صلاح الدين المنجد ، ط/ دار الكتاب الجديد بيروت لبنان . الطبعة الأولى لعام ١٩٧٦م .
- الصارم المسلول على شاتم الرسول / لشيخ الإسلام ابن تيمة ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط/ عالم الكتب ، بيروت لبنان .١٤٠٣هـ .
- الصارم المنكي في الرد على السبكي ، تأليف أبي عبد ا لله محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي المقدسي ، المتوفى عام ٧٤٤هـ . صححه وقابله ، الشيخ اسماعيل

الأنصاري ، ط/ الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والدعوة والإفتاء ، الرياض ، ١٤٠٣هـ .

- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، تأليف اسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطا ، ط/ ١٤٠٢ هـ الشربتلي .
- صحيح الأدب المفرد ، بقلم الشيخ / محمد بن ناصر الدين الألباني / ط/ دار الصديق — الجبيل — ١٤١٥هـ .
- صحيح الجامع الصغير وزيادته ، تأليف الشيخ محمد بن ناصر الدين الألباني ، ط/ المكتب الإسلامي ١٤٠٦ هـ .
- صحيح سنن أبي داود للشيخ محمد بن ناصر الدين الألباني الناشر / مكتب التربية العربي لدولي الخليج ، ط/ المكتب الإسلامي . ١٤٠٩هـ .
- صحيح سنن ابن ماجه للشيخ محمد بن ناصر الدين الألباني الناشر / مكتب التربية العربي لدولي الخليج ، ط/ المكتب الإسلامي . ١٤٠٩هـ .
- صحيح سنن النسائي للشيخ محمد بن ناصر الدين الألباني الناشر / مكتب التربية العربي لدولي الخليج ، ط/ المكتب الإسلامي . ١٤٠٩هـ .
- صحيح مسلم تحقيق وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ط/ دار إحياء التراث العربي فيصل الحلبي .
- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم ، تحقيق د/ علي الدخيل الله ، ط/ دار العاصمة الرياض ١٤٠٨هـ .
- ضعيف الأدب المفرد ، بقلم الشيخ / محمد بن ناصر الدين الألباني / ط/ دار الصديق — الجبيل — ١٤١٥هـ .
- ضعيف الجامع للشيخ محمد بن ناصر الدين الألباني ، ط/ المكتب الإسلامي ، الثانية .
- طبقات الأولياء ، لابن الملقن ، تحقيق نور الدين شريبه ، ط/ مكتبة الخانجي القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٩٣ هـ .
- الطبقات الكبرى للشعراني ، تأليف عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني ، ط/ دار الجيل — بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ .

● طريـق الهجرتـين وبـاب السـعادتين / لشـمس الديـن عبـد ا لله بـن محمـد بـن أبـي بكـر المعروف بن القيم ، تحقيـق عمـر بـن عمـر بـن محمـود أبـو عمـر ، ط/ دار ابـن القيـم .

● العقود الدرية من منـاقب شيخ الإسـلام أحمـد بـن تيميـة ، تـأليف : محمـد بـن أحمـد بـن عبـد الهادي الحنبلـي ، تقديـم علـي صبـح المدنـي ، ط/ المدنـي ــ مصـر .

● العقيـدة الواسـطية ٣/١٦٠-١٩٣ .

● عمدة التفسـير عـن الحـافظ بـن كثير ، اختصـار وتحقيـق أحمـد شـاكر .

● الفتـاوى الكـبرى المشـهورة بالفتـاوى المصريـة ، تحقيـق وتعليـق / محمـد عبـد القـادر عطـا ، ومصطفـى عبـد القـادر عطـا . ط/ دار الكتـب العلميـة ١٤٠٨ هـــ .

● فتـح البـاري في شـرح صحيـح البخـاري ، للحـافظ بـن حجـر العسـقلاني ، ط/ [السـلفية] دار الفكر بـيروت لبنـان . ترقيـم محمـد فـؤاد عبـد البـاقي .

● الفرقـان بـين أوليـاء الرحمـن وأوليـاء الشـيطان ، لشـيخ الإسـلام أحمـد بـن عبـد الحليـم بـن تيميـة.

● فضـل الصـلاة علـى النبي ﷺ لإسمـاعيل بـن اسـحاق الجهضمـي القـاضي المـالكي ، المتوفـى سـنة ٢٨٢هــ ، تحقيـق محمـد بـن نـاصر الديـن الألبـاني ، ط/ المكتـب الإسـلامي ١٣٩٧هــ.

● قاعدة جليلـة في التوسـل والوسـيلة ١/١٤٢ـــ١٦٨ .

● قاعدة في أهـل السـنة والجماعـة ٣/٢٧٨-٢٩٢ .

● قاعدة في التوكـل ، لشـيخ الإسـلام ابـن تيميـة ، تحقيـق علـي بـن عبـد العزيـز الشـبل ، ط/ دار الصميعـي للنشـر والتوزيـع ١٤١٦هـــ .

● قـاعدة في المحبـة ، تحقيـق د/ محمـد رشـاد سـالم ، ط/ مكتبـة الـتراث الإسـلامي ، زغلـول ــ القـاهرة .

● قـاعدة في توحيـد الأولهيـة ١/٢٠-٣٦

● القـول السـديد في الـرد علـى مـن أنكـر تقسـيم التوحيـد ، تـأليف د/ عبـد الـرزاق العبـاد البـدر ، ط / مكتبـة الغربـاء بالمدينـة النبويـة ١٤١٤هـــ .

● القـول السـديد في مقـاصد التوحيـد ، للشـيخ عبـد الرحمـن بـن نـاصر السـعدي ، توزيـع إدارة البحـوث العلميـة والدعـوة والإفتـاء والإرشـاد بالمملكـة العربيـة السـعودية .

- كتـاب التوحيـد للحـافظ أبي عبـد الله محمـد بـن اسـحاق بـن منـدة ، تحقيـق د/ علـي بـن ناصر الفقيهـي ، ط/ الجامعـة الإسـلامية ، مركـز الدعـوة . الطبعـة الأولى .
- كتـاب الزهـد للإمـام وكيـع بـن الجـراح تحقيـق عبـد الرحمـن عبـد الجبـار الفـيرواني ، ط/ مكتبة الـدار بالمدينـة المنـورة .
- كتـاب السـنة للحـافظ أبي بكـر عمـرو بـن أبي عـاصم الشـيباني المتوفى عـام ٢٨٧هــ ومعه ظلـل الجنـة في تخريـج السـنة بقلـم ، الشـيخ محمـد نـاصر الديـن الألبـاني ، ط/ المكتـب الإسـلامي ١٤٠٥هـــ .
- كتـاب الصفديـة ، تحقيـق محمـد رشـاد سـالم ، ١٤٠٦هــ .
- كتـاب العـين لابـي عبـد الرحمـن الخليـل بـن أحمـد الفراهيـدي المتوفى سـنة ١٧٥هــ تحقيـق د/ فهـد المخزومـي ، وإبراهيـم السـامرائي ، منشـروات الأعظمـــي للمطبوعـــات ، بـــيروت ١٤٠٨هـــ .
- كشـف الظنـون عـن أسمـاء الكتـب والفنـون ، لحـاجي خليفـة المتوفى سـنة ١٠٦٧هــ مكتبـة ابن تيميـة . مصـور
- الكليـات معجـم في المصطلحـات والفـروق اللغويـة ، لأبـي البقـاء أيـوب بـن موسـى الحسـنين الكفـوي المتـوفي عـام ١٠٤٩هــ تحقيـق ومقابلـة د/ عدنـان درويـش ، محمـد المصـري . ط/ مؤسسـة الرسـالة ١٤٠٢ هــ .
- الكواشـف الجليـة عـن معـاني الواسـطية ، تـأليف عبـد العزيـز المحمـد السـلمان ، الطبعـة العاشـرة ــ شـركة الراجحـي .١٤٠١هــ .
- الكواكـب الدريـة في مناقـب المجتهـد ابـن تيميـة ، تـأليف الإمـام مرعـي بـن يـوس الكرمـي الحنبلـي المتوفـى سـنة ١٠٣٣هــ ، تحقيـق نجـم عبـد الرحمـن خلـف . ط/ دار الغـرب الإسـلامي.١٤٠٦ هــ .
- لسـان العـرب لأبي الفضـل جمـال الديـن محمـد بـن مكـرم بـن منظـور الإفريقـي ، المصـرري، ط/ دار الفكـر .
- لسـان الميزان ، للإمـام الحـافظ شـهاب الديـن أبـي الفضـل أحمـد بـن علـي بـن حجـر العسـقلاني المتـوف سـنة ٨٥٢هـــ ، منشـورات مؤسسـة الأعلمـي للمطبوعـات بـيروت لبنـان . ١٤٠٦هــ

● مجمع الزوائد للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي المتوفى سنة ٨٠٧هـ بتحرير الحافظين العرقي وابن حجر ، ط/ مؤسسة المعارف بيروت .

● مجمل اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا اللغوي المتوفى عام ٣٩٥هـ ، تحقيق زهير عب المحسن سلطان ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة بيروت لبنان ١٤٠٤هـ .

● مجموعة الرسائل والمسائل ، دار الكتب العلمية .بيروت ــ لبنان .

● المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، للقاضي أبي محمد بن عبد الحق غالب بن عطية الأندلسي ، تحقيق عبد السلام عبد الشافي ، ط/ دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٣هـ.

● مدارج السالكين للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية ، تعليق الفقي ، ط/ دار الكتب العلمية .

● المستدرك على الصحيحين للحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري ، ط/ دار المعرفة مع التلخيص للحافظ ابن الذهبي .

● مسند أبي يعلي الموصلي ، تصنيف الإمام أحمد بن علي المثنى التميمي ، التوفى عام ٣٠٧هـ ، تحقيق حسن يليم أسد ، ط/ المأمون للتراث الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ .

● مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ، تحقيق ، أحمد شاكر ، ط/ دار المعارف بمصر ، ١٣٧٥هـ .

● مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ، مع منتخب كنز العمال ، ط/ دار الكتب العلمية الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ

● مسند الإمام أحمد ضمن الموسوعة الحديثية /تحقيق مجموعة من الباحثين ، ط/ مؤسسة الرسالة ــ بيروت

● المصنف لعبد الرزاق ، للحافظ أبي بكر عبد الرزاق بن عمام الصنعاني المتوفى ٢١١هـ، ط/ دار القلم ، منشورات المجلس العلمي ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ١٣٩٠هـ .

● معارج القبول بشرح سلم الوصول إلىعلم الأصول ، تأليف الشيخ حافظ بن أحمد حكمي ، ط/ المطبعة السلفية ومكتبتها ــ مصر .

● المعجـزة والكرامـة لشيخ الإسـلام ابــن تيميــة ، ط/ دار الكتــب العلميــة ١٤٠٥هـــ تحقيــق عبد القــادر عطـا .

● المعجـم الأوسـط للطـبراني تحقيـق محمـود الطحـان ، ط/ مكتبـة المعـارف ، الريــاض.

● معجـم البلـدان ، للإمـام شـهاد الدين أبي عبـد الله بـن يـاقوت بـن عبـــدا لله الحمـــوي ، ط/ دار الكتـاب العربـي ، بـيروت ــ لبنـان .

● المعجـم الصغـير للطـبراني الحـافظ أبي القاسـم سـليمان بـن أحمـد المتوفـى سـنة ٣٦٠هـ ومعـه رسـلة غينـة الألمعـي ، ط/ دار الكتـب العلميـة . بـيروت ــ لبنـان .

● المعجـم الكبـير للحـافظ أبي القاسـم سـليمان بـن أحمـد الطـبراني ، المتوفـى ٣٦٠هـــ تحقيـق وتخريـج ، حمـدي عبـد الحميـد السـلفي ، نشـر وزارة الأوقـاف والشـؤون الدينيـة بـالعراق .

● معجـم المنـاهي اللفظيـة ، بقلـم بكـر بـن عبـد الله أبـو زيـد . ط/ دار ابـن الجـوزي للنشـر والتوزيـع . الطبعـة الأولى ١٤١٠هـــ .

● المعجـم الوسـيط / إخـراج الدكتـور ابراهيـم أنيـس وزمـلاؤه ، مجمـع اللغـة العربيـة ط/المكتبـة الإسـلامية اسـتنطول تركيـا ، أشـرف عليـه : عبـد السـلام هـارون .

● معجـم مقـاييس اللغـة لأبي الحسـن أحمـد بـن فـارس بـن زكريـا المتوفـى ٣٩٥هـــ ، تحقيـق عبـد السـلام هـارون ، الطبعـة الثانيـة لعـام ١٣٩١هــ ، ط / الحلـبي بمصـر .

● المغـني لموفـق الديـن أبي محمـد عبـد الله بـن أحمـد بـن محمـد بـن قدامـة المقدسـي الحنبلـي ، المتوفـى عـام ٦٢٠هــ ، تحقيـق د/ عبـد الله بـن عبـد المحسـن الـتركي ، د/ عبـد الفتـاح محمـد الحلـو ، ط: هجـر للنشـر والتوزيـع ، الطبعـة الأولى .

● مفتـاح دار السـعادة ، للإمـام أبي عبـد الله محمـد بـن أبي بكـر الدمشـقي المشـهور بـابن قيـم الجوزيـة ، المتـوفي ٧٥١هــ ، ط/ مؤسســة الأندلـس للنشـر والتوزيـع ــ طليـم ــ مصـر . ١٤١٤هــ.

● المفـردات في غريـب القـرآن لأبي القاسـم الحسـن بـن محمـد المعـروف بـالراغب الأصفهـاني المتوفـى عـام ٥٠٢هـ بتحقيـق محمـد كيلانـي ، ط/ الحلـبي ١٣٨١هــ .

● منهـاج السـنة النبويـة لابـن تيمـة / تحقيـق ، د/ محمـد رشـاد سـالم ط/ جامعــة الإمـام محمـد بن سـعود الإسـلامية لعـام ١٤٠٦هـ .

● الموافقـات في أصـول الشـريعة ، لأبــي اسـحاق الشـاطبي ، ط/ دار الفكـر العربـي . تعليـق الشـيخ عبــد ا لله دراز .
● موطـأ الإمـام مـالك بـن أنـــس ـــ رحمـه ا لله ـــ تحقيـق محمـد فـؤاد عبـد البـاقي ، ط/ دار الحديـث.
● ميزان الاعتـدال في نقـد الرجـال لأبي عبـد ا لله محمـد بـن أحمـد بـن عثمـــان الذهـبي المتوفـى عـام ٧٤٨هـ تحقيـق علـي محمـد البجـاوي ، ط/ دار إحيـاء المعرفـة ، بيروت لبنـان .
● النبوات لشيخ الإسـلام أحمـد بـن عبـد الحليـم بـن تيميـة ط/ دار الكتـب العلميـة ١٤٠٢هـــ.
● النشـر في القـرآءات العشـر ، للحـافظ أبـي الخير محمـد بـن محمـد الدمشـقي الجـزري المتوفـى عـام ٨٣٣هـ ط/ الكتـب العلميـة ، بـيروت ، لبنـان .
● نقض المنطـق ١/٤-٩٠ ، ٩/٥-١٨ . وقـد طبعـت مسـتقلة .
● النهايـة في غريـب الحديـث ، للإمـام أبـي السـعادات المبـارك بـن محمـد الجـزري بـن الأثـير ، تحقيـق طـاهر الـزاوي ومحمـد الطنـاحي ، ط/ دار البـاز .
● النهـج السـديد في تخريـج أحـاديث تيسـير العزيـز الحميـد ، تـأليف أبـي سـليمان جاسـم الفهيـد الدوسـري ، ط/ دار الخلفـاء للكتـاب العربـي بـالكويت ، الطبعـة الأولى .
● الهـوى وأثـره في الخـلاف / محـاضرة للشـيخ عبـد ا لله بـن محمـد الغنيمـان ، ط/ دار الوطـن للنشـر والتوزيـع ، الريـاض ، ١٤١٢هـــ .
● الواسـطة بـين الحـق والخلـق ١/١٢١ـــ١٢٨ .
● الـوافي بالوفيـات ، لصـلاح الديـن بـن خليـل الصفـدي ، ط/ دار صـادر ١٣٨٩هـ بـيروت.
● الوصيـة الكـبرى ٣/٣٦٣-٤٣٠ . رسـالة الشـيخ إلى عـدي بـن مسـافر .

فهـــــــــــــرس الموضوعـــــــــــــات

الباب الأول : في توحيد العبادة ، وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الثاني : تحقيق التوحيد وفيه خمسة مباحث :

الباب الثاني : في بيانه للشرك المنافي لتوحيد العبادة

وفيـه تمهيـد وفصـلان :

البـاب الثـالث : حمايـة التوحيـد مـن وسـائل الشـرك

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
الجامعة الإسلامية
بالمدينة المنورة
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم العقيدة

جهود شيخ الإسلام ابن تيمية

في توضيح توحيد العبادة

إعداد
أحمد بن عبدالله الغنيمان
لنيل الدرجة العالمية العالية (الدكتوراه)

إشراف فضيلة الدكتور
غالب بن علي العواجي

١٤١٧هـ